آل بن لادن

وعالم النفط والمال والإرهاب

ستيف كول

آل بن لادن

وعالم النفط والمال والإرهاب

آل بن لادن
وعالم النفط والمال والإرهاب

ستيف كول

مؤلف كتاب «حروب الأشباح» الحاصل على جائزة بوليتزر

ترجمة
إيمان عبد الغني نجم

مراجعة
أحمد عبد العزيز الشيهي

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الفهرســة أثنــاء النشــر ـ إعــداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

كول، ستيف

آل بن لادن وعالم النفط والمال والإرهاب/ ستيف كول؛ ترجمة إيمان عبد الغني نجم؛ مراجعة أحمد عبد العزيز الشيهي.

٨٠٠ ص.

ببليوغرافية: ص ٧٩١ ـ ٨٠٠.

ISBN 978-614-431-068-7

١. السعودية ـ تاريخ. أ. نجم، إيمان عبد الغني (مترجم). ب. الشيهي، أحمد عبد العزيز (مراجع). ج. العنوان.

953.805

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

The Bin Ladens

Oil, Money, Terrorism and the Secret Saudi World

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ المكتب الرئيسي: رأس بيروت ـ المنارة ـ شارع نجيب العرداتي
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ **محمول:** ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail: info@arabiyanetwork.com

القاهرة ـ مكتبة: وسط البلد ـ ٢٢ شارع عبدالخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥ **محمول:** ٠٠٢٠١١٥٠٢٩٦٤٩٢
E-mail: info@arab-network.org

الدار البيضاء ـ مكتبة: ٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧ **محمول:** ٠٠٢١٢٦٦٤٣٢٣٠٤٠
E-mail: info-ma@arab-network.org

الرياض ـ مكتبة: حي الفلاح ـ شارع الأمير سعود بن محمد بن مقرن
جنوب جامعة الإمام، مقابل بوابة رقم ٣
هاتف: ٠٠٩٦٦٥٥٢١٦١١٦٦
E-mail: info-ksa@arabiyanetwork.com

نبذة عن المؤلف

ستيف كول هو مؤلف كتاب «حروب الأشباح» الذي حاز جائزة بوليتزر، وهو من أكثر الكتب مبيعًا في العالم، وقد فاز كذلك بالجائزة نفسها عام ١٩٩٠م عن فئة الصحافة التفسيرية، وفي الفترة بين ١٩٨٩م و١٩٩٢م عمل رئيسًا لمكتب صحيفة «واشنطن بوست» في جنوب آسيا، حيث كان يعالج قضايا أفغانستان، وبحلول عام ١٩٩٨م أصبح المراجع الإداري لصحيفة «واشنطن بوست»، وقد ألّف خمسة كتب، من بينها «على طريق غراند ترانك»، وكتاب «الاستحواذ على شركة «جيتي» للنفط»، وهو الآن يعيش مع زوجته وأولاده الثلاثة في ماريلاند، في الولايات المتحدة الأمريكية.

■ من مؤلفات ستيف كول أيضًا:

- «حروب الأشباح»
- «على طريق غراند ترانك»
- «نسر في الشارع» مع ديفيد إيه. فايز
- «الاستحواذ على شركة «جيتي» للنفط»
- «فقة القرن»

المحتويات

القسم الأول
المؤسسون
من عام ١٩٠٠م حتى سبتمبر/أيلول عام ١٩٦٧م

القسم الثاني
الأبناء والبنات
من سبتمبر/أيلول عام ١٩٦٧م
حتى مايو/أيار عام ١٩٨٨م

القسم الثالث
العائلة العالمية
من يونيو/حزيران عام ١٩٨٨م
حتى سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م

القسم الرابع
التركة
من سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م
حتى سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٧م

ملحوظة للمؤلف

تقدمت اثنتان من الصحافيات اللائي يعملن الآن في صحيفة **واشنطن بوست** بإسهاماتٍ مميزةٍ في إعداد الدراسة التي يضمّنها هذا الكتاب، أما الأولى، وتُدعى روبين شالمان، فقد أخذت على عاتقها مسؤولية إجراء المقابلات والتنقيب عن وثائق مهمة في مصر ولبنان وإسرائيل وإسبانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وكان لمثابرة روبين وتفهمها للظروف المحيطة وعنايتها بأدق التفاصيل أثر عظيم في تدعيم الكتاب دعمًا لا يُقارن، وما إن انتهيت من كتابة مسودة الكتاب الأولية، حتى عاودت الصحافية الثانية جولي تات الاتصال بمن أُجريت معهم المقابلات الشخصية لتضيف عمقًا أكبر للبحث، ثم أنعمت النظر في الحقائق والتأويلات المذكورة في البحث، فكان اهتمامها بالتفاصيل ودقتها المتناهية وولعها بمادة البحث وأخلاقيات عملها الرائعة من العوامل التي أحدثت فرقًا عظيمًا في البحث.

شجرة آل بن لادن

أنجب محمد بن لادن أربعةً وخمسين ابنًا

هم:
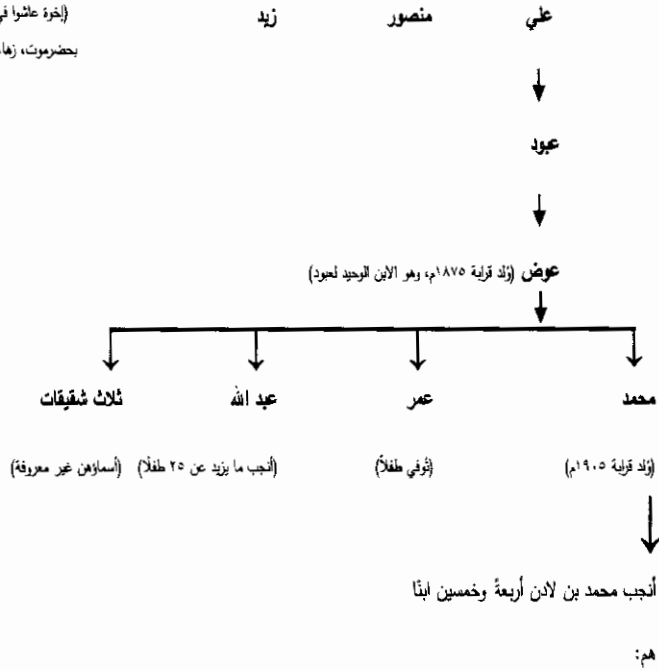
المولودون من منتصف أربعينيات القرن العشرين وحتى عام ١٩٥٠م:

الأبناء: سالم، علي، ثابت، محروس، حسن، عمر، بكر، خالد، يسلم، غالب، يحيى، عبد العزيز، عيسى، طارق

البنات: عائشة، فاطمة، شيخة، سعاد، طيبة، وفاء، نور

المولودون من عام ١٩٥١م حتى عام ١٩٥٩م:

الأبناء: أحمد، إبراهيم، شفيق، أسامة، خليل، صالح، حيدر

البنات: سلمى، زينات، رقية، راندا، زبيدة، نجية، سامية، منى، صالحة، مريم، فوزية، رجاء، هدى، سيمة

المولودون من عام ١٩٥٩م حتى عام ١٩٦٧م:

الأبناء: سعد، عبد الله، ياسر، محمد

البنات: رضا، إيمان، اعتدال، سحر، إلهام، سناء، ملك، منيرة

مقدمـة

«إلهنا إلهٌ واحد»
من أكتوبر/تشرين الأول ١٩٨٤م
حتى فبراير/شباط ١٩٨٥م

إعتادت لين بيغيني عزف البيانو في معظم الفترات الصباحية في فندق حياة ريجنسي غراند سايبرس في أورلاندو، فلوريدا. كانت حينذاك تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، فتاة سوداء الشعر، هيفاء القد، مفعمة بالحيوية. نشأت لين في ملبورن، على ضفاف المحيط الأطلنطي، ثم أتمت دراسة الموسيقى في جامعة سنترال فلوريدا ولطالما استهوى لين العزف على البيانو، فاعتمدت عليه لكسب قوت يومها وإن كان ذلك بشق الأنفس. وكانت فترة العمل الصباحية وقت الإفطار في الردهة الشاسعة بفندق «حياة» ذات طبيعة هادئة؛ حيث يجلس السائحون المرهقون الذين يُعدون أنفسهم لقضاء يوم ماتع في منتجع ديزني وورلد، ورجال الأعمال الذين يتحدثون بصوت خفيض عن سوق العقارات. وفي صباح أحد أيام شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٨٤م، جاء رجل في منتصف العمر برّاق العينين، له جُمّة من شعر أسود كثيف، تقدم تجاه لين، وطلب منها بلكنة غير مألوفة أن تعزف مقطوعة «إلى إليزا» لبتهوفن. استمع إلى عزفها بامتنان، ومنحها إكرامية تبلغ عشرين دولارًا، وسألها: «هل تعزفين في حفلات خاصة؟».

تبادلا بطاقات العمل، إنه يُدعى سالم بن لادن. أخبرها أن له منزلًا غرب مدينة أورلاندو مباشرةً، لا يبعد كثيرًا عن ديزني وورلد، وتصادف أنه

بصدد استضافة بعض الضيوف من المملكة العربية السعودية، مسقط رأسه، وكانوا ممن ينتمون إلى العائلة المالكة في هذا البلد الغني بالنفط. وكان سالم يحتفظ ببيانو في منزله، فرجاها أن تحضر لتعزف عليه في حفل مسائي. وبعد أيام قليلة قطعت لين طريق ستيت رود ٥٠ الذي يمتد غربًا عبر أميال من بساتين البرتقال تجاه مقاطعة لايك كاونتي. تبين أن منزل سالم، الواقع بالقرب من مدينة ونتر غاردن التي كانت تمثل محطة رئيسة في خطوط السكك الحديدية سابقًا، ليس مجرد منزل عادي بل هو ضيعة تبلغ مساحتها زهاء الخمسة فدادين، جدرانها صفراء مائلة إلى اللون البرتقالي، تضم إسطبلات للخيول، وحمام سباحة مبطنًا بالبلاط الخزفي، وأشجار صفصاف متهدلة الأغصان، ونخلات هنا وهناك. أما المنزل الرئيس الذي نراه يقع فوق رابية تطل على بحيرة رائعة الجمال، فقد شُيِّد في عشرينيات القرن العشرين على طراز عمارة البحر الأبيض المتوسط المتطورة، وكان سطحه بنيّ اللون مائلًا إلى الحمرة مكسوًّا بالبلاط الخزفي الإسباني، تعلوه قباب منيفة، وتتخلله ممرات مقوسة الأسقف مترامية الظلال، تقع على تلة تطل على بحيرة تشع بهاءً ونورًا.

عندما وصلت لين صاح سالم مناديًا: «لين! لين!»، ولوح بيده مشيرًا لها لتتجه نحو حجرة الطعام، حيث كان ضيوفه يتناولون إفطارهم في الرابعة عصرًا، وقال: «أقبلي واجلسي معنا»[١]. فأجلسها بجوار ضيف الشرف؛ عبد العزيز آل إبراهيم، وهو أخٌ للأميرة جوهرة آل إبراهيم، الزوجة الرابعة والمفضلة ـ على ما يُقال ـ للملك فهد. علا شأن آل إبراهيم بعدما قرر الملك فهد الزواج من الأميرة جوهرة؛ التي كانت قد انفصلت عن زوجها السابق، وبعدما تزوجت الملك أنجبت ابنًا يُدعى عبد العزيز، شغف به فهد أيما شغف. وقد منحت المكانة التي تمتعت بها الأميرة جوهرة عند الملك فرصًا ذهبية لإخوتها، فأصبحوا رجال أعمال ذوي نفوذ ممّا أفضى إلى أشعال نار الحقد ونشر القيل والقال في البلاط الملكي. ومؤخرًا بدأ هؤلاء الإخوة في الاستثمار العقاري في

(١) استنادًا إلى المقابلة التي أجريت مع لين بيغيني بتاريخ ٧ فبراير/ شباط ٢٠٠٦م. أما وصف الضيعة فقد جاء نتيجة لزيارة من المؤلف نفسه إلى جانب المقابلات التي أجراها مع مالك سابق للعقار وبعض الجيران واثنين من قدامى سكان مدينة ونتر غاردن.

أورلاندو[٢]. ومن هنا مدّ سالم بن لادن جسور الصداقة بينه وبين آل إبراهيم، لاعتماد شركة المقاولات التي تملكها عائلة سالم على البلاط الملكي لتحقيق أهدافها.

أخذت لين تثرثر بطلاقة، في حين كان إبراهيم يأكل بنهم، ولكن في صمت، فمال عليها سالم هامسًا: «ليس مسموحًا لكِ التحدث إليه مباشرةً». فاستحت والتزمت الصمت، وهي لا تدري أي ورطة أوقعت نفسها فيها.

بعد ذلك أخذها سالم إلى الخارج ليريها الأراضي الشاسعة المحيطة بالمنزل. كان سالم رجلًا ضئيل الحجم، في أواخر العقد الرابع من العمر، يبلغ طوله قرابة خمسة أقدام وسبع بوصات، وكان ممشوق القوام، ولكنه ليّن الأوصال لخوضه حياةً لا تكتظ بالعمل الشاق. كان يدخن بشراهة خلّفت هالات سوداء منتفخة أسفل عينيه، بيد أنه كان يشع طاقةً مغناطيسية جذابة بدت ـ إلى جانب أمواله ـ كالسحر الذي يأسر ألباب من حوله على الفور ويبقيهم طوع إرادته. كان سالم طيارًا ماهرًا يحب الحديث عن الطيران، كما أخذ يحكي عن أن أحد إخوته قد أُصيب مؤخرًا في حادثة بالقرب من البحيرة. بدا مولعًا بالحديث، دائم الحركة، إلا أنه كان لطيف المعشر ويبعث على الثقة، وشيئًا فشيئًا استوعبت لين في عصر ذلك اليوم أنها دُعيت إلى حفل عالمي متجدد ليس له بداية أو نهاية، يتزعمه سالم، وفي النهاية أخبرها سالم أنه سوف يغادر عما قريب على متن طائرته النفاثة الخاصة قاصدًا كاليفورنيا؛ إذ إن لديه اجتماعًا هناك ـ كما زعم ـ بخصوص مشروع فيلم مرتقب يضم في فريق العمل الممثلة بروك شيلدز[٣].

بحلول المساء بدأت الضيعة تكتظ بالمدعوين، ولا سيما رجالًا سعوديين بدوا وكأنهم قد جاؤوا لقضاء عطلتهم، كما كانت هناك أيضًا عدة سيدات أمريكيات في منتصف أعمارهنّ، وكنّ صديقات لسالم، أو في ما

(٢) لمزيد من المعلومات عن آل إبراهيم وتأثيرهم في مجلس الملك فهد إلى جانب استثمارتهم في أورنالدو راجع: Jeffrey L. Rabin and William C. Rempel, «Saudis Secretly Bought Stake in Marina Leases,» *Los Angeles Times*, November 12,1989. Also, Michael Field, «Financial Times Survey: Saudi Arabia,» p. vi, April 22, 1985.

(٣) استنادًا إلى المقابلة التي أجريت مع بيغيني في نفس المرجع السابق. قال المتحدث عن الممثلة شيلدز إنها لا تتذكر أي شيء عن مثل هذا المشروع.

يبدو يرتبطن معه بعلاقات عمل. وجدت لين بيانو من طراز ياماها في أحد جوانب غرفة المعيشة، فطفقت تعزف عليه. وفي نهاية الحفل طلب منها سالم العودة في اليوم التالي فالحفل لا يزال قائمًا، وألح عليها قائلًا: «أحضري أخواتك وأحضري صديقاتك! إننا في حاجة إلى فتيات!».

وبالفعل حضرت لين مع صديقة لها، واثنتين من أخواتها، وعندئذ لاحظت وجود فرقة موسيقية في غرفة المعيشة. وعلى وقع دقات الطبول قرر سالم تنظيم سباق للمواهب، ورصد خمسة آلاف دولار نقدًا لمن يفوز بالمركز الأول أيًا كان، ونصب نفسه حكمًا وحيدًا في تلك المسابقة. عزفت إحدى السيدات الأمريكيات على البيانو وغنت، وتناوب عددٌ من الحضور على الآلات الموسيقية، حتى حان دور لين لتعزف على بيانو الياماها، أما صديقة لين فلم تكن تتمتع بأية موهبة موسيقية؛ لذا قررت، بدلًا من العزف، أن تقص لجمهورها السعودي تجاربها الأخيرة عن الولادة والطلاق.

لم يكن الإفصاح عن مكنون النفس في ما يتعلق بألم المرأة ومعجزة الحياة من الأمور التي تتردد كثيرًا في جلسات السمر بين الرجال في القصور السعودية أو حتى في منازل التجار، لذا خيِّل للين أن السكون الذي تبع تقديم فقرة صديقتها سكون غريب نوعًا ما.

قال سالم للين بعدها: «لقد آلمني ما قالت». لقد أعجب بصديقتها، حسبما قال، وشعر بالتعاطف معها لظروف طلاقها، وأخرج نحو ألف دولار نقدًا من جيبه وأعطاها للين قائلًا: «أرجو أن تعطيها هذا المبلغ».

في لحظة ما، جذبت لَين جانبًا إحدى السيدات الأمريكيات اللاتي بَدَوْنَ يعملن مع سالم في أورلاندو، وقالت لها: «أتعلمين؟ سالم معجبٌ بك إعجابًا شديدًا». فردت لين متعجبة: «أتقصدين أنه يحبني؟!».

ما زالت تلك الكلمات تدوي في أذنَيْ لين بيغيني بعد سنوات: «قالت ـ ولن أنسى ذلك مطلقًا ـ قالت: «يا لها من فرصة عظيمة لكِ يا لين؛ فأنت شابة ولست مرتبطة. . . أتعرفين، هذا الرجل سيُريك أماكن جديدة ويأخذك إلى مواطن مختلفة، ولو كنت مكانك، ما أضعت الفرصة من بين يدي»[٤].

---

(٤) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أُجريت مع بيغيني في المصدر السابق نفسه.

كان سالم بن لادن أحد العملاء المفضلين لشركة ألامو ـ آرو «Alamo-Arrow»، وهي شركة بيع بالتجزئة للطائرات الرياضية شديدة الخفة خارج سان أنطونيو، تكساس. وكان سالم قد فاجأ منفذ بيع الشركة بزيارة في مساء يوم جمعة في الكريسماس السابق، واشترى كثيرًا من البضائع الموجودة فيه ـ من طائرات وإكسسوارات ـ وطلب أن تُسلم جميعها في المطار، وأن تُحمّل على طائرته النفاثة الخاصة BAC-III ثنائية المحرك. وبعد مضي عدة أسابيع عاد ليشتري مزيدًا من تلك الطائرات، وكان من بينها نموذج أصلي لطائرة حربية مموهة كانت مجهزة سابقًا لإطلاق الصواريخ. وعلى الرغم من إزالة التجهيزات القتالية من على متن الطائرة، فإن أحد أعضاء فريق المبيعات ـ ويُدعى جورج هارينغتون ـ ذكر «أن سالمًا ظن أن ذلك شيء رائع».

ومن المعروف أن الطائرات شديدة الخفة هي طائرات صغيرة مكشوفة للهواة، تُحلق في أحيان كثيرة على ارتفاع بضع مئات من الأقدام، بسرعات تقارب الأربعين ميلًا في الساعة، ولها محرك واحد يقترب حجمه من حجم محرك الدراجة البخارية. عشق سالم هذه الطائرات، إلى جانب ولعه بالطائرات الشراعية، التي تمنحه الإحساس بالطيران كالصقر الذي يسبح في الهواء بحرّية تتقاذفه الرياح. كانت هذه الطائرات محظورة في المملكة العربية السعودية لدواعٍ أمنية، ولذا عكف سالم على تخزين الطائرات في الحظائر المتعددة التي يملكها خارج المملكة.

وفي أثناء الأشهر الأخيرة لعام ١٩٨٤م جمّع سالم الموديلات الأحدث التي يُطلق عليها (Quicksilvers)، لأنه كان يعد نفسه في بداية العام للقيام برحلة صيد ملكية سعودية مثيرة إلى باكستان، كان يريدها مزيجًا من حكايات «ألف ليلة وليلة» وكرتون كاتب أدب الأطفال الشهير دكتور سيوس. ولذلك أحاط سالم مديري شركة آلامو ـ آرو علمًا بأنه هو وضيوفه السعوديون، أمراء العائلة المالكة، سيخيمون في الصحراء ويصطادون بالصقور بالطريقة التقليدية، وسيأخذون معهم كذلك أجسامًا ودمى طائرة يمكن التحكم بها عن بُعد. وسأل سالم جورج هارينغتون وزملاءه أن يشتروا له عربة مقطورة من شركة ويلز كارجو، على أن يكون طولها عشرين قدمًا، وطلب إليهم أن يعدوها بحيث تنقل الطائرات خفيفة الوزن بأمان عبر طرق

باكستان الوعرة الصحراوية. وكان أحد أبطال قيادة المناطيد في فلوريدا قد عرض على سالم أن يشتري منه منطادًا يعمل بالهواء الساخن، فجاء المنطاد وقد عَلَتْه لوحة كتب عليها: «صُنع خصيصًا لسالم بن لادن». واشترى أيضًا دراجة بخارية طراز هوندا موديل (Mini Trail)، وشاحنة خفيفة حمراء موديل (Chevy Blazer) مناسبة للسفر عبر الصحراء، ومزودة بأضواء أمامية بعيدة المدى وإطارات ضخمة. وركب جهازًا لاسلكيًّا عالي التردد في الشاحنة حتى يستطيع الاتصال بأقرب مدينة باكستانية إذا ضل الطريق أو علق في رمال الصحراء. ومن ألمانيا اشترى سالم عربة تخييم رباعية الدفع مكيفة الهواء من شركة فولكس فاجن، تشتمل على حمام ومطبخ صغيرين، وجهزها بكل «المعدات التي استطاع الحصول عليها»، حسبما يتذكر هارينغتون. ثم سحبوا هذه المعدات الأمريكية إلى كارولينا الجنوبية، حيث كانت عائلة بن لادن تتعامل مع شركة شحن وتصدير استطاعت شحن تلك البضائع إلى الإمارات العربية المتحدة المطلة على الخليج العربي، ومنها إلى مدينة كراتشي الساحلية الباكستانية[٥].

أراد سالم أن يصطحب معه موسيقيين في حاشيته، ولأن هارينغتون كان يعزف على الغيتار، اتخذ سالم الترتيبات اللازمة لمرافقتهم في رحلة باكستان، حيث يمكنه إلى جوار العزف أن يشرف على رحلات الضيوف من العائلة المالكة على متن الطائرات الخفيفة. وقبل الكريسماس بأيام قليلة، وجد هارينغتون نفسه ـ الودود قوي البنية الأمريكي الجنسية من تكساس الذي لم يسافر مطلقًا إلى الخارج ـ مسافرًا على متن طائرة نفاثة إلى لندن بصحبة طيار أمريكي، اسمه دون كيسلر، كان يعمل لدى سالم ويعزف أيضًا على آلة الدرامز.

في مستهل الأمر توقفوا جميعًا عند ضيعة سالم التي تقع في أطراف لندن، وفي عشية الكريسماس استقلوا الطائرة إلى جنوب فرنسا، ومنها

---

(٥) كل الاقتباسات مأخوذة من مقابلة أجريت مع جورج هارينغتون بتاريخ ٢٣ فبراير/ شباط ٢٠٠٦م، إلى جانب المقابلة التي أُجريت مع توماس ديتريتش بتاريخ ١٢ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م والمقابلة التي أُجريت مع بيتر بلوم بتاريخ ٥ مايو/ أيار ٢٠٠٦م والمقابلة التي أجريت مع بنغت يوهانسون بتاريخ ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٦م؛ وكل الأشخاص السابقين اشتركوا في تجهيزات رحلة أفغانستان.

إلى سالزبورغ بالنمسا. وفور إنزال أمتعتهم توجهوا بالسيارات إلى منتجع التزلج في كيتزبوهل. ولم تكن معهم بالطبع أي معدات تزلج، إذ إن قرار السفر إلى النمسا لم يُتخذ إلا منذ ساعات قليلة. ولذا اصطحب سالم المجموعة إلى أحد المتاجر، واشترى لكل فرد أداة تزلج وحذاءً طويل الرقبة وسترة ثقيلة وسروالًا، وبعدما تزلجوا على الجليد وافقوا على الدعوة الموجهة إليهم لحضور حفل في الفيلا الخاصة بعدنان خاشقجي؛ تاجر السلاح السعودي الشهير.

اشتمل منزل خاشقجي على قاعة رقص فيها مسرح، وكانت القاعة في تلك الليلة صاخبةً وخافتة الإضاءة وتعج بالسعوديين والأوروبيين. والتقط سالم الميكروفون وأعلن عزمه تقديم فقرة فنية، وأخذ هو وجورج هارينغتون غيتارين أوتارهما من الصلب، وصعدا إلى المسرح، وبدآ بعزف المقطوعة الكلاسيكية التقليدية التي تُعزف في الحانات: «منزل الشمس المشرقة»:

ثمة منزلٌ في نيو أورليانز

يسمونه «الشمس المشرقة»

دمّر حياة أكثر من صبي بائس

يا إلهي! أعرف أنني واحد منهم...

قال هارينغتون عن سالم: «لم يكن عازف غيتار جيدًا ولا مطربًا جيدًا، لكن لا أحد يمكن أن يحرجه على الإطلاق، لذا عزفنا هذه الليلة لمنزل مكتظ بالناس»(٦).

كانت المحطة التالية للطيران ماربيا، في إسبانيا، ومنها إلى القاهرة لحضور عشية رأس السنة، ثم توقفوا قليلًا في جدة، بالسعودية، ومنها إلى دبي.

في فندق حياة قابل هارينغتون لين بيغيني؛ صديقة سالم الجديدة من أورلاندو، وأصبحا صديقين على الفور، فهما أمريكيان وجدا نفسيهما في

---

(٦) من المقابلة التي أجريت مع هارينغتون في نفس المرجع السابق.

مغامرة غير متوقعة، وأصبحا يتنقلان سريعًا من بلد إلى آخر، ولم يكونا معتادين على الأجواء المحيطة. وكانت لين قد سافرت على متن الطائرة من نيويورك للحاق برحلتهم المتجهة إلى باكستان. (وقد ذكرت في ما بعد: «كلما أفكر في هذه الأحداث أندهش لما فعلته وأنا في الرابعة والعشرين من عمري.») وفي ما يتعلق بمقر إقامتها، كان سالم قد خصص لها جناحًا في أحد الفنادق وفيه بيانو كبير، وكان هو وهارينغتون يستمتعان بعزفها موسيقى شوبان.

بعد ذلك بأيام قليلة اصطحب سالم كلًّا من لين وجورج على متن طائرته الميتسوبيشي طراز (MU-2)، ذات المحرك التوربيني المروحي التي تطير لمسافات قريبة. وكان على متن الطائرة مساعد بدوي طاعن في السن يصطحب صقر صيد ملثّم، في حين كان جورج بيده حقيبة تضم بين طياتها ما لا يقل عن مئتين وخمسين ألف دولار نقدًا، إلى جانب شيكات سياحية. فقد علم جورج أن من بين المهام الموكلة إليه الاضطلاع بحسابات أموال السفر الخاصة بسالم. وكان معهم أيضًا بنغت يوهانسون، ميكانيكي الرحلة السويدي الجنسية، ذو الشعر الأشعث، الذي ما يلبث أن تنطفئ سيجارته حتى يشعل الأخرى، وهو أحد أقدم أفراد حاشية سالم الأوروبيين في الخدمة. أقلعت الطائرة من المدرج محدثةً ضوضاء عالية، قاصدةً كراتشي. وتذكرت لين هذه اللحظات قائلةً: «كانت حمولة الطائرة ثقيلة جدًّا، وعندما أقلعت هلل الجميع ـ ومنهم أنا ـ بصعود الطائرة في الهواء، وكان لسان حالي يقول: «لِم تخاطرون بأنفسكم جميعًا؟!»[٧].

وفي كراتشي قابل سالم دبلوماسيًّا سعوديًّا، فكثيرًا ما كان يزور سفراء بلده على نحو غير رسمي عندما يسافر في أنحاء العالم. وحجزت حاشيته في فندق شيراتون، وهو مبنى ضخم تتكون واجهته من الخرسانة والزجاج، ويعد أفضل فنادق المدينة.

---

(٧) من المقابلة التي أُجريت مع بيغيني في نفس المرجع السابق والتي ذكرت أن الحمولة كانت تشتمل على حقيبة بها ما لا يقل عن ٢٥٠,٠٠٠ دولار، وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع هارينغتون في نفس المرجع السابق.

ولدى وصوله إلى مرفأ كراتشي اكتشف سالم أن الجيش الباكستاني لن يسمح بتحليق الطائرات الخفيفة ولا المناطيد في الأجواء الباكستانية؛ إذ إن الحدود الشرقية للبلد تشهد مواجهة وحالة تأهب قصوى بين الجيشين الباكستاني والهندي، ونحو الغرب انخرط البلد في حرب عصابات سرية في أفغانستان ضدّ القوات السوفياتية التي كانت تشن هجمات داخل باكستان بين الحين والآخر. وبدا الأمراء السعوديون الذين يحلقون بالطائرات الصغيرة والمناطيد التي يصعب التحكم فيها، في أعين ضباط الجيش، كإنذار بحدوث كارثة ما. جادلهم سالم وغضب غضبًا عارمًا وحاول أن يستغل نفوذه، لكن السلطات الباكستانية ظلت على موقفها، وأخبرته بأن يعيد تلك الطائرات الصغيرة التي تستخدم بهدف اللهو إلى دبي مرة أخرى.

في غمرة هذه الأحداث التي تبعث على الشعور بالإحباط، اجتمع سالم بجورج هارينغتون وبنغت يوهانسون في صباح أحد الأيام، وأعلن أنهم جميعًا سوف يسافرون جوًّا على متن الطائرة الميتسوبيشي إلى بيشاور؛ المدينة الباكستانية التي دارت عليها رَحى حرب أفغانستان. وفي بداية الأمر أوضح لهم سالم أنه سيقوم بهذه الرحلة لأداء مهمة فحسب، ولكن تبيّن في ما بعد أن هذه المهمة تضمنت لقاءً مع أخيه غير الشقيق؛ أسامة.

يذكر هارينغتون: «قلت له: «لماذا بيشاور؟»»، ثم استطرد: «أوضح لنا سالم أن بيشاور هي قاعدة المجاهدين... لم أسمع قط عن بيشاور، ولم تكن الأمور السياسية العالمية من بين اهتماماتي. قال سالم إن أسامة هناك، وإنه همزة الوصل بين الولايات المتحدة الأمريكية والحكومة السعودية، والمجاهدين الأفغان». وكما يتذكر هارينغتون أراد سالم أن يتأكد من أن أسامة يحصل على ما يحتاج إليه. وكانت الحكومة السعودية في تلك الآونة تمدّ أسامة بما يحتاجه، وقال سالم إنه بصدد التوجه إلى هناك كي يتفقد الأمور مع أخيه ليتأكد أن... كل شيء على ما يُرام».

سافر الثلاثة جوًّا بعد الظهيرة في اليوم نفسه، وهبطت الطائرة على قطعة أرض موحلة وطويلة وضيقة، ولم يستطع هارينغتون التمييز بين ما إذا

كان طريقًا أم مهبط طائرات. خرج أسامة وبعض مساعديه لتحيتهم. «وأتذكر مدى دهشتي لكونه أطول من سالم بكثير»[٨].

كان أسامة وقتئذٍ في قرابة السابعة والعشرين من عمره، وبالإضافة إلى طوله الفارع، خلّفت لحيته السوداء الكثيفة انطباعًا مميزًا، إنها منسدلة أسفل وجنتيه ومتجمعة أسفل ذقنه، حتى إنها أطالت وجهه النحيف. كانت عيناه البنيتان براقتين صريحتين، في حين اتسمت تصرفاته بالتحفظ. كان أسامة يزور باكستان بصفة منتظمة منطلقًا من مسقط رأسه في جدة، في المملكة العربية السعودية، لكنه لم يستقر في مواجهة العدو في ميدان القتال، ذلك أنه كان يعمل كمرسال خير، بفضل تشجيع شيوخه على تمويل المؤسسات الخيرية والمتطوّعين العرب، الذين شرعوا حينها في الوصول من أجل اللحاق بركاب القتال.

قدّم سالم صاحبيه الأمريكي والسويدي إلى أخيه تقديمًا رسميًّا. وكان أسامة حينها يرتدي عباءة وعمامة أفغانية مسطحة، لقد كان متحفظًا في التعامل مع الأجانب، لكنه صافح يوهانسون على نحو ينم عن احترام بالغ. وقد علم يوهانسون بعد سنوات أن جميع إخوة سالم الأصغر سنًّا كانوا يعاملون أخاهم الأكبر باحترام شديد، وأن هذا الاحترام امتد بالتالي إلى أصدقاء سالم، بغض الطرف عن مظهرهم غير اللائق في أعين السعوديين[٩].

انتقل الركب بعدئذ إلى مكتب أسامة، حيث جلسوا في حلقة مستديرة، وتحدث الأخوان غير الشقيقين أحدهما إلى الآخر باللغة العربية لقرابة ساعتين. وبعد ذلك قُدم غداءٌ متواضع للمجموعة. وكان معهودًا عند سالم أن يحضر أصدقاءه الغربيين إلى الأماكن التي ربما لا يُرحب بهم فيها، ولكن لم يستفسر أحد صراحةً عن وجودهم. وفي كل الأحوال لم يكن هارينغتون ويوهانسون سيفهمان كثيرًا ممّا يُقال.

بعد الغداء اصطحبهم أسامة في جولة إلى مواقع العمل الخيري

(٨) من المقابلة التي أُجريت مع هارينغتون في نفس المرجع السابق.

(٩) من المقابلة التي أُجريت مع يوهانسون في نفس المرجع السابق.

الإنساني الذي يقوم عليه في منطقة بيشاور لمساعدة المجاهدين الأفغان. وزاروا معسكرات اللاجئين التي يقيم فيها المدنيون والمجاهدون الأفغان الذين أُجبروا على الرحيل من محال إقامتهم ـ بسبب القصف السوفياتي ـ إلى مخيمات وملاجئ بدائية. وزاروا مستشفى «به أناسٌ مبتورو الأطراف»، واندهش هارينغتون بسماع روايات عن المجازر الوحشية الفظيعة التي ارتكبها السوفيات، وبرغبة المجاهدين المصابين «في العودة والقتال من أجل أفغانستان» على الرغم من كل ما أصابهم. وزاروا دار أيتام حيث ـ حسبما يتذكر يوهانسون ـ يعيش الأطفال في «مبانٍ صغيرة. . . مبنية بالخرسانة، وينامون على الأرض». تجمع الأطفال معًا وأنشدوا أناشيد ترحيبًا بزوار أسامة(١٠).

صوّر سالم هذه المشاهد بكاميرا فيديو شخصية أحضرها معه، وكانت كبيرة وصعبة الاستخدام، تُحمل باليد. وبدا الأمر كأنه كان يصور فيلمًا منزليًا للإعلان عن نشاط أسامة وجمع التبرعات المالية. ويتذكر هارينغتون: «كانت مهمة لكشف النقاب عن الحقيقة، وكان وجود الكاميرا مقصودًا لتصوير ما يحدث، ولم يكن للشأن العسكري علاقةٌ بوجودها. . . إلا أن الهدف الأساسي كان يكمن في جمع التبرعات».

وبعد بعض المغامرات الإضافية في باكستان، عادت حاشية سالم جوًّا إلى دبي، وأعلن سالم اضطراره إلى السفر في رحلة عمل غير متوقعة سيغيب فيها قرابة أسبوع.

اصطحب بطل المنطاد الأمريكي ـ الذي كان من حاشية سالم ـ كلًّا من جورج ولين في رحلة للتحليق فوق كثبان الرمال الإماراتية. وعصفت بهم نسائم الخليج والرياح الصحراوية مصادفةً فوق قصرٍ لأحد الأمراء في المنطقة. صوّب حراس الأمير ـ وشرر الغضب يتطاير من أعينهم ـ أسلحتهم الأوتوماتيكية نحو المنطاد المنتفخ ذي اللونين الأحمر والأصفر. «هذه هي النهاية!» يُعقب هارينغتون متذكرًا ما حدث وهو شارد الفكر، كان سيلقى

(١٠) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلات التي أُجريت مع هارينغتون ويوهانسون في نفس المرجع السابق.

حتفه ويصبح مجرد «بقعة دم على الأرض المغطاة بالحشائش في قصر الحاكم». ولحسن الحظ لم يطلق الحراس النيران عليهم[١١].

انقطعت أخبار سالم عنهم لفترة، لكنّ هارينغتون كان يعلم وجهته مسبقًا لأن سالمًا أخبره بمقصده؛ واشنطن العاصمة.

كان الملك فهد ملك المملكة العربية السعودية يستعد في أوائل شتاء عام ١٩٨٥م لعقد لقاء قمة وعشاء ملكي مع الرئيس رونالد ريغان. وحسبما يتذكر هارينغتون: «لسبب أو لآخر، أراد الملك من سالم التوجه» إلى واشنطن. لذا سافر سالم على الفور جوًّا، مغيرًا مسار رحلته كما جرت العادة. وكما ذكر صديق سالم السعودي الثري، المدعو محمد عشماوي، المسؤول التنفيذي في مجال النفط: «كان سالم معتادًا الذهاب إلى الملك وزيارته أينما كان»[١٢].

هيمنت السرية والتعقيد على العلاقة بين الملك فهد ورونالد ريغان. وفي شتاء عام ١٩٨٥م، ربما كانت الحكومة السعودية هي أكثر حكومات العالم ـ باستثناء الحكومة البريطانية ـ اشتراكًا مع إدارة ريغان في صفقات غاية في السرية والحساسية. فلم يطلع الشعب الأمريكي مثلًا على تصديق ريغان على المساعي المبذولة لتحرير الرهائن الأمريكيين المحتجزين في لبنان عن طريق بيع الأسلحة إلى رعايا المختطفين في إيران، وكان عدنان خاشقجي ـ الذي كان مقربًا من العائلة الملكية السعودية ـ متورطًا بشدة في هذه الصفقات السرية. بالإضافة إلى ذلك، في شهر يونيو/حزيران السابق لهذا التاريخ، وبناءً على التماس مقدم من مستشار ريغان لشؤون الأمن القومي روبرت ماكفرلين، أصدر الملك فهد موافقةً سرية على تحويل مليون دولار شهريًّا إلى حساب مصرفي ببنك في جزر كايمان دعمًا لثوار نيكاراغوا المناهضين للشيوعية، والمعروفين باسم (الكونتراس)، وقد مكّنت هذه المساهمة الرئيس ريغان من الهروب من القيود التي يفرضها الكونغرس على مثل هذه المساعدات. ولم يكن

(١١) من المقابلة التي أُجريت مع هارينغتون في نفس المرجع السابق.

(١٢) من نفس المصدر السابق. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع محمد عشماوي بتاريخ ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٥م.

للمملكة العربية السعودية أي اهتمام بقضية نيكاراغوا، طبقًا لما رواه السيد بندر بن سلطان الذي ظلّ سفيرًا للمملكة في واشنطن وقتًا طويلاً، والذي قال في ما بعد: «لم أهتم قط بثوار الكونتراس، حتى إنني لم أكن أعرف أين تقع نيكاراغوا على الخريطة». على النقيض من ذلك، يشير السيد بندر أن ماكفرلين زعم أن تلك المساعدات سوف تضمن إعادة انتخاب ريغان في نوفمبر/تشرين الثاني عن طريق منع وقوع اضطرابات وأعمال عنف في أمريكا الوسطى، فالأموال التي أسهم بها السعوديون ساعدت ريغان في الفوز بأغلبية ساحقة[(١٣)].

وفي بداية عام ١٩٨٥م أخطر الملك فهد الأمريكيين بأنه سوف يضاعف إسهاماته السرية في ذلك الحساب المصرفي بجزر كايمان. وفي فترة الحرب الباردة الأخيرة حدث تبادل لكثير من المصالح بين الحكومتين، الأمر الذي جعل الأسرار تتراكم في ملف العلاقات الأمريكية السعودية، وهو نمط سلوكي يتطلب أعلى مستويات الثقة الشخصية والفهم المتبادل وغير المسبوق على صعيد العلاقات الدولية. ومن ثَم كانت زيارة الملك فهد إلى واشنطن ذات أهمية زمنية بارزة. وكان ريغان ضليعًا في الجوانب المسرحية والرسمية لمنصبه، وبدا كأنه يستعد لأن يقدم أحد العروض.

وفي ليلة الحادي عشر من شهر فبراير/شباط قارسة البرودة، وفي ردهة البيت الأبيض، كان في استقبال الملك فهد مجموعة من مشاهير المجتمع الأمريكي مثل يوجي بيرا مدير فريق نيويورك يانكيز، وجورج بوش نائب الرئيس ريغان، وليندا غراي نجمة المسلسل التلفزيوني «دالاس»

---

(١٣) لمزيد من المعلومات عن تواريخ وكميات المساعدات السعودية إلى ثوار الكونتراس راجع: Brinkley and Engelberg (eds.), *Report of the Congressional Committees Investigating the Iran-Contra Affair*, pp. 49-57. Also, Bob Woodward, *Veil*, pp. 352-353 and 401.

وراجع أيضًا: Simpson, *The Prince*, pp. 118-119.

ولمزيد من المعلومات على أن ماكفرلين قال إن المساعدات ستضمن إعادة انتخاب ريغان راجع: *The Prince*, pp. 113-14.

أكد ماكفرلين بعد ذلك في شهادته أمام الكونغرس أن السعوديين تطوعوا بدفع تلك الإسهامات المالية، وهو ادعاء نفاه بندر.

الذي يدور حول أقطاب النفط، وأوسكار وايت من أقطاب النفط الأصليين من تكساس، والممثلة سيغورني ويفر، ودونالد ترامب وزوجته إيفانا. «يا له من استقبال رائع، تلك هي أمريكا، وهذا هو رونالد ريغان»، كان هذا هو التعليق الساخر للممثل الكوميدي جو بيسكوبو في البرنامج التلفزيوني «ساترداي نايت لايف»، الذي كان أيضًا على قائمة ضيوف العشاء الملكي، والذي استطرد قائلًا: «أظن أن الملك السعودي جاء إلى هنا ليعرف كيف يعيش الملك الحقيقي»(١٤).

جرى العرف في المملكة على ألا يصحب أفراد الأسرة المالكة السعوديون زوجاتهم في المهمات الرسمية، ولذا اصطحب الملك ابنه عبد العزيز من الأميرة جوهرة آل إبراهيم ذا الأحد عشر عامًا. ووصلا إلى البيت الأبيض وهما يرتديان عباءتين سعوديتين تقليديتين، وشماغين أحمرين مزخرفين بنقوش مربعة. وكان الملك فهد في بداية الستينيات من عمره وقد أصبح رجلًا سمينًا تكاد ساقاه لا تحملانه، لكنّ سمات الشباب والنبل لم تغادر وجهه ذا الترهلات المتدلية أسفل ذقنه. وإذا ما سلطنا الضوء على علاقة الأب بابنه في المملكة، نجد أن فهدًا أحب عبد العزيز حبًّا جمًّا، الذي يبدو أنه آخر أبنائه، حتى إنه أنفق أموالًا طائلة لتجهيز غرفة للصبي داخل كل قصر من قصوره الفاخرة بحيث تكون مجهزة بالألعاب نفسها وورق الحائط نفسه والفُرش الحريرية نفسها، لئلا يشعر الصبي مطلقًا أنه بعيد عن منزله. تمتع الصبي بتدليل ريغان أيضًا، والتُقطت له صورة فوتوغرافية بجانبه، ورافقه في جولة خاصة إلى المكتب البيضاوي، وقدم له نموذجًا للمكوك الفضائي «سبيس شاتل» كهدية، وأجلسه بجوار سيغورني ويفر على طاولة العشاء الملكي. وأسر عبد العزيز للممثلة سيغورني أنه يتمنى زيارة منتجع ديزني وورلد عندما ينهي والده مهمته في واشنطن(١٥).

---

(١٤) لمزيد من المعلومات عن قائمة الضيوف والممثل بيسكوبو راجع المقابلة التي نشرتها صحيفة **واشنطن بوست** *Washington Post* بتاريخ ١٢ فبراير/شباط ١٩٨٥م لكل من إليزابيث كاستور ودوني رادكليف. وراجع أيضًا المكتبة الرئاسية للرئيس رونالد ريغان وصورة البيت الأبيض في سجلات التواصل برقم C27237-C27257.

(١٥) راجع نفس المصدر السابق. أما عن تزيين فهد لغرف الصبي في جميع القصور بحيث تبدو متطابقة فكان استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع اثنين من الشركاء السابقين لبن لادن اللذين عملا في مشروعات القصور.

من الصعوبة بمكان تحديد نشاط سالم بن لادن في واشنطن في فترة انعقاد تلك القمة، وفيما بعد، أشار تقرير صدر عن المخابرات الفرنسية أن سالمًا اشترك في «عمليات أمريكية» في أمريكا الوسطى في أثناء هذه الفترة. ولم تسمح الحكومة الأمريكية بكثير من السجلات الخاصة بالمساعدات السرية السعودية إلى المعارضين في نيكاراغوا، ولم يرد بالسجلات المتوفرة أي دليل على اشتراك سالم في مثل تلك الأنشطة. (وشأنه شأن السفير السعودي بندر بن سلطان، «لم يكن لدى سالم أي فكرة عن موقع نيكاراغوا»، طبقًا لما رواه صديق أوروبي عمل معه في صفقات تجارة السلاح في أجزاء أخرى من العالم)، وتذكر أحد المحامين ـ الذي مثّل آل بن لادن في قضية مدنية في تكساس بعد ذلك ببضع سنوات ـ أنه كان يمتلك صورة فوتوغرافية لسالم وهو يقف إلى جانب رونالد ريغان، لكنّ ملف الإثبات هذا فُقد في أثناء عملية تنظيف روتينية لمكتبه، كما إن الصور الفوتوغرافية التي التقطها موظفو البيت الأبيض في أثناء قمة فهد لم تشتمل على أي أثر لسالم. وكان سالم هو الأخ الأكبر لإخوته الأربعة والخمسين، وهو كبير عائلة بن لادن المنتشرة في كل مكان، ورئيس مجالس إدارة كبريات الشركات الكثيرة متعددة الجنسيات، إلى جانب أنه صديق مقرب للملك فهد، إلا أنه في نهاية الأمر لا يعدو كونه أحد التابعين للملك؛ فقد يُستدعى إلى واشنطن لتنظيم أمر ليلة واحدة للملك وقد لا يتم استدعاؤه[١٦].

مع ذلك، كان هناك ملف مليء بالأسرار التي تربط بين الملك فهد والرئيس ريغان هذا الشتاء، وكان سالم بن لادن جزءًا لا يتجزأ من هذا الملف لا محالة، وهذا في ما يتعلق بالمساعدات السرية التي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية إلى المجاهدين

---

(١٦) نشر برنامج التحقيقات «فرونت لاين» (Frontline) في محطة الإذاعة المحلية تقريرًا للمخابرات الفرنسية، ويمكن الولوج إليه من خلال موقعها الإلكتروني. ويحتوي التقرير على معلومات متنوعة عن آل بن لادن بيد أن القليل منها يمكن وصفها بأنها دقيقة. وراجع أيضًا المقابلة التي أُجريت مع ديتريتش في نفس المرجع السابق. أما عن المحامي الذي ذكر الصورة التي يظهر فيها كلّ من سالم وريغان، راجع المقابلات التي أُجريت مع تشارلز شوارتز بتاريخ ١٢ مايو/ أيار ٢٠٠٥م وبتاريخ ٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م.

المناهضين للقوات السوفياتية في أفغانستان. وقد أرسلت كل من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية بالفعل مئات الملايين من الدولارات نقدًا وفي صورة أسلحة، إلى المجاهدين الأفغان منذ الغزو السوفياتي عام ١٩٧٩م. ويبدو أن سالمًا ـ عندما وصل إلى واشنطن ذاك الشتاء ـ قد سلم شريط الفيديو الذي كان قد سجله لتوثيق الأعمال الإنسانية لأسامة على الحدود الأفغانية للملك فهد، إن لم يكن قد سلمه مباشرةً إلى البيت الأبيض. أعرب ريغان لدى ترحيبه بالملك فهد في البيت الأبيض، صراحة عن تقديره للمجهودات الهائلة التي بذلتها المملكة العربية السعودية لدعم اللاجئين الأفغان على الحدود الباكستانية بقوله: «إن إسهاماتهم الإنسانية الكثيرة تؤثر فينا تأثيرًا عميقًا، يا جلالة الملك، وأود أن أؤكد لكم أن المساعدات السعودية المقدمة إلى اللاجئين المهجَّرين من أوطانهم في أفغانستان لن تذهب هباءً أبدًا.

في فبراير/شباط من عام ١٩٨٥م كان السعودي أسامة بن لادن ـ الأخ غير الشقيق لسالم ـ هو قائد تلك المساعدات الإنسانية على الأراضي الباكستانية، وقد حمل الأسلوب الذي تحدث به ريغان في طياته تلميحًا بأنه أحيط علمًا ـ على الأقل ـ بنشاط أسامة.

قال ريغان: «إلهنا إلهٌ واحد، والشعب الأفغاني؛ باستشهاده، بشجاعته، بإيمانه، يلهمنا إلهامًا بقضية الحرية في كل مكان»[١٧].

---

(١٧) من الملاحظات التي دونها كل من ريغان وفهد بتاريخ ١١ فبراير/شباط ١٩٨٥م في مكتب الناطق الرسمي، مكتبة رونالد ريغان الرئاسية ـ صندوق رقم ١٨٩. ومن الغريب أن سالمًا قد يكون هو من أعطى شريط الفيديو الذي أعده عن أعمال أسامة الخيرية إلى البيت الأبيض في عهد ريغان أو ربما إلى السفارة السعودية في واشنطن على أساس أنه جزء من الإعداد لمؤتمر القمة الذي يحضره فهد، ولم تظهر مثل تلك المواد قط في التحقيقات السابقة عن الوقت الذي قضاه بن لادن في أفغانستان أو الأحداث التي أدّت إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. جدير بالذكر أن عددًا هائلًا من ملفات الأمن القومي التي لها علاقة بالأمر من إدارة ريغان قد استمر تصنيفها على أنها سرية. أما اللهجة الخاصة واللافتة للنظر التي استخدمها ريغان للترحيب بفهد فكان لها بعض الدلالة لكنها ليست حاسمة. وأكد بعض المسؤولين في وكالة الاستخبارات الأمريكية مرارًا وتكرارًا أنه لم يتعامل قط أي مسؤول من وكالة الاستخبارات الأمريكية مباشرة مع أسامة في أثناء الحملة السرية على الأراضي الأفغانية في ثمانينيات القرن العشرين أو حتى بعد ذلك، ولم يظهر أي دليل إلى وقتنا هذا يتعارض مع هذا التأكيد.

بعد ذلك بسنوات ولدى انتقاله إلى حقبة منتصف العمر، تخلى أسامة تدريجيًّا عن مصادر هويته الأصلية التي اكتسبها بحق مولده، والتي أثرت تأثيرًا عميقًا في بداية حياته ـ أنه ينتمي إلى عائلة بن لادن الثرية ـ والامتيازات التي يتمتع بها كأحد رعايا المملكة العربية السعودية. وفي نهاية الأمر أعلن الحرب على العائلة المالكة في المملكة العربية السعودية، وبهذا وقف كحجر عثرة في طريق المصالح التجارية لعائلته، وهو وضعٌ معقد للغاية حتى إنه نادرًا ما تحدث عنه علنًا. وعندما فعل ذلك ألقى باللائمة على أفراد العائلة المالكة السعوديين لمحاولتهم «اختلاق مشكلة بيني وبين عائلتي». ولم يهاجم عائلته على الإطلاق ولم يتبرأ منها جهارًا، بل عزا أقوالهم التي أدلوا بها بين الحين والآخر ـ والتي تتبرأ منه ـ إلى إنها نتاج نتيجة الضغط الشديد الذي مارسته الحكومة السعودية عليهم فحسب[١٨].

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، أصبح من المعهود إلحاق الأسباب الأساسية لتطرف أسامة بمحاولات إحياء الإسلام السياسي التي سادت منطقة الشرق الأوسط بعد عام ١٩٧٩م، بالإضافة إلى تجاربه كمقاتل ومنظم منتمٍ إلى تنظيم المجاهدين الأفغان ضدّ الاتحاد السوفياتي. وقد كان لهذين العاملين تأثير عظيم عليه، ولكن التركيز عليهما دون غيرهما سيجعلنا نتجاهل علاقة أسامة المركبة وشديدة التعقيد بعائلته وببلده، وبمصادر الانجذاب والتنافر الناتجة من هذه العلاقة في حياته، وبتأثيرها في شخصيته وأفكاره. وهذه العناصر الأخيرة هي التي حاولت عائلة بن لادن والعائلة المالكة السعودية وضعها في طي الكتمان قدر المستطاع.

أما عن القصة المذهلة عن صعود عائلة بن لادن خلال القرن العشرين، فإنها تأسر الألباب، حتى في الأجزاء التي لا تتعرض البتة لأسامة. وبالنسبة إلى كثيرين من أفراد عائلة بن لادن من جيل أسامة، ثبت أن الروابط العائلية قابلة للتغيير، والأهم أنها معقدة. فهذه الروابط إنما

---

(١٨) من المقابلة التي أجراها أسامة مع قناة سي. إن. إن. في مارس/ آذار ١٩٧٧م في كتاب:
Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 55.

تعبر عن قصة تجسد الحداثة والسلطة في المملكة العربية السعودية؛ الدولة الفتية غير الآمنة التي تُعد فيها العائلة هي محور السياسة والحكم إلى حدّ بعيد. وإذا أردنا الدقة، فإن «المملكة السعودية»، هي اسم على مسمى؛ إذ إنها تعبر عن تصور آل سعود الحاكمين لسلطتها. ففي هذه الدولة يُحظر تأسيس أحزاب سياسية، حتى إن النوادي الاجتماعية يُضيَّق الخناق عليها ولا يُرحب بإنشائها، والقبائل ضعيفة نسبيًّا، ويُعد الانتماء إلى العائلة والعقيدة الدينية أكثر مصادر الهوية العامة شرعيةً. وفي نطاق مجتمع الأعمال الذي ينتمون إليه، لم تكن عائلة بن لادن هي الأكثر نفوذًا في المملكة على الإطلاق، ولكن على مرِّ العقود تمكنت العائلة من إرساء أسس شراكة مهمة وفريدة من نوعها مع آل سعود، حافظ على استمرارها دور عائلة بن لادن ـ بدءًا من خمسينيات القرن العشرين فصاعدًا ـ كمقاولي الإنشاءات والترميمات الرسميين للمدن الإسلامية المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومدينة القدس لفترة وجيزة.

ورث الجيل الذي ينتمي إليه أسامة ـ المكوَّن من خمسة وعشرين أخًا وتسع وعشرين أختًا ـ ثروة طائلة، لكنه اضطر إلى التعايش مع تغيرات اجتماعية وثقافية جذرية شهدتها المملكة. وُلد معظمهم في مجتمع فقير لا يضم أي مدارس أو جامعات حكومية، واتسمت العلاقات والاختلاط الاجتماعي في هذا المجتمع بالصرامة والمحدودية، وسيطرت فيه النصوص والشعائر الدينية على الحياة العامة والفكرية، ولم تكن العبودية مشروعةً فحسب، بل يمارسها الملك وأبناؤه على رؤوس الأشهاد، ومع ذلك، وخلال عقدين من الزمن، وفي الوقت الذي انتقل فيه هذا الجيل إلى مرحلة الشباب، وجدوا أنفسهم محاطين بسيل من الأفكار المتأثرة بالغرب عن الاختيار الفردي الحر، وبالمراكز التجارية الجديدة المتلألئة، وبالعلامات التجارية العالمية لأحدث الأزياء، وبأفلام هوليوود والخمور والأنماط المتغيرة في العلاقات الجنسية، وهو عالمٌ ساحر دنا منهم وأغراهم ليقتطفوا من ثماره وينهلوا منه، ما دام جميعهم يحصل على أرباح شهرية لا تقل عن مئات الآلاف من الدولارات. وأصبح أفراد عائلة بن لادن ـ شأنهم شأن السعوديين الأثرياء الآخرين الذين بلغوا سن الرشد خلال سبعينيات القرن العشرين الذي اكتُشف فيه أن السعودية تسبح فوق

بحر من البترول ـ روادًا عربًا في زمن العولمة، وكان أعضاء عائلة بن لادن هم أول السعوديين الأفراد الذين يمتلكون طائرات خاصة، وعلى صعيد الحياة العملية والعائلية على حدّ سواء، انغمسوا في التقنيات العالمية في مرحلة مبكرة. ولذلك فإننا نؤكد أن توظيف أسامة المبتكر للهاتف الفضائي في أولى أعماله الإرهابية لا يمكن أن يكون مجرد صدفة، فهو سليل عائلة اعتادت استخدام وسائل العصر الحديث ـ ومنها الطائرات ـ في أنشطتها الترفيهية، فلا عجب إذًا من توظيف هذه الوسائل بهذا السيناريو الذي لم يتخيله مخلوق على وجه الأرض في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، الذي راح ضحيتها مئات المواطنين الأمريكيين وغير الأمريكيين.

علاوةً على ذلك، تعكس القصة البطولية لعائلة بن لادن عدة زوايا للتحالف المعقد والقهري، الذي يهيمن عليه الطمع والمفعم بالأسرار، وغير المقنع لكل من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية خلال عصر النفط. وحتى اللحظة التي أعلن فيها أسامة عن نفسه إرهابيًّا دوليًّا، كانت استثمارات عائلته في الولايات المتحدة تفوق أي تصور ـ ويعزى ذلك إلى أن إخوته وأخواته كانوا يمتلكون مراكز تجارية أمريكية، ومجمعات سكنية، وعمارات، وضيعات هائلة، وسجون خاصة في ولاية ماساتشوستس، وأسهم شركات، ومطارًا، وغير ذلك كثير. هذا إلى جانب دراستهم في الجامعات الأمريكية وتوطيد صداقات وشراكات عمل مع الأمريكيين، كما سعوا إلى الحصول على جوازات سفر أمريكية لأطفالهم. شملت أنشطتهم أيضًا تمويل أفلام هوليوود، والمتاجرة في الخيول الأصيلة مع مطرب الروك والموسيقى الريفية كيني روجرز، فضلًا عن إبرام صفقات عقارية مع دونالد ترامب. وكان آل بن لادن يعتبرون جورج بوش الأب، وجيمي كارتر، والأمير تشارلز أصدقاءً للعائلة. وامتلكت عائلة بن لادن ـ حرفيًّا واجتماعيًّا ـ نصيبًا كبيرًا من الدولة التي أعلن أسامة الحرب عليها، ومع ذلك ثبت في نهاية الأمر أن توغلهم في الولايات المتحدة محدود وهش، مثل حقيقة العلاقة بين الحكومتين السعودية والأمريكية، وهذا ما زاد تعقيد كل من أيديولوجية أسامة المناهضة للأمريكيين ورد فعل عائلته تجاهها.

ترجع الشهرة العالمية التي نالتها عائلة بن لادن إلى عولمة سوق النفط، والثروة التي حققتها بعد عام ١٩٧٣م، لكن جذورها متأصلة أيضًا في عصر لم تكن قد ظهرت فيه محركات الاحتراق. وكان جيل أسامة بن لادن في العائلة هو الجيل الأول الذي يُولد على الأراضي السعودية؛ فأبوهم محمد، المعماري الموهوب الذي شيّد هيكل الثروة الأصلية للعائلة لبنةً لبنة، هاجر من مدينة محصنة مبنية من الصخور الطينية في وادٍ ضيق في منطقة حضرموت البعيدة في اليمن. وينتمي هذا الرجل إلى شعب واثق في نفسه، كان أفراده أنفسهم روادًا للعولمة، وإن كان ذلك في عصر بطيء الإيقاع لسفن الإبحار والسلطة الاستعمارية، ولم يورِّث محمد بن لادن أبناءه الثروة فحسب، بل ورثوا عنه أيضًا الرؤية التي تصبو إلى التغيير والسعي لإرضاء الطموح والعقيدة الدينية في عالم لا حدود له.

القسم الأول

المؤسسون

من عام ١٩٠٠م حتى سبتمبر/أيلول عام ١٩٦٧م

الفصل الأول

المنفى

نَفَقَ ثورٌ. . . وبدأت المتاعب.

كان هذا الثور لعوض بن عبود بن لادن الذي عاش في أوائل القرن العشرين في قرية صحراوية اسمها قرن باشريح، في وادٍ عميق يُدعى وادي رخية. كان هذا الوادي يمتد مسافة خمسين ميلًا عبر منطقة من مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية، يُطلق عليها في اليمن الحديثة «حضرموت»، التي كانت اسمًا على مسمى؛ إذ إنها أرض تغلب عليها الطبيعة الرملية والصخرية بفعل الجفاف والقحط الدائمين. وعلى جانبي الهوة التي تحتضن وادي رخية تعلو الأجراف الطينية الجرداء، ونرى بعض الجمال والحمير والماعز ترعى بين نباتات الصبار والأشجار المنخفضة. وربما كان هناك قرابة الأربعين قرية المتناثرة في أعماق الوادي يقطنها أقل من عشرة آلاف شخص[1].

يقع منزل عوض وقطعة الأرض الصغيرة التي يزرعها بالقرب من مبنى مستطيل الشكل من أربعة طوابق شيّده من الطوب اللبن أخَوَان له من عائلة

(١) استنادًا إلى زيارة المؤلف إلى منطقة قرن باشريح بتاريخ ١٨ مارس/ آذار ٢٠٠٧م. وطبقًا لما ورد في صحيفة «اليوم» (عدن) بتاريخ ٢٣ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢م - ومن تقارير الصحفي علوي عبد الله بن سميط عن وادي رخية ـ كانت هناك أربعون قرية يقطنها أقل من عشرة آلاف نسمة. وتعتبر الأرقام التي سردها حديثة، حيث ذكر أن تعداد سكان هذا الوادي بلغ ٧,٨٠٠ نسمة في عام ٢٠٠٠م. أما العدد الأقصى الذي وصل إلى عشرة آلاف نسمة فهو مجرد تخمين يدعمه غياب أي دليل عن المدن كثيفة السكان علاوة على تقديرات السكان في المناطق المجاورة الذي أعدته السلطات البريطانية سابقًا.

بن لادن، هما علي وأحمد، اللذان عاشا في بداية القرن التاسع عشر على الأرجح، وورثا حكم المنطقة من أسلافهما. بزغ هذا الحصن لعائلة بن لادن من أعلى نقطة في قرن باشريح، وألقى الجدار الغربي للوادي بظلاله عليه. وعلى مدار حياة عوض، تآكل البرج الذي كان منزلًا للأخوين حتى أصبح حطامًا تذروه الرياح، وبدا كقلعة من الرمال سحقها المد، وتناثرت التجمعات السكنية الأحدث المبنيّة من الطوب اللبن في منحدر التل أسفل البرج، وبدت كما لو أنها شكلت حوله درعًا دفاعية. وحول القرية انتشر عشرة أو عشرون فدانًا من الأراضي الزراعية الممهدة، والمقسّمة إلى قطع صغيرة، يبلغ طول الواحدة منها قرابة عشر ياردات بعرض خمسين ياردة، وهي كلها مملوكة لآل بن لادن. وكانت الزراعة مهنة محفوفة بالمخاطر حيث إنها تعتمد على الأمطار الموسمية النادرة، فبعد كل عاصفة يسارع أهل القرية لاغتنام ما يستطيعون من مياه الفيضان ونقلها إلى حقولهم. وإذا نجحوا في ذلك ربما يزرعون القمح أو أي محاصيل تسويقية أخرى لشهور قليلة، وإلا فقد تصيبهم مجاعة[٢].

اتخذ عوض بن لادن قراره المشؤوم بأن يستعير ثورًا ليحرث الأرض من أحد أفراد قبيلة عُبيد بعد إحدى مرات هطول الأمطار الموسمية. ينتمي بنو عُبيد إلى عشيرة قوية حرست السهول الخالية من السكان التي تعلو وادي رخية، وزرعت المحاصيل في الوادي. وبالطبع، لم يكن هناك نظامٌ للتأمين أو الرهن وقتئذٍ لتغطية استعارة هذا الثور، وعندما نفق الثور على حين غرة وهو في حوزة عوض، طلب صاحبه الذي أعاره، المدعو بيلاوال، تعويضًا يُنظر إليه في تاريخ عائلة بن لادن الجاري على الألسنة أنه من درب الخيال: إذ بلغ آنذاك أربعين ريالًا من الفضة، وفاحت رائحة الابتزاز من هذا الطلب، ولكن بينما كان عدد أفراد عائلة بن لادن في القرية يبلغ

(٢) من المقابلات التي أُجريت مع اثني عشر فردًا من عائلة بن لادن، وكان المتحدث الرسمي عنهم بصورة أساسية هو سيد بن لادن في قرن باشريح بتاريخ ١٨ مارس/ آذار ٢٠٠٧م. أما رواياتهم بشأن حياة عوض وخلافه حول الثور الذي استعاره وعن هجرته إلى وادي دوعن فيدعمها البحث الذي قام به صحفيان من حضرموت هما علوي بن سميط وعوض صالح الكشميمي. جدير بالذكر أن الصحفي الأخير أجرى عدة مقابلات منفصلة للمؤلف مع أفراد ومندوبين من عائلة بن لادن مقيمين في منطقة حضرموت. ويدين المؤلف بالفضل لمحافظ حضرموت ـ عبد القادر علي هلال ـ لدعوته لي لزيارة المنطقة وتعريفي بأفراد من عائلة بن لادن الذين ما زالوا يعيشون في وادي رخية.

المئات، «فإنهم كانوا مدقعي الفقر إلى حدّ عجزوا فيه عن مساندة عوض»، حسبما قال سيد بن لادن الذي ما زال يعيش في قرن باشريح[٣].

ينتمي أفراد عائلة بن لادن إلى قبيلة كندة، التي تمتد جذورها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأصبحوا كيانًا قويًّا في جنوب حضرموت بحلول القرن السابع عشر. وعُرفت القبيلة وقتئذٍ بقبيلة الحكام والشيوخ، لكنّ أوار الحروب المستمرة هد قواها تدريجيًّا وشرّد أبناءها. وفي الزمن الذي عاش عوض فيه، لم تعد قبيلة كندة تمارس دورها كجماعة منظمة تتميز بقادة يُشهد لهم بالكفاءة والسمعة وجنود مسلحين. وأصبح أفراد عائلة بن لادن مجرد عشيرة يتراوح عددها بين أربعمئة إلى خمسمئة فرد، متكتلين في وضع دفاعي على ما يبدو من القرية المحصنة المتوارثة التي يقطنون بها، يكافحون لمجرد البقاء، ولم يكونوا في وضع يسمح لهم بتحمل ويلات الحرب ضدّ القبائل المنافسة.

قسّم أفراد عائلة بن لادن أنفسهم إلى أربعة أفرع، وكل فرع أرجع نسله إلى جيل الأخويْن اللذين شيدا البرج، أحمد وعلي، وهما أخوان من أصل أربعة إخوة، والآخران هما منصور وزيد. وأنجب كل أخ من الإخوة الأربعة أبناء عملوا معًا في حياة عوض كعائلة يرجع نسبها إلى عشيرة بن لادن الأوسع نطاقًا.

ينتمي عوض إلى فرع الأخ علي، وتقول سلالة النسب المتناقلة على الألسن إن عليًّا هو جد عوض الأكبر. وليس هناك سوى معلومات قليلة عن تلك الأجيال الغابرة، مثل تلك التي تشير إلى أن عوضًا هو الطفل الوحيد لأبيه عبود الذي ورث عنه كل أراضيه في قرن باشريح، وقد تبين لاحقًا أن هذه الأراضي ليست إلا ضيعة قاحلة، وأنها لا تفي حتى بالتعويض الذي طلبه صاحب الثور من عوض[٤].

---

(٣) من المقابلة التي أجريت مع سيد بن لادن في نفس المرجع السابق.

(٤) من المقابلات التي أُجريت مع أفراد من عائلة بن لادن في قرن باشريح في نفس المصدر السابق. جدير بالذكر أن أفراد العائلة الذين ما زالوا يقطنون في القرية هم من أحفاد أحمد. وطبقًا لما قالوه فإن أفراد العائلة الذين انحدروا من نسل منصور قد هاجروا منذ أعوام إلى جيزان في منطقة عسير في المملكة العربية السعودية، أما أحفاد زيد فقد هاجروا إلى مدن أخرى في اليمن بما فيها العاصمة صنعاء.

في مستهل الأمر، ولأنه لا يملك الأربعين ريالًا الفضية، تفاوض عوض مع بيلاوال لكي يقبل برهن الفدادين المعدودة التي يزرعها، ووافق بيلاوال على تلقي نصف الأرباح الناتجة من بيع محاصيل عوض حتى يُسدد قيمة الدين. وإذا ما عاودت الأمطار الهطول، كان عوض سيفعل أي شيء للخروج من هذه المشكلة، وكان التاريخ اللاحق لفرعه العائلي سيختلف بصورة كبيرة. ولكن الرياح أتت بما لا يشتهي عوض حيث أصيب وادي رخية بموجة من الجفاف، ولم يستطع عوض تقديم أي مبالغ لدائنه في الشهور المتتالية، وهو ما أثار غضب بيلاوال الذي هدد بقتل عوض - حسب الأحداث المتواترة من عائلة بن لادن - ما لم يرد الدين نقدًا أو ينقل إليه ملكية الأرض كاملةً[٥].

قرر عوض أن يهاجر من قرية آبائه وأجداده، وكان أعزب وليس لديه ما يعيقه عن السفر والترحال. ومع اشتداد ضراوة الجفاف منذ موت الثور إلى جانب أن الهجرة كانت وسيلة شائعة للبقاء على قيد الحياة في حضرموت، حتى من دون وجود هاجس يشعره أنه سيلقى حتفه على يد دائنه، حزم عوض أمتعته وخطا أولى خطواته عبر السهل المرتفع قاصدًا واديًا مجاورًا اسمه وادي دوعن الذي يبعد بمقدار مسيرة يوم ونصف اليوم بالدواب. وهناك سوف يبدأ رحلة جديدة.

يُلاحظ أن وادي دوعن يقع أسفل هاوية تحيط بها جدران شديدة الانحدار بارتفاع تسعمئة قدم أو يزيد، وهو يبعد بمسافة سبعين ميلًا عن بحر العرب. وتكتسي أرضية الوادي بأشجار النخيل الدهماء التي تغذت على مجرى النهر. وطبقًا لإحدى الأساطير المتناقلة محليًا، نحتت سلالة من العمالقة طوال البنيان الأحجار المتشققة في هوة الوادي إلى أن باؤوا بغضبٍ من الرحمن لتعجرفهم، فدمرهم بعاصفة رملية تدميرًا. وربما يوضح ذلك روعة المعمار المذهل: إذ نرى أمام الجدران الصخرية مبانيَ عملاقة متراصة للقرى المحصنة المعانقة للسماء، ولكل مدينة بوابة

---

(٥) عُرفت رواية التهديد بالقتل من المقابلات التي أجراها الكشميمي في نفس المصدر السابق. الجدير بالذكر أن آل بن لادن الذين قابلهم المؤلف في قرن باشريح حمل كلامهم مضمونًا ينوه إلى مثل هذا التهديد لكنهم لم يشيروا إليه صراحة.

وحصن رأسي يحميها من جيرانها. ولأسباب دفاعية لا توجد نوافذ في الطوابق السفلية للديار، ولكن يُلاحظ وجود فتحات ضيقة وطويلة نحو الأعلى للتصويب من خلالها.

من وجهة نظر الأوروبيين في ذلك العصر تبدو أودية حضرموت نائية وتفوح منها رائحة كراهية الآخر بشكل ينم عن خطورة بالغة؛ إذ لم تكن هذه المنطقة سوى «عالم داخليّ موازٍ. . . وبؤرة فراغ على الخريطة». وفي الحقيقة لم تكن حضرموت منطقة منعزلة على الإطلاق، لكنّ سكانها المتدينين بشدة، وعلى الرغم من كرم الضيافة الذي يميزهم، لم يكونوا يرحبون دائمًا بالزوار المسيحيين الذين يقومون بزيارات مفاجئة إلى المنطقة من آن لآخر. وعلى مدار آلاف السنين تميّز أهل حضرموت بأنهم مهاجرون بطبعهم، ورحّالة، وتجّار، ومقاولون، يبحرون على متن المراكب الشراعية من ميناء المُكَلا إلى جزر الهند الشرقية وزنجبار والحبشة (إثيوبيا)، وشمالًا عبر البحر الأحمر إلى مكة والقاهرة. ومنذ قرون مضت حقق الحضرميون وملوك سبأ ثروة طائلة لاحتكارهم قوافل التجارة العالمية لفترة ليست بالقصيرة لكلٍّ من المُر واللبان، المُستخرجيْن من أشجار الصمغ العربي. وفي مصر الفرعونية وخلال عصر الإمبراطورية الرومانية، عمل كلٌّ من البخور المستخرج من اللبان باهظ الثمن، وعشب المُر الأغلى ثمنًا على تحويل تلك الزيوت إلى اثنتين من أثمن السلع على وجه البسيطة. وفي روما اقترنت طقوس أداء العبادات، وإحياء ذكرى تشييع جنازة أحد الأشخاص، وإتمام مراسم الزواج في كبرى العائلات بتصاعد حلقات بخور اللبان في أرجاء الغرفة. ولكن بعدما انفرط عقد الإمبراطورية الرومانية وحرَّم الواعظون المسيحيون المتشددون استخدام البخور باعتباره عطرًا للمتطاولين على الله، تدهورت التجارة وعاودت حضرموت السقوط في هوة الفقر. وفي ظلّ الفتوحات الإسلامية في القرن السابع عشر أبحر أهل اليمن مرة أخرى، ولكن باعتبارهم جنودًا في الجيوش التي كانت تدعو إلى الإسلام. وبعد فتح هذه البلاد عمل هؤلاء الرجال حراسًا لعلية القوم وتجارًا بحكم طبيعتهم، وشغل بعضهم في نهاية المطاف مناصب سياسية رفيعة، ولكنهم ظلوا مخلصين لوطنهم وديارهم. وبحلول القرن العشرين نقل كثير من الحضرميين الأثرياء ثرواتهم التي حققوها من التجارة في العصر الاستعماري إلى بلادهم

مرة أخرى لبناء ديار تجمعهم بعائلاتهم يمضون فيها ما تبقى من حياتهم. ولذا عاد كثيرون ممن كانوا يقيمون في بلاد آسيا وأفريقيا، حتى إن أول مسح رسمي أجراه أحد الضباط البريطانيين في تلك المنطقة في أثناء ثلاثينيات القرن العشرين أثبت انتشار اللغة السواحيلية الأفريقية ولغة الملايو الآسيوية بين اللغات المحلية[٦].

في الوقت الذي وصل فيه عوض بن لادن إلى اليمن، أعلنت بريطانيا وادي دوعن جزءًا من محمية عدن، الكيان السياسي الذي كان أمنية أكثر من كونه حقيقة، والمنطقة التي تندرج من ضمن المناطق الساحلية غير محكمة السيطرة التي ربط بينها جميعًا فكر المخططين الاستراتيجيين للإمبراطورية في شبه الجزيرة العربية الذي كان يهدف إلى حماية الممرات التجارية للهند من المكائد التركية والألمانية. وكانت الوسيلة المحلية للسيطرة البريطانية ممثلة في سلطان المكلا الذي حكم البلاد من خلال مجموعة من القصور المشيدة على قبة صخرية بارزة تطل على بحر العرب، تحت حماية مجموعة من الحراس الأفارقة. كونت عائلة السلطان ثروتها من عملها كمرتزقة في نظام حيدر آباد في الهند، وفي بداية القرن العشرين فضلوا الاستمتاع بوقتهم في قصور حيدر آباد الفخمة. وفي ميناء المكلا، تسلموا زمام الأمور إلى سلسلة متعاقبة من الوزراء من عائلة المحضار التي تمتد جذورها في وادي دوعن. ومن هؤلاء الوزراء، سيد حامد المحضار، الذي قال عنه زائر بريطاني إنه «شخصية دبلوماسية مداهنة يبدو مرحًا ظاهريًّا، ولكن عينيه تنطقان بكل جدية وحزم»، وقيل إنه كان يستخدم منصبه «لضمان معاملة متميزة لأقاربه من وادي دوعن».[*] وكانت سلطنة المكلا بعيدة كل البعد عن شكل الحكومات النموذجية، حتى إنها سيطرت على المناطق الداخلية عن طريق اختطاف رهائن من العائلات المحلية البارزة[٧].

---

(٦) راجــــع: Mackintosh-Smith, *Yemen*, pp. 172-173, Swahili and Malay: w: H. Ingrams, *Report on, the Social, Economic and Political Condition of the Hadramaut*, p. 12.

(*) بعد ذلك بعشرات السنين، جند أسامة بن لادن خالد المحضار، وهو أحد أفراد عائلة سيد الشهيرة في وادي دوعن، أو يُقال عنه إنه من سلالة النبي محمد، جنده كأحد مختطفي الطائرات في عملية الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وهو من قاد الطائرة التي اصطدمت بالبنتاغون.

(٧) مقتبس من: Doreen Ingrams, *A Time in Arabia*, p. 13.

لدى وصول عوض لم تكن السلطة الفعلية في جنوب وادي دوعن في يد بريطانيا أو سلاطين المكلا، بل تركزت في أيدي عائلة من الشيوخ القاطنين في المنطقة يُطلق عليها عائلة باصرة الذين حكموا المنطقة من خلال حصن مشيّد بالطوب اللبن اسمه حصن المصنعة، أما حاكم عائلة باصرة في الوقت الذي وصل فيه عوض بن لادن، فقد كان ضريرًا وتزوج عشرة نساء على مدار حياته، وحكم الوادي بقبضة من حديد؛ إذ ورد في تقرير إيجابي لأحد العملاء البريطانيين إلى المسؤولين في لندن أن «جرائم القتل قد اختفت على الصعيد العملي الآن، كما إن القتلة يُعدمون بخنجر يُضرب في التجويف العلوي من عظام صدورهم»[٨].

بلغ عدد سكان وادي دوعن ما يقرب من عشرين ألف نسمة، طبقًا لإحصائية قامت بها عائلة باصرة، وكان يساعد كل هذا العدد قرابةَ المئتي مسجد، ومدرستان صغيرتان فحسب تدرسان القرآن الكريم. ولم تقابل الرحالة الإنكليزية فريا ستارك أي سيدة تستطيع القراءة في رحلتها التي قامت بها في بداية ثلاثينيات القرن العشرين، ففي هذا المجتمع البدائي كانت أشجار النخيل تُغرس على ضفاف الأنهار بغية الربح المادي، وقليل فقط من التجار الأثرياء كانوا يربّون النحل في شرفات منازلهم، وتصدير العسل قوي الرائحة المعروف بإثارته للشهوة، خاصةً إذا ما أُكل مع اللحم. وقد ذكرت الرحالة دورين إنغرامز أن: «هذا الأمر لا يفعله سوى الرجال، لاعتقادهم أن إثارة النساء بشدة أمر مكروه»[٩].

اختار عوض بن لادن وادي دوعن ملاذًا آمنًا من بني عُبيد نظرًا إلى أنها عُرفت بهدوئها ونظامها تحت سيطرة عائلة باصرة، وهو من الأمور الاستثنائية في حضرموت حينئذٍ، طبقًا لما ذكره بعض أحفاد عوض، وقد استقر على بُعد أميال قليلة من حصن آل باصرة، في مدينة رباط باعشن، التي تقع في مواجهة سور وادي دوعن في أقصى الجنوب، ويحيط بها النخيل المتناثر على أرض الوادي. وقد أشار المسح الذي أجراه أحد

---

(٨) مقتبس من: Ingrams, *Report on the Social*, op. cit., p. 97.

(٩) ذكر آل باصرة أن عدد السكان بلغ ٢٠ ألفًا في مقابلة مع الرحالة الهولندي فان دير مولن. مقتبس من: *A Time in Arabia*, op. cit., pp. 38-39.

الباحثين البريطانيين في بداية ثلاثينيات القرن العشرين إلى أن هذه المدينة كان يقطنها ثمانمئة رجل يملكون مئة بندقية. ويبدو أن عوضًا عندما وصل إلى وادي دوعن في البداية لم يكن لديه سوى القليل من العلاقات الوطيدة مع أهل المنطقة، ولكنه اعتمد على سمعة المنطقة المشهورة بكرم الضيافة، وعلى استعداده الشخصي لممارسة عمل شريف. ويُعتبر الدليل المتعلق بالظروف التي مر بها عوض بعد وصوله مدينة رباط باعشن دليلًا يفتقر إلى الكمال، إذ إنه الآن انفصل عن عائلته في وادي رخية وبالتالي انقطعت أخباره عن مسامعنا نسبيًّا. ويُقال إنه عمل أجيرًا في حقول صغيرة في المنطقة، وجمع مبلغًا معقولًا من المال للزواج من سيدة في المدينة من عائلة المادودي(١٠).

أنجب عوض من هذه الزوجة ثلاث بنات وثلاثة أبناء، هم محمد وعبد الله وعمر الذي مات طفلًا فالموت مصير الجميع المشترك. (أما عن أسماء البنات، فلم يتذكرها أحد؛ ففي الجزيرة العربية وقتئذٍ، كما هو الحال الآن، نادرًا ما تُجرى على الألسن قصص السيدات في أي عائلة). ويُقال إن محمدًا ولد في عام ١٩٠٨م، وهو تاريخ تقريبي على أحسن تقدير، إذ إن الاحتفال بأعياد الميلاد ليس من التقاليد العربية، ولم يكن هناك حكومة في وادي دوعن في ذلك الوقت تلقي بالًا بتسجيل المواليد(١١).

---

(١٠) من المقابلات التي أجراها الكشميمي في نفس المصدر السابق. وأيضًا من المقابلات التي أُجريت مع أفراد من عائلة بن لادن في قرن باشريح في نفس المصدر السابق. وعلى ما يبدو فإن سلالة الذكور في عائلة بن لادن قد تقطعت بين هجرة الذكور إلى المملكة العربية السعودية وعودة عبد الله في أواخر الخمسينيات أو بداية الستينيات من القرن العشرين. بيد أنه من المحتمل أن أخواتهم قد تزوجن أو حافظن على اتصالهن بالمدينة؛ وكان من الصعب معرفة أي شيء عنهن كما هو معتاد في إجراء البحوث في شبه الجزيرة العربية. وقد تكون زوجة عوض قد عاشت حياة طويلة مكّنتها من العودة إلى العيش مع أبنائها عندما جمعوا ثروة كافية تمكنهم من العودة إلى وادي دوعن بعد الحرب العالمية الثانية بيد أن آل بن لادن في قرن باشريح شددوا على أن أمهم وافتها المنية في وادي دوعن ولم تتمتع بحياة طويلة الأمد.

(١١) المعلومات عن حياة عمر القصيرة وعن الشقيقات الثلاث مقتبسة من المقابلات التي أجراها الكشميمي. ولمزيد من المعلومات عن العام الذي وُلد فيه محمد راجع كتاب ـ من بين آخرين ـ: Wright, *The Looming Tower*, p. II8, uses 1908.

وإذا كانت القصص التي رويت عن أخيه الأصغر وأهالي رباط باعشن صحيحة، فربما يكون قد حدث ذلك بعد سنتين أو ثلاثة، هذا من جانب. أما من الجانب الآخر فقد ذكر أحد المقربين من العائلة ممن هو على علم ببواطن الأمور في العائلة أن محمدًا وُلد في عام ١٩٠٤م وأشار إلى =

وبمجرد أن استقر عوض بن لادن في منفاه في مدينة رباط باعشن، عمل بجد حتى قضى نحبه شابًّا. وفي الواقع يبدو أنه مات قبل أن يصل ابناه، الباقيان على قيد الحياة، محمد وعبد الله، إلى سن البلوغ(١٢).

كما هي الحال في مناطق حضرموت كافة، اعتمد اقتصاد وادي دوعن على الاستعداد الدائم للصبية والشباب من أهل المنطقة للإبحار بعيدًا للبحث عن مصادر رزق في مناطق أخرى في الخارج، حتى إنهم كانوا يعملون لسنوات في ظروف سيئة ويتحملون شظف العيش لإرسال المال إلى ذويهم، فبعضهم غادر في مراحل عمرية مبكرة للغاية، صغارًا في السادسة أو السابعة من العمر. وكان من الشائع أيضًا أن يتزوج الرجال من أهل المنطقة قبل بلوغ العشرين عامًا، ويهاجرون إلى إثيوبيا أو الصومال أو مصر، ويظلون بعيدًا عن وطنهم فترات طويلة تبلغ عقدين من الزمان، ويتزوجون من نساء البلاد التي يرتحلون إليها. وبالنسبة إلى معظم الشباب في وادي دوعن، كان موضوع السفر أمرًا مفروغًا منه، ولكن الموضوع المعلّق هو الوجهة التي يقصدونها، واعتمدوا في مسألة إيجاد فرص العمل على شبكات توظيف غير رسمية يكفلها تجار من حضرموت لديهم مصالح تجارية في موانئ بعينها في الخارج. وكان ولاء الحضرميين لبعضهم في بلاد المهجر فائقًا للعادة، وبحلول القرن العشرين عزّزت هذه المبادئ الأخلاقية والتآخي بينهم من انتشارهم من بلاد المشرق إلى منطقة جنوب شرق آسيا. وفي أحد الخطابات التي عُثر عليها في بداية القرن العشرين، يوضح والدٌ إلى ابنيه الشابين كيف يقطعان طريقهما من حضرموت إلى سنغافورة، وكتب لهما قوائم بأسماء الأشخاص محل الثقة في أربع مدن مختلفة تطل على موانئ، وحثهما على إرسال كثير من البطاقات البريدية

= أنه وصل إلى المملكة العربية السعودية قبل سنوات من التاريخ المذكور. وينبغي الوضع في الاعتبار أن أي تاريخ يُذكر عن حياة محمد قبل عام ١٩٣١م عندما أسس شركته يجب أن يؤخذ على أنه مجرد تخمين.

(١٢) من المقابلات التي أجراها الكشميمي في نفس المصدر السابق حيث يشير إلى أن عوضًا أدّى فريضة الحج قبل وفاته بيد أن هذا الأمر مشكوك في صحته ومن المرجح أن أحدًا ما قد سرب هذه المعلومة لتعظيم سيرته. أما عن حقيقة وفاته في سن صغيرة -من المحتمل قبل أن يصل أولاده إلى سن البلوغ ـ فقد جاءت من المقابلات التي أجراها الكشميمي والمقابلات التي أجريت في قرن باشريح.

إلى الوطن. وكان الشباب يهاجرون من أودية حضرموت الشمالية بصفة عامة عن طريق هذه الشبكات من المعارف إلى جنوب شرق آسيا. أما شباب وادي دوعن، فقد كانت وجهتهم الأساسية إلى أفريقيا أو إلى البلاد التي تقع على ساحل البحر الأحمر.

بدت الهجرة هي الخيار الطبيعي لكل من محمد وعبد الله ابْنَيْ بن لادن اليتيمين. وعندما فكرا في مقصدهما، من المرجح أن من أسدى لهما النصح هم أقارب أمهما وبعض سكان المدينة الآخرين المتعاطفين معهما حتى يتمتعا بحياة كريمة بعد رحيل عوض. وكان أثرى أثرياء مدينة رباط باعشن من نسل النبي محمد واسمه السيد محمد بن ياسين، وهو تاجر قطن في منطقة البحر الأحمر يتّسم «بوجه طويل وفم عريض جذاب» وكان أهل بيته يربون النحل ويملكون العبيد الإثيوبيين(١٣). كانت عائلة ياسين تتمتع بعلاقات في ميناء مصوع، الميناء الأساسي في أريتريا. وكانت هناك عائلة أخرى ذات شأن في الوادي تعيش على بعد يتراوح من قرابة ميل إلى ميلين ولديها أقارب في أديس أبابا، وقد تمكنت من تكوين ثروة محدودة هناك من تجارة الجلود. ويبدو أن محمد بن لادن، الابن الأكبر لعوض ـ مع كونه صبيًّا لم يبلغ الثانية عشرة من عمره بعد ـ قد استغل إحدى هذه العلاقات لعبور جدران الوادي الشاهقة واللحاق بركاب قافلة الجِمال قاصدًا ميناء المكلا.

أبحر محمد إلى أفريقيا وكان على قيد الحياة بنهاية الرحلة، وعثر على فرصة عمل في مكان ما في إثيوبيا، لكنّ رحلته انتهت بكارثة، إذ يشير تاريخ عائلة بن لادن المتناقل على الألسن إلى قصتين على الأقل عما حدث له. تذكر إحداهما أنه عمل كنّاسًا في أحد المتاجر أو الشركات الصغيرة. وطبقًا لما ذكره أخوه عبد الله للعائلة في ما بعد، كان رئيسه في العمل رجلًا سيئ الطباع ذا مزاج عنيف يحتفظ بسلسلة من المفاتيح مثبتة على خصره. وفي يوم من الأيام، صبّ جامّ غضبه على محمد فقذفه

---

(١٣) لمزيد من المعلومات عن خطاب الوالد عن السفر إلى سنغافورة راجع: Talib, «Hadhramis Networking: Salvage of the Homeland.» Iasin's «long face»: Stark, *The Gates of Arabia*, pp. 126-127.

بسلسلة المفاتيح وأصابه في وجهه، ونتج من ذلك إصابة بالغة أدّت إلى فقدان محمد إحدى عينيه. وتشير القصة الأخرى التي رواها بعض أفراد عائلة بن لادن الذين ظلوا في اليمن أن محمدًا كان يعمل في موقع إنشاءات إثيوبي وفجأة سقط قضيب حديدي من مبنى عالٍ، فارتطم بالأرض وارتد إلى الأعلى، فأصابه في عينه. وعلى أي حال، وصل محمد بن لادن إلى مرحلة البلوغ وهو يرى بالعين اليسرى فقط(١٤).

عاد محمد إلى وادي دوعن بعد إصابته؛ إذ ضرب زلزال عنيف ميناء مصوع الإثيوبي عام ١٩٢١م، أدّى إلى تقويض اقتصاد المنطقة، وقد يكون هذا أحد العوامل التي أدّت إلى عودته إلى الديار، ويقول أهل المدينة في رباط باعشن إنه في عام ١٩٢٥م رحل محمد مرة أخرى، وسافر هذه المرة بصحبة أخيه الأصغر عبد الله وظلّ الأخوان في الخارج خمسة وعشرين عامًا. وماتت أمهما لاحقًا في وادي دوعن طبقًا لما رواه أفراد العائلة الذين ظلوا في اليمن، ويبدو أن الأم توفيت في غياب الولدين.

توجه الصبيان لاحقًا إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر. وفي ميناء جدة، البوابة التي يفضلها الحجيج المسلمون المسافرون إلى مكة المكرمة، هناك جمع ضخم من التجار والعمال الحضرميين، وكان بعضهم من وادي دوعن، بينما أقام الحضرميون الآخرون في مكة نفسها.

وفي الوقت الذي بدأ فيه صبيّا عائلة بن لادن بهذه الرحلة، كان عبد الله يبلغ قرابة التاسعة أو العاشرة فحسب، بينما يقترب محمد من الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، طبقًا لما قصّه عبد الله في ما بعد لعائلته. ويتذكر عبد الله أن الرحلة كانت مليئة بالسحر والمعجزات والمبشرات الدينية. إنطلق الصبيان على متن السفينة الشراعية الخشبية التي تكاد تصرخ من الحمولة الزائدة عن الحد في المكلا، وجابا البحور حول شبه الجزيرة العربية، ثم اتجها شمالًا إلى البحر الأحمر حتى وصلا

---

(١٤) أُخذت الرواية التي تقول إنّ صاحب المتجر كان يعلق مفاتيحه على خصره من المقابلات التي أُجريت مع اثنين من الأشخاص المقربين إلى العائلة طالبين عدم الكشف عن هويتهما. أما الرواية التي تقول إن القضيب المعدني أصاب محمد إصابةً عرضية فقد جاءت من المقابلات التي أُجريت في قرن باشريح في نفس المصدر السابق.

إلى ميناء جازان، الذي يبعد قرابة أربعمئة ميل جنوب جدة. ومن هناك بدآ المشي، وضلا طريقهما في الصحراء، وشعرا بالجوع حتى بلغ منهما الجوع مبلغه، وظنا أنهما على مشارف الموت. وما زاد الطين بلة أن هبت على الصحراء عاصفة عنيفة، ولكن عندما هدأت وجد الصبيّان نفسيهما أمام مزرعة ووجدا في حقولها المروية بطيخة، فأكلاها واستعادا قوتهما[١٥].

واصل الأخوان مسيرتهما إلى أن وصلا في النهاية إلى أسوار مدينة جدة الحجرية مرجانية اللون، وهي مدينةٌ تفوح منها رائحة كريهة تطل على البحر الأحمر، ويبلغ عدد سكانها قرابة خمسة وعشرين ألف نسمة[١٦]. وربما كان هذا الميناء الضيق الغارق في الأمراض الذي لا يوجد به شارع واحد ممهد هو البيئة المثالية التي يصبو إليها مراهق عرف معنى الحرمان وحروب حضرموت الدائمة لتحقيق أحلامه ومطاردة طموحاته. ومع ذلك، لم تفارق مخيلة محمد بن لادن ناطحات السحاب الشامخة المبنيّة من الطوب اللبن في وادي دوعن ـ بأبوابها المطلية والعبيد المنتشرين في أرجائها ـ التي شيدها الحضرميون الذين حققوا ثرواتهم عن طريق الحظ والإيمان والعمل الجاد في البلاد النائية، ومن ثَم كانت هذه قطرة من فيض العوامل التي دفعت محمد لتكوين ثروة خاصة به.

كان الهواء داخل مدينة جدة الحصينة مشبعًا «بالرطوبة وسادها جو من العراقة وروح الكد والعمل التي لا تراها في أي مكان آخر»، في رأي توماس إدوارد لورانس، المعروف بلورانس العرب. كما ساد البشر «شعورٌ باستنزاف طاقاتهم حتى نكاد نسمع أصوات زفيرهم تنطلق من صدورهم، فالطقس قائظ والعرق يتصبب باستمرار من جباههم». ففي جدة ترتفع درجات الحرارة صيفًا عن مئة درجة فهرنهايت، وتتسبب الرياح الآتية من البحر الأحمر المحملة بجزئيات الأملاح بالشعور بالاختناق. وشكا أحد

---

(١٥) جاءت هذه الرواية من الشخصين نفسيهما اللذين سردا حكاية المفاتيح التي كان يحملها صاحب المتجر، وأيضًا من المقابلات التي أُجريت في قرن باشريح.

(١٦) نُقل تقدير السكان عن كاتب فارسي أدّى فريضة الحج من العام ١٩١٠ إلى ١٩١١م وكان يُدعى حسين كاظم زاده Hossein Kazemzadeh. وراجع أيضًا: Peters, *The Hajj*, p. 286.

الزوار البريطانيين ذات مرة من «تدني مستوى الصحف وعدم اشتعال أعواد الثقاب وصدأ المفاتيح في الجيب». وكل يوم ينتقل زهاء خمسة آلاف جمل عبر المدينة، مخلفين وراءهم روثًا قدّره حاكم جدة بثلاثة آلاف رطل. وذكر الحاج الفارسي حسين كاظم زاده في كتابات له أن: «البضائع المعروضة في الأسواق يغطيها الكثير من الذباب حتى إنك لا تستطيع تمييز لون البضائع دون إبعادها». واستطرد قائلًا: «وفي المساء، عندما تغلق المتاجر أبوابها، يختفي الذباب، شأنه شأن التجار، لينتقل إلى المنازل الخاصة لافتراس ضحاياه»[١٧].

لما يزيد عن ألف عام كانت جدة بمنزلة بوابة لمكة، وكان الحجيج القاصدون موسم الحج السنوي يتدفقون في أنحاء المدينة؛ إذ كان عددهم يبلغ مئة ألف حاج سنويًّا في بداية القرن العشرين. كان المسلمون يأتون من كل حدْبٍ وصوب، من أفريقيا وجنوب شرق آسيا والهند وأوروبا. وكانوا يتدفقون لأداء فريضة العمرة على مدار العام، وكانت مراكب التجديف التي يُطلق عليها «السنبوق» تنقل الوافدين الجدد من السفن الراسية في المياه العميقة. وعند رصيف الرسو الممتد في البحر يوجههم العتالون والمرشدون إلى خيام متواضعة حيث يُقسَّمون فيها طبقًا لموطنهم الأصلي. استوطن كثير من هؤلاء الحجيج في جدة بعدما فرغوا من أداء نسكهم، وتزوجوا وتناسلوا ممّا أدّى إلى تحويل المنطقة المعروفة باسم الحجاز إلى منطقة متعددة اللغات والأعراق و«مزيج إنساني لملم الإسلام خيوطه من كل مكان في العالم»، كما ذكر الحاج أمين ريحاني في عام ١٩٢٢م. وفي جدة كان هناك أشخاص يتمتعون بالثروات الطائلة وآخرون يرزحون تحت غلال الفقر المدقع، وعلق على هذه النقطة كاظم زاده قائلًا: «إنك لترى الأثرياء الذين يدفعون مبالغ طائلة للحصول على قنينة عطر، ويصبونها كلها على رؤوسهم ويمشون وهم يختالون... وعلى الجانب الآخر ترى بؤساءً يعانون الحرمان والفاقة ويستلقون شبه عراة

(١٧) مُقتبس من: Yemen, op. cit., p. 202.
مُقتبس من: De Gaury, *Arabia Phoenix*, p. 121.
مُقتبس من: Peters, op. cit., p. 287.
يذكر أيضًا كاظم زاده تقدير كميات الروث على لسان الحاكم.

على قارعة الطريق، طامعين في أخذ قسط من الراحة في ظلّ الشجيرات». كانت العائلات ميسورة الحال تقيم في المدينة في منازل عالية مبنية على الطراز التركي ومزخرفة بالمرجان المستخرج من شاطئ البحر، وعلى جدرانها تتراص مصاريع النوافذ الخشبية التي تساعد في تبريد الأجزاء الداخلية من المنازل وتقي النساء أعين المارة. أما الفقراء، فكانوا يتدثرون بالملابس لتقيهم لفحات الشمس الحارقة وينامون في حواري جدة الرملية[١٨].

انتشرت الكوليرا في جدة، وأعلنت سلطات الصحة العامة الناشئة في أوروبا أن الهجرة العالمية من مكة وإليها لأداء فريضة الحج تعد مصدرًا محتملًا لانتشار المرض. وعملت السلطات الاستعمارية بجد لإنشاء نظام فعال للحجر الصحي. وحينما استُدعي أحد الأطباء العثمانيين لعلاج حالة خطيرة مصابة بالكوليرا قرابة نهاية القرن، علق على ما رأى بأن جدة «مقبرة هائلة» تعج بـ «الجثث التي ملأت النزل والمساجد والمقاهي والمنازل والأماكن العامة». فبات يلاحقه «صراخ الرجال والنساء والأطفال المختلط برغاء الجمال»[١٩].

وصل هاري سانت جون بريدجر فيلبي، المغامر البريطاني الذي سيكون له دور كبير في تطور المدينة عما قريب، إلى جدة خلال العقد الثالث من القرن العشرين، في الوقت نفسه الذي وصل فيه محمد بن لادن تقريبًا. وقد رأى فيلبي:

مزيجًا من الأغنياء والفقراء؛ من القصور العظيمة التي يقطنها علية القوم من التجار والمقاولين، بجدرانها الصلبة مرجانية اللون وزخارفها الخشبية المتداخلة، إلى الأكواخ المحطمة القابعة بجانب القصور والبالية القدم، من المساجد عظيمة البنيان إلى المساجد الصغيرة، ذات المآذن المدببة مستدقة الطرف تجاه السماء... سادت التناقضات كل الأماكن، بين الضوء والظل، والفخامة والانحطاط، والثرى والقاذورات، والأهم

(١٨) مُقتبس من: Peters, op. cit., p. 288.
وأيضًا نفس المصدر السابق ص ٢٧٥.
(١٩) مُقتبس من نفس المصدر السابق ص ٣٠٣.

من كل ذلك نجد أعلام دول كثيرة مثل بريطانيا العظمى، وفرنسا، وإيطاليا، وهولندا، بين أعلام دول الجزيرة العربية التي لا تعد ولا تُحصى[٢٠].

اعتمد اقتصاد المدينة على الحجيج الذين كانوا يدفعون قرابة ثلاثة ملايين جنيهًا إنكليزيًّا كضرائب كل عام في هذه الفترة، وحقق التجار أرباحًا تجارية من ورائهم تراوحت من أربعة إلى خمسة ملايين جنيه للتجار وأصحاب الجِمال ومرشدي الحجيج وأصحاب الفنادق الذين كانوا يتنافسون للفوز بنقودهم. غلبت على ضيافة جدة للحجيج صبغة الطمع والجلبة المصاحبة للقوافل في موسم الحج من الأشياء المعروفة منذ وقت طويل في المدينة؛ إذ لاحظ الرحالة ابن جبير في القرون الوسطى أنه حتى قبل وصول الإسلام، شيد الأسلاف «ضريحًا عتيقًا عالي البنيان مقببًا» لجذب السائحين، «وقيل إن هذا هو المكان الذي دُفنت فيه أمنا حواء... والله أعلم»[٢١]. وكان افتتاح قناة السويس في أواخر القرن التاسع عشر هو ما حوّل البحر الأحمر إلى مطمع استعماري تتنافس عليه السفن البخارية الأوروبية والتجار الأفارقة والسماسرة العرب للحصول على الربح والنفوذ. وبوصول محمد بن لادن كانت جدة قد تحولت إلى قلعة للمحتالين.

بدأ محمد حمَّالًا لأمتعة الحجيج، واستخدم في هذه المهنة حقيبة من الجلد لجر السلع والأمتعة وعلقها في ما بعد في أحد مكاتبه كتذكار. وكان هو وأخوه الأصغر يعانيان فقرًا مدقعًا خلال أيامهما الأولى في جدة حتى إنهما ناما في خندق حفراه في الرمال، وغطّيا نفسيهما بالحقائب، طبقًا لما رواه نديم بو فخر الدين، الذي عمل لدى العائلة بعد ذلك بسنوات. وفي البداية افتتح محمد كشكًا صغيرًا للشواء في متجر الندى الذي يطل على البحر في جدة. ويتذكر حسان العيسى الذي كان عاملًا مع بن لادن في جدة خلال ثلاثينيات القرن العشرين قائلًا: «كان متجرًا صغيرًا يشتمل على إناء كبير أو اثنين» لطهي الطعام. وورد في تقرير لأحد

(٢٠) مُقتبس من نفس المصدر السابق ص ٢٨٨.

(٢١) مُقتبس من نفس المصدر السابق ص ١٠٦.

الدبلوماسيين البريطانيين عن أصول بن لادن بعد ذلك بعدة عقود أن علامات نبوغه كتاجر ورجل أعمال بدت منذ البداية، فقد كان قادرًا على بيع أي شيء لأي شخص.

أدرك محمد بن لادن أن مجال الإسكان مجالٌ واعدٌ، فبدأ بالبحث عن وظائف وقتية لا تتطلب خبرة أو مهارة في مجال البناء. وكانت عجينة الإلصاق المصنوعة من المرجان والرواسب الصخرية المستخدمة في جدران منازل جدة متعددة الطوابق تتفتت بسهولة وتتطلب ترقيعًا وصيانة باستمرار. وخلال أواخر عشرينيات القرن العشرين تحديدًا الذي شهد فيه اقتصاد المدينة فترة وجيزة من الازدهار النسبي، ظهرت فرص للشباب للعمل في مواقع استخراج المرجان أو كبنائين غير محترفين ومقاولين للمشروعات الصغيرة. وبحلول عام ١٩٣١م، كان بن لادن قد أسس شركته الصغيرة[٢٢].

كان محمد رجلًا جذابًا ذا ملامح متناسقة وبشرة سمراء، وباتت عينه ذات العدسة الزجاجية الهائمة في كل اتجاه تلفت نظر بعض من يقابلهم، وكان يتمتع برشاقة تلقائية وحيوية ونشاط. ومع أنه لم يكن رجلًا مهيبًا ـ إذ يبلغ طوله قرابة خمسة أقدام وثمانية بوصات ـ فإنه كان يتمتع بحس تنظيمي تلقائي، ومازحًا ودودًا في إطار عمله، ورجلًا حقق النجاح بعد أن ذاق الأمرَّين في العمل لدى الغير. شق محمد بن لادن وأخوه طريقهما وسط المجتمع الحضرمي المترابط بجدة، واشتركا في الحفلات التقليدية خاصةً الرقص والأغاني الجماعية التي يُطلق عليها الزومال، التي تذكر الرجال بوطنهم. ويتذكر العيسى أنه شاهد محمدًا وعبد الله يرقصان ويطربان في ليلة من ليالي جدة قائلًا: «كانا متواضعين جدًّا». ودأب الأخوان ابنا بن لادن على إنشاد زومال بعينه بحماسة شديدة وكان يُنشد

---

(٢٢) المعلومات الواردة عن تغطية نفسيهما بالحقائب مُقتبسة من المقابلة التي أُجريت مع نديم بو فخر الدين بتاريخ ٢٦ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع حسن محول محمود العيسى بتاريخ ١٠ أغسطس/ آب عام ٢٠٠٥م. وأيضًا تقرير وزارة الخارجية: FO 371/ 170190, T. E. Bromley, Damascus to London, December 9, 1963.

أما عن تأسيس الشركة في عام ١٩٣١م فمن الإعلان المنشور في صحيفة **واشنطن بوست** *Washington Post* بتاريخ ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٥م عن «مجموعة بن لادن السعودية».

عادة والحضور حاملين المسدسات في أيديهم، وفي مواضع الوقفات تُطلق الأعيرة النارية الاحتفالية إلى عنان السماء:

اليوم انتهت دراستي

ولدي ساعة ذهبية

ومسدسي ذو الست طلقات

لا يرد التحية(٢٣)

يشير جيرالد أورباخ، الطيار الأمريكي الذي عمل لديه في ما بعد، أن بن لادن كان يتمتع بموهبة استشعار إمكانيات من حوله واستقطاب إخلاصهم إليه: «فعرف كيف يوظف كل فرد في العمل المناسب له، وعرف كيف يميز بين حالهم عندما يؤدون ما عليهم وعندما يقصّرون. وكانت لديه موهبة طبيعية وفطرية في المجال الهندسي لا تخطئها عين، وهو بالفعل أفضل من كثير من المهندسين المتخصصين ممن أعرف شخصيًّا أنهم مارسوا هذا العمل بعد اجتياز عدة مراحل تعليمية». وكما قال العيسى: «لأنه كان رائعًا جدًّا ولطيفًا جدًّا، كان كل المحترفين المحنكين يفضلون العمل معه طواعيةً»(٢٤).

كان عبد الله حسن يتولى إدارة أسواق العملات الأجنبية شديدة الرواج في جدة التي تُدولت فيها عملات التالر الفضية التي كان منقوشًا عليها صورة الإمبراطورة ماريا تريزا والعملات الذهبية وسط التقلبات العنيفة للأسعار. وخوّل هذا الرجل بن لادن تنفيذ أول مقاولة كبرى في المدينة القديمة، وهي تنفيذ «أعمال الصيانة والإصلاحات» في منزل كبير في المدينة كان يمتلكه، واستُخدم كسراي محكمة لبعض الوقت لمجموعة من قضاة جدة ممن كانوا يحكمون بالشريعة الإسلامية، طبقًا لما يقول العيسى. وقام بن لادن ببناء «بعض الجدران المقوسة من الأعلى وأصلح ما هو في حاجة إلى الإصلاح» في عملية تجديد متواضعة. «وكانت مسألة

---

(٢٣) مُقتبس من المقابلة التي أُجريت مع العيسى في نفس المصدر السابق.

(٢٤) مُقتبس من المقابلة التي أُجريت مع جيرالد أورباخ بتاريخ ١٠ مارس/ آذار ٢٠٠٥م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع العيسى في نفس المصدر السابق.

حظ لا غير»، ولكنني أعتقد أن الحظ لا يحالف إلا من يأخذ بأسباب النجاح؛ إذ كانت لديه الكفاءة في البناء وفي تنفيذ أعمال المقاولات سريعًا، وبأسلوب أسعد أثرياء جدة غريبي الأطوار ممن يصعب إرضاؤهم. وكانت العملية التي أوكلها إليه عبد الله حسن هي التي وضعته على أول طريق النجاح. وانتقل محمد وعبد الله للإقامة في منزل متناهي الصغر شمال جدة[٢٥].

عندما استفحل الكساد العظيم في بداية ثلاثينيات القرن العشرين، انهارت السياحة والسفريات العالمية، وتقلص معها سفر المسلمين إلى مكة لأداء فريضة الحج، وبالمثل إلى جدة، وتدهورت كذلك الأنشطة التجارية كافة بطول ساحل البحر الأحمر. وغرقت جدة في حالة من الفتور والكساد، وسريعًا أدرك محمد بن لادن أن عمله في جدة ليس كافيًا ليعينه على المعيشة؛ لذا شق طريقه ليجد عملًا يحصل منه على المال، وعبر أسوار جدة إلى سهول البيداء الشاسعة الجرداء التي تمتد إلى الشرق. ومن حسن طالعه أن التطورات السياسية والاقتصادية الشديدة بدأت تعصف بشبه الجزيرة العربية. وكان النفط هو محور هذا التحول، إلى جانب وجود ملك غير تقليدي يحكم هذه المنطقة التي ثبت أنها تسبح فوق بحر من النفط.

---

(٢٥) مُقتبس من المقابلة التي أُجريت مع العيسى في نفس المصدر السابق. ويدعم روايته عن تلك السنوات المؤرخ سامي صالح نوار الذي كان يقيم في جدة وهو مدير بيت عمر أفندي نصيف التاريخي وهو الذي عقد مقابلات مع زملاء سابقين لمحمد بن لادن عاشوا في تلك الحقبة.

الفصل الثاني

المرآب الملكي

غادر عبد العزيز بن سعود الكويت عام ١٩٠٢م وفي حوزته سيفٌ وبعض الجمال ومجموعة صغيرة من التابعين، باسم عائلته، للمطالبة باسترداد مدينة الرياض ذات الأسوار المبنيّة من الطوب اللبن والواقعة في وسط نجد، والمملكة محدودة القيمة التي تشرف عليها. حكم آل سعود هذه الإمارة الحارة ـ التي لا يقطنها سوى قليل من الناس ـ مرتين في القرون الأخيرة، وفي المرتين أطاح بهم الأعداء المصريون والعثمانيون.

وخاض عبد العزيز أكثر من اثنتين وخمسين معركة على مساحة شاسعة تبلغ مئات الأميال المربعة في سعيه لاسترداد الحكم. ولم تتعد تلك المعارك في أحيان كثيرة كونها هجومًا جماعيًّا ضاريًا على الجِمال والأقدام تشنه جماعة من البدو الضعفاء حاملي البنادق على مخيم جماعة أخرى، لكنهم قد يتمكنون من إلحاق الضرر بهم. وبحلول عام ١٩٣٢م، عندما أعلن عبد العزيز أخيرًا عن تأسيس المملكة العربية السعودية الجديدة، كان يعاني ندوبًا خطيرة على ذراعيه وجسده، وكان أعرج بسبب جرح في ساقه أصيب به في الحروب.

كان الملك عريض المنكبين يبلغ قرابة ستة أقدام وثلاث بوصات بحيث يمكن رؤيته بوضوح وهو جالس على ظهر جمل وسط وادٍ شاسع، وتعلو هامته عن كثير من رعاياه وعبيده إذا ما وقف في مجلسه. لكنه حكم شعبه بالود قدر ما حكم بالترهيب، وأخبر زواره أنه يتبع سيدنا

محمدًا في حبه ثلاثة أشياء في الدنيا: «النساء والطيب والصلاة»(*) ولذا كان يحتفظ دائمًا بقنينة عطر في جيب عباءته، واعتاد صب العطر على يديه صبًّا عندما يصافح الزوار، حتى يمرر عطره إليهم. واتّسم هذا الرجل بابتسامة جذابة طُبعت على وجهه. وبينما كان يجلس على عرشه، يبدأ فاصلًا من المناجاة الفردية التي يتنقل فيها بين أكثر من موضوع ويقرنها بالأقوال المأثورة المجازية التي تُقال في الصحراء عن الثعالب الماكرة والعقارب السامة. ومع ذلك كان سياسيًّا محنكًا وعمليًّا ورابط الجأش، ولديه قدرة فائقة على استيعاب الصراعات القبلية والدينية التي نشبت في شبه الجزيرة العربية في العصر الاستعماري، وإداراتها على نحو أفضل من أي شخص آخر قبله. وها هو ذا يقول لأحد زواره: «لست رجلًا يعيش في الخيال، بل أتشبث بالحقيقة الواقعية، وهذا كل ما أملك»(١).

كان فتح الحجاز ـ التي تقع في الجهة الغربية من شبه الجزيرة العربية ـ وفتح مدينة جدة التي تقع فيها يمثلان أعظم الإنجازات التي حققها الملك عبد العزيز في المرحلة الأخيرة لحملته، حيث دانت له السيادة على أعظم وأشرف مدينتين في الإسلام؛ مكة والمدينة، إلى جانب الاستفادة من عائد الضرائب الضخم من الحجاج الوافدين إلى المدينتين، هذا فضلًا عن السيطرة على ميناء جدة على البحر الأحمر. لكنّ حكمة عبد العزيز جعلته يدرك أن جيشه المتواضع المكون من محاربي الصحراء الأميين لن يلاقوا ترحيبًا شديدًا في مدينة جدة المتطورة؛ لذا حاول الملك استمالة رجال الأعمال في المدينة بدلًا من

(*) قال رسول الله (ﷺ): «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». قال الشيخ الألباني: «صحيح» انظر حديث رقم: ٣١٢٤ في صحيح الجامع (المترجم).

(١) لمزيد من المعلومات عن المعارك التي زادت عن اثنتين وخمسين راجع: Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia*, pp. 4-S. De Gauty, in *Arabia Phoenix*.

حيث يسرد رواية رائعة عن أساليب البدو في شن الحروب من ص ٤٨ إلى ص ٥٢. المعلومات عن إهداء العطر للزائرين مُقتبسة من كتاب «الصالح»: «رحلات إلى شبه الجزيرة العربية أثناء حكم الملك عبد العزيز». و مُقتبسة أيضًا من: *Arabia Phoenix*, op. cit., p. 66.

ومقتبسة أيضًا من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: Department of State 59/7209 Jeddah to Washington, April 29, 1948.

مواجهتهم عسكريًّا، ففرض حصارًا لمدة عام واحد على أسوار جدة، الأمر الذي أودى بسكان المدينة إلى حالة من الفقر الشديد الذي فاق أي فقر عايشوه من قبل، وانتهت الحملة عندما سلمه كبار تجار جدة مفاتيح المدينة. وحتى هذه اللحظة كان على الحياد، وما دامت عائدات الضرائب تتدفق، فضل عبد العزيز الإقامة في الرياض المرفهة المنعزلة في وسط شبه الجزيرة، وشعر بأنه أكثر أمانًا هناك. وكانت منطقة الحجاز وساحل البحر الأحمر ـ في تقدير عبد العزيز ـ منطقة لا تخلو من المكائد الإيطالية والعمليات البريطانية الغادرة.

أدى انهيار الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى إلى تعزيز شوكة القوى الاستعمارية الأوروبية في المنطقة وتنافسها على نيل ثرواتها، وهو صراعٌ تباطأ إيقاعه بسبب الخسائر الشنيعة التي مُنيت بها في الحروب، إلا أن حلم الإمبراطورية العنيد فرضه على الساحة. لم يسبق أن غزا أي جيش أوروبي قلب شبه الجزيرة العربية، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أنها قاحلة وبعيدة بصورة نأت بها عن المطامع الاستعمارية. وبهدف التصدّي للأتراك قدّم البريطانيون الدعم المادي إلى الملك عبد العزيز حتى عام ١٩٢٥م، إلا أنهم لم يشملوه بدعمهم الكامل مطلقًا كما إنه لم يثق بهم أبدًا، لأنهم أيضًا دعموا أعداءه في مكة؛ الأشراف الهاشميين، ويقول إن شعوره تجاه البريطانيين: «كالأب الذي يتمنى موت ابنه عندما يغضب منه، لكن الأب نفسه سوف يقتل من يقول «آمين» مصدقًا على أمنيته». لذا طلب عبد العزيز من الأمريكيين أن يقدموا له الحماية من المكائد البريطانية، وكان ينظر بإعجاب شديد إلى صعود ألمانيا النازية. وكان للملك عبد العزيز نظرة عدائية للمسيحيين يقترن بها شعورٌ بكراهية الآخر، ونظرة أكثر عدائية وكراهيةً لليهود؛ إذ قال لوفد أجنبي ذات مرة: «أَحْمَدُ الله على أن اليهود اختفوا من شبه الجزيرة منذ أربعة عشر قرنًا». وعلى حدّ علمه، لم تقع عيناه على أي يهودي أبدًا. وفي الوقت الذي طُرحت فيه إقامة دولة إسرائيل للمناقشة، عارض الملك عبد العزيز الأمر بكل ما أوتي من قوة وتشبث بموقفه، وصرح قائلًا: «إنها مسألة شرف بالنسبة إليّ». كما إنه افترض أن غير المسلمين كافة غير جديرين بالثقة، وسأل أحد الزوار المسيحيين ذات مرة بفضول لا يخلو من روح الدعابة:

«هل تشرب الخمور؟ وتلعب القمار؟ وترقص مع زوجات أصدقائك؟»[٢].

يبدو أن الزواج كان هو المتعة الكبرى في حياته، أو على الأقل القوة التي لا يستطيع مقاومتها على الإطلاق. ففي عام ١٩٣٠م، أخبر الإنكليزي فيلبي أنه تزوج مئة وخمسة وثلاثين عذراء، وقرابة مئة سيدة ثيب حتى تاريخه، لكنه أخبره بأنه قرر أن يقيد نفسه بزوجتين جديدتين فحسب سنويًّا حتى ينتهي أجله، وبذلك يبدو بشكلٍ ما قد التزم بالشريعة الإسلامية التي تبيح الزواج من أربع سيدات في آنٍ واحد وذلك عن طريق الزواج والطلاق سريعًا، إضافة إلى الاحتفاظ بحاشية إضافية من الجواري وما ملكت يمينه. وهناك جانب سياسي، بل عسكري، بخصوص كثرة الزواج؛ إذ طبقًا للمؤرخة مضاوي الرشيد: «توحدت دولة السعوديين بالزواج» وفي أحيانٍ كثيرة كان عبد العزيز «يتزوج الزوجات السابقين لأعدائه ومنافسيه السابقين أو بناتهم»[٣].

تراوحت الأعداد التقديرية للعبيد في مملكته من عدة آلاف إلى عشرات الآلاف، وكان العبيد الذين يخدمون علانيةً في قصر الرياض الملكي يبلغون المئات. وعندما كانت أمة ممّا ملكت يمينه تلد ابنًا، يحرر رقبتها على الفور. خلاصة القول صار لعبد العزيز ما يقرب من خمسة وأربعين ابنًا أصبحوا ورثته الشرعيين، أما إن كان له أبناء وبنات غير هؤلاء فهذا أمرٌ لا يعرفه أحد[٤].

---

(٢) مُقتبس من تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 141/1094, January 14, 1946.

ومُقتبس أيضًا من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS S9/7212 Dhahran to Washington, June 14, 1946.

ومُقتبس أيضًا من: Van der Meulen, *The Welts of Ibn Saud*, p. 15.

(٣) المعلومات التي أبلغها عبد العزيز لفيلبي مُقتبسة من: Howarth, *The Desert King*, p. 127.

ومُقتبس أيضًا من: *A History of Saudi Arabia*, op. cit., pp. 9, 80.

(٤) ذكر دبلوماسي أمريكي في جدة في برقية بتاريخ ٣ أبريل/ نيسان ١٩٥٠م أن «عدد الرقيق لم يتجاوز ٢,٠٠٠ على أقصى تقدير» في المملكة وأن عبد العزيز كان يملك ما يقرب من «٢٠٠ عبد» وذكر دبلوماسي أمريكي آخر بتاريخ ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥١م تقديرًا «موثوقًا به» يقول فيه أن عدد الرقيق كان يبلغ ٥٠,٠٠٠ في المملكة العربية السعودية. وعلى ما يبدو فإن تلك الأرقام سوف تعطي صورة تقريبية لعدد السكان. وأدى الوضع الغامض لعدد من العبيد في البيوت السعودية إلى تعقيد صعوبات تقدير أعدادهم حيث تمتع بعض منهم بوضع استثنائي ممّا تعذر معه تمييزهم عن الخَدَم الأحرار.

على الرغم من إسرافه الظاهري، عاش الملك حياةً بسيطة وورعة؛ فلم يحتس الخمور ولم يدخن ومنع مساعديه من ارتداء الحرير، وكان يصلي يوميًّا الصلوات الخمس، وفي مجلسه كان الصوت السائد عادة بعد يوم القعقعة صوت فناجين القهوة الهادئة وترتيل قارئي القرآن الكريم. كان عبد العزيز على يقين تام بأن الله سبحانه وتعالى سخره لحكم تلك المملكة التي تقع في قلب الصحراء، ومن المؤكد أنه كان سيفعل كل ما في وسعه لتنفيذ هذا الأمر الإلهي وفق تشريعات الإسلام، ويترك النتيجة للقدر. اتسم المنهج الإسلامي الذي تعلمه عبد العزيز بالصرامة والتعصب، ففي الحجاز انتشر الشيعة والصوفيون الزاهدون، وعلماء من كل المدارس القديمة لمذهب السنة. ولكن في بلاط قصر الملك عبد العزيز في الرياض، لم يكن هناك سوى المذهب البسيط والمتشدّد لمحمد بن عبد الوهاب؛ خطيب البيداء الديني الذي عاش في القرن الثامن عشر والذي رفض من دون مبالغة كل أنواع الزينة والفنون والموسيقى والتكنولوجيا باعتبارها من مظاهر الكفر والإلحاد. وفي تلك الصحراء مترامية الأطراف المنعزلة في وسط شبه الجزيرة العربية، يذكر لنا المعماري سامي عنقاوي الذي وُلد في مدينة جدة: «إما أن يكون هناك ليلٌ أو نهار، برد أو حرارة، ولا يوجد تدرج للألوان. حتى الموسيقى، وترٌ واحدٌ فحسب. . . إما أبيض أو أسود. إما أن تكون معي أو ضدي»(٥). ومع ذلك فإن التشدد الديني لأتباع الملك من الوهابيين سببت له مشاكل مستمرة؛ مع الإخوان بصفة خاصة، وهي مجموعة من المقاتلين الراديكاليين المتشددين جهزهم عبد العزيز لقهر أعدائه. وعندما هدد الإخوان بالانقلاب على عبد العزيز لأنهم شعروا أن تدينه ليس متطابقًا مع معاييرهم الصارمة، صوب الملك أسلحته تجاههم. وفي الوقت نفسه، وحتى يحتفظ بالعرش، اضطر بصفة مستمرة إلى استرضاء العلماء الإسلاميين المقيمين في بلاطه.

ناقش عبد العزيز هؤلاء العلماء بخصوص إيجابيات التكنولوجيا الحديثة ومخاطرها. ومن خلال اتصالاته مع البريطانيين، استوعب عبد العزيز الإطار العام لثورة التصنيع الأوروبية، والتنوع المذهل للمنتجات

(٥) مُقتبس من: «The House of Saud,» Algeria Productions, 2004.

وسبل الراحة والرفاهية التي وفرتها لمستخدميها. ولم تكن لديه رغبة على الإطلاق في تبني مظاهر الحضارة الأوروبية، إلا أن المعدّات الحديثة أثارت فضوله واهتمامه بصورة كبيرة. ولم يتخل عبد العزيز عن تقاليده العربية إطلاقًا وكان يسخر من أناقة الإنكليز وغرورهم. وفي أثناء اجتماع مع أحد الضباط البريطانيين في الصحراء، دخل خيمة واسعة تابعة للبريطانيين ومجهزة بمقاعد فخمة، وقال بصوت عالٍ: «ها نحن قد لحقنا بقطار الحداثة! احضر لنا الشاي أيها الصبي!» ودعا حاشيته من البدو الذين كانوا يرتدون العباءات التقليدية للجلوس على المقاعد المنقوشة قائلًا بنبرة ساخرة: «لنفعل مثلما يفعل أصحاب الحضارة العصرية!» لكنه قلدهم لاحقًا، حيث إنه أمر بتجهيز مجلسه في الرياض بأثاث أوروبي بحلول ثلاثينيات القرن العشرين.

عشق عبد العزيز المذياع تحديدًا الذي مكنه من معرفة الأخبار الأوروبية من دون مغادرة قصره. ومثلت الشبكة اللاسلكية التي اخترعها العالم ماركوني والتي شرع عبد العزيز في بنائها في شبه الجزيرة العربية خلال أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، مثلت له وسيلة مهمة وغير مسبوقة لمراقبة الأحداث الجارية في مملكته والتعامل معها. إلى جانب ذلك أمر بإنشاء محطات راديو في المدن الكبيرة، وغرفة عمليات مركزية في الرياض استطاع منها اقتفاء أثر الثوار المحتملين في أنحاء المملكة كافة، وإرسال الأوامر الشفهية أو إرسال وحدات جيشه لتنفيذ مهام معينة. وقد بذل جهودًا جبارة لإقناع علماء الرياض الإسلاميين المتشككين بإجازة استخدام هذه الأجهزة، ولكن هؤلاء العلماء اعترضوا اعتراضًا شديدًا على الموسيقى ـ من بين أشياء أخرى ـ التي تُذاع قبل بث النشرات الإخبارية على محطة بي بي سي. ولأنه كان من المستحيل توقع موعد إذاعة هذه الموسيقى على نحو دقيق، أقنع عبد العزيز العلماء أن الخطأ يكمن في أزرار الراديو، وليس في الراديو أو محطات الإذاعة. بالإضافة إلى ذلك سعى إلى إقناع علمائه الدينيين أن البرقيات ليست من ضروب السحر.

أهدى رجال الأعمال في جدة إلى الملك سيارات فورد وشيفروليه استخدمها لاصطياد الغزلان في الصحراء. وكان يحرك قدميه كمن يجري مسرعًا وهو جالس في المقعد الأمامي إلى جانب قائد السيارة البدوي

ليطارد الصقور التي يستخدمها في الصيد وهي تندفع لأسفل لمهاجمة الظباء الفارة، منتزعة أعينها بمناقيرها قبل أن يتمم الرجال القتل التقليدي. وكان عبد العزيز يقود سياراته بسرعات فائقة ويسرع كالبرق ممّا كان يسفر عن تحطمها سريعًا، وكثيرًا ما كان يتركها مهملة لتصدأ. وفي عام ١٩٢٧م، كان مرآبه الملكي يضم ٢٥٠ سيارة فورد وشيفروليه، وفي ما بعد أخذ هذا العدد في الازدياد[٦].

كان هاري سانت جون فيلبي هو الوكيل الذي يورِّد لعبد العزيز سيارات الفورد وأجهزة الراديو التي اخترعها ماركوني، والذي تسلل إلى قصره تدريجيًّا، وأضفى عليه جوًّا من الدسائس والمؤامرات الهزلية. تخرج هاري في جامعة كامبريدج حاصلًا على تقدير امتياز في اللغات الحديثة، والتحق بالخدمة المدنية الهندية، ثم عمل في ما بعد في العراق، لكنه بعدما استقال من الخدمة الاستعمارية في بريطانيا، تراكم لديه شعورٌ بالغضب والمرارة من حكومته. وحتى ذلك الوقت كان يتمنى بشدة أن يُعترف به في إنكلترا باعتباره عالم الجغرافيا العربي الأول ورحالة زمانه. وخلال عشرينيات القرن العشرين لازم عبد العزيز بصفته مستشارًا غير رسمي واعتنق الدين الإسلامي، ومن ثَم وهبه الملك اسمًا جديدًا؛ عبد الله. واتّسم عبد الله، حسبما كتب عنه أحد معارفه، بأنه «شخصٌ ممتلئ الجسم ملتح في زي عربي، مولعٌ بالجدل على نحو عنيف وجريء، وهو متمسك للغاية بأصله البريطاني، ولكنك تشعر أنه عربيٌ أكثر من العرب». وعلى الرغم من كل المظاهر التي تبدو عليه، فلم يكن «محاربًا أو شاعرًا. . . كان نوعًا من الرجال يتجه دومًا عكس التيار». وحال عدم وجوده في بلاط قصر الرياض الملكي، تجده مقيمًا في منزل يبعث على الشعور بالراحة في جدة، حيث أسس شركة لبيع سيارات الفورد، إلى جانب رعاية قرود الرباح التي كان يجمعها كهاوٍ[٧].

---

(٦) مُقتبس من نفس المصدر السابق. والمعلومات عن المفاوضات التي عُقدت مع العلماء المسلمين عن أزرار الراديو مُقتبسة من: *Arabia Phoenix*, op. cit., pp. 96-97.

والمعلومات عن المرآب الملكي الذي كان يضم ٢٥٠ سيارة في عام ١٩٢٧م مُقتبسة من: Holden and Johns, *The House of Saud*, p. 106.

(٧) المعلومات الواردة عن درجة فيلبي وخدمته مقتبسة من نفس المصدر السابق. ومقتبسة أيضًا من: Howarth, *The Desert King*, pp. 100-101.

والمعلومات الواردة عن هواية جمع قرود الرباح مُقتبسة من نفس المصدر السابق ص ١٧٩.

ربما يكون تشكيك فيلبي الشديد وتحامله على الحكومة البريطانية ـ الذي أدّى في نهاية المطاف إلى القبض عليه خلال الحرب العالمية الثانية لترويجه لقضايا ألمانيا النازية ـ هو السبب الذي أدّى إلى اعتماد الملك عبد العزيز عليه كاستشاري محايد في تعاملاته مع الأوروبيين والأمريكيين. وأهدى له أَمَةً كهدية، ومنحه تصريحًا بالسفر في أنحاء شبه الجزيرة، لتوثيق الحياة النباتية والحيوانية لتكون خير عون له في الكتب والمحاضرات التي يلقيها فيلبي لعلماء الجغرافيا الإنكليز. وخلال ثلاثينيات القرن العشرين أدّى فيلبي دورًا أساسيًّا في إدارة المفاوضات الحاسمة المنعقدة بخصوص عقود امتيازات المناجم والنفط.

أصدر ونستون تشرشل قرارًا بتحويل محركات آليات قوات البحرية البريطانية للعمل بالنفط بدلًا من الفحم خلال الحرب العالمية الأولى، وبذلك اشتعلت أول شرارة لعصر النفط. احتكرت بريطانيا الإنتاج الكلي في إيران والعراق، إلا أن المستكشفين الأمريكيين شرعوا أيضًا في البحث عنه في الشرق الأوسط. وفطنت شركة نفط أمريكية، تُدعى شركة سوكال (ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا)(*)، لتعيين فيلبي ضمن فريق عملها، ودفعت له راتبًا يبلغ ألف دولار شهريًّا، وقطعت له وعدًا بمنحه مكافأة تبلغ عشرة آلاف دولار إذا حصلت على امتياز التنقيب عن النفط من الملك السعودي، إلى جانب حصوله على خمسين ألف دولار إضافية من العوائد إذا ما استُخرجت كميات هائلة من النفط وصُدِّرت للخارج. تراكمت المديونيات على عبد العزيز بسبب ولعه بالسيارات وأجهزة الراديو التي يشتريها من فيلبي، ولم تقتصر إيجابيات صفقة النفط الأولى مع سوكال على النسبة التي حصل عليها فيلبي من الأموال النقدية فحسب، لكنها أغدقت عليه وابلًا من العائدات التي لم تكن في الحسبان حتى إن الملك تمكن من تسديد كافة ديونه منها. وبدا فيلبي عازمًا على استبعاد بريطانيا من كعكة التنقيب عن النفط في المملكة العربية السعودية، ومن ثَم فإن الصفقة التي عمل وسيطًا فيها ووُقعت مع شركة سوكال عام ١٩٣٣م، وفرت لعبد العزيز ذهبًا تبلغ قيمته خمسين ألف جنيه إنكليزي، إلى جانب

(*) سوكال آنذاك وشيفرون حاليًا.

وعده بمبلغ مماثل وعوائد إضافية إذا استُخرج النفط بكميات تحقق أرباحًا تجارية[٨]. لم يظهر الملك اهتمامًا شخصيًّا شديدًا بالنفط، لأنه كان أكثر اهتمامًا بالتنقيب عن المعادن والموارد الطبيعية المماثلة للنفط في الأهمية من وجهة نظره، وخاصةً الماء. ولكن الموارد التي يحتاج إليها لسد احتياجات عائلته الضخمة وكبح لجام قبائل شبه الجزيرة والمنافسين السياسيين الآخرين جعلته يتجه بكل ثقله نحو النفط الذي سيوفر له الذهب.

وبمجرد أن حصل عليه شرع في إنفاقه، وشأنه شأن كثيرين من حديثي الثراء، اتخذ قرارًا هو وأولاده بأن يستمتعوا بحياتهم في مكان أفضل وأكبر. ومن ثَم بدأت طفرة بناء القصور الفارهة خارج أسوار الرياض مباشرة. وفي الوقت نفسه، إلى الشرق بمحاذاة شواطئ الخليج، وصل الأمريكيون لبدء التنقيب عن النفط، وبدؤوا أيضًا في تشييد المنازل والمدارس والمكاتب والمخازن.

ويا لهما من مكان وزمان مناسبين لشاب يتمتع بروح الإقدام والمبادرة في مجال المقاولات.

تأسست شراكة اتحادية باسم شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو)، للسيطرة على حقوق استغلال النفط التي حصلت عليها شركة سوكال. واستوطن الجيولوجيون الأمريكيون ومهندسو التنقيب ومديرو الإنشاءات في مدينة الظهران، التي تبعد قرابة ثلاثمئة ميل شرق الرياض، بالقرب من التلال الرملية التي يُتوقع أن تكون قابعة على أكبر احتياطيات للنفط في العالم. بينما أنف البدويون الرحالة الأعمال اليدوية وهم الذين كانوا يهيمون في الصحراء في جماعات متفرقة ويكسبون قوت يومهم بالكاد عن طريق تجارة القوافل ورعاية الحيوانات. ومع أن بعضهم عملوا في مجال النفط، فإنهم ظلوا بعيدين عن معسكرات شركة أرامكو المستقرة في المنطقة. بينما أقبل مئات العرب الآخرين ـ مثل الشيعة المحليين الذين كانوا يتعرضون للتمييز من جانب البدو، والمهاجرين الأجانب الفقراء مثل الأخوين ابني لادن ـ على العمل لدى الأمريكيين بحماسة مقابل أجور معقولة.

---

(٨) المعلومات الواردة عن عقد فيلبي مُقتبسة من: *A History of Saudi Arabia*, op. cit., p. 92
والمعلومات الواردة عن عقد سوكال مُقتبسة من: Lippman, *Inside the Mirage*, p. 16.

سافر محمد بن لادن من جدة إلى الظهران، وعثر على فرصة عمل مع شركة أرامكو كعامل بناء، وأتقن عمله، حتى إن المشرف الذي كان عامل بناء محترفًا أمريكيًّا من الطبقة العاملة علق على مستوى عمله قائلًا: «إن هذا الرجل رائع جدًّا» طبقًا لما رواه تيم برجر الذي شغل والده منصب المدير التنفيذي لشركة أرامكو. وفي غضون أسابيع فحسب أصدرت أرامكو قرارًا بترقية بن لادن إلى كبير عمال البناء، وبعد ذلك بأشهر قليلة ترقى مرةً أخرى ليشرف على مجموعات عمل متعددة. وقال برجر الذي احتفظ بمذكرات والده وعمل في ما بعد في المملكة العربية السعودية: «كانت لديه مقومات النجاح. صحيح أنه فقد إحدى عينيه، ولكن ذلك لم يعقه عن متابعة العمال وإدارة العمل. وبعد انقضاء فترة طويلة ـ ربما عام أو عام ونصف ـ ذهب إلى مسؤولي شركة أرامكو وقال لهم: «أريد أن أبدأ مشروعًا خاصًّا بي». وكان من الصعوبة بمكان استدعاء الشركات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية لأداء كل المهام البسيطة، بدءًا من خدمات تقديم الأغذية والمشروبات وانتهاءً بإصلاح سياجات المواقع، ومن ثَم قدمت شركة أرامكو المساعدة لأي عربي بدت عليه أمارات النجاح كمقاول مستقل. «فقالوا له: «هيا انطلق وابدأ مشروعك، وسوف نخول إليك بعض المهام، وبإمكانك دومًا الرجوع إلينا». وسارت الأمور على خير ما يُرام في مهنة المقاولات حتى إنه كان يقيم في الرياض أيامًا تلو الأخرى إذا ما ذهب في مهمة عمل». وذكر التقرير الذي أعدَّته الحكومة الأمريكية عن بن لادن بعد ذلك بعشرات السنوات أنه بدأ عمله الخاص مستقلًّا عن أرامكو عام ١٩٣٥م(٩).

كانت عقود المقاولات في الرياض تتوقف على استحسان الملك عبد العزيز شخصيًّا، وكان من السهولة بمكان على رجل مثل بن لادن أن يتواصل مع الحاكم؛ حيث تمكن من حضور مجلسه المنعقد يوميًّا الذي

(٩) من المكالمة الهاتفية التي أُجريت مع تيم برجر بتاريخ ٧ مارس/ آذار ٢٠٠٦م. سجل برجر بعضًا من ذكريات والده لمشروع تاريخي خاص كان يتحدث عنه شفاهة. وبعد ذلك انتقل للعمل في جدة حيث صار مقربًا من سالم بن لادن. والمعلومات الواردة عن التقرير الأمريكي في عام ١٩٣٥م مقتبسة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: «DOS 59 «The Bin Ladin Construction Empire, Jeddah to Washington, September 25, 1967.

يستطيع أي فرد فيه الجلوس في قاعة العرش والتماس الفرصة المواتية لتقديم طلب عمل له.

كانت مدينة الرياض التي وصل إليها بن لادن خلال ثلاثينيات القرن العشرين لا تزال مدينة محصنة بالأسوار، كالمدن التي عرفها وهو صبي في وادي دوعن. وعلى امتداد السهل الصحراوي الشاسع شيد السعوديون حصونًا عن طريق إحاطة المدن بالأسوار المبنيّة بالطوب اللبن التي يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين قدمًا. وكانت مدينة الرياض محاطة بحدائق النخيل، وألف سكان المدينة الدخول والخروج عبر بواباتها لأخذ خشب البناء أو الحصول على الماء على مدار ساعات اليوم، وفي أوقات الصلاة وليلًا تُغلق البوابات. وكتب فيلبي عن أسوار مدينة الرياض أنها: «تعلوها حافة مصممة بطريقة غير جمالية تشبه أسنان سمكة القرش بفواصل متقاربة، لا تقطعها سوى المعاقل وأبراج الهجوم الضخمة الخاصة بالحراس». ومن داخل الأسوار تُرى المنازل المتراصة ذات الجدران السميكة أحدها أمام الآخر في الأزقة الملتوية ممّا أفضى إلى انعكاس الظل على الأرض، وكان هناك ساحات للبيع والشراء وأكشاك تجارية غير منظّمة، وهناك بالطبع مسجد كبير أصدر الملك أمرًا ببنائه[١٠].

نظرًا إلى فتح الحجاز وإبرام العقود الجديدة مع شركات النفط الأمريكية، لم يعد عبد العزيز متخوفًا من هجوم أعدائه على الرياض على نحو غير متوقّع. ولذا فإنه في عام ١٩٣٤م بدأ للمرة الأولى في إنشاء المباني خارج أسوار المدينة، وتعاقد مع مقاول محلي للإشراف على بناء مجمع جديد وفخم لقصور العائلة الملكية يستطيع أن يعقد فيه الملك مجالسه، ويركب به أجهزة راديو ماركوني اللاسلكية الجديدة، ويقيم به على الأقل بعض أفراد عائلته الضخمة. وما إن تزوج أبناؤه، أضاف عبد العزيز المزيد إلى خطة البناء بتخصيص منازل لهم في المجمع الجديد. وأطلق على قصره الجديد اسم «قصر المربع»، وعندما اكتمل بصورة نهائية عام ١٩٣٩م أضحى المبنى الرئيس صرحًا مذهلًا مشيَّدًا من طابقين حول

(١٠) من الاقتباس المذكور في كتاب عبد الرحمن العنقري **منطقة قصر الحكم: التطور في القرن العشرين**.

ساحة مفتوحة، تتجه منه نخلة شاهقة الارتفاع إلى عنان السماء، وكانت مكاتب كل من المساعدين السياسيين للملك ومقدمي القهوة العربية والحراس العبيد وعلماء الدين وحراس الخزانة متراصة على جانبي قاعات المجلس في الطابق الثاني من المبنى. وتطلّب المشروع بأكمله، بما فيه مرائب أسطول السيارات الهائل التي يملكها عبد العزيز، بناء عشرات المباني في تلك المنطقة الجرداء القاحلة. طلب الملك ومستشاروه من أصدقائهم الأمريكيين الجدد مساعدتهم في توفير المواد وفي مجال الإنشاءات ككل، إلا أن تركيز شركة أرامكو والشركات التي دعتها إلى العمل في المملكة العربية السعودية ـ وعلى رأسها شركة بكتل بسان فرانسيسكو ـ كان منصبًّا على تشييد البنى الأساسية للاقتصاد الجديد للنفط، ولم يرق لها الانشغال بمشروعات تشييد قصور الملك الشخصية(١١).

في ظلّ هذه الفجوة لاحت الفرصة لمحمد بن لادن، ويتذكر محمد عشماوي صديق العائلة أنه: «كان لديه بُعد نظر، إذ استطاع التنبؤ بإمكانية تحقيق مكاسب ضخمة بعرض المساعدات على أفراد العائلة المالكة خاصةً ذوي الشأن منهم. . . فشرع في بناء المنازل لبعض أفراد العائلة المالكة». ولا يُعرف بدقة توقيت مقابلة بن لادن لعبد العزيز وكيفيتها أول مرة، لكن سريعًا ما «صدرت إليه أوامر ملكية كثيرة لتشييد مشروعات في الرياض»، طبقًا لإحدى الروايات السعودية عن المراحل الأولى في عمله. وكان أهم هذه المشروعات، أول قصر في الرياض بُني بالأحجار كاملًا، وأدّى هذا إلى إبرام كثير من العقود الأخرى لتشييد ما أصبح يُعرف بمجمع قصور المربع. كان الحضرميون، شأنهم شأن نظرائهم اللبنانيين الأكثر تقدمًا، يتمتعون بسمعة طيبة لامتلاكهم روح الإقدام والمبادرة. وعُرفوا بأنهم أناسٌ يتحدون كل الظروف لإنجاز العمل، حتى وإن لم يتقنوه أو يعرفوا أدواته أساسًا. يُطلق على السهل المحيط بمدينة الرياض «منطقة نجد»، وكان لسكان نجد الأصليين رأي شائع في هؤلاء الكادحين العصاميين اليمنيين أمثال بن لادن: «إذا أردته خبازًا فسيعمل خبازًا، وإذا أردت أن يعبِّد لك

---

(١١) تدل الأجزاء المتبقية من القصر ـ التي تضم مؤسسة الملك عبد العزيز ـ أن البناء بدأ في عام ١٩٣٤م وانتهى في ١٩٣٩م. وكتبت المؤرخة السعودية مضاوي الرشيد أن بناء القصر بدأ في عام ١٩٣٦م وانتهى في عام ١٩٣٧م. راجع: *A History of Saudi Arabia*, p. 93.

الطريق فسيفعل». وطبقًا لرواية المؤرخ السعودي فهد السماري، نبعت قوة بن لادن في هذه الأيام الأول من أنه كان «موجودًا دائمًا في الصورة... وبوسعه توفير كثير من العمال لأداء المهمة. وتراه يُحدث كثيرًا من الفوضى من حوله، ولكنه تميز بمهارة تنفيذ العمل سريعًا. وإذا كانت حاجة العمل تتطلب عشرة أفراد يحضر مئة»(١٢).

حصل عبد العزيز خلال فترة الكساد العظيم على عوائد من النفط، وإن كانت قليلة. إضافة إلى ذلك، تسببت الحرب العالمية الثانية في إعاقة الشحن الدولي في الوقت الذي كانت السعودية تستعد فيه لتسليم أولى صادراتها النفطية الكبرى. ولم تكبح تلك الظروف ولع الملك بتشييد القصور أو استيراد وسائل الترف في الوقت الذي لا يملك فيه مخزونًا كافيًا من الذهب، وبدأ يفرض رسومًا على تجار القطاع الخاص. ونظرًا إلى عدم تمكن الأساطيل البريطانية من الوصول إلى وجهتها بسبب الحرب البحرية التي تدور رحاها في المحيط الأطلنطي وغيره من الأماكن، اضطربت صادرات المواد الغذائية المتجهة إلى المملكة العربية السعودية، وبدأ شبح المجاعة يخيم على الأجزاء الداخلية من الصحراء حيث يعيش كثيرون على الهامش حتى في أفضل الأوقات.

كانت لحكومة تشرشل كثير من الأولويات الأكثر إلحاحًا من المشكلات السعودية، خاصةً خلال السنوات العصيبة الأولى للحرب، إلا أن لندن واصلت مبكرًا منح عبد العزيز الإعانات المالية وذلك في عام ١٩٤٠م، من أجل إبعاد فكرة التحالف مع ألمانيا عن مخيلته. وفي النهاية،

---

(١٢) مقتبسة من المقابلة التي أُجريت مع محمد عشماوي بتاريخ ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م (روبين شالمان). وللمزيد عن محمد عوض بن لادن راجع مقال: From a Building Laborer to the Owner of the Biggest Construction Company in the Middle East,

المنشور في جريدة **ترانسبورت آند كومينيكايشنز** *Transport and Communications*؟ في أغسطس/ آب ٢٠٠٢م. تشير الخطوط العريضة للمقال المنشور ـ والتي يبدو أنها اعتمدت على المعلومات التي استمدوها من آل بن لادن ـ إلى قائمة تضم قصر الطائف وقصر الناصرية وقصر الضيافة وقصر الحكومة وقصر الحمرة ومباني المنصور كنماذج لمشروعات محمد في الرياض على الرغم من عدم ذكر أي تواريخ. ومقتبسة أيضًا من المقابلة التي أُجريت مع فهد السماري مدير البحث في مؤسسة الملك عبد العزيز في الرياض بتاريخ ٩ فبراير/ شباط ٢٠٠٥م. وهو أيضًا من يُنسب إليه مقولة إن اليمنيين يتميزون بروح الإقدام والمبادرة.

منحت بريطانيا الملك ما يعادل ثمانية وثلاثين مليون دولار خلال الحرب للإبقاء على ولائه. وبدءًا من عام ١٩٤٣م أسهمت الحكومة الأمريكية بثلاثة عشر مليون دولار إضافية مساعدةً بموجب قانون الإعارة والتأجير. وفي الوقت الذي لاحت فيه هزيمة ألمانيا في الأفق، حوّل مخططو الاستراتيجية الأمريكية أنظارهم إلى المملكة باعتبارها نقطة انطلاق مناسبة ـ لا جدال في ذلك ـ لنقل الناس والمعدات إلى الجبهة الآسيوية. وفي هذا الإطار أشارت مذكرة شديدة السرية ـ أرسلتها وزارة الخارجية إلى روزفلت بتاريخ ٢٢ من شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٤٤م ـ إلى ضرورة تأسيس شراكة جديدة وأكثر التزامًا مع عبد العزيز، جاء فيها:

إن تأسيس حكومة قوية ومستقلة للمملكة العربية السعودية في الشرق الأدنى سيؤدي إلى تجنيبها الوقوع فريسة لفترات الانهيار التي تخلف الحروب، مقارنةً بما يمكن أن يحدث لدولة ضعيفة مفككة ومعرضة للاختراق على المستويين السياسي والاقتصادي. ومن ثَم تجب حماية مصادر النفط الهائلة للمملكة العربية السعودية، التي يحتكرها الأمريكيون حاليًّا، وتنميتها. . . وترغب السلطات العسكرية بإلحاح شديد في الحصول على تسهيلات معينة في المملكة العربية السعودية لمواصلة الحرب، مثل الحق في تشييد موانئ جوية عسكرية. . .[١٣].

دعت هذه الفكرة روزفلت إلى التعجيل بمقابلة عبد العزيز على متن السفينة الحربية الأمريكية يو إس إس كوينسي، في أثناء وجودها في مياه البحر الأحمر، في شهر فبراير/ شباط من عام ١٩٤٥م. وتبع الملك على متن السفينة الحربية الأمريكية اثنان وأربعون رجلًا من حاشيته الملكية فضلًا عن ثمانية خراف. وكان روزفلت رجلًا جذابًا ويتميز بالقدرة على مشاركة الآخرين مشاعرهم، وعلى الفور وافق عبد العزيز الرأي بخصوص عجائب المقعد المتحرك، وأهدى الرئيس مقعدًا من أحدث الطرازات إلى

---

(١٣) استمدت الأرقام التي تشير إلى المبلغين ٣٨ مليون و١٣ مليون دولار أمريكي من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7207 Murray to Acheson, January 27, 1945.

وكثيرًا ما يُستشهد بتلك الوثيقة لتوضيح الاستراتيجية الأمريكية في المملكة العربية السعودية للعقود الآتية، والعبارات الواردة في هذه الوثيقة من التقرير رقم ٥٩/ ٧٢١١ والمؤرخ في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٤م وربما كان هذا التقرير مسوّدة مبدئية كتبها موراي.

الملك. وفي ما يتعلق بالموضوعات الأساسية ـ «الله سبحانه وتعالى، والنفط، والعقارات» كما ذكرت الكاتبة راشيل برونسون ـ حدث بينهما توافق أيضًا بسلاسة وَودّ[١٤].

اكتشف المسؤولون الأمريكيون الذين شرعوا في السفر إلى الرياض في ما بعد للتشاور مع حليفهم الجديد، أن شخصية الملك جديرةً بالإعجاب، بل مثيرة وفي أحيان أخرى محيرة. وبصفة عامة، انجذب الأمريكيون إلى الأراضي السعودية والسبب وراء ذلك، طبقًا لما جاء في رسالة سرية من وزارة الخارجية، يُعزى إلى أن «المملكة العربية السعودية ربما يمكن تشبيهها بحاملة طائرات ضخمة تقف عرضيًّا في طريق عدد من الممرات الجوية الرئيسة في العالم»[١٥].

أدى استسلام اليابان إلى فتح الباب على مصراعيه لعمليات تصدير النفط في المملكة، وارتفعت الصادرات من ثلاثين ألف برميل يوميًّا إلى أربعمئة وستة وسبعين ألف برميل بحلول عام ١٩٤٩م. ووقتئذٍ، كان عبد العزيز الطاعن في السن غارقًا في ثراء خيالي، وبدأ هو وأولاده ومستشاروه في التبذير والإسراف بجنون. عاد محمد بن لادن إلى جدة بعد أن استدعاه المستشار المالي المقرّب من الملك، وهو عبد الله بن سليمان، الذي أمره رسميًّا بالشروع في إنشاء قصر ملكي جديد، أُطلق عليه «قصر خُزام»، الذي قرر الملك أن يُبنى خارج الأسوار القديمة لمدينة جدة، على بُعد قرابة ثلاثة أميال من ساحل البحر. وكان صرحًا شاسعًا مكونًا من طابقين، استُخدم في بنائه الحجر المرجاني والقضبان الخشبية، وبلغ ارتفاع الأسقف فيه عشرين قدمًا، وكانت له نوافذ من الزجاج الملون، ودرجان يتجهان لأعلى إلى قاعات المجلس في الطابق الثاني. ووقتئذٍ كان عبد العزيز في أواخر العقد السابع من عمره، وتزايد اعتماده على مقعده المتحرك. وفي قصر المربع في الرياض جهز مستشاروه مصعدًا كهربائيًّا لحمله إلى الطابق الذي يُعقد فيه المجلس، وتمثلت المشكلة التي واجهها مقاولو البناء

---

(١٤) مشتقة من: Bronson, *Thicker Than Oil*, p. 14.

(١٥) مشتقة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7209 Jeddahto Washington, December 27,1948.

في جدة في عدم استطاعة الملك الصعود بسموٍّ على الدرج الفخم الذي عكفوا على تصميمه. وتمكن محمد بن لادن من ابتكار حل سحري: وهو بناء منحدَر حجري دائري يمتد من الممشى الواقع أمام القصر إلى الطابق الثاني. وكان واسعًا وقويًّا بحيث يستطيع عبد العزيز ركوب إحدى سياراته الفورد لتأخذه مباشرةً إلى قاعة مجلسه، والنزول من السيارة واعتلاء عرشه بكل إباء وكبرياء(١٦).

ظلت جدة ـ في عيني الكاتب الأمريكي والاس ستيغنر الذي زارها في هذه السنوات ـ مدينة «تسودها الضوضاء وتتعالى فيها الصيحات والضحكات المزعجة وصرخات الغضب الممزوجة بضجيج الحيوانات إذا ما أطلق رجل إنكليزي مستشيط غضبًا عيارًا ناريًّا في منتصف الليل، فينةً بعد فينة، لقتل كلب يجوب الطرقات باحثًا عن ضالته». ومع ذلك شهدت المدينة أيضًا «طفرةً كبيرةً في مجال الإنشاءات»، كما أوضح أحد الدبلوماسيين الأمريكيين، الذي أضاف: «سريعًا ما ارتفعت معدلات وضع أساسات المباني على الأقل، إن لم نقل المباني بأكملها، بين عشية وضحاها، وكثيرًا ما كان المقاولون يتقدمون بشكاوى مريرة لعجزهم عن الحصول على مواد البناء التي يفتقرون إليها بشدة»(١٧).

انتقل بن لادن وأخوه إلى مجمّع سكني متعدد الطوابق في شمالي جدة، حيثما كان محمد يتقابل يوميًّا مع مقاولين من الباطن، ويساوم على المشتريات والديون، وكان في أثناء ذلك يسعى إلى حشد قوة عاملة. ووقتئذٍ ازداد ثراؤه ومن ثَم اشترى سياراته الأولى، إلا أنه ظلّ رئيس عمال يشترك في العمل ويغني مع عماله في مواقع الإنشاءات ولا يتردّد في العمل معهم إن دعت الضرورة لذلك، وكان حجم العقود التي أبرمها يجبره على تكريس كل وقته ومجهوده بصورة متزايدة إلى الإدارة، الأمر الذي تطلب تعيين موظفين

---

(١٦) المعلومات الواردة عن أرقام الصادرات مقتبسة من: *The House of Saud*, pp. 125, 151
أما المعلومات الواردة عن وصف قصر الخزام وتاريخه فجاءت استنادًا إلى زيارة المؤلف بتاريخ ٢٠ فبراير/شباط ٢٠٠٥م.

(١٧) مقتبسة من: Stegner in: *Inside the Mirage*, p. 30.
وأيضًا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7210Jeddah to Secretary of State, March 26, 1949.

وكتّاب، إذ كان بالكاد يقرأ ولا يستطيع الكتابة على الإطلاق. ويتذكر حسان العيسى الذي عمل لدى بن لادن خلال هذه الفترة وجود «الكثير من المعماريين والعمال الذين يترددون على المنزل حتى أصبح المكان يعج بهم». وانقسمت كل أعمال البناء في المدينة إلى روابط يشرف على كل منها شيخ يراقب توريد العمال والمهن المختلفة. وكان بن لادن يتفق معهم جميعًا على كل البنود. ويتذكر العيسى قائلًا: «كانت هناك مهمة لكل شخص: النجار ومبيض المحارة والحداد والعامل في مجال الفولاذ. . . وكل مهنة». وفي هذه الفترة لم يكن يوجد في المدينة سوى القليل من الإسمنت، وكانت مادة البناء الأساسية هي المرجان المستخرج من أربعة أو خمسة محاجر تطل على البحر. اشترى بن لادن أحد هذه المحاجر وأجره إلى أحد الشركاء واستغله لتوفير كميات كبيرة من المرجان لمواقع عمله(١٨).

شعر محمد بن لادن بالأمان لأول مرة في حياته ممّا دفعه إلى التفكير في الزواج الأول له وهو في أواخر الثلاثينيات من عمره وكان ذلك خلال الحرب العالمية الثانية، فأنجب بنتًا، اسمها عائشة، قرابة عام ١٩٤٣م. وتزوج بن لادن زوجة ثانية، هي فاطمة أحمد محسن باحارث، كانت في التاسعة عشرة من عمرها تقريبًا، وكانت تنتمي إلى عائلة مرموقة في مكة هاجرت من حضرموت إلى المملكة العربية السعودية. وعندما أنجبت فاطمة ولدًا عام ١٩٤٤م أو ١٩٤٥م (إذ إن عام ميلاده ليس مؤكدًا)، أطلق بن لادن على المولود اسم سالم نسبةً إلى صديقه المقرَّب في جدة سالم ابن محفوظ(١٩).

---

(١٨) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع حسن محول محمود العيسى بتاريخ ١٠ أغسطس/ آب ٢٠٠٥م.

(١٩) المعلومات الواردة عن حياة بن محفوظ من زيارة المؤلف لقرية الخرخير بتاريخ ١٧ مارس/ آذار ٢٠٠٧م ومن الموقع الإلكتروني الرسمي للعائلة: www.binrnahfouz.info

أما عن تسمية الصلة الوثيقة بين آل بن لادن وآل بن محفوظ فكانت استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع شخص مقرب من آل بن لادن. وتوضح الوثائق التي سلمها آل بن لادن إلى محكمة أمريكية في إطار إحدى الدعاوى القضائية المدنية أن عائشة وُلدت في عام ١٣٦٢ هجرية والذي يوافق عام ١٩٤٣م. لكن لم تتوفر أي معلومات عن العام الهجري الذي وُلد فيه سالم. من جانب آخر صرح بنغت يوهانسون وهو صديق وموظف عمل لدى سالم لفترة طويلة أن جواز السفر الذي يحمله سالم يظهر أنه وُلد في عام ١٩٤٦م بيد أن سالمًا أقر بأن تاريخ ميلاده الحقيقي كان على الأرجح عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥م.

ينتمي سالم بن محفوظ إلى قبيلة كندة من حضرموت. وُلد عام ١٩٠٦م في عائلة فقيرة في قرية الخرخير في وادي دوعن، على الجانب الشمالي من الوادي، وتبعد هذه القرية بمسافة تقترب من الثلاثين ميلًا عن مسقط رأس محمد بن لادن، مدينة رباط باعشن. وبينما كان سالم في السادسة من عمره، سافر مشيًا على الأقدام إلى مكة بصحبة إخوته في رحلة استغرقت ستة أشهر. وانتقل إلى جدة خلال ثلاثينيات القرن العشرين، ودخل مجال تجارة العملة الأجنبية المربحة. وفي الوقت الذي ازدهر فيه مجال المقاولات تولى ابن محفوظ عمليات تغيير العملة لحساب بن لادن، ولم يكن في المملكة في ذلك الوقت أي بنوك رسمية، بل تُنفذ فيها كل التعاملات نقدًا من خلال العملات المعدنية والورقية المتعددة، وكانت المدخرات الشخصية تُخزن في صورة سبائك وحلي ذهبية. ولم يقتصر التجسيد الواقعي لصداقتهما وعلاقتهما القوية في العمل على تسمية محمد لابنه الأول سالمًا نسبةً إلى صديقه فحسب، لكن ابن محفوظ رد بتسمية ابنه الأول محمدًا أيضًا.

شرع المؤسس بن لادن الأب في السفر، للإشراف على مشروعات بناء القصور التي تُبنى في وقت واحد في كل من الرياض والخرج، وهو مجمع زراعي تجريبي لا ينقطع عنه الماء أسسه الملك عبد العزيز جنوب الرياض. أدّت مشروعاته إلى توطيد أواصر علاقة وثيقة مع الملك يزداد عمقها مع الوقت. وفي الخرج انهار يومًا ما منزل مشيد من الطوب اللبن في أحد المواقع التي يعمل فيها بن لادن ممّا أدّى إلى مصرع أحد عماله، وخلّف الضحية وراءه أرملة وابنًا وبنتًا. أخذ بن لادن المولود الرضيع إلى مجلس الملك في الرياض، ودخل حاملًا إياه على كتفه وأعطاه إلى عبد العزيز، طبقًا لما ذكره العيسى الذي ظلّ على علاقة وثيقة بعائلة الضحية لسنوات بعد ذلك. وقال محمد لعبد العزيز: «من منطلق مسؤوليتي أمام الله سبحانه وتعالى أقدم لك هذا الطفل». أعاده عبد العزيز مرة أخرى إلى محمد وأصدر له أمرًا: «اذهب واشتري للعائلة منزلًا في مكة». أعدّ بن لادن الترتيبات اللازمة، وانتقلت الأرملة إلى مكة وخصص لها الملك معاشًا طيلة حياتها[٢٠].

(٢٠) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع العيسى في نفس المرجع السابق.

لم يكن بن لادن مقاولًا يعمل لدى الملك فحسب، بل كان أيضًا من ضمن دائنيه. وبحلول عام ١٩٤٩م تراوحت تقديرات ديون العائلة المالكة للتجار ومقاولي القصور بين عشرين وأربعين مليون دولار. وطبقًا لما تردد، أمر سعود ـ الابن الأكبر لعبد العزيز ـ بشراء مطبخ أمريكي يبلغ ثمنه ربع مليون دولار لقصره الجديد في الرياض في العام ذاته. وانطلق سليمان وزير المالية ـ الذي كان بن لادن يعمل لديه ـ إلى باريس على متن إحدى السفن في إجازة مرضية بميزانية تبلغ ستمئة ألف دولار. وكانت العائلة المالكة تنفق أربعمئة ألف جنيه إسترليني شهريًّا أو يزيد، خلال عام ١٩٤٩م طبقًا لتقديرات السفير البريطاني الذي ذكر أن «مشروعات البناء المبالغ فيها أكثر من كونها اقتصادية كانت تستهلك قدرًا كبيرًا من العائدات. . . وبصفةٍ عامة، يمكننا أن نؤكد أن متطلبات التنمية الفعلية للدولة لم يكن يُنظر إليها بعين الاعتبار». وفي الواقع، اتسمت مشروعات العائلة المالكة بأنها «ليست ذات قيمة عملية بل عكف على إدارتها أفرادٌ ليسوا أهلًا لها». وما أثار اعتراض كثيرين، بصفة خاصة هي «القصور الفارهة التي أقيمت في الرياض ومكة وأنحاء المملكة كافة لعائلة الملك الضخمة»[٢١].

ربما لم يتحقق للمواطنين السعوديين ممن كانوا يعانون الفقر أي ميزة من الطفرة التي تلت الحرب، إلا أنها كانت بمنزلة الفرصة الذهبية التي اقتنصها محمد بن لادن.

---

(٢١) المعلومات حول الديون التي بلغت بين ٢٠ و٤٠ مليون دولار أمريكي مستندة إلى محادثة أجراها دبلوماسي أمريكي مع سيد حسين العطاس وهو مصرفي حضرمي، ومقتبسة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7211, August 16, 1949.

والمعلومات الواردة عن المطبخ الذي وصل سعره إلى ٢٥٠ ألف دولار أمريكي وعن رحلة باريس التي بلغت تكاليفها ٦٠٠ ألف دولار أمريكي مقتبسة من التقرير: 59/7212, July 30, 1949

وفيه يستشهد بمحادثة أُجريت مع المدير التنفيذي لشركة بكتل. وأيضًا من تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/82638 «Annual Review for 1949».

الفصل الثالث

الشركاء الموصون

أصبح عبد الله بن سليمان ثاني أكثر الرجال نفوذًا في المملكة العربية السعودية بعد الملك، وازداد ثراؤه بشكل خيالي، وللعجب فقد حقق ثروته بمحض الصدفة. فقد سافر عبد الله في شبابه من مدينة في إحدى واحات سهل نجد إلى بومباي حيث عمل لدى تاجر عربي. وفي ما بعد، باءت تجارته بالفشل عندما عمل في البحرين وعاد إلى دياره لمساعدة عمه التاجر الذي كان مسؤولًا عن إدارة أمور الملك عبد العزيز المالية. وعندما قضى عمه نحبه على حين غرة، أصبح سليمان وزير المالية، وهو لقب مرموق مُنح رجلًا تتلخص مهام وظيفته الأساسية في تلك الأيام ـ قبل الثروة التي فاضت من النفط ـ الاعتناء بصندوق من القصدير فيه عملات ذهبية وفضية يملكها الملك. وفي النهاية أضحى سليمان مشرفًا على الإيرادات الملكية لعبد العزيز إلى جانب نفقات القصر، إلا أن أساليب المحاسبة المعتمدة على تقديره الشخصي الشديد لم تتغير. ووصف فيلبي عبد الله بأنه «رجلٌ ضئيل الحجم، واهٍ، تجري في عروقه مسحةٌ من إلهام الأنبياء». وكتب عنه الدبلوماسي والرحالة الهولندي دانيال فان دير ميولين أنه «رجل لا يكلّ ولا يملّ، بل أنعم عليه الخالق بالموهبة العربية الأصيلة للتكيف مع كل ظروف الحياة، لكنه كان يفتقد الصلابة التي تعينه على الصمود أمام عدوّيْن اعترضا طريقه على نحو غير متوقع؛ المال والويسكي»[1].

---

(١) المعلومات حول حياة سليمان مقتبسة من: Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia*, p. 88

ومقتبسة أيضًا من: Holden and Johns, *The House of Saud*, p. 107.

ومقتبسة أيضًا من: van der Meulen, *The Wells of Ibn Saud*, pp. 189-190.

في أواخر عام ١٩٤٩م كانت أهمية سليمان لنجاح بن لادن تضاهي على الأقل أهمية الملك نفسه. وعُرف بأنه «شريك موص في شركة المقاولات التي يملكها بن لادن» طبقًا لما جاء في تقرير لاحق لوزارة الخارجية الأمريكية. وقد فوّض سليمان لابن لادن بناء قصر على شاطئ البحر الأحمر قُدِّر لاحقًا بثلاثة ملايين دولار، وعزم سليمان على الإقامة فيه. وكانت للوزير سليمان أيضًا اليد العليا في عدد من مشروعات البناء الأخرى، أو بالأحرى كانت له الكلمة الأولى والأخيرة في اختيار الشركات المنفذة للمشروعات التي كانت تُموَّل من ميزانية سنوية مخصصة لمشروعات البناء بلغ إجمالي تكلفتها قرابة المئة مليون دولار. وإلى جانب عمل بن لادن مع سليمان في مجال الإنشاءات، كان على صلة بالرجل الداهية محمد باحارث سكرتير سليمان، وزميله الحضرمي الذي ارتبط به بن لادن وقتئذٍ بعلاقة نسب. ومن خلال هاتين العلاقتين اعتاد بن لادن على اتباع نظام تعاقدي أشار إليه الدبلوماسيون الأمريكيون والبريطانيون في المملكة بأنه غير قانوني، إلا أن السعوديين الذين استفادوا منه اعتبروه شكلًا مشروعًا من التجارة في بلد اعتُبرت فيه كل الأراضي والموارد الطبيعية وسلطة التصرف فيها تحت سيطرة العائلة المالكة[(٢)].

خلال الحرب العالمية الثانية عيّن سليمان ضابطًا معاونًا درزيًّا لبنانيًّا اسمه نجيب صالحة، وحققا معًا ما وصفه تقرير حكومي أمريكي صدر لاحقًا بـ «الثروات الشخصية المهولة» المجمعة من «اختلاس الشحنات»، الممثلة في الشاحنات والمعدات الأخرى التابعة لبرنامج المساعدات العسكرية البريطاني لنقل السلع والخدمات إلى المملكة العربية السعودية. إذ كانا يبيعان تلك السلع إلى السعوديين الأثرياء. وعندما تقدَّم البريطانيون بشكوى في هذا الصدد، أقال عبد العزيز صالحة الذي كان قد تحصل

---

(٢) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية رقم ٥٩. وتقرير: Jeddah to Washington, September 25, 1967.

والمعلومات عن قصر سليمان الذي كلّف تشييده ثلاثة ملايين دولار أمريكي مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5467 Jeddah to Washington, April 12, 1953.

أما المعلومات حول تعيين باحارث سكرتيرًا لسليمان مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5471 Jeddah to Washington, October 4, 1953.

آنذاك على أصول في مصر وحدها تساوى مليوني جنيه إسترليني، ولكن الملك لم يتمكن من التخلي عن سليمان، ذلك المستشار الذي سهّل «تفشي الكسب غير المشروع والفساد» ـ بعلم الملك ـ بل إن عبد العزيز اعتمد عليه كلية لإدارة الشؤون المالية، حتى إن أحد المسؤولين البريطانيين ذكر «أنه كان يتمتع بوضع مرموق للغاية بحيث لا يجرؤ أحدٌ حتى التفكير في المساس بمكانته ما دام الملك على قيد الحياة»(٣).

كان سليمان يمتلك شركة لنقل الركاب شهدت ازدهارًا بسبب توافد الحجاج إلى مكة سنويًا، فضلًا عن أراضيه في أنحاء المملكة كافة. وبعد الحرب شرع في إنشاء الفنادق، وخطط لإنشاء فندق في مدينة الدمام، بالقرب من حقول النفط التي يديرها الأمريكيون، وكان يخطط لإنشاء بار وصالة عرض للأفلام في الفندق، وهي خطط مغالى في طموحها، لأن علماء الإسلام في المملكة أصدروا فتاوى تقضي بعدم شرعية الأفلام إلى جانب الكحوليات بالطبع. أقام سليمان علاقات شراكة مع تجار سعوديين، وأصبح شريكه في إحدى شركات جدة، المدعو إبراهيم شاكر الذي كان يستورد السيارات والشاحنات طراز دودج، «أحد أثرى المواطنين غير الحكوميين في المملكة العربية السعودية، وقد حقق ثروته الطائلة بسبب العقود الحكومية الهائلة التي حصل عليها» طبقًا لما جاء في إحدى البرقيات الأمريكية. وكان سليمان يشتري المزارع ويرويها بالموارد المائية النادرة في المملكة، وتمكن من حماية أراضيه من محاولات التعدي عليها، وعندما سعت الحكومة السعودية إلى تحسين الصحة العامة في جدة من خلال ضخ الماء العذب من إحدى الضيع التي يمتلكها سليمان، أغلق ملف المشروع. أدّت الكحوليات وحياة الترحال من دون رعاية طبية حديثة إلى تعميق آثار الهرم وتقدم العمر عليه. وفي مرحلة ما توارى سليمان عن الأنظار لشهور، وقال وقتها كعادته إنه كان في رحلة صيد في البحر الأحمر. وخشيت السفارة الأمريكية من فقدان الوزير سيطرته

---

(٣) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7207 Jeddah to Washington, December 29, 1949.

وأيضًا من حديث الوزير البريطاني الوارد في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7211 Jeddah to Washington, September 6, 1946.

على مقاليد الأمور و«إفراطه في احتساء الخمر على نحو مقلق»(٤).

لم يكن الملك عبد العزيز يبدي اهتمامه على الإطلاق بالمال مثلما فعل أبناؤه ومستشاروه، إلا أنه كان يتضايق عندما كان ينفد بين الحين والآخر. وفي شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٤٩م، أمر الملك وزيره سليمان بإحضار عشرة ملايين ريال لتقديم الهدايا إلى بعض أبنائه وبناته المشرفين على الزواج في أعراسهم. وعندما أخبره سليمان أن الخزانة خاوية استشاط الملك غضبًا. وفي خطوة كان من المفترض اتخاذها لإصلاح الأمور استدعى وزير المالية نجيب صالحة من القاهرة، وهو صديقه الانتهازي الحميم منذ أيام الحرب. ولأن الحكومة البريطانية تعاملت معه سابقًا، فقد «تلاشى أملها في قطع دابر الفساد السائد في وزارة المالية في المملكة العربية السعودية بوصوله»(٥).

وبالمثل أدرك الأمريكيون، بلا ريب، أن الصفقات التي يبرمها سليمان لحسابه الخاص والعمولات التي يتلقاها تمثل حجر عثرة يحول دون تنفيذ خطة واشنطن لتعزيز تحالفها مع المملكة العربية السعودية، من خلال الإسراع بوتيرة التنمية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي في المملكة. وفي ذلك الوقت خصصت الميزانية الملكية مبالغ للقصور ودعم العائلة الملكية وحلفائها تبلغ خمسة أضعاف الميزانية المخصصة لوزارة الصحة حديثة العهد آنذاك(٦). ومن ثَم تخوّف بعض المسؤولين الأمريكيين من

---

(٤) المعلومات الواردة عن شركة نقل الحجاج مشتقة من: Long, *The Kingdom of Saudi Arabia*, p. 100.

والمعلومات الواردة عن فندق الدمام الذي كان يحوي مسرحًا وحانة واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5468 Jeddah to Washington, December 18, 1950.

وتقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7214 Jeddah to Washington, August 14, 1946.

والمعلومات الواردة عن توقف مشروع المياه مشتقة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7209 Jeddah to Washington, August 16, 1946.

وتقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7210 Jeddah to Washington, July 12, 1949.

(٥) المعلومات الواردة عن طلب الملك لتقديم هدايا الزواج وعن الخزينة الخاوية واردة في تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/82664 Jeddah to London, January 12, 1950.

وتقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 370/82639 Jeddah to London January 3, 1950.

(٦) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5469 Jeddah to Washington July 7, 1951. =

احتمالية اتجاه الشعب السعودي للمطالب التي تبدو مثالية والتي تدعو إليها الحركة الشيوعية الدولية بسبب الإسراف والبذخ الملكي والتفاوت الاجتماعي الملحوظ.

ومع تدفق النفط بغزارة خلال أواخر أربعينيات القرن العشرين، تفاوضت شركة بكتل مع الحكومة السعودية لإبرام عقد تحصل بموجبه الشركة على نسبة، بحسب إجمالي التكاليف لتأخذ على عاتقها تنفيذ خطة طموحة ـ بإيعاز من واشنطن ـ تهدف إلى النهوض بالمملكة لكي تلحق بالعصر الرأسمالي الحديث. فقامت جرافات شركة بكتل بدك أسوار مدينة جدة القديمة دكًّا، وجرفت تلال الرمال لإنشاء جسور وموانئ ومطارات وطريق معبدة لسرعة نقل ضيوف الرحمن من جدة إلى مكة المكرمة. ومع ذلك انتقد الأمراء السعوديون الأرباح الطائلة التي تحققها شركة بكتل وزعموا أنه لا يمكن السيطرة عليها. ومن جانبها اكتشفت شركة بكتل أن سليمان والملك وأبناءه كانوا يتخيلون أن الشركة ستكون تحت الطلب على مدار الأربع والعشرين ساعة لإصلاح الثلاجات ومكيفات الهواء أو حتى السيارات المعطلة في قصورهم الخاصة. ودأب أفراد العائلة المالكة على إصدار أوامر بأن تنتقل جرافات الشركة من تعبيد الطرق والمطارات إلى مهام خاصة مثل حفر حديقة غائرة في قصر الأمير فيصل، الابن الثاني للملك. إضافة إلى ذلك، عجز سليمان عن تسديد ديون الحكومة لشركة بكتل، وبحلول صيف عام ١٩٥٠م بلغت ديون السعوديين لدى الشركة مليونَيْ دولار. وذكر ستيفن بكتل لوزارة الخارجية أن «المشكلات» التي واجهتها الشركة في العمل في السعودية «فاقت المميزات إلى أبعد الحدود»[٧].

انقسم أبناء عبد العزيز ومستشاروه بسبب الضغائن والحزازيات التي

= خصصت الميزانية التي أُعلن عنها في ذلك الصيف ٢١ مليون ريال سعودي لوزارة الصحة وما يقرب من ١٠٩ مليون ريال سعودي للقصور والأمراء والرياض.

(٧) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5471 «Memorandum of Conversation,» October 25, 1951.

وأيضًا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/57/D/298/7 «Memorandum of Conversation,» June 14, 1950.

ثبت أن المسؤولين التنفيذيين في بكتل لا قِبَل لهم بها. وعندما انقطع التيار الكهربائي في القصر الكبير بالرياض الذي يملكه سعود ابن الملك الأكبر، غضب الأمير غضبًا عارمًا من بكتل. وفي الوقت نفسه تذمر سعود لأن أخاه فيصل يبذر الأموال الملكية تبذيرًا، ويا لها من شكوى هزلية. استسلم سليمان وأعلن أن التعامل مع الأميرين يفوق نطاق سيطرته. وحينئذٍ، كان عبد العزيز كثير النسيان، وتلاشت طاقته الأسطورية بتقدمه في السن، وصار نائمًا طوال اليوم؛ تدثره زوجاته الكثيرات وحراسه وعبيده. وكان الملك يعاني وجود مياه بيضاء على عينيه، وضعفت إحداهما إلى شبه العمى، وصار مجرد نقل الملك من قصر إلى آخر عملًا بطوليًّا؛ فعندما انتقل عبد العزيز وحاشيته من الرياض إلى الطائف في صيف عام ١٩٥١م، تطلّب الأمر انطلاق خمسة وخمسين رحلة جوية على ثلاثة أيام وتحويل مسار كل الطائرات التابعة لأسطول الخطوط الجوية العربية السعودية الناشئ(٨).

أدى عجز بكتل عن التكيف مع أسلوب العمل الخاص بالعائلة المالكة إلى إتاحة الفرصة لمحمد بن لادن. وكان الشغل الشاغل للأمريكيين وقتئذٍ الالتزام بتسديد الأقساط بالعملة الصعبة لحساباتهم البنكية في نيويورك في الوقت المحدد. واعتمد بن لادن على الشبكة المرنة من مقرضي الأموال الحضرميين المنتشرين في جدة. وكان الأمريكيون يعضون أناملهم من الغيظ بسبب تبذير سليمان والأمراء السعوديين، واعتبر بن لادن كلًّا من عبد العزيز وورثته مسلمين مخلصين في عبادتهم لله سبحانه وتعالى الذي أمرهم بحكم أم القرى وما حولها، وفطن لاعتبار نفسه خادمهم المطيع المغامر في تلك الآونة.

في غضون ذلك شرع بن لادن في إثبات جدارته أيضًا أمام هيئة كبار العلماء التي عهد إليها عبد العزيز للإشراف على الأشغال العامة في مكة والمدينة. ومنحته اللجنة عقودًا لبناء المساجد في الحجاز، وفي خضمّ الازدهار الشديد في مجال المقاولات في الوقت اللاحق للحرب، اتسع

(٨) المعلومات الواردة عن ذهاب الملك إلى الطائف مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5469 Jeddah to Washington, July 26, 1951.

نطاق العقود التي أبرمها بن لادن لإقامة المنشآت الدينية. وفي الفترات السابقة حصلت الشركات المصرية واللبنانية على نسبة كبيرة من أعمال التجديد والإصلاح في المدن الإسلامية المقدسة؛ إذ كانت هذه الشركات تتمتع بعلاقات مع نظام الحكم العثماني السابق، وكانت تعيِّن لديها مهندسين تلقوا تدريباتهم في أوروبا. إلا أن عبد العزيز وجد أن الأنسب في هذه المرحلة هو تعيين مقاول يختاره بنفسه. وشأنه شأن القائمين على حكم مكة من قبله، كان الملك يعلن بكل فخر عن رعايته لمشروعات تطوير المشاعر المقدسة التي سوف تذهل الحجاج الآتين من كل حدب وصوب. وبناءً على توجيهاته سافر محمد بن لادن إلى بيروت عام ١٩٤٩م لشراء مظلات تحمي المصلين من أشعة الشمس في أثناء إقامة الصلوات في المسجد الحرام بمكة. وعندما سافر أحمد فتح الله ـ رجل الأعمال اللبناني مالك مصنع المظلات ـ إلى مكة جوًّا لتركيبها، تصادف وصول الملك عبد العزيز لغسل الكعبة المشرفة قبلة المسلمين. وكان من بين حاشية الملك، محمد بن لادن، ويتذكر فتح الله أن بن لادن وعبد العزيز «كانا معًا دائمًا، أحدهما بجانب الآخر». وفي العام التالي عُهد إلى بن لادن بتشييد سلسلة من السدود والخزانات، بتكلفة تُقدَّر بنحو مليون دولار، لتوصيل الماء العذب إلى مكة من بئر مكتشف حديثًا يبعد عنها بمسافة ثمانية وعشرين ميلًا. ورشحت شركة بلجيكية لابن لادن مهندسًا محنكًا لتنفيذ المهمة، بالإضافة إلى شبكة مواسير ممتازة من ألمانيا لتوصيل المياه. في ذلك الوقت كان عامل البناء الذي تمتد جذوره إلى وادي دوعن مشغولًا بتكوين شبكة دولية من العلاقات مع الشركاء العرب والأوروبيين[٩].

صدّق الملك على ترقية بن لادن بإصدار مرسوم ملكي في الرابع والعشرين من شهر مايو/ أيار لعام ١٩٥٠م، يقضي بتعيين محمد بن لادن

(٩) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع أحمد فتح الله بتاريخ ٢٣ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م (روبين شالمان). والمعلومات الخاصة بعمل بن لادن على تنفيذ مشروع مياه مكة واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5467 Jeddah to Washington, April 17, 1951

وواردة أيضًا في تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/82657 Jeddah to London, «Jeddah Monthly Economic Reports,» July and August 1950.

«مديرًا عامًّا لأعمال الإنشاءات الخاصة بالملك عبد العزيز»، ومن ثَمّ عهد إليه بالعمل تحت إشراف سليمان، وأصبح له الحق في التلويح بيديه عندما يريد استدعاء شخص ما. وما ألقى الرعب في قلوب المسؤولين التنفيذيين في شركة بكتل قيام بن لادن بنقل المعدات الثقيلة للشركة من طريق جدة ـ مكة حتى يتسنى له استخدامها «لتمهيد الطريق المتدرج حول مكان الإقامة الجديد» الذي يبنيه لسليمان على البحر الأحمر. (وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرد اسم بن لادن في المراسلات بين شركة بكتل ووزارة الخارجية ـ المتعلقة بنقل معدات الإنشاءات، بتاريخ السابع عشر من شهر يناير/ كانون الثاني لعام ١٩٥١م ـ وهي وثيقة تابعة للحكومة الأمريكية)[١٠].

تأثرت الطفرة في مجال تشييد القصور الذي تخصص فيه بن لادن بالمفاهيم الغربية عن الرفاهية، كما ورد في إحدى البرقيات التي أُرسلت في ذلك الشتاء، وجاء فيها:

أنفق عدد من أفراد العائلة المالكة وأصحاب المقام الرفيع في الحكومة والتجار الأثرياء أموالًا طائلة على تشييد قصور مماثلة، حيث حاول كل منهم التفوق على الآخر في مساحة القصر وتكلفته وتصميمه. وفي حالات كثيرة، كان يُستدعى مصممي ديكورات داخلية خصيصًا من باريس لشراء المتعلقات باهظة الثمن والإشراف على تركيبها[١١].

بدأت معدلات سفر السعوديين إلى الخارج في التزايد وشاهدوا بأنفسهم ثروة العالم الصناعي، وعادوا بتلك التطلعات والأذواق إلى الديار. نشرت الجريدة المكية «البلاد السعودية» مقالات مصورة عن الرحلات التي انطلقت في صيف عام ١٩٥٢م كتبها صحافي سعودي تحت عنوان «مع الأمريكيين في بلادهم»، وصف فيها الكاتب الصحافي ساحة

---

(١٠) المعلومات الواردة عن النظام الملكي واردة في التقرير السنوي لمؤسسة KAA بتاريخ ٢٤ مايو/ أيار ١٩٥٠م. وواردة أيضًا في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5472 Cover letter and memorandum from Bechtel International Corp. to DOS, January 17, 1951.

صرحت شركة بكتل أن بن لادن وعدها بإعادة المعدات إليها.

(١١) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5467 Jeddah to Washington, February.

تايمز سكوير وشبهها «بالشعلة الوضاءة أو القلادة الماسية... ونُثرت بذور الرفاهية في كل مكان؛ في المطاعم المكتظة بأنواع اللحم كافة، المتراصة كل نوع بجانب الآخر في صناديق عرض زجاجية». والأعجب من كل ذلك الصحة العامة هناك؛ فنادرًا ما ترى حشرةً واحدةً في نيويورك، وأؤكد أنك لن تلمح مجرد ذبابة... فهناك أمور أخرى تشغل الناس للحديث عنها غير الحشرات أو الذباب، فالعالم تغير، وها هم يتحدثون عن التلفاز والقنبلة الذرية والاختراع الجديد لعلاج مرض السل... فالدول المتحضرة ـ خاصةً الغربية منها ـ تحترم أي دولة طبقًا لمستوى النظافة فيها وتنظيمها. والأمر يصل بالأمريكيين إلى احترام الدول وفقًا لحجم مواسير صرف المياه التي تملكها. ويجب ألا تحمل هذه الحقيقة القارئ على الدهشة، لأن مواسير صرف المياه تؤدي دورًا مهمًّا في مستوى نظافة أي دولة؛ إذ إن مياه الصرف تجري بداخلها ومن ثَم تخلو المدن من الحشرات والقاذورات[١٢].

لم يكن الأمر يتطلب من السعوديين السفر إلى نيويورك لإدراك أن العائلة المالكة بدت منخرطة بشدة في رفاهيتها، بينما افتقرت إلى الشعور بأي اهتمام برفاهية الشعب أو حتى للبنية التحتية الأساسية القومية للبلاد، بل كان ذلك واضحًا للعيان. وقد عبَّر عن ذلك أحد الكتّاب السعوديين في جريدة «البلاد» بأسلوب ينم عن معارضة ساخرة نادرًا ما كانت تحدث آنذاك، قائلًا: «ينتمي فقراؤنا إلى عائلات قاربت على التسول لإيجاد قوت يومها؛ لا تقوى أقدامهم على حملهم، يهيمون على وجوههم في الطرقات... ويتضورون جوعًا، حتى إنهم لم يتذوقوا الخبز ليومين أو ثلاثة. ولا تنطوي هذه الحقائق على أي مبالغات... فهذا البؤس والشقاء يرجع الفضل فيه لأثريائنا الذين أعماهم الطمع عن محاولة فعل أي شيء لهذا الشعب البائس»[١٣].

لم يبد أن الملك أو أبناءه أو الوزير سليمان قادرين على الإمساك بزمام

(١٢) استنادًا إلى الترجمة الموجودة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/6119 Jeddah to Washington, July 7, 1952.

(١٣) استنادًا إلى الترجمة المذكورة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5468, article dated January 3, 1951.

الأمور المالية للمملكة، وضاق صدر مسؤولي شركة بكتل بسبب الديون المتأخرة وسوء معاملة موظفيها والاستغلال السيئ لمعداتها، ومن ثَم فسخت عقود الأشغال العامة السعودية. وحوّل نجيب صالحة ـ نائب وزير المالية ـ أربعمئة ألف دولار لحسابه الخاص كجزء من التسوية الأخيرة، طبقًا لما ذكره أحد المسؤولين التنفيذيين في بكتل[١٤].

دعا سليمان شركة مقاولات أمريكية أخرى، هي شركة مايكل بايكر جونيور من مدينة بيتسبرغ، لتحل محل شركة بكتل، إلا أنها سرعان ما رحلت بعدما ذاقت الأمرّين من الدفعات المتأخرة والمطالبة بإجراء إصلاحات خاصة في القصور الملكية. وذكرت البعثة البريطانية في جدة أن محمد بن لادن بدا «مهتمًّا بإقصاء العاملين في شركة بايكر، وبينما لا توجد أدلة دامغة على ذلك، فإن ما يتضح جليًّا هو أن مشاركة شركة بن لادن في أعمال الإنشاءات الحكومية قد شهدت تزايدًا ملحوظًا». وبعد ذلك وصلت شركة ألمانية تُسمى جوفينكو، قيل إنها دفعت لسكرتير سليمان ـ المدعو باحارث ـ مبلغًا يُقدر بمئة ألف دولار لمساعدتها في الفوز بعقود عمل في المملكة، إلا أن شركة جوفينكو فسخت عقد الأشغال العامة أسرع من الأمريكيين وللأسباب نفسها[١٥].

خلّفت الشركات الأمريكية والأوروبية وراءها مشروعات بنية تحتية غير مكتملة وتتضمن تعقيدات هندسية بالغة الصعوبة. ولكن محمد بن لادن لم يفوّت الفرصة ووزع مهندسيه ـ الإيطاليين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين والمصريين ـ على مواقع العمل وأقنع سليمان أن باستطاعته الإشراف على هذه المشروعات، حتى وإن لم تكن لديه أدنى

---

(١٤) المعلومات الواردة عن التحويل الذي أجراه صالحة مقتبسة عن تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5471 «Memorandum of Conversation,» April 4, 1952.

أكّد المدير التنفيذي لشركة بكتل السيد إنغلش أن صالحة استولى على المبلغ الذي يقدر بـ ٤٠٠ ألف دولار أمريكي أي ما يعادل ثلاثة ملايين دولار أمريكي في عام ٢٠٠٨م.

(١٥) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/104859 Jeddah to London, Jeddah Economic Report, November 1952 to January 1953.

والمعلومات عن المبلغ المدفوع لباحارث وقدره مئة ألف دولار أمريكي مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5471 Jeddah to Washington, October 4, 1953.

خلفية عنها. وأقنعه بوجهة نظره للمرة الثانية، حتى أصدر الملك عبد العزيز في شهر يونيو/حزيران من عام ١٩٥١م مرسومًا ملكيًّا جديدًا يقضي بمنح بن لادن امتيازًا مربحًا «لبناء محطة لتوليد الطاقة الكهربائية في مدينة جدة»(١٦).

وكانت هذه المهمة التي لم تكن في الحسبان بمنزلة الحافز وراء إبراز تجليات الإبداع الذاتي الذي سيصنع أسطورة بن لادن وثروة عائلته.

وقتئذٍ كانت الطرقات القليلة التي مهدتها شركة أرامكو حول حقول النفط في المنطقة الشرقية هي الطرقات المعبدة الوحيدة في أنحاء المملكة العربية السعودية كلها، إلى جانب طريق طويل ضيق يربط بين جدة ومكة المكرمة استُخدم فيه أسفلت من النوع الرديء. استمرت السفن في تفريغ مئات السيارات والشاحنات والحافلات في ميناء جدة، لكن لم يكن هناك بد من خوض هذه المركبات في صحراء المملكة بمحاذاة الدروب ومجاري الأنهار الوعرة التي دمرتها الفيضانات. ولم يبد أن عبد العزيز وابنه الأكبر سعودًا يوليان اهتمامًا فائقًا بالطرق السريعة الممهدة، وكانا يعتبران أن السكك الحديدية هي النموذج المثالي للثورة الصناعية، وضغطا على الحكومة الأمريكية للحصول على قروض لإنشاء شبكة سكك حديدية في المملكة. ولكنّ الأمريكيين لم يحبذوا الفكرة نظرًا إلى تراجع عصر السكك الحديدية في رأيهم، ومارسوا من جانبهم ضغوطًا شديدة على الملك؛ إذ إن عصر السيارات والطرق السريعة المعبدة قد بدأ.

كانت الشركات العاملة في مجال نقل الحجاج بصفة خاصة في الحجاز تعاني عدم وجود شبكة طرق ولو بدائية لمساعدتها في نقل الحجاج في أثناء موسم الحج. وكانت المدينة المنورة ـ ثاني أكثر المدن تشريفًا في الإسلام ـ تقع على مسافة هائلة من جدة، إلى الشمال الشرقي. وكانت السيارات والحافلات عادة ما تلاقي صعابًا جمة وسط الصخور والرمال في أثناء السفر إلى المدينة، ولذا برزت الحاجة الماسة

---

(١٦) استنادًا إلى التقرير الذي نشرته مؤسسة KAA عن المرسوم الملكي ١٥/ ١٢/ ٥٦٠٧ المؤرخ في ٢٢ يونيو/حزيران ١٩٥١م.

إلى طريق ممهد. أدرك هاري سانت جون فيلبي ـ المغامر الإنكليزي الذي عاد وقتئذٍ إلى المملكة بعد احتجازه وقت الحرب بسبب خطبة مؤيدة للنازية ـ أن هذه المشكلة تنطوي على فرصة عمل، فأرسل إلى عبد العزيز خطابًا يناقش فيه إمكانية اهتزاز سمعة المملكة العربية السعودية في أعين العالم إن لم تشرع في تعبيد طرق لائقة لحجاج الحرمين الشريفين، وتمكن من الحصول على تأييد الملك بخصوص خطة تعبيد طريق تمتد من جدة إلى المدينة المنورة بطول ثلاثمئة وخمسين ميلًا. وكان الإسراف الشديد على القصور والهدايا يقف حائلًا دون تمويل الخزانة الملكية لهذا المشروع. وطبقًا لما ذكرته السفارة البريطانية، كان هناك «تردد ملحوظ من جانب كل الأطراف المعنية بتنفيذ المهمة الصعبة المعقدة المتمثلة في إبلاغ الملك بأن الإسراف سواء من ناحيته الشخصية أو من جانب عائلته ووزرائه قد أوقع الحكومة في بئر من الديون. . . وقد استُنتج أن أبناء الملك الكبار قد زعموا أن صحة الملك قد تتعرض للخطر جراء الصدمة». وأبرم فيلبي عقدين مع شركتين بريطانيتين لتعبيد الطرق، وتفاوض معهما بشأن الحصول على تأمين على الصادرات من الحكومة البريطانية، حتى لا تضطر الشركتان إلى الاعتماد بصورة كاملة على العائلة المالكة لتحصيل مدفوعاتها[١٧].

وكانت الطريق الممتدة من جدة إلى المدينة ـ عبر ميناء ينبع على ساحل البحر الأحمر ـ أكثر المشروعات العامة طموحًا آنذاك في المملكة، وقُدرت تكلفته بنحو أربعة ملايين جنيهًا بريطانيًّا. وفي حفل الشاي الذي أُقيم في الظهيرة على جانب الطريق خارج جدة بمسافة ثمانية أميال ونظمته السفارة البريطانية وحضره عشرات الأمراء والوزراء، دُشِّن رسميًّا المشروع في الحادي عشر من شهر ديسمبر/ كانون الأول لعام ١٩٥٠م. وكانت شركة المقاولات الرئيسة هي شركة توماس وورلد

---

(١٧) المعلومات حول ما كتبه فيلبي إلى الملك واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية:
DOS 59/5472 Jeddah to Washington, January 12, 1950.

وأيضًا تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/82657 «Jeddah Monthly Economic Reports,» March and April 1950.

والمعلومات حول التأمين على عمليات التصدير واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية:
DOS 59/5472 Jeddah to Washington, May 27, 1950.

المحدودة البريطانية التي تقع في مدينة شيفليد بإنكلترا. وقد أشار المدير الإقليمي للشركة روبرت دونالد في حفل الافتتاح إلى خططه بالتفصيل؛ إذ أعلن عن بناء عدد كبير من البالوعات والجسور، إلى جانب تطويق الطريق بأساسات يبلغ عمقها تسعة أمتار، وسيكون سطحه الإسفلتي بعرض ستة أمتار. وكان دونالد حريصًا ومتفائلاً في الوقت ذاته بشأن الجدول الزمني المحدد لهذه المهمة، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الكارثة التي تنتظره[١٨].

كان إنشاء طريق إسفلتي في المملكة السعودية مهمة معقدة للغاية حتى في ظلّ أفضل الظروف، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الصخرية والجبلية للأرض في بعض الأماكن، والطبيعة الرملية غير المستقرة في الأماكن الأخرى. كما إن تركيبة التربة متنوعة؛ ففي بعض المناطق تكون مزيجًا متحركًا من الرمال والوحل تذروه الرياح، وفي مناطق تكون مزيجًا من حصى الأحجار الغرانيتية والرمال، وفي مناطق أخرى تتحول إلى مستنقعات من طمي الحجر الجيري البني. وكانت الأرض دائمًا رخوة والرياح عاصفة وكانت العواصف الموسمية تطلق العنان للفيضانات الهائجة المدمرة. أنتجت شركة أرامكو الإسفلت من حقولها النفطية، إلا أن المواد الأخرى كانت نادرة، وأتت العواصف الرملية على المعدات الميكانيكية. لكل هذه الأسباب، وفي الأشهر التي أعقبت حفل الشاي، لوحظ أن وتيرة الإنجاز لشركة توماس وورلد في الطريق الممتدة شمالاً من جدة وغربًا من المدينة تتقدم ببطء. وكحالها المعهود تخلفت الحكومة السعودية عن تسديد المدفوعات في مواعيدها، وثبت فشل خطة التأمين البريطانية في تفادي الخسائر المتراكمة في دفاتر حسابات شركة توماس وورلد. وفي شهر أغسطس/ آب من عام ١٩٥١م، لقي كبير مهندسي الطريق المزمع إنشاؤه في المملكة حتفه في حادث تصادم. وفي شهر يناير/ كانون الثاني الذي أعقبه قضى روبرت دونالد وزوجته نحبيهما في حادث تصادم آخر. وبحلول صيف عام ١٩٥٢م وفي «نهاية سلسلة طويلة من المصائب»، أعلنت الشركة

---

(١٨) المعلومات حول حفل الشاي واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5407 Jeddah to Washington, December 21, 1950, and January 20, 1951.

أخيرًا عن قرارها بالانسحاب، وتحدّث مسؤولوها التنفيذيون مع سليمان للتفاوض بشأن عقد تسوية تسمح لشركة توماس وورلد بالانسحاب من المملكة وتسليم الطريق[١٩].

ومرةً أخرى يتقدّم محمد بن لادن خطوةً إلى الأمام بتراجع شركة مقاولات غربية. ولم تتوقف العائلة المالكة عن الانغماس في شراء السيارات؛ إذ أهدت لأفراد العائلة والأصدقاء والمسؤولين الحكوميين ثمانمئة سيارة في شهر أبريل/نيسان من عام ١٩٥٢م. وأعد الأمراء العدة للاستمتاع بقيادة السيارات، إلا أن المملكة ليس فيها طرق كافية للقيادة. وفي شهر نوفمبر/تشرين الثاني، سافر سعود ـ ولي العهد ـ من جدة إلى المدينة، وبينما كان يقود سيارته بسرعة فائقة على الطريق الملساء، التي لم تكتمل بعد، فوجئ بروعة الإسفلت، وسريعًا ما أعلن حالة الاستعداد القصوى لإنهاء العمل في تلك الطريق السريعة المؤدية إلى المدينة. وأرسل السفير الأمريكي إلى واشنطن قائلًا: «كان محمد بن لادن هو من كان يشرف بسعادة بالغة على ترتيبات الإقامة المؤقتة لولي العهد في المدينة،» وأقنع بن لادن الأمير سعود أنه بوسعه إنجاز هذه المهمة، و«بالفعل شرع في تنفيذ المهمة الجديدة بكل ما أوتي من نشاطٍ وحماسة، لكنه تعرض لتضليل متعمد»[٢٠].

أصدر بن لادن أمرًا بشراء إحدى وعشرين ألف طن من الإسفلت من شركة أرامكو، وشرع في التفاوض مع توماس وورلد بشأن شراء معدات تشييد الطرق المهملة. وتبين أن الآلات البريطانية لا تتناسب مع نوع الإسفلت الذي أنتجته شركة أرامكو. ولذا أرسل اتحاد النفط لابن لادن مهندسًا لمساعدته في هذا الشأن. وطبقًا لما جاء على لسان مسؤولي

---

(١٩) المعلومات الواردة عن مكونات التربة مقتبسة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية:
DOS 5»9/5472 Survey by W]. Chalkley of Bechtel, February 6, 1951.

وأيضًا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5468 Jeddah to Washington, November 24, 1952.

(٢٠) المعلومات المذكورة عن عدد السيارات الذي وصل إلى ٨٠٠ واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5467 Jeddah to Washington, May 6, 1952.

وأيضًا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5472 Jeddah to Washington, January 7, 1953.

السفارة البريطانية، شرعت شركة توماس وورلد في إعداد العدة للرحيل «بعدما أنفقت قرابة نصف مليون جنيه وهي في شدة الاستياء». وبعد سنوات من المحاولات اليائسة لدعم شركة بكتل وشركات أخرى، رضخ المسؤولون الأمريكيون لمساعي بن لادن للاستحواذ على عقد إنشاء الطريق المؤدية إلى المدينة. وجاءت كلمات السفير الأمريكي في برقية أرسلها إلى واشنطن كالآتي:

لأن تلك هي المحاولة الأولى للحكومة في مشروع إنشاءات ضخم كهذا لم تتولَّ شركة أجنبية رعايته أو الإشراف عليه أو تنفيذه، فإن نجاحه أو فشله ربما يكون مؤشرًا شديد الأهمية للعمليات المستقبلية. . . ولأن المشروع صَدّق عليه ولي العهد ووزارة المالية بحماسة شديدة، فإن تأخر الموارد المالية لن يشكل عائقًا لابن لادن ولن يثنيه العقد محدد الأجر عن هدفه، وهذان (تأخر الموارد والعقد محدد الأجر) هما سبب فشل كثير من الشركات الأجنبية[٢١].

للتغلب على افتقاره التام إلى الخبرة في مجال تشييد الطرق، بحث بن لادن عن شركة إيطالية شيدت طرقًا وسدودًا من قبل في جزيرة سردينيا، وعرض عليها العمل باعتبارها شركة مقاولات من الباطن. ومع ذلك تخوف الإيطاليون عندما «أدركوا حجم المسؤولية التي ستُلقى على عاتقهم والتي لم تتحملها شركة توماس وورلد. . . إلى جانب رأس المال الضخم الذي ينبغي توفيره لإنجاز العمل»، وهذا طبقًا لما جاء في أحد تقارير السفارة البريطانية. وبدا أن بن لادن يتمتع بحرية مذهلة في التصرف في خزانة الملك ـ إذ سدد أقساطًا بالعملة الصعبة تُقدر بثلاثمئة وثمانية وعشرين ألف جنيه في الوقت المحدد لشركة توماس وورلد، مقابل الحصول على معداتها ـ إلا أن الإيقاع البطيء لتسديد التعويضات السعودية والمشكلات الأخرى كانت حجر عثرة أمام محاولات إحراز

(٢١) المعلومات حول نظام عقود تعبيد الطرق واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية:
DOS 59/H72 Jeddah to Washington, January 7, 1953

وأيضًا تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/104859 Jeddah Economic Report, February 1953 to April 1953.

وأيضًا تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/104859 Jeddah to London, January 7, 1953.

المزيد من التقدّم في تعبيد الطريق السريع. وعلى مدار عام ١٩٥٣م خُول لابن لادن «تنفيذ مهام تكاد تكون مستحيلة لتشييد الطرق في وقت قصير من دون معرفة مصدر الدفع». ومع ذلك نفذها بنجاح بالغ. وفي العام نفسه تسنى لصديقه الحضرمي الحميم سالم بن محفوظ تأسيس البنك التجاري الوطني، ممّا ساعد بن لادن في استخدام موارد مالية خارج نطاق الحكومة السعودية بسهولة أكبر[٢٢].

كان محمد بن لادن يزداد ثراءً في تلك الآونة، لكنّ المال لم يتمكن من طمس هويته الاجتماعية الممتزجة برمال شبه الجزيرة العربية. وكان أفراد آل سعود الملكيين والقبائل في سهل صحراء نجد مهتمين اهتمامًا بالغًا بنقاء سلالتهم القبلية والعائلية. وكانت عائلات نجد تحتفظ بالتسلسل الدقيق لأسلافهم، وكانوا يدفعون مبالغ مالية طائلة مقابل إقناع شيخ قبيلة مقدام بـ «اكتشاف» نسل جليل لعائلة تمتد جذور ماضيها إلى العبودية مثلًا. وفي رأي أهل نجد الذين يدركون قيمة أنفسهم، ينبغي نسبة أي مهاجر حضرمي مجتهد مثل بن لادن ـ حتى مع كل هذا القدر من الطموح والمفاجآت التي حفلت بها حياة بن لادن ـ وفق فكرة مبتذلة ونمطية عن عرقهم؛ فالجميع في نجد يعرف أن الحضرميين بشكل عام مقتصدون في معيشتهم وجشعون ويتمتعون بروح الإقدام، إلا أنهم في الوقت ذاته شديدو الإخلاص وأهلٌ للاعتماد عليهم. وربما يعجب أمير من آل سعود الملكيين بهذه الصفات في رجل مثل محمد بن لادن، لكنه ـ على الجانب الآخر ـ لن يسمح من دون شك بأن يتزوج بن لادن إحدى بناته. وفي قلب منطقة نجد، حيث تمركزت السلطة السياسية في المملكة العربية السعودية، كان يُنظر إلى أفراد عائلة بن لادن دائمًا على أنهم أجانب دمجوا أنفسهم في أرض الحجاز التي جمعت صنوفًا من البشر. ويمكننا أن نشبه نظرة عائلة فقيرة معتزة بذاتها تنتمي إلى قبيلة نجدية تجاه بن لادن ـ ناهيك بآل سعود الملكيين ـ بنظرة مصرفي بروتستانتي أبيض من أصل أنغلوساكسوني في نيو إنغلاند في خمسينيات القرن العشرين تجاه مقاول صقلي داكن البشرة ذي

---

(٢٢) تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/104859, Jeddah to London, January 7, 1953.
وأيضًا نفس المصدر السابق لوزارة الخارجية البريطانية: Jeddah Economic Report, August 1953 to October 1953.

شهادة متوسطة وله بيت صيفي صغير بجانب البحيرة وجذاب في الوقت نفسه، إلا أنه يجب إبعاده عن الفتيات.

رسم الشيوخ والملوك المسلمون الذين عرفهم بن لادن منذ طفولته في وادي دوعن، ملامح رؤيته الناشئة عن حياته العائلية. ولم يكن للحكام الذين قابلهم في حياته أربع زوجات فحسب ـ وهو عدد النساء المسموح بزواجهنّ في وقت واحد طبقًا للشريعة الإسلامية ـ ولكن العدد أكبر بكثير. وربما لم يتمكن بن لادن من خلال ثرواته الهائلة من إتمام علاقة مصاهرة مع عائلات نجد، لكن الأمر مختلف في جدة ومكة المكرمة؛ إذ أنعمت عليه ثروته على الفور بلقب شيخ، وهو لقب فضفاض يدل على الاحترام اكتسبه بن لادن قبل أن يُمنح له بحلول عام ١٩٥٣م، من خلال علاقته بالملك وإنجازاته العملية. واعتُبر محمد بن لادن الزوج المثالي في أعين أي عائلة لديها بنات في سن الزواج وتكون معنية بعلاقات العمل وشبكة التوظيف التي يتميز بها بن لادن. وبدايةً من أواخر أربعينيات القرن العشرين شرع بن لادن في محاكاة معلمه الملك عبد العزيز، بالزواج من الفتيات اللاتي يلفتن انتباهه أو يُعرضن عليه من آبائهن الذين يعملون معه. وفي الفترة الزمنية الواقعة بين زواجه الأول الذي تم قرابة عام ١٩٤٣م واستحواذه على عقد تشييد الطريق الممتدة إلى المدينة من شركة توماس وورلد في خريف عام ١٩٥٣م، تزوج محمد بن لادن على الأقل تسع مرات، وأنجب ما لا يقل عن خمسة عشر ابنًا وتسع بنات، طبقًا لما ورد في السجلات التي صدرت لاحقًا بموجب دعوى قضائية أقامتها عائلة بن لادن. جدير بالذكر أن بعض السيدات اللاتي تزوجهنّ بن لادن خلال هذه الفترة الزمنية أقمن معه لسنوات طويلة؛ بينما طلق أخرياتٍ سريعًا. فمثلًا، تمتعت فاطمة باحارث بمكانة متميزة باعتبارها أم سالم، ابنه الأكبر، واستمر زواجها منه فترة طويلة ونتج منه ذرية كبيرة ـ إذ أنجبت ولدين آخرين، هما بكر وغالب، إلى جانب ثلاث بنات هن سعاد وزينات وهدى. وكانت بعض زوجات بن لادن الأوليات ينتمين، شأنهنّ شأن فاطمة باحارث، إلى عائلات حضرمية مهاجرة مثل عائلته. وأنجبت إحدى هؤلاء الزوجات، وهي إيرانية الأصل، ثلاثة أبناء، وأنجبت كبيرهم المدعو يسلم في مكة

في التاسع عشر من شهر أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٥٠م. وبعد ذلك أنجبت خليلًا وإبراهيم، وفوزية من بعدهم. وكان لمحمد عدد من الزوجات الأجنبيات؛ واحدة من مصر، وأخرى من فلسطين، وثالثة ربما من إثيوبيا في هذه الفترة. وتشابهت عائلة محمد بن لادن التي كان ينسج خيوطها بكل نشاط وحيوية تشابهًا كبيرًا مع منطقة الحجاز نفسها؛ في كونها متعددة الأعراق ولكن يقيّدها الدين الإسلامي الحنيف[٢٣].

مثلما كان يفعل كل شيخ وأمير في شبه الجزيرة العربية، جمّع بن لادن زوجاته في مجمعه السكني في جدة، ولكلٍ منهنّ بيت مستقل بذاته، وانعزلن جميعًا عن الاختلاط بأي رجل سواه وسوى أقاربهنّ. وأحيانًا كانت زوجاته المطلقات يقمن في مجمعه السكني بعد الطلاق. وكان من المألوف للأقطاب الأثرياء أمثال بن لادن ضمان حصول السيدات اللاتي طلقهنّ على المال الذي يكفيهنّ لحياة كريمة. وفي بعض الحالات كان يُرتّب زواجهنّ من أزواج جدد لديهم عمل ثابت. وحال إنجاب الزوجة ابنًا تفرض الشريعة الإسلامية أن يرث الولد نصيبًا من ثروة أبيه، ومن ثَم يُتوقّع من الولد توفير الحياة الكريمة لأمه. وعلى أي حال، بحلول خريف عام ١٩٥٣م، كان بحوزة بن لادن أموال طائلة تكفي عائلته الكبيرة وتفيض. ولم يكن الرجل مسرفًا قط أو يتّسم بحب الامتلاك على المستوى الشخصي، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالنساء. ولم

---

(٢٣) جدير بالذكر أن سجلات حاملي الأسهم التي قدّمتها العائلة في سلسلة من القضايا المدنية التي رُفعت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م توضح تواريخ ميلاد كل أبناء محمد ممن بقوا على قيد الحياة باستثناء أسامة وعلي بن محمد بالتقويم الهجري، لأنهما لم يكونا يحملان أسهمًا في الفترة الواردة في السجلات، المصدر: *In Re Terrorist Attacks on September 11, 2001*, 03 MDL 1570.

وعدد الأبناء والبنات الذين وُلدوا قبل أواخر العام ١٩٥٣م مأخوذ من تلك الملفات. ومن الناحية الأخرى فقد احتُسب عدد الزوجات اللاتي أنجبن هؤلاء الأبناء عن طريق المقابلات الموثقة التي عُقدت مع أفراد العائلة وشركاء آل بن لادن الذين شرحوا أيّ الإخوة - وفي بعض الحالات الأخوات - الذين وُلدوا من الأم نفسها. أما عن الرواية التي تقول إن والدة كل من يسلم وخليل وإبراهيم وفوزية لها أصول إيرانية فيؤكده ما جاء من كتاب: Bin Laden, *Inside the Kingdom*, p. 17.

وجاء تاريخ ميلاد يسلم من دعاوى الطلاق التي رفعت عليه في سويسرا والتي تُرجمت ووُضعت في ملفات في المحكمة العليا لولاية لوس أنجلوس تحت عنوان: *Carmen Bin ladin v. Yeslam and Ibrahim Bin ladin*, Los Angeles County Superior Court, BC212648.

تكن المجمعات السكنية التي بناها لعائلته فخمة أو مبهرجة مثل كثير من القصور التي بناها لأفراد العائلة المالكة، إلا أنها كانت تبعث على الشعور بالراحة. ولم يكن يضيّع الوقت في إشباع أهوائه ورغباته، بل كان يبدو أنه يستمتع بعمله في المقام الأول، وكان طموحه يتخطى حدود الرضى إلى آفاق أرحب.

عكفت السفارة الأمريكية على توريد العقاقير المنشِّطة للشهوة لعبد العزيز لكسب رضاه، إلا أن العمى والوهن الشديد في سنواته الأخيرة حرمتاه الملذات التي طالما كانت هي محور حياته، ولذا اعتزل الحياة تقريبًا في بلاطه الملكي مع نسائه. ومع أن وريثه، سعودًا، بلغ من العمر خمسين عامًا، إلا أن الملك كان يعامله هو وأبناءه الكبار معاملة الأطفال، مصرًّا مثلًا على وجوب وقوفهم في حضرته ما لم يدعهم إلى الجلوس. بينما خيب بعض أبنائه الشباب آماله، وألحق مشاري الذي كان يبلغ من العمر قرابة عشرين عامًا العار بالعائلة عندما شرب حتى الثمالة ولم يشعر بنفسه إلا حينما قتل دبلوماسيًّا بريطانيًّا يُدعى سيريل عثمان، الذي كان الملك يحبه ويحترمه بشدة. ولم يمض على هذه الواقعة وقت طويل حتى أصدر الملك مرسومًا بتحريم الكحول رسميًّا في المملكة العربية السعودية وذلك في أواخر عام ١٩٥٢م[٢٤].

لم يكن هناك بين البدو عُرفٌ لولاية العهد، إلا أن التقليد الشائع كان يقضي أن يتولى الحكم من يحظى بالإجماع، بناءً على قدرته على القيادة بصرف النظر عن كونه الأخ الأكبر. ومن قديم الأزل احتكر عبد العزيز قرار ولاية العهد لنفسه ونصَّب سعودًا وريثًا سياسيًّا، على الرغم من عدم انضباط سعود الظاهر الذي تجسد في أوائل خمسينيات القرن العشرين في إسرافه في احتساء الخمر، فشعر الملك للوهلة الأولى أن ولي العهد سيكون في حاجة إلى من يؤازره في مهمته، ومن ثَم سعى لتكوين شراكة غير معلنة

---

(٢٤) المعلومات الواردة عن العقارات المثيرة للشهوة وعن إجبار أبنائه على الوقوف مقتبسة من: *The House of Saud*, p. 159

و أيضًا مقتبسة من كتاب: Holden and Johns

حيث يعطي رواية دقيقة لمقتل عثمان من صفحة ١٧٠ إلى صفحة١٧١.

بين سعود وفيصل، ابنه الثاني المولود من أم أخرى. وكان فيصل رجلًا صارمًا، يصعب سبر أغواره، وبدا أكثر مثاليّة للمرحلة القيادية التالية من سعود. ولتعزيز هذه الخطة والتغلب على المشكلات المتوقعة بين الأخوين، أعلن عبد العزيز أن ولاية العهد سوف تنتقل من سعود إلى فيصل وليس من سعود إلى ابنه الأكبر.

في أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٥٣م أصيب عبد العزيز بمرض شديد في قصره في مدينة الطائف الجبلية التي كانت ملاذًا من هواء جدة الساحلي الرطب. وفي الثامن من شهر نوفمبر/تشرين الثاني، ساءت حالة الملك، ومن ثَم سافر سعود إلى جدة جوًّا حيث كانت في استقباله فرقة عسكرية ومواكب من المواطنين والسيارات المزدانة بالزهور. وفي الصباح التالي بلغته أنباء احتضار أبيه، فانطلق سعود إلى الطائف ولكن بعد أن فات الأوان؛ إذ لفظ عبد العزيز أنفاسه الأخيرة هذا الصباح بين ذراعي ابنه فيصل. وحضرت أعداد هائلة من أفراد العائلة وتجمعت حول جثمان الملك بوصول سعود. وحتى يبدد أي شكوك تعصف بعقولهم جميعًا، خلع فيصل خاتمًا من إصبع أبيه المتوفّى واقترب من سعود وقدمه إليه طواعية. وسرعان ما أعاد سعود الخاتم إليه، وأعلن أن فيصل هو وريثه وولي العهد(٢٥).

رافق فيصل جثمان أبيه على الطائرة المتجهة إلى الرياض حيث نقلوا الجثمان في شاحنة ودفنوه في مقبرة في الصحراء بلا شاهد، على الطريقة الوهابية التي تحرم زخرفة بلاطة القبر وأي نصب تذكاري آخر للموتى.

ظل سعود مقيمًا في جدة، وشعر أن حياته قاب قوسين أو أدنى من التغيير الجذري، وأنه إلى حدّ ما في حاجة إلى مواجهة الفوضى المالية والتفاوت الاجتماعي السائد في المملكة التي ورث عرشها. وبعد أن قضى أبوه نحبه بيوم واحد، قابل القائم بأعمال السفارة الأمريكية وطلب منه مناقشة «أمر خاص وسري».

---

(٢٥) المعلومات التفصيلية عن وصف المشهد وعن دفن الملك واردة في تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/104868Jeddah to London, November 24, 1953.

شعر الملك الجديد بأسف بالغ لانحطاط مستوى المعيشة في بلاده، وأخذ على نفسه عهدًا بالشروع في خوض «حرب ضدّ الفقر والجهل والأمراض المتفشية»، وقال إنه «عازم على إحراز النصر في هذه الحرب». وسوف يشيّد المدارس والمستشفيات والقواعد العسكرية والطرق السريعة. وذكر أنه «سئم» من التصرفات والإدارة المالية الفاسدة في المملكة، وأنه أدرك أن مجهودات اجتثاث «الفساد» من فوق الأرض سوف «تبدأ بنفسه أولًا».

واستطرد قائلًا إن لديه مطلبًا واحدًا فحسب، وهو اقتراض ثلاثمئة مليون دولار من الولايات المتحدة الأمريكية نظرًا إلى أن المملكة مفلسة على حدّ تعبيره[٢٦].

(٢٦) المعلومات التفصيلية عن طلب القرض واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5469 Jeddah to Washington, November 10, 1953.

جدير بالذكر أن القائم بأعمال السفارة الأمريكية قد سجل المشهد.

الفصل الرابع

مجد السلطان

في الوقت الذي اعتلى فيه سعود العرش، كانت شركات النفط الأمريكية تدفع قرابة العشرين مليون دولار للخزينة العامة السعودية شهريًّا، وكان محمد بن لادن يحصل على نسبة ثابتة من المبلغ، ويبدو أنه كان الشخص الوحيد ـ باستثناء سليمان والعائلة المالكة ـ الذي كان يمكنه الحصول مباشرة على مدفوعات من شركة أرامكو خلال هذه الفترة. ونظريًّا، كانت هذه الحصة التي يأخذها تهدف إلى تمكينه من تمويل مشروعات الإنشاءات المتعددة التي خُولت إليه، سواءٌ أكانت قصورًا أم طرقًا سريعة، كما ورد في البرقية السرية التي أرسلها إلى لندن السكرتير التجاري البريطاني جيه. أم. هيث. ولكن على المستوى العملي أدّت «الفوضى الإدارية» السائدة في المملكة آنذاك إلى اضطرار بن لادن إلى قبول «كل أنواع المهام التي تزيد تكلفتها النهائية عن الموارد المتاحة لديه بنسبة هائلة إضافة إلى ضيق الوقت المحدد لإنجاز هذه المهام». ولم يتمكن بن لادن ـ الذي يتمتع بشبكة علاقات واسعة ـ من مجاراة الأمور وتجمد عمله ولم يحرك فيه ساكنًا باستثناء تنفيذ بعض المهام التي استطاع تمويلها بالأقساط التي يأخذها من شركة أرامكو. ومرة أخرى، يتسبب الإسراف داخل القصور والرفاهية غير المحدودة في سقوط الخزينة الملكية في «بئر الإفلاس النقدي»[(١)].

---

(١) وصلت عائدات البترول إلى ٢٠ مليون دولار في الشهر وبلغت العائدات في سنة ١٩٥٤م إلى ٢٣٤,٨ مليون دولار، التفاصيل واردة في: Holden and Johns, *The House of Saud*, p. 180.
وأيضًا في تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/104867 Jeddah to London, October 11, 1953.

في أواخر عام ١٩٥٣م اتخذ بن لادن قرارًا بإعادة هيكلة شركته، التي عُرفت في جدة باسم شركة «محمد وعبد الله، ولدي عوض بن لادن» وهو الاسم غير الرسمي نفسه الذي أطلقه عليها حينما وصل من وادي دوعن منذ أكثر من عشرين عامًا مضت. وفوّض مهمة إعادة الهيكلة لفؤاد زاهد، المهندس العراقي الذي تلقى تدريبه في الولايات المتحدة الأمريكية. فاتخذ زاهد قرارًا بتحويل «شركة بن لادن غير المهيكلة» إلى أقسام مهنية؛ أحدها للإدارة، وثانٍ لمشروعات الإنشاءات، وثالث للصناعات الحديثة. وسعى زاهد لإقناع الملك الجديد ببناء مصنع إسمنت، ومصنع للبلاط، ومسبك للحديد، وثالث لصناعة الفخار، وآخر لصناعات الألمنيوم. وبحث عن وكالات لاستيراد المعدات الصناعية لحسابه من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. واختتم هيث قائلًا إن زاهدًا كان لديه «خطط طموحة» لا يعرف أحد شيئًا عنها شأنه شأن محمد بن لادن[٢].

أبلغ المستشارون الأمريكيون الملك سعود بصعوبة إيجاد فرصة لإقراضه قبل تنظيم شؤونه المالية. وعلى مدار عام ١٩٥٤م، جاء تقرير السفارة الأمريكية في جدة عن العام الأول للملك سعود في السلطة سلبيًّا حيث ورد فيه أن «النفقات الملكية كانت هائلة»:

استنزف الملك الخزينة الملكية خلال فصل الربيع من هذا العام في زياراته إلى الدول المجاورة بصحبة حاشيته المبذرة. وعلى الرغم من أن التقارير التي أفادت بسخائه وعطائه في الخارج وردت إلى جدة، فقد تأخرت رواتب الموظفين الحكوميين بسبب نقص الموارد المالية، وتأخرت الحكومة في سداد ديونها المستحقة للتجار. وشُرع في تنفيذ برنامج ذي تكاليف باهظة لبناء القصور، وتراوحت أقل التقديرات له من ثلاثين إلى خمسين مليون دولار، بينما ارتفعت تقديرات أخرى عن هذا الحد. وفي غمرة هذا الإفراط والتبذير لم تُسمع سوى حفنة من الأصوات المنادية بتحلي ذوي المناصب العليا بروح المسؤولية،

---

(٢) المعلومات استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الألمانية: Ger FM 366, WI 416-80.04-427/59 Jeddah to Bonn, September 8, 1959.

راجع أيضًا تقرير وزارة الخارجية البريطانية: 371/104867, op. cit.

ولكن هيهات وكل اهتمام من يشغلون تلك المناصب مركّز على ملء الخزائن(٣).

بالطبع، كان محمد بن لادن على رأس هذه القائمة أو بالقرب منها، واستطاع الحفاظ على مركزه حتى في ظلّ تقلّب الأوضاع في القصر. وبتشجيع من فيصل أخي سعود غير الشقيق أقدم سعود على إجبار سليمان على التقاعد في صيف عام ١٩٥٤م، ولكن بن لادن ظلّ هو القائم على أعمال الإنشاءات المفضل لدى الملك، وكان يملك حاسة خارقة تمكنه من تفادي الصدامات وسط الشقاقات بين أفراد العائلة المالكة وتابعيها، بل تمكّن من فصل نفسه عن سليمان وقت سقوط ناصحه الأمين.

أصبح شغل بن لادن الشاغل هو السعي لتطوير مصادر الكهرباء في جدة. وحدثت المشكلة عندما أمر الملك سعود بإحضار موكب زوجاته وما ملكت يمينه وعبيده لزيارة قصوره المطلة على ساحل البحر الأحمر، حيث كانت الإضاءة تومض وتخبو ومكيفات الهواء تتعطل عن العمل فينةً بعد الأخرى، وانزعج الملك وثار بشدة. وفي بداية ١٩٥٤م اتفق بن لادن مع محمد علي رضا مؤسس أقدم عائلة تجارية في جدة وأكثرها نفوذًا، لشراء أسهم في «شركة الكهرباء الوطنية المحدودة» المنشأة حديثًا، طبقًا لترخيص منحه سعود. جمعت الشركة زهاء مليوني جنيه إسترليني، وأخذت من الحكومة بعض التوربينات السويسرية، إلا أن مجلس إدارتها عجز عن وضع خطة تتفق عليها كل الأطراف. وعندما أقام سعود وعائلته في جدة خلال صيف عام ١٩٥٤م، استأثر منزله بالقدر الأكبر من كهرباء المدينة، حتى إن الكهرباء ظلت مقطوعة عما يزيد عن نصف المدينة لاثنتي عشرة أو ست عشرة ساعة يوميًا. فاتجه بن لادن إلى شركة أمريكية، تُدعى بيرنز آند رو، يقع مقرها في آخر شارع برودواي في نيويورك. وتعهد مهندسو الشركة بتخفيف حدة المشكلة عن طريق تركيب معدات التوليد السويسرية المتوقفة عن العمل. ووجد مهندس شركة بيرنز آند رو الذي سافر جوًّا إلى جدة أن بن لادن «ساعد في تغيير آراء حملة

(٣) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4944Jeddah to Washington, «Economic and Financial Review: Saudi Arabia 1954,» April 7, 1955.

الأسهم المشككين» في شركة الكهرباء التي يملكها، ووجده شغوفًا بتطوير شبكة الكهرباء في المدينة قبل عودة الملك في صيف عام ١٩٥٥م، وتشغيل كل مكيفات الهواء مرة أخرى[٤].

اجتاز محمد بن لادن المهمة بنجاح، وسُر الملك بذلك الإنجاز، وأصدر مرسومًا ملكيًّا في الثاني والعشرين من شهر يوليو/ تموز لعام ١٩٥٥م، أصبح بن لادن بمقتضاه وزير دولة في الحكومة السعودية. ولم يكن هذا منصبًا إداريًّا، إذ إن سعودًا ليس لديه مجلس وزراء على أرض الواقع، إلا أن ذلك ألمح إلى تزايد نفوذ بن لادن. وكانت العقود التي أبرمها في ذلك الوقت ضخمة ومتنوعة. وأشارت سفارة ألمانيا الغربية في نهاية عام ١٩٥٥م أن العائد السنوي من مشروعه بلغ قرابة مئتي مليون دولار. وربما كان ذلك تقديرًا مبالغًا فيه، ولكنه جدير بالاعتبار، وإن صح فهذا يعني أن بن لادن حقق هذا العام ما يعادل نصف عوائد النفط في المملكة من أرامكو أو أكثر. وشأن بن لادن شأن الأمراء السعوديين الذين ظاهروه كان يمتلك ثروةً من الأصول على الرغم من أنه لم يكن يمتلك دائمًا كثيرًا من النقد. فالأمراء كانوا يطالبونه بأن ينهي العمل في قصورهم على وجه السرعة، لكنهم بعد ذلك يتهربون من دفع ديونهم. وتثبت المستندات أن بن لادن كان يسعى في بعض الأوقات للحصول على قروض من بنك محلي قدرها ملايين الدولارات فحسب، ولكنه في أوقات أخرى قادر على تسديد مدفوعات ضخمة بالعملة الصعبة لحسابات بنكية أجنبية. ويبدو أنه لم يكن يعرض نفسه لمطالبات من دائنين، لكن أرصدته النقدية كانت متقلبة. ومن دون شك فإن المئتي مليون دولار الممثلة في العائد الذي قدرته ألمانيا الغربية تعكس أبعاد نشاط بن لادن الملحوظ في المملكة في هذه الفترة. وإلى جانب المشروعات المتعددة لإنشاء القصور والاستيلاء على العقد الضخم لمشروع الطريق الممتدة من جدة إلى المدينة (الذي شهد معدلات تقدم بطيئة بسبب الظروف الصعبة والمدفوعات

---

(٤) المعلومات عن شركة الكهرباء والمشكلات التي واجهتها وردت في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5472Jeddah to Washington, June 12, 1954.

وأيضًا التقرير الصادر من وزارة الخارجية الأمريكية حول شركة بيرنز آند رو: DOS 59/4945 Jeddah to Washington, January 8, 1955.

المتأخرة)، أنشأ بن لادن خط أنابيب مياه في المدينة، إضافة إلى تركيب مولدات كهربائية في هذه المدينة المشرفة، وشيد مقرًّا رئيسًا جديدًا لوزارة الشؤون الخارجية، ومهّد الشوارع في مدينة الدمّام التي تقع في المنطقة الشرقية، إلى جانب تشغيل مصنع رخام. وعيّن بن لادن مهندسيْن أمريكيين لمعاينة موقع غني بالطبقات الجبسية بحيث يمكنه إقامة مصنع يكلف مليون ونصف مليون دولار. وكان بن لادن في هذه الآونة ينفذ كثيرًا من المشروعات مع الولايات المتحدة الأمريكية حتى إنه وكّل شركة أمريكية لتنسيق مشترياته والعقود التي أبرمها هناك، وهي شركة نيويورك لخدمات التنمية الدولية المتحدة، في نيويورك[٥].

وقتئذٍ أصبح بن لادن وأخوه عبد الله أسطورتيْن في بلدتهما رباط باعشن الرابضة في وادي دوعن؛ إذ كانا آخر الحضرميين الكثيرين الذين خرجوا من أودية المنطقة فقراء صفر الأيدي لتحقيق ثروة تسمح لهم بالعودة بفخر واعتزاز. سافر الأخوان معًا جوًّا خلال عام ١٩٥٦م على متن طائرة حكومية سعودية خاصة لزيارة حضرموت. ومع ذلك ازداد اتساع هوة الخلاف بين رؤيتهما للمستقبل، إذ بدت القوة المحركة لمحمد مطلقة بلا حدود، بينما تزايد شعور عبد الله ـ الذي تزوج تسع مرات على الأقل على مدار حياته ـ بالرضى بما حققه بالفعل، وسيطرت عليه فكرة العودة إلى رباط باعشن للاستمتاع بفترة التقاعد عن العمل والاشتراك في الأعمال الخيرية. وسريعًا ما اتخذ الأخوان قرارًا بالوصول إلى مفترق الطرق، وفي عام ١٩٥٧م اشترى محمد نصيب عبد الله في الشركة، بعد ستة وعشرين عامًا من تأسيسها معًا. وقال خالد عامري أحد أحفاد عبد الله: «كان السبب

---

(٥) المرسوم الملكي: Decree no. 21/1/138/2265, *Umm al-Qura Annual Record, KAA Foundation.*

بلغ تقييم ألمانيا الغربية للمبلغ ٢٠٠ مليون دولار أمريكي، حسب تقرير وزارة الخارجية الألمانية: Ger FO 146/97-649/55 Jeddah to Bonn, December 23, 1955.

مشروعات آل بن لادن في العام ١٩٥٥م، استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/114885Jeddah to London, April 6, 1955.

المعلومات الخاصة بعوائد الجبس واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4945 Jeddah to Washington, July 5, 1955.

والمعلومات عن وكيل آل بن لادن في نيويورك واردة في تقرير شركة بيرنز آند رو المرفق في المصدر السابق.

الرئيس للانفصال أن محمدًا أكثر طموحًا من عبد الله، وأراد محمد استكمال المسيرة»(٦).

عاد عبد الله إلى وطنه اليمن بعد انفصاله عن أخيه بفترة ليست طويلة، وأحضر معه زوجاته وأبناءه. وعكس القرار الذي اتّخذه شيئًا من الحنين المعتاد لدى التجار الحضرميين في جدة. ومع أن كثيرين منهم حصلوا على الجنسية السعودية في أثناء هجرتهم بل حققوا ثروات طائلة، فإنهم ظلوا غرباء في المملكة، واستُبعد أبناؤهم وبناتهم من الزيجات رفيعة المقام. وساد بين كثيرين شعورٌ بالواجب الديني والخيري تجاه أقاربهم الذين تركوهم يحاربون الفقر في أودية حضرموت.

افتتح سالم بن محفوظ، مؤسس البنك التجاري الوطني في المملكة العربية السعودية، مدرسةً في مسقط رأسه في حضرموت خلال هذه الفترة. وتبرع محمد بن لادن بالأموال اللازمة لإنشاء شبكة مياه في منطقة وادي رخية، وطن أبيه، بعد ذلك بسنوات قليلة، على الرغم من أنه لم يقم بزيارة هذا المكان على الإطلاق، طبقًا لما رواه أفراد من عائلة بن لادن ما زالوا يعيشون هناك. وأنشأ عبد الله أول شبكة لمياه الشرب بعد أن وصل رباط باعشن بوقت وجيز، وقبلها كان قد جاب الرُّبى الجرداء بصحبة مرشدين من البدو حتى وجد ينبوع مياه مناسبًا، ثم استدعى أحد المهندسين الإيطاليين العاملين في شركة بن لادن، وأشرف على مشروع مد مواسير المياه، وشيد منزلًا جديدًا من سبعة طوابق لعائلته بواجهةٍ عصرية من الجبس، وقد أقيم هذا المجمع السكني الجديد الرائع على منحدر بالقرب من وسط القرية التي شهدت مولده(٧).

---

(٦) المعلومات التفصيلية عن السفر إلى المكلا واردة في تقرير المكلا: DOS translation of article in *Al-Bilad Al-Saudiyah* no. 2110, March 25, 1956, 59/5371.

والمزيد من المعلومات حول شراء الحقوق القانونية لعبد الله واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS RG 59 «The Bin Ladin Construction Empire,» Jeddah to Washington, September 25, 1967.

وأيضًا من خلال المقابلة التي أُجريت مع خالد أميري في ١٧ من مارس/ آذار ٢٠٠٧م.

(٧) المعلومات عن عودة عبد الله إلى أرض الوطن مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع أعضاء مجلس مدينة الرباط والتي أُجريت مع خالد أميري في ١٧ مارس/ آذار ٢٠٠٧م. والمعلومات عن مدرسة ابن محفوظ مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع مديرها في ١٧ مارس/ آذار عام =

فضّل محمد البقاء في المملكة العربية السعودية، التي منحته الشهرة والرفاهية النسبية. وامتلأ مرآبه في جدة برموز نجاحه الساطع؛ عشر سيارات باكارد ذات غطاء قابل للطي موديل عام ١٩٥٧م مستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية. وعُرف هو وشريكاه المصرفيان الحضرميان؛ سالم بن محفوظ وحسن عباس شربتلي، رئيس بنك الرياض، «بلقب «أهرامات الجهلاء الثلاثة» في المملكة العربية السعودية» حسبما ذكر سفير ألمانيا الغربية في شهر سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٥٧م. واستطرد: «تعود السمعة البراقة لابن لادن لشخصيته الدؤوبة وروحه العازمة ونسيج الفطنة والأمانة المتشابك لديه». وورد في تقرير آخر من ألمانيا الغربية في الصيف اللاحق أن شركة بن لادن تعد: «أكثر الشركات ثراءً في المملكة العربية السعودية... ويُقال إن أصولها وثرواتها تتعدى أصول وثروات المملكة بأكملها» يدعمها في ذلك «بعض الاحتكارات الصادرة عن مراسيم ملكية» أصدرها الملك سعود(٨).

ومع تزايد سطوع نجم بن لادن في الأوساط السعودية، ازدادت خطورة وقوعه في شرك الشقاقات والمنافسة التي شكلت أمور السياسة داخل إطار العائلة المالكة السعودية. وكان هناك ما يربو عن أربعين أخًا في آل سعود يحق لهم وراثة العرش اسميًّا، إضافة إلى أعداد لا تُحصى ولا تعد من الأمهات والزوجات والمطلقات، وجميعهنّ يتنافسن على تحصيل المال من الخزينة، وكانت احتمالية وقوع شخص غريب مثل بن لادن في الخطأ كبيرة جدًّا، وإذا ما أخطأ فقد يخسر العقود المبرمة معه ومع شركته، وقد يصل الأمر لفقدان حريته. وبعد أن تولى سعود مقاليد الحكم بفترة وجيزة سعى إلى تدخل بن لادن كوسيط في نزاع بينه وبين أخيه فيصل، حسبما ذكر صديق لبناني لابن لادن. وتظاهر محمد بإصابته بمرض

= ٢٠٠٧م. أما المعلومات عن مشروع مياه الشرب في وادي رخية الذي نفذه محمد مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع أفراد من آل بن لادن في قريتهم التي انحدروا منها المسماة بقرن باشريح في ١٨ مارس/ آذار ٢٠٠٧م.

(٨) المعلومات المذكورة عن السيارات الباكارد ذات الغطاء القابل للطي مستقاة من المقابلة التي أُجريت مع نديم فخر الدين في ٢٦ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م، وأيضًا من تقرير وزارة الخارجية الألمانية: Ger FM 145/560 Jeddah to Bonn, September 19,1957. «the richest company... stilte orders»: 277/200/WI-416-84-04-461/58 Jeddah to Bonn, July 2, 1958.

عضال لمدة شهر هربًا من هذا المأزق، واستدعى الأطباء لعلاجه وظل كامنًا في مجمعه السكني حتى تبدد النزاع الملكي بينهما. وشرح مخاوفه لصديقه هذا بقوله: «إنهما نسل الملك عبد العزيز، وتحت أي ظرف لن يضر أحدهما الآخر، لكنني لست منهم، لذا قد أكون أنا الضحية». كانت عبارات السمع والطاعة باللغة العربية المنمقة هي النهج السياسي الأساسي لابن لادن، والبلسم الذي يستخدمه لاسترضاء الغرور الملكي لكل الأطراف. ولكونه ذا أصول يمنية ومتواضعًا نسبيًّا من الناحية الاجتماعية، فإنه لم يكن يومًا يمثل خطرًا سياسيًّا على آل سعود، كما إن الثروة التي جمعها ـ والتي تؤكد الفكرة المحلية السائدة عن البراعة التجارية لدى الحضرميين ـ لم تكن ذات أهمية بالغة في الرياض بصفة خاصة. إضافة إلى أن بن لادن كان يحرص دومًا على تذكير العائلة المالكة بأنه موجود لخدمتهم بالطريقة التي ترضيهم وأنه ينفذ قراراتهم فحسب. ويذكر ابنه يسلم أن: «الأب طلب منا ألا نتدخل في السياسة؛ فنحن شركة مقاولات ورجال أعمال، ونفعل ما يُطلب منا. . . وعلى هذا تربينا».

وعندما عبّر بن لادن عن آرائه السياسية حاكى وجهات نظر العائلة المالكة، ففي خلال عام ١٩٥٦م، عندما دخل آل سعود في نزاع على الحدود مع بريطانيا بسبب واحة البريمي النائية، أبلغ بن لادن السفارة الأمريكية أنه مستاء من سياسة الولايات المتحدة ولكن هذا الاستياء كان بمنزلة دعم غير كافٍ للملك سعود. وفي أغلبية هذه المواقف كان يضع رأسه في الرمال[٩].

---

(٩) من المقابلة التي أجريت مع فخر الدين في بداية التقرير الصحفي الذي أعدته قناة إن بي سي الأمريكية وأُذيع في ١٠ يوليو/ تموز ٢٠٠٤م. وأيضًا النزاع الذي نشب حول ولاية البريمي الحدودية في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/5371 Beirut to Washington, March 1, 1956

علق الأمريكيون أمالهم على بن لادن ليتدخل لدى الملك سعود حتى يعدل عن قراره بمنح عقد إنشاءات لشركة بولندية شيوعية تملكها الحكومة، بيد أن كبير المهندسين في شركة بن لادن فؤاد زاهد -على حسب ما ورد في سلسلة التقارير الخاصة بهذا الموضوع ـ قال إن بن لادن لن يشترك في الأمر بسبب «عدم رضاه عن سياسة الولايات المتحدة في ما يتعلق بالنزاع الحدودي على ولاية البريمي والتعامل مع موضوع شحن الخزانات». لكن الحقيقة أن الولايات المتحدة انحازت بكل ثقلها إلى المملكة العربية السعودية على حساب بريطانيا في هذا النزاع الحدودي طبقًا لما ورد في كتاب: Bronson, *Thicker Than Oil*, p. 62.

ولم يتضح من الوثائق المُطلع عليها موضوع «شحن الخزانات» الذي كان يشتكي منه بن لادن.

ربما أدرك بن لادن في لحظة ما أن سلطان الملك سعود أصبح واهيًا، وبدأ نجم الأمير فيصل في الظهور بالصورة التي تمنى معها كثيرون داخل العائلة المالكة إسناد السلطة إليه. ومع تجلي هذا الصراع، كان التحدي الذي يواجه بن لادن يكمن في استرضاء الرجلين، ويا لها من مهمة شاقة، كونهما قائدين شديدي الاختلاف أحدهما عن الآخر، وأفكارهما مختلفة بخصوص المسار الذي ينبغي للمملكة العربية السعودية اتباعه.

عشق سعود السلطة الملكية، حيث الانتقال من قصر إلى قصر، وترؤس الولائم السخية، والتصدق بالمال، والولوج إلى فراشه مع إحدى زوجاته أو جواريه. ورث سعود من أبيه طول قامته، وكانت لديه القدرة على الإيحاء للآخرين بالهيبة الملكية حتى بعد أن امتلأ جسمه، ومع ذلك افتقر إلى ذكاء أبيه وحنكته في مجال السياسة الدولية. وأصبح سعود وريثًا للعرش بعد أن قضى ابن الملك عبد العزيز الأكبر نحبه في وباء الأنفلونزا عام ١٩١٩م، لكن الملك لم يُعِدَّ سعودًا الإعداد الملائم لاعتلاء العرش. ويُعزى ذلك إلى أن تعليمه وهو صبي اقتصر على حفظ القرآن الكريم وتعلّم المهارات الصحراوية الممثلة في الفروسية والصيد بالصقور، التي لم يثبت فيهما جدارته. وكان ضعيف البصر مسطح القدمين، ولذا كان يحدق النظر عبر عدسات نظارة سميكة ويمشي بطريقة تعوزها الرشاقة، ووصل إلى سن البلوغ أمّيًا ولم يسافر إلى الغرب حتى وصل العقد الخامس من العمر. عينه عبد العزيز نائبًا أول له في الرياض، ولكنه بدلًا من استيعاب دقائق فن إدارة شؤون المملكة التي تميز بها أبوه، انجذب عوضًا عن ذلك إلى فراش الزوجية، وأنجب في نهاية المطاف مئة طفل معترف بهم، أو يزيد، من عدد غير معروف من الزوجات(١٠).

تجاهل عبد العزيز الأفكار الغربية العصرية بصفة أساسية، بغض النظر

(١٠) المعلومات المذكورة مستمدة من تقرير لوزارة الخارجية البريطانية: FO 371/114872 Jeddah to London, January 6, 1955.

ووردت أيضًا في: De Gaury, *Arabia Phoenix*, pp. 86- 92. *House of Saud*

نفس المصدر السابق ص ١٧٤ ـ ٨٣.

المعلومات التفصيلية عن أبناء سعود ترد في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2643 Jeddah to Washington, December 16, 1964.

عن السيارات وأجهزة الراديو، إلا أن ابنه الأكبر أصبح متيمًا بأجهزة الرفاهية الاستهلاكية، وأدمن الكحوليات تدريجيًا. وفي البداية، تسبب المسؤولون في شركة أرامكو وفي الحكومة الأمريكية في جذب انتباه سعود إلى التوافه وسبل الرفاهية الحديثة، واعتبروه عاملًا حاسمًا في استغلالهم للنفط المتدفق من ثنايا أرض هذه الدولة، وسعوا إلى التأثير عليه بالمنافع المادية التي ستعود عليه بالتحالف مع أمريكا.

وعندما سافر سعود لأول مرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتباره وليًا للعهد عام ١٩٤٧م، تجوّل في أنحاء نيويورك بعربة سكة حديد خاصة. وفي برج المراقبة في مبنى إمباير ستايت، قال للقائمين على ضيافته: «ظننت أن إخواني كانوا يبالغون عندما حدثوني عن نيويورك، لكنهم لم يذكروا لي نصف ما أشاهده الآن. إنّ مدينةً مثل هذه لا يمكن أن تكون واقعية». وبعدها أنعم النظر من نافذة سيارته الليموزين، وأشار إلى السيارات، وتساءل: «كاديلاك؟ بويك؟ كرايسلر؟» وفي عشاء احتفالي في فندق والدورف أستوريا، أجلس مديرو شركات النفط سعودًا على طاولة مزخرفة بتصميم تفصيلي لقرية من قرى نيو إنغلاند في فصل الشتاء ويظهر فيها نموذج لمحطة وقود تابعة لشركة تكساكو وقطار مصغر يجري على العجلات بين القطن (الثلج)، وكانت أذرع التحكم في القطار عند مقعد سعود، وقضى الأمسية بأكملها ينفخ في صفارة القطار ويجعل المحرك يطلق سحب الدخان. وعقب تناول الحلوى قُدمت ثماني فقرات ترفيهية؛ منها فقرة الفتيات الصينيات الراقصات، وأخرى للساحر، وثالثة للاعبي الأكروبات، وبدا سعود مستمتعًا بها على نحو خاص. وكان هدف أرامكو تأسيس علاقة دائمة مع ولي العهد، ونجحت الشركة في ذلك، لكنها أيضًا، ساعدت في إلهاب خيال رجل ساذج حول كيفية استمتاع ملك عصري مبجل يملك كل هذه الثروات بصولجانه وسلطانه[١١].

تولى محمد بن لادن تشييد قصر الناصرية الذي أمر سعود ببنائه بتكلفة

(١١) المعلومات عن زيارة أرامكو والاقتباسات واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 5917208 «Crown Prince Saud's Official Visit to America: Notes on the period Monday, January 13, through Wednesday, January 22, 1947».

بلغت مئتي مليون دولار، وقد أقيم خارج الأسوار القديمة لمدينة الرياض. وأصبح ذلك المجمع رمزًا للافتقار إلى الذوق الرفيع، حيث شُيّد فوق مساحة شاسعة وكان يضم مباني. خضراء وقرنفلية اللون، وكان لملاعب كرة القدم نصيب عليها، إلى جانب الأبقار الأمريكية المستوردة. وقد ذكر أحد الضيوف الذي حضر إحدى ولائم الملك المقامة خارج القصر أنه شاهد «مئات المصابيح الكهربائية الملونة التي أطلقت أضواءها على حين غرة» بمجرد أن أصدر سعود أمرًا بذلك في الغروب وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة من فرط سعادته، واستطرد الضيف: «وفجأةً أضيئت المئذنة في صفحة السماء المظلمة بإنارة غامرة بجميع الألوان: الأزرق والأصفر والأخضر والأحمر، بينما كسا اللون البرتقالي جدران القصر»[١٢].

تدهورت صحة سعود بمرور الوقت، وعندما أصبح قلقًا على قدرته الجنسية، أحاط نفسه بمدّعي المعرفة الطبية من الأوروبيين الذين باعوا له الأقراص ووخزوه بالإبر. وأبدى الدبلوماسيون الأمريكيون والبريطانيون انزعاجهم من الفوضى التي يعيش فيها سعود وانعدام ذوقه، لكنّ بعضًا من رعاياه ممن يعيشون في فقر مدقع وجدوا متعة بالغة في العيش في ظلّ كرمه الجلي، وقدّروا بصفة خاصة ما اعتاده من إلقاء العملات الذهبية من سيارته التي يقودها وسط حشود هائلة من المواطنين البسطاء المصطفّين لرؤيته. وظل ثلثا المواطنين إبان عهد سعود يعيشون حياة البدو أو أشباه البدو، ولم يكن يلتحق بالمدرسة سوى عُشْر الأطفال في سن الدراسة. وفي المملكة بأنحائها المختلفة، كان هناك أقل من اثني عشر مواطنًا نالوا شهادات جامعية، إلى جانب عدم وجود جامعة على الإطلاق، بغض النظر عن وجود مراكز للتعليم الإسلامي في المدينتين الشريفتين؛ مكة والمدينة[١٣].

سعى سعود لاسترضاء القبائل بإغداق المال عليهم في صورة إعانات،

---

(١٢) المعلومات المذكورة عن القصر الذي تكلف ٢٠٠ مليون دولار أمريكي واردة في تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/132661, Minute by J. M. Heath, January 7, 1958. «hundreds of colored... in orange»: Van der Meulen, *The Wells of Ibn Saud*, pp. 234-235.

(١٣) المعلومات عن المحتالين الأوروبيين: *House of Saud*, op. cit., p. 178

وأيضًا في: *The History of Saudi Arabia*, pp. 421, 433

يرجع تاريخ الإحصائيات إلى عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٤م على التوالي.

إلا أنه لم يثبت براعة في ما يتعلق بإدارة شؤون المملكة داخل إطار العائلة المالكة. إذ عجز عن إقامة تحالفات مع إخوته غير الأشقاء، ووضع أبناءه غير المؤهلين في مراكز القيادة العسكرية، ممّا أدّى إلى تفاقم مخاوف أقاربه من أنه ربما يستخدم هؤلاء الأبناء لاغتصاب العرش من ولاية فيصل المزمع تخويلها إليه.

تزامن حكم سعود مع صعود جمال عبد الناصر إلى سدة الحكم في مصر، وكان ضابطًا في الجيش تولى الرئاسة ونادى بالثورة وتحقيق حلم وحدة الوطن العربي، وهما المطلبان اللذان أكسباه تأييدًا شعبيًّا جارفًا من المحيط إلى الخليج. وهاجمت حملات الدعاية التي شنها جمال عبد الناصر القوى الاستعمارية الأوروبية السابقة وعملاءها الرجعيين، وبدا الملك سعود مثالًا بارزًا لهؤلاء. وفي عام ١٩٥٥م نجا الملك من محاولة انقلاب مستلهمة من ثورة عبد الناصر، وكانت تلك المؤامرة الفاشلة حدثًا صادمًا في شبه الجزيرة العربية الهادئة سياسيًّا. وأدرك الملك أن عليه أن يقوم برد فعل يقيه الشعبية الجارفة لعبد الناصر، إلا أنه افتقر إلى البصيرة اللازمة والمهارات المطلوبة. ولذا غيّر موقفه بشكل غير متوقع، مدَّعيًا اعتناقه أفكار عبد الناصر في مرحلة ما، بينما شارك في ما بعد في مؤامرة خرقاء لاغتياله[١٤].

وفي واشنطن شرع الرئيس أيزنهاور ومساعدوه في تعزيز وضع سعود كحليف موالٍ للولايات المتحدة ومناهض للشيوعية. وبعد أن أمَّم جمال عبد الناصر قناة السويس بدعم صريح من سعود، ردت بريطانيا وفرنسا على التأميم بعدوان يفتقد الحكمة. وبعد هزيمتهما أدرك أيزنهاور وجود فجوة في العالم العربي يمكن أن يملأها الأمريكيون وبصفة خاصة، كان يأمل في إنشاء قاعدة جوية تقع بالقرب من حقول النفط السعودية. وفي عام ١٩٥٧م أرسل دعوة إلى الملك سعود لزيارة أمريكا مرة أخرى، ومع أن الفتيات الراقصات لم يكنّ فائقات الروعة هذه المرة، فلم يتغير جوهر

---

(١٤) المعلومات عن السلوك المتذبذب لسعود واردة في تقرير وزارة الخارجية البريطانية:
FO 371/132661 Minute of December 1, 1958.

المزيد من المعلومات عن محاولة الانقلاب مستمدة من: Bligh

وأيضًا من: Mackey, *The Saudis*, p. 297

أما محاولة اغتيال ناصر فاستمدت من: *House of Saud*, op. cit., p. 196.

المداهنة الأمريكية؛ إذ استقبل أيزنهاور الوصي على العرش السعودي في المطار سار معه تحت لوحة ممتدة عبر شارع بنسلفانيا أفينيو مكتوب عليها: «مرحبًا بالملك سعود!»[(١٥)].

وصل إسراف الملك إلى حدّ خارج نطاق السيطرة وتمت مصادرة يخته في أوروبا بسبب فواتير مستحقة الدفع لم تُسدد لمعماري قصور إيطالي الجنسية[(١٦)]. وقطعًا من أجل النفط وحقوق استخدام القاعدة الجوية، يمكن أن يتحمل الأمريكيون هذه الأعباء المالية، ولكن أفراد العائلة المالكة شعروا أكثر فأكثر بأنهم لا يستطيعون ذلك، ونفد صبرهم في ظلّ وجود بديل واضح وضوح الشمس بينهم، هو الأخ غير الشقيق لسعود الذي يتميز بحرصه وقلة كلامه.

وُلد فيصل في قرابة الفترة نفسها التي وُلد فيها سعود، في عام ١٩٠٥م، ولكن من أم أخرى تنتسب إلى آل الشيخ، وهم من نسل محمد ابن عبد الوهاب؛ الشيخ الذي عاش في القرن الثامن عشر والذي أثر مذهبه تأثيرًا كبيرًا في شبه الجزيرة العربية. وفي بداية القرن العشرين أصبح آل الشيخ أرقى عائلات العلماء المسلمين في منطقة نجد، وبلغ فيصل سن الرشد بعد أن درس العقيدة الدينية والشريعة في كنف علماء عائلته المتحفظين بل المثقفين. واكتسب مهارات الفروسية نفسها والصيد بالصقور، شأنه شأن أخيه، إلا أنه أثبت جدارته كقائد عسكري أكثر التزامًا وإقناعًا. وكان ضئيل الحجم، نحيف القوام، ذا أنف بارز وعينين نصف مفتوحتين تأسر زواره كعيني الصقر.

في مستهل الأمر، منذ عام ١٩١٩م، اتخذ عبد العزيز قرارًا بأن فيصل هو أفضل ممثل للملك في العواصم الأوروبية النائية، وسافر بصحبة فيلبي إلى إنكلترا وهو لا يزال في مرحلة المراهقة في جولة طويلة في فصل الشتاء الرطب تلقى فيها أول دروس الدبلوماسية الرسمية، إلى جانب ذكريات لا

---

(١٥) مستمدة من: *House of Saud*, pp. 191-194

وأيضًا من: Footage in «The House of Saud,» Algeria Productions, 2004. *Thicker Than Oil*, op. cit., pp. 69-75.

(١٦) راجع خطاب وزارة الخارجية البريطانية رقم ٣٧١ للرد على المهندس البريطاني الذي طلب توضيحًا عن الشركة الوطنية للكهرباء في ٦ يونيو/ حزيران عام ١٩٥٨م.

تُنسى عن أسود البحر التي رآها في حديقة حيوانات لندن. ومثّل أبيه في مؤتمر فرساي في فرنسا الذي وُقعت فيه معاهدة فرساي لإنهاء الحرب العالمية الأولى. وعندما عاد إلى المملكة العربية السعودية عينه عبد العزيز مسؤولًا عن الحجاز، إلا أن فيصل بدا دائمًا غير مكترث بالحكم، وانزوى في القصر وركز على حياته العائلية. وفي خضم التحديات المقترنة بطفرة النفط في الفترة اللاحقة للحرب، عاد بمحض إرادته إلى الحياة السياسية ومثّل المملكة كمندوب في هيئة الأمم المتحدة الوليدة، وجاب أمريكا من أقصاها إلى أقصاها في جولة بدا فيها أكثر رشدًا وفاعليةً من سعود. في تلك الأثناء لم يكن فيصل مختلفًا من ناحية البذخ والإسراف عن أقرانه، ولكنه كان مفعمًا بالحيوية وذا روح مرحة في الإطار العملي، وكان بعيدًا كل البعد عن الفوضوية التي اتسم بها أخوه غير الشقيق. وبمرور السنوات تزايدت صرامته والتزامه الديني، وكبحت أمراضه المعوية المزمنة سلوكياته، حيث كان يعاني سوء الهضم بشدة، حتى إنه كان يبدو عليلًا ونحيل القوام.

كان لدى فيصل إيمان راسخ بمبادئ الدين الإسلامي وثقافة البادية اللذين اكتسبهما منذ نعومة أظفاره. وكان مناهضًا بشدة للمبادئ الشيوعية ومؤيدًا لا يحيد لنظريات المؤامرة الصهيونية، وتميز برجاحة العقل بخصوص كيفية توظيف المملكة العربية السعودية لتقاليدها في غمرة تطبيق برنامج التنمية الوطنية. وبالفطرة كان فيصل متحفظًا من دون تهور، فضلًا عن تحلّيه «بقدرة مذهلة على الصبر» كما ذكر الدبلوماسي السعودي غازي القصيبي، مستطردًا: «وكان يشعر أن الزمن كفيل بحل مشكلات كثيرة». وفي حديثه مع المسؤولين الأمريكيين الذين ضغطوا عليه كي يغير أسلوبه، كان يقتبس الأمثال العربية التي تشير إلى مخاطر العجلة، قائلًا إنه: «شغوفٌ بتقدم الدولة وبتنميتها، ولكن بتأنٍّ»[١٧].

على الجانب الآخر بدا أن حكم أخيه سعود عليه عدة ملاحظات وبدأ

---

(١٧) المعلومات مستمدة من: Alireza, «The Late King Faisal.» De Gaury, op. cit., pp. 86ff. Field, *The Merchants*, p. 40.

Algosaibi, *Arabian Essays*.

وأيضًا من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4945 Jeddah to Washington, March 5,1959.

في إثارة علامات استفهام، ففي أواخر عام ١٩٥٧م، عندما وقعت أزمة أخرى بسبب التبذير وكادت تودي بالمملكة نحو الإفلاس، أجمعت العائلة المالكة على تولي فيصل منصب رئيس الوزراء، ووافق سعود على مضض. وكانت الخطة الضمنية أن ينغمس سعود في ملذاته في حدود المسموح باعتباره ملكًا صوريًّا، ويدير فيصل السياسة الاقتصادية والخارجية للبلاد، لإعادة الأمور إلى نصابها وحماية آل سعود من امتداد التيار الناصري إليهم.

انسحب سعود مؤقتًا لكن الكيل فاض به عندما لاحظ صعود أخيه غير الشقيق إلى سدة الحكم من وراء الستار. وتسبب هذا النزاع، المتنامي بين الوصيين على العرش، لمحمد بن لادن باضطرابات كثيرة بعد عام ١٩٥٨م. فهو يدين بثروته إلى رعاية سعود له وحمى بناء القصور التي أصابت سلالته، إلا أن شيم فيصل الدينية والعملية تتشابه تمامًا مع شيمه، وقد عبَّر بن لادن عن ذلك لأحد المقربين له قائلًا: «إن اهتماماتي التجارية مع سعود، في حين يستحوذ فيصل على فكري وكياني»[١٨].

أدرك محمد بن لادن من نماذج الحكام الذين مروا به أن إيجابيات تعدد الزوجات لا تقتصر على كونها متنفسًا لشهوة رجل ثري، بل يُعتبر وسيلة لإنشاء تحالفات سياسية واقتصادية. ومما لا شك فيه أن مجال عمل بن لادن في مجال المقاولات قد ألقى به في أماكن نائية من جزيرة العرب التي لا يكاد يعرف بها أحدًا، ولذلك فقد سعى إلى نيل مساندة شيوخ تلك المناطق، ومن ثَم فلا عجب عندما يتزوج بن لادن من ابنة زعيم قبيلة في البادية أو ابنة حاكم إحدى المدن، ويمهرها أموالًا يسيل لها اللعاب وينزلها في منزل رائع، إضافة إلى تعيين أقارب زوجته للعمل في مشروعه. وبعد قرابة عام أو أكثر عندما يكتمل مشروعه، يتركها مع تعويض مالي جيد وربما تكون قد أنجبت له طفلًا. وقد ذكر نديم بو فخر الدين، الحارس الشخصي لبعض أبنائه أن بعض الزيجات التي عقدها تعكس أنه كان «داهية سياسيًّا»[١٩].

---

(١٨) راجع المقابلة التي أُجريت مع خالد باطرفي في ١٩ فبراير/شباط ٢٠٠٥م. جدير بالذكر أن عم خالد باطرفي عمل مع بن لادن في مكة وهو يقتبس ما ردد عمه.

(١٩) المعلومات مستقاة من المقابلة التي أُجريت مع فخر الدين، في نفس المصدر السابق. وفي عدة مقابلات ذكر عدد من الأشخاص الذين عملوا مع بن لادن في ذلك الوقت خطة بن لادن في الزواج من بنات شيوخ القبائل في البادية وحكام المدن.

لا يعرف أحد القائمة الكاملة لزوجاته البالغ عددهنّ زهاء الاثنتين والعشرين زوجة وأمهات أولاده في النهاية. وهناك ثلاثة تصنيفات لقائمة زيجاته المعروفة جزئيًّا على الأقل؛ حيث يشير الأول إلى أن بعض الزيجات تمت بناءً على الاتفاق التقليدي بين عائلتين من حضرموت، ويضم التصنيف الثاني الزيجات التي تمت بهدف إقامة تحالفات تفيده في مشروعاته، ويلمح بعضهم إلى الزيجات التي تمت بدافع جنسي محض.

كانت عادات الطلاق والزواج المتكرر التي اتبعها بن لادن سائدة في بعض المناطق، لكنّ العادات الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية كانت عرضة للتغيير خلال خمسينيات القرن العشرين خاصةً في مدن مثل جدة، بل اعتُبرت عادة الجمع بين أربع زوجات في وقت واحد وتطليقهن الواحدة تلو الأخرى للاقتران بمزيد من النساء، من شواهد التخلف ومن علامات الرجعية. كما إن الزواج من امرأة واحدة بات عصريًّا، وكل ما هو عصري كان رائجًا آنذاك. ومع ذلك ـ ومن غير ريب ـ كان الحجاز على استعداد للتغاضي ومنح الحرية المطلقة لمهاجر حضرمي ثري مثل بن لادن، بسبب النموذجين اللذين احتذى بهما وهما عبد العزيز وسعود.

يمكن تناول الآيات القرآنية التي تتناول تعدد الزوجات أنها تحاول إثناء الرجال عن هذا المبدأ إلى حدّ الحظر التام. إذ تنص الآيات على ضرورة المساواة بين الزوجات في حال التعدد، بل على الرجل المتزوج الإفصاح عن نيته طلاق زوجته، والانتظار فترة العِدة، ثم تأكيد قراره، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾[٢٠] وتشير الأدلة المتاحة عن زيجات بن لادن إلى أنه اتبع هذه الأوامر الشرعية تمامًا، ولكنه حتمًا كان يفضل بعض زوجاته على الأخريات اللائي ظللن في كنفه لفترات أقصر، ونالت بعضهنّ تعويضات مالية أفضل من غيرهنّ.

خلال السنين الأولى لحكم الملك سعود سافر بن لادن إلى بلاد

(٢٠) البقرة: الآية ٢٣١.

المشرق العربي لشراء المواد الخام والتعاقد مع مقاولين من الباطن، وخلال هذه الرحلات تزوج في ما يبدو عدة فتيات عربيات، وكان قد تزوج بالفعل امرأة سورية لدى وصوله إلى مدينة اللاذقية الساحلية في سوريا في صيف عام ١٩٥٦م. كما تعرّف بن لادن إلى عائلة الغانم التي لم تكن متميزة من الناحيتين المادية أو الدينية. ويبقى السبب مجهولاً عن كيفية تعرُّف محمد بن لادن إلى هذه العائلة ولماذا عرضوا عليه تزويجه ابنتهم عالية البالغة أربعة عشر عامًا آنذاك. أخذ بن لادن عالية معه إلى المملكة العربية السعودية، وفي غضون عام حملت منه وأنجبت له خلال العام الهجري ١٣٧٧هـ ـ الموافق للفترة الواقعة بين شهر يوليو/تموز لعام ١٩٥٧م وشهر يونيو/حزيران من عام ١٩٥٨م ـ ابنًا في الرياض، يُدعى أسامة[٢١].

في الوقت الذي حدثت فيه هذه الزيجة كان محمد بن لادن في أوج نشاطه الجنسي وإنجاب الأبناء. وكان متمسكًا بزوجته التي تزوجها منذ أكثر من عشر سنوات مضت، وكانت بالفعل أم أحد أبنائه، وأنجبت له ابنين آخرين أو أكثر في العام الهجري نفسه ١٣٧٧هـ، طبقًا للسجلات التي قدمتها عائلة بن لادن لمحكمة أمريكية. وإلى جانب هذه الزوجة وعالية غانم البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، أنجبت زوجتان على الأقل من زوجاته أبناءً له خلال العام الهجري نفسه. وطبقًا لسجلات العائلة أنجب محمد بن لادن سبعة أطفال من زوجاته كافة في العام الذي وُلد فيه أسامة؛ خمسة أبناء وابنتين. وقد ذكر أسامة لاحقًا أنه يظن أنه وُلد في الشهر الهجري الموافق لشهر يناير/كانون الثاني من عام ١٩٥٨م. وإن صح ذلك فإنه أحد الابنين اللذين أنجبتهما زوجتان لمحمد خلال الشهر نفسه. أما الابن الآخر، فهو شفيق الذي ذكرت في ما بعد السجلات البريطانية للشركة أنه وُلد في اليوم الثاني والعشرين من شهر يناير/كانون

(٢١) هذا استنادًا إلى مقابلات أُجريت مع أشخاص وثيقي الصلة بأسرة بن لادن. وسردت عائلة الغانم رواية عن الزواج ووُصفوا بأنهم فقراء وعلمانيون نسبيًا في صحيفة «القبس» الكويتية في بتاريخ ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م. لمزيد من المعلومات عن الروايات الأخرى راجع:
Randal, *Osama*, p. 55; Scheuer, *Through Our Enemies' Eyes*, pp. 80-81; and Wright, *The Looming Tower*, p. 72.

الثاني من عام ١٩٥٨م[*]. ومن الصعوبة بمكان على أي من أبناء محمد بن لادن المولودين في هذه الفترة الوثوق ثقةً عمياء بأيام ميلادهم أو حتى شهر ميلادهم؛ إذ لم يكن تسجيل التاريخ الدقيق للميلاد أمرًا معتادًا لدى العائلات السعودية، ولم يكن هناك نظام لحفظ السجلات الحكومية أيضًا[٢٢].

تنتمي عائلة عالية إلى مدينة تنتمي أغلب سكانها إلى فرقة العلويين الدينية، التي سيسيطر أعضاؤها في ما بعد على أرفع الرُّتب العسكرية في الجيش السوري والحكومة. آمن العلويون بعقيدة دينية غامضة وصلت إليهم بالتعاليم الشفهية، وهي فرقة يعتبرها المسلمون، أصحاب الاتجاه الديني التقليدي السائد، خارج الدين. وفي ما بعد أنكر بنو عائلة الغانم أنهم علويون، وقالوا إنهم مؤمنون بمعتقدات أهل السنة القويمة، إلا أن هذه المزاعم لم يُفصح عنها إلا في الوقت الذي كان من الخطورة بمكان على العائلة الاعتراف بانتمائها إلى العلويين، ولذا لم يبد الأمر أكيدًا. وفي أثناء خمسينيات القرن العشرين كانت الفتيات السوريات العلويات اللائي ينتمين إلى عائلات فقيرة يعملن كخادمات في الخارج أحيانًا أو كنّ يُبعن كجوارٍ في سوق الرقيق، ومن ثَم أثيرت أقاويل لاحقًا أن والدة أسامة ربما كانت رفيقة أبيه، وقد يكون هذا الاستنتاج صحيحًا إلا أنه لا يوجد دليل دامغ عليه. حتى وإن كان بن لادن قد اتخذ عالية في البداية زوجةً مؤقتة، فإنه بمجرد أن أنجبت له ابنًا أعلنها زوجة شرعية، واحتفظت بهذه المكانة في عائلة بن لادن لعقود لاحقة. وتمتع أسامة بن لادن بشرعيته كونه وريثًا ذكرًا لمحمد خلال

(*) في صباح الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠٠١م، كان شفيق بن لادن يشارك في مؤتمر المستثمرين في فندق ريتز كارلتون في واشنطن العاصمة، عندما شن أخوه غير الشقيق هجماته التي لا تُنسى على البنتاغون.

(٢٢) المعلومات مستمدة من: In Re Terrorist Attacks on September 11,2001,03 MDL 1570

توضح المقابلات التي أُجريت مع الأشخاص المقربين من العائلة -بمن فيهم كارمن بن لادن- في ٦ أغسطس/ آب ٢٠٠٤م أن أربعة زوجات مختلفات أنجبوا أطفالًا وهم مسجلين في سجلات المحكمة على أنهم مولودون في عام ١٣٧٧هـ. يقول أسامة في تصريح له في صحيفة «الأمة الإسلامية» أنه وُلد في شهر رجب، راجع: Wright, *The Looming Tower.*

أما المصدر الذي يذكر تاريخ ولادة شفيق فهو التقرير السنوي الذي نُشر عام ٢٠٠٠ في: Symphony Advisers Lrd., Companies House records, London.

حياته، وفي ما يتعلق بالشؤون القانونية والعملية، لم يكن أسامة يُعامل كأنه ينتمي إلى فئة أقل شأنًا من أبناء بن لادن الآخرين الأصغر سنًّا. ومع ذلك يبدو واضحًا أن عالية غانم تنتمي إلى مجموعة السيدات اللائي أنجبن ابنًا واحدًا أو بنتًا واحدةً، ثم طلقهنّ محمد خلال فترة زمنية قصيرة نسبيًّا. وسريعًا ما تزوجت بعض تلك الزوجات مرةً أخرى، وسيقت بعضهن إلى خارج دائرة العلاقة العائلية الداخلية. وربما كانت الزوجات اللائي أنجبن أبناء محمد الكبار أو اللائي بقين على ذمته لفترات طويلة يشعرن بأنهنّ أرفع مقامًا من أخريات مثل عالية، بيد أن المميزات التي كانت تتمتع بها تلك الزوجات الأرفع مقامًا ـ على الأقل خلال خمسينيات القرن العشرين ـ تمثلت بصفة أساسية في الاعتداد بالنفس والمكانة الاجتماعية، وإن لم تقر بهما الشريعة الإسلامية التي يعمل بن لادن وفقًا لها.

كان الزوج الذي جمع بين كل هؤلاء النساء كثير الترحال، وخلال أواخر خمسينيات القرن العشرين كانت المكانة التي تتمتع بها كل أم من أمهات أبنائه تتأثر بزواجه من نساء جدد، واتسعت عائلته حتى كادت تبلغ قرية صغيرة. وقد ذُكر لاحقًا في عدة تقارير أن أسامة هو الابن السابع عشر لمحمد بن لادن، وذلك يعني أنه الابن الأكبر من بين الأبناء الخمسة المولودين في العام الهجري ١٣٧٧، ولكننا لا نعرف حقيقة كيف استطاعت الأمهات تحديد ذلك الترتيب بشكل دقيق. ويبدو أن الأدق هو أن نذكر أن ترتيب أسامة بين أخوته يقع ما بين السابع عشر والحادي والعشرين. ومما لا شك فيه أن وجود طفل وسط كل هذا العدد من الأطفال يكلفه مجهودًا شاقًّا للفت انتباه من حوله. وبحلول شهر يوليو/ تموز من عام ١٩٥٨م، تشير سجلات العائلة إلى أن ذرية محمد بن لادن بلغت واحدًا وأربعين طفلًا؛ واحدًا وعشرين ابنًا وعلى الأقل عشرين بنتًا، ولكنه لم يكتف بذلك[٢٣].

(٢٣) طبقًا لما ورد في سجلات المحكمة وُلد الأبناء الأربعة في عام ١٣٧٧هـ، فقد وُلد إلى جانب أسامة كلًا من إبراهيم وشفيق وخليل وحيدر. أما الابنتان فكانتا مريم وفوزية. بيد أن الشهادة التي أدلى بها كلٌ من إبراهيم وخليل في دعاوى قضائية مدنية أخرى في الولايات المتحدة تؤكد أنهما من أم واحدة. وبناءً على ذلك، وفي حين أنه يبدو منطقيًا أنهما وُلدا في عام ١٣٧٧هـ إلا أن سجلات المحكمة التي قدمها آل بن لادن قد لا تكون دقيقة على الأقل في هذا الموضوع.

عندما تولى فيصل زمام أمور الحكومة السعودية في عام ١٩٥٨م، اكتشف أن مملكته تراكمت عليها مديونيات بلغت خمسمئة مليون دولار. وخلت خزائن البنك المركزي فعليًّا من أي أرصدة نقدية من ضرائب الحج. ولم تعد حسابات الحكومة في البنوك التجارية لمدينة جدة تغطي مديونياتها، وكانت الحكومة آنذاك مدانة بالأموال لعدد من الجهات التي لا تُعدّ ولا تُحصى. ولأن الخَزانة الملكية كانت ستحصل في ذلك الوقت على أقساط شهرية كبرى من شركة أرامكو، فإن فيصل يمكنه الخروج من هذه الأزمة بسهولة وسريعًا إذا ما استطاع جدولة بعض هذه الديون وتخفيض نفقات العائلة المالكة. ولهذا طلب فيصل المساعدة من بعض الدائنين أمثال محمد بن لادن وطالب بتغيير النهج الذي يتبعه الملك سعود تمامًا[٢٤].

وافق سعود على بيع ممتلكات العائلة المالكة في أنحاء المملكة، فقام بتسليم مكتبه الخاص في مدينة جدة إلى جانب كثير من قصوره ومقار الاستضافة، بل قرر إغلاق أنوار قصر الناصرية خلال ساعات النهار.

استدعى فيصل بن لادن وشرع في مفاوضات استمرت على مدار عام ١٩٥٨م. ولم يكن ولي العهد يمتلك أي أموال نقدية، ومن ثَم عرض الأصول الثابتة للبيع. وأراد فيصل أن يتخلص من بعض المشروعات التي تملكها الحكومة وتثقل كاهلها والتي شعر بضرورة تخويلها إلى القطاع الخاص وبيعها إليه. ومن أجل تسوية ديون الملك سعود الناجمة عن أعمال البناء في قصر الناصرية، وافق بن لادن على الاستحواذ على فندق اليمامة في الرياض (ولاحقًا أجّر بن لادن الفندق للجيش الأمريكي)[٢٥].

---

(٢٤) المعلومات المذكورة عن الدين الذي يقدر بـ ٥٠٠ مليون دولار مستمدة من: *House of Saud*, op. cit., p. 199.

والمعلومات التي تفيد خلو البنك من أي إيرادات من الحجاج مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4944 Jeddah to Washington, December 4, 1958.

والمعلومات الخاصة بهيكلة الدين وتفكير فيصل مستقاة من: DOS 59/4946 Dhahran to Washington, February 4, 1959.

(٢٥) كان ذلك بناءً على مكالمة هاتفية أُجريت مع مايك أمين في الأول من مارس/ آذار ٢٠٠٦م. جدير بالذكر أن أمين عمل في المكتب السياسي لشركة أرامكو في أثناء تلك الحقبة وتعرّف حينها إلى محمد بن لادن.

وربما قام بن لادن أيضًا بمساعدة فيصل في تأمين أجور الموظفين الحكوميين مؤقتًا خلال تلك الفترة. وتلك المساعدات المزعومة التي قدمها بن لادن ستصبح جزءًا من أسطورة العائلة في المملكة العربية السعودية، التي قام أبناؤه بتعزيزها رويدًا رويدًا، إلا أن السجلات الدبلوماسية المعاصرة لم تتضمن أي إشارة إلى هذا القرض الذي قدمه بن لادن. وإن صح ذلك، فالسجلات تشير إلى أنه كان في صورة اتفاق بينه وبين ولي العهد يقضي بتأمين بن لادن لأجور الموظفين لفترة مؤقتة على أن يتولى بن لادن لاحقًا أعمال الإنشاءات الخاصة بالحكومة السعودية. وعلى أي حال، كان الموظفون في الحكومة السعودية معتادين على تأخير رواتبهم في تلك الفترة.

وبإلحاح من فيصل اضطلع بن لادن بامتياز لمدة عشرين عامًا لإدارة مزرعة ملكية في مدينة الخرج التي تبعد ستين ميلًا جنوب الرياض، حيث يقوم المزارعون الأمريكيون ـ الذين يحصلون على رواتبهم من الملك سعود ـ بتربية المواشي ويزرعون القمح والشوفان والخضراوات والبطيخ. وكان عبد العزيز قد أقام هذه المزرعة في عام ١٩٤١م بمساعدة من شركات النفط الأمريكية، وبحلول عام ١٩٥٨م، كانت تكلفة تشغيلها السنوية تصل إلى مليون دولار، على الرغم من الأرباح الاسمية المتواضعة التي كانت تدرها من بيع منتجات الماشية والألبان والبيض إلى العائلة المالكة، إلا أن فيصلًا أراد أن يحمل بن لادن على عاتقه تكاليف التشغيل. وقدّم ولي العهد إليه شروطًا مناسبة على المعدات المُستخدمة فيها ووافق على مواصلة شراء العائلة المالكة لمنتجات المزرعة. ووقتئذٍ كان لابن لادن خبرة محدودة في الأعمال الزراعية مثلما كانت خبرته متواضعة في مجال تشييد الطرق عندما تولى مسؤولية تنفيذ مشروع الطريق السريع المؤدي إلى المدينة قبل ذلك بخمس سنوات، ومع ذلك وافق على تنفيذه. وعلى الفور أهمل بن لادن مزرعة الخرج عمْدًا وقطع عنها المؤن لتوفير النقود، وسريعًا ما أبلغ العاملين الأمريكيين أنه سوف يضطر إلى تسريحهم عندما تنقضي فترة العقود المبرمة معهم، واستبدل أقارب بعض زوجاته غير السعوديات بهم. وذكر سام لوغان، مدير المزرعة الذي كان ينتمي إلى ولاية تكساس لدى عودته إلى الولايات

المتحدة: «كان أصهاره خليطًا من السوريين والمصريين والفلسطينيين، وجميعهم يفتقدون الخبرة الواضحة في مجال الزراعة». وهذه القائمة من الجنسيات قد تثبت أن أفرادًا من عائلة عالية غانم - أم أسامة - كانوا من بين العاملين الذين استُقدموا للعمل في المزرعة.

شعر لوغان أن سر تسريحه هو وبقية الأمريكيين الآخرين من المزرعة لا يتعدى الأزمة المالية الطاحنة في المملكة وقال: «وأؤكد أن ما حدث لم يكن ينطوي على أي مشاعر مناهضة للأمريكيين، إذ عامل بن لادن الأمريكيين بمنتهى العدل وأوفى بكل الاتفاقيات، وهو شيءٌ كان نادرَ الحدوث في التعاملات السعودية». ويرى لوغان أن بن لادن تولى مسؤولية المزرعة «وهو على دراية بأنه سوف يخسر ماليًّا فيها، شريطة أن تمنحه الحكومة امتيازات بعينها في بعض مجالات عمله الأخرى»[٢٦].

في الواقع، اقترنت اتفاقية الخرج التي أبرمها بن لادن مع صفقة أخرى أكثر ربحًا له عقدها مع فيصل في أواخر ربيع عام ١٩٥٨م، إذ أنشأ بن لادن مشروعًا مشتركًا مع أخوين إيطاليين لقبهما «روما»، وزعما أنهما يحصلان على دعم مالي من إحدى كبرى شركات التعمير في إيطاليا وهو ما ثبت عدم صحته لاحقًا. وعرض فيصل خطة مقايضة تمتد لعشرين عامًا يتولى بن لادن بمقتضاها مشروعات تنفيذ الطرق السريعة والأعمال الأخرى مقابل الحصول على الغاز الطبيعي من حقول النفط التي يديرها الأمريكيون. وفي هذه المرحلة كانت شركة أرامكو تشعل الغاز في حقولها لأنه كان من الصعوبة بمكان نقله وتسويقه؛ إذ كان تركيز الشركة منصبًّا على النفط في المقام الأول. وكان الأخوان الإيطاليان روما يظنان أن بوسعهما بيع الغاز المُنتج في المملكة في أوروبا وتحصيل ما يكفي من النقود لتمويل مشروعات البنية التحتية المزمع تنفيذها في عهد فيصل والحصول منها على أرباح طائلة. وكانت هذه المشروعات تشمل إنشاء طرق سريعة تمتد لما يزيد عن ألف وخمسمئة من الكيلومترات التي تربط بين

(٢٦) تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4945 Dhahran to Washington, May 27, 1959, and «Memorandum of Conversation with Sam Logan,» June 23, 1959.

جدير بالذكر أن كل الاقتباسات مصدرها المذكرة الخاصة بتلك المحادثة.

الرياض وجدة، وبين جدة وميناء جازان الجنوبي، فضلًا عن تشييد جامعة جديدة في الرياض[٢٧].

تبين أن الصفقة محل نزاع قانوني، إذ كان المسؤولون التنفيذيون في شركة أرامكو يعتقدون أن الغاز الطبيعي يخصهم، وحاول فيصل إقناعهم بأنه ملك للمملكة. وخشي الأخوان روما من أن يؤدي هذا النزاع إلى تعريض العقود المبرمة مع بن لادن، لتشييد الطرق السريعة، للخطر بعد أن تعهدوا بدفع خمسة ملايين دولار لتمويلها.

وفي شهر سبتمبر/أيلول، استدعى فيصل محمد بن لادن والأخوين الإيطاليين لقصره في الطائف. وتحدث بن لادن وفيصل باللغة العربية لفترة طويلة، ثم استدار بن لادن للأخوين روما لبث الطمأنينة في نفسيهما بقوله إن ولي العهد على قناعة بأن الغاز الطبيعي ملكه، وأن «شركة أرامكو لا يمكنها أن تقف حائلًا دون استكمال المشروعات العامة المطلوبة التي ستوفر كثيرًا من فرص العمل» حال تنفيذ صفقة بن لادن[٢٨].

كان بن لادن وفيصل في حاجة أحدهما إلى الآخر، حيث وُجدت في المملكة عائلاتٌ تجارية أخرى تنمي خبراتها في أعمال الإنشاءات والإضاءة. ولكن إذا كان ولي العهد عازمًا على الشروع في برنامج تنمية وطني ضخم، فإنه في حاجة ماسة إلى إمكانيات بن لادن مثل المخزون الهائل الذي يملكه من معدات الإنشاءات، وإلى كتيبة عمّاله من ذوي المهارات المتوسطة وعديمي المهارة، وإلى إذعانه الدائم لجلالة الملك وقدرته الفائقة على إنجاز المهام الموكلة إليه كافة. ومن جانبه، لم يكن بن لادن يملك أي خيار سوى التأقلم مع الأولويات والشروط التي يضعها فيصل. ونجحت حملة التقشف المادي التي شنها ولي العهد في كتابة آخر

---

(٢٧) ذُكرت تلك المفاوضات في سلسلة من برقيات وزارة الخارجية المرسلة من جدة إلى واشنطن بين شهري يونيو/حزيران ١٩٥٨م ونوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٨م. وعندما تحقق المسؤولون التجاريون في أمريكا من المزاعم التي ذكرها الأخوان الإيطاليان روما، حيث أبلغوهم أن شركة فينميكانيكا ـ شركة الإنشاءات التي زعم الأخوان أنهما ينتسبان إليها ـ اعتبرتهم ـ «عاجزين من الناحية المالية والتجارية».

(٢٨) مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59 Jeddah to Washington, October 2, 1958.

سطور حمى بناء المساكن والقصور في جدة بحلول عام ١٩٥٩م. غادر آلاف العمال اليمنيين المدينة بحثًا عن فرص عمل في مكان آخر بعدما حل الركود في المدينة، وأعلن التجار المحليون عن تذمرهم وقالوا إن الإصلاحات التي ينفذها فيصل قد تكون «في مصلحة الدولة، ولكن وبالتأكيد ليست في مصلحة طبقة التجار الذين اعتادوا تحقيق الأرباح الطائلة في «الأيام الخوالي»». ومع ذلك تمكن بن لادن من النجاة من وطأة هذا الكساد. وكما حدث من قبل، كيَّف بن لادن أوضاعه لتلبية احتياجات العائلة المالكة. فإذا كانت الطرق السريعة والبنية التحتية هي أولويات العائلة المالكة اليوم، فلن يتردّد في العمل في هذين المجالين بكل ما أوتي من قوة وإمكانيات(٢٩).

وفي نهاية خمسينيات القرن العشرين حظي برعاية من نوع آخر، إذ لم يكن محمد بن لادن المقاول المفضل لفيصل فحسب، بل أسبغ الله سبحانه وتعالى نعمه عليه ـ كما قال ـ بتولي أعمال الإنشاءات في المدن الثلاثة المقدسة في الإسلام؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف.

(٢٩) من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4944 «Economic Summary, Third Quarter of 1959,» Jeddah to Washington, December 15, 1959.

الفصل الخامس

من أجل القدس

أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى كثير من التداعيات في صحاري شبه الجزيرة العربية تمامًا مثلما حدث في الأراضي الأوروبية. وكان آخر الأباطرة الرومانيين قد دعا إلى اعتناق المسيحية كديانةً عالمية، إلا أن دعوته لم تقنع أصحاب قوافل البعير المتجهة إلى الشرق. وفي أواخر القرن الخامس بعد الميلاد تطورت العقيدة الدينية في شبه الجزيرة العربية إلى ديانة تشهد إجماعًا متزايدًا؛ إذ كانت هناك تجمعات يهودية ومسيحية متناثرة هنا وهناك، لكنّ أغلبية البدو كانوا يعبدون أوثانًا يحملونها معهم ومنهم من كان يعبد الأشجار والأحجار. وقد ترى عائلة في إحدى الواحات تعتمد على أي من مئات الآلهة الكثيرة لمباركة مساعيها؛ فهذه آلهة للقمر وهذه للسفر، وتناقلت الروايات قصص الآلهة السماوية. وكانت المهرجانات الدينية تمثل أحد العوامل التنظيمية في هذه الفترة، خاصةً المهرجانات التي يقيمها كبار التجار حول مكة التي تقع في منتصف إحدى الطرق التاريخية التي تمر بها قوافل تجارة المر واللبان. وفطن مقيمو المهرجانات الدينية المكّيون إلى أن سوقًا دينيًّا موحدًا يُعقد كل عام وتُعبد فيه كل الآلهة، ربما يجذب المزيد من الاهتمام ـ ويدر دخلًا أكبر ـ مقارنةً بالمهرجانات الموسمية الأسوأ تنظيمًا. وهكذا فقد بدأت الشعيرة السنوية ـ التي أطلق عليها الحج بعد ظهور الإسلام ـ كسوق سنوية صاخبة لاجتذاب من يعبدون مئات الآلهة[١].

---

(١) مستمدة من: Peters, The Hajj, pp. 3-40. Aslan, *No God but God*, pp. 3-18. Caudill, «Twilight of the Hejaz» manuscript, pp. 21-23.

عند ولادة النبي محمد عام ٥٧٠م، كانت الكعبة تضم بين جدرانها وفي باحتها عدد من الآلهة التي كانت تُعبد آنذاك، وكانت بناءً حجريًا مسطحًا لا سقف له. وكانت تشتمل على «صور شجر وملائكة» طبقًا لما ذكره المؤرخ المكي الأزرقي، إلى جانب صورة للمسيح عيسى بن مريم وأمه، وصورة لإبراهيم شيخًا. وفي المهرجان السنوي الذي كان يُقام في مكة كان الحجيج الذين يعبدون الآلهة المتعددة يجتمعون في شعيرة الطواف حول ذلك المبنى الضخم. وما لبث أهل الحجاز يعبدون تلك الآلهة حتى آمنوا بالله الواحد، ـ رب الأرباب الذي لا يمثّله صنم ـ هو الله. وقبل أن ينزل الوحي على النبي محمد، لم يعبد محمد سوى الله إيمانًا منه بأنه هو الإله الحق، وأن مئات الأوثان الأخرى التي يعبدها سائر الخلق في المكان نفسه باطل[٢].

ويشير السياق القرآني إلى رفع إبراهيم لقواعد البيت الحرام بعد أن أمره الله بذلك وهو يزور ولده إسماعيل في مكة، لعبادته وعدم الإشراك به. وعندما نزل الوحي على النبي محمد، سعى لإعادة نشر دعوة التوحيد التي أُرسل بها النبي إبراهيم. وأدت خطبه إلى استنفار مقاومة قادة القبائل المكية وشيوخها الذين اعتبروا أن محمدًا الذي كان نفسه تاجرًا ناجحًا ـ سيفسد حياتهم التجارية، إذ إن أفكاره قد تودي بمهرجانهم الديني الذي يدر عليهم أرباحًا طائلة. وأجبره المناوئون له في مكة على الهجرة إلى البقعة التي سُمّيت بعد ذلك المدينة المنورة حيث عثر على الدعم السياسي. وحقق محمد انتصارات عظيمة في سلسلة من الغزوات وعاد إلى مكة ظافرًا. فدخل الكعبة، طبقًا لما رواه الأزرقي، و«أمر بقطعة قماش فغمرها في الماء وأمر بإزالة كل تلك الصور». وبذلك وضع النبي محمد أسس نظرية إسلامية جمالية متأصلة في منع الصور الدينية الملونة التي كانت منتشرة في فترة شبابه التي قضاها في مكة. وفي السنوات الأخيرة من حياته أعلن النبي محمد الشعائر الجديدة المفصلة للحج، الذي يُعد أحد الأركان الخمسة الأساسية التي بُني عليها الإسلام وأوحى بها الله إليه.

(٢) مستمدة من: The Hajj, pp. 40-55.
راجع أيضًا نفس المصدر ص ٤٨.

وسريعًا ما تبددت الشكوك القديمة لتجار مكة بعد أن رأوا حشود الحجاج المتدافعة سنويًّا الذين جاؤوا من كل فج عميق[٣].

انتشر الدين الإسلامي من إسبانيا وحتى إندونيسيا، وتعاقبت سلسلة من الحكام على مدينة مكة. واستحوذ الأمراء المصريون والعثمانيون على الحجاز ونظموا فريضة الحج بعد القرن الثالث عشر الميلادي، وكانوا يقومون بذلك بطريقةٍ تعيد إلى الأذهان المهرجانات التي كانت تُعقد قبل ظهور الإسلام؛ حيث فرق المشاة التي تعزف الموسيقى والمسيرات الهائلة المصاحبة لها، وتأكيد مبدأ زيادة الربح الواضح، الأمر الذي شوّه سمعة التجار المكيين، حتى إن الحجيج الذين كانوا يشعرون أن أموالهم سُلبت منهم كانوا يطلقون عليهم «كلاب الحجاز».

وعندما ظهرت الحركة الوهابية أول ما ظهرت في صحراء نجد في أواخر القرن الثامن عشر، اعتبر مقاتلوها أنفسهم مطهِّرين لمكة نيابة عن النبي محمد، وكما فعل الرسول سينقذون مكة من عبدة الأصنام. وكان عالمهم عالمًا صحراويًّا يسوده الحرمان الشديد ووحدة النسب المتماسكة التي لم تخترقها الثقافات الأخرى إلا نادرًا. ومن ثَم أوقعوا الصدمة في نفوس حجاج مكة الآتين من كل حدب وصوب:

لك أن تتخيل حشدًا من الأفراد يندفعون معًا زمرة واحدة دون ثياب سوى قطعة صغيرة من القماش حول خصرهم... ولا شيء آخر يستر أجسادهم العارية، حاملين بنادق تعمل بالفتيل على أكتافهم وخناجر معلقة في أحزمتهم. فر الناس ما إن رأوا هذا الجمع من الرجال... الذين لا يحملون رايات أو طبولًا أو أي أدوات أخرى أو نياشين عسكرية في أثناء مسيرتهم. إلا أن بعضهم هلل وآخرون أقاموا صلاتهم بصوت عالٍ مضطرب[٤].

---

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) مستمدة من: «Dogs of the Hejaz»: Caudill manuscript, op. cit., p. 24

جدير بالذكر أن الملاحظة كانت من شخص وصفه بيتر بأنه من الممكن أن يكون جاسوسًا يهوديًا من نابليون وتخفى في صورة أحد الحجاج المسافرين وادعى أنه يُسمى علي بك العباسي، راجع: The Hajj, op. cit., p. 198.

دمر الوهابيون كل قبة وكل ضريح في المدينة، واعتبر علماؤهم كثيرًا من المباني الإسلامية الموجودة من البدع، في ما عدا الكعبة منبسطة السطح والمساجد المشيدة بالتصميم نفسه. وفي نهاية الأمر أجبر الجنود المصريون الوهابيين على الانسحاب ودمروا عاصمتهم القاحلة الدرعية. ولكن في ظلّ القيادة الرشيدة لعبد العزيز عادت الميليشيات الإسلامية إلى مكة عام ١٩٢٤م، ومرةً أخرى هدموا القباب وهاجموا الحجيج الآتين من كل فج عميق بعد أن طال اشتياقهم إلى الأضرحة التاريخية المزخرفة التي اعتبرها الوهابيون ضلالًا مبينًا.

سعى عبد العزيز إلى الإمساك بزمام الأمور في مكة طمعًا في إيرادات الضرائب واستثمارًا لمكانتها التاريخية. وعمل وفقًا للمبادئ والقواعد السلوكية للوهابيين، إلا أنه لم يكن لديه أي اهتمام خاص بجدل العلماء الدائم في الرياض بخصوص الوضع الشرعي لأي سطح منحنٍ وأي موقع سياحي تاريخي ظلّ صامدًا أمام عوامل الزمن في مملكته مترامية الأطراف. وكما هو الحال مع الجوانب الأخرى لفن إدارته لشؤون البلاد، سعى عبد العزيز إلى إحداث نوع من التوافق بين الأقطاب المتنافرة؛ فمن ناحية، حاول استرضاء المتطرفين الإسلاميين الذين كانوا يمدونه بالجنود ويضفون على حكمه الشرعية، ومن ناحية أخرى لم يحاول إقصاء الرعايا العثمانيين الذين ورثهم مع تركته. على سبيل المثال، أرادت القوات الوهابية التابعة للملك هدم قبة المسجد النبوي في المدينة المنورة حيث كان النبي محمد يلقن المسلمين تعاليم الدين في هجرته، لأنهم اعتبروها بدعة لجذب السياح. وأدرك عبد العزيز أن هدمه سيثير استهجان العامة بشدة بالإضافة إلى أنه سيؤثر سلبًا في التجارة المقترنة بموسم الحج. واستقر الرأي على تسوية سُمح بمقتضاها بترك المسجد وشأنه، إلى جانب ترتيب إقامة الحشود المتجهة إليه. وقال أحد الرحالة المعاصرين إن الملك نال استحسان الحجيج الأجانب لحماية المكان من التدمير الشامل»[٥]. وصار ذلك التصرف قاعدةً تعمل

---

(٥) مستمدة من: The Hajj p. 359

مستشهدًا بكلام شخص يُدعى إلدون روتر Eldon Rutter وهو رجل إنكليزي اعتنق الإسلام وَزَار المدينة في عام ١٩٢٥م.

بها الإدارة السعودية لمكة والمدينة في العقود اللاحقة، من حيث الالتزام بالجوانب الجمالية من منظور الوهابيين مع احتمالية المراوغة بين الفينة والفينة بصورة قد تثير غضبهم بهدف نشر الصورة العالمية للإسلام، سعيًا وراء عائدات الحج على نحو خاص.

اقترن الاستحواذ على منطقة الحجاز بتحمل عبد العزيز مسؤوليات المحافظة على رونق المدينتين المشرّفتين مكة المكرمة والمدينة المنورة وتطويرهما بشكل دائم. وفي عام ١٩٢٨م كسا عبد العزيز المسجد الحرام بالسجاد، وخصص أموالًا طائلة لشراء باب جديد مذهب للكعبة في عام ١٩٤٤م. ولكن خلال السنوات المعدودة التي شهدت الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية، لم يتمكن إلا من تجديد أعمال الإضاءة. وفي خضم الطفرة النفطية التي شهدتها البلاد في الفترة اللاحقة للحرب إلى جانب تضخم عدد الحجاج الوافدين إلى المملكة، خصص الملك مبالغ مالية أكبر لتلك العمليات. ولم تكن أهدافه نظرية بل عملية؛ إذ كان المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف صغيري المساحة ولا يسعان عدد الحجيج الوافدين إليهما، خاصةً خلال موسم الحج الذي يشهد أعدادًا مهولة من الحجاج. وكانت المنازل العشوائية وأكشاك البيع والحارات المنعطفة محيطةً بالمسجدين، ممّا تسبب في الحيلولة دون تنفيذ مشروعات التوسع. ووافق عبد العزيز على إعادة تصحيح هاتين المدينتين العتيقتين وبنائهما، وشجعه على ذلك ابناه سعود وفيصل، ليبدأ من المدينة أولًا ثم الشروع في إعادة بناء مكة المكرمة(٦).

وفي السادس من شهر سبتمبر/أيلول لعام ١٩٤٩م، نشر عبد العزيز خطابًا مفتوحًا يعلن فيه عن خطته لإعادة تطوير المدينة المنورة، وهنا عاد محمد بن لادن ليثبت أمام الجميع أنه المسؤول الأول أمام الملك عن الإنشاءات. واعتُبر الحرمان الشريفان في مكة والمدينة إلى جانب الأماكن المقدسة أوقافًا إسلامية، يشرف عليها هيئات كبار العلماء ونبلاء الحجاز، إلا أن توقيع عقد إنشاء بهذا الحجم كان من ضمن القرارات التي يجب أن يصدق عليها الملك بنفسه، ويعتمدها الوزير سليمان. وكان بن لادن هو

(٦) مستمدة من: Abbas, *Story of the Great Expansion*, pp. 100-101, 260-261.

الرجل المناسب لعقد بهذا الحجم، وأُسند إليه رسميًّا إدارة مشروع تجديد المدينة المنورة بالكامل، وهي مهمة يُتوقع أن تحقق له أرباحًا طائلة لأنها ستتضمن أعمال دك وبناء حول المسجد النبوي نفسه، إلى جانب بناء شبكتي كهرباء ومياه جديدتين، وميناء جوي. وهناك سجل رسمي عن بن لادن، إلى جانب رسالة دبلوماسية حديثة يشيران إلى أن مشروع توسعة المسجد النبوي الشريف وتجديده كلّف وحده زهاء تسعة عشر مليون دولار خلال بدايات خمسينيات القرن العشرين، مع العلم بأن هذا المبلغ لا يشمل التعويضات التي مُنحت أصحاب الأراضي ممن تم انتزاع ملكيتهم ومصادرتها[(٧)].

كان مشروع إعادة بناء المدينة المنورة انعكاسًا للبصمة المعمارية والتصميمية القوية التي ستتركها عائلة بن لادن في مكة المكرمة والمدينة المنورة لسنوات كثيرة لاحقة. وأضفى محمد بن لادن على عملية التجديد «لمسة معمارية حديثة»، كما ورد في السجلات الرسمية لشركته، مثل الاستخدام المكثف للإسمنت المسلح والرخام الأسود المنقوش. وربما كانت المصابيح النحاسية مبهرجة على نحو ينم عن ذوق سقيم والإسمنت المسلح قابضًا للصدر، إلا أن كليهما كان من بين الوسائل المعاصرة آنذاك بشهادة كثيرين، ومن ثَم حظيا بالثناء خلال خمسينيات القرن العشرين. ولم يكن ذلك المعمار الحديث جديرًا بثناء السعوديين فحسب، بل قال سائح لبناني معاصر عن الفن المعماري الذي نفذه بن لادن إنه «عملٌ مذهلٌ وفخم». وعند إتمام عملية إعادة التصميم الذي أخذ على عاتقه مهمة تنفيذها عام ١٩٥٥م ـ أي بعد وفاة عبد العزيز بعامين تقريبًا ـ أقام بن لادن ما يربو عن سبعمئة عمود جديد في المسجد النبوي الشريف، إلى جانب عدد مشابه من الأقواس الخرسانية التي تتوسط الأعمدة. وأضاف إلى

---

(٧) نفس المصدر السابق، يذكر السجل الرسمي رقمًا يشير إلى تخصيص ٣٠ مليون ريال سعودي للبناء و ٤٠ مليون ريال خصصت لحق الدولة في التعويض مقابل الاستيلاء على الممتلكات الخاصة كما ورد في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: **DOS 59/5467 Jeddah to Washington, April** 12, 1953.

حيث يستشهد برقم يبين أن مصاريف البناء في المدينة المنورة بلغت ١,٣٥ مليون دولار أمريكي في عام ١٩٥٢ وحده. وتشابهت التقديرات الدبلوماسية إلى حدّ ما في عام ١٩٥٥م، مستشهدين بوثائق ومصادر ميزانية الحكومة.

المسجد تسع بوابات وصحنين مفروشين بالحصباء للمصلين وأربعًا وأربعين نافذة، وبذلك اتسعت المساحة التي يمكن أن يجتمع فيها الحجيج للصلاة بنسبة ستين في المئة(٨).

لم يكن بن لادن يلقي خطاباته علنًا أمام الناس لأنه لم يكن يتقن القراءة، ومن ثَم طلب إلى أحد نوابه إلقاء الخطاب نيابة عنه في الاحتفال الذي أقامه الملك سعود للاحتفاء بإنجاز المشروع في أواخر شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٥٥م. ويُعتبر هذا الخطاب أول نص معروف لمحمد بن لادن؛ فكان سيمفونية صوتية منمقة شديدة التعقيد تفوح منه رائحة التقوى والمداهنة. قال بن لادن للملك:

إن الله عز وجل قد اصطفى جلالتكم ووالدك المفدَّى لنيل هذا الشرف، ومنّ عليكما بتوفيق من عنده لتشييد هذا المبنى التاريخي، وسوف يُكتب اسماكما بحروف من نور دائمًا أبدًا في التاريخ المجيد. وسيشع اسمك وضّاءً في هالة النور الأبدية التي ستضم أسماء بناة هذا المسجد في عصور مختلفة منذ زمن الرسول. إنني أهنئك على تحقيق هذا الشرف الذي سيدوم بإذن الله، والحمد لله وحده على إنجاز العمل في هذه التوسعة في عهد جلالتكم(٩).

لم يكن بن لادن شديد التواضع إلى حدّ يجعله يتجنب أي إشارة إلى الدور الذي قام به في العمل، بل إنه ذكر بدقة شديدة أعمال التطوير كافة التي أشرف على تنفيذها في أثناء توسعة هذه «المفخرة الخالدة». بل ألمح إلى فرص العمل التي ساعدته العائلة المالكة في إيجادها في بلاد الحجاز عن طريق تمويل إنشاء مصانع جديدة للسجاد. وسلّط الضوء على المبالغ المالية الضخمة التي مُنحت كتعويضاتٍ لأصحاب الأراضي التي صودرت، وأثنى على القرار الذي اتّخذه الملك «لزيادة رواتب العمال في المسجدَيْن الشريفين الأمر الذي دفعهم إلى العمل بكل كد وإخلاص؛ إنك حقًّا لم

---

(٨) المعلومات مستقاة من: *Story of the Great Expansion*, op. cit., p. 278.

وأيضًا استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2810 Jeddah to Washington, June 24, 1961.

(٩) المعلومات مستقاة من: *Umm alQura*, October J.8, 1955, KAA Foundation.

تترك أي باب للإصلاح إلا وقد فتحته على مصراعيه». وعندما أوشك على إنهاء تقريره سرد بن لادن المهام التي نفّذها لتطوير سبل المواصلات العصرية والتقليدية إلى المدينة، قائلًا:

لقد أصدرت لنا الأوامر ـ جلالة الملك ـ ببناء أحد أكبر الموانئ الجوية ليتسع للطائرات العملاقة، وها نحن قد أوشكنا على إنهاء العمل به. وأمرتنا جلالتكم أيضًا بتشييد طريق تمتد من المدينة المنورة إلى جدة، وقد أوشك المشروع فعليًّا على الاكتمال. بالإضافة إلى أننا خصصنا منطقة لتجمع الجمال واستراحتها... بعد أن اشتريتم جلالتكم قطعة الأرض التي تقع شرق المسجد الحرام، وخصصتها لاستراحة الجمال بما يحقق مصلحة للمسلمين... إنك في رعاية الله يا جلالة الملك(١٠).

يتناقض هذا الكلام قليلًا مع حقيقة سعود. فمن ناحية تعامله مع أمور الدين العامة وكثير من الجوانب الأخرى، بذل الملك الجديد جهودًا مضنية لاتباع منهج الموازنة الحكيمة التي تميز بها أبوه. وجاء في تقرير للسفارة الأمريكية أن «استمتاع سعود بمتابعة الأفلام والموسيقى وحفلات المنوعات، واهتمامه بتعليم الفتيات، واهتمامه بالرياضة وبعض الأنشطة الأخرى، يعتبر انشقاقًا عن المذهب الوهابي». ولتعويض تلك المفارقة شجب سعود شجبًا علنيًّا السلوك الذي سلكه بينه وبين نفسه. وأعلن في أحد خطاباته استنكاره «للفاسدين» الذين يستمعون «إلى الأغاني والموسيقى التي تُبث في محطات الراديو، لأن هذا من شأنه أن يتسبب في فساد الروح والأخلاقيات ويبعد الناس عن الله عز وجل وعن الصلاة... ومن مظاهر الفساد أيضًا ارتداء النساء للملابس الخارجة عن حدود المألوف وخروجهنّ من البيوت في كامل زينتهن وغير منتقبات، وهذا أشد أنواع الفساد وسبب رئيسي لوقوع الرذيلة والهلاك»(١١).

سعى الملك إلى درء الشائعات الدائرة عن نزواته بإنفاق مبالغ طائلة

---

(١٠) نفس المصدر السابق.

(١١) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: **DOS 59/4946 Jeddah to Washington,** March 29, 1958.

وأيضًا المقال الذي نُشر في صحيفة **اليمامة في** ٣٠ مارس/ آذار ١٩٥٨م.

على تجديد المشاعر المقدسة في المملكة. وما إن انتهى العمل في المدينة المنورة حتى أصدر سعود أمرًا بأن يشرع بن لادن في مشروع توسعة أكثر تكلفة في مكة المكرمة بحيث تزيد سعة المسجد الحرام المحيط بالكعبة من قرابة خمسين ألف إلى أربعمئة ألف حاج ومعتمر. وأعلن سعود في خطابات شعبية له أن ميزانية مشروعات التوسعة في مكة والمدينة تكلفت ما يزيد عن مئة وثلاثين مليون دولار. وقدرت سفارة ألمانيا الغربية أن الأرقام الفعلية للتكلفة بلغت قرابة الستين مليون دولار، إلا أن تقريرها ذكر أنه «حتى هذا المبلغ يبدو هائلًا من المنظور الغربي». وتقدم العمل ببطء في مشروع مكة متأثرًا بإجراءات التقشف التي فرضها فيصل على الميزانية بعد أن أصبح رئيس وزراء. ولكن هذا التباطؤ على الجانب الآخر منح بن لادن الفرصة لاستكمال مشروعات تشييد الطرق والأعمال الصناعية التي حُوِّلَت إليه(١٢).

في الفترة بين عام ١٩٥٦م ومنتصف ستينيات القرن العشرين ـ التي تتضمن الأعوام السبعة الأولى تقريبًا في حياة أسامة بن لادن ـ كان هدم المباني من السمات الرئيسة في مشروع تجديد مكة الذي أخذ بن لادن على عاتقه مهمة تنفيذه. فبدايةً من عام ١٩٥١م كان بن لادن قد اكتسب خبرات في أعمال الهدم والإزالة في المدينة المنورة، واستخدم المواد المتفجرة لدك المنازل والمتاجر في المدينة القديمة. وفي العام التالي شرع في نقل الأنقاض باستخدام العربات. وكان مشروع الإزالة العمرانية في مكة أكثر طموحًا إلى حدّ بعيد. وإجمالًا، أنفقت الحكومة السعودية ما يزيد عن ثلاثمئة وخمسة وسبعين مليون دولار في صورة تعويضات لمصادرة الملكيات الشخصية لأصحاب الممتلكات والمتاجر المكيّين. وكان محمد بن لادن بين الفينة والفينة يصطحب أبناءه الصغار إلى مواقع عمله في هذه السنوات، فكانوا يشاهدون مناظر متتابعة للتفجيرات المنظمة والمباني المهدمة على أطراف الحرم المكي، وهي مشاهد تبهر كثير من

---

(١٢) من خمسين ألف إلى أربعمئة ألف و١٣٠ مليون دولار أمريكي استنادًا إلى تقرير: DOS 59/4947 Jeddah to Washington, July 24, 1956.

وأيضًا استنادًا إلى ترجمة خطاب الترحيب الذي ألقاه الملك سعود في مكة الوارد في تقرير وزارة الخارجية الألمانية: Ger FM File 145, Jeddah to Bonn, October 2, 1956.

الصبية. ولا يعرف أحد قدر أعمال الهدم التي شهدها أسامة، ولكنه في سنوات لاحقة، تحدث بإعجاب وبشكل دقيق وعام عن أعمال التجديد التي نفذّها والده في مكة وفي مواقع مقدسة أخرى خلال هذه الفترة. وخلال عام ١٩٦٢م ـ الذي يُعدّ آخر عام لدينا عنه إحصائيات ـ استخدم محمد بن لادن المواد المتفجرة لنسف كمية الجبال والصخور في مكة وحولها يبلغ حجمها ستة وثمانين ألف متر مكعب. وهدم بن لادن ومهندسوه سبعمئة وثمانية وستين منزلاً في المدينة، إلى جانب تسعمئة وثمانية وعشرين متجرًا ومحلًّا تجاريًّا(١٣).

كان فيصل شديد الحماسة، وظن أن بإمكانه تحدي التيار الناصري والحيلولة دون توغل الشيوعية إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق تعزيز القيم الإسلامية. وكان هذا من بين دعامات سياسته الخارجية والداخلية. وأظهر فيصل دعمه للعمليات التي حُوِّلَت إلى بن لادن داخل مكة جزئيًّا لأن ذلك سيعزّز الاعتقاد بأن المملكة العربية السعودية هي درع الإسلام وراعيته الأولى. وفي عام ١٩٥٨م، بعد أن أصبح فيصل رئيس وزراء بفترة وجيزة (وهو لقب يبدو مهنيًّا في حكومة غير مهنية في أوجهها كافة)، تبنى فيصل مشروع تجديد آخر بهدف لفت الأنظار والاستحواذ على مكانة سامية في قلوب المسلمين على نحو مشابه، فضلاً عن توافقه مع معتقداته الراسخة المناهضة للصهيونية، وهو مشروع تجديد قبة الصخرة في القدس.

الحرم الشريف هو منطقة شاسعة مرتفعة عن سطح الأرض تقع جنوب شرق مدينة القدس القديمة ذات الأسوار. ويُعتبر هذا المسجد ثالث الحرمين الشريفين في الإسلام، ويشمل مبنيين عظيمين: المسجد الأقصى

---

(١٣) المعلومات كافة عن هدم منشآت في المدينة وإزالة الأنقاض مستقاة من: *Story of the Great Expansion*, op. cit., pp. 276-277.

المعلومات الخاصة بأسامة مستقاة من: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, p. 2

والذي اقتبس مقابلته مع قناة الجزيرة في عام ١٩٩٩م. جدير بالذكر أن وصف بن لادن لتعهد والده بمشروع القدس ـ على وجه الخصوص ـ قد فُصل بدقة بالغة في الوثائق الخاصة بمشروع التجديدات. والمعلومات الخاصة بإحصائيات إزالة منشآت مكة مستقاة من: *Story of the Great Expansion*, p. 264.

وقبة الصخرة التي بُنيت في أواخر القرن السابع الميلادي. وترتفع القبة ذهبية اللون عن الأرض المستوية للحرم بمقدار ثمانية وتسعين قدمًا، وهي تعلو ما تزعم الديانة اليهودية أنه حائط «الهيكل الأول»(*) الذي بناه الملك سليمان قبل مولد المسيح بألف عام.

يُعتبر موقع قبة الصخرة في الإسلام أكثر رمزيةً وروحانيةً من القصص التاريخية المذكورة في القرآن الكريم عن الحرب والسياسة والقانون في مكة والمدينة؛ إذ تشير الآيات القرآنية وتذكر تفاسير العلماء المسلمين اللاحقة أن سيدنا محمدًا زار الصخرة البارزة التي تقع أسفل القبة في ليلة الإسراء والمعراج ممتطيًا دابة مجنحة ـ اسمها «البراق» ـ نقلته من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، ثم عُرج به إلى السماء، وعاد في النهاية إلى مكة. وبعد وفاة سيدنا محمد صارت القدس محور نزاع مستمر بين اليهود والمسيحيين والمسلمين. وبمرور القرون أدّت قصة الإسراء والمعراج إلى تكوين هالة من القداسة لدى المسلمين من كل مكان في العالم حول قبة الصخرة. وكلما زادت الحروب الدينية حول القدس ازدادت هذه القداسة وتضاعفت. استولى الصليبيون الأوروبيون على القبة عام ١٠٩٩م، وحوّلوها إلى كنيسة قبل أن يستعيدها البطل المغوار صلاح الدين ويردها إلى الإسلام مرة أخرى. وبعد ذلك بفترة طويلة أدّت المشروعات اليهودية الهادفة إلى اكتشاف المعابد القديمة في الموقع ـ التي يعود تاريخ بعضها إلى الممالك اليهودية الأولى ـ إلى استثارة مقاومة المسلمين(١٤).

في أوائل خمسينيات القرن العشرين أضحت قبة الصخرة في حاجة ماسة إلى عمليات ترميم؛ إذ تهدم القرميد أو سقط كله، وتدلى سطح الصخرة، وتطلبت دهانها من الداخل إلى جانب تنفيذ أعمال النجارة والأشغال المعدنية. بعد ذلك سيطرت المملكة الأردنية على الحرم،

(*) المعروف بهيكل سليمان.

(١٤) استنادًا إلى: Peters, :Jerusalem, pp. 1-406

يعتبر هذا المرجع مصدرًا غنيًا بالمعلومات عن المسافرين والمشاركين في تشكيل تاريخ المدينة.

والمدينة القديمة، والقدس الشرقية. وأعلن الملك حسين الذي اعتلى العرش شابًّا بعد اغتيال والده، عن حملة إسلامية عامة لإعادة تجديد القبة عام ١٩٥٢م، وهو مشروع حاز الإعجاب السياسي والديني في غمرة الشعور المناهض للصهيونية المنتشر في العالم العربي. وتعهدت المملكة العربية السعودية ومصر بالدعم المالي، إلا أن المشروع لم يكتمل.

بعد ذلك بأربع سنوات أعلن جمال عبد الناصر خطته لتجديد القبة، ولاحقًا في العام نفسه، أوفد خبراء هندسيين ومعماريين إلى القدس، بعد موافقة الأردن، للاتفاق على العطاءات. ويبدو أن مبادرة جمال عبد الناصر نبهت فيصل ودفعته إلى التحرك، لأنه ما إن تولى ولي العهد مقاليد الحكم في عام ١٩٥٨م، حتى عمل على استعادة إشراف السعودية على المشروع. ودعمت حكومته محمد بن لادن في تقديم العطاء. وفي أثناء استعدادات بن لادن لتقديم عطائه خلال ربيع عام ١٩٥٨م، دعمته ضمانات مالية هائلة من الرياض[١٥].

قدّمت سبع شركات عربية العطاءات بحلول الموعد الأخير لتقديمها في شهر مايو/أيار؛ شركتان من الأردن، وأربع شركات مصرية، وشركة بن لادن. ونجح بن لادن في المرور من التصفية الأولى التي ضمت الثلاث شركات التي قدمت العطاءات الأقل سعرًا. وأرسل بن لادن إلى لجنة اتخاذ القرار خطابًا يفيد بأنه سيقوم بتبديل الخامات من أجل تقليل عطائه إلى أقل حد. وكتب لها في خطابه المؤرخ في الثامن من شهر يوليو/تموز عام ١٩٥٨م: «في مستهل الأمر، هذا مشروعٌ إسلامي مقدس، وأنا في غاية السعادة للمشاركة في بناء هذا المكان المقدس». وتعهّد بأن يعمل «بأي ثمن كان وأن يوفر أي خامات مطلوبة لإسداء هذه

---

(١٥) المعلومات الخاصة بمبادرة حسين وتاريخ تصريح عبد الناصر استُمدت من تقرير مصري صدر في عام ١٩٨١م يعرض تاريخ التجديدات في الموقع، وكان هذا التقرير أحد الوثائق التي قدمتها هيئة الأوقاف عن مشروع التجديدات الذي نفذ في الفترة ما بين خمسينيات وستينيات القرن العشرين. يعزو المؤلف الفضل في هذا القسم إلى البحث الاستثنائي والمميز عن القدس الذي قدمته روبين شالمان Robin Shulman الذي جمع الوثائق وأجرى المقابلات المتعلقة بها. وترجم محمد المنشاوي الوثائق في واشنطن وسوف نشير إليها في المراجع في ما بعد بنحو مختصر كالآتي «وثائق القدس» (Jer Docs).

الخدمة الجليلة المشرِفة للمجتمع الإسلامي». ولضمان نجاح هذه المهمة فوّض بن لادن لأحد مساعديه توكيلًا رسميًّا وأرسله إلى القدس في الجولة الأخيرة للمفاوضات. وخفّض أيضًا من سعر عطائه لضمان أنه أقل العطاءات المقدَّمة. وبلغ عرضه الأخير ٢٧٦,٩٩٠,٢ دينارًا أردنيًّا، وهو مبلغ يقل عن قيمة العطاء الذي قدمته شركة علي إبراهيم المصرية والذي بلغ ٢٧٨,٢٢٥,٥ دينارًا. ويشير ذلك الهامش الضئيل بينهما إلى أن هناك قرارًا ربما يكون اتُّخذ لمصلحة بن لادن بالفعل سرًّا. وذكر بن لادن لاحقًا أنه تعمد قبول الخسارة في العقد لينال رضى الله. ولذا، يمكن تفسير الأمر أيضًا على أنه عزم على نيل هذا الشرف من دون مساعدة من أحد. وعلى أي حال، أعلنت اللجنة في السابع عشر من شهر يوليو/ تموز من عام ١٩٥٨م فوز بن لادن(١٦).

أرسل كبير قضاة اللجنة إلى بن لادن خطابًا جاء فيه: «معالي الشيخ محمد بن لادن، يُشرفني أن أبلغكم بأن اللجنة المشكَّلة لإعادة بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى قررت اختيار شركتكم لتنفيذ أعمال الإنشاءات. وكم أرغب في أن يكتمل هذا العمل بما يرضي الله عز وجل، وأتمنى أن يعينك الله على حفظ هذا الكنز الإسلامي»(١٧).

على مدار التسع سنوات اللاحقة أشرف محمد بن لادن على عمليات بناء الحرم وترميمه، بدءًا من قبة الصخرة والساحات المحيطة بها، ثم المسجد الأقصى والمواقع الإسلامية الأخرى في مدينة القدس القديمة. وأكد بن لادن أن المشروع صورةٌ من صور العبادة من منظوره؛ إذ أرسل إلى كبير القضاة خطابًا عام ١٩٥٩م في أثناء تقديم العطاء الخاص بالتعاقد على أعمال الإنارة والأعمال الكهربائية ذاكرًا فيه: «يتضح جليًّا يا سيادة القاضي أنني أرعى مشروع قبة الصخرة باهتمام فائق». واستطرد قائلًا:

---

(١٦) استنادًا إلى: Jer Docs, MBL to Committee, July 8, 1958, written on stationery captioned «Office of Mohamed Awad Bin Laden, 51-S».

خفض بن لادن عرضه بمقدار ٨,٠٠٠ دينار في الجولة الأخيرة ليكون أقل من العرض المصري. وقال قاضي المحكمة العليا في قراره أنه إلى جانب السعر، فإن اللجنة قد تأثرت برغبة بن لادن في العمل من دون القيود التي يفرضها صاحب العرض المصري.

(١٧) استنادًا إلى: Jer Docs Letter MH- 8- 32- 169, July 19, 1958.

«وسأنفذ الخطة. . . على حسابي الشخصي، بالإضافة إلى أنني سوف أقدم لكم الإيصالات خاليةً من أي تكاليف خاصة بالعمال أو تقديم أي خدمة. . . إنني لم أقبل هذا المشروع سعيًا وراء أي ربح مادي، بل لأهميته الدينية»(١٨).

كانت القوة العاملة في مشروع القدس الذي تعهد بن لادن بإتمامه متعددة الجنسيات والأديان؛ فمنها اختصاصيّو الرخام الإيطاليون، والمسيحيون الأرمن والفلسطينيون، والمسلمون الفلسطينيون. وعندما كان المؤذن يرفع الأذان في أوقات الصلاة، كان بن لادن يقوم بالصلاة مع العمال المسلمين ساجدًا لله عز وجل، بينما يواصل الإيطاليون العمل أو يأخذون قسطًا من الراحة يحتسون فيه القهوة. ويتذكر أحد المشرفين على مواقع العمل، يُدعى نادر أشتيه قائلًا: «تعلمنا القليل من اللغة الإيطالية، وتعلموا منا قليلًا من العربية». استورد بن لادن خامات الألمنيوم والرخام من أوروبا، وجلب الرمال والإسمنت من الأردن، واستورد الأخشاب من لبنان، والقرميد من تركيا، ونُقلت هذه المواد جميعها بالشاحنات من ميناء العقبة الأردني. وزادت شعبيته بسبب الإكراميات التي كان يمنحها العمّال بين الفينة والفينة بالإضافة إلى رواتبهم التي بلغت عشرة دينارات لكل عامل. وهناك صورة فوتوغرافية له تظهره واقفًا بالقرب من مجموعة من مكبرات الصوت في مؤتمر صحفي في القدس في أواخر خمسينيات القرن العشرين، يرتدي فيها جلبابًا سعوديًّا طويلًا أبيض اللون، ونظارة شمسية أنيقة داكنة العدسات، حاملًا في يديه حقيبة جلدية عصرية. وتظهر الصور الفوتوغرافية ـ التي التقطها طياره الأمريكي والمشروع على وشك الانتهاء ـ رافعة ضخمة تطل على صحن الحرم، وبالقرب منها عمال معممون يدقون بالمطارق لترميم الساحة العامة الخارجية وسط أكوام من الرمال البيضاء(١٩).

---

(١٨) استنادًا إلى: Jer Docs Letter 1390, March 8, 1959.

(١٩) استنادًا إلى المقابلات التي أجريت مع نادر أشتيه في ٣١ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٥م وفي ٦ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٥م. أكد مسلمون فلسطينيون كانوا في القدس آنذاك وجود عمال مسيحيين في موقع العمل. راجع الصورة الملتقطة في أواخر حقبة الخمسينيات من القرن العشرين في: *Story of the Great Expansion.* =

أمر الملك حسين بإقامة احتفال في الحرم بعد انتهاء الجولة الأولى من العمل. وانطلق بن لادن جوًّا إلى القدس مستقلًّا طائرته الخاصة في الخامس من أغسطس/ آب لعام ١٩٦٤م، بصحبة أحد أعضاء مجلس الوزراء السعودي وبعض نبلاء المدينة المنورة، واستقبلهم حاكم القدس الأردني وقائده العسكري في المطار. وحضر الاحتفال قرابة خمسمئة شخصية عربية من أصحاب المقامات الرفيعة اكتظت بهم منصة الحرم في صباح اليوم التالي أسفل أشعة الشمس الحارقة، ورتّل أحد المقرئين ما تيسر من آيات القرآن الكريم، وقلّد الملك حسين بن لادن وسامًا باسم القدس تكريمًا لمجهوداته. وكطقس من طقوس الخطابة العربية العلنية وقتئذٍ تعهد الملك باستعادة فلسطين من قبضة إسرائيل، قائلًا: «دعوني أؤكد أن الترميم الفعلي للمسجد الأقصى وقبة الصخرة المباركة له مغزى بعيدٌ كل البعد عن أعمال الترميم المادية». وأعلن أن مشروع الترميم ما هو إلا تمهيد لقضية «الاستعادة الكاملة لحقوقنا الكاملة في أرضنا المغتصبة»(٢٠).

طلب بن لادن إلى الوزير السعودي الذي اصطحبه إلى فلسطين أن يقرأ خطابه نيابة عنه. وبدأ الحديث بمقتطفات من القرآن الكريم وكلمة مطولة عن رحلة إسراء النبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومعراجه إلى السماوات العلى، ثم أثنى على الملك حسين والهاشميين ثناءً عظيمًا. وبعدئذٍ انتقل إلى الحديث عن نفسه:

= حدد الكتاب تاريخ الصورة بعام ١٩٥٩م بيد أن التعليق الموجود على الصورة يبين أنها قد تكون قد التقطت في عام ١٩٦٤م. والصور مأخوذة من الطيار الأمريكي ونشرتها تيري دالي ابنة الطيار. القبة المصنوعة من الألمنيوم والعارضة التي وضعها بن لادن على قبة الصخرة فيها ثقوب ولا يمكن الاعتماد عليها وأُزيلت بعد عدة أعوام، بيد أن المهندسين المدنيين والمعماريين الذين أشرفوا على المسجد بعد ذلك قالوا إن اللوم يقع على اللجنة التي كانت تشرف على المشروع والتي انبهرت آنذاك بالمزايدة الأصلية التي اقترنت بوعد بتوفير الألمنيوم «العصري» الذي لم يعرفوا عنه إلا القليل. ويوثق أحد التقارير الذي نشرته منظمة اليونسكو في عام ١٩٧٩م وأعده خبراء أوروبيون المشكلات توثيقًا مفصّلًا.

(٢٠) الترجمة الإنكليزية بعنوان: Address on the Occasion of the Unveiling of the Restored Dome of the Rock.

في ١٨ أبريل/ نيسان ١٩٩٤م والتي تتضمن مقتطفات من الخطاب الذي سبقه في عام ١٩٦٤م. تمّ الولوج إليه في الموقع الإلكتروني: www.kinghussein.gov.jo/94_april18.html.

لقد شرفني الله عز وجل بتنفيذ مشروعات البناء في المسجدين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، هاتين البقعتين المكرمتين اللتين وهبهما الله عزّ وجل إلى حكومة المملكة العربية السعودية... وبتعاقد المسؤولين معي لوضع هذا المشروع حيّز التنفيذ، فقد نلت شرف تطوير أعظم ثلاثة مساجد في ديننا الحنيف التي تجذب الحجاج من كل مكان في العالم؛ وتلك نعمة عظيمة حباها الله عز وجل الذي يمنّ بفضله على من يشاء من عباده[٢١].

أبلغ بن لادن الحضور بأن التكلفة النهائية بلغت قرابة ٥١٦,٠٠٠ دينار، أو ما يساوي مليون ونصف المليون دولار بسعر الصرف السائد آنذاك. وصمت بن لادن مؤقتًا «للإشارة إلى المساهمات السخية العظيمة التي أسهمت بها حكومة المملكة العربية السعودية» والتي غطت نفقات زهاء نصف الميزانية. وأعلن بعد ذلك عن إسهاماته الشخصية بصراحة شديدة:

كم أرغب يا جلالة الملك في أن تعرف أنني ضحيت بمبالغ مهولة لا تقل عن مئة وخمسين ألف دينار أنفقتها طوعًا لإتمام هذا المشروع، من دون أن أبالي بالخسائر المالية. وقد تبرعت بالمال لهذا العمل المبارك من دون التفكير في أي خسائر، بل كان هدفي الفوز برضى الله الذي يفوق في رأيي مئات آلاف الدينارات أهميةً.

أبلغ بن لادن الحضور أن الملك حسين ما زال مدينًا له بمئة وسبعة وستين ألف دينار، إلا أنه سيعفيه من هذا الدين حبًّا في الخير؛ «إسهامًا مني في هذه المهمة الشريفة». وقال إنه بانتقاله وقتئذٍ للعمل في المسجد الأقصى، يعتزم إقامة حديقة كبيرة بالجوار تبلغ مساحتها عشرة فدادين من ماله الخاص، وسأل الله عز وجل أن يعينه على ذلك[٢٢].

اشترى بن لادن منزلًا في القدس الشرقية قرابة عام ١٩٦٣م أو ١٩٦٤م، وكان مبنى رحبًا من الحجر الأبيض، سقفه أحمر على الطراز

---

(٢١) أُعيد طبع النص في: *Palestine*, August 8, 1964, p. 5.

(٢٢) نفس المصدر السابق، يوجد به كل الاقتباسات.

الذي كان منتشرًا في أنحاء المدينة كافة خلال خمسينيات القرن العشرين وبداية ستينيات القرن نفسه. وكان المنزل يطل من بُعد على المنظر الرائع لمدينة القدس، وعن قرب على المساحات الرملية والمباني المشيدة بالحجر الأبيض. وكان خط وقف إطلاق النار الذي طُبق في ما بعد بين إسرائيل والأردن يبعد مسيرة قصيرة بالأقدام في آخر الشارع. ويقع إلى الشرق من جبل المشارف، وهي منطقة متنازَع عليها وتسيطر عليها الأمم المتحدة، أما إلى الجنوب منه فيقع الحيَّان الإسرائيليان غفعات همفتار ورامات أشكول. وكان مطار قلنديا القديم في القدس يبعد مسافة قريبة بالسيارة حيث كان بن لادن يسافر منه جوًّا مباشرةً إلى جدة ومكة والمدينة على متن طائرته الخاصة.

ربما كان بن لادن قد تزوج امرأة فلسطينية واحدة على الأقل خلال سنوات عمله في مشروع القدس، لكن إقامته في منزل القدس كانت في صورة زيارات قصيرة الأجل بصفة عامة، وما عدا ذلك كان خُدامه ومساعدوه في الشركة يقيمون به إلى جانب حارس مخصص لرعاية سياراته، حسبما ذكر مالك المنزل الحالي، وهو مواطن عربي مسيحي يقيم في إسرائيل وكان ضابطًا متقاعدًا في البحرية الإسرائيلية[٢٣].

إستولت إسرائيل على القدس الشرقية وانتزعتها من الأردن في حرب ١٩٦٧م التي دارت رحاها بين العرب وإسرائيل، وبعدها لم يعد بن لادن مطلقًا إلى القدس. ولاحقًا تم تجديد المنزل وتوسيع رقعته، واستأجر قنصل

---

(٢٣) أُخذت تلك الرواية عن المنزل بصورة أساسية من مقابلة مع مالكه وجولة داخل البيت. أكد سكان آخرون في المنطقة ممن تعرفوا إلى بن لادن في ذلك الوقت أنه كان يقيم في المنزل حينما يكون في المدينة. وقال اثنان من أقربائه أنه تزوج من امرأة فلسطينية، وذكر أحدهما أن الزوجة كانت من غزة بينما كان الآخر يظن أنها من جنين. ولا يمكن تأكيد تلك الروايات الخاصة، بيد أنها تتماشى مع الذكريات التي رواها أقرباء آخرون من العائلة إلى جانب شركاء العمل الذين قالوا إن بن لادن كانت له على الأقل زوجة واحدة من فلسطين. أجرى المؤلف عدة لقاءات عقدها نيابة عنه الصحفي الإسرائيلي صموئيل سوكول Samuel Sockol، أكد فيها أن بن لادن امتلك بيتًا ولم يكن مجرد مستأجرًا. جدير بالذكر أن سوكول أجرى مقابلة مع ضابط بحرية في القوات الإسرائيلية أُحيل إلى التقاعد وهو يهودا سيمبيرغ Yehuda Semberg والذي أقام في المنزل لمدة خمسة وعشرين عامًا، إلى جانب مقابلة أُجريت مع ضابط سابق في القوات البرية الإسرائيلية ويدعى أهارون شاكارجي Aharon Shakarji.

فلسطيني لإسبانيا إحدى وحداته لفترة وجيزة. وبعدها بسنوات وقع المنزل تحت إدارة الحكومة الإسرائيلية التي خضعت لها الأراضي التي هجرها أصحابها العرب بسبب الحرب. وانتقلت ملكية المنزل رسميًّا إلى الحكومة الإسرائيلية، واشتراه الضابط البحري الذي باعه لاحقًا إلى المالك الحالي. وخلال هذه الفترة ظلّت عائلة بن لادن متمركزة في جدة تحيا حياة كريمة، ولكن من المنظور العملي والمادي استطاعت العائلة أن تعزي تاريخها إلى القضية الشهيرة للاجئين الفلسطينيين من حرب ١٩٦٧م، التي هي محل نزاع قضائي حتى الآن.

الفصل السادس

الضربة المضادة

شيّد المهندسون الألمان والعمال الأتراك سكة الحجاز الحديدية التي تربط بين دمشق والمدينة في الأعوام من ١٩٠٠م حتى ١٩٠٨م. وعجّل ذلك من انتقال الحجاج بما يزيد عن ثمانمئة ميل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، إلى جانب أنه كان للسكك الحديدية غرض إضافي ـ لم يأت من قبيل الصدفة ـ ألا وهو نقل القوات التركية التابعة للإمبراطورية العثمانية التي كانت تتوارى آنذاك. وعندما اشتدت ضراوة الحرب العالمية الأولى إلى حد المذابح الرهيبة للأرمن، اهتم توماس إدوارد لورانس وزملاؤه في الاستخبارات البريطانية اهتمامًا شديدًا بالبذور الأولى للقومية العربية؛ لتنظيم هجوم مفاجئ ضدّ قوات القواعد الأمامية التركية التي كانت تشتمل على حامية عسكرية تضم إحدى عشرة ألف جندي في المدينة. وكانت الميليشيات البدوية تقتلع بصورة متكررة خطوط السكك الحديدية في الحجاز خلال الشهور الأولى لعام ١٩١٧م. واستمتع لورانس العرب بهذه التجربة بشدة، وكتب إلى زميل له خطابًا جاء فيه: «يا لها من تجربة عظيمة؛ لا يسعك أن تتخيل متعة أكبر من المتعة التي نعيشها الآن، وغضبًا وحنقًا أضرى من غضب الأتراك»[1].

ظلّ طريق السكك الحديدية الرئيس مهملًا لعقود بعد ذلك، وأصبح في أعين العرب رمزًا من رموز التدخل الاستعماري في أداء فريضة

---

(١) مقتبسة من: Mack, *A Prince of Our Disorder*, p. 151.

الحج. وتعهدت الحكومتان اللتان نالتا استقلالهما حديثًا في الأردن وسوريا، إلى جانب حكومة المملكة العربية السعودية، بتجديد السكك الحديدية. وفي الرياض تبنّى عبد العزيز وجهة نظر عاطفية للغاية عن السكك الحديدية؛ إذ ذكر في برقية أرسلها إلى الرئيس هاري ترومان عام ١٩٤٦م أنها «الوسيلة الوحيدة التي ستعمّ فائدتها على الجميع بمشيئة الله عز وجل». وبادله ولده سعود الشعور نفسه وبالقوة نفسها، وأسهم في ما بعد في تحويل ما تبقى من السكك الحديدية بالحجاز إلى وقف ديني رسمي. وأنفقت اللجنة التنفيذية للسكك الحديدية في دمشق عدة ملايين من الدولارات على الدراسات الهندسية خلال أواخر خمسينيات القرن العشرين، وأوضح المسؤولون أن الإصلاحات سوف تكلّف عشرات الملايين من الدولارات. ورفض المسؤولون الأوروبيون والأمريكيون تقديم الدعم المادي متحججين بأن الطرق السريعة والمطارات الحديثة ستوفر استثمارات أفضل. إلا أن السفارة الأمريكية في جدة أقرت بأن المشروع يشهد «إقبالًا عاطفيًّا هائلًا في أوساط سعودية بعينها»، وخشيت السفارة من توجيه اتهامات إليها بالتدخل في الشؤون الإسلامية إذا ما أبدت اعتراضًا شديدًا على الأمر. وفي نهاية المطاف في عام ١٩٦٠م، وفي غمرة حملة ولي العهد فيصل لتعزيز المشروعات الإسلامية للتصدي للتيار الناصري، أحيت المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية وسوريا خططها لإصلاح ما أتلفه لورانس والثورة العربية[٢].

مثلما فعل محمد بن لادن في القدس، كان هو الأداة المنفّذة للمشروع الذي يخدم السياسة الخارجية السعودية دينية التوجه. وتشارك مع شركة ماروبيني اليابانية لتقديم العطاء للفوز بعقد ترميم السكك الحديدية، على أن يأخذ بن لادن على عاتقه الأعمال الهندسية المدنية مثل حفر الأنفاق ومد مواسير المياه تحت الأرض، بينما يمد شركاؤه اليابانيون

---

(٢) مقتبس من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/7214, text of telegram, October 3,1946.

وأيضًا من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/3100 Jeddah to Washington, September 28, 1960.

الخط الحديدي تحت إشراف مهندسين من ألمانيا الغربية. وذكر أمريكي كان يعمل لدى بن لادن في جدة أن الحكومة اليابانية تعهدت بضمان التكاليف كافة التي يتكبدها بن لادن في العملية أملًا في إنشاء موطئ قدم لها للعمل في المملكة العربية السعودية لاحقًا. وتردد بن لادن ومساعدوه على دمشق ذهابًا وإيابًا، وتباهى موظفه الأمريكي قائلًا إن بن لادن نال العقد «حال طلبه»[٣].

سافر وفدٌ مفوض من ثلاثة عشر فردًا من اللجنة التنفيذية لسكك الحجاز الحديدية إلى المملكة العربية السعودية جوًّا في أواخر شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٦١م. واستضافهم بن لادن في الرياض والطائف، واصطحبهم في جولة ـ طبقًا لتقرير السفارة الأمريكية ـ «ليعرض عليهم بعض الطرق والمساجد والمشروعات الأخرى» التي نفذتها شركته. وبدا الأمر منتهيًا، نظرًا إلى تمتّع بن لادن «بعلاقات وثيقة مع الحكومة السعودية والعائلة المالكة، ولأنه يُعتبر رمزًا يُشار إليه بالبنان في معظم العطاءات العامة التي تتضمن أعمال إنشاءات». وكان من المرجح أن يرسو عليه عقد إصلاح السكك الحديدية في ظلّ نظام سعودي وصفته برقية بأنه «نظام يتحرك عادة بعد فوات الأوان». حيث دأب موظفو الحكومة السعودية على تبادل المعلومات المتعلقة بالعطاء حتى «يُمنح العقد إلى الشركة التي تحظى بمساعدة «العالمين ببواطن الأمور» وتتمكن من تمرير إكراميات هائلة للمسؤولين». وأكد تقرير حكومي بريطاني لاحق أن: «لدينا أدلة قوية على أن عقود تنفيذ هذا المشروع خُصصت استنادًا إلى أسس بعيدة كل البعد عن المعايير التجارية». إضافة إلى ذلك، يشير تقرير بريطاني إلى أن «الملك سعودًا أصدر تعليمات واضحة بأن يكون بن لادن» هو الفائز بالعطاء، وبأشياء أخرى[٤].

---

(٣) نفس المصدر السابق: Jeddah to Washington, April 5, 1961.

(٤) نفس المصدر السابق: Jeddah to Washington, November 25, 1961

نفس المصدر السابق أيضًا: Jeddah to Washington, November 28, 1961

Jeddah to Washington, October 20, 1960.

من تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/170324 FO minute, February 20, 1963.

نفس المصدر السابق، مذكرة عن مكالمة هاتفية أُجريت في ٨ فبراير/شباط ١٩٦٣م.

أيًا كانت الأسباب، فاز بن لادن وشركاؤه اليابانيون بالعقد بالفعل. وفي اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر/تشرين الثاني لعام ١٩٦١م، فازت الشركتان بعقد تبلغ قيمته خمسة وعشرين مليون دولار، ووقعوا على تعهد بالعمل في الصيف اللاحق، لكن العمل لم يبدأ كما هو مخطط، وعجز اليابانيون عن الوفاء بتعهداتهم. فاتجهت اللجنة التنفيذية المحبَطة إلى شركة توماس سمرسون آند سانز البريطانية ذات الخبرات الهائلة في مجال إنشاء السكك الحديدية، للتعاون مع بن لادن في شراكة جديدة. وسافر اثنان من المسؤولين التنفيذيين بشركة سمرسون جوًّا للتفاوض واجتمعوا مع السفير البريطاني جيه. سي. أم. ماسون في شقته في دمشق في مساء اليوم الثامن عشر من شهر فبراير/شباط عام ١٩٦٣م. ويروي لنا ماسون ما حدث قائلًا: «قضيت جزءًا من الأمسية معارضًا وجهات النظر المطروحة أمامي حبًّا في الجدل فحسب». وقال إن من بين المشكلات التي ذُكرت حينها «شخصية بن لادن الغريبة المتقلبة»[٥].

بدا أن لجنة السكك الحديدية ضاقت ذرعًا بقطب الإنشاءات السعودي حيث ذكر رئيس مجلس إدارتها «إن بن لادن فقد الآن شعبيته إلى حدّ بعيد». ويبدو أن أعضاء اللجنة من السوريين والأردنيين قد احتقروا الأسلوب الذي يستخدمه بن لادن لاستغلال نفوذ العائلة المالكة السعودية للفوز بالعقود، ثم لا ينفذ المهمة الموكلة إليه، ومع ذلك أصبح نفوذه قويًّا للغاية لأن يتحداه أحد. ويبدو أن المسؤولين التنفيذيين البريطانيين «كانوا على أتم الاستعداد للتخلص» من بن لادن، إلا أنهم خشوا «تأثير ذلك في الأعمال المنتظرة في المملكة العربية السعودية إذا ما جعلوه عدوًّا لهم». ومن جانبه كان بن لادن يزعم باستمرار أن «دعم الحكومة السعودية سيُسحب من المشروع ما لم يشارك فيه»[٦].

سادت الفوضى مشروع السكك الحديدية بعد ذلك بأسابيع قليلة. وضاق فيصل ولي العهد ذرعًا بمحمد بن لادن في ما يبدو؛ فسحب العقد

---

(٥) نفس المصدر السابق: Damascus to London, February 20, 1963.

(٦) نفس المصدر السابق، وأيضًا من تقرير وزارة الخارجية البريطانية: FO 371/170190 Board of Trade to Jeddah, December 2, 1963.

منه «ووبخه توبيخًا عنيفًا» وفقًا لما ورد في أحد التقارير الصادرة من ألمانيا الغربية[٧]. ولم تكن سكك الحجاز الحديدية هي السبب الوحيد لإحباط فيصل من بن لادن. وساد شعور عام على الأقل في بعض مناطق المملكة بأن الوعود الهائلة التي قطعها بن لادن لم يف بها على مستوى الجودة المطلوب، ولم يعد يقوم بالتسليم في الوقت المحدد. وتعملقت ثروته وفاقت الامتيازات التي يتمتع بها كل الحدود، وحتى شهر مارس/ آذار من عام ١٩٦١م، كان يمتلك ثلاث طائرات بيتشكرافت (Beechcraft) بالمروحة الدافعة، وهو عدد يفوق الطائرات التي يمتلكها أي فرد في المملكة لا يمت للعائلة المالكة بصلة. وكان يستأجر طيارين أمريكيين لنقله بطائراته من موقع عمل إلى آخر حيث تنتشر معسكرات العمال التابعة لشركاته في الصحراء. وكان يتميز بنشاط شديد في عمله، إلا أن الأساليب المرتجلة التي كان يستخدمها أثارت بصورة متزايدة تساؤلات وشكاوى المستشارين الدوليين الذين كانوا يحاولون تطبيق أفضل معايير الهندسة الحديثة في مشروعات الإنشاءات السعودية بناءً على توصيات من ولي العهد فيصل.

وللمرة الأولى في حياته المهنية الطويلة، أصبح بن لادن من الشخصيات العامة المثيرة للجدل في الأوساط السياسة التي لا تناقش على الملأ في المملكة.

كتب أحمد محمد جمال في عمود بالصفحة الأولى في جريدة «الندوة» المكية في الخامس عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني لعام ١٩٦١م: «إننا عادة نقرأ في كل مناسبة أن باب تقديم العطاءات في مشروعات الإنشاءات مفتوحٌ في بلدنا، واعتدنا أن شركة بن لادن قدمت «العطاء الأقل» وحصلت على حق تنفيذ المشروع»، واستطرد قائلًا:

يحدث هذا في الوقت الذي يبدي فيه المشرفون استياءهم الشديد من بطء إيقاع الشركة في تنفيذ المشروعات التي أخذت على عاتقها مسؤولية

(٧) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الألمانية: Ger FO 350/217/63 Jeddah to Bonn, April 3, 1963.

تنفيذها منذ عامين أو ثلاثة أعوام أو يزيد. كما إنهم لا يجدون من يشكون إليه سوى الله عز وجل لتشتيت مجهودات المهندسين، الذين يعملون في شركة بن لادن، وكذلك العمال والمعدات بين مشروعات متعددة في مدن نائية وطرق متفرقة في أنحاء المملكة كافة. إضافة إلى شكواهم من انخفاض جودة العمل والعمليات الهندسية التي تعج بالأخطاء وعمليات تعبيد الطرق المشوبة بالأخطاء[٨].

تمثّلت المشكلة الكبرى في رأي هذا الكاتب الصحفي في «عادة إسناد مشروعات تشييد الطرق في كل أنحاء بلدنا إلى شركة مقاولات واحدة». وفي النهاية اختتم جمال بأن المشكلة لم تكن في جودة الأعمال الذي ينفذها بن لادن فحسب، بل أيضًا في مدى مصداقية حكومة المملكة العربية السعودية:

ارحمونا أيها المسؤولون في وزارة الاتصالات. ارحموا بلادنا. ارحموا مشروعاتنا واعتنوا بها. لا تحصروا عمليات إنشاء الطرق في المملكة بشركة المقاولات الوحيدة، الشركة «ذات العطاء الأقل دائمًا»، الشركة التي لم تفِ بالتزاماتها في المشروعات السابقة. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[٩].

لم تكن تلك الاتهامات اللاذعة لتظهر بهذا الشكل الواضح في صحف المملكة العربية السعودية المعروفة بخضوعها لرقابة شديدة من دون موافقة الحكومة. وقد يكون فيصل وحلفاؤه مصدرًا محتملًا من مصادر التشجيع على ظهور هذه الانتقادات؛ ففي تلك الآونة كان سعود قد أخرج فيصل من مجلس الوزراء مؤقتًا، وكان ولي العهد يحارب لاستعادة سلطاته في وقت نشر هذه المقالة. وشجعه حلفاؤه باعتباره المنقذ في ظلّ العجز والفساد الحكوميين. وسعى وزير التجارة الجديد أحمد جمجوم ـ الذي كان ينتمي إلى عائلة تجارية منافسة لابن لادن ـ إلى تبديد قبضته الحديدية على تعاقدات وزارة الاتصالات. ومع ذلك تعدى الأمر حدّ التنافس والشقاق؛ إذ

---

(٨) من صحيفة **الندوة** بتاريخ ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦١م، ويوجد ترجمة لها في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/3100 Jeddah to Washington, November 25, 1961

(٩) كل الاقتباسات مأخوذة من المصدر السابق.

أشار النقد الشعبي إلى وجود استياء واسع النطاق من جودة برنامج تشييد الطرق الذي تنفذه المملكة وتباطئه.

في بداية ستينيات القرن العشرين كانت الطرق السريعة رمزًا قويًّا من رموز الحداثة والمعاصرة. ووقتئذٍ كانت خطة أمريكا لتشييد الطرق السريعة التي تربط بين ولاياتها شديدة التطور، وبدت سيارات الكاديلاك ذات الجنيحات الكبيرة والسيارات المكشوفة التي انطلقت بأعداد مهولة على الطرق السريعة من الساحل إلى الساحل، تجسيدًا للتميز والازدهار الأمريكي. وكان الرئيس الأمريكي جون كينيدي ـ الوسيم مكشوف الرأس ـ يلوِّح إلى الجمهور من سيارة مكشوفة في مشهد مألوف، وفي أفلام هوليوود والبرامج التلفزيونية بدت السيارات المكشوفة ممتعة. وفي المملكة العربية السعودية كانت هناك وجهة نظر لاقت صدى واسعًا مفادها أن إنشاء شبكة قومية للطرق السريعة يمكن أن يسرع إيقاع الحداثة في البلد. وبالنسبة إلى شعب بدوي متمسك بعاداته واعتاد لفترة طويلة حرية الانتقال، بدت السيارات مغرية للغاية. وكان تعداد شعب المملكة صغيرًا للغاية ـ إذ كان يبلغ قرابة أربعة ملايين نسمة ـ إلى جانب تفرقه في مساحات شاسعة في الصحراء وراء الانتشار الهائل للطرق السريعة، بل اعتبارها من أساسيات الحياة.

أدت خطط التقشف التي طبقها فيصل إلى حالة من الركود الاقتصادي، لكن العائدات النفطية واصلت الارتفاع. وبحلول عام ١٩٦١م كان بمقدور الحكومة تحقيق طفرة في تشييد الطرق السريعة إذا اتبعت الأساليب الفعالة لبناء الطرق. وأعلنت المملكة عن خطط لبناء شبكة طرق سريعة يزيد طولها الإجمالي عن ألفي ميل، إلا أن موظفيها البيروقراطيين سعوا جاهدين إلى تعطيل العمل فيها بسبب إجراءات منح العقود. ورشح هارولد فوك ـ مهندس الطرق الأمريكي الذي شغل منصب كبير مستشاري التطوير في المملكة ـ مستشارين أوروبيين للإشراف على الأعمال التي تتولاها شركات المقاولات المحلية لضمان تطابقها مع المعايير الدولية. وعندما عاد فيصل إلى مجلس الوزراء في ربيع عام ١٩٦٢م، أبدى اهتمامًا شديدًا بأهداف فوك، غير أنه اعترض على الأجور المقترحة لهؤلاء المستشارين الأوروبيين. فعلاوة على حرصه الشديد الفطري في إنفاق

المال، اتفق فيصل مع بعض أفراد العائلة المالكة السعودية على تخوفهم، النابع من خبراتهم، من أن المستشارين الغربيين عادة يرفعون أجورهم بشكل يتنافى مع كل الأعراف والقواعد المنطقية عندما يعملون في المملكة العربية السعودية. وجاء عنوان أحد التقارير السرية للسفارة الأمريكية بخصوص الإخفاق المتزايد في المشروع على النحو التالي: «عقبة تلو الأخرى». وبشكل سري ضغط فيصل على المسؤولين الأمريكيين لتقديم المساعدة له، وسعى لإقناع حكومته بإنشاء إدارة فعالة للطرق السريعة يكون بحوزتها أسطول من الآلات المستخدمة في تشييد الطرق حتى لا تعتمد في المستقبل اعتمادًا كاملًا على شركات مقاولات خاصة مثل شركة بن لادن. وذكر أنه يقدّر كل المستشارين الذين يعملون في المملكة، إلا أن «المشكلة لا تكمن في تحديد المتطلبات التي ينبغي تنفيذها»، وهو ما يعرفه بالفعل، «بل في تنفيذ هذه المتطلبات على وجه السرعة»[١٠].

على الجانب الآخر مارس فيصل ضغوطًا شديدة على بن لادن، ففي صيف عام ١٩٦٢م سحب الامتياز المفتوح الذي منحه إيّاه لاستخراج الجبس شمال جدة. وأعلن المرسوم الملكي الذي أصدره فيصل في هذا الصدد أن شركة المقاولات «وجب عليها عدم التأخير»، إلا أن بن لادن «تملص» من مسؤولياته[١١].

إن خير مثال على عجز بن لادن عن تسليم المشروعات في أوقاتها المحددة هو أداؤه في الطريق الجبلية الممتدة لخمسة وأربعين ميلًا للربط بين مكة المكرمة ومدينة الطائف، المنتجع الذي يجذب كل من يريد قضاء عطلة من العائلة المالكة. كان الطريق يبدأ من الأرض الرملية المستوية التي تقع بالقرب من البحر الأحمر، وكان ينعطف في أحضان الجبال الشاهقة مفتتة الصخور التي تخلو من الأشجار ويبلغ ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم. ولعشرات السنين كانت الحمير والجمال الوسيلة الوحيدة لقطع

---

(١٠) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/3567 Jeddah to Washington, May 9,1963.

وأيضًا من نفس المصدر السابق: Jeddah to Washington, June 11, 1963.

(١١) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2810 Jeddah to Washington, August 1, 1962.

هذه المسافة، وكانت تلك هي الطريقة التي كان يسافر بها فيصل وقافلته الملكية عادة خلال حكم الملك عبد العزيز. وطبقًا لإحدى الروايات السعودية المعاصرة يُعد فيصل صاحب فكرة تمهيد الطريق. وأعلن مهندسو ألمانيا الغربية أنها مهمة خطيرة بسبب ضرورة تفجير ما يقرب من ثلاثين نفقًا من خلال الجبال، وإزالة كميات هائلة من الأنقاض، بالإضافة إلى استفحال المشكلات العويصة التي تكمن في تعبيد الطريق. كان الألمان يأملون في الفوز بالعملية لكنهم خشوا الخسارة أمام «العطاءات المنخفضة» التي تقدمها شركة المقاولات المحلية التي سوف تستخف بالتكاليف ودرجة صعوبة تنفيذ المشروع(١٢).

كان لمخاوفهم ما يبررها، إذ أصر بن لادن ـ كعادته ـ على قدرته على تنفيذ المهمة، وحصل على صفقة تزيد تكلفتها عن عشرة ملايين دولار عام ١٩٥٩م، وتعهد بأنه سينهي العمل في بداية عام ١٩٦١م. ومع ذلك حان موعد التسليم ولم يكن قد أنهى المهمة، وعندما حضر فريق عمل في التلفزيون السويسري في أواخر صيف هذا العام لتصوير عمله، وجد بن لادن وعمّاله عالقين في جزء منحدر من الجرف الذي يبعد عن غرب مدينة الطائف باثنتي عشر ميلًا. ووجدوا كبار العمال الإيطاليين والمصريين يصيحون من أعلى البلدوزرات وأوناش التعبيد الألمانية والأمريكية، ولكن تبين أنه لا يزال أمامهم طريق طويلة لإنهاء المشروع. ومرت الشهور واحدٌ تلو الآخر، ولم يكمل بن لادن الطريق. واستُنفدت كميات مهولة من الديناميت لحفر الأنفاق وتفجير جوانب الجبال. وكان الطريق يبعد عن جدة بمسافة قصيرة، وبالنسبة إلى أبناء محمد بن لادن الصغار، كان موقع العمل هذا موقع تفجيرات اعتادوا أن يبعث في نفوسهم الشعور بالمتعة والإثارة، لنسف الجبال هذه المرة(١٣).

---

(١٢) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الألمانية: Ger FO 277/564-2912/56 Jeddah to Bonn, July 28, 1956.

(١٣) استنادًا إلى المقال الذي نُشر في صحيفة: *Saudi Weekly*, July 24, 1961
حيث وصفت زيارة طاقم التلفاز السويسري ونشرت صورًا لموقع البناء قرب الطائف. المقصوصة التي نشرتها تلك الصحيفة موجودة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2810 Jeddah to Washington, August 14, 1961.

ظل بن لادن يعمل في الموقع نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات. وبين الحين والآخر يستضيف سعودًا أو فيصلًا في ولائم على جانب الطريق، ويسحب أمامهم خرائط لوصف عجائب الهندسة التي ينفذها، إلا أن الحقيقة الواقعة تمثلت في تخلف بن لادن عن الالتزام بجدول العمل، ولم يكن بمقدور أحد التأكد من جودة الطريق التي سيسلمها في النهاية.

طبقًا لإحدى الروايات تجادل فيصل وابن لادن بخصوص المشروع، وأصر بن لادن على أنه من منطلق اعتزازه بنفسه عليه أن ينهي ما بدأه حتى لو اضطر أن يدفع غرامات لإتمامه من حسابه الخاص. وهذا تلميحٌ لسعي هذا الرجل لصنع أسطورة لنفسه، إلا أن المؤكد أن العلاقة بين فيصل وابن لادن كانت مشوبة بالتوتر في هذه الفترة، وربما اضطر بن لادن إلى تحمل خسائر كبيرة بسبب تأخيره عن التسليم. فعن طريق منح بن لادن العمولات للعائلة المالكة وتابعيها وإشراكهم معه في العوائد، استطاع في مستهل الأمر أن يحرز النجاح ويؤمن مركزه بينهم. أما فيصل الذي كان أقل الأمراء السعوديين ذوي الشأن فسادًا، فالأمر مختلف للغاية حيث لم يكن المال هو شغله الشاغل، بل إن ما شغله كثيرًا هو ذلك الاعتماد المفرط على بن لادن، حسبما يتذكر هيرمان إيلتس الذي تعامل مع الرجلين حال عمله سفيرًا أمريكيًّا في المملكة خلال ستينيات القرن العشرين. وأدرك فيصل أن بن لادن ليس دقيقًا في الأحوال كافة دقة نظرائه الألمان أو السويسريين، إلا أنه عمل في المملكة بتفان لردح من الزمن «والمهم أن تُشيد الطرق». إلى جانب ذلك كان فيصل يشعر «بنوع من الاعتزاز القومي» إذ إنه أمام كل التحديات الفنية العسيرة في مشروع مثل طريق الطائف، كانت «شركة سعودية هي التي تنفذ المهمة». وكان كلاهما ـ فيصل وابن لادن ـ جادًّا في العمل وورعًا ويكرّس كل ما في وسعه لتطور المملكة العربية السعودية. والمشكلة بينهما مصيرها إلى الزوال، وستزداد قوة تحالفهما بتعزيز فيصل سلطته خلال ستينيات القرن العشرين[١٤].

---

(١٤) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع خالد باطرفي في ١٩ فبراير/ شباط ٢٠٠٥م، وأيضًا المقابلة التي أجريت مع هيرمان إيلتس Hermann Eilts في ٢٩ مارس/ آذار ٢٠٠٦م.

أضحى إخلاص بن لادن للمملكة العربية السعودية موضع نقاش بصفة خاصة بعد أواخر عام ١٩٦٢م، عندما أثار جمال عبد الناصر ثورة قومية عربية في اليمن، ثم تدخل في تلك الدولة وأرسل عشرات الآلاف من القوات المصرية مشعلًا فتيل حرب يهدف في نهايتها إلى توريط المملكة العربية السعودية بها. كثّف جمال عبد الناصر برامجه الإذاعية والتلفزيونية الترويجية للهجوم على آل سعود، وشن هجمات جوية بالقنابل على الأراضي السعودية، وأسقط على ساحل البحر الأحمر ما يربو عن مئة حزمة من الأسلحة من أجل تشجيع التمرد، بالإضافة إلى أنه تآمر مع الأمراء السعوديين المؤيدين للإطاحة بالحكومة في الرياض. وكانت هذه الأزمة التي استمرت سنوات طوالًا وتجلت بعد تدخل جمال عبد الناصر في اليمن أكثر التهديدات الخارجية خطورةً أمام المملكة السعودية الحديثة. وفي الوقت الذي وضع فيه فيصل استراتيجية للخروج من هذا المأزق، استعان بشركة بن لادن مرة أخرى وأسطولها الضخم من معدات البناء كآلياتٍ للدفاع السعودي والسياسة الخارجية؛ لتوفير كل ما تفتقر إليه المملكة من معدات ثقيلة وخدمات هندسية.

في مستهل الأمر اعتبر الرئيس جون كينيدي جمال عبد الناصر زعيمًا مجددًا ربما باستطاعته انتشال مصر من الفقر من دون الخضوع للشيوعية السوفياتية. ومن ثَم ضاعف كينيدي المساعدة الأمريكية الممنوحة إلى نظام عبد الناصر في مصر، وحتى بعد أن تدفقت القوات المصرية إلى اليمن وقذفت المدن السعودية بالقنابل، حثّ كينيدي فيصل على التحلي بالصبر بينما تحاول أمريكا التفاوض للتوصل إلى تسوية بين الطرفين. وكانت هذه الاستراتيجية تنطوي على المخاطرة بل قصر النظر، إذ بدا أن الحكومة السعودية ستنهار بممارسة عبد الناصر الضغط عليها. وبدأ الملك سعود في مغازلة موسكو جديًا وازدادت شخصيته تقلبًا. واكتشفت وكالة الاستخبارات الأمريكية أن التجار السعوديين بدؤوا في تحويل أموالهم إلى لبنان لحماية أنفسهم من الأزمة التي تعصف بالبلاد. وغادرت مجموعة أطلقت على نفسها «الأمراء الأحرار»، وعلى رأسهم طلال بن عبد العزيز، ذو النفوذ في ذلك الوقت، إلى بيروت واعتبروا البلد منفًى لهم، وعقدوا مؤتمرًا صحفيًا لإعلان عتق رقاب العبيد الموجودين في

منازلهم. وبذلك أعلن الأمراء عن أنفسهم بطريقة ضمنية باعتبارهم حكومة سعودية تقدمية في المنفى. وشن فيصل حملة شعبية موسعة في المملكة لتحسين صورة حكومته، فحظر العبودية وعتق رقاب الخدم الذين يعملون في قصره، وحذا محمد بن لادن حذوه ممّا اضطر الحكومة السعودية إلى تعويضه عن عتق هذه الرقاب. وأمر فيصل بإقامة رالي سيارات في جدة وقاد سيارته المكشوفة بنفسه وجاب شوارعها الرئيسة. وترأس ولي العهد مهرجانًا للغناء والرقص واتخذ شعارًا بأسلوب الحملات الانتخابية يقول: «كلنا إخوة!»[(١٥)].

في بداية عام ١٩٦٣م بلغت فيصلًا أخبار بأن الطائرات المصرية أسقطت غازًا سامًّا على قوات المعارضة في اليمن التي تساندها السعودية وعلى مدينة نجران السعودية التي تقع بالقرب من حدود اليمن. وبينما كانت إدارة كينيدي تنصح بالتحلي بطول الأناة، فقد فيصل أعصابه وصاح في وجه وفد مفوض من واشنطن وقال عن عبد الناصر: «إنه شخص بغيض، ورغباته شريرة». واستطرد قائلًا إن العائلة المالكة السعودية: «فتحت حساباتنا في البنوك السويسرية وغيرها من البنوك، ومنحت عبد الناصر تفويضًا بأن يسحب أي مبالغ بالدولار والإسترليني»، ولم يقنع بكل ذلك:

ماذا يريد هذا الرجل أكثر من ذلك؟ من الواضح أنه لا يريد نفطنا، كما يقول البعض، ولا أموالنا لأنه عندما كان صديقًا كان مسموحًا له باستغلاله ولكنه لم يفعل. ومن ثَم من الواضح جليًّا أنه يريد إرضاء طبيعته الشريرة وروحه الثورية؛ إنه يريد أن يسحقنا. . . وإن ظننت أن بإمكانك إعادة عبد الناصر ـ بالخداع أو بالملاطفة ـ ليعود إلى درب الحكمة والعقلانية، فإنك مخطئ بكل تأكيد. والأسلوب الوحيد الذي يمكنك استخدامه لدفع عبد الناصر إلى الاستماع إليك أو تغيير وجهة نظره هو

---

(١٥) استنادًا إلى تقرير وكالة الاستخبارات الأمريكية: Bronson, *Thicker Than Oil*, p. 83.
حيث ذكر أن محمد بن لادن كان لديه عبيد وأعتقهم وعُوِّض عن ذلك، وهذا استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع كارمن بن لادن في ٦ أغسطس/ آب ٢٠٠٤م. وأيضًا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4033-4 Jeddah to Washington, April 25, 1963.

القوة المفرطة. . . إنني أعرفه أكثر ممّا تعرفونه، لكوني صديقه المقرب في الماضي(١٦).

سيغيّر كينيدي وجهة نظره في نهاية المطاف، ولكن في ذلك الوقت استعان فيصل بابن لادن من أجل تعزيز الحدود الجنوبية لمملكته. وفي خريف هذا العام سحب فيصل عقود تشييد الطرق والبنية التحتية من إدارة الطرق السريعة وأعطاها بالأمر المباشر إلى بن لادن. وقال فيصل إنه سوف «يعتني شخصيًّا» بتشييد الطرق في منطقة الحرب، بمساعدة بن لادن. وعندما سافر المفتشون السعوديون جوًّا إلى الجنوب لمراقبة الأعمال التي يتولاها بن لادن، وجدوها غير مطابقة للمواصفات، بينما أبلغهم بن لادن «أنه هو ـ وليست إدارة الطرق ـ من سيقرر» كيف سيتقدم العمل. وذكر كبير المهندسين في الإدارة أن أعمال بن لادن على الحدود اليمنية ما هي إلا «تكرار للفشل الذريع ـ ولكن على نطاق أضيق ـ لما حدث في تشييد الطريقين السريعين الحديثين المؤديين إلى شمال وجنوب المدينة المنورة»، ولكن لم يكن بيده شيء إزاء «التدخل الملكي في العمل»(١٧).

ذكرت السفارة الأمريكية أنها تعتقد أن فيصلًا اتجه إلى بن لادن «لضمان الإنجاز السريع لما اعتبره على الأرجح مشروعًا حيويًّا للدفاع عن المملكة العربية السعودية»(١٨). كما إن علاقات بن لادن الشخصية في اليمن ستجعله رمزًا جديرًا بالثقة محليًّا؛ حيث إنه يحشد القوة العاملة ويشرف على عمليات البناء بنفسه. وكانت تلك هي بداية سلسلة العقود الخاصة التي طلب فيصل بمقتضاها من بن لادن تشييد البنية التحتية من أجل الدفاع عن المملكة العربية السعودية ضدّ تبعات حرب العصابات

---

(١٦) نفس المصدر السابق: Jeddah to Washington, February 18, 1963.
وجه فيصل سؤالًا إلى الوفد الأمريكي قائلً: «ماذا أنتم فاعلون بهذا الشأن يا أصدقاء؟. . . نحن ملتزمون بنصيحتكم وأوفينا بعهدنا «وطوينا أيدينا». . . إلى متى تعتقدون أننا سنستمر على هذا النحو. . . إلى متى يمكنني أن أواجه شعبي بهذا النوع من السلبية واللامبالاة؟».

(١٧) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/3567 Dhahran to Washington, September 10, 1963.

(١٨) نفس المصدر السابق.

الدائرة في اليمن. واضطر عمال بن لادن في بعض الأحيان إلى العمل في مناطق تتعرض للقصف المباشر. ولاحقًا، لحق بابن لادن في المنطقة فيلق المهندسين التابع للجيش الأمريكي الذي ركب بطاريات صواريخ أمريكية وبريطانية الصنع ـ بالإضافة إلى البنية التحتية العسكرية ـ عند الحدود الجنوبية. وهذا دورٌ سوف تؤدّيه عائلة بن لادن لمصلحة آل سعود بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية لسنوات طويلة لاحقة.

الفصل السابع

رجلٌ عصري

تغير المشهد الأخير في الصراع الدائر بين فيصل وأخيه سعود غير الشقيق بوقوع مهزلة مروعة. أصابت الكحوليات معدة سعود في مقتل ونتج منها نوبات من النزيف الداخلي، ومع ذلك لم يستطع الإقلاع عنها. واضطر مساعدوه إلى استخدام رافعة لنقله على متن طائرته الملكية من طراز دي هافلاند كومت. وشرع الملك وحاشيته في إجراء جولة بين أجنحة المستشفيات الأمريكية والأوروبية؛ لإجراء جراحات في عينه لإصابته بالمياه البيضاء وجراحات أخرى في معدته في بوسطن بعد أن دفعت شركة أرامكو ثلاثة ملايين ونصف دولار مقدمًا لإجرائها، ثم ذهب إلى مدينة لوزان في سويسرا لتلقي العلاج، ومنها إلى نيس لقضاء فترة النقاهة، وبعدها استقر فترة طويلة في إحدى مستشفيات فيينا. وبين الحين والآخر كان سعود يفكر و يتحدّث بعقلانية سمحت له بالتخطيط للعودة إلى الحكم، فاستشاط فيصل غضبًا لدرجة أنه لم يعد يذكر اسم سعود. وقرر سعود أن يسلح نفسه، فهرب الأسلحة إلى قصر الناصرية لتسليح أبنائه وحراسه، إلا أن فيصل حشد الحرس الوطني والجيش ضده. واتفق سائر أفراد العائلة على أن تصرفات سعود لا يمكن تحملهما أكثر من ذلك في ظلّ أجواء حرب غير معلنة على مصر كان لا بد من التعامل معها[1].

---

(١) استنادًا إلى: Forklift: DOS 59/2810 Dhahran to Washington, December 5,1962

يشير تقرير وزارة الخارجية الأمريكية أن أرامكو دفعت ٣,٥ مليون دولار، راجع: Holden and Johns, *The House of Saud*, p. 218.

كعادتهم اعتمد آل سعود على هيئة كبار العلماء في المملكة لإضفاء الشكل الشرعي في غمرة استعدادهم لاتخاذ قرار مصيري. وفي اليوم الثالث من شهر نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٦٤م، أصدرت هيئة كبار العلماء فتوى أذيعت على راديو مكة تقضي بخلع سعود وتنصيب فيصل خليفةً له. واستغرق الأمر شهورًا كي يتقبل سعود مصيره ويذهب إلى المنفى، الذي كان مقره في اليونان في مستهل الأمر، ثم إلى مصر في ما بعد، ليتحد مع جمال عبد الناصر ضدّ وطنه. ومن المرجح أن ما كان يخفف من إحباطه نتيجة إجباره على التنازل عن العرش هو حساباته المصرفية؛ إذ قدرت السفارة الأمريكية ـ مستشهدةً بمصادر في البنك المركزي السعودي ـ ثروة سعود في المنفى بمئة مليون دولار نقدًا وثلاثمئة مليون دولار في صورة أوراق نقدية مستثمرة[٢].

بعد ذلك بسنوات روّج بعض أفراد عائلة بن لادن سرًّا قصصًا توحي بأن لمحمد بن لادن دورًا مهمًّا في إقناع سعود بالتخلي عن عرشه، ويبدو واضحًا أن الهدف من وراء هذه القصص هو استكمال الأسطورة. فقد ذكر تركي ـ ابن فيصل ـ أن فكرة تأدية بن لادن أي دور في تنازل سعود عن عرشه «ليست صحيحة على الإطلاق» واستطرد: «كان الرجل كفئًا. . . في مجال البناء والإنشاءات فقط، وعندما توكل إليه مهمة ما، تجده حريصًا على القيام بها بناءً على أوامر يصدرها الملك أيًّا كان». وطبقًا لما جاء في تقييم أمريكي عام ١٩٦٥م، من شارك في قرار الإطاحة بسعود «هم عدد صغير جدًّا من صناع القرار»، منهم «أمراء بعينهم في آل سعود وعدد قليل من هيئة كبار العلماء، ولم يُؤخذ برأي أي أطراف أخرى». أما في ما يتعلق برجال الأعمال مثل بن لادن، فإن:

العائلات التجارية الكبيرة المتمركزة في الحجاز تتمتع بنفوذ اقتصادي يحمل بين طياتها درجة محدودة من التأثير السياسي. ولا يتطلع هؤلاء التجار في الوقت الحالي إلى اللحاق بركاب صناعة القرار والتدخل في أوساط العائلة المالكة، بل إنهم يشعرون حاليًا برضى كامل عن أداء

(٢) المعلومات عن ثروة سعود في المنفى واردة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS RG 59/2472Jeddah to Washington, May 7, 1967.

حكامهم. . . ولضمان استمرار وتيرة المصالح المشتركة هذه، إما أن تنقل العائلات التجارية البارزة أحد أفرادها إلى الرياض ليكون على مقربة من أوساط صناعة القرار المتعلقة بالعقود الحكومية، أو تختار أحد أفرادها من أجل متابعة مصالحها. . . عن طريق استقطاب شركاء من العائلة المالكة وبالرشوة إذا تطلب الأمر[٣].

أضحت سلطات فيصل غير قابلة للنزاع الآن، إلا أن المملكة التي ورث عرشها كانت غارقة في الفقر والتخلف. وبينما شهدت عائدات النفط ارتفاعات ثابتة على مدى زهاء عقدين من الزمان، فإن آل سعود لم يفعلوا شيئًا ملحوظًا لتحسين أحوال كثير من رعاياهم؛ إذ لم تكن معدلات المعرفة بالقراءة والكتابة تزيد عن ١٠ في المئة، ولم تكن الغالبية العظمى من الأطفال في سن الدراسة تتمتع بالحق في التعلم. أما عن المدارس القليلة التي فتحت أبوابها لنشر العلم، فكانت لا تزال تركز على تحفيظ القرآن الكريم والمناهج الدينية الأخرى في منهج الصف الثالث؛ افتتح فيصل أول أكاديمية مهنية في المملكة بحلول عام ١٩٦٢م. وكانت الأمراض متفشية، إلى جانب تدني مستوى الصحة العامة، ولم تكن مياه الشرب النظيفة متوفرة على نطاق واسع، وكان كل أربعة من بين كل خمسة سعوديين مصابين بالتراكوما، وهو المرض نفسه الذي لم تنج منه عين الملك سعود[٤].

كان السكان البدو في المملكة يأنفون من العمل اليدوي والوظائف الفنية المكتبية، مفضلين حرية العمل الخاص لحسابهم كسائقي شاحنات وسيارات أجرة. ومن ثَم عانت المملكة نقصًا في القوة العاملة الأساسية حتى في ظلّ معدلات البطالة المرتفعة. (وكانت تلك هي الفجوة التي ساعدت معسكرات بن لادن الصحراوية الشاسعة في سدها من خلال العمال المهاجرين متعددي الجنسيات.) سعى فيصل إلى اتباع منهج إسلامي

---

(٣) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع تركي الفيصل في ٢ أغسطس/ آب ٢٠٠٢م. وأيضًا تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2642, «The Power Structure in Saudi Arabia,» Jeddah to Washington, March 23, 1965.

(٤) استنادًا إلى: Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia*, pp. 121-122.

وأيضًا: *House of Saud*, op. cit., pp. 257-258.

عصري ومجدد متأثرًا في ذلك بفكر جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو زعيم الهند، إلا أنه افتقر إلى الطبقات المتعلمة التي خلفتها الإمبراطورية البريطانية من موظفين مدنيين وعسكريين وتقنيين في كل من الهند ومصر. وفي المستقبل القريب سيكون للأجانب من أمثال بن لادن والمقاول اللبناني رفيق الحريري أدوارٌ عظيمة جنبًا إلى جنب مع العائلات النجدية القليلة التي اتجهت إلى مجال الإعمار.

بعد مرور ست سنوات من الجهد المضني، أنهى بن لادن أخيرًا العمل في الطريق المحفوف بالمخاطر الذي يربط بين مكة المكرمة ومدينة الطائف. وخلال الأيام الأولى من شهر يونيو/حزيران من عام ١٩٦٥م، شهد الملك فيصل وكبار الأمراء والدبلوماسيون ونبلاء جدة ـ الذين جلسوا أسفل مظلات في استراحة خلابة المنظر ـ الاحتفال بالإنجاز الذي أحرزه بن لادن. واستضاف مراسلو الإذاعة الحكومية بن لادن للإدلاء بأحاديث، وافتتح الملك الطريق الجبلي «افتتاحًا رسميًّا» ـ طبقًا لوصف أحد ضيوف الحدث ـ «وسط صخب إعلامي كبير»[٥].

إن استعادة بن لادن لسمعته الشعبية يعود إلى حالة الطوارئ المقترنة بالحرب وبإصراره على النجاح اللذين أعادا له مكانته السابقة كأحد المحاور التي لا يمكن الاستغناء عنها في مشروع النهضة. وشأنه شأن ملكه الجديد ـ ملكه الثالث الذي عكف على خدمته ـ سيفعل كل ما في وسعه ليكون من دعائم الإسلام ورجلًا عصريًّا.

أراد بن لادن أن يتمتع أبناؤه ـ وليس بناته ـ بالتعليم الرسمي الذي لم يحْظَ هو به مطلقًا. وفي رحلات العمل التي قام بها بن لادن إلى لبنان وسوريا ومصر، زار المدارس الداخلية المتطورة في هذه الدول العربية في الفترة التي تلت استعمارها. وقرر في مرحلة مبكرة في خمسينيات القرن العشرين الاستفادة من ثروته في تعليم كثير من أبنائه خارج المملكة العربية السعودية. وكان لأمهات الأبناء دورٌ أيضًا في تحديد آفاق تعليم أبنائهن وأماكن تلقيهم التعليم. وبحلول منتصف ستينيات القرن العشرين، كان

---

(٥) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2642 Jeddah to Washington, August 31, 1965.

لمحمد بن لادن ما يزيد عن عشرين ابنًا يعيشون مع أمهاتهم في منازلهم المتناثرة من القاهرة حتى مجمعه السكني المحاط بالأسوار في وسط مدينة جدة. ألحقت زوجة محمد المصرية، التي أنجب منها خالدًا وعبد العزيز، ابنيها في مدارس قاهرية، بينما التحق كثير من أبنائه الآخرين، مثل بكر وعمر ويحيى، بمدارس في سوريا، بيد أن العدد الأكبر من أبنائه التحقوا بمدارس داخلية في لبنان(٦).

يتذكر يسلم ـ أحد أبنائه المقيمين في لبنان ـ نقله على متن طائرة متجهة من جدة إلى بيروت وهو في السادسة من عمره من دون أن يفهم سبب إرساله بعيدًا عن الوطن. فصرخ مذعورًا في أثناء الرحلة الجوية ولم يرَ أمه مرة أخرى لمدة عام، وهو ما جعله عرضةً لنوبات هلع وخوف من ركوب الطائرات استمرت معه حتى الكبر(٧). وفي لبنان أمر محمد بن لادن أن يلازم أبناءه حارسٌ مخصص لهم، يُدعى نور بيضون، الذي كان يدير شركة رحلات متواضعة. وهناك التحق الأطفال بمدارس مختلفة وكثيرة، وآل الحال بالكثيرين في مستهل الأمر بتحصيل العلم في مدرسة للتعليم الثانوي مبنية بالحجارة المربعة، تُدعى مدرسة المتن الشمالي الثانوية، التي تقع في قرية درزية هادئة بعيدة عن إغراءات وصخب بيروت.

كانت مصروفات التعليم تبلغ زهاء ألف وخمسمئة دولار لكل صبي مقابل الإقامة الكاملة على مدار تسعة أشهر، إلى جانب مصروفات إضافية في الفصول الدراسية الصيفية، وهي مبالغ مالية مفرطة طبقًا للمعايير السعودية وقتئذٍ. وكان مدير المدرسة يسافر مرات عديدة على مدار العام إلى جدة جوًّا لتحصيل المصروفات نقدًا، ويذكر لنا أن محمد بن لادن «كان يريد شخصًا يعلمهم الدين»، وهو الأمر الذي لم يكن متوفرًا بشكل متميز في المدارس اللبنانية، ولذا عين المدير مدرسًا سوريًّا للدين الإسلامي لتعليم القرآن لأبنائه خاصة. إضافة إلى ذلك، كان بن لادن

---

(٦) وهذا استنادًا إلى مقابلات أُجريت مع عدد من الأصدقاء والموظفين وشركاء بن لادن في كل من لبنان ومصر بما فيها المقابلة التي أُجريت مع نديم بو فخر الدين، المدير السابق لمدرسة المتن الشمالي الثانوية في ٢٦ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م.

(٧) من مقابلة مع يسلم نشرتها الصحيفة البريطانية **إيفيننغ ستاندارد** *Evening Standard* التي يقع مقرها في لندن بتاريخ ٢٦ مايو/ أيار ٢٠٠٦م.

يتجنب منح أطفاله «كثير من الأموال لئلا يفسدوا». وطلب من مدير المدرسة شراء الملابس المطلوبة للأبناء وإعطائهم مبالغ صغيرة من دون إفراط. وبالفعل وفرت لهم المدرسة قدرًا طفيفًا من الرفاهية بما فيها رحلات في نهاية الأسبوع إلى سباقات السيارات المعدلة في بيروت والرحلات الصيفية إلى المنتجعات الساحلية(٨).

كان أبناء بن لادن ينظرون إلى أبيهم كشخص غريب عنهم، يبدو صارمًا، بل مهيبًا. وكان محمد يجمع أبناءه معًا مرات عديدة على مدار العام عندما يعودون إلى الوطن في فترة الإجازة. وبأسلوب العائلة المالكة وكثير من العائلات السعودية المقتدرة، يستقبل بن لادن أبناءه في الديوانية، وهي ساحة منفصلة عن المنزل يجلس فيها الجميع متكئين على وسائد على الأرض المكسوة بالبُسُط. وكان بن لادن يتبوأ متكئًا في صدارة الجلسة، ويجلس حوله الأبناء بامتثال، يصبون القهوة للضيوف الكبار أو يبلغون والدهم عن أخبارهم، فإما يبدي إعجابه أو يلقي عليهم التعليمات. ويتذكر يسلم قائلًا: «كنا جميعًا نخاف منه، إذ ربما يعاقبنا أو يحتجز أحدًا منا»(٩).

كان بن لادن يركز بشدة على الاقتصاد في الإنفاق، والعمل، والتقوى فضلًا عن الاعتماد على الذات. بيد أنه أراد أن يُعد أبناؤه أنفسَهم لأن يرثوا شركته، وأدرك بن لادن أن الأمر يتطلب تدريبهم تقنيًّا بشكل يفوق ما تلقاه. ويتذكر ولده عبد الله قائلًا: «ربانا أبونا بما يتوافق مع الأعراف السائدة (ولكنه) كان يركز على أن ننال من التعليم قدرًا» لم يتمكن هو من اكتسابه(١٠).

لم يكن محمد بن لادن صارمًا طوال الوقت أو مفتقرًا إلى روح الفكاهة؛ إذ عندما عبّر ابنه الصغير ـ شفيق ـ عن رأيه بوقاحة للمطالبة بمصروفاته، امتدح والده جرأته. وكان يأخذ أبناءه إلى معسكرات العمل في

---

(٨) استنادًا إلى مقابلة أجريت مع فخر الدين، نفس المصدر السابق.

(٩) استنادًا إلى نفس المصدر السابق في جريدة **إيفيننغ ستاندارد**.

(١٠) من مقابلة مع عبد الله نشرتها الصحيفة البحرينية **الأيام** بتاريخ ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١م.

الصحراء، وكان يسمح لهم بقيادة ماكيناته الكبيرة الرائعة. كما كان يلفت انتباههم أيضًا إلى أهمية العبادات وعظمة الدين الإسلامي، وكان محمد يصلي بخشوع بالغ آملًا أن يحذو أبناؤه حذوه. وفي كل موسم للحج كان بن لادن يتفاخر باستضافة أعداد هائلة من علية القوم في خيمة عائلية مجهزة تجهيزًا تامًّا، وكان هذا المشهد نسخة سعودية من مشهد آخر استُحدث لاحقًا في الأحداث الرياضية الغربية حيث كان مديرو الشركات التنفيذيون يستضيفون العملاء والأصدقاء في أجنحة فخمة في الإستادات الرياضية. وكثيرًا ما كان أبناء محمد بن لادن ينضمون إلى أبيهم في مكة لأداء فريضة الحج؛ حيث كان أبناؤه الكثيرون ذوو الطلعة الحسنة الذين يزدادون نضوجًا ينتقلون من مكان إلى آخر في خيمة العائلة، وكان وجودهم إلى جانب محمد يزيده تيهًا وشرفًا بصفته كبير العائلة.

كان محمد يولي عناية خاصة بأبنائه الأكبر سنًّا، وجرت الأمور المتعلقة بالتوريث في عائلة تجارية مثل عائلة بن لادن على نحو مشابه للتوريث في العائلة المالكة حيث من المسلَّم به في هذه الأحوال تفضيل الأبناء الأكبر عن غيرهم الأصغر منهم، مع وجود قدر من المرونة حتى يتحمل الأقدر منهم المسؤولية على كاهله. وخلال ستينيات القرن العشرين بدا أن اثنين من أبناء محمد، سالمًا وعليًّا، هما الابنان المفضلان لدى والدهم. وكان علي هو الابن الوحيد لزوجة تزوجها بن لادن في مرحلة مبكرة من عمره، ولم يحظَ بالتعليم في المدارس الداخلية الرائعة الذي ناله إخوانه غير الأشقاء، ويبدو أن والده اختاره ليعمل معه عن قرب في المواقع الميدانية. ومع ازدياد حجم مشروعات البنية التحتية المرتبطة بالحرب بالقرب من اليمن، تولى علي إدارة مكتب الشركة الإقليمي في الطائف، ويا له من دور عظيم. وكان علي شابًّا نحيف القوام، داكن البشرة، ولم يكن يقضي وقتًا طويلًا مع إخوانه. وإن كان علي يبدو أنه الابن الذي اختاره أبوه ليصبح مسؤولًا عن إدارة عمليات معسكرات البناء والأيدي العاملة الهائلة للشركة، فليس هناك شك فيمن كان سيدربه محمد ليصبح رئيس مجلس إدارة الشركة والمسؤول التنفيذي، وهو من سيرث الدور التسويقي والسياسي المحوري الذي قام به محمد على خير وجه طوال حياته، وكان له الفضل في نيل استحسان العائلة المالكة.

إنه سالم بكل تأكيد، الابن الأكبر لمحمد من فاطمة باحارث[١١].

خلال أواخر خمسينيات القرن العشرين وبداية ستينياته، دأبت بعض الأسر المتحررة من آل سعود على إرسال أبنائها إلى أمريكا وبريطانيا لتلقي التعليم الثانوي والحصول على الدرجات الجامعية من باب مجاراة العصر. فأرسل فيصل أولاده إلى جامعتي برنستون وجورج تاون وجامعات أخرى لتحصيل العلم. وأدرك بن لادن ببصيرته أن المملكة العربية السعودية مقبلة على مستقبل زاهر في عهد فيصل، وكي تحتفظ عائلته بالوضع التي تتمتع به حاليًّا، يتحتم على أبنائه أن يتمتعوا بالأدوات التي تمكِّنهم من التعامل مع قاطني قصور الرياض، وهم أبناء فيصل الذين يتحدثون اللغة الإنكليزية بطلاقة والحاصلين على شهادات من أعرق الجامعات. أما بن لادن نفسه، فلم يكن يتحدّث إلا بكلمات إنكليزية لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، وبينما كان دائم السفر إلى العواصم العربية، فيبدو أنه نادرًا ما ذهب إلى أوروبا، أو بالأحرى لم يسافر إليها مطلقًا. وفضّل بن لادن أن يظل معظم أبنائه في شبه الجزيرة العربية أو في دول المشرق العربي المجاورة، حيث يوجد الحراس وأمهات الأبناء والأقارب المخلصون الآخرون بالقرب منهم إذا حدث أي مكروه لهم. بيد أن الوضع بالنسبة إلى سالم كان استثنائيًّا، إذ أرسل محمد وريثه وولي عهده المنتظر إلى مدرسة داخلية في إنكلترا لينال تعليمًا بريطانيًّا متميزًا.

بذلك شرع محمد بن لادن في دمج عائلته التي تنحدر أصولها من شبه الجزيرة العربية في الحياة الغربية.

تولى رسمي عبد الله ـ الطاعن في السن الذي يقيم في لندن وتعود أصوله إلى شبه الجزيرة العربية ـ رعاية سالم في إنكلترا ونسق أمور دراسته هناك. ويبدو أن سالمًا وصل إلى بريطانيا خلال أواخر خمسينيات القرن العشرين، أي في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تقريبًا، ويُرجح أنه التحق في مستهل الأمر بمدرسة داخلية إنكليزية للمتفوقين في سومرست، تُدعى مدرسة ميلفيلد. وذكر سالم لأحد أصدقائه وشركائه في العمل لاحقًا

---

(١١) المعلومات عن ظهور علي ودوره مستقاة من عدة مقابلات مع أصدقاء وموظفين من العائلة بما في ذلك مقابلة أُجريت مع موظف قابل عليًّا في الطائف مع محمد في عدة مناسبات في أثناء تلك الفترة.

أن الصورة التي لا تغيب عن مخيلته من هذه المدرسة هي لمعلمة موسيقى درّست له الترانيم المسيحية التي أشار إليها سالم بـ «الغناء الجماعي». ومما لا يدعو إلى الدهشة أنه لم يستمر في مدرسة ميلفيلد وقتًا طويلًا بسبب عدم إعداده الكافي لها. وفي وقت ما قرابة عام ١٩٦٠م، انتقل سالم إلى مدرسة كوبفورد غليب الداخلية الخاصة للبنين التي كانت أصغر كثيرًا وأقل شهرةً من المدرسة الأخرى، والتي تقع في مقاطعة إسيكس القريبة من مدينة كولشستر. وظل سالم في المدرسة لسنوات طويلة، وبلغ سن الرشد في بيئة لا تمت بصلة إلى محيط العمل، ولكنه كان يتلقّى التعاليم الإسلامية على يد والده ما إن يعود إلى الوطن[١٢].

تقع المدرسة في نهاية درب حجري يشق الحقول الخضراء المنحدرة نوعًا ما. وكانت هذه المدرسة سابقًا مقر أبرشية أحد الوزراء، وكان المبنى الرئيس مكونًا من ثلاثة طوابق مطلية باللون الأبيض مبنية على الطراز الجورجي، وتحيط به أكواخ صغيرة وبعض العربات المقطورة التي جُرت إلى المكان جرًّا لتُستخدم كفصول دراسية. ولم يكن في المدرسة خلال السنوات التي كان سالم ملتحقًا بها سوى قرابة أربعين طفلًا؛ نصفهم تقريبًا من بلاد ما وراء البحار، ونُقل النصف الآخر من المدارس الإنكليزية الأفضل. وكان من بين زملاء سالم في الفصل أحد أقارب مساعد رئيس البوليس السري الإيراني، ونجل مؤسس دولة ليبيريا، بالإضافة إلى صبي ينتمي إلى أسرة ثرية من إسطنبول، ووريث عائلة برتغالية كانت تعمل في تجارة السلاح. ومن بين زملائه أيضًا روبرت آرميتدج الذي انتقل من مدرسة إيتون للالتحاق بهذه المدرسة، وكان هذا الصبي يرى أن هذه المدرسة «نسخة مقلَّدة لمدرسة إنكليزية. . . توحي بالفوضى على نحو سخيف بسبب وجود كل هؤلاء المختلين عقليًّا في المكان»[١٣].

---

(١٢) هناك بعض الشكوك حول ما إذا كان سالم قد حضر في مدرسة ميلفيلد قبل حضوره في مدرسة كوبفورد غليب أو بعده. قال بعض زملاء الدراسة السابقين في مدرسة كوبفورد في عدة مقابلات أنه درس في مدرسة ميلفيلد أولًا، ولكنه لم يستمر بها طويلًا، بيد أن أحد زملاء العمل ذكر أنه قد يكون درس في مدرسة ميلفيلد لاحقًا.

(١٣) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع روبرت آرميتدج في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م. جدير بالذكر أن الصورة الفوتوغرافية التي تثبت إقامة سالم في مدرسة كوبفورد في هذا الجزء من الكتاب قد أتينا بها من آرميتدج إلى جانب مقابلتين مع اثنين من الزملاء رفضا ذكر اسميهما.

خُصص للصبية في تلك المدرسة مهاجع صغيرة عتيقة يضم كل واحد منها جماعة مكوّنة من أربعة أو خمسة أطفال. واشترك سالم في المهجع الذي ينام فيه مع قلة من الصبية الأثرياء الآتين من دول إسلامية. وكانت غرفتهم تتضمن موقدًا صغيرًا يُعِدّون عليه بين الحين والآخر البيض الذي يأخذونه خلسة من قفص الدجاج الخاص بالمدير. وكان سالم يدخن الغليون (البايب) وكان يفضل تبغ فلايينغ دوتشمان (Flying Dutchman)، إلى أن انتقل إلى تدخين السجائر لاحقًا. كان اليوم الدراسي يبدأ بالركض بتثاقل حول ملاعب التريض سواء أكان الجو ممطرًا أم صحوًا، وكان سالم يبدو عادةً في هيئة فوضوية هزلية، حيث تراه يمشي مترنحًا ويرتدي جوارب وأحذية لا يوافق أحدها الآخر. وكان الصبية يرتدون في الفصول الدراسية سترات زرقاء فضفاضة وربطات عنق وبناطيل واسعة، وبعد ذلك يقومون بجولة رياضية أخرى في فترة الظهيرة. وكان صديق سالم المقرب هو صبي تركي ضخم الجثة يُدعى محمد بيرجن[*]، كان سالم يلقبه بـ «الفيل الصغير»، وكان سالم يطلب منه أحيانًا التشاجر مع الصبية الآخرين نيابةً عنه. وكانت هذه فترة عصيبة على كثيرين منهم، خاصةً ممن ليس لديهم أي خلفية سابقة عن الحياة والتقاليد الغربية مثل سالم. وضحك أصدقاء سالم الإنكليز كثيرًا عندما عرفوا أنه لا يستطيع استخدام المرحاض الحديث حيث كان معتادًا على جلوس القرفصاء لقضاء حاجته. ولم يكن رياضيًّا، ومع ذلك حظي بحب الآخرين له، وعُرف بعشقه للمغامرات والشغب واهتمامه الخاص بمطاردة الفتيات المقيمات في المدرسة الداخلية المجاورة. وبين الفينة والأخرى، كان الأولاد يرتبون مواعيد لمقابلة تلك الفتيات ولعب البولينغ أو الذهاب إلى السينما في كولشستر، ثم تناول الهامبرغر في مطعم ويمبي.

يبدو أن أبا سالم قد رصد له ميزانية أكبر للتعليم في بريطانيا مقارنة بإخوته ممن كانوا يتعلمون في لبنان، أو أن أمه استخدمت دهاءها لتحصل من زوجها على ما تريد لابنها. وعلى أي حال، كان سالم يتمتع بمصروف جيب أكبر من أقرانه في المدرسة، والأهم من ذلك امتلاكه سيارة ألمانية

(*) «مهمّت» باللغة التركية (المترجم).

قديمة طراز دي كاي دبليو (DKW). أما تلك السيارة فكانت أشبه بالسر حيث كانت من الأمور التي لا تسمح بها إدارة المدرسة رسميًّا، لذا كان سالم يخفيها عن الأعين في زقاق بعيد عن مباني المدرسة. وكان هو وأصدقاؤه يتسللون ليلًا في إجازات نهاية الأسبوع ويجوبون شوارع لندن بالسيارة سعيًا لإرضاء رغباتهم أحيانًا، ولكن ما كان يحدث في كل مرة يتلخص في استيلاء أفراد أمن الملهى والعاملين في الحانة على بعض أموال سالم طبقًا لرواية أحد زملائه.

اكتسح فريقا البيتلز وذا رولينغ ستونز الموسيقيْين إنكلترا، وكوّن أصدقاء سالم في مدرسة كوبفورد غليب فرقة «الإيكوز» محاولين تحقيق أحلامهم في موسيقى الروك آن رول. وبرزت موهبة حقيقية من بين هذه المجموعة، إذ صار روبرت آرميتدج لاحقًا عازف غيتار كلاسيكي ماهر، إلى جانب بول كينيرلي الذي سينجح لاحقًا في أداء الأغاني وتأليفها وإنتاجها وسيتزوج من إيميلو هاريس متعددة المواهب. ولم يكن سالم عضوًا أساسيًّا في الفرقة الموسيقية قط، ولم يكن لديه أي موهبة غنائية، غير أنه عزف الهارمونيكا في حفلات موسيقية مرتجلة وطلب إلى زملائه تعليمه العزف على الغيتار، بيد أنه لم يكن صبورًا بما فيه الكفاية للتعلُّم المستمر، بل ما أراده هو التمايل مع موسيقى الروك.

الفصل الثامن

الريح المتعامدة

بحلول منتصف ستينيات القرن العشرين، كان محمد بن لادن يسافر من بقعة إلى أخرى في المملكة العربية السعودية في عجالة على متن طائرته ذات المروحة الدافعة طراز تونِ بيتش (Twin Beech) التي تتسع لسبعة ركاب، في الوقت الذي كان رجال الأعمال السعوديون الآخرون يسافرون لإنجاز أعمالهم في سيارات لينكولن (Lincoln) لامعة السطح. وفي صباح أحد الأيام مر عليه سائق إحدى سياراته ليأخذه من مجمعه السكني في جدة فجرًا، إلى المطار الذي لا يبعد عن قصر الخُزام القديم الخاص بالملك عبد العزيز، ذي المنحدر المتميز الذي تفتق عنه ذهن بن لادن منذ وقت طويل ليصعد عليه عبد العزيز بسيارته حتى باب القصر. وكان المطار قاعدة لعشرات الطيارين الأمريكيين العاملين لدى شركة الخطوط الجوية العربية السعودية بموجب عقد تديره شركة النقل الأمريكية ترانس وورلد إيرلاينز. وقد أبرم بن لادن معها اتفاقًا تقوم بموجبه الشركة بصيانة طائرته وتوفر له الطيارين. وكان الرقم المنقوش على ذيل طائرته تونِ بيتش التي يسافر على متنها بصفة أساسية هو أتش زي - آي بي أن. (HZ-IBN) وهو يشتمل على الكود الدولي للمملكة العربية السعودية. وكانت الطائرة مصممة بحيث يقودها طيار واحد من دون مساعد، غير أنها تشتمل على مقعد أمامي لراكب واحد حيث كان بن لادن يعشق الجلوس به ليحملق من نافذة مقصورة القيادة حاملًا في يده فنجانًا من القهوة العربية. وفي بعض الأحيان كان يتعمد بث الرعب في نفوس مساعديه ممن يركبون معه على متن الطائرة والسائقين الذين

يسافرون معه إلى مواقع العمل التي يديرها بالإمساك بعجلة الطائرة أثناء الرحلة وهزها[١].

كان بن لادن يتمتع بعلاقات جيدة مع طياريه الأمريكيين، بيد أن العمل لديه لم يكن هو المهمة المفضلة لهؤلاء الطيارين؛ إذ كان غالبًا ما يغادر جدة على متن الطائرة في الصباح قاصدًا أحد مواقع العمل في الصحراء، ثم يقضي اليوم بطوله هناك ليقابل المهندسين أو يتفقد أحد الطرق السريعة تحت الإنشاء و يتحدّث مع فريق العمل. وفي تلك الأثناء يضطر قائد طيارته إلى الانتظار لساعات طوال في إحدى العربات المقطورة أو الخيام، ثم يعود أدراجه إلى جدة في رحلة العودة عند الغروب. وهنا يتذكر ستانلي جيس الذي قاد الطائرة توِن بيتش خلال منتصف ستينيات القرن العشرين قائلًا: «كم كانت مهمة مملة للغاية». وأحيانًا ينطوي الأمر على بعض المتعة مثلما يحدث في الرحلات الجوية المتجهة إلى القدس أو إلى بيروت، وفي بعض الأوقات كان بن لادن يصطحب زوجة أو زوجتين إلى معسكرات عمله في الصحراء؛ فكان يجلس معهن في الصباح في مؤخرة طائرته الـ توِن بيتش، وهم يدنين عليهنّ ثيابهنّ السوداء من رؤوسهنّ حتى أصابع أقدامهنّ، ويفصل مقصورة الركاب عن كابينة الطيار بستائر سوداء حرصًا على حيائهنّ[٢].

كانت معسكرات عمله في الصحراء متناثرة كما تتناثر دور العشائر البدوية في الواحات. وكان بن لادن يباشر عمله في بعض منها جالسًا في مكتبه بعربة مقطورة يمدها بالكهرباء مولدٌ صغير، ومزودة بمكيف هواء. وفي جبال عسير ذات الطقس البارد، كان مساعدوه يدقون الأوتاد في الرمال وينصبون الخيام الكبيرة البيضاء المصنوعة من الكتّان، ويفرشون الأرض بفرش ووسائد ملونة تبعث على البهجة، بحيث يجلس عليها المعلّم

---

(١) استنادًا إلى المقابلات التي أُجريت مع جيرالد أورباخ Gerald Auerbach في ١٠ مارس/ آذار ٢٠٠٥م. جدير بالذكر أن الطيارين الآخرين الذين عملوا مع بن لادن أكدوا ذلك بروايات مشابهة.

(٢) استنادًا إلى الصحيفة الأمريكية **تايمز بيكايون** *Times-Picayune* بتاريخ ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١م. توثق سجلات الطيران والصور الفوتوغرافية للفترة بين عامي ١٩٦٥ و١٩٦٧م والتي راجعها المؤلف، توثق رحلات سفر بن لادن الدولية في أثناء تلك الفترة وكان على رأس البقاع التي زارها كلٌ من القدس وبيروت والإمارات العربية المتحدة.

ويستقبل زواره شأنه شأن أي شيخ بادية ذي شأن. وخارج هذه الخيام، كان جزء من أسطول شاحنات بن لادن الفورد حمراء اللون يقف على أهبة الاستعداد، هذا فضلًا عن قطيع البعير الذي كان يوجد من آن إلى آخر.

في بعض الأحيان كان بن لادن يعقد مجلسًا صباحيًّا في خيمته يتلقّى فيه طلبات العمال أو القبائل المحلية التي كانت تطالبه من آن إلى آخر بالتدخل لتسوية النزاعات. ويتذكر ذلك جيس قائلًا: «كان القانون مُمثلًا في بن لادن، وأحيانًا كان ينفق بعض المال أو يفعل أي شيء ليسعد الجميع، وكانوا يعتمدون عليه في أي حكم». وبعد أداء مهمته قد يسترخي ليحتسي فنجانًا من القهوة ويدخن نرجيلته الرائعة ذات الأربعة أقدام طولًا. وكان بن لادن يضع في بعض معسكرات عمله مقاعد خضراء بلاستيكية متشابكة الأجزاء مثل المقاعد التي انتشرت سريعًا في ما بعد في باحات المنازل الأمريكية العادية، والصور التي التُقطت لابن لادن في هذه الفترة تظهره جالسًا باسترخاء في أحد معسكرات عمله على هذه المقاعد، ونرجيلته في فمه، ويعلو رأسه الشماغ السعودي التقليدي ذو النقوش الحمراء المربعة. وفي تلك الأثناء بدأ قوامه يمتلئ وتتناثر الشعيرات الرمادية في لحيته الصغيرة المشذبة، أما عينه الهائمة في كل اتجاه ذات العدسة الزجاجية الداكنة فجعلته يبدو فاقد التركيز إلى حدّ ما. وفي ما يتعلق بملابسه، كان يرتدي جلبابًا يصل إلى كاحليه؛ أحيانًا أبيض اللون شأنه شأن الجلباب السعودي التقليدي، وأحيانًا أخرى بتصميم عصري نوعًا ما بنقوش مربعة أو بقلم من لون مخالف. وكان يرتدي في معصمه ساعة يد معدنية رائعة تظهر على أكمامه، وكان ينتعل في قدميه جوارب بيضاء وحذاءً جلديًّا بني اللون من دون كعب أو أربطة. وكان عادة ما يستخدم مسبحته لذكر الله عز وجل عندما لا تكون يده مشغولة بتدخين النارجيلة[٣].

كان في ذهن بن لادن كثير ليشغل نفسه به، ومرةً أخرى تتكالب عليه الضغوط خلال عام ١٩٦٦م وبداية عام ١٩٦٧م؛ إذ أبرم معه فيصل عقدًا مربحًا لمد طريق سريعة تربط بين مدينة الطائف والعاصمة الرياض بطول نحو خمسمئة ميل. وفي نقطة ما على الطريق يُطلق عليها الكيلو ١٧٠،

(٣) نفس المصدر السابق.

وهي بقعة منبسطة جرداء لا تميزها أي معالم في الصحراء وتبعد مسافة مئة وسبعين كيلومترًا عن مدينة الطائف، شيّد بن لادن معسكرًا هندسيًّا كبيرًا يتضمن مخزنًا لإيداع الجرافات الكاتربيلر ومعدات تعبيد الأرض وشاحنات الإسفلت، إضافة إلى مجموعات عمل من السائقين والميكانيكيين ومئات العمال المهاجرين الذين يقضون فترة سباتهم في خيام نُصبت بجوار المعسكر. وكان لزامًا على بن لادن الاعتناء بعماله كأنهم ميليشيا تعسكر بين المعارك؛ حيث كان يستأجر طهاة لإعداد الطعام ويخصص سائقي شاحنات يأتون لهم بالماء من المدن البعيدة. ولم يكن هناك أي مطار قريب من هذه المنطقة، ومن ثَم كان الطيارون العاملون عند بن لادن على متن طائرته الـ توِن بيتش يهبطون بها على بقع ممهدة من الطريق السريع أو على مهبط مستوٍ في الصحراء ممهد بالصخور[٤].

في تلك الأثناء، كان بن لادن يقطع بانتظام أيضًا مئات الأميال على متن طائرته شرقًا إلى الإمارات العربية المتحدة التي تطل على الخليج العربي، حيث أسند إليه الملك فيصل مرةً أخرى مهمة تنفيذ مشروع لخدمة السياسة الخارجية؛ ألا وهو تشييد طريق سريعة هذه المرة بطول ستين ميلًا، تبلغ تكلفته ستة وسبعة من عشرة مليون دولار بالأموال الحكومية السعودية، وذلك لتعزيز الدور السعودي في الممالك الخليجية الصغرى التي كانت تشهد انسحاب القوات البريطانية منها آنذاك. وبذل بن لادن جهدًا عظيمًا في هذه الطريق السريعة على الخليج لشدة بُعد الموقع عنه وصعوبة وصول أسطول معدات البناء إليه. وأنشأ بن لادن أول فرع خارجي لشركته في مدينة دبي الساحلية المطلّة على الخليج من أجل تنفيذ المشروع، إلا أن العمل تقدم ببطء، وبعد أن عجز عن تسليم الطريق في أكثر من ميعاد حُدد سلفًا، أسند المهمة بأكملها إلى مقاول محلي من الباطن[٥].

---

(٤) استندت معلومة الكيلو ١٧٠ إلى المقابلات التي أجريت مع أورباخ الذي كان يسافر إلى هذا المكان بانتظام، راجع نفس المصدر السابق.

(٥) تضمنت البرقيات الدبلوماسية الخاصة بكل من بريطانيا وأمريكا في الفترة ما بين ١٩٦٦ و١٩٦٧م توثيقًا لعمل بن لادن في طريق الساحل المتصالح من إمارة الشارقة إلى إمارة رأس الخيمة. أما مصدر الصورة التي توثق المبلغ الذي وصل قدره إلى ٦,٧ مليون دولار فهو تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/761 Jeddah to Washington, September 19, 1966.

انحصر شغل بن لادن الشاغل في ذلك الحين في إقليم عسير الجنوبي الذي يقع على الحدود مع اليمن. وفي مرحلة مبكرة في عام ١٩٦٦م، تم التعاقد مع بن لادن رسميًّا بمبلغ مئة وعشرين مليون دولار لتشييد طريق سريع من تصميم مستشارين ألمان يمتد بين مدينة الطائف وجنوبًا عبر الجبال وصولًا إلى أبها؛ عاصمة إقليم عسير، ولكنها كانت مهمة في منتهى الصعوبة. تمثل التحدي الهائل في هذه المهمة في أنه من المقرر أن يتفرّع بعد أبها ليتجه في جرف شديد الانحدار حتى يصل إلى ميناء جيزان على البحر الأحمر، حيث وطأ بن لادن وأخوه عبد الله لأول مرة أراضي المملكة العربية السعودية في أثناء هجرتهما في مرحلة الصبا منذ عقود كثيرة مضت. يتجه الفرع الآخر من الطريق شرقًا عبر الجبال الوعرة إلى مدينة نجران الحدودية. وكان هذا المشروع أكثر العقود المعلنة ربحًا في حياة بن لادن العملية الطويلة، وطبقًا لإحدى الروايات، تعهد بن لادن بعدم تنفيذ أي طرق سريعة أخرى حتى يسلّم الطريق. وبدأت مجموعات العمل في تنفيذ الطريق الرئيس من الجهتين، وكان ابنه علي يشرف على جزء المشروع الممتد جنوبًا من مدينة الطائف، وكانت المجموعات الأخرى تباشر العمل في الجزء المطلّ على الحدود مع اليمن وفي المناطق الساحلية، في محاولة لمد طريق أعلى جوانب التل المنحدرة من البحر، الأمر الذي اشتمل على مهام صعبة لنسف الصخور بالمتفجرات فضلًا عن الأعمال الهندسية التي تشبه تلك التي ثبطت همة بن لادن سابقًا في طريق الطائف(٦).

كانت جبال عسير البركانية شاهقة الارتفاع والمغطاة بطبقة من اللونين الأسود والأحمر ترتفع عن شواطئ البحر الأحمر بنحو عشرة آلاف قدم. وربما كانت منحدراتها وسهولها جرداء وخالية من أي أثر للحياة، تمامًا مثل سطح القمر، إلا أن أشجار الصنوبر كانت تميز بعض قممها العالية؛ فكانت كأنها درع يحمي القبائل التي كانت تقطن الأودية العشبية وتزرع

---

(٦) نفس المصدر السابق، مقابلات مع أورباخ. أما عن مصدر الوثيقة التي تحدد قيمة ١٢٠ مليون دولار والتقرير الذي لم يوافق فيه على تولي مسؤولية مشروع طريق سريع إضافي فهو تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/761 Jeddah to Washington, May 24, 1966.

جدير بالذكر أن البرقية تسمي بن لادن «الأستاذ الأول في بناء الطرق السريعة في السعودية».

محاصيل مثل البلح والقرع والبطيخ والحبوب، وكان سكان تلك المناطق فقراء ومنعزلين جغرافيًّا ومتمردين بطبيعتهم، إلى جانب أنهم متدينون بشدة. وكان تاريخ عسير السياسي معقدًا وغامضًا، حيث عانى سكانها بشدة بسبب سلسلة من المدعين العثمانيين، قبل أن يؤسس رجل دين ينتمي إلى المنطقة ـ ولكنه ينتمي إلى المذهب الشيعي ـ مملكة مستقلة في بداية القرن العشرين لفترة وجيزة من الوقت.

وخلال أوائل ثلاثينيات القرن العشرين أرسل عبد العزيز القوات الوهابية بقيادة فيصل وسعود لغزو تلك المنطقة وضمها إلى مملكته الجديدة. ونجحت القوات في ذلك ولكن لم يلتفت الملك أو وريثه سعود إلى الموقع الجغرافي الفريد لهذه المنطقة، بل كان كل تركيزهم منصبًّا على الإنفاق ببذخ من عائدات النفط، التي يحصلان عليها، على الرياض ومكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة. ولكن بعد أن سعى جمال عبد الناصر إلى إشعال فتيل ثورة في اليمن، أدرك فيصل أنه في حاجة ملحة إلى الحفاظ على ولاء قبائل عسير الحدودية عن طريق ربطهم بالأسواق السعودية وتعزيز التنمية المحلية في هذه المنطقة. وشرع في شن حملة للإنفاق على النواحي الدفاعية في المنطقة. وكان العقد الذي أُبرم مع بن لادن لإنشاء الطريق السريعة في عسير هو الجانب العلني لاتفاقية متعددة الأوجه يساعد فيها بن لادن أيضًا ببناء قواعد جوية عسكرية ومواقع عسكرية وبنية تحتية عسكرية سرية حول مدينتي عسير ـ أبها وخميس مشيط ـ ومدينة نجران.

عمل محمد بن لادن جنبًا إلى جنب في هذه المشروعات المجدولة مع القوات العسكرية الأمريكية والبريطانية. وبحلول عام ١٩٦٦م أفضت المحاولات الأمريكية لاسترضاء عبد الناصر إلى سياسة تسليح المملكة العربية السعودية ضدّ الغارات المصرية التي تُشن من اليمن. ووقّعت واشنطن اتفاقية إنشاءات عسكرية مع فيصل، عُهد بمقتضاها إلى فيلق المهندسين التابع للجيش الأمريكي بتصميم مرافق عسكرية تبلغ تكلفتها مئة مليون دولار تقريبًا، إلى جانب المساعدة في إنشائها على حدود المملكة، بما فيها عسير. وتبيّن سجلات الرحلات التي وثقت الرحلات الخاصة التي قام بها بن لادن خلال عامي ١٩٦٦م و١٩٦٧م أنه اصطحب على متن

طائرته مسؤولين في الجيش الأمريكي بين الحين والآخر. وفي هذه الأثناء وافقت بريطانيا على بيع طائرات نفاثة وصواريخ ورادارات ومعدات إلكترونية حربية أخرى إلى المملكة العربية السعودية. ووفرت لها لندن أربعًا وثلاثين طائرة نفاثة من طراز لايتننغ (Lightning) وعشرين طائرة من طراز جت بروفوش (Jet Provost) إلى جانب صواريخ هوك (Hawk) وثاندربرد (Thunderbird) وأجهزة رادار من الأنواع نفسها. ورُكّبت الصواريخ سرًّا في خميس مشيط وجيزان ونجران، حيث كان بن لادن يعمل في الوقت نفسه في مشروعات الطرق والمطارات. وبذلك استغل فيصل إمكانيات محمد بن لادن كسلاح هندسي مدني سعودي لأحد البرامج السرية، تسانده في ذلك إمدادات من الجيشين الأمريكي والبريطاني للدفاع عن المملكة في حرب العصابات الدائرة بينها وبين الثوريين اليساريين. وكان هذا التحالف مشابهًا بالضبط للتحالف الذي ستعقده عائلة بن لادن لاحقًا في أفغانستان[٧].

عكس برنامج الإنشاءات الضخم الذي نفّذه فيصل في عسير التوتر الذي كان يشعر به الملك وحلفاؤه الغربيون إزاء تصاعد حملة عبد الناصر المستمرة لإسقاط حكم آل سعود، فقدّم فيصل المال والسلاح إلى القوات اليمنية الملكية المعارضة للمصريين، وردّ عبد الناصر على ذلك بدعم هجمات إرهابية تُشن داخل المملكة العربية السعودية. وفي الثامن عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٦٦م، فجرت خلية من المتسللين اليمنيين عدة قنابل في قصر الأمير فهد في الرياض، الذي سيشغل لاحقًا منصب وزير الداخلية السعودي. وبعد ثمانية أيام انفجرت ثلاث قنابل أخرى، إحداها في أحد الفنادق التي كان ينزل فيها جنود أمريكيون. وفي الشهر اللاحق فجّر متسللون منزل أحد الزعماء الدينين السعوديين في نجران، فألقت شرطة الأمن التابعة لحكومة فيصل القبض على بعض الأفراد،

---

(٧) المعلومات الواردة عن مشروع الإنشاءات العسكرية الذي وصلت تكاليفه إلى ١٠٠ مليون دولار مستقاة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS RG 59/2643 Jeddah to Washington, June 2, 1965.

والمعلومات الواردة عن المبيعات العسكرية البريطانية ونشر الصواريخ وأنظمة الرادار مستقاة من تقرير صُنف بعد ذلك على أنه سري في: Burdett, *Records of Saudi Arabia, 1966-1971*, Volume 2: 1967, Part 1.

وتوصّلت إلى أن الإرهابيين مواطنون يمنيون تدربوا على أيدي المصريين. وشرع الملك في اتخاذ إجراءات صارمة لمنع ما أُطلق عليهم في تقرير بريطاني لاحقًا، «المتسللون والمخربون الإرهابيون» من تعطيل موسم الحج السنوي. وأجبر السعوديون كثيرًا من اليمنيين على الإدلاء باعترافات على شاشات التلفزيون الوطني، وكان ذلك أحد الاستخدامات السياسية الأولى لشبكة البث السعودية التي افتتحها فيصل حديثًا[٨].

أشارت أصابع الاتهام إلى الآلاف من العمال اليمنيين العاملين في المملكة العربية السعودية بسبب هذه الهجمات الإرهابية، ففر كثيرون منهم أو نُفوا من البلاد. وكان من الأدلة الدامغة على انخراط بن لادن الكامل في المجتمع السعودي أنه على الرغم من أصوله اليمنية العميقة، فلم يكن فيصل ينظر إليه باعتباره مواطنًا سعوديًّا مخلصًا فحسب، بل وثق فيه لبناء المنشآت المصممة للدفاع عن بلده الثاني ضدّ بلده الأم ومسقط رأسه.

في أواخر عام ١٩٦٦م لحق محمد بن لادن بعصر الطائرات النفاثة. ولأنه كان يقطع آنذاك مسافات شاسعة بالطائرة لقضاء أعماله، اشترى الطائرة النفاثة هوكر سيدلي (Hawker Siddeley) ثنائية المحرك. وكلّفه شراؤها أكثر من مليون دولار لكنها ستمكنه من السفر بسهولة فائقة إلى دبي أو القدس. وخلال تلك الفترة كان قد وضع أساس مجمّع سكني جديد يقع على الطريق السريعة التي كانت خاضعة لعمليات إصلاح، وربطت بين جدة ومكة المكرمة، وهناك كان بن لادن يملك عدة فدادين من الأراضي في جزء من ضواحي جدة أصبح في ما بعد من أرقى أحيائها. وعند الكيلو ٧ ـ وهي النقطة التي تبعد عندها مكة المكرمة عن البحر الأحمر بسبعة كيلومترات ـ صمم بن لادن ما سيتحوّل بالفعل إلى مساحات صغيرة من الأراضي الممسوحة والمقسمة لبناء منازل الضواحي فوقها، وخصّص منزلًا لكل زوجة من زوجاته، وبعض زوجاته السابقات وأبنائهنّ، إلى جانب بناء مسجد ومكاتب للشركات التجارية. وحتى ذلك الحين كان بن لادن ما زال

(٨) المعلومات المذكورة عن تسلسل الهجمات و«المتسللين والمخربين الإرهابيين» مستقاة من التقرير البريطاني بتاريخ ١٢ يناير/ كانون الثاني ١٩٦٧م في نفس المصدر السابق: Burdett.

يعمل بجد واجتهاد، ولكنه كان ينفق جزءًا من ثروته ليستمتع بحياته ويسافر بأحدث وسائل العصر[٩].

مع ذلك انطوت عملية شراء الطائرة النفاثة الخاصة على بعض الصعوبات؛ إذ اضطر بن لادن إلى العثور على طيارين تم تدريبهم واعتمادهم لقيادة طائرات هوكر في إنكلترا مصنِّعة تلك الطائرة، على أن يكون لديهم الاستعداد للعمل لديه في جدة. إضافة إلى ذلك، لا يمكن الطائرة النفاثة الجديدة أن تحط على مهابط المطارات الصحراوية التي يتردّد عليها بن لادن كثيرًا في عسير، ولذا فإن الأمر يتطلب زيادة قائمة طياريه حتى يتسنى لأحدهما قيادة الطائرة تون بيتش المناسبة للأجواء الصحراوية، ويقود الآخر طائرة هوكر النفاثة.

في صيف عام ١٩٦٦م التحق جيرالد أورباخ ـ أحد أفراد القوات الجوية الأمريكية المحنكين الذي كان يقود قاذفات القنابل بي فورتي سفن **(B-47)** لحساب قيادة القوات الجوية، وهي القوات المسؤولة عن عمليات الاستطلاع والقصف النووي ـ بطاقم طياري بن لادن على نحو مؤقت. (وذلك بسبب إصابة الطيار توم هيكوك الذي كان يعمل سابقًا في الأسطول الأمريكي وعودته إلى الولايات المتحدة الأمريكية.) كان أورباخ طيارًا شديد الدقة وكان يستمتع بالتحليق في أجواء الصحراء وبصحبته محمد بن لادن. وطلب منه بن لادن أن يستمر معه كأحد أفراد فريق طياريه الدائمين، وأبلغه رئيسه في شركة ترانس وورلد إيرلاينز أن انتقاله للعمل لدى بن لادن أمرٌ لا بأس به، إلا أنه سيفقد مكانته العالية لأن سياسة شركة ترانس وورلد إيرلاينز تنص على أن يتقاضى طيارو بن لادن أجورًا أقل من الطيارين الذين يعملون في الرحلات التجارية. وتحدّث أورباخ مع بن لادن عن هذه المشكلة، إلا أن محمدًا رفض أن يعوض هذا الفرق في الراتب، وسيتبيّن لاحقًا أنه قرارٌ مشؤوم.

في شهر يونيو/حزيران من عام ١٩٦٧م، وصل طيار أمريكي جديد

---

(٩) المعلومات المذكورة عن الطائرة النفاثة طراز هوكر سيدلي (Hawker Siddeley) مأخوذة من نفس المصدر السابق حيث استشهد بمقابلات أورباخ. أما تاريخ الكيلو ٧ فاستنادًا إلى: Bin Laden, *Inside the Kingdom*, p. 36.

إلى جدة يُدعى جيم هارينغتون الطيار الحربي السابق في قوات الدفاع الجوي الأمريكية، وكان حينئذ يبلغ قرابة الأربعين عامًا ويتميز بشعره الأشقر. قرر أورباخ الانفصال عن بن لادن، إلا أنه وافق على تدريب هارينغتون، ويتذكر أورباخ قائلًا: «دربته في أكثر مهابط الطائرات صعوبة»، وتضمن ذلك الهبوط في «مجاري أنهار جافة» وأماكن هبوط بديلة أخرى في عسير لم يكن فيها شيء سوى الرمال والصخور المتراصة لتمييز أماكن الهبوط والإقلاع[١٠].

انقطع هارينغتون عن ممارسة الطيران لسنواتٍ عديدة، ومن ثَم «فإنه ليس الشخص المناسب لهذه المهمة» بحسب قول أورباخ لرئيسهما في العمل، وأضاف: «إنني قلق منه إلى حدّ ما، فالرحلات التي سيحلق فيها ليست روتينية». ومع ذلك أشار أورباخ إلى أن رئيسهما اختبر مستوى هارينغتون ومهاراته وأعلن أنه مستعد الآن للطيران. وفي شهر يوليو/ تموز تولى هارينغتون قيادة الطائرة توِن بيتش وبدأ التحليق مع بن لادن ذهابًا وإيابًا من عسير وإليها، وعاد أورباخ إلى الطيران التجاري السعودي.

كان بن لادن يعمل حينئذٍ في وصلة الطريق السريعة التي تربط بين مدينتي أبها ونجران؛ تلك الطريق التي كانت تتجه إلى أعلى عبر الرُّبى المرتفعة قبل أن تنحدر هبوطًا إلى سهلٍ صحراوي أعلى الحدود اليمنية مباشرةً. أنجزت فرق العمل أربعين ميلًا من الطريق المتجه إلى نجران وجهزوا مواقع العمل في بلدة صغيرة تُدعى أوم حيث هبط هارينغتون بالطائرة توِن بيتش عندما سافر بن لادن جنوبًا من جدة.

التقى جيرالد أورباخ بهارينغتون مصادفة في ذلك الصيف وسأله عن أحواله، فذكر له هارينغتون أن كل شيء على ما يُرام، إلا أن بن لادن «شيّد مهبطًا جويًا شمالًا في منطقة أوم والظروف قاسية هناك. فالمنطقة مرتفعة على تل، والأمر ليس هينًا». استخدمت مجموعات العمل لدى بن لادن الجرافات ومعدات تمهيد الطرق وجرفوا جزءًا من الصحراء يبلغ

---

(١٠) كان مصدر المعلومات عن الطيار توم هيكوك مقابلة مع ابنة الطيار، وأيضًا نفس المصدر السابق والمقابلات التي أُجريت مع أورباخ.

طوله زهاء ألف ياردة ليكون مدرجًا لهبوط الطائرات وإقلاعها، إلا أنه لم يكن طويلًا بما يكفي. وكان موقع هذا المدرج على حافة مرتفعة على شكل نصف إناء، فكان من الصعوبة بمكان أن تميل الطائرة، أو تستدير على الجانبين عند الإقلاع أو الهبوط، ومن ثَم كان على الطيار المحافظة على توازنها لتحلق مباشرةً صعودًا وهبوطًا، لذا ينبغي للطيار أن يهبط أو يقلع بشكل رأسي من التل. وكانت المرتفعات أيضًا محل نقاش؛ لأنه في طبقات الجو العليا تصل كميات أقل من الأوكسجين إلى محركات الطائرة ممّا قد يؤدي إلى تبديد طاقتها.

قال أورباخ لهارينغتون ـ حسبما يتذكر الأخير: «حسنًا، أخبره بذلك؛ فأنت المسؤول. اختر مكانًا مناسبًا، وأخبره بأنك تريد الهبوط أو الإقلاع منه، وسوف ينفّذ ما تريد. أخبره أن الوضع ليس آمنًا على هذه الإطلاق».

رد هارينغتون قائلًا: «نعم، أستطيع فعل ذلك» ولكنه كان يقصد أن باستطاعته التعامل مع الهبوط والإقلاع في أوم، مكررًا: «بإمكاني فعل ذلك»[(١١)].

في الثالث من شهر سبتمبر/ أيلول عام ١٩٦٧م، اتجه أحد سائقي محمد بن لادن الذي كان يعمل لديه منذ فترة طويلة ـ ويُدعى عمر ـ بالسيارة إلى مهبط الطائرات انتظارًا لوصول شيخه. ورأى الطائرة تون بيتش تهبط في ضوء النهار، وبينما أوشكت على ملامسة منطقة الهبوط، وهي على ارتفاع قرابة المئة والخمسين قدمًا من الأرض، هبت ريح متعامدة شديدة. ويبدو أن هارينغتون وجد طائرته مندفعة خارج مدرج الإقلاع والهبوط المؤقت، فحاول جذبها بأعلى طاقة للارتفاع عن الجزء المقعر والاستدارة لمحاولة الهبوط مرة أخرى، طبقًا لما استنتجه جيرالد أورباخ

---

(١١) جدير بالذكر أن كل الاقتباسات في هذا القسم مأخوذة من المقابلات التي أجريت مع أورباخ، وهي مذكورة في نفس المصدر السابق. وفشل المؤلف في العثور على أي فرد حي من عائلة هارينغتون. سافر أورباخ إلى موقع التصادم ومعه فريق من الطيارين ومجموعة موظفين آخرين بتاريخ ٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧م أي بعد يوم من وقوع الحادث. وقال مايك أمين -الذي عمل بعد ذلك في القسم السياسي في شركة أرامكو ـ أنه سمع أن بن لادن كان ينوي أن يتزوج مرة أخرى في عسير في وقت وفاته. وتم التعرف إليه عن طريق ساعته وهذا استنادًا إلى مقابلة مع نديم بو فخر الدين في ٢٦ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م.

لاحقًا. ووصف أورباخ ـ الذي قاد فريقًا من المحقّقين لتفقّد الموقع ـ ما حدث على الأرجح ذلك الصباح بعد أن جذب هارينغتون الصمام الخانق للطائرة توِن بيتش، قائلًا: «إن طبيعة الأرض منحدرة لأعلى. وللحفاظ على التحليق على ذلك الارتفاع وهو على تلك السرعة، كان سيتعين عليه الارتفاع بمقدار أربعمئة أو خمسمئة قدم في الدقيقة الواحدة حتى يخرج من المكان. ولم يستطع الاستدارة. . . لعدم تمتع الطائرة بهذه الإمكانية على الارتفاع، ومن ثَم آل الأمر إلى توقف الطائرة فجأة». وبسبب الهواء الجبلي غير المشبع لم تستطع محركات الطائرة العمل بأعلى طاقة، ممّا أدّى إلى زيادة فرص حدوث التوقف المفاجئ، وربما ازداد الأمر سوءًا بهبوب رياح أخرى.

سقطت الطائرة توِن بيتش قرب الصحراء مائلة على أحد جانبيها، وبعد أن ارتدت مرة واحدة تحطمت واحترقت.

حطمت الحادثة مقصورة القيادة حيث كان يجلس هارينغتون ومحمد بن لادن. وكانت الحادثة عنيفة إذ تسببت في إحداث ثقب في الصحراء يصل عمقه إلى قدمين أو ثلاث أقدام بفعل الجزء الأمامي من مؤخرة الطائرة. ولقي الرجلان حتفيهما من أثر الاصطدام. وشبت النار في حطام الطائرة بينما كان عمر يحدق فيها عاجزًا عن فعل أي شيء. وربما نجا راكبان كانا في المقصورة الخلفية من الحادث في الاصطدام المبدئي، إلا أنهما حُبسا بالداخل بسبب السلسلة الحديدية المثبتة على باب المقصورة. فقضيا نحبيهما حرقًا.

في لحظة واحدة هلك محمد بن لادن الذي كان آنذاك في زهاء الستين من عمره، وتعرف المحقّقون عليه من ساعة يده البراقة.

القسم الثاني

الأبنــاء والبنــات

من سبتمبر / أيلول عام ١٩٦٧م
حتى مايو / أيار عام ١٩٨٨م

الفصل التاسع

مجلس الأوصياء

استدعى مدير المدرسة، التي أرسل إليها محمد بن لادن عددًا من أبنائه ليتلقوا تعليمهم في لبنان، تسعة من أبناء بن لادن بعد أن بلغته أخبار وفاته. ويتذكر أنه قال لهم: «عليكم أن تكونوا عمليين وأن تفكروا بعقلانية، كلنا مصيرنا إلى الزوال». وسافر المدير بصحبة ثلاثة من أكبر أبناء بن لادن ـ حسن ويسلم ومحروس ـ على متن الطائرة إلى جدة. واستقبلهم في المطار أخوهم غير الشقيق، علي، وهو أكبر أبناء محمد بن لادن الذين يعيشون في المملكة العربية السعودية وقتئذٍ، ومعه سيارة وسائق. وبما يتفق مع التقاليد السعودية، دُفن أبوهم سريعًا في قبر لا يحمل شاهدًا، واختارت العائلة أرقى أماكن جدة مستقرًّا له، وفيه كان المتعبدون قديمًا يقدسون قبرًا منسوبًا إلى حواء طبقًا لما ذُكر في الكتب المقدسة. ومرت فترة الحداد يومًا تلو الآخر، حيث أحيط الصبية برعاية العائلة والموظفين وتجار جدة والأمراء في مجمع بن لادن السكني. وفي حالات الوفاة تشدد التقاليد الإسلامية وعادات أهل الحجاز على ضرورة تقديم واجب العزاء والمواساة فرادى وجماعات بما تفرضه طبيعة الحياة القاسية في الجزيرة العربية. وفي كل مساء بين صلاتي المغرب والعشاء، يجتمع آل بن لادن لتلقي عزاء مجموعات هائلة من الناس المتأثرين حقيقة بموت بن لادن. (وكانت بنات محمد بن لادن وزوجاته يتلقين عزاء السيدات في مكان مخصص لهنّ فحسب خلال فترة الظهيرة.) وعكس هذا التجمع الحزين مظهرًا، نادرًا ما يُعرض على الملأ، من مظاهر وحدة العائلة وسط أصوات مُرتِّلي

الآيات القرآنية العذبة التي تنبعث في الليل المحفوف بالهواء الرطب[١].

استغرق سفر سالم من لندن إلى جدة أيامًا قليلة وبعد أن أنهى الدراسة في المدرسة الداخلية، انتقل سالم للإقامة في فندق غلوسيستر بليس شمال منطقة قوس الرخام. والتحق بجامعة محلية، إلا أن الأصدقاء الذين زاروه وجدوه غير مكترث بدراسته. وكان يوجد في شقته غالبًا شباب يرتدون سترات جلدية سوداء، ويتصاعد منها دخان السجائر وألحان غيتاره الذي يهوي العزف عليه بين الحين والآخر[٢].

سافر سالم على متن طائرةٍ في رحلة تجارية متجهة إلى جدة مرتديًا بنطلون جينز وقميصًا غير رسمي (تيشيرت)، وشعره منسدل على كتفيه. ولدى نزوله من الطائرة، كان قد قصّر شعره وارتدى جلبابًا سعوديًّا أبيض اللون وغطاءً للرأس. كان سالم يبلغ آنذاك واحدًا وعشرين عامًا أو أكثر، وأصبح على حين غرة وعلى نحو غير متوقع وريثًا لكبرى شركات الإنشاءات في المملكة العربية السعودية. ولم يكن سالم يعرف كثيرًا عن الهندسة، ولم يكن يعرف الملك فيصل معرفةً وثيقة، بل إنه لم يكن قد قابل إخوانه وأخواته غير الأشقاء كافة، وتعرّف إلى بعضهم للمرة الأولى في جنازة أبيه[٣].

أثار موت محمد بن لادن المفاجئ مخاوف كبرى من انهيار إمبراطورية بن لادن العملية، وخاصة احتمالية عجز أبنائه الصغار الكثيرين وأخيه الذي ما زال على قيد الحياة عن إدارة الشركة في ظلّ هذا العدد

---

(١) استنادًا إلى المقابلة التي أجريت مع نديم فخر الدين في ٢٦ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م. لمزيد من المعلومات عن طقوس حالات الجنازة والوفاة لدى أهل الحجاز، يُرجى الاطلاع على:
Yamani, *Cradle of Islam*, pp. 102-110.

(٢) استنادًا إلى مقابلة روبرت آرميتدج في ١٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م إلى جانب أيضًا مقابلة مع صديق ثانٍ زار سالم في شقته. ويتذكر آرميتدج أن سالمًا لم يكن يشعر بالحرج من الجلوس عاريًا أمام أصدقائه الذكور.

(٣) المعلومات المذكورة عن رحلة الطيران التحويلية التي سافر فيها سالم مستقاة من المقابلة التي أُجريت مع جيرالد أورباخ في ٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م. أما عن المصدر الذي قال إن سالمًا لم يكن يعرف كل إخوته وأخواته غير الأشقاء وإنه قابل بعض الأخوة والأخوات لأول مرة فهو المقابلات التي أُجريت مع محمد العشماوي بتاريخ ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م، وروبرت فريمان في ٢٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م.

الهائل من الورثة ممن لا قبل لهم بإدارة مثل هذه الكيان الضخم. وقد تلخص الوضع في جدة آنذاك في برقية أرسلها السفير الأمريكي هيرمان إيلتس إلى واشنطن يوم وفاة محمد بن لادن، جاء فيها:

إن وفاة محمد بن لادن ـ المالك الوحيد لكبرى شركات الإنشاءات في المملكة العربية السعودية ـ أدّت إلى إثارة مخاوف كبرى في كل من حكومة المملكة العربية السعودية وفي أوساط الشركات المحلية. فطبقًا للشريعة الإسلامية، فقد تُقسم الأصول بين أبناء بن لادن البالغ عددهم أربعين ابنًا، وهي خطوة قد تلحق الخراب بالمؤسسة. ومع ذلك، بصفة محمد بن لادن مقاولًا سعوديًا لا يُستهان به في التعامل مع الأشغال العامة الكبرى، فإنه اشتهر بأنه المقاول المفضل لدى الحكومة في المملكة العربية السعودية، ومن ثَم فإن الملك ووزير المالية وآخرين يدركون مدى أهمية شركته للاقتصاد السعودي، ومن ثَم اعتزموا المحافظة على وضع الشركة بصورة أو بأخرى[٤].

ظن إيلتس أن أمامه فرصة يجب اغتنامها؛ تتمثل في الاندماج بين شركة بن لادن وشركة إنشاءات أمريكية كبرى، وفي هذا الصدد يقول:

ومن الاقتراحات المطروحة في اللقاءات الخاصة إمكانية سعي حكومة المملكة العربية السعودية لتوفير فريق إداري بالتنسيق مع إحدى الشركات الأجنبية لإدارة أمور المؤسسة. ومن المعروف أن الشركة التي تتمتع بهيكل مالي مستقر عادةً ما توظف لديها عددًا يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف موظف... ولأن بن لادن كان يدير مؤسسته بمفرده من دون مساعدة من أحد (حتى إنه كان يوقع الشيكات كافة)، هناك حاجة ماسة إلى وجود فريق عمل ليس مخضرمًا فحسب في عمليات الإنشاءات، بل أهل أيضًا لإنشاء هيكل إداري جديد وتطبيقه. ومن وجهة نظر السفارة يمكن أن تكون هذه فرصة عظيمة لشركة أمريكية[٥].

رشح السفير في هذا الشأن شركة موريسون نودسون الأمريكية

---

(٤) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59 Jeddah to Washington, September 7, 1967.

(٥) راجع نفس المصدر السابق.

العملاقة في مجال الإنشاءات التي تعاونت مع بن لادن فعليًّا في عطاء لبناء ثكنات عسكرية بالقرب من حدود اليمن. وربما كان ينبغي للأمريكيين التحرك على الفور بسبب سيطرة الإيطاليين على أطقم العمل التقنية في شركة بن لادن وهذا «قد يؤدي إلى تفضيل الإدارة الإيطالية ما لم تُقدم عروضًا أخرى على الفور»[٦].

ترك محمد بن لادن خمسة وعشرين ابنًا (أصغرهم محمد بن محمد بن لادن الذي وُلد بعد وفاة أبيه ومن ثَم سُمي محمدًا إحياءً لذكراه). وكانت احتمالية وقوع الفوضى والنزاعات قائمة.

وقتئذٍ لم يكن لعبد الله ـ أخيه الوحيد الباقي على قيد الحياة ـ أي نصيب في الشركة، ولم يكن يقيم في المملكة العربية السعودية حيث إنه عاد إلى حضرموت مع عائلته منذ سبع سنوات مضت. ولكنه عاد إلى المملكة العربية السعودية بعد موت محمد بفترة قصيرة بسبب قلقه من الميليشيات المسلحة التي تتصارع في الحرب الأهلية الضارية في اليمن. ولاحقًا صادرت حكومة اليمن الجنوبية التي ساندتها موسكو منزله، ولم يعد عبد الله ثانية إلى اليمن، ويا لها من نهاية مريرة لعودةٍ إلى وطن طال حنينه إليه. وكان لعبد الله حينئذٍ أبناء واستثمارات يتولى رعايتها، ولم يكن له آنذاك أي صفة رسمية ليتولى إدارة الشركة التي أسسها مع أخيه منذ ستة وثلاثين عامًا.

كان سالم وعلي الابنين الوحيدين لمحمد اللذين بلغا سن الرشد. وبينما كان عليٌّ يساعد أباه في الإشراف على بعض عمليات تشييد الطرق، فإنه لم يكن أهلًا قط لإدارة المؤسسة بأكملها. وعلى النقيض من ذلك تهيأ سالم للقيادة على يد أبيه، إلا أنه افتقر إلى التدريب العملي.

أما عن قانون المواريث الإسلامي المُستقى من الآيات القرآنية، فهو محدد للغاية؛ إذ إنه يعيّن الورثة ويحدد النِّسب الدقيقة من التركة التي سيرثها كل فرد. وتشير آيات القرآن الكريم إلى أن تلك هي حدود الله عز وجل في ما يتعلق بالحقوق الشرعية للورثة والتي لا يمكن تغييرها بوصية.

---

(٦) راجع نفس المصدر السابق

وتنص التشريعات القرآنية أن للذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث. وربما يعتبر بعض المفكرين الغربيين هذا المبدأ ظالمًا أو لا يتّسم بالمرونة، إلا أنه حافظ على الأواصر الاجتماعية والوحدة الأسرية في العالم الإسلامي لعدة قرون من خلال التخلص من الأطماع والمكائد التي تكتنف الإرث وتقطع أرحام العائلات في الثقافات الأخرى. وتحظر الشريعة على أي رجل مسلم ثري حرمان بعض أبنائه غير المفضَّلين من الإرث، ومن ثَم فإن ذلك يجعله أكثر نزوعًا إلى تشجيع أبنائه على التعاون في ما بينهم. وليس من حقه أيضًا تغيير حصص التركة بين أبنائه بكتابة وصية في اللحظة الأخيرة من حياته. ولا يُسمح بالوصايا المكتوبة إلا في حدود تخصيص ثلث التركة للأعمال الخيرية أو لأي أهداف أخرى. وهناك كثير من الأحكام التفصيلية من هذا القبيل، وكما هي الحال مع الصلاة وأركان الحج التي تؤدَّى من عام إلى عام، تعتبر المواريث أحد جوانب الإسلام الثرية بالأحكام والتأويلات الدقيقة(٧).

ذكر باحث سعودي يُدعى عادل الطُّريفي أن محمد بن لادن كتب وصيته قبل أن يقضي نحبه لتنفيذها بعد مماته، بل أكد أنه قرأ نسخة من الوصية. وذكر أنها صيغت في قرابة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة صفحة، وخُصصت بصفة أساسية للوقف الديني لمحمد بن لادن فضلًا عن التوجيهات اللازمة لورثته لاستئناف أعماله الخيرية الإنشائية والأشغال العامة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس، مثل تلك القرارات التي أعلن عنها في خطابه الذي ألقاه في القدس عام ١٩٦٤(٨).

كان الأصل الرئيس في تركته هي مؤسسة محمد بن لادن نفسها؛ شركة العائلة التي كان هو المالك الوحيد لأسهمها. وطبقًا للشريعة الإسلامية حصل ورثة محمد بن لادن تلقائيًّا على نسب مئوية محددة. وتقاسمت زوجاته الأربعة اللائي كنّ في عصمته وقت وفاته ثُمن الأسهم

---

(٧) المعلومات المذكورة عن الأحكام القرآنية في ما يتعلق بميراث الذكور والإناث منصوص عليها في سورة «النساء» الآية ١١. واستمدت المعلومات عن قوانين المواريث في الإسلام من المقابلة التي أجريت مع محامٍ سعودي عمل مع آل بن لادن. وأيضًا: Almidhar, «International Succession Laws».

(٨) مقابلة مع عادل الطريفي بتاريخ ٩ فبراير/شباط ٢٠٠٥م.

(ولم يكن من حق زوجاته السابقات الحصول على أي شيء من الميراث، لأنه من المتوقع أن يرعاهنّ أولادهنّ). وقُسمت كل الأسهم المتبقية تقريبًا بنسبة ٢ إلى ١ بين أبناء محمد بن لادن الخمسة والعشرين وبناته التسع والعشرين. وورث كل ابن ـ بمن فيهم أسامة ـ ٢,٢٧ في المئة من أسهم الشركة، وورثت كل بنت ما يزيد قليلًا عن ١ في المئة من الأسهم، طبقًا لما جاء في الوثائق التي وجدت لاحقًا في قضية طلاق أمريكية. وعلى وجه التحديد، أضحى أبناء محمد بن لادن شركاء في ملكية ما يزيد عن خمسين في المئة من أسهم الشركة، واشتركت بناته في ملكية ما يقل عن ثلاثين في المئة، وآلت النسبة الباقية إلى أرامله. ولا يوجد دليل على حصول أي من هؤلاء الورثة على مبالغ نقدية كبيرة وقت وفاة محمد. ولا يُرجح أن يكون قد احتفظ بجزء كبير من ثروته في حسابات مصرفية، والأقل احتمالًا أنه استثمرها في الأوراق المالية. وسيؤول إلى ورثته أيضًا منازله وأراضيه وسياراته كافة التي بدؤوا في استغلالها باعتبارها تركة مشاعة لهم جميعًا. وسريعًا ما تولى سالم وعليٌّ دفع رواتب الموظفين في الشركة، إلا أن الأغلبية العظمى من أبناء محمد بن لادن الآخرين لم يكونوا قد بلغوا سن الرشد بعد، وسيكون سالم ـ الابن الأكبر وكبير العائلة ـ هو المسؤول عن تحديد رواتب الإخوة والأخوات، تحت إشراف مجلس الأوصياء في الشركة(٩).

---

(٩) كان نصيب الذكور في المئة، راجع: Declaration of Barbara L. Irshay, January 21, 1993, *Christine Hartunian v. Ibrahim Binladin*, Los Angeles County Superior Court, BD058156.

الورثة الخمسة الآخرون غير الأطفال هم من قوائم المساهمين التي وضعتها العائلة، راجع: *Re Terrorist Attacks on September II, 2001*, 03 MDL 1570.

حددت اللجنة المنوطة بالتحقيق في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول أن أول مبلغ حصل عليه أسامة بن لادن كان في عام ١٩٧٣م أي بعد مرور ستة أعوام على وفاة محمد بن لادن. ويمكن أن يكون ذلك بسبب وصول بعض الأولاد في تلك الفترة إلى سن البلوغ في الوقت الذي بدأت فيه عوائد البترول في المملكة بالانتعاش بسبب الحظر الذي فرضه العرب. وفي ذلك الوقت كان سالم يدير شركته التي يمتلكها وكان تأثيره يزداد في شركة والده. ومن الواضح أن نظامه المعتاد في تقسيم الأرباح السنوية على جميع أولاد محمد بن لادن تطور إلى حدّ ما في ذلك الوقت. وقد استُمد التاريخ الذي حددته لجنة التحقيق في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول من المعلومات التي أدلى بها ممثلون عن العائلة إلى وزارة الخزانة الأمريكية قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

لا يوجد سجل معروف يحدّد حجم تركة محمد في ذاك الوقت، ولم يكن من السهولة بمكان صياغة تقييم يرضي المحاسبين الغربيين. وقد ذكر مايكل بوكنا المصرفي الأمريكي في مجال الاستثمارات الذي شارك عائلة بن لادن خلال منتصف سبعينيات القرن العشرين، أن أفراد العائلة أخبروه بأن التركة عادلت قرابة المئة والخمسين مليون دولار وقت أن قضى محمد نحبه. بينما قال جيرالد أورباخ الطيار الذي عمل لدى محمد في سنواته الأخيرة إنه كان يعلم أن الحكومة السعودية دانت لشركة بن لادن بما يزيد عن مئة مليون دولار عند وفاته. وتبدو هذه مؤشرات موثوقة على حجم التركة التقريبي. ولكن على النقيض من أي ثروة مستثمرة في الأسهم أو السندات أو العقارات التجارية، لم يكن من السهولة بمكان تقييم تركة محمد. فقد كان يمتلك مساحات شاسعة من الأراضي السعودية، كان قد استحوذ على بعضها في مقابل العقود المنصرمة، إلا أن القيمة الحقيقية لهذه الأراضي كان من الصعوبة بمكان تحديدها. وكان لشركاته بعض الأصول الثابتة مثل الجرارات والبلدوزرات وما شابهها من شاحنات، ومع ذلك فإن قيمة الشركة وقت أن قضى نحبه كانت شديدة الارتباط بالعقود الحكومية الضخمة التي فاز بها مؤخرًا، خاصةً عقد الطريق الممتدة من جدة إلى حدود اليمن والمشروعات الخاصة بالمهام الدفاعية ذات الصلة. وإذا عجزت الشركة عن إتمام العمل في هذه المشروعات محققة أرباحًا مادية، فقد يؤدي ذلك إلى انخفاض مواردها المالية. وبشكل أشمل، كانت ثروة بن لادن تتوقف بشكل شبه كلي على رعاية آل سعود الملكية لها، أي إن معظم موارد الشركة ومشروعاتها تعتمد على دعم العائلة المالكة[١٠].

استدعى الملك بعض أبناء محمد بن لادن من كبار السن وقال لهم: «إنني والدكم الآن»[١١]. وكانت المملكة العربية السعودية في خضم حرب غير معلنة، وكانت مؤسسة محمد بن لادن جزءًا لا غنى عنه من الهيكل الدفاعي للمملكة. وقرر الملك فيصل تعيين مجلس أوصياء يتولى إدارة

---

(١٠) من مقابلة مايكل بوكنا Michael Pochna بتاريخ ٣١ أغسطس/ آب ٢٠٠٦م. ومقابلة أخرى مع جيرالد أورباخ بتاريخ ١٠ مارس/ آذار ٢٠٠٥م.

(١١) مقولة من يسلم بن لادن، مقتبسة من: *The Australian*, December 17, 2001.

المؤسسة، وكان هذا ضمانة لاستمرار حصول الشركة على العقود الحكومية من جانب، ومن الجانب الآخر سيضمن فيصل استمرار العمل في مشروعات البنية التحتية شديدة الأهمية في عسير.

أصدر الملك فيصل مرسومًا ملكيًّا في منتصف شهر سبتمبر/أيلول يعلن فيه هذه الخطط المستقبلية الجديدة. وقد أشار تركي ابن الأمير فيصل أن ثروة بن لادن كانت «أغلبيتها في صورة معدات وكان بن لادن يدرك أن إنجاز أي مهمة مشروط بوجود المعدات اللازمة والمهندسين الأكفياء». وأشار المرسوم الذي أصدره الملك فيصل إلى أن مهمة مجلس الأوصياء تتلخص في «تجنب تفكك كيان الشركات أو تعرضها للإفلاس أو أي مكروه، إلى أن يبلغ الأبناء أشدهم ويبدؤوا الإمساك بزمام الأمور فيها». لم يرد بالمرسوم ما يشير إلى الفترة التي سيتولى فيها هذا المجلس إدارة المؤسسة، وسيتخذ فيصل قرار تسليم الشركة إلى العائلة مرةً أخرى، أو قرار تعيين خليفة لابن لادن عندما يحين الوقت المناسب[١٢].

واصلت الحكومة الأمريكية جهودها الحثيثة لاستغلال وفاة بن لادن لخلق فرصة لأي شركة أمريكية. وعقدت وزارة التجارة الأمريكية في واشنطن محادثات مع شركات إنشاءات كبرى في هذا الشأن. وأعد نائب رئيس شركة براون آند رووت نفسه للسفر إلى جدة جوًّا للتفاوض بخصوص إمكانية الاندماج مع مجموعة بن لادن، إلا أن السفارة ردت عليه قائلةً إن «الموقف القانوني ليس مستقرًّا بصورة كاملة». وحتى ذلك الحين ظلت وزارة الخارجية الأمريكية مترقبة للموقف؛ إذ كان بن لادن يدير شركته «بأسلوب فردي ومركزي تمامًا، وربما يجبر الفراغ الإداري الذي حدث بموته ورثته على الاستعانة بإدارة أجنبية للحفاظ على وتيرة العمل في الشركة»[١٣].

---

(١٢) المعلومات عن المرسوم الملكي مقتبسة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS RG 59 Jeddah to Washington, September 25, 1967.

وأيضًا المقابلة التي أجريت مع تركي الفيصل بتاريخ ٢ أغسطس/ آب ٢٠٠٢م

(١٣) وتقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS RG 59 Jeddah to Washington, September 22, 1967.

وراجع أيضًا نفس المصدر السابق: Jeddah to Washington, September 25, 1967.

طلب الملك فيصل إلى أنور علي، الباكستاني الأصل ومحافظ البنك المركزي للمملكة أن يوفر الدعم المالي والاستشارات الإدارية إلى مجلس أوصياء شركة بن لادن، وهي علاقة ضمنت عدم تداعي الشركة بسبب نقص الأموال الحكومية. إضافة إلى ذلك، عيّن الملك محمد باحارث كبير أوصياء الشركة، وهو رجل أعمال من جدة متخصص في مجال الأغذية بصفة أساسية. وكان باحارث ابن عم والدة سالم المدعوة فاطمة أحمد باحارث. وضمن تعيينه تصدّر عائلة باحارث للعشيرة العائلية الأكبر التي تقودها فاطمة باحارث ـ كبيرة العائلة ـ أرملة محمد بن لادن الأكبر سنًّا، وأبناؤها الثلاثة سالم وبكر وغالب(١٤).

لم يكن مظهر سالم ـ الذي يدخن الغليون والعازف السابق لموسيقى الروك في أوائل العشرينيات من عمره ـ يوحي بأن هذا الشخص هو المناسب ليكون رمزًا لأسرة سعودية بهذا القدر عندما عاد من لندن، إلا أنه كان يتمتع بقدر من الثقة أو الطموح. واختير هو وأخوه علي غير الشقيق في مجلس الأوصياء لإدارة مؤسسة العائلة، وكُلف بمنصب المدير الإداري. وفي مستهل الأمر بدا أن هناك خلافًا بينه وبين أخيه علي، وقد ضاق ذرعًا بسلطة المجلس، وقد أشار فرانسيس هنيويل ـ المصرفي الأمريكي الذي أصبح شريكًا لسالم بعد سنوات قليلة لاحقة ـ إلى أن سالمًا: «رغب بشدة في العودة واستعادة السيطرة على الوقف»(١٥).

اقتداءً بأبيه، كان سالم يقيم مجلسًا للبدو المحليين في منزله في جدة كل مساء للفصل في المظالم والنظر في مطالبهم، وكان من بين تلك الطلبات شكاوى ذات صلة بالأراضي. وكان محمد قد عيّن حدود قطع الأراضي الكثيرة التي كانت الملوك تنعم بها عليه قدر استطاعته، إلا أن تلك الحدود كانت تتعارض أحيانًا مع حقوق رعي الماشية أو مطالبات البدو الأخرى. ووجد سالم نفسه محاصرًا بالبدو الذين يحملون إليه قصاصات ورقية مبهمة يزعمون أنها توثّق حقوقهم. وراقب بعض أصدقائه

---

(١٤) استنادًا إلى مقابلة مع باسم عليم بتاريخ ٢١ فبراير/ شباط ٢٠٠٥م. عليم هو حفيد محمد باحارث الذي توفّي في عام ٢٠٠٤م.

(١٥) استنادًا إلى مقابلة مع فرانسيس هنيويل بتاريخ ٩ أغسطس/ آب ٢٠٠٦م.

القادمين من لبنان أو لندن باستمتاع وإعجاب تكيف سالم التدريجي مع دور القاضي الذي يبت في قضايا أراضي البدو، وهو يستمع بطول أناة لهم في ثوب البادية التقليدي الذي يرتديه، ويحاول التوصل إلى الأحكام المثلى لشيخ البادية العادل بل قوي العزيمة. ويتذكر أحد أصدقائه أن مقدمي الطلبات المعجبين به لقبوه بـ «بوابة العدالة». ومع ذلك لم يتمكن الغرور والخيلاء من سالم، بل إنه كان يؤمن بشدة بمبادئ المساواة السائدة في الجزيرة العربية، وكان يجلس مع إخوته على الأرض متشابك الساقين لتناول الطعام[١٦].

سعى سالم إلى الاطلاع على مدى تقدُّم العمل في مشروعات الطرق التي تنفذها شركته. وكان شبح والده ما زال يخيم على كل شيء؛ إذ عُرضت أطلال الطائرة التي قضى فيها نحبه في أحد مجمعات الشركة في جدة. ولم يكن سالم مؤيدًا بشدة للأعمال الميدانية في الصحراء أو بارعًا في إلقاء الخطب الحماسية التي امتاز بها والده. وتعثر في محاولاته الأولى للاتفاق على صفقات. وفشلت مؤسسة عائلة بن لادن في الفوز بعطاء المخيم العسكري في عسير الذي قدمته بالتعاون مع شركة موريسون نودسون؛ إذ لم تكن الحكومة السعودية واثقة وقتئذٍ في استطاعة الشركة إنهاء المهمة في الوقت المحدد. وتقدم العمل في الطريق الذي حاولت الشركة تسليمه في الإمارات العربية المتحدة بإيقاع بطيء. وطلب سالم تجهيز طائرة أبيه هوكر (Hawker) النفاثة وسافر على متنها إلى دبي في ربيع عام ١٩٦٨م ليتفقّد العمل[١٧].

لم يحاول سالم إخفاء عشقه للطيران، إلا أن فيصلًا شعر بأنه لا يستطيع تحمل فقدان شخص آخر من عائلة بن لادن في حادث طائرة، ربما لشعوره بطيش سالم. قرابة نهاية عام ١٩٦٨م، أصدر الملك أمرًا لسالم ببيع الطائرة هوكر النفاثة والطائرات الأخرى ذات المروحة الدافعة

---

(١٦) استنادًا إلى مقابلات أجريت مع عدد من أصدقاء سالم وموظفيه ممن طلبوا عدم الكشف عن هويتهم.

(١٧) المعلومات المذكورة عن استعراض الطيران مستقاة من المقابلة التي أُجريت مع بيتر بلوم الذي عمل بعد ذلك كمساعد شخصي لسالم في ٥ مارس/ آذار ٢٠٠٦م. أما المعلومات عن سفر سالم إلى دبي فقد استمدت من سجلات الطيران التي أطلع عليها المؤلف.

للشركة استنادًا إلى خطورتها الشديدة. ولم يُسمح للعائلة بالطيران على الأقل في حدود المملكة العربية السعودية، وكان سالم ينتهز الفرصة عندما يكون في أوروبا بين الحين والآخر لاستئجار طائرة والتدرب عليها كطيار[١٨].

اشتد نزاع سالم على السلطة مع أخيه غير الشقيق علي. وكان علي طويل القامة، حساس الطباع، ولم يتلق تعليمه في مدرسة داخلية. وستتركز اهتماماته لاحقًا على رعاية الحدائق والتصوير الفوتوغرافي. شعر علي بحقه في الحصول على سلطة أكبر من تلك التي يسمح بها الأوصياء الذين عينهم الملك أو سالم. وعندما ضاق صدره بذلك، طلب من الأوصياء السماح له ببيع نصيبه في الشركة والمضي إلى حال سبيله. ولم يستطع الأوصياء اتخاذ قرار في هذا الشأن، ومن ثَم أرسل علي خطابًا إلى الملك فيصل يطلب منه السماح له بالانفصال عن الشركة. وسمح له فيصل بتحقيق مطلبه، وعقد الأوصياء صفقة نال علي بمقتضاها قرابة مليون دولار مقابل التخلي عن أسهم الشركة التي يملكها، طبقًا لما ذكره لاحقًا أفراد في العائلة. (وإن صح ذلك، وحصل علي على القيمة الكاملة مقابل الأسهم التي يملكها، فإن هذا المبلغ يدل على أن القيمة السوقية العادلة الإجمالية للشركة في هذا الوقت تقل عن خمسين مليون دولار). وبعد ذلك بسنوات قليلة انتقل علي إلى لبنان ومنه إلى باريس، ولم تعد له أي علاقة بشركة العائلة مرة أخرى. وأحكم سالم وإخوته الأشقاء قبضتهم على زمام الأمور[١٩].

تزوج سالم شيخة آل العطاس، وهي كريمة عائلة حضرمية ثرية ومرموقة كانت تدير بنكًا له تعاملات مع بنوك في هولندا. وكانت هذه الزيجة مؤشرًا على صعود سالم إلى مصاف كبار رجال الأعمال الدوليين في جدة. وكانت شيخة طويلة القامة ـ شأنها شأن سالم ـ نحيفة القوام،

---

(١٨) استنادًا إلى مقابلة أجريت مع أورباخ، راجع نفس المصدر السابق.

(١٩) فيما يتعلق بالخطاب الذي أرسله علي إلى الملك فيصل فكان استنادًا إلى مقابلة إلى شخص مقرب من عائلة بن لادن ولكنه طلب عدم الكشف عن هويته. أما المعلومات التي ذكرت تفاصيل الصراع مع علي فقد استمدت من مقابلات أُجريت مع كارمن بن لادن في ٦ أغسطس/ آب ٢٠٠٤م، إلى جانب مقابلات أجريت مع فخر الدين، من نفس المصدر السابق.

وجذابة، تربت في إندونيسيا وكانت تجيد اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية إلى جانب اللغة العربية. فاجأ سالم بعض أصدقائه لأنه كان صغيرًا جدًّا وعصبيًا جدًّا ليصبح زوجًا يمكن الاعتماد عليه، ولكن زوجته رفيعة المقام سهلت عليه الأمر، حيث كانت تشارك سالم في عشق السفر إلى أوروبا والثقافة الأوروبية[٢٠].

سعى سالم إلى إظهار قدراته أمام الملك فيصل الذي سيقرر مصيره، ولكنهما شخصيتان مختلفتان تمامًا؛ فهذا شاب متهوِّر وطائش، وذاك رجل طاعن في السن متعقل. وأدرك فيصل بعد عام واحد من موت محمد أن عائلة بن لادن عليها بيع جزء كبير من حصة الأقلية التي تملكها إلى شريك أجنبي، ويُفضل أن تكون شركة أمريكية، وقد يعود هذا القرار إما لِشكّه في سالم ومدى التوافق بين الورثة في شركة بن لادن أو لأنه كان متعجلاً لإنهاء العمل في مشروعات عسير التي أولاها كل اهتمامه.

ترأس أنور علي محافظ البنك المركزي السعودي هذه المفاوضات، وأوضح للجميع أن عملية البيع ستلقى استحسان الملك. شعر علي أن «الفراغ الإداري» الذي تركه محمد بن لادن قد عجل بهذا الاندماج، بيد أنه في النهاية سيغير طبيعة الشركة. وتزايد اتجاه المملكة إلى شركات مقاولات أجنبية لإنجاز الأشغال العامة الكبرى، ويُعزى ذلك جزئيًا إلى ضمان الحصول على خامات وأعمال هندسية أعلى جودةً. وفي هذا الصدد، سيساعد مثل هذا الاندماج شركة بن لادن في مواكبة حملة التطوير التي أطلقتها المملكة في المجالات كافة. وعقد أنور علي ومجلس الأوصياء مناقشات مع شركات إنشاءات ألمانية وإيطالية وهولندية، إلا أن هدفهم الرئيس تمثل في الاندماج مع شركة موريسون نودسون التي كانت شركة بن لادن وكيلًا لها في المملكة العربية السعودية[٢١].

---

(٢٠) المعلومات المذكورة عن مظهر شيخة ولغاتها مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع أورباخ، نفس المصدر السابق. جدير بالذكر أنه لا يوجد تاريخ مؤكد لزواجهما لكن المؤكد أنهما تزوجا قبل مايو/ أيار ١٩٧٣م.

(٢١) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/553 Jeddah to Washington, August 30, 1969; September 3,1969; September 10, 1969; November 5,1970; March 19, 1971; March Z7, 1972; April 7, 1972.

في مرحلة مبكرة من عام ١٩٧٠م، اقترح أنور علي تأسيس شركة محاصصة تمتلك شركة بن لادن ٦٠ في المئة من أسهمها وتستحوذ الشركة الأمريكية على ٤٠ في المئة، وتساهم شركة موريسون نودسون بأموال نقدية تربو على المليوني دولار، على أن تقترض نصف المبلغ من البنك المركزي السعودي. وسافر علي إلى الولايات المتحدة الأمريكية على متن إحدى الطائرات لمقابلة المسؤولين التنفيذيين بشركة موريسون نودسون، وهناك عرض عليهم إبرام عقد مغر لبناء مطار جديد في جدة في صفقة ستصبح أكبر صفقات البناء التي مُنحت إلى شركة أجنبية. ولكن الطرفين اختلفا حول كيفية تقسيم المسؤولية في المشروع الجديد[٢٢].

طالبت شركة موريسون نودسون بسيطرة شبه كاملة على شركة بن لادن، إلا أن عليًّا أخبر مسؤولي وزارة الخارجية أن فيصل والعائلة المالكة «لن يقبلوا بمثل هذا الاستحواذ على الإطلاق»، لأنهم معارضون في المقام الأول «للمشروعات المشتركة التي يستحوذ الأجانب على نصيب الأسد من أسهمها». وكادت السفارة الأمريكية في جدة تعض أناملها غيظًا من تحفظات شركة موريسون نودسون لأنها تدرك أن هناك شركات أوروبية تقف على أهبة الاستعداد لانتهاز تلك الفرصة التي لن تُعوَّض. والتاريخ يعيد نفسه، فقد ابتعدت شركة بكتل منذ عشرين عامًا بسبب مطالب العائلة المالكة المبالغ فيها مفسحة الطريق لصعود محمد بن لادن. والآن، هناك شركة أمريكية عملاقة أخرى في مجال الإنشاءات في طريقها للتخلي عن فرصة الحصول على نسبة في الشركة التي أسسها بن لادن والتي أضحت شركة المقاولات الرائدة في المملكة. وعلى الرغم من اهتمام فيصل بالصفقة، فإن إحدى البرقيات العاجلة كشفت لاحقًا عن «عدم ارتياح مسؤولي شركة موريسون نودسون التنفيذيين للعمل مع شركة بن لادن غير التقليدية إلى حدّ ما»[٢٣].

---

(٢٢) المعلومات المذكورة عن القرض السعودي وشروط التعامل معه وسفر علي إلى الولايات المتحدة، راجع نفس المصدر السابق بتاريخ ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٠م.

(٢٣) نفس المصدر السابق بتاريخ ٢٧ مارس/ آذار ١٩٢٧م. وأيضًا نفس المصدر بتاريخ ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٠م. تؤكد رسائل أنور على حاجة الحكومة السعودية لإتمام مشروعات الدفاع والبنية التحتية في منطقة عسير التي كانت تعمل فيها شركة بن لادن.

يذكر هيرمان إيلتس، السفير الأمريكي في جدة خلال المراحل الأولى من هذه المفاوضات، أن المسؤولين التنفيذيين الأمريكيين أصابهم الإحباط في المقام الأول بسبب «الفوضى التي عمت أوساط العائلة آنذاك» وبسبب النظم الإدارية العقيمة التي كان مجلس الأوصياء يطبقها. إضافة إلى ذلك، قال إيلتس إن «بعض أفراد عائلة بن لادن عرضوا أخذ رشوة من شركة موريسون نودسون» لإبداء موافقتهم على الاندماج، مستطردًا: «ولا يعني ذلك أن شركة موريسون نودسون لم تعتد مثل تلك الأشياء في العمل» ولكن ذلك كان أحد العوامل المساعدة في اتخاذ قرار الابتعاد[٢٤].

في نهاية المطاف باءت المحادثات التي أجريت بشأن الاندماج بالفشل. وبهذا لن يكون لأبناء بن لادن أي شريك أجنبي يضمن استمرار الشركة التي ورثوها، بل عليهم أن يديروا دفة الأمور بأنفسهم.

وبدأت الأمور تسير في اتجاه أن يمضي كل منهم إلى حال سبيله؛ فشيّد طارق بن لادن ـ الأخ غير الشقيق لسالم والقريب منه على نحو خاص ـ شركته الخاصة في مجال الإنشاءات وأعلن عن نشاطها في الصحافة الدولية عام ١٩٧٠م. وحتى يثبت سالم قدرته على التعامل مع عمليات المقاولات الضخمة وتسليمها في الوقت المحدد، أسس بالتعاون مع ستة من إخوانه الأشقاء وغير الأشقاء بعد سنتين شركة منفصلة، هي شركة بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة. وإلى هذا الحد بدت التوقعات المقلقة التي تبعت وفاة محمد بن لادن مباشرةً قابلة للتحقيق؛ إذ إن إمبراطوريته تتفكك تدريجيًّا بسبب طموحات أبنائه الكثيرين والمتطلعين إلى الاستقلال عن الشركة الأم[٢٥].

---

(٢٤) استنادًا إلى مقابلة أجريت مع هيرمان إيلتس بتاريخ ٢٩ مارس/ آذار ٢٠٠٦م.

(٢٥) نشرت الصحيفة الأمريكية «فاينانشال تايمز» Financial Times إعلانًا عن «مؤسسة طارق محمد بن لادن للمقاولات المدنية وأعمال الهدم» في دراسة عن المملكة السعودية نُشرت بتاريخ ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٠م. وقد وُضع في ملف باسم FCO 8/1742. جدير بالذكر أن عددًا من الموظفين والشركاء ذكروا أن تاريخ تأسيس شركة بن لادن إخوان يعود إلى أوائل السبعينيات في القرن العشرين. وذلك في مقدمة كتاب: Graham & Whiteside Ltd

تذكر قاعدة بيانات الشركة أن تاريخ التأسيس يرجع إلى ١٩٧٢م.

شهدت أوروبا ولبنان وجدة الأحداث الأساسية في حياة عائلة بن لادن خلال بداية سبعينيات القرن العشرين. وفي تلك الآونة، كان أبناء محمد بن لادن الأربعة والخمسون متفاوتين في مراحلهم العمرية، ولكن الأغلبية كانت من المراهقين. وكانت أغلبيتهم تتعرف إلى إخوانه وأخواته الآخرين للمرة الأولى. وبدأ سالم يوطد مكانته شيئًا فشيئًا ككبير العائلة الجديد، فكان هو من يعطي مصروف الجيب للإخوة ويتخذ القرارات بشأن التعليم وينظم الاجتماعات الأسرية وأماكن قضاء العطلات.

كانت هناك ثلاث مراكز لنشاط العائلة في جدة؛ مكاتب شركة محمد بن لادن القديمة، ومكاتب وسط المدينة الجديدة لشركة بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة، والمجمع السكني في الضاحية عند الكيلو ٧، على طريق مكة، حيث كانت تقيم أرامل محمد وأفراد العائلة الآخرين. وكان سالم يتحرك بين هذه الأماكن جميعها، ويعقد الاجتماعات ليتقرب من الموظفين والإخوة والأخوات، إضافة إلى زيارة والدته في أيام الجمع عندما يكون في المدينة. وكانت مآذن مسجد العائلة ـ الذي بناه محمد بن لادن كأحد أعمال الخير ـ تلوح من أعلى منازل المجمع منبسطة السطح. وبجانب ذلك المجمع نرى مساكن جدرانها بيضاء مخصصة لزوجات محمد بن لادن الأخريات وبعض زوجاته السابقات. وكان يقيم مع هؤلاء السيدات في منازلهنّ الأبناء والبنات ممن لم يصلوا إلى سن المدرسة بعد. وكانت الأرامل يعشن مطمئنات بصفة عامة إحداهنّ بصحبة الأخرى. وتتذكر كارمن بن لادن التي آل بها الأمر إلى العيش معهنّ خلال منتصف سبعينيات القرن العشرين قائلةً: «إن ما أدهشني قربهنّ الشديد إحداهنّ من الأخرى... وكنت أظن أنهن سيبدين كالخصوم ولا يتحدثنّ بعضهنّ إلى بعض». إلا أنهنّ كن يعاملنّ إحداهنّ الأخرى كالأخوات[٢٦].

في ضواحي جدة كانت المجمعات الأكبر حجمًا لشركة أبيهم القديمة تحتل مساحات شاسعة؛ بأفنيتها الفسيحة التي تضم المعدات طراز كاتربيلر وصفوف المهندسين والمحاسبين العرب والأوروبيين. وكان الأوصياء

---

(٢٦) استنادًا إلى مقابلة مع كارمن بن لادن. من نفس المصدر السابق.

يديرون الشركة بكفاءة بمساعدة المسؤولين التنفيذيين والفنيين الذين كانوا يعملون فيها وقت وفاة محمد بن لادن. وفي هذه الآونة لم يكن نشاط الأولاد ليؤثر كثيرًا في نشاط الشركة(٢٧).

في تلك الأثناء كان كثير من أبناء بن لادن وبعض بناته ما زالوا يتعلمون في مدارس داخلية خارج المملكة العربية السعودية. وفي مرحلة ما بعدما قضى محمد نحبه وبدأ فيصل الإشراف بنفسه على تعليم الأطفال، التحق عدد كبير من أبناء بن لادن بمدرسة برمانا الثانوية للنخبة التي تقع في مدينة سياحية مسيحية في أحضان الرُّبى الواقعة شمال بيروت. وكان لبنان، قبل أن تشبّ فيه نيران الحرب الأهلية، أكثر البلدان العربية تقدمًا وحداثةً، وكان يتّسم بتعدد الأديان وبتأثره الشديد بأوروبا. وكانت مدرسة برمانا تضم زهاء سبعمئة طالب، وإلى جانب الأطفال في المرحلة الابتدائية، كانت تستقبل أيضًا المراهقين الذين يستعدون للدراسة الجامعية. أسست جماعات الكويكرز سبعمئة التبشيرية المدرسة خلال أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، ويعود تاريخ منشآتها الرئيسة ـ المشيدة من الحجر المحلي والقرميد الأحمر ـ إلى هذه الفترة. وكانت المدرسة تقبل التحاق الفتيات بها منذ افتتاحها، وبحلول عام ١٩٠٢م أصبحت إحدى المدارس القليلة المشتركة في العالم العربي التي تضم بين جدرانها خليطًا فريدًا من الأديان والأعراق. وتمتعت المدرسة لاحقًا برعاية العائلة المالكة البريطانية حيث افتتح دوق إدينبرغ قسمًا جديدًا للتعليم الداخلي عام ١٩٦٧م، وبعدها بسنوات قليلة افتُتحت معامل جديدة للعلوم ومركز طبي. وكانت المناهج تُدرس باللغة الإنكليزية بصفة أساسية، وكان من بين الطلاب من ينتمون إلى العائلتين المالكتين السعودية والأردنية، إلى جانب المراهقين الأوروبيين ممن كانت عائلاتهم تعمل في لبنان. وكان الطلاب يتمتعون ببرنامج رياضي رائع، مع تركيز خاص على الكرة الطائرة وكرة السلة وهو ما كان مثاليًّا لاثنين من ابني بن لادن الأطول قامةً: صالح وخليل.

كان مدرب الكرة الطائرة في المدرسة لأبناء بن لادن الذي يُدعى

---

(٢٧) استنادًا إلى مقابلات مع كل من هانيويل وبوكنا وآرميتدج. من نفس المصدر السابق، إلى جانب مقابلات أُجريت مع موظفين عملوا لدى بن لادن رفضوا الإفصاح عن هويتهم.

جو أشقر ـ وهو لبناني مسيحي ـ يمتلك متجرًا لبيع الشرائط الموسيقية في آخر الشارع المؤدي إلى المدرسة. ويذكر هذا المدرب أن أولاد بن لادن «كانوا يعشقون ما نطلق عليه «موسيقى الأندرغراوند» وفرقتي البيتلز وشيكاغو والفنان جيمي هيندركس والمغني ميك جاغر». وكانوا يستمعون أيضًا إلى الموسيقى العربية الحزينة عن الفراق والاشتياق. وكانوا أحيانًا يسافرون جنوبًا إلى بيروت بالسيارة ويدخلون دور العرض السينمائي لمشاهدة: «أفلام إلفيس بريسلي وبروس لي، ولم يكونوا يشاهدون الأفلام العربية». وكانوا يواعدون فتيات أوروبيات، وتزوج أحد الإخوة ـ الذي يُدعى خالدًا وكان يقيم في مصر ـ من امرأة دانمركية خلال هذه الفترة. وانتهى الأمر بصالح إلى إقامة علاقة طويلة المدى مع فتاة إنكليزية التحقت بمدرسة برمانا الداخلية، إلا أن والدته السورية المتحفظة لم تسمح له بالزواج منها؛ حيث كانت تريده أن يتزوج فتاة عربية مناسبة[٢٨].

انجذب الأولاد إلى الملابس الأنيقة والسيارات والطائرات. وكان بكر ـ شقيق سالم ـ يقتني سيارة أولدز موبيل قيمة في بيروت. وكان سالم يطلب من بعض أصدقائه السفر إلى أوروبا لجلب أحدث أنواع السيارات إلى لبنان أو المملكة العربية السعودية. وتتذكر شيرلي بومان، صديقة صالح، أنهم «كانوا يرتدون سراويل واسعة للغاية ومن ثَم بدوا غير مألوفين، ولم يفعلوا ذلك إلا لإثارة التعليقات. وكانوا جميعًا يصففون شعرهم الطويل مجعدًا على النمط الأفريقي، ويفتحون أزرار القمصان حتى البطون، وكانت بيروت المكان المناسب لهذا». وللمرة الأول في حياتهم، بدأ بعضهم يبذرون الأموال تبذيرًا؛ فقد اشترى صالح هدايا باهظة الثمن لوالدة بومان في إنكلترا، ممّا أغضب أباها لأنه لن يستطيع دفع مقابل هذا الترف. وقالت بومان إن صالحًا «لم يفهم مطلقًا آداب وقواعد الأوروبيين، إلا أنه كان طيب القلب ويمكن أن يسدي خدماته لأي أحد»[٢٩].

لم تكن السلطة مركزية في عائلة بن لادن متشعبة الأطراف، وقالت

(٢٨) استنادًا إلى مقابلة جو أشقر بتاريخ ٢٢ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م.

(٢٩) استنادًا إلى مكالمة هاتفية مع شيرلي كوتام بومان بتاريخ ١٨ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م.

بومان: «لم يكن هناك شخص يمكن القول إنه كبير العائلة آنذاك، وإنما كان الأبناء الكبار هم من يملون أوامرهم، ويولون اهتمامهم بأخواتهم عن كثب. وبينما سُمح لبعض الأخوات بالدراسة في الخارج، لم يُسمح لبعضهنّ الآخر. ومن جانبه، كان صالح «فخورًا جدًّا بأخواته، وكن رائعات الجمال كافة، وكن ينفقن آلاف الدولارات على الملابس»[٣٠].

نظّم سالم رحلة عائلية إلى إنكلترا والسويد. وكان بالفعل قد قام برحلات حرة إلى السويد بالدراجة مع أصدقائه في المدرسة الداخلية وبدا منجذبًا إلى الدول الاسكندنافية. وفي شهر سبتمبر/أيلول من عام ١٩٧١م، نظم سالم رحلة عائلية إلى مدينة فالون بالسويد. وكُتبت بصددها مقالة في الجريدة المحلية تحت عنوان «زيارة نجم عربي» جاء فيها:

زار سالم بن لادن مدينة فالون في رحلة عمل ترفيهية في أوروبا، وكان بصحبته اثنان وعشرون فردًا من عائلته... وقام بزيارة نادي أوفيليا للفتيات في فالون. ويُقال عن هذا الشيخ الشاب إنه من هواة صالات الديسكو، وقد زار صالات الرقص في فالون مرات كثيرة في ما مضى[٣١].

تتذكر كريستينا آكربلاد التي كانت تدير الفندق المتواضع الذي نزلت فيه العائلة: «كان أفراد العائلة يرتدون ملابس أنيقة جدًّا، ورأيناهم وهم يستخدمون السرير الإضافي الموجود في غرفهم لوضع ملابسهم عليه. وكانوا يجلبون معهم من بلادهم كثيرًا من القمصان الحريرية البيضاء المغلفة بالسيلوفان»[٣٢].

أقنع أحد المصورين أفراد العائلة البالغ عددهم واحدًا وعشرين فردًا بأن يصطفوا معًا لالتقاط صورة فوتوغرافية وهم يتكئون على سيارة أمريكية ذات أجنحة كبيرة. وكان الأولاد في الصورة يرتدون سراويل فضفاضة ملونة، وأحزمة متدلية لأسفل البطن، وقمصان منقوشة ذات ألوان مبهجة. واشتملت الصورة على إحدى عشرة فتاة وشابة في بداية

---

(٣٠) راجع نفس المصدر السابق.

(٣١) استنادًا إلى: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, p. 12.

(٣٢) مُقتبس من: *Melbourne Herald Sun*, September 25, 2001.

العشرين أو أقل. وكن يرتدين سروايل - وليس تنانير - ولم تكن هناك سوى فتاة واحدة محجبة، وكن يبتسمن في الصورة بابتهاج.

بعد ذلك بسنوات عُرف أحد الأبناء ممن كان في الصورة (الثاني من جهة اليمين، انظر ملحق الصور) في الأوساط الإعلامية بصورة متكررة بأنه أسامة بن لادن. ومن المؤكد أن هناك وجه شبه بين الشخصين، إلا أن أفراد عائلة بن لادن أكدوا وجود خطأ ما؛ إذ لم يسافر أسامة إلى السويد مع هذه المجموعة ولم يكن في الصورة الفوتوغرافية. ويبدو أنها مقولة مقنعة لأنها أتت من مصادر متنوعة من بينها كارمن بنت بن لادن التي كان بينها وبين العائلة خصومات.

على أي حال، بحلول بداية سبعينيات القرن العشرين، بدأ تعليم أسامة بن لادن يتخذ مسارًا مختلفًا تمامًا عن المسار التعليمي لمعظم إخوته وأخواته، ومن ثَم يصعب للغاية تخيّله مرتديًا سروالًا فضفاضًا.

الفصل العاشر

أسامة الصبي

كانت عالية غانم، والدة أسامة بن لادن، في زهاء الخامسة عشر من عمرها وقت ولادته. وطلّقها محمد بن لادن سريعًا في ما بعد، ربما قبل أن تبلغ الثامنة عشر. وكان أسامة هو ابنها الوحيد في تلك الفترة، ومن الطبيعي أن يتعلق أحدهما بالآخر خلال فترة التغيير هذه. وعندما كان أسامة في مرحلة المراهقة، «كان يرقد عند قدميها ويقبلهما» حسبما قال خالد باطرفي، جار أسامة وصديقه الذي أضاف أنه «لم يكن ينام ما إن يعلم أن هناك ما يضايقها»[١].

تزوجت عالية رجلًا آخر غير زوجها الأول؛ إذ خطط محمد بن لادن لها الزواج مرة أخرى من إداري متوسط الحال كان يعمل في شركته يُدعى محمد العطاس، وكان ينحدر من عائلة مرموقة من النسل الحضرمي للنبي محمد. وطبقًا لما رواه باطرفي الذي عرف عنه كثيرًا في السنوات الأخيرة، كان العطاس رجلًا دمث الخلق وأصبح في ما بعد زوجًا وأبًا يمكن الاعتماد عليه. وأنجبت له زوجته عالية أربعة أطفال آخرين، وأقام أسامة معهم في أسرة سعودية تقليدية. ولا توجد شواهد واضحة على السنوات الأولى من حياة أسامة، إلا أن المؤكد أن بداية الزيجة الثانية لعالية كان يشوبها الارتياب إلى حدّ ما. انتقلت عالية وأسامة من مجمع عائلة بن لادن النابض بالحياة في جدة ـ بما يضم من زوجات كثيرات وشد وجذب وخدم ـ إلى أسرة أكثر تواضعًا مع زوجها الجديد. وتمتع أسامة بمكانة مرموقة في هذا

(١) استنادًا إلى مقابلة مع خالد باطرفي بتاريخ ١٩ فبراير/شباط ٢٠٠٥م.

المنزل الجديد في الضاحية. فمن ناحية، لكونه الابن الوحيد لأب مُتوفى، ومن ثَم فهو أخ غير شقيق مميز. ومن ناحية أخرى باعتباره وريثًا ذكرًا لمحمد بن لادن، فكان المصدر الوحيد لدخل عائلته الجديدة وسبيل الوصول إلى الامتيازات التي تنعم بها عائلة بن لادن. وعلى الفور يمكن تخيل التعقيد العاطفي لمكانته باعتباره صبيًّا صغيرًا غريبًا عن إخوانه غير الأشقاء، وفي الوقت ذاته فإن أهميته فائقة، أي إنه كان مهمشًا من ناحية ومن ناحية أخرى ذا سلطة متمثله في إرثه الواسع. ومع ذلك فإن حقيقة هذا الوضع غير معروفة على وجه الدقة ويؤدي الحدس فيها دورًا بارزًا.

تذكر عالية أن ابنها أسامة كان «طفلًا خجولًا ولطيفًا يراعي مشاعر الآخرين، وعلى أتمّ الاستعداد لتقديم يد العون لهم. حاولت أن أزرع فيه خشية الله وحبه عز وجل، واحترام عائلته والجيران والمدرسين وحبهم». وتؤكد كل الأدلة المتوفرة بخصوص طفولة أسامة المبكرة على خجله وهدوئه. وفي كل صيف بدايةً من أواخر خمسينيات القرن العشرين وحتى أوائل سبعينيات القرن نفسه، تسافر عالية وأسامة ـ ويلحق بهما ثلاثة إخوة غير أشقاء وأخت ـ من جدة إلى مسقط رأس عالية في اللاذقية التي تطل على ساحل البحر المتوسط ليقيموا جميعًا عند عائلة عالية. ويتذكر أقارب عالية في اللاذقية أن أسامة كان هادئًا في طمأنينة واسترخاء إلى حدّ الاستحياء. وكان يفضّل أن يبقى وحيدًا ولم يكن اجتماعيًّا مع أبناء أخواله وخالاته، وكانت لديه مشكلة في التواصل مع الآخرين في بعض الأحيان. وحتى ذلك الوقت، لم يكن سببًا في إثارة المشكلات ولم ينغلق على نفسه طبقًا لما يُروى؛ ويتذكرون أنه كان يستمتع بالسباحة والصيد وركوب الخيل على نحو خاص[٢].

كانت عائلة غانم تكسب قوت يومها بشق النفس، وربما كان هذا السبب الأول لزواج عالية المبكر من محمد بن لادن . وكان أحد أفرع

---

(٢) استنادًا إلى ما قاله خالد باطرفي في مقابلة مع المؤلف. ظهر عدد من المقتطفات لهذه المقابلة في عدد من المنشورات تحت عنوان ثانوي لباطرفي. راجع أيضًا المقابلات التي نُشرت في صحيفة «القبس» الكويتية بتاريخ ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١م. وانظر أيضًا وكالة الصحافة الفرنسية بتاريخ ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١م.

العائلة يزرع أشجار الفاكهة في قرية بالجوار كمنحة من الحكومة السورية. وقال حسام الدين غانم بعد سنوات: «لولا قانون الإصلاح الزراعي» ـ وهو الذي قدّم إليهم هذا البستان كمورد رزق ـ «لم نكن سنحصل على أي شيء». وعلى النقيض، كان زوج أم أسامة في جدة يتمتع براتب ضخم، وربما كان أسامة في صباه يحصل على هدايا ومصروفات بين الحين والآخر من محمد. إلا أنه لم يكن شديد الثراء إلى حدّ يجعل أمه تنفق المال الوفير على أقاربها السوريين. وبمرور السنوات وبتحسن ظروفه المادية، غفل أسامة بن لادن في ما يبدو عن التفاوت المادي بينه وبين أقارب أمه السوريين الأقل ثراءً. وكانت هناك جزيرة صغيرة في بحيرة صغيرة بالقرب من اللاذقية اعتاد أسامة زيارتها مع أبناء أخواله وخالاته، وقال على لسان أحدهم ويُدعى سليمان غانم: «عشقت هذه الجزيرة وأحببتها حبًّا جمًّا». واستطرد: «وسألني إن كان بوسعه شراؤها ليعيش فيها»[٣].

كان محمد بن لادن شخصية غير وثيقة الصلة بأسامة خلال فترة صباه مع أنه ـ وبوضوح ـ ألهمه وأثر فيه بشدة. وتعود معظم الأدلة الممكن الوثوق في صحتها بخصوص علاقات أسامة مع عائلة أبيه إلى الفترة اللاحقة لموت أبيه، إلا أن المعلومات المتاحة تؤكد أن أسامة كان دائمًا عضوًا بارزًا بين الأبناء الذين كان محمد بن لادن يجمعهم بين الحين والآخر للاطمئنان عليهم وتعليمهم أمور الدين. وتحدث أسامة نفسه عن إدراكه لأبيه صبيًّا وعن إلقاء الشعر أمامه والذهاب إلى مواقع العمل وعن شعوره بأنه أمام قدوة ونموذج يُحتذى بهما. وقال جمال خليفة ـ صديقه في فترة الدراسة الجامعية ـ إن أسامة كان «يعتبر أباه أسوةً حسنة، ومع أنه لم يصاحبه كثيرًا فإنه سمع عنه الكثير». وبصفة خاصة استوعب أسامة فكرة أن أباه ليس «رجلًا تقليديًّا يجلس وراء مكتبه ليصدر الأوامر». بل كان محمد بن لادن يعمل بساعديه في الصحراء الجرداء ويقود العمل بنفسه وسط كتيبة موظفيه ذوي الخلفيات العنصرية المتعددة. وبالطبع سيتخذ أسامة هذا النمط القيادي أسوةً بأبيه[٤].

---

(٣) نفس المصدر السابق في صحيفة **القبس**. وراجع مرة أخرى نفس المصدر.

(٤) استنادًا إلى: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, p. 17.

ليس هناك دليل محدد فعليًا عن المواقع التي زارها أسامة وهو صبي أو عما شاهد ما يفعله أبوه هناك، سوى التلميحات غير المباشرة التي كان أسامة يدلي بها من آن إلى آخر عن الأعمال التي كانت تُجرى في المدينتين المشرفتين وذكرياته المفصلة عن عمل أبيه في القدس. كان أسامة بين السادسة والعاشرة من عمره عندما اشترك محمد في عمليات الدك والهدم العمراني الشاملة في مكة المكرمة بالقرب من جدة، ويبدو أنه من المؤكد أن أسامة قام بزيارة إلى المدينة في هذه المرة خلال موسم الحج وفي مناسبات أخرى. وبعد عام ١٩٦٥م بصفة خاصة، تمركز اهتمام محمد بن لادن الأكبر في منطقة عسير التي كان يسافر منها وإليها على متن طائرته كل أسبوع. وكانت شركته قد أقامت معسكر عمل كبيرًا جنوب الطائف مباشرةً، على بُعد بضع ساعات من جدة بالسيارة، إلى جانب إقامة معسكرات أخرى حول مدينة أبها لا يُمكن الوصول إليها إلا بالطائرة. وحتى وإن لم ير أسامة هذه المواقع على الإطلاق، بصخورها الحممية الكبيرة المستديرة وقممها شديدة الانحدار، التي كانت تُشق من خلالها الطرق الجديدة بأيدي العمال اليمنيين والأفارقة الذين يعملون لدى أبيه، فمن المؤكد أنه استوعب نطاق المشروعات التي ينفذها أبوه وأهميتها على الحدود الجنوبية. ومما لا شك فيه أن أسامة ـ شأنه شأن أي شخص آخر في عائلته ـ علم عام ١٩٦٧م عندما كان في زهاء التاسعة من عمره أن والده قضى نحبه في حادث طائرة في عسير، وأنه قُتل بسبب خطأ جسيم اقترفه طياره الأمريكي(*).

يُعد الدليل المتاح عن تعليم أسامة في المرحلة الابتدائية دليلًا منقوصًا. ومن المفترض أن أباه تأكد من انتظامه في المدرسة شأنه شأن كل إخوته غير الأشقاء. وترجح عبارات والدته المقتضبة أنه حفظ القرآن ودرس تعاليمه بالطريقة التي يتعلم بها الأطفال الصغار في المملكة العربية السعودية تمامًا. ومع ذلك يبدو أنه تعلم منذ البداية ـ مثل إخوته غير

(*) تنحدر أصول خمسة أفراد من الخاطفين الذين هاجموا الأهداف الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ـ الذين عينهم أسامة بن لادن لأداء هذه المهمة ـ إلى عسير. ويا لها من مفارقة عجيبة بين هذين الحادثين الجويين اللذين تضمنا أفرادًا من أمريكا وعسير، وحدثا في شهر سبتمبر/ أيلول في تاريخين الفارق بينهما ثلاثة وأربعون عامًا.

الأشقاء ـ في مدارس متأثرة بالمناهج والثقافة الغربية، وليس هناك دليل على أنه كان يتعلم في مدارس دينية طوال الوقت.

وفي الوقت الذي التحق فيه بالصف الثامن، كان طالبًا يمكن الاعتماد عليه وإن كان لا يزال ضمن المستوى العادي. ويُرجح أنه حصل على قدر من التعليم الابتدائي في سوريا، ربما بسبب زياراته المؤقتة المتكررة إلى اللاذقية عند أقارب والدته. وتذكره أمه قائلةً إنه: «لم يكن طالبًا متفوقًا، لكنه كان يجتاز الامتحانات بدرجات متوسطة، إلا أن زملاءه في الفصل وجيرانه كانوا يحبونه ويحترمونه»[٥].

قرابة بلوغه العشر سنوات ـ وهي السن التي أُرسل فيها عدد من إخوته غير الأشقاء إلى لبنان وسوريا لتلقي تعليمهم في مدارس داخلية ـ التحق أسامة أيضًا بمدرسة برمانا التبشيرية للنخبة التي أسستها جماعة الكويكرز شمال بيروت، كطالب في القسم الداخلي. ويذكر خمسة طلاب ومديرون سابقون في المدرسة، بمن فيهم مدير مدرسة برمانا الابتدائية، في مقابلات منفصلة أن أسامة التحق بالمدرسة خلال منتصف ستينيات القرن العشرين، إلا أنه انسحب منها وعاد إلى وطنه بعد مرور أقل من عام واحد. ولم يتذكر أحد أسباب فشل تجربته القصيرة بالإقامة بعيدًا عن الوطن، لكن المؤكد أن ذلك لم يكن بسبب سلوكه السيئ أو درجاته المنخفضة. ويتذكر رينيه باز الذي كان أحد الإداريين في المدرسة أن أسامة التحق بمدرسة ابتدائية أخرى في لبنان قبل التحاقه بمدرسة برمانا.

وتتذكر إيميلي صوايا، مديرة القسم الابتدائي في مدرسة برمانا خلال ستينيات القرن العشرين أن أسامة كان في زهاء العاشرة من عمره عندما التحق بالمدرسة، وأن كثيرًا من إخوته غير الأشقاء كانوا بالفعل ملتحقين بالقسم الداخلي. وتقول صوايا: «كان هادئًا وخجولًا وطالبًا مؤدبًا مطيعًا، ومجدًا في دراسته»[٦].

ربما كان أسامة لا يزال في لبنان عندما قضى أبوه نحبه. وتتذكر صوايا

---

(٥) نص المقابلة مع باطرفي في نفس المصدر السابق.

(٦) استنادًا إلى مقابلة مع إيميلي صوايا بتاريخ ٢٢ أبريل/ نيسان ٢٠٠٠م.

أن سالمًا وصل لزيارة أخيه بعد وفاة محمد بوقت قصير. وسألت صوايا أحد المسؤولين الإداريين في المدرسة هل سالم هو الآن الوصي على الأولاد، وقيل لها: «لا، بل الملك... الملك فيصل، هو الوصي الرسمي عليهم». وقابل سالم إخوته، حسبما تتذكر صوايا، وتقول: «الغريب أنه لم يكن يعرفهم، ومن ثَم قدمناهم إليه، وعندما دخل غرفة الاستقبال، قبلوا يده». وقدم إليه المدرس الذي يشرف على القسم الداخلي في المدرسة الابتدائية «أسامه وإخوته»(٧).

يتذكر أحمد محمد ـ أخو أسامة من زوج أمه ـ زيارته إلى بيروت مع أسامة عندما كان أسامة في الثانية عشرة من عمره تقريبًا قائلًا: «اعتاد اصطحابنا إلى عروض أفلام الكاوبوي والكاراتيه»(٨). وبعد أن اشتهر أسامة انتشرت الشائعات عن استمتاعه بالحياة الليلية وانغماسه في الملذات في بيروت في سن المراهقة، مع عدم وجود دليل على ذلك. وربما خلطت هذه الشائعات بين وجود أسامة في بيروت في مرحلة الصبا وبين أساليب الحياة التي انتهجها بعض إخوته غير الأشقاء الأكبر سنًّا خلال أوائل سبعينيات القرن العشرين.

وبعد خروج أسامة من مدرسة برمانا، يبدو أنه قضى بعض الوقت بعد موت أبيه مباشرةً في مسقط رأس أمه، في اللاذقية. ويروي مدرس لغة إنكليزية هناك في المدرسة يُدعى سليمان الكاتب أن أسامة: «تأثر بموت أبيه، وانزوى عن الآخرين إلى حدّ بعيد». وبحلول شهر سبتمبر/ أيلول التالي، كان قد انتقل إلى منزل أمه في جدة. وبعد وفاة محمد يتذكر خالد باطرفي: «أن أمه كانت كل حياته، وكان أسامة مطيعًا لها». وشعر باطرفي أن أسامة ازداد قربًا من أمه «ربما بسبب عدم قربه من أبيه»(٩).

ألحقت عالية ابنها أسامة بمدرسة محلية خاصة في جدة لعلية القوم، هي مدرسة الثغر النموذجية التي كانت تفتخر بمناهجها الحديثة؛ إذ كانت

---

(٧) كل الاقتباسات مأخوذة من نفس المصدر السابق.

(٨) مقابلة مع ديفيد إنسور في قناة السي. إن. إن. بتاريخ ١٩ مارس/ آذار ٢٠٠٢م.

(٩) استنادًا إلى وكالة الصحافة الفرنسية في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق.

المدرسة الوحيدة في المملكة العربية السعودية التي استطاعت الشروع في مقارنة نفسها بمدرسة مثل مدرسة برمانا. التحق أسامة بالمدرسة عام ١٩٦٨م بعد حادث الطائرة التي لقي فيه أبوه حتفه بعام تقريبًا، وربما كان حينها في الصف الخامس أو السادس الابتدائي. وهذا يعني أنه كان على وشك البلوغ ومن ثَم صُدم لفقدان أبيه. إلا أنه عاش في منزل مريح مع زوج أم هادئ الطباع يمكن الوثوق به، ولكن لأنه وريث محمد بن لادن، بقي بعيدًا عن إخوته من أمه من زواجها الثاني؛ بيولوجيًّا وماديًّا وكان أسامة حالة خاصة. ويبدو أن المنطق يفرض علينا أن نقول إنه كان يبحث عن التوجيه في تلك الفترة. وعلى أي حال، ستنقلب حياته رأسًا على عقب حينما يقابل نموذج الأب قريبًا في مدرسة الثغر.

تمتدّ مدرسة الثغر على مساحة عشرات الفدادين القاحلة المحاطة بأشجار الكافور التي تمايلت فروعها بفعل الرياح القادمة من البحر الأحمر. وكان حرم المدرسة يمتد شمالاً من طريق مكة القديم، بالقرب من وسط مدينة جدة. وكان المبنى الرئيس للمدرسة مستطيل الشكل مكونًا من طابقين، ومبنيًّا من الخرسانة والحجر بأسلوب حديث ولكنه رتيب. ومن داخل المدرسة تربط الأروقة بين جناحين من الفصول؛ أحدهما للطلاب في المرحلة الإعدادية التي بدأ أسامة فيها، والآخر للمدرسة الثانوية، وبينهما فناء داخلي فسيح. ومن الطابق الثاني يتكئ الطلاب على سياج الشرفة ويصيحون في زملائهم بالأسفل أو يلقون عليهم بقصاصات الورق. وكان معظم الطلاب في مدرسة الثغر يأتون إلى المدرسة ويغادرون يوميًّا شأنهم شأن أسامة، وقليلٌ من الطلاب ملتحقون بالقسم الداخلي؛ كانوا يقيمون في الطابق الثاني، مثل بعض المدرسين الأجانب[١٠].

تولت الحكومة السعودية تمويل مدرسة الثغر وتعيين مدرسيها، وخلال ستينيات القرن العشرين وأوائل السبعينيات، اشتهرت المدرسة بأنها مقاطعة

(١٠) زار المؤلف مدرسة الثغر مرتين كان من ضمنها مرة ذهب فيها بصحبة الزميل الدراسي لأسامة الذي أعطى وصفًا دقيقًا للمنظر العام للمدرسة في أواخر فترة الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين. وأكد وصف الزميل الدراسي رواية مدرسيْن كانا يعملان في تلك الفترة وهما فايفيلد ـ شايلر Fyfield-Shayler وسيموس أوبراين Seamus O'Brien.

مخصصة لأبناء رجال الأعمال والعائلة المالكة. وكان محمد بن لادن يزور المدرسة من آن إلى آخر خلال منتصف ستينيات القرن العشرين عندما كانت مركزًا لجمع التبرعات للمساعدة في تأسيس أول جامعة في جدة، التي أصبحت جامعة الملك عبد العزيز، حيث التحق بها أسامة لاحقًا. وكانت المدرسة تشترط على أي سعودي يريد الالتحاق اجتياز اختبارات صعبة، والتحق بالمدرسة بعض الطلاب من الطبقة العاملة الذين تمكنوا من اجتياز الاختبارات جنبًا إلى جنب مع الصبية الأكثر ثراءً(١١).

تأسست مدرسة الثغر في بداية الخمسينيات في مدينة الطائف على يد فيصل، إلا أنها لم تحتل مكانتها المرموقة إلا عندما أسس فيصل المجمع الكبير في جدة عام ١٩٦٤م، وبدأ في تمويلها سنويًّا بملايين الريالات من الميزانية القومية. أولى حمو فيصل التركي، المدعو كمال أدهم، اهتمامًا بالمشروع وسافر إلى بريطانيا، حيثما قابل مسؤولين حكوميين من أجل الحصول على الدعم، وأبلغهم أنه يظن أنه من الضروري أن تكون المدرسة على غرار فكتوريا كولدج ذات الطابع البريطاني التي تقع في الخرطوم، بالسودان. وفي الوقت الذي التحق فيه أسامة، كانت مدرسة الثغر النموذجية ـ وهو الاسم الرسمي لها ـ واجهة جذّابة لحملة التجديد والتطوير التي قادها فيصل في المجتمع السعودي، ولاهتمامه بالعلوم وأساليب التعليم الغربية على نحو خاص. وكانت هي المدرسة الوحيدة في جدة التي تتمتع بتكييفات الهواء خلال ستينيات القرن العشرين، وكانت أول مدرسة في المملكة تضم فصولًا مزودة بأجهزة لتعليم الكمبيوتر في السنوات اللاحقة. ولم يكن طلاب تلك المدرسة يرتدون الزي القومي المتمثّل في الجلباب وغطاء الرأس، بل كانوا يرتدون زيًّا موحدًا مماثل لزي المدارس الإعدادية الإنكليزية والأمريكية: القمصان البيضاء ذات الأزرار على طرفي الياقة، ورابطة العنق، والبناطيل الفضفاضة رمادية

---

(١١) المعلومات الخاصة بالتمويل السعودي واردة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS S9/906 Jeddah to Washington, November 17,1966, reports on the Saudi national budget and cites a line item of 2.9 million riyals for «subsidy» to Al Thaghr.

واستنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع المدرسَين أوبراين وفايفيلد ـ شايلر بتاريخ ٢٣ فبراير/ شباط ٢٠٠٧م.

اللون، والأحذية والجوارب السوداء، والسترات الرمادية الغامقة في فصل الشتاء[١٢].

كان متوسط عدد الأطفال المتخرجين في المدرسة كل عام يبلغ ستين صبيًّا. وكل صباح كان الطلاب يصطفون في طوابير على غرار الجيش، وكان ناظر المدرسة يجلس في ركن من الأركان على مقعد بلا ظهر والعصا في يده، استعدادًا لمعاقبة من يسيئون التصرف، بضربهم على أخمص أقدامهم العارية. وكان المنهج الدراسي يتضمن تعليم اللغة الإنكليزية على يد مدرسين من إيرلندا وإنكلترا، والدروس الأساسية في الرياضيات. وفي الوقت نفسه، كما هي الحال في معظم المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية، التزمت مدرسة الثغر بالتعاليم الإسلامية واشتمل منهجها على تدريس الدين باعتباره جانبًا أساسيًّا من جوانب التعليم. وفي منتصف اليوم يؤدي الطلاب صلاة الظهر في جماعة[١٣].

عندما التحق أسامة بالمدرسة كان مميزًا إلى حدّ بعيد نظرًا إلى طول قامته الملحوظ، إلا أنه كان شخصًا كتومًا، إذ كان يجلس بجوار نافذة في ركن خلفي في الفصل تطل على الملعب. يذكر بريان فايفيلد شايلر المدرّس البريطاني في المدرسة أنه في حصة اللغة الإنكليزية التي كانت تتوسط سائر الحصص في اليوم: «كنت أحاول إثراء جانب التحدث في اللغة الإنكليزية لدى الطلاب. وكي يتحقق النجاح في ذلك الأمر، ينبغي أن يكون الطالب على استعداد للوقوع في الخطأ إلى جانب ضرورة التعبير عن نفسه إلى حدّ ما، وكان أسامة خجولًا ومتحفظًا مقارنة بزملائه، وربما متخوفًا قليلًا من ارتكاب أخطاء». وكان أيضًا «مهذّبًا جدًّا. . . أكثر تهذيبًا

---

(١٢) وردت مناقشات كمال أدهم عن المدرسة مع السلطات البريطانية في تقرير وزارة الخارجية البريطانية: DOS 59/2813 Jeddah to Washington, November 7,1962.

أما وصف الزي الموحد للمدرسة فكان عن طريق الصور الفوتوغرافية وذكريات عدد من الطلاب السابقين.

(١٣) استمدت تلك التفاصيل وما تبعها من سلسلة من المقابلات أُجريت مع زميل أسامة في الدراسة الذي التحق بالمجوعة إلي كانت تدرس الدراسات الإسلامية بعد انتهاء فترة المدرسة والذي طلب عدم توضيح هويته. جدير بالذكر أن المؤلف عقد عددًا من المناقشات والمقابلات مع زميل الدراسة على مدار سنتين وهو مدين بالشكر لإسهاماته. وفي رأي المؤلف فإن مصداقية الذكريات التي رواها هذا الزميل تتخطى أي مجال للشك.

من الطالب العادي، وربما يرجع ذلك جزئيًّا إلى خجله الزائد عن معظم الطلاب». ويشير سيموس أوبراين، مدرس اللغة الإنكليزية الإيرلندي في مدرسة الثغر، إلى أن أسامة كان «ولدًا لطيفًا وطالبًا مجتهدًا. ولم يكن يتسبب في أي مشاكل. . . إذ كان صبيًّا هادئًا، لكنني أدركت لاحقًا أن هذا الهدوء هو الذي يسبق العاصفة!» وهناك مدرسٌ آخر يُدعى أحمد باديب، يتذكر أسامة ويقول: «إنه كان متوسط المستوى» على الصعيد التعليمي؛ وهذا تقييم يتوافق مع ما ذكرته والدة أسامة(١٤).

قرابة عام ١٩٧١م أو ١٩٧٢م، عندما كان أسامة في الصف الثامن أو التاسع، وُجهت إليه دعوة للانضمام إلى مجموعة للدراسات الإسلامية بعد المدرسة بقيادة أحد المدرسين السوريين في مادة التربية البدنية، وكان هذا المدرس يقيم في الطابق الثاني أعلى الفناء. وفي هذه الفترة في المدارس الثانوية والجامعات السعودية، كان من الشائع وجود مدرسين سوريين ومصريين ممن ينتمون في بلادهم إلى جماعات إسلامية سياسية منشقة. وكان بعض هؤلاء المدرسين أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين أو متأثرين بها على الأقل، وهي الجماعة الإسلامية التي تأسست في مصر عام ١٩٢٨م على يد مدرس يُدعى حسن البنا. كانت جماعة الإخوان المسلمين في مستهل الأمر حركة موجّهة دينيًّا لمعارضة الاستعمار البريطاني في مصر، ثم ما لبث زعماؤها لاحقًا أن أكملوا كفاحهم ضد حكم جمال عبد الناصر. وعلى مدار فترة تعامل عبد الناصر مع الإخوان المسلمين، استخدم سياسة التسوية والمهادنة معهم تارة وقمعهم الوحشي تارة أخرى. وأُجبر بعض قادة حركة الإخوان المسلمين على النفي من بلادهم، وبدؤوا

---

(١٤) اقتباس من فايفيلد ـ شايلر في: *Meeting Osama Bin Laden*, WGBH, 2004.

وأيضًا: *The Osama Bin Laden I Know*, pp. 8-9.

استنادًا أيضًا إلى المقابلة التي أجريت مع سيموس أوبراين بتاريخ ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع أحمد باديب على قناة أوربت في مطلع عام ٢٠٠٢م. جدير بالذكر أن باديب أعطى شريط الفيديو الذي سُجلت عليه المقابلة إلى مؤلف هذا الكتاب الذي ترجمه في شركة خاصة في واشنطن العاصمة تُدعى «ذا لانغوتش دكتورز» The Language Doctors. ترقى باديب بعد أن كان يشغل وظيفة متواضعة كمدرس أحياء في مدرسة الثغر وصار مديرًا للاستخبارات السعودية -في ظلّ رئاسة تركي الفيصل ـ ومكّنه هذا المنصب من التواصل المستمر مع أسامة في أثناء الحرب في أفغانستان.

في تكوين فروع للجماعة في أنحاء العالم الإسلامي. وتمثل هدفهم في إحلال حكومات إسلامية محل القادة العرب العلمانيين والقوميين، وكانوا عادة يمارسون أنشطتهم تحت غطاء من السرية. وكانت الحركة، عادة، تختار أعضاءها من الأوساط الراقية المثقفة. وكانت أهدافها تتضمن نشر التشريع القرآني في المجتمعات الإسلامية وتفويض السلطة لعلماء الدين الإسلامي، كحكام يسيّرون أمور الشعوب بالثقافة الإسلامية لنشر العدل والمساواة في أرجاء العالم الإسلامي. وعلى مرِّ السنين عمل الإخوان المسلمون جهرًا وسرًّا من خلال حشد الحملات السياسية السلمية تارة ومن خلال دعم العنف تارة أخرى.

كان الملك فيصل ينظر إلى الإخوان المسلمين بعين الارتياب؛ فمن المؤكد أنه كان حذرًا والآخرين في العائلة المالكة من ولع الجماعة بالتنظيمات السياسية عبر الحدود القومية. ولأنه لا يزال في غمرة حملته لتفادي تطلعات جمال عبد الناصر القومية من خلال إظهار حماسته للإسلام، وجد فيصل مبتغاه في المدرّسين المنفيين المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين. وتطلع إلى نشر التعليم في أوساط الشعب السعودي بسرعة البرق، ولم يكن لديه مدرّسون سعوديون يُعتمد عليهم. ومن ثم، كان المدرسون المتأثرون بفكر الإخوان هم المجموعة التي بدت الأنسب لتحقيق ذلك، وخاصةً هؤلاء المثقفين من سوريا ومصر[١٥].

ولتحديد المرشّحين للدراسة في المجموعة الإسلامية التي تبدأ نشاطها بعد انقضاء اليوم الدراسي، اختار مدرس التربية البدنية السوري في مدرسة الثغر خمسة أو ستة أولاد، وأغراهم متعهدًا برفع تقديراتهم وممارسة الرياضات المنظمة. ويتذكر أحد زملاء أسامة في المدرسة وأحد أعضاء

---

(١٥) المعلومات عن تأثير الإخوان في المملكة العربية السعودية مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع عددٍ من المحللين السعوديين الذين طلبوا عدم الكشف عن هويتهم إلى جانب مقابلات مع مستشار الحكومة السعودية خليل أ. خليل بتاريخ ١٠ فبراير/شباط ٢٠٠٥م. المعلومات عن الشكوك التي راودت فيصل وردت في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/4944 Jeddah to Washington, May *5, 1959*.

أكدت برقية ظهرت في اليوم التالي خاصة في الموضوع نفسه أن سعودًا «يساهم في تمويلها» وأن «الإخوان المسلمين مسموح لهم التحرك بحرية من المملكة العربية السعودية وإليها».

المجموعة الدراسية أيضًا أن المدرس كان «طويل القامة، شابًا في أواخر العشرينيات، ويتمتع بلياقة عالية». واستطرد قائلًا: «كانت له لحية، لكنها لم تكن بطول لحية فقهاء الدين. ولم يبد أنه شديد التدين... وكانت له مشية رياضية باستقامة وثقة، وكان يتمتع بشعبية كبيرة. وكانت شخصيته جذابة، وكان يستخدم الدعابة ـ الهادفة ـ بتحفظ شديد، وكان يصيغ الفكاهة والمواقف المضحكة لإقامة جسور التواصل والثقة بيننا»[١٦].

يستطرد زميل أسامة بن لادن في المدرسة متذكرًا الأعضاء الأوائل في المجموعة، التي اشتملت بالإضافة إلى بن لادن على أبناء كثير من العائلات المرموقة في جدة: «كان بعضنا رياضيًّا، وبعضنا لم يكن كذلك». كما إن المدرس السوري «وعدنا إن بقينا بعد وقت الدراسة الرسمي، فقد يشكل منا فريقًا رياضيًّا للعب كرة القدم. وكنت شديد الشغف بهذه الرياضة، ومن ثَم بدأنا نمكث معه في المدرسة بعد انتهاء موعد الدراسة في المدرسة من الثانية مساءً حتى الخامسة. وفي بداية المجموعة، ذكر لنا المدرس أننا في البداية سوف نقضي القليل من الوقت في الفصول في مستهل الأمر، لحفظ بعض الآيات القرآنية كل يوم، وبعدها نخرج للعب كرة القدم. وكان مقصده أننا إن حفظنا القليل من الآيات القرآنية كل يوم قبل أن نلعب كرة القدم، سوف نحفظ القرآن الكريم كاملًا في الوقت الذي ننهي فيه دراستنا الثانوية، ويا لها من ميزة رائعة».

أضاف زميل الدراسة أن أسامة «كان طالبًا جديرًا بالاحترام، وبينما كان منزويًا عن الآخرين إلا أنه اتسم بالأمانة؛ دأب كثير من زملاء الدراسة على أخذ ساندوتشات الزملاء خلسة على سبيل المزاح وأكله إن تُرك على المكتب. إلا أننا اعتدنا ترك الأشياء الثمينة مع أسامة لأنه لم يكن يغش أبدًا. وكان شخصية رزينة وجادة، لم يكن يغش من الآخرين أو ينقل عنهم شيئًا، إلا أنه لم يكن يخبِّئ ورقة إجابته إن أراد الآخرون النظر إليها من ورائه».

في مستهل الأمر جرت الأمور في المجموعة الدراسية كما وعد

---

(١٦) راجع الملاحظة رقم ١٣ أعلاه. تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ كل الاقتباسات المذكورة في هذا السياق والتي ستذكر لاحقًا مأخوذة من زميل الدراسة نفسه.

المدرس: «كنا نجلس ونقرأ القليل من الآيات القرآنية، ونشرح أو نناقش تفسيرها، وتُعرض كثير من وجهات النظر. وبعد ذلك يأذن لنا بالخروج إلى الملعب. وكانت معه مفاتيح الخزانة الرائعة التي كانت تضم الكرات والمعدات الرياضية. ولكن تبين لي أن الجزء الرياضي لم يكن جيد التنظيم، ولم يكن إلا ملحقًا للنشاط الأساسي. ولم تكن كرة قدم بالمعنى المتعارف عليه. . . وآل بي الأمر للعب كرة قدم ثنائية، وهو أمر لا ينطوي على الكثير من المتعة».

شيئًا فشيئًا تزايد الوقت الذي تقضيه المجموعة داخل المدرسة. وبعد قرابة عام يقول زميل بن لادن في المدرسة إنه بدأ يشعر بأنه مسلوب الحرية وبدأ الملل يتسرب إليه، ولكن في هذا الوقت نشأت صداقة حميمة بين أفراد المجموعة، وعُرف بن لادن بأنه أحد الأصدقاء المخلصين. وتدريجيًّا توقف هؤلاء المراهقون عن حفظ القرآن وبدأوا يقرؤون ويناقشون الأحاديث الشريفة، وسير النبي محمد، والروايات المتعددة للمصادر المنقولة عنها الأحاديث، التي تُدرس تلقائيًّا للمساعدة في تسليط الضوء على الأفكار المنقولة عن القرآن الكريم. وكانت جلسات المجموعة الدراسية تُعقد بعد انتهاء اليوم الدراسي في غرفة مدرس التربية البدنية السوري، وكان يضيء شمعة واضعًا إياها على طاولة في منتصف الغرفة ويجلس الأولاد ـ بمن فيهم أسامة ـ على الأرض ويستمعون. وكانت الروايات التي يقصها المدرس السوري تتّسم بالغموض من حيث زمانها ومكانها، حسبما يتذكر زميل أسامة في المدرسة، ولم تكن متعلقة بزمن النبي محمد على نحو بيّن، على عكس الأحاديث الشريفة. وبمرور الوقت بدأ المدرس السوري ـ طبقًا لما ذكره زميل أسامة ـ يروي لهم «قصصًا عنيفة حقًّا ولكنها تسلب الألباب».

قال زميل أسامة في المدرسة إنه لا ينسى قصة بعينها: «عن صبي هداه الله، وكان في مثل عمرنا. وأراد إرضاء ربه إلا أن أباه وقف حجر عثرة في طريقه؛ إذ كان يسحب سجادة الصلاة من تحته وهو يصلي». وكان المدرس السوري يسرد «القصة بهدوء، وكان يشير إلى الصبي بعبارات مثل «هذا الصبي الشجاع» أو «الصبي الصالح» بينما يقترب إلى ذروة القصة. وأشار إلى أن والده كان بحوزته مسدس. وظل يحكي عشرين دقيقة عن استعداد الصبي لقتل أبيه خطوةً بخطوة؛ الرصاص وحشو البندقية ووضع الخطة.

وأخيرًا، قتل الصبي أباه». وبينما وصل إلى ذروة القصة، قال المدرس السوري: «الحمد لله، سطعت شمس الإسلام في هذا المنزل». وطبقًا لرواية زميل أسامة في المدرسة: «شاهدت الصبية الآخرين، البالغة أعمارهم أربعة عشر عامًا، فاغرة أفواههم من الذهول. إلا أنني، بالله العظيم، قلت لنفسي: «لا»... انتابني شعور بالقلق، وبدأت على الفور أفكر في أعذار وكيفية تجنب الرجوع إلى الجلسات مرةً أخرى».

توقف هذا الصبي بدءًا من اليوم اللاحق عن الحضور. ولكن خلال السنوات الكثيرة اللاحقة، لاحظ أن أسامة وزملاءه الآخرين في مجموعته السابقة ـ ممن واصلوا حضور الجلسات مع مدرس التربية البدنية ـ بدؤوا في تبني أساليب الناشطين المراهقين الإسلاميين ومعتقداتهم علنًا. إذ أطلقوا لحاهم الوليدة وقصّروا سراويلهم، ورفضوا كي قمصانهم (تأسيًا مزعومًا بثوب النبي محمد)، وازداد إلقاؤهم المحاضرات على الطلاب الآخرين في مدرسة الثغر أو مجادلتهم بخصوص الحاجة الملحة لاستعادة تطبيق الشريعة الإسلامية الخالصة في أرجاء العالم العربي.

في السنوات التي كان أسامة في المرحلة الثانوية، كانت مدرسة الثغر قد أصبحت مرتعًا للجدل في حدود البيئة السياسية العقيمة للمملكة العربية السعودية. ودار هذا الجدل بين طلاب متأثرين بجمال عبد الناصر وفكرة القومية العربية الشاملة، وطلاب متأثرين بجماعة الإخوان المسلمين وفكرة إعادة تطبيق الشرع الإسلامي في أمور السياسة العربية. وبكل وضوح كان أسامة من بين طلاب الفئة الثانية، ويشير المدرس أحمد باديب إلى أنه «التحق باللجنة الدينية» في المدرسة. ويذكر لنا خالد باطرفي «أن أسامة كان عضوًا بارزًا» وأن «هذه الجماعة تأثرت بالإخوان، وتأثر أسامة بهذه الفلسفة». وعزّز جمال خاشقجي الذي عرف بن لادن خلال ثمانينيات القرن العشرين ما قاله باطرفي؛ إذ قال إن أسامة «بدأ حياته مع الإخوان المسلمين» بمعنى أنه انضم إلى الحركة رسميًّا خلال فترة المراهقة أو بعدها مباشرةً[١٧].

---

(١٧) من حلقة باديب على قناة أوربت في عام ٢٠٠٢م، في نفس المصدر السابق. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأخيرًا من المقابلة التي أُجريت مع جمال خاشقجي بتاريخ ٢ فبراير/شباط ٢٠٠٢م.

قال خاشقجي الذي كان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين لفترة من الزمن إن الانضمام إلى الجماعة «يكون بالعضوية، وغالبًا ما يُنتقى الأعضاء ويُعينون». والتعيينات «تمر بمراحل مختلفة». وربما تُعقد اجتماعات ومحاضرات دينية أسبوعية لمدة عامين قبل أن يُستدعى العضو الجديد إلى حضور «اجتماعات أكثر خصوصيةً... وحينها سوف يقولون: «هل تريد الانضمام إلى الإخوان المسلمين؟» وعلى الأرجح سيقول العضو: «نعم»، لأنه سيشعر أنه سينضم إلى جماعة على وشك الازدهار... وسيصبح جزءًا منها». وغالبًا ما يكون تعيين فرد ما في الجماعة قرارًا سريًّا، إلى جانب اختلاف درجات العضوية من بلد إلى بلد ومن آن إلى آخر. ولا يوجد دليل دامغ على توقيت التحاق أسامة رسميًّا بالجماعة وكيفية انضمامه إليها، إلا أن الثابت أن التمتع بالعضوية الكاملة في جماعة الإخوان المسلمين يكون مقصورًا على الشباب البالغ، ولذا يُرجح أن نشاطه في المدرسة كان بمنزلة تدريب من نوع ما على نشاط أكثر رسمية في الحركة بعد التحاقه بالجامعة[(١٨)].

سنكتشف أن الأصول المصرية لجماعة الإخوان المسلمين وتركيزها على النشاط السياسي سيكون لهما أكبر الأثر في مسار حياة أسامة بمجرد بلوغه سن الرشد. ومع ذلك، فإن مبادئ الجماعة التي عُززت في المدرسة الثانوية كان من الصعوبة بمكان تمييزها عن المبدأ العام للالتزام بتعاليم الإسلام السمح الذي عزّزه فيصل في المملكة العربية السعودية كحركة مضادة للناصرية. وبسبب قمع العائلة المالكة السعودية للتنظيمات السياسية في المملكة إلى حدّ بعيد، حاول علماء الدين كثيرًا تجنب الموضوعات السياسية الصريحة مفضلين بدلًا منها التركيز على الموضوعات الدينية المتعلقة بالصلاة والعبادات وسلوك المسلم. يقول خالد باطرفي إن جماعة بن لادن في مدرسة الثغر تأثرت إلى حدّ ما بهذا التشديد على البحث عن الحياة الإسلامية القويمة، إلا أنها تبنت «أجندة سياسية أو نشطة» مستقاة من فكر الإخوان المسلمين. وألمح سعود الفيصل ـ نجل الملك الذي

(١٨) من المقابلة التي أُجريت مع خاشقجي في نفس المصدر السابق. والمعلومات الخاصة بفصول العضوية وتفضيل البالغين مستقاة من البحث المفصل عن معايير الانضمام إلى جماعة الإخوان الذي منحته للمؤلف جهة حكومية أمريكية طلبت عدم الافصاح عن هويتها.

سيصبح وزير خارجية للمملكة العربية السعودية لاحقًا ـ إلى أن المدرسين المنتمين إلى الجماعات الإسلامية من مصر وسوريا «أساؤوا استغلال» كرم الضيافة الذي عاملناهم به بإلقاء مواعظ سياسية، قائلًا: «عاملناهم بحسن نية، فقابلونا بالمكر والخداع»(١٩).

في شهر يونيو/حزيران من عام ١٩٧٣م، بينما كان أسامة في نهاية السنة الدراسية العاشرة، أرسل السفير البريطاني في المملكة تقريرًا سريًّا إلى مكتب الشؤون الخارجية وشؤون الكومنولث بعنوان «شباب المملكة العربية السعودية». وخلص تقريره أن نوع التعليم الذي تلقاه أسامة ربما يحمل في طياته اتجاهات فكرية تفوق أقرانه، إلا أنه مثير للقلق إلى حدّ ما، وكتب السفير في التقرير:

إن العائلة المالكة متيقظة للمخاطر المقترنة بالتعليم التي قد تهدد مكانتها إذا ما سُمح للأفكار الحديثة بالتدفق بحرية شديدة إلى المدارس. . . بصورة قد تتعارض مع الأفكار والعادات التقليدية، ومن ثَم يُلاحظ وجود تركيز شديد على دراسة مناهج الإسلام. . . لذا فإن السبب الجوهري وراء إرسال العائلات المرموقة أبناءها إلى المدارس في الخارج، إلى لبنان مثلًا، لا يرجع إلى أي خلل في مستوى التدريس في المدارس الراقية الخاصة المحلية، ولكن إلى حقيقة أن المناهج متخمة بالمواد الدينية إلى درجة عدم وجود مساحة كافية من الوقت للأطفال لتحقيق مستوى الكفاءة الطبيعية في مواد دراسية أخرى.

وأوضح التقرير العبارات المستخدمة في تدريس موقع المملكة العربية السعودية ومدينتيها المشرفتين في العالم الأوسع نطاقًا للطلاب في مرحلة المراهقة في هذه المدارس المحلية المخصصة لعلية القوم:

إن الله عز وجل قد أنعم على هذه الأرض المقدسة بمصادر تمويلها بالنفط الذي اكتُشف مصادفة، والذي يدل على أن هذا هو المسار الطبيعي لقضاء الله وقدره لإحياء الإسلام في العالم. وتُبين الخرائط الإسلامية

---

(١٩) من مقابلة مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا من الاقتباس المذكور في:
«The House of Saud,» *Frontline, 2005.*

المعلقة على جدران فصول المدارس المحلية موقع المملكة العربية السعودية في قلب العالم، إلى جانب دائرتين متحدتي المركز مرسومتين حول مكة. إضافة إلى تلوين مواقع البلاد العربية والإسلامية الأخرى باللون الأخضر الساطع، والبلاد التي تشتمل على أقلية إسلامية. . . بظلال من الأخضر الفاتح بدرجات متفاوتة، بينما لم توضع أسماء معظم دول العالم الأخرى[٢٠].

بعد سنواتٍ قليلة من التحاق أسامة بمدرسة الثغر، انتقل مع عائلته إلى منزل جديد مناسب في الضاحية في حي مشرفة في جدة. ووقتئذٍ كان هذا الحي أحدث مناطق الإقامة في المدينة. ولم تكن الطرق المحلية ممهدة، وكانت هناك مساحات صحراوية فارغة تفصل بين المنازل حيث كان صبية الحي يمارسون كرة القدم وألعابًا أخرى. وكانت الأرض مرتفعة إلى حدّ ما إلى درجة أنه كان يمكن رؤية البحر الأحمر من بُعد في بعض الأيام. وكان المنزل الذي يعيش فيه أسامة مع أمه وأطفالها الأربعة من محمد آل العطاس يتميز باتساعه، إلا أنه لم يكن فاخرًا؛ كان مكونًا من طابقين، وأربع غرف نوم، شغل إحداها أسامة بمفرده في الطابق الأرضي. وكما هو شائع في المملكة العربية السعودية، كان المنزل محاطًا بالأسوار والسياج الحديدية، وكانت هناك حديقة في الفناء الخارجي، بلا حمام سباحة[٢١].

كان أسامة بن لادن متيَّمًا بفريق محترف لكرة القدم في جدة، يُدعى فريق العالم ولعب في فريق من الصبية بقيادة جاره خالد باطرفي. ويتذكر خالد صديقه أسامة قائلًا عنه: «كان طويل القامة، ولذا وضعته في الخط الأمامي ليستخدم رأسه في تسديد الكرات». ويستطرد: «وأحيانًا أضعه في الدفاع». وذات مرة، بينما كان الصبية يلعبون بعيدًا عن المنطقة التي يوجد فيها بن لادن، استشاط صبي في الفريق الخصم غضبًا من بن لادن وبدا أنه على وشك ضربه. فدفع باطرفي الصبي عن طريقه، إلا أن أسامة قال له،

(٢٠) تقرير: FCO 8/2122 June 30, 1973, Departmental Series, Middle East Department.

(٢١) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وقد زار المؤلف المنزل بصحبة باطرفي.

حسبما يتذكر باطرفي: «كنت سأحل المشكلة وديًّا». وقال باطرفي إنه وأسامة في سنوات لاحقة، كانا يضحكان على سخرية الحوادث؛ وقال: «ذاك هو أسامة المفاوض الودي»[٢٢].

بعد انخراط أسامة مع الحركة الإسلامية الطلابية في مدرسة الثغر، أصبح شديد الالتزام بالسلوكيات الدينية، مثل الهدوء في غالب الأحيان المقترن بالإصرار. كان يصلي الصلوات الخمس، ويدعو الصبية الآخرين للصلاة معه، ويصر على ضرورة ارتدائهم سراويل تغطي الركبتين في ملعب كرة القدم، وهو أمر شرعي كما ذكر المدرسون السعوديون المتدينون. وقال باطرفي: «كان إخوته من زوج أمه الأصغر منه يكنون له احترامًا فائقًا. كان أكبرهم سنًّا وحادًّا في ما يتعلق بالأمور الدينية، مثل عدم الاختلاط بالفتيات والحياء في حضرة النساء. وعندما تدخل إحدى الخادمات إلى الغرفة يحني رأسه بحياء ويغض البصر عنها»[٢٣].

قال باطرفي إنه كان يشاهد التلفزيون بصحبة أسامة؛ يتابعان مباريات كرة القدم على المستوى السعودي والدولي، وكذلك المسلسل العائلي الأمريكي الشهير آنذاك بونانزا (Bonanza). وكان أسامة متيمًا بأفلام الحركة (أو الآكشن) وأفلام الغرب الأمريكية (أو أفلام الويسترن)، خاصةً الأفلام التي تجسد فيها الخيول أدوارًا بارزة. ويتذكر باطرفي أنهما شاهدا الحلقات التلفزيونية الأمريكية فيوري (Fury) التي أُنتجت في الفترة بين عامي ١٩٥٥م و١٩٦٠م، ثم انتشرت في جميع أنحاء العالم تحت عنوان برايف ستاليون (Brave Stallion). وتدور أحداث المسلسل حول طفل يتيم بائس يُدعى جووي. ينتقل الطفل ليعيش في «مزرعة بروكين ويل» مع رجل رحلت عنه زوجته وابنه في حادث سيارة. وتعلم الصبي هناك كيفية ترويض الخيول البرية وازداد قربًا على وجه الخصوص من «فيوري»؛ الفحل الأسود. وعلى مدار هذه العلاقة تطيب جراح الحياة المبكرة التي عاشها جووي بصورة تدريجية. وهنا يسهل علينا إدراك سر انجذاب أسامة إلى هذه القصة. وعلى أي حال، ازداد تعلق أسامة بالخيول مع نضوجه في السن،

---

(٢٢) كل الاقتباسات من المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق.

(٢٣) راجع نفس المصدر السابق.

وكان والده قد ترك بعد وفاته مزرعة للعائلة ـ أكثر ميلًا إلى أن تكون ضيعة صحراوية ـ خارج جدة، وهو مكان ورثه أبناؤه وبناته بعد مماته. وكان أسامة يقضي إجازات نهاية الأسبوع مع إخوته غير الأشقاء من أبيه وتعلم ركوب الخيل ومسايستها. وفي ما بعد اشترى مزرعة خاصة به لتربية الخيول جنوب جدة وربّى فيها ما يقارب من العشرين حصانًا[٢٤].

بعد سنوات كثيرة لاحقة، أكد بعض أفراد عائلة بن لادن ـ سعيًا منهم لإبعاد أنفسهم عن أسامة علنًا ـ أنه نشأ وترعرع في منزل منفصل ولم يرتبط كثيرًا بإخوته وأخواته من أبيه وهو في المرحلة الثانوية. ومن المؤكد أنه عاش بعيدًا عن مجمع العائلة الأساسي مع عائلته من زوج أمه، إلا أن أسامة في ما يبدو كان يتمتع بعلاقة وثيقة بأبناء أبيه شأنه شأن أبناء محمد بن لادن ممن لا أخ لهم ولا أخت. يتذكر باطرفي أن أسامة «كان يزور إخوته من محمد بن لادن في إجازات نهاية الأسبوع وغيرها». إضافة إلى ذلك التحق بعض إخوته غير الأشقاء بمدرسة الثغر معه. ويتذكر المدرس المدعو فايفيلد شايلر أن «كثيرين» من إخوة أسامة غير الأشقاء كانوا طلابًا في المدرسة خلال المراحل المختلفة التي كان أسامة ملتحقًا بالمدرسة فيها. ويبدو واضحًا أن أسامة شعر بذاته باعتباره أحد ورثة أبيه وبطموح خفي للعمل في شركة الإنشاءات الخاصة بالعائلة. ويتذكر أبناء أخواله وخالاته في سوريا وكذلك أمه اهتمامه بالشركة، ويتذكر أحد أقاربه هؤلاء تحدثه عن طموحاته لقيادة الشركة. ولكن ما حدث هو أن سالمًا قد أحكم قبضته على الشركة بصورة تدريجية خلال بداية سبعينيات القرن العشرين، عندما كان أسامة شديد العزلة[٢٥].

كان سالم صاحب أول بوادر اتصال بين العائلة وبين باكستان وأفغانستان، وذلك من خلال إشرافه على تعليم إخوته وأخواته، ففي أواخر

---

(٢٤) نفس المصدر السابق. وأيضًا اقتباس باطرفي في جريدة «صنداي ميرور» *Sunday Mirror* بتاريخ ٢١ أبريل/ نيسان ٢٠٠٢م. أما التفاصيل عن الحصان فيوري وصفاته فقد أُخذت من الموقع الإلكتروني: < www.brokenwheelranch.com >.

تم الولوج إليه والنسخ منه بتاريخ ٢ مارس/ آذار ٢٠٠٧م.

(٢٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع فايفلد ـ شايلر في نفس المصدر السابق.

عام ١٩٧٣م، قرر سالم إلحاق اثنتين من أخواته غير الشقيقات بمدرسة داخلية في بيشاور، المدينة الباكستانية التي تقع على الحدود الأفغانية. ووقتئذٍ كانت كل من باكستان وأفغانستان تتمتع بفترات من الهدوء النسبي، وكان كبير مهندسي مؤسسة محمد بن لادن ـ كما كان يُطلق عليها آنذاك ـ رجلًا أردنيًّا تصادف أن زوجته ابنة حاكم مقاطعة الحدود الشمالية الغربية لباكستان، التي كانت بيشاور عاصمتها. سافر سالم إلى بيشاور على متن طائرة خاصة مع زوجته، المُدعوة شيخة، وأختيه اللتين توشكان على الالتحاق بالمدرسة، والرجل الأردني وزوجته. وكانت المتاجر المحلية في المدينة شديدة التواضع، وكانت العاصمة الأفغانية كابول في تلك الأثناء مدينة مزدهرة نسبيًّا فيها أسواق واعدة. فاتخذ سالم قرارًا بأن تسافر أختاه جوًّا إلى كابول للتسوق وشراء احتياجات العام الدراسي المقبل للإقامة في القسم الداخلي للمدرسة؛ من قدور ومقلات وأطباق وما شابهها. وحدث أن التقى سالم ذات مرة في كابول مع السفير السعودي في أفغانستان، وانشغل بعمله. وأرسل أختيه للتسوق في المدينة مع الطيار الأمريكي الذي صاحبهم في الرحلة. وبعدها عادوا جميعًا مرةً أخرى إلى بيشاور واستقرت الفتاتان في المدرسة. وطبقًا للمعلومات المتوافرة، كانت تلك هي الزيارة الأولى لأفراد من عائلة بن لادن إلى بيشاور، إلا أنها كانت مجرد البداية لسلسلة من الزيارات[٢٦].

(٢٦) استمدت معلومات الرحلة إلى أفغانستان من سجلات الطيران ومقابلة مع الطيار جيرالد أورباخ بتاريخ ٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م.

الفصل الحادي عشر

عالم المؤامرات

لم تكن المعتقدات المنطوي عليها تعليم أسامة بن لادن تختلف كثيرًا عن الأفكار الوطنية التي كان الملك فيصل يروج لها في السنوات الأخيرة لحكمه. ولم يُطلق على مدرسة الثغر مدرسة «نموذجية» من دون سبب؛ إذ كانت نموذجًا جليًّا على برنامج فيصل للتحديث غير المشتمل على العلمانية. وتسببت الأهداف الثورية للإخوان المسلمين في إحداث قلق للملك لأنهم تحدوا سلطة آل سعود، إلا أن رؤية الملك فيصل للإسلام كدين يمكن تطبيقه شرعيًّا وسياسيًّا مكنته من النجاة من نداءات الإخوان المسلمين بالتحرك ضدّ أعداء الدين، فبعد حرب عام ١٩٦٧م التي دارت بين العرب وإسرائيل، على سبيل المثال، تحدث فيصل مرارًا وتكرارًا عن الجهاد لاسترداد القدس. ولم تقتصر أهداف خطاباته الشاجبة للإسرائيليين لكونهم «عصابة صفيقة» هدفها «انتهاك» حرمات الإسلام، لم تقتصر على مخاطبة الرأي العام العربي ودغدغة مشاعرهم فحسب، بل كانت شديدة الصدق وعبّر عنها الملك بقوة في المناسبات الخاصة والعلنية على حدّ سواء. وشارك أسامة في حملة فيصل الإعلامية ضدّ إسرائيل بصفته من الشباب السعودي النشط سياسيًّا في مدرسة الثغر. وعلى أي حال، كان أبوه هو مبعوث الملك إلى القدس قبل حرب عام ١٩٦٧م. إن آراء أسامة المتطرفة التي نمت خلال دراسته الثانوية لم تصل به إلى معارضة الحكومة السعودية، بل إنها في بعض الأحيان عززت من انحيازه إلى سياسة فيصل الخارجية[١].

---

(١) المعلومات مستمدة من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2472 Jeddah to Washington, February 24, 1969. =

كان فيصل ملكًا محبوبًا لأن الجمع بين الإسلام والتجديد الذي نادى به طبقه في حياته الخاصة. ولم تكن هناك صحافة حرة أو معارضة سياسية لتكشف النفاق المتمثل في انغماس العائلة المالكة السعودية في ملذات تتنافى مع القيم الدينية وفضحها، إلا أن السعوديين كانت تصلهم المعلومات من خلال الشائعات والرقابة غير الرسمية ومقالات الصحافة الغربية التي كانت تتسرب إلى البلاد، مَن مِن الأمراء احتسى الخمر أو قامر أو حصل على عمولات من تعاقدات غير قانونية. وعن طريق هذه المصادر علموا أيضًا أن فيصلًا لم يكن مثل سابقيه، إذ رفض الانتقال إلى قصر فخم بُني خاصة له في جدة، مفضلًا الإقامة في مجمع مبني على نمط مباني الضواحي في شارع مزدحم. وكان قد أقلع عن احتساء الكحول منذ وقت طويل، والعمليات الجراحية التي أجريت في جهازه الهضمي جعلته قادرًا على اتباع نظام غذائي خفيف مكون من اللحم المشوي والخضراوات المسلوقة والأرز. كان فيصل يعمل ساعات طويلة كل صباح في مكتبه في القصر ويؤدي الصلوات في أوقاتها، ثم يتناول غداءه وهو يعمل، ويمارس التأمل على انفراد، ثم يعود إلى مكتبه ليعمل نوبة عمل ثانية. وعند الغروب يقود إحدى سياراته الأمريكية كل يوم إلى حدود الصحراء، وأحيانًا يصطحب أبناءه معه، ليصلي بمفرده على الرمال. ويعود مرة أخرى إلى مكتبه ليعمل ليلًا[٢].

على مدار سنوات حكمه كان فيصل دائم الحديث عن نهضة من شأنها تحويل المملكة العربية السعودية إلى دولة متقدمة، إلا أن ذلك لم يتحقق بالصورة التي كانت في مخيلة كثيرين، فقد تغيرت مجريات الأمور في أواخر ستينيات القرن العشرين؛ إذ تغلغلت الدولة السعودية تدريجيًّا وبقوة في حياة رعاياها؛ من أصحاب أعمال وموظفين قائمين على إصدار بطاقات الهوية وجوازات السفر ومسؤولين عن السجلات التجارية، أما البرنامج الوطني

= وقد ذكرت البرقية أن «فيصلًا قال إن القدس تنزف دمًا في انتظار من يحررها» وأنه دعا إلى الجهاد لتحرير الأماكن المقدسة.» أما في ما يتعلق باستجابة أسامة لحملته راجع المقابلة التي أُجريت مع خالد باطرفي بتاريخ ١٩ فبراير/ شباط ٢٠٠٥. وقد ذكرت والدة أسامة بن لادن أنه كان يتحدّث باستمرار عن القضية الفلسطينية عندما كان شابًا.

(٢) المزيد من المعلومات حول عادات فيصل متوافرة في: Algosaibi, «Arabian Essays»; Alireza, «The Late King Faisal... »; Sheean, *Faisal; Gros, Feisal of Arabia; Holden and Johns, The House of Saud*, pp. 202-203.

لتشييد الطريق السريعة فقد كان طويلًا ومحفوفًا بالمخاطر واتّسم إيقاعه بالبطء الشديد للربط بين المناطق المتباعدة في المملكة. وافتُتحت مدارس وجامعات قليلة، إلى جانب أن وزارات حكومة فيصل لم تتمتع بالفاعلية مطلقًا، على الرغم من تعيين أعداد كبيرة من السعوديين في تلك الفترة، بل كانوا يتلقون رواتبهم في مواعيدها المقررة مقارنة بما كان يحدث سابقًا.

كان زواج فيصل من عفت بنت أحمد الثنيان ـ التي عُرفت بالملكة عفت لاحقًا ـ نموذجًا صارخًا، على الأقل للسيدات، لاتجاه الملك نحو التجديد. كان لدى الملك دائمًا أكثر من زوجة واحدة، إلا أن عفت كانت زوجته الوحيدة منذ قرابة عام ١٩٤٠م. ولكن بحلول ستينيات القرن العشرين، أضحت نموذجًا للمرأة المتطورة على النمط السعودي. تربت عفت وترعرعت في إسطنبول من أب سعودي وأم مجرية أو شركسية، وتأثرت بالعلمانية التركية وقت بلوغها سن الرشد. وأنجبت من فيصل تسعة أطفال، والتزمت بالقواعد الوهابية حيث إنها لم تصاحب زوجها قط في زياراته الرسمية ولم تكشف وجهها أمام الشعب السعودي، إلا أنها استطاعت تنفيذ عددٍ من الأنشطة المتعلقة بقضايا المرأة. وفي مرحلة مبكرة من عام ١٩٥٥م، أسست مدرسة لليتيمات ودعمت تعليم الفتيات حتى في أكثر مناطق المملكة تمسكًا بالتقاليد.

سافرت عفت أيضًا إلى أماكن كثيرة، وابتاعت الملابس الحديثة من باريس وسان فرانسيسكو (ولم يرها أحد بهذه الملابس سوى زوجها وسيدات أخريات في المملكة العربية السعودية)، وعززت المشروعات التجارية التي قام بها أخوها غير الشقيق المدعو كمال أدهم الذي ازداد ثراؤه زيادة فاحشة. وكان أدهم أحد مندوبي فيصل الأكثر ثقة، وتركزت مهامه على تسليم الإعانات النقدية إلى القادة العرب المقربين. وفي أوائل سبعينيات القرن العشرين عيّنه فيصل أول مدير للاستخبارات السعودية[٣].

كان الملك في حاجة ماسة إلى شخص يوفر له الحماية. وبينما أدّت

---

(٣) المزيد من المعلومات عن حياة عفت ورحلاتها وأنماط تسوقها متوفرة في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2643 Dhahran to Washington, August 17, 1966, «Biographic Information on Wife of King Faysal.» Also *House of Saud*, op. cit., p. 203.

هزيمة جمال عبد الناصر في حرب ١٩٦٧م ضدّ إسرائيل إلى إنهاك قواه، إلا أن حركته القومية العربية الشاملة وفروعها المنتشرة في كل مكان، مثل حزب البعث، كانت لا تزال تهدد آل سعود. وفي عام ١٩٦٩م ألقت الحكومة السعودية القبض على عدة مئات من السعوديين، وكان من بينهم عدد من ضباط الجيش يتراوح من ستين إلى سبعين ضابطًا، واشتبه فيهم فيصل بالتآمر لقتله أو إسقاط نظامه السياسي. وورد في تقرير من مكتب الاستخبارات والبحث في وزارة الخارجية الأمريكية أن حملة الاعتقالات الواسعة أدّت إلى اندثار المنشقين تمامًا. ومع ذلك ظلت «الأسباب الرئيسة للسخط والاستياء الشعبي كما هي. وخلقت عملية التجديد طبقة جديدة من صفوة المجتمع في الجيش وفي أوساط الموظفين والأوساط التجارية. وبدأت عملية مناوأة تركيز السلطة في العائلة المالكة السعودية من قبل كثيرين من هذه الطبقة الجديدة، الذين استشاطوا غضبًا من القيود شديدة المفروضة على الحرية الاجتماعية والكبت السياسي»[٤].

قضى جمال عبد الناصر نحبه عام ١٩٧٠م وخلفه في الحكم أنور السادات الذي تحالف معه فيصل ونشأت بينهما صداقة قوية. وكان كلاهما حذرًا، إلا أنه كانت لديهما رغبة مشتركة في الانتقام من إسرائيل للهزيمة السابقة. وكان فيصل شديد العداء لليهود، ومنذ نعومة أظفاره، تلقى تعليمه في مدرسة دينية وصفت يهود الجزيرة العربية بالغدر والخيانة في قصص الحرب التي بلغت ذروتها وقت ظهور دين محمد الجديد. وبصفته ملكًا تبنى فيصل نظرية المؤامرة بحماسة شديدة في ما يتعلق بالقوى اليهودية السرية. إذ اعتبر الشيوعية خطة ماهرة وضعها اليهود في سعيهم للسيطرة على العالم. وفي اجتماعاته مع الزوار الأجانب، كان كثيرًا ما يستدير إلى رئيس البروتوكول ويسأله: «هل حصلوا على الكتاب؟» مشيرًا إلى «بروتوكولات حكماء صهيون» ـ الكتابات المزعومة عن الخطط اليهودية للسيطرة على العالم ـ التي كان فيصل يحتفظ بنسخ منها على أحد الرفوف خارج غرفة الاستقبال ليمنحها هدايا للزائرين[٥].

---

(٤) تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2472 Research Memorandum, Director of Intelligence and Research, August 21, 1969.

(٥) راجع: Lippman, *Inside the Mirage*, p. 221.

لخصت مذكرة بريطانية دقيقة حالة التوتر التي تؤرق الملك السعودي خلال هذه السنوات في العبارات الآتية:

إنه (الملك فيصل) مهيبٌ بل متسلط في جداله... وقد أدّت تداعيات المرض وتقدمه في السن إلى سرعة غضبه وتشبثه برأيه ونفاد صبره مع من يخالفه... وفي سنواته الأخيرة عصفت بعقله وجهة نظر مدمرة تشير إلى ضعف أواصر الدين والأخلاق (التي تُعتبر وثيقة الصلة بنظام حكمه) مقارنة بأفكار الإلحاد والشيوعية والصهيونية. وها هو قد عقد اختياره بين الشرق والغرب السياسي، إلا أنه خاب أمله في الغرب لعدم تقديم الدعم له ولقضاياه[٦].

يتذكر ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية الذي توقّع قبل أي أحد أن فيصلًا ذو ميول تدفعه نحو الارتياب في الآخرين ومناهضة اليهود، يتذكر أن فيصلًا «طرح ما أطلق عليه الفكرة التآمرية الأساسية؛ المتمثلة في أن الصهاينة هم من تسببوا في ظهور الإرهابيين الفلسطينيين». كما إن هنري كسنجر، مستشار الأمن القومي اليهودي لنيكسون آنذاك، تحمّل كثيرًا من خطب فيصل الطويلة الشاجبة بخصوص «المؤامرة المزدوجة لليهود والشيوعيين» التي كانت أفضل اختبار لقوة احتمال الدبلوماسي[٧].

ربما تكون نظريات فيصل قد خيّبت آمال لندن وواشنطن، إلا أن اعتقاداته في النهاية ساعدت، على نحو غير مباشر، في إثراء المملكة العربية السعودية بصورة فاقت خيال الملك. فعندما أخبره السادات في مرحلة مبكرة في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٧٣م، أن مصر وسوريا استعدتا لشن هجوم مفاجئ على إسرائيل، تعهد بتقديم الدعم من دون أي تردد، وأدت الحرب التي اشتعل فتيلها لاحقًا إلى فرض حظر نفطي

---

(٦) راجع تقرير: FCO 8/2109

وهي وثيقة للخارجية البريطانية كُتبت في عام ١٩٧٣م للإعداد لزيارة محافظ بنك إنكلترا إلى المملكة العربية السعودية.

(٧) مقتبس من: *House of Saud*, op. cit., p. 359.

وأيضًا: *Inside the Mirage*, op. cit., p. 221.

دولي طويل الأمد من المنتجين العرب الذين تتصدرهم المملكة العربية السعودية، على الرغم من أن تلك الحرب كانت مصدر إحباط على جبهات عربية عديدة. وجزئيًا، كان الهدف من الحظر النفطي معاقبة الولايات المتحدة الأمريكية بسبب الجسر الجوي الذي أقامته لتقديم المعونات العسكرية لإسرائيل. ولفترة وجيزة من الوقت اشتد حنق إدارة نيكسون حتى إنها وضعت خططًا بديلة للسيطرة على حقول النفط السعودية. بيد أن فيصل أدرك حدود تصرفاته ومال مع الريح بما يكفي لإبعاد الأمريكيين عنه، حتى إنه سمح سرًّا ببيع النفط لدعم القوات الأمريكية المناهضة للشيوعيين في فييتنام على سبيل المثال، ووافق على الإسهام ببلايين الدولارات من الأرباح النقدية الهائلة الناجمة عن الحظر في سندات الخزانة الأمريكية.

لم يكن الحظر مبادرة سعودية خالصة، لكنّه أسهم بقدر هائل في تغيير صورة المملكة أكثر من أي حدث سابق منذ اكتشاف النفط نفسه. ومن دون شك كان فيصل هو الفائز الأكبر في حرب عام ١٩٧٣م.

ارتفع سعر النفط الخام السعودي بمقدار ستة أضعاف بحلول أوائل عام ١٩٧٤م، واستمر في الارتفاع. وتضاعف إجمالي الناتج المحلي للمملكة أربع مرات بين عامي ١٩٧٣م و١٩٧٥م. وبلغ العائد النفطي للمملكة زهاء ٤٫٣ مليار دولار عام ١٩٧٣م، وتذبذب بعدها صعودًا كل عام ليصل إلى الذروة ببلوغ ١٠٢ مليار دولار بحلول عام ١٩٨١م. وتسببت هذه التدفقات النقدية في إحداث طفرة جديدة في عالم البناء وواردات الكماليات التي تفجرت سريعًا جدًّا، حتى إنها تكدست وعطلت العمل في موانئ جدة؛ إذ اصطفّت السفن لأسابيع من أجل تفريغ حمولاتها أو تحميل المنتجات. واكتظت أروقة الانتظار في الفنادق بمندوبي المبيعات المحبطين لعدم وجود غرف شاغرة. وفي جدة افتُتح فرع جديد لمراكز التسوق «سافواي» الشهيرة، حيث تراصت على رفوفه حلوى الـ جلو (Jell-O) وحساء كمبل (Campbell) المعلب. وسافرت الملكة إليزابيث جوًّا إلى المملكة العربية السعودية في زيارة وعلقت قائلةً: «لم أر في حياتي هذا الكم الكبير من الأوناش». ويتذكر عمرو، حفيد الملك فيصل قائلًا: «كنا نسافر إلى بلاد بعيدة لقضاء إجازة الصيف، والعودة إلى الديار، وقد نضل الطريق. . . ونفعل أشياءً في شهور قليلة كانت

ستستغرق في المعتاد عشرين عامًا في ما مضى، وأصيب الناس بالجنون إلى حدٍّ ما»[8].

نظر فيصل المقتصد إلى تلك الطفرة بقدر من الصرامة والجدية. وبصفة خاصة، شعر فيصل بإحباط بالغ من الأنماط الثقافية التي اتخذها محدثو الثراء بمملكته. وعقّب على ذلك قائلًا: «في خلال جيل واحد انتقلنا من امتطاء الجمال إلى قيادة السيارات الكاديلاك». واستطرد: «وإنني لأخشى أن يقودنا البذخ الذي ننفق عليه أموالنا اليوم إلى ركوب الجمال مرة أخرى عما قريب»[9].

كان فيصل بن مساعد، ابن أخ الملك فيصل، طالبًا فاشلًا في السنة الأخيرة في كلية العلوم السياسية، وثبتت إدانته في التآمر لبيع عقار الهلوسة أل آس دي (LSD) في جامعة كولورادو. فأُعيد إلى بلده من جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي. وعام ١٩٦٥م أُطلق الرصاص على أخيه فسقط قتيلًا على يد ضباط الشرطة السعوديين في أثناء الاحتجاجات على إنشاء الاستديوهات التلفزيونية في الرياض؛ إذ كان المتظاهرون متخوفين من احتمالية تسبب التلفزيون في هز صورة الإسلام السامية. وقرر فيصل بن مساعد الذي عاش في ما يبدو حالة مزمنة من الثمالة أن ينتقم لمقتل أخيه[10].

كان الملك فيصل يعقد مجلسه العام مرتين أسبوعيًّا تقريبًا، وفي يوم ٢٥ من شهر مارس/ آذار عام ١٩٧٥م، تبع مساعد أحد معارفه القدماء، وهو وزير النفط الكويتي، إلى قاعة القصر مختبئًا خلف الوزير. ثم أخرج مسدسًا وأطلق ثلاث طلقات على الملك فيصل، مصيبًا إياه في حلقه. أوقع الحراس

---

(٨) المعلومات الواردة عن الإنتاج المحلي الإجمالي: *House of Saud*, op. cit., p. 390.
والمعلومات عن مبلغ الـ ١٠٢ مليون دولار أمريكي مستمدة من: *Inside the Mirage*, op. cit., p. 160.
والمعلومات عن سلسلة محلات سافواي الأمريكية مستمدة من كارمن بن لادن في: *Inside the Kingdom*, pp. 94-95.
وأيضًا من: «The House of Saud,» Algeria Productions, 2004,
والاقتباس في المصدر السابق.

(٩) استنادًا إلى: Bradley, *Saudi Arabia Exposed*, p. 215.

(١٠) المعلومات عن مساعد مستمدة من المقابلات التي أُجريت مع اثنين من أساتذته السابقين في جامعة بيركلي. وأيضًا من: *House of Saud*, op. cit., p. 379.

بمساعد على الأرض وضيقوا عليه الخناق، وأسرع الحراس بالملك إلى المستشفى المركزي في الرياض التي بُنيت في غمرة حملات فيصل لتطوير المملكة. فشلت عمليات نقل الدم وإنعاش القلب في إنقاذ حياة الملك، وقضى فيصل نحبه بعد ظهيرة اليوم نفسه عن عمر يناهز تسعة وستين عامًا. حمل متلقو العزاء جثمانه على النعش، ملفوفًا في كفن بني اللون، وجالوا به شوارع الرياض حتى بلغوا مدفن العائلة المالكة هناك. وبعد ثلاثة أشهر شاهد عشرون ألف سعودي ضرب عنق مساعد في ميدان عام.

أدى مقتل فيصل إلى حرمان عائلة بن لادن من راعيها وحاميها، وبذلك خُط آخر سطر في أسطورة الشراكة طويلة الأمد الاستثنائية بين الملك والعائلة، سعيًا وراء تطوير المملكة العربية السعودية. وإذا كان قد قُدر لهذا التحالف الاستمرار، كان الأمر سيتطلب وجود قدر من التفاهم بين الجيل التالي من القادة؛ سالم الذي بلغ قرابة الثلاثين عامًا حينئذٍ في عائلة بن لادن، وولي العهد فهد الذي أمسك بزمام الأمور في الحكومة بعد رحيل فيصل، بالنسبة إلى آل سعود.

بذل فيصل ومحمد بن لادن مجهودًا جبارًا لإقامة هذه العلاقة نظرًا إلى القيم والعادات المشتركة بينهما مثلما سيحدث تمامًا بين سالم وفهد أيضًا، إلا أن قيمهما وعاداتهما المشتركة كانت أقل ارتباطًا بدوافع الدين إلى حدّ بعيد.

كان فهد بن عبد العزيز في بدايات ربيعه الخمسين وقت اغتيال فيصل. وكان طويل القامة، وبدا أن جسده يزداد حجمًا إلى حدّ ما كل عام. وكانت له لحية صغيرة مشذبة أسفل وجهه المستدير ذي الترهلات المتدلية أسفل ذقنه، أضفت عليه وداعةً وهدوءًا. وأوحت عيناه الداكنتان نصف المفتوحتين بالحزن والانعزال. نشأ فهد وترعرع مع كثيرين من إخوته الأشقاء وغير الأشقاء في مدارس غير رسمية مقرها البلاط الملكي في الرياض قبل مرحلة التطوير والتنمية التي مرت بها المملكة. وكان مميزًا منذ نعومة أظافره، من وجهة نظر عائلته، باهتمامه بشؤون المملكة. وكان يتابع أباه في اتخاذ قراراته متابعة دقيقة، وبدا ذكيًّا بالفطرة. ولهذه الأسباب، بدأ نجمه يظهر في مرحلة مبكرة جدًّا كمرشح لشغل مناصب في

الوزارات والانضمام إلى قطار التوريث الملكي. شغل فهد في مستهل الأمر منصب وزير التعليم، ثم الداخلية، وهو مركز حساس من الناحية الأمنية، وشرع في السفر إلى الخارج خلال ستينيات القرن العشرين. انجذب إلى الغرب، إلا أنه لم يُبْدِ قدرة كبيرة على ضبط النفس عندما كان يواجه رفاهياتها وإغراءاتها. وبدايةً من منتصف الستينيات بدأ يقضي شهورًا عديدة كل عام في أوروبا وأمريكا، متنقلًا مع حاشيته من فندق فخم إلى فندق فخم آخر(١١).

كان فهد أكبر إخوته السبعة الأشقاء في العائلة المالكة الذين كان لهم تأثير فريد بسبب: حجم عشيرتهم الهائل، ورفعة مقام أقاربهم، والكفاءة التي أظهرها كثير منهم في تولي المناصب الحكومية. وكان يُشار إليهم أحيانًا بـ «السديريين السبعة» لأن والدتهم انحدرت من عائلة السديري. عيّن فهد كثيرًا من إخوته الأشقاء أو أوصى بتعيينهم في مراكز أمنية حساسة؛ إذ عين سلطانًا وزيرًا للدفاع، وعين نايفًا وزيرًا للداخلية، وعين أحمد نائبًا لوزير الداخلية. بالإضافة إلى ذلك شغل أخوه الشقيق سلمان منصب حاكم الرياض. وكان هؤلاء الأشقاء السبعة متنوعي الشخصيات والتطلعات السياسية، إلا أنهم كانوا متحررين نسبيًا ـ بصفة عامة ـ مع إعجابهم بصفة خاصة بالثروة ووسائل الرفاهية، حتى إن ذلك كان ملحوظًا بالنسبة إلى المعايير المتعارف عليها لدى آل سعود. وانطبق ذلك على سلطان وفهد على نحو خاص.

عندما أضحى فهد بدينًا، اشتمل جدول أعمال إقاماته المؤقتة في الغرب بصورة متزايدة على زيارات متكررة إلى المستشفيات لتلقي العلاج بسبب اضطرابات القلب وغيرها من المتاعب الصحية التي استفحلت بزيادة وزنه. وفي نهاية المطاف، كان من الصعوبة بمكان صعوده الدرج أو المشي لأكثر من مسافة قصيرة. وقد أدرك أن الحكومات الغربية مهتمة للغاية بحصوله على أفضل رعاية صحية ممكنة. وبصفة خاصة، ثبّتت الولايات

(١١) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2584 Jeddah to Washington, September 26, 1973, «Prince Fahd, the King, and the Inner Circle»; Jeddah to Washington, April 18, 1973. Miss Arabia: Jeddah to Washington, November 5, 1970.

المتحدة الأمريكية أقدام فهد بصفته النجم الساطع في سماء العائلة المالكة السعودية، لأنها أدركت أن عاداته المتهورة وشخصيته الودودة تنبئ بتوقيع شراكة أكثر مرونةً من الشراكة التي كان يمكن عقدها مع فيصل.

في عام ١٩٦٩م وجهت الولايات المتحدة الأمريكية دعوة إلى فهد في أولى سلسلة زياراته الخاصة إلى أمريكا. وخلال هذه الزيارة أطرى عليه الجمع الشخصي المصاحب للرئيس نيكسون، واصطحبه مسؤولون من البنتاغون إلى مركز كيب كينيدي(*) حيث عرضت عليه الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء(**) القيام بجولة خاصة. وفي محادثات خاصة مع المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين، لم يتردّد فهد في إظهار أنه يختلف مع موقف فيصل الحاد في معاداة السامية، وألمح إلى أنه عندما يمسك بزمام السلطة، يمكن الاتفاق على عقد معاهدة سلام أوسع نطاقًا مع إسرائيل. شعر فهد أن الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها هي من يمكنها ضمان عدم الاستيلاء على ثروة المملكة العربية السعودية بأيدي أي سلطة منافسة، ومن ثَم قرر تجاوز ما فعله إخوته للفوز بالحماية العسكرية الأمريكية. وعلى النقيض من فيصل، لم يكن لفهد أي وجهة نظر عالمية أو آراء ناشطة سياسيًّا على وجه خاص أو أي نظرة لدور مملكته في العالم. وما أراد بصفة عامة سوى تركه وشأنه حتى يستمتع بحياته، ورغب في أن يزداد تأثر المملكة العربية السعودية بالثقافة الأوروبية نوعًا ما. وأعلن خططًا لبناء دار أوبرا الرياض، التي كان نظام توزيع الصوت فيها ممتازًا، وربما كانت أفضل قاعة حفلات في الشرق الأوسط، على الرغم من أنها لم تُفتتح قط بسبب اعتراضات علماء الدين. وجرت الأمور على النحو المعهود مع فهد، الذي كان جريئًا وحييًا في الوقت نفسه، إلا أنه حين الضغط عليه يتفاعل عادةً باعتباره مسؤولًا أكثر من كونه قائدًا[١٢].

كان فهد أكثر تمردًا على التقاليد الوهابية، وربما كان سخط فهد من

(*) المعروف حاليًا بقاعدة كيب كانافيرال.

(**) وكالة ناسا.

(١٢) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع دبلوماسي مخضرم سابق في الرياض وافق على الحديث معنا شريطة عدم ذكر اسمه.

أسلوب أخيه الأكبر غير الشقيق الذي يتصرف بمقتضاه على أنه أفضل أخلاقًا من الآخرين هو الذي دفعه إلى التفكير في كيفية رسم شيء من التنوع والتميز على بورتريه الثقافة السعودية. وفي اجتماع خاص مع مسؤول أمريكي في صيف عام ١٩٧٢م خلال إحدى فترات الاستجمام الطويلة التي كان يقضيها في الخارج، وصف فهد الإسلام بأنه:

كيان ثابت لكنه يتّسم بالمرونة؛ إذ يمكن أن تتحقق احتياجات المستقبل من خلاله وفي ظلّ توجيهاته. إلا أنه ينبغي ألّا تتقيد المجتمعات الإسلامية الآخذة في التقدم بالمعتقدات الإسلامية الصارمة. ويجب ألا يُلتفت إلى الآراء السائدة لعلماء الدين الذين ناهز عمرهم الثمانين عامًا على نحو دقيق... إلى حدٍّ ما، لا بد من نقل وجهة نظر أكثر تقدمًا إلى القضاة وعلماء الدين الذين يفعلون كثيرًا من أجل تحديد السمات والخصائص التي يكون فيها النظام السعودي قدوة لشعبه[(١٣)].

لم يتقلد فهد منصب الملك على الفور بعد أن قضى فيصل نحبه؛ إذ أمسك بزمام الأمور في المملكة خالد بن عبد العزيز الذي كان يكبر فهدًا بعشر سنوات، وينتمي إلى فرع آخر في العائلة المالكة. وقد اختار فيصل خالدًا وريثًا له عام ١٩٦٥م، إذ جعلته استقامته وسلوكياته المتواضعة اختيارًا تلقائيًّا بعد النكبات التي حلت بالمملكة بسبب الملك سعود. نال خالد تعليمًا بسيطًا، وكان رجلًا دمث الخلق، ولم يكن يبدي أي اهتمام بأمور الحكومة أو السياسة أو الشؤون الخارجية. وبين الحين والآخر كان يبتعد عن الحياة العامة لتكريس حياته لهواياته في الزراعة وتربية الماشية، وكان أحد الأمراء الأوائل الذين يؤسسون ضيعة ريفية في الصحراء المحيطة بالرياض، وكان يشعر بسعادة بالغة وسط الأبقار الحلوب والحيوانات الأخرى التي كان يربيها فيها. ولتمويل استراحته الريفية شرع في تأسيس عدد من الشركات التجارية، وجاء في تقرير موجز أمريكي سري عن سيرته الذاتية أنه: «وُصف بأنه صائد الأرباح في صورة نسب مئوية من التعاقدات الحكومية»[(١٤)]. ولم

---

(١٣) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2585 Jeddah to Washington, August 29, 1972, «Discussion with Prince Fahd».

(١٤) استنادًا إلى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2472 Jeddah to Washington, June 12, 1968, «Biographical Sketch of Crown Prince Khalid».

يكن ذلك مصدرًا بارزًا للتمييز بين الأمراء السعوديين، إلا أن ذلك يشير إلى أولويات خالد الاقتصادية عندما يصبح ملكًا. وبناءً على رغباته وبإجماع من الإخوة الكبار في العائلة، سلّم خالد إدارة الحكومة السعودية إلى فهد، واكتفى بمنصب الملك صوريًّا للاستمتاع بملذات الحياة الزراعية التي يعشقها.

تزامن صعود فهد المفاجئ إلى سدة الحكم داخل العائلة المالكة في صيف عام ١٩٧٥م مع شعور سالم بن لادن بالقلق على مستقبل الشركة. ويرجع ذلك إلى أن شركة عائلته الرئيسة لا تزال خاضعة لمجلس الأوصياء الذين عيّنهم فيصل منذ ثماني سنوات مضت. وقد أدّت الطفرة النفطية في الفترة التي تلت الحظر إلى خلق فرص عظيمة لشركات الإنشاءات السعودية، إلا أن تفتت القيادة في عائلة بن لادن جعلت عقود المقاولات الضخمة في مهب الريح، ممّا كان ينذر بتعريض مستقبل الشركة لخطر داهم. ولذلك طالبوا برعاية فهد، وللحصول على رعايته، كان عليهم إقامة علاقات شخصية وثيقة مع ولي العهد الجديد وإخوته الأشقاء الستة. وأوكلت هذه المهمة إلى سالم بن لادن، الذي شرع في التودد إلى فهد وعائلة السديري مثلما أخذ والده بألباب أسلافهم.

الفصل الثاني عشر

الابن الصاعد

كان سالم بن لادن يتمتع بشخصية ودودة وطيبة السريرة، وبشاشة طفولية سمحت له حتى بعد أن بلغ الثلاثين عامًا بفعل الأشياء الصادمة للفت الانتباه، ولكنه كان قادرًا على المراوغة بلطف وكياسة. كانت العائلة المالكة السعودية تطبق ثقافة صارمة للياقة، إلا أن سالمًا، مثل الأحمق في دراما شكسبير، كان يمتع أفراد العائلة بخرق قواعدهم من دون أن يشعروا بضيق أو نفور منه. ويتذكر كثير من أصدقائه وموظفيه أنه اعتاد على نحو خاص التحدثَ بصراحة عن الغازات التي يطلقها من أحشائه. حتى إنه ذات مرة، وفي صحبة أمير الرياض المهيب سلمان بن عبد العزيز، أطلق سالم العنان لغازات بطنه على نحو صاخب. وكان ذلك التصرف دليلًا على انعدام اللياقة في الثقافة البدوية مثلما هو في قاعات الرسم الفرنسية. سأل الأمير سلمان سالمًا عما حدث، ورد عليه قائلًا: «لم أفعل شيئًا سوى إخراج الغازات يا سمو الأمير؛ ألا تفعلها أحيانًا؟» وذات مرة ضايق أحد الوزراء بالحضور متأخرًا إلى اجتماع مهم، وكان يرتدي ملابس غير ملائمة، ممّا دفع الوزير إلى أن قال له غاضبًا: «ظننتك ستلتزم بالمواعيد مثل الرجال». فرد عليه سالم: «ومن قال لك إنني رجل؟ إنني طفل!»[١].

تمكن أبوه سابقًا من كسب ودّ العائلة المالكة بحضور المناسبات الدينية في مكة والمدينة أو باصطحابهم في جولات في مواقع أعماله

(١) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع محمد عشماوي بتاريخ ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م.

الإنشائية، إلا أن سالمًا اتبع نهجًا مختلفًا. كان كثير من شباب العائلة المالكة عصريين؛ فكانوا يسافرون إلى الخارج ويشتركون معه في المغامرات والرحلات التي كان يقوم بها خلال أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. أما الأمراء ذوو الشأن الآخرون، مثل فهد، فكانوا أكبر سنًّا، إلا أنهم استمتعوا باهتمام سالم بأوروبا والنساء الجميلات والسيارات السريعة والطائرات الخاصة. وكَمَنَ تحدي سالم في إقامة صداقات وطيدة مع صناع القرار في العائلة المالكة، حتى وإن كان ذلك يتطلب منه أن يؤكد لهم باستمرار أنه يعرف قدره. أما فهد فقد ذكر سالم لصديق له ذات مرة أن «بإمكانه أن يسحقني أو يصنع لي تاريخًا بكلمة واحدة من فمه»[٢].

في شتاء كل عام، كان الكثيرون من أمراء آل سعود ذوي الشأن يخرجون في مواكب من الرياض أو جدة لإقامة معسكرات في الصحراء تستمر لأسابيع. وكان الطقس باردًا، بل كانت السماء تمطر بين الحين والآخر، وفي تلك الأثناء تتفتح الأزهار والحشائش الخضراء بين الصبار والشجيرات الشائكة. وكانت هذه الرحلات فرصة للأمراء للعودة إلى جذورهم وتأكيد هويتهم البدوية وإحياء ذكريات شبابهم. وكانت هذه الرحلات الترفيهية تمثل تعزيزًا للأمور السياسية؛ إذ كانت ـ شأنها شأن الجولات التي يقوم بها الساسة الغربيون بالشاحنات أو قطارات السكك الحديدية في قلب البلاد ـ تجمّع البدو لتناول الولائم مع المخيمين من العائلة المالكة، وكانوا يصطفون أمامهم للحصول على المنح النقدية أو لتقديم التماسات لمشروعات التنمية المحلية.

وبعد ظهيرة أحد أيام شهر فبراير/شباط في منتصف السبعينيات، هبط طيارٌ وكاتبٌ ألماني يُدعى وولف هيكمان بطائرة شراعية جديدة على مهبط في الصحراء الشمالية السعودية بالقرب من خط الأنابيب الذي ينقل النفط الخام السعودي غربًا من الخليج إلى الأردن وسوريا. كان هيكمان يحاول تسجيل رقم عالمي على نحو غير رسمي بقيادة طائرته أوسكار (OSKAR) ذات المحرك الصغير الذي تبلغ قوته ستين حصانًا، لقطع مسافة تقرب من

---

(٢) استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع صديق وموظف سابق في شركة سالم وافق على الحديث شريطة عدم ذكر اسمه.

عشرة آلاف ميل من مدينة داخاو التي تقع في جنوب ألمانيا إلى أستراليا. وبينما كان يتزود بالوقود، اقترب منه «رجلٌ نحيف كأنه مراهق يرتدي ملابس عربية، وحول خصره خنجر ومسدس». كان هذا هو سالم بن لادن. وعندما عرف سالم بمغامرة هيكمان لم يستطع التحكم في نفسه، فدعاه إلى غرفته في منزل الضيافة. ويتذكر هيكمان أنهما جلسا: «حتى الثالثة صباحًا، وظللنا نتحدث عن المغامرات الجوية»[٣].

قال سالم له إنه سوف يزور الأميرين نايف وأحمد، شقيقَيْ فهد، في معسكر الصيد الشتوي الذي كانا يقيمانه في الصحراء في صباح اليوم التالي، ووجّه الدعوة لهيكمان لمرافقته. كان الأميران قد نصبا خيامهما عبر الحدود مع العراق، التي حكمها في ما بعد صدام حسين، إلا أن سالمًا ذكر أنهما لن يواجها أي مشكلات إذا عبروا الحدود إلى دولة العراق البوليسية ما داما ضيوف العائلة المالكة السعودية.

صعد سالم إلى سيارة جيب أمريكية في صباح اليوم التالي مع كثير من المساعدين ومعه ستة صقور ذوي أعراف ليستخدمها في الصيد. وقاد هيكمان سيارة أخرى، وكتب عن ذلك لاحقًا: «قاد الشيخ بسرعة جنونية». واستطرد:

بين الحين والآخر كنا نقود سيارتينا متتبعين مسار السيارات الأخرى في رمال الصحراء، ولكن في الأغلب الأعم كان الشيخ سالم يقود سيارته عبر الصحراء كالمجنون. وكانت المنطقة مكتظة بالشجيرات الشائكة العملاقة ذات الجذور القوية الممتدة في التربة الرملية. وأمام كل شجيرة من هذه الشجيرات، كوّنت الرياح دائمة الهبوب كثبانًا رملية صغيرة. وانطلقت السيارة الجيب ذات النوابض المرنة التي ركبها الشيخ سالم فوق هذه الكثبان كأنها سفينة تجوب البحار في خضم عاصفة... وكنا ننطلق أحيانًا فوق أمواج الرمال كمن يمارسون التزلج على الجليد مع القفز؛ الفرق الوحيد أن الهبوط لم يكن مخيفًا كهبوط المتزلجين[٤].

---

(٣) كل الاقتباسات مأخوذة من: Heckmann, *Hai fressen kein Deutschen*, translated for the author by Petra Krischok.

(٤) المصدر السابق.

صافح هيكمان العرب الذين استقلوا سيارته إعجابًا بالمغامرة عندما توقفت السيارة، وأدرك أن العرب يعتبرون: «أن الضغط بقوة وتهوّر على دواسة البنزين هو أقصى مهارات القيادة». لحق هيكمان وسالم بكل من نايف وأحمد إلى خيمةٍ كانت المدفأة فيها حفرة من النار وقودها أخشاب الشجيرات الشائكة التي يتصاعد منها الدخان. سعل الأمير أحمد وعلق تعليقًا لاذعًا وقال: «إن التدفئة المركزية لا تؤذي مثل هذه المدافئ التقليدية».

فك سالم قيد الصقور وقام برحلة صيد مع أميريْن ذويْ شأن من «السُديريين السبعة»، كان أحدهما ـ الأمير نايف ـ على وشك أن يصبح وزير الداخلية المُهاب في المملكة، وكان الأمير أحمد نائبه الأول. لاحظ هيكمان البساطة والمرونة التي انتقل بهما سالم من عالم إلى آخر وقال: «هناك جلس الشيخ سالم متشابك الساقين كأنه قضى حياته برمتها جالسًا حول حفرة من النار في معسكر صيد في الصحراء، مع أنه في الواقع أكمل دراساته المتعددة في لندن، وكان في هذا الوقت يدير إمبراطورية إنشاءات عملاقة، بل إنه طرح أفكارًا ذكية ومبتكرة لموضوعات اقتصادية وسياسية»[٥].

على الجانب الآخر لم يكن صفو معسكرات ولي العهد فهد يتعكر بدخان الأخشاب. وكان فهد عادة يقود سيارته أربع أو خمس ساعات من الرياض في موكب من السيارات المرسيدس وعربات التخييم المجهزة البالغ عددها خمسين أو ستين سيارة وشاحنة. إلا أن معسكره الشتوي كان يشتمل على جناح مستشفى متنقل بأطبائه الأمريكيين المناوبين. وبدا فهد مستمتعًا بابتعاده عن الرياض وضغوط الحكم، وكان أحيانًا يبقى في الصحراء لمدة خمسة أو ستة أسابيع. جذبت معسكراته المؤقتة المتكررة في الصحراء أعدادًا هائلة من التابعين الذين نصبوا خيامهم بالجوار وحاولوا قضاء أكبر وقت ممكن في حضرة صاحب المقام الرفيع. وكان سالم جزءًا شبه دائم من حاشية فهد المدعوة للحضور، واتخذ موقعًا لإقامة معسكره في خيمة تبعد بأربع أو خمس خيام عن راعيه، أي نحو عشرة أميال .وكان

(٥) نفس المصدر السابق.

يصطحب معه مديرًا للمعسكر الذي غالبًا ما يكون أحد موظفيه الأوروبيين، إلى جانب ميكانيكي وطباخ. وكان يظل معسكِرًا لمدة أسبوعين أو ثلاثة في بعض الأحيان، وكان يتجه إلى معسكر فهد كل يوم بعربة مجهزة للسير في الصحراء أو أي سيارة مغامرات أخرى تلفت نظره. وفي الأمسيات كان سالم ينضم إلى مئة رجل أو يزيد من ضيوف فهد على الولائم التي يقيمها. وكانت تلك الولائم تُعقد على نحو ينم عن المساواة بين الناس كافة بالأسلوب البدوي التقليدي؛ يوضع الطعام على الأرض ويؤكل سريعًا قدر المستطاع، من دون تضييع الوقت في شرب نخب شخص ما أو إلقاء الخطب أو تناول المقبلات[٦].

كان سالم يقوم بتصرفات شائنة في وجود فهد. ذات مرة، حسبما يتذكر أحد ضيوف معسكره، وصل سالم إلى معسكره عائدًا من معسكر فهد بصحبة حراس أمن يبدو أنهم رافقوه بعد انصرافه من معسكر الحاكم. وذكر سالم لهم أنه كان يجلس في الخيمة الملكية عندما شكا فهد قائلًا: «والله يا سالم، لقد سئمت من هؤلاء البدو. يأتون إليّ دومًا ولا أمانع أبدًا في إعطائهم المال، ولكن بعد ذلك يتوافد المئات منهم يقبّلون يديّ وأعطيهم المال، ويقبّلون يديّ وأعطيهم المال. وهذا يتعبني، ما أحضر هنا إلا لأستريح في الصحراء».

ردّ عليه سالم: «يمكنني تخليصك من هذه المشكلة، دعني أعرف قبل مجيئك بيوم واحد، وسأظل أتناول الطعام طوال هذا اليوم؛ خاصةً بعض البقول السوداء، وضَعْني في مقدمة الطابور. وحينها سأبدأ في طرد الغازات، ليتلاشى جميع البدو من خلفي».

ضحك فهد من أعماق قلبه حتى إن طبيبه خشي عليه من إصابته بأزمة قلبية، ولذا أُبعد سالم عنه. وتذكّر أحد الضيوف قائلًا: «ينحني الجميع دائمًا» أمام فهد «إلا أن سالمًا كان له بمنزلة الصديق، وكان يمزح معه».

---

(٦) اقتُبست تلك الرواية أساسًا من مخيمات فهد الشتوية من خلال ثلاثة موظفين سابقين عملوا لدى سالم وحضروا أو عملوا في تلك المخيمات. واشترط اثنان منهم على عدم الإفصاح عن هويتهم. أما الثالث فيدعى بنغت يوهانسون Bengt Johansson وأُجريت مقابلة معه بتاريخ ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٦م.

ومن جانبه، «أحب فهد أسلوب سالم التلقائي. وبالطبع كان سالم طائشًا، وإذا فعل شخص طبيعي ما كان يفعله، كانت ستُقطع يده، ولكن لأن سالمًا كان أكثر ميلًا نحو غرابة الأطوار إلى حدّ ما، كان مزاحه مقبولًا»(٧).

في نهاية الأمر حصل سالم على الإذن بشراء طيارة خاصة، وبدأ في تكوين أسطول طائرات مثل أسطول والده، الذي بيع بعد أن أصدر فيصل أمرًا سابقًا بعدم السماح بطيران أحد من عائلة بن لادن بعد وفاة أبيه. وبدلًا من شراء طائرة صغيرة ترفيهية، كانت الطائرة الأولى لسالم من شركة ميتسوبيشي طراز أم يو ـ ٢ (MU-2) ذات محرك توربيني مروحي، تتسع لستة ركاب، وتعمل بالقوة الدافعة ويمكنها الهبوط على المدرجات القصيرة. وخلال أواخر سبعينيات القرن العشرين، بدأ سالم الطيران على متن طائرته الـ أم يو ـ ٢ في الصحراء للانضمام إلى مخيمات فهد الشتوية. وبنى مساعدوه مدرجًا مؤقتًا للهبوط والإقلاع كانت أبعاده تتحدد بالأضواء الكهربائية الوامضة والإطارات البالية المشتعلة. لم يستطع سالم مقاومة رغبته في الطيران فوق خيمة فهد على ارتفاع منخفض. وتختلف الروايات التي ذُكرت عن هذه الحادثة من شخص إلى آخر. ففي رواية، قال بعضهم إن حراس فهد الشخصيين رفعوا أسلحتهم وصوبوها نحو طائرة سالم، بينما قيل في روايةٍ أخرى إن سالمًا هبط بالطائرة بجرأة على طريق ما على مقربة من موقع إقامة الملك. وعلى أي حال يتذكر جاك هينسون، الطيار الذي عمل مع سالم خلال تلك الفترة، أن سالمًا كان عادة ما يتندر بما قاله فهد له بعد ذلك إذ قال: «إنك لمجنون، وسوف تلقى حتفك يومًا ما في مغامرة من مغامراتك»(٨).

كان استمتاع سالم بمغامراته استمتاعًا شخصيًّا خالصًا، إلا أنه وظفه بدهاء ليفوز بحظوة عند فهد وإخوته لتوظيفها في شؤون العمل. ومثلما يفعل مديرو المبيعات، أوكل سالم لكل أخ من إخوته الأشقاء وغير الأشقاء

(٧) الحكاية المنقولة عما قاله سالم لفهد إلى جانب كل الاقتباسات مأخوذة من مقابلة مسجلة مع الشخص الذي أشرنا إليه في الملاحظة ٢ أعلاه.

(٨) حُدد تاريخ شراء طائرة أم يو ـ تو MU-2 من المقابلات التي أُجريت مع يوهانسون الذي أشرنا إليه في المصدر السابق إلى جانب جيرالد أورباخ بتاريخ ٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع جاك هينسون بتاريخ ١٠ مايو/ أيار ٢٠٠٥م.

أميرًا سعوديًّا ذا شأن، وكانت المهمة المنوطة بكل منهم إقامة علاقة شخصية مع أميره والفوز بعقود المقاولات. ويتذكر روبرت آرميتدج الذي كان يدير أحد فروع الشركة في جدة خلال هذه الفترة قائلًا: «تمثل التحدي الحقيقي في السؤال الآتي: «من هو الأمير الذي يمكنك أن تقيم معه علاقة جيدة؟»» تعامل سالم مع فهد نفسه، وعينّ أخاه الشقيق بكرًا لكسب ود عبد الله بن عبد العزيز وصداقته الذي سيحين دوره في اعتلاء العرش بعد فهد. وكانت استراتيجية سالم تتمثل في التنقيب عن العقود الوشيكة واكتشافها عن طريق العلاقات مع موظفي الوزارات الحكومية الرئيسة، ثم إنهاء أمور تلك الصفقات مع الأمراء. وقال آرميتدج: «بعض هذه الصفقات كانت ضخمة ومقسمة بين كبار المقاولين ونتيجتها محددة سلفًا، ولذا تفوز بجزء منها ما دام يمكنك أداء العمل» وكنت تتمتع بحظوة العائلة المالكة[٩].

كانت رحلات التخييم الصحراوية فرصة سانحة لتحصيل الفواتير التي مضى موعد استحقاقها. فكان سالم يجلس إلى جانب فهد يومًا بعد الآخر و يتحدّث بلطف وود بما يدين له، إلى أن يصل المحاسب الملكي ومعه شيك بالمطلوب. ويتذكر بنغت يوهانسون، الذي عمل كبير ميكانيكيي الطائرات لدى سالم لمدة لا تقل عن خمسة عشر عامًا، سالمًا وهو عائد من خيمة فهد في ذات مرة وفي يده شيك يلوح به في الهواء، قائلًا: «لقد حصلنا على مستحقاتنا يا رفاق! هيا لنرحل من هنا!» فحزموا أمتعتهم وفكوا خيامهم ورحلوا على الفور[١٠].

بحلول أواخر السبعينيات، كان سالم قد حصل على المزيد من العقود التي كانت كافية للشروع في إضافة طائرات من طراز ليرجت (Learjet) وطائرات رجال أعمال أخرى فاخرة إلى أسطوله الخاص. واستخدم سالم هذه الطائرات للقيام برحلات ترفيهية عبر البحار من جهة، وتعزيز علاقاته مع العائلة المالكة من الجهة الأخرى. وإذا اتصل أمير من الأمراء وطلب «استعارة» إحدى طائرات سالم الـ ليرجت، لم يكن يشعر أن أمامه أي خيار

(٩) استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع روبرت آرميتدج بتاريخ ١٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م.

(١٠) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع يوهانسون، راجع نفس المصدر السابق.

سوى تحويل مسار الطائرة وفريق العمل عليها إلى القيام برحلة ترفيهية للتسوق في أوروبا تستمر أسابيع. وكان ذلك جزءًا من اتفاقية ضمنية مع العائلة المالكة. ويتذكر يوهانسون أن سالمًا كان يتملص من الرد على اتصالات هاتفية من أمراء بعينهم كانوا يبالغون في استعارة الطائرات منه، قائلًا: «حاول سالم التهرب من طلبات الأمراء باستعارة طائراته، إلا أنهم إذا طلبوا منه ذلك بطريقة مباشرة، كان لا بد حينها من الموافقة»[١١].

كان سالم يعاني الأمرَّين من: عدم توفر السيولة النقدية اللازمة لمؤسسة في حجم مؤسسة بن لادن من جراء مثل هذه الخدمات، إلى جانب الحسابات الدائنة له على العائلة المالكة، ونهاية بالمشتريات العادية، وطلبات العاملين في المؤسسة الحصول على الرواتب. وقد تمكن والد سالم من التعامل مع مشكلته المتعلقة بالسيولة النقدية آنذاك عن طريق دعم صديقه المصرفي الحضرمي العظيم سالم بن محفوظ، الذي سُمي سالم بن لادن نسبةً إليه. وقد أقام سالم بن لادن علاقة صداقة مشابهة وشراكة عمل مع خالد بن محفوظ، وريث ثروة أبيه الذي أُرسل إلى مدرسة في إنكلترا، شأنه شأن سالم، والذي بدأ في منتصف سبعينيات القرن العشرين يؤدي دورًا شديد الأهمية في البنك الذي أسسته العائلة؛ البنك الأهلي التجاري. وكان خالد يتمتع بشخصية شديدة الهدوء مقارنة بسالم، إلا أن صداقتهما توطدت بسرعة على المستوى الشخصي وعلى مستوى شراكة العمل. وخلال فترة السبعينيات كان الرجلان في طور محاولة إثبات نجاحيهما كمسؤولين تنفيذيين شابين، كلٌّ في مجاله.

كان كلٌّ من سالم وخالد يمتلكان أسطولًا صغيرًا من الطائرات الخاصة في السنوات الأولى للطفرة النفطية. وعيّنا لديهما طيارين أمريكيين وباكستانيين وأفغان ومصريين، وآخرين من جنسيات أخرى، وافتتحا قسمًا للطيران في مطار جدة. وكان من بين مهام هذا القسم نقل الأموال النقدية. ظلّ النظام المصرفي في المملكة العربية السعودية في حالة بدائية نسبيًّا، في ما عدا استخدام القليل من النظم الإلكترونية أو نظم الكمبيوتر التي يمكن الاعتماد عليها، إلا أنّ النقد ظلّ مسيطرًا على الساحة لفترة، وكثيرًا

(١١) نفس المصدر السابق.

ما كان سالم يوظف طائراته الخاصة لنقل حقائب الأموال بين فروع البنك الأهلي التجاري. وفي سجلات الطائرة التي احتفظ بها طياروه، صُنفت هذه الرحلات أحيانًا على أنها «رحلات مالية». وكانت الرحلة تبدأ عادةً من المقر الرئيس للبنك الأهلي التجاري في جدة، حيثما كان العمال اليمنيون المغتربون الموثوق فيهم يحمّلون أكياسًا من الخيش يبلغ طولها خمسة أقدام، منتفخة بالريالات ومغطاة بسدادات من الرصاص، على قافلة من سيارات الهوندا المخصصة للشحن، ومن دون مرافقة أي حراس أو رجال مسلحين، كان ناقلو الشحنات يتجهون إلى المطار ويقومون بتحميل الأموال على طائرات الـ ليرجت حتى تمتلئ مقاعد الركاب. وبعد ذلك يقود طياران كل طائرة متجهين إلى مدينة الظهران أو الرياض أو حائل، أو أي مدينة سعودية أخرى، حيث تُفرغ الأموال وتُنقل إلى فرع محلي من فروع البنك الأهلي التجاري حتى تمتلئ خزائنه. وفي رحلات أخرى يتجهون بالمال على متن الطائرات إلى مواقع تخييم بن لادن في الصحراء لمنح عمال البناء المهاجرين قدرًا قليلًا منها. وذات مرة حمّل ناقلو الشحنات اليمنيون طائرة بسبائك من الذهب، من دون أن يُوضح لهم أي شيء، ثم اتجهت الطائرة إلى البحرين أو لندن أو سويسرا. وبمرور السنوات، أعرب الطيارون الأمريكيون الذين قادوا الطائرات في هذه الرحلات المالية عن غرابة كلٍّ من الحمولة ومقاصد الرحلات نفسها بصورة متزايدة وذلك على الرغم من أنهم لم يجدوا ما يخالف القانون مطلقًا[١٢].

في مرحلةٍ ما خلال منتصف سبعينيات القرن العشرين، اتخذ سالم قرارًا أن يصبح طبيبًا. وطبقًا لما ذكره صديقه محمد عشماوي طلب إلى فهد السماح له بالدراسة في القاهرة؛ ونظر إليه ولي العهد وقال: «انضج يا سالم»[١٣].

لم يثنه ذلك عن قراره، فطلب من طبيب العائلة في جدة الأمريكي

---

(١٢) حُددت الرحلات المالية من سجلات الطيران والمقابلات التي أُجريت مع أورباخ، من نفس المصدر السابق. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع ديفيد غراي David Grey بتاريخ ٢١ فبراير/شباط ٢٠٠٦م إلى جانب مقابلات أُجريت مع اثنين من الموظفين في قسم الملاحة الجوية وافقا على الحديث شريطة عدم الكشف عن هويتهما.

(١٣) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع عشماوي في نفس المصدر السابق.

الجنسية الذي يُدعى تيري بينيت، إن سمح، أن يكتب له خطابات توصية. ويتذكر بينيت قائلًا: «كان ذلك هو مشروع الشهر حينئذٍ»، مضيفًا: «وكان يفتقر إلى القدرة على التركيز على أكثر من نشاط في وقت واحد»(١٤). ومع ذلك كان سريع التعلُّم، وأصبح طيارًا ممتازًا من دون خوض تلك التدريبات الرسمية الصارمة، بل كان يطلب من وقت إلى آخر مرافقة الطيارين الأكثر خبرة لتعليمه بعض الأشياء التي يفتقدها. وبدأ يظن أن بوسعه تعلم الطب بالطريقة نفسها. وعلى أي حال، كان لديه عزم لا يلين شأنه شأن كبار العائلة على مر التاريخ، على ضرورة أن يكون أحد الأشخاص في العائلة طبيبًا.

بدأ سالم يقضي أوقاتًا طويلة في القاهرة، التي تقع على مسافة قصيرة نسبيًّا من جدة، وتُعد قريبة على نحو يسمح بالذهاب والإياب إليها في نهاية كل أسبوع على متن الطائرة، كما كانت ثقافتها أكثر حيويةً وانفتاحًا من أي مكان آخر في المملكة العربية السعودية. وكان والد سالم قد تزوج على الأقل سيدتيْن مصريتين، وأقامت الذرية الناجمة عن هاتين الزيجتين في القاهرة وما حولها. أنجب محمد ثلاثة أبناء من زواجه بامرأة مصرية - ابنين هما خالد وعبد العزيز وابنة تُدعى منى - إلى جانب ابنة واحدة من زيجته الثانية تُدعى رندا.

كانت رندا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها عندما قضى محمد بن لادن نحبه، وقابلت سالمًا لأول مرة في جنازة أبيها. وحينها قال لها سالم: «لا تخافي ولا تقلقي، سأوليك اهتمامي دائمًا». وتتذكر صديقة أمريكية تُدعى جيل فريمان أنهما «كانا مرتبطين أحدهما بالآخر ارتباطًا وثيقًا». واكتشف سالم أن رندا ووالدتها التي تزوجت مرة أخرى بعد أن قضى محمد نحبه لا تعيشان في ظروف مادية لائقة. فأعطاهما أموالًا واشترى لهما منزلًا في أحد أحياء القاهرة مكوّنًا من ثلاثة طوابق بالقرب من نادي الصيد بالقاهرة الذي أنشئ أيام الاستعمار. كان سالم يقيم في الطابق السفلي عندما يكون في المدينة، وفضلت رندا الإقامة في الشقة التي تعلوه، وعاشت أمها مع زوجها الجديد في الطابق الأخير. وفي منتصف السبعينيات أصبحت رندا معروفة للجميع في حاشية سالم بأنها

---

(١٤) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع تيري بينيت في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥م.

أخته المفضلة. وكانت نحيفة القوام وذات بشرة سمراء فاتحة وشعر أسود وكانت تتميز بأنها متفتحة الذهن. أحبها سالم حبًّا جمًّا، وكان يتحدّث معها كثيرًا في الهاتف ويصطحبها للتسوق في أوروبا ويسافر إلى القاهرة بصفة منتظمة لزيارتها. ونمت العلاقة بينهما بشكل ملحوظ حتى بدت أشبه بالحب الرومانسي. ولم يتسرب الشك إطلاقًا إلى أي من حاشية سالم المقربين في وجود علاقة غير طبيعية بينه وبين أخته غير الشقيقة، ومع ذلك أعجبوا بالعاطفة التي لا يشوبها تحفظ في علاقة أحدهما بالآخر(١٥).

اتخذ سالم قرارًا بأن تصبح رندا طبيبة هي الأخرى، وأبلغ الجميع بأنه سوف يدرس معها في جامعة القاهرة. ويتذكر صبري غنيم وهو أحد موظفي العائلة في القاهرة قائلًا: «دفع سالم رندا دفعًا لدراسة الطب»(١٦). فاجتهدت في الدراسة، ودفع سالم لمدرسيها في الجامعة للحضور إلى شقتها ومنحها دروسًا خاصة. وحاول حضور هذه الدروس أيضًا بالمجيء من جدة والعودة إليها جوًّا. وأمر الطيارين الذين يعملون لديه بمساعدة رندا في شراء مستلزماتها، ومرة واحدة على الأقل نقل سالم هياكل عظمية من المملكة العربية السعودية على متن إحدى طائراته الخاصة لمساعدتهما في جلسات الاستذكار المكثفة(١٧).

داخل نطاق المملكة العربية السعودية، لم يعد ذهاب السيدات إلى الجامعة أو حتى إلى كلية الطب شيئًا شاذًّا، على الرغم من أنه إذا درست سيدة في المملكة، فكان يُشترط عليها الالتزام بعدم الاختلاط الصارم بين الجنسين. شجع سالم كثيرات من أخواته الشقيقات وغير الشقيقات على الالتحاق بالمدارس، وألحق أخته الشقيقة التي تُدعى هدى بكلية الفنون في

---

(١٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع جيل فريمان بتاريخ ٢٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م. والمعلومات حول الظروف التي كانت أقل من المستوى المريح مقتبسة من المقابلة التي أُجريت مع أورباخ في نفس المصدر السابق. أما المعلومات عن البيت ذي الطوابق الثلاثة في المدينة مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع صبري غنيم بتاريخ ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م. أما المعلومات عن علاقتهما فمن المقابلات التي أُجريت مع كثير من الموظفين الذين عملوا لدى سالم بمن فيهم يوهانسون. وأيضًا ممّا قاله بيتر بلوم.

(١٦) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع غنيم في نفس المصدر السابق.

(١٧) المعلومات عن الهياكل العظمية من المملكة العربية السعودية مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع عشماوي في نفس المصدر السابق.

باريس في الوقت الذي تكبد فيه مصروفات إلحاق رندا بكلية الطب في القاهرة. وألحق أختين من أخواته غير الشقيقات في مدارس داخلية في باكستان، والتحقت أخريات بالجامعات وأكاديميات التصميم في الولايات المتحدة الأمريكية. وتحول اهتمام كثيرات منهنّ إلى تصميمات الديكورات الداخلية، وهي مهنة استطعن الانتفاع بها في مشروعات بناء القصور الجاهزة التي نُفّذت لحساب شركة العائلة. كانت كثيرات من أخوات سالم غير الشقيقات يرتدين الملابس الغربية الأنيقة، ويسافرن غير منتقبات خارج المملكة العربية السعودية. وفي الوقت نفسه بدا سالم عازمًا بشدة على حماية ما أطلق عليه في مخيلته «شرف أخواته». فكان يحول دون حديث أي من الطيارين الشباب الذين يعملون لديه مع أي من أخواته الشقيقات أو غير الشقيقات، باستثناء جيرالد أورباخ الحنون الذي وثق فيه باعتباره مرافقًا لحراستهن[١٨].

لم يكن سالم يعيش حياة الترف في أوقات زيارته إلى مصر، ومع وجود طهاة وخدم في المنزل الذي عاش فيه مع رندا، فإنه لم يكن قصرًا. وكان سالم يرتدي في القاهرة الجينز الأزرق والقمصان غير الرسمية (التيشيرت)، وكان يتنقل في شوارعها راكبًا سيارة أسبانية أو دراجة بخارية. وافتتح مكتبًا في العقار الرقم (١٤) الكائن في شارع الثورة، وعيّن عددًا صغيرًا من المساعدين المصريين، وبدأ في استكشاف تلك الأرض الواعدة وصفقات التنمية والإنشاء في القاهرة. وفي هذا الصدد يتذكّر غنيم: «كان سالم يحلم ببناء أبراج سكنية ومراكز تجارية على ضفاف النيل»[١٩].

بحلول أواخر السبعينيات، كان سالم يعرف عن القاهرة ما لا يعرفه أكثر متعهدي البناء والتطوير خبرةً لأنه كان يقضى ساعات طويلة محلقًا فوق سمائها. ربما يكون سالم قد تخيّل أنه سيصبح طبيبًا، إلا أنه كان طيّارًا بالفعل، وكان ولعه بالطيران هو العشق الوحيد في حياته الذي لن يسأم منه مطلقًا.

(١٨) من المقابلات التي أُجريت مع الطيار هينسون وغراي في نفس المصدر السابق. وأيضًا ممّا قاله جيل فريمان في مقابلة أُجريت معه، راجع نفس المصدر السابق.

(١٩) استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع غنيم، راجع نفس المصدر السابق.

اشترى سالم طائرة تعمل بالمروحة الدافعة بمحرك واحد طراز سسنا-١٧٢ (Cessna-172) في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الأثناء، وذهب بها إلى القاهرة. ووضعها في مطار صغير في ضاحية في المدينة، يُطلق عليها إمبابة، وكان هذا المطار قد بُني عام ١٩٤٧م ولم يستخدمه سوى الطيارين الهواة. علاوة على ذلك، كان سالم يستخدم الطائرة سَسْنا (Cessna) لسحب طائرته الشراعية ألمانية الصنع ذات المقعدين لارتفاع خمسة آلاف قدم تقريبًا، حتى تتمكن من الانطلاق ليركبها في رحلة العودة غير المباشرة إلى إمبابة، حيث ينعطف جنوبًا إلى النيل، ومنه إلى الأهرامات، مارًّا بالأحياء الفقيرة المليئة بالغبار والحدائق العامة القاحلة، لا يصحبه سوى صوت الرياح المتدافع عبر الجناحين. كان سالم يعشق هذه الرحلات أعلى الأهرامات. وعندما تودد إلى صديقة جديدة (وهو ما زال متزوجًا من شيخة، ولكنهما كانا منفصلين)، كثيرًا ما كان يصطحب صديقته إلى القاهرة جوًّا ويطير بها عاليًا على متن طائرته الشراعية وقت الغروب. وبمساعدة الطيارين أصدقائه، تدرب على أداء الحركات البهلوانية بالطائرة في السماء؛ الانقلاب والتمايل والطيران عكس الاتجاه في سماء إمبابة. واشترى لاحقًا طائرتيْن شديدتي الخفة. وفي حالة وجود المزيد من الطيارين من حوله، كان يرتب أمور القيام برحلة ترفيهية مسائية إلى الأهرامات؛ فيطير أصدقاؤه خلفه بشكل معين، كأنهم كتيبة من الطائرات الدمى[٢٠].

تتذكر واين فاغان المحامية الأمريكية التي زارت سالمًا في القاهرة أنها دُعيت ذات مرة للجلوس في مؤخرة إحدى هذه الطائرات بينما جعلها سالم تنطلق مسرعةً على مدرج الإقلاع محدثةً ضوضاءً عالية، وبمنتهى الاستخفاف حاول «سحب الصمامين الخانقين بمرفقيه» لأن يديه كانتا مشغولتين حينئذ بإشعال غليون تبغ. وهكذا انطلقا فوق الصحراء وقت الغروب وأخذ يحوم حول الأهرامات. ووعد سالم فاغان بالقيام برحلة جوية في الطائرة الشراعية لاحقًا ولكنها لم تكن متاحة، ولذا في طريق العودة أوقف محركات طائرته وانجرفا مع تيارات الهواء، وقالت في هذا الصدد:

(٢٠) استنادًا إلى مقابلات أُجريت مع أورباخ وهينسون وغراي، راجع نفس المصدر السابق.

«قال لي سالم: «انظري يا واين، إننا ننساق مع تيارات الهواء بسلاسة!» وقلت له: «تجربة عظيمة يا سالم، أشكرك شكرًا جزيلًا، يمكنك تشغيل المحركات الآن»»[٢١].

في أثناء إحدى الرحلات الجوية على متن الطائرة الشراعية التي استغلها سالم في التودّد إلى صديقة إنكليزية، تُدعى كارولين كيري، أخطأ في حساب سرعة الرياح والارتفاع وبدا على وشك الاصطدام. أصاب كارولين الذعر الشديد لحظة الهبوط العمودي حتى إنها تعهدت باعتناق الإسلام إذا ما بقيا على قيد الحياة. قاد سالم الطائرة على وجه السرعة تجاه أحد ملاعب نادي الصيد بالقرب من شقة رندا، وجعل الطائرة تنزلق جانبيًّا أعلى أشجار عالية، ثم أبطأ السرعة في الوقت المناسب وتوقف قبل الاصطدام بسور النادي. ويتذكر أنور خان، الطيار الباكستاني الذي عمل لديه، هذه الحادثة قائلًا: «عندما شاهدت ما فعله سالم، قلت: «يا الله! أي طيار آخر كان سيحطم الطائرة لا محالة». هرع إليه رجال أمن النادي، وترجّل سالم من الطائرة وساعد صديقته على الوقوف، ثم قال مازحًا: «عذرًا، لست عضوًا في النادي، لكنّ أخي لديه بطاقة عضوية». الأغرب أن كارولين نفذت وعدها واعتنقت الإسلام[٢٢].

استخدم سالم مهاراته البهلوانية في أخذ المال من المدينين له بوسائل متعددة. ويذكر لنا روبرت آرميتدج: «كان الناس مدينين له بالمال دائمًا، ولذا كان يعرض عليهم الركوب معه في طائراته». وذات مرة، وهو يحلق في الهواء مع أحدهم، «قال: «انتبه إليّ، إنك تدين لي بمئتي ألف دولار، وأريدك أن تكتب لي شيكًا بالمبلغ الآن»». وإذا قوبل هذا الطلب بالرفض، يهدد بالإمساك بأذرع التحكم في الطائرة وقلبها رأسًا على عقب. وإذا ظلوا على موقفهم، «يبدأ في تنفيذ ما هدد به... وعلى الفور يقول له المدين: «حسنًا، حسنًا، سأكتب لك الشيك!»»[٢٣].

---

(٢١) استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع واين فاغان بتاريخ ١٠ مايو/ أيار ٢٠٠٥م.

(٢٢) استنادًا إلى مقابلة أجريت مع أنور خان بتاريخ ٦ مايو/ أيار ٢٠٠٥م. والمعلومات عن كارولين ووعدها باعتناق الإسلام مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع شخص مقرب من العائلة طلب عدم الكشف عن هويته.

(٢٣) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع آرميتدج، راجع نفس المصدر السابق.

في ظلّ توجيهٍ يفيض حماسةً من سالم تحول آل بن لادن تدريجيًّا إلى عائلة من الطيارين. وتوضح سجلات رحلات الطيران أن ما لا يقل عن سبعة من إخوة سالم الأشقاء وغير الأشقاء تلقوا دروسًا على متن طائراته الخاصة خلال فترة السبعينيات. وكثيرات من أخواته غير الشقيقات تدربن على الطيران. ومع ذلك فقد ثبت لاحقًا أن أسامة لم يكن من بين هؤلاء، إلا أنه اشترى طائراتٍ خاصة لاحقًا، وربما يكون قد حصل على بعض الدروس غير الرسمية في الطيران. ولكن يبدو أنه لم يقد الطائرات كثيرًا خلال فترة السبعينيات. وربما كان صغر سنه النسبي أحد العوامل؛ إذ إن إخوته الذين أخذوا دروسًا في الطيران كانوا أكبر منه، وكان اهتمام أسامة في المدرسة الثانوية منصبًّا أكثر على الموضوعات الدينية.

عزّزت دروس الطيران حدود الدائرة الداخلية المكونة من إخوة بن لادن حول سالم، وعلى رأسهم أخواه الشقيقان غالب وبكر، واشتملت الدائرة كذلك على بعض إخوته غير الأشقاء الأكبر سنًّا مثل عمر وعيسى ويحيى وطارق ويسلم. واتسمت هذه المجموعة بالتنوع ـ إذ كان بعضهم ورعًا وبعضهم أكثر تعلقًا بالدنيا ـ إلا أنهم ارتبطوا جميعًا بوثاق واحد وهو اعتمادهم على قيادة سالم. فاتبعوه محلقين في السماء ليتذوقوا متعة ما يشرحه سالم لهم وتوسيع آفاقهم المحدودة وكسب محاباته.

أعجبت مهارات سالم كثيرًا من الطيارين الأمريكيين والمصريين والباكستانيين الذين رافقوه في أثناء القيادة، وكان كثيرون منهم يعملون في القوات الجوية لبلادهم. فكان متوقد الذكاء واتّسم بقدرات رائعة على الاستجابة السريعة، وإحساس فطري بالطائرة في أثناء الطيران، وذهن متقد ساعده في استرجاع الاختلافات الدقيقة بين لوحات تحكم الطرازات المختلفة للطائرات التي يمتلكها. إلا أنه لم يكن بارعًا في المسائل التقنية، ولم يكن متابعًا دقيقًا لقوائم المراجعة وتسلسل المهام. ومع ذلك كان عادةً ما يصطحب طيارًا مساعدًا على متن الطائرة ليراعي هذه التفاصيل. وفي الرحلات العادية كان يقلع ويهبط بنفسه، لكنه يسمح لطياره المساعد بالتعامل مع الطائرة في الرحلة الطويلة والطائرة محلّقة في الهواء، بينما يأخذ هو غفوة في مؤخرتها أو يداعب إحدى صديقاته. وكان سالم يستمتع بـ «الإحساس بالسرعة الفائقة وبتحكمه في الطائرة» حسبما ورد عن معلم له

يُدعى دون سوويل. وكانت مهاراته «ممتازة» بالإضافة إلى أنه «لم يكن مهملًا أو متهورًا على الإطلاق»، ومع ذلك «عاش الشيخ سالم حياةً محفوفة بالمخاطر، بل على شفا حفرة من الهلاك». إذ لم يبد مطلقًا في حالة من التركيز، ربما لأنه في ما يبدو كان يفعل دائمًا أكثر من شيء في الوقت ذاته؛ حيث كان يتنقل بين المكالمات الهاتفية مع صديقاته باستخدام جهاز إرسال الطائرة اللاسلكي عالي الترددات، والمزاح مع مراقبي أبراج التحكم، وفي الوقت ذاته ـ حسبما ورد عن أنور خان ـ كان «يقترب من الأرض اقترابًا شديدًا جدًّا» باستخدام أدواته التي اكتسبها من واقع خبرته[٢٤].

لم يكن سالم شديد الاكتراث بقواعد رخص الطيران أو قوانينه الرسمية. وعندما لا يجد مساعد طيار مدربًا للسفر معه في رحلة بعينها على متن طائرة تتطلب وجود طيارين، كان يطلب إلى أحد أصدقاء الدراسة غير المدربين، أو يطلب إلى شركائه في العمل الجلوس في مقعد مساعد الطيار والتوقيع على خط سير الرحلة حتى يستطيع الإقلاع. وتعلم أصدقاؤه كيفية التصرف برباطة جأش في مثل هذه المواقف، لأنه في حالة استشعار سالم الخوف من هؤلاء الركاب أو مساعدي الطيار المزورين، يلف الطائرة بلا هوادة أو يديرها ليزيد شعورهم بالتوتر والقلق ويسعد بذلك وتنطلق ضحكاته. وفي إحدى الرحلات الطويلة المتجهة إلى القاهرة، طلب سالم إلى روبرت فريمان مساعدته، وهو الإنكليزي الجنسية الذي كان شريكه في العمل ولم يحظ بساعة واحدة من التدريب على الطيران. وعندما سأله فريمان عما يجب أن يفعله إذا أصيب سالم أو فقد الوعي، أجابه بعملية شديدة قائلًا: «ستكون تلك هي النهاية لكلينا»[٢٥].

على الرغم من الحادث القدري والمأساوي الذي تعرض له محمد بن لادن، فإن مغامرات سالم الطائشة قد أكدت بما لا يدع مجالًا للشك أن مخاطر الطيران الخاص أصبحت من الأمور التقليدية في حياة عائلة بن لادن وأحاديثهم اليومية. وكادت تلك المغامرات غير التقليدية تؤدي إلى

---

(٢٤) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع دون سوويل بتاريخ ٢ يونيو/حزيران ٢٠٠٥م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع خان في نفس المصدر السابق.

(٢٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع روبرت فريمان بتاريخ ٢٧ أبريل/نيسان ٢٠٠٦م.

سلسلة من الحوادث وحالات موت محقق منذ منتصف السبعينيات فصاعدًا، وكان أفراد العائلة كافة على علم بتفاصيل كل منها، بل كانوا يتحدثون عنها في أوساط العائلة. فها هو غالب، أخو سالم الشقيق، يحطم طائرة طراز بايبر (Piper) بفقدان السيطرة عليها خلال الهبوط، وهناك طائرة للعائلة من طراز ليرجت سقطت وهي عائدة من المدينة المنورة بصورة غامضة وهي تحلق في السماء، ولقي اثنان من الطيارين المغتربين حتفيهما. هذا إلى جانب أن سالمًا نفسه انزلق بطائرته على الجليد وأوشك على التعرض لكارثة؛ إذ كانت لديه مشكلة في التعامل مع معدات إزالة الجليد في طائرته طراز أم يو ـ ٢ التي كان يسافر على متنها إلى أوروبا في فصل الشتاء، ولو أساء سالم التعامل مع النظام كانت الطائرة ستنهار. وذات مرة، قفز من الطائرة بعد الإقلاع بسبب توقف محركات الطائرة ارتفاع شديد الانخفاض. وسرد قائلًا في هذا الشأن، طبقًا لما يرويه بنغت يوهانسون: «كنت أدعو الله عز وجل قائلًا: «فلتحرمني من كل طائراتي ومن كل أموالي، لكن يسّر لي محركًا واحدًا صغيرًا». وأُجيبت دعوته[٢٦].

بحلول أواخر السبعينيات كانت أعداد الطائرات التي يشتريها أكبر من تلك التي يحطمها. فاشترى طائرة ذات محرك توربيني مروحي طراز فوكر ـ ٢٧ (Fokker-27)، لاستخدامها بصفةٍ أساسية للتنقل بين مواقع الإنشاءات في الصحراء. واشترى طائرة ليرجت ٢٥ ـ دي (Learjet 25-D) واهتم بالموديلات الأحدث منها؛ فقد كان يعشق طائرات ليرز (Lears) لدرجة أنه كثيرًا ما كان يرتدي سراويل جينز زرقاء عليها شارة على شكل طائرة ليرجت صغيرة. بالإضافة إلى أنه اشترى طائرة طراز هوكر ـ ١٢٥ (Hawker-125) وهو طراز الطائرة النفاثة نفسه الذي اشتراه والده قبل وفاته. وأضاف صديقه المصرفي خالد بن محفوظ المزيد من الطائرات الأكثر تكلفةً إلى فرع جدة، وكان من بينها الطائرة بوينغ ٧٠٧ (Boeing 707) المعدلة من الداخل. وكان لكل طائرة رقم ذيل مختلف، وغالبًا ما كان سالم يختار الحروف الأولية المنقوشة على الذيل من أسماء العائلة.

---

(٢٦) المعلومات عن أحداث المدينة مستمدة من المقابلات التي أُجريت مع طياري بن لادن. وأيضًا من المقابلات التي أُجريت مع يوهانسون في نفس المرجع السابق.

كان سالم يعزف على آلة الهارمونيكا ويبث عزفه عبر الراديو لتسلية المراقبين الجويين. وعلى متن طائرته الـ ليرجت، كان يعلن عن وصوله مستخدمًا مصطلحات الإرسال اللاسلكي: «*Hotel Zulu Bravo Lima One*» بينما يصيح المراقبون الجويون في القاهرة أو بيروت بصوت عالٍ مرحبين به: «أهلًا شيخ سالم!» علاوةً على ذلك، تمتع سالم بحرية لا مثيل لها بفضل طائراته للقدوم والذهاب حيثما أراد. وطبقًا لما ذكره أحد أصدقائه اللبنانيين: «كان كل تركيز سالم منصبًّا على طائرات الـ ليرجت و أم يو - ٢ والجينز والغيتار وآلة الهارمونيكا ويعتقد أنها تلخص كل ملذات الحياة»[٢٧].

كانت هواياته جذابة ومثيرة إلا أنها كانت مكلفة للغاية. فالعيش بهذه الطريقة تطلّب من سالم تعديل استراتيجية عائلته للاستفادة على أكمل وجه من الاقتصاد الجديد الذي حملته الطفرة النفطية. فقد احتشدت الشركات الأوروبية والأمريكية بكل طاقاتها في المملكة العربية السعودية خلال السبعينيات، واستخدمت كل الوسائل لبيع أجهزة التلفاز والهواتف والسيارات الفارهة وأجهزة التكييف وغسالات الأطباق. . . واكتظت الأسواق بكل ما يمثل النزعة الاستهلاكية الحديثة. ولكن القانون السعودي كان يشترط على هذه الشركات بيع منتجاتها من خلال وكلاء محليين. وتنافست العائلات التجارية السعودية للحصول على توكيلات العلامات التجارية الأكثر رواجًا، وهي الطريق المباشرة إلى الأرباح الفورية. وشأنه شأن أبيه، لم يكن سالم يميل إلى العمل بهذا الأسلوب؛ إذ كان يفضّل العمل كشركة مستقلة ذات كيان واسم بارز في الأسواق، وليس مجرد وكيل للشركات الأجنبية، وإذا تطلّب الأمر التعامل مع تلك الشركات، كان سالم يفضل أن يكون هذا التعاون في صورة شراكة بدلًا من مجرد الحصول على عمولات من شركات عبر البحار. وبالفعل وقّع بعض عقود الوكالات مثل تلك التي أبرمها مع شركتي تصنيع السيارات الألمانيتين فولكس فاغن وبورش، إلا أنه فضّل المشروعات المشتركة التي تشتمل على عقود ضخمة للتشييد، وفضّل التركيز على المجالات التي تتمتع فيها

(٢٧) المعلومات عن التفاصيل على الطائرة مقتبسة من المقابلات التي أُجريت مع عدد من الطيارين التابعين لابن لادن أو التابعين لابن محفوظ. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع صديق لبناني وافق على الحديث شريطة عدم الكشف عن هويته.

عائلته بالفعل بدرجة من المصداقية والخبرة. وعلى كلٍّ، خلال فترة الطفرة النفطية في السبعينيات، كان يجب أن يكون هناك متحدث رسمي عن عائلة بن لادن يقوم بالدور الذي كان يؤديه محمد بن لادن وهو على قيد الحياة، وكانت في أمسّ الحاجة إلى صانع صفقات بحيث يكون واجهة مشرّفة للعائلة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما انطبق تمامًا على سالم؛ فكان وسيطًا مثاليًّا يتحدّث الإنكليزية بطلاقة وصحبته ممتعة، إلى جانب اتسامه بشخصية فعّالة وقدرةٍ على التنقل بسهولة من بيئة إلى أخرى، ولا تشعر معه بأي اختلاف سواء أكان في جدة أو في لندن.

استخدم سالم شخصيته الطليقة لامتصاص غضب التنفيذيين الغربيين والمناورة عليهم خلال المفاوضات. ففي رحلته الجوية إلى ستوكهولم لحضور اجتماع مع المسؤولين في شركة إيه في بي، وهي إحدى شركات المقاولات الكبرى في السويد، طلب إلى الميكانيكي السويدي الذي يعمل لديه ويُدعى يوهانسون مقابلته في المطار. انتقل يوهانسون جنوبًا من منزله الذي يطل على الساحل في سيارة فولكس فاغن غولف قديمة متآكلة من الصدأ، وانتقل سالم على متن طائرته من القاهرة. وعندما وصل يوهانسون إلى الرصيف الخاص، رأى المسؤولين التنفيذيين لشركة إيه في بي مصطفين بجانب كتيبة من سيارات الليموزين في انتظار الشيخ بملابسهم الرسمية. هبط سالم وخرج من طائرته النفاثة، وصافح الرئيس التنفيذي بشركة إيه في بي، ومرّ أمام سيارات الليموزين، وأصرّ على أن يحشر التنفيذي السويدي على المقعد الخلفي للسيارة الفولكس فاغن غولف حتى يتسنى لهما الذهاب إلى المدينة مع بنغت؛ صديق سالم غير المهندم. وكان سالم يرتدي ملابسه المعتادة في الرحلات إلى أوروبا؛ الجينز والتيشيرت والجاكيت الجلد وساعة اليد البلاستيكية ماركة كاسيو (Casio) ذات العشرة دولارات[٢٨].

كان سالم يعقد معظم صفقاته التي تتم عبر البحار من خلال شركة بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة التي أسسها بصحبة بعض إخوته؛ لإثبات نجاحهم والهروب من سيطرة مجلس الأوصياء السعوديين الأكبر

---

(٢٨) استنادًا إلى المقابلات التي أُجريت مع يوهانسون في نفس المصدر السابق.

سنًّا، الذين عينهم الملك فيصل، والذين ما زالوا يديرون مؤسسة محمد بن لادن العملاقة. افتتح سالم مكتبًا متواضعًا في زقاق يقع بالقرب من السوق القديمة في وسط مدينة جدة، واكتظت غرف هذا المكتب بالموظفين والمحاسبين الذين كانوا يؤدون أعمالهم وسط السحب الكثيفة الناتجة من دخان السجائر. وتبعًا أسلوب ديوان القصور، امتدت الأرائك والمقاعد على جنبات قاعة الاستقبال حيثما كان رجال الأعمال الذي يُبرِمون الصفقات أو أفراد عائلة بن لادن القادمين للحصول على المصروفات يجلسون لساعات في انتظار الاجتماع مع سالم أو أي من الإخوة الكبار. وفي المكتب من الداخل خُصص لكل من الإخوة الأكبر الشركاء في الشركة ـ سالم وبكر ويحيى وحسن وغالب وعمر وربما اثنين أو ثلاثة إخوة آخرين ـ مكتب خاص. ونادرًا ما كان سالم يستخدم مكتبه مفضلًا العمل في غرفة نومه في المنزل، إلا أن معظم إخوته الآخرين كانوا يعملون في ساعات منتظمة. وكان يمكن أن يدخل أحد المندوبين وملء ذراعيه مجموعة من الشيكات السياحية، فينظر إليه أحد موظفي الاستقبال نظرة فاحصة ويقول له ببساطة: «ارجع إلى الخلف». ويتذكر آرميتدج الذي عمل في هذا المكان أن المكتب «كان مثل السوق المزدحمة». وبدا أن هناك دائمًا منافسة ضارية للحصول على توقيع إحدى الوثائق. «وكانت الفوضى تعم المكان... بيد أنها كانت فوضى طفيفة وغير مزعجة». إلا أن المشكلات العويصة كانت تُحل بالشكل الأنسب حينذاك، من وجهة نظر آرميتدج، وكان انطباعه العام أن إخوة بن لادن كانوا يكتسبون في تلك السنوات أساليب العمل التي تكفل لهم النجاح «معًا كونهم عائلة»[٢٩].

لم يكن هناك أدنى شك في أن يتولى سالم المسؤولية ويرأس إخوته الأصغر، الأشقاء وغير الأشقاء، على طريقة كبير العائلة العربي. ولم يكن منهم إلا أن يقولوا سمعنا وأطعنا، ولقبوه بـ «الشيخ» و«كانوا يذعنون لأوامره ويكنّون له احترامًا وتوقيرًا شديدين باعتباره زعيمًا، وكان لهم بمنزلة الملك». وذلك طبقًا لما يذكره الطيار جاك هينسون الذي كان يعمل لديه. وكان في بيته خدم من البدو يقدمون إليه الشاي والقهوة، وكان

(٢٩) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع آرميتدج في نفس المصدر السابق.

إخوته يطلبون إلى أصدقائه وطياريه الأوروبيين بأسلوب مهذب أن يرتبوا لهم اجتماعات مع الرئيس، وذلك لترددهم وحيائهم الشديد من الدخول عليه من دون موعد سابق. وكان سالم هو صاحب القرار بمفرده بخصوص المبالغ المالية التي سوف يحصل عليها إخوته تحت بند المصروفات، ونوع المدارس التي سيلتحقون بها، والمشروعات التي ربما ينفذونها، وحجم الرواتب التي سيحصلون عليها. وكان يتخذ هذه القرارات بثقة تامة، وذلك نابع من شعوره بالمسؤولية، ولم يكن يتردّد في ضرب أو صفع أخ من إخوته الأصغر برفق إذا أثار استياءه. وكان يمنح مكافآت خاصة لإخوته من المهندسين والموظفين المجدين في عملهم، مثل بكر وغالب ويحيى وعمر؛ ففي واقع الأمر، كان هؤلاء الإخوة يزيلون عن كاهل سالم المسؤوليات اليومية المتعلقة بعقود الإنشاءات. ولم يكن الأمر يقتصر على حرمانهم من أي نسبة من الاستقلالية، فقد ذكر ديفيد غراي ـ أحد الطيارين الذين عملوا لديه ـ أنه «لم يكن مصرحًا لأحد بفعل أي شيء من دون موافقة سالم». وكان سالم يقول بحزم شديد عبر الهاتف أو في اجتماعات العمل: «سوف أحدد المبالغ التي ستُدفع ومن سيحصل عليها، ولن يحصل أحد على أي شيء حتى أقرر». حسبما يتذكر غراي، واستطرد: «لقد سمعته يقول هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا»(٣٠).

بدأت الأمور تزداد تعقيدًا في عمله الجديد وبصورة متكررة. ويدرج التقرير الموجز الذي قدمه المكتب السياسي إلى شركة أرامكو عن شركة بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة عام ١٩٧٩م ما يزيد عن عشر شركات وعلاقة شراكة أقامها سالم مع شركات أجنبية في تلك الفترة. واشتملت هذه الشراكات على مشروعات مشتركة مع شركات مقاولات أمريكية وأوروبية كبيرة، مثل شركة لوزينغر في سويسرا وشركة قيصر في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى جانب الشركات التي كانت تصنّع النوافذ والخرسانة سابقة التجهيز ونظم تكييف الهواء والمطابخ والأبواب والملحقات الخاصة بتشييد الطرق السريعة. وكان في وسع سالم الاختيار

---

(٣٠) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع هينسون في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع غراي في نفس المصدر السابق. وأكد موظف آخر طلب عدم الكشف عن هويته أن سالمًا كان هو الوحيد الذي يتحكّم في المرتبات والعلاوات والوظائف.

كيفما شاء من بين الأعداد الهائلة من العروض التي لم يكن يطلبها، بل كان الأمريكيون والأوروبيون الوافدون لزيارته يغدقون عليه بها؛ إذ كانوا يسعون إلى الاستفادة من الطفرة النفطية السعودية. والأفكار التي قدمتها إليه الشركات الغربية التي تريد التعامل معه اتسمت بالتنوع العشوائي الذي يصل إلى الكوميديا؛ فتارة تعرض عليه مشروعًا لتصنيع الأكياس البلاستيكية، وتارة لتصنيع الزيوت المخففة للاحتكاك في الطائرات. وفي الأغلب الأعم التزم سالم بمجال الصناعات التي عرفها، وسعى إلى التعامل مع شركات رفيعة المستوى. بالإضافة إلى أنه أسس شراكة مساهمة مع شركة جنرال إلكتريك خلال هذه الفترة، وهي الشراكة التي سمحت له لاحقًا بإبرام صفقات في المملكة العربية السعودية عبر كل خطوط عمل شركة جنرال إلكتريك، بدءًا من الأجهزة التكنولوجية الطبية ونهاية بتوليد الكهرباء. وكما قال خبير المصارف الاستثمارية فرانسيس هانيويل، وشريك سالم خلال تلك الفترة: «كان سالم يتمتع بكفاءة منقطعة النظير في التعامل مع الأشخاص» وخاصة رجال الأعمال الأمريكيين الذين لا يفضلون التعامل الرسمي الصِّرف[٣١].

استمرت شركة بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة في العمل باعتبارها مقاولًا من الباطن لشركة أبيه السابقة. وبحلول أواخر السبعينيات أصبح سالم رئيس مجلس إدارة الشركة الأصلية التي تمتلكها العائلة، وتمكن تدريجيًّا من انتزاع السيطرة الكاملة على الشركة من مجلس الأوصياء؛ حيث تخلّى هذا المجلس رسميًّا عن الشركة في مرحلة ما بين عامي ١٩٧٨م و ١٩٧٩م. وحتى هذه الفترة كانت أغلبية عائدات مؤسسة محمد بن لادن تتحقق من المشروعات الضخمة في مجالي الدفاع والبنية التحتية. وواصلت الشركة مسلسل تشييد الطرق والمرافق الأخرى في عسير، وعملت في مشروع بناء موقع عسكري شمال منطقة الجوف، جنبًا إلى جنب مع فيلق المهندسين التابع للجيش الأمريكي. وفي صحراء الربع الخالي الشاسعة التي تمتد على طول حدود المملكة الجنوبية، شيّدت

---

(٣١) المعلومات عن تقرير شركة أرامكو مقتبسة من المكالمة الهاتفية التي أُجريت مع مايك أمين ـ الذي حصل على نسخة من التقرير ـ بتاريخ ١ مارس/ آذار ٢٠٠٦م. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع فرانسيس هانيويل بتاريخ ٩ أغسطس/ آب ٢٠٠٦م.

الشركة عدة طرق إلى جانب ميناء جوي. وبين الحين والآخر، كان سالم يغادر على متن طائرته لتفقد العمل مثلما كان أبوه يفعل من قبل، إلا أنه لم يكن مهندسًا يباشر العمل بيديه ويمشي في الطرقات أو يتناقش مع المتخصصين وأهل الخبرة حول قرارات حفر الأنفاق وتمهيد الطرق أو انحدارها. وفي الواقع، من المرجح أن سالمًا كان يتجنب هذا النوع من المسؤولية. وأصدر أمرًا لاثنين من إخوته الأشقاء الأصغر سنًّا، وهما بكر وغالب، بأن يحصلا على دورات في الهندسة المدنية في الولايات المتحدة، وطلب إلى أخويه غير الشقيقين، يحيى وعمر، تنفيذ الأمر نفسه. فقد أدرك أن عائلة بن لادن ستتطلب خبرة في الهندسة المدنية على المدى الطويل، إلا أنه لم يكترث باكتساب هذه المعرفة بنفسه.

بدأ سالم يقضي أوقاتًا طويلة في بريطانيا وأوروبا. وفي يوم ١٨ مايو/أيار عام ١٩٧٥م، أنجبت شيخة - زوجة سالم - في لندن ابنتهما الأولى التي سماها سارة. وبعد ما يزيد عن عامين بفترة وجيزة أنجبت ابنًا، في لندن أيضًا، وسماه سلمان[٣٢].

خلال هذه الفترات التي قضاها سالم مؤقتًا في لندن قابل إيان مونرو، وهو رجل اسكتلندي طويل القامة أنيق ذو شعر أبيض، وقد خدم في الكتيبة العسكرية البريطانية الشهيرة بلاك ووتش، وقاتل مع الكتيبة لإخماد تمرّد الماو ماو بالقوة في كينيا خلال الخمسينيات، وخدم لاحقًا في الجناح الجوي لقوات الأمن البريطانية في كينيا. وبعد تقاعده من الخدمة العسكرية أقام مونرو عدة مشروعات تجارية في لندن. وكان له صوت رنان ولهجة لم تخف تمامًا أصوله الاسكتلندية. وكان عضوًا في النادي العسكري والبحري؛ ذاك الحصن المُزدان بالأعلام والمشتمل على مدافئ ومقاعد جلدية في شارع بيكاديللي. وكان مونرو شخصًا يمكن الاعتماد عليه، وذا شخصية أبوية، جعلت سالمًا يثق به لمساعدته في تنظيم شؤون شركته خارج المملكة العربية السعودية. وسجل الرجلان وثائق تأسيس شركة في

---

(٣٢) تفاصيل تواريخ وأماكن ولادة سارة وسلمان مقتبسة من إيان مونرو في ٤ أبريل/نيسان ١٩٩١م - بحسب الملفات الموثقة لسالم بن لادن - في مقاطعة بيكسار في ولاية تكساس الأمريكية ملف رقم 91-PC-1012.

لندن للمشروعات ذات الصلة بالطيران يُطلق عليها شركة ساليان إنترناشونال، و«ساليان» هو الاسم المكون من الحروف الأولى لاسميهما، إلى جانب تأسيس فرع بريطاني لشركة بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة، أصبح اسمها لاحقًا بن لادن لندن. وافتتح مونرو مكتبًا صغيرًا في شارع بارك لين(٣٣).

اتخذ سالم قرارًا بشراء منزل إنكليزي فخم وجاهز للسكن بالقرب من لندن، ولكنه لا يريد أن يزعج نفسه بأمور التسوق العقاري، فأخبر مونرو أنه واثق في رؤيته. واختار له مونرو ضيعة تضم قصرًا بُني في بداية عشرينيات القرن العشرين في قرية اسمها أوفلي تشاز، تقع على بُعد مسافة قصيرة بالسيارة من مطار لوتون، شمالي لندن، الذي كان يتردّد عليه غالبًا الطيارون المسافرون في رحلات خاصة. وكانت هذه الضيعة مطابقة كثيرًا للمواصفات التي يتوقعها الأجانب في منازل الريف الإنكليزي؛ من حيث استخدام الطوب بغزارة وطابعها القاتم إلى حدّ ما. وفي الليالي الممطرة كانت تبدو مكانًا مثاليًّا لارتكاب جريمة قتل. ولم يكن أحد يتوقع أن أوفلي تشاز ستكون مسرحًا لأكثر الأحداث إثارة في حياة سالم غريبة الأطوار(٣٤).

---

(٣٣) المعلومات عن حياة مونرو مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع شريك سابق لابن لادن ومقابلة أخرى مع تشارلز شوارتز بتاريخ ١٢ مايو/أيار ٢٠٠٥م. والمعلومات عن شركات لندن وتاريخ الإنشاء والعنوان مقتبسة من الملفات الموجودة لدى شركتي هاوس ولندن.

(٣٤) المعلومات التي تشير إلى أن سالمًا لم يرَ قرية أوفلي تشاز قبل أن يشتري المنزل مستمدة من المقابلة التي أجريت مع شريك العمل السابق في نفس المصدر السابق. أما المعلومات عن القصر والقرية فقد اعتمدت على زيارة المؤلف إلى جانب عدد من المقابلات التي أجريت من زائرين آخرين.

الفصل الثالث عشر

اكتشاف أمريكا

كانت عائلة سوويل تتولى إدارة مدرسة لتعليم الطيران في مدينة بنما سيتي التي يقطنها قرابة خمسة وثلاثين ألف نسمة والتي تقع في اللسان الغربي لولاية فلوريدا. وفيها تميّز إيقاع الحياة بالركود المعهود للولايات التي تقع في أعماق الجنوب، على عكس الإيقاع السريع لمدينة ميامي البعيدة. وفي وسط المدينة تقع سراي محكمة مبنية بالطوب وسجن، وعلى جانبي الشوارع المجاورة تقع الكنائس المعمدانية ومحلات بيع طُعم صيد الأسماك، ومتاجر بيع المسدسات. وتمتد الشواطئ البيضاء إلى الغرب على الأجزاء الرملية المرتفعة بفعل المد في خليج المكسيك. وبالجوار كانت تقع قاعدة للقوات الجوية، وكانت هناك عدة بارات متناثرة في الهواء الطلق بأعداد كبيرة على جانب الشاطئ إلى جانب القليل من الغرف التي يرسم فيها الناس الوشم على جلودهم. وكانت مدرسة سوويل لتعليم الطيران تشغل مساحة تمتد لمئات الهكتارات شمال المدينة. وخلال فترة السبعينيات كان دون سوويل يستعد لتولي إدارة المدرسة بدلًا من أبيه. وكانت المدرسة آنذاك تقدم دروسًا لتعليم الطيران وصيانة الطائرات ومنح إجازة الطيران وبيع الطائرات وتأجيرها؛ أي كانت تقدم مجموعة متنوعة ونموذجية من خدمات الطيران الخاصة. وكانت عائلة سوويل على معرفة سطحية بحاكم كاليفورنيا السابق رونالد ريغان، عن طريق الأصدقاء وحضور حفلات جمع التبرعات. وتمكنوا من جذب طلاب دوليين إلى مدرستهم من آسيا وأوروبا وأمريكا الجنوبية، لذا لم يكن الأمر مفاجئًا عندما تلقّى دون سوويل دعوة من أحد معارفه الطيارين من تكساس،

ويُدعى جيم باث، لحضور حفل عشاء مع عميل سعودي بصدد شراء كميات كبيرة من طائرات الـ ليرجت في الولايات المتحدة الأمريكية، ويقول إنه قد يرغب في تلقي دروس في الطيران لنفسه أو ربما لإحدى أخواته. أوضح سالم بن لادن: «لدي أخت صغيرة تحب أن تتعلم الطيران»[1].

ذكر سالم صراحة على العشاء ومن دون تفاخر أن لديه أموالًا طائلة وأنه يبحث عن شركاء في أمريكا يمكنهم أن يقدموا إليه مجموعة متنوعة من الخدمات؛ ليس فقط دروسًا في الطيران بل خدمات متعلقة بالعمل، خاصةً شراء السيارات والسلع الاستهلاكية للعائلة المالكة في المملكة العربية السعودية. ولاحقًا، ذكر دون سوويل لجيم باث أن الأمر إما أن يكون: «مغامرة، أو ربما أكبر فرصة في العمر»[2].

حوّل الحظر النفطي أمريكا إلى مركز تجاري ومنتجع لقضاء الإجازات لكثير من السعوديين الأثرياء. ربما كانت أوروبا رائعة لهواة التزلج على الجليد وركوب اليخوت وشراء المجوهرات وأزياء السيدات، لكن من يريد التجول في عالم أوسع وأكثر رحابة ليشتري أحدث الأجهزة الإلكترونية والألعاب، فلا بديل عن أمريكا. ومما لا شك فيه أن سالمًا لم يعرف في البداية أن مدينة بنما سيتي لم تكن وجهة عصرية تمامًا، وبمرور السنوات أيضًا لم يبدُ مهتمًّا بذلك، بل إنه بدا منجذبًا إلى خلوّها من مظاهر الادعاء والتظاهر. بعد تناول العشاء مع سوويل ذهب إلى المدينة على متن الطائرة كالمعتاد. وكان يؤجّر المنازل في منتجع باي بوينت ـ الذي أصبح في ما بعد المنتجع الراقي الوحيد في المنطقة ـ الذي يقع في شبه جزيرة تعلوها أشجار الصنوبر والرمال بطول الممر المائي الموازي للساحل. وبعد قرابة عام أحضر رندا من القاهرة وخصّص لها منزلًا في منتجع باي بوينت. وأبلغ سوويل أنه يريد أن تتلقى أخته دروسًا في الطيران حتى تحصل على إجازة لركوب الطائرة سسنا. كما قال إنها سوف تكون في حاجةٍ إلى طبّاخ

(١) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع دون سوويل بتاريخ ٢ يونيو/ حزيران ٢٠٠٥م. واعتمادًا على زيارة المؤلف لمدينة بنما ومدرسة سوويل لتعليم الطيران ومنتجع باي بوينت.

(٢) نفس المصدر السابق. وصف عدد من الشركاء والطيارين الذين زاروا سالم ورندا في أثناء تلك الفترة زيارته لمدينة بنما، بيد أن الرواية المفصلة التي ذكرناها في هذا السياق كانت اعتمادًا على رواية سوويل.

ووصيفة وسائق وسيارة. وكان سوويل سيرسل بالطبع سيارة لينكولن (Lincoln) أمريكية الصنع.

نفّذ الجميع طلبات سالم وتكيفوا مع جدول أعماله الليلي. وكان نادرًا ما يأتي لتلقي دروس الطيران قبل وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة، وفي الوقت الذي يظهر فيه للشعور بالمتعة والترفيه كل مساء، تكون معظم مطاعم ومتاجر مدينة بنما سيتي قد أُغلقت بالفعل. وذلك في ما عدا مركز تجاري واحد تطوّقه الجدران، وهو مكان متواضع يقع في وسط المدينة على ناصية تقاطع شارع توينتي ثيرد ستريت والطريق السريع ٢٣١، وتتّخذ محلات البيع بالتجزئة جي سي بيني وسيرز وديلاردز الدور الأول فيه. كان سوويل يدفع لملّاك المتاجر المال حتى تظل مفتوحة بعد ساعات العمل الرسمية. وذكر سوويل بعد أن فكر مليًّا أن مثل تلك الأشياء «لا يمكن أن يفعلها إلا نجوم في مستوى ألفيس بريسلي». وكانت رندا تقوم بجولة للتسوق كل يوم اثنين، وذات مرة رأى سوويل سالمًا يعطيها اثنين وعشرين ألف دولار في صورة شيكات سياحية للقيام بالتسوق في المركز التجاري(٣).

وجد سالم ذات مرة في المركز التجاري متجرًا لبيع آلات البيانو والأرغن لفت انتباهه على نحو خاص. وكان جاك بيتزا هو من يدير المتجر مع زوجته المدعوة أنيتا بيتزا عازفة البيانو المحترفة. زار جاك دون سوويل في ليلة من الليالي وذكر له، وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه، أن رجلًا سعوديًّا في متجره كان يذكر اسم سوويل من آن إلى آخر. وقد أراد ذلك العميل شراء أجهزة بيانو وغيرها من الآلات الموسيقية الأخرى بمبلغ وصل إلى آلاف الدولارات، وأراد شحنها جميعًا على الفور إلى منزله في منتجع باي بوينت. سأل بيتزا هل هناك حدّ أقصى للمبلغ المالي الذي ينبغي طبقًا له أن يوافق على بيع الآلات، ويتذكر سوويل أنه رد عليه قائلًا: «لا، لا يوجد حدّ أقصى للمال. أرسل إليه كل ما يريده»(٤).

---

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق. رفض جاك بيتزا إجراء أي مقابلات. أما أنيتا بيتزا زوجته فقد قالت كلامًا لطيفًا عن رندا بن لادن وأفراد آخرين من العائلة عن طريق بعض المكالمات الهاتفية القصيرة لكنها رفضت إجراء أي مقابلات في المجمل.

وكانت تلك هي بداية علاقة صداقة طويلة الأمد وغير متوقعة بين عائلة بيتزا في مدينة بنما سيتي وعائلة بن لادن في جدة. كان جاك بيتزا يحاول المتاجرة في أجهزة الكمبيوتر بشكل متواضع وحاول بيع أحدث الأنواع إلى سالم. وأثبتت أنيتا نجاحها كونها عازفة بيانو جذابة مصاحبة لسالم في مغامراته الغنائية ورفيقة مخلصة لرندا.

تولى جاك وأنيتا استضافة حفلات العشاء والحفلات الغنائية في منتجع باي بوينت، حيث كان الزوار من العائلة المالكة من المملكة العربية السعودية يتفاعلون أحيانًا مع الطيارين القادمين من مدينتي بنما سيتي وهيوستن ويتبادلون الدعابات. لم يكن سالم يفرط في احتساء الخمر، إلا أنه كان يتناول رشفات من شمبانيا (Dom Perignon) وكان يصر على ضرورة تقديمها مثلجة لمدة دقيقتين بعد الفتح؛ بين الفوران والخمود. وفي إحدى الحفلات اشترى سوويل كل كميات شمبانيا دوم بيريغنون الموجودة في منطقة بنما سيتي لكنها استُنفدت جميعًا، ويتذكر سوويل في هذا الصدد: «أرسلني سالم بطائرتي الـ لير والطيار الذي يعمل لديّ إلى مدينة كولومبوس بولاية جورجيا وحملنا الطائرة بزجاجات من شمبانيا دوم بيريغنون، وعدنا بها مرة أخرى». وأصر سالم على أن يسافر سوويل وعائلة بيتزا معه حول العالم خاصةً حتى يستطيع هو وأنيتا العزف معًا في المطاعم والحفلات[٥].

تراءى لسالم في هذه السنوات أن باستطاعته شراء أي مسرح في طريقه عندما يريد الغناء، حتى إنه دفع لقائد إحدى الفرق الموسيقية في إحدى حفلات أكاديمي أواردز في لوس أنجلوس مئات الدولارات للسماح له بغناء «منزل الشمس المشرقة» بسبع لغات. وفي مدينة أكتوبرفست في ألمانيا، أعطى أفرادًا من الجمهور يجلسون على طاولة أمام المسرح ألفيْ مارك ألماني للسماح له بالجلوس في أماكنهم، واشترى كاميرا فيديو من أحد أفراد الجمهور، وأنفق المزيد من المال

---

(٥) استنادًا إلى المقابلات التي أُجريت مع اثنين من الموظفين السابقين لدى سالم وخالد ابن محفوظ طلبا عدم الكشف عن هويتهما. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع سوويل في نفس المصدر السابق.

لإقناع قائد الفرقة الموسيقية بالسماح له بالصعود إلى المسرح وأداء أغنية شعبية تُغنى في ولاية بافاريا؛ تُرجم عنوانها على الأرجح إلى «على المرج الأخضر تأكل الأرانب الحشائش».

كان هناك شعورٌ خفيٌّ من الازدراء المتبادل في هذه الأحداث؛ ازدراء سالم للإجراءات البروتوكولية المتبعة عادة وإصراره على شراء دخوله إلى القاعات، يقابله ازدراء متزايد بين بعض الغربيين خلال فترة السبعينيات تجاه السعوديين ذوي التصرفات المبالغ فيها، الذين أصبحوا أثرياء من ارتفاع أسعار النفط. ومع ذلك تلاشت هذه السمة السلبية دائمًا في ما بين سالم وأصدقائه الأوروبيين والأمريكيين بحيوية سالم التي لم يقصد بها إلحاق الأذى بأي فرد وحاجته الواضحة إلى الشعور بأن هناك من يُعجب به، على الرغم من أن هذه السمة ذاتها كانت أحد مصادر القلق من آن إلى آخر.

عشق سالم فرقة البيتلز والغناء المشترك التقليدي مع الآخرين مثل غناء «على قمة جبل أولد سموكي» أو أغنية الأطفال التي تحاكيها التي جاءت تحت عنوان «على قمة المعكرونة الإسباغتي». لم يكن سالم يشعر بالهيبة من أي مكان، ولم يخش أي جمهور مهما علا مقامه. وفي القاهرة أجبر صديقه روبرت آرميتدج على العزف على الغيتار وغنى هو بصوته الأجش في حفل زفاف ابنة الرئيس المصري أنور السادات. ومع أن أصدقاءه ربما كانوا يشعرون بالإحراج الشديد، فإنهم تعلموا مسايرته؛ لأن أي تعبير عن الاعتراض أو الخوف كان يشجع سالمًا على التمادي في ما يفعله، وهذا ما ينطبق تمامًا على أفعاله البهلوانية بالتحليق في الهواء. لم يطرأ على صوته أي تحسن قط، ولكن أداءه الغنائي تحسّن كثيرًا بعد أن قابل أنيتا بيتزا الموهوبة في العزف على البيانو في مدينة بنما سيتي، بحيث أصبح قابلًا للاحتمال مقارنة بذي قبل[٦].

أصبحت أمريكا مركزًا للغناء والطيران والأهم من ذلك للتسوق. أمر

(٦) المعلومات عن حفل أكاديمي أواردز مستمدة من المقابلات التي أجريت مع جاك هينسون بتاريخ ١٠ مايو/ أيار ٢٠٠٥م. وأيضًا من المقابلة التي أُجريت مع ديف ويتني بتاريخ ٢٠ فبراير/ شباط ٢٠٠٦م. والمعلومات عن حفل زواج ابنة السادات من المقابلة التي أُجريت مع روبرت آرميتدج بتاريخ ١٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م.

سالم بشراء سيارات كاديلاك للعائلة المالكة السعودية، بعد أن أصدر أمرًا بجعلها مُصفَّحة لمقاومة الطلقات النارية. وبمساعدة سوويل أصدر أمرًا بشراء زهاء عشر سيارات لينكولن وشحنها جميعًا إلى المملكة من نيو أورليانز. وأمر بشراء خمسة آلاف صندوق من صلصة تابسكو وإرسالها جوًّا إلى المملكة العربية السعودية؛ قال إنه يحب مذاقها. كانت شركة كوكا كولا عرضةً آنذاك للمقاطعة العربية مناهضةً لإسرائيل، ولذا اكتشف سالم مشروبًا بديلًا غير كحولي اسمه ميلو يلو، واشترى منه كميات كبيرة وشحنها إلى بلده. بالإضافة إلى أنه وجد طائرة صغيرة لعبة من البلاستيك أثارت اهتمامه فاشترى منها الآلاف ليصطحبها معه إلى الوطن ويوزعها هدايا. ومن أجل تزيين الحدائق الصحراوية لقصر كانت شركة العائلة تبنيه لولي العهد فهد، شحن إلى المملكة العربية السعودية في حاويات مبردة كميات كبيرة في ما يبدو من نباتات جنوب غرب أمريكا ممثلة في: ٤٨١ شتلة صبار أمريكي كبير، و٣٦٠ شتلة صبار صغير، و٤٨٥ شتلة صبار متفاوتة الأحجام، و١٠٠ شجرة يوكا، و٦٢٥ سُحلبية، وما يزيد عن ٥,٠٠٠ نوع من النباتات والشجيرات والأشجار الصحراوية الأخرى[٧].

دعا سالم فهدًا نفسه إلى مدينة بنما سيتي وفقًا لما ذكره سوويل. وهبط ولي العهد على طائرته البوينغ ٧٠٧ المعدلة في مطار المدينة، وكانت آنذاك أكبر طائرة حطت على أرض المطار. أجّر سوويل منازل إضافية في منتجع باي بوينت لحراس فهد المسلحين، ويتذكر «كم كانت مهمة مثيرة». إذ إن حاشية فهد «لعبت لعبة عربات التصادم بسيارات لعب الغولف» وحطموا زهاء خمس سيارات تمامًا، حتى إن سوويل اضطر إلى دفع مبالغ مالية لشراء سيارات جديدة بدلًا من تلك التي تحطمت. ويتذكر روبرت

---

(٧) المعلومات عن سيارات كاديلاك المصفحة مستمدة من المقابلات التي أجريت مع روبرت وجيل فريمان بتاريخ ٢٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م. والمعلومات عن سيارات لينكولن وصلصة تابسكو ومشروب ملو يلو والطائرة اللعبة مستمدة من المقابلات التي أجريت مع سوويل في نفس المصدر السابق. والمعلومات عن نبات الصبار والنباتات الأخرى مستمدة من: *Binladen BSB Landscaping v. M. V. Nedlloyd*, 82 Civ. 1037.

أصدرت المحكمة الفدرالية قرارًا حاسمًا في ما يتعلق بالقضية ويتضمن المسؤولية القانونية للأضرار التي تحدث نتيجة الشحن. وحتى عام ١٩٨٨م كانت هذه أبرز القضايا التي دخل فيها آل بن لادن في النظام القانوني الفدرالي في الولايات المتحدة.

فريمان، وهو شريك أمريكي آخر لسالم، أن تكلفة سيارات الغولف المحطمة بلغت قرابة خمسين ألف دولار. وقال سوويل إنه أرسل الفاتورة إلى جيم باث، شريك سالم في هيوستن، ما دام للأمر شأن بعلاقة سالم بفهد وسفر ولي العهد في رحلة خاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكما قال سوويل إن باث «كان يتعامل مع كل هذه الترتيبات»[8].

نشأ جيم وترعرع في لويزيانا، ودرس الصحافة ثم أصبح محاربًا طيارًا في القوات الجوية. ولاحقًا انضم إلى الحرس الوطني الجوي لتكساس طيارًا احتياطيًّا. وعندما كان في مرحلة الشباب، انتقل هو وزوجته ساندرا إلى هيوستن حيثما اقتحم باث مجال العمل بصفته سمسار طائرات، وفي النهاية متعهد بناء وتطوير وصاحب مشروعات دولية متنوعة. كان طويل القامة نحيفًا، يتحدّث بلهجة جنوب غرب أمريكا الرنانة، وبدا عازمًا على الحياة وفقًا لمبادئ سكان تكساس: التفكير في الأمور العظيمة، والمخاطرة، والسعي لتحقيق الثراء، والعيش بحرية، مع القيام بالأنشطة الترفيهية من حين إلى آخر للاستمتاع بالحياة. انغمس باث في بداية حياته في الملذات بصحبة جورج دبليو بوش الذي أقام معه علاقة صداقة زهاء عام ١٩٧٠م عندما كانا يعملان كطيارَيْن في الحرس الوطني الجوي لتكساس، وذلك قبل أن يلتحق الرئيس اللاحق بكلية التجارة، وهي الفترة التي كان يحتسي فيها بوش الخمر، وربما انغمس في تناول المخدرات طبقًا لاعترافه غير المباشر بالأمر. على أي حال، يتذكر بوش أن باث كان «شخصية ممتعة» على الرغم من أن التساؤلات الملحة التي أُثيرت عن علاقتهما لم تؤدِّ في النهاية إلى تمخض الجدل عن أي شيء ذي قيمة. وبحلول منتصف السبعينيات تمكن باث من خلال صديقه بوش من التعرف إلى عدد من رموز المجتمع ذوي الشأن في سياسة تكساس مثل والد بوش، جورج إتش دبليو بوش، الذي أصبح مديرًا لوكالة الاستخبارات المركزية عام ١٩٧٦م، ولان بنتسن، ابن السناتور الأمريكي الذي ظلّ في الحزب الديمقراطي فترة طويلة ونائب المرشح الرئاسي لويد بنتسن، وجيمس إيه بايكر، المحامي الذي ينتمي إلى

(٨) كل الاقتباسات من المقابلة التي أجريت مع سوويل في نفس المصدر السابق. والمعلومات عن مبلغ الخمسين ألف دولار مستمدة من المقابلة التي أجريت مع فريمان في نفس المصدر السابق.

مدينة هيوستن والذي أصبح لاحقًا وزير الخارجية الأمريكي[٩].

في هذه المرحلة تمثل عمل باث الأساسي في شركة جي بي آند إيه أسوشيياتس، التي كانت تعمل في مجال سمسرة الطائرات. وفي عام ١٩٧٥م كان يحاول بيع طائرة بالمروحة الدافعة طراز فوكر ـ ٢٧ (Fokker-27) كانت في حوزة شركة تبغ في نورث كارولينا، وكانت الطائرة مجهزة بغرفة نوم صغيرة في مقصورتها. وكان سالم بن لادن آنذاك يبحث عن طائرة كي يتمكن من متابعة أعمال شركته في تشييد الطرق في الصحاري السعودية. فنُفِّذت الصفقة وانتقل باث بالطائرة إلى جدة. وشأنه شأن أي صاحب مشروعات أمريكي اكتشف الشرق الأوسط على الخريطة العالمية، بدا باث عازمًا على الاستفادة من الطفرة النفطية السعودية، فلم يكتف بالحصول على الفتات من عمولات بيع الطائرات، بل سعى إلى إقامة شراكات عمل قوية مع الجيل الصاعد الأصغر سنًّا من الشيوخ السعوديين، من خلال مساعدتهم في استثمار أموالهم في الولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق أرباح طائلة. ويتذكر روبرت آرميتدج الذي كان يعمل في شركة بن لادن إخوان وقت ظهور باث قائلًا عنه: «إنه يتحدّث كثيرًا جدًّا». وحتى هذا الحين كان رأي سالم في باث أنه شخصية ممتعة، وطبقًا لما ورد عن تشارلز شوارتز المحامي في مدينة هيوستن: «كان (سالم) يعشق الشخصيات غير العادية». وكان جيم باث: «يتلاعب لتحقيق النجاح، وأحب سالم هذا النوع من التلاعب»[١٠].

---

(٩) المعلومات عن باث ومظهره مستمدة من المقابلات التي أُجريت مع سبعة أشخاص من المعارف والشركاء. وتعطي أيضًا القضايا المدنية صورة متكاملة عن حياته في أثناء تلك الأعوام وعلى وجه الخصوص: *Sandra C. Bath v. James R. Bath*, Harris County Court, 85-046927, its successor, 89-07180, and the several lawsuits between Bath and White, lodged in Harris County, Texas, and in Houston's federal court.

وأيضًا الاقتباس المذكور في صحيفة **وول ستريت** *Wall Street* بتاريخ ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩م واستشهدوا بمقابلة أجريت مع صحيفة **هيوستن بوست** *Houston Post*. جدير بالذكر أن أفضل الروايات التي نُشرت في تلك الفترة في ما يتعلق بالسياسات والأعمال في ولاية تكساس هي: Unger, *House of Bush, House of Saud; Phillips, American Dynasty*, and Beaty and Gwynne, *The Outlaw Bank.*

(١٠) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع جيرالد أورباخ بتاريخ ٧ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع آرميتدج في نفس المصدر السابق. وأخيرًا المقابلة التي أُجريت مع تشارلز شوارتز بتاريخ ١٢ مايو/ أيار ٢٠٠٥م. تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن باث رفض إجراء أي مقابلات.

حوصر سالم بمندوبي المبيعات ومروجي منتجات الشركات الأمريكية، ولكنه كان حذرًا للغاية. إذ كان عادة مقتصدًا تمامًا في أثناء استضافة مثل هؤلاء الأشخاص، إلا إذا كان لشراء شيء ملموس مثل طائرة أو عقار. ومع ذلك، شرع سالم في الوقت نفسه في شراء مكاتب وأماكن للإقامة لأغراض العمل والترفيه، وبدأ في تعيين وكلاء في المزيد والمزيد من المدن في جميع أنحاء العالم. وفي كل مكان كان يختار ممثلًا أو شريكًا أساسيًّا؛ لمساعدته سرًّا في استضافة أفراد من العائلة المالكة الزائرين، واستضافة أفراد من عائلة بن لادن عندما يسافرون للدراسة أو لقضاء الإجازات، إلى جانب مساعدته في صفقات العمل. أصبح باث وكيل سالم وشريكه في هيوستن. ويقول بعضٌ إن باث افتتح مكتب خدمات لسالم في تكساس؛ حتى يستطيع سالم بدوره مد خدمات مكتبه العالمي التي يقدّمها إلى العائلة المالكة السعودية خاصةً في مجال الطيران، حيثما حقق سالم فيه النجاح، باعتباره خبيرًا داخليًّا لآل سعود، عن طريق مساعدتهم في اتخاذ قرارات ذكية، عندما يتعلق الأمر بإنفاق المزيد من أموال العائدات النفطية ـ التي يحصلون عليها من دون بذل أي جهد ـ على الطائرات النفاثة الخاصة.

صنع باث ثروته من العمولات التي يأخذها عن بيع الطائرات، ومن العمليات التي يوجه فيها المستثمرين السعوديين، أمثال سالم، نحو الصفقات العقارية أو الصفقات الأخرى التي يأخذ باث ٥ في المئة من العملية نظير مجهوداته. وعمل بعيدًا عن الروتين الحكومي في مكتب خاص في مبنى «فانين بانك بيلدنغ» في هيوستن، وسجل شركات سالم بن لادن الجديدة في تكساس على هذا العنوان. وأسس مكانًا لإبرام التعاقدات أسماه شركة إم بي أو للاستثمارات، بنفس اسم شركة عائلة بن لادن في جدة. وتوطدت سلطة باث في «اتفاقية الثقة» التي وقعها سالم في يوم ٨ يوليو/ تموز من عام ١٩٧٦م، ووُثقت في سجلات فرع وزارة الخارجية بتكساس. وبموجب هذه الاتفاقية، فوض سالم لباث «السلطة الكاملة والمطلقة للعمل نيابةً عني في الأمور كافة المتعلقة بعمل شركات بن لادن في هيوستن وتشغيلها»، الأمر الذي تضمن «السلطة الكاملة لإنفاق الأموال على الشركة أو في صورة نفقات لعائلة بن لادن». وتمتّع باث بسقف ائتمان متجدد لعائلة بن لادن وصل في إحدى المراحل إلى قرابة ٦ أو ٧ ملايين

دولار، طبقًا لبيل وايت، الذي كان شريكًا لباث بعد عام ١٩٧٨م(١١).

بازدياد العقود السعودية التي أبرمها باث انتقل إلى تأجير الطائرات دوليًّا. وكان نشاطًا معقدًا وجاذبًا بسبب القيود التي تفرضها قوانين الضرائب والتصدير الأمريكية في تلك الفترة لتمويل عمليات بيع الطائرات إلى عملاء عبر البحار. ولذلك افتتح باث شركات خارج الحدود للتهرب من القيود الضريبية في جزر البحر الكاريبي من أجل تسهيل هذه الصفقات. وأسس شركة في جزر كايمان أسماها شركة سكايواي إيركرافت ليزينغ المحدودة، التي كانت ملكيتها سعودية طبقًا لما ذكره وايت وغيره(١٢).

افتتح باث أيضًا علاوةً على ما سبق شركات خارج الحدود لسالم. وفي يوم الخامس من شهر يوليو/ تموز عام ١٩٧٧م، دمج شركة بِنكو إنفستمنتس العامة ذات المسؤولية المحدودة في جزر الأنتيل الهولندية. وكانت شركتها الأم هي شركة إس إم بي إنفستمنتس، التي سُميت نسبةً إلى الحروف الأولى لاسم سالم محمد بن لادن باللغة الإنكليزية، وكان مقرها أيضًا جزر الأنتيل الهولندية. وقد جاء في الأوراق التي وثقها باث في ولاية تكساس أن الغرض الرئيس لهذه الشركات هو امتلاك العقارات. على سبيل المثال، كانت شركة بِنكو إنفستمنتس هي وسيلة شراء مطار هيوستن غلف

---

(١١) المعلومات عن شركة إم بي أو للاستثمارات واتفاقية الثقة مقتبسة من الموقع الإلكتروني الخاص بوزارة الخارجية في تكساس، تم الولوج إليه والنسخ منه بتاريخ ٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٥م. وأيضًا من نسخة المقابلة التي أجراها وايت مع برنامج «ذا فيفث إستيت» *The Fifth Estate* الذي تعرضه هيئة الإذاعة الكندية، وأكد وايت دقة النسخة ومضمونها. وزعم وايت أن له سجلًا ضخمًا من الوثائق عن نشاطات باث في مجال عمله بما فيها الشهادة الوضعية التي أدلى بها باث في قضيتهم المدنية بيد أنه رفض عرض تلك الوثائق. بيد أن هناك بعض المقتطفات عن الشهادة التي قدمها باث في ملفات المحكمة العامة.

(١٢) استنادًا إلى نسخة وايت المشار إليها في المرجع السابق. أما تاريخ شركة سكاي واي فقد ذُكر في الوثائق والشهادات الخطية المأخوذة تحت القسم من كل من وايت وباث في عدة دعاوى قضائية بيد أن تلك الوثائق لا تعطي صورة كاملة عن مالك الشركة الحقيقي من السعوديين. وأشار وايت بأنه يمكن أن يكون لسالم بن لادن بعض المصالح في شركة سكاي واي. ونشرت صحيفة «وول ستريت» بتاريخ ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩م أن خالد بن محفوظ كان هو المالك لشركة سكاي واي. واعتمد تأكيدها جزئيًا على وثيقة سرية من المحكمة يرجع اقتباسها الأصلي إلى جريدة **هيوستن كرونيكل** *Houston Chronicle* في تقرير نشرته. وأيضًا: Unger, *House of Bush*, p. 34, حيث ذكر أن ابن محفوظ كان هو المالك لشركة سكاوي واي. جدير بالذكر أن أونغر اجتمع مع باث على الرغم من عدم وضوح ما إذا كان باث هو مصدر الرواية التي نشرها أم لا.

خلال هذه المرحلة نيابةً عن سالم، وهي مساحة صغيرة خارج المدينة، كان باث يأمل في تحويلها إلى مطار يربط بين المطارات المحلية ويحقق أرباحًا طائلة، وهو أمل لم يتحقق مطلقًا(١٣).

يبدو أن الصفقات التي أبرمها باث مع عائلة بن لادن أدرت عليه مبالغ مالية أصغر من تلك التي حصل عليها من الصفقات التي أبرمها مع السعوديين الآخرين، خاصةً صديق سالم المصرفي خالد بن محفوظ. وفي عام ١٩٧٧م، على سبيل المثال، استثمر باث أمواله في ماين بنك في هيوستن، وكان من بين شركائه ابن محفوظ ورجل الأعمال السعودي الثري غيث فرعون وحاكم ولاية تكساس السابق جون كونالي. واستثمر سالم مع ابن محفوظ في البنك السعودي في باريس، إلا أنه لم ينضم في ما يبدو إلى عملياته المصرفية في تكساس(١٤).

أسهم عملاء باث السعوديون وأصدقاؤه الذين يعرفهم على الصعيد السياسي في تكساس، وشركاته خارج الحدود، وأسلوب حياته المتحرر، وخوضه مجال الطيران الدولي، كل ذلك أسهم في خلق حالة عامة متزايدة من الغموض حوله، وبدا باث نفسه مستمتعًا بهذا الغموض. وكان يسافر جوًّا من جزر الكاريبي وإليها التي كانت ملاذًا آمنًا له من الضرائب الأمريكية، مصطحبًا معه في بعض الأحيان مئات آلاف الدولارات نقدًا على متن الطائرات، وكان يخبر زوجته ساندرا أنه يحتاج إلى الأموال النقدية ليدفع ثمن الوقود أو تحسبًا لأي أحداث طارئة. وأحيانًا كان السعوديون الذين يسافرون بصحبة باث يحملون جوازات سفر دبلوماسية، ممّا سمح لهم بإحضار حقائبهم والمرور عبر الجمارك الأمريكية من دون تفتيش. وفي بعض الأحيان، طبقًا لما ورد عن طيار عمل مع باث، كانت

---

(١٣) المعلومات عن شركة بنكو واردة من تقرير وزارة الخارجية في تكساس في المصدر السابق. والمعلومات عن أن مطار هيوستن غلف لم يحقق أي أرباح بارزة مصدرها المقابلة التي أُجريت مع شوارتز في نفس المصدر السابق.

(١٤) المعلومات عن البنك السعودي في باريس مصدرها مجلة: *Who's Who in Saudi Arabia*, 1976-1977 edition, and 1978-1979 edition.

جدير بالذكر أن الطبعتين ذكرتا سالم على أنه «العضو المؤسس» للبنك. والمعلومات الأخرى عن البنك الرئيس مقتبسة من: Unger, *House of Bush*, p. 34.

تلك الحقائب تحتوي على كميات هائلة جدًّا من الأموال النقدية(١٥).

تسبّب سالم في هجرة عائلته إلى أمريكا خلال سبعينيات القرن العشرين. وفي الوقت الذي أنهى فيه أخواته وإخوته مرحلة التعليم الثانوي في لبنان ومصر وجدة، شجع كثيرين منهم على الالتحاق بجامعات الولايات المتحدة الأمريكية. وشأنهم شأن كثير من السعوديين، انجذبوا إلى فلوريدا وكاليفورنيا حيث تشابه الطقس كثيرًا مع طقس بلدهم. فدرس غالب، الأخ الشقيق الأصغر لسالم، الهندسة المدنية في جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي. والتحق أخوه غير الشقيق عبد العزيز الذي عاش في القاهرة، بجامعة سان فرانسيسكو، حيث حصل على رسالة الماجستير في إدارة الأعمال عام ١٩٧٨م. والتحق أخواه الآخران غير الشقيقين؛ شفيق وصالح، وأخت غير شقيقة تُدعى رجاء، بجامعة جنوب فلوريدا. ودرس يسلم وخليل وإبراهيم، الإخوة الأشقاء وكلّهم من زوجة إيرانية المولد لمحمد بن لادن، بجامعة جنوب كاليفورنيا في لوس أنجلوس. والتحق أفراد آخرون في العائلة بجامعات أو أكاديميات تصميم في ميامي وهيوستن. وتوضح سجلات الجامعات والمقابلات الشخصية أن ما يزيد عن ربع أبناء محمد بن لادن البالغ عددهم أربعة وخمسين ابنًا وبنتًا درسوا في الولايات المتحدة الأمريكية في مرحلة ما، وبصفة خاصة خلال فترة السبعينيات وبداية الثمانينيات(١٦).

كان أسامة بالطبع جزءًا من المجموعة الأكبر التي التحقت بالجامعات في السعودية أو في الدول العربية. وكان سالم يسافر بصفة متكررة بين

(١٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع شيريل جونسون تود الوكيل السابق لساندرا باث بتاريخ ٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٥م. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع طيار سافر مع باث في أثناء تلك الفترة لكنه اشترط عدم الكشف عن هويته.

(١٦) صرح المحامي تيموثي جي فين -أحد وكلاء بن لادن - أن غالبًا نال شهادة في الهندسة المدنية من جامعة كاليفورنيا في بيركلي بيد أن أحد المتحدثين عن الكلية فشل في العثور على سجلات حضوره. ويتذكر عدد من الأشخاص المقربين إلى العائلة أن غالبًا قد درس في جامعة بيركلي حتى على الرغم من وجود سجلات له في جامعة جنوب فلوريدا، وأيضًا من خلال المكالمات الهاتفية التي أُجريت مع غاري ماكفرونالد بتاريخ ١٥ مارس/ آذار ٢٠٠٦م. وجاءت المعلومات عن سجلات جامعة جنوب كاليفورنيا عن طريق التواصل بالبريد الإلكتروني مع جيمس غرانت بتاريخ ١ مارس/ آذار ٢٠٠٦م.

جدة والولايات المتحدة الأمريكية، متنقلًا سريعًا من مدينة إلى مدينة على متن طائراته النفاثة لتنظيم فترات الإجازات وإعطاء النفقات لإخوته. وكان هو كبير العائلة الذي يتتبع مسار الجميع أينما كانت الكليات التي التحقوا بها. واستخدم أحد أوائل طرازات التلفونات المحمولة وكان كبير الحجم، حتى يستطيع إخوته وأخواته الوصول إليه في أي وقت. وكان أبناء محمد بن لادن وقتئذٍ في مرحلة المراهقة أو في العشرينيات، وكانت هناك قرارات لا بد من اتخاذها دومًا بخصوص المدارس والوظائف، حتى الزواج. وكانوا جميعًا يأتون إلى سالم لاستشارته أو أخذ الإذن.

قدّم يسلم، الأخ غير الشقيق لسالم، وزوجته كارمن إيرانية المولد ملاذًا إلى العائلة في لوس أنجلوس. وكان يسلم قد هام على وجهه في أنحاء أوروبا بعد الدراسة الثانوية، وحصل على دروس في قيادة سيارات السباق في السويد، وفكر في تربية كلاب الدوبرمان مقطوعة الأذنين والذيل في المملكة العربية السعودية، وأقام فترة في فندق رويال في جنيف بسويسرا. وفي أثناء تأجيره شقة في جنيف مع عائلته في صيف عام ١٩٧٣م، قابل كارمن ابنة صاحب الشقة، وكان أبوها سويسريًّا وأمها إيرانية. كانت كارمن تتحدث الفرنسية والفارسية وفي الثانية والعشرين من عمرها وقتئذٍ، ورائعة الجمال وطموحة إلى أبعد الحدود. في ذلك الحين كان يسلم في الثانية والعشرين من عمره أيضًا، ووجد نفسه متيمًا بكارمن، وكان شابًّا لطيفًا متحفظًا حساسًا يتعرض بين الحين والآخر للشعور بالقلق. وشعرت كارمن أن يسلم لديه الذكاء الذي يؤهله لإدارة الأعمال الدولية لعائلته يومًا ما، وقيادتها للحاق بالعصرية الحديثة. وتتذكر ماري مارثا باركلي التي كانت صديقة الزوجين عن طريق زوجها، الذي كان يشرف على الطلاب الدوليين في جامعة جنوب كاليفورنيا، التي التحق يسلم بها لدراسة إدارة الأعمال في أواخر عام ١٩٧٣م، قائلةً: «كانت كارمن تطمح بأن يحقق يسلم نجاحًا باهرًا ووضعت آمالًا عريضة عليه»[١٧].

---

(١٧) المعلومات عن الفترة التي قضاها يسلم في أوروبا ونوبات القلق التي كانت تنتابه مصدرها الشهادة الخطية المأخوذة تحت القسم والمرافعات المتوافرة في محاضر جلسات الطلاق من سويس في كانتون جنيف وقد تُرجم ووُضع في ملفات في: *Carmen Bin Ladin v. Yeslam and* = *Ibrahim Bin Ladin*, Los Angeles County Superior Court, BC212648.

تزوّج يسلم وكارمن في الصيف اللاحق واشتريا منزلًا على طريق أمالفي درايف في حي ثري في مدينة باسيفيك باليسايدس بالقرب من المحيط. حصل يسلم على دروس في الطيران، واشترى طائرة بالمروحة الدافعة ثنائية المحرك للقيام برحلات نهاية الأسبوع إلى سانتا بربرا وأريزونا. وكانت زوجته تقود سيارة بونتياك فاير بيرد. وكان يسلم يكن عاطفة جياشة، بعد كارمن بالطبع، إلى كلبه الدوبرمان غير الودود، الذي سماه خلف(١٨).

كان سالم يذهب إلى لوس أنجلوس بصفة دورية على متن إحدى طائراته وينظّم رحلات عائلية إلى لاس فيغاس، حيثما كانت عائلة بن لادن تقيم في فندق سيزار بالاس. وكان يلعب القمار على فترات متباعدة؛ تمامًا مثلما كان يحتسي الخمر لإضاعة الوقت فقط. وذات مرة، ذهب إلى طاولة قمار في لاس فيغاس بينما كان في انتظار بعض الأفراد المسافرين معه لترتيب أمورهم في قاعة استقبال الفندق. وسريعًا ما فاز بمجموعة كبيرة من البطاقات التي زادت قيمتها عن ألف دولار. وتبادل الدعابات مع السيدة المسؤولة عن طاولة القمار، وعندما حان وقت الرحيل دفع إليها ببساطة كل ما حصل عليه من اللعب غير مبالٍ به. وكان يستمتع بالسعادة البالغة التي يبديها الأمريكيون والأوروبيون، خاصة النساء، عندما يعطيهم مبالغ مالية كبيرة على نحو غير متوقع، وبدا أن سالمًا كان يستمتع بهذا النوع من العلاقات الإنسانية أكثر من استمتاعه ببعض الرفاهيات التي كان يمكن أن يحصل عليها بأمواله(١٩).

لم يبد أن سالمًا كان يشك في نفسه مطلقًا أو في هويته باعتباره رجلًا

= وأيضًا من المكالمة الهاتفية التي أُجريت مع ماري مارثا باركلي بتاريخ ٢٧ أغسطس/ آب ٢٠٠٤م.

(١٨) المعلومات عن ملفات المحكمة مستمدة من نفس المصدر السابق. والمعلومات عن سيارة بونتياك فاير بيرد مستمدة من: Bin Laden, *Inside the Kingdom*, p. 47

أما عن تسمية كلبه «خلف» فمن المقابلة التي أُجريت مع باركلي في نفس المصدر السابق.

(١٩) الملعومات عن سيزار بالاس مصدرها المقابلة التي أُجريت مع كارمن بن لادن بتاريخ ٦ أغسطس/ آب عام ٢٠٠٤م. والمعلومات عن مشهد لعبة البلاك جاك مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع جيرالد أورباخ في نفس المصدر السابق.

سعوديًّا يسافر إلى أمريكا معظم أيام العام. على الرغم من ذلك، وجد بعض إخوته الأشقاء وغير الأشقاء أنفسهم غير مستقرين بسبب المغامرات التي أقحمهم فيها.

عاصر الأبناء الكبار بصفة خاصة أباهم وهو في أوج نجاحه. وبشكل تلقائي، ترسخ بداخلهم شعور بالفخر والاعتزاز بإنجازات العائلة باعتبارهم مسلمين وعربًا ويمنيين وسعوديين في آن واحد. ولم يكن هذا الاعتزاز منبعه شرف أو مجد العائلة فحسب، أو أي شعور غامض آخر خاص بالانتماء الديني أو الوطني، إذ كان هذا الاعتزاز جزءًا لا يتجزأ من التعاليم القرآنية التفصيلية التي تلقاها الأبناء منذ مرحلة مبكرة؛ من خلال الآيات القرآنية المحفوظة والمتلاة والتشريعات المدوّنة والمتّبعة. وكان جزءًا من نسيج المشاهد التي استمتعوا برؤيتها والصلوات التي أدوها في زيارات متكررة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. إلى جانب أن إيمان أبيهم لم يكن من النوع المتحمس وليد اللحظة؛ ففي تعامله طويل المدى مع المسيحيين الأمريكيين والإيطاليين واللبنانيين، أظهر محمد بن لادن - من جملة أشياء أخرى - القليل من كراهية الآخر كما لو كان أحد رجال الدين السعوديين. ومع ذلك، فإن إيمانه الحقيقي كان يكمن في جوهره، وهذا هو ما تمنى أن يكون عليه أبناؤه وبناته. وكان من الصعوبة بمكان على أبناء محمد بن لادن أن يطرحوا جانبًا الطقوس والمظاهر الإسلامية التي كان أبوهم شديد التمسك بها؛ كالصلوات الخمس التي كان يؤديها يوميًّا، وعدد من رحلات الحج والعمرة التي كان يستضيف فيها الحجيج في خيمته المفروشة بالسجاد، وموائد الإفطار التي كان مداومًا على إعدادها خلال شهر رمضان، حتى وإن حاول سالم في بعض الأحيان أن يكون نموذجًا لهذا الفصل بين شخصيتين مختلفتين تمامًا.

ففي خلال ساعات الظهيرة الطويلة في شهر رمضان، وهو الوقت الذي من المفترض أن يكون فيه صائمًا وممسكًا عن التدخين، كان سالم يتعمد التدخين بلا انقطاع، مشعلًا سيجارة تلو الأخرى، وكان يطلب إلى إخوته الأصغر سنًّا أن يقدّموا إليه الطعام والقهوة. ونادرًا ما كان يصلي في أثناء سفره إلى أوروبا أو أمريكا، ولم يتردّد قط في تناول لحم الخنزير الذي تحرّمه الشريعة الإسلامية، بل كان يقول إنه شهي. وفي المملكة

العربية السعودية كان يذهب إلى المساجد، إلا أنه كان يداعب أصدقاءه ويضربهم في بطونهم بدلًا من الوقوف في الصلاة متضرعين بخشوع وذل إلى الله عز وجل. إلا أنه كان يتميّز بجانب روحاني وفلسفي؛ إذ كان يتحدّث عن السفر عبر الزمن وعن الخلود وشكل الكون ككل، وكان يتحدّث عن بعض التأملات التي بدت تغزو عقله خلال الساعات الطويلة التي كان يقضيها محلقًا في السماء. لم يكن للإسلام أثرٌ بالغ في سالم، ولم يكن سالم متمسكًا بتعاليمه. وكان إخوته الأكثر تدينًا يشجعونه بلطف على العثور على أي طريقة للتقرب إلى الله ودرب الاستقامة، إلا أن ثقافة توقير زعيم العائلة داخل أي عشيرة عربية مثل عائلة بن لادن كانت قوية جدًّا لدرجة أن إخوة سالم الأصغر سنًّا والأكثر إخلاصًا له لم يتجرؤوا على انتقاده بشدة بسبب هفواته. وربما الأهم من ذلك أن عقيدتهم الإسلامية، كما استوعبوها، تجعل الحكم على العصاة لله، وليس للإنسان الفاني، ما دام الشخص العاصي لم يرتد عن الدين الإسلامي. ومن أقوال أسامة بن لادن التي ذكرها بعد سنوات: «لا توجد خطيئة غير خطيئة الكفر تخرج المؤمن عن ملته، حتى ولو كانت كبيرة مثل القتل أو شرب الخمر». واستطرد: «حتى وإن مات المجرم دون أن يتوب عن خطاياه فإن أمره بيد الله، فإما أن يسامحه الله أو يعاقبه»[٢٠].

كانت أمريكا خلال السبعينيات في غمرة اضطرابها بالثورات الثقافية والجنسية الحديثة - بغض الطرف عن تسريحات الشعر والملابس ذات الألوان الصارخة المنتشرة فيها - في حاجة مستمرة إلى أن يجيب كل شاب من عائلة بن لادن يعيش فيها عن السؤال الآتي: هل أنت مسلم؟ وإن كنت مسلمًا، كيف تقيم شعائر دينك؟ وجد كثير من إخوة سالم أنهم لا يستطيعون التحقير من شأن السؤال مثلما فعل هو في ما يبدو، فكانوا يغيرون آراءهم يمينًا ويسارًا بحثًا عن إجابة مقبولة. ولمست كارمن التي عاشت حياة المرأة الأوروبية العلمانية هذا الأمر عندما كان إخوة يسلم يأتون لزيارتها من سان فرانسيسكو أو جدة. وتتذكر في هذا الصدد

---

(٢٠) مقتبسة من تصريح أسامة بن لادن بتاريخ ١٦ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٤م ومترجم في:
Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 262.

قائلة: «لم يكن من الممكن أن يعرف أحد قط أيًّا من إخوته سيصبح شديد التدين، حتى وإن ظهروا أمامك شبابًا عصريين... وكان الرجال قد اعتادوا الخروج والذهاب إلى السينما لمشاهدة الأفلام والسهر في البارات، وقد تظنهم متأثرين بالفكر الغربي. وعلى حين غرة تحدث أشياء صغيرة تجعلك تدرك العكس». وأدركت تدريجيًّا أن زوجها نفسه، «لم يكن متأثرًا بالفكر الغربي كما كنت أظن؛ إنهم لا يستطيعون التخلص من هذه السمة المتأصلة فيهم»[٢١].

يتذكر رجل أعمال أمريكي أنه كان يزور خليلًا أخا يسلم في لوس أنجلوس يوم أن قرر خليل التخلص من كل الخمر الموجود في منزله. وقال خليل طبقًا لما ورد عن هذا الشخص: «ها نحن قد تخلصنا منه، لن نفعل ذلك مرة أخرى». ولاحقًا واصل خليل مصاحبة إخوته وأصدقاء الجامعة إلى النوادي الخاصة في بيفرلي هيلز حيث كانوا يترددون كثيرًا في مساء أيام الجمعة والسبت للرقص والبحث عن الفتيات. وكان خليل يدفع لمدير الصالة للجلوس على طاولة مميزة لمشاهدة الفقرات عن قرب. وبينما كان بعض إخوته يرقصون ويسرفون في احتساء الخمر وينغمسون في الملذات، أطلق بعضهم الآخر لحاه وحرص على ترك فسحة من الوقت لصلاتَي المغرب والعشاء. ومن وجهة نظر كثير منهم، لم يكن ذلك بحثًا عن هوية دينية أو هوية شخصية لتحقيق غرض محدد، بل كانت رحلة تنقل مستمرة قابلة للتغيير في أي وقت وفي أي مكان. وهناك أحد الأمثلة الأكثر لفتًا للأنظار، مجسد في محروس؛ الأخ غير الشقيق لسالم. في مستهل الأمر تزوج محروس امرأة فرنسية، ويقول أحد شركاء العائلة لدى زيارته ذات مرة لمحروس إنه يملك في بيته خزانة على شكل كرة أرضية لحفظ المشروبات الكحولية وتقديمها. وقال روبرت آرميتدج عن محروس إنه شخص «مولع بالحفلات». ولكن وعلى حين غرة خلال فترة السبعينيات: «انقلب محروس رأسًا على عقب». إذ عاود التزامه بتعاليم الإسلام مرة أخرى. وفي نهاية الأمر تزوج أربع زوجات وأطلق لحيته وانتقل للعيش في المدينة المنورة، وبدأ يرتدي الملابس التي كان يرتديها الناس في عهد

---

(٢١) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع كارمن بن لادن في نفس المصدر السابق.

النبي. بالإضافة إلى ذلك شيد مجمّعًا سكنيًّا كبيرًا وخصص لنفسه ولأمه بيتًا في وسط المجمع، وبيتًا آخر لكل زوجة من زوجاته الأربعة على مسافات متساوية على شكل مربع(٢٢).

لم تكن هذه الأمور والإشكاليات التي تتضمن الإسلام والهوية الدينية تخص شباب عائلة بن لادن وحدهم. فعندما كان الشباب السعودي يسافر أو يذهب إلى الجامعات لتلقي التعليم في الغرب، فإنهم كانوا يدركون تمامًا المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه. إلا أنهم لم يتركوا هويتهم تضيع هباءً في أرجاء أمريكا، بل كانوا يظهرون في هيئة الخبراء في التكيف والتعايش. وقد ذكر بيتر زيروكس الذي عاش في الرياض خلال هذه الفترة أن هذا النوع من التوازن الخاص أدّى بكثير من السعوديين إلى العودة إلى رحاب الإسلام، حتى بالنسبة إلى من لم يكن مستعدًّا بالضرورة للعيش طبقًا لمبادئه كليةً:

كان من الشائع في المملكة العربية السعودية احتقار الأوروبيين والأمريكيين لأنهم يبيعون كل ما يبعث على السعادة من دون وضع الدين في الاعتبار، ثم يصدرون قوانين غير منطقية لصد الناس عن المخدرات والقيادة في أثناء الثمالة وإيذاء النساء. لقد عجزوا عن الالتزام بالحد الفاصل بين ما هو شرعي وما هو غير شرعي. وظنوا في أحيان كثيرة أن أصحاب المذهب المانويّ (أو مذهب الازدواجية الدينية) أكثر عقلانية من التسوية التي يفعلها الغرب مع الرذائل وتنظيمها والتعامل معها بحدود، إذا فرضت الشريعة الإسلامية التي كثيرًا جدًّا ما يخترقونها موقفًا ينمّ عن الرياء والزيف(٢٣).

واجهت سيدات عائلة بن لادن في أمريكا تناقضات أكثر تطرفًا من

---

(٢٢) لمزيد من المعلومات عن خليل والكحول راجع المقابلة التي أُجريت مع رجل أعمال الذي طلب عدم الكشف عن هويته. ولمزيد من المعلومات عن محروس راجع المقابلة التي أُجريت مع رجل أعمال آخر كان شريكًا له طلب عدم الكشف عن هويته. وراجع أيضًا المقابلة التي أُجريت مع آرميتدج في نفس المصدر السابق. تتذكر كارمن بن لادن أن زوجة محروس الفرنسية صارت أيضًا متديّنة. وكما قالت كارمن بن لادن إنها كانت لها طفلة من زواج سابق أعد لها محروس الزواج من رجل سعودي عندما كانت صغيرة إلى حدّ ما.

(٢٣) المصدر: Theroux, *Sandstorms*, p. 72.

التناقضات التي تعرض لها إخوانهن الذكور. وقد حثّهن سالم على توسيع أفقهنّ ومداركهن - إذ كان يشجع بعضهن صراحة على تعلم الطيران - إلا أنه مع ذلك ظلّ متمسكًا وبشدة بسلوكيات اللياقة العربية. ولم يكن يتضايق على الإطلاق من ارتداء أخواته للجينز وعدم تغطية شعورهن كما يحلو لهنّ خارج المملكة، بل إنه في حقيقة الأمر كان يفضل ذلك. ولكن عندما كان الأمر يتعلق بالمواعدة والزواج، يفرض في تعامله معيارًا مزدوجًا غاية في الوضوح. وكان سالم نفسه على علاقة بكثير من الفتيات الأمريكيات والأوروبيات، خاصةً بعد طلاقه من شيخة في أواخر السبعينيات. وتزوج أحد إخوانه غير الأشقاء من سيدة أمريكية، وتزوج محروس سيدة فرنسية، وهناك أخ ثالث لهم تزوج من امرأة دانمركية، وهذه العلاقات الزوجية انتهت جميعها بالطلاق. ومع ذلك، عندما وقعت إحدى أخواته غير الشقيقات، وهي صالحة، في غرام رجل إيطالي كبير في السن، خلقت هذه الحادثة وابلًا من المشكلات داخل إطار العائلة، وخرج الأمر عن حدود احتمال سالم على الرغم من أنه في نهاية الأمر أثنى على الزيجة التي أثبتت نجاحها ودامت لفترة طويلة[٢٤].

كان سالم هو من يتولى إدارة مثل هذه الأمور لكونه كبير العائلة، وعلى الرغم من أنه كان متسلطًا فإنه كان حريصًا على الحفاظ على التوازن وتحقيق الإجماع على الرأي. وتتذكر جيل فريمان الأمريكية التي كانت صديقة لبعض أخوات سالم وعملت معهنّ في مشروعات تصميم القصور في المملكة العربية السعودية: «كانت مهمة سالم صعبة بل شديدة الصعوبة». ويتذكر بيتر بلوم، الألماني الذي كان يسافر مع سالم كخادم خصوصي له لسنوات كثيرة، أن «جرس الهاتف لم يكن يتوقف». وكان سالم يمسك بسماعة التلفون أسفل ذقنه ويعطي مجموعة من النصائح عن الحب والزواج لإخوته. وكان يقول له: «أنت متزوج... وتعاني ما يكفيك من المشكلات. انتظر ستة أشهر وسوف نتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى لاحقًا». ويقول بلوم إن سالمًا لم يكن عنيفًا في

(٢٤) جدير بالذكر أن إبراهيم بن لادن تزوج من امرأة أمريكية تدعى كريستين هارتونيان وتزوج خالد في ريعان شبابه من امرأة دانمركية. وإلى جانب كل تلك الأمثلة، تزوج خليل من امرأة برازيلية تدعى إيزابيل بايما.

أحكامه، إلا أنه «كان يتصرف دائمًا كدبلوماسي». وأحيانًا كان سالم يقضي وقتًا أكبر لحل «المشكلات العائلية» في ما يبدو، كما ورد على لسان فريمان، أكثر من الوقت الذي يقضيه لإنجاز صفقات العمل(٢٥).

كثيرًا ما كان سالم يتعمد إخفاء صديقاته الأمريكيات والأوروبيات من أخواته الشقيقات وغير الشقيقات خشية عدم تقبلهنّ الأمر. ومع أنه كان يعبر عن استحسانه عندما تقود أخواته السيارات بسرعات هائلة على الطرق الأمريكية السريعة، أو يحلقن بالطائرات فوق سماء كاليفورنيا، إلا أنه كان يعترض على خروجهنّ مع الرجال الأمريكيين والأوروبيين من دون إشراف عائلي. وكانت تصرفاته تعكس تبنيه وجهة نظر غير معقدة تؤمن بضرورة التعامل مع الجنسين بطريقة متساوية، إلا أنها كانت تعكس أيضًا قدرًا من كبرياء الرجل السعودي؛ فالنساء الغربيات، من وجهة نظره، ربما يمكن التلاعب بهنّ، لكن لا يمكن التلاعب قط بالسيدات العربيات. وفي ربيع عام ١٩٧٨م، بينما كان سالم في المملكة العربية السعودية، ضرب أحد طياريه الأمريكيين بقبضة يده بعد أن تحدث الرجل مع إحدى أخواته من دون إذنه. فاستقال الطيار من وظيفته على الفور، وفي الليلة نفسها اتصل بسالم في الرياض طالبًا راتبه وتأشيرة الخروج التي كانت ضرورية آنذاك حال رغبة أحد الموظفين الأمريكيين مغادرة الأراضي السعودية. ويبدو أن الغضب العارم قد جعل سالمًا يستشيط غضبًا من هذا الموقف الذي تضمن بين طياته شرف وعفة نساء عائلة بن لادن، وأظهر الجانب الآخر المظلم لشخصية سالم. فأطلق سيلًا عارمًا من الكلمات العنيفة والسباب عبر الهاتف حسبما يتذكر فرانسيس هانيويل، المصرفي الأمريكي الذي كان معه حينها. وقال سالم إنه لن يسمح للطيار بمغادرة المملكة حتى يعتذر علنًا، وتوعد سالم بـ «زجه في السجن» إن رفض الاعتذار(٢٦).

كان سالم يعشق السيدات اللاتي يتمتعن بالذكاء. وكانت صديقته

---

(٢٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع جيل فريمان في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع بيتر بلوم بتاريخ ٥ مايو/أيار ٢٠٠٦م.

(٢٦) من اقتباس هانيويل في: Surtees, *Pa Bell*, p. 237.

وقد ذكر عددٌ من الطيارين الذين عقدوا لقاءات مع المؤلف هذه الحادثة، وأضحت جزءًا من التعليمات التي يلقونها على الطيارين الجدد الذين يستقبلونهم.

الأمريكية الأساسية خلال أواخر السبعينيات طبيبة شابة تخدم في الجيش الأمريكي، وهي باتي ديكارد التي كانت تتدرب في مستشفى في سان أنطونيو. زار سالم أبويها في كاليفورنيا وتحدث بجدية عن العلاقة القائمة بينهما. وذكر الطيار جاك هينسون الذي عمل لديه أنه «كان يقول دائمًا: «إنني أحب نفسي»... لكن هذه المرأة كادت تقلب كل موازين حياته». ولكنها لم تتزوجه، وقررت عدم اعتناق الإسلام أو القيام بالدور المتوقع منها في المملكة العربية السعودية، طبقًا لما ذكره موظف آخر لدى سالم قضى فترة طويلة معهما خلال هذه السنوات. وكان سالم يسافر بصحبة هذه الطبيبة بين الحين والآخر في أنحاء أمريكا وعبر البحار لسنوات كثيرة قبل أن تنتهي علاقتهما وتتزوج ديكارد رجلًا آخر(٢٧).

كان من الصعب على أي سيدة، حتى شيخة زوجة سالم السابقة، أن تنافس رندا في علاقتها بسالم. وقالت جيل فريمان: «كانت رندا هي محور حياته». وفي الفترة نفسها عندما قرر سالم أن تقيم رندا في مدينة بنما سيتي لتتلقى دروس الطيران، ساعدها أيضًا في الالتحاق بكلية الطب في كندا، وكان يسافر شمالًا لزيارتها وتوفير ما تحتاجه. وأضافت فريمان: «أظن أن معظم أخواته كن يشعرن بالغيرة من رندا»(٢٨).

وللحصول على رخصة قيادة الطائرات، كان على رندا قيادة طائرة بمفردها من دون مساعدة من أحد، وذلك على متن طائرة سسنا لمئات الأميال عبر فلوريدا حتى تصل إلى مقصدها، وهو مطار يقع بالقرب من مدينة بالم بيتش. تحدد يوم رحلتها الجوية الكبرى في أواخر شهر سبتمبر/أيلول من عام ١٩٧٨م وكان سالم شديد العصبية. فاتصل بدون سوويل في مدرسة تعليم الطيران وقال له وفقًا لما ذكره سوويل: «لا أريدها أن تطير بمفردها. فماذا لو حدث لها مكروه؟ لا أريد أن تكون وحدها». ولكن لم يكن أمام سوويل أي طريقة قانونية لإصدار رخصة الطيران لرندا للسماح لأحد المعلمين بأن يكون معها في المقصورة في هذه الرحلة الجوية الطويلة عبر فلوريدا. ومن ثَم اتفقا على أن يدفع

(٢٧) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع جاك هينسون بتاريخ ١٠ مايو/أيار ٢٠٠٥م

(٢٨) استنادًا أيضًا إلى المقابلة التي أُجريت مع جيل فريمان في نفس المصدر السابق.

سالم المال للمعلم ليقود طائرة تسير خلفها تحسبًا لوقوع أي مكروه[٢٩].

ثبت أن سالمًا يتمتع ببصيرة وتقدير غير عادي للأمور؛ ففي نقطة ما أعلى وسط ولاية فلوريدا، تصاعد الدخان بكميات كبيرة من مقصورة الطائرة التي تقودها رندا بسبب عيب وظيفي في أحد المحركات أو ماس كهربائي. ومن حسن الطالع أنه كان يجاورها طيار كفء للتحدث معها عبر اللاسلكي. ولكن الدخان كان كثيفًا جدًّا حتى إنه سريعًا ما اتضح لكليهما أنها لن تتمكن من بلوغ المطار. ولذا أخبرها المعلم بالاستعداد لأن تهبط هبوطًا اضطراريًّا بالطائرة في أحد المهابط.

رن هاتف سالم النقال في مطار مدينة بالم بيتش حيثما كان ينتظر رندا، ليقول المتصل إن «رندا خرجت عن الرادار؛ ولا نستطيع العثور عليها» حسبما ذكر كل من جيل وروبرت فريمان اللذين كانا معه آنذاك. وتتذكر جيل أن سالمًا «استشاط غضبًا، وكاد عقله يطير وأخذ يجري في المطار صارخًا». وصاح مرارًا وتكرارًا بأن أخته قضت نحبها في حادث طائرة. كان دون سوويل قد سافر إلى بالم بيتش لاستقبال رندا لحظة هبوطها وهي تقود الطائرة، وكان جيرالد أورباخ ـ الطيار الذي عمل لدى العائلة وقتًا طويلًا، وكان من جنود القوات الجوية ـ موجودًا أيضًا. حاول الرجلان تهدئة روع سالم، إلا أنه زجرهما والغضب يعصف به، حتى أوشك على ضربهما بالفعل، وطلب منهما فعل شيء لإنقاذ أخته. فأخذ سالم والطياران طائرته الـ هوكر وأقلعوا بها للذهاب إلى المنطقة التي بدا أن رندا سقطت فيها. ووجدوا مطارًا بالجوار إلا أن مدرجه كان صغيرًا جدًّا ولا يصلح لهبوط طائرة سالم عليه. وأصر سالم على الهبوط مهما كان الأمر، وذكر سوويل أنه قال لأورباخ: «لن يحدث ذلك، على جثتي!» واستطرد: «لأنني ظننت أنها محاولة ربما تبوء بالفشل وتودي بحياتنا جميعًا». وفي النهاية احتكم إلى رأي سالم وبصيرته، وتوسل إليه أنه بغض النظر عما حدث لرندا، فليس معقولًا أن يموت سالم وهو يحاول إنقاذها[٣٠].

---

(٢٩) من المقابلة التي أُجريت مع سوويل في نفس المصدر السابق.

(٣٠) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع فريمان في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع سوويل في نفس المصدر السابق.

هبطت الطائرة بنجاح في مطار أكبر حجمًا وأخيرًا استطاعوا التحدث مع رندا عبر الهاتف، وكانت تبكي لكنها كانت بخير. قاومت رندا الدخان وهي تحلق بطائرتها، وبمساعدة المعلم الذي استأجره سوويل وجدت مهبطًا استطاعت أن تحط عليه الطائرة سسنا. وهبطت بصعوبة من دون وقوع ضرر بالغ فيها ومن دون أن تُصاب هي بأذى. وكان عملًا بطوليًّا فذًّا مميزًا لطيار لم يحصل على الرخصة بعد، وقال سوويل عنها إن: «لديها شجاعة وعزيمة عظيمتين».

كان سالم حينئذٍ شديد الفرح بقدر ما كان شديد القلق. وطلب من جيل وروبرت فريمان أن يساعداه في تنظيم حفل كبير في فندق بريكرز في مدينة بالم بيتش للاحتفال ببطولة رندا ونجاتها من موت محقق، قائلًا لهما: «ادعوا كل معارفكما! ادعوا أصدقاءكما من كل مكان!» وفي النهاية قطع بعض الضيوف مسافات طويلة من نيويورك وهيوستن لحضور الحفل. ومرةً أخرى كان الطيران ومخاطره مصدرًا للمآسي التي تتعرض لها عائلة بن لادن. وفي هذه الليلة في فندق بريكرز استأجر سالم فرقة موسيقية ورقص ضيوفه وغنوا، وفي اليوم التالي ذهبوا جميعًا إلى منتجع ديزني وورلد[٣١].

(٣١) كل الاقتباسات مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع فريمان وسوويل في نفس المصدر السابق.

الفصل الرابع عشر

التعصب الديني

في مرحلة المراهقة كان أسامة بن لادن يتنقل من دون قيود بين عالمين متداخليْن؛ فكان ينخرط مع عائلة بن لادن خلال النزهات وكان يظهر في شركتي العائلة الرئيسيتين، شركة بن لادن إخوان ومؤسسة محمد بن لادن الكبرى. كان يمارس كرة القدم وركوب الخيل مع أطفال الحي في جدة. وكل صيف، حتى قرابة عام ١٩٧٦م، كان يسافر إلى موطن أمه في سوريا الأكثر تعلقًا بالدنيا وزينتها، وهو عالم عائلة أمه الذي يطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيثما كان يصعد الجبال وأحب ابنة أحد أخواله التي كانت تصغره سنًّا، وعرفها أسامة ورأى ملامحها منذ أن كانت طفلة. وفي الوقت نفسه انغمس في أنشطة جماعات الدراسة الإسلامية في مدرسة الثغر النموذجية الثانوية، وفي مدرسة دينية خاصة في مكة المكرمة لتحفيظ القرآن الكريم، وأكمل دراسته في جامعة الملك عبد العزيز في جدة عام ١٩٧٦م بعد قبوله فيها. وبصفةٍ عامة تمكن أسامة في ما بين سن السادسة عشرة والحادية والعشرين من الدمج بين إيمانه الديني العميق وحماسته لاقتحام مجال إدارة الأعمال وعشقه للنزهات إضافةً إلى رغبته في الزواج. وحقّق كل تلك الأهداف بعد عام ١٩٧٣م بإخلاص إسلامي شديد لم يحد عنه أبدًا.

ذكرت والدة أسامة أن سالمًا كان «بمنزلة الأب» لأسامة خلال هذه الفترة على الرغم من اختلاف اهتمامات كل منهما[(١)]. وكانت العلاقة

(١) استنادًا إلى نسخة المقابلة التي أُجريت مع باطرفي والتي نشرتها صحيفة **المدينة** في أواخر عام ٢٠٠١م وقد ترجمها باطرفي ومنحها للمؤلف.

بينهما مثل العلاقة بين سالم ومجموعة إخوته غير الأشقاء الأصغر سنًّا الذين قضوا فترات بلوغهم المبكرة في العالم العربي بصفة خاصة. وكان سالم في أثناء وجوده في جدة يتخلى عن ارتداء الجينز ويرتدي الثوب السعودي وغطاء الرأس. وكان يفرط في تدخين السجائر ولم يُذكر عنه أنه كان يؤم المصلين وقت الصلاة، إلا أنه كان يتصرف كأي سعودي. وكان يضع حدودًا في علاقته بإخوته الأشقاء وغير الأشقاء. وكان هناك إخوة غير أشقاء، مثل طارق وشفيق، بدا سالم صديقًا مقربًا إليهما. ومع ذلك جذب سالم أصدقاءه وحاشيته الدولية من خارج عائلة بن لادن، من زملاء الدراسة اللبنانيين والترك والأوروبيين والأمريكيين أو من الطيارين والموسيقيين الذين قابلهم على مدار حياته. وكان هؤلاء الأجانب أصدقاءً له في حياة اللهو التي عاشها أو مساعدين له ممن كانوا يعتمدون على سالم ماديًّا أو يستمتعون بصحبته. وعندما يكون بصحبتهم ينسى كل التعقيدات والقيود، لكنه مع عائلته يحاول القيام بدور القائد الحكيم.

لم يشعر سالم بوخز ضميره عندما كان يهرِّب بعض أصدقائه وصديقاته غير المسلمين إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة، وهو تصرفٌ أثار حنق أسامة عندما علم به. ومن جانبهم تعلم بعض أصدقاء سالم أن يأخذوا حذرهم من تديُّن أسامة. ويتذكر صديق عربي لم يكن شديد التدين أنه قابل أسامة في المدينة المنورة ذات مرة، وعندما أذّن المؤذن لصلاة المغرب أصرّ أسامة على أن يصطحب زائريه إلى المسجد النبوي الشريف لصلاتي المغرب والعشاء اللتين تفصل بينهما ساعة ونصف الساعة. وانتظر صديق سالم في السيارة وانتهى به الأمر جالسًا في مكانه لفترة طويلة من المساء، وذلك لإصرار أسامة على أن تصلي الحاشية صلوات كثيرة، حسبما يتذكر هذا الصديق. وفي نهاية الأمر عاد أفراد الحاشية مستائين وقال: «لقد كانوا يشعرون بتذمر هائل وقلت لهم: «الحمد لله أنني لم أذهب معكم. على الأقل كنت جالسًا أدخن في الهواء الطلق»»[٢].

كان أسامة «مندمجًا بشدة» مع العائلة خلال هذه الفترة حسبما تتذكر كارمن بن لادن. وبدايةً من عام ١٩٧٤م تقريبًا، وبينما كان أسامة لا يزال

(٢) استنادًا إلى مقابلة أُجريت مع صديق لسالم بن لادن طلب عدم الكشف عن هويته.

في المدرسة الثانوية، جمع بعض المال من مصروفاته المخصصة له إلى جانب عمله في شركتي بن لادن، ممّا سمح له بشراء مجموعة من السيارات الرائعة؛ لينكولن أو كرايسلر ولاحقًا اشترى سيارة مرسيدس رمادية، حسبما ورد عن صديقه وجاره خالد باطرفي. وكان يقود سياراته بسرعة مهولة، وحطم واحدة منها على الأقل طبقًا لذاكرة باطرفي. وكان له الحق أيضًا في استخدام السيارات والشاحنات الجيب رباعية الدفع الخاصة بشركات العائلة، وكان يقودها إلى مواقع العمل وعند ذهابه إلى الصحراء للاسترخاء في إجازة نهاية الأسبوع مع أصدقائه وخيوله الحبيبة إلى قلبه. وقال أسامة بعد ذلك بسنوات إن ركوب الخيل كان «هوايته المفضلة»، وكان معتزًّا بنفسه بسبب قدرته على ركوبها لمسافة أربعين ميل أو أكثر في كل مرة. وكان يفضل ارتداء الملابس المتواضعة في الخارج، وجزمة العمل الصفراء أثناء العمل، وساعة طراز سويس آرمي[(٣)].

كان أسامة يظهر بين الحين والآخر في قاعة الاستقبال التي يتصاعد منها دخان السجائر في شركة بن لادن إخوان، حيثما كان ينتظر أحيانًا بطول أناة بصحبة إخوة له أصغر سنًّا المصروفات المخصصة له أو الحصول على توقيع على بعض الشيكات أو الوثائق. ويتذكر روبرت آرميتدج قائلًا: «أتذكر أنه كان يتوسل للحصول على المزيد من الأموال». بينما لا يتذكر بنغت يوهانسون، صديق سالم والميكانيكي الذي عمل لديه فترة طويلة، عن أسامة سوى أنه «أخ أصغر لسالم فحسب». إلا أنه ازداد طولًا وأصبح شابًّا نحيفًا، وعندما أطلق لحيته نمت في مستهل الأمر بخصلات خفيفة، ثم ازدادت كثافة وسوادًا. وظل أسامة هادئًا ومحترمًا في أعين الآخرين، وكان لكثير من إخوته غير الأشقاء تصرفات ظاهرية

---

(٣) المصدر: Bin Laden, *Inside the Kingdom*, p. 70

والمعلومات عن السيارات وعطلات الأسبوع التي كانوا يقضونها في الصحراء مصدرها المقابلة التي أجريت مع خالد باطرفي بتاريخ ١٩ فبراير/شباط ٢٠٠٥م. وأيضًا ما قاله جمال خليفة صديق أسامة في: *The Osama Bin Laden I Know*, p. 17.

استنادًا إلى نسخة المقابلة التي أجراها بن لادن مع قناة الجزيرة بتاريخ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٨م في: in Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 71

والمعلومات عن الأحذية الصفراء والساعة طراز سويس آرمي مصدرها المقابلة التي أجريت مع وليد الخطيب مع صحيفة **صنداي تايمز** *Sunday Times* في لندن بتاريخ ٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢م.

متحفظة مشابهة، إلا أن سلوكيات سالم الظاهرية التي تنم عن حماسة وفظاظة كانت مختلفة عن الباقين. كان أبناء محمد بن لادن الأصغر سنًّا ينتشرون في مكاتب شركة بن لادن إخوان خلال فترات الراحة الدراسية حسبما يتذكر آرميتدج، وكانوا يصطفون على المقاعد الملتفة أمام جدران المكتب. وعادةً كانوا يأتون لطلب شيء ما، إلا أنهم تعودوا على التحلي بالصبر. فيبدو أن كل شيء في حياتهم كان يتطلب «توقيعًا» كان الحصول عليه أمرًا صعبًا للغاية(٤).

خلال شهر رمضان وفي إجازات نهاية الأسبوع وفي الإجازات الأخرى، اعتاد أفراد عائلة بن لادن قضاء أوقات ممتعة في ممتلكاتهم المشتركة في جدة وما حولها. وكان هناك «مزرعة» صحراوية جرداء في مدينة البَحْرة التي تقع بين جدة ومكة المكرمة، حيثما أقام أسامة سياجًا حول مزرعة صغيرة لتربية الخيول تشتمل على قرابة عشرين حصانًا. وكان هناك سقيفة صيفية كبيرة وبسيطة في مدينة الطائف، بُنيت خلال فترة الخمسينيات أو الستينيات، حيث كان أفراد العائلة يذهبون إليها أحيانًا لقضاء فصل الصيف. وعلى ساحل البحر الأحمر كانت هناك «منازل شاطئية» للعائلة لم تتعدّ كونها أكواخًا مبنية بالخرسانة حيث يمكن المرء أن يغيّر ملابسه للاستحمام في البحر أو الاحتماء بها من أشعة الشمس الحارقة. وطبقًا لمعايير ذلك الحين في جدة، كانت هذه الممتلكات المخصصة لقضاء الإجازات انعكاسًا لثروة العائلة والمميزات التي تنعم بها، إلا أنها لم تكن فاخرة تمامًا. ويبدو أن أسامة استمتع بهذه الممتلكات جميعها، على الرغم من أنه كان مصدرًا للقلق خاصة على الشواطئ مع ازدياد إيمانه وتعمقه في التديُّن.

كان أسامة يدرك من داخله تجربة التحوُّل التي يمر بها، مع وعيه التام بأنه إلى حدّ ما مميز أو مختلف عن الآخرين لأنه كَمَنْ وُلد من جديد. وفي سنوات لاحقة أشار إلى أن عام ١٩٧٣م شهد بدء «تواصله» مع الجماعات الإسلامية، وكان في الخامسة عشرة من عمره. وبدا أنه يفسر -

(٤) استنادًا إلى المقابلة التي أجريت مع روبرت آرميتدج بتاريخ ١٩ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع بنغت يوهانسون بتاريخ ٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٦م.

أو تعلم أن يفسر ـ تحوله أو انضمامه إلى جماعة الإخوان المسلمين في هذه المرحلة العمرية على أنه الانتقال الطبيعي لأي مسلم حق: إذ قال ذات مرة: «كما هو معروف، إن الناس منذ لحظة الولادة حتى بلوغ خمسة عشر عامًا، لا يعتنون بأنفسهم ولا يدركون الأحداث العظيمة إدراكًا حقيقيًّا. . . فإذا كنت متدينًا حقًّا فستجد أن المرحلة العمرية من حياتك، بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، هي المرحلة التي يستطيع الناس خلالها الشروع في الجهاد»(٥).

إن التجربة التي تحوَّل فيها أسامة بن لادن في جماعة الدراسة التي كانت تنعقد بعد انتهاء فترة المدرسة كانت شديدة وحادة، إلا أنها لم تكن بالحدة التي تجعله متطرفًا طائفيًّا. ولم يكن أي شاب ملتزم بتعاليم الإسلام في المملكة العربية سيشعر بذلك التحوّل، أو حتى يشعر به من حوله على مستوى عائلته وأقرانه، ولا يمكن أحد أن يتخيل أن مثل هذا التحوُّل يحدث لأي شاب في عائلة بن لادن التي كان أبوهم راعيًا لمكة المكرمة والمدينة المنورة وصاحب مهمة سامية في القدس. ولساعات طويلة كل أسبوع كان تلفزيون المملكة يبثّ مشاهد لآلاف الحجاج الذين يرتدون الملابس البيضاء ويطوفون جميعًا حول الكعبة المشرفة في مدينة مكة، وكأنهم يكرّسون شبكة متكاملة لبث مشاهد ثابتة من هذا التجمع الديني. وفي وقت الصلاة، يُردد الأذان بواسطة سماعات في كل مدينة وَحَيّ؛ فتُغلق المحال والأسواق على الفور، ويجول المطوّعون أو «الشرطة الدينية» الشوارع حاملين العصيّ في أيديهم لفرض تلبية نداء الصلاة. إن الإسلام بأركانه وتعاليمه وروحه ينعكس على الأعمال الفنية المعلقة على جدران مكاتب جدة، والكتب الموضوعة على رفوف غرف المعيشة، والمباني التي تقابلها في كل زاوية شارع، وتقويم الحياة العامة، وخطب المشاهير والشخصيات العامة، وتقاليد الميلاد وطقوس المواسم والموت. . . كل ذلك يستقي مصادره كليةً من الإسلام والإسلام فقط. وكان الدين في المملكة العربية السعودية هو

---

(٥) بدأ ذلك في عام ١٩٧٣م، من السيرة التي قدّمها بن لادن أو أعوانه تحت عنوان «نداء الإسلام» في مجلة موجودة في أستراليا نشرت مقابلة مع بن لادن في عام ١٩٩٦م، المصدر: *Messages to the World*, op. cit., p. 31

وأيضًا نسخة المقابلة التي أعدتها قناة الجزيرة في: *Messages to the World*, op. cit., p. 91.

محور كل شيء، وهو الذي أزال الغموض واللبس عن كافة الأمور؛ إذ شرح القواعد التي تحكم الأشياء ومسار حياة الناس. وكان القرآن هو دستور المملكة وأساس كل قوانينها. وأصبحت المملكة هي المجتمع الأكثر ورعًا على وجه البسيطة، ليس فقط في ما يتعلق بنظمها الدستورية والقانونية بل بنمط منازلها ومدارسها وأنماط الصداقة فيها. كما إن تدفق رجال الأعمال والمستشارين الأوروبيين والأمريكيين خلال حقبة السبعينيات وطرح الأجهزة التكنولوجية للمستهلكين على نطاق واسع، لم يغيرا المكانة المركزية للإسلام في الحياة اليومية للأغلبية العظمى من رعايا المملكة. ويتذكر ناصر البحري، يمنيّ الجنسية الذي نشأ وترعرع في جدة وكان لاحقًا من حرس أسامة بن لادن الشخصي، أنه بالنسبة إلى المراهقين أمثال أسامة الذين انجذبوا إلى التعاليم الدينية:

كان المناخ الإسلامي هو الغالب في كل مكان في المملكة العربية السعودية، وانعكست روح الإسلام في كل شيء؛ في مجالس العلماء والتجمعات الدينية. . . إلخ. وكان المجتمع السعودي نسيجًا واحدًا، وكان من المستحيل العثور على منزل غير معطر بعبير الاتجاهات الإسلامية من أي نوع. ومن ثَم إن لم يكن في إحدى العائلات شاب متدين، سيكون فيها بالضرورة فتاة أو امرأة متدينة. وإن لم يكن فيها فتاة ملتزمة بالتعاليم الإيمانية ستجد حتمًا في بيت العائلة شريطًا إسلاميًّا أو كتابًا عن الدين[٦].

كان أسامة هو نموذج الالتزام الديني في عائلة بن لادن مترامية الأطراف. واعتبره أفراد عائلته ـ بعضهم بنظرة ريب وبعضهم الآخر بإعجاب لا يشوبه ريب ـ إمام العشيرة البارز وواعظها الشاب الملتزم. ومثلما اعتبرت العائلات الأرستقراطية الأوروبية في الحقب الزمنية الماضية التحاق واحد أو اثنين من أبنائها بالكهنوت أمرًا مفروغًا منه، ويلتحق الآخرون بالجيش ضباطًا أو مستشارين في القضاء، رأت عائلة بن لادن أن استجابة بعض أبنائها وبناتها لتلبية نداء الإسلام لن يشكل ميزة كبرى. وهذا الخيار في حدّ ذاته لم يجعل أسامة بن لادن ابنًا مميزًا في عائلة بن لادن، خاصة

(٦) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع ناصر البحري والتي نشرتها صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٢٠ مارس/ آذار ٢٠٠٥ وترجمها FBIS.

في ظلّ وجود سالم في مكانة القائد والكبير. وكان للتجارة والطيران والهندسة وهندسة الديكور ورغبة سالم في أن يصبح أحد أفراد العائلة طبيبًا نصيب تنافسيّ مع التعليم القرآني في قوائم الشرف غير الرسمية للعائلة خلال السبعينيات. ومع ذلك اعتبر أفراد عائلة بن لادن أنفسهم عائلة إسلامية في المقام الأول، ومن ثَم احتُرمت مثالية أسامة والتزامه، حتى وإن كان يبدو متشددًا أحيانًا.

اعتبرت كارمن بن لادن أسامة بطول قامته ونحافة قوامه وورعه الشديد «شخصًا هامشيًّا» ينتقد كل ما يراه في محيط العائلة ولم تأخذه على محمل الجد. وكان «أكثر حَرْفية وأكثر أصوليةً» من بعض زملائه في جماعة الإخوان المسلمين، حسبما ورد عن صديقه جمال خاشقجي. وبدا أكثر ميلًا بصفة خاصة إلى التعاليم التي تقول إن المسلم الحق يجب عليه محاكاة الملابس والعادات التي كانت منتشرة خلال حياة النبي. وقد وبخ أسامة صديقه خالد باطرفي لارتدائه السروال القصير (الشورت) في أثناء لعب كرة القدم، الأمر الذي يتنافى مع أحد أحكام الشريعة الإسلامية التي تفرض على الرجال ستر جسدهم من الركبة وحتى الصرة. وبدا أسامة عازمًا على العثور على حالة النقاء البشري، ولتحقيق ذلك أصرّ على تعريف المبادئ الإسلامية للآخرين في تعاملاته اليومية العادية. وعلى لسان نجم شقيق زوجة أسامة بن لادن السوري: «دأب أسامة في أحيان كثيرة على إبلاغنا بما تعلّمه من الدين»(٧).

إن انخراط أسامة المبكر في جماعة الإخوان المسلمين دل على أن استيعابه للإسلام من البداية تأثر بالرسائل السياسية. ولم يكن إسلام الإخوان المسلمين سلبيًّا، إذ ناصر أعضاؤها فكرة الانتقال إلى الحكم الإسلامي القويم. والمحاضرات التي ألقاها أعضاؤها وصلت إلينا أيضًا عن طريق التاريخ الحديث لأعمال العنف من جماعة الإخوان المناهضة

---

(٧) المصدر: *Inside the Kingdom*, op. cit., p. 70.

وأيضًا: *The Osama Bin Laden I Know*, p. 21.

ومصدر المعلومات عن السروال القصير من المقابلة التي أجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي نشرتها صحيفة «القبس» الكويتية بتاريخ ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١م. وقد ترجمه حاتم محمد للمؤلف.

للاستعمار في مصر، ومن خلال نفي كثيرين من نشطاء الجماعة إلى المملكة العربية السعودية. وقدّم العلماء والكتّاب المتأثرون بجماعة الإخوان المسلمين أفكارًا متباينة عن كيفية السعي إلى تكوين حكومة إسلامية قويمة، ومتى يمكن تبرير العنف أو التنظيم السياسي الصريح على سبيل المثال. ومع ذلك، كان هناك إجماع على وجهة النظر التي تقول إن الخطب وتعليم مبادئ الدين يجب أن تكون حصنًا لحملتهم. وعلى المسلم المتدين ألا يسعى إلى التخلص من خطاياه فحسب، بل ينبغي له تعليم الآخرين أيضًا. وربما كانت المبادئ السياسية للإخوان المسلمين تثير توتر العائلة المالكة السعودية، إلا أن أسلوب الهداية تناسب مع مدرسة الفكر السلفي الذي كان سائدًا في المملكة آنذاك. ويشير مصطلح «السلف» إلى صحابة النبي محمد، الذين تعلم المؤمنون السلفيون محاكاتهم. وأكد محمد عبد الوهاب، الذي كان مصدرًا مؤثرًا من مصادر هذا المذهب في المملكة العربية السعودية، أن المرء يجب عليه الاقتداء في حياته بحياة الرسول والصحابة. وطبقًا لهذه المدرسة الفكرية، كان الهدف من دراسة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة هو البحث عن الحقيقة الواقعية ـ أي الحقائق والتشريعات ـ التي عُرفت خلال القرن السابع الميلادي مع نزول الوحي على النبي محمد، ومن ثَم فعلى أي مسلم يرغب في إرضاء الله عز وجل يوم القيامة أن يلتزم بهذه الجوانب من الحياة المستقيمة والاقتداء بهداها.

بعد ذلك بسنوات لاحقة بعد أن أعلن أسامة الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، قال إنه استشاط غضبًا في شبابه من أمريكا لتآمرها مع اليهود والمسيحيين لتدمير الإسلام. وقال: «إن كل مسلم منذ لحظة إدراك التمييز في قلبه يكره الأمريكيين واليهود والمسيحيين. وهذا جزء من معتقدنا وديننا، لأنني على ما أذكر كنت أشعر بالأسى وبضرورة شن الحرب على الأمريكيين وكراهيتهم وعدائهم». وفي الواقع لا توجد أدلة دامغة قبل عام ١٩٧٩م على اهتمامات أسامة السياسية. ويبدو أن تركيزه في تلك السنوات كان منصبًّا بصفة أساسية على تعلم كيفية تحديد ملامح الحياة الإسلامية والعيش في إطارها، مثلما درس على أيدي المعلمين والعلماء الذين اتبعهم في جدة ومكة المكرمة. ومما لا شك فيه أنه كان يستمع إلى الخطب ويقرأ الكتب التي كانت تتحدث عن الآراء السياسية الثورية المناهضة للاستعمار،

خاصةً الأعمال المؤثرة للكاتب الإسلامي المصري سيد قطب الذي أُعدم شنقًا لاحقًا والذي حاضر أخوه المنفي، محمد، لأسامة في الجامعة التي التحق بها في جدة. وطبقًا لصديقه وزميله في الجامعة جمال خليفة، قرأ أسامة لسيد قطب كتابيه «معالم في الطريق» و«في ظلال القرآن» لأول مرة في حياته قرابة عام ١٩٧٦م أو ١٩٧٧م، وقد أسهب هذان الكتابان في شرح النظريات المحرضة على الأفعال الهجومية، بما فيها العنف، من أجل حماية الإسلام من الإمبرياليين والزنادقة. وفي السنوات اللاحقة كان أسامة يستشهد بأعمال تقي الدين ابن تيمية الذي تأثر به كثيرًا، وهو من مفكري القرن الثالث عشر الميلادي الداعين للجهاد باستخدام القوة ضدّ «المحتلين» الكافرين، واستشهد بكتاب بعينه كتبه محمد قطب، «مفاهيم ينبغي أن تُصحح»، الذي جعله يدرك أن الحكام غير الأتقياء للدول الإسلامية «ليسوا أهلًا لحمل هذه الأمانة، ولم يتبعوا الطريق القويم للإسلام، بل اتبعوا أمانيهم وشهواتهم، وهذا هو سبب عدم تطور الأمة خلال العقود السابقة». وعندما استمع أسامة لأول مرة إلى هذه المحاضرات وقرأ هذه النصوص في أواخر السبعينيات، لم يكن أمامه أي وسيلة يترجم بها تلك الأفكار إلى أعمال سياسية، ولم تكن لديه أي رغبة واضحة في خوض المخاطر السياسية التي تدعوه إليها[٨].

كان أسامة يتحدّث مع أصدقائه خلال هذه الفترة عن قضية فلسطين، طبقًا لما ذكره باطرفي، إلا أن آراءه لم تكن استثنائية. وبعد حرب عام ١٩٧٣م التي دارت بين العرب وإسرائيل والتي ظهر فيها جليًّا دعم الجيش الأمريكي لإسرائيل، لا بد من أن أسامة قد تأثر بكثير من الخطب المناهضة للأمريكيين والمعادية للساميّة في مساجد جدة ومدارسها وتجمعاتها. وكانت هذه الموضوعات تمثل أحد جوانب دراسته الإسلامية الرسمية. واشتمل القصص القرآني الذي تحدث عن ظهور الإسلام وانتشاره على ذكر الغزوات والحروب، ووردت فيه قصصٌ تعبّر عن الخيانة المزعومة لليهود العرب

---

(٨) المصدر نسخة المقابلة التي نشرتها قناة الجزيرة في عام ١٩٩٨ في كتاب: *Messages to the World*, op. cit., p. 87.

وأيضًا التصريح الذي نُشر بتاريخ ٤ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٤م في نفس المصدر السابق ص ٢٢٩.

بوضوح شديد. وفي السنوات اللاحقة سيربط أسامة بين معاداته لليهود التي نسبها إلى التعليم القرآني وبين هجومه على الدعم الأمريكي لإسرائيل:

يبدو لنا من الأحاديث المنقولة إلينا من سيدنا محمد أننا سوف نضطر إلى محاربة اليهود تحت لوائه وعلى هذه الأرض (فلسطين)... وقد أقحمت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وشعبها مرة تلو الأخرى... وأقامت في حرب عام ١٩٧٣م خلال عهد نكسون جسرًا جويًّا يمتد من أمريكا إلى تل أبيب، قدمت من خلاله الأسلحة والمساعدات والجنود، ممّا أثر في نتيجة الحرب، ولذا كيف لا نحاربها؟... إن أي أمة تلحق بركاب الخنادق اليهودية لا تلومن إلا نفسها[٩].

قد يكون من الخطأ إرجاع التصريحات التي أدلى بها أسامة في أواخر عقده الأربعين إلى الأفكار التي كان يؤمن بها قبل ذلك بثلاثة عقود، إلا أننا نلاحظ تواصلاً في آرائه: فذِكره المتكرر لحرب عام ١٩٧٣م باعتبارها نقطة تحول في حياته الخاصة ومعيارًا لوجهات نظره المعادية للصهيونية والمناهضة للسامية يشير إلى التأثير الهائل لهذا العام في حياته. وحتى ذلك الحين، في المملكة العربية السعودية خلال منتصف السبعينيات، لم يكن وصف أي شاب عمره ثمانية عشر عامًا للأمريكيين واليهود على أنهم أعداءً للإسلام إلا تعبيرًا عن الفكرة السائدة للعامة آنذاك. وتؤكد الشهادات التي أُدليت عنه من المعاصرين له على جوانب أخرى من تدينه، مثل ورعه الشديد وبحثه عن حياة نقية ومتوازنة.

ظهرت محاولات في السيرة الذاتية التي نشرها مكتب أسامة الإعلامي لاحقًا والتي استُنتجت من الملاحظات التي أدلى بها أحد المساعدين الذي عاصره في الوقت الذي كان أسامة لا يزال على علاقة بعائلة بن لادن، وذلك لتحديد مصادر التأثير كافة التي شكلت آراءه وشخصيته. وقد بدت تلك السيرة الذاتية أشبه بالتعليقات التي ترد في بطاقة التقرير الذي يكتبها المدرس عن أحد التلاميذ:

نظرًا إلى أن بن لادن نشأ وترعرع في ظلّ رعاية أبيه، أصبح معتادًا

---

(٩) نفس المصدر السابق ص ١٢٦.

تحمل المسؤولية وإظهار الثقة والتحلي بالكرم والتواضع في آن واحد... وهو معروف أيضًا بالخجل والتحفظ وقلة الكلام، وعادة ما تبدو عليه أمارات الجدية، على الرغم من أنه يحاول إظهار جانب من الود في شخصيته ويتجنب رفع صوته بصفة عامة أو الضحك بإفراط... ويُعتبر أسامة شديد الذكاء والثقة وقوي الملاحظة، إلا أنه يتّسم بالتردد إلى حدّ ما في اتخاذ القرارات والسيطرة على الأمور، وهو الأمر الذي سبب له مشكلات في بعض الأحيان... ومن التناقضات الموجودة في شخصية أسامة عاطفته ورقته من ناحية، وقوته وعناده من ناحية أخرى. يحب القراءة لدرجة الشغف، ولديه عاطفة جياشة نحو تدقيق النظر في المعلومات والوثائق والسجلات المحفوظة، إلى جانب تتبع آخر الأخبار الصحفية[١٠].

كانت النساء من بين الموضوعات المرفوضة تمامًا لدى أسامة بن لادن. وكانت المواعدة في ما بين مراهقي ضواحي جدة أمرًا عسيرًا وخطيرًا، بل مسعى محبطًا حتى في ما بين العائلات غير المتدينة نسبيًّا. وبالنسبة إلى شاب ورع مثل أسامة كان مجرد الحديث عن النساء أمرًا لا يخضع للنقاش. ولكن صديقه باطرفي لاحظ أنه كان ينجذب إلى الفتيات، ومما ورد عنه أن أسامة قرر الزواج في سن السابعة عشرة لأنه أراد أن يعف نفسه بالزواج الشرعي. ولم تكن بنات أخواله وخالاته اللاتي رآهن في سوريا في زياراته خلال فصول الصيف محجبات، ولم يَعتدْنَ إخفاء وجوههن عن الرجال كنساء جدة. وخلال فترات إقامته المؤقتة هناك تعرف على نجوى ابنة خاله، وكانت الزيجات في ما بين أولاد الخال أو العم من الدرجة الأولى من الأمور الشائعة في العائلات العربية، وربما شجعت والدة أسامة وعائلتها هذه الزيجة وربما رتبا لها. ومع ذلك اقترح أحد إخوة نجوى أن تأتي المبادرة من أسامة أولًا، واقترح أن يطلب يد ابنة خاله رسميًّا، وكانت حينئذ في الرابعة عشرة من عمرها[١١].

في مستهل الأمر عاش الزوجان مع والدة أسامة وعائلة زوج أمه في

---

(١٠) المصدر: Al-Din, *Bin Laden*, pp. 79-82.

(١١) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلات التي نشرتها صحيفة **القبس** مع الأقرباء من سوريا في نفس المصدر السابق.

جدة، وحملت منه نجوى وأنجبت ابنًا سماه عبد الله. ويبدو أن العلاقة الزوجية زادت من اقتناع أسامة بأن المسلم المستقيم ينبغي ألا ينظر إلى السيدات باستثناء زوجاته وأمه حتى ولو نظرة عابرة. ولم يكن أسامة يسمح لزوجته بمقابلة الغرباء، وكان يغض بصره عن خادمة العائلة. وعندما كان يزور إخوته كان يبتعد ويغطي عينيه إن فتحت امرأة غير محجبة الباب له، ولم يكن يصافح النساء[١٢].

تخرج أسامة في مدرسة الثغر عام ١٩٧٦م، وتوضح الصورة الفوتوغرافية المُلتقطة في الفصل صفوفًا من الطلاب والمدرّسين الذين كانوا يرتدون أربطة عنق وسترات فضفاضة، إلا أن أسامة لم يكن في الصورة. وفي ذلك الحين كان التصوير الفوتوغرافي من الابتكارات التي كان يرفضها؛ مستندًا إلى أن الصور الفوتوغرافية تجذب أنظار الناس إلى أشياء من خلق الإنسان؛ أي إن الصور تتعارض مع وحدانية الله. خلال هذه الفترة كان أسامة يرفض الآلات الموسيقية الحديثة أيضًا، لأن معلميه أوضحوا له أن الموسيقى لم تكن جزءًا من حياة النبي، وأنها تتعارض مع أصوات التلاوات القرآنية، وأن المعازف تلهي عن الصلاة. لم يدخن أسامة قط كما كان يستنكر القمار، وتمثّلت متعه الظاهرة فقط في العلاقة الزوجية وقيادة السيارات والعمل والنزهات. وإن كان أحيانًا يتقمص شخصية أبيه الراحل، كما أشار إلى ذلك بعض أصدقائه، فإنه كان يفعل ذلك بإخلاص شديد ومن دون أي تظاهر[١٣].

ومن بين الاختلافات الواضحة بينه وبين والده وجهة نظره عن تعدّد الزوجات؛ إذ كان يتحدّث مع صديقه جمال خليفة عن الزيجات المتعددة

---

(١٢) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع خاشقجي في نفس المصدر السابق. وأيضًا: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, p. 16.

The Osama Bin Laden I Know, p. 21.

Inside the Kingdom, op. cit., pp. 70-71.

(١٣) أما عن الصورة الفوتوغرافية التي التقطت في الفصل فقد عرضها أحد زملاء أسامة أثناء الدراسة وأعطى نسخة من الصورة الفوتوغرافية التي ظهر فيها الفصل الدراسي للمؤلف. ومصدر ما قاله جمال خليفة الذي قابل أسامة في السنة التي تخرج فيها من المدرسة الثانوية والذي تزوج إحدى أخواته غير الشقيقات في كتاب: *The Osama Bin Laden I Know*, op. cit.

التي أتمها أبواهما، بسبب دوافع جنسية ظاهرة. اتفق الصديقان على أن التعدد على هذا النحو «لا يتفق مع أحكام الدين الإسلامي على الإطلاق». وكانا يعتقدان أن الله خلق النساء أكثر عددًا من الرجال في المجتمع، ولهذا السبب يُعتبر تعدد الزوجات أمرًا مرغوبًا فيه، ما دام «سيحل مشكلة اجتماعية» كما ورد عن خليفة. ومع ذلك، طبقًا للشريعة الإسلامية، «على الزوج أن يقيم العدل بين زوجاته كافة، ويقسم وقته بينهن، ويعطي كلًّا منهن ما يكفيها». وتعهدا بالتعامل في حياتيهما الزوجية بقدر أكبر من المسؤولية؛ فربما يتزوجان أربع زوجات، وهو الحد المسموح به في الإسلام، إلا أنهما لن يطلقا زوجاتهما عبثًا وسيوليان اهتمامهما بمسألة العدل والمساواة بينهن[١٤].

بعدما امتلأ منزله بأبناء صغار بعد فترة قصيرة نسبيًّا من زواجه بنجوى التي كانت تحمل من دون فترات راحة، منع أسامة أولاده من مشاهدة شرائط الفيديو لكرتون ديزني وبرنامج «افتح يا سمسم». ومنع معظم البرامج التلفزيونية للأسباب نفسها التي رفض لأجلها التصوير الفوتوغرافي والموسيقى؛ لأن الصور التلفزيونية تندرج تحت الفن التصويري المتطاول على الذات الإلهية. إلا أنه كان يشاهد البرامج الإخبارية، ولكنه عوَّد أبناءه الوقوف إلى جانب التلفزيون عندما تبدأ البرامج الإخبارية حتى يخفضوا الصوت عندما تعلن الموسيقى الإيقاعية بداية البث.

يبدو أن أسامة استقى قدرًا من أفكاره الأولى عن الأبوة من الدروس التي استوعبها عن الاعتماد على النفس والإيمان والحرص المادي الذي عرفه من أبيه العصامي. فكان أسامة بن لادن يأخذ أبناءه الصغار لإقامة معسكرات في الصحراء، وعلّمهم ركوب الخيل والنوم في العراء ودفن أنفسهم في الرمال إذا أرادوا الحصول على قسط من الدفء. ويتذكر باطرفي: «كان أسامة يتحدّث كثيرًا عن الرفاهية التي ننعم بها، وضرورة أن نكون أكثر جَلَدًا وخشونة. ولذا أراد منهم أن يتعودوا شظف العيش وقسوة الحياة، وممارسة الصيد والرمي». ولم يكن يسمح لأبنائه باحتساء المشروبات باستخدام الماصة، لأنها ليست سنة عن النبي. وفي نزهة عائلية

(١٤) نفس المصدر السابق.

في طقس قائظ صُدِمَت كارمن بن لادن عندما رأت زوجة أسامة الملتحفة بالسواد وهي تحاول أن تسقي أبناءها المتصببين عرقًا بملعقة في أفواههم. وشعرت أن أفراد عائلة بن لادن الآخرين الموجودين «كانوا مستائين من تعصب أسامة، ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة خوفًا منه». إلا أن الآخرين الذين عرفوه بعد ذلك قالوا مع أنه كان صارمًا مع أبنائه بشأن المبادئ والتعاليم الإسلامية، فإنه كان مازحًا وحنونًا أيضًا، خاصةً في أثناء الرحلات العائلية لإقامة المعسكرات في الصحراء[١٥].

في العالم المادي تتصاعد السوائل والغازات أو تتكثّف مع ارتفاع درجات الحرارة والكثافة أو انخفاضها. وقد مرّ أسامة بتغير مشابه في أواخر مرحلة المراهقة؛ إذ كانت شخصيته قرابة مرحلة الاستقرار النفسي أقرب إلى مكة منها إلى لاس فيغاس. ومع ذلك بدا مستمتعًا بأسلوبه الخاص بوجوده بين هذين العالمين المتعارضين شأنه شأن سالم، وتمكّن من التكيف مع متطلّباتهما وإغراءاتهما بشكل مختلف عن أخيه. وعلى أي حال، لم يكن أسامة هو الوحيد في عائلة بن لادن من جيله الملتزم بصرامة بالتعاليم الإسلامية. فإلى جانب أخيه غير الشقيق محروس، التزمت اثنتان من أخواته، هما شيخة ورضا، دينيًّا في هذه الفترة، وأسستا مدرسة دينية في جدة لتعليم أفراد العائلة الصغار. ودرس عدد من إخوته الآخرين الإسلام وتعاليمه دراسة رسمية وأخذوا يتنقلون بين الأوساط الدينية في الحجاز. وظلّت المصداقية الدينية إلى جانب غيرها من الأشياء الأخرى من العوامل الجوهرية في شركة العائلة؛ إذ كان تأثير العلماء الإسلاميين الأعضاء في لجان التخطيط العمراني في المدينتين الشريفتين قويًّا على قرارات المقاولات والتنمية العقارية، مثلما كان الوضع في عهد محمد بن لادن.

لم يظهر أسامة في بورتريه العائلة الشهير في السويد، إلا أنه ذهب إلى أوروبا بكل تأكيد. وطبقًا لما ذكره باطرفي، زار أسامة لندن في سن الثانية عشرة بصحبة أمّه لتلقي العلاج الطبي لإصابة حدثت في عينه، وظلّ

---

(١٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا: *Inside the Kingdom*, op. cit., p. 87

في أوروبا شهرًا على الأقل وزار بعض الأماكن السياحية. وهناك رحلة أخرى قام بها أسامة وهو مراهق، عندما لحق ببعض أصدقائه وأقاربه في رحلة سفاري في شرق أفريقيا لممارسة الصيد. وحسبما ورد عن باطرفي، سافر أسامة بن لادن في رحلة واحدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وذكر وليد الخطيب، الذي كان يشرف على أسامة في شركة التعمير الخاصة بالعائلة، أنه «ذهب في رحلات إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا». ومما قاله باطرفي، إن زيارته إلى أمريكا كانت بسبب سعيه هو وزوجته إلى علاج أحد أبنائهما من مشكلة طبية[١٦].

قال باطرفي إن لرحلته هو وزوجه إلى أمريكا ذكرى خاصة، ففي طريق عودتهما كان أسامة وزوجه يجلسان في ردهة المطار في انتظار الرحلة التي سيسافران عليها. وكانت نجوى ترتدي عباءة سوداء لها ثنيات وتغطي رأسها بنقاب. وكان الركاب الآخرون في المطار «يحملقون فيهما» وفقًا لما ذكره باطرفي «ويلتقطون لهما صورًا». وعندما عاد أسامة بن لادن إلى جدة قال إن التجربة كانت «مثل المشاركة في عرض تمثيلي». وأضاف باطرفي أن بن لادن لم يشعر بالمرارة أو الضيق بسبب كل النظرات المحملقة والصور الفوتوغرافية التي التُقطت لهما، بل «إنه مزح بهذا الشأن». إن مصدر ما قيل بشأن رحلة أسامة غير مؤكد، إلا أن باطرفي يعد بصفة عامة أحد مصادر الثقة، ولكن في هذه الحالة تعتبر المعلومات التي اتُّخذت منه مباشرة محدودة. ويبدو أن أسامة سافر بالفعل إلى الغرب سعيًا وراء العلاج الطبي لابنهما خلال أواخر السبعينيات، إلا أنه ربما لم يذهب لأبعد من بريطانيا[١٧].

أيًّا كانت وجهة الرحلة التي قام بها هناك عدة أفكار رئيسة مشتركة؛ لم يكن أسامة أجنبيًّا على الغرب، بل كان كثير التردّد إلى هناك، لكنّه لم

---

(١٦) استنادًا إلى المقابلة التي أجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع الخطيب والتي نشرتها صحيفة **صنداي تايمز** في نفس المصدر السابق.

(١٧) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أجريت مع باطرفي في نفس المصدر السابق. وأيضًا: Coil, «Young Osama,» *New Yorker*, December 12, 2005. Wright, *The Looming Tower.*

تقول بعض المصادر إنه ليس عبد الله ولكنه عبد الرحمن الابن الثاني لأسامة الذي عانى مرضًا في أثناء ولادته يدعى «موه الرأس» وسافر إلى بريطانيا لطلب العلاج انظر من ص ٨٠ إلى ص ٨١.

يتطرف هناك. وعلى مدار رحلاته وأسفاره إلى هناك هو وعائلته عرف أشياء عن أوروبا وأمريكا، ولكن ببلوغه الخامسة عشرة كان قد بنى بالفعل حائط صدّ أمام الإغراءات الغربية. شعر بن لادن بأنه محاط بطوق من الأساليب والثقافة الغربية في حياته وحياة عائلته، ومع ذلك فشل في إدراك سمات المجتمع الغربي وتاريخه وخصائصه كافة، كما سيتضح في السنوات اللاحقة. ومع أنه كان كثير التردد إلى هناك، فإن عقله ووجدانه ظلا حبيسين لأفكار ومفاهيم شرقية لا يحيد عنها.

إن المطمح الأساسي الذي ربط بطريقة وثيقة بين أسامة وإخوته غير الأشقاء هو نصيبه في شركة العائلة. في المرحلة العمرية التي بلغ فيها جيله من أبناء محمد بن لادن سن الالتحاق بالجامعة، شرّد بعضهم بعيدًا عن مجال الإنشاءات والتعمير، حتى إن بعضًا من إخوته غير الأشقاء لم يمضوا يومًا واحدًا في العمل. وكان أسامة من بين المجموعة الأكبر من الأبناء الذين عشقوا العمل والكفاح، وصنع هؤلاء الأبناء المناورات سعيًا وراء النفوذ والرواتب الكبيرة واحتلال الأدوار القيادية. وبفضل ميول أسامة الدينية، كان هو الاختيار التلقائي لتولي المهام الإدارية في أعمال التجديد في مكة المكرمة والمدينة المنورة التي تنفذها شركة العائلة. وقد أصبح تعيين أبناء بن لادن الأكثر تدينًا للعمل في المشروعات التي تُنفذ في المدينتين المقدستين نموذجًا متبعًا فيمن يتقلد المناصب الإدارية لاحقًا على مر السنين.

يتذكر وليد الخطيب الفلسطيني الجنسية الذي كان يشرف على أسامة في فرع الشركة في مكة أن أسامة عندما كان لا يزال في مرحلة المراهقة كان «جادًّا بالمقارنة بمن هم في مثل عمره، ومنذ اليوم الأول لاحظت اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة. وفي عملنا كنا نستخدم معدّات ثقيلة، وسريعًا ما رأينا هذا الصبي النحيف طويل القامة يقودها جميعًا نظرًا إلى أن كفاءته التقنية كانت رائعة»[١٨].

كان هناك مجالان تعليميان رئيسان لأبناء بن لادن المهتمّين بالعمل في

---

(١٨) استنادًا إلى صحيفة **صنداي تايمز** في نفس المصدر السابق.

الشركة؛ الهندسة أو إدارة الأعمال. وكانت الهندسة تتطلب تعليمًا أكاديميًّا واستعدادًا للدراسة الجامعية في الخارج، إذ لم تكن كليات الهندسة قد أنشئت في الجامعات السعودية بعد. وبسبب دراسة أسامة الدينية وعائلته الوليدة المتزايدة في العدد، ربما بدا احتمال وجوده أربع سنوات أو أكثر في القاهرة أو الغرب أمرًا غير مرغوب فيه. وأيًّا كانت الأسباب، التحق أسامة بعد أن أنهى دراسته في مدرسة الثغر بكلية إدارة الأعمال في جامعة الملك عبد العزيز، التي كانت حينئذٍ حرمًا ذا جدران بيضاء مبنيًّا فوق مساحة شاسعة من الأرض منذ أقل من عشر سنوات على طريق مكة بالقرب من مجمع عائلة بن لادن الرئيس عند نقطة الكيلو ٧. وكانت هذه جامعة خاصة تأسست على يد تجار جدة الذين أرادوا بناء مكان لتعليم أبنائهم أصول التجارة والأعمال. وقد تبرع بالأرض التي بُنيت عليها الجامعة عبد الله سليمان، وزير المالية السابق الذي ساعد في صنع ثروة محمد بن لادن، وكان عبد الله من بين أقطاب جدة الذين مولوا بناءها خلال الستينيات[١٩].

بعد ذلك بسنوات أعلن أسامة في إحدى المقابلات الشخصية عن تفاخره بأنه استطاع الموازنة بين دراساته الأكاديمية والعمل الموكل إليه في شركة العائلة بشكل أكثر نجاحًا مقارنة بكل إخوته. ولم يدل ذلك على تكبره فحسب، بل دلّ على تصرف خاطئ اقترفه. وسعى بن لادن في ما يبدو إلى ترك الدراسة الجامعية مبكرًا لتولي منصب إشرافي في مكة، إلا أنه ربما يكون قد غيّر رأيه بسبب مناشدة والدته. وألمح في المقابلة أنه أنهى تعليمه الجامعي، إلا أن خليفة يذكر أنه لم يحصل مطلقًا على شهادة جامعية. ولم يرد في السيرة الذاتية المقتضبة التي أعدّها أسامة أو مساعدوه عام ١٩٩٦م سوى أنه «درس الإدارة والاقتصاد» في الجامعة. وعلى أي حال من المؤكّد أنه عجز عن

---

(١٩) المعلومات عن أرض الجامعة التي تبرع بها سليمان وعن خلفية تأسيسها مصدرها تقرير وزارة الخارجية الأمريكية: DOS 59/2643 Jeddah to Washington, August 31,1965; and 59/2471 Jeddah to Washington, November 6, 1967.

المعلومات عن الإسهامات التي قدّمها محمد بن لادن مصدرها المكالمة الهاتفية التي أجريت مع براين فايفيلد ـ شايلر بتاريخ ٢٣ فبراير/شباط ٢٠٠٧م.

الحصول على شهادة أكاديمية في إدارة الأعمال مقارنةً بكثير من إخوته الأصغر سنًّا[٢٠].

عُيّن أسامة مديرًا في مكة بعد أن ترك الجامعة، حسبما ورد عن الخطيب. وكانت شركات بن لادن مسؤولة عن عدد من مشروعات التجديد في المنطقة خلال هذه الفترة. إذ أسست درجًا جديدًا يوصل إلى بئر زمزم الذي يُعد المنبع العتيق للمياه المباركة في الحرم المكي، إضافة إلى هدم عدد من المباني لأعمال توسعة الحرم والطرق المحيطة بالمسجد الحرام، وجددت الشركة الجدران والبوابات. ويذكر الخطيب أن أسامة كان بخيلًا في توزيع المكافآت النقدية، إلا أنه كان شديد الاهتمام بتناول القليل من الطعام وتوزيع ما يتبقى على العمال. وشأنه شأن أبيه، كان أسامة يفتخر بقدرته على حلّ المشكلات المعقدة المتعلقة بالدك أو الهندسة، على الرغم من افتقاره إلى التدريب الرسمي المطلوب في هذه المهنة. وطبقًا لما جاء على لسان الخطيب: «كان أسامة يعشق حل المشكلات التقنية بنفسه»[٢١].

(٢٠) نُشرت المقابلة في صحيفة **الأمة الإسلامية** عام ١٩٩١م ومُقتبسة في: Wright, *The Looming Tower*, p. 78.

نُشر الملخص في عام ١٩٩٦م في ما يتعلق بالمقابلة التي أُجريت معه في صحيفة **نداء الإسلام** في نفس المصدر السابق.

(٢١) المعلومات عن مشروع العمل في مكة مصدرها: Abbas, *Story of the Great Expansion*, pp. 262-263.

وأيضًا ما نُشر في صحيفة **صنداي تايمز** في نفس المصدر السابق.

الفصل الخامس عشر

شبكة الهاتف

نشأ فرانسيس هانيويل في قصر مشيد بالأحجار على ربوة تطلّ على بحيرة، وهو ينحدر من نسل إحدى عائلات ماساتشوستس تعود سلالتها وممتلكاتها إلى فترة تأسيس أمريكا. وكان والد مايكل بوكنا مستشارًا قانونيًّا لجيه بول جيتي، وكلاهما تخرج من جامعة هارفارد عام ١٩٦٠م. ولاحقًا انتقلا إلى باريس سعيًا لفرص العمل في مجال التمويل الخاص. فأعدا قوائم تتضمن جهات اتصال من العائلة والمدارس والفرق الرياضية والنوادي الاجتماعية، ثم بدآ يتصلان بهم سعيًا وراء الحصول على الصفقات، وهو مجال عمل رائع إن تمكنت من جمع القوائم الصائبة والتحدث بالفرنسية واستطعت الحصول على بعض المال لاستثماره. وفي بداية السبعينيات أدارا بنكًا تجاريًّا صغيرًا، وكان المقر الرئيس لهذا البنك في باريس، إلا أنه كان مسجلًا بصفته الرسمية في جزر الباهاما، وكان اسمه بنك لانسداون ذو المسؤولية المحدودة، وعمل هذا البنك في أنواع من التمويلات ستُعرف لاحقًا وعلى نطاق واسع باسم رأس المال المخاطر أو الجريء والأسهم الخاصة[1].

إن الأحداث الاقتصادية الجسام التي شهدها عاما ١٩٧٣م و١٩٧٤م ـ مثل الحرب التي دارت بين العرب وإسرائيل والحظر النفطي الدولي والتضخم والركود الاقتصاديين في أمريكا وأوروبا ـ أجبرت الرجلين على

(١) من المقابلة التي أجريت مع فرانسيس هانيويل بتاريخ ٩ أغسطس/ آب ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع مايكل بوكنا بتاريخ ٣١ أغسطس/ آب ٢٠٠٦م.

إعادة تقييم موقفهما. فالسيولة النقدية، وهو المصطلح المصرفي للنقود الحاضرة، كانت تُستنزف بشكل مطّرد للغاية من أوروبا نحو مناطق إنتاج النفط في العالم العربي. فقرر هانيويل وبوكنا وشريكهما النشيط الثالث جان بيلي، الانتقال إلى الشرق الأوسط. وبدت بيروت والقاهرة هما الأنسب لإقامة مقر رئيس جديد للبنك، وعندما اقترعوا بالعملة استقروا على القاهرة. وانتقل بوكنا إلى هناك ومعه قوائم جديدة من جهات الاتصال. وكان أخو زوجة هانيويل مصرفيًّا ذا نفوذ في بنك كريدي سويس، واقترح عليهم أن يتصلوا بشاب سعودي قابله ذات مرة، يُدعى الشيخ سالم بن لادن.

رتب هانيويل لعقد اجتماع تمهيدي وسافر إلى جدة، وكان طويل القامة رياضي البنية في الثلاثينيات من عمره، وأبدى في حديثه مع سالم انعدام ثقته في الأسلوب القديم لتداول النقود. وكان سالم معتادًا التعامل مع هؤلاء المصرفيين الشغوفين لأخذ جزء ممّا يعتبرونه ثروة آل بن لادن الخيالية. ولم يكن حكم سالم عليهم يستند إلى الخدمات التي يعرضون تقديمها، لأنه لم يبالِ بها بصفة عامة، بل كان يتوقف على مدى القبول الشخصي بينه وبينهم. دعا سالم ضيوفه إلى الغداء واصطحبهم في جولة في الصحراء لمشاهدة بعض خيول عائلة بن لادن. وكان ما لبث أن اشترى عربة صحراوية جديدة، وكانت آلة غريبة مثبتًا بها محرك، هيكلها (الشاسيه) من صنع شركة فولكس فاغن، وتتمتع إطاراتها بإمكانية طي الرمال الناعمة بصخب عالٍ. أجلس سالم كلًّا من هانيويل وجين بيلي في مقعد الركاب وبدأ يزيد السرعة حتى ستين ميلًا في الساعة عبر الصحراء شبه الخالية، وأخذ يثب بهم بين الكثبان الرملية. ولكن سريعًا ما انفصل أحد إطارات العربة، فتوقف سالم واستوقف بعض البدو ممن تصادف مرورهم بالجوار وأجبرهم على البحث عن الإطار المفقود، وعثروا عليه بالفعل إلى جانب بعض الصواميل الخاصة به، ولكن لم يكن لدى سالم مفتاح ربط. فرفع هانيويل العربة بأكملها في الهواء بينما استخدم سالم يد أحد البدويين بدلًا من مفتاح الربط، وأخذ يلويها بقوة، وهو الأمر الذي جعل هانيويل يبدي تعاطفه مع المتطوّع المسكين. نجح بيلي في أن يعيد الإطار إلى موضعه بعد جهد وأبدى سالم إعجابه الشديد بما حدث. وعلى مدار سنوات لاحقة أخذ سالم يقصّ هذه الحكاية بشأن طريقة رفع هانيويل للعربة كالبطل الشجاع. ويبدو أن سالمًا قد قرر آنذاك

وفي هذا المكان التعامل مع هذا الرجل. وعاد ثلاثتهم إلى العربة وتمايلوا مرة أخرى فيها من جانب إلى آخر، وزاد سالم السرعة حتى فاقت ما بلغته قبل انفصال الإطار. أما عن مجال العمل الذي هم على وشك اقتحامه وكيفية إتمام الصفقة والخطة التي سيستندون إليها، فتلك كانت تفاصيل ستُناقش في يوم آخر، فلكل مقام مقال[٢].

سافر مايكل بوكنا بعد ذلك بأسابيع قليلة لتحديد هيكل معين للنشاط. وعانى فترات الانتظار الطويلة المعهودة عند مقابلة سالم وجداول المواعيد الفوضوية قبل أن يجتمع به. وتمكّن من الاتفاق مع شركة سويسرية ستشرع في بناء مصنع في المملكة العربية السعودية لتصنيع الخرسانة سابقة التجهيز والمنازل الجاهزة التي سوف تدعم مشروعات البناء التي تنفذها عائلة بن لادن.

ولكن سالمًا قال له: «حسنًا، إنني لا أهتم بذلك، ماذا لديكم أيضًا؟»

ساد الصمت لبرهة، حسبما يتذكر بوكنا، وهو يحاول طرح فكرة أخرى، ولكن سالمًا قاطعه وقال: «أظن أن المستقبل للهواتف».

وافقه بوكنا الرأي على الفور رغم أن الفكرة لم تطرأ على ذهنه مسبقًا على الإطلاق. تحدثا مرة أخرى وأجرى بوكنا بعض الاتصالات الهاتفية مع شخص يعرفه كان يعمل في مجال الهواتف في الولايات المتحدة. واتضح أن سالمًا يفكر بطموح شديد في الفوز بعقد مع العائلة المالكة لبناء أول شبكة هواتف حديثة في المملكة.

وصرّح سالم قائلًا: «شيّد والدي الطرق، وسوف أشرع في بناء شبكة الهواتف»[٣].

وكانت تلك الرؤية نابعة من أسلوب حياته الذي ينتقل به من دولة إلى دولة في يوم واحد. وكان سالم وأفراد عائلته الذين ينتمون إلى جيله هم من بدؤوا عصر الطائرة النفاثة؛ إذ كانوا ينتقلون من دون عناء من جدة إلى

(٢) من المقابلة التي أجريت مع هانيويل في نفس المصدر السابق.

(٣) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أجريت مع بوكنا في نفس المصدر السابق.

القاهرة إلى جزيرة كورفو في البحر المتوسط ومنها إلى باريس ثم إلى نيويورك، ويعودون أدراجهم من جديد على مدار أيام قليلة فحسب في بعض الأحيان. ومع كثرة هذه التنقلات ازدادت أحلامهم بالاستمرار في التواصل مع الآخرين. وكان سالم هو محور التحركات في هذه العائلة النشطة التي لا تكف عن الحركة. ولم يستطع تحمل انقطاع أخبار رندا أو صديقاته الأوروبيات والأمريكيات أو أصدقائه الطيارين أو والدته أو إخوته وأخواته أو أفراد العائلة المالكة أو شركاء العمل، متى كان ذلك ضروريًّا. وفي فترة السبعينيات فاقت حاجته وحاجة عائلته إلى الهواتف للتواصل مع معارفهم على النطاق العالمي حدود التكنولوجيا المتاحة في المملكة آنذاك. وكانت الخدمة الهاتفية داخل المملكة العربية السعودية محدودة للغاية، حيث لم يكن هناك سوى بضع عشرات الآلاف من خطوط الهاتف التي لا يمكن الاعتماد عليها. وعندما كان سالم يمكث في جدة، كان يغازل صديقاته اللاتي يقمن في الخارج عن طريق تلكس شركة بن لادن إخوان.

في تلك الآونة، لم يكن أحد ليستوعب أو يدرك الفكرة التي تقول إنه يمكن ربط النظم الاقتصادية العالمية كافة ارتباطًا سريعًا وزيادة سرعة إيقاعها بالتواصل الصوتي قليل التكلفة العابر للحدود في ذلك العالم المنقسم في أواخر الحرب الباردة. كانت روسيا وعملاؤها في شرق أوروبا منعزلين تمامًا خلف الستار الحديدي. وكانت الصين منعزلة وتعاني حالة من عدم الاستقرار بعد الفترة المظلمة التي مرت بها أثناء الثورة الثقافية. حتى في الغرب كان تطور الأقمار الصناعية وشبكات الهواتف الدولية لا يزال في بداياته. وكان قد نُشر قبل ثلاثة عقود من التطور في عام ١٩٤٥م المقال الرائد لكاتب قصص الخيال العلمي آرثر سي كلارك الذي جاء تحت عنوان Extra-Terrestrial Relays، «محطات في الفضاء الخارجي»، وكان المؤلف فيه أول من تخيل إمكانية الاتصالات العالمية عبر الأقمار الصناعية. وأشعل إطلاق القمر الاصطناعي سبوتنيك *Sputnik* فتيل عصر الأقمار الصناعية العسكرية في عام ١٩٥٧م، إلا أن سباقات الصواريخ وحرب النجوم بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي سيطرت على التطورات التكنولوجية مبدئيًّا في ذلك العصر. وسيطرت الحكومات والشركات الاحتكارية العملاقة على شركات الهواتف الكبرى في أمريكا

وأوروبا. ولم تكن الهواتف الخلوية اختُرعت بعد، وكانت الهواتف المحمولة التي تعمل بالأقمار الصناعية المتاحة للمستهلكين كبيرة الحجم وصعبة الاستخدام. وكانت الهواتف القليلة المتاحة على المستوى العالمي تتطلّب عادة أن يحدد المستخدم موقعه ثم يتصل عن طريق شبكة خاصة محدودة. وشهدت هذه الأدوات تحسينات تراكمية كل عدة سنوات، ولكنّ المستخدم الشغوف شديد الثراء كان يعتبرها مثالية لمتطلباته، وكان سالم يتحلّى بهاتين الصفتين.

في هذه السنوات كان الأسهل لسالم أن يثرثر من خلال الهاتف مع أصدقائه وعائلته وهو يطير بطائراته، مقارنة بالوضع إذا كان يتحرك على الأرض؛ فقد زود سالم طائراته الخاصة بأجهزة راديو عالية التردد بسعر قارب الثلاثين ألف دولار لكل طائرة، حيث إن هذه الأجهزة تعزز جوانب الأمن والسلامة خلال رحلاته العابرة للمحيط الأطلسي، وقد سمحت له أيضًا بالاتصال بعدد من شبكات الهواتف وهو محلق في الهواء، ففي أوروبا كان يتصل من مقصورة القيادة بشركة اسمها شركة ستوكهولم راديو. وفي مقابل سعر خيالي يقوم عاملو التشغيل بتحويله إلى شبكة الهواتف السويدية التي يمكنه من خلالها الاتصال بأي شخص في أنحاء أوروبا كافة. وفي أغلبية الاتصالات التي كان سالم يجريها مع شركة ستوكهولم راديو ـ وبشركة مشابهة في هيوستن في ولاية تكساس ـ كان عاملو التشغيل عادة يسألونه فقط عن اسم صديقه أو أخته ممن يريد الاتصال بهم، لأن لديهم قائمة بالأسماء وأرقام الهواتف كافة التي يتصل بها دائمًا. وعندما كان يحلق فوق سماء سان أنطونيو أو هيوستن، كان يتصل بأصدقائه المقيمين في المدينة نفسها في منازلهم، ويطلب منهم الخروج من المنزل والنظر عاليًا إلى السماء. وكان يشغّل أنوار الطائرة النفاثة ويصيح عبر هاتفه النقال قائلًا: «هل ترونني؟ هل ترونني؟» مرارًا وتكرارًا. وفي رحلاته التي قام بها في أوروبا محلقًا فوق سمائها بالطائرات الشراعية، كان يتصل بأخته المفضّلة لديه في مونتريال ويقول لها: «رندا! إنني أحلق أعلى جبال الألب على ارتفاع اثنتي عشرة ألف قدم! أتصدقين ما أقول؟» وبينما كان يتنقل بطائرته بين العواصم الأوروبية ليلًا، كان يتحدّث لساعات مع صديقاته، بينما كان عاملو التشغيل في شركة ستوكهولم يستمعون إلى المكالمات

منفعلين معه عاطفيًّا. وعندما كان يشعر بالملل وأصدقاؤه نائمون، كان يتصل بعاملي التشغيل في شركة ستوكهولم من طائرته ويعزف المقطوعات الغنائية على آلة الهارمونيكا(٤).

أبلغ سالم صديقه الألماني المدعو توماس ديتريتش أن «مجال التلفونات يدر كثير من الأرباح». وقد أدرك ذلك لأنه وعائلته ينفقون مبالغ طائلة على المكالمات الهاتفية الدولية. ولدى مغادرته الفنادق الأوروبية، كان عادة يدين لها بفواتير الهاتف عن المكالمات التي يجريها أكثر ممّا يدين لها بنفقات الإقامة والوجبات. وكان يتصل ليلًا بمعارفه ليثرثر فحسب «بل كان ينام وهو يجري مكالمة دولية» حسبما يتذكر صديقه الألماني الذي استطرد: «وعندما ينهي الطرف الآخر المكالمة بعد نومه يعاود الاتصال ويتساءل متعجبًا: «لم أنهيت المكالمة؟»» وأدرك ديتريتش أنه حتى عندما يكون هو وسالم مقيميْن في الفندق نفسه، فإن الاتصال بسالم هاتفيًّا سيؤتي ثماره أكثر من محاولة زيارته في غرفته «لأنك عندما تزوره يجلس أمام التلفاز و يتحدّث في الهاتف، ولا يتحدّث معك... فنهارًا ينام وهو يتحدّث في الهاتف، ولا يكفّ ليلًا عن التحدث في الهاتف»(٥).

أسس سالم شركة بن لادن للاتصالات عام ١٩٧٥م. وكان يملك فيها نسبة ٥١ في المئة، بينما يملك بنك لانسداون ذو المسؤولية المحدودة ١٥ في المئة، وكانت باقي النسب موزعة بين مصرفيّ سالم من عائلة ابن محفوظ. بدأ نشاط الشركة في مستهل الأمر من فيلا متواضعة في جدة، وسيطرت عليها أجواء غريبة بدت تحوم حول سالم بغموض شديد.

على الرغم من أن روبرت آرميتدج ـ عازف الغيتار وصديق سالم منذ أيام الدراسة في مدرسة كوبفورد غليب ـ لم يكن لديه أي خبرة فعلية سابقة

(٤) المصدر المقابلة التي أجريت مع ديف ويتني بتاريخ ٢٠ فبراير/ شباط ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع توماس ديتريتش بتاريخ ١٢ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع بيتر بلوم بتاريخ ٥ مايو/ أيار ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أجريت مع جورج هارينغتون بتاريخ ٢٣ فبراير/ شباط ٢٠٠٦م.

(٥) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أجريت مع ديتريتش في نفس المصدر السابق.

في مجال العمل، فإنه سريعًا ما عيَّن مديرًا إداريًّا في الشركة. وكان كلٌّ من سالم وروبرت قد فقد الاتصال أحدهما بالآخر بعد الدراسة حتى التقيا مصادفة بعد منتصف الليل في ملهى ليلي خارج روما، حيثما كان روبرت يعمل مديرًا للبار، وكان سالم يثمل مع ابن لورد كارينغتون، السياسي البريطاني الذي أصبح في ما بعد وزير خارجية بلده. اشتركا في العزف على الغيتار هذه الليلة، وبعد ستة أشهر طلب سالم من روبرت الحضور إلى جدة لإعطائه دروسًا إضافية. وأدرك كل من هانيويل وبوكنا أن صديق سالم شخصية مغامرة بعض الشيء، وعلى الرغم من أنهما لم يتخيلا تعيينه مديرًا تنفيذيًّا في شركة التلفونات، فإنهما توسما فيه الذكاء وإمكانية الاعتماد عليه، وكان سالم يثق فيه بشكل واضح ومن ثَم حظي بقبولهما(٦).

تركز عملهم في مستهل الأمر داخل المملكة العربية السعودية على بيع أجهزة الاتصال السريعة أمريكية الصنع ذات الأزرار، بدلًا من أجهزة الهاتف ذات القرص الدوار التي كانت سائدة آنذاك. وكانت هذه الأجهزة بدائية ولكنها مكنت المستخدم من برمجة أرقام الأصدقاء أو العائلة ثم الاتصال بهم عن طريق الضغط على زر واحد، وكانت تكلفة الجهاز الواحد تبلغ مئة دولار في الولايات المتحدة، إلا أنها بيعت بمعدل سريع وبسعر بلغ ثلاثة أضعافه في المملكة. وفاز بنك لانسداون بلقب الوكيل الوحيد لبيع أجهزة الاتصال السريع في المملكة العربية السعودية، وتبين أن كل أمير يمتلك قصرًا وقائمة طويلة بأسماء إخوته وأخواته وعماته وخالاته وأعمامه وأخواله أراد جهازًا لكل منهم. وسريعًا ما توسع نطاق عملهم ليشمل معدات هاتفية أخرى، مثل مراكز الاتصال الخاصة التي سمحت بوجود عشرات الخطوط المنفصلة في القصر الواحد. وحتى ذلك الوقت لم يكن لدى المملكة شبكة تلفونات وطنية متكاملة، إلا أن العائلة المالكة أرادت الحصول على أحدث وأفضل المعدات في منازلها، حتى وإن تعطلت الخطوط وأصدرت أصواتًا مزعجة عند لمس الأزرار الوامضة.

---

(٦) المعلومات عن الملهى الليلي الذي كان موجودًا خارج روما وعن ابن اللورد كارينغتون مستقاة المقابلة التي أُجريت مع روبرت آرميتدج بتاريخ ١٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلات التي أجريت مع هانويل وبوكنا في نفس المصدر السابق.

اكتشف هانيويل أن المشكلة الكبرى تكمن في الحصول على المقابل المادي للخدمات التي يقدّمونها، ويتذكر: «لقد كنا نبني شبكات في قصور الأمراء ومنازل أصدقاء سالم». وهذا أدّى بهم إلى الوقوع في شرك مجموعة من الأرصدة الدائنة والمدينة غير الرسمية التي كانتا تربط بين عائلة بن لادن وعائلات تجارية أخرى والعائلة المالكة؛ إذ كانوا يشيدون شبكة اتصالات باهظة الثمن مكوّنة من ٢٥٠ خطًّا في قصر بعينه، وبعدها يقول لهم صاحبه: «إنني أحد أصدقاء سالم، وهو يدين لي بالمال وسوف نسوي أمورنا معًا». وكان هانيويل حينها يتقدّم بالتماسات من خلال روبرت آرميتدج ليقول له: «إن هؤلاء الناس يدينون لنا بمبلغ ٢,٥ مليون، وجميعهم يقولون لنا إنك تدين لهم بالمال ولن يدفعوا لنا» حتى يسوّي سالم ديونه[٧].

كانت دفاتر حسابات الشركة في حالة من الفوضى المستمرة، وكان هناك كثير من المطالبات المتعلقة بالديون والمقايضات بين سالم وعملائه حتى إن محاولة وضع حسابات دقيقة بدت مستحيلة. ويتذكر روبرت آرميتدج: «لا بد من أنه كانت هناك مشكلات في التدفق النقدي» بين شركات بن لادن ذات الأعمال المتشابكة، وبين سالم ومصرفييه. وكان سالم «دائمًا يقول: «روبرت، كيف أعثر على سيولة تُقدر بمئة مليون دولار؟! إنني في حاجة إليهم بحلول الغد!»»[٨].

تعامل آرميتدج مع مبالغ مالية أصغر بكثير ولكن في أجواء من التشوش، فكان يتكبد عناء التوجه إلى البنك الأهلي التجاري «لسحب ستمئة ألف ريال حتى يدفع لبعض المسؤولين، وبالمناسبة كان مبلغ ستمئة ألف ريال آنذاك حملًا ثقيلًا». وفي الأروقة المؤدية إلى خزائن البنك كان آرميتدج يرى «القليل من اليمنيين الذين ينقلون إلى الخزائن مئة ألف ريال في المرة الواحدة... وهذا مبلغ ضخم. على أي حال، كانت هذه مبالغ مالية كبيرة آنذاك وكان هناك المزيد منها في الأفق»[٩].

ظن هانيويل وبيلي أن عليهما محاولة إنشاء هيكل عمل منظم مستدام

---

(٧) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أجريت مع هانويل في نفس المصدر السابق.

(٨) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع آرميتدج في نفس المصدر السابق.

(٩) كل الاقتباسات مأخوذة من نفس المصدر السابق.

كما حاولا من قبل في مشروعاتهما المصرفية التجارية السابقة. وكان لهانيويل معارف في شركة جنرال إلكتريك وحاول أن يعزز الشراكة دائمة التوسع بين شركة جنرال إلكتريك وشركة بن لادن. وحاول كلاهما العثور على مصدر جديد للربح من خلال شركة بن لادن كمستهلك لمنتجات شركة كاتربيلر الأمريكية المصنعة لمعدات البناء. ولاحظ هانيويل أن هناك أنواعًا عديدة من معدات الكاتربيلر ـ من جرافات وحفارات وبلدوزرات وغيرها ـ مهملة في العراء في مواقع عمل الشركة سابقًا. وأوضح سالم أن أباه اعتاد إدراج سعر أي أسطول جديد من معدات الكاتربيلر في العطاء الخاص بكل طريق أو أي مشروع ضخم آخر يتولاه. وكان يستورد الجرارات وينقلها إلى مواقع العمل ويستخدمها إلى أن ينتهي العمل، ثم يتركها وشأنها. وأرسلت شركة كاتربيلر فريقًا لجرد كل المعدات المنتشرة في أرجاء المملكة، ويتذكر هانيويل أنهم «وجدوا بعض المعدات مدفونة في الرمال في صناديق شحن لم تُفتح مطلقًا». وعندما أحصوها، أبلغوا عائلة بن لادن أنهم أكبر شركة تمتلك معدات الكاتربيلر في العالم. وعرضوا عليهم أن تكون شركة بن لادن هي وكيلهم في المملكة العربية السعودية، إلا أن سالمًا لم يبد اهتمامًا بالأمر، وقال إنه يهدف إلى البناء والتعمير، وليس العمل كوكيل لبيع منتجات شركة أخرى[١٠].

تطلع سالم إلى المشروع الأكبر، وهو الخطة التي أعلنتها العائلة المالكة لتركيب قرابة ٤٥٠,٠٠٠ خط هاتف جديد في المملكة، لكي تلحق المملكة العربية السعودية بعصر الاتصالات الحديثة في قفزة واحدة. وكان العقد ـ الذي بدا دومًا على وشك الاكتمال ولكنه لم يظهر واقعيًّا بصورة نهائية ـ هو منجم الذهب السعودي الذي راود كثيرين من رجال الأعمال الأجانب الذين تدفقوا إلى المملكة خلال منتصف السبعينيات. وبدت كل العائلات التجارية السعودية وكل رجال الحاشية الملكية وسماسرة السلاح في جدة والرياض، بمن فيهم عدنان خاشقجي، عازمين على نيل جزء من العقد كوكلاء أو شركاء. وقرّر سالم الانضمام إلى هذه المنافسة نظرًا إلى الشركة الجديدة التي يمتلكها والتي تعمل بالفعل في مجال الاتصالات عن

(١٠) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع هانيويل في نفس المصدر السابق.

بُعد. وكان المصرفيون الأمريكيون متحمّسين للأرباح المرتقبة، إلا أن بوكنا بصفة خاصة كان مقتنعًا أن عائلة بن لادن لن تعاملهم بإنصاف كشركاء، وما عزّز من قناعته رأيه في سالم أنه مغرور ومثير للإحباط. بالإضافة إلى أنه شعر أن سالمًا كان يعتبر شركاءه المصرفيين التجاريين «مجرد رجال أعمال غربيين» مهمتهم هي تقديم الخدمات التي يطلبها، «وأننا لا نختلف كثيرًا عن أي من طياريه الذين يقودون طائراته في رحلات العمل». كان بوكنا يشعر بالاستياء بصفة خاصة من الفترات الطويلة التي كان يقضيها منتظرًا سالمًا في قاعات الاستقبال التي يتصاعد منها دخان السجائر، وضاق ذرعًا من شروع سالم في إحضار ورق اللعب ليضيع وقته، لأن ذلك لم يكن هو أسلوب مصرفيي الاستثمارات المتعلمين في جامعة هارفارد في العمل[١١].

أدرك الجميع أن عقد الخطوط الهاتفية الضخم سيرسو استنادًا إلى المجاملات الخاصة التي تتم داخل العائلة المالكة أو بينها وبين معارفها، وهو الأمر الذي لم يستوعبه الأمريكيون والأوروبيون المشتركون في الصفقة تمامًا. وزاد سالم من غموض هذه المفاوضات غير الرسمية بالتحدث عن الصفقة مع شركائه باستخدام «تعليقات غامضة غريبة وغير دقيقة» متوقعًا أن يفسرها شركاؤه في بنك لانسداون بدقة ويعملون وفقًا لها من أجل تعزيز عطائهم، وذلك من وجهة نظر بوكنا[١٢].

أعلنت شركة الهاتف التي تديرها حكومة المملكة العربية السعودية بدء صفقة حصرية مع شركة فيليبس الهولندية التي تصادف أن يكون وكيلها في المملكة محمد بن فهد؛ ابن ولي العهد. وكان حجم هذا العقد التجريبي مقدّرًا بمبلغ ٦,٧ مليار دولار، وهو مبلغ يزيد كثيرًا عن التكلفة الفعلية للشبكة، طبقًا لحسابات المستشارين الأوروبيين. ويبدو أنّ هذا المبلغ اشتمل على عدة مليارات دولارات مطلوب توجيهها إلى أماكن غير معلومة. وفي عام ١٩٧٦م وبداية عام ١٩٧٧م، تمكن سالم وغيره في حاشية فهد من إعادة فتح المفاوضات. وتوضح سجّلات الطائرة الخاصة

---

(١١) من المقابلة التي أجريت مع بوكنا في نفس المصدر السابق.

(١٢) نفس المصدر السابق.

التي كان سالم يسافر على متنها أنه سافر عدة مرات إلى وزير الاتصالات ونائبه، وعائلاتهما خلال هذه الفترة، ومن المفترض أنه كان يؤثّر فيهم بطريقته المرحة المعتادة إلى جانب وسائله الأخرى(١٣).

لم يوضح سالم مطلقًا إلى شركائه الأمريكيين كيف شق طريقه في جولة المحادثات الجديدة بشأن العقد، أو كيف سوف تتحدد الصفقة نفسها بصورة نهائية، إلا أنه أوضح في مرحلة بعينها أنه «كان أحد العقود التي سيحصل عليها» وفقًا لما يذكره بوكنا. ولإتمام الصفقة احتاجت شركة بن لادن للاتصالات شركة اتصالات أجنبية عالية القدرات لتكون شريكًا لها، على أن تكون إلى شركة قادرة بالفعل على تنفيذ الأعمال. وقد تفاوض بنك لانسداون على إقامة علاقات مع شركة نورثرن تيليكوم التابعة لشركة بيل كندا. وغادر رئيس شركة نورثرن تيليكوم المدعو والتر لايت إلى جدة وأقام سالم حفلًا في منزله ودعا السفير الكندي وأخذ غيتاره وغنى إحدى الأغنيات الغربية، وبعدها قسم جمهور الحاضرين إلى سيدات ورجال لأداء أغنية «فرير جاك» على نحو مذهل(١٤).

أتت الأساليب التي اتبعها سالم بثمارها، فعلى الرغم من العقبات والتعقيدات، فقد آلت نسبة كبيرة من عقد وكالة شركة بيل كندا إلى شركة بن لادن للاتصالات، وحصلت على عمولات نقدية مباشرة تُقدر بنسبة ١,٥ في المئة من صفقة الشركة على مدار خمس سنوات، أي ما يصل إلى نحو ١,٥ مليار دولار، والتي تتولى بموجبها إدارة شبكة الهاتف السعودية الجديدة وصيانتها. وحصلت شركة بن لادن أيضًا على نسبة مشابهة من عقد شركة بيل كندا اللاحق في المملكة البالغ مدته خمس سنوات، بالإضافة إلى حصة كبيرة بلغت ٤٠٠ مليون دولار من عقود بناء المنازل والمنشآت الحكومية التي طُلب إلى شركة بيل كندا تنفيذها كجزء من الصفقة. وساد شعور بالرضى لدى الجميع، وفازت شركتا فيليبس وإريكسون بجزء من

(١٣) مصدر المعلومات عن العقد المبدئي الذي بلغت قيمته ٦,٧ مليار دولار أمريكي وعن حاشية فهد وتقييم المستشارين الأوروبيين: Surtees, *Pa Bell*, pp. 218-238; Holden and Johns, *The House of Saud*, p. 412.

جدير بالذكر أن المؤلف درس بنفسه سجل رحلات الطيران التي سافر فيها سالم.

(١٤) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع بوكنا في نفس المرجع السابق.

العقد الذي يتضمن مبيعات المعدات، وحصل الأمير محمد بن فهد وفقًا لما قيل على عمولة بلغت ٥٠٠ مليون دولار تقريبًا. ولم ترض تلك الصفقة كلًّا من فرانسيس هانيويل ومايكل بوكنا اللذين اتهما سالمًا بإقصائهما عن الحصول على الأرباح من العمل مع شركة بيل كندا وتحويل عقود البناء التي تتضمنها الصفقة، على نحو غير لائق، إلى شركات أخرى تابعة لعائلة بن لادن. فأقاما دعاوى قضائية ظلت قيد النظر في المحاكم الكندية لسنوات كثيرة[١٥].

تصاعدت وتيرة الطمع والتنافس تدريجيًّا بين السعوديين والأمريكيين؛ حيث يرى كل طرف أنه أحق بالحصول على النسب الأكبر من صفقات العمل، الأمر الذي انطوى على قدر من المخاطرة، وتحول الأمر إلى نوع من استعلاء كل منهما على الآخر. ومع ذلك في أواخر السبعينيات بدا أن هناك مبالغ مالية طائلة متاحة للجميع؛ حيث انتشرت اليخوت والطائرات النفاثة الخاصة وامتلأت القصور بأحدث التقنيات التكنولوجية، واكتظت المرائب بسيارات السباق الأوروبية. حتى إن الأمراء كانوا يطورون أنفسهم، وظهر جيل من الشباب ذوي التطلعات الدولية مع تولي الملك فهد سدة الحكم. إلا أن العائلة المالكة وحاشيتها انساقت مرة أخرى تجاه الرفاهيات والمنح النقدية التي سادت الأجواء منذ عقدين في ظلّ حكم الملك سعود. وكان التزمت النسبي والولاء للمصلحة العامة الذي ساد سنوات حكم فيصل يتراجعان. وفي ظلّ سيطرة فهد على زمام الأمور، ومع اقتحام ابنيه مجال العمل بكل جرأة، وبارتفاع أسعار النفط المتزايدة، وتحليق معدات

---

(١٥) يصعب تحديد حصة شركة بيل كندا من العقد تحديدًا دقيقًا. وتفيد المقابلات التي أُجريت مع بوكنا وهانيويل والوثائق المستقاة من دعوتهم القضائية أنهم حصلوا على مبلغ قدره ٢١ مليون دولار أمريكي من عمولتهم التي بلغت نسبتها ١,٥ في المئة من الأرباح في أثناء السنوات الخمس الأولى، وبهذا يمكن أن نخمن تقريبًا قيمة العقد بأنه ١,٥ مليار دولار أمريكي. وبلغت القيمة الكاملة المعلنة للعقد أكثر من ٣ مليارات دولار أمريكي بما فيها كل عمليات شراء للمعدات. والمعلومات عن أن المبلغ المذكور في عقود البناء بلغ ٤٠٠ مليون دولار إضافية مصدرها: Surtees, *Pa Bell*, p. 231.

والمعلومات التي تفيد بأن هذا المبلغ انتقل إلى أرباح بن لادن بصورة أساسية مصدرها المقابلات التي أجريت مع بوكنا وهانيويل في نفس المرجع السابق. والمعلومات عن عمولة محمد بن فهد التي وصلت قيمتها إلى ٥٠٠ مليون دولار أمريكي مصدرها: *House of Saud*, op. cit., p. 414.

البناء الشامخة في الأنحاء كافة، لم يكن يتخيل كثير من السعوديين ذوي الامتيازات ما يمكن أن يهدد النظام الحالي.

خلال أواخر عشرينيات القرن العشرين، واجه الملك عبد العزيز مشكلة عنيفة اختلقها ولم يستطع السيطرة عليها عندما اكتمل غزوه لشبه الجزيرة العربية. إذ وظف قواته الجهادية المعروفة باسم الإخوان للتغلب على أعدائه والاستيلاء على الحجاز، إلا أنه لم يستطع إقناع هؤلاء المتطوّعين المتحمسين بأن حربهم الدينية انتهت بالفعل. فاحتج الإخوان على تعلقه الشديد بالسيارات والبرقيات، وهو الأمر الذي اعتبروه نوعًا من الإشراك بالله. وسريعًا ما انقلبوا عليه وثاروا ثورة عنيفة، ولم يرأف بهم الملك؛ إذ إنه سخر من معتقداتهم، وفي بعض المعارك استخدم سياراته الفورد كسلاح فرسان بديل يعمل بالمحركات لاختراق صفوفهم. وفي الوقت نفسه سعى إلى عقد تسوية سياسية أوسع نطاقًا مع أعدائه. وشيد مستوطنات في الواحات للمحاربين الدينيين المسرَّحين وشجعهم على العمل في الزراعة والدراسة الدينية القويمة. وفي القصيم، وهي منطقة شديدة المحافظة تتّسم بمنحدراتها الرملية والواحات المشتملة على ينابيع الماء وتقع شمال غرب الرياض مباشرةً، انتشرت عدة قرى مكتظة بالإخوان المستقرين حديثًا في المنطقة. وقرابة عام ١٩٤٠م، حيث لم تزل ذكريات الإخوان عن عداوتهم مع الملك وعائلته ماثلة في الأذهان، وُلد جهيمان العتيبي في إحدى مستوطنات القصيم التي تُدعى ساجر. وعندما نضج يبدو أنه أدرك في مرحلة مبكرة أسباب ظهور الإخوان وسمع عن تزمتهم الديني، وشعر ببعض الحنين تجاه ثورتهم ضدّ العائلة المالكة[١٦].

تطوع جهيمان بجند القبيلة أو المجاهدين التابعين للحرس الوطني للمملكة، وهي قوة شبه عسكرية كانت تعمل كجهة مراقبة على الخدمات العسكرية السعودية النظامية، وكنوع من التوظيف الوطني لسكان القبائل ممن تصعب السيطرة عليهم. أصبح جهيمان عريفًا، إلا أنه ترك الخدمة العسكرية في قبيلته للشروع في الدراسة الدينية في جامعة المدينة خلال

(١٦) المعلومات عن أصول جهيمان في مستوطنة ساجر مصدرها: Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia*, p. 145; *House of Saud*, op. cit., pp. 514-515.

أوائل السبعينيات. وكانت الجامعة معروفة بوجود مجموعة كبيرة من المدرسين المنفيين من بلادهم لانتمائهم إلى الإخوان المسلمين، وكان من بين طلابها أيضًا طلاب منفيون من مصر واليمن والكويت وباكستان، حتى إنه كان هناك بعض الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام وانضموا إلى ما يُعرف بجماعة جهيمان للدراسات الإسلامية. وفي جامعة المدينة درسوا معتقدات المذهب السلفي المأخوذ جزئيًّا عن معتقدات الإخوان التي أكدت الحاجة إلى الانصهار في حالة من النقاء الإسلامي. وتميزت هذه التعاليم بتوائمها مع النشاط السياسي للإخوان المسلمين وتناسبها مع المظالم المحددة للطلاب المنفيين من حكومات بلادهم. وبذلك، فإن هذا المزج بين الأساس القرآني وأفكار الانشقاق السياسي ـ الذي يعزى إلى التاريخ السعودي ويرتبط بالحركات الإسلامية العامة في الخارج ـ بدا مألوفًا جدًّا في رأي أسامة بن لادن ومجموعته الدراسية المتأثرة بفكر الإخوان المسلمين التي كانت تنعقد بعد مواعيد الدراسة في مدرسة الثغر في جدة المجاورة(١٧).

كان جهيمان أكبر من جيل أسامة بعشرين عامًا تقريبًا، إلا أن كثيرين من تابعيه في جامعة المدينة كانوا طلابًا أصغر منه سنًّا. وكانوا يقصرون شواربهم ويطلقون لحاهم ويرتدون ملابس تغطي الركبة، وهو الشكل العام لهيئة صحابة النبي محمد. ورفضوا التصوير الفوتوغرافي على أنه بدعة تتنافى مع وحدانية الخالق عز وجل، بل إن آراءهم كانت أكثر تزمتًا من آراء أسامة وزملائه في جدة. وحاكى جهيمان منطق الإخوان المؤسسين بهجومه على الحداثة والعصرية لكونها من منظوره مؤامرة عظيمة تُحاك ضدّ المؤمنين. وبعد عام ١٩٧٤م خلص جهيمان وتابعوه إلى أن العائلة المالكة السعودية لا تتمتع بالشرعية بل إنها فاسدة. وانسحبوا من المدينة لتشكيل حلف سياسي صريح لتحدي آل سعود. تميزت الحلقات غير الرسمية التي كان الطلبة يتلقون فيها مجموعات الدراسة، وتداخلت أفكارها بصفة متكررة إحداها مع الأخرى، تميزت بالمناقشات الحادة والخلاقة عن الدين والمسار الصحيح الذي يتوجب على الدين وضعه

(١٧) المصدر: *House of Saud*, op. cit., pp. 515-526.

للأمور السياسية. وكان أسامة يحضر حلقة دراسية واحدة في كل من جدة ومكة المكرمة، بينما كان جهيمان وتابعوه يحضرون حلقات منفصلة في المدينة المنورة ولكنها مرتبطة فكريًّا.

عاد جهيمان إلى منطقة القصيم بعد الخلافات التي نشبت مع أساتذته في المدينة، ثم انتقل إلى الرياض حيث وصل تابعوه إلى قرابة مئتي شخص. وبحلول عام ١٩٧٨م، بدؤوا يطبعون منشورات مضادة للعائلة المالكة على صفحات الجرائد في الكويت. وجاء عنوان أحد المنشورات: «قواعد الولاء والطاعة: سوء تصرف الحكام». وهاجم هذا المنشور أفراد العائلة المالكة وهيئة كبار العلماء الرسمية التي تدعمهم باعتبارهم أسوأ رعاة للإسلام والأماكن المقدسة. وذكروا أن بعض الأمراء قد «أدمنوا الخمر» ويعيشون «حياة فاسقة في القصور الفخمة». وقالوا إن العائلة المالكة «قد استولت على الأراضي» و«بددت أموال الدولة». وكانت العقود المحمَّلة بقدر كبير من العمولات ـ مثل تلك الصفقة التي أُبرمت لإنشاء شبكة هواتف وطنية ـ من دلالات الفساد السياسي البادي للعيان. ولفتت توعّدات جهيمان أنظار وزير الداخلية السعودي الذي قبض على جهيمان واستجوبه هو وتابعيه. وأُطلق سراحهم في الرياض بعد أن تعهدوا بالتزام الهدوء[١٨]. إلا أنهم في الواقع شرعوا في التخطيط لثورة تهز كيان المملكة.

في شهر سبتمبر/أيلول من عام ١٩٧٩م سافر سالم إلى واشنطن العاصمة لشراء طائرة ليرجت (Learjet) جديدة، وهناك زار صديقته الأمريكية باتي ديكارد، وذهب كلاهما إلى جاك وأنيتا بيتزا لاصطحابهما من مدينة بنما سيتي في ولاية فلوريدا، ثم سافروا جميعًا إلى أوروبا. ومنها اتجهوا إلى القاهرة وجدة ودبي وأبو ظبي. وفي بداية شهر نوفمبر/تشرين الثاني، اصطحبوا اثنتين من أخوات سالم، هما منى ورندا، وسافروا جميعًا إلى أثينا. وقضوا ليلة في جزيرة كريت اليونانية، ثم عادوا على متن الطائرة إلى القاهرة. وبذلك احتشد كل هؤلاء الضيوف على متن

---

(١٨) نفس المصدر السابق. وأيضا: Vassiliev, *A History of Saudi Arabia*, pp. 395-396; Teitelbaum, *Holier Than Thou*, pp. 20-21. Quoted also in Coli, *Ghost Wars*, p. 28.

طائرة سالم التي كانت أشبه بالمسرح الذي اتّخذ السماء مقرًّا له على ارتفاع ثلاثين ألف قدم(١٩).

بدأ الحصار الذي فُرض على الحرم المكي بدءًا من أذان فجر يوم ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني لعام ١٩٧٩ الموافق غرة جمادى الأولى لعام ١٤٠٠هـ. وفي هذا اليوم أشهر جهيمان وأتباعه أسلحتهم التي هربوها في النعوش التي يحملها الناس عادة للصلاة على الموتى. واستولوا على أجهزة تكبير الصوت وأعلنوا أن من بينهم المهدي؛ منقذ الإسلام المنتظر الذي يُعد ظهوره على الأرض من علامات الساعة. وكان المهدي المزعوم يُسمى محمد القحطاني وهو من أتباع جهيمان غير ذوي الشأن، إلا أن دوره الفعلي برز بعد رؤيا رآها له شخص آخر في الجماعة. ولدى إطلاق نيران أسلحتهم من مآذن المسجد الحرام، أعلن أتباع جهيمان بداية ما اعتبروه يقينًا المعركة الأخيرة في تاريخ البشرية(٢٠).

تحوّل الأمر سريعًا إلى كارثة دموية. ووصلت قوات الأمن السعودية وحاولت الشروع في شنّ هجوم أمامي مباشر على الحرم الشريف. وتحوّلت مصابيح الإنارة التي ركبها مهندسو بن لادن خلال التجديدات السابقة والتي كانت تنير جنبات الحرم للحجاج والمصلين بضوء يضفي جلالًا وقدسيّة إلى المكان، لتضيء ساحة القتال للرماة المناصرين لجهيمان. وأريقت دماء أعداد هائلة من الضحايا على أرضية الحرم الرخامية. وارتدى سالم ومساعده اللبناني قوي البنية الذي يُدعى مصطفى فتح الله الزي العسكري وشقوا طريقهم إلى مكة المكرمة ومعهم رسومات لتصميم المسجد حصلوا عليها سريعًا من ملفات الشركة.

قاتل سالم ومصطفى وأبناء بن لادن الآخرون وموظفو الشركة في هذه المعركة وأدلى كل منهم بدلوه في الخطوط الأمامية في حصار مكة لمدة أسبوعين. وكان يحيى، الأخ غير الشقيق لسالم الذي كان يعمل مهندسًا مدنيًّا ولديه خبرة واسعة النطاق بمداخل مكة ومخارجها، من بين أولئك الذين خاطروا بحياتهم للمساعدة في الهجوم الذي شنته العائلة المالكة

(١٩) تأكد المؤلف بنفسه من سجلات رحلات الطيران.

(٢٠) المعلومات عن الرؤيا المقدسة للمهدي مصدرها: *House of Saud*, op. cit., p. 520.

والذي أخذ يتزايد عنفًا. وكان يسلم بن لادن، وهو من المديرين التنفيذيين ذوي الشأن في ذلك الوقت، «يمر بحالة من الاضطراب وهو يتنقل سريعًا من المنزل إلى الشركة كأن به جنة» كما ورد عن زوجته. وأطلقت القوات السعودية سيلًا من النيران على أتباع جهيمان المختبئين في المآذن. وقال أحد الموظفين في شركة بن لادن الذي كان موجودًا في ساحة المعركة: «وكان الجميع يقول: «رحم الله محمد بن لادن» وفي الوقت نفسه كانوا يلعنونه، لأن المدافع التي يبلغ عيارها ١٠٦ ملم لم تستطع اختراق المآذن، وهذا يوضح كمية الصلب المستخدمة في بنائها». وداهمت الطائرات الهليكوبتر المتمردين بإطلاق نيران البنادق من أبوابها المفتوحة[٢١].

سريعًا ما تقهقر جهيمان ومن بقي من أتباعه على قيد الحياة إلى مخابئ لهم تحت الأرض في مناورة يبدو أنهم خططوا لها مسبقًا. وكان هناك أسفل المسجد الحرام سراديب وأنفاق كثيرة؛ يشتمل بعضها على المواسير وشبكة الأسلاك الكهربائية التي تدعم المسجد، ويؤدي بعضها الآخر إلى قاعات للاعتكاف. وكان جهيمان قد خبأ الطعام والذخيرة أسفل المسجد خلال أسابيع الاستعداد السري، وأحيانًا كان يستخدم شاحنات شركة بن لادن التي كان مسموحًا لها بدخول الحرم. وبمجرد أن هرع الثوار إلى السراديب وتدفقوا إليها برزت الأهمية القصوى للمعلومات الهندسية والمعمارية التي يمتلكها أبناء بن لادن ومن يعمل لديهم. ويتذكر الموظف الذي شهد هذه الواقعة أن قائدًا أردنيًّا اندفع إلى المسجد بغضب عارم صائحًا «أين موظفو شركة بن لادن؟ أين موظفو شركة بن لادن؟» وعندما وجدهم وزع عليهم التصميمات المعمارية ووضع علامة (+) على كل مكان في سطح المسجد يعلو ممر تحت الأرض ربما يكون الثوار مختبئين فيه، وأمر بحفر هذه الأماكن[٢٢].

---

(٢١) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع كارمن بن لادن في: *Inside the Kingdom*, pp. 123-125.

وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع أحد موظفي بن لادن لكنه طلب عدم الكشف عن هويته.

(٢٢) مصدر المعلومات عن قدرتهم على الوصول إلى شاحنات شركة بن لادن: *Inside the Kingdom*, op. cit., p. 123.

وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع الموظف الذي عمل لدى بن لادن.

أحضر العاملون في شركة بن لادن معدات ثقب لحفر فتحات في أرضية المسجد حتى تستطيع قوات الأمن إسقاط قنابل يدوية في الممرات الرأسية التي حفروها. وقال تيم بارجر الذي كان يقيم في جدة وكان على علاقة بالمشاركين في الحصار: «إنهم حفروا كل هذه الفتحات، وكان الرقيب يجلس هناك وفي جعبته القنابل اليدوية والشاي والسجائر؛ ليسقط القنابل اليدوية من خلالها». وأسقطوا قنابل يدوية كثيرة في الأنفاق خلال هذه المرحلة من الهجوم، حسبما ذكر الموظف في شركة بن لادن الذي سبقت الإشارة إليه قائلًا: «حتى إن أقدامنا على أرضية المسجد كانت تزل من أثر إطلاق هذه القنابل اليدوية»[٢٣].

شعر سالم بالإثارة الشديدة في ما يبدو لاشتراكه في الهجوم، إلا أنه شعر بالقلق أيضًا، إذ إن الأمر لا يتطلب ذكاء أو الحصول على درجة علمية في العلوم السياسية لإدراك مدى ضعف وهشاشة آل سعود أمام قوات ثورة إسلامية شبيهة بالقوات التي أسقطت الشاه في إيران. والأمر البديهي في هذه الحالة هو أنه إذا سقطت العائلة المالكة السعودية، ستسقط عائلة بن لادن بل ستُمحى من ذاكرة التاريخ. ومن ثَم تحرك أبناء بن لادن سريعًا وأنشؤوا ـ سرًّا ـ ملاذًا ماليًّا خارجيًّا. وفي يوم ٢٧ من شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٧٩م، أي بعد أسبوع واحد من بدء الانتفاضة في مكة، وثّق محامو الشركة في جميع أنحاء العالم تقريبًا في مكتب توثيق مدينة بنما سيتي مستندات تأسيس شركة جديدة بموجب قانون بنما؛ هي شركة بن لادن إنترناشونال. وسريعًا ما غيّروا اسم الشركة إلى اسم أقل لفتًا للنظر وأطلقوا عليها شركة بينار. وفي النهاية أضحى إخوة سالم الأكثر نفوذًا مثل بكر وعمر ويسلم وطارق وحسن وخالد مديريها. وكان رأس مال الشركة المبدئي يبلغ ١٠ ملايين دولار. ويوحي توقيت تأسيس هذه الشركة إلى مدى الذعر الذي تملك العائلة ولجوئها إلى تأمين نفسها ماليًّا تحسّبًا لاحتمال مواجهة حكومة سعودية عدائية سريعًا بعد الثورة. ولم يعرب أي من أبناء بن لادن المتعاملين مع

(٢٣) استنادًا إلى مكالمة هاتفية أُجريت مع تيم بارجر بتاريخ ٧ مارس/ آذار ٢٠٠٦م. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع الموظف الذي عمل لدى بن لادن في نفس المرجع السابق.

الشركات التابعة لحكومة بنما عن غرضهم، إلا أن أفراد العائلة اعترفوا بأنهم أجروا تحويلات مالية خارجية سريعًا وعلى نحو مشابه خلال أزمة سعودية وقعت لاحقًا[٢٤].

في حقيقة الأمر كان هلاك جهيمان وتابعيه مصيرًا محتومًا؛ إذ قتلت القوات الخاصة السعودية والفرنسية التي استُدعيت لتقديم يد العون أعدادًا هائلة من الثوار في المسجد الحرام، وقُبض على جهيمان واثنين وستين تابعًا له، ثم ضُربت أعناقهم. وأسفرت هذه الثورة الدموية عن أزمة شديدة بشأن شرعية العائلة المالكة. واعتمد حكم آل سعود على ادعاءاتهم بالمصداقية الإسلامية باعتبارهم رعاةً لمكة والمدينة على وجه الخصوص. وبرروا هجومهم على المسجد بأنه أمر مؤسف رغم أنه كان حتميًّا وفق ما تقتضيه أبسط قواعد رعايتهم للمدينتين المقدستين، إلا أنهم استندوا إلى دوافع سياسية ودينية واهية. وبينما كان الهجوم على وشك الانتهاء، أكد المتحدثون الرسميون عن العائلة المالكة الادعاءات الغريبة للثوار بشأن نهاية العالم، إضافة إلى أنهم حقروا من شأن مظالمهم ـ التهديدية ـ المتعلقة بالأمور السياسية الزائلة.

تورطت عائلة بن لادن في هذه الثورة أيضًا، وبدأت الشائعات تحوم في أثناء احتدام الحصار بأن أفراد العائلة لا بد من أن لهم يدًا فيها، لأن شاحناتهم وسياراتهم الجيب هي التي كانت تتمتع بحرية التحرك داخل وخارج المسجد الحرام، ومن المؤكد أن الشائعات بلغت حدّ مساعدة أفراد من عائلة بن لادن للمتآمرين. وقُبض على محروس وأخ آخر له ـ ربما كان أسامة ـ لفترة وجيزة خلال الأزمة بينما كانا يقودان سيارة بالقرب من مكة. وكما قال الموظف الذي كان يعمل في شركة بن لادن وشارك في الحصار، حدث سوء تفاهم واتُّهم الأخوان من عائلة بن لادن بأنهم من

(٢٤) مصدر المعلومات عن ملفات شركة بن لادن إنترناشونال في بنما والتواريخ وأسماء المديرين وأسماء الورثة المشتركين هي الوثائق التي جمعها وقدمها كل من دوغلاس فرح والمؤسسة التي أنشئت خصيصًا لفك طلاسم أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول Nine/Eleven Finding Answers Foundation. وأقر آل بن لادن في وثائق تابعة لمحكمة أخرى نقل الأموال بعيدًا نقلًا سريعًا بتاريخ أغسطس/ آب ١٩٩٠م بعد غزو صدام حسين للكويت. راجع أيضًا الفصل السابع والعشرين.

المتآمرين لأنهم كانوا يستخدمون أجهزة البث الخاصة بالشركة لمراقبة اتصالات الشرطة؛ بدافع الفضول لا غير[٢٥].

عندما خرج الموظف نفسه الذي كان يعمل في شركة بن لادن من مكة ليلًا، وملابسه ملطخة بالدماء بعد اشتراكه في الاشتباكات بالقنابل اليدوية، استوقفه شرطي على الطريق السريع. وعندما أظهر له الموظف بطاقة الهوية الخاصة به التي تثبت عمله في شركة بن لادن، صوب الشرطي المسدس في وجهه قائلًا «أرسلك الله إليّ لأحاسبك على ما فعلت». وقال الموظف إنه نجا من القتل على يد الشرطي في الحال بإقناعه بعدم تصديق الشائعات التي تتردد بشأن دور العائلة في المؤامرة ومناقشة الأمر مع رؤسائه قبل قتله[٢٦].

بعد ذلك بسنوات انتقد أسامة الأمير فهد ولي العهد لاستخدام القوة ضدّ الثوار كافة من دون تفريق وقال: «كان بإمكانه حل هذه الأزمة من دون إطلاق النار على الإطلاق كما أجمع على ذلك حينها كل العقلاء». واستطرد أسامة: «إن الأمر كان يتطلب بعض الوقت خاصةً أنّ الموجودين في الحرم حينها لم يزد عددهم عن بضع عشرات. ولم يكن معهم سوى أسلحة بسيطة أغلبيتها بنادق صيد، ولم يكن بحوزتهم مؤن كثيرة، وكانوا محاصرين». وأضاف أسامة ـ من دون أن يشير إلى سالم أو أي من أفراد العائلة المشتركين في الاشتباكات ـ أن فهدًا «أصر على رأيه واشتبك معهم ووضع البلدوزرات والسيارات المصفحة داخل الحرم. وحتى الآن ما زلت أتذكر الآثار التي تركتها البلدوزرات على أرضية الحرم. . . وما زال الناس يتذكرون المآذن وهي مكسوة بالسواد بعد إطلاق قذائف الدبابات عليها»[٢٧].

---

(٢٥) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع الموظف الذي عمل لدى شركة بن لادن في نفس المصدر السابق، ولم يتذكر هوية الأخ الثاني. وأيضًا: Wright, *The Looming Tower*, p. 94.

حيث يذكر أن أسامة كان مع محروس مستشهدًا بمقابلة أجريت مع جمال خليفة في كتاب: *Inside the Kingdom*, pp. 123-124.

وفيه يصف عملية اعتقال محروس لكن لم يذكر وجود الأخ الثاني. ويُقال إن محروس كان يحمل مسدسًا في سيارته.

(٢٦) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع الموظف في نفس المرجع السابق.

(٢٧) المصدر: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 266.

من الصعوبة بمكان معرفة موقف أسامة الحقيقي تجاه التمرد في وقت حدوثه بالفعل. وكان أسامة حينها في الحادية والعشرين من عمره، وكانت العقيدة الإسلامية التي غمر نفسه فيها تدفعه دفعًا إلى الحراك من دون مقدمات. وبعيدًا عن معرض حديثنا عن حصار مكة، كان الثوار في إيران قد أسقطوا الشاه الفاسد. وكانت قوة جماعة الإخوان المسلمين تتزايد وتخطط لإحداث ثورة في سوريا، وهي مؤامرة قال أسامة لاحقًا إنه اشترك فيها. وربما يكون جهيمان وتابعوه قد حادوا عن الطريق القويم خاصةً بعد أن أعلنوا أن من بينهم المهدي المنتظر، إلا أن الانتقادات السياسية التي صدرت عنهم حفزت كثيرين على الهجوم، ونتج من الهجوم المضاد واسع المدى الذي شنته العائلة المالكة كثيرًا من التبعات المزعجة، وهذا أقل ما يمكن أن يُقال عنه.

حتى هذه المرحلة لم يتوافر أي دليل قاطع على أن أسامة كان ينوي المخاطرة بنفسه باسم التمرد، أو أنه عارض تعاون إخوته مع قوات الأمن السعودية آنذاك. بل يبدو أنه تصرف من منطلق أنه من أباطرة البناء الصاعدين المتدينين بشدة وأحد أفراد العائلة وثيقي الارتباط بها، إلى جانب كونه إسلاميًّا لا يزال في مرحلة الإعداد، وكانت هذه الصفات شائعة لدى عددٍ من مواطني المملكة العربية السعودية وقتئذٍ. وعلى العكس من التآمر لإحداث ثورة بدا أسامة في هذه السنوات كما لو كان يتلمس طريقه للحصول على كل شيء: المال، والزوجات الأربع، والأطفال، والحياة العملية الطموحة، ورضى الله. وكانت مكانته باعتباره شابًّا حسن السمعة من شباب عائلة بن لادن مطلبًا أساسيًّا.

في بداية الثمانينيات ربما كان دخل أسامة الصافي من نصيبه في شركات بن لادن يبلغ ١٥٠,٠٠٠ دولار سنويًّا أو ضعف هذا المبلغ. وهو دخل يزيد عن دخل كثير من الأمراء الشباب. وفي هذه السنوات كان سالم يتحكم في مصروفات إخوته الأصغر سنًّا في العائلة مثل أسامة، وكما ذكر الكثير من شركاء سالم في العمل وموظفيه، كان أسلوب سالم يبدو استبداديًّا ومتناقضًا. وبحلول أوائل التسعينيات عندما بدأ توزيع الأرباح بأسلوب أكثر تنظيمًا، كان الحد الأدنى للمبالغ المالية التي يتوقع الفرد الواحد في العائلة الحصول عليها يقل قليلًا عن ٣٠٠,٠٠٠ دولار سنويًّا،

كما جاء في ملفات إحدى المحاكم الأمريكية التي صاغها المحاسبون الذين استُعين بهم لفحص مصادر بن لادن المالية. ومن المنطقي أن نفترض أن تلك المصروفات زادت عما كانت عليه منذ عشر سنوات. وفي كلتا الفترتين كان المبلغ المالي الذي يحصل عليه الأخ الواحد سيزيد إن كان يملك أيضًا أسهمًا في شركات أخرى تابعة للعائلة، أو إن كان يعمل في وظيفة تنفيذية تمكّنه من تقاضي راتب سنوي؛ إذ كان يسلم ـ الذي كان يكبر أسامة سنًّا وحصل على شهادة في إدارة الأعمال من جامعة جنوب كاليفورنيا ـ يحصل على راتب سنوي بلغ زهاء ٨٠٠,٠٠٠ دولار عام ١٩٨٦م، كما جاء في شهادة خطية أدلت بها زوجته كارمن. وكان أسامة من بين الإخوة الذين يمتلكون أسهمًا في أكثر من شركة، وشغل مناصب إدارية أيضًا، على الرغم من أنه كان أصغر من يسلم، وكان يحصل من المؤكد على راتب أقل. من خلال هذه الأدلة المتفرقة يمكننا أن نقدر ـ أو بالأحرى نخمن ـ أن دخل أسامة السنوي الإجمالي من شركات العائلة ربما كان يبلغ قرابة ٢٠٠,٠٠٠ دولار خلال هذه الفترة. وهناك شواهد تؤكد أنه كان يتصرف بطريقة توحي بأن لديه أموالًا طائلة لا حاجة له بها؛ إذ اشترى عمارة سكنية صغيرة في منطقة العزيزية في جدة بعد أن ترك الدراسة الجامعية، ثم تزوج زوجة ثانية وثالثة وأسكنهما في شقتين بالمساحة نفسها. وكانت هاتان الزوجتان أكثر نضجًا وأفضل تعليمًا من ابنة خاله التي تزوجها في سن صغيرة وأنجبت له أطفاله الأُول؛ حيث كانت إحداهما على الأقل حاصلة على درجة الدكتوراه في الدراسات العربية أو الدينية، كما قال الحارس الشخصي الذي عمل لاحقًا لدى أسامة. وكانت مؤهلاتهما وخبرتهما الدينية متوافقة مع تصوراته الذاتية الآخذة في التطور[٢٨].

(٢٨) وقد كان أسامة يستطيع استعارة أو تحصيل مبالغ أكبر للقيام بعمليات شراء مثل الشقة التي اشتراها لعائلته التي يتزايد عددها. والمعلومات عن الشقة السكنية مصدرها المقابلة التي أُجريت مع خالد باطرفي بتاريخ ١٩ فبراير/شباط ٢٠٠٥م. وطبقًا لما ذكره أحد الحراس الشخصيين السابقين لأسامة وهو ناصر البحري أن زوجتين من زوجات أسامة حصلتا على درجتي الدكتوراه إما في الشريعة الإسلامية أو في اللغة العربية قبل سفره إلى أفغانستان. وعلى ما يبدو فإن أسامة يمكن أن يكون قد تزوج إحدى هاتين الزوجتين من عائلة الشريف في حقبة الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي.

في شركة بن لادن في مكة صدر قرار لترقية أسامة للإشراف على وليد الخطيب الفلسطيني الذي كان رئيسه في ما سبق. وتضمن أحد المشروعات التي تنفذها الشركة مد طريق جديد بين المسجد الحرام وأحد القصور، وتطلب المشروع هدم المباني في حي مكتظ بالسكان من دون استخدام أي ديناميت. وتولى أسامة الأمور الهندسية التفصيلية التي تضمنت مواطن الضعف في المباني وكيف يمكن استغلالها لهدمها. وكان الخطيب يرى أن أسامة «بارع في إقامة العلاقات مع الجهات الحكومية المختلفة وحل المشكلات المعقدة». وكان أسامة يتعامل بسهولة مع المهندسين الأوروبيين والأمريكيين ويتحدّث معهم باللغة الإنكليزية بطلاقة. وكان بالطبع متحفظًا وشديد التدين، إلا أنه كان في البيئة السعودية شابًّا صاعدًا من شباب النظام الديني في مكة المكرمة[٢٩].

ذات يوم حضر سائق إلى الشركة وهو يرتعد وعرض على الخطيب كتابًا معارضًا للحكومة، وكان في الواقع منشورًا سريًّا ينتقد العائلة المالكة السعودية. وبالبحث في المكان الذي اكتشف فيه السائق المنشور وجدا ما يزيد عن مئة نسخة أخرى منه. وأثار ذلك رعب الخطيب وقال: «كنت أدركت وقتها أن هذا الأمر جزاؤه الحكم بالإعدام، ولم أرغب في أن تكون لي أدنى علاقة به». فاتصل بأسامة على الفور، وبعد أن استعرض أسامة صفحات الكتاب «ابتسم ابتسامته الشهيرة وهو يقلب الصفحات».

يتذكر الخطيب أنه سأله: «ألن تتصل بالشرطة؟».

رد عليه أسامة قائلًا: «لا، فلتتصل أنت بالشرطة».

اعترض الخطيب؛ حيث إنه لا يحمل الجنسية السعودية ومن ثَم سيكون عرضة للتحقيقات الأمنية التي ستتولى الأمر لا محالة. فناشد أسامة ليتصل هو في البداية بالشرطة، إلا أن أسامة رفض مرة أخرى وانطلق بسيارته مسرعًا. وبعد تردد شديد اتصل الخطيب بالشرطة ليبلغ عما اكتشفه،

(٢٩) المصدر: Randal, *Osama*, p. 64.
حيث يصف الخطيب أعمال الهدم التي تولاها أسامة وطريقة تعامله مع الأوروبيين والأمريكيين.

ووصل رجال الأمن و«لم يلحق بالخطيب أي ضرر». وغيرت تلك الحادثة مشاعره تجاه أسامة وقال بشأنها: «لم أعد أحبه بعد هذا الموقف»[٣٠].

كانت الأجواء السياسية للمملكة العربية السعودية تتسع وتزداد انتشارًا. ويبدو أن النموذج الإيراني أثبت أن أموال النفط قد تزيد من حدة الانشقاق والمعارضة بدلًا من التخفيف منهما. دفع الخوف فهد وإخوته إلى تسوية خلافاتهم سريعًا مع الإسلاميين في المملكة، وأخذوا يغدقون عليهم الأموال، ووافقوا على مطالب علماء الدين بتعزيز إجراءات الفصل بين الجنسين والرقابة على الإعلام. وأصبحت الثقافة والحياة العامة في المملكة أكثر تحفظًا، ومع ذلك لم يغير الفرع غير المتدين في العائلة المالكة أسلوب حياتهم وراء جدران القصور أو في العواصم الأوروبية.

ظلت الصلة وثيقة بين أفراد عائلة بن لادن بعد انتفاضة مكة، واتسعت الفجوة الثقافية بين الفرع المتدين والفرع غير المتدين في العائلة اتساعًا ملحوظًا خلال فترة السبعينيات، إلا أن قيادة سالم واستراتيجيته المتمثلة في التوفيق المتبادل والهبات المالية الوافرة التي أبقت على تماسك العائلة. وظلت هوية عائلة بن لادن ـ وثروتها ـ على حالهما من دون تغيير على الدرب نفسه الذي سار عليه محمد بن لادن بعد وصوله إلى جدة منذ نصف قرن مضى. والأهم من هذا وذاك، أنهم اعتمدوا على العائلة المالكة السعودية وخدموها بإخلاص شديد.

---

(٣٠) استنادًا إلى المقابلة التي أجراها الخطيب مع صحيفة **صنداي تايمز** بلندن بتاريخ ٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢م.

الفصل السادس عشر

مدينة الملاهي

بعد انتفاضة مكة سافر سالم جوًّا إلى نيويورك لإجراء عملية جراحية لإصابته بالبواسير. وكان قد أجّل هذه العملية لأعوام، ولكن عندما تفاقمت الإصابة ولم يعد يتحمل تأجيلها لأكثر من ذلك قرر إجراءها. حجز سالم عند جراح قلب وأوعية دموية يعمل في مستشفى نيويورك برسبتاريان، ولم تكن هذه العملية الجراحية البسيطة تتطلب مثل هذا المستوى من الكفاءة الطبية، إلا أن سالمًا ذكر أنه سوف يدفع له المال الوفير، كما قال إنه سوف يصور العملية الجراحية بالفيديو في سابقة هي الأولى من نوعها. اعترضت المستشفى إلا أن مسؤوليها سمحوا بأن يحضر أحد أصدقائه العملية وبصحبته كاميرا بولارويد للتصوير الفوتوغرافي. وبعدئذٍ صمم سالم شرائح متحركة لصور العملية وألف مقطوعات موسيقية مصاحبة. ولاحقًا عرض الصور في الحفلات وعلى أفراد من العائلة المالكة السعودية، بمن فيهم ولي العهد فهد[١].

خلال فترة النقاهة التي طالت بصورة مبالغ فيها فكر سالم مليًّا والقلق يسيطر عليه في احتمالية نشوب ثورة في المملكة العربية السعودية وحتمية

---

(١) عرفنا ما يتعلق بجرّاح القلب من مقابلة مع جيل Gail وروبرت فريمان Robert Freeman في السابع والعشرين من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٦م. أما عن كاميرا البولارويد، فقد ذكرت استنادًا إلى مقابلة أجريت مع جاك هينسون Jack Hinson في العاشر من شهر مايو/ أيار من العام ٢٠٠٥م. وفي ما يتعلق بعرض صور العملية على العائلة الملكية، فقد عرفنا ذلك من مقابلة أجريت مع محمد عشماوي في السادس والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني من العام ٢٠٠٥م.

تأثر شركات بن لادن بها. وأخذ يرتب الأمور المالية التي يمكن أن تساعد العائلة حال إجبارها على الخروج من الأراضي السعودية. وفي يوم ٢٣ من شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٨٠م أسس المحامون البنميون الذين يعملون لدى شركة بن لادن شركة ثانية على نمط شركة بينار، هي شركة ساوودين المتحدة، وتولى إدارتها إخوة سالم بن لادن الأكثر نفوذاً كما كان الحال في الشركة الأولى، وهم يسلم وبكر وعمر وطارق وحسن وخالد. وخلال هذه الفترة أخبر سالم أحد شركائه الأمريكيين في العمل، وهو روبرت فريمان، أنه كان قلقًا بشأن مستقبل العائلة «حال وقوع اضطرابات من أي نوع داخل المملكة العربية السعودية». وكان سالم يملك ضيعة في ريف لندن، إلا أنه أدرك ضرورة بناء مجمّع سكني أكبر يمكن أن يلوذ به كثير من أبناء محمد بن لادن في حالة الضرورة ويمكنهم الإقامة فيه معًا مع عائلاتهم، كما كانوا يقيمون معًا في جدة[٢].

عرض بنك وايت ويلد آند كو الاستثماري، الذي يتعامل مع النخبة ويقع مقره في بوسطن، على سالم شراء ضيعة «أوك تري فيليدج» في أورلاندو بولاية فلوريدا. وكانت الضيعة تضم قطعة هائلة من الأرض مقسمة إلى ٢٢٩ جزءًا ليبني عليها أفراد العائلة منازل منفصلة، إلا أن المشروع لم يكتمل على أرض الواقع؛ إذ إن الشركة التي كانت تمتلك ضيعة «أوك تري فيليدج» «كانت تعاني بعض المشكلات في السيولة النقدية» كما ذكر آرون داود الذي اشتراها لاحقًا، وعرضت الشركة قطعة الأرض للبيع مقابل مبلغ مادي وصل إلى ١,٩ مليون دولار أو ما يقرب من ٨,٣٠٠ دولار لكل قطعة. وقرر سالم شراءها ودفع قرابة ٣٨٠,٠٠٠ دولار نقدًا وتحمل دفع ديون والتزامات الشركة بباقي سعر الشراء. وكان ذلك أول استثمار عقاري كبير يقوم به في الولايات المتحدة الأمريكية. حجز سالم قرابة ستين قطعة أرض من ضيعة «أوك تري فيليدج» لعائلة بن لادن بحيث يحصل كل أخ وأخت شارك في الاستثمار على قطعتي أرض؛ ليقوم

---

(٢) أُخذت المعلومات المذكورة عن شركة ساوودين المتحدة ومديريها من مستندات قدمها للمؤلف السيد دوغلاس فرح Douglas Farah، ومن شركة ناين/ إيليفن فايندينغ أنسرز فاونديشن. وفي ما يتعلق باحتمال نشوب ثورة في السعودية، راجع: Robert Freeman, «The Saudi Connection» (unpublished manuscript).

بإنشاء منزل في إحداها ويستخدم الأخرى كفناء شاسع. واتخذ قرارًا بإنشاء شركات منفصلة لتعتني بشؤون ملكية كل فرد من أفراد العائلة، على أن تحمل كل شركة اسم زهرة، واشترى كتابًا عن الزهور وتصفحه ليختار الأسماء المفضلة لديه. وأعطى أسماء الزهور التي اختارها في مستهل الأمر إلى من هم أقرب إليه؛ والدته الصالحة وشقيقه غالب «الصغير» وشقيقته منى وأخوه غير الشقيق شفيق الذي يعيش حياة مستقلة، وأختيه غير الشقيقتين رجاء ورضا وبالطبع رندا. تخيل سالم أنه إذا ظلّ جميع أفراد العائلة بخير في المملكة العربية السعودية، سوف تتجمع عائلة بن لادن بين الحين والآخر في ضيعة «أوك تري فيليدج» في الإجازات ليقضوها معًا بالقرب من منتجع والت ديزني وورلد المجاور. وإذا تفككت المملكة السعودية لأي سبب من الأسباب، سيكون لديهم ملاذ آمن بجانب مملكة أخرى هي متنزه السحر أو ماجيك كينغدوم[٣].

فضّل سالم مدن الملاهي التي تقع في مدينة أورلاندو الأكثر مدنية على مدينة بالم بيتش المفضلة لدى بعض أفراد العائلة المالكة. وتولى سالم تأجير السيارات الليموزين وإعداد جلسات التدليك للأمراء الذين يزورونه في مدينة بالم بيتش، إلا أنه كان سرعان ما يغادرها بعد تلك الزيارات، ويبدو أنه كان ينفر منها بسبب تظاهر أهلها بأفضليتهم اجتماعيًّا عليه، إذ كان يسخر من المتكبرين. وذات مرة أخذ رجل أعمال أمريكي رشفات من زجاجة خمر ثم أعادها مرةً أخرى إلى النادل بتعجرف. فاستأذن سالم وتسلل إلى المطبخ وطلب من النادل أن يصب الخمر الذي اعترض عليه الرجل في زجاجة جديدة. وعندما قُدم لرجل الأعمال هذه المرة، أبدى الرجل رضاه؛ إلى أن أعلن سالم عن الخدعة التي دبرها[٤].

---

(٣) وردت المعلومات المتعلقة بمشاكل السيولة النقدية التي كانت تعانيها الشركة التي كانت تملك ضيعة «أوك تري فيليدج» في مقابلة تلفونية مع آرون دود Aaron Dowd في الثالث عشر من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٦م.

وفي ما يتعلق بثمن الضيعة وشروط العقد، راجع: «The Saudi Connection,» ibid

جاءت المعلومات المتعلقة بكتاب الزهور وأول من تسلّم البيوت من أفراد العائلة في مقابلة مع جيل وروبرت فريمان المذكورين سابقًا.

(٤) جاء ذكر خدعة الخمر في مقابلة مع أنور خان في السادس من شهر مايو/ أيار من العام ٢٠٠٦م.

حتى ذلك الحين كان سالم يدرك أن عملاءه من العائلة المالكة تواقون إلى الاستمتاع بالحياة على مستوى أرقى من المستوى الذي اختاره لنفسه بصفة عامة. لذا طلب سالم في عام ١٩٨٠م، مع الشروع في الإنشاءات في «أوك تري فيليدج»، من أحد شركائه البحث عن قصر فخم في أورلاندو ليكون مناسبًا ليستأجره أي أمير سعودي يرغب في قضاء إجازته في المنطقة. ولم يكن أمامهما أي خيار مطروح في الأسواق، ولكن بعد بذل بعض الجهد عثرا على رجل أعمال ثري يُدعى ميلر ماكارثي، وكان هذا الرجل يقيم في ضيعة تمتد على مساحة عدة فدادين وتطل على بحيرة جونز التي تقع غرب أورلاندو ولا تبعد كثيرًا عن منتجع ديزني وورلد. وكان منزله الرائع الذي يتوسط أسوار الضيعة قد بُني في منتصف العشرينيات على نمط المنازل المبنيّة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وكان من بناه في الأساس كيميائيًا يُدعى برات، قيل إنه جمع ثروته من براءات اختراع المواد المجمدة المستخدمة في حلوى الـ جلو وكان برات يتمتع بذوق رائع؛ إذ اشترى خامات جيدة وكلف المتخصصين ببناء ممرات مقنطرة وديكورات أخرى ذات تفاصيل رائعة. وكان المرج الخلفي ينحدر من حمام السباحة ليتجه نحو أشجار الصفصاف متهدلة الأغصان وبساتين النخيل بجانب البحيرة. وفي السنوات اللاحقة تدهور حال الضيعة، إلا أن ماكارثي وزوجته اشترياها خلال أوائل السبعينيات وأنفقا زهاء ٦٠٠,٠٠٠ دولار وبذلا مجهودات مضنية حتى تستعيد رونقها وبهاءها(٥).

وفي مقابل مبلغ كبير من المال، وافق مالك الضيعة وزوجته على الخروج مؤقتًا منها لدى وصول أصدقاء سالم من العائلة المالكة. وأحاط السعوديون الضيعة برجال أمن تدربوا لدى الاستخبارات الأمريكية المركزية، أو هكذا أخبر سالمٌ ماكارثي، وذكر الأخير أنهم تركوا المكان

---

(٥) وردت المعلومات المذكورة حول تاريخ ونتر غاردن Winter Garden وديزيرت بير Desert Bear في حوار عبر الهاتف مع رود ريفز Rod Reeves المدير السابق لمتحف ونتر غاردن هيريتيج Winter Garden Heritage Museum. وقد أجري حوار في السابع من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٦م، ووردت هذه المعلومات أيضًا في مقابلة أُجريت مع جولي بتلر Julie Butler مدير متحف التراث Heritage Museum، في السادس من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٦م. أما ما ذُكر حول شراء ماكارثي لديزرت بير وإعادة ترميمها، فقد جاء في حوار تلفوني مع ميلر مكارثي Miller McCarthy في العاشر من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٦م.

في حالة يُرثى لها، ولاحقًا قدّم إليهم فواتير تُقدر بمبلغ ٢٥,٠٠٠ دولار. ومع ذلك ذكر روبرت فريمان أن «الأمير استمتع بإقامته وكان ذلك خبرًا رائعًا» بالنسبة إلى سالم الذي سريعًا ما طلب ـ بطريقته «المتهورة» ـ إلى ماكارثي شراء الضيعة بأكملها. وذكر فريمان أن سالمًا كان يظن أن بإمكانه استغلال المكان «في إقامة مراسم الاستقبال السخية لزواره من المملكة العربية السعودية»[٦].

عندما أوشكا على التوصّل إلى اتفاق، اتصل سالم بماكارثي من سنغافورة في منتصف الليل للمساومة على السعر. وقال له إنه يريد الحصول على كل شيء في المنزل؛ الملاءات وأكياس الوسائد وسيارة الشيفروليه الخاصة بماكارثي التي لفتت نظر سالم لأنها تحتوي على هاتف بداخلها. وعندما اتفقا على البنود كافة ـ ويتذكر ماكارثي هنا أن السعر الإجمالي كان أقل من ٢,٢ مليون دولار ـ أرسل سالم إليه مندوبًا بحوزته حوالة مصرفية بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار. وأُبرم العقد في شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٨٠م. وأسس المحاسبون الذين يعملون لدى سالم في نيويورك، في شركة برايس ووترهاوس، شركة ليبيرية لشراء الضيعة وتملّكها، كجزء من استراتيجية سالم الدولية للتهرب من الضرائب في ما يبدو. وأطلق سالم على هذه الشركة القابضة التي تقع في الخارج اسم ديزرت بير المحدودة. ومن هذا الوقت فصاعدًا، أصبحت ضيعة أورلاندو معروفة باسم «ديزرت بير»[٧].

كان الجيران الذين يسكنون المناطق الواقعة حول بحيرة جونز يشاهدون باستغراب وتعجُّب سالمًا وضيوفه من العائلة المالكة وهم يحولون

---

(٦) جاءت المعلومات المذكورة حول حديث سالم مع مكارثي في الحوار الهاتفي مع مكارثي، المرجع السابق.

(٧) جاء ذلك في الحوار الهاتفي المذكور آنفًا مع مكارثي، المرجع السابق. وفي ما يتعلق بتاريخ إتمام البيع، راجع سجلات عقارات مقاطعة أورانج كاونتي Orange County، وتُظهر هذه السجلات أن سعر الشراء كان ١,٦١ مليون دولار. ولكن مكارثي أخذ سعرًا أعلى من ذلك، فربما تضمن البيع أجزاءً من الأراض المتاخمة. وتُظهر سجلات مقاطعة أورانج أن ضيعة ديزرت بير المحدودة والشركة الليبيرية قد اشتريتا سند ملكية العقار الرئيس الذي يقع في ١٧٩٢٠ ويست كولونيال. أما في ما يتعلق بتنظيم شركة برايس ووتر هاوس للشركة الليبيرية فقد جاء في لقاء مع روبرت فريمان المذكور آنفًا.

المكان إلى مدينة ملاهي خاصة؛ إذ كانت المناطيد ترتفع في الهواء فوق المروج وتحلق في سماء أورلاندو. وكانت طائرات الهليكوبتر تشق طريقها بين أشجار النخيل وهي تهبط داخل الأسوار لينزل منها الضيوف في ملابسهم الرسمية وحقائبهم معلقة في سواعدهم متجهين إلى المنزل الرئيس. وكان سالم يتعامل مع جيرانه بود ولطف وترحيب، وحاول أن يجعل الحفلات التي يقيمها في المنزل تحت السيطرة، إلا أن ضيوفه من الرجال والسيدات كانوا يتخطون حدود اللياقة أحيانًا. وقال أحد الجيران وكذلك ماكارثي: «كان ضيوفه يدخنون الماريجوانا علنًا»[(٨)].

عندما كان إخوة وأخوات سالم يزورون ضيعة ديزرت بير بصحبة أطفالهم، تهدأ الأمور بصورة ملحوظة. وحوّل سالم أحد المباني الملحقة بالمنزل الرئيس إلى حظيرة للطائرات شديدة الخفة. وعيّن طيارًا أمريكيًّا من تكساس يُدعى بات ديغان لمراقبة أسطول طائراته. وفي يوم من الأيام سار ديغان إلى المنزل الرئيس ووجد سالمًا جالسًا على أريكة في غرفة المعيشة، وكان لا يزال في ملابس النوم ومعه مجموعة كبيرة من أطفال عائلة بن لادن، وكانت أعمار جميعهم أقل من اثني عشر عامًا، وقد اصطفوا أمامه. وكان بحوزته مقدار كبير من الأوراق النقدية فئة المئة دولار، وأخذ ينادي على الأطفال معطيًا كلًّا منهم ورقة نقدية واحدًا بعد واحد. شاهد ديغان الأمر لبرهة ثم سأله: «عذرًا، هل يمكنني أن أقف في الصف؟»[(٩)].

في ذلك الوقت كان سالم قد اشترى طائرة مائية ووضعها في أمريكا واستخدمها في الرحلات الترفيهية العائلية في فلوريدا وتكساس. وكان سالم وغالب من بين الأفراد الأكثر نشاطًا في الطيران في العائلة خلال هذه السنوات. فكانا ينطلقان سريعًا محلّقين فوق بحيرة جونز وبجوار بساتين البرتقال على متن الطائرات شديدة الخفة، بل كانوا يجرون الطائرة المائية جرًّا إلى البحيرة للإقلاع والسير بها على سطح الماء. وكان غالب «الأخ الأصغر» أكثر تديّنًا من سالم آنذاك، إلا أنه كان لطيفًا ومغامرًا،

---

(٨) هذه المعلومات مأخوذة من مقابلات مع أربع من الجيران القدامى الذين طلبوا عدم ذكر أسمائهم، ومن حوار تلفوني مع ماكارثي.

(٩) ذُكر ذلك في مقابلة مع بات ديغان Pat Deegan في الثامن من شهر سبتمبر/أيلول من العام ٢٠٠٥م.

وكان لديه عائلة كبيرة من الأطفال الصغار الذين كانوا يستمتعون بشدة بديزني وورلد.

كان التحليق بالطائرات شديدة الخفة من المرج الخلفي لديزرت بير يتطلب بعض المناورات خلال الإقلاع والهبوط. إذ كان هناك ممر منزلق شديد الضيق بين أشجار البرتقال وخطوط الكهرباء. واستطاع غالب الطيران بالفعل مرات كثيرة من دون حدوث أي مكروه، إلا أنه ذات يوم انجرف بالقرب من خطوط الكهرباء، وتعلق محرك الطائرة بأحد هذه الخطوط فانقلبت الطائرة وتحطمت.

كُسر ظهره إلا أنه كان محظوظًا إذ لم يتعرض لإصابة خطيرة مستديمة ولم يصب بالشلل، إلا أنه ظلّ في المستشفى من دون حركة لبعض الوقت، ثم قضى فترة النقاهة في ديزرت بير. وكان ذلك أحد الحوادث المهمة الأخرى في تاريخ عائلة بن لادن في مجال الطيران، ولكنه لن يكون الأخير[١٠].

أنشأ سالم شركةً يقع مقرها في برج أوليمبك تاور في شارع فيفث أفينيو في وسط مدينة مانهاتن. وكان شريكه الأمريكي هو روبرت فريمان، المصرفي السابق في مجال الاستثمارات الذي كان والده صديقًا للملك فيصل منذ عقود مضت. تقابلت جيل زوجة فريمان مع شيخة زوجة سالم في مقصورة الدرجة الأولى في رحلة جوية تجارية من لندن إلى جدة، ومنذ ذلك الوقت تحوّلت العلاقة إلى صداقة حميمة بين الأسرتين، واستمرت حتى بعد طلاق سالم وشيخة. طلب سالم إلى فريمان أن يعمل لديه مستشارًا ماليًّا شخصيًّا، واقترح فريمان بدلًا من ذلك أن يؤسسا شركة قابضة في نيويورك للقيام باستثمارات في أمريكا. وأطلقا على شركتهما المسجلة في ولاية ديلاوير اسم شركة أماركو التي تشير حروفها الأولى إلى الشركة الأمريكية العربية. استحوذ كل من سالم وخالد بن محفوظ على ٨٠

---

(١٠) المرجع السابق.

وقد وصف عدد من الأصدقاء الآخرين وموظفي آل بن لادن حادثة غالب إلا أن ديغان الذي كان يحلق بالطائرات الخفيفة فوق ضيعة ديزرت بير والذي زار غالب في المستشفى بعد الحادثة قد ذكر أدق رواية عن تلك الحادثة.

في المئة من أسهم الشركة مناصفة، بينما كانت العشرون في المئة المتبقية من نصيب فريمان. وكان فريمان يأمل أن تحقق الشركة أرباحًا طائلة من خلال المشروعات الطموحة التي يمكن تنفيذها في مجال الاستثمار العقاري التجاري، واكتشف أن فكر سالم العملي لا يميل إلى الأسهم والأصول غير الملموسة بصفة عامة(١١).

عرّف فريمان سالمًا بدونالد ترامب. وكانت عائلة بن لادن تمتلك قطعة أرض خاوية بالقرب من أحد القصور الملكية في الرياض، وظن فريمان أن قطعة الأرض تعد «فرصة رائعة لدونالد ترامب ليبني عليها أحد مبانيه التي سُميت على اسمه، مثل برج ترامب في نيويورك». وعندما تقابلوا في مكتب ترامب، أخبر متعهّد البناء سالمًا أنه شديد الاهتمام، بالأمر إلا أنه يشترط الحصول على مبلغ ٢٥,٠٠٠ دولار نقدًا بالإضافة إلى تذكرتين إلى الرياض له ولزميل في مقاعد الدرجة الأولى. وذكر فريمان أن ترامب أوضح لهم أنه لا يميل إلى إنفاق الأموال على «مغامرات استكشافية في أماكن نائية» لأنه يخشى على سمعته العملية، ولكن ترامب استطرد قائلًا إنه في حالة موافقة سالم على دفع الـ ٢٥,٠٠٠ دولار، فإن ذلك سيثبت أنه جاد في إتمام الصفقة. رفض سالم وقال إن الناس يتكالبون لعقد صفقات مع شركات بن لادن، ولسنا في حاجة إلى دفع أي أموال لاجتذاب الشركاء. وقال فريمان آسفًا إن الاجتماع انتهى عند هذا الحدّ، إلا أنه لاحظ أن كان لكلٍّ من سالم وترامب «شخصية قوية جدًّا، ولم يكن بينهما سوى القليل من الأخذ والرد»(١٢). وأنكر المتحدّث الرسمي عن ترامب حدوث هذه المناقشة، وعندما طُلب إليه مراجعة المصادر التي استقى منها المؤلف أحداث هذا الاجتماع، لم يرد.

كان فريمان يحاول إقناع شركائه السعوديين بأفكار استثمارية واحدة بعد أخرى، إلا أن سالمًا نادرًا ما كان يبدي اهتمامه بهذه الأفكار. وبدا كأنه يعتبر عملية مانهاتن برنامجًا تسويقيًّا لا أكثر. وعندما كان في نيويورك كان الشيء المهم لديه التوجه جنوبًا إلى الشارع ٤٧، حيث كان يبذل

---

(١١) ورد ذلك في مقابلة مع جيل وروبرت فريمان المذكور سابقًا.

(١٢) كل الاقتباسات المذكورة هنا مأخوذة من المرجع التالي: The Saudi Connection.

جهوده في المساومة على أسعار المجوهرات والأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية مع اليهود المتشددين الذين يملكون عددًا من متاجر البيع بالتجزئة في المنطقة، واشترى حقائب مليئة بالعقود والأقراط الماسية للأمهات والأخوات في عائلة بن لادن في المملكة العربية السعودية. وعلى الرغم من أن السياح السعوديين كانوا يختالون أمام محال مجوهرات تيفاني، وهم فخورون بدفع السعر المعلق على المجوهرات وحمل حقيبة تيفاني الدالة على الشراء منه على نحو استعراضي، فإن سالمًا كان رجلًا عمليًّا «يبحث عن الصفقات» كما قال فريمان. كان سالم يعشق المساومة مع الباعة اليهود المتشددين الذين يبيعون مجوهراتهم بالتجزئة، إلا أنه كان يخشى الخسارة، ولذا أمر فريمان بالبحث عن مثمِّن يستطيع فحص قطع بعينها من المجوهرات ويقدر المبلغ المالي الذي ينبغي دفعه. ووجد فريمان مثمنًا إيطاليًّا لديه شركة في الطابق الثاني في الشارع ٤٧ لينقل إليه المجوهرات التي أعطاه إياها عن ثقة ملاك المحال الموجودة في الطابق السفلي. ومع ذلك، لم يكن متأكدًا على الإطلاق ممّا إذا كان المثمن يتعاون سرًّا مع تجار المجوهرات. ولم يحدث هذا الأمر فارقًا كبيرًا؛ إذ إن سالمًا كان يستمتع بالمفاوضات أكثر من استمتاعه بالنتائج. وكان مقتنعًا بالأفكار السائدة والمضادة للسامية التي تشير إلى أن اليهود أكثر مساومي العالم مكرًا، ويبدو أنه اعتبر التسوق في محال اليهود عملًا بطوليًّا جسورًا[١٣].

كان سالم يتجوّل بين محال الإلكترونيات المجاورة بحثًا عن أحدث الهواتف النقالة والآلات الحاسبة والكاميرات وأجهزة تشغيل الموسيقى والتلفزيونات متناهية الصغر، وكان يشتري من هذه المنتجات كميات هائلة. وتذكر جيل فريمان أنه كان «يشتري المئات من هذه المنتجات للأمراء». وكان يمشي في الممرات بين المحال ويحدق النظر في المعروضات من خلف الزجاج ويبدو كمن يسألها أن تفصح له عن الحقيقة: «هل هذه المنتجات حديثة؟ لم يرها أحد قط، أليس كذلك؟» وشأنه شأن مندوب المبيعات الذي يستغل الوسائل كافة لكسب ثقة العملاء، استغل سالم

---

(١٣) ذُكر ذلك في مقابلة مع فريمان المذكور سابقًا.

سهولة تحركه وخبرته في السلع الاستهلاكية الأمريكية للحصول على الأجهزة التي يمكنه استخدامها عند العودة إلى المملكة العربية السعودية ليفوز بحظوة عند الأمراء(١٤).

اشترى خالد بن محفوظ شقتين في برج أوليمبك، إلا أنه كان هو وسالم يفضلان عادة الفنادق وما تقدّمه خدمة الغرف فيها من وسائل الراحة. وعندما يزوران نيويورك، كانا يقيمان بصفة أساسية في فندق هلمسلي بالاس أو فندق بلازا. وأقام سالم حفل عيد ميلاد رندا الثامن والعشرين في فندق بلازا الفاخر. ولأنه لم يكن لديه معارف كثيرون في المدينة طلب إلى فريمان وزوجه ملء قاعة الاحتفال الخاصة بأناس من أصدقائهما من الحي في ضاحية لونج آيلاند المجاورة. وغنى سالم أغانيه الشعبية المبتذلة المعتادة التي تدرب عليها، إلى جانب أغاني رأس السنة. ويتذكر فريمان قائلًا: «كنا كالدمى في يده يفعل بنا ما يشاء». وأحبطه عدم اهتمام سالم بالمشروعات التجارية الطموحة ولكن لا يفيد الندم بعد أن ترك عمله في بنك استثماري كبير.

ومع ذلك حاول فريمان أن يعيش الحياة التي يعيشها شريكه. وذات مرة أمر سالم فريمان وشريكًا إيطاليًّا له في إحدى رحلاته إلى جدة بالنزول من السيارة الجيب ليلًا في وسط الصحراء. وانطلق سالم بالسيارة تاركًا كليهما في الصحراء، واضطر فريمان وزميله إلى شق طريقهما بصعوبة شديدة على الرمال إلى أن وصلا إلى الطريق، ثم أوقفا سيارة للذهاب إلى جدة. وعندما عادا كان سالم مستهترًا بالأمر، ويبدو أنه اعتبر مزحته دعابة مضحكة من ناحية، واختبارًا لشجاعتهما وقدرتهما على المقاومة من ناحية أخرى، وانتظر فريمان بفارغ الصبر لينتقم من سالم. وفي إحدى الليالي في نيويورك، بينما كانوا جميعًا يتناولون العشاء في أحد المطاعم مع رندا، اكتشفوا أن سالمًا نسي حافظة نقوده وأنه لا يملك أي مال. وعلى الفور، انطلق فريمان بالسيارة إلى حي هارلم وأجبر سالمًا على النزول من السيارة وانطلق مسرعًا. خشيت رندا من عدم قدرة سالم على العودة، إلّا أنه سريعًا ما حضر إلى الفندق الذي تقطنه ومعه صديقان أمريكيان جديدان من ذوي

---

(١٤) كل الاقتباسات المذكورة هنا مأخوذة من مقابلة مع جيل فريمان المذكور آنفًا.

البشرة السمراء. وبالطبع بدت عليه أمارات السرور وقال: «إنك تتمتع بروح الدعابة حقًّا يا رفيقي»[١٥].

كان فريمان في حاجة إلى الانتقام. كثيرًا ما كان سالم يفتقر بشدة إلى الأموال النقدية حتى إن فريمان كان يضطر إلى الاتصال به في جدة ليلة تلو الأخرى ليستجديه لإرسال التحويلات البنكية قائلًا له: «سالم! ليس لدينا أي أموال نقدية، وهناك من ينتظر تحصيل المال منا وعلينا دفع الإيجار. . . ماذا عسانا نفعل؟ أي باب سنطرق؟» ولا يأتي سالم في أحيان كثيرة إلا بمبالغ مالية صغيرة بالكاد تكفي احتياجات الشركة، «ولكن لا يحدث ذلك دائمًا إلا في اللحظة الأخيرة». لم يكن فريمان يعي أبعاد الموقف جيدًا، فعلى الرغم من تمتع شركات بن لادن في جدة التي يسيطر عليها سالم حينئذ سيطرة كاملة بتدفقات نقدية ثابتة، فإن هذه الأموال كانت لها كثير من الأبواب، مثل الموظفين وأجور المعدات وأقساط القروض ومصروفات أفراد العائلة، حتى إن سالمًا نفسه لم يكن قادرًا على أخذ هذا المال واستغلاله في تنفيذ المشروعات الشخصية بسهولة. إضافة إلى أن المستحقات المالية المتأخرة المفترض أن تدفعها العائلة المالكة إلى شركات الإنشاءات التي يملكها مثلت عائقًا إضافيًّا أمام توفير السيولة. ولكن بدا أن تلك العوامل لم تثبط رغبات سالم في الحصول على المزيد من الطائرات النفاثة الخاصة والعقارات في الخارج، بل أدّت إلى تزايدها بمرور الأعوام. وخلال أوائل الثمانينيات شهدت أسعار النفط انخفاضًا ملحوظًا، إلا أن ذلك لم يغير ظاهريًّا أسلوب الحياة التي يعيشها سالم. بل إنه شرع في اتباع نمط حياة جديد حسبما ذكر فريمان والشركاء والموظّفون الآخرون. وعندما كان سالم يريد أموالًا كان «يضطر إلى اللجوء إلى خالد بن محفوظ» وفقًا لما ذكره فريمان[١٦].

كان كلاهما في المرحلة العمرية نفسها وصديقين مقربين ووريثين لثروة عائلتيهما اللتين تنتميان إلى أصول حضرمية، وكانا يتمتعان بقدرة على التكيف مع الضرورات الدولية التي فرضتها الطفرة النفطية. عندما بلغ

---

(١٥) الاقتباسات الواردة هنا مأخوذة من مقابلة مع فريمان المذكور سابقًا.

(١٦) المرجع السابق.

سالم وخالد الثلاثين من العمر وتوليا مسؤولية إرثهما، كان لكل منهما شخصيته المتناقضة مع الآخر بكل وضوح. وعندما كانا يسافران معًا على طائراتهما النفاثة الخاصة، ربما كان سالم يمزح ويأخذ رشفات من الشامبانيا ويعزف على الغيتار، بينما كان خالد يجلس صامتًا في هدوء ويحتسي الشاي أو يدخن النارجيلة. وكان ينأى بنفسه عن الانخراط في الحفلات الصاخبة التي يقيمها سالم للأمراء السعوديين المتحررين، وبينما بدا مستمتعًا بصحبة سالم رغم سلوكياته المشينة، فإنه كان يراقب صديقه في أحيان كثيرة بهدوء شديد أو يرسم على وجهه ابتسامة تعجب رقيقة فحسب. وقال عنه أحد الموظفين الذي قضى عدة ساعات مع الرجلين إنه كان «رجلًا هادئًا ووقورًا للغاية وشديد التحفّظ وكان كثير التأمل». واستطرد: «وأظنه كان يستمتع بجرأة سالم في قول أو فعل أي شيء، وأظن أنه عاش حياته معتمدًا على سالم واستمتع بأسلوبه في الحياة»[١٧].

ذكر موظف آخر عن خالد أنه كان «سعيدًا بتفويض سالم بكل شيء». وهذا يعني أيضًا أن خالدًا تكيّف مع أفكار سالم الغريبة في ما يتعلق بتوقيت إنفاق أمواله وكيفيته. وذات مرة بينما كان بن لادن وابن محفوظ في رحلة إلى كاليفورنيا، رتب كلاهما لأن يتقابلا في مدرج الطيران الخاص في مطار لوس أنجلوس الدولي. وشاهد مساعدو خالد في أثناء انتظارهما مطرب موسيقى الريف كيني روجرز لدى وصوله إلى المدرج الخاص على متن طائرة نفاثة خاصة وركوبه هو وحاشيته أسطولًا من سيارات الليموزين. ووصل سالم في سيارة أجرة رخيصة ولوّح لخالد ليجلس على المقعد الأمامي للسيارة وغادرا سريعًا تجاه الطريق السريع. ويتذكر هذا الموظف قائلًا: «لم يعرفهما أحد ولم يهتما بالأمر»[١٨].

نظر بعض زملائهما الأمريكيين والأوروبيين إلى أن الصداقة القائمة

---

(١٧) ورد ذلك في مقابلة مع أحد الموظفين السابقين لدى ابن محفوظ، وقد طلب هذا الموظف عدم الإفصاح عن اسمه. وعندما سُئِل محامو ابن محفوظ عما ذُكر في هذا الفصل حول حياة ابن محفوظ ونشاطاته التجارية فقالوا إنه ليس من عادته أن يعلّق على أخبار عائلته الشخصية أو علاقاتها التجارية وإنه لن يفعل هذا في هذه الحالة.

(١٨) ورد ذلك في مقابلة مع موظف آخر سابق لدى ابن محفوظ وقد طلب عدم الإفصاح عن هويته.

بين سالم وخالد وعلاقة العمل بينهما معقدتان إلى حدّ بعيد، وفيما يتعلق بالأمور المالية، كان خالد الشريك صاحب اليد العليا بكل وضوح إلا أن سالمًا هو من استطاع التواصل بسهولة وبأسلوب غير رسمي مع فهد وسائر أفراد العائلة المالكة، وبسبب كياسته وحماسته كان تأثير سالم في أوساط الرياض يفوق كثيرًا حجم حساباته المصرفية. وكان أحد شركاء سالم الأوروبيين ممن كان على صلة بالرجلين يظن أن خالدًا يشعر باستياء مكبوت بسبب تهميش دوره. ولكن الحقيقة أن بعض شركاء ابن محفوظ وموظفيه كانوا يعتبرونه لغزًا غامضًا، ورجلًا مليئًا بكثير من التناقضات.

كانت ثروته هي أقل تلك الحكايات تعقيدًا؛ ففي بداية الثمانينيات كانت ثروته واضحة للجميع. إذ ارتبط سالم بعلاقة صداقة مع هاري وينستون، تاجر المجوهرات الشهير في نيويورك، ومن خلاله دُعي هو وخالد إلى صالة عرض محل «هامرمان وإخوانه» لتجارة المجوهرات وبيعها بالجملة في مانهاتن. اختار خالد بعض قطع المجوهرات المبهرة وباهظة الثمن وأخذ بيرني هامرمان روبرت فريمان جانبًا وطلب إليه، وهو يشعر بالإحراج قبل أن يخرج بقطعة المجوهرات، أن يسأل خالدًا أن يرشح له مرجعًا ائتمانيًّا. اقترح خالد اسمين وفقًا لما ذكر لنا فريمان: بين لاف، رئيس بنك تكساس التجاري في هيوستن، وتوم كلوزن رئيس مجلس إدارة بنك أوف أمريكا في سان فرانسيسكو. فاتصل قسم الائتمان في محل هامرمان بكلوزن الذي قال إنه مفوض بتسديد أي شيك لخالد بن محفوظ بسقف ائتمان يصل إلى ٥٠ مليون دولار. ويتذكر فريمان قائلًا: «وأثار ذلك المبلغ جلبة هائلة في صالة العرض»[١٩].

كان ابن محفوظ يقضي معظم أوقات إقامته في أمريكا في منطقة هيوستن. وقابل سمسار الطائرات جيم باث في الوقت نفسه الذي قابله فيه سالم تقريبًا، ومن خلال باث والشركاء الأمريكيين الآخرين، اشترى خالد عدة طائرات نفاثة خاصة وعقارات. واشترى مزرعة خيول كبيرة في

(١٩) بخصوص التسوق في متجر هامرمان وإخوانه Hammerman Brothers، راجع: «The Saudi Connection».

وقد ذكر محامو ابن محفوظ أنه لم يبدِ أي تعليق على ما حدث.

ضواحي هيوستن وقصرًا في حي ريفر أوكس الذي عاش فيه أباطرة النفط ووكلائهم ممن أنفقوا أموالًا طائلة على تشييد البيوت الريفية المبنيّة على النمط السائد في الفترة السابقة للحرب، والمباني ذات الأعمدة المبنيّة على نمط المباني التي شُيدت في عهد الملك جورج الخامس البريطاني. وتقع ضيعة ابن محفوظ، التي تقع على طريق ويلوويك ٣٨٠٠، على مقربة من منزل جيم باث المتواضع نسبيًّا الذي تظلّله أشجار الصنوبر. وكان منزل خالد الرئيس الذي يسكن فيه شبيهًا بقصر فيرساي، واشتمل في المؤخرة على حمام سباحة تتوسطه قطعة أرض تشبه الجزيرة يمكن بلوغها بجسر مشاة. وأطلق باث على المنزل «البيت الكبير»، حسبما ورد عن شريكه بيل وايت. فتح خالد أبواب الضيعة وغرف الضيوف الملحقة بها على مصراعيها لعائلة بن لادن. وكانت أخوات سالم يزرن المكان ويستمتعن بتسلق الأشجار المتناثرة على المساحات الشاسعة من الأراضي. وكان خالد وسالم يقيمان الحفلات لأشراف تكساس ممن كان لهم دور في تنشيط استثمارات ابن محفوظ في أمريكا بل إدارتها. وفي مرحلة ما خلال هذه الفترة لاحظ خالد أن حافلات الرحلات كانت تقف على طريق ويلوويك أمام ضيعته وتساءل: «لم دأب هؤلاء الناس على الوقوف في هذا المكان؟» وأوضح له أحد موظفيه أن منزله أصبح الآن على خريطة المعالم السياحية لحي ريفر أوكس. فقال له وملامح الجدية المفرطة ترتسم على وجهه: «عندما يأتون المرة القادمة ادعهم لتناول الشاي»[٢٠].

قال اثنان من الموظفين الذين يعملون لدى خالد أن جون كونالي كان يسافر على متن الطائرات النفاثة الخاصة بابن محفوظ خلال حملته الرئاسية عام ١٩٨٠م. وسافر معه أيضًا قطبا النفط نيلسون وبانكر هنت، وحاولا جذب ابن محفوظ إلى مشروعهم سيئ الحظ الهادف إلى احتكار سوق الفضة العالمي، وذكر أحد الموظفين شكوى خالد من خسارته المادية في هذه المشروع. وعلى النقيض من سالم، كان خالد يراقب الأسواق المالية

(٢٠) أُخذت هذه المعلومات من تفريغ نصي لمقابلة وايت White مع المؤسسة الكندية للبث الإذاعي، وقد أكد وايت دقة التفريغ في حوار عبر الهاتف. أما في ما يتعلق بتعجب خالد من وقوف حافلات الرحلات أمام ضيعته، فقد أُخِذ ذلك من مقابلة مع اثنين من الموظفين السابقين عند ابن محفوظ وقد طلبا عدم ذكر اسميهما.

العالمية ووجه استراتيجياته الاستثمارية نحو المعادن النفيسة والعملات الصعبة وغيرها من الأدوات المالية المتقلبة. وكان مستشاروه شديدي الحنكة في المجال المالي، وكان لبعضهم اتصالات رفيعة المستوى مع الأطراف المعنية بالسياسات الدولية، وفي هيوستن كان مكتب بايكر بوتس من مكاتب المحاماة التي تعمل لحسابه، وهو المكتب ذائع الصيت الذي كانت عائلة بوش توكله في قضاياها[٢١].

كان خالد أحد أبناء ابن محفوظ الكثيرين الذين شاركوا في إدارة البنك الأهلي التجاري لعائلته، وظل أبوه سالم الطاعن في السن يشغل منصب رئيس مجلس إدارته. أقحم خالد نفسه في التعاملات المصرفية الدولية وأصبح البنك الأهلي التجاري في عداد المؤسسات العالمية الضخمة. وفي عام ١٩٨٥م ذكر مسؤولون في البنك أن خزائنه تحوي ما يربو عن مليار دولار نقدًا أو ما يقابل المبلغ من سندات بالإضافة إلى ما يزيد عن ٦ مليارات دولار في صورة ودائع. ولكونه أكبر بنك في المملكة العربية السعودية، فمن المحتم أنه كان شديد الصلة بالعائلة المالكة والحكومة. وأحيانًا كانت الطائرات التابعة للبنك الأهلي التجاري تنقل رواتب شركة أرامكو التي كانت اتحاد النفط وقتئذٍ، وقال الطيار ديفيد غراي إن الطائرات كانت تحمل صناديق من الأموال النقدية الجديدة فئة المئة دولار وتنقلها من بنك الاحتياطي الفدرالي في دالاس. وكانت الطائرات التابعة للبنك الأهلي التجاري تنقل الوثائق والملفات إلى بغداد في أوائل الثمانينيات، وذكر الطيار غراي أن الطيارين الذين كانوا يسافرون على متن هذه الرحلات ظنوا أن هذه المهام كانت تهدف إلى دعم العلاقات السرية بين المملكة العربية السعودية وصدام حسين خلال المراحل الأولى من الحرب التي دارت رحاها بين العراق وإيران، وأيًّا كان دور هذه الرحلات فإنها دعمت السياسة السعودية لتعزيز موقف صدام

---

(٢١) وردت هذه المعلومات في المقابلة المذكورة في الحاشيتين ١٧، ١٨ والتي أُجريت مع اثنين من الموظفين السابقين. .وحول توجيه خالد لاستراتيجياته الاستثمارية، راجع: «Whose Rules?» in The Banker, November 1,1990.

وأما ما ذكر حول بايكر بوتس Baker Botts فهو مأخوذ من التفريغ النصي المذكور سابقًا لمقابلة وايت. وقد قال محامو ابن محفوظ أنه ليس لديه تعليقات على ذلك.

حسين وهو الاتجاه الذي عززته واشنطن. ولاحقًا اعترف فهد بأنه قدّم ٢٥,٧ مليار دولار في صورة مساعدات للعراق، وعملت المملكة أيضًا كجسر لنقل الأسلحة إلى العراق من الولايات المتحدة الأمريكية[٢٢].

كانت الشؤون المالية للبنك الأهلي التجاري معقدة، خاصةً لأن البنك اضطر إلى الاحتفاظ بمبلغ من الاحتياطي سرًّا لحمايته من آثار القروض التي ربما لا تُرد في المملكة العربية السعودية. إلا أن أرباح البنك وازدهاره المالي لم يكونا مطلقًا محل شك، ويبدو أن خالد بن محفوظ نفسه لم يواجه أي صعوبات في الحصول على مبالغ مالية نقدية هائلة. ويتذكر روبرت فريمان أن ابن محفوظ اعترض على أن بعض الاستثمارات العقارية التي اقترح القيام بها في المنطقة والتي بلغت ٥ ملايين دولار كانت صغيرة جدًّا بصورة لم تلفت انتباهه، وبالفعل، شرع ابن محفوظ بمنأى عن سالم في شراء أراض على نطاق واسع في أورلاندو فاقت مساحاتها مشروع «أوك تري فيليدج» الذي قام به سالم لخدمة العائلة فحسب. وفي مشروع أطلق عليه الاسم الحركي «مشروع ديبرا» نسبةً إلى نادلة كانت تقدم إليه المشروبات والطعام بينما كان يناقش العرض الخاص بالمشروع في أحد مطاعم أورلاندو. وفي سرية تامة اشترى ابن محفوظ ووكلاؤه أراضي بالقرب ممّا سيُطلق عليه لاحقًا مشروع «مترو ويست»، وهو مشروع تنموي تجاري طموح مقام على مساحة بلغت ١,٨٠٠ فدان. وسوف يصل سعر هذه الأراضي في نهاية الأمر إلى ما يقل قليلًا عن مليار دولار. وفي المعتاد كان خالد يسافر وبحوزته ١٠٠,٠٠٠ دولار أو ما يزيد في حقيبته، وفي نهاية إحدى الرحلات قال شريكه ريك بيترسون إنه كان يعطي ما يتبقى من المال

---

(٢٢) راجع: The Banker, Ibid.

أما ما ذُكر حول دولارات أرامكو ورحلات بغداد فهو مأخوذ من مقابلة مع ديفيد غراي David Grey في الحادي والعشرين من شهر فبراير/شباط من العام ٢٠٠٦م. وللمزيد حول إعانة العراق بـ ٢٥,٧ مليار دولار، راجع: Al-Rasheed, A History of Saudi Arabia, p. 157.

وللمزيد حول نقل الأسلحة الأمريكية إلى العراق، راجع: Clarke, Against All Enemies, p. 42

وقد ذكر محامو ابن محفوظ أنه ليس لديه تعليقات حول ذلك. وسالم بن محفوظ هو مؤسس البنك التجاري الدولي National Commercial Bank، وقد توفي والده في عام ١٩٩٤م. وقد ذكر محامو خالد أنه بحلول نهاية العام ٢٠٠٢م، سحبت عائلة ابن محفوظ آخر ممتلكاتهم من البنك الذي ظلّ على الرغم من ذلك أحد أكبر المؤسسات المالية في المملكة العربية السعودية.

أيًّا كان قدره - حتى وإن بلغ ٣٠,٠٠٠ دولار - إكراميات إلى موظفيه في المقر الرئيس في جدة(٢٣).

بالمثل كان سالم يسافر وحقيبته ملأى بعشرات آلاف الدولارات إلا أن حساباته المصرفية الرئيسة بدت في خطر. وفي الفترة التي اشترى فيها شركة ديزرت بير في أواخر الثمانينيات أخبر سالمٌ ميلر ماكارثي أنه شخصيًّا وشركات بن لادن يدينون إلى ابن محفوظ وبنكه بمبلغ مالي وصل إلى زهاء ٢٢٠ مليون دولار. وربما كان القدر الأكبر من هذا الدين يرجع إلى قروض مشروعات أو خطابات اعتماد كانت سوف تُرد على أي حال، ولكن من المؤكد أن سالمًا كان يعيش حالة من الاضطرابات المالية أصعب من خالد. ولم يكن روبرت فريمان هو الشريك الوحيد لسالم الذي كان يجد بين الحين والآخر عناءً في أخذ المال منه. وبعد الانخفاض الذي شهدته أسعار النفط، كان سالم يجد صعوبة في الوفاء بالمستحقات المالية حتى تلك التي تصل إلى مليون دولار فقط. وفي مرحلة ما تملص من شراء يخت وصل سعره إلى ٧٥٠,٠٠٠ دولار وادعى خلو رصيده المصرفي، حتى وإن كان ذلك ربما يؤدي إلى خسارة وديعة بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دولار، وفقًا لما ذكره صديقه الألماني توماس ديتريتش الذي كان يساعده في الشراء. وفي عام ١٩٨٤م ورد في السجلات العقارية لولاية فلوريدا أنه حصل على قرض بقيمة ٢٠٠,٠٠٠ دولار على مشروع ديزرت بير لأسباب مجهولة(٢٤).

كانت هذه المشكلات المعتادة تمر سريعًا، وظلّ سالم قريبًا من خالد

---

(٢٣) ما ذُكر حول المشاريع التي بقيمة خمسة ملايين دولار وأنها ضئيلة جدًا مأخوذ من المرجع الآتي: «The Saudi Connection,»

وقد ذُكرت المعلومات الواردة حول مشروع ديبرا في محاورة عبر الهاتف مع أندي بوغ Andy Pugh بمشروع مترو ويست في الثالث عشر من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٦م. أما ما ذُكر حول المئة ألف دولار نقدًا، والثلاثين ألف الإكرامية، فهي مأخوذة من المرجع الآتي: «Arabian Adventure,» Pittsburgh Post-Gazette, March 18, 2003.

(٢٤) أُخذت هذه المعلومات من محاورة عبر الهاتف مع ماكارثي السابق ذكره، ومن مقابلة مع توماس ديتريتش Thomas Dietrich في الثاني عشر من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٦م. وقد أُخذ الرهن من صن بنك Sun Bank في الرابع من شهر يونيو/ حزيران من العام ١٩٨٤م وأُعيد دفعه في الخامس عشر من شهر أغسطس/ آب من العام ١٩٨٨م وذلك وفقًا لسجلات مقاطعة أورانج كاونتي بولاية فلوريدا.

واستطاع توفير المبالغ النقدية اللازمة لشراء طائرة ليرجت Learjet تلو الأخرى ولو بالاقتراض. وعلى أي حال، كان من المستحيل في أحيان كثيرة تحديد متى يتصرف سالم في أمواله الخاصة ومتى يتصرف في مال الغير، بل بدا أن بعض الأموال النقدية التي كان سالم يستخدمها لا تنطبق عليها معايير النظام المصرفي الدولي. ويتذكر روبرت فريمان أن سالمًا طلب منه ذات مرة العثور على طريقة لإيداع مبلغ يتراوح من قرابة ٥ ملايين دولار إلى ١٠ ملايين دولار نقدًا في بنوك بشكل سري أو ما يُطلق عليه حديثًا غسيل الأموال. وقال فريمان إنه رفض لأنه لم يعلم قط مصدر الأموال التي أراد سالم غسيلها[٢٥].

كانت تلك نماذج من تعاملات سالم المالية في بداية الثمانينيات؛ إذ تميزت بامتدادها إلى ما وراء الحدود القومية ولكنها متصلة بأمريكا في المقام الأول، إضافة إلى أنها اتسمت بتعدد مصادرها والتعقيد والغموض أحيانًا. وهذه الصفات مجتمعة كانت من سمات الحرب المقنّعة التي دارت رحاها في أفغانستان وكانت على وشك تغيير مصير عائلة بن لادن وكتابة فصل جديد من فصول تاريخها.

---

(٢٥) ذُكِر ذلك في مقابلة مع روبرت فريمان المذكور سابقًا.

الفصل السابع عشر

في خدمة الملك

كانت توجهات سالم السياسية غامضة إن كانت موجودة من الأساس، فكل ما يريده هو إشباع رغبات العائلة المالكة وإذا وقع أصدقاؤه في أي ورطة يمدّ إليهم يد المساعدة. وبينما انهار لبنان خلال السبعينيات من تداعيات الحرب الأهلية، استدعى سالم العائلات التي كان يعرفها هناك إلى المملكة العربية السعودية ووفّر لهم الوظائف. وذات مرة أعطى أموالًا نقدية إلى صديق له قضى فترة من حياته في بيروت خلال الحرب الأهلية وقال له: «إنك تعرف ماذا ستفعل بهذه النقود». فأنفق صديقه المال في سبيل دعم العائلات المحتاجة «من السنة والشيعة والمسيحيين»[١]. وكانت هذه المخصصات الخيرية نابعة من شعور سالم بوجود هدف لها بعيدًا عن التوجهات السياسية. وكمواطن سعودي لم يكن سالم مناهضًا لدودًا للصهيونية؛ فقد اعتبر نفسه في المقام الأول أحد مهندسي جسور علاقات التقارب بين المملكة والولايات المتحدة الأمريكية، ولكن إن كانت تلك هي آراؤه الشخصية، فإنها توافقت مع آراء فهد الذي يُعد راعيه الأول على مستوى العائلة المالكة. لم يكن سالم مولعًا بقراءة الصحف، بل كان يقضي ساعات طويلة مستلقيًا في الفراش يشاهد التلفاز و يتحدّث في الهاتف في الوقت نفسه، كان يميل بشدة إلى مشاهدة أفلام الحركة أكثر من مشاهدة البرامج الإخبارية. ومع ذلك كان يعشق مواجهة المخاطر، وكما حدث في مكة عام ١٩٧٩م كان يقحم نفسه في المشاجرات إن استطاع.

---

(١) ورد ذلك في مقابلة مع أحد مساعدي سالم وقد طلب عدم كشف هويته.

إن الأحداث الجسام التي شهدها ذلك العام التي تمثلت في انتفاضة المسجد الحرام والثورة الإيرانية والغزو السوفياتي لأفغانستان في شهر ديسمبر/ كانون الأول، أجبرت جميع أفراد عائلة بن لادن على أخذ السياسات العالمية في الحسبان إلى حدّ فاق أي وقت آخر. وفي هذا الصدد أيضًا، ساروا على نهج آل سعود. فالحفاظ على المصالح الذاتية كان العامل الذي حرك كلًّا من العائلتين أكثر من الأيديولوجية. وبدءًا من الثورة الناصرية فصاعدًا، كان أفراد عائلة بن لادن في أحيان كثيرة الأدوات التي استخدمتها المشروعات السرية للسياسة الخارجية السعودية التي كان هدفها الأساسي حماية حكم العائلة المالكة. وبعد الأزمات التي شهدها عام ١٩٧٩م، برزوا على مسرح الأحداث مرة أخرى.

فسّر آل سعود وإدارة الرئيس كارتر غزو أفغانستان على أنه الهجوم المبدئي الذي تشنه موسكو للسيطرة على مصادر النفط في الخليج. وكان هذا إدراكًا خاطئًا للدوافع السوفياتية، إلا أن السرية التي أحاطت بالكرملين لم تتح أي خيار آخر. وعلى الرغم من مشتريات الأسلحة ومشروعات المنشآت العسكرية التي نُفذت في السعودية خلال الستينيات والسبعينيات، لم يستعد السعوديون بما فيه الكفاية لصد أي هجوم خطير يستهدف المملكة، وظنوا أن الجيش الأمريكي فحسب هو من لديه القدرة على ذلك. وكان فهد دائمًا يعول على واشنطن في مجالس العائلة المالكة، وتمثل رد فعله تجاه أحداث عام ١٩٧٩م في توطيد الاتحاد الوقائي بين المملكة وأمريكا. وتفاوض لعقد اتفاقيات سرية لبناء قواعد عسكرية ضخمة في المملكة العربية السعودية بحيث تسمح للولايات المتحدة بتثبيت المعدات قبل وقوع أي أزمة تحسبًا لها أو نشر قوات كبيرة على نحو سريع فور حدوث أي أزمة، وكانت تلك السياسة غير المعلنة معروفة في واشنطن باسم «زيادة البناء، زيادة المخزون»[٢] وعلى الصعيد الخارجي قرر فهد التعاون بصورة أكثر فاعلية مع الحملة الأمريكية لاحتواء الشيوعية ودحرها من جميع أنحاء العالم. وجعلت انتخابات رونالد ريغان عام ١٩٨٠م هذا التعاون أكثر استساغة من وجهة نظر السعوديين؛ إذ إن الأسلوب المنمق

---

(٢) راجع: Clarke, Against All Enemies, p. 39.

الزائف الذي تحدث به جيمي كارتر عن حقوق الإنسان واتفاقية كامب ديفيد جعلت المملكة بعيدة عن بؤرة الأحداث الملتهبة آنذاك. وإذا كان فهد سيتبنّى أولويات ريغان علنًا، كان سيتعرض لخطر إثارة غضب الناشطين الإسلاميين في مملكته الذين اتضحت قوتهم وتنظيمهم السري على نحو صادم في مكة. من بين أسباب سقوط شاه إيران إنه أصبح يُعتبر من منظور عامة المواطنين الإيرانيين أداة للأمريكيين. وأدت كل تلك العوامل إلى إضفاء مزيد من السرية على التعاون السعودي الأمريكي، وفي هذا الشأن أيضًا كان لعائلة بن لادن دورٌ بارز لا يمكن إغفاله.

كان كل من الأمريكيين والسعوديين في البداية حذرين من دعم المجاهدين الأفغان باعتبارهم ثوارًا ضدّ حكومة كابول الشيوعية الجديدة. وشكك محللو وكالة الاستخبارات المركزية في قدرة الثوار على فعل ما يتعدّى إزعاج جيش الاحتلال السوفياتي المعتمد على الماكينات أكثر من اعتماده على البشر. ولم تعتمد السياسة الأمريكية تجاه الثوار الأفغان في بداية الثمانينيات على الافتراض المنطقي للنصر المستقبلي، بل على فكرة أن تزويدهم بالأسلحة يمكن أن يزيد تكلفة الغزو للجيش السوفياتي. ووافق فهد على أن يسهم بالمبالغ نفسها التي تقدّمها ميزانية المساعدة الأمريكية السرية إلى الثوار، ووصل المبلغ في مستهل الأمر إلى قرابة ٣٠ مليون دولار فحسب سنويًّا[٣]. ومن وجهة نظر فهد، كانت الحرب حلًّا رائعًا لتوجيه أنظار الإسلاميين إلى خارج حدود المملكة. وحتى في هذا العصر قبل ظهور قناة الجزيرة الفضائية، تحولت معاناة الأفغان سريعًا إلى قضية إنسانية شهيرة في أنحاء العالم الإسلامي، وكانت مئات الآلاف من اللاجئين المعدمين يتدفقون إلى باكستان شهريًّا. وكانت الطائرات السوفياتية تمطرهم بالقذائف وقت هروبهم. وأصدر فهد أوامره بتزويد ضحايا الحرب بالمساعدات الخيرية، وأثنى على مثل هذه التبرعات باعتبارها متوافقة مع السياسة السعودية الرسمية. ولملمت الحرب الأفغانية شعث أحزاب

---

(٣) راجع: Coll, *Ghost Wars*, p. 65.

أما السنة المالية للحكومة الأمريكية عام ١٩٨١م. فالتحليلات المختصرة للاتجاهات الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية والسعودية تجاه الحرب هنا وهناك في هذا الفصل مأخوذة من البحث في كتاب شبح الحروب *Ghost Wars*، في الفصول من ١ إلى ٥.

المجتمع السعودي المنشقة حول قضية خارجية، وهي أطياف كانت ستنخرط حتمًا في صراعات إن ركزت على الشؤون الداخلية فحسب.

وكان للقضية الأفغانية التأثير نفسه داخل عائلة بن لادن. وبسبب طموح سالم وقوة شخصيته وإحكامه السيطرة على أسلوب إنفاق المال، تمكن من الجمع بين فروع عائلته المتدينة وغير المتدينة معًا. وأصبح الحفاظ على هذا التوازن أكثر صعوبة بعد انتفاضة مكة لأن حركة الإسلاميين في المملكة حصلت على شرعية وميزانيات جديدة، وشجعت هذه الحركة الإحيائية، التي كثيرًا ما يُشار إليها باسم «الصحوة»، كثيرين من السعوديين المتدينين على إثبات هويتهم، والأمر ينطبق بالطبع على أفراد من عائلة بن لادن. وجاء في مقال لكاتبة سعودية «إنه كان من الشائع في أي عائلة سعودية وجود انقسام بين أفرادها إلى هاتين الجهتين». واستطردت قائلة:

كان يُقال عن فرد العائلة «مطوّعًا» إذا حفظ أحاديث الجماعات الإسلامية الجديدة البلاغية وخطبها عن ظهر قلب وعمل بها. وكان المطوّع يُعرف بوعظه وخطبه المستمرة بين أفراد العائلة واستماعه إلى شرائط الكاسيت الدينية وشجبه المعتاد للثقافة الغربية والموسيقى وسلع الرفاهية، وتطبيقه أخلاقيات صارمة مع أقاربه من النساء. وقد شهد هذا العصر ظهور جيل جديد من المطوّعين المثقفين المفوهين الذين نصّبوا أنفسهم في هذه المكانة من دون أن يختارهم أحد. وتمكنوا من التعايش مع أفراد عائلاتهم الأقل محافظةً. . . وفي نطاق العائلة الواحدة تماشى التسامح والتوتر جنبًا إلى جنب أحدهما مع الآخر[٤].

في الاجتماعات العائلية الدورية التي كان سالم يراجع فيها الشؤون العملية والمالية ويتلقّى طلبات إخوته وأخواته، كان من الضروري أن يتعامل سالم ليس فقط مع أخويه غير الشقيقين شديدي التدين أسامة ومحروس، ولكن أيضًا مع إخوته وأخواته ممن كانت أهميته الإسلام تتزايد تدريجيًّا في حياتهم كشباب، وفي تطلّعاتهم السياسية أيضًا. وكانت الزكاة التي تُعد من الأركان الخمسة الأساسية في الدين الإسلامي أقل الطرق

(٤) راجع: Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia*, p. 155.

إثارة للإشكاليات لاحتواء هذه النزعات الدينية. وشأنها شأن أي شركة تجارية أخرى في جدة، كان هناك صندوق زكاة في مؤسسة محمد بن لادن، وكان الهدف من هذا الصندوق التعامل مع كثير من الأمور المتعلقة بالزكاة التي تفرضها الشريعة الإسلامية[٥]. وتراوحت الأنشطة الروتينية لهذه الصناديق في المملكة العربية السعودية عادة من بناء المساجد إلى التصدق على اليتامى المساكين في الخارج، وهي مجموعة هائلة من الأنشطة التي تختلف قليلًا عن أنشطة الكنائس في الأراضي الأمريكية. وخلال السنوات الأولى من فترة الثمانينيات، كان تنظيم أمور التبرعات ومنحها إلى اللاجئين الأفغان بمنزلة مناورة ثلاثية الأبعاد لسالم الذي كان داهية في تصرفاته؛ إذ إنها كانت بابًا لإخراج الزكاة المفروضة على عائلته ودعمًا لسياسة فهد الخارجية السرية، إلى جانب أنها غيرت مسار طاقات الفرع المتدين في عائلة بن لادن.

كان لسالم علاقاته الخاصة على الحدود الأفغانية إذ ألحق أخواته بمدرسة داخلية في بيشاور وزار كابول. واشتملت قائمة الطيارين الذين يعملون لديه ويتمركزون في جدة على ضباط في القوات الجوية الباكستانية، إلى جانب طيار أفغاني يُدعى محمد داوود كان قد أُجبر على الخروج من البلاد منفيًا على يد الشيوعيين الأفغان. وتوضح سجلات الرحلات أن سالمًا سافر جوًّا إلى كراتشي في مرحلة مبكرة في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٨٠م. وحسبما ورد عن جمال خاشقجي زميل أسامة الذي كان منتميًا إلى جماعة الإخوان المسلمين، ذهب أسامة لأول مرة في حياته إلى باكستان في تلك الأثناء معلنًا نفسه هناك ناشطًا خيريًّا على أول الطريق[٦].

---

(٥) ذُكرت هذه المعلومات في مقابلة مع كارمن بن لادن في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر/ أيلول من العام ٢٠٠٤م. وقد كشفت أنّا كاسوبسكي Anna Kasupski، الباحثة في شركة راند، في أثناء مراجعتها للمستندات المتعلقة بالتاريخ الأول لمكتب الخدمات في بيشاور، عن وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٨٥م، وتصف هذه الوثيقة تبرعات مؤسسة عائلة بن لادن، راجع: *Rand: Early History of Al Qaeda Working Group*, 2006.

(٦) جاء ذلك في مقابلة مع ديفيد غراي David Grey في الحادي والعشرين من شهر فبراير/ شباط عام ٢٠٠٦م. وفي ما يتعلق بالسفر إلى كراتشي في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من العام ١٩٨٠م فقد ذُكرت تلك المعلومة استنادًا إلى لوغاريتمات الطيران التي فحصها المؤلف. أما ما ذُكر =

أسفل لافتة مكتوب عليها بلغتين «مدارس الثغر النموذجية»، ظهر أحمد باديب مع غيره من المدرسين المصطفين خلف أناس آخرين في الصورة الرسمية التي التُقطت للصف الدراسي المتخرج عام ١٩٧٦م، وذلك هو العام الذي تخرج فيه أسامة بن لادن من مدرسة المتفوقين الثانوية الخاصة في مدينة جدة. وكان باديب رجلًا مستدير الوجه، تعلو ملامح وجهه تعبيرات تعكس شخصيته الجريئة الجذابة الجامحة غير المتدينة. وكان له طموحات عالية، وهي سمة أرجعها بعض من يعرفونه إلى جذوره اليمنية؛ إذ هاجرت عائلة باديب، شأنها شأن عائلة بن لادن، من حضرموت إلى جدة. وبحلول أواخر السبعينيات، شرع أحمد وأخوه سعيد، الذي كان يدرس للحصول على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، في إقامة علاقات مع الحكومة السعودية. كان أحمد يدرِّس علوم الأحياء في مدرس الثغر وكان من بين طلابه شباب من العائلة المالكة. وعرف أسامة من خلال اللجنة الدينية في المدرسة، وذكر أنه «لم يكن متطرفًا على الإطلاق... كما إنني أحببته لأنه كان شخصًا مهذّبًا كيّسًا»[(٧)].

بعد أن ترك أسامة مدرسة الثغر، لفت أحمد باديب نظر تركي الفيصل، وكان تركي الابن الأصغر للملك الراحل الذي عينه فهد مؤخرًا لخلافة خاله كمال أدهم، على الرغم من أنه كان في عقده الثالث فحسب، وتعين رئيسًا للاستخبارات الأجنبية للمملكة العربية السعودية. وعين تركي الفيصل لديه كلًّا من سعيد باديب رئيسًا لقسم التحليلات والدراسة، بينما عين أحمد رئيسًا لطاقم الرئاسة في الاستخبارات، وهي وظيفة اقترنت بكثير من السفريات شبه السرية. وبعد عام ١٩٧٩م أصبح باديب هو مندوب تركي في تحويلات الأموال النقدية الحكومية إلى باكستان إلى جانب عمله في وظائف أخرى. وقد مكّنه هذا الدور من استعادة نشاطه لإسداء النصائح إلى أسامة.

= حول رحلة أسامة الأولى في عام ١٩٨٠م، فهو مأخوذ من مقابلة مع جمال خاشقجي في الثاني من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٢م. وليس من الواضح في أي وقت من السنة كانت هذه الرحلة.

(٧) يوجد لدى المؤلف نسخة من الصورة التي بالفصل. يستند ذلك إلى مقابلة باديب مع تلفزيون أوربت عام ٢٠٠١م ترجمتها شركة ذا لانغويج دكتورز The Language Doctors .

كان من الضروري أن تمر القناة الرسمية السعودية الأمريكية لنقل الأموال إلى الثوار الأفغان بوكالة الاستخبارات المركزية في باكستان المعروفة اختصارًا باسم آي آس آي (ISI). وبإصرارها على وجود هذه القناة ضمنت باكستان استمرار سريتها إلى جانب السيطرة بشكل أكبر على كيفية توزيع هذه الأموال. وكان من الأدوار التي اضطلع بها باديب خلال هذه السنوات الأولى شراء الأسلحة سرًّا من الأسواق الدولية وشحنها إلى باكستان عن طريق وكالة الاستخبارات الباكستانية. ومنذ البداية قال باديب إن هذه القناة التي تسيطر عليها باكستان سببت له المتاعب؛ لأنه أراد إقامة علاقات مستقلة مع المجاهدين الأفغان. وقد قال في هذا الصدد: «لا يمكننا الاعتماد على ما يعطيه لنا الباكستانيون من معلومات بنسبة مئة في المئة فحسب». واستطرد: «ولذا علينا معرفة عدد المحاربين ككل وكم عددهم في هذا التنظيم أو ذاك وقدر الأموال التي يحصلون عليها». ومن الطرق السهلة لإقامة هذه العلاقات أحادية الجانب مع الاستخبارات السعودية دعوة قادة بعينهم مهمين من الثوار الأفغان إلى زيارة المدينتين الشريفتين مكة والمدينة لأداء العمرة أو فريضة الحج. وكانت تلك البيئة مثالية لإقامة علاقات صداقة وتجنيد عملاء؛ على الأراضي السعودية ووسط المآدب والتجمعات غير الرسمية في ليالي الصحراء بجوار المسجدين الشريفين في الإسلام، في البقعة التي بزغ منها فجر دين الإسلام. وكان يمكن أيضًا منح الزوار الأفغان التبرعات النقدية المقدّمة من رجال الأعمال السعوديين المعجبين بنضالهم والمتأثرين بقضيتهم. ومَن أفضل من أسامة بن لادن للمساعدة في توجيه هذه الدعوات والمشاركة في المناسبات الدينية الخيرية المترتبة عليها، وهو سليل العائلة التي أدّت دورًا فعّالًا في المدينتين الشريفتين؟[٨].

في ذلك الوقت كان أسامة في منتصف العشرينيات من عمره ولديه ثلاث زوجات ومجموعة كبيرة من الأطفال الصغار المنتشرين في أرجاء فناء المبنى السكني المقسم في جدة الذي تعيش فيه عائلته الكبيرة. وفي شركته التي تقع في المدينة المنورة كان أسامة المسؤول الرئيس، وكان يتنقل

---

(٨) أُخِذ ذلك من مقابلة مع باديب في الأول من شهر فبراير/ شباط ٢٠٠٢م.

بسرعة فائقة من مكان إلى آخر محدثًا ضوضاء عالية بسيارته البيج ماركة لاند كروزر، ويقود البلدوزرات في مواقع العمل مثلما كان يفعل أبوه من قبل. وفي أثناء زيارات أسامة إلى باكستان، كان يُعامل كشيخ مبجل يذعن له الجميع بسبب الأموال التي كان يحملها معه. وفي المناسبات الدينية في مكة المكرمة كان له طقوس جديدة في خيمات الضيافة التي تقيمها عائلة بن لادن، بصفته ناشطًا صالحًا وابنًا لعائلة محترمة يعلو نجمه بمرور الوقت. وفي الاجتماعات السرية لناشطي جماعة الإخوان المسلمين في الحجاز، ربما كان أسامة ينضم إلى جلسات التخطيط في الحركة لشن حملات سرية عنيفة في سوريا واليمن. وذكر لاحقًا أنه شارك في هذه الحملات، ولكن لأنها كانت خارج إطار السياسة السعودية يبدو أنه شارك فيها بسرية وحذر.

كانت اتصالات أسامة بالحدود الأفغانية تتم عبر جماعة الإخوان المسلمين التي عينته وهو لا يزال في مرحلة المراهقة. وفي باكستان كان فرع الإخوان المسلمين حزبًا سياسيًّا معروفًا باسم «الجماعة الإسلامية في باكستان». وعندما سافر أسامة جوًّا إلى باكستان للمرة الأولى في حياته حاملًا تبرعاتٍ للثوار الأفغان، لم يسافر إلى الحدود الأفغانية، بل سافر إلى مدينة لاهور الشرقية التي يتمركز فيها كثير من أبرز القادة السياسيين للجماعة. ويتذكر باديب أن أسامة «لم يكن يثق في وكالة الاستخبارات الباكستانية، ولم يكن يميل إلى إعطاء المال إلى الوكالة أو إلى المجاهدين مباشرة؛ لأنه كان يعتقد أن الجماعة الإسلامية في لاهور هي التي يمكنها أن توصل هذا المال إلى أيدي المجاهدين الحقيقيين» أو أولئك الذين يُعتبرون الأكثر اقترابًا من أهداف جماعة الإخوان. وهناك قابل بن لادن قائدين أفغانيين يتحدثان العربية، وهما برهان الدين رباني وعبد رب الرسول سياف، واستغرقت رحلته قرابة الشهر[٩].

مثّلت هذه الرحلة المبدئية أحد أنماط علاقة أسامة بحرب الأفغان بين الأعوام ١٩٨٠م و١٩٨٣م؛ إذ كان يتنقل ذهابًا وإيابًا لنقل الأموال وعقد الاجتماعات فحسب، وأقام علاقاته في باكستان من خلال عدة شبكات

---

(٩) جاء ذلك في مقابلة مع باديب. راجع أيضًا: Al-Din, *Bin Laden*, p. 47.

متداخلة الأهداف والاستراتيجيات؛ شبكة الإخوان المسلمين التي كان عضوًا فيها واشتملت على ناشطين دينيين، والشبكات الخيرية المكونة من تجار جدة التي كانت عائلته ركنًا أساسيًّا من أركانها، والعملية الاستخباراتية السعودية التي كان يديرها باديب. ويتذكر جمال خاشقجي أنه في السنوات الأولى لحرب الأفغان، تمثلت «الخطة» في أن تقدم الحكومة السعودية من خلال جهاز استخباراتها الأجنبية «الدعم المتعلق بالجانب العسكري» بينما تقدم الجهات الخيرية ووكلاؤها والناشطون الدينيون «الدعم الإنساني والإعانات» جنبًا إلى جنب مع الاستخبارات الأمريكية والباكستانية، إلا أن هذه الشبكات تداخلت أنشطتها، وقال خليل أ. خليل السعودي الذي تتبع مسار الناشطين الإسلاميين للعائلة المالكة أن المتبرعين الذين ساعد أسامة في تنظيم صفوفهم خدمةً للقضية الأفغانية اشتملوا على «أعضاء من الحكومة». إضافة إلى ذلك، استخدم باديب الجهات الخيرية العاملة على الحدود الأفغانية قناعًا وقاعدة للعمليات الاستخباراتية. وبسبب باديب أقام أسامة علاقات ودية مع الأمير تركي الفيصل حيث كان يقابله خلال زياراته الدورية إلى باكستان. إلى جانب أنه نال شرف مقابلة شقيقي فهد ذَوَي الشأن، نايف وأحمد، اللذين قام سالم معهما برحلة صيد في الصحراء العراقية. وتولى نايف وأحمد مسؤولية وزارة الداخلية السعودية ومراقبة الأمن الوطني في المملكة(١٠).

بسبب ظهور أسامة المتزايد واتصالاته بالأمراء ذوي الشأن، شرع للمرة الأولى في منح عائلة بن لادن قيمة يُعتد بها. ولم يكن هناك شيء أكثر أهمية من منظور عائلة بن لادن من الإنشاءات وإحياء العلاقات مع العائلة المالكة. وفي هذا العصر الجديد من الصحوة الإسلامية، جاء دور أسامة مكملًا للعناية التي أولاها سالم لفهد والأمراء الآخرين غير المتدينين في أوروبا وأمريكا، باعتبار أسامة مصاحبًا لهم في الرحلات وشخصًا متدينًا محبًّا للخير. وعكس نشاط أسامة أيضًا على عائلة بن لادن مصداقية متجددة

---

(١٠) هذه المعلومات مأخوذة من مقابلة مع خاشقجي، ومقابلة مع خليل في العاشر من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٥م. وبخصوص استعمال باديب المنظمات الإنسانية كواجهة لعمله، واستماع أسامة لنايف وأحمد، فقد جاء ذلك في مقابلة مع باديب، المقابلة معه على أوربيت المذكورة سابقًا.

بين هيئة كبار العلماء التي كان لها يد في اتخاذ بعض القرارات المتعلقة بالبناء في مكة والمدينة. وقال باسم عالم، صهر أسامة الذي تعرف إليه خلال هذه السنوات وسافر معه بين الحين والآخر إلى باكستان لدعم الأفغان، إنه «كان شخصية محبوبة جدًّا في العائلة»[١١].

في عام ١٩٨٢م عيّن سالم أسامة في منصب تنفيذي لمراقبة سلسلة الإصلاحات الجديدة التي أُجريت في المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة، وكان دورًا بارزًا وخطوة أخرى على طريق «البرنامج التدريبي أو برنامج التدريب العملي الذي منحه أخٌ أكبر لأخ أصغر» كما قال خاشقجي. إضافة إلى ذلك أمر سالم أحد مساعديه ببناء خزينة في جدة ليتسنى لأسامة الاحتفاظ مؤقتًا بالمصوغات الذهبية والأموال النقدية المُتبرع بها للأفغان من جانب رجال الأعمال وزوجاتهم الثريات. وصل هؤلاء السعوديون الأثرياء إلى المرحلة التي جعلتهم يظنون «أن الأفغان ملائكة. . . وشعبٌ مقدس» هكذا علّق أحمد باديب الذي استطرد قائلًا: «دأبت النساء على التبرع بكميات كبيرة من مجوهراتهنّ لا يمكن تقدير قيمتها». وبلغ حجم الخزينة التي بنتها عائلة بن لادن عشرين مترًا طولًا في عشرين مترًا عرضًا، وكانت مضادة للحريق والقذف بالقنابل وفقًا لما ذكره المساعد الذي اضطلع ببنائها[١٢].

اعترف أسامة لاحقًا بأنه عمل خلال هذه السنوات بما يتفق مع السياسة السعودية السرية على نحو تعاوني، وكانت إحدى المهام المنوطة به ألا يُقبض عليه. ويتذكر أسامة قائلًا إنه: «بسبب وصولي إلى أفغانستان وقرب عائلتي من النظام الحكومي السعودي، وصل أحد الخطابات التي تأمرني بعدم دخول أفغانستان والبقاء مع المهاجرين في بيشاور، لأنه في حالة قبض الروس عليّ أو احتجازي، كان ذلك سيُعد دليلًا على الدعم السعودي للمجاهدين ضدّ الإمبراطورية السوفياتية»[١٣].

---

(١١) جاء ذلك في مقابلة مع باسم عالم في الحادي والعشرين من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٥م.

(١٢) جاء ذلك في مقابلة مع خاشقجي في السابع عشر من شهر مارس/ آذار من العام ٢٠٠٦م؛ مقابلة مع باديب المرجع السابق؛ مقابلة مع مساعد لسالم وقد طلب عدم الإفصاح عن هويته.

(١٣) راجع: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 110.

بدأ غروره في التزايد وطموحاته في التشعب، إلا أنه ظلّ رجلًا متحفظًا حييًا بل شديد الحياء في محادثاته. ويتذكر صبري غنيم ـ الذي كان مديرًا تنفيذيًّا لشركات بن لادن في القاهرة ـ وصول أسامة إلى القاهرة خلال هذه الفترة لحضور اجتماع مع مهندسي الإنشاءات الذين يعملون في أحد المشروعات الذي كان أسامة يشرف عليه في مدينة الجبيل الصناعية التي تطلّ على الساحل في المملكة العربية السعودية. ويتذكر غنيم أسامة قائلًا عنه إنه كان «شابًّا يبدو كالفتاة الخجولة وكان دائمًا يغض بصره». ولم يكن مديرًا تنفيذيًّا رائعًا بصفة خاصة، ولم يكن يتحدّث إلا قليلًا خلال المقابلات التي أجراها مع المهندسين. وفي النهاية قال غنيم إن المشروع الذي أشرف عليه أسامة خسر ما يزيد عن ١٥ مليون دولار(١٤).

كان خجولًا على الرغم من أنه تعلم على يد كثير من المعلمين ذوي الشأن الذين لم يتّسموا بالخجل على الإطلاق، مثل: أخيه الأكبر غير الشقيق ومعلمه السابق باديب، إلى جانب عبد الله عزّام أحد علماء الإخوان المسلمين الذي كان يجمع التبرعات لمساعدة المجاهدين الأفغان.

التحق عزّام بجماعة الإخوان المسلمين شابًّا شأنه شأن أسامة. وُلد عزّام في قرية بالقرب من جنين في الضفة الغربية ونُفي بعد أن احتلت إسرائيل المنطقة خلال حرب ١٩٦٧م، درس السياسة الإسلامية ودرّسها في مصر والأردن قبل أن تقوده أفكاره الجهادية إلى اللجوء إلى المملكة العربية السعودية حيث عُيّن في إحدى كليات جامعة الملك عبد العزيز، وحاضر فيها وقتما كان أسامة طالبًا. أصبح عزّام شيخًا ورمزًا دوليًّا له جاذبيته في دوائر الإخوان المسلمين في الحجاز التي انتقل إليها أسامة. وألّف عزّام كتابًا عن الجهاد اسمه «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» وكان يُعِدّ للأطروحة التي ستصبح كتابًا أكثر نجاحًا ممّا سبقه تحت عنوان «الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان».

وكان عزام، شأنه شأن كثير من الأساتذة ذوي الأفكار الجهادية من قبله، مثقلًا بالديون التي تراكمت عليه خلال رحلة حياته التي تنقل فيها من

(١٤) جاء ذلك في مقابلة مع صبري غنيم في الرابع عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من العام ٢٠٠٥م.

بقعة إلى أخرى ولم يحصل فيها إلا على أجور زهيدة. وقدمت المملكة العربية السعودية إليه ـ وخاصةً أسامة ـ إمكانية الحرية المالية. وكان هناك أكثر من تلميح إلى عزّام الذي شابه بعض التملق إلى أسامة الحاصل على التعليم الثانوي والحرص على اكتساب صداقته بصورة تدريجية خلال السنوات الأولى من الثمانينيات، مقدمًا إليه الدعم ليصبح الشاب المحب للخير ظهيرًا للشريعة الإسلامية القويمة الحازمة. وأصبحت زوجة عزّام في جدة صديقة لزوجات أسامة، وكنّ يجتمعن في لقاءات عائلية في مزارع بن لادن في الصحراء. وبحلول عام ١٩٨٤م ازدادت معرفة العائلتين إحداهما بالأخرى عمقًا وتحوّلت إلى شراكة. ولاحظ ناصر البحري الحارس الشخصي لأسامة لاحقًا أن العلاقة بينهما كانت: «علاقة أحد طرفيها هو المال والعزيمة والشباب ممثلين في أسامة بن لادن، والمعرفة والتوجيه والخبرة ممثّلين في عبد الله عزام»[(١٥)].

يتذكر خليل أ. خليل أن أسامة بن لادن كان «شخصًا رقيقًا، وكان عبد الله عزّام يمده بالقوة اللازمة ليصبح رمزًا للدور السعودي في القضية»، ويستطرد: «اعتبر عزّام أسامة الجسر الذي سيعبر عليه إلى المملكة العربية السعودية»[(١٦)].

إن الشباب السعودي وطلاب الجامعة المنعزلين الذين درسوا الأيديولوجية الإسلامية لكنهم عاشوا بمنأى عن أي ساحة حرب، تعاملوا مع الحرب الأفغانية باعتبارها قضية عاطفية يعبّرون فيها عن آرائهم؛ بمعنى أنها كانت متنفسًا لهؤلاء الشباب في العطلات وإجازات نهاية الأسبوع. وكان طلاب العلوم الدينية يسافرون في رحلات طيران مباشرة على خطوط الطيران السعودية إلى بيشاور لقضاء العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك لأداء الأعمال التطوّعية أو إطلاق النار على العدو من أعلى الربى. كان التزامهم وعهدهم أمام الأفغان مشابهًا لالتزام وتعهّد الطلاب الأمريكيين

(١٥) جاء ذلك في مقابلة مع زوجة عزّام أجراها محمد الشافعي من جريدة الشرق الأوسط في الثلاثين من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٦م؛ صحيفة **القدس العربي**، العدد الصادر في الرابع من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٥م.

(١٦) جاء ذلك في مقابلة مع خليل المذكور سابقًا.

الذين يتطوعون لقضاء أيام قليلة كل عام في إصلاح المنازل للفقراء. وربما كان الدافع وراء ذلك حبهم للغير، إلى جانب رغبتهم في كسر الملل والشعور بالانتعاش. ويتذكر البحري قائلًا في هذا الصدد: «عندما كنا ننظر إلى السترات الأفغانية التي كان المجاهدون العائدون من أفغانستان يرتدونها وهم يمشون في شوارع جدة أو مكة أو المدينة، كنا نشعر بأننا نعيش مع جيل صحابة الرسول المظفرين»(١٧). ومن وجهة نظر الشباب السعودي خلال أوائل الثمانينيات، كانت الحرب الأفغانية اتجاهًا سائدًا وأيديولوجية وفرصة لجمع التبرعات ومعيارًا للإحياء الديني وتجربة انتماء في آن واحد. . . وغيرها من الأمور التي قطعًا لا تشتمل على المعارك الرهيبة التي خاضها الأفغان مع السوفيات.

إعتبرت المؤسسة الدينية السعودية عزامًا جسرًا لها إلى باكستان التي تضم أحد أكبر جاليات المسلمين في العالم، بالإضافة إلى كونها منذ زمن طويل هدفًا للدعوة الوهابية. وفي أواخر عام ١٩٨١م، أوفدت جامعة الملك عبد العزيز عزامًا في بعثة لمراقبة المنهج الدراسي في الجامعة الإسلامية في إسلام آباد عاصمة باكستان، وكان الحرم الجامعي قد تأسس مؤخرًا بتكلفة ٣٥ مليون دولار بتمويل سعودي(١٨). وعقد عزّام مشاوراته أيضًا بشأن إنشاء «رابطة العالم الإسلامي» التي تعد أحد أفرع العمل الخيري السعودي الرسمي. وتقع مدينة بيشاور الحدودية التي كانت بمنزلة القاعدة الأساسية للمجاهدين الأفغان على بُعد ما يقل عن ساعتين أو ثلاث ساعات من الطريق. وقد أسفر انتقال عزّام إلى إسلام آباد عن إنشاء فرع لجماعة الإخوان المسلمين على صلة بجدة و يتحدّث العربية ويمكن أن ينقل أسامة التبرعات من خلاله.

كان عبد رب الرسول سياف هو القائد الأفغاني الذي يتمتّع بأقوى العلاقات مع المملكة العربية السعودية، وهو رجل ذو لحية بيضاء و يتحدّث العربية، ويعتبر عالمًا في الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى أنه استطاع

---

(١٧) **القدس العربي**، ٢٠ مارس/ آذار من العام ٢٠٠٥م.

(١٨) راجـــــع: Jamal Ismail in Bergen, The Osama Bin Laden I Know, p. 26; Piscatori, «Islamic Values and National Interest,» in *Islam and Foreign Policy*, p. 47.

تجسيد العواطف الدينية التي رآها كثير من السعوديين في هذه الحرب. كان سياف يتجول في المساجد السعودية وبصحبته موكب من السيارات الملكية خلال جولاته الدورية في المملكة التي كانت تهدف إلى جمع التبرعات؛ إذ سمحت له الحكومة السعودية بإنشاء مكاتب دائمة لهذا الغرض، وسعى باديب جاهدًا إلى إقامة علاقة وطيدة معه نيابة عن المخابرات السعودية. ومع ذلك، اضطر القادة أمثال سياف بصورة متزايدة إلى الموازنة بين إغراءات الأموال السعودية ومتاعب استضافة المتطوّعين السعوديين الشباب في إجازاتهم التي يقضونها خلال شهر رمضان. وقد أثار تزويدهم بالمسدسات والبنادق وتوفير التدريبات البسيطة لهم وإعطاؤهم جولة في ساحة القتال جدلًا دائمًا، وهو الأمر الذي كان يشعرهم بالفخر لدى عودتهم إلى بلادهم. ومن ثَم تقبّل سياف والقليل من القادة الآخرين قيامهم بدور استشاري في معسكرات الجهاد، وكان ذلك مقابل النجاح في حملات جمع التبرعات. وفي عام ١٩٨٤م افتتح سياف بدعم من باديب أول معسكر تدريبي رسمي للمتطوعين العرب، وعُرف هذا المعسكر باسم «معسكر الصدى». وكان اسمًا على مسمى لأن المعسكر كان انعكاسًا للحرب الفعلية، وكان المعسكر يقع بالقرب من الحدود الباكستانية ويمكن الوصول إليه بسهولة في رحلة يومية يقوم بها الزوار السعوديون وأثرياء الخليج. وحسبما ورد في إحدى المقالات العربية التاريخية عن المعسكرات: «كانوا يشاهدون بعض الاستعراضات القتالية المحفزة وفي نهايتها يتبرع الضيوف بكل المال الذي بحوزتهم. بالإضافة إلى أنهم كانوا يكتبون قوائم بالأشياء التي لا غنى عن شرائها لمساعدة سياف على فتح كابول»[١٩].

في عام ١٩٨٤م دخل أسامة أفغانستان لأول مرة بصفته سائحًا في المقام الأول. وربما زار معسكر الصدى إضافة إلى أنه شهد بعض المعارك حول منطقة جاجي بالقرب من معسكر العرب الجديد. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي يسمع فيها صوت القذائف المكتوم الذي يرج الأرجاء رجًّا أو يشعر بخفقان قلبه المتسارع نبضه من أثر التعرض لويلات

---

(١٩) جاء ذلك في مقابلة مع باديب المرجع السابق. راجع أيضًا: Hutaifa Azzam in *The Osama Bin Laden I Know*, op. cit. p. 28; «The Story of the Arab Afghans,» Anonymous, *Al-Sbarq Al-Auisat*, December 12, 2004.

الحرب. وبدت التجربة مثيرة، إلا أن شعورًا بالذنب تملّكه بسبب تأخره في المخاطرة بنفسه مخاطرة فعلية في القضية التي ناصرها بهذا الاعتزاز والكبرياء. وقال أسامة ذات مرة لصحفي سوري: «أشعر بالذنب والخزي لأنني استمعت إلى أصدقائي وأحبائي الذين نصحوني بعدم القدوم إلى هنا وفضّلت البقاء في بلدي حرصًا على سلامتي. وأشعر أن هذا التأخير لمدة أربع سنوات يستدعي استشهادي في سبيل الله»[٢٠].

دأب أسامة بن لادن على تكرار هذا التعليق لسنوات كثيرة إلا أنه استطاع دائمًا تجنّب ما زعم أنه يرحب به؛ نيل الشهادة، ومن دون شك تمنى عزّام ألا يمسسه سوء لبلوغ براعته في جمع التبرعات آفاقًا جديدة.

انتقل عزّام إلى بيشاور في شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٨٤م من أجل تأسيس «مكتب الخدمات» لدعم المجاهدين الأفغان وخدمة المتطوّعين العرب الذين سافروا إلى الحرب. وكانت مهمة المكتب من وجهة نظره تقتضي الجمع بين العمل الخيري الإسلامي والتسويق. واشتملت مشروعاته على مجلة «الجهاد» التي ركز عددها الأول الصادر في ديسمبر/ كانون الأول تركيزًا أساسيًّا على جمع التبرعات. وكانت طليعة هذه التبرعات نابعة من أسامة الذي قدّم دفعات نقدية مبدئية بمعدل سنوي تراوح بين ٢٠٠,٠٠٠ و٣٠٠,٠٠٠ دولار. وللمرة الأولى أيضًا وفرت عائلة بن لادن موظفين في مجالي الهندسة والتعمير لدعم مجهودات الحرب، ويتذكر متطوع عربي وصل إلى بيشاور عام ١٩٨٤م مقابلته مع أحد مهندسي الإنشاءات في شركة بن لادن. وخلال موسم الحج للعام الهجري ١٤٠٥هـ الذي توافق مع شهر يونيو/ حزيران عام ١٩٨٥م، مكث عزّام أيامًا في أحد منازل عائلة بن لادن في مكة. ويتذكر عبد الله أنس الذي سيتزوج ابنة عزّام لاحقًا أن: «عائلة بن لادن بأكملها كانت مضيافة، وكانوا يقدّمون الطعام ويوفرون الحافلات لنقل الناس». وهناك وثيقة عن عمل أسامة في هذا العام تشير إلى الإسهامات التي قدمتها مؤسسة عائلة بن لادن[٢١].

---

(٢٠) راجع: Bergen and Cruickshank, «How the Idea of Al Qaeda Was Conceived,» 2006.

(٢١) راجـع: Anna Kasupski, «Rand: Early History of Al Qaeda Working Group,» 2006; Abdullah Anas, *The Osama Bin Laden I Know*, op. cit., p. 29.

حيث يُعرِّف عبد الله أنس المهندس بأنه عبد الله السعدي ويقول إنه كان هناك ليرشد =

تبنى أسامة آراء عزّام المتطرفة علنيًّا، إلا أنه ظلّ مواطنًا سعوديًّا تقليديًّا تمامًا، وكان أداة هامشية لترسيخ ذلك الكيان الملكي. وظلّ عمله التطوّعي جزءًا لا يتجزأ من هوية عائلته، بل يصب في بوتقة استراتيجيتها في العمل.

كان عزّام هو أول من عرّف أسامة إلى مفهوم الجهاد الممتد إلى ما وراء الحدود. وقال بن لادن بعد سنوات: «عندما خطا الشيخ خطواته الأولى، كان المناخ السائد بين الإسلاميين والشيوخ محدودًا وإقليميًّا ومقيدًا بمكان معين، وكان كل منهم يتعامل مع القضايا السائدة في المكان المحيط به، إلا أنه ألهم الحركة الإسلامية وشجّع المسلمين على الجهاد على نطاق أوسع. وفي هذه المرحلة كنا جميعًا في زورق واحد». وبصفته فلسطينيًّا منفيًّا من وطنه، تحدّث عزّام بحماسة بالغة عن وطنه، وكان يحث تابعيه على اعتبار الصراع مع إسرائيل جزءًا من حرب أكبر شنها الكفار ضدّ المسلمين؛ صراع سيدوم لآلاف السنوات وسيمتد حتمًا إلى يوم الدين كما ذُكر في القرآن الكريم. تمركزت خطب عزّام وكتبه حول معاناة المسلمين الأبرياء، وأعلى فيها شأن المدنيين الأفغان والفلسطينيين باعتبارهم ضحايا العدوان ومن ثَم طالب بالانتقام لهم. فالنساء والأطفال الذين يموتون في أفغانستان تحت نيران قنابل الاتحاد السوفياتي وفي لبنان بعد الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢م تظلهم جميعًا الهوية الإسلامية. وهذه الاعتداءات التي تُشن على أراضي المسلمين تجعل الجهاد فرض عين على كل المسلمين. وتُعزى أفكار عزّام إلى كتابات المفكر الجهادي ابن تيمية الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي الذي اقتبس منه بن لادن نفسه لاحقًا عندما قال: «أما في ما يتعلق بالثورة على العدو المعتدي الذي يفسد على الناس الدين والدنيا، فليس هناك فرض بعد الإيمان بالله أشرف من الثبات في قتالهم». وكان عزّام يرى أن أفغانستان كانت مسرح الجهاد القدري وأنها ستقوي عزيمة الأمة الإسلامية لشن حرب أخرى لتحرير الأراضي الفلسطينية، وهنا اندمج الجانبان الأيديولوجي والانتهازي لشخصية عزام؛ فعمليًّا يمكنه جمع المال في أفغانستان والتأثير في

= البلدوزرات. وقد استعار أسامة خدماته من الشركة. راجع أيضًا: *The Osama Bin Laden I Know,* Ibid., p. 31.

وبخصوص وثيقة ١٩٨٥م، راجع الملاحظة رقم ٥ أعلاه.

الأحداث، بينما كان في فلسطين خائر القوى ـ على الأقل بصورة مؤقّتة بالإضافة إلى أنه لم يعتبر من المنفيين الناشطين[٢٢].

ألهب الاعتداء الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٨٢م العواطف في العالم العربي؛ إذ تم تصوير الحرب تلفزيونيًّا وبُثت الأخبار واللقطات المثيرة للسخط. وشاهد أسامة كل ذلك في المرحلة التي كان فيها منشغلًا بمحاضرات عزّام عن الجهاد ومفتتنًا بمكانة معلمه باعتباره ناشطًا إسلاميًّا لا يحيد وفلسطينيًّا منفيًّا من وطنه. وبعد سنوات لاحقة ستشتهر خطب أسامة الحماسية عن الفلسطينيين بأنها مجرد رد فعل رجل سعودي يحاول إرضاء تابعيه من العرب على نحو ينم عن ذكائه الإعلامي. ولكن هذا التحليل أغفل اعتزاز أسامة التام بإنجازات أبيه في القدس، إلى جانب التغاضي عن علاقته الوثيقة بعزام. ويتجاهل ذكرياته التي ربما لا تكون محل ثقة في ما تؤكده على الرغم من استبعاد زيفها. وكتب أسامة لاحقًا بعد سنوات: «وقعت الأحداث التي كان لها تداعيات مباشرة عليّ في عام ١٩٨٢م وبعده عندما سمحت أمريكا للإسرائيليين بغزو لبنان»، واستطرد قائلًا من ذكرياته أيام الدراسة:

ما زلت أتذكر تلك المشاهد الرهيبة: الدماء والأشلاء الممزقة ومذابح النساء والأطفال والمنازل المهدمة في كل مكان والعمارات الشاهقة المنهارة التي سحقت قاطنيها تحت أطلالها... وفي تلك اللحظات الحرجة اضطرمت أفكار كثيرة في عقلي، أفكار من الصعوبة بمكان وصفها، إلا أنها أطلقت العنان لرغبة جامحة في تحدّي الظلم وعزم قوي على معاقبة الطغاة الغاشمين. وكلما نظرت إلى أنقاض الأبراج في لبنان خطر في بالي على حين غرة تعذيب الطغاة بالطريقة نفسها عن طريق تدمير الأبراج في أمريكا، حتى يتجرّعوا مرارة الكأس التي يُسقى للآخرين... وفي ذلك اليوم تأكد لي بما لا يدع مجالًا للشك أن الطغيان والقتل العمد للنساء والأطفال الأبرياء سياسة أمريكية موجهة[٢٣].

تشير هذه الذكريات الماضية ـ الأفكار التي «اضطرمت في عقله» وكان

(٢٢) راجع: *Messages to the World*, op. cit., pp. 77. and 202.

(٢٣) المرجع السابق صفحة ٢٣٩، من تصريحات أسامة بن لادن في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر/تشرين الأول من العام ٢٠٠٤م.

«من الصعوبة بمكان وصفها» ـ إلى شيء من التوتر والارتباك في حياة أسامة السياسية والفكرية واسعة النطاق. ولأن عزامًا كان مصدر إلهام له، شرع أسامة في بيشاور في أداء المهام البسيطة المتعلقة بالتنظيم وجمع التبرعات ـ مثل تشكيل اللجان الإدارية ومراجعة مسودات المنشورات وإرساء قواعد ونظم منح الإعانات المالية إلى المتطوّعين السعوديين الشباب ـ إضافة إلى الخطب الصوفية والشعرية المنظومة عن فضل الاستشهاد. وجزئيًّا عكس ذلك معتقدات عزّام المتفائلة بأن العدل سيسود العالم لا محالة، إلا أنه عبّر أيضًا عن استراتيجية تسويقية وضعها داعيةٌ يدرك أهمية المال وأحد طلاب إدارة الأعمال سابقًا الذي قدّم إليه التمويل. ويؤكد منهجهما العملي أن أسامة وعزامًا كانا أقل اهتمامًا بفكرة الاستشهاد ذاتها، ولكن تركيزهما كان منصبًّا على تشكيل حركة مستندة إلى القوة الوجدانية لاستشهاد الآخرين. وكان عزّام بارعًا في توظيف الأدلة والذكريات التي تضع تضحيات المتطوّعين الشباب غير الحاصلين على التدريب الكافي في مكانة مقدسة، هؤلاء الشباب الطاهر الذين استضافهم في منازله في بيشاور ولقوا حتفهم في أفغانستان. وكتب عنهم عزّام «إن منزلة من ينالون شرف الشهادة لا تضاهيها منزلة عند الله، لأنه يكافئهم في الجنة باثنتين وسبعين من الحور العين ويشفع لسبعين من أهله ليدخلوا معه الجنة». ومن بين اللجان الأربع الأولى التي أعدها أسامة في «مكتب الخدمات»، تولّت إحداها العمليات الإعلامية وتولّت لجنة أخرى أمور التعليم[٢٤]. ولم تكن مواهب أسامة مذهلة أو استثنائية؛ إذ قضى جزءًا كبيرًا من باكورة حياته العملية في شركات بن لادن الكبرى التي تنتشر في أروقتها البطاقات التعريفية اللامعة ويعمل فيها خبراء في الإعلان والتسويق. وفي أثناء عمله لدى العائلة المالكة ومع السلطات الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، تعلّم أسامة أن أي مشروع لن يحقق النجاح إلا إذا اعتبره رعاته ناجحًا في حدّ ذاته، ولضمان ذلك لا بد من أن يكون للنشر والإعلان دور فعال، ونقل أسامة إلى مشروعاته الأولى في بيشاور هذه الروح الإدارية الحديثة.

---

(٢٤) راجـــــــع: «Early Al Qaeda Working Group,» op. cit; Gunaratna, «Al Qaeda: Its Organizational Strengths and Weaknesses with a Special Focus on the Pre-1996 Phase,» 2006.

لم تمر سوى قرابة الثلاثة أشهر من تأسيس أسامة لـ «مكتب الخدمات» مع عزّام حتى سافر سالم إلى بيشاور على متن طائرته في رحلة الصيد التي قام بها مع أفراد من العائلة المالكة السعودية في باكستان، ومعه كاميرا الفيديو وبصحبته حاشيته المتنوعة المكوّنة من الميكانيكي السويدي والاختصاصي الأمريكي المحنك في شؤون الطائرات شديدة الخفة[٢٥]. ويبدو أن أسامة استوعب من دون جهد المرحلة التي تداخلت فيها اهتماماته بالجهاد مع اهتمامات سالم المرتقبة بالحرب الأفغانية؛ إذ فضل أسامة أن يجعل اليتامى، وليس المحاربين المتطوّعين، في المقدمة ليصوّرهم أخوه بالكاميرا التي يحملها في يده. وكان هذا النشاط من أنشطة التسويق الخيري السائدة في ذلك الوقت، وتمكن الأخوان من التعاون أحدهما مع الآخر من دون أي إشارة إلى وجود خلاف بينهما؛ إذ تقول الآية القرآنية: **﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾**[٢٦]

حتى في هذه المرحلة التي شرع فيها أسامة في اعتبار نفسه محاربًا، وربما شهيدًا في النهاية في سبيل الله، كان يتعامل باحترام وتوقير بالغين مع أخيه الكبير مدخن السجائر غير المتدين. وربما كان لحركة الصحوة الدينية في المملكة العربية السعودية دور في تجميع شمل العائلة، إلا أن أسامة فعل كل ما في وسعه للتسامح مع إخوته وأخواته غير المتدينين، وفقًا لما ذكره صديقه جمال خاشقجي، الذي أضاف أن ما خشاه أسامة أكثر من وقوع الأشخاص في المعاصي هو نشأة «اتجاه عام ومجتمعي نحو العلمانية والمدارس المختلطة والتغيرات التي تبدأ في قمة المجتمع ثم ما تلبث أن تمتد إلى بقية أطيافه». واستطرد جمال ليقول إن «جماعة الإخوان المسلمين أكدت دور الحب والرعاية والعاطفة في التقرب من المسلمين غير المتعصبين والتواصل معهم. ولم تكن عنده مشكلة في ذلك، أقصد مع المسلمين غير المتعصبين. وفعل ذلك بالتعاطف والتحلي بالصبر في التعامل معهم». واعتبر أسامة إسهامات عائلته لعمله واجبًا عليهم لا أكثر ولا أقل.

---

(٢٥) راجع المقدمة من هذا الكتاب.

(٢٦) سورة النساء: الآية ١٢٧.

وكتب لاحقًا إن «الجهاد بالمال يُعد بالمثل فرضًا... خاصةً على هؤلاء الذين يملكون المال مقارنةً بمن لا يملكونه»[٢٧].

زار سالم بيشاور مرةً ثانية خلال هذه الفترة كما قال بنغت يوهانسون الذي كان بصحبته. وقابل الرجلان أسامة في فيلا بإحدى الضواحي وكانت على حدّ وصفه «مكتبًا عربيًّا يضم بعض الأرائك». تحدثوا معًا قرابة الساعة أو الساعتين حسبما يتذكر، وكان سالم يحمل معه في حقيبته مبلغًا كبيرًا من المال، وقال يوهانسون: «لم أكن أعرف مصدر هذا المال، وإن كان من سالم وحده أم من غيره، لأن الأموال كانت تأتي آنذاك من مصادر عديدة في المملكة العربية السعودية»[٢٨].

بحلول عام ١٩٨٥م كان سالم قد استوعب كيفية الموازنة بين خدمة السياسة الخارجية السرية لفهد في أفغانستان والاستمتاع بحياة الترف والانغماس في الملذات. وفي ذلك الوقت لم يبد أن هذين النشاطين شديدا التناقض.

اعتلى فهد عرش المملكة العربية السعودية بعد أن قضى خالد نحبه بسبب إصابته بقصور في القلب، وكان معروفًا عنه أنه هادئ الطباع. وفور تقلده زمام الأمور، قال فهد لسالم إنه يتمنى أن يكون موكبه أكثر فخامة. وأمر الملك بتخصيص طائرة بوينغ ٧٤٧، ولكن ليست بوينغ عادية، بل أكبر الطرازات حينئذٍ، وهي المعروفة بالطراز ٣٠٠ ـ ٧٤٧ التي تتّسم بطابقها العلوي الكبير.

تولّى فهد حكم المملكة وهو في الثانية والستين من عمره، وهو سن يسمح له بالاستمتاع بالملذات للمرة الأخيرة. ولم تكن صحته على ما يرام، بل إنه في بعض الأحيان كان يلاقي صعوبة في المشي. إلا أنّ فؤاده تعلق بزوجته الشابة الجديدة جوهرة آل إبراهيم التي تزوجت به بعد انفصالها من زوجها السابق، وأنجبت له ابنًا يُدعى عبد العزيز شغف به الملك أيما شغف.

---

(٢٧) جاء ذلك في مقابلة مع خاشقجي في السابع عشر من شهر مارس/ آذار من العام ٢٠٠٦م، راجع كذلك: *Messages to the World*, op. cit., p. 203.

(٢٨) مقابلة مع بنغت يوهانسون Bengt Johansson في الثالث من شهر أكتوبر/ تشرين الأول من العام ٢٠٠٦م.

فزيّن الملك له غرف نومه على نحو مماثل في قصوره المختلفة، واصطحبه معه إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان مبكرًا في طليعة عام ١٩٨٥م. وأصبح أخو جوهرة، الذي كان يُدعى عبد العزيز أيضًا، أحد مستشاري فهد المرموقين في البلاط الملكي، واستطاع تكوين ثروة هائلة في وقت قياسي. وكان يقيم في شقة في حي مايفير في لندن واشترى طائرات خاصة ليسافر على متنها، طرازَي غلف ستريم ودي سي ـ ٨ (Gulfstream) و(DC-8). ونشأت علاقة صداقة بينه وبين سالم، وعندما بحث الملك عن طائرة بوينغ ٧٤٧، اتجه أخو زوجته إلى سالم ليساعده في هذا الأمر[٢٩].

كان فهد يريد لنفسه طائرة استثنائية على مستوى العالم، وكي يتحقق له ذلك، أصدر أوامره بتحويل الموضوع إلى منافسة بين كبريات الشركات العالمية بحيث تدلي كل شركة بدلوها وتعرض ما تراه خياليًّا لاستحسان الملك، ومن ثَم فالأمر يتطلب إدخال تعديلات هائلة على طراز ٧٤٧ لتتناسب مع ذوق الملك. وبهذا فإن المشروع لا يتناسب مطلقًا مع شركة كبيرة مثل شركة بوينغ التي تحقق أرباحها من إنتاج طرازات الطائرات الموحدة على خطوط إنتاجها العملاقة. ولكن رغبة في كسب رضى فهد الذي اشترت شركة الخطوط الجوية في حكومته كثيرًا من الطائرات النفاثة من إنتاج بوينغ، عرضت الشركة على الملك طائرة بوينغ طراز ٧٤٧ ملكية وفريدة من نوعها. وتعدى المبلغ المرصود للتحسينات الداخلية وتطوير النظم ١٠٠ مليون دولار، ومع ذلك لم تثر تصميمات الطائرة البوينغ خيال الملك فهد. وفي الواقع لم يكن الملك سعيدًا بتصميمات شركة بوينغ، وهو الأمر الذي أزعج أخا زوجته وسالمًا أيضًا.

في أثناء سفرياته إلى تكساس، كان سالم يأخذ معه بعض طائرات ليرجت التي يمتلكها إلى سان أنطونيو لإجراء تجديدات داخلية عليها، وهناك قابل أسطورة الطيران الأمريكي دي هاورد الذي لم يتعدّ في التعليم المرحلة التاسعة، وكان مديرًا لشركة الهندسة وخدمات الطيران في مطار

---

(٢٩) جاء ذلك في مقابلة مع واين فاغان Wayne Fagan المستشار العام سابقًا لشركة دي هاورد في العاشر من شهر مايو/أيار من العام ٢٠٠٥م؛ مقابلة مع موظف بن لادن الذي شارك في الصفقات. وعن إبراهيم وفهد ارجع أيضًا إلى المقدمة من هذا الكتاب.

سان أنطونيو. وكان هاورد رجلًا صغير الحجم قوي البنية ذا شعر أبيض وسريع الكلام، ويتمتع ببراعة فطرية في العمل الهندسي. كان يقيم في قصر على ضفاف النهر ويجمع السيارات القديمة، إلا أن عمله مر بفترات من الازدهار تارة والإخفاق تارة أخرى. ومع ذلك كان دائم السعي للوصول إلى تسجيل رقم قياسي في عدد السيارات. أخبره سالم أن مشروع طائرة البوينغ ٧٤٧ للملك فهد يعد فرصة ذهبية لنقل شركته إلى آفاق العالمية في مجال تجديد طائرات الملوك والرؤساء.

يتذكر هاورد قائلًا: «كانت علاقتنا رائعة وكنا نكن الود أحدنا للآخر، واكتشفت أن لدينا اهتمامات مشتركة.. وأصر سالم على حضوري للقاء الملك فهد والتحدث معه بخصوص الموضوع». كان هاورد مترددًا؛ إذ لم تكن حظائر الطائرات التي يملكها في سان أنطونيو كبيرة بما يكفي لاستيعاب طائرة بوينغ طراز ٧٤٧. فدفع له سالم ٦٠,٠٠٠ دولار للاستعداد لتقديم ما لديه، وقال هاورد بهذا الشأن: «كنت حينها كأنني أسدي معروفًا لسالم»(٣٠).

كان سالم محقًّا في اختياره هاورد؛ إذ إن هذا الرجل كان يتمتع بحدس تلقائي تجاه كل ما هو فخم ولافت للنظر. وبدلًا من تكليف فريق العمل لديه في سان أنطونيو لعمل التصميمات المبدئية، عيّن هاورد المصمم الفني في هوليوود المعروف باسم سيد ميد بعد أن لفت إليه الأنظار مؤخرًا لعمله في فيلم الخيال العلمي بلايد رانر (Blade Runner) الذي أخرجه ريدلي سكوت. سافر ميد مع هاورد وسالم إلى الرياض لطرح أفكارهم أمام الملك فهد. وهناك أدهشهم هذا الرجل وهو يعرض رسوماته التخطيطية وهو يمسك كراسته رأسًا على عقب حتى يستطيع فهد رؤية عمله بوضوح أكبر. وقال دي هاورد للملك: «جلالة الملك! كم أود تنفيذ تصميمات هذه الطائرة من أجلك، فأنا أبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا ولن يتسنى لي تنفيذ تصميمات أي طائرات أخرى». شد فهد على يده وابتسم وظن هاورد بينه وبين نفسه أن الملك ربما كان لديه الشعور نفسه(٣١).

---

(٣٠) مقابلة مع دي هاورد Dee Howard في السادس عشر من شهر مارس/ آذار من العام ٢٠٠٥م.

(٣١) المرجع السابق.

تبادل فهد وسالم المزاح الودي، وبين جلسات إعداد التصميمات وفي أثناء تناول الغداء كانا يتناقشان في موضوعات عدة بمزاح وحيوية، وصاح سالم من دون قيود في وجه فهد وهما جالسان على الطاولة شاجبًا آراء الملك. ويتذكر أحد الأفراد الذين كانوا من بين الحضور ما حدث بقوله: «قال بعضهم: «لا يمكنك أن تقول ذلك للملك»» مكررًا إياها واستطرد: «ولم يمسسه سوء، وفي النهاية هدأت ثورته ولم يلق أي عقاب». جلس الرجال عدة ساعات مع فهد لمناقشة التصميمات المدخلة على الطائرة البوينغ طراز ٧٤٧، وكان ذلك جانبًا من الحياة الملكية الذي بدا أن الملك يستمتع بها أيما استمتاع. وفي النهاية، وبعد مفاوضات رهيبة أجراها إبراهيم وتضمنت بعض الطلبات غير المتوقعة، فاز دي هاورد بالعقد الذي بلغ في النهاية ما يساوي ٩٢ مليون دولار[٣٢].

كان العقد ينص على أن الطائرة ستتمتع بعدة خصائص لا توجد عادةً في الطائرات التجارية. وكان من بين هذه المميزات أن تتضمن غرفة عمليات شاملة التجهيزات مرتبطة بالمركز الطبي الأمريكي «كليفلاند كلينيك» بواسطة نظام اتصالات خاص متصل بقمر اصطناعي. وفي حالة الطوارئ، كان يمكن أن يجري الجراحون عملية جراحية له بعد هبوط الطائرة على أحد المدرجات ويرسلوا الأشعة بالقمر الاصطناعي إلى مركز «كليفلاند كلينيك» الطبي ويسكنوا آلام مريضهم، ثم تقلع الطائرة لتتجه إلى العيادة للمتابعة. وبهدف الحماية الأمنية للملك فهد، ألحقت شركة رايثيون كوربوريشن معدات حربية إلكترونية بالطائرة إلى جانب نظام للدفاع ضدّ الصواريخ المتتبعة لحرارة المحركات[٣٣].

وفي حالة عدم وجود أزمات طبية أو محاولات اغتيال، ستوفر تلك

---

(٣٢) جاء ذلك في مقابلة مع موظف بن لادن الذي كان حاضرًا. وقد تجنب هاورد Howard وفاغان Fagan التعليق على طلبات إبراهيم المحددة. ويقول عدد من روايات الصحف المنشورة إن القيمة النهائية للعقد كانت ٩٢ مليون دولار، رغم أن هاورد أعاد القول إن مزايدته الأولى كانت تقارب السبعين مليون من الدولارات وأن هذا السعر قد ارتفع بسبب مجموعة من التغييرات الإضافية والطلبات.

(٣٣) ورد ذلك في مقابلات مع هاورد Howard وفاغان Fagan وموظف بن لادن. راجع أيضًا شهادة دي هاورد الواردة في المرجع الآتي: Dee Howard's 1993 testimony in Ian Munro v. The Dee Howard Co., Bexar County, Texas, 91- CI-00928.

الطائرة للملك أقصى قدر من الرفاهية يمكن توقعها في مثل تلك الرحلات. وصمم هاورد بعد جهد شاق نظامًا للصعود إلى الطائرة يسمح لفهد البالغ طوله ستة أقدام وأربع بوصات بالنزول من سيارته الليموزين على الأرض الإسفلتية للمطار والتلويح للجماهير، ثم المشي خطوات قليلة على سلم متحرك بمستوى الأرض من دون أن يضطر إلى إحناء رأسه بشكل ينتقص من هيبته. ومن هذا المكان يتوارى عن الأنظار ويُصعد به إلى الطائرة، ومنها يصعد على سلم متحرك آخر إلى الطابق العلوي. وكان مجلسه في الطائرة يشتمل على ثريا معلق بها خمسة آلاف قطعة كريستال من مادة البولي كربونيت غير القابلة للكسر. وأسفل جانبي عرش فهد، كانت قطع الكريستال هذه تتلألأ على سطح مياه شلالين صناعيين، واستُلهمت من أعمال مييد لوحة رُسمت على الحائط خلف العرش لمجموعة من النجوم المتناثرة. وكان جناح غرفة النوم الملكية يتضمن دورة مياه كبيرة لتتناسب مع حجم الملك، بالإضافة إلى غرفة ضيافة ووسائد من الحرير. واشتمل سقف كل غرفة على بوصلة إلكترونية موصلة بنظام عالمي لتحديد المواقع عن طريق قمر اصطناعي وموجهة دائمًا تجاه مكة المكرمة خشية أن يغفل الملك أو حاشيته عن أداء العبادات بسبب هذه الرفاهية.

بحلول عام ١٩٨٥م أخذ العمل على هذه التصميمات غير التقليدية يجري على قدم وساق في مطار سان أنطونيو. وما إن ينجح عمال هاورد في اجتياز معايير معينة، حتى تصل المدفوعات في صورة برقيات من الخزانة الملكية، وقد تزيد الدفعة الواحدة عن ١٠ مليون دولار. كان سالم يسافر بصورة متكررة من المملكة العربية السعودية إلى سان أنطونيو سرًّا حتى من دون علم موظفيه أو شركائه الأمريكيين، وذلك لتفقد عمليات تنفيذ التصميمات وحثّ هاورد على الالتزام بمواعيد التسليم. وحسبما يتذكر هاورد عن سالم: «كان شديد الاهتمام بإرضاء الملك»[٣٤].

---

(٣٤) ورد ذلك في مقابلة مع هاورد شهادة دي هاورد Dee Howard وفاغان Fagan، في المرجع الآتي: Ian Munro v. The Dee Howard Co., Ibid.

الفصل الثامن عشر

اضطراب وقلق

بحلول بداية الثمانينيات كان المنافس الوحيد عظيم الشأن أمام سالم، من بين كل أبناء بن لادن، أخاه يسلم الذي تخرج في جامعة جنوب كاليفورنيا وحصل على شهادة في إدارة الأعمال عام ١٩٧٦م. وكان يسلم أصغر من سالم بأربع أو خمس سنوات، وكان الأكبر سنًّا بين مجموعة الإخوة الأشقاء البالغ عددهم ثلاثة والمولودين لرباب إحدى زوجات محمد بن لادن إيرانية الأصل، ولذلك كان له حلفاء من داخل العائلة. وكانت له علاقات ودية مع بعض الإخوة غير الأشقاء المولودين فرادى ممن تعرف بهم في كاليفورنيا. عاد يسلم إلى جدة من لوس أنجلوس بخططٍ بدت تتطور بتشجيع زوجته الجميلة الطموحة كارمن التي تتحدّث الفرنسية ووُلدت لأم إيرانية وأب سويسري. لم تبال كارمن بقولها إنها تظن أن يسلم هو الأكثر ذكاءً بين أبناء بن لادن، وإن تدريبه وخبرته في كاليفورنيا ـ حيث كان يعمل في مجال أجهزة الحاسوب الشخصية حديثة العهد ـ أهّلاه للدخول بشركات بن لادن إلى الآفاق الحديثة للتجارة الدولية. وفي الوقت الذي عاد فيه يسلم إلى جدة كان سالم قد أسس بالفعل شركة بن لادن إخوان كنقطة انطلاق لشركات أخرى، إضافة إلى أنه همّش دور الأوصياء في مؤسسة محمد بن لادن الأساسية، والأهم من ذلك أنه وضع نفسه في مكانة الشخص الذي لا يمكن فهد الاستغناء عنه. علاوةً على ذلك، أقام علاقة شراكة مع شقيقيه الأصغر منه، بكر وغالب، بالإضافة إلى إخوته غير الأشقاء ذوي الشأن مثل يحيى وعمر وطارق، وفاز بعقد للمشاركة في توسيع شبكة الهاتف في المملكة وهو إنجاز عظيم على

المستوى العملي. وأدرك يسلم في غمرة كل هذا أن أمامه فرصة محدودة نسبيًّا لتحقيق طموحاته.

ومع ذلك كان يسلم يتمتع ببعض المزايا، وتتمثّل في إحاطته بأسواق الأسهم والسندات الغربية التي كان سالم يتجنبها بكل الوسائل، إضافة إلى إجادته الفرنسية والإنكليزية واقترانه بزوجة منفتحة على الثقافات الأخرى، وعلى علاقة بأناس كثيرين من دول مختلفة وذات تفكير عملي. أثبتت كارمن نجاحها في استضافة ذوي الشأن في المحيطين الدبلوماسي والتجاري في جدة. وحرصت هي ويسلم على إقامة ملعب تنس في الفيلا التي يقطناها على طريق مكة، وفي ليلة الخميس من كل أسبوع التي تبدأ فيها الإجازة الأسبوعية في السعودية، كانا يقيمان دورات تنس يحضرها خبراء المال من الشباب السعودي ورجال المجتمع والمديرون التنفيذيون الأجانب والسفراء. وكانت تلك من بين الأحداث العرضية التي يُقدّم فيها الخمر من دون قيود ويُشوى اللحم وتتحدّث أغلبية الحضور بالإنكليزية؛ في بيئة تُعد أشبه بمنتجعات كاليفورنيا في أحضان الصحوة الوهابية في المملكة[١].

تشابه يسلم مع سالم في هوسه بالسرعة، بل تدرب على قيادة سيارات السباق إلى جانب تدريبه على الطيران، وعلى مدار السنين كان يجمع سيارات الفيراري واللامبورغيني والبورش. وكان شقيقه إبراهيم معجبًا بالسيارات الرولز رويس. وبعد عودة يسلم إلى جدة أصيب زوج شقيقته فوزية بتهتك شديد في الدماغ في مرآبه في جدة نتيجة كسر رأسه وهو يرجع بإحدى سيارات الفورمولا ١ إلى الخلف خارجًا من المرآب بسرعة شديدة. وهكذا ازدادت جاذبية الطائرات النفاثة والسيارات السريعة للرجال في عائلة بن لادن باعتبارها مقياسًا للرجولة[٢].

---

(١) ورد ذلك في مقابلة مع كارمن بن لادن في السادس من شهر أغسطس/ آب من العام ٢٠٠٤م، ومقابلة مع تيري بينيت Terry Bennett ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥م، راجع أيضًا: Bin Laden, *Inside the Kingdom*, p. 99.

(٢) راجـــع: «Justified Statement of Claims» for Carmen Bin Laden, September 8, 2000, Court of the First Instance of the Republic and Canton of Geneva, Case No. 19750/94-II, translated from the original French and filed in Carmen Binladin v. Yeslam and Ibrahim =

كان يسلم أكثر قدرة على التعامل مع تعقيدات أسواق الأوراق المالية مقارنة بكثير من إخوته؛ بسبب ما تعلمه في جامعة جنوب كاليفورنيا وتعاملاته مع المصرفيين في أمريكا. بدأ يسلم في استيراد أجهزة الحاسوب، وشرع في التفكير في كيفية توفير خدمة استشارية استثمارية حديثة يديرها السعوديون لأقرانهم من بني جلدتهم؛ للتنافس مع السماسرة الأمريكيين والأوروبيين الذين اندفعوا أفواجًا إلى المملكة لتشجيع الاستثمارات في الأسهم لدى حديثي الثراء(٣).

وفي ظلّ تزايد طموحاته في هذا المجال، استفحل شعور سالم بالقلق والتوتر بسبب توقعه الإذعان المطلق له من إخوته الأصغر، إلا أن يسلم رفض تلك الوصاية من أخيه الأصغر. ورغم ذلك، كان سالم يمنحه مكافآت هائلة نظير مجهوداته الإدارية والتنفيذية، وحصل يسلم على ما يزيد عن مليون دولار عام ١٩٧٦م طبقًا لما ورد في ملفات قضية رفعتها كارمن في محكمة سويسرية. وبعد ذلك بعامين ذكرت كارمن أنه حصل على زهاء مليون ونصف المليون دولار في صورة راتب وحوافز(٤).

دأب يسلم وكارمن على قضاء إجازاتهما الدورية في جنيف حيث التقيا للمرة الأولى. وفي عام ١٩٧٨م اشتريا ضيعة قديمة على طريق «بوتيت فوي» في إقليم جينتود وجهّزاها بالأثاث، ودفعا ما يزيد عن مليون فرانك سويسري لشرائها. وأغدق يسلم على كارمن بالمجوهرات، وحسبما تقول إن يسلم أهداها في الفترة بين عامي ١٩٧٥م و١٩٨٥م مجوهرات تزيد قيمتها عن مليوني دولار من ماس وزمرد وياقوت ومصوغات ذهبية. (وأكدت كارمن لاحقًا بأنها «يمكن أن تكون مبذرة» واعترفت بذلك.) وبلغ متوسط المبالغ المالية التي كانت تنفقها في المعتاد ٢٠,٠٠٠ فرنك سويسري شهريًّا في بعض الأحيان. وكانت تحتفظ

Binladin, Los Angeles County Superior Court, BC212648; Ibrahim Bin Ladin v. Paul Andrew = Richey, Los Angeles County Superior Court, WEC114264; *Inside the Kingdom*, op. cit., p. 154.

(٣) جاء ذلك في مقابلة مع كارمن بن لادن، راجع: *Inside the Kingdom*, op. cit., pp. 109 and 115.

(٤) راجع: «Respondent's statement of defense and pleas,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C212648, op. cit.

بصندوق من الأموال النقدية في منزلها في جدة لا يقل ما به عادة عن ٥٠,٠٠٠ دولار[٥].

كان يسلم يتحدّث بلطف وكياسة ويعطي انطباعًا أنه دمث الأخلاق لمن يتعامل معه شأنه شأن كثير من أبناء بن لادن بخلاف سالم. وكان نحيف القوام وتبدو عليه الرقة وبه مسحة من الخيلاء. وكان يرتدي الملابس العصرية ذات العلامات التجارية الشهيرة، ويبدو أنه كان يفضّل ارتداء الملابس التي تُظهر تلك العلامات، وكان يتواجد في منزله في سويسرا أو كاليفورنيا أكثر ممّا يتواجد في المملكة العربية السعودية. وبعد انقضاء شهور على عودته إلى جدة ناضل للبحث عن هوية ترضي طموحاته. وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من بلوغ الثلاثين عامًا، كان قد بلغ من الثراء والنجاح مبلغًا وأبًا لابنتين صغيرتين، إلا أنه ابتُلي بتزايد تعرضه لنوبات الذعر[٦].

استطاع يسلم لبعض الوقت مقاومة هذه النوبات، إلا أنه في عام ١٩٧٩ الذي شهد كثيرًا من الاضطرابات، طغى الشعور بالقلق بصورة كلية على يسلم. وحسبما ورد عن كارمن في تأكيدها في ملفات المحكمة، كان يسلم «يخفي نفسه في المنزل». وقد قضت «ليالي بأكملها تحاول أن تبث في نفسه الشعور بالاطمئنان». ولكن سلوكياته ازدادت غرابةً حتى إنه «أراد أن يلعب النرد ليلًا ونهارًا، وكان يوقظ زوجته دومًا ويطلب إليها أن تشاركه ولعه الشديد بهذه اللعبة». وفي أثناء انتفاضة مكة، تتذكر كارمن أنه كان يتنقل سريعًا «من المنزل إلى الشركة كأن به جُنة». وفي أعقاب هذا العنف «كان يتعرض لكوابيس، وكان خائفًا من كل شيء حتى الموت كان يخشاه أيما خشية»[٧].

---

(٥) المرجع السابق، وراجع أيضًا: «Complaint for Declaratory Relief,» June 28, 1999, Los Angeles C212648, op. cit; *Inside the Kingdom*, op. cit., p. 150.

(٦) في طلب الطلاق المقدّم ضدّ يسلم في جنيف، وصف محامو يسلم موكلهم بأنه رجل عاطفي للغاية ويميل إلى القلق. وتشير أقوال يسلم في هذه القضية إلى سقوطه مريضًا وبحثه عن علاج ولكنه لا يستطرد متحدثًا عن حاله. والإشارة إلى نوبات الذعر مصدرها العرائض التي قدّمتها كارمن في تلك القضية.

(٧) راجع: «Replies to Yeslam's numbered paragraphs,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C212648, op. cit; *Inside the Kingdom*, pp. 124 and 129.

ومن جانبه شعر يسلم في ظلّ استفحال الصراعات التي تفور بداخله أن زوجته لم تراع حالته. وكما ذكر محاموه في ملفات محكمة سويسرية، «يبدو أن زوجته كانت تشعر بسعادة وحقد بتفاقم حالته من خلال مشاهد العنف المستمرة التي كانت تصرخ خلالها وتهدده بالانتحار إن لم يستجب فورًا لنزواتها. . . وكانت عادة تهدده بأنها ستقود سيارتها حتى تصطدم بإحدى الأشجار». أنكرت كارمن هذه الادعاءات، وذكرت أنها فعلت «كل شيء يمكن أن يساعده في التغلب على أهوائه وإحكام سيطرته على مستقبله وعمله». وعلى أي حال، لجأ يسلم إلى جنيف للبحث عن أفضل الاختصاصيين لعدم قدرته على التعايش مع هلوساته أو زوجته، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. فسافر إلى لوس أنجلوس لمدة ستة أسابيع لتلقي العلاج الطبي، وطبقًا للتصريحات التي أدلى بها يسلم في المحكمة، نتج من هذه السفرية تحسن في حالته[٨].

في خضم هذه الصراعات النفسية قرر يسلم أن يخوض بعائلته في خضم أسواق الأوراق المالية والسندات الدولية، واشترى أجهزة الحاسوب التي يمكن أن تدعم عمليات تداول الأسهم، وافتتح في جدة أول مكتب سعودي للسمسرة في الأسهم، وكان هدفه ـ حسبما ذُكر في البطاقات الدعائية ـ «القضاء على الفكرة السائدة بأن كل من يريد أن يصنع ثروة عليه الاتجاه إلى وول ستريت»[٩].

سريعًا ما بدأ نجم يسلم في الظهور خلال أوائل الثمانينيات باعتباره رائدًا لعائلة بن لادن في مجال تداول الأسهم والاستثمارات العقارية المشتركة على المستوى الدولي وإنشاء شركات خارجية في الكاريبي أو أمريكا الوسطى وأوروبا لتعمل كملاجئ سرية للمعاملات المصرفية والضريبية. وأصبحت صناديق زكاة عائلة بن لادن مرتبطة بتطرف أسامة

---

(٨) راجع: Divorce Application, «As to Fact,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C212648, op. cit;Replies to Yeslam's numbered paragraphs,» ibid; «Declaration of Yeslam Mohammed Binladin,» November 22, 1999, Ibid.

(٩) راجع: «Saudi Investment Company (SICO): An Emerging Financial Service 'Center,» circa 1983, filed in In *Re Terrorist Attacks on September 11, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570.

الدولي المشوش. وبالمثل، ارتبط مصير بعض الأموال الاستثمارية للعائلة برؤية يسلم العالمية لاستثمار الأموال واضطرابات القلق التي يعانيها إضافة إلى تجربة زواجه الفاشلة.

قرابة عام ١٩٨٠م أسس يسلم شركة سويسرية سيُطلق عليها لاحقًا شركة الاستثمار السعودي. وكانت ملكيتها تابعة لشركة تقع في جزر كايمان تُدعى شركة فالكن المحدودة، وكان ليسلم وأشقائه اليد العليا فيها. وكان لشركة فالكن أيضًا حصص استثمارية في شركات أخرى، إلا أن مجموعة حاملي الأسهم في هذه الشركات الخارجية غير معروفة وكذلك الأنشطة التي تقوم بها، إلا أن بعض أسمائها تلمح إلى أن لها صلة باسكتلندا وإيرلندا، مثل: شركتا سيلتا فاينانس إس. إيه وغالواي المتحدة. وكان بعض هذه الشركات الخارجية قد تأسس لإدارة الاستثمارات الفردية في المشروعات والعقارات التجارية أو لاستخدامها كمقارّ إقامة خاصة بعائلة بن لادن في الولايات المتحدة الأمريكية أو أوروبا، وربما تكون هناك شركات أخرى قد تأسست للتعامل مع صفقات الاستيراد أو التأجير لشركات بن لادن، بينما تأسس بعضها لتمويل الأعمال الإنشائية في دول مثل السودان، وظلت بعض الشركات غامضة تمامًا. وفي عام ١٩٨٣م أسس يسلم شركة بنما كوربوريشن التابعة لشركة الاستثمار السعودي وكان رئيسًا لمجلس إدارتها، أما محاميه السويسري بادوين دوناند فعمل معه مديرًا في الشركة. وفي العام اللاحق أسس في بنما أيضًا فرعًا لمؤسسة محمد بن لادن المتحدة وكان سالم رئيسًا لمجلس إدارتها، بينما شغل يسلم منصب المدير والمسؤول المالي وكان بكر - شقيق سالم - مديرًا آخر في الشركة. تبعثر ما تبقى من سجلات هذه الشركات وغيرها من الشركات الأخرى التابعة لعائلة بن لادن - في بنما وجزر كايمان ودولة كوراساو وجزر الأنتيل الهولندية وإمارة ليختنشتاين ولوكسمبرغ وسويسرا وجزر القنال الإنكليزي وفي غيرها من الأماكن الأخرى - تبعثر ما تبقى من سجلاتها هنا وهناك؛ إذ افتُتحت شركات وأُغلقت وغيرت أسماءها واستحوذت إحداها على الأخرى أو ظلت راكدة لسنوات، بينما جدد محامو العائلة أو محاسبوها الموجودون في لندن وفي كل مكان وثائق تسجيلها الأساسية. ويبدو أن

يسلم كان طرفًا في كثير من هذه الشركات الخارجية خاصةً تلك الشركات التي تركزت اهتماماتها في المشروعات العقارية في الولايات المتحدة الأمريكية(١٠).

عيّن يسلم قرابة عشرة موظفين في شركة الاستثمار السعودي في جدة وعقد «مئات الاجتماعات التسويقية لتعريف العامة بالشركة» حسبما ورد في البطاقات الدعائية للشركة. وفي هذه العروض التقديمية للشركة أكد يسلم وزملاؤه قوى العولمة المالية، وورد في إحدى البطاقات الدعائية العبارة الآتية: «نظرًا إلى توفر عددٍ من شبكات الاتصالات المتطورة للغاية في المملكة، فإن الفجوة المعلوماتية بيننا وبين الأسواق الأجنبية آخذة في الانكماش ممّا يعطينا فرصة المنافسة مع السماسرة الأجانب، وهذا بالفعل ما خططنا لتنفيذه عندما أرسينا قواعد العمل الأساسي لتغطية أسواق الأسهم الأمريكية لعملائنا». أوفدت شركة الاستثمار السعودي عددًا من السماسرة التي يعملون لديها إلى الخارج لدراسة عمليات التداول الجارية في شركات سمسرة أجنبية، وأنشأت قسمًا في جدة متخصصًا في أسواق الأسهم الأمريكية واليابانية. وبحلول أواخر عام ١٩٨٣م ذكرت الشركة أنها تملك أسهمًا تزيد قيمتها عن ١٠ ملايين دولار لعملائها السعوديين، وأضافت أن معدل دورانها السنوي بلغ قرابة ٢٠٠ مليون دولار. وأصبح تداول الأسهم باستخدام الحاسب الآلي ـ الذي كان الهدف منه استغلال فجوات الأسعار في الأسواق المنتشرة في جميع أنحاء العالم، وكان يمكن أن يؤدي إلى زيادة سرعة الاستثمارات وحجمها ـ أصبح حينئذٍ يربك أسواق الأسهم في طوكيو

---

(١٠) راجع: «Reply Memorandum In Support of Defendant Yeslam Binladin's Motion,» In *Re Terrorist Attacks*, Ibid.

وفي ما يتعلق بالأعمال الإنشائية في السودان فقد وصف عمر بن لادن في إقرار مقدم منه في (*In Re Terrorist Attacks*) كيفية تأسيس شركة تدعى بن لادن عبر البحار، وهي الشركة التي أسِّست في جزر جيرسي شانل في أواخر ثمانينيات القرن العشرين. وقد أُهديت تلك الشركة عقدًا لبناء مطار السودان في السودان. أما المعلومات الواردة حول شركة بنما التابعة لشركة الاستثمار السعودي فهي مأخوذة من الملفات البنمية المقدمة إلى المؤلف من دوغلاس فرح Douglas Farah ومن مؤسسة Nine/Eleven Finding Answers Foundation، ويعود تاريخ أوراق التأسيس تلك إلى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٨٣م. وقد قدمت الشركة أوراق التأسيس في الحادي والعشرين من شهر مارس/ آذار من العام ١٩٨٤م.

ولندن ونيويورك، وتعهد يسلم بالفعل بتطوير نظم التداول في المملكة العربية السعودية(١١).

عقد يسلم اتصالات مع البنوك الاستثمارية في وول ستريت، ومنها «بنك دونالدسون لوفكين آند جينريت» الذي خطط يسلم من خلاله لتصفية تداولات العملاء السعوديين في أسواق الأسهم الأمريكية، ممّا سهل عليهم شراء الأسهم وبيعها في بورصة نيويورك للأوراق المالية وفي الأسواق التي تحدث عملياتها خارج البورصة(١٢).

قدم المصرفيون الاستثماريون في بنك دونالدسون لوفكين آند جينريت يسلم إلى تشارلز تيكل كبير تنفيذيي شركة دانيال كوربوريشن، وهي شركة تنمية عقارية أمريكية. كان تيكل يبحث عن شركاء لتمويل المكتب والمشروعات السكنية في الولايات المتحدة الأمريكية، وقال يسلم إنه مهتم بالأمر. وأسس يسلم شركة أخرى في بنما تُدعى شركة المستثمرين السعوديين المحدودة ووُصف حاملو الأسهم فيها في إحدى وثائق الشركة بأنهم «عائلة محمد بن لادن». وفي عام ١٩٨٠م اشتركوا مع شركة دانيال في بناء مجمع «إمبريال بلازا» السكني في مدينة ريتشموند بولاية فرجينيا، وبُني هذا المجمع على مساحة فدّانين واشتمل على مطعم ومسرح ومحل تصفيف شعر وبنك وصيدلية ومكتبة ودار مسنين وأربعة أبراج عالية البنيان تضم ٨٩١ شقة. بعد ذلك بثلاث سنوات شاركوا باستثمارات في مشروع «وودجيت ويست» الذي كان يهدف إلى بناء ٣٤ مبنى سكنيًّا من طابقين في جنوب غرب هيوستن. وجاء في إحدى البطاقات الترويجية التي وزعها يسلم وصفٌ لهذه الصفقات على أنها «مفهوم فريد من نوعه للاستثمار في العقارات الأمريكية». وتوقعت الشركة تحقيق «قوة شرائية» تبلغ ١٠٠ مليون دولار بحلول فصل الربيع لعام ١٩٨٤م(١٣).

---

(١١) المرجع السابق.

(١٢) المرجع السابق.

(١٣) أُخذت هذه المعلومات من محادثة عبر الهاتف مع تشارلز تيكل Charles Tickle في السادس عشر من شهر فبراير/شباط من العام ٢٠٠٦م، راجع كذلك: NEFA documents, op. cit; a prospectus for Saudi Investors, In *Re Terrorist Attacks*; «Saudi Investment... Emerging Financial Service Center,» op. cit.

اعتبر تشارلز تيكل الذي عمل خارج مدينة برمنغهام في ولاية ألاباما يسلم «من الشخصيات شديدة الاحترافية في جميع أحواله، إلى جانب كونه مثقفًا ومتحدثًا لبقًا». وذكر أن شركة دانيال كوربوريشن «لم يسبق أن عقدت معه صفقات خاسرة على الإطلاق من أي نوع». وبصفة عامة عملا معًا في قرابة خمسة مشاريع عقارية تجارية في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي كل منها كانت شركة يسلم، شركة الاستثمار السعودي، المستثمر الوحيد إلى جانب شركة دانيال كوربوريشن. وأسسا شركات خارجية لتكون بمنزلة وسطاء تمويل، وكان تيكل وأحيانًا يسلم يشغلان مناصب إدارية وتنفيذية فيها. ويقول تيكل إن مصادر الأموال التي يستثمرها يسلم بالفعل كانت هي اللغز الوحيد، هل كانت أمواله أم أموال أفراد آخرين في عائلة بن لادن، أم أموالًا تخص مستثمرين سعوديين آخرين، أم أموالًا من مصادر أخرى مجهولة. وقال تيكل عن ذلك: «كان ذلك دومًا أمرًا سريًّا». وفي ذلك الحين «كان هذا الأمر لا يعنينا كثيرًا» باعتباره ذا صلة بالعمل وليس أمرًا شخصيًّا. ولأغراض متعلقة بشركة دانيال كوربوريشن، كانت صناديق الاستثمار جميعها متشابهة، وكان ليسلم الحق في الحصول على مبالغ نقدية هائلة، ولم يكن هناك ما يدعو تيكل لاعتقاد أن هذه الأموال نابعة من مصادر غير شرعية[(١٤)].

حينما فتح يسلم هذه المحفظة الاستثمارية العالمية وجد أن العمل مع سالم أكثر صعوبة ممّا سبق؛ إذ كان يسلم «في ذلك الحين رئيس القسم المالي فعليًّا» لشركات بن لادن، وفقًا لما ذكرته كارمن، إلا أن «صعوده إلى هذا المنصب لم يكن على هوى كل من سالم وبكر» الذي كان نفوذه يتزايد باعتباره الذراع الأيمن لسالم ونائبه؛ لذا وقف كلاهما حجر عثرة أمام تنفيذ بعض القرارات التي كان يتخذها يسلم ممّا أدّى إلى تفاقم شعوره بالسخط. إلى جانب ذلك شعر يسلم وبعض إخوته الآخرين «بالإحباط بسبب فقدانهم الصلة» بالعائلة المالكة السعودية؛ لأن «سالمًا وبكرًا حالا دون اتصالهم بالأمراء» حسبما قالت كارمن. ومع ذلك بدا يسلم مترددًا بشأن مواجهة إخوته الأكبر علنًا. وحتى في السنوات

(١٤) ورد ذلك في مقابلة مع تيكل Tickle المذكور سابقًا.

اللاحقة لم يتحدّث يسلم بالتفصيل عن هذه الصراعات مشيرًا فحسب على نحو غير مباشر إلى وجود «خلافات» وإلى إقصائه تدريجيًّا من الشركات الأساسية للعائلة(١٥).

في عام ١٩٨٥م غادر يسلم جدة إلى ضيعته في ضواحي جنيف. ومع أنه نأى بنفسه عن إخوته فإنه لم ينفصل عنهم انفصالًا تامًّا، إذ ظلّ يسلم وسالم وبكر مديرين مشتركين لعدد من الشركات الخارجية لسنوات بعد ذلك، وكانوا يعقدون اجتماعات عمل ولقاءات عائلية اجتماعية من حين إلى آخر. إضافة إلى ذلك استمر يسلم في إدارة أموال العائلة، خاصةً أموال أشقائه وأخته. وكان ينوب عن إخوته وأخواته الآخرين غير الأشقاء في أداء العمليات المصرفية السويسرية وبعض الاستثمارات. ومع ذلك كان يسلم يتمنّى من كل قلبه الابتعاد عن نطاق العمل الذي كان يسيطر عليه سالم في جدة، وأن يقيم علاقات مستقلة مع الأمراء السعوديين والمستثمرين الأثرياء الآخرين ممن هم خارج نطاق سيطرة سالم أو بكر بالفعل؛ كان الأميران ماجد ومشعل، أخوَيْ فهد غير الشقيقين، اثنين من أكثر الشخصيات البارزة التي كان يسلم على علاقة بها خلال هذه الفترة(١٦).

قرّر يسلم إقامة شركة استثمارية تذهل السعوديين والأوروبيين والأمريكيين على قدم المساواة؛ إذ أراد إنشاء شركة تضاهي فخامة أي بنك سويسري. فاشترى عمارة كبيرة مبنية بالأحجار في ملتقى شارعين في جنيف القديمة وجددها مقابل ما يربو عن خمسة ملايين فرنك سويسري. وتقع هذه العمارة في شارع فرنسوا ليفور وكان سيجعلها المقر الرئيس لشركة الاستثمار السعودي. ومن هذا المقر أدار يسلم حسابات السمسرة والتداول الدولي في الأسهم. ويشير الخطاب الذي كتبه في ثلاث صفحات إلى شقيقه إبراهيم بشأن ركود شركة الاستثمار السعودي في اليوم الحادي عشر من شهر مارس/ آذار من عام ١٩٨٥م، وجرى التحفظ عليه لاحقًا في دعوى قضائية أمريكية، ويوضح باختصار نشاطه في التداول. ويشير الخطاب إلى

---

(١٥) جاء ذلك في مقابلة مع يسلم منشورة في مجلة في. إس. بي V.S.B جنيف ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م وقد تُرجمت وأدرجت في المرجع الآتي: *In Re Terrorist Attacks.*

(١٦) راجع: *Inside the Kingdom*, op. cit., pp. 113 and 187.

مراجعة حسابية نفّذها فرع مكتب «آرثر آندرسون» للمحاسبة والمراجعة في جنيف، ثم يدرج أن ممتلكات إبراهيم بن لادن من أسهم وسندات: تمثّلت في ملكياتٍ صغيرة من ذهب وفضة وعدة مئات الآلاف من الدولارات الأمريكية في صورة ودائع نقدية ـ ويبدو أنه استخدمها لتقديم ضمان إضافي لصفقات تداول الأسهم ـ وأسهم أو خيارات استثمارية في خمسة وثمانين شركة مختلفة، كان أغلبها أمريكيًّا. وكان في محفظة الأسهم التي يملكها إبراهيم شركة أنهيوسير ـ بوش لصناعة البيرة، وشركة بالي مانيفاكتشورينغ لتصنيع آلات لعبة «الكرة والدبابيس» *Pinball*، وشركة أمريكان إيرلاينز للخطوط الجوية[١٧].

كان وقتًا رائعًا لتعزيز سوق الأسهم أيًّا كانت الاستراتيجية. وبعد فترة ركود حاد في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٢م، ارتفع مؤشر داو جونز الصناعي المتوسط بما يزيد عن ٥٠ في المئة على مدار السنوات الثلاثة المقبلة. وعلى مدار فصلي صيف وخريف عام ١٩٨٥م اللذين أسس فيهما يسلم شركاته في جنيف ارتفعت أسعار الأسواق إلى ما يزيد عن ذلك، وسريعًا ما ارتفع مؤشر داو جونز إلى الضعف بعد انخفاضه الذي حدث عام ١٩٨٢م، ثم واصل ارتفاعه. وانتشر هَوَس الاستثمار في الأسهم في جميع أنحاء الولايات المتحدة الامريكية وفي الدول الصناعية، وازداد سريعًا وعلى حين غرة حجم الأسهم المتداولة يوميًّا في البورصات الرئيسة، وفي ذلك الحين سريعًا ما انجرف كثير من المستثمرين من الطبقة الوسطى الذين كانوا يتجنبون تداول الأسهم في ما سبق مع هذا التيار.

شعرت كارمن أن نوبة مشابهة من نوبات الجنون على وشك أن تتملك يسلم؛ ففي عام ١٩٨٥م، وفقًا لما ذكره محاموها في الدعاوى القضائية المقدمة أمام المحكمة السويسرية، «مر يسلم بمرحلة من التبذير والإنفاق غير المسؤول، فاشترى ما يزيد عن ٥٠٠ زوج من الأحذية ومئات

---

(١٧) راجـــع: «Respondent's statement of defense and pleas,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C212648, op. cit. March 11 letter: Filed in Christine Binladin v. Ibrahim Binladin, Los Angeles County Superior Court, BDO58156.

السترات وما يربو عن عشرة سيارات فارهة». وجاء أيضًا في هذه الدعاوى أن يسلم في الوقت نفسه «استمر في المعاناة بسبب تدهور صحته ونوبات الفوبيا والذعر الشديدة التي كانت تنتابه». ووجدت كارمن «أنها لن تتمكن من تحمله بمرور الوقت إلى جانب ازدياد تسلطه في الرأي». ولذا بحثت عن علاج يريحها من نوبات القلق والذعر التي تتعرض لها بسببه. وفي ذلك الوقت أدرك يسلم أن الحالة النفسية لزوجته تزداد سوءًا ولم يعد يتحمل تهديداتها المتكررة بقتل نفسها، وذلك وفقًا لما ورد في الدعاوى القضائية المقدّمة إلى المحكمة السويسرية من محاميها. وراودته الشكوك بأن زوجته على علاقة برجل آخر وأنها كانت «تخدعه وأن تهديداتها بالانتحار كانت ستارًا لخيانتها». وفي نهاية المطاف انتقل يسلم من ضيعته في جنثود «لعجزه التام عن تحمل أفعال زوجته» وذهب إلى العمارة التي أسس فيها شركته في جنيف القديمة. وحينها أبلغته زوجته بخبر حملها، وتناقشا معًا بخصوص لم شمل عائلتهما معًا وإنجاب المزيد من الأطفال. وبعد عدة مرات من الانفصال أنجبت في النهاية ابنتها الثالثة في شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٨٧م[١٨].

في غمرة هذه الاضطرابات اتخذ يسلم قرارًا بأن يشتري حق إدارة شركة لسمسرة الأسهم في لندن. وربما لم يكن هذا الوقت المثالي ليتولى يسلم أمر هذا الاستثمار المعقد إلا أنه تقدم بجرأة. وكان لشركة راسل وود آند كومباني مكاتب في منطقة ثاوث ورك التي تقع جنوبي نهر التايمز. أسس سمسار الأوراق المالية البريطاني المدعو جورج راسل وود الشركة مع كثير من الشركاء عام ١٩٧٢م. وتخصصت الشركة في ما كان معروفًا بتجارة العميل الخاص، بمعنى أنها عُنيت بتداول الأسهم للأثرياء. وكانت لهذه الشركة مكانتها باعتبارها مؤسسة وسيطة لحسابها الخاص في سوق لندن للأوراق المالية، ويعني هذا أنه كان باستطاعتها شراء الأسهم وبيعها لحسابها الخاص أو لعملاء من دون الخوض في أي عمليات وساطة؛ أي إنها كانت من أعضاء السوق المالية. وسمح لها نشاطها هذا بتعزيز السرعة

(١٨) راجـــــع: «Respondent's statement of defense and pleas,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C2I2648, op. cit; Yeslam's «Divorce Application... As to Fact,» Ibid.

والكفاءة والخبرة علاوةً على التعامل مع مستثمرين أثرياء. وعن طريق السيطرة على تلك الشركة كان في مقدور يسلم إقحام شركته وعائلة بن لادن بصورة مباشرة في الأسواق الدولية للأسهم للمرة الأولى. ويتذكر أوغست سوتر الذي سيصبح أحد الشركاء لاحقًا أنهم «أرادوا إثبات نجاحهم باعتبارهم سماسرة في لندن لأنهم كانوا سماسرة في بلدهم». وأراد يسلم «إسداء النصيحة لكل مواطني المملكة العربية السعودية الذين يملكون أموالًا طائلة حتى يستثمروا أموالهم على المستوى العالمي»[١٩].

اصطحب يسلم معه إلى سويسرا شخصًا يحمل جواز سفر تنزانيًّا يُقال له أكبر مُوَلّى الذي كان يعمل في ما سبق في بنك أمريكي في المملكة العربية السعودية. عمل مُوَلّى عند يسلم رئيسًا لقسم الحسابات ومديرًا، وكان هو المتعامل الرئيس مع شركة راسل وود في جنيف مع دخول محادثات الشراء التي تمّت خلال عام ١٩٨٦م وأوائل عام ١٩٨٧م في حيّز العلن.

في الوقت ذاته أخذت أسعار الأسهم في الارتفاع وتزايد حجم المعاملات على الأسهم الكبرى. وبحلول ربيع عام ١٩٨٧م توصل الطرفان إلى اتفاق، فعلى الرغم من أن سعر الشراء لم يُكشف عنه، فيبدو أن إجماليّه بلغ على الأقل عدة ملايين من الجنيهات الإسترلينية. واستغل يسلم شركته فالكن المحدودة التي تقع في جزر كايمان للسيطرة على شركة راسل وود، وتولّى مُولّى إدارتها. وأحضر يسلم أحد أجهزة الحاسوب التي كان يستخدمها في تداول الأوراق المالية ليتتبع مسار كل عمليات التداول التي ينفذها العملاء الحاليون لشركة السمسرة في لندن والعملاء الجدد من المملكة العربية السعودية وفي غيرهما من الأماكن. وكان نظام الحاسوب مبرمجًا على التحكم في كل عمليات التداول في الشركة في أواخر شهر أغسطس/ آب من عام ١٩٨٧م[٢٠].

---

(١٩) ورد ذلك في محادثة عبر الهاتف مع أوغست جورج جيمس ساوتر Auguste George James Sauter في الخامس عشر من شهر يوليو/ تموز من العام ٢٠٠٥م.

(٢٠) راجـع: Regulatory filings of Russell Wood (Holdings) Limited and Russell Wood Limited, Companies House, London, 1987-1989. 21; «Divorce Application» and «Respondent's statement of defense and pleas,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C212648, op. cit.

في الساعة الثانية صباحًا من اليوم الأول من شهر أغسطس/ آب، ذهبت كارمن إلى العمارة التي يقطنها يسلم في جنيف القديمة ووجدته مع امرأة أخرى. وكتب محاموها: «إن اكتشاف هذا الأمر كان صدمة قوية لكارمن». فأبدت رغبتها في الطلاق وشرع يسلم في إجراءات الانفصال رسميًا.

وفي اليوم السابع عشر من شهر أغسطس/ آب، وصل مؤشر داو جونز الصناعي المتوسط إلى أعلى مستوى له على الإطلاق، ثم بدأ في الانخفاض.

تدهورت الحالة النفسية لكارمن وبعد أسبوع ساعدها طبيب في جنيف في أثناء مفاوضاتها مع يسلم بشأن الطلاق، في استخراج شهادة طبية تشير إلى أن «نوبات القلق والذعر التي تتعرض لها ازدادت مؤخرًا» وأن «أي قرار أو توقيع» يُؤخذ منها ينبغي «اعتباره باطلًا». وسريعًا ما نُقلت إلى المستشفى وهي تعاني الإنهاك الشديد(٢١).

وفي لندن تسبّب الارتفاع المفاجئ للتيار الكهربائي ـ المولد من شبكة كهرباء المدينة ـ الذي بلغ زهاء ألف فولت في «احتراق كل الأقراص الصلبة» في شبكة أجهزة الحاسب الآلي في شركة راسل وود، وفقًا لما قاله سوتر. ودمر تدفق التيار الكهربائي كل سجلات عمليات تداول الأسهم وعقود الخيار التي نفذها عملاء الشركة. ولم يكن هناك أي نسخ احتياطية لمحتويات الأقراص الصلبة حسبما قال سوتر. وليست هناك أي تفاصيل في ما يتعلق بما حدث بعد ذلك. ويتذكر سوتر أن بعض سماسرة الأسهم في الشركة جذبوا كثيرًا من عملاء شركة راسل وود إلى خطة تداول عقود خيار خطيرة مشتملة على أسهم شركة لصناعة البيرة في ضاحية كرويدون بإنكلترا، وأنه على حين غرة ـ في غمرة الارتباك الذي سببه عطل أجهزة الحاسب الآلي ـ حاول السماسرة المنافسون الاستحواذ على هذه الأسهم، ممّا أدّى إلى انهيار مكانة شركة راسل وود. وعلى أي حال، في خريف ذلك العام، تراجعت الموارد المالية لشركة السمسرة

---

(٢١) راجـــع: «Divorce Application» and «Respondent's statement of defense and pleas,» Court of First Instance, Geneva, translated and filed in Los Angeles C212648, op. cit.

بسرعة شديدة. وفي شهر أكتوبر/تشرين الأول، عانت سوق الأسهم انهيارها الأكبر لمدة يوم واحد منذ الكساد العظيم الذي حدث عام ١٩٢٩م. وفي نهاية العام خسرت شركة راسل وود ٥,٣ ملايين جنيه إسترليني أو ما يعادل زهاء ٦ ملايين دولار. وفي الدعاوى القضائية المرفوعة لمصلحة المنسقين البريطانيين، ألقت الشركة باللائمة على عطل أجهزة الحاسب الآلي بشأن ما تعرضت له، وهو الأمر الذي أدّى إلى «تعطيل أجهزة التحكم في الحسابات»[٢٢].

وبشكل عام، كان هذا صدامًا محبطًا بين عائلة بن لادن وقوى العولمة، وعما قريب سيواجهون ما هو أسوأ.

(٢٢) جاء ذلك في مقابلة مع ساوتر Sauter المذكور سابقًا، وقد ذكر أن أبناء بن لادن في نهاية المطاف قاموا بمقاضاة بعض سماسرة البورصة المتورطين في الأمر لاستعادة أموال العملاء المفقودة. ومن المعلوم أن سجلات المحكمة البريطانية لهذا النوع من القضايا لا تكون متاحة للجمهور وكان من غير الممكن أن يكشف عن ملفات تؤكد استعادته للأموال. راجع أيضًا: Russell Wood annual report, Companies House, London, 1988.

الفصل التاسع عشر

الجدية والاجتهاد

بحلول منتصف الثمانينيات بدا الأربعة والعشرون أخًا المنتمون إلى عائلة بن لادن ممن يملكون أسهمًا في شركة العائلة الرئيسة كأنهم جبهة من المشرعين المنتمين إلى الحزب السياسي نفسه؛ حيث يرتبطون بمصالح عمل مشتركة ويضعون نصب أعينهم هدفًا واحدًا يعملون طوال الوقت على تحقيقه، إلا أنهم بلا شك ينتمون إلى قوى ليبرالية وأخرى محافظة. فاليساريون يمثلهم سالم، قائد العائلة من دون منازع، إلى جانب يسلم وكثير من الإخوة الذين عشقوا أوروبا وبيروت. بينما نجد كلًّا من أسامة ومحروس يتصدّر الفرع الديني الناشط المتحمس. وفي ما بين الفرعين تناثر الإخوة الأربعة الصاعدون الذين درسوا جميعًا الهندسة المدنية، وهم بكر وغالب وعمر ويحيى، الذين عاشوا أسلوب حياة عربيًّا وسطيًّا على نحو أكثر تقليدية. ولم ينزع أحدهم إلى الحصول على خمسمئة زوج من الأحذية ولا التطوع للجهاد في الحروب مع الدول الأجنبية، بل كانوا مسلمين متمسكين بقواعد الدين الإسلامي مع أنهم كانوا مميزين بصورة أكبر بخبراتهم التقنية واستعدادهم للعمل. ومن بين أبناء محمد بن لادن، كانوا هم الأكثر جدًّا واجتهادًا وقضوا ساعات طوال في المكاتب وفي مواقع العمل.

ظهر بكر ـ شقيق سالم الذي وُلد بعده بعام أو اثنين في مكة المكرمة ـ من بين الإخوة الأربعة باعتباره كبير مسؤولي العمليات للعائلة وشركاتها. وكان لقبه الوظيفي «مدير المشروع الميداني» لقسم الإنشاءات في مؤسسة محمد بن لادن، وكان عضوًا من أعضاء مجلس الإدارة ومجالس إدارة

مشروعات مشتركة أخرى كثيرة نشأت من شركة بن لادن إخوان المنفصلة التي أسسها سالم الذي كان مسؤولًا عن «جلب الصفقات لعائلة بن لادن» وفقًا لما ذكره محمد عشماوي المدير التنفيذي السعودي في مجال النفط، الذي استطرد قائلًا إن «بكرًا كان هو المسؤول عن إدارة العمل»[(١)].

كان مظهر بكر الخارجي يوحي بأنه شخص روتيني بالفطرة؛ إذ كان يفضّل ارتداء الجلباب التقليدي الأبيض المكوي بعناية، مع وضع قلم أو أوراق مطوية في جيب الصدر. ويتذكر فرانسيس هانيويل المصرفي الاستثماري الذي عمل في مشروع شبكة الهواتف أن بكرًا «كان يفعل كل شيء بالفطرة، بينما كان سالمٌ أكثر تحفظًا وأكثر اهتمامًا بعمليات الشركة. ويتذكر مايكل بوكنا أن بكرًا كان «شخصًا شديد الذكاء» ولكنه كان دومًا يبدي موافقته على أي قرار يصدره أخوه الأكبر[(٢)].

بينما تعلم سالم أغاني فرقة البيتلز الموسيقية في المدرسة الداخلية التي تلقى فيها تعليمه في مدينة إسيكس، درس بكر في سوريا ولبنان. وكان يتحدّث الفرنسية إلا أن إجادته للإنكليزية كانت أقل. وبعد أن قضى والده نحبه، عزم سالمٌ على أن ينال شقيقاه الأصغر منه، وهما بكر وغالب، شهادة جامعية في الهندسة المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية حتى يستطيعا قضاء حياتهما العملية في إدارة مشروعات الإنشاء والتعمير للعائلة. أنهى بكر دراسته الثانوية في مستهل الأمر، وحينئذٍ، في أواخر الستينيات، كان لسالم القليل من المعارف في أمريكا؛ إذ انتقل محمد بيرغن إلى ميامي، وهو صديق سالم التركي ضخم الجثة الذي كان يصعب عليه التحكم في انفعالاته وكان معروفًا لكل معارف سالم بلقب «الفيل الصغير». وكان بيرغن شابًّا وسيمًا ثرثارًا ذا شعر أسود كثيف. وفي ذلك الحين كان يقطن مع طيار يعمل في الخطوط الجوية الأمريكية في غرفة واحدة، ويحضر القليل من المحاضرات في الجامعة، ويكرس معظم جهوده

---

(١) جاء ذلك في مقابلة مع محمد عشماوي في السادس والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني من العام ٢٠٠٥م، راجع كذلك: Who's Who in Saudi Arabia, 1983-1984 edition.

(٢) ورد ذلك في مقابلة مع فرانسيس هانيويل Francis Hunnewell في التاسع من شهر أغسطس/ آب من العام ٢٠٠٦م، ومقابلة مع مايكل بوكنا Michael Pochna في الحادي والثلاثين من شهر أغسطس/ آب من العام ٢٠٠٦م.

لملاحقة الفتيات. اتصل به سالم وأخبره أنه سيرسل بكرًا إلى ميامي ليدرس في الجامعة هناك، وطلب إلى «الفيل الصغير» العمل على رعاية بكر.

لم يكن هذا الشخص هو المناسب لهذه المهمة؛ إذ لم يكن «الفيل الصغير» ـ شأنه شأن سالم ـ شديد التمسك بقواعد الإسلام المتعارف عليها، بينما كان بكر تقيًّا متدينًا على الرغم من صغر سنه وكان يحفظ القرآن الكريم. ألحقه «الفيل الصغير» في مستهل الأمر بالحرم الشمالي لكلية ميامي دايد الداخلية، الذي يبعد عدة أميال شمال وسط المدينة في شارع ١١٩، وكان يقع بعد ثلاثة مبانٍ من طريق إنترستيت ٩٥. واشترى لبكر دراجة نارية ماركة فيسبا، وساعده في العثور على شقة وأوضح له كثيرًا من المغريات الاجتماعية الموجودة في ميامي. وكان يعلم أنه من الصعوبة بمكان إغراؤه بشيء عدا استثناء واحد؛ إذ دعا بكرًا لتناول الطعام في مطعم شورتيز باربكيو الذي يقع على طريق ساوث ديكسي السريع. وكان هذا المطعم قاعة واحدة تتصاعد منها الروائح القوية النفاذة، وفيها يجلس الزبائن بجانب بعضهم على طاولات خشبية ويغطون اللحوم التي يتناولونها بالصوص الحار المندفع من الفتحات الضيقة للزجاجات البلاستيكية. طلب «الفيل الصغير» مجموعة كبيرة من اللحوم المطهوة على البخار، وعندها سأل بكر بقلق عما إذا كانت هذه لحوم خنزير، طمأنه حارسه أنها ليست لحوم خنزير بل لحوم بقرية. إلتهم بكر الطعام، وبعد أشهر عاد مرة أخرى واعتاد من حينها الذهاب لتناول الطعام. وفي النهاية أوضح ابن عم له من المملكة العربية السعودية حضر لزيارته أنه كان يتناول بالفعل لحوم خنزير باستمرار وهو ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية. فدفعت الصدمة بكرًا لأن يسأل النادلة رغبةً في تأكيد المعلومة، وعندما تأكد من الأمر انطلق مسرعًا إلى الشقة التي يقطنها «الفيل الصغير» وواجهه قائلًا: «أي حارس قائم على حراستي أنت! لقد كذبت علي!» واتصل بسالم وشكاه إليه إلا أن أخاه اكتفى بقوله: «على الأقل جعلك تكتشف مدى روعة مذاق لحم الخنزير». ولكن مطعم شورتيز فقد عميلًا دائمًا[٣].

(٣) جاء ذلك في مقابلة مع شخص شهد المحادثة وطلب عدم الكشف عن هويته، وقد رفض بكر التعليق.

أجاد بكر اللغة الإنكليزية وتكيف مع الدراسة في الفصول الأمريكية، وانتقل إلى كلية الهندسة في جامعة ميامي التي تحولت في ما بعد إلى مساحة ممتدة من أشجار النخيل والمباني الخرسانية منخفضة الارتفاع في منطقة كورال غايبلز، والتحق بالفصل الدراسي لعام ١٩٧٣م. وكان من بين زملائه في الكلية ما يزيد عن أربعة آلاف طالب يهودي، وما يزيد عن ألف وخمسمئة طالب من جميع أنحاء العالم؛ من تايوان وفنزويلا وإيران والجزائر وغيرها من البلدان. أثار المعارضون لحرب فيتنام القلق والاضطرابات في الحرم الجامعي، وقدم الحزب الجمهوري ميثاقه في ميامي عام ١٩٧٢م، والتحق طلاب الجامعة بالمعارضين الآخرين في معارك دامية ضدّ الشرطة. وكانت ثلاثة أرباع طلاب جامعة ميامي يدخنون الماريجوانا حسبما ورد في استفتاء قام به أحد المدرسين. وورد في إصدار عام ١٩٧٢م من الكتاب السنوي الذي تنشره الجامعة بإحصائيات العام أن «هناك ثلاثة عناصر ضرورية لأي حفل يتعاطى حاضروه المخدرات، هي: الناس والمكان والمخدرات»(٤).

انضم بكر إلى مجموعة من الطلاب في كلية الهندسة بدوا غافلين عما يحدث تمامًا. ويتذكر زميل أمريكي له من كوبا يُقال له جواكوين أفينو: «لم نتحدث قط عن التفرقة العنصرية أو الحرب». واستطرد قائلًا: «إن الشيء الوحيد الذي كنا نتحدث عنه كان التخرج والحصول على وظيفة والعمل مهندسين وتكوين ثروة». كان كثير من طلاب الهندسة المدنية من الجيل الثاني المنفي من كوبا، وكانوا ينتمون إلى «ثقافة محافظة نسبيًّا داخل الجامعة» كما قال زميلٌ آخر له يُدعى جون هول. وكان معظمهم يأتون إلى الجامعة ويغادرونها يوميًّا إلى منازلهم التي يقطنوها مع عائلاتهم. وكان والد هول من رجال المطافئ في المدينة، وكان أفينو يعمل بدوام جزئي ناقلًا للحقائب في المطار. وبدا بكر صديقًا مثاليًّا لهما إذ كان هادئًا وجادًا ولطيفًا ومغرمًا بالقراءة، إلى جانب أنه لم يتمنَّ أن يعيش حياة الطلاب التي لا يضبطها ضابط، وكان ودودًا مع الكوبيين بصفة خاصة، واشترك مع أحدهم في المشروعات المعملية التي تضمنت تحليل

---

(٤) راجع: Ibis, University of Miami yearbook, 1973 edition; Ibis, 1972 edition.

تركيب التربة وحساب الثبات والضغط في هياكل المباني. وفي وقت الاختبارات كانت نتائجه جيدة بل متوسطة، وكان مميزًا بين العشرين أو الثلاثين طالبًا في الهندسة المدنية لارتدائه القمصان الحريرية وامتلاكه سيارة كاديلاك سيفيل(٥).

كان بكر يقيم خارج الحرم الجامعي في إحدى الضواحي في حي يقع جنوب منطقة كورال غايبلز بين بلدتي كيندال وباينكريست. وكان في الجوار مدرسة ابتدائية وجمعية «شباب للمسيح». وفي نهاية الأمر لحقت به عائلته؛ إذ التحق عمر أخوه غير الشقيق بكلية الهندسة في جامعة ميامي في الفصل الدراسي لعام ١٩٧٤م، واستأجر شقة تبعد عن منزل بكر بنصف ميل. وفي وقت ما عاد بكر إلى وطنه ليتزوج وسافر مع زوجته الجديدة إلى ميامي ليستقر هناك. وكان اسمها هيفاء نابلسي، وهي امرأة سورية شقراء جميلة قابلها لأول مرة في دمشق عندما كانت في زهاء ربيعها السادس عشر. وتنحدر هيفاء من عائلة فلسطينية منفية من وطنها وتمتد جذورها إلى مدينة الناصرة، وبينما أكمل بكر دراساته أنجبت هيفاء ابنين، هما نوّاف وفراس، وحصلت عائلة بن لادن على جوازي سفر أمريكيين للولدين. ولم يكن بكر يسمح لزملائه في الدراسة بالتعامل مع زوجته، ويتذكر أحدهم على وجه الخصوص أنه قال له ذات مرة وهو يقدّم عائلته إنه لا يوجد رجل في المملكة العربية السعودية يهتم بعدد أخواته البنات. ولكن بعيدًا عن هذه التقاليد والسمات الثقافية، لم يكن بكر في أعين بعض زملائه مختلفًا عنهم بسيارته الكبيرة المجنحة وابنيه الصغيرين ومنزله المبني على قطعة أرض تعلوها الحشائش القصيرة في ملتقى شارعين وشعوره الصادق بالهدف العملي الذي يسعى إليه؛ كان في أعينهم رب بيت هاجر شابًّا من وطنه سعيًا وراء الحلم الأمريكي. وبينما وصلوا إلى المرحلة التي استطاعوا فيها التعرف إليه بصورة أفضل، علموا أنه كان سيعود إلى شركة عائلته في المملكة العربية السعودية بعد التخرج. وعرض بكر على زميل كوبي له في

---

(٥) ورد ذلك في محادثة عبر الهاتف مع جواكوين أفينو Joaquin Avino في الرابع عشر من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٦م؛ محادثة عبر الهاتف مع جون هول John Hall في الثامن من شهر مارس/ آذار من العام ٢٠٠٦م؛ محادثة عبر الهاتف مع خورخي رودريغز في الثامن من شهر مارس/ آذار من العام ٢٠٠٦م.

أمريكا يُدعى جورج رودريغز أن يعمل في جدة بضعف الراتب المبدئي الذي يمكن أن يتوقع الحصول عليه في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن زوجة جورج قالتها علنًا: «لن أغادر أمريكا بأي حال من الأحوال». فرحل بكر وتلاشت الاتصالات بينه وبين جورج تدريجيًّا(٦).

وفي جدة انتقل بكر وعائلته إلى إحدى الفيلات في مجمع العائلة المقام عند الكيلو ٧. ونمت الصداقة بين كل من كارمن بن لادن وهيفاء، وكانت كارمن ترى أنها «واسعة الأفق ومفعمة بالحيوية»، ودأبت المرأتان على الجلوس تحت أشعة الشمس معًا بجوار حمام السباحة في منزل هيفاء لاكتساب السمرة، و«كانت ضحكاتهما تتعالى وهما تتحدثان عما ستقوله والدتا زوجيهما عنهما إذا لمحتهما وهما بملابس البحر». وقالت كارمن عن بكر إنه جاد وطيب القلب، وعلى النقيض من بعض الرجال السعوديين لم ينتقد هيفاء أو يتجنبها عندما أنجبت له بنتًا. كان بكر متدينًا ولكن على نحو ليس لافتًا للنظر أو متزمت. كان يصلي الصلوات الخمس في المملكة العربية السعودية، إلا أنه عندما كان يسافر إلى فرنسا لم يكن يبحث عن مساجد هناك أو يحمل معه سجادة صلاة إلى اجتماعات العمل. ويقول أحد شركائه في العمل ممن مكثوا معه وقتًا طويلًا: «كان من بين الأشخاص الذين لا يحبون جذب انتباه الآخرين بأشياء تافهة»(٧).

في إطار العمل، حاول بكر أن يظل على دراية دائمة بطلبات سالم

---

(٦) راجع: Miami South Suburban Directory.
والمرجع السابق عبارة عن دليل هاتف، وفي طبعة ١٩٧٣م لهذا الدليل نجد أن بكرًا وهيفا مدرجان فيه في العنوان الآتي: 9435 SW 79th Avenue.
وفي طبعة ١٩٧٣م من دليل بريسر Bresser نجد هذا العنوان مدرجًا باسم «Bin laden Bakery» وهو خطأ مطبعي بلا شك، ولا يزال المنزل موجودًا هناك. وقد أُدرج اسم عمر في قوائم بولك في عام ١٩٧٤م في العنوان الآتي: 9143 SW 77th Avenue, Apartment B701.
ويبدوا أن المبنى قد تهدم. وكذلك كان يحيى مدرجًا في عنوان بالقرب من ميامي ديد نورث كامبس في عام ١٩٧٢م، لكن المؤلف لم يتمكن من تحديد أي شخص يتذكر المدة التي قضاها هناك. وفي ما يتعلق بالمعلومات الخاصة بخلفية عائلة هيفاء فهي مستمدة من مقابلة مع شخصين مقربين من العائلة وقد طلبوا عدم الكشف عن هويتيهما؛ مقابلة مع رودريغز Rodriguez المذكور سابقًا.

(٧) جاء ذلك في مقابلة مع أحد شركاء بن لادن، وقد طلب عدم الكشف عن هويته، راجع أيضًا: *Inside the Kingdom*, pp. 80-81.

والصفقات التي يبرمها وهو ينتقل من مكان إلى آخر. وتدريجيًّا عاد الإخوة الآخرون إلى المملكة حاملين شهادات في الهندسة لتخفيف بعض الحمل عن كاهله. فتولى غالب إدارة ساحة معدات البناء وساعد في إدارة عمليات توريد معدات كاتربيلر، وأشرف على المشروعات ميدانيًّا، وتولى عمر الإشراف على مشروعات البناء المعقدة بنفسه.

وأثبت يحيى أنه يتمتع بكفاءة استثنائية في العمل بجد وإخلاص؛ إذ كان شديد التنظيم بصورة لافتة للنظر وبات يفتخر بقدرته على العمل لأطول ساعات ممكنة. كما كان له تأثير قوي في بعض الشركاء والمصرفيين الذين تعامل معهم. وكان يبدو دائمًا تقيًّا وكثير التأمل، وإذا طُرح عليه أي سؤال يصمت لعدة دقائق مفكرًا قبل أن يجيب. وكان يدخن السجائر بمبسم طويل، وكانت عيناه جاحظتين إلى حدّ ما، ممّا كان له بالغ الأثر عندما كان يحملق مفكرًا خلال هذه الوقفات التأملية الطويلة. وكان يشبه شخصية بنغوين في أفلام باتمان عندما يرتدي القبعة.

قضت هذه الزمرة من المهندسين الشباب معظم أيامها وهم يولون اهتمامًا هائلًا بعملهم باعتبارهم مسؤولين تنفيذيين ناشئين في مجال التعمير، ولكن مع بلوغهم منتصف العمر، وبانتشار الصحوة الإسلامية في المملكة العربية السعودية، باتت أساليب الحياة التي يعيشونها أكثر ورعًا ممّا سبق وكان ذلك أمرًا لا يخفى على أحد. ولاحظ شركاؤهم وأصدقاؤهم غير المسلمين هذا التدين الواضح، إلا أنهم اعتبروه مسايرًا بصورة كبيرة للتيار السائد في المملكة آنذاك والذي أخذ يزداد محافظةً. فارتدت زوجة يحيى الحجاب وكذلك زوجة غالب. وأصبحت الصدقات وشعيرة الحج أكثر أهمية في العائلة ممّا سبق. وبحلول منتصف الثمانينيات، شعر أحد شركاء عائلة بن لادن على الأقل أن أحد مهندسي العائلة الأكثر محافظةً على التقاليد ـ وهو يحيى على الأخص ـ شرع في دفع سالم إلى التأكد من أن أسامة يحصل على كل الدعم الذي يحتاجه بعد أن اشترك في الحرب الأفغانية. ويرى هذا الرجل أن عدم مشاركة هؤلاء الإخوة لأسامة في تطرفه مباشرة لا يعني أنهم بعيدون كل البعد عن الأمر، فقد كانوا يفتخرون بعمله الخيري نيابةً عن الأفغان الذين يعانون الأمرَّين، وكانوا يقدّرون التزامه الحماسي بقضية إسلامية لها أهميتها. وكما جاء على لسان مسؤول حكومي

سعودي رفيع المستوى، ذهب بكر مع أسامة إلى باكستان في إحدى زياراته الأولى إلى هناك[٨].

كان هناك إخوةٌ أيضًا لهم الريادة في مشروعات التعمير والتجديد في مكة والمدينة. فبعدما تولى فهدٌ سدة الحكم، اتخذ خطوات عديدة لتعزيز اعتماده خادمًا للحرمين الشريفين في البقعة التي بزغ منها فجر الإسلام. وفي عام ١٩٨٥م افتتح مشروعًا كلّف عدة مليارات من الدولارات واستغرق العمل فيه ثماني سنوات لتوسعة المسجد النبوي في المدينة مرة أخرى، حتى يتسع لقرابة نصف مليون مصلٍّ، وأدى تبذير فهد في مشروع توسعة المسجد النبوي في المدينة إلى الفوز بحظوة عند السلطات الدينية السعودية التي أساءت الظن في أسلوب حياته الدنيوي، كما إن إنفاقه بهذه الطريقة على المسجد النبوي الشريف زاد من ظهوره في دول العالم الإسلامي كافة. ومثلما فعل الملوك السعوديون على مدار أربعة عقود، أوكل فهد توسعة المسجد إلى عائلة بن لادن بالأمر المباشر. وكان قرار الملك متماشيًا مع أسلوبه لتوزيع نسب العمولات في نطاق المقاولات الحكومية كما قال المسؤول الحكومي السعودي رفيع المستوى الذي سبقت الإشارة إليه. وحدد فهد وكلاء أو عائلات تجارية بعينها يُعتمد عليهم، كان بعضهم سعوديين وبعضهم الآخر غير سعودي مثل رفيق الحريري المقاول اللبناني، ومنحهم حق السيطرة الكاملة على قطاع بعينه مثل مبيعات السلاح أو أعمال الطرق أو بناء القصور. وبهذه الطريقة استطاع فهد تحديد الكيفية التي تُوزع بها العقود والعمولات ومن سيستفيد من المدفوعات الإضافية، وعزز هذا النظام الولاء والسرية. ومرة أخرى دانت لعائلة بن لادن السيطرة الكاملة على تشييد الطرق السريعة، إلا أن مكاسبهم المالية الكبيرة بعد عام ١٩٨٥م تحققت من خلال العقود الضخمة الحصرية التي كافأهم بها فهد في المدينتين الشريفتين، بدايةً في مشروع تجديد المسجد النبوي في المدينة، ثم مشروع مشابه في مكة المكرمة.

---

(٨) طلب الشريك المذكور هنا عدم الكشف عن هويته وهو شريك آخر غير المذكور في الحاشية السفلية السابقة. وقد وردت المعلومات المذكورة هنا في مقابلة مع مسؤول سعودي رفيع الشأن طلب عدم الكشف عن هويته، وقد رفض بكر التعليق على ذلك.

كانت توسعة المسجد النبوي التي فكّر فيها فهد مذهلة في حجمها؛ إذ إنها اشتملت على مبنى جديد تبلغ مساحته اثنتين وثمانين ألف متر مربع، إلى جانب ساحة جديدة ومساحات للمشاة تزيد عن مئتي ألف متر مربع، ومآذن جديدة أطول، وثمانين درج جديد وستة مصاعد كهربائية جديدة، وأربعة وستين بابًا وبوابة. ومن منظور آل بن لادن كان بكر هو من أدّى الدور الرئيس في وضع الخطط التفصيلية وتنفيذها بعد موافقة فهد.

كانت هذه المهمة انعكاسًا لقدرات بكر باعتباره مهندسًا ورجل أعمال وأحد أبناء آل بن لادن وسعوديًا ومسلمًا في آن واحد؛ وأصبحت هذه المشروعات المصدر المهيمن لهويته العملية وكبريائه الشخصي. وقدّمت تلك الأعمال له فرصة نادرة ومميزة ليترك أثرًا أصيلًا في الأماكن المقدسة في دينه. وشارك في المشروع مهندسون معماريون ومصممون وموردون أوروبيون وعرب بمرور الوقت، إلا أن بكرًا أدّى دورًا حاسمًا فيه منذ البداية؛ إذ سلّم العروض التصميمية التفصيلية لفهد وقدم إجابات عن كل الأسئلة التي طرحها الملك، وقاد عربة الغولف للملك عندما زار المدينة في جولة تفقدية. وكتب بكر في خطاب أرسله لاحقًا قائلًا عن فهد: «طلب منا في مرات كثيرة إعادة المخططات والتصميمات من أجل تحسينها من أحد الجوانب أو تطوير جانب آخر». واستطرد قائلًا إن فهدًا «اعتاد زيارة المشروعين في مراحل مختلفة وكان يختار المواد الأفضل والأكثر مناسبةً دون وضع التكلفة المالية في الاعتبار». حتى إن الملك أصدر «أمرًا ساري المفعول بفتح حساب مفتوح» لتمويل العمل[٩].

كان أسامة يشغل أحد المناصب التنفيذية في فرع المدينة المنورة لشركة بن لادن في الوقت الذي بات فيه هذا المشروع الضخم كيانًا مميزًا. وكان لا يزال يتنقل بين جبهة حرب الأفغان والمملكة العربية السعودية ذهابًا وإيابًا، إلا أن زيارته المقتضبة إلى جبهة الحرب في عام ١٩٨٤م عمقت انخراطه بها، مع أنه لم ينقل عائلته إلى باكستان، وظل في باكستان

---

(٩) راجع: Abbas, *Story of the Great Expansion*, pp. 3-9.

وراجع المقدمة التي كتبها بكر بن لادن في المرجع السابق.

ثلاثة أو أربعة أشهر في وقت من الأوقات ولم يغادرها خلال هذه الفترة.

أدى مشروع المدينة الذي أمر فهد بتنفيذه إلى نشوب صراعات داخل عائلة بن لادن، ربما تكون قد أثرت في أولويات أسامة، حسبما قال مسؤول حكومي أمريكي سابق رفيع المستوى، وهو الشخص نفسه الذي ناقش هذا الأمر مع بكر. والتفاصيل الخاصة بهذا الأمر تفتقر إلى الوضوح، لكن طبقًا لهذا المسؤول أسفر عقد مشروع المدينة والضغوط الكثيرة المصاحبة له عن «حركة إعادة تنظيم في العائلة»، وهو الأمر الذي جعل أسامة غير سعيد بالدور الذي يتولاه. وكان الموضوعان الأساسيان اللذان طُرحا في تلك الأثناء السيطرة والسلطة، وقال المسؤول الحكومي السابق: «إن أسامة جعل من نفسه شخصًا بغيضًا ومن ثَم أراد الجميع رحيله». وفي هذا السياق، وقف بكر وسالم في جانب واحد وحاول أسامة وبعض أخواته غير الشقيقات الأكثر تدينًا معارضتهما. وذكر أحد شركاء سالم في العمل الذي عمل مع عائلة بن لادن عن قرب خلال هذه الفترة أن «سالمًا أخبرني: «أن أخي هذا الموجود في باكستان سوف يكون حجر عثرة في طريق عائلتنا»». ومما يُذكر أن أسامة «لم يضايق سالمًا وحده بل ضايق أفراد عائلته كافة». وأيًّا كانت طبيعة هذا الخلاف ومداه، فإنه لم يسفر عن قطع العلاقات بين أسامة وإخوته غير الأشقاء. وفي حقيقة الأمر ستزداد المخاطر التي سيتحمّلها سالم نيابةً عن أسامة عما قريب، إلا أن هذا الخلاف ربما يكون قد أدّى بأسامة وإخوته الأشقاء إلى اعتبار باكستان، بدلًا من المدينة المنورة، أفضل متنفس لطاقات أسامة[١٠].

في مرحلة مبكرة من عام ١٩٨٦م، كتب عبد الله عزّام إلى أسامة من بيشاور خطابًا يحثه فيه على الانتقال إلى هناك. وأخبر عبد الله تلميذه المطيع أن ثمة مشكلات إدارية ومالية تراكمت على «مكتب الخدمات» الذي أسساه منذ ما يزيد عن عام سابق للمتطوعين العرب في أفغانستان. وطلب عزّام إلى أسامة المساعدة في تنظيم المكان، وبذلك بات هناك على

---

(١٠) جاء ذلك في مقابلة مع مسؤول أمريكي سابق بارز طلب عدم الكشف عن هويته؛ مقابلة مع شريك في التجارة طلب عدم الكشف عن هويته.

الأقل مشروعٌ في حاجة إلى قدرات أسامة بحيث يشعر أنه يوجد من يقدر مجهوداته.

لاحقًا في العام نفسه انتقل أسامة مع عائلته إلى منزل تظلّله أشجار الصنوبر في منطقة حياة آباد في بيشاور. وفي الأشهر اللاحقة ما انفك عن التصرف بروح شابة طموحة ووثابة، وشعر بالحاجة إلى إظهار قدراته وإمكاناته. فأغرق نفسه في ويلات الحرب، وللمرة الأولى في حياته سعى إلى الإعلان عن أنشطته لنشر سمعته الطيبة في المملكة العربية السعودية وفي أرجاء العالم الإسلامي. وهذه النقطة بالذات تجعلنا نتساءل هل تُعتبر منافسته غير المعلنة مع بكر وسالم اللذين اشتهرا في الإعلام السعودي بأنهما مجدِّدا المدينة المنورة، هل تُعتبر خيطًا من خيوط شبكة دوافع أسامة بعد أن نقل عائلته إلى باكستان؟ حتى وإن كان الأمر كذلك، يظل لدينا حقيقة واحدة لم تتغير أبدًا وهي حاجته إلى عائلة بن لادن من أجل تحقيق أهدافه على الحدود الأفغانية[١١].

---

(١١) راجع: *Rand: Early History of Al Qaeda Working Group*, 2006.

الفصل العشرون

بازار السلاح

في الوقت الذي انتقل فيه أسامة مع عائلته إلى بيشاور طلب طلبًا جديدًا من سالم، إلا أنه لم يطلب مالًا هذه المرة، بل أخبر أخاه أنه في حاجة إلى سلاح، وبصفة خاصة طلب صواريخ محمولة مضادة للطائرات[1].

دخل أسامة سوق السلاح الدولية لأنه قرر للمرة الأولى في حياته إنشاء ميليشيا الجهاد الخاصة به؛ إذ وجد أن حركة المتطوّعين العرب تمر بحالة من الفوضى في بدايات عام ١٩٨٦م. وكان «مكتب الخدمات» الذي كان عزّام يتولى أمره ويموله أسامة بقرابة نصف مليون دولار أمريكي حتى هذه المرحلة يتعرض للانقسام بسبب نزاعات ثانوية وتعالي بعضٍ على الآخرين. وبوصول المزيد من المتطوّعين العرب إلى أفغانستان، وقع النظام الإداري الشامل للجان والمجالس الاستشارية الذي وضعه عزّام تحت ضغط هائل. ويتذكر أحد معاوني بن لادن ـ ويُدعى أبو هاجر العراقي ـ حدوث «زيادة في الشكاوى» أدّت إلى اتخاذ قرار «بتغيير الفريق الإداري». وتزايدت مضايقات الشخصيات القيادية في المجموعة إحداها للأخرى وأثار القادة جدالات لا طائل من ورائها حول المال والمعتقدات الدينية. وصل أيمن الظواهري، ذلك الطبيب المصري الذي تعرض

(١) مقابلة مع توماس ديتريتش Thomas Dietrich في الثاني عشر من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٦م. وكما هو موضح في النص، فقد أكد شخص آخر من شركاء سالم بشكل منفصل أن أسامة قد أرسل إلى سالم يطلب صواريخ وأن سالمًا مضى قدمًا في الصفقة عبر اتصالات ديتريتش.

للتعذيب في سجون القاهرة لتورطه في مؤامرات عنف، وصل إلى بيشاور بصحبة مجموعة من المنفيين المصريين المتطرفين، ونشأت علاقة بين الظواهري وأسامة وكان للأول دوافعه في هذه العلاقة شأنه شأن عزّام من قبله؛ كان ذلك الطبيب طموحًا ولكنه كان فقيرًا وفي حاجة إلى رعاية أسامة المالية. أثار الظواهري نزاعات مريرة في مجالس بيشاور بشأن استراتيجية الجهاد، إضافة إلى أنه وجد له حلفاء عرب لديهم شكاوى كثيرة من الوضع الحالي. وكان عزّام يشجع حرب الأفغان باعتبارها مثالًا للمعجزات والتضحيات المقدسة، بينما وجد المتطوعون، المدعوون إلى خوض هذا السبيل بغية دخول الجنة، واقعَ الحرب فاترًا وقاسيًا ومثيرًا للجدل والخلاف، ناهيك بافتقاره إلى النظام.

في شهر أبريل/نيسان، شارك بعض المتطوّعين العرب في قتال وحشي استمر أربعة أسابيع في منطقة جَوْر، وهي قاعدة خلفية محصنة تقع على سلسلة تلال رملية عالية بالقرب من حدود باكستان في منطقة يحكمها قائد أفغاني عنيف يُدعى جلال الدين حقاني. أتت المعركة بنتائج غير مبشرة، وأدرك بن لادن أن العرب في حاجة إلى تعزيز أنفسهم على هذه المناطق الحدودية، فقرر الابتعاد عن إجراءات مكتب بيشاور الموهنة للعزيمة، وشرع في تكوين فرقته الخاصة من المجاهدين العرب في أعالي الجبال على طول الحدود الأفغانية الباكستانية. وتمثل هدفه في المشاركة بصورة مباشرة في الحرب، ولتحقيق ذلك تطلّب الأمر امتلاكه صواريخ محمولة للتصدي لفرق الهجوم السوفياتية بالطائرات الهليكوبتر[٢].

قال أسامة لاحقًا إنه «من المعروف أن هناك عنصرين أساسيين لأي حرب؛ الحرب نفسها ثم العنصر المالي مثل شراء الأسلحة. وجاء هذا في الكثير من الآيات القرآنية مثل: **﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾**[٣].

---

(٢) راجـع: Gunaratna, «Al Qaeda: Its Organizational Strengths and Weaknesses,» 2006; «The Story of the Arab Afghans,» Anonymous, AlSharq Al-Aiusat, December 12, 2004.

(٣) راجع: Messages to the World, op. cit., p. 150.

راجع أيضًا: سورة التوبة: الآية ١١١.

لتلبية طلب أخيه توجه سالم إلى أحد أصدقائه الألمان وكان له صلة بالأفغان، وهو توماس ديتريتش. وكانا قد تقابلا للمرة الأولى في القاهرة في بداية تعارفهما، وكان ديتريتش طيارًا موهوبًا يمارس هوايته في الإجازات، ونَمَت بينهما علاقة صداقة كانت هواية الطيران محورها. عاش ديتريتش مرحلة صباه في كابول؛ إذ كان والده يشغل وظيفة مساعد وزير خارجية ألمانيا الغربية. وبمرور الوقت أصبح ديتريتش عنصرًا ثابتًا في حاشية سالم الأوروبية. وفي منتصف عام ١٩٨٠م، التحق بجامعة شتوتغارت إلا أنه كان يمارس التزلج على الجليد والطيران مع سالم وبعض إخوته وأخواته في أوقات فراغه خاصةً في المنتجعات الواقعة في جبال الألب.

في قرية أوفلي تشايز التي تقع بها ضيعته خارج حدود لندن، دعا سالم ديتريتش إلى غرفته وأخبره وفقًا لما ذكره لنا ديتريتش: «إنني في حاجة إلى مساعدة أخي».

تحدث سالم عن أسامة، وكان ديتريتش قد سمع عنه ولكن ليس بالقدر الكافي. وقال سالم عنه: «إن اهتماماته حاليًّا دينية للغاية، ويستقر حاليًّا في أفغانستان، وأنت تعلم ما يفعله الروس أيضًا هناك. والناس يُقتلون وأعرف أنك عشت هناك وتقدر ما أقول. . . وما أريده هو أن تساعده». حدد أسامة اثنين من الأولويات: الصواريخ الموجهة نحو طائرات الهليكوبتر، والمعدات التي تمكّن المتطوّعين العرب من تصنيع الذخيرة للبنادق الهجومية طراز أي كاي ـ ٤٧ (AK-47) عن طريق ملء أظرف البارود المستهلكة بطلقات جديدة[٤].

كانت الحرب حامية الوطيس. وبعد استعراض سياستها في ربيع عام ١٩٨٥م، قررت الولايات المتحدة الأمريكية سرًّا أن تعزز دعمها للمجاهدين الأفغان، وللمرة الأولى أشارت الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن هدفها تحقيق النصر على الجيش السوفياتي المحتل. وسريعًا ما كثفت وكالة الاستخبارات الأمريكية كميات الأسلحة التي ترسلها عن طريق باكستان وأضافت أسلحة أكثر تقدمًا. وفي المقابل، نفّذ السوفيات

(٤) ورد ذلك في مقابلة مع ديتريتش Deitrich المذكور آنفًا.

تكتيكات حربية أكثر عدوانيةً، وأمروا بتوجيه وحدات القوات الخاصة رفيعة المستوى المحمّلة على طائرات الهليكوبتر ـ التي يُطلق عليها السبيتسناز ـ إلى أفغانستان. وشنت القوات السوفياتية هذه الغارات على خطوط الإمداد الخاصة بالثوار وأنزلت بها الدمار على طول الحدود الباكستانية. ولردع قوات السبيتسناز الخاصة، وافقت وكالة الاستخبارات الأمريكية في عام ١٩٨٦م على إرسال صواريخ «ستنغر» الأمريكية الموجهة بالاستشعار الحراري إلى الأفغان، وكانت تلك الصواريخ مدمرة لطائرات الهليكوبتر على نحو خاص. ونُقلت الشحنات الأولى خلال النصف الأول من العام، في الوقت الذي انتقل فيه أسامة مع عائلته إلى بيشاور. وفي شهر سبتمبر/أيلول، أطلق قائد أفغاني أول صواريخ «ستنغر» على ساحة الحرب الأفغانية في مدينة جلال آباد. ودمرت الصواريخ كثيرًا من طائرات الهليكوبتر السوفياتية في ذلك اليوم، وسريعًا ما اكتسبت الصواريخ سمعة شبه أسطورية بسبب قوتها بين كل من المجاهدين والسوفيات[٥].

وفي مرحلة ما (غير واضحة بالتحديد) خلال هذه الفترة، يناقش فريق إدارة ريغان الذي كان يشرف على مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الأفغان بخصوص إمكانية تقديم المساعدة بصورة مباشرة إلى المتطوّعين العرب المتمركزين في بيشاور. وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية تدير معظم الترتيبات السرية للحرب يومًا بيوم، إلا أن مجموعة الأفراد المنتمين إلى أكثر من وكالة في البيت الأبيض برئاسة مساعد وكيل وزارة الدفاع مايكل بيلسبوري، وافقت على توسيع نطاق سياسات الحرب. وذهب بيلسبوري مرتين على متن طائرة الهليكوبتر إلى الحدود الأفغانية لمراقبة منشآت التدريب ومقابلة قلب الدين حكمتيار وعبد رب الرسول سياف، القائدين الثوريين المقربين بصفة خاصة إلى العرب. خلال هذه الاجتماعات استفسر بيلسبوري عن التجهيزات العسكرية للمتطوعين العرب. واستنتج، حسبما يتذكر، أن القادة الأفغان أعربوا عن عدم رغبتهم في

(٥) للاطلاع على رواية أكثر تفصيلًا عن فترة هذه الحرب، راجع: Coll, *Ghost Wars*, pp. 125-167.

تحويل المساعدات أو الإمدادات إلى العرب، واعتبر الأفغان هذه المجموعات الصغيرة نسبيًّا من الشهداء محاربين صالحين، إلا أنهم رهائن ذوي قيمة عسكرية هامشية في غمار هذه الحرب الطاحنة. وأعلن الأفغان أنهم يريدون كل الأسلحة لأنفسهم[٦].

بعد أن تلقّى سالم طلبات أسامة أجرى عدة محاولات للاتصال بالبنتاغون لمعرفة إن كان بوسعه عقد صفقات لتزويد أسامة بالصواريخ المحمولة، وفقًا لما ذكره أحد الشركاء الذي كان طرفًا في هذه الاتصالات. وحاول سالم تحديد الشخص المناسب ليتعامل معه من بين موظفي وزارة الدفاع الأمريكية، إلا أنه لم ينجح في ذلك كما قال شريكه. ولا تتوفر تفاصيل عما إذا كانت إدارة ريغان قد توصلت إلى قرار رسمي برفض توريد الأسلحة إلى المتطوّعين العرب أم لا؛ إذ إنه لا توجد أي وثيقة أو توضيح ورد بهذا الشأن. مع ذلك أثرت مثل تلك الاستنتاجات التي توصل إليها بيلسبوري بعد استفساراته في باكستان تأثيرًا واضحًا في تفكير الأمريكيين بخصوص هذا الموضوع. وقال بيلسبوري إنه لم يتطرق إلى مسامعه أي قرار صريح برفض تقديم المساعدات إلى المتطوّعين العرب وإنه كان سيعرف إذا اتُّخذ مثل هذا القرار؛ فحتى الآن لا تضع الإدارة الأمريكية هؤلاء المتطوّعين العرب من ضمن أولوياتها.

شعر سالم بأنه ليس أمامه سبيل سوى اللجوء إلى سوق السلاح الخاصة، طبقًا لما عرفناه من المقابلات التي أُجريت مع ديتريتش واثنين من القطاع الخاص اللذين اشتركا في المفاوضات مع سالم بخصوص توريد الأسلحة إلى أسامة. وبالفعل حصل سالم على بعض الدعم المادي من الحكومة السعودية، طبقًا لما ذكره هؤلاء، إلا أنه لم يحصل على

---

(٦) جاء ذلك في مقابلة مع مايكل بيلسبري Michael Pillsbury في الثاني من شهر مايو/ أيار من العام ٢٠٠٦م.

وفي ص ٣٤٩ من مذكرات له بعنوان From the Shadows، ذكر روبرت غيتس Robert Gates، المدير السابق في السي آي ايه، متحدثًا عن المتطوّعين العرب في الحرب الأفغانية «جربنا طرقًا لزيادة مشاركاتهم ربما في صورة بعض الفرق الدولية ولكن لم ينتج من ذلك شيء». ولا يوجد أي وثائق للحكومة الأمريكية المعاصرة حول ما إذا كانت هذه المراجعات قد أزيل الحظر عنها أو نُشِرت.

مساعدات رسمية من الولايات المتحدة الأمريكية. وحسبما يتذكر ديتريتش: «تمثلت المشكلة في عدم وجود تصريحات رسمية من أي من الحكومات الغربية» بدعم المتطوّعين العرب «بصواريخ مضادة للطائرات»(٧).

كان لديتريتش علاقات داخل شركة هيكلر آند كوخ الألمانية لتصنيع السلاح. ومن خلال هذه العلاقات، يتذكر ديتريتش أنه أجرى ترتيبات لعقد اجتماعات كثيرة بين سالم وموظفي المبيعات في الشركة المتخصصين في تصنيع الذخيرة والبنادق. وأكد شريك ثان من شركاء سالم صحة هذه المفاوضات؛ إذ قال إنه حذر سالم من التورط في الأمر لأن الصفقة كانت خاصة وشرعيتها غير مؤكدة، إلا أن سالمًا واصل المفاوضات ولم يأبه لأحد(٨).

لم يتمكن ديتريتش من التعرف إلى سبب حاجة أسامة تصنيع الرصاصات لأسلحته. فالمتطوعون الذين يقاتلون معه، شأنهم شأن كثير من المجاهدين، كانوا يحملون بصفة أساسية البنادق الهجومية صينية الصنع ذات التصميم السوفياتي، وكانت الأسواق الباكستانية مكتظة بالذخيرة المصممة لهذا النوع من البنادق. ويبدو أن أسامة كان ينظر من أحد الجوانب إلى إعادة تصنيع أظرف البارود المستهلكة صناعة منزلية شريفة رائعة؛ كما كانت شكلًا من أشكال التكنولوجيا التي أحيانًا كان يُعلن عنها على صفحات المجلات المعنية بالجنود المرتزقة مثل مجلة سولدجر أوف فورتشن *Soldier of Fortune*. عثر ديتريتش على بائع أسلحة تفهم العملية وسافر معه إلى دبي لمقابلة سالم وأسامة، ويتذكر قائلًا عن هذه المقابلة: «جلسنا معًا وقلنا: «ليس من المنطقي على الإطلاق إعادة حشو الرصاصات»». فالمشكلات الفنية كانت كثيرة جدًّا، واقترح بائع السلاح أن يشتري أسامة الذخيرة التي يحتاجها من الموردين الذين يمكن العثور عليهم في أمريكا الجنوبية.

(٧) جاء ذلك في مقابلة مع شريك سالم المذكور في الحاشية الأولى؛ مقابلة مع ديتريتش Dietrich المذكور سابقًا.

(٨) المرجع السابق. وقد اعترف المتحدث الرسمي لشركة Heckler & Koch بأن الشركة كان لها شقة في الشرق الأوسط متخصصة في مبيعات الأسلحة، ولكنه رفض التعليق على الصفقات المذكورة في هذا الكتاب.

سافر أسامة جوًّا إلى لندن لمناقشة أمر شراء الصواريخ، وقابل سالمًا وديتريتش ومعارفه في جناح في فندق دورشستر في طريق بارك لين، وفقًا لما ورد عن ديتريتش. تقابلوا مرتين أو ثلاثة في الفندق على مدار مدة زمنية تتراوح من ستة إلى ثمانية أسابيع خلال عام ١٩٨٦م. وقبل أحد هذه الاجتماعات كان سالم وديتريتش يعبثان كعادتهما، وبينما كانا يتنقلان من إحدى غرف الجناح إلى الأخرى في حين كان أسامة ينتظر بدء الاجتماع، حذر سالم ديتريتش قائلًا له: «لا تمزح مع أخي؛ إنه شديد التدين».

في نهاية الأمر عرف ديتريتش أن معارفه قد سهّلوا ترتيبات الشراء في أمريكا الجنوبية، واشتملت الصفقة على صواريخ روسية الصنع محمولة على الأكتاف طراز أس أي ـ ٧ (SA-7) إلى جانب ذخيرة بنادق صينية الصنع طراز أي كاي ـ ٤٧ (AK-47)، وشُحنت الصواريخ والرصاصات إلى كراتشي. ومن العقبات البسيطة التي انطوت عليها الصفقة رغبة الرعاة المندوبين عن أسامة في الصفقة في الدفع مقابل الذخيرة بالنفط الخام وليس نقدًا. وطبقًا لما ورد عن ديتريتش، كانوا يتوقعون أن يتقبل الموردون «صهريج نفط من الخارج، ولم يكن هذا الأمر من السهولة بمكان تحقيقه لأن شركة مثل شركة هيكلر آند كوخ لا تريد نفطًا بل تريد المال»[٩].

لم يكن لدى ديتريتش «أي فكرة» عن مصدر المال أو النفط المدفوع مقابل صفقة السلاح. وترجح أفضل الأدلة المتاحة أنه ربما كان المصدر ـ ولو جزئيًّا ـ هو الحكومة السعودية. ومن دون شك، كان سالم وأسامة يعملان في إطار السياسة السعودية الرسمية في ذلك الحين. إضافة إلى ذلك، يبدو أن صفقات السلاح التي عقدها أسامة ـ كما وصفها ديتريتش ـ كانت متسقة مع الإطار الأوسع نطاقًا للسياسة السعودية.

وفي أواخر عام ١٩٨٥م دخلت الحكومة السعودية في صفقة أسلحة مع الحكومة البريطانية بلغت قيمتها عدة مليارات من الدولارات، في ما أطلق عليه «صفقة اليمامة» التي تميزت بكثير من الجوانب غير التقليدية. خصصت الحكومة السعودية من أربعمئة ألف حتى ستمئة ألف برميل من

(٩) كل الاستشهادات في هذه القطعة مأخوذة من مقابلة مع ديتريتش Dietrich المذكور سابقًا.

النفط يوميًّا كمقايضة لتمويل شراء نظم أسلحة متقدمة من الشركات البريطانية. وباستخدام النفط بدلًا من النقد، استطاع السعوديون التملص بدهاء من أسقف الإنتاج الرسمي للنفط التي فرضتها منظمة الدول المصدرة للنفط (التي يُشار إليها اختصارًا بـ «الأوبك») وفقًا لما ورد في سيرة ذاتية يُعتد بها مصدرها مقابلات تناولت كثيرًا من الموضوعات وأُجريت مع الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي الذي ظلّ فترة طويلة في سفارة واشنطن. وبناءً على هذا التفسير، كانت «صفقة اليمامة» هي المظلة التمويلية التي وفرت الدعم لعدد من برامج المملكة العربية السعودية السرية المناهضة للشيوعية، بما فيها «السلاح الذي جُلب من مصر ودول أخرى، وأُرسل إلى المجاهدين في أفغانستان»[١٠].

هناك أدلة أخرى ولكنها غير مترابطة تشير إلى احتمال مشاركة الحكومة السعودية في توريدات السلاح لأسامة خلال تلك الفترة. واعترف أحمد باديب الضابط في الاستخبارات السعودية الذي عمل مع أسامة عن قرب في مقابلة شخصية أنه اشترى بالفعل صواريخ طراز أس أي ـ ٧ (SA-7) وورَّدها إلى المجاهدين الأفغان، على الرغم من أنه لم يذكر صراحة أن أسامة حصل عليها. إضافة إلى ذلك، تفاوض سالم خلال هذه الفترة على شراء أسلحة لأسامة من تجار السلاح في جنوب أفريقيا، وجاء هذا على لسان شخصين شاركا في هذه الصفقات. ويتذكر أحد من شاركوا في تلك المحادثات ـ التي كانت منفصلة عن المفاوضات التي كان ديتريتش طرفًا فيها ـ أن جزءًا من التمويل كان مصدره العائلة المالكة السعودية[١١].

خلال عام ١٩٨٦م، ألقى أسامة في بيشاور أول خطاب معروف له

---

(١٠) راجع: Simpson, *The Prince*, pp. 146-149.

(١١) جاء ذلك في مقابلة مع باديب في الأول من شهر فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٢م. والشخصين المطلعين على أدلة صفقات جنوب أفريقيا ليسا نفس المصدر المذكور سابقًا في هذه الحواشي. وأحدهما هو مايكل إلسنر Michael Elsner أحد محامي ضحايا هجمات الحادي عشر من شهر سبتمبر/ أيلول، وقد ذكر أنه أجرى مقابلة مع شخص عمل مترجمًا في اجتماع في بيشاور في فندق بيرل كونتيننتال وحضره اثنان من ضباط الجيش من جنوب أفريقيا وكذلك أسامة وسياف، وقد ناقشوا شراء الأسلحة والتدريب في رواية هذا الرجل. والشخص الثاني الذي طلب عدم الكشف عن هويته قال إنه حضر عدة اجتماعات متفرقة في جدة وفيها تفاوض سالم مع تجار السلاح من جنوب أفريقيا لشراء الأسلحة التي ستشحن إلى أسامة في باكستان.

يشجب فيه الولايات المتحدة الأمريكية بسبب دعمها لإسرائيل، وعندما تذكر أسامة لاحقًا الكلمات التي ألقاها، ذكر في خطبة له أن «الأمريكيين أخذوا أموالنا وأعطوها إلى اليهود حتى يقتلوا أبناءنا في فلسطين». ويشير عبد الله عزّام أن ضراوة عدائه لأمريكا اشتدت عندما أبلغه سالم برفض البنتاغون لبيع صواريخ «ستنغر» إليه. وعلى أي حال، كان أسامة يحمي العائلة المالكة السعودية خلال هذه الفترة نفسها بقوة. ويتذكر صحفي فلسطيني كان يعمل في مجلة «الجهاد» أن أسامة انبرى للدفاع عن الملك فهد عندما ألمح الزملاء خلال عام ١٩٨٦م إلى أن الملك فهد ليس مسلمًا حقًّا لأن الملكة إليزابيث قدمت إليه وسامًا يشبه الصليب، ممّا دفع أسامة إلى أن يقول: «بالله عليكم لا تتحدثوا في هذا الموضوع وركزوا فقط على مهمتكم» بحسب قول هذا الصحفي. واستطرد أسامة قائلًا: «لا أسمح لأي أحد بأن يناقش هذا الموضوع في هذا المقام». وكان حينئذٍ في حرب مع أعداء المملكة العربية السعودية، وليس مع القائمين على عرشها[١٢].

بدايةً من صيف عام ١٩٨٦م بدأ أسامة في قضاء المزيد من وقته في منطقة جاجي التي تقع في ولاية خوست الأفغانية بالقرب من المنطقة الباكستانية المرتفعة التي يُطلق عليها «منقار الببغاء». وكانت هذه المنطقة تتمتع بأهمية استراتيجية في حرب الأفغان الشاملة. وكانت تعمل في تلك المنطقة عدة وحدات قتالية ثورية أفغانية لها مصداقيتها الإسلامية القوية؛ تلك الوحدات التي كانت تحت قيادة حقاني وسياف وقلب الدين حكمتيار ويونس خالص. وحاولت تلك الوحدات فرض السيطرة على كابول وضواحيها. وكان سياف بالذات يدير قطاعًا تدريبيًّا بالقرب من جاجي، وكان هذا القطاع الموقع اللافت للنظر الذي استخدمه لضيافة المتطوّعين العرب، إلا أن موقعه كان يتوسط منطقة قتال حامي الوطيس.

قرر ضباط الاستخبارات الباكستانية الذين كانوا يحددون وجهة المؤن والذخيرة وحاولوا إدارة استراتيجية الحرب من على خطوط الجبهة

---

(١٢) راجـــع: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 115; Palestinian Journalist Jamal Ismail in Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, p. 60.

الأمامية، قرروا تعزيز المنطقة الحدودية المحيطة بجاجي للحفاظ على خطوط الإمداد وحماية المجاهدين الأفغان من الغارات السوفياتية. والتحق أسامة بهذه الجهود وشيد بنية تحتية خدمت القادة الأفغان الإسلاميين وأقام لنفسه معسكرًا جديدًا بالقرب من قطاع جاجي التدريبي الذي أقامه سيّاف، أطلق عليه معسكر «عرين الأسد». وكان عدد المتطوّعين الذين انضموا إليه في مستهل الأمر في خريف عام ١٩٨٦م صغيرًا؛ إذ بلغ نحو عشرة أفراد فحسب وكان معظمهم تحت العشرين. وكان عبد الله عزّام قلقًا بشأن مغامرة أسامة المنفردة؛ إذ كان لا يزال معتمدًا في النواحي المالية على تلميذه. وكان يخشى ـ من بين جملة أشياء أخرى ـ من احتمالية اختطاف القوات السوفياتية لابن لادن وترحيله إلى كابول باعتباره جائزة دعائية. فأرسل عزّام متطوعين عربًا من معسكره القريب للانضمام إلى بن لادن وحمايته، وبحلول نهاية العام نمت ميليشيا «عرين الأسد» حتى بلغت زهاء خمسين فردًا[١٣].

كوّن أسامة هذا الفريق البسيط المبدئي ـ الذي لم يكن يتعدى فصيلة صغيرة ـ بدعم قوي من عائلته. وإلى جانب مساعدته في شراء أسلحة، شحنت له عائلة بن لادن معدات بناء خلال عام ١٩٨٦م لدعم مشروعات أسامة على الحدود. وكان بعض مهندسي شركة بن لادن قد تطوعوا للعمل في بيشاور في مرحلة مبكرة، إلى جانب أن بعض معدات البناء ربما وصلت خلال هذه الفترة المبكرة أيضًا. وصلت دفعة كبيرة من المعدات إلى باكستان في الفترة بين شهر أكتوبر/ تشرين الأول وشهر ديسمبر/ كانون الأول لعام ١٩٨٦م[١٤]. وبعد ذلك عمد أسامة إلى زيادة أنشطة الإنشاءات حول جاجي وشيد الطرق شمالًا تجاه الحصن الجبلي تورا بورا الذي اعتبره ضباط الاستخبارات الباكستانية منطقة مثالية يمكن حماية الكهوف ومخزون مستودعات الذخيرة فيها. ولم يكن أي شكل من أشكال هذا الدعم الذي قدمته عائلة بن لادن ـ باستثناء الصواريخ والذخيرة ـ استثنائيًّا؛ إذ لم يكن يختلف كثيرًا عن المنشآت الدفاعية التي أقاموها لحساب الحكومة

(١٣) راجع: Rand: Early History of Al Qaeda Working Group, 2006; Gunaratna, op. cit

(١٤) راجع: Gunaratna, op. cit

السعودية منذ سنوات على الحدود اليمنية، وغيرها من الأماكن الأخرى. ووصف أسامة لاحقًا الغرض من وارداته على النحو الآتي:

على الرغم من قوة الجيش السوفياتي فقد اعتدنا التقدم بثقة ومنّ الله علينا حتى تمكنا من نقل معدات ثقيلة من المملكة العربية السعودية تُقدر بمئات الأطنان ككل، واشتملت على بلدوزرات وشاحنات تحميل وشاحنات لنقل المواد ومعدات حفر الخنادق. وعندما رأينا وحشية القصف الروسي لمواقع المجاهدين، حفرنا عددًا كبيرًا من الأنفاق الضخمة وبنينا في بعضها أماكن للتخزين ومستشفى في نفق آخر. إضافة إلى أننا أقمنا بعض الطرق(١٥).

يتذكر أحمد باديب أن أسامة كان «شديد الاحترافية» وهو يبني تلك الحصون تحت الأرض. وفي الواقع، كان بن لادن يعمل في بعض الأحيان كأنه خبير إنشاءات تعاقد مع الاستخبارات الباكستانية وربما أيضًا مع الاستخبارات السعودية. واختار مجموعة من المتطوّعين السعوديين الشباب من المدينة المنورة للعمل معه، تلك المدينة التي عمل فيها منذ وقت قريب مديرًا تنفيذيًّا في إحدى شركات بن لادن. وحصلت شركة بن لادن التي يقع مقرها في القاهرة بالتعاون مع وزارة الداخلية السعودية على تأشيرات لشباب من الإسلاميين المصريين ممن أرادوا التطوع في أفغانستان. وكما قيل، تعاقدت شركات بن لادن أيضًا على بناء مستشفيات ومنشآت أخرى على سبيل الصدقة في بيشاور. ووفرت هذه المشروعات التعميرية في بيشاور مئات الوظائف كثير من العمال العرب من مصر وبلدان أخرى. وهكذا، كان العمال يصبون الخرسانة من الساعة التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساءً يوميًّا ويمارس بعضهم الجهاد في إجازات نهاية الأسبوع(١٦).

---

(١٥) راجع: Messages to the World, op. cit., p. 48.

(١٦) جاء ذلك في المقابلة المذكورة سابقًا مع باديب؛ مقابلة مع ضابط أمريكي سابق متورط بالأمر؛ مقابلة مع مايكل شوير Michael Scheuer القائد السابق لوحدة بن لادن في المخابرات المركزية الأمريكية، كانت المقابلة في الخامس من شهر يوليو/ تموز من العام ٢٠٠٥م. وأيضًا جريدة الأهرام (مصر) في الأول من شهر يناير/ كانون الثاني من العام ٢٠٠١م.، راجع: Rand: Early History of Al Qaeda Working Group, 2006.

لم يعد أسامة مجرد زائر في هذه الحرب، بل كان حينئذٍ يخطط ساحة القتال في منطقة ذات أهمية استراتيجية في أثناء اشتداد ضراوة العمليات القتالية. ربما لم يكن لوحدة المتطوّعين المتواضعة الخاصة به أهمية كبرى، إلا أن نشاطه في ما يتعلق بالعمل الإنشائي كان مهمًّا، على الأقل في تقدير ضباط الاستخبارات الأمريكية والباكستانية الذين كانوا يرصدون مجهودات الحرب كافة. ويتذكر ميلتون بيردن رئيس موقع وكالة الاستخبارات الأمريكية في باكستان في ذلك الوقت متحدثًا عن أسامة أنه «كان ينفق أموالًا طائلة على كثير من الأماكن المثالية لساحة القتال في أفغانستان». وحاز أسامة بأمواله ومعداته التي أحضرها على ولاء المتطوّعين العرب الذين اعتبروه «أكثر عمليةً» من عزّام الذي لا يكف عن إلقاء الخطب الحماسية[١٧].

ذات مرة ذكر أسامة بصورة عابرة أن «التاريخ يثبت لنا أن أمريكا قدمت الدعم إلى أي فرد جاهد وحارب ضدّ الروس». وتلك هي المرة الأولى التي تحدث فيها أسامة في ما يبدو بصورة إيجابية عن الدور الأمريكي في حرب الأفغان ضدّ السوفيات. إلا أن معظم تعليقاته الأخرى أكدت النفاق الذي تنتهجه أمريكا على مدار النزاع، إضافة إلى استقلاله الشديد عن وكالة الاستخبارات الأمريكية. وحتى في دوائر الجماعات الإسلامية المتطرفة، روجت الإشاعات الكاذبة أن بن لادن كان عميلًا لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية أو وكيلًا مأجورًا لها خلال الثمانينيات. وذات مرة طرح أحد مذيعي قناة الجزيرة على أسامة السؤال بصورة مباشرة، وقدم أسامة إجابة شافية وطويلة ودفاعية اشتملت على مبررات دينية وسياسية واقعية للصلة بين أنشطته وأنشطة وكالة الاستخبارات الأمريكية:

إنها محاولة من الأمريكيين لتشويه صورتي وأحمد لله عز وجل أنه أحبط مؤامرتهم... وفي ما يتعلق بزعمهم أنهم قدموا الدعم للجهاد والكفاح ضدّ السوفيات، فإن هذا الدعم جاء من الدول العربية خاصةً الخليجية... وكذب الأمريكيون عندما زعموا أنهم ساعدونا في أي

(١٧) راجع: Frontline, Hunting Bin Laden, 2001; Harmony AFGP-2002-600094.

مرحلة، ونتحداهم أن يقدموا أي دليل واحد يثبت زعمهم. وفي الواقع، كانوا يمثلون عبئًا ثقيلًا علينا... وإننا كنا نقوم بواجبنا المتمثل في دعم الإسلام في أفغانستان، حتى وإن أدّى ذلك إلى خدمة المصالح الأمريكية. عندما كان المسلمون يقاتلون البيزنطيين في أثناء الحرب الضارية بين البيزنطيين والفرس، لا يمكن أن يدعي أي عاقل أن المسلمين كانوا يحاربون البيزنطيين لمصلحة الفرس. كانت مجرد مصلحة مشتركة... ولا يعني التقاء المصالح أن هناك أي نوع من الصلة أو الاتفاق الضمني[١٨].

ليس هناك دليل من أي مصدر ـ سواء أكان وثائقيًّا أو من خلال المقابلات الشخصية ـ يثبت أن أسامة تقابل مع أي ضابط من الاستخبارات الأمريكية. والأمريكي الوحيد بصفة عامة الذي ألقى عليه أسامة التحية بصفة شخصية ـ بصرف النظر عن أفراد عائلة بن لادن ومعارفه الآخرين من العرب الذين يحملون جوازات سفر أمريكية ـ هو جورج هارينغتون بائع الطائرات شديدة الخفة والمغامر الذي تعود أصوله إلى سان أنطونيو، وكان بصحبة سالم مصادفة في رحلته إلى بيشاور في مرحلة مبكرة من عام ١٩٨٥م. ومع ذلك، فإن نشاط أسامة المتمثل في نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم (أو ما يُطلق عليه اللوجيستيات) وعمله الإنشائي على طول الحدود الباكستانية بدءًا من عام ١٩٨٦م تزامن مع انطلاق برامج وكالة الاستخبارات الأمريكية التمويلية وغيرها، سواء أكان أسامة على علم بذلك أم لا. وقدمت الوحدات اللوجيستية ونظيراتها المعنية بالإنشاءات التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية وتعمل من خلال الاستخبارات الباكستانية، قدمت الإسمنت والمواد الأخرى التي استخدمت في بناء الكهوف ومنشآت التخزين التي أقامها القادة الأفغان مثل حقاني وحكمتيار على طول الحدود خلال هذه الفترة. ومما لا شك فيه أن الإنشاءات التي نفذها أسامة باستخدام معدات شركات بن لادن استكملت هذه المشروعات، وربما كان أسامة قد شارك فيها بشكل فعال للغاية. إضافة إلى ذلك، أصبح حقاني بعد عام ١٩٨٦م في نظر ضباط الاستخبارات أحد المصادر «الحصرية» لوكالة الاستخبارات الأمريكية، بمعنى أنه كان يتلقّى عشرات الآلاف من

---

(١٨) راجع: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, op. cit., p. 147. & 87 - 88.

الدولارات نقدًا بصورة مباشرة من ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية، الذين يعملون سرًّا في باكستان من دون وساطة الاستخبارات الباكستانية، التي كانت عادة تتعامل مع الأغلبية العظمى من الاعتمادات المالية الصادرة من وكالة الاستخبارات الأمريكية الموجهة إلى الأفغان وكانت تنقلها على مراحل. وكان حقاني يتلقّى إعانات مالية من مصادر متعددة، إلا أن المبالغ التي كانت تأتيه من وكالة الاستخبارات الأمريكية كانت ضخمة للغاية. وبدوره، ساعد حقاني أسامة والمتطوّعين العرب ووفر لهم الحماية بينما كانوا يضعون اللبنات الأولى لميليشياتهم الوليدة. (أشار أسامة لاحقًا إلى حقاني بأنه «البطل المجاهد» بالإضافة إلى كونه «أحد قادة الجهاد الرئيسيين ضدّ السوفيات».) كان حقاني يسافر بصورة متكررة إلى بيشاور لمقابلة أحد ضباط الاستخبارات الباكستانية وأحد ضباط الاستخبارات الأمريكية، كل على حدة، وللحصول على المؤن والذخيرة. ولم يكن هناك سببٌ يدعو أسامة إلى أن يعرف شيئًا عن التعاون الذي يعكس مصالح مشتركة بين حقاني ووكالة الاستخبارات الأمريكية، لأنه كان مستفيدًا ومن معه من المتطوّعين العرب من هذا التعاون. ولكن أسامة وأتباعه نأوا بأنفسهم عن التورط في أنشطة المعاملات المالية السرية لوكالة الاستخبارات الأمريكية[١٩].

على النقيض من ذلك، كانت علاقات أسامة بالحكومة السعودية علنية وروتينية؛ إذ تولى باديب تقديم الإعانات للمكاتب التابعة إلى وكالة الاستخبارات السعودية في السفارة السعودية في إسلام آباد، إلى جانب أماكن المبيت في الجمعيات الخيرية التي تمولها المملكة العربية السعودية في بيشاور. وكانت هذه الجمعيات الخيرية بدورها تنقل هذه المساعدات

---

(١٩) جاء ذلك في مقابلة مع بيتر تومسون Peter Tomsen مبعوث خاص أمريكي سابق للثوار الأفغان في الثاني عشر من شهر سبتمبر/أيلول من العام ٢٠٠٦م؛ مقابلة مع ضابط أمريكي سابق كان ذا صلة بالأمر راجع أيضًا: Messages to the World, op. cit., p. 151.

وقد سجل الضباط المسؤولون عن القضية في المخابرات المركزية الأمريكية عددًا من الشهادات للمتطوعين العرب الذين كانوا ناشطين بصورة متزايدة بطول الحدود ولكنهم لم يكونوا مهتمين بجمع قوائم بالأسماء أو تتبع شحنات الأسلحة التي لهم. فقد كانوا يركزون بصورة أكبر بكثير على جمع المعلومات الاستخباراتية عن تكتيكات السبنستناز القتالية (قوات العمليات الخاصة الروسية) وهي معلومات قد تثبت جدواها ذات يوم في حرب أوروبية.

إلى «مكتب الخدمات». وأثنت مجلة «الجهاد» التي أسسها عزّام على الدعم المقدم من سبع جمعيات خيرية في إصدارها لشهر ديسمبر/ كانون الأول لعام ١٩٨٦م. وضمت تلك الجمعيات الخيرية هيئة الهلال الأحمر السعودي ورابطة العالم الإسلامي التي تُعد جمعية خيرية متعددة الأنشطة متمركزة في مكة المكرمة. وكان باديب يزور باكستان شهريًّا. إضافة إلى ذلك، كان الأمير تركي الفيصل رئيس الاستخبارات السعودية يسافر إلى هناك بصورة دورية. وكانوا ينزلون في إسلام آباد عند السفير السعودي لدى باكستان الذي يُدعى يوسف مطبقاني، وكان سفيرًا محنكًا حليق اللحية والشارب، وكان يعلق صورة لقلب الدين حكمتيار على الحائط في غرفة معيشته. وكان مطبقاني ينقل الأموال من كل من الاستخبارات السعودية والجمعيات الخيرية الخاصة إلى العملاء الأفغان المميزين، وكان حقاني من بينهم، وفقًا لما ذكره مبعوث أمريكي سابق شارك في البرنامج السري. إضافة إلى ذلك، كان مطبقاني يقيم حفلات عشاء في إسلام آباد وكان أسامة من بين الضيوف الدائمين. وفي أثناء هذه الحفلات المسائية الساهرة في بيشاور التقى أسامة بالأمير تركي. وكان يرى أن أسامة شخص «خجول وودود ولطيف، ودائمًا ما يتحدّث بصوت خفيض، وكان رجلًا بليغًا في أحاديثه»[٢٠].

لاحقًا، ذكر تركي ومسؤولون سعوديون آخرون رفيعو المستوى مثل الأمير بندر أن حكومتهم تعاونت إلى حدّ ما بصورة مباشرة مع أسامة خلال هذه الفترة. ووصف تركي أسامة بأنه شاب متطوع ينتمي إلى عائلة تتمتع بسمعة طيبة، إضافة إلى أنه «نموذج مثير للإعجاب» غير أنه لم يكن عميلًا للاستخبارات السعودية. وكما ورد عن تركي، لم تتخلَّ الاستخبارات السعودية مطلقًا عن تعهدها بنقل الأموال إلى الأفغان من خلال وكالة الاستخبارات الباكستانية وحدها، على النقيض من وكالة الاستخبارات الأمريكية. وذكر تركي لاحقًا أن «عبد الله عزّام لم يتلقَّ الدعم مطلقًا مني

(٢٠) راجع: «Early Al Qaeda Working Group 2006,» op. cit.

وقد تحدث تركي علنًا مرات عديدة عن مواجهاته مع أسامة في باكستان في أثناء هذه الفترة لكن هذا الاستشهاد مأخوذ من مقابلة بطريقة السؤال والإجابة مع **دير شبيغل** *Der Spiegel* في الثامن من شهر مارس/ آذار من العام ٢٠٠٤م، ترجمة إف بي أي إس.

أو من وكالة الاستخبارات السعودية». واستطرد قائلًا إن «وكالة الاستخبارات السعودية التزمت بتعهداتها. . . بأن المساعدات المقدمة إلى المجاهدين ستُوزع طبقًا لفاعليتهم بحسب تصنيف وكالة الاستخبارات الباكستانية وتقييمها من كل من وكالتي الاستخبارات الأمريكية والسعودية. وكان سيافٌ يأتي دائمًا في المركز الخامس أو السادس»(٢١).

تسببت تصريحات تركي في التباس الأمور بشأن ما إذا كانت الاستخبارات السعودية ـ بعيدًا عن عزّام ـ تقدم مساعدات مالية مباشرة إلى بن لادن أم لا، خاصة بعد أن ابتعد عن عزّام وشرع في بناء بنية تحتية على طول الحدود الباكستانية. وقد ذكر بعض أتباع أسامة أنه تلقى مساعدات مباشرة من الاستخبارات السعودية. وذكر أبو مصعب السوري، الذي استمر على علاقة بأسامة لفترة طويلة وكان من ضمن المفكرين ذوي الشأن في تنظيم القاعدة: «إنه لكذِب أن يزعم أحد أن حركة العرب الأفغان نشأت بمساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية. . . والحقيقة أن وكالة الاستخبارات السعودية هي التي دعمت بن لادن، وأن عناصر من أجهزتها أرسلوا المساعدات بالفعل من المملكة العربية السعودية»(٢٢).

قدم أحمد باديب مدرس البيولوجيا الأسبق في مدرسة الثغر ورئيس طاقم الرئاسة في الاستخبارات لدى تركي تقريرًا وافيًا عن علاقة أسامة بالحكومة السعودية خلال هذه الفترة:

«كانت علاقته بالاستخبارات السعودية وبسفارتنا في باكستان قوية للغاية. وترجع قوة هذه العلاقة مع الاستخبارات السعودية إلى أن السفارة السعودية في باكستان كان لها دور قوي وفعّال للغاية آنذاك. . . فعندما كان الناس يأتون من المملكة لتقديم تبرعاتهم كان السفير يدعوهم في حفلات عشاء. وكان أسامة من بين المدعوين عادة لانتمائه إلى عائلة بن لادن وإلى علاقاته الشخصية أيضًا. وكان على علاقة رائعة بالسفير

---

(٢١) ورد ذلك في المقابلة المذكورة في المرجع السابق مع **دير شبيغل** ***Der Spiegel***، ومن خطاب كتبه تركي إلى المؤلف في الثاني والعشرين من أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٥م.

(٢٢) راجع: Bergen, The Osama Bin Laden I Know, p. 61

حيث جاء ذلك في مقال منسوب إلى السوري ومنشور عام ٢٠٠٤م.

وبكل السفراء السعوديين الذين عملوا هناك. وفي بعض الأحيان كانت السفارة تطلب إلى أسامة بن لادن بعض الأشياء وكان يحقق لها ما تطلبه. . .(إلى جانب ذلك) كان الباكستانيون يعتبرونه رجلًا يساعدهم بفعل أي شيء يريدونه هناك»[٢٣].

بصفة عامة، تمكن أسامة من إقامة علاقات مع العائلة المالكة السعودية ووكالة الاستخبارات السعودية مثلما نجح إخوته غير الأشقاء في توطيد صلاتهم مع قطاعات أخرى بالحكومة، وكانت علاقات أسامة اجتماعية على الرغم من كونها مقيدة بدوره كمقاول إنشاءات. واتسمت علاقته بهم بالاحترام والإخلاص، وتجلت مكانة أسامة المهيبة في البلاط الملكي مرارًا وتكرارًا في الاجتماعات الرسمية في صالونات السفارة. وعلى النقيض من إخوته غير الأشقاء، لم يكن أسامة يعود من هذه اللقاءات العربية التقليدية إلى بيته السعودي المألوف لمشاهدة التلفزيون أو تدخين الغليون في الفناء، بل كان يستدير ويرجع أدراجه على طريق غراند ترانك في سيارته ذات الدفع الرباعي في بيشاور، ثم يصعد الطرق الصخرية حتى يصل إلى المعسكرات القاحلة التي تقع داخل أفغانستان حيثما يقود فرقته المتنامية صغيرة العدد؛ فرقة الشهداء.

(٢٣) جاء ذلك في مقابلة لباديب مع تلفزيون أوربت في أواخر عام ٢٠٠١م، وقد أحضر باديب الشريط إلى المؤلف وترجمته شركة لانجويج دكتورز المتحدة.

الفصل الحادي والعشرون

الصفقات غير الرسمية

بحلول منتصف الثمانينيات أصبح جيم باث، شريك سالم في هيوستن الذي وصل إلى المدينة منذ ثلاثة عقود وليس معه إلا دولار واحد فحسب إن كان يملكه بالفعل، يمتلك كثيرًا من الرفاهيات التي يملكها أي مغامر ناجح من تكساس، وتمثلت في زوج من مسدسات سميث آند ويسون عيار ٣٨ وبندقية وستشستر ملحق بها تلسكوب ذو درجة تقريب عالية وبندقية وينشستر مزودة بآلية مزلاج (ترباس) وسيارة بي أم دبليو ٥٢٥ وطائرة طراز رالي مينرفا (Rallye Minerva).

إضافة إلى أنه كان يملك حصصًا في عدد من المجمعات السكنية والاستثمارات حول هيوستن، واشتملت هذه الاستثمارات على مشروعات بناء فنادق وشقق سكنية ومرآب ملحق بأحد المطارات ومطعم دينيز وإسطبل في مقاطعة ليبرتي. وكان جيم باث يراقب من مكاتبه المنتشرة في طوابق عديدة من مبنى «فانين بانك بيلدينغ» بوسط المدينة شركة سمسرة الطائرات التي يملكها وشركات عائلة بن لادن، إضافة إلى استثماراته المنتشرة في كل مكان (التي كان من بينها مبلغ ٥٠,٠٠٠ دولار التي وظفها في صندوق لشركة استثمارية متخصصة في التنقيب عن البترول تحت رعاية جورج دبليو بوش، صديقه السابق في الحرس الوطني الجوي في تكساس)، إلى جانب شركة تأجير طائرات معروفة باسم سكايواي إيركرافت التي اندمجت ملكيتها في جزر كايمان وتولى إدارتها خالد بن محفوظ. وكان باث وزوجته ساندرا لا يزالان يعيشان خلف ضيعة خالد

الضخمة مباشرةً التي تقع في حي ريفر أوكس في هيوستن. وبصفة عامة، كان باث يبدو لكل من يراه ملكًا في أوج قوته، إلا أنه كان يعيش في الحقيقة حياةً مفككة[1].

كان باث يتنقل على متن طائراته النفاثة في جميع أنحاء العالم مع عملائه العرب وأصدقائه الآخرين العاملين في مجال النفط، فكانوا يذهبون إلى ملاجئهم الضريبية على ساحل البحر الكاريبي وإلى أوروبا والمملكة العربية السعودية وإلى جميع أنحاء الشرق الأوسط. وكانت إحدى الطائرات النفاثة المستأجرة لإحدى شركات النفط التي كان يسافر على متنها بين الفينة والأخرى تشتمل على فرش مغطاة بفرو المِنْك، وعلى متن إحدى هذه الطائرات التقى لأول مرة بماري إلين لويس، وهي مضيفة جوية متزوجة، وذلك وفقًا لما ذكرته شيريل جونسون تود المحامية التي وكلتها اثنتان من زوجات باث في دعاوى قضائية رُفعت لاحقًا بغرض الطلاق. وعلى مدار علاقتهما الطويلة المضطربة اشترى باث سيارة كاديلاك لماري إلين إضافة إلى أنه حوّل أموالًا لها ولزوجها، واعترف بأبوة طفلة منها من دون زواج. وبعد أن اكتشفت ساندرا هذه العلاقة، أفادت لاحقًا بأنها تلقت بطاقات بريدية من مجهول في منزلها الكائن في حي ريفر أوكس، وتضمنت هذه البطاقات اتهامات لها بتمسكها بعلاقة زوجية انتهازية مثل العلاقة الخيالية بين جي آر وسو إلين في المسلسل التلفزيوني الشهير «دالاس» الذي كان يتمتع بقاعدة مشاهدة عريضة للغاية. وفي نهاية الأمر، علمت ساندرا بشأن ابنة باث من ماري إلين عندما توقف زوجها بسيارته المكشوفة ذات يوم أمام منزلهما، ووجدت في المقعد الخلفي فتاة صغيرة نائمة. وكما ورد عن ساندرا، طلب منها جيم باث بلطف أن تربّي له الفتاة. وعلى الفور، أقامت دعوى

---

(١) راجـع: Property partition agreement, Sandra C. Bath v. :James R. Bath, Harris County Court, 89-07180.

وفي إقرار كتابي بتاريخ ٢٩ من شهر سبتمبر/أيلول عام ١٩٨٩م أكد باث Bath أنه كان الرئيس والمدير الوحيد لشركة سكاي وايز وهي شركة مملوكة كليًا لرعايا أجانب. ورفض التعرّف إلى مالكي سكاي واي، وقد جاء في التقارير الإعلامية أن خالد بن محفوظ أو عائلته هم المستثمرون الحاكمون للشركة ولكنّ محامي ابن محفوظ رفضوا التعليق على ذلك.

قضائية للحصول على الطلاق، وزعمت ساندرا في الدعاوى القضائية التي رفعتها أن باث كان يتعاطى المخدرات لكنه أنكر ادعاءاتها. وطبقًا لشهادة باث التي أدلى بها خطيًّا بعد القسم، لم تعد ماري إلين لويس في نهاية الأمر سعيدة معي، بل إنها «هددتني بالقتل»(٢).

ربما لم تكن علاقة باث بلويس هي السر الوحيد الذي أخفاه خلال السنوات الأخيرة لعمله مع عائلة بن لادن. وكما ورد في الدعوى القضائية المرفوعة أمام المحكمة عام ١٩٩٠م من طرف بيل وايت شريك باث الذي لم يكن على علاقة طيبة به، فإن باث «أشار إلى أنه كان عميلًا سريًّا لوكالة الاستخبارات الأمريكية» خلال محادثة دارت بينهما عام ١٩٨٢م. وكما ورد في حديث وايت، قال باث إنه دخل إلى وكالة الاستخبارات الأمريكية عندما كان جورج بوش الأب رئيسها خلال أواخر السبعينيات، وإنه طُلب منه تولّي «جمع معلومات سرية عن زملائه العرب السعوديين». وحسبما ذكر وايت، قال باث إنه عُهد إليه بتنفيذ عمليات حساسة بعينها لقطاع النقل الجوي. وبعد سلسلة من الفضائح خلال السبعينيات، اتخذت وكالة الاستخبارات الأمريكية قرارًا - كما زُعم - بخصخصة بعض عمليات النقل الجوي السرية التي تنفذها، وكانت الوكالة تبحث عن أمريكيين يمكن الاعتماد عليهم ولديهم تصريحات أمنية لتولي بعض هذا الأعمال بموجب عقد. ولأن باث كان طيارًا سابقًا في القوات الجوية وصديقًا مقرّبًا من بوش الابن، كان هو المرشح المثالي لأداء هذا الدور حسبما ذكر وايت الذي كان أيضًا من خريجي الأكاديمية البحرية الأمريكية في مدينة أنابوليس كما كان طيارًا حربيًّا سابقًا في البحرية الأمريكية. شكّك وايت في أن باث استخدم بعض شركات طائرات الشارتر الخاصة به للمساعدة في شحن

---

(٢) ورد ذلك في مقابلة مع شيريل جونسون Sheryl Johnson في الثامن من شهر سبتمبر/ أيلول من العام ٢٠٠٥م، راجع أيضًا: Sandra Bath's Fourth Amended Petition, Bath v. Bath, ibid

وفي إقرار مشفوع بقسم في الخامس من شهر سبتمبر/ أيلول من العام ١٩٩١م أقر باث «بعلاقته بماري إلن لويس» Mary Ellen Lewis وأنه مول شركة كانت تديرها. وفي عريضة مقدمة إلى المحكمة كتب دفاع باث أن الأخير قد وافق على أن يقر بأنه الأب الحقيقي لابن لويس. راجع شهادة الإيداع لساندرا باث المرجع السابق؛ مقابلة مع جونسون Johnson المذكور سابقًا؛ إجابات باث الثانية المعدلة المرجع السابق؛ إقرار باث المشفوع بالقسم في العشرين من شهر أبريل/ نيسان من العام ١٩٩٠م المرجع السابق.

معدات البناء ـ وربما الأسلحة ـ إلى أسامة بن لادن على الحدود الأفغانية خلال أواخر الثمانينيات(٣).

كان جيم باث نادر التحدث عن عمله في أنشطة منح تراخيص الطيران خلال الثمانينيات. (ورفض إجراء أي حوار معه لهذا الكتاب.) وفي إحدى الدعاوى القضائية المرفوعة خلال هذه الفترة أمام المحكمة، يبدو أن باث سخر من جميع ادعاءات وايت بخصوص نزاعاتهما في العمل مدعيًا أن شريكه السابق مصاب بـ «بارانويا»، بالإضافة إلى أنه «بدا متقلب المزاج بشدة مؤخرًا». وكما ورد عن باث، ظن وايت أن «هؤلاء المتآمرين ضده كانوا متورطين في «اتصالات سرية» وكانت لهم «أجندات سرية» ضده». وفي عام ١٩٩١م صرح باث في مجلة «تايم» أن ما قاله وايت بشأن عمله المزعوم مع الاستخبارات الأمريكية كان «ضربًا من الخيال» وأنه لم «يعمل لحساب وكالة الاستخبارات الأمريكية أو أي وكالة استخبارات أخرى». ومع ذلك، وبعد عشرة أعوام لاحقة، بدا باث في مقابلة مع المراسل كريغ أنغر كأنه يلمح إلى احتمالية وجود شيء من الحقيقة في ما ذكره وايت.

وقال باث متحدثًا عن وكالة الاستخبارات الأمريكية إن فيها «كل درجات المشاركة المدنية». وكان يشير في ما يبدو إلى المشاركة التطوّعية من بعض رجال الأعمال الأمريكيين ذوي العلاقات الحساسة ببعض الأجانب في أنشطة وكالة الاستخبارات. وفي الواقع، كانت وكالة الاستخبارات الأمريكية تدير موقعًا لها في هيوستن يتولى تسهيل المقابلات غير الرسمية مع الأمريكيين العاملين في مجال النفط على المستوى الدولي. وإن كان لدى باث اتصال بالوكالة بالفعل، فقد يكون كل ما فعله مجرد الإدلاء بالتقارير بين الفينة والأخرى بخصوص ما عرفه من معلومات في

---

(٣) راجـــــع: White pleadings, Charles W White v. NCNB Texas National Bank, Harris County Court, 90-053147.

ولم يذكر وايت White أيًا من أسامة أو أفغانستان في هذه الشهادة الأولى من شهاداته حول ادعاءات باث Bath عن نشاطات المخابرات المركزية الأمريكية. راجع أيضًا: تفريغ نصي غير مؤرخ لمقابلة وايت مع مؤسسة الإذاعة الكندية قرابة عام ٢٠٠٦م، وقد أكد وايت دقة التفريغ النصي وأعاد تأكيد تصريحاته في حوار تلفوني مع المؤلف.

أثناء مرافقته لعائلة بن لادن وابن محفوظ والسعوديين الآخرين[٤].

خسر وايت القضايا التي رفعها ضدّ باث وعانى خسائر مالية فادحة. وقبل اشتعال فتيل المشكلات بينه وبين باث، كان يعمل في وظيفة عسكرية مرموقة، إلا أن مصداقيته من الصعوبة بمكان البت فيها. وبصرف النظر عن تصريحاته التي أدلى بها، لا يوجد دليل على أن باث نفذ عمليات لحساب وكالة الاستخبارات الأمريكية بموجب عقد بينهما. ومع ذلك، كان باث يسافر بصورة متكررة إلى الملاجئ الضريبية التي تطل على البحر الكاريبي خلال هذه الفترة لأسباب ليست واضحة على الإطلاق، حسبما ذكرت محامية ساندرا التي رفعت عليه دعوى طلاق، وقالت إنه كان يسافر إلى هذه الأماكن حاملًا معه مبالغ مالية هائلة[٥]. ومن دون شك، كان لدى باث الوسائل التي تمكنه من دعم عمليات الطيران الدولي السرية إذا أراد ذلك، وإن لم يكن لمصلحة الولايات المتحدة الأمريكية، ربما كان لمصلحة عملائه السعوديين. وقد دأب سالم على استغلال طائرته الخاصة الأكبر حجمًا كوسيلة بديلة لنقل الشحنات خلال هذه الفترة، ومن الممكن ـ على سبيل المثال ـ أن يكون سالم أو باث قد استخدما إحدى هذه الطائرات أو إحدى الطائرات النفاثة الكبيرة التي يملكها بعض معارف سالم السعوديين لنقل الأسلحة من جنوب أمريكا أو جنوب أفريقيا لمساعدة أسامة في باكستان. ومع أن هذا مجرد حدس، فلا يوجد أي شخص ممن أُجري معهم حوار بخصوص مشاركة سالم في صفقات السلاح الخاصة التي نفذها نيابةً عن أسامة على علم بالكيفية التي شُحنت بها الأسلحة إلى هناك.

كان سالم يتنقل برشاقة وحيوية بين دوائر الخداع هذه، إلا أن أسلوبه كان مطابقًا للممثل الكوميدي أوستن باورز وليس جيمس بوند بالطبع. وبعيدًا عن الدعاوى القضائية التي رفعها وايت والتصريحات التي أدلى بها، هناك أدلة إضافية ـ ولكنها غير متكاملة ـ عن علاقات سالم المحتملة بالدوائر السياسية الأمريكية المحافظة التي كانت ناشطة في إدارة العمليات

---

(٤) راجـــع: James R. Bath v. Charles W White, Harris County Court, 86-42551; Time, October 28, 1991; Unger, House of Bush, House of Saud, p. 34; Coll, Ghost Wars, p. 314.

(٥) مقابلة مع شيريل جونسون Sheryl Johnson المذكورة آنفًا ومع شخص ثان عمل مع باث بشأن مسائل الطيران في أثناء هذه الفترة.

السرية المناهضة للشيوعية خلال الثمانينيات. على سبيل المثال، وفقًا لسجلات رحلات الطيران، سافر لاري ماكدونالد عضو الكونغرس عن ولاية جورجيا ورئيس «جمعية جون بيرش» على متن إحدى طائرات سالم النفاثة الخاصة إلى المملكة العربية السعودية قبل أن يقضي ماكدونالد نفسه نحبه بشهور على رحلة الخطوط الجوية الكورية رقم ٠٠٧، التي تعرضت للقصف يوم ١ سبتمبر/أيلول من عام ١٩٨٣م، بعد أن ضلت طريقها فوق المجال الجوي السوفياتي. واستمرت علاقات جيم باث بعائلة جورج بوش وقياديين آخرين في الحزب الجمهوري في عهد ريغان في تكساس حتى أثارت تساؤلات عن مدى علاقات سالم بهؤلاء الساسة. على سبيل المثال، ادعى وايت أن باث استعان بأموال عائلة بن لادن وقتما استثمر في شركة آربستو للتنقيب عن البترول التي كان بوش يترأسها، وهي تهمة أنكرها تمامًا كل من باث وبوش. وعلى أقل تقدير، كان سالم من خلال جيم باث وخالد بن محفوظ والحكومة السعودية يعتبر نفسه عضوًا في المؤسسة النفطية والسياسية في هيوستن بسبب طبيعة عمله، وكان سالم يتقلب في نعيمها ويتعايش مع أسلوبها المعهود في تنفيذ الصفقات الغامضة. وكان مكتب «فينسون آند إيلكينز» القانوني الذي يُعد أحد مكاتب المحاماة المعروفة في المدينة وكيلًا لسالم آنذاك الذي كان يمتلك مطارًا خاصًا في المدينة، ويتناول عشاءه في قصور حي ريفر أوكس ويستمتع بصحبة أفراد العائلة المالكة السعودية الذين يزورونه[٦].

ومع ذلك كانت المشكلات الشخصية والمالية المتراكمة على باث أحيانًا تبعده عن سالم بن لادن. وكان هناك حدود لمدى الجنون والانفلات

---

(٦) سافر ماكدونالد McDonald من جدة إلى الرياض على متن إحدى طائرات سالم الخاصة في الأول من شهر مارس/آذار من العام ١٩٨٣م وذلك وفقًا لسجلات الطيران التي راجعها المؤلف. ومدخلات السجل بالتفصيل كما يأتي: Salem, Pizza, Congressman Larry McDonald, Georgia, plus two, plus money-Freeman.

وقد كان جاك Jack وأنيتا بيتزا Anita Pizza وروبرت Robert وجيل فريمان Gail Freeman معتادين السفر على متن طائرات سالم، وكانوا أصدقاء وشركاء في التجارة. تشير كلمة Plus two المذكورة في مدخلات السجل إلى راكبين مجهولي الهوية ومن المحتمل أنهم كانوا يسافرون مع ماكدونالد. أصول المال المشار إليه وغرض سفر ماكدونالد غير معروفين. والمعلومات الواردة حول تمثيل فينسون Vinson وإلكينز Elkins لسالم مأخوذة من مقابلة مع تشارلز شوارتز Charles Schwartz في الثاني عشر من شهر مايو/أيار من العام ٢٠٠٥م.

العصبي الذي كان سالم على استعداد لتحمّله. وفي عام ١٩٨٦م نشب نزاع مالي بين باث ووايت وتضمن الأمر ادعاءات بأنه استخدم شهادة إيداع تخص شركة سكايواي إيركرافت بصورة غير لائقة كضمان إضافي في بنك هيوستن مقابل الحصول على قرض شخصي بلغت قيمته ٥٥٠,٠٠٠ دولار. ولاحقًا في العام نفسه، اتصلت شرطة هيويستن بوايت ـ حسبما ذُكر في الدعاوى القضائية التي رفعها وايت ـ وأبلغه بأنهم يحققون مع باث في قضية مخدرات دولية، من دون توجيه أي تهمة إليه. ووفقًا لما أدلت به جيل فريمان صديقة عائلة بن لادن وشريكتهم من آن إلى آخر، انفصلت رندا، أخت سالم المقربة، عن عائلة باث خلال هذه الفترة أيضًا، وذلك لشعورها بأن الزوجين عاملاها بوقاحة، كما ورد عن فريمان، ثم أثَّرت رندا في ما يبدو في موقف سالم تجاه شريكه الذي دامت علاقته به لفترة طويلة(٧).

كان ذلك إيذانًا بانتهاء مرحلة، وكانت المشكلات التي تعرض لها باث هي القشة التي قصمت ظهر البعير. وفي عام ١٩٨٦م انخفضت أسعار النفط وسجلت أكبر انخفاض لها حتى بلغت تسعة دولارات للبرميل. واهتز اقتصاد كل من المملكة العربية السعودية وتكساس في الوقت ذاته. وتفجرت طفرة العقارات في هيوستن تدريجيًّا. وفي خريف هذا العام، وبينما كان أسامة يرتب أولويات معسكره التدريبي لأولى ميليشياته على الحدود الأفغانية، انكشفت فضيحة «إيران ـ كونترا» للعيان وأتت التحقيقات اللاحقة ببعض الملابسات القديمة المزعجة للصفقات غير الرسمية السرية بين ريغان والملك فهد إلى العناوين الرئيسة في الإعلام. وبدأت الشبكة التي كانت تربط بين عوالم سالم المتعددة معًا منذ عشرة أعوام ـ عالم الأموال الطائلة التي أتى بها النفط، وعالم التحالف الجريء والسري غالبًا بين واشنطن والرياض، وروح الحركة الثقافية، والانغماس في الملذات ـ بدأت في التفكك.

عانت فرقة المحاربين الصغيرة التي شكلها أسامة الأمرَّين خلال فصل

---

(٧) راجع: White's pleadings in Charles W White v. NCNB Texas National Bank, op. cit.
وقد وردت هذه المعلومات أيضًا في مقابلة مع جيل فريمان Gail Freeman في السابع والعشرين من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٦م.

الشتاء القارس في الجبال شاهقة الارتفاع حول جاجي. وكان من الطبيعي أن تتوقف الحرب خلال فصل الشتاء الذي يتساقط فيه الجليد. وعندما تسللت النسمات الدافئة إلى الجو وذاب الجليد، نشط الجنود السوفيات. وقد أثارت البلدوزرات الصاخبة التي أحضرها أسامة الغضب في ساحة قتال محورية لم يكن السوفيات يهملونها بأي حال من الأحوال. وزار جمال خليفة، صديق أسامة وزوج أخته، «عرين الأسد» واعتبره شركًا مهلكًا. وكان ذلك هو وجه الخلاف، إذ قال بعض زملاء أسامة: «لدينا ما يكفي من الشهداء» الذين سوف يرضى الله عز وجل عنهم لتضحيتهم بأنفسهم. وقال خليفة إنه ناقش أسامة في أن تعريض النفس للتهلكة أمرٌ يتنافى مع الشريعة الإسلامية، وأن «الله عز وجل سوف يسألك عن إزهاق هذه الأرواح يوم القيامة». إلا أن أسامة تجاهل تحذيره[٨].

بدأ القتال في شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٨٧م. وتناوش المتطوعون التابعون لأسامة بن لادن لمدة أسبوع مع السوفيات، وتبع هذا الاشتباك المبدئي معركة أطول في الشهر اللاحق. وتعرضت مواقع بن لادن لقصف جوي مستمر، وربما استخدم السوفيات أسلحة حارقة شبيهة بالنابالم. وأغارت قوات «السبيتسناز» على معسكرات بن لادن الحصينة، وعلى الرغم من افتقار المتطوّعين العرب إلى التدريب المتكامل وخبرتهم القليلة، فقد قاتلوا بقوة ردًّا على هذه الغارات في اشتباكات عن قرب. والأحداث الدقيقة خلال هذه المعارك أصبحت من الأمور الغامضة بعد سنوات عندما تأمل المجاهدون الذين صنعوا من أنفسهم الأساطير ما حدث لاحقًا، وأحيانًا كانت الروايات التي يدلون بها تتناقض بعضها مع بعض. والوصف الأقدم لهذه المعارك الذي نشرته مجلة «الجهاد» التي أسسها عزّام لا يشير إلى دور أسامة فيها، إلا أنه ركز عوضًا عن ذلك على بطولة أحد معاونيه العسكريين المصريين، حتى إن اسم أسامة لم يُذكر بتاتًا. لكنه سريعًا ما أبرز نفسه في الصورة بالتحدث عن تجاربه في مقابلات صحفية صريحة مع المراسلين العرب المتعاطفين معهم. وليس هناك أدنى شك في الحقائق الأساسية؛ إذ كانت معارك جاجي التي دارت رحاها عام ١٩٨٧م عنيفة،

---

(٨) راجع: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, pp. 51-52

ونتج منها إصابات مروعة لدى الطرفين إلا أن ذلك لم يغير شيئًا في مسار الحرب الكبرى. وكان أسامة فيها محاربًا أدّى دوره بشرف تحت ضغوط شديدة. ويبدو أن المعارك تركت فيه انطباعين أساسيين: **أولًا** تيقن أن خروجه في سبيل الله جاء بعاطفة قوية لا يشوبها شائبة، **وثانيًا** أعطته الانطباع بأنه فرصة تسويقية رائعة[٩].

يتذكر جمال خاشقجي، الصحفي السعودي الذي كان من أوائل الذين أجروا حواراتٍ مع أسامة بعد حملة جاجي، تلك الأحداث قائلًا: «يتضح من الأسلوب الذي كان يحكي به الأحداث أنه كان يحاول إيجاد حوافز لاستقطاب المزيد من المتطوّعين، إضافة إلى استخدام الإعلام لجذب المزيد من العرب إلى أفغانستان». واستطرد قائلًا: «لقد أحببت حماسته». وكان الأسلوب الذي تحدث به أسامة خلال هذه الفترة «شبيهًا بأسلوب أستاذ جامعة... أو كأنه جالس على رأس الطاولة في لجنة سياسية لأحد الأحزاب». إلا أن ذكرياته عن المخاطر التي تعرض لها في جاجي اتسمت بالمبالغة الشديدة الممزوجة بالشعور بالإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لإرادة الله عز وجل[١٠].

ذكر أسامة لخاشقجي: «أحيانًا كنا نمضي اليوم بأكمله في الخنادق أو في الكهوف حتى تُصم آذاننا من دوي الانفجارات حولنا». واستطرد قائلًا:

«علا ضجيج الطائرات الحربية باستمرار ردًّا على هجماتنا وكاد صدى أنشودة الموت التي تعزفها الطائرات بجنون يتردّد حولنا إلى ما لا نهاية. وقضينا الأيام والليالي نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى لينصرنا على أعدائنا. وعلى الرغم من الهجوم الروسي العنيف، كنا نضطر إلى إرسال أحدنا إلى خارج الملاجئ لمعرفة تحركات العدو... وفي كل مرة كنا قادرين بفضل الله على إلحاق الهزيمة الساحقة بالروس... والله وحده

(٩) راجـــــــع: Rand: Early History of Al Qaeda Working Group, 2006; Bergen and Cruickshank, «How the Idea of Al Qaeda Was Conceived,» 2006; Kim Cragin, «Early Al Qaeda Working Group».

(١٠) جاء ذلك في مقابلة مع جمال خاشقجي في ٢ من شهر فبراير/شباط من العام ٢٠٠٢م.

هو من كان يحمينا من الروس... والتوكل على الله هو المصدر الأساسي لقوتنا، وكانت هذه الخنادق والأنفاق مجرد أسباب ومنشآت عسكرية أمرنا الله بصنعها. إلا أننا كنا نتوكل على الله عز وجل في جميع الأمور»(١١).

قرابة هذه الفترة سمح أسامة لمخرج الأفلام التسجيلية المصري عصام دراز بتتبعه وتوثيق الحركة التي كان يؤسسها. وساعد دراز في بلورة الأفكار الرئيسة التي سوف تشكل لاحقًا أسطورة أسامة؛ باعتباره رجلًا ثريًّا عاش كالفقراء، وباعتباره صاحب مكانة اجتماعية مرموقة كان على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل دينه، وباعتباره محاربًا لم يكن يتردّد في مواجهة الموت. وقال عنه دراز لاحقًا: «رأيته بعينيّ في ساحة المعركة. رأيته في وسط القتال. كان رجلًا ثريًّا بغض الطرف عما كان يبدو عليه، وبالطبع اعتبره الناس رأسماليًّا وليس فقط صاحب أموال. وبعد معركة جاجي اعتُبر رجلًا عسكريًّا واستحق أن يكون القائد»(١٢).

كان ذلك على الأقل هو الرأي الذي عززه المخرج ووكلاء الدعاية والإعلان الأوائل الذين روجوا أسطورة بن لادن؛ تلك الآراء التي عززتها شخصية أسامة الجذابة الهادئة وقدرته ـ المعروفة في محيط البلاط السعودي الذي بزغ منه ـ على تجنب الإساءة حتى لمن يعاديه، وسوف يتبين أن ذلك كاف.

بدأ أسامة حينئذٍ يظهر وتبرز مكانته من العثرات التي وقع فيها معلمه عبد الله عزام. اختلف الرجلان بشأن خطط أسامة التي كانت تهدف إلى تجميع العرب معًا في معسكراتهم المنفصلة. بينما اعتقد عزّام اعتقادًا راسخًا أن عليهم توزيع أنفسهم على ميليشيات مختلطة جنبًا إلى جنب مع الأفغان؛ حتى يتسنى لهم المشاركة جميعًا في تحمل ويلات الحرب وإقناع المحاربين الأفغان ممن قُتل علماؤهم على أيدي الشيوعيين بالانضمام إليهم. وكتبت زوجة عزّام لاحقًا تشكو من أن «ابن لادن كان يريد تدليل

---

(١١) راجع: *The Osama Bin Laden I Know*, op. cit. pp. 58-59.

(١٢) راجع: Meeting Osama Bin Laden, Brook Lapping Productions, 2004.

المحاربين العرب. . . حتى إن طعامهم كان مختلفًا عن طعام المجاهدين الأفغان. واعتاد بن لادن إحضار مواد غذائية خاصة ومعبأة من المملكة العربية السعودية»[١٣].

عقّدت هذه التوترات موقف أسامة، إلا أنه كان حذرًا وظل على علاقة ودودة بعزام. وبحلول أواخر عام ١٩٨٧م، أصبح لأنشطة شبكتهم العالمية لجمع التبرعات وتعيين المتطوّعين مكاتب في بروكلين ومدينة توسن في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى جانب المكاتب الموجودة في مصر والمملكة العربية السعودية وفي غيرها من الأماكن. وفي ظلّ محدودية انتشار هذه الشبكة العالمية، لم يكن من مصلحة أسامة إحداث انشقاق يوهن العزيمة.

ظل أسامة يتميز بإمكانيات فائقة للحصول على التبرعات، وضمت قائمة المتبرعين له بالمال خالد بن محفوظ صديق سالم القديم. وقبل شهر مايو/ أيار عام ١٩٨٨م بأيام قلائل، ذكر أحد محاميّين ابن محفوظ أن سالم بن لادن «كان يلتمس مساهمة ابن محفوظ لمساعدة المقاومة الأفغانية». وجاء في هذا التصريح أن «الشيخ خالد بن محفوظ يتذكر أنه تبرع بزهاء ٢٧٠,٠٠٠ دولار، شأنه شأن كثير من الشخصيات البارزة في المملكة العربية السعودية، وهو الأمر الذي كان متوافقًا مع السياسة الخارجية لحكومة المملكة العربية السعودية آنذاك. وكان الهدف من هذا التبرع هو مساعدة مقاومة الاحتلال السوفياتي لأفغانستان تحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يُقصد منه أبدًا ولم يُستخدم إطلاقًا ـ على حدّ علم الشيخ خالد بن محفوظ ـ في تمويل أي فرع لحركة المقاومة هذه في بلدان أخرى». وقال محاموه إن ابن محفوظ لم يتبرع بالمال «قاصدًا» أن يُستخدم في شراء السلاح. كما إن نشاط أسامة المتعلق بجمع التبرعات في المملكة العربية السعودية «كان يؤكد الحاجة إلى الدعم لأهداف إنسانية (أي الطعام والمأوى والمستلزمات الطبية) للمقاومة الأفغانية والشعب الأفغاني الذي كان يتعرض لهجمات سوفياتية وحشية، والذي تعتبر حمايته من مسؤولية

---

(١٣) ورد ذلك في مقابلة أجراها محمد الشافعي في جريدة **الشرق الأوسط** في الثلاثين من شهر أبريل/ نيسان من العام ٢٠٠٦م.

المقاومة الأفغانية. . . وفي الواقع، كانت الحاجة المالية للمقاومة الأفغانية لهذه الأغراض أكبر من حاجاتها إلى الأسلحة التي كانت تقدّمها الحكومة الأمريكية من دون قيود»[١٤].

وزّع أسامة نقوده وأولوياته على من حوله؛ فأعطى بعضها إلى عزّام وبعضها إلى الجانب المصري المنافس في بيشاور. وبهذا الأسلوب المميز للقيادة البدوية التي تراعي الجميع، ربط أسامة تدريجيًّا بين عناصر ائتلاف غير مترابط الأجزاء من المتطوّعين العرب متعددي الجنسيات وبين قيادته التي لم يُعلن عنها رسميًّا. وعلى حدّ قول زوج ابنة عزام: «أظن أن أسامة حينئذٍ بدأ يثق في نفسه»[١٥].

---

(١٤) وردت هذه المعلومات في: رسالة بالبريد الإلكتروني من دفاع بن محفوظ في كيندال فريمان بلندن إلى المؤلف، وكان ذلك في شهر أغسطس/ آب من العام ٢٠٠٧م. في وقت الإسهام لم يكن تنظيم القاعدة قد تكون بعد. وقد أضاف الإعلان أنه «تفاديًا لأية شكوك لم يدفع الشيخ خالد ابن محفوظ أي تبرعات لتنظيم القاعدة ولا لأي شخص أو منظمة كان يعلم أنها تعمل لحساب القاعدة.أو أي منظمة إرهابية؛ رسالة بريد إلكتروني ثانية من لورانس هاريس Laurence Harris دفاع الشيخ بن محفوظ شريك إداري في كيندال فريمان بلندن، أرسلها للمؤلف في أغسطس/ آب من العام ٢٠٠٧م.

(١٥) راجع: *The Osama Bin Laden I Know*, p. 48.

الفصل الثاني والعشرون

العرض

مثل أي إنسان كان سالم يحلم حياة آمنة وسعيدة، إلا أن تصوره لم يشمل الحرب أو الاستشهاد بل دار حول النساء. وبحلول عام ١٩٨٥م بينما كان سالم قاب قوسين أو أدنى من بلوغ ربيعه الأربعين، كان لديه زهاء الخمس صديقات على صلة دائمة به؛ واحدة أمريكية وأخرى ألمانية وثالثة فرنسية ورابعة دانمركية وأخرى إنكليزية. واستخدم سالم أمواله وطياريه ليتمايل معهنّ ويتأرجح على متن طائراته في أثناء رحلاته الجوية. والتففنّ حوله والتّفت إحداهن حول الأخرى كأنهنّ طائرات تقترب من ممر هبوط مزدحم. فتمر إحداهنّ بالأخرى مرورًا سريعًا بين الفينة والفينة ونادرًا ما يحدث تصادم. وأحيانًا كان يسكّن صديقاته في طابقين مختلفين في الفندق نفسه من دون أن تدرك إحداهنّ وجود الأخرى. وظنت واحدة منهنّ أو اثنتان أنهما حبه الوحيد بينما كانت الأخريات أكثر وعيًا بواقع العلاقة.

وضع سالم خطة جريئة للتعامل بمهارة مع هذا الأمر. وبدأت هذه الخطة بمراهنة ودية بين سالم والملك فهد كما يذكر لنا بنغت يوهانسون؛ إذ أخبر سالم فهدًا أن باستطاعته إقناع أربع جميلات أوروبيات وأمريكيات ـ «من عائلات محترمة» ـ بالزواج منه في الوقت نفسه وفقًا لما تسمح به الشريعة الإسلامية، ومن ثَم نعته فهد بالجنون وقال له إنه لن ينجح مطلقًا في تحقيق مآربه. ربما كان هذا بالفعل هو ما يعتقده الملك، بينما قال يوهانسون إنه ربما يكون قد تراءى له أيضًا

أنه إذا قيل لسالم إنه لن يستطيع فعل شيء، فإنه «سيفعله لا محالة»[1].

كانت لين بيغيني، عازفة البيانو أمريكية الجنسية التي تعيش في مدينة أورلاندو، قد عادت إلى ولاية فلوريدا بعد مغامرتها مع سالم في باكستان عندما اتصل بها ليدعوها لتصحبه إلى لندن. وبالفعل سافرت جوًّا، لكن أحدًا لم يحضر ليقابلها في المطار، ولذا بعد لحظات من الارتباك استقلت سيارة أجرة للذهاب إلى فندق كارلتون تاور الذي يقع في حي بلغرافيا. وما إن خرجت للتسوق وعادت إلى الفندق حتى وجدت رسالة مكتوبة بخط اليد جاء فيها: «أتيت لرؤيتك! إنني أشعر بالذنب حتى إنني بحثت عنكِ في المتاجر. سأتصل بك لاحقًا». ووقّع كاتبها في النهاية بحرف «س»[2].

وبالفعل اتصل بها واتفقا على أن يمر بها ويصطحبها في السيارة، لكنّها عندما وصلت إلى ضيعته المحاطة بالأسوار المبنيّة بالطوب في قرية أوفلي تشاز، وجدت فتاتين أخريين هناك بالفعل. فعلمت لين أن سالمًا يواعد أخريات ولم تغضب قط لهذا السبب بصفة خاصة. ومع ذلك لم تكن واثقة من انطباعها الفعلي حيال هذا الأمر. وكانت السيدتان الأخريان تحملان الاسم نفسه؛ كارولين، لكن إحداهما فرنسية والأخرى إنكليزية.

اتسمت كارولين الفرنسية بعينيها الداكنتين وشعرها الأسود المجعد الكثيف الذي كان ينسدل على وجنتيها، وتبين أنها كانت تعيش بالقرب من مدينة كان في منزل اشتراه سالم لها ولوالدتها، وواعدت سالمًا لفترة تزيد عن العام.

أما كارولين الإنكليزية فهي تُدعى كارولين كيري، وكانت في ذلك الحين في زهاء السادسة والعشرين من عمرها. كان لها وجه نحيف بارز

(١) مقابلة مع بنغت يوهانسون في ٣ من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٦م. وصف أصدقاء آخرون وموظفون وشركاء خليلة سالم وعرض زواجه في مقابلات بسجل واحد ضم محمد عشماوي وصبري غنيم وتوماس ديتريتش وأنور خان وروبرت وجيل فريمان.

(٢) كل الاستشهادات ومن بينها حاشية من «س» من مقابلة مع لين بيغيني في ٧ من شهر فبراير/ شباط عام ٢٠٠٦م.

العظام ـ مع نتوء عظام الوجنتين ـ وشعر كستنائي اللون، وكانت تعطي انطباعًا لمن يراها برقي طباعها. تربت كارولين وترعرعت في حي كينسينغتون بلندن مع أخيها آمبروز غير الشقيق وأمها آن كيري. ويعود نسب عائلتها إلى الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية. لم يتزوج والد كارولين، سيمون هنري كيري، والدتها. ووُلد آمبروز أيضًا من علاقة غير شرعية؛ من آن وديفيد كوينزبيري المعروف باسم ماركيز كوينزبيري. قابل سالم كارولين في حديقة هايد بارك خلال أوائل الستينيات عندما كانت لا تزال تتعلم المشي. وكان حينها يحضر إلى لندن في فترات الإجازة الدراسية ورأى مربية الأطفال لعائلة كيري في الحديقة، ولفتت المربية نظره وحاول أن يتودد إليها باللعب مع الأطفال. وسريعًا ما أصبح ضيفًا دائمًا في بيت كيري. وبمرور السنوات انقطعت اتصالاته بهم، إلا أنه ظهر مرةً أخرى خلال منتصف الثمانينيات عندما تعرف من جديد إلى كارولين وبدآ يتزاوران. وشأنها شأن صديقات سالم الأخريات، كانت كارولين تصغره بقرابة خمس عشرة سنة[٣].

ألقت لين التحية على كارولين الفرنسية والإنكليزية في قرية أوفلي تشاز لدى مقابلتهما. وخُيل إليها أن سالمًا دعا إلى انعقاد قمة لصديقاته ـ أو شيء من هذا القبيل ـ لكن على ما يبدو لم يكن الحد الأدنى لعددهن قد اكتمل لبدء القمة رسميًّا؛ إذ لم تكن آنا الألمانية قد وصلت بعد، وطلب سالم من أحد أصدقائه الطيارين أن يأخذ إحدى طائراته النفاثة ويذهب إليها جوًّا ليعود بها إلى الضيعة. واتخذت لين قرارًا بأن ترافقه لتقضي وقتها في الفضاء، «وكان الأمر شبيهًا باستقلال سيارة أجرة للذهاب إلى مكان ما»[٤].

كانت آنا امرأة شقراء هيفاء القد وكانت أصغر سنًّا من الأخريات. وكان سالم قد قابلها في حانة في منتجع نمساوي للتزلج على الجليد. عملت آنا بأجر بالقرب من مدينة كولونيا، إلا أنها كانت كثيرًا ما تسافر

---

(٣) عائلة كيري: مقابلة مع شخص مقرب من العائلة وكذلك معلومات عن السيرة الذاتية من موقع العائلة <http://www.careyroots.com> فحصت وكتبت في ٩ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٧م.

(٤) مقابلة مع بيغيني المرجع السابق.

مع سالم. فاصطحبها ذات مرة إلى المدينة المنورة التي يُحظر أن يدخلها غير المسلمين. وعلى الرغم من أن آنا كانت بعيدة كل البعد عن وصفها بأنها ضخمة، فقد كان سالم يشير إليها أحيانًا عندما يكون بصحبة أصدقائه الرجال بـ «مقطورته الألمانية».

عندما وصلت آنا ولين جلس سالم على أريكة في غرفة المعيشة ومعه السيدات الأربعة. واستجمع حينها جدية الأسلوب وشرح لهنّ أنه منذ الصبى تربّى في أحضان ثقافة كان من الشائع فيها أن يتزوج الرجال أكثر من زوجة عربية واحدة، ويعيشوا معًا جميعًا في مجمّع سكني عائلي.

وأضاف سالم وفقًا لما ذكرته لنا لين إن «ذلك لم يكن حلمي؛ فأنا أحلم بأن أتزوج أربع سيدات من الغرب، هذا هو حلمي وتصوري. ولذا اخترتكنّ أربعًا وما أطلب منكن شيئًا سوى تحقيق حلمي وتحويله إلى حقيقة»[٥].

أوضح سالم بالتفصيل الخطة التي ظلّ يعدها على مدار شهور عديدة. ولم تكن مصادفة أن كل فتاة من الفتيات اللاتي اختارهنّ تنتمي إلى بلد مختلف. وفي الواقع، كان تخيله أن يبني ضيعة جديدة في جدة لعائلة بن لادن تشبه الأمم المتحدة.

كان المجمع سيشتمل على أربعة منازل؛ سيرتفع العلم الأمريكي على أحدها، والعلم الألماني على الآخر، والعلم الفرنسي ثلاثي الألوان على المنزل الثالث، وعلم المملكة المتحدة على الرابع. وكان سيشتري لكل زوجة سيارة وسيخصص مكانًا لها لتقف أمام المنزل، وستكون سيارة كل زوجة مستوردة من مصانع بلدها؛ سيارة مرسيدس لآنا، وأخرى رولز رويس لكارولينا الإنكليزية. . . وهكذا. إضافة إلى شراء بيت لكل منهنّ في بلدها، وبالفعل كان سالم يمتلك منازل فخمة في أمريكا وإنكلترا وفرنسا.

---

(٥) المرجع السابق.

وبينما كان سالم يتحدث، ابتسمت لين بينها وبين نفسها وفكرت قائلةً: «لقد خُدعت؛ فعلى الرغم من أنني أمريكية، فإنني لا أهوى سيارات الكورفيت أو الكاديلاك أمريكية الصنع!».

ظل سالم يتحدّث ويحاول إقناعهنّ بالزواج منه. وأدرك أنه ربما انتابهن شعورٌ بأنهن قد وقعن في الفخ بسبب نظرتهن إلى الحياة في المملكة العربية السعودية، ولذا استدرك الأمر سريعًا وقال إنه في حال إنجاب أي من الزوجات الأربع، فإن الأطفال سيقيمون في المملكة وسيُربّون هناك على التقاليد السعودية. لكن في حالة عدم الإنجاب، إن لم تشعر أي من الزوجات بالسعادة بعد عام واحد، فسوف يعطيها مبلغ ١٠٠,٠٠٠ دولار وتستطيع حينها العودة إلى بلادها. وتمنى أن يشعر الجميع معًا بالسعادة ويقيمون معًا مدة طويلة.

تتذكر لين أنه قال: «سوف أتنقل من منزل إلى آخر وسنكون جميعًا أصدقاء».

تحكي لنا لين أنها فكرت في الأمر وقالت لنفسها: «حسنًا... لا يبدو هذا الوضع سيئًا». إلا أنها بعد ذلك وبخت نفسها بسبب قلقها من احتمالية عدم زواجها من أي رجل أمريكي إذا تركته بعد عام، إضافة إلى أنها فكرت: «ربما أكون بذلك قد بعت نفسي بثمن بخس». إلا أنها قالت: «وما المشكلة؟» فهي شابة واسعة الأفق، بالإضافة إلى أنها مهتمة بسالم الذي أحسن معاملتها أيما إحسان[٦].

استمر الحديث بعض الوقت وهيمن عليه الود والألفة. وعلى ما يبدو تقبلت كارولين الفرنسية ـ في اعتقاد لين ـ فكرة زواجها من سالم ومشاركة سيدات أخريات فيه. بينما كانت كارولين الإنكليزية ـ التي يسميها سالم «كيري» ـ رابطة الجأش في انفعالاتها بل غامضة. مع ذلك بدت التعاسة على آنا بوضوح، ودارت عيناها في محجريهما وبدت الأكثر تأثرًا بقول سالم إنه يريد الزواج بغيرها. وكلما بدا حزنها أكبر ازداد تفكير لين في عدم نجاح الأمر برمته. وفي النهاية غادرت آنا فجأة.

(٦) كل الاقتباسات المرجع السابق.

ذكر سالم في مكالمة لصديق له في أمريكا بعد هذا الاجتماع أنه «في ورطة، وأنهنّ جميعًا استشطن غضبًا»[٧].

كان في حديثه شيءٌ من المبالغة، والدليل على ذلك أن مكثت في الضيعة الليلة ذاتها وعزفت مقطوعة موسيقية لشوبان. وبينما عادت كارولين الفرنسية لوطنها لم تسافر كيري، وبعد أيام قليلة لاحقة سافرت لين معها ومع سالم جوًّا إلى القاهرة لقضاء الإجازة. ومن هناك سافروا إلى المملكة العربية السعودية، ومنها إلى جزيرة يونانية حيثما قابلوا اثنين من أبناء سالم من زيجته الأولى وأبحروا على متن يخت. وتدريجيًّا خلال هذه الرحلة بدأت لين تكتشف أن سالمًا «كان يحب كيري. . . بل كانت تربطهما علاقة قوية».

سافرت لين إلى بلدها جوًّا، وبعد شهور عديدة طلب منها سالم المجيء إلى جدة وقضيا هناك بعض الوقت معًا، ثم قال لها سالم ما كان يدور بعقل كليهما: «لست متأكدًا من نجاح هذه الزيجة».

قالت لين: «لا بأس! فقد قضينا معًا عامًا رائعًا».

رد عليها سالم: «ستستمر صداقتنا إلى الأبد، وسوف أتصل بك دومًا لأتأكد أنك على ما يُرام ولا تحتاجين إلى شيء»[٨].

كانت لين معجبة بسخائه، إلا أنها لم ترغب في استغلاله. وشجعها العاملون لدى سالم على أن تطلب منه شراء منزل لها في فلوريدا ـ فقد اشترى لكارولين الفرنسية بيتًا في بلادها ـ إلا أنها أبت.

وصلا إلى مفترق الطرق ونما إلى علم لين أن كارولين كيري ستكون آخر صاحبة له على الإطلاق.

كان بعض إخوة وأخوات سالم، وسالم نفسه، يبحثون عن الزيجات التي تجمع بين العصرية والتقاليد، إلا أنهم كانوا أكثر ميلًا تجاه التقاليد. وتناقضت معتقدات وعادات بنات محمد بن لادن تناقضًا شديدًا مع

(٧) مقابلة مع جيرالد أورباخ في ٧ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٥م.

(٨) كل الاستشهادات من مقابلة مع بيغيني المرجع السابق.

معتقدات وعادات أبنائه، التي كانت متوارية عن الأنظار. ففي جدة كانت شيخة ووفاء ترتديان العباءات السوداء وتعمقتا في الدراسة الإسلامية وشجبتا إقامة حفلات أعياد الميلاد لأبنائهما، ظنًّا منهما أن هذه الحفلات محرمة وفقًا للشريعة الإسلامية؛ بحجة أن هذه الحفلات من الطقوس المسيحية ومن ثَم لا تجوز شرعًا في الإسلام. مع ذلك ظلت مجموعة أخرى من بنات محمد بن لادن، هنّ هدى ورندا ومنى، تسافر مرارًا وتكرارًا في أنحاء أوروبا للتسوق أو عبر المحيط الأطلسي للتزلج على الجليد في فصل الربيع مع سالم في مدينة آسبن. وإذا ما أردن إقامة علاقات صداقة مع رجال، يضطررن إلى إتمام هذه الأمور بسرية تامة، ويكنّ على استعداد لتحمل نتائج أي مخاطر كبيرة. وإلا ينتظرن سالمًا لترتيب أمور زواجهنّ على نحو تقليدي من رجال عرب محترمين يعملون في وظائف محترمة والموافقة عليه ومباركته. وشأن هؤلاء النساء شأن أبناء محمد بن لادن، أصبح بعضهن ببلوغهنّ الثلاثين عامًا أكثر تدينًا في ما يبدو وقلّت زياراتهنّ إلى أوروبا(٩).

نهجت القليلات منهن نهج رندا في بحثها عن العمل المستقل. وكان سالم قد ألحق أختيه رضا وصالحة غير الشقيقتين بمدارس أمريكية متخصصة في هندسة الديكور، وقال إنهما بعد إنهاء التدريب ستستطيعان العمل في مشروعات بناء القصور للعائلة المالكة السعودية. ولكن لم تستطع أي من أخواته، حتى أكثرهنّ طموحًا، تحرير نفسها بسهولة من النظام الاجتماعي السعودي على النقيض من إخوتها.

طُلّقت كثيرات من بنات محمد بن لادن بموجب القوانين السعودية التي لا تتّسم بالمرونة، بل حُرِمنَ من الإقامة مع أبنائهنّ. فمثلًا فقدت نجية، وهي أم لأربع أبناء، الوصاية على أولادها في جدة عندما طلقها زوجها. وذات مرة طرحت كارمن بن لادن سؤالًا على نجية تستفسر فيه عن عدم مقاومتها لما فُرض عليها؛ فنظرت إليها نجية كأنها «غبية» كما حكت

---

(٩) شيخة ووفاء في أعياد الميلاد: بن لادن في *Inside The Kingdom* صفحة ١٠٤. منى وهدى ورندا في أوروبا: سجلات الطيران ومقابلات مع عدد من الأشخاص الذين سافروا في رحلات ومن بينهم توماس ديتريتش في ١٢ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م.

لنا كارمن. وفي نهاية المطاف هربت نجية إلى لوس أنجلوس، حيثما حصلت على دروس في الطيران وأصبحت طيارة ماهرة، وكانت تتميز كما حكى لنا بعض أصدقائها الأمريكيين بقيادة السيارة بسرعات شديدة جدًّا في الشوارع والطرق السريعة[١٠].

ظلت رندا أكثر بنات محمد بن لادن تحررًا من التقاليد، وفي ذلك الحين كانت طبيبة حاصلة على إجازة ممارسة الطب بالإضافة إلى قدرتها على الطيران سواء في منتجع التزلج النمساوي «زيل آم سي» أو في القاهرة أو في جدة. مع ذلك استفادت رندا في حياتها الجريئة والواضحة نسبيًّا من حماية سالم الشديدة لها وإشرافه عليها، ومن ثَم لم ينطوِ الأمر إلا على القليل من المخاطر النابعة من لوم الفرع المتحفظ في عائلتها لها.

كانت رندا قد أوشكت على بلوغ الثلاثين عامًا، وقرر سالم أنه حان الوقت لأن تتزوج، مع أن ذلك يعني نهاية علاقتهما المميزة. وأبدى سالم موافقته على زواجها من عريس مصري مناسب سيعمل لاحقًا مديرًا لشركات بن لادن في جدة. استأجر سالم قاعة حفلات في فندق فاخر في القاهرة ودفع لأصدقاء رندا الأمريكيين مقابل الحصول على تذاكر (درجة أولى) ليسافروا إلى مصر وأقام عرسًا باهرًا. ودعا الأطباء الأمريكيين الذين أجروا له عملية البواسير لحضور الحفل. وقبل يوم الاحتفال ارتدت مجموعة من إخوة رندا وأخواتها الملابس غير الرسمية (الجينز الأزرق) واصطحبوا أصدقاءها الأمريكيين في جولة في مزارع الخيول الثوروبريد (الهجينة) التي يمتلكها أخوهم خالد غير الشقيق في الريف المصري.

في يوم الزفاف زينت المفارش البيضاء ذات الأربطة الطاولات، وجلس العروسان على مقعدين مرتفعَي الظهر مزخرفَين باللون الأبيض. وكانت كثيرات من أخوات رندا غير الشقيقات وصيفات لها، وكان بعضهنّ يرتدين الحجاب بينما كشفت الأخريات شعورهنّ. وكن يرتدين في الحفل فساتين شيفون قرنفلية اللون وتاجًا ذهبيًّا. أما الرجال فارتدوا سترات سهرة

---

(١٠) راجع: *Inside The Kingdom* صفحة ٨٨. لوس أنجلوس: سجلات الممتلكات العقارية في مقاطعة لوس أنجلوس. قيادتها السريعة للسيارات: مقابلتان مع صديقتين لنجية وقد طلبن عدم الكشف عن هويتهما.

سوداء، ولم يكن أسامة من بينهم. وفي لحظة سارة يشوبها القليل من الألم، سلّم سالم العروس إلى زوجها. وبعد ساعات قليلة غنى سالم على المسرح وتصرف بحيويته وأسلوبه المرح كالمعتاد[١١].

كانت صالحة من بين أخوات سالم غير الشقيقات، وهي مهندسة الديكور المبتدئة التي تُعتبر أكثر من ذاقت مرارة التقيد بالتقاليد في العائلة.

كان بول بيتشيريلّو مهندس ديكور وفنانًا إيطاليًّا في زهاء الخمسين من عمره، وتعرف على عائلة بن لادن عن طريق روبرت فريمان، شريك سالم الذي كان يقيم في نيويورك. وفي الوقت الذي أنهت فيه صالحة ـ التي كانت تصغره بقرابة العشرين عامًا ـ دراساتها في كلية هندسة الديكور في هيوستن، كانت شركات بن لادن مشغولة بتنفيذ عدد من المشروعات المعقدة لبناء القصور في المملكة العربية السعودية، وكان بيتشيريلّو يعمل في بعض هذه المشروعات إلى جانب عمله في جدة في منزل زوجة سالم الأولى التي تُدعى شيخة. واشتملت كثير من المشروعات على أعمال في القصور التي كان الملك فهد يقيم فيها، وتطلب الأمر السفر في أنحاء متفرقة لمعاينة المنسوجات الحريرية النادرة اللازمة للفُرش، إلى جانب الستائر التي تصنعها شركة سكالاماندر في نيويورك، إلى جانب الأثاث المُوصى عليه في مدينة فالنسيا الإسبانية، والثريات اليدوية المصنوعة في فينيسيا بإيطاليا. ولم يكن سالم يسمح لأخواته، حتى مصممات الديكور المحترفات منهنّ، بالسفر إلى الخارج من دون وصيفة أو بصحبة أحد شركائه في العمل المسنين الموثوق فيهم. ومع ذلك، في إحدى الليالي في باريس، ذهب بوب فريمان الذي كان يصاحب صالحة، إلى فراشه مبكرًا، ولم يكن قد لاحظ الإعجاب المتبادل الذي نشأ بين بول وصالحة. وبينما كان نائمًا، تتذكر جيل فريمان زوجة بوب أنهما «تحدثا طوال الليل ونشأت قصة حب بينهما».

وعلى مدار أشهر متعاقبة استمر بول وصالحة في اللقاء، وفي النهاية

---

(١١) مقابلات مع روبرت وجيل فريمان في ٢٧ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م.

اكتشف سالم الأمر وتلقائيًا ألقى باللائمة على فريمان. وحذره قائلًا: «علينا أن نفعل شيئًا حيال هذه العلاقة، هذه مأساة». انتشرت الشائعات كما تنتشر النار في الهشيم طبقًا لما تذكره جيل فريمان حتى قيل إن بعض «الإخوة كانوا سيقتلون» صالحة لتدنيس شرف العائلة بسبب حبها لعجوز أوروبي[١٢].

تألّم سالم لذلك واستشاط غضبًا، إلا أنه استسلم في النهاية لتيار العشق والهوى. وخطط بهدوء لزواجهما، وبعدها انتقلا للإقامة في مدينة صغيرة على الشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط. ومرت سنون حتى تقبّلت العائلة بول ورحّبت به، كما قال لنا فريمان وزوجته اللذان شعرا بأن جميع أفراد العائلة تجنبوا بول في حفل زفاف رندا تجنبًا واضحًا. تمسك الزوجان أحدهما بالآخر وعلى الرغم من ذلك وتدريجيًّا تقبلهما بكر وإخوتها الآخرون ذوو النفوذ زوجًا وزوجة.

انتقلت عائلة بن لادن، بفضل الثروة وسهولة التنقل من مكان إلى آخر وعلمانية سالم، إلى آفاق ثقافية أكثر رحابة واتساعًا، إلا أنهم ظلوا في جوهرهم عشيرة عربية محافظة. وكان شرف العائلة من جملة أشياء أخرى من المسلّمات غير القابلة للتفاوض، وكانت ثروتهم تعتمد كلية على رعاية العائلة المالكة السعودية لهم، ومن ثَم افتقروا إلى النضج السياسي الذي يمكنهم من الاستمتاع بالحياة كما يحلو لهم بصورة كاملة، كما ظن بعض الأفراد في آل سعود الأكبر حجمًا أن بإمكانهم فعل ذلك. وفي الواقع، فإن السلوكيات أو الأفعال التي اعتبرها كثيرون من آل بن لادن غير لائقة أو مستحيلة، مثل زواج صالحة من بول، كان يمكن أن تبدو سلوكيات تفتقد الجرأة والشجاعة أو سلوكيات جامدة ومقاومة للتغيير، مقارنةً بالعبث الأوروبي الذي لا يحكمه ضابط ويمارسه بعض أمراء آل سعود؛ أي الفسوق الذي ييسره سالم وأصدقاؤه أحيانًا باعتبار سالم المسؤول عن رفاهية العائلة المالكة.

كان سالم يفتخر علانية بأنه لم يضاجع عاهرات قط. واقتضى هذا منه

---

(١٢) كل الاستشهادات من المرجع السابق.

بعض الجلد لأنه كان يرتب بين الحين والآخر استقطاب فتيات محترفات للترفيه عن ضيوفه السعوديين في الحفلات التي كان يقيمها أو يرتب لإقامتها في إنكلترا وغيرها من البلدان، وفقًا لما روى لنا كثير من الأصدقاء والموظفين الأوروبيين الذين شهدوا مثل هذه الأمور. وفي مثل هذه الحفلات كان سالم يأتي بنساء كثيرات جدًّا، حتى إنه كان يخصص لهنّ أحيانًا حافلة لكثرة عددهن. وكان يُطلب إلى الأفراد في حاشية سالم، باعتبارهم شركاء في الاستضافة، إثارة جو من المرح بين هؤلاء النساء (كأن يقولون لإحداهنّ مثلًا: «دفعنا لك المال لتبتسمي!»). ولكن بعيدًا عن المقابل المادي الضخم الذي تحصل عليه الفتيات، تجد أنهن لا يملكن سببًا حقيقيًّا للشعور بالرضى عما يفعلنه؛ فقد يتصرف الضيوف بأساليب فظة، وقد يكونون ثمالى أو يفتقرون إلى الجاذبية. ويتذكر توماس ديتريتش أنه استمع ذات مرة، في أحد تجمعات السعوديين الذين كانوا في زيارة إلى قرية أوفلي تشاز، إلى بعض العاهرات الألمانيات اللاتي لم يكن يعرفن أنه ألماني الجنسية وباستطاعته فهمهنّ وهن يتحدثن. ويتذكر أنهنّ «كنّ يتذمرنّ تذمرًا شديدًا» من الضيوف وقالت إحداهن: ««انظري إلى هذا الرجل، أتمنى ألا يختارني». وقلن ما يمكن أن تتخيل قوله»[١٣].

من وجهة نظر كثير من السعوديين، فإن الرذائل المنتشرة في الغرب كانت السبب وراء تعزيز سلوكيات بُغض العرب للنساء، بينما يرى كثير من الأمريكيين والأوروبيين أن الرذائل المنتشرة في المجتمعات العربية عززت السلوكيات النابعة من الأحقاد العنصرية الغربية. وكتب بيتر ثيرو الأمريكي الجنسية الذي عاش في الرياض خلال هذه الفترة أن «الرعب الذي تبثه أمريكا في نفوس الدول الأخرى ـ بناطحات السحاب والطرق السريعة ونظام التلفونات المذهل وثرواتها الخام ـ كان يتضاءل بامتلاك المملكة العربية السعودية كل هذه الأشياء بصورة مفاجئة وبسرعة مهولة». واستطرد قائلًا إن «السعوديين اعتبروا أنفسهم أعلى شأنًا من الأمريكيين في المطلق. وبدت الفوضى العلمانية التي تشهدها الانتخابات في أمريكا والصحافة الفوضوية، والأهم من كل ذلك الثقافة الجنسية العامة، أمورًا تبعث على شعورهم

(١٣) مقابلة مع يوهانسون المرجع السابق. مقابلة مع ديتريتش المرجع السابق.

بالاشمئزاز، إلا في حالة ترشيد كل هذه الأمور»[١٤]. وفي هذا السياق، كان من الأسهل والأكثر استساغة من دون شك بالنسبة إلى السعوديين الأثرياء، شراء المتعة الجنسية بأموالهم خلال زياراتهم للدول الغربية، عن الدخول في علاقات زوجية مختلطة الأنساب وحياة عائلية ثنائية الثقافات، ربما ينتج منها مع الوقت الدمج العنصري أو الاندماج الكلي، كما حدث بصورة متكررة مثلًا بين المهاجرين الباكستانيين والإيرانيين والمصريين والفلسطينيين إلى الغرب. ومن العوامل التي أبعدتهم عن ذلك هَوَسَهُم بسلالات الأسلاف المباشرين في ما بين كثير من السعوديين، خاصة المنتمين إلى منطقة نجد ذات النفوذ، إلى جانب ثرواتهم المالية وتحفّظهم الاجتماعي الشديد. أما فكرة سالم عن الأمم المتحدة (أو على الأقل ما يمكن أن يُطلق عليه مجلس الأمن) المتمثّل في الجمع بين عدة زوجات متعددة الثقافات، فإنه كان استثناءً حتى إنه سلم جدلًا بهيمنة التقاليد العائلية السعودية التي تقر بسلطة الأب المطلقة ولا تتّسم بأي قدر من المرونة.

سواء أكان الأمر متعلقًا بالجنس أم غيره، فإنه كان ضربًا من ضروب الخيال أن يسافر أي أمير أو تاجر سعودي إلى الغرب من دون أن يدرك من حين إلى آخر الأهمية القصوى للمال في تعاملاته مع الأمريكيين والأوروبيين. واستطاع سالم التحكم في هذا الأمر بإحاطة نفسه بأصدقاء حقيقيين من الغرب ممن حازوا ثقته بمرور الوقت، وكان يغدق عليهم الأموال ويمنحهم إجازات شاملة كل النفقات لضمان ولائهم، إلا أنه لم يكن يعطيهم أموالًا ببذخ يجعلهم قادرين على الاستغناء عنه. ومن بين من ارتبطوا بسالم ارتباطًا وثيقًا، الميكانيكي السويدي بنغت يوهانسون والطيار الأمريكي جيرالد أورباخ. ولم يكن لدى هذين الرجلين رغبة محمومة في الثروة أو في مظاهر الرفاهية، وظلوا بجوار سالم أطول فترة. وهناك آخرون في حاشيته ـ مثل جيم باث ـ بدوا أكثر ميلًا إلى الحصول على المال وتلاشوا من بؤرة الاهتمامات في حياته سريعًا إذا ما قورنوا بالآخرين. ويبدو أن كل أمريكي نال أجرًا من سالم أقحمه في صفقة عمل هامشية. وكانت الأفكار تداهمه على هيئة صور عشوائية أصغر من أن يمكن

(١٤) بيتر زيروكس Sandstorms صفحة ١١٤.

إدراكها، وأخذت تومض فجأة وكأنها تنعكس على شاشة عرض طبيب نفساني به جُنة يعالج الناس معالجة تجريبية: فهنا مجمع تجاري مكتمل في سان أنطونيو، وهناك صفقة معادن عززها أحد أقارب سيناتور من ذوي النفوذ في ولاية لويزيانا، وعلى الجانب الآخر فيلم كاوبوي تُصور مشاهده في الفلبين. وإذا راقت لهوى سالم فكرة بعينها، ربما يبدي موافقته حتى وإن لم تكن متناسبة مع الاطار العام في شركات عائلته. وذات مرة قال سالم لدون سوويل، الذي علمه الطيران، إنه يشارك الملاكم محمد علي في ملكية شقة فاخرة في لندن. وإذا لم تعجب سالمًا الفكرة (مثل الحبكة الروائية في فيلم الكاوبوي)، يطرحها جانبًا من دون أدنى اهتمام[(١٥)].

يتذكر يوهانسون قوله لسالم: «ينتابني شعور غير مريح إزاء هؤلاء الناس»، مشيرًا إلى متعهدي إحدى الصفقات الذين يحيطون به من كل جانب.

وأجابه سالم: «أعرف يا بنغت، إنني أسرق منهم أكثر ممّا يسرقون مني»[(١٦)].

وذات مرة أعرب سالم بصوت عالٍ عن قلقه بينما كان محلقًا على ارتفاع واحد وأربعين ألف قدم على متن إحدى طائراته الـ ليرجت (Learjet) أعلى شمال أفريقيا، بشأن ما إذا كانت صديقاته يعتنين به لأنه يملك المال فحسب، وفقًا لما رواه جاك هينسون الذي عمل لديه طيارًا. فتوقف سالم لحظاتٍ عن الحديث، ثم نبذ المشكلة التي حيرته قائلًا: «لا يهم؛ ما دمت سعيدًا!»[(١٧)].

لم يستطع سالم تحمل الوحدة مع بلوغه منتصف العمر. وفي عام ١٩٨٥م أو ١٩٨٦م أكمل الأربعين ربيعًا؛ فهو لا يعرف بالتحديد سنة ميلاده أو حتى يوم ميلاده، وكثيرًا ما استخدم «يوم الحب» بديلًا عاطفيًّا من

---

(١٥) العاهرات، واتفاق التعدين، فيلم الكاوبوي: مقابلة مع واين فاغان في ١٠ من شهر مايو/أيار عام ٢٠٠٥م. شقة لندن مع محمد علي: مقابلة مع دون سوويل في ٢ من شهر يونيو/حزيران عام ٢٠٠٥م.

(١٦) كل الاستشهادات من مقابلة مع يوهانسون المرجع السابق.

(١٧) مقابلة مع ديتريتش المرجع السابق ومع مساعد سالم الألماني بيتر بلوم في ٥ من شهر مايو/أيار عام ٢٠٠٦م.

يوم ميلاده. وزادت حاجته المستمرة إلى الرفقة بشكل غير مسبوق. على سبيل المثال، عندما كان يذهب لقضاء حاجته، كان يترك الباب مفتوحًا ويطلب من أصدقائه الجلوس بالقرب منه والتحدث معه. وإن لم يكن أحد من حاشيته في الجوار، يتصل بمكتب الاستقبال ويعرض دفع أموال مقابل حضور خادمة أو رجل صيانة إلى غرفته للجلوس خارج دورة المياه للشعور بأن هناك من يرافقه حتى في أثناء قضاء الحاجة[١٨].

أما عن عادات نومه فإنها لم تكن أقل غرابة. فعندما كان يقيم مع صديقه محمد عشماوي في منزل في الرياض، لم يكن يستطيع النوم بمفرده، ولذا كان يتجول في الغرفة ثم يذهب إلى الفراش بجوار محمد، ولا نلمّح هنا إلى وجود علاقة غير قويمة بينهما إذ لم يكن سالم يرغب إلا في الشعور بالصحبة. وعندما كان لمحمد صديقة تقيم معه، وفقًا لما ذكره لنا، كان سالم يتسلل إلى الغرفة ليلًا ويقول له: «سأنام معك».

«فأقول له: «لا بد أن تخجل من نفسك... معي صديقتي». فيقول: «دعها تنام بجانبك وسأنام على الجانب الآخر، وستكون أنت وسطنا»».

- «لا يا سالم».

- «دعنا نجرب الأمر، عساه يفلح».

- «اذهب ونم في غرفتك»[١٩].

يقول عشماوي إن سالمًا كان يغادر الغرفة في النهاية، ولكنه كان ينام نومًا متقطعًا بعينين شبه مفتوحتين. وكان يقضي أيامًا وليالي طوالًا مستلقيًا في فراشه، ولم يكن ينام إلا في فواصل زمنية تتراوح من خمس عشرة إلى ثلاثين دقيقة، وكان يحول كل غرف نومه إلى مكتب للعمل وغرفة للمعيشة ومسرحًا. وبصفة روتينية كان يعقد الاجتماعات مع المديرين التنفيذيين من شركات مثل شركة فايرستون مستلقيًا على

(١٨) كل الاستشهادات مقابلة مع محمد عشماوي في ٢٦ من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥م.

(١٩) خُلْقَةُ: مقابلة مع عشماوي المرجع السابق؛ وأيضًا عدد من الموظفين، الشركاء والأصدقاء. حادثة دبي: مقابلة مع شخصين كانا حاضرين.

الفراش، وربما في غمرة المفاوضات يخفض رأسه ويغفو، ثم يرتعد فجأة مستيقظًا.

أثّرت تلك العادات السلبية التي اعتادها عكسيًّا على صحته؛ إذ ازداد جسده وهنًا، ولم تعد ساقاه قادرتين على حمله لعدم ممارسة الرياضة، وغارت عيناه في وجهه، واسودّ ما حولهما حتى بدا يشبه أحيانًا حيوان الراكون. ونادرًا ما كان يمارس المشي نظرًا إلى أنه اعتاد استقلال السيارة من المنزل إلى مدرج المطار، ومنها إلى الطريق المعبد حتى يصل إلى طائرته. ويتوجه من الطائرة إلى المدرج التالي، وهكذا، حتى يصل إلى فراشه الآخر. وانتاب بنغت القلق وأدرك أن ساقيْ سالم سريعًا ما ستعجزان عن حمله، وحاول أن يثني سالمًا عن ركوب السيارات للانتقال بين المدرجات والطائرات، وقال إن سالمًا لو مشى على كل الطرق المعبدة ربما يستعيد قوة عضلات ساقه نوعًا ما.

أدى الأرق إلى تفاقم حدة انفعال سالم الذي بلغ ذروته. وغالبًا ما كان هيجانه الانفعالي يمر سريعًا ويتركه في حالة من الشعور بالذنب والنعاس، إلا أنه بتزايد شعوره بالإرهاق الشديد كان يستسلم إلى نوبات سريعة من الغضب. وربما كان يتوجه أحيانًا إلى مقصورة إحدى طائراته في صمت ويضرب أحد إخوته ثم يعود ويجلس من دون توضيح. وربما كان يصيح أو يوبخ أحد طياريه بعنف أو حتى يعنّف أحد أصدقائه في الحاشية، على الرغم من أنه نادرًا ما كان يستخدم معهم العنف الجسدي الشديد. وفي مناسبتين أو ثلاث أسرف في الشرب حتى الثمالة، كما روى لنا أصدقاؤه، وفقد السيطرة على نفسه. وعلى مدار ليلة مخيفة مفزعة لا يمكن نسيانها في دبي خلال أواخر الثمانينيات حطم سالم منصة فرقة موسيقية في فندق الشيراتون، وكسر الطبول على رؤوس أعضاء الفرقة، وهدد أصدقاءه بعنف، وبدرت منه كل هذه التصرفات المخزية في ساحة الفندق، حتى إن صديقه منذ أيام الدراسة في المدرسة الداخلية محمد بيرغن ـ المعروف بـ «الفيل الصغير» ـ اتصل بطبيب في نهاية الأمر لتهدئته. وفي الصباح قال سالم إنه لا يتذكر أي شيء ممّا حدث[٢٠].

---

(٢٠) كل الاستشهادات، مقابلة مع فاغان المرجع السابق.

فكر سالم مليًّا في أنه قد يموت يومًا ما، وفي مدينة كان الفرنسية، قرابة الوقت الذي كان يقدم فيه عرض الزواج إلى صديقاته الأربع، عقد جلسة مع محاميته الأمريكية التي كانت تعيش في تكساس واين فاغان بصحبة صديقه «الفيل الصغير». واستغرق سالم في التفكير في ما سيفعل إذا اكتشف أنه يعاني السرطان أو أي مرض خطير آخر.

تتذكر فاغان أنه طرح السؤال هكذا: «أتعرفان ماذا عساي أفعل؟ سوف أستقل طائرتي الـ أم يو ـ ٢ (MU-2) وأنطلق بعيدًا، وحينما أعثر على أعلى سحابة في السماء سأقفز فوقها وأغلق المحركات، ولن أخضع للعلاج الكيميائي».

لم ينبس أحد ببنت شفة وهيمن الصمت على الغرفة بينما نظر سالم إلى «الفيل الصغير» محدّثًا إياه: «أنت صديقي الوفي، ولذا سآخذك معي؛ فلن أذهب بمفردي!».

الفصل الثالث والعشرون

مطار الأحلام كيتي هوك

في السنوات التي أعقبت تولي «الفيل الصغير» ـ محمد بيرغن ـ رعاية بكر في ميامي، استغل شخصيته الجذابة لشق طريقه في مجتمع دالاس الجديد، وبدأت الخمور وحياة الليل في جنيف تجتذبه شيئًا فشيئًا. حول بيرغن نشاطه إلى تجارة المجوهرات وتعرف إلى الممثل شون كونري وشاركه في متجر في لندن سمياه «جواهر بوند ستريت». وكان محمد زير نساء يفوق سالمًا نفسه، وكانت النساء تقع في شراكه بفضل منكبيه العريضين وعينيه الداكنتين الشاردتين اللتين كانتا تضفيان عليه وسامة وجاذبية. وتعاهد هو وسالم على أنه إذا استقر أحدهما وتزوج، فسيحذو الآخر حذوه، إلا أنه يبدو أن أيًّا منهما لم يأخذ بزمام المبادرة قط. ففي مرحلة ما، فكر محمد في العودة إلى وطنه تركيا لتأليف كتاب عن فن إقامة العلاقات مع النساء. إلا أنه اضطر إلى الانتقال إلى المملكة العربية السعودية بعدما تعرض لكثير من الصدمات العاطفية والنكبات المالية. وهناك تسلم الراية من سالم متعهدًا الترفيه عن أفراد العائلة المالكة. واتّسم عمله بالتنوع المثير؛ فكان يسلي أصدقاءه بقصص عجيبة عن نزوات وهفوات رجال أعمال الخليج الأثرياء الذين كان يتولى رعايتهم في أثناء رحلاتهم إلى أوروبا وأمريكا.

في أواخر شهر يونيو/ حزيران عام ١٩٨٧م تلقّى محمد اتصالًا هاتفيًّا من سالم وهو يتناول عشاءه في ميامي بصحبة عائلة صديقته الفنزويلية مارغريتا. وذكر محمد لاحقًا لأصدقائه أن المكالمة جرت على النحو الآتي:

ـ سالم: «سوف أتزوج كيري يوم السبت القادم».

ـ محمد: «حقًّا، مبارك زواجكما، أخيرًا ستتزوج. . . لقد أوقعت بك كيـ٧ري».

ـ «نعم، كما أوقعت بك مارغريتا أيضًا».

ـ «لا، لم يوقعني أحد».

ـ «أؤكد لك يا صديقي أنها أوقعت بك، وستتزوجها».

ـ «دعك من هذا يا سالم».

ـ «لا أيها «الفيل الصغير»، لقد عاهدتني، وستفعل ما آمرك به. وإن لم تكن تريد الزواج من مارغريتا، معي فتاتان مصريتان هنا، تعال لتُلقِ عليهما نظرة، ستروقان لك، فلتتزوج إحداهما».

أنهى محمد المكالمة وقال: «سنتزوج يوم السبت القادم يا مارغريتا».

سافر بيرغن ومارغريتا اليوم التالي إلى لندن وأرسل سالم سيارة لاصطحابهما من المطار. ووجه محمد دعوة إلى أخته الوحيدة متعجلًا إياها لحضور الحفل، فسألته: «وإن قال لك سالم اقتل نفسك، هل ستقتل نفسك؟»[1].

تدفق آل بن لادن والأصدقاء إلى لندن من قارات عديدة. وحجز سالم لضيوفه أجنحة في فندق غروزفينور هاوس في طريق بارك لين، وأعد سيارات ليموزين لنقلهم من قرية أوفلي تشاز وإليها. واختار يوم الرابع من شهر يوليو/ تموز عام ١٩٨٧م لإقامة حفل الزفاف، وحالفه التوفيق كالعادة؛ إذ كانت السماء صافية والشمس ساطعة وتبدو متألقة في كبد السماء. وتميزت الأجواء في الضيعة بالجمع بين جمال المنازل الريفية التي يعود تاريخها إلى الثلاثينيات وعروض فرقة الإخوة رينغلنغ. وزف موكب العروس مجموعة من السيارات القديمة على الطريق الممتدة إلى موقع الحفل. وفي الساحة الخلفية للضيعة أُعدّ منطاد منتفخ مزين بالشرائط

---

(١) كل الاستشهادات من مقابلة مع شخص مألوف في مثل هذه المحادثات وطلب عدم الكشف عن هويته.

الملونة ـ الخضراء والحمراء والصفراء والأرجوانية ـ ليستقله من يشاء من المئتي والخمسين ضيفًا للاستمتاع بجولة في السلة المتدلية منه. وجهزت طائرة هليكوبتر تقف على أتم الاستعداد لتوصيلهم إلى حيثما يريدون. وانتشر المهرجون وحاملو الأفاعي ولاعبو الأكروبات بين الخيام البيضاء الضخمة المثبتة على المسطحات الخضراء للضيعة[٢].

كان سالم يرتدي ثوبًا سعوديًّا خلال إتمام المراسم التقليدية الموجزة، ولكن بعد الظهيرة ارتدى وصديقه «الفيل الصغير» بذلتين سوداوين شبيهتين، وقميصين بيضاوين، وربطتي عنق داكنتي الحمرة غير منقوشتين. وكانت العروس كيري ترتدي فستان عرس أبيض ذا أكمام طويلة وتاجًا مزدانًا بزهور الأقحوان. وعلى الغداء الذي قُدم داخل خيمة بيضاء، جلس سالم وكيري مع «الفيل الصغير» ومارغريتا وابني سالم، سارة وسلمان.

حضرت زوجة سالم الأولى شيخة مع زوجها الثاني، وهو دبلوماسي نمساوي كانت قد قابلته في جدة وأقامت معه علاقة زوجية أثبتت لنا تطلعاتها العصرية وعقليتها المستقلة. ووصلت رندا أيضًا مع زوجها الذي تزوجته مؤخرًا. وبصفة عامة، حضر قرابة العشرين أخًا وأختًا لسالم ممن اختاروا العيش بحرية في إنكلترا مرتدين البذلات وفساتين السهرة؛ في بيئة لا تشترط الفصل بين الجنسين وتعج بالأوروبيين والأمريكيين. وكان عدد الحضور في هذا الحدث المهم ـ حفل زفاف كبير العائلة من امرأة إنكليزية ـ انعكاسًا لنسبة أبناء وبنات محمد بن لادن من الأربعة والخمسين ابنًا وابنة ممن يميلون إلى حياة الغرب التي بلغت النصف تقريبًا.

أدلى سالم بكلمة مؤثرة عن صداقته مع «الفيل الصغير»، وكيف تعهدا بأخذ هذه الخطوة نحو الزواج معًا. وفي تلك الليلة، بعد أن هدأت أصوات الموسيقى، استقل كل من الزوجين سيارتيهما وقاداها لدقائق معدودة إلى مطار لوتون، ومن هناك استقلا إحدى طائرات سالم

---

(٢) وصف الزفاف والضيوف من مقابلات مع ثمانية أشخاص حضروا وكذلك من مصوري الحدث.

النفاثة وتوجها إلى بريستول لقضاء ليلة العرس في فندق بالجوار، ثم سافرا إلى جنوب فرنسا وألمانيا.

كان أصدقاء سالم يدركون بالطبع أن صديقهم لم يبلغ بعد مرحلة النضوج الكامل، ولكن بعد سنوات كثيرة من الطيش والتصرفات الهوجاء، يبدو أن سالمًا كان يحاول أن يستقر على الأقل ويصحح مسار حياته إلى حدّ ما. كما إنه كان يسعى إلى إنجاب المزيد من الأطفال من جملة أشياء أخرى، وبالفعل حملت كيري بعد ثلاثة أشهر من الزواج.

في الشتاء اللاحق أقام سالم معسكرًا في الصحراء السعودية مع فهد. وكان منتصف الثمانينيات من الفترات العصيبة التي عصفت بالمشروعات الإنشائية لعائلة بن لادن في المملكة العربية السعودية، حيث أدّى انخفاض أسعار النفط إلى تأجيل مواعيد الدفع وإرجاء الشروع في تنفيذ مشروعات جديدة. بيد أن مشروعات تجديد المسجد النبوي في المدينة المنورة جعلت الأمور تتوازن شيئًا ما، وقال بنغت يوهانسون إن ذلك المعسكر الذي أقيم في الصحراء في بداية عام ١٩٨٨م أسفر عن تطورات هائلة؛ إذ تعهد الملك بتنفيذ عدد من المشروعات التي ستحقق شركات بن لادن من ورائها أرباحًا طائلة، بما فيها مشروع ضخم لتجديد الحرم المكي بعد الانتهاء من المشروعات الجارية على قدم وساق في المدينة. ويتذكر صديق آخر مقرب من سالم أنه كان في غاية السعادة بهذه العقود، وأمر سالم هذا الصديق بفتح حسابات جديدة في سويسرا لضمان احتفاظ سالم وعائلته في البنك بحصة من الربح أكبر من تلك التي استطاع تحقيقها في الماضي[٣].

في الوقت نفسه، ذكر شخصان عملا مع سالم عن قرب، كلٌّ على حدة، أنه كان مهووسًا في ذلك الشتاء بصفقة دولية كبرى تتضمن مبيعات مقايضة النفط في أسواق التعامل النقدي التي ساءت أحوالها بشدة وكبّدت سالمًا خسائر هائلة. ويذكر أحد هذين الرجلين أن الصفقة اشتملت على شراء الحكومة السعودية طائرات تعمل على خطوط جوية بعينها من شركة

(٣) مقابلة مع بنغت يوهانسون في ٣ من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٦م. الحسابات السويسرية: مقابلة مع صديق لسالم طلب عدم الإفصاح عن هويته.

بوينغ كوربوريشن، واعتقد الشخص الآخر أن الصفقة ربما كانت معنية بشحنات السلاح من الصين أو أوروبا الشرقية إلى أفغانستان. وعلى أي حال، يشير حديث الرجلين إلى أن سالمًا كان محبطًا ماديًّا بسبب شركائه في الصفقة، إضافة إلى أنه كان يستشيط غضبًا على نحو غير معتاد ومكتئبًا بسبب ما حدث(٤).

في منتصف شهر أبريل/نيسان، قضى سالم إجازته في اليونان مع كيري وطفليه. وبعد أسبوع سافر إلى أمريكا مع أخويه غير الشقيقين، طارق وشفيق. وكان سالم قد اشترى الطراز نفسه من الطائرة النفاثة هوكر سدلي (Hawker Siddeley) التي كان والده يمتلكها وقت موته منذ عشرين عامًا. وأشرف سالم على إعادة تركيب أجزائها الداخلية بالاستعانة بشركة أمريكية فضلًا عن تنفيذه لمشروعات أخرى. وفي شهر مايو/أيار أخذ سالم يسافر جوًّا ذهابًا وإيابًا عبر المحيط الأطلسي(٥). وفي أواخر الشهر نفسه اتصل بصديقته القديمة لين بيغيني في أورلاندو، ولم يكن قد تحدّث معها منذ قرابة العام.

تتذكر لين أنه قال لها: «سوف أكون في أورلاندو وأحب أن أراكِ وأدعوك أنت وعائلتك إلى العشاء»(٦).

اتصلت لين بعدد من أخواتها اللائي يقمن في مناطق مجاورة وقابلن سالمًا في مطعم إيطالي صغير بعد عدة ليال. وعلمت لين بأمر زواجه وبأن كيري حامل منه وأنها لا تستطيع السفر في تلك الأثناء. اتجه سالم وحاشيته إلى تكساس لحضور زفاف أنتوني أورباخ، ابن جيرالد الوحيد.

اصطحب سالم غيتاره إلى المطعم الإيطالي، وأدى أغانيه المفضلة وأضفى جوًّا من المرح الصاخب، وواصل سالم شغفه بالمبادئ الأمريكية السائدة. وكانت أغنية «أنت شمسي الساطعة» واحدة من أكثر الأغاني المفضلة لديه، وغناها هذه الليلة باستمتاع بالغ.

---

(٤) مقابلة مع الشخص ذاته المذكور في المرجع السابق. ومع شريك تجاري ثان لسالم وطلب عدم الكشف عن هويته.

(٥) سجلات الطيران التي راجعها المؤلف.

(٦) كل الاستشهادات من مقابلة مع لين بيغيني في ٧ من شهر فبراير/شباط عام ٢٠٠٦م.

وتتذكر لين بيغيني أن سالمًا بدا «في قمة سعادته»(٧). في يوم السبت الموافق ٢٨ مايو/أيار من عام ١٩٨٨م، انضم سالم إلى قرابة ٢٥٠ ضيفًا في حفل زفاف ابن أورباخ الذي أُقيم في نادي الضباط «أوفيسرز كلوب» بقاعدة لاكلاند للقوات الجوية خارج سان أنطونيو. وقدمت الفقرة الترفيهية فرقة «كون سيسترز» المكوّنة من ثلاث سيدات شقراوات ذوات شعر بلون البلاتين وغنت السيدات بانفراد على أنغام موسيقى الجاز الراقصة. ولكن بالطبع عندما أخذت عضوات الفرقة الاستراحة استولى سالم وصديقه الطيار دون كيسلر على آلاتهنّ الموسيقية وقدّما عرضهما الموسيقي. وخلال الحفل الذي أُقيم عقب مراسم الزواج، وقف سالم أمام الجمهور واسترسل في تقديم فقرة كوميدية كانت في ذلك الحين مألوفة للضيوف الذين اعتادوا حضور حفلات زفاف أبناء عائلة بن لادن. وأعلن أنه كتب قصيدة تذكارية لهذه المناسبة، ثم سحب من جيبه بكرة من المناديل المستخدمة في دورات المياه كان قد كتب عليها القصيدة، وأوضح سالم أنه «يحقق أفضل إنجازاته» في أثناء قضاء الحاجة(٨).

وفي وقت متأخر من صباح الأحد التالي اتصل سالم بصديقه جاك هينسون من الفندق شبه المتواضع الذي يقيم به على طريق إنترستيت ٤١٠. وكان يحاول أن يستشيره بشأن كيفية قضاء يومه.

يتذكر هينسون أنه قال له إن «طيور الصاعقة ـ أو الثندربيردز ـ تحلق في السماء» مشيرًا إلى الاستعراضات الجوية التي تقوم بها القوات الجوية الأمريكية.

قال له سالم: «نعم، رأيت الاستعراضات».

قال هينسون إنه سيتوجه إلى المطار الذي يحتفظ فيه ببعض الطائرات شديدة الخفة ويتناول إفطارًا خفيفًا وربما يحلق بإحداها.

سأله سالم: «ماذا لديهم على الإفطار؟».

رد عليه هينسون: «لديهم وجبة لحم خنزير وبيض، ووجبة لحم خنزير

---

(٧) المرجع السابق.

(٨) مقابلة مع جيرالد أورباخ في ٩ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٥م.

طازج وبيض، وطماطم طازجة». ثم أضاف محاولًا إثارته: «لكنك لا تأكل لحم الخنزير على الإطلاق».

كان سالم يعرف هذا المكان وذهب إليه جوًّا مرات عديدة قبل ذلك، وذكر هينسون أنه قال: «سوف نذهب إلى هناك». وفي ما يتعلق بالإفطار، مزح سالم قائلًا: «أخبر من معي أنه لحم بقري. . . وأنا متأكد من أنني سوف أصلى سعيرًا على أي حال»[٩].

يقع «مطار الأحلام كيتي هوك» على بعد عشرين ميلًا شمال شرق سان أنطونيو، على حواف مدينة شيرتز البسيطة التي يسكنها عدة آلاف، وقد نزح إليها ببطء سكان ضواحي سان أنطونيو البعيدة. أنشأ إيرل مايفيلد، الضابط السابق في البحرية الأمريكية المميز بوشم على جلده، المطار الصغير قبل سبع سنوات تقريبًا. وكان يمتلك مطعمًا صغيرًا بالقرب من سان أنطونيو، وكان يهوى التحليق بالطائرات شديدة الخفة، وقرر شراء قطعة أرض وتحويلها إلى مطار للتحليق بالطائرات كما يحلو له. فاشترى قطعة أرض تبلغ مساحتها سبعة وخمسين فدانًا تقع على طريق أولد ناكوغدوشز. استخدم مايفيلد بلدوزر لقطع أشجار الأرز بنفسه من فوق قطعة الأرض وشيد عددًا من حظائر الطائرات المعدنية الخفيفة. وكانت شركة ألامو ـ أرو للطائرات شديدة الخفة أحد عملائه، وهي شركة محلية للبيع بالتجزئة، كان موظف المبيعات فيها جورج هارينغتون هو من صاحب سالم طوال الطريق إلى بيشاور في باكستان في بداية عام ١٩٨٥م. كانت شركة ألامو ـ أرو تترك بعض الطائرات لتأجيرها في المطار، وكان مكانًا هادئًا غير رسمي. وعلى منطقة الحشائش المكشوفة، شيد مايفيلد مدرجًا صغيرًا بعرض عشرين قدمًا من الإسفلت لهبوط الطائرات وإقلاعها. وفي المنطقة المجاورة أنشأ مطعمًا للوجبات الخفيفة فيه طاولات خشبية وألواح شواء. وكان المطار محاطًا بمنطقة عشبية تتضمن الحشائش الطويلة وأشجار المسكيت (النباتات الشائكة) المائلة بفعل الرياح. وإلى الجنوب كانت هناك عدة أبراج معدنية عملاقة لخطوط الكهرباء ترتفع إلى عنان السماء، وتتجّه من الغربي إلى الشرق خلف

---

(٩) كل الاستشهادات من مقابلة مع جاك هينسون في ١٠ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٥م.

صف من الشجيرات والأشجار السامقة وكأنها تعلن عن حظر المرور في هذه المنطقة[١٠].

وصل سالم في زهاء الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد نفسه ومعه أربعة أو خمسة أفراد على الأقل من مرافقيه في رحلته. وكان من بينهم إيان مونرو، شريكه البريطاني رفيع المقام، وكذلك أخوه غير الشقيق طارق. تناول الرجال وجبة إفطار كاملة، ووصّل هينسون سالمًا إلى منزله ليغتسل. وتجول سالم في مرآب منزل هينسون ورأى دراجة بخارية طراز ياماها بسعة محرك ١٥٠٠ سي سي، فطلب إليه أن يعود أدراجه مستقلًّا إياها. ركبها هينسون وأومأ إلى سالم ليجلس خلفه.

يتذكر هينسون أن سالمًا قال له: «لا، أريد أن أقودها بنفسي».

هينسون: «ستقتلني! هل تظن أنني مجنون لأدعك تفعل ذلك؟»

سالم: «أنا أجيد ركوب الدراجات البخارية ـ طراز هارلي، وأعرف كيف أقودها. . . ولن أحاول إظهار قدراتي في أثناء قيادتها متفاخرًا. صدقني لن أفعل أي شيء من هذا القبيل»[١١].

التزم سالم بكلمته حتى نزل هينسون من الدراجة البخارية عند مطار كيتي هوك، وبعدها انطلق سالم على الفور محدثًا ضوضاء عالية وهو يقوم بحركات بهلوانية بالدراجة البخارية مستندًا إلى العجلة الخلفية فحسب في أثناء قيادتها في المطار. وفي النهاية أوقف سالم الدراجة البخارية ووجد سيارة سباقات صحراوية ذات إطارات مطاطية كبيرة، وانطلق بها سريعًا. وفي الوقت نفسه كانت إحدى طائرات شركة ألامو ـ أرو تصدر أزيزًا في السماء، وكان طرازًا جديدًا يشتمل على مقعد واحد يُطلق عليه سبرنت (Sprint)، ولم تحلق الطائرة إلا لساعات قليلة.

هبطت الطائرة سبرنت واتّخذ سالم قرارًا بأن يأخذ دوره في التحليق بها. وحينها كانت الأمطار الخفيفة قد توقفت عن الهطول وأصبحت الأجواء ساطعة والشمس مشرقة والقدرة على الرؤية لا بأس بها. وكانت الريح تهب

---

(١٠) تاريخ كيتي هاوك: مقابلة مع إيرل مايفيلد في ٩ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٥م.

(١١) كل الاستشهادات من مقابلة مع هينسون المرجع السابق.

بسرعة تتراوح من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلًا في الساعة تقريبًا، وهي سرعة متوسطة إلا أنها لم تكن عنيفة. واستقل سالم الطائرة بعد أن تخلص من كل ما لديه من نقود معدنية ومفاتيح وسجائر.

كان سالم يرتدي سروال جينز أزرق وقميصًا نصف كم مقلمًا باللونين الأزرق والأبيض. كما كان يرتدي حول عنقه سلسة معلق بها نظارة شمسية، ولم يكن يرتدي خوذة أو حتى قناع واق للوجه. ومن ثَم دمعت عيناه بشدة بسبب الرياح، وذكر صديقه توماس ديتريتش أن سالمًا كان في أثناء قيادته الطائرة ينزلق بين الأشجار بين الحين والآخر لأن الدموع كانت تحجب عنه الرؤية. وعلى الرغم من وضعه النظارة الشمسية لحماية عينيه، فإن عدستيها لم يكن لهما تأثير قناع الوجه في حجب الرياح عن عينيه. وعندما سأله أحدهم إن كان في حاجة إلى خوذة، رد بالنفي؛ فحينئذ لم يكن للخوذات أهمية جوهرية[١٢].

أدار سالم الطائرة نحو المدرج وانحرف إلى الخلف ثم ارتفع إلى قرابة خمسين قدمًا، وبعد ذلك استوى واتجه نحو خطوط الكهرباء. وكان مسار الطيران النموذجي في مطار كيتي هوك، خاصةً للطيارين الجدد غير المحنكين، في عكس الاتجاه؛ بالاستدارة إلى الغرب والدوران إلى الخلف في النهاية للهبوط. وكان من المعتاد بالنسبة إلى طيار محنك أن يستدير تجاه الجنوب الغربي؛ إذ فعل سالم ذلك من قبل كما جاء على لسان هينسون: حيث كان المسار البديل يتطلب توخي الحذر قليلًا بسبب ضرورة الصعود على وجه السرعة إلى ارتفاع ملائم.

كان أصدقاء سالم يراقبونه وهم جالسون على طاولات الطعام الخشبية

---

(١٢) تسلسل الأحداث قبل رحلته: مقابلات مع هينسون ومايفيلد المرجع السابق وشخص ثالث كان حاضرًا. ودمعت عينا سالم: مقابلة مع توماس ديتريتش في ١٢ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م. بالإضافة إلى ديتريتش كان هناك شخصان مقرّبان للغاية من سالم وقالوا بالتحديد إنهم اعتقدوا أن الرؤية المشوشة سببتها دموع بسبب الرياح وهو ما كان السبب الأرجح في نشر كيتي هوك. ولا يوجد دليل لإثبات النظريات البديلة عن الانتحار أو حادث سببه العجز الصحي مثل أزمة قلبية أو جلطة. سرعة الريح: تقرير مكتوب في ٢٩ من شهر مايو/ أيار عام ١٩٨٨م حرّره ضابط شرطة شيرتز ويدعى لوري هاريس وصل في مطار كيتي هاوك في سيارة دورية شرطة في الساعة ٣:٤٣ عصرًا. مقابلة مع لوري هاريس في ١٦ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٥م.

في مطعم الوجبات السريعة. وصعد أحدهم إلى سطح المطعم وتمكّن من تتبّع مسار رحلة سالم بكاميرا فيديو محمولة في اليد. وأخذ محرك الطائرة شديدة الخفة يصدر صوتًا غريبًا ومرتفعًا، ولكن لم تكن هناك أي دلالات تشير إلى وجود مشكلات ميكانيكية؛ فلم يهتز الجناحان ولم يُلاحظ أي تغيير في صوت القوة المحركة، ولم يحدث خلل في الحفاظ على الارتفاع ولم تصدر أي مقاومة. كان سالم يحلّق ويسير في خط مستقيم ومستوٍ في اتجاه خطوط الكهرباء(١٣).

لم يصدر أي صوت فرقعة أو طقطقة أو شيء من هذا القبيل، ولم تظهر أي شرارة كهربائية. ومالت الطائرة حتى اصطدمت بالخطوط الكهربائية وكانت مقدمتها مائلة إلى الأسفل وبدا أنها تتحرك في عرض بطيء، ثم ما لبثت أن هبطت عموديًّا على الأرض.

اتصل أحد الأشخاص بالنجدة وسط صيحات الصدمة والذهول. وكان ذلك قبل الثالثة ظهرًا بدقائق معدودة. قفز إيرل مايفيلد إلى عربة غولف واتجه مسرعًا نحو صف الأشجار، وجرى خلفه هينسون والآخرون.

عندما وصلوا إلى موقع الحادث وجدوا سالمًا مثبتًا في مقعده بحزام الأمان، ووجهه نحو الأرض، وعيناه مفتوحتان، والدم ينزف من أذنيه. وكان المحرك قد ارتطم برأسه من الخلف، ورأى كل من هناك أن ساقيه تعرضتا للكسر.

سحبوا جسده من الطائرة ولم يكن عالقًا بشيء، وحملوا رأسه برفق ووضعوه على الأرض وحاولوا إنعاش قلبه ورئتيه وهم في انتظار سيارة الإسعاف القادمة من خدمات الطوارئ بمنطقة شيرتز. وصلت السيارة بعد قرابة الخمس عشرة دقيقة، وحاول اثنان من المسعفين إمداده بالأوكسجين وإنعاش قلبه ورئتيه. ثم حملا سالمًا إلى مؤخرة السيارة وانطلقا بسيارة الإسعاف ذات الأضواء الوامضة وصفارات الإنذار المدوّية كأنها تنوح على

---

(١٣) مسار رحلة طيران سالم: مقابلات مع هينسون ومايفيلد وشخص ثالث المرجع السابق. شخص رابع رأى تسجيل الفيديو الذي وصف ترتيب الأحداث ذاته. لم يستطع المؤلف تحديد مكان أي نسخة من الشريط ولكن عددًا من الناس الذين شاهدوه وصفوا الترتيب ذاته للأحداث.

الضحية. ودوَّن أحد المسعفين حالته اختصارًا: «لا يوجد منفذ هواء إلى الرئتين. . . ولا يوجد ذبذبات على جهاز مراقبة ضربات القلب». ووضع ذلك الرجل علامات على عبارات بعينها في تقرير المتابعة، مشيرًا إلى حالة المريض بأنها: «انتفاضة. . . عدم استجابة. . . حالة حرجة»[١٤].

كان أقرب مركز لاستقبال الحوادث هو مركز «بروك آرمي» الطبي الذي يقع في قاعدة «فورت سام هيوستن» التي تعتبر المقر الرئيس للجيش الأمريكي الخامس. وكانت تبعد بمسافة تقل عن خمس عشرة دقيقة بالسيارة.

وهناك، وبعد قرابة الساعة، أعلن الأطباء الأمريكيون العسكريون رسميًّا وفاة سالم بن لادن.

---

(١٤) الملاحظات من تقرير الإسعاف المقدم إلى المؤلف من قبل ستيف ستار، ضابط شرطة شيرتز، وقد تم فحصه وطباعته في أبريل/ نيسان ٢٠٠٥. إن تقرير الإسعاف وتقرير شرطة هاريس يصفان شهادة الشهود حول كيفية انتشال سالم من الطائرة شديدة الخفة على يد الواصلين والعمل على إنعاشه.

القسم الثالث

العائلة العالمية

من يونيو/حزيران عام ١٩٨٨م
حتى سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م

الفصل الرابع والعشرون

المؤلف... المخرج... المنتج

تواترت الأنباء إلى المملكة العربية السعودية ليلًا، واتصل الملك فهد ببكر لتقديم تعازيه رسميًا. وكان بعض أصدقاء سالم وأقاربه قد تنبؤوا بموته إثر حادث طائرة، ولكن محمد عشماوي ذكر أن قليلين منهم تخيلوا أنه سوف يموت في طائرة لعبة لتكملة حلقات الكوميديا التي غلفت أحداث حياته من البداية. ولاحظ شخص آخر مقرب للعائلة أن آل بن لادن كانوا يتعايشون مع هذه الأحداث بمبالغة شديدة كأنها تستكين إلى حالة من المرض الجماعي بموت أحد أفرادها. ويتذكر عبد الله، وهو أحد إخوة سالم غير الأشقاء وكان يصغره سنًّا، أن عائلته شعرت بأن موت سالم «مأساة عائلية» شنيعة، وساد شعور بالارتباك بخصوص كيفية وقوع حادث مثل هذا؛ هل كان الانتحار مقصدًا؟ أم أنه تعرض لأزمة قلبية عنيفة أم سكتة دماغية في أثناء تلك الرحلة الجوية؟ وهل يمكن أن يكون شخص ما قد خدره أو قتله؟ إذ كانت نظريات المؤامرة آنذاك سائدة في المملكة العربية السعودية التي حُرم مواطنوها من حرية الحديث، وكان التاريخ يُحكى أحيانًا حاملًا بين طياته مؤامرات سرية حقيقية. حتى وإن افترض أحدهم وجود سبب عرضي لوقوع الحادث، فإن وفاة سالم كانت الحدث الثاني الذي تُبلى فيه عائلة بن لادن على مدار عقدين بحادث طيران كارثي له علاقة بالأمريكيين[1].

---

(١) «طائرة ميكي ماوس»: مقابلة مع محمد عشماوي في ٢٦ من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥م. مقابلة مع شريك تجاري طلب عدم الكشف عن هويته. مأساة العائلة: مقابلة مع إذاعة إيه بي سي ٢٠/ ٢٠ في ٢٩ من شهر مارس/ آذار عام ٢٠٠٢م. وسألت باربرا والترز عبد الله ماذا يتذكّر أسامة في الجنازة وأجاب أنه لا يتذكّر شيئًا لأنها كانت مأساة عائلية.

بعد اتصالات هاتفية بين تكساس وجدة والرياض والسفارة السعودية في واشنطن، أرسل خالد بن محفوظ طائرته الخاصة البوينغ ٧٠٧ إلى سان أنطونيو لاسترداد جثة صديقه التي تحفّظت عليها مصلحة الطب الشرعي بمقاطعة بيكسار بعد موته، وكان لزامًا على المصلحة تشريح جثة المتوفّى في قضية مثل هذه. ولذا توسل طارق وغيره من أفراد العائلة إلى أصدقائهم في سان أنطونيو للتدخل من أجل تخفيف آثار التشريح الظاهرية، لأن جثمان سالم سيُغسل طبقًا للشريعة الإسلامية ما إن يُعاد إلى المملكة العربية السعودية في وجود آل بن لادن وأصدقائه الرجال. واتصل جيرالد أورباخ وجاك هينسون بحانوتي يعرفونه في سان أنطونيو، واتفقوا معه على إحضار جثة سالم من مصلحة الطب الشرعي وإجراء التجميل اللازم لرحلته الأخيرة إلى وطنه.

اتصل أفراد العائلة بأصدقاء سالم وأقاربه في أوروبا لإبلاغهم أن من يريد حضور الجنازة والعزاء يمكنه الانتظار في جنيف حيثما ستتوقف طائرة ابن محفوظ لاصطحابهم. وعندما هبطت طائرة البوينغ ٧٠٧ في الرصيف الخاص الملحق بالمطار الذي يقع في منطقة أعلى من بحيرة جنيف، كان يسلم ينتظرهم وإلى جانبه شفيق؛ أخوهم غير الشقيق الذي كان يقضي معظم أوقاته في أوروبا. وكان هناك أيضًا «الفيل الصغير» وكثير من أصدقاء سالم وأقاربه الآخرين[٢].

كان يسلم يشعر بقلق شديد يعتري كل جوانبه بدرجة أفقدته القدرة على فعل شيء، وتخيل نفسه بصحبة جثة سالم في النعش حتى إنه عجز عن صعود درج الطائرة النفاثة، وحاول أقاربه التخفيف عنه، إلا أنه كان متأثرًا بشدة. وظل يسلم رابضًا في مكانه على المدرج يرقب الطائرة وهي تتوارى شيئًا فشيئًا عن الأنظار[٣].

سافر علي، الند السابق لسالم الذي انسلخ عن العائلة والذي كان يتنافس معه على زعامتها، وكان الابن المفضّل في ما مضى لأبيهما، إلى المملكة العربية السعودية على متن طائرته الخاصة النفاثة لتقديم تعازيه. واستقلت مجموعة من الأقارب والأصدقاء السيارات من جدة للذهاب إلى

(٢) مقابلة مع صديقين لسالم في طائرة بجنيف.

(٣) مقابلة مع أحد الأصدقاء الذين كانوا حاضرين.

المدينة المنورة انتظارًا لوصول جثمان سالم. وكان التصريح بالدفن في المدينة، حيثما يرقد النبي محمد، يتطلب الحصول على الموافقة الملكية التي قدّمها مكتب فهد بسهولة ويسر. وكانت المجموعة المنتظرة في المدرج المخصص لرجال الأعمال وكبار الشخصيات في المدينة المنورة تنتظر على أحر من الجمر إعلان برج المراقبة عن ميعاد وصول طائرة البوينغ ٧٠٧ كما كان يحدث دائمًا عند اقتراب موعد وصول رحلات سالم الخاصة. فخرجوا انتظارًا لهبوط الطائرة، وكثيرًا ما كان سالم يجعل أصدقاءه ينتظرون لساعات، وعندما تلوح طائرته النفاثة في النهاية في الأفق، كان يداعبهم بالهبوط حتى تلمس عجلات الطائرة مدرج الهبوط فيحلق مرة أخرى ويلف في حركة دائرية في الجو ثم يهبط للمرة الثانية. وفي تلك الليلة اندهش أصدقاؤه وهم يرون طائرة ابن محفوظ تتخطى مدرج الهبوط، ولم يكن أمام الطيار أي خيار سوى التحليق في الهواء ثانية والهبوط مرة أخرى. وقال الطيار لاحقًا إن ما حدث كان خطأ نادرًا ما وقع فيه، واتفقت حاشية سالم على أن روح صديقهم المرحة عادت إلى جسده لتحوم حولهم فترة كافية كي يطلق مزحته الأخيرة معهم.

نُقل النعش إلى سيارة إسعاف من موديلات شركة جنرال موتورز، وكان محروس بن لادن ـ كث اللحية ـ من بين الإخوة الذين ركبوا السيارة مع النعش، ودعوا الله ليتغمد الفقيد برحمته. ويتذكر أحد أصدقاء سالم أن إخوة بن لادن ساعدوه في ركوب سيارة الإسعاف للجلوس إلى جانب النعش، وقال له أحد الإخوة: «إنك لم تفارقه خلال حياته، وأنت الأحق بالجلوس إلى جواره»[٤].

غُسِّل بدن المتوفّى في منزل محمد بن لادن القديم بالمدينة المنورة. وتقديرًا وعرفانًا له، دعا أحد إخوة سالم خالد بن محفوظ ليبدأ الغسل. وبعد ذلك لفّوا جسده بكفن أخضر اللون؛ لون ثياب أهل الجنة، وبعدها لم يُسمع سوى أصوات النحيب والدعاء[٥].

(٤) مقابلة مع الصديق الذي طلب عدم الكشف عن هويته.

(٥) مقابلة مع اثنين من الحاضرين. أما في ما يتعلق بشعائر الدفن الحجازية والوهابية، يماني في Cradle of Islam صفحة ١٠٢ إلى صفحة ١٢٠. ونفى ابن محفوظ التعليق.

في الظلام الدامس توافد المشيّعون على القبر بثيابهم البيضاء ورؤوسهم مغطاة بالشماغ التقليدي يهرولون جميعًا لنيل الأجر والثواب. وحملت الأيادي المبسوطة للإخوة والأصدقاء جثمان سالم على الأعناق حتى واراه الثرى. وعندما استقر في القبر صاح رجلٌ واقترب حاملًا جثمان فتاة صغيرة في كفنها، ولم يكن واضحًا من هي أو كيف ماتت، إلا أن القدر اختارها لترقد بسلام بجوار سالم لترافق روحها روحه في حياة البرزخ لبراءتها ونقائها حتى تقوم القيامة(٦).

كان أسامة من بين الإخوة الذين حضروا جنازة سالم، ولا نعرف متى وصل إلى العزاء لأنه كان حينها يسافر جيئة وذهابًا إلى أفغانستان. ومن الجائز أنه كان موجودًا في المملكة وقت وفاة سالم. وفي ذلك الوقت كانت إجازة شهر رمضان التي تتجمع فيها عائلة بن لادن معًا في المملكة العربية السعودية قد انتهت للتو. وإن كان أسامة موجودًا في أثناء دفن سالم، كان سيؤدي مع محروس الصلوات التي كان يصليها أتباع المذهب الوهابي على المتوفّى. ومن المؤكد أن أسامة حضر العزاء الذي استمر على مدار ثلاثة أيام بعد الدفن. وقالت والدة أسامة إن ابنها كان يشعر بمودة تجاه سالم تفوق كل إخوته الآخرين؛ على الرغم من أن مبادئهما كانت

---

(٦) مقابلة مع اثنين من الحاضرين. في محاولة لمعرفة مدى دقة الحقائق في التقرير والتفسيرات الواردة في هذا الكتاب، قدّمت إلى مؤسسة بن لادن القانونية بأمريكا جونز داي درجات لإجابات أسئلة محددة وخلاصات للحقائق، للتعليق عليها وتصحيحها أو توضيحها. وبعيدًا عن عدد من الموضوعات المتعلقة بالعلاقة بين العائلة وأسامة بعد أن أصبح راديكاليًا، استجاب جونز داي لواحد من هذه الأسئلة فقط، وهو المتعلّق بالشهادة على دفن طفلة صغيرة مع سالم. وقد قدم الخطاب مراجعة لمدى ملائمة هذا الدفن لشعائر الدين الإسلامي. وأرفق به مقالًا من صحيفة عن الإنسانيات نشرت في هلسنكي في عام ١٩٦٥م وصفت وجود هذه الشعائر في قرى الأردن. محامي جونز داي الذي كتب الخطاب واسمه تيموثي جي. فين قال: «ليس باستطاعتنا أن نجزم بأن شيئًا من هذا حدث» في قضية سالم، ولكنه تابع قائلًا: «قيل لنا إن التقاليد الإسلامية لا تسمح بدفن مشترك للرضع والأطفال الصغار الذين تُوفّوا، في الوقت ذاته، مع بالغ لكن هذا قد يحدث. . . بحفر أخدود عند موضع قدم الشخص البالغ في القبر يوضع فيه الطفل في راحته الأبدية. . . . وكلاهما تعبير عن تكافل المجتمع وببساطة وملاءمة للظروف؛ حيث إن الشرع الإسلامي يتطلّب الدفن الفوري في غضون أربع وعشرين ساعة من حدوث الوفاة من دون شعائر جنائزية على الإطلاق أو بشعائر بسيطة. ووجدنا في الأعراف الإسلامية أساسًا عقديًا غير ذائع عن هذا الدفن أن ملائكة العذاب لن تعذّب الشخص البالغ في حضرة طفل صغير.

مختلفة. وأضافت لاحقًا أن أسامة كان يعتبر سالمًا «أبًا له» وإن «موته أدّى إلى شعور أسامة بحزن عميق»(٧).

بعد ذلك بسنوات، عندما أسهب أسامة في أحاديثه عن جرائم أمريكا المزعومة ضدّ الإسلام، لم يتحدّث قط عن وفاة سالم على الأراضي الأمريكية، مثلما لم ينبس ببنت شفة عن حادث الطائرة الذي لقي فيه أبوه مصرعه بسبب طيار أمريكي. هل كان أسامة يعتقد في احتمالية وجود مؤامرات تُحاك ضدّ عائلته؟ ففي شبه الجزيرة العربية على وجه التحديد تعدّ نظرية المؤامرة الاحتمالية الأقرب للتفكير بوجه عام. وعلى أرض الواقع، ليس هناك وجود لأي دليل متاح عن رد فعل بعينه بدر من أسامة تجاه الحادث الذي تعرض له سالم. وكان غالب، الأخ غير الشقيق لأسامة الذي زاره على الأقل مرة واحدة بالقرب من الحدود الأفغانية، هو من فكّر في احتمالية وجود مكيدة سرية وراء موت سالم. ولاحقًا في صيف العام نفسه سافر غالب جوًّا إلى تكساس لتفقد «مطار الأحلام كيتي هوك». وقال أحد شركاء العائلة إنه حصل على نسخة من تقرير التشريح الذي أصدرته مصلحة الطب الشرعي في مقاطعة بيكسار. وذكر في التقرير أن سالمًا لم يعانِ أي خلل في القلب وقت وفاته، وأنه لم يثبت أي أثر لمخدرات أو كحوليات أو مواد سامة أخرى في دمه. وأضاف هذا الشريك أن غالبًا شعر بالراحة لدى معرفته هذه الأمور وكان مستعدًّا في ما يبدو لقبول نتيجة التشريح الرسمية التي جاء فيها: «سبب الوفاة: حادث». وقال جمال خاشقجي الذي كان دائم الحديث مع أسامة خلال هذه الفترة واتفق معه في آرائه المتأثرة بفكر الإخوان المسلمين آنذاك، إنه على الرغم من يقينه بأن موت سالم المفاجئ «كان حادثًا جللًا في حياته»، فإن أسامة لم يتطرق إلى الأمر البتة. وطبقًا للمعلومات المتاحة لم يناقش أسامة أمر وفاته مع أصدقائه الآخرين أو الصحافيين الذين التقى بهم(٨).

---

(٧) عبد الله بن لادن لبرنامج ٢٠/ ٢٠ المرجع السابق، ومقابلة مع شخص آخر مقرب من العائلة طلب عدم الكشف عن هويته. تفريغ نصي لمقابلة مع خالد باطرفي أعطاه المؤلف بنفسه.

(٨) غالب كان قلقًا بسبب نظرية المؤامرة: مقابلة مع جيرالد أورباخ في ١١ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٥م. مقاطعة بيكسار مكتب المستشار الطبي تقرير رقم ٧٩ ـ ٨٨. مقابلة مع جمال خاشقجي في ١٧ من شهر مارس/ آذار عام ٢٠٠٦م.

وفي جدة حذا أبناء محمد بن لادن الحذو نفسه قبل عشرين عامًا من وفاة سالم بعد أن قضى أبوهم نحبه؛ إذ اجتمعوا في مجمع العائلة بين صلاتي المغرب والعشاء لحضور مراسم العزاء الرسمية، وتوافد الآلاف من مقدّمي العزاء إلى المنزل الذي شيده محمد لتقطن فيه والدة أسامة عند الكيلو ٧ من طريق مكة بالقرب من المقر الرئيس لشركة المقاولات الخاصة بالعائلة.

ولكن استقبال المعزّين كان له غرض آخر؛ فكثيرون ممن كانوا على صلة وثيقة بسالم جرّوا خطاهم ليبايعوا بكرًا زعيمًا جديدًا لعائلة بن لادن. وكانت هذه الطقوس متأثرة تمامًا بمراسم البيعة في الرياض التي كانت تتبع وفاة أي ملك سعودي. (وفي بلاط القصر الملكي لآل سعود، كان الملك الذي سيعتلي العرش يجلس ليستقبل المعزين الذين يقدمون إليه فروض الولاء والطاعة بتقبيل كتفيه أو يديه أو وجنتيه.) وأن يتلقّى بكرٌ، وليس أي أخٍ آخر، وفود المعزين الذين يقدّمون فروض الولاء والطاعة، فهذا قرارٌ اتُّخذ بناءً على أحداث تراكمت على مدار أعوام داخل كنف عائلة بن لادن. إذ كان سالم غالبًا ما يعين بكرًا رئيسًا للعمليات الموكلة للشركة، كما إن دور بكر الجوهري في مشروعات تجديد الحرمين في مكة والمدينة قد أهّله لدور الصدارة في مشروعات التعمير ذات العقود المربحة والحساسة سياسيًّا التي تبرمها العائلة. ولم يكن بكر أكبر الأبناء الباقين على قيد الحياة بعد سالم، إلا أنه كان من بين الإخوة الأكبر سنًّا، وبسبب المؤهّل العلمي الذي حصل عليه في الهندسة المدنية، كان من بين الإخوة الأكثر تأهيلًا لأداء هذا الدور. إضافة إلى ذلك، كان بكر أخًا شقيقًا لسالم والقائم على ممتلكاته وميراثه وأكبر الأبناء الباقين على قيد الحياة لأرملة محمد بن لادن الأكبر سنًّا، وقد جعلته كل هذه العوامل الاختيار الطبيعي. وليس هناك ما يدل على أن اختيار بكر أثار أي جدال أو تطلب تروّيًا داخل نطاق العائلة، بل يبدو أنه كان أمرًا مسلّمًا به إلى حدّ ما.

ألمَّ الحزن بأرملة سالم، كيري، وهي على وشك أن تضع وليدها، وبدا عليها التأثر الشديد وهي بصحبة مئات السيدات السعوديات الجالسات في قاعات استقبال منفصلة لتلقي عزاء السيدات. وبعد أيام قلائل، وفي اليوم الخامس عشر من شهر يونيو/حزيران، أي أقل من ثلاثة أسابيع بعد

الحادث الذي تعرض له سالم، وضعت ابنتها سما في جدة[٩]. وكانت كيري قد اعتنقت الدين الإسلامي قبل ما يزيد عن خمسة أعوام سابقة موفيةً بعهدها الذي قطعته لسالم، وهي على متن طائرته الشراعية حين ظنت أنها على وشك الاصطدام. وعلى مر السنين أدّى قرارها هذا إلى تقبل معظم عائلة بن لادن لها، وقد اعتنقت الإسلام عن اقتناع ورويّة. وبعد ولادة ابنتها، اتخذت كيري قرارًا بأن تتقبل عن اقتناع وضعها غير المتوقع باعتبارها أحد أرامل عائلة بن لادن وأن تتعايش مع ما تفرضه التقاليد العربية والإسلامية على مثيلاتها بدلًا من التمرد على هذا الوضع.

كان سالم في رأي كثيرين مسؤولًا عن علو شأن أسامة على الحدود الأفغانية. إذ كان هو من أعلن عن الأعمال الخيرية التي كان أسامة يقوم بها، وأسهم في تمويل أسامة في بيشاور، وقدّم إليه معدات البناء والتعمير، إضافة إلى أنه كان يجلب له الأسلحة ووطد علاقاته القوية بالعائلة المالكة السعودية، الأمر الذي رفع شأن أسامة وعزز من مصداقيته بصفته جامعًا للتبرعاتّ وباختفاء سالم المفاجئ فقد أسامة أحد الرعاة الأساسيين. وفي الوقت نفسه كان قد بدأ يفقد أيضًا شعوره بالهدف إلى حدّ ما. فالقضية التي أتت به إلى الحدود الأفغانية كانت في طريقها إلى الزوال، بتوقيع الاتحاد السوفياتي اتفاقيات جنيف في شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٨٨م وإعلانه انسحاب كل قواته بحلول بداية العام المقبل. ولكن الحرب ستستمر وسيتواصل الجهاد ما دامت موسكو ستخلف وراءها حكومة شيوعية أفغانية كان المجاهدون يعتبرونها مرتدة عن الدين، ولكن نظرًا إلى تعهّد الروس الشقر بعدم الخدمة في قوات الاحتلال التابعة إلى العدو، حادت حرب الأفغان بالفعل عن الثورة القويمة إلى صراع مدني غير أخلاقي. وحدث تطور مماثل داخل معسكرات المتطوّعين العرب: ففي خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٨٨م، ازداد تنوع الصراعات بين العرب وزادت حدته.

أدّت شخصية أسامة وأساليب تفكيره إلى الارتقاء بنفسه عن هذه الصراعات. وحذا حذو أبيه، وكرس عمله واتجاهه لإرضاء معلميه، حتى إن كانوا في منافسة أحدهم مع الآخر. وفي الوقت نفسه تمكن من اجتذاب

(٩) تاريخ ومحل ميلاد سما: إجراءات الوصاية بمقاطعة بيكسار 102-PC-91.

مجموعة شديدة التنوع والثراء من الأتباع والأنصار بصفته قائدًا نتيجة لمجهوداته ومؤهّلاته.

عندما عاد أسامة إلى الحدود الأفغانية بعد حضور جنازة سالم، تنقل في ما بين منازل ومكاتب ومعسكرات عديدة. وأقامت زوجاته وأطفاله في بيشاور، وكان يعقد اجتماعاته هناك مع أتباعه ومرافقيه. وبين الفينة والأخرى، كان ينضمّ إلى عبد الله عزّام في منطقته المتمركز فيها في بيشاور ليلقي خطبه، ويؤدي الأعمال الخيرية التي لا تزال تستقي من الدعم المادي والبلاغي الذي يقدّمه أسامة، حتى بعد الاختلافات التي نشأت بينهما بخصوص منهج الخطط الحربية. كانت هناك خلافات بين أسامة وعزام، إلا أنهما لم ينفصلا على الإطلاق، وفي بداية عام ١٩٨٨م شكّلا معًا معسكرًا مشتركًا على طول الحدود الأفغانية لتدريب المقاتلين العرب واستضافتهم. وكان هناك مجموعة من المصريين المتطرفين المستبعدين من الجيش والشرطة بقيادة أيمن الظواهري تدير معسكرات أسامة الأخرى وكانوا منافسين لعزام في الوقت نفسه. ومنح أسامة هذا الفصيل المصري ١٠٠,٠٠٠ دولار[١٠]. وكان أسامة ينفق أمواله بسخاء، وهو الأسلوب الفطري الذي انتهجه لموازنة الأمور والذي استقاه من نماذج الزعامة في حياته المتمثّلة في أبيه والحكام العرب. إضافة إلى ذلك عكس ذلك فلسفة أسامة البدائية عن الجهاد؛ العقيدة التي لم تكن معقدة للغاية، إلا أنها كانت تروق للعامة بصفة عامة، وكانت ترحب بالجميع. وكان الإلزام بالجهاد أمرًا يتعلق بضمير الفرد وليس نابعًا من مبادرة جماعية. واعتبر أسامة نفسه ملهمًا للجهاد وليس زعيمًا دينيًّا أو دكتاتورًا.

في أثناء فترة الخلافات تلك دار جدال بين أسامة وعزّام ـ على سبيل المثال ـ حول ما إذا كان يجب عليهما اختبار المتقدمين لخدمة قضيتهما والاختيار من بينهم الأصلح أم لا. ويتذكر جمال خاشقجي الذي كان يتردّد على بيشاور خلال هذه الفترة أن «عبد الله عزّام كان يرى أنه «ينبغي عدم قبول أي شخص يريد الانضمام إلى الجهاد بل ينبغي اختيار الأصلح»».

---

(١٠) بيرغن وكوريكشانك ذاكرًا في مقابلة مع أسامة رشدي وهو رجل عسكري مصري كان يعيش في بيشاور آنذاك.

وبسبب صلته الوثيقة بجماعة الإخوان المسلمين، سعى عزّام إلى تعيين أتباع ممتازين وموهوبين وتدريبهم على طريقة الإخوان. وشعر أن هذه الطريقة المثلى لإفراز المزيد من المتطوّعين العقلاء والموثوق بهم. وعلى النقيض من ذلك، «كان أسامة يؤمن بضرورة التواصل مع الجميع، بقوله «مرحبًا بكل من ينضم تحت لواء الجهاد»». وكان هذا الخلاف هو بداية انفصاله الرسمي عن جماعة الإخوان المسلمين التي كانت مدخله الأيديولوجي إلى إدراك الإسلام سياسيًّا وهو مراهق في مدرسة الثغر النموذجية في جدة. وقال أسامة لاحقًا إنه كان يظن أن مجتمع المؤمنين القويم ينبع «من أماكن ومناطق كثيرة ومختلفة تمثّل في حدّ ذاتها نطاقًا واسعًا من وحدة الإسلام الذي لا يعترف باختلاف العرق أو اللون، ولا يبالي البتة بالحدود والأسوار». وهنا أيضًا كان أسامة يكوّن شخصيته المستقلة ولكن في جلباب أبيه؛ حيث كانت معسكراته ـ التي تضم متطوعين متنوعين مختلفي الأعراق والأجناس على طول الحدود الأفغانية ـ تتشابه بشدة مع المعسكرات الصحراوية العديدة التي كانت تضم بين جنباتها عمالًا أفارقة وذوي بشرة سمراء فاتحة، شاهدها في صباه في شبه الجزيرة العربية[(١١)].

كانت وجهة نظره الشاملة هذه تمثّل انعكاسًا جزئيًّا لافتقاره إلى المؤهّلات الدراسية؛ إذ كان أسامة يتمتع بكبرياء ويتشبث بآرائه طوال الوقت، ومع استعادته لثقته في نفسه، ربما راوده شعور بتفوق عزّام على الآخرين. ولاحقًا ذكرت أرملة عزّام بحدة، في انعكاس لشعور عائلتها بالتفوق على الآخرين، أن أسامة لم يكن «حاصلًا على مؤهل جامعي، إلا أنه حصل على الشهادة الثانوية... كما إنه كان يلقي محاضرات على العلماء والشيوخ، ولكنه كان من السهل إقناعه بأي شيء»[(١٢)]. وكانت هذه المواقف تلوح في الأفق في ظلّ رعاية عزّام له لفترة طويلة. وشرع أسامة حينئذٍ بحدة ذهن مشابهة في إثبات نفسه ردًّا على ذلك من خلال آرائه عن التنوع والمساواة، وأيضًا بقراره الذي اتّخذه لتوزيع إسهاماته المالية لتشمل

(١١) مقال مع جمال خاشقجي في ٢ من شهر فبراير/ شباط عام ٢٠٠٢م. في طبعة لورانس *Messages To The World* صفحة ٩٦.

(١٢) من مقابلة مفرغة نصيًا منشورة في جريدة **الشرق الأوسط** في ٣٠ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م.

منافسي عزّام في ما بين المصريين. وكان هؤلاء المصريون قد انفصلوا بالفعل عن جماعة الإخوان التي اعتبروها حذرة بشكل مبالغ فيه. وفي انتقادهم لعزام وفلسفته، أكدوا عقيدة التكفير التي يُحكم بمقتضاها على المسلمين المرتدين عن الملة إما بالإقصاء أو حتى بالقتل الجماعي.

تزامن موت سالم مع تلك المتغيّرات التي طرأت على حياة أسامة على الحدود الأفغانية، ووسعت الفجوة الناتجة من تقلص رعاية عزّام لأسامة. وفي بيشاور في فصل الصيف من العام نفسه، أدرك المصريون بصفة خاصة أن هناك فرصة لتمييز أنفسهم عن طريق العمل لديه وكلاء دعاية وإعلان. ويتذكر أحد الأتباع السعوديين لأسامة خلال هذه الفترة، ويُسمى حسن السريحي، أن أسامة «كان يعشق الأضواء الإعلامية». وقال هذا الرجل: «لم تكن الموارد المالية لعائلة بن لادن سرًّا يخفى على أحد، وأظن أن المصريين أرادوا استغلال هذا الجانب. ولذا كانوا حلقة الوصل بين أسامة والصحفيين في بيشاور. وأوضح أبو عبيدة البنشيري، المصري ورئيس التنظيم في أحد معسكرات أسامة الذي حارب معه في جاجي، منهجية تفكير المصريين حين قال إن أسامة «أنفق أموالًا طائلة على شراء السلاح للمجاهدين الشباب إلى جانب تدريبهم، وكان يدفع مقابل تذاكر سفرهم. والآن، بانتهاء الجهاد، كان ينبغي ألا نبدد تلك الجهود. وعلينا أن نستغل طاقة هؤلاء الشباب ونحشدهم في ظلّ رعايته»(١٣).

عُقدت الاجتماعات التي أدّت إلى ظهور ما يُسمى تنظيم القاعدة في بيشاور في شهر أغسطس/ آب من عام ١٩٨٨م، أي بعد جنازة سالم بثلاثة أشهر. وتصف الملاحظات المدونة خلال جلسات هذه الاجتماعات التوتر الذي كان يشعر به أسامة صيف هذا العام: إذ أراد أن ينفصل عن عزام، إلا أنه لم يرغب في أن يكشف عن نفسه بالقيام بالدور القيادي بوضوح شديد. وقال: «إنني شخص واحد. ولم ننشئ تنظيمًا أو جماعة إسلامية بعد». وقد مثّلت تجارب التدريب والحرب التي قدم إليها الدعم حتى هذه اللحظة «فترة من التعليم وتعزيز الطاقات واختبار الإخوة المنضمين». وأقر

---

(١٣) كل الاستشهادات ومن بينها تلك المنسوبة إلى البنشيري مأخوذة عن السريحي. راجع بيرغن *The Osama Bin Laden I Know* صفحة ٨٣.

أسامة بأن أهم الإنجازات نبعت من تسويق الجهاد: «حققنا استفادات قصوى من الشعب السعودي، وكنا قادرين على إعطاء قوة سياسية إلى المجاهدين بجمع التبرعات بهذه المبالغ الضخمة»(١٤).

وفي اجتماع آخر عُقد في منزل أسامة، سجل شخص كان يدون الملاحظات أن ما دفع أسامة إلى التفكير في أسلوب جديد «الشكاوى من تنظيم عزّام الذي يرجع الفضل الكثير في تمويله وتشكيله إلى أسامة، وكانت هذه الشكاوى بصفة خاصة تتعلق بـ «سوء الإدارة فيه والمعاملة السيئة». ومن ثَم كان كل تركيز أسامة حينئذٍ منصبًّا على تدريب ميليشيا عربية انشقاقية من النوع الذي عارضه عزام، وفي مستهل الأمر سيكون عددها قرابة الثلاثمئة رجل. وبتشجيع ودعم من البنشيري، سيستخدم أسامة السلاح الذي حصل عليه بمساعدة سالم قبل أن تنتهي صلاحيته. وسيُطلق على المعسكرات التي ستُجرى فيها هذه التدريبات «القاعدة العسكرية». وسوف تكون هذه القاعدة «بصفة رئيسة حزبًا إسلاميًّا منظمًا» وسوف تضع «التشريعات والتعليمات»، إلا أنها سوف تكون وسيلة أيضًا للمشاركة الأكبر وغير العنصرية التي لا حدود لها في الجهاد. «وسيكون هدفها إعلاء كلمة الله لنصرة دينه». وسوف يقسم الأعضاء الجدد بعهد خالٍ من أي إشارة إلى أسامة بن لادن، جاء فيه:

عليّ عهد الله وميثاقه لأطيعنّ من هم أعلى منزلة مني، القائمين على هذا العمل في النشاط والاستيقاظ مبكرًا في السراء والضراء، حتى تكون كلمة الله هي العليا وننصر دينه(١٥).

سيستمر هذا الغموض المقترن بظهور تنظيم القاعدة ـ ذاك الإحساس بأنها كانت مؤسسة منظمة إلا أن حدودها تلاشت وتحوّلت إلى حركة أوسع نطاقًا ـ لسنوات؛ لأن ذلك الغموض كان من المحاور الأساسية من وجهة نظر أسامة. وكانت القاعدة في رأيه مجرد وسيلة ثانوية لاستثارة عزيمة الأمة الإسلامية وإعادة تنظيم صفوفها. وعلى مرّ السنين كان أسامة يناضل في

---

(١٤) هذه الملاحظات صادرتها السلطات البوسنية في أثناء الإطباق على الخيريات الإسلامية عام ٢٠٠٢م. وثائق غير مصنفة أطلقت مؤخرًا في ما بعد تحت عنوان مأخوذ من الأصل: «تاريخ أسامة. الاستشهادات الواردة هنا من اجتماع في ١١ من شهر أغسطس/ آب عام ١٩٨٨م.

(١٥) المرجع السابق. المقابلة الثانية بدأت في ٢٠ من شهر أغسطس/ آب.

بعض الأحيان ليظل متمسكًا بهذا الطموح وهذه المثل العليا التي تكبتها قوى البيروقراطية والشقاق الحزبي والأفق الضيق، إلا أن ذلك لم يجعله يحيد قط عن أهدافه الأساسية. وقال أسامة لاحقًا في حوار مع أحد المذيعين إن «الموقف ليس كما يصوّره الغرب؛ أن هناك «تنظيمًا» له اسم بعينه مثل القاعدة أو غيرها. فهذا الاسم على وجه الخصوص اسم قديم جدًّا ولم أكن أنا من أطلقه. فالأخ أبو عبيدة البنشيري كان قد أنشأ قاعدة عسكرية لتدريب الشباب على القتال ضدّ الإمبراطورية السوفياتية. . . ولذا أُطلق على هذا المكان «القاعدة» إشارة إلى قاعدة تدريبية، وهذا هو أصل الاسم. إننا لسنا تنظيمًا منفصلًا عن الأمة. نحن أبناء أمة واحدة وجزء من نسيجها»[١٦].

استقى أسامة أفكاره الأولى من الميراث الثري للأيديولوجية السعودية وتلك المتأثرة بالإخوان المسلمين، إلا أنه ضمّ تلك الأفكار إلى الدروس المكتسبة من عائلته. وفي السنوات التالية أسهم أسامة بثلاثة إنجازات لا تُنسى للقاعدة، وجميعها مستمدة من خبراته بصفته أحد أفراد عائلة بن لادن: تركيزه على التنوع والاحتواء أو الدمج، وثقته من الجانبين المالي والإداري، وعشقه للتكنولوجيا القائمة على مفهوم العولمة. وفي الواقع، كانت نقاط القوة تلك المستمدة من الإرث العائلي أكثر أهمية في عملية تدعيم القاعدة من أيديولوجيتها الإسلامية الأساسية التي كانت شائعة بين جماعات الجهاد كافة.

إن الطموح والنشاط والموهبة الطبيعية وموهبة إدارة البشر جعلت محمد بن لادن رجلًا ثريًّا. ونجح سالم في توظيف هذه السمات للاستمتاع بحياته من خلال الإبداع الفردي لتحقيق النجاح المالي، ولكن أسامة سيضع هذه السمات في خدمة التطرف الإسلامي، ممّا سيثبت لنا يقينًا أنها قابلة للتحوّل إلى أشكال أخرى تصل إلى حدّ العنف.

في شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٨٩م سافر غالب بن لادن جوًّا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بصحبة أحد الطيارين الباكستانيين الذين يعملون لدى العائلة لترتيب إجراءات التسليم النهائية للطائرة النفاثة الخاصة

---

(١٦) راجع: *Messages To The World* المرجع السابق صفحة ١١٩ ـ ١٢٠.

هوكر سيديلي (Hawker Siddeley) التي اشتراها سالم قبل أن يقضي نحبه. وكانت طائرة نفاثة أنيقة وفسيحة وباهظة الثمن وتشتمل على محركين وتتسع لعشرة ركاب أو أكثر. وكان غالب يتمتع بنظرة فاحصة تمكنه من تقييم حالة الطائرة وبصفته الأخ الشقيق لبكر، فإنه كان يثق فيه. أتقن غالب الأمور الإدارية وأثبت أنه يتمتع بذكاء حاد وذهن متوقد، ولم يكن أحد يجرؤ على الإقدام على خداعه؛ حيث كان يتعامل بحزم وصرامة مع الآخرين من وجهة نظر أحد الشركاء الذين عملوا معه لفترة طويلة، وكان لديه ابنان، وكانت زوجته ملتزمة للغاية بحجابها[١٧].

في يوم ٢٢ من شهر أبريل/ نيسان سافر غالب جوًّا إلى سان دييغو حيث كان عبد الله ـ وهو أحد إخوته غير الأشقاء الأصغر سنًّا ـ يدرس في إحدى جامعاتها. سافر غالب إلى هونولولو جوًّا ومنها انتقل إلى غوام وفي يوم ٢٤ من الشهر نفسه وصل إلى هونغ كونغ. وكان بصحبته في تلك الرحلة جيرالد أورباخ، الطيار الذي كان يعمل لدى العائلة، إلى جانب طيار باكستاني آخر وبنغت يوهانسون الميكانيكي. سافر الرجال الأربعة إلى كوالالمبور ومنها إلى بومباي. وفي مساء يوم ٢٧ أبريل/ نيسان عام ١٩٨٩م، واصلوا رحلتهم إلى بيشاور. وحجزوا في فندق في المدينة، وسافر غالب بن لادن وأحد الطيارين الباكستانيين إلى الحدود الأفغانية برًّا[١٨].

وفقًا للرجلين اللذين كانا في الرحلة ولكنهما لم يغادرا فندق بيشاور، كان غالب يحمل معه زهاء الخمسين ألف دولار نقدًا. ويتذكر أحد هذين الرجلين، وهو أورباخ، أن النقود كانت مرسلة إلى أسامة لأنه كان في حاجة إلى «بعض الأموال النقدية». وقال الرجل الثاني، يوهانسون، إن الطيار الباكستاني الذي خرج من الفندق أخبره بأنهما سوف يوزّعان المال باعتباره منحة رمضانية على الفقراء الذين يقيمون في معسكرات اللاجئين. ووفقًا لما ذكره يوهانسون، فإنهم تعرضوا من جراء هذه الرحلة إلى خطورة بالغة، «وكادوا يُقتلون هناك» فضلًا عن أنهما «اضطرا إلى القفز فوق بعض

---

(١٧) مقابلة مع شريك تجاري سابق وأيضًا بيتر بلوم الذي عمل في مناسبات عديدة مع غالب وعائلته في ٥ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٦م.

(١٨) سجلات الطيران التي فحصها المؤلف.

السياجات» لأن مجموعة كبيرة من اللاجئين هاجمت غالبًا بمجرد رؤية حقيبة المال التي يحملها بدلًا من الانتظار لحين توزيعها بطريقة منظمة. وقال محامي العائلة إن غالبًا ذكر أن «المال الذي أخذه معه من بيشاور تم توزيعه على الفقراء في معسكرات اللاجئين» ولم يصل إلى أسامة، وأكد المحامي أن غالبًا لم يقدم أي مساعدات مالية أو غيرها من المساعدات قط إلى العمليات الإرهابية التي قام بها أسامة، ولم يكن هناك أي دليل على ذلك[١٩].

في أثناء هذه الزيارة كان أسامة يعاني خلال أصعب مراحل مغامرته في أفغانستان. ففي شهر مارس/آذار، شنت قوة كبيرة من الثوار الأفغان هجومًا على المدينة الأفغانية الشرقية جلال آباد التي تبعد قرابة أربع ساعات بالسيارة عن بيشاور، أعلى ممر خيبر، طبقًا لتعليمات الاستخبارات الباكستانية. وكانت هناك بقايا قوة عسكرية من الجنود الشيوعيين الأفغان تدافع عن المدينة خشية تطبيق الإعدام عليهم إذا تخلّوا عن أماكنهم، ومن ثَم قاتلوا بعنف وبدعم من مجموعة من الضباط السريين التابعين للاتحاد السوفياتي الذين زودوهم ببطاريات صواريخ سكود. وانضم أسامة إلى الحصار على رأس قوة عسكرية من طلائع المتطوّعين العرب ممن خضعوا للتدريب خلال فصل الشتاء مع افتتاح معسكرات القاعدة. وللمرة الثانية تأكد أسامة أن أتباعه مزوّدون بمعدات مناسبة، ومن جملة أشياء أخرى حصل أسامة على معدات للرؤية الليلية، ومع ذلك تعرّض أسامة وميليشياته لخسارة كارثية في ساحة القتال في جلال آباد. وثبت أن تكتيكات الهجوم من الكمائن التي تدربوا عليها في الجبال لا طائل منها في حالات الهجوم على مواقع محصنة بعينها، وآثرت الأرض المدافعين عنها. فلقي قرابة المئة شاب عربي حتفهم تحت قيادة أسامة مع إلغاء الحملة في شهر يونيو/حزيران[٢٠].

---

(١٩) مقابلة مع جيرالد أورباخ في ١١ من شهر مايو/أيار عام ٢٠٠٥م. مقابلة مع بنغت يوهانسون في ٣ من شهر أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٦م. رسالة بريد إلكتروني من تيموثي جي. فين في ٢٤ من شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠٠٧م.

(٢٠) الشهادة بخصوص الاعتداء الحادث في جلال آباد راجع لكول *Ghost Wars* صفحة ١٩٠ إلى صفحة ١٩٥. معدات الرؤية الليلية: Lion's Breeding Grounds of the Arab Partisans in Afghanistan عام ١٩٩١م، Rand: Early Al Qaeda Working Group في عام ٢٠٠٦م. ما يقرب من مئة شاب: في بيرغن وكوريكشانك المرجع السابق.

أدى تفاقم أعداد الإصابات في هذه الحملة الفاشلة للغاية إلى تزايد الشقاقات والنزاعات حول أسامة. وفي شهر يوليو/تموز تمكّنت فرقة أفغانية، بقيادة قلب الدين حكمتيار الرجل المفضل لأسامة، من قتل قادة فرقة منافسة يقودها أحمد شاه مسعود الرجل المفضل لعزام. واشتبكت هاتان الميليشياتان الأفغانيتان القويتان في حرب أهلية مفتوحة. ويتذكر جمال خاشقجي أن بيشاور خلف خطوط الدفاع «أصبحت مكانًا مرعبًا» مستطردًا أن ما حدث كان بسبب «العرب الذين لا يحب أحدهم الآخر. . . جماعة التكفير والجماعات الصغيرة المنشقة والجماعات المتعصبة»[٢١].

وفي الرابع والعشرين من شهر نوفمبر/تشرين الثاني، لقي عبد الله عزّام حتفه في حادث تفجير سيارة، ولم يُكشف عن مرتكب الجريمة. وبدا منافسو عزّام المصريون أو حكمتيار أو بن لادن، أو غيرهم، من أكثر المشكوك فيهم في ارتكاب الجريمة. وأنكر أسامة لاحقًا أن تكون له يد في الجريمة، وقال: «في تلك المرحلة كان كلانا في القارب نفسه، وأنتم جميعًا على علم بالمؤامرات التي لا حصر لها والتي كانت تُحاك لقتلنا جميعًا». وذكر أنه نصح عزّام بالبقاء خارج بيشاور، وفي النهاية ذكر أنه استنتج أن إسرائيل هي من نفذت الهجوم «بالتواطؤ مع بعض العملاء العرب». ومن الصعوبة بمكان تقييم إعلانه عن عدم مسؤوليته عن الحادث إلا أنه قد يكون صحيحًا، فلم يكن لديه أي دافع لقتل عزام، ولا يوجد لدينا دليل دامغ بأنه شارك فعليًا في أي جرائم اغتيال[٢٢].

اصطحب أسامة عائلته عائدًا إلى وطنه قبل أن يقضي عزّام نحبه بأسابيع عديدة. وهكذا، وفي لمح البصر، فقد أسامة اثنين من المعلمين الأكثر تأثيرًا في حياته، وحثه أحمد باديب، راعيه في الاستخبارات السعودية ومدرّسه الأسبق في المدرسة الثانوية، على مغادرة باكستان. وكان باديب يحاول «القضاء على أي أثر» لعدد من العملاء والحلفاء الذين كان يدعمهم في بيشاور آنذاك؛ حيث لم يعد لهم دور بعد انسحاب السوفيات.

(٢١) كل الاستشهادات مقابلة مع جمال خاشقجي في ٢ من شهر فبراير/شباط عام ٢٠٠٢م.

(٢٢) راجع: Messages To The World المرجع السابق صفحة ٧٧. أول مؤامرة اغتيال تورط فيها بن لادن كانت محاولة لقتل ملك أفغانستان المنفي في عام ١٩٩١م.

وأسدى لأسامة نصائح عملية، وربما عجلت التطورات المالية التي مرت بها عائلة بن لادن أيضًا باتخاذه قرار الرحيل. كان بكر على وشك الإشراف على إجراء عملية إعادة هيكلة شاملة للشركة وتوزيع الإرث على جميع أبناء بن لادن من جيل أسامة، وكان لزامًا على أسامة أن يكون موجودًا في المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت. وبشكل عام، كان الوقت قد حان كي يحدد وجهته المستقبلية(٢٣).

مع رحيل أسامة عن بيشاور، كان الدافع الأساسي هو شعوره بإرهاق شديد يغلفه خوف من مستقبل الحرب الأفغانية المشوب بالقلق. ولم يكن لديه أي خطة منطقية بخصوص المرحلة التالية في حياته، ولكنه ترك في بيشاور بعض الأموال والمعدات التكنولوجية التي تعين أتباعه في القاعدة على الاستمرار. وفي المعسكرات التي تقع بالقرب من قندهار، سريعًا ما تمكنوا من تركيب بعض أجهزة الكمبيوتر التي تعمل على نظام تشغيل أبل (Apple)(٢٤).

كانت القاعدة في هذه المرحلة ـ مثلما كانت سابقًا ـ شبكة لجمع التبرعات وميليشيا عسكرية في الوقت نفسه. وكان لهذا الجانب القيادي لأسامة الفضل في اجتيازها الحدود بسهولة شديدة. وكانت القدرة على جمع التبرعات في جدة أسهل كثيرًا من بيشاور. وهناك دلائل متفرقة على المدى الذي وصلت إليه شبكة تمويل أسامة في عام ١٩٨٩م، إلا أننا لن نندهش إذا علمنا أن آل بن لادن وكثيرًا من التجار الأثرياء كانوا من بين المتبرعين الأكثر إسهامًا في تمويل هذه الشبكة. وكما جاء على لسان عزّام قبل أن يقضي نحبه، في مؤتمر عُقد عام ١٩٨٩م: «إن السعودية ـ حكومةً

(٢٣) باديب حلقة في تلفزيون أوربت في أواخر عام ٢٠٠١م. تسجيل المقابلة أعطاه باديبُ المؤلفَ وترجمه شركة لانجويج دكتورز المتحدة. وفيه قال باديب بالنص «اقترحت على أسامة وآخرين أن يعودوا إلى المملكة العربية السعودية إذ إن مهمتهم في أفغانستان قد أتت أكلها. وقد عاد أسامة بالفعل إلى المملكة. وقمنا أيضًا بتقليل وجود الأفراد على الحدود الأفغانية الباكستانية ممن كانوا مشتركين في المقاومة. ولم يكن لدينا قوائم بأسماء الأشخاص الذين أتوا إلى أفغانستان. وقد اعتقدنا أن هؤلاء الناس قد أتوا ليعرضوا خدماتهم قيامًا بفرض ديني لذا لم تساورنا بشأنهم أي شروط.

(٢٤) حواسيب شركة أبل: مقابلة مع دانيال كولمان في ٣١ من شهر أغسطس/ آب عام ٢٠٠٥م. وكولمان هو عميل استخباراتي سابق مع مكتب التحقيقات الفدرالي وعمل في تحقيقات عن بن لادن والقاعدة لما يقرب من عشر سنوات بداية من عام ١٩٩٥م.

وشعبًا ـ هي البلد الوحيد الذي ساند الجهاد الأفغاني. . . أتى التجار السعوديون إلى هنا وشيدوا المؤسسات وتبرعوا بمبالغ مالية ضخمة، جزاهم الله خيرًا». وثبت في وثائق وُجدت في جمعية خيرية إسلامية في البوسنة وزعمت وجود «سلسلة ذهبية» من المتبرعين في هذه الفترة، أن هناك قائمة تزيد عن عشرة رجال أعمال ومصرفيين سعوديين، بمن فيهم «إخوة بن لادن». وقد أكد المحققون والمدعون الأمريكيون أن تلك الوثائق أصلية وجديرة بالمصداقية، ودعمها في ذلك الشهادات التي أدلى بها الشهود. ومع ذلك قرر ريتشارد كاسي، القاضي الفدرالي، لاحقًا أن السلسلة الذهبية كانت «مجرد قائمة بالأسماء الموجودة في مكتب إحدى الجمعيات الخيرية. . . ولا تستطيع المحكمة أن تخلص إلى استنتاج أن الوثيقة قائمة بأسماء رعاة القاعدة في مرحلة مبكرة». ولم ينكر بكر بن لادن من جانبه في شهادة خطية بقسم مقدّمة إلى القاضي كاسي على نحو محدّد تقديمه مساهمات إلى الجمعيات الخيرية أو القضايا التي كان أسامة يعمل بها خلال هذه الفترة، إلا أنه أكد «أنني لم أقدم أي مساهمات إلى أي تنظيمات علمت أنها ذات صلة بالقاعدة أو بالإرهاب بأي شكل من الأشكال». وقال بكر علاوةً على ذلك إنه لم يكن يعرف حتى مرحلة ما بعد عام ١٩٩١م «بتورط أسامة في أنشطة إرهابية من أي نوع»[(٢٥)].

إن هذه التأكيدات بالطبع، في نطاق الحدود الأفغانية في أواخر عام ١٩٨٩م، تزيل غموض مصطلحات مثل «القاعدة» و«الإرهاب». وعلى أي حال، عاد أسامة إلى جدة باعتباره فردًا من عائلة بن لادن وكان يتمتع آنذاك بمكانة لا بأس بها. ورأى جمال خاشقجي أسامة «عدة مرات» مع بكر في الفترة التي أعقبت وفاة سالم. وفي إحدى المرات مكث مع أسامة في فيلا بن لادن في الرياض، وانضم بكر إليهما في إحدى الأمسيات.

---

(٢٥) هارموني AFGB-2002-60246. قال عدد من التحقيقات الحكومية في مقابلات إنهم اعتقدوا أن وثائق غولدن شين كانت تتمتع بالموثوقية والمصداقية. في United States of America v. Enaam Arnout محكمة الإقليم في الولايات المتحدة الأمريكية إقليم ولاية إلينوي الشمالي 02-CR-892. رأي كاساي في المسائل القضائية في كتاب Re Terrorist Attacks on September 11, 2001 محكمة الأقاليم بالولايات المتحدة الأمريكية إقليم ولاية نيويورك الجنوبي 03MDL1570 في ١٨ من شهر يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٥م. إقرار مشفوع بقَسَم لبكر بن لادن في Re Terrorist Attacks وقّع في دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة في ٢٥ من شهر يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م.

ويتذكر خاشقجي: «تحدثنا بصورة عابرة عن أفغانستان وموضوعات أخرى. وبدا بكر مشتتًا، ولم يشترك في نقاش تفصيلي معنا... وكان يعامل أحدهم الآخر باحترام شديد يليق بمعاملة أخ أصغر لأخيه الأكبر»[٢٦].

واصل أسامة دعمه للمشروعات الإعلامية التي قدمته وأتباعه إلى الشعوب العربية، وتصور نفسه مؤلفًا ومخرجًا ومنتجًا لملحمة الجهاد. واستمر في تمويل مخرج الأفلام التسجيلية المصري المدعو عصام دراز الذي تتبعه إلى ساحة القتال في جلال آباد التي كانت مسرحَ معركة كارثيًا بكل معنى الكلمة. ولكن كان يمكن إنقاذها على سبيل الدعاية. وفي أثناء المعارك لم يكن أسامة يعتبر نفسه محاربًا في سبيل الإسلام فحسب، بل ممثلًا لدور رئيس في ملحمة تسطر بطولات المجاهدين الإسلاميين. وعندما عاد إلى المملكة العربية السعودية، قام بدور المنتج السينمائي وعرض الانتقال بين اللقطات المصورة الخاص بالعمل الإخراجي على الأصدقاء حتى يستطيعوا مساعدته في تقييم مسار الفيلم. ودعا خاشقجي إلى قاعدة استماع بإحدى شركات بن لادن في قاعة للمؤتمرات في جدة وأمر الموظفين بإعداد صورة طباعية لفيلم ١٦ مليمترًا، واشتمل الجمهور على أسامة وخاشقجي وشخص آخر أو اثنين فحسب. ويتذكر خاشقجي ذلك قائلًا إن «أسامة أراد مني أن أنتقد الفيلم بصفتي صديقه الصحفي». ترك أسامة أتباعه في بيشاور، إلا أنه ظلّ نجم الملحمة التي ألفها بنفسه، ولم تجعله عودته إلى المملكة وحيدًا. وقال خاشقجي إنه «حصل على كل ما كان موجودًا في الشركة»[٢٧].

---

(٢٦) مقابلة مع جمال خاشقجي في ١٧ من شهر مارس/ آذار عام ٢٠٠٦م المرجع السابق.

(٢٧) كل الاستشهادات من المرجع السابق.

الفصل الخامس والعشرون

الدفعات النقدية الهائلة

بوصول بكر بن لادن إلى بداية عقده الخامس أصبح رجل أعمال يتّسم بالجدية والصرامة في العمل. وكان تقريبًا بطول سالم نفسه، وكان يشبهه في كثير من ملامحه خاصةً عينيه البنيتين الفاتحتين ووجهه الأملس الطفولي. أما عن جَرْس صوته وإيقاع لهجته، فكانا على قدر كبير من التشابه الشديد بين جرس صوت سالم وإيقاع لهجته إلى درجة تبعث على الذهول خاصةً عند التحدث في الهاتف، وكأن صوت بكر يستحضر روح سالم بين الأحياء، إلا أن شخصية بكر لم تكن تتمتع بالجاذبية نفسها التي كانت استثنائية في شخصية سالم. وكان لبكر شارب خفيف، يزيد من إحساس التسلط الذي كان يظهره أحيانًا. كان بكر يتمتع بالهيبة والذكاء والشعور بالمسؤولية والأدب، إلا أنه كان عنيفًا في أحيان كثيرة.

كان للفترة التي قضاها طالبًا في جامعة ميامي بصمة عليه، إلا أنها لم تشكّل شخصيته، وأصبح رجلًا عربيًّا بكل ما في الكلمة من معنى مقارنة بسالم. كان بكر يستقبل أبناءه الخمسة في ديوان رسمي، أو قاعة استقبال، في منزله في جدة، وكانوا يميلون ليقبّلوا يده أو جبهته. وفي أثناء حديثه مع أبنائه، كان يقتبس آيات من القرآن الكريم بغرض التوجيه أو يشير على نحو عابر إلى قصة من حياة النبي محمد. وكان بكر يحفظ عن ظهر قلب أجزاءً كاملة من القرآن الكريم من خلال دراساته الدينية، وكان شديد الالتزام بالصلاة وهو في المملكة العربية السعودية، وحسبما ذكر أصدقاؤه لم يكن يحتسي الخمر وبعد فترة أقلع عن التدخين. وفي أثناء موسم الحج طلب المساعدة من الواعظين الدينيين لتعزيز تعليم عائلته الإسلامي، ولكن

في النطاق الديني والثقافي لعائلة بن لادن وفي بيئة المملكة العربية السعودية المتزمتة، كان بكر يُصنّف بأنه وسطي أكثر من كونه محافظًا. أما عن تفانيه في العمل في الهندسة المدنية ـ وفي الوقت الذي كرس فيه جهده لمشروعات التشييد في مكة والمدينة ـ فقد وصل إلى تشكيل حياته على غرار حياة أبيه. حتى إنه عيّن ابن السائق ـ الذي كان ينتظر محمد بن لادن في مهبط الطائرات الصحراوي عندما تحطمت طائرته واحترقت ـ سائقًا له في المملكة العربية السعودية. ربّى بكر أطفاله على النحو الذي ربّى به أبوه أبناءه مشدّدًا على الانضباط والاعتماد على النفس، ولم يكن يسمح لأبنائه بالسفر جوًّا على متن الطائرات النفاثة الخاصة، وكان يصر على ضرورة أن يتولى كل منهم بنفسه وثائق السفر والتذاكر والحقائب. وكان بكر، شأنه شأن محمد، يشعر بالاطمئنان في بيئة عمل تتّسم بالتعددية الدينية والعرقية؛ إذ تعاون في شراكة وثيقة الصلة مع أقباط من الشرق الأوسط مثل عائلة ساركيسيان التي أسس معها شركة لتنفيذ مشروعات التعمير الضخمة في المملكة العربية السعودية. إضافة إلى أنه اعتمد على فؤاد ريحاني المواطن الأمريكي الأردني الأصل والبروتستاني الذي كان له نشاط واسع النطاق في إنشاء الكنائس الأردنية، وعمل مستشارًا مهمًّا لشركات بن لادن بعد أن تولى بكر المسؤولية[١].

ظل بكر يعمل بجد واجتهاد، وفي زياراته إلى القاهرة كان يحجز في الجناح الملكي في فندق ماريوت ويعمل طوال الأربع والعشرين ساعة، ولم يكن ينام إلا ساعات قليلة على الأرائك. ويقول صبري غنيم، الموظف المصري الذي كان يعمل لديه: «إن حياته بأكملها كانت سلسلة متصلة من الشقاء، فلم يكن يفرط في الأكل لخوفه من السمنة والمتاعب الصحية المترتبة عليها. وكان يعمل طوال اليوم، إلا أنه لم يكن يأكل جيدًا أو يأخذ قسطًا ملائمًا من النوم. . . في الواقع كان يعمل ويعمل على حساب سعادته». طلّق بكر زوجته الأولى، هيفاء، بعد وفاة سالم بوقت قصير، وألقى غنيم باللائمة على عمله كونه سببًا في الطلاق: «حتى عندما كان يعود

(١) وصف بكر الوارد هنا مأخوذ من مقابلات مع خمسة عشر شخصًا ما بين شركاء وموظفين وأفراد من عائلته وموظفين حكوميين وطيارين عرفوه أو عملوا لديه.

إلى المنزل، كان يعمل، وكان ينام في قاعة الاستقبال في منزله... والمرأة تحتاج أن يخلع الزوج عباءة رجال الأعمال ويمزح معها ويتناول الطعام معها في الخارج، إلا أن حالته المزاجية كانت سيئة بعد وفاة أخيه»(٢).

ألقى موت سالم بمسؤوليات القيادة غير المتوقعة على كاهل بكر، ولكنه في الوقت نفسه أطلق العنان لطموحه الهائل. نجح بكر بشكل باهر في إدارة اجتماعات العمل وكانت توقعاته على المستوى الدولي مميزة. وما إن تولى مسؤولية الشركة خلال عامي ١٩٨٨م و١٩٨٩م، طرح تصوراته بشأن تنويع أنشطة الشركة في بلدان جديدة ومجالات أخرى غير معهودة، وأنشأ أقسامًا جديدة لمعدات تجريف الأراضي والمستلزمات الطبية، ووضع خططًا لاكتشاف فرص عمل جديدة من منطقة جنوب شرق آسيا إلى أوروبا.

إن دراسة سالم جعلته محبًّا لإنكلترا والإنكليز، وجذبته روحه الحرة الوثابة نحو العامل الجديد في أمريكا، إلا أن بكرًا كان أكثر تأثرًا بفرنسا، وساعده تعليمه في دمشق ولبنان ـ اللتين كانتا خاضعتين للاستعمار الفرنسي لفترة، وزوجته الأولى ذات الأصول السورية ـ في انجذابه نحو باريس حيث اشترى شقة ضخمة في كواي دورساي. وكان بكر على الرغم من ذلك، شأنه شأن كثير من إخوته غير الأشقاء، يفضل في أحيان كثيرة أسلوب الحياة المريح السهل الذي توفره الفنادق الفاخرة، وكالعادة هجر شقته وفضل الإقامة في فندق ريتز. كان بكر يتحدّث الفرنسية إلى حدّ ما، إلا أنه كان ينفذ معظم أعماله متحدثًا باللغة الإنكليزية أو العربية، وعين موظفي سكرتارية خاصة لمساعدته في كل من اللغتين، وعلى مدار أي يوم عمل عادي كان يتنقل بصورة متكررة وبسهولة بين اللغتين. وتشابه في ذلك مع كثير من الشباب السعودي الأثرياء الذين تكيفوا سريعًا مع مصطلحات العمل العالمية التي سادت العالم في أعقاب الصدمة النفطية.

هناك من يرى أن بكرًا لم يكن مؤهلًا للقيام بالدور القيادي الذي شغله حينذاك؛ فبصفته مهندسًا ومسؤولًا عن العمليات الميدانية ومساعدًا مخلصًا لسالم، اكتسب سمات العمل بجد واجتهاد والتركيز على النتائج، إلا أنه

---

(٢) استنادًا إلى مقابلة مع صبري غنيم أجريت في ١٤ من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥م، وهو موظف عَمِل لفترة طويلة في شركات بن لادن في القاهرة.

افتقر إلى القدرة الطبيعية على التعامل بمهارة مع نقاط الضعف الإنسانية شديدة التنوع، وبدا عاجزًا عن الخروج من المآزق التي ما انفك أفراد عائلته يضعونه فيها. وشأنه شأن أي فرد كان سيوضع أمام فوهة البندقية، عانى بكر الأمرّين من مقارنته بسالم، وربما كان يبدو سخيفًا وهو يحاول أن يتقمص شخصية أخيه الأكبر الجذابة لاكتساب القدر نفسه من الشعبية؛ إذ كانت هذه المحاولات تبوء بالفشل عادة. وعبّر بعض أصدقاء سالم عن ذلك بقولهم إن بكرًا كان يشعر أنه أمام تحدّ دائم بسبب هذه النقائص. ومع ذلك كان بكر معجبًا بشخصية سالم إعجابًا شديدًا، وحين أدرك أبعاد الوضع الجديد بصفته مسؤولًا عن كل هذه الإمبراطورية، حاول أن يتقمص شخصية سالم بكل جوانبها.

على سبيل المثال رفض بكر أن يبتعد عن الهواية التي اشتهرت بها العائلة؛ ألا وهي الطيران، على الرغم من التكاليف الباهظة التي تكبدتها العائلة نظير هذه الهواية. وفي مستهل الأمر كان بكر طيارًا مترددًا، إذ «كان يكره الطيران بشكل عام، وربما كان ذلك بسبب وفاة والده في حادث طائرة» حسبما يتذكر أحد معلميه المصريين وهو يحيى العجاتي. واستطرد قائلًا: «وبعد ذلك، في القاهرة، كنت أقود طائرة سسنا ١٧٢ (Cessna 172) التي اشتريتها من سالم، عندما جاء بكر إلى مطار إمبابة يومًا ما وقال: «حسنًا، أريد أن أقود الطائرة». فضحكت ضحكة خافتة وقلت له: «أتريد أن تقود طائرة يا شيخ بكر!» فقال: «نعم!»».

لم يصدق سالمٌ العجاتي عندما اتصل به ليخبره بما حدث، إلا أن العجاتي كان صادقًا في كل كلمة، وتدريجيًّا تدرب بكر على تعليمات الطيران وقهر خوفه[٣]. وفي نهاية المطاف أصبح بكر مؤهلًا للطيران على الطائرات النفاثة بل، ومن وجهة نظر الطيارين التابعين له، كان طيارًا كفئًا ومتميزًا إلى حدّ بعيد. ولم يكن بكر متهورًا في أثناء قيادة الطائرات كسالم الذي كان يميل إلى التباهي بقدراته ـ ولم يكن يقوم بحركات بهلوانية في الهواء ـ إلا أنه كان يستمتع من آن إلى آخر بالقيام ببعض العروض المتواضعة لإظهار قدراته على

(٣) كل الاقتباسات من مقابلة مع يحيى العجاتي في التاسع عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥م.

التحكم، مثل الإقلاع بإحدى طائرات الـ ليرجت (Learjet) أو غلف ستريم (Gulfstream) والطيران على ارتفاع منخفض ثم الميل إلى الخلف على حين غرة والانطلاق محدثًا ضوضاء عالية. كما أصبح يتحدّث عن الطائرات والطيران الخاص بحماسة الهواة نفسها التي كانت مسيطرة على سالم، وأصبحت أخبار الطرازات الحديثة والفروق الدقيقة في الأصناف والأداء من وجهة نظر بكر مثل أخبار لاعبي البايسبول أو كرة القدم التي تتردد على ألسنة الرجال. وبدت قيادته للطائرات في أعين بعض أصدقاء سالم القدامى وكأنها انعكاس لعلاقة بكر بشبح أخيه؛ حيث كان يفضّل الطيران حيثما طار سالم، إلا أنه لم يكن يخاطر درجة المخاطرة نفسها.

ما إن تمكن بكر من توطيد مكانته باعتباره القائد الجديد، اتخذ قرارًا بتسوية بعض الموضوعات العائلية المتعلقة بالإرث. وفي الوقت نفسه تمكّن من عقد شراكات عمل جديدة للمستقبل. ويتبين لنا من خلال وثائق المحكمة التي تدور حول هذه الفترة، على الرغم من أنها لا تتميز بالشفافية الكاملة، عددًا من التفاصيل عن حجم شركة بن لادن الرئيسة وكيف وُزعت بين الورثة من جيل بكر بعد أن قضى سالم نحبه. وتزامنت عودة أسامة إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٩م مع إعادة الهيكلة العائلية التي أشرف عليها بكر، وربما كان ذلك أحد العوامل التي جعلته يقرّر العودة إلى الوطن.

من بين كل الأساطير التي كانت تُحاك حول القاعدة، لم يكن هناك أعظم من الخرافات المثارة بشأن ثروة أسامة بن لادن؛ إذ صور أتباعه (ولاحقًا بعض أعدائه) كل جوانب قيادته على نحو خيالي، إلا أنهم بالغوا بصفة خاصة في وصف ثروته الشخصية. وسريعًا ما امتدت العبارات المجازية المطلقة التي وظفها رجال الدعاية الإسلاميين للاحتفاء بإنجازات أسامة في أرض المعركة في أفغانستان إلى قيمة حساباته المصرفية. وإلى حدّ ما، كانت هذه المبالغات تعكس إنجازات أسامة في جمع التبرعات، وقد جعلته قدرته على جذب التبرعات الخارجية والإعانات الحكومية يظهر في أعين رفقائه في باكستان أكثر ثراءً ممّا هو الحال فعليًّا. ولكن الحقيقة الواقعية أن موارده المالية الشخصية سيكون لها شأن عظيم في مسار حياته؛ لأن التقارير غير الدقيقة بشأن ثروة أسامة ستجعل خصومه ـ خاصةً في الولايات المتحدة الأمريكية ـ يسيئون فهمه بصورة متكررة.

لم يكن بوسع أي من أبناء محمد بن لادن تقدير حجم إرثه بسهولة؛ إذ لم تكن شركاتهم تضارب بأموالها في أي بورصة، كما إن شبكة تعاملاتهم المالية المتشابكة مع آل سعود جعلت أي محاولة للتقييم المالي تبوء بالفشل. وفي قلب هذه الإمبراطورية مترامية الأطراف تقبع مؤسسة محمد بن لادن، شركة الإنشاءات الأصلية التي تأسست عام ١٩٣١م. حصل كل من أبناء محمد الذكور ـ في ما عدا علي الذي باع أسهمه عندما انفصل عن سالم بعد وفاة أبيهم ـ على ٢,٢٧ في المئة من الشركة الرئيسة، وحصلت كل من بنات بن لادن على نصف هذه الحصة أو ما يقرب من ١,١٤ في المئة[٤]. بعد أن تولى بكر زعامة عائلة بن لادن، وافق على حصول كل من حاملي الأسهم من العائلة على حصص أرباح بناءً على الأرباح الفعلية لذلك العام على الأقل جزئيًّا. وهذه الأرباح لا علاقة لها بالرواتب التي كان يحصل عليها إخوة بعينهم، كما أنها منفصلة أيضًا عن الأرباح التي ربما تُوزّع عليهم من الشركات الأخرى مثل شركة بن لادن إخوان. وأعاد بعض ورثة عائلة بن لادن استثمار أرباحهم في أسواق الأسهم العالمية خاصةً بعد أن أسس يسلم شركتي السمسرة السعودية والسويسرية التي يملكهما. على سبيل المثال، أدلى إبراهيم، الأخ الشقيق ليسلم، بشهادة أمام المحكمة جاء فيها أنه في عام ١٩٨٣م باع «أسهم ورثتها عن أبي» للحصول على قرابة مليون دولار نقدًا لشراء ضيعة في لوس أنجلوس، واقترض باقي سعر الشراء الذي بلغ زهاء ٦٠٠,٠٠٠ دولار. ومن المرجح أن يكون إبراهيم قد ورث فعليًّا أموالًا نقدية من ممتلكات محمد بن لادن في صورة أرباح حوّلها بعد ذلك إلى أسهم مضاربة في شركات يسلم؛ فشهادته في هذه المرحلة ليست دقيقة على الإطلاق، إلا أنها تلمّح بصفة عامة إلى حجم الإرث والتدفقات النقدية آنذاك.

تأتي الصورة الأدق عن نظام أرباح العائلة من محاسبة أمريكية عامة

(٤) نسبة ٢,٢٧ في المئة مثبتة في سجلات الأصول والديون الخاصة بإبراهيم بن لادن مثلما ذكر في Declaration of Barbara L. Irashly في ٢١ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٩٣م في قضية كريستين بن لادن ضدّ ابراهيم بن لادن مقاطعة لوس أنجلوس BD058156. وقد افترضت أن نسبة الملكية هذه لكل الأولاد الذكور وأن الورثة من الإناث لهم النصف من هذه النسبة مثلما تقرر الشريعة الإسلامية.

معتمدة تُدعى ليندا سويفت، أخصائية المحاسبة القضائية التي تولت فحص موارد عائلة بن لادن المالية خلال بداية التسعينيات كجزء من دعوى الطلاق الأمريكية التي رُفعت ضدّ إبراهيم. وفي عام ١٩٨٩م، أقرت سويفت أمام محكمة أمريكية بأن إبراهيم حصل على أرباح على دفعتين من مؤسسة محمد بن لادن بلغ إجماليّهما ما يزيد عن ٣٢٥,٠٠٠ دولار. ويبدو أن هذا هو المبلغ التقريبي الموزّع على كل حاملي الأسهم من الذكور في هذا العام بمن فيهم أسامة. ومع ذلك، ذكرت سويفت أن تحقيقها كشف النقاب عن نظام عائلي غير رسمي يتّسم بالمرونة الشديدة حيث: «يحصل كل مستفيد على حصص مصدرها غالبًا أرباح الشركة بصفة سنوية أو نصف سنوية. ولا توزّع شركة العائلة دفعات نقدية هائلة... (لكنها) تدير الأموال أو تعمل كشركة مقاصة». واستطردت قائلةً إن كل ابن وبنت في العائلة كان يُقيد لحسابه نصيبه (نصيبها) من الأرباح السنوية، ثم توزع الشركة الأموال النقدية بمبالغ قليلة عليهم بناءً على توجيهات الوريث[٥].

يدل المبلغ الذي حصل عليه إبراهيم عام ١٩٨٩م ضمنًا على أن بكرًا خصص مبلغًا إجماليًّا يبلغ قرابة ١٥ مليون دولار من الأرباح لأفراد العائلة هذا العام. وجاء هذا متوافقًا مع الأرقام التي ظهرت في إصدار عام ١٩٩٠م من دليل «أكبر ١٠٠٠ شركة سعودية» الذي نُشر بالتعاون مع حكومة المملكة العربية السعودية. وجاء في هذا الدليل أن مؤسسة محمد بن لادن احتلت المركز السابع والعشرين من بين أكبر الشركات في المملكة وحققت عائدًا بلغ زهاء ٣٤٠ مليون دولار. وبافتراض أن هامش الربح يتراوح من ٥ إلى ١٠ في المئة، كما هو الحال في أي شركة إنشاءات كبرى، كان الربح السنوي الإجمالي للشركة قرابة عام ١٩٨٩م سيتراوح بين ٢٠ و٣٠ مليون دولار، وهو مبلغ مالي هائل إلا أنه يعبّر بالكاد عن ممتلكات شركة من أعظم أقطاب التجارة العالمية[٦].

---

(٥) استنادًا إلى شهادة لإبراهيم بن لادن من المرجع السابق. ومن تصريح لليندا بيرغامنت سويفت في ٢٤ من شهر مايو/ أيار عام ١٩٩٣م المرجع السابق.

(٦) المصدر: Al-Shammary (ed.), *Top 1000 Saudi Companies*, 1990.

يسجل الدليل البنك التجاري الدولي على أنه ثامن أكبر مؤسسة تجارية في المملكة حيث تصل العوائد السنوية له إلى ١,٣ مليار دولار أمريكي.

إضافة إلى ذلك، أشرف بكر عام ١٩٨٩م على أكبر عملية لتوزيع ممتلكات محمد بن لادن مؤسس العائلة على ورثته وفقًا لما ذكرته العائلة لاحقًا لمحققي الحكومة الأمريكية؛ إذ لم يرث أبناء محمد بن لادن والأربع زوجات اللاتي كنّ في عصمته حال وفاته أسهم شركته فحسب، بل حصلوا أيضًا على نصيبهم من أراضيه ومنازله وممتلكاته الخاصة. وفي مستهل الأمر، وزّع مجلس الأوصياء الذين عينهم الملك فيصل على الورثة مبالغ نقدية صغيرة في صورة مصروفات مع الاحتفاظ بالأصل الرئيس للممتلكات. وعندما أمسك سالم في نهاية الأمر بزمام الأمور، طبقًا لما قاله أحد شركاء العائلة، ناقش مع بعض إخوته هل سيوزع الأصول الأساسية للممتلكات أم لا، وكيف سيوزّعها، مع وضع صعوبة تقسيمها في الاعتبار بسبب اشتمالها على كثير من الأراضي والعقارات. وطبقًا لما ذكره هذا الرجل، اعترض سالم على تطبيق أحكام المواريث الواردة في الشريعة الإسلامية التي يحصل كل أخ بمقتضاها على حصة مساوية لما يحصل عليها جميع إخوته، وتحصل كل أخت على نصف هذه الحصة بالتساوي في ما بينهنّ، بعد دفع الصدقات وحقوق زوجات محمد. كان سالم يرى من جملة أشياء أخرى أن الإخوة الذين يعملون في الشركة يستحقّون مبالغ مالية أكبر من إخوتهم الذين لا يعملون في الشركة[٧]. إلا أن أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية لم تكن تضع في الاعتبار هذا التمييز، وكان من الصعوبة بمكان على سالم دعم موقفه أمام أي محكمة سعودية إن اعترض أي من إخوته رسميًّا على هذا التمييز.

ابتكر بكر حلّ هذه المشكلة بعد أشهر من موت سالم عن طريق التصديق على مبلغ كبير من المال طبقًا للشريعة الإسلامية. وأبلغ ممثلو عائلة بن لادن مكتب التحقيقات الفدرالي في ما بعد أن الورثة كان باستطاعتهم الاختيار بين الحصول على الأموال نقدًا أو إعادة استثمارها في شركات العائلة. ومن جانبه يبدو أن أسامة اختار الإمساك بالعصا من الوسط؛ فأخذ قرابة ٨ ملايين دولار نقدًا حسبما ذكر ممثلو العائلة

(٧) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع شريك عمل مع بن لادن طلب عدم الكشف عن هويته.

لمكتب التحقيقات الفدرالي، وأصبح حامل أسهم في الشراكات الجديدة التي أقامها بكر وهو يعيد هيكلة شركات العائلة، التي كان من بينها شركة محمد بن لادن التي خلفت شركة العائلة الأصيلة. وهناك شركة أخرى تمثّلت في كيان جديد أُطلق عليه مجموعة بن لادن السعودية التي كان بكر يتولى رئاستها وافتُتحت في أواخر عام ١٩٨٩م. وكانت هاتان الشركتان مستقلّتين تمامًا وفقًا لما ذكره بكر لاحقًا في شهادة خطية أمام المحكمة. وبعد إعادة هيكلة الشركات وإجراءات السحب النقدي، أصبح بحوزة أسامة قرابة ٢ في المئة من كل من الشركتين، وبلغ ما يملكه من أسهم فيهما ما قيمته قرابة ١٠ مليون دولار وفقًا لتقييم أجري بعد سنوات(٨).

ووفقًا لرواية صبري غنيم، مدير الاتصالات لعائلة بن لادن في مصر، بذل بكر أقصى جهد لديه نيابة عن أسامة خلال هذه الفترة. ويذكر غنيم أن بكرًا «كان يحترم كل أمهات إخوته ويعاملهنّ كما كان يعامل أمه. إضافة إلى أنه دائمًا ما كان يشعر أن أم أسامة ضعيفة ومستكينة، ومن ثَم أراد أن يعطي أسامة أحد أكبر المشروعات لتكريمها. وكان هذا هو ما فعله مع كل الأمهات الأخريات؛ إذ عرض على أبنائهنّ المشروعات... وكان بكر يدرك في قرارة نفسه أن أسامة لم يحصل على قدر وافر من التعليم بينما يتمتع كل أخوته وأخواته بمؤهلات جامعية. ودائمًا كان أسامة أيضًا يشعر أن أمه لا تتمتع بمرتبة سائر أمهات أخواته

(٨) المعلومات عما قالته العائلة لمكتب التحقيقات الفدرالي مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع دانيال كولمان بتاريخ ٣١ أغسطس/ آب ٢٠٠٥م. عمل كولمان كعميل في مكتب التحقيقات الفدرالي لكنه أُحيل إلى المعاش وقد تولّى هو مهمة إجراء المقابلات عن تلك المسائل المالية. المزيد من المعلومات عن إعادة التنظيم وعن الشهادة الخطية التي كتبها بكر تحت القسم وتقييم ممتلكات أسامة قرابة عام ١٩٩٣م مستمدة من الوثائق التي سلمها محامو الدفاع عن أسامة في: *In Re Terrorist Attacks on September II, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570.

والمزيد من المعلومات عن حقيقة امتلاكه حصة تبلغ نسبتها ٢ في المئة من كل شركة من أسهم أسامة في قناة أم بي سي التي سلط عليها إبراهيم الضوء في شهادته الوضعية في نفس المصدر السابق. وقد كشف المحامون العاملون للشركة أسهم مجموعة بن لادن السعودية التي بلغت حصتها «قرابة ٢ في المئة» في: «Defendant Saudi Binladin Group's Reponse... To Plaintiffs' Objections... Dated july 26, 2007,» p. 4, *In Re Terrorist Attacks*.

لأنها كانت من طبقة اجتماعية أقل... كما كان أسامة يشعر أيضًا بالانكسار والحزن الشديدين، وأنه لم يحصل على نصيبه من التعليم في الخارج مثل إخوته وأخواته. وكان منطويًا على نفسه، إلا أن بكرًا كان ذكيًّا بالقدر الكافي لاحتواء أخيه»[٩].

تتطابق تقديرات المبالغ المالية التي وزّعت عام ١٩٨٩م على أسامة وسائر أبناء محمد بن لادن وبلغ إجماليّها قرابة ١٨ مليون دولار لكل منهم - التي أخذها الإخوة إما نقدًا أو في صورة أسهم متجددة بناءً على اختيار كل منهم - تتطابق تمامًا مع عددٍ من الحسابات الموثوق في صحتها حول الإرث. وفي حديث للتلفزيون السويسري ذكر يسلم بن لادن أن «المبالغ التي حصل عليها كل فرد في العائلة لم تتعد ٢٠ مليون دولار». إضافة إلى ذلك، تشير عائدات يسلم الضريبية السويسرية المسجلة في الفترة بين عامي ١٩٨٩م و١٩٩٣م إلى أنه ربما حصل على المال رسميًّا بالطريقة التي حصل بها أسامة على ماله، في قرابة الفترة نفسها؛ إذ ارتفعت أصوله المالية المعلنة على حين غرة إلى قرابة ٨ ملايين فرنك سويسري بعد عام ١٩٨٩م. وأفاد أحد الشركاء الذي طلب عدم ذكر اسمه في مقابلة أجريت معه برقم ثابت لنصيب كل الأبناء بلغ ٢٦ مليون دولار قرابة عام ١٩٨٩م بعد أن زودته عائلة بن لادن بالمعلومات الأساسية، وهذا المبلغ يبدو أعلى من التقديرات الأخرى إلا أنه يدور في الفلك نفسه. وقدر المحققون في اللجنة المشكلة للبحث عن ملابسات أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، اعتمادًا على الوثائق السرية التي قدّمتها عائلة بن لادن ومحاموها لاحقًا إلى وزارة المالية الأمريكية، أن أسامة حصل على مبلغ إجمالي يُقدر بزهاء ٢٤ مليون دولار بين الأعوام ١٩٧٠م و١٩٩٣م أو ١٩٩٤م؛ يتضمن هذا الرقم المصروفات والأرباح التي كان يحصل عليها بصفة سنوية إلى جانب مبلغ الـ ٨ ملايين دولار الذي حصل عليه عام ١٩٨٩م، إلا أنه قد لا يشتمل على قيمة الأسهم التي يملكها. (وليس من الواضح هل هذا الرقم شمل الرواتب التي حصل عليها عندما

---

(٩) كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أُجريت مع صبري غنيم بتاريخ ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م (روبين شالمان).

عمل في شركة العائلة في وظيفة تنفيذية.) وقد أشار تقرير اللجنة المشكلة للتقصي عن ملابسات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ضمنًا إلى أن أسامة حصل على أرباح سنوية متساوية بلغت قرابة المليون دولار، إلا أن ذلك لا يبدو دقيقًا. فمن المحتمل أن أرباحه السنوية قد بلغ متوسطها ما يقل عن نصف هذا المبلغ بما فيها الرواتب ومكافآت العمل والحصة الكبيرة التي حصل عليها عام ١٩٨٩م دفعة واحدة. وعلى الرغم من اختلاف التفاصيل، فإن كل هذه التقديرات موثوقة المصادر المتعلقة بإرث عائلة بن لادن متوافقة إلى حدّ بعيد، بل تؤكد على كثير من النقاط: أن أسامة كان ثريًّا على الرغم من أنه لم يكن فاحش الثراء، وبعد أن قضى سالم نحبه حصل أسامة على مبلغ كبير من المال وقت ظهور القاعدة، وبعد حصوله على هذا القدر من الأموال تحت مظلة بكر، ظلّ شريكًا يتمتع بمكانة جيدة في شركات بن لادن الأكثر أهمية[١٠].

كانت شركة محمد بن لادن المعاد هيكلتها تشتمل على ستين من حاملي الأسهم؛ هم أبناء محمد كافة في ما عدا سالمًا المتوفّى وعلي المستبعد، والتسع والعشرين بنتًا، وأرامل محمد، إلى جانب أبناء سالم الثلاثة. ولم يكن نصيب مجموعة بن لادن السعودية الجديدة، التي قُدر لها أن تصبح أداة مهمة لتكوين الثروة في ظلّ قيادة بكر، يتعدى عشرين حامل أسهم، كلهم من أبناء محمد، ولم تكن الأسهم تُوزع في مجموعة بن لادن السعودية بصورة متساوية بينهم؛ إذ كان بكر ـ بصفته رئيسًا لمجلس إدارتها ـ يمتلك نصيب الأسد، إلا أنه لم يبلغ ٢٥ في المئة. وفي البداية لم يكن لأربعة من أبناء محمد بن لادن ممن هم على قيد الحياة ـ

---

(١٠) المعلومات مستمدة ممّا نشرته «أسوشيتد برس» بتاريخ ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١م. والمعلومات عن العوائد الضريبية ليسلم مستمدة من الوثائق التي نشرتها مؤسسة Nine/ Eleven Finding Answers Foundation وسلمها دوغلاس فرح إلى المؤلف. لمزيد من المعلومات عن الاكتشافات التي توصلت إليها والتحقيقات التي نفذتها لجنة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول راجع: «Monograph on Terrorist Financing,» National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States, Staff Report to the Commission by John Roth, Douglas Greenburg, Serena Wille, August *2004*.

والمزيد من المعلومات عن بقائه كشريك مستمدة من الوثائق التي سلمها بن لادن إلى: *In Re Terrorist Attacks*, ibid.

علي ويسلم وإبراهيم وشفيق - أسهم في مجموعة بن لادن السعودية(١١).

وفي الفترة نفسها التي أعاد فيها بكر هيكلة ممتلكات أبيه وشركات بن لادن، حاول أيضًا أن يصفي ممتلكات سالم الشخصية. ولأن سالمًا لم يكتب وصية، فإن ذلك في حدّ ذاته أحدث كثيرًا من المشكلات، لأنه طبقًا لأحكام المواريث الإسلامية، فإن الورثة الشرعيين لتركته خمسة أشخاص فقط؛ أمه وأرملته كيري وأبناؤه الثلاثة. إلا أن سالمًا قد ترك فُتاتًا ماليًّا منتشرًا في أنحاء العالم(١٢).

في الرابع من شهر يونيو/حزيران عام ١٩٨٨م، قدم بكر طلبًا إلى محكمة إسلامية في جدة كي يصبح الوصي الشرعي على ممتلكات سالم. وبعد قرابة الشهرين وافق قاض سعودي على طلبه. واكتشف القاضي بعد جلسات الاستماع المستندة إلى الأدلة أن سالمًا «أوصى خلال حياته شفهيًّا بتعيين أخيه بكر وتنصيبه... وصيًا على أبنائه القُصَّر... ولم يغير هذه الوصية حتى مماته». وأصدرت المحكمة سلسلة من التعليمات لبكر، منها أن «يخشى الله في السر والعلن»(١٣).

وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية لا يرث أي من إخوة سالم الأشقاء أو غير الأشقاء من ممتلكاته الشخصية شيئًا. وأثارت تلك النقطة تساؤلات محيرة من جانب العائلة، حيث لم تكن هناك حدود فاصلة بين ثروة سالم الشخصية وثروات شركات العائلة التي يملكونها جميعًا. فطائرات سالم النفاثة الخاصة تخص شركات العائلة، ويستخدمها بكر في رحلات العمل. وكانت ممتلكات سالم في فلوريدا وفي أوفلي تشاز تعتبر أصولًا خاصة،

---

(١١) نفس المصدر السابق: *In Re Terrorist Attacks* documents

تؤكد ملفات المحكمة التي سلمها محامو الدفاع عن بن لادن أن أسامة كان شريكًا في قناة إم بي سي ومجموعة بن لادن السعودية بعد عملية إعادة الهيكلة بيد أنهم لم يحدّدوا حصة أسامة في مجموعة بن لادن السعودية.

(١٢) المزيد من المعلومات عن حقيقة أن سالمًا لم يترك وصية وعن الوارثين مصدرها: Bexar County, Texas, probate case of Salem Bin Laden, 91-PC-1012.

(١٣) المسائل التي صدرت عن المحاكم الشرعية ورئيس محاكم جدة عبد المحسن بن عبد الله الخيال وقد ترجمت ووضعت في ملفات بعنوان: «Deeds Issued by Shari'ah Courts, Registration No. Ik3, Submission No. 398,»

في: *Ian Munro v. The Dee Howard Company*, Bexar County, Texas, 91-CI-009k8.

ومع ذلك سريعًا ما عرضها بكر للبيع، ووكل محامين في فلوريدا وتكساس وألمانيا للعثور على الدعاوى المالية القائمة التي قد تفيد ورثة سالم.

ذكر توماس ديتريتش أن غالب بن لادن ـ نيابةً عن بكر ـ اتهمه شخصيًّا خلال هذه التحقيقات بإساءة التصرف في الحساب المصرفي الذي فتحه في ألمانيا لتمويل مشروعات سالم المتعددة في أوروبا. وردّ ديتريتش بأن أي مبالغ حصل عليها من الحساب كانت لتغطية نفقاتٍ لتخليص أعمال ـ ولكنها كانت أحيانًا تُنفق من دون أوراق رسمية ـ وكل ذلك كان بأوامر مباشرة وصريحة من سالم. وذكر أيضًا أن سالمًا أعطاه سند ملكية لطائرة شراعية قاداها معًا، إلا أن الاتفاق لم يُكتب في صورة عقد رسمي. وقال ديتريتش إنه في النهاية تمكن من تسوية هذا النزاع بعد أن تعقبه أحد المحامين الألمان وذلك ببيع الطائرة الشراعية وتحويل إيرادها إلى حسابات عائلة بن لادن؛ أثرت هذه الواقعة في نفسه وجعلته يشعر ببعض الأسى والمرارة تجاه بكر. وبعيدًا عن هذه القضية، وافق بكر أيضًا على تسوية الدعوى القضائية التي طال تداولها في محاكم كندا بسبب النزاع على المبالغ المالية المفترض دفعها إلى الشركاء الأمريكيين بشأن عقود شبكة الهواتف السعودية التي فاز بها سالم بدفع قرابة المليون دولار. ووكل بكر محامين في تكساس لمراجعة أحد المشروعات الاستثمارية التي باءت بالفشل في مركز تجاري كان سالم قد اتفق عليه مع محاميته واين فاغان التي لم تحرك ساكنًا في تلك القضية(١٤).

لم تكن هذه هي آخر المبالغ التي كشفت عنها التحريات التي كانت تهدف إلى تصفية المتعلقات المالية المتناثرة هنا وهناك؛ إذ كانت هناك مبالغ ينبغي سدادها لدي هاورد رائد الطيران في مطار سان أنطونيو الذي أعاد تصميم طائرة البوينغ ٧٤٧ الفارهة لحساب الملك فهد بموجب العقد الذي فاز به عن طريق سالم. وفي صفقة منفصلة عن مشروع الطائرة،

(١٤) المعلومات عن تسوية ديتريتش للأمر مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع توماس ديتريتش بتاريخ ١٢ أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م. والمعلومات عن تسوية بيل للدعوى القضائية المرفوعة في كندا مقتبسة من المقابلة التي أُجريت مع مايكل بوكنا بتاريخ ٣١ أغسطس/ آب ٢٠٠٦م. والمعلومات عن مركز التسوق مقتبسة من المقابلة التي أُجريت مع واين فاغان بتاريخ ١٠ مايو/ أيار ٢٠٠٥م.

أنفق سالم نحو مليون جنيه إسترليني وتدخل لضمان قرضٍ بقيمة مليون دولار من البنك الأهلي التجاري لإنشاء مشروع لتطوير بعض تقنيات محركات الطائرات الحديثة مع دي هاورد حتى تزيد من نطاق الطيران في طائرات نفاثة بعينها. وكان إيان مونرو ـ الذي كان مشتركًا في هذا المشروع ـ يعتقد أن هاورد استفاد من التقنيات التي موّلها سالم من دون أن يعوض شركائه بالشكل الأمثل. وأنكر هاورد تلك الادعاءات، فوكل بكر محامين من فلوريدا لإثبات هذا الادعاء، وفي النهاية دفعوا لتشارلز شوارتز، وهو من الشركاء في مكتب «فينسون آند إيلكينز» الشهير في هيوستن، لمقاضاة دي هاورد وشركته. وفي نهاية المطاف نُظرت القضية أمام هيئة محلفين مدنية في مقاطعة بيكسار بتكساس. ولم يضيع المحامي الذي وكله دي هاورد فرصة واحدة للتحدث في المحكمة عن ثروة سالم الطائلة أو الإشارة إليه بلقب «شيخ» وهو الأمر الذي راق لتشكيك المحلفين في تكساس المسلَّم به تجاه المليونيرات السعوديين. واعترض شوارتز على استخدام كلمة «شيخ» وحاول الرد بالإشارة إلى سمعة سالم باعتباره صديقًا لرونالد ريغان والنجاح الباهر لشركاته على المستوى الدولي. وفي النهاية، وبعد محاكمة استمرت ستة أسابيع وكان أبرز ما فيها شهادة كل من إيان مونرو ودي هاورد (حيث تحدث الأول بلكنة بريطانية وبدا رابط الجأش، بينما عبّر الثاني عن شهادته بصورة نقدية تعكس اندفاع أهل تكساس)، ربحت عائلة بن لادن القضية. وأصدرت هيئة المحلفين حكمًا بإعادة مبلغ ٦ ملايين دولار لمصلحة سالم، وحصلت العائلة في نهاية الأمر على أكثر من نصف هذا المبلغ[١٥].

في إطار الأوراق المطلوبة لرفع القضية ضدّ هاورد، اضطر بكر إلى تقديم مذكرات قانونية بعينها إلى هيئة المحكمة في تكساس، وفي إحداها أشار إلى وجود وثيقة تبدو مثيرة للاهتمام في محاكم جدة بعنوان «الوضع المالي لإرث المرحوم سالم بن لادن حتى يوم ١٠ من شهر

(١٥) نفس المصدر السابق في قضية: *Ian Munro v. The Dee Howard Company*, op. cit.

وأيضًا استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع تشارلز شوارتز وكيل سالم بتاريخ ١٢ مايو/أيار ٢٠٠٥م. والمقابلة التي أُجريت مع كيث كايزر وكيل هاورد بتاريخ ٢١ فبراير/شباط ٢٠٠٦م.

فبراير/شباط عام ١٩٩٠م» التي كانت تعد «الوثيقة المالية الوحيدة التي احتُفظ بها في المحكمة هنا في المملكة العربية السعودية بخصوص الشؤون المالية» لسالم وممتلكاته، وفقًا لما جاء على لسان بكر. ومع ذلك فإن هذه الوثيقة لم تظهر في المحكمة العامة في تكساس؛ إذ إن الغرض منها كان غير واضح، ولكن أحد المحامين الذي قرأها في ذلك الحين ذكر أنها قدرت قيمة ممتلكات سالم الشخصية بمبلغ ربما وصل إلى عدة مئات الملايين من الدولارات، ومما لا شك فيه أنها كانت أقل من المليار دولار. حتى إن هذا التقدير يبدو عاليًا في ظلّ الصعوبات المالية المتوالية التي تعرض لها سالم في السنوات الأخيرة من حياته، على الرغم من أن هذا التقدير ربما يعكس قيمة ممتلكاته العقارية غير السائلة نسبيًّا في المملكة العربية السعودية ومصر والإمارات العربية المتحدة وغيرها من البلدان الأخرى[١٦].

أدت ديون سالم أيضًا إلى تعقيد حسابات ثروته الشخصية. فقد اقترض مبالغ مالية هائلة من البنك الأهلي التجاري، إلا أنه لم يكن من الواضح دائمًا ـ على الأقل لشركائه الأجانب ـ متى كان يقترض لإتمام صفقة شخصية ومتى يقترض لمصلحة شركات بن لادن. ووفقًا لما ذكره شخصان مقربان من سالم وعلى علم ببواطن الأمور في البنك الأهلي التجاري، قدم البنك طلبًا إلى بكر لإعادة الجدولة بعد وفاة سالم، وأجرى بكر تسوية مع البنك، ولا يُعرف على وجه الدقة المبالغ المالية التي كان من المطلوب تسديدها، ولكن كما ورد عن هذين الشخصين، ربما كانت مبالغ هائلة جدًّا. ويتذكر غنيم قائلًا إن بكرًا «لم يتحدّث عن هذا الأمر قط، إلا أنني كمن أراه وقد أعياه التعب، واضطر إلى التعامل مع مشكلات الإرث. وكان يبذل قصارى جهده لتسديد كل الديون»[١٧].

(١٦) استنادًا إلى الخطاب الذي أرسله بكر بن لادن إلى إيان مونرو بتاريخ ٢٥ يوليو/ تموز ١٩٩٣م وقد وُضع في ملفات القضية المشار إليها في نفس المصدر السابق: *Ian Munro v. The Dee Howard Company.*

(١٧) المعلومات عن التسوية التي توصلوا إليها مع البنك التجاري الوطني مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع بنغت يوهانسون بتاريخ ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٦م ومقابلة ثانية مع شخص آخر طلب عدم الكشف عن هويته. وأيضًا المقابلة التي أُجريت مع غنيم في نفس المصدر السابق.

وقد دلت الاتفاقيات التي أبرمها بكر بخصوص التسويات المالية إلى جانب المنهج المنظم لرفع القضايا للمطالبة بممتلكات سالم في أوروبا وأمريكا على الاتجاه الجديد الذي تذهب إليه العائلة؛ اتجاه أكثر تمركزًا حول التجارة، وأفضل تنظيمًا، وأكثر نزوعًا إلى التقاليد العربية. وفي ظلّ عدم وجود أزمة عائلية، ربما كان هذا تغييرًا إيجابيًّا من وجهة نظر بعضهم عن الأسلوب الغريب الذي كان سالم يتبعه. إلا أن عائلة بن لادن لم يكن مقدرًا لها العيش بهدوء؛ إذ سرعان ما سيواجه بكر مشكلات واختيارات شديدة الأهمية والتعقيد عندما تستفحل الاضطرابات في العائلة. والسؤال الآن، هل كان أهلًا للتحدي؟ فعلى الرغم من كلٍ إخلاصه المثير للإعجاب وجدّيته في العمل، فقد أثار حذره الفطري سؤالًا لن يتخلص منه بصورة كاملة على الإطلاق: ماذا كان سيفعل سالم إزاء تلك المواقف؟

الفصل السادس والعشرون

أمريكا إن موشن

أجبرت الثورة الإيرانية التي اشتعل فتيلها عام ١٩٧٩م الآلاف من الإيرانيين الأثرياء على اللجوء إلى المنفى. وتجمع كثيرون منهم في لوس أنجلوس حيث ركزوا جهودهم في التجارة والأعمال. وبرع اللبنانيون والأرمن من الجيل الأول والثاني من المهاجرين وبذلوا كل غال ورخيص لتحقيق أهدافهم، فمنهم من عمل في مجال البناء ومنهم من تملّك المطاعم وعمل في البيع بالتجزئة، ومنهم من عمل في تحميض الأفلام الفوتوغرافية، إلى جانب منعدمي الأخلاق والمبادئ المنتشرين في أي مجتمع. وكان بعض الأبنية على الجانب الغربي من لوس أنجلوس شبيه ببازار مشيّد بالقرميد الإسباني والجصّ عندما توافد عليها السعوديون الأثرياء بأعداد هائلة بعد الطفرة النفطية الثانية. وكان شباب التجار الأثرياء القادمون من جدة والرياض والظهران يتجولون في أحياء بيفرلي هيلز بسيارات البورش والمرسيدس بنز، واضعين نظاراتهم الشمسية التي يُخيّل إليهم أنها شديدة الأناقة، وعطرهم الفواح يملأ الأرجاء، وظهروا بمظهر الشعب المتعالي بشكل لافت لانتباه أمواج الرأسمالية. فكان كل من يتعامل معهم يبحث عن مآربه، حيث كان المحاسبون يتعاملون معهم ولعابهم يسيل بحثًا عن النقود، والمحامون يرمقونهم سعيًا وراء الحصول على مقابل عدد ساعات عملهم، وسماسرة الأسهم المالية يتطلعون للحصول على العمولات منهم، بينما يسعى إليهم الصاغة لبيعهم المشغولات الذهبية. وكان هناك كثير جدًّا من رجال الأعمال السعوديين ممن أثبتوا جدارتهم وحققوا مكانة مرموقة في أمريكا، إلا أن كثيرين منهم عانوا ويلات المكر

والخداع. كانوا وافدين جددًا، وعلى الرغم من امتلاكهم المال الوفير فإنهم افتقروا إلى الثقة بالنفس والقدرة على سبر الأغوار في تلك الأجواء المعقدة، ولم يكن لديهم تكتل محلي للمهاجرين لحمايتهم مثل الأرمن واللبنانيين. إضافة إلى أن طبائعهم وعاداتهم لم تكن في خدمتهم دائمًا؛ فأغلبية العرب يقدرون الوقار واللياقة والتحفظ، بينما يتناقش الأمريكيون بصوت جهوري ويندفعون ويتشاجرون بسبب المال. وبينما يسوي العرب خلافاتهم بحكمة وحذر، يقاضي الأمريكيون خصومهم في المحاكم علنًا.

حقق سالم نجاحًا باهرًا في هذه البقعة، إلا أن موته قطع الشريان الوحيد الذي كان يربط بين الولايات المتحدة الأمريكية وعائلة بن لادن. ومما لا شك فيه أن بكرًا كان مهتمًّا بإقامة علاقات مع الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات، إلا أنه نادرًا ما كان يسافر إلى الولايات المتحدة. وبحلول عام ١٩٨٩م كان أنشط مستثمر في العائلة على الأراضي الأمريكية هو خليل بن لادن الذي كان يقيم في لوس أنجلوس شهورًا عديدة كل عام، تكون غالبًا خلال فصل الصيف، عندما يستحيل عليه تحمّل الطقس القائظ في جدة. كان خليل أخًا شقيقًا ليسلم وأصغر منه سنًّا، ولكنه كان أخًا غير شقيق لكل من بكر وأسامة. قدِم إلى أمريكا تحدوه طموحات عملية غير محدودة، إلا أنه افتقد الشعور بالطمأنينة والأمان المالي بسبب الويلات التي لاقاها في لوس أنجلوس وألاعيب محاميها.

درس خليل بن لادن إدارة الأعمال في جامعة جنوب كاليفورنيا خلال السبعينيات، إلا أنه لم يتخرج فيها مطلقًا. كان رجلًا نحيف القوام حييًا، ويتّسم بأدبه الشديد وحب استطلاع العادات والتقاليد الأمريكية مع أنه كان متحفظًا في فكره بشكل عام. كان أنيقًا ولكن من دون مبالغة؛ حيث كان يفضل ارتداء الحلل الرمادية المصنوعة يدويًّا في بيفرلي هيلز من إنتاج غريغ شابمان وأحذية بالي. ولفترة من الوقت كان يمتلك سيارة مكشوفة طراز رولز رويس، ولاحقًا عندما استقر في أمريكا، ابتاع سيارة فورد خضراء عائلية ولكنها أقل فخامة وذات مقاعد مغلفة بالقماش. وكان يصلّي الصلوات الخمس بانتظام وأقلع عن الخمور بعد القليل من التجارب الخاطفة وفقًا لما ذكره الأصدقاء. وكان يبدو متهورًا في لعب القمار الفرنسي وجاء على لسانه: «ما إن أبدأ لعب القمار، حتى أنسى نفسي وكل

من حولي»، إلا أنه كان في أغلبية الأحوال ودودًا وخجولًا. عندما قابل زوجته المستقبلية في ملهى ليلي في بيفرلي هيلز، ظن بعض معارفه أنها المرأة الأولى التي واعدها في حياته[١].

كانت شخصية رائعة، وتُدعى إيزابيل بايما، وكانت برازيلية الجنسية نشأت وترعرعت في عائلة فقيرة في وطنها الأم، وهاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وشقت طريقها إلى بيفرلي هيلز. وكانت قد أنجبت طفلًا من زوج سابق في الوقت الذي قابلت فيه خليلًا ونالت الزواج منه. أغرم بها كما ذكر من عرفوهما، وأغدق عليها بكل وسائل الترفيه التي لم تخطر لها على بال. ووصفها بعض المعارف بأنها كانت قوية البنية طويلة القوام، بينما قال عنها آخرون إنها صعبة المراس وكثيرة المطالب. تزوجا في نادي ريفييرا كانتري في مجمع بيل إير السكني. وشرعا في تكوين عائلة، وما إن ترعرعت الأسرة بالأطفال الذين يحملون مزيجًا من الملامح السعودية والبرازيلية والأمريكية، اشتريا منزلًا في قرية برينتوود العصرية على طريق جونزبورو وتعاقدا على إجراء تجديدات فخمة بلغت تكلفتها ٦٠٠,٠٠٠ دولار[٢].

في جامعة جنوب كاليفورنيا قابل خليل تاجر مجوهرات من بيفرلي هيلز يُدعى مايكل قازانجيان الذي كان أفراد عائلة بن لادن يشترون منه

(١) المعلومات عن تسجيله بجامعة جنوب كاليفورنيا لكنه لم يتخرج مستقاة من رسائل البريد الإلكتروني التي استُخدمت للتواصل مع جيمس غرانت في جنوب كاليفورنيا بتاريخ ١ مارس/ آذار ٢٠٠٠م. تخصص خليل في الهندسة الميكانيكية ودرس في الفترة ما بين خريف عام ١٩٧٥م وخريف عام ١٩٨٠م قبل أن يُنهي دراسته من دون الحصول على شهادة علمية. والمعلومات عن الصور التي تظهر فيها الملابس والسيارات والعادات والمنافسة على ألعاب الورق مستقاة من المقابلات التي أجريت مع ثلاثة أفراد قضوا وقتًا طويلًا معه وطلبوا عدم الكشف عن هويتهم، إلى جانب مقابلات أجريت مع عدد من الجيران الذين عرفوا عنه القليل. والمعلومات عن جوانب شخصيته مستقاة من الوثائق والشهادات الوضعية في عشرات من القضايا المدينة التي تورط فيها هو أو احد زملائه، ومتوفرة أيضًا من اقتباسات معينة في ما يأتي.

(٢) المعلومات عن إيزابيل مستمدة من المقابلات التي أُجريت معها ووثائق المحكمة في نفس المصدر السابق. والمعلومات عن المنزل الذي يقع على طريق جونزبورو مستمدة من سجلات الملكية لولاية لوس أنجلوس، تم فحصها والنسخ منها بتاريخ ٢٨ يونيو/ حزيران ٢٠٠٥م. والمعلومات عن التجديدات التي بلغت قيمتها ٦٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي مستمدة من ملفّات قضية: *Khalil Binladin and Isabel Binladin v. American Builders Association et al.*, Los Angeles County Superior Court, C6639II.

قطع المجوهرات النادرة. وكان قازانجيان عميلًا لألكسندر كابيلو الذي تخرج في كلية إدارة الأعمال بجامعة جنوب كاليفورنيا، وكان يطمح إلى إنشاء بنك استثماري صغير بآفاق عالمية. وكان كابيلو رجلًا وسيمًا ذا شعر أسود يعيش في بذخ، وكان ينتمي إلى مدينة بيكرسفيلد في ولاية كاليفورنيا، وكان يهوى جمع القطع الفنية والتماثيل الإيطالية التي يعود تاريخها إلى عصر النهضة. وقابل خليلًا في قسم الطلاب الدوليين في جامعة جنوب كاليفورنيا، وكان يدير عمله من مكاتب فائقة التجهيز في إحدى ناطحات السحاب الفخمة في مدينة سينشري سيتي. وفي مستهل الأمر كان يساعد خليلًا في الاستثمارات العقارية(٣).

كانت أهداف خليل العملية غامضة، وكان يعلل رفضه لمروجي المبيعات واحدًا تلو الآخر: «إن لم أكن أعرف ما يحدث أبادر بالرفض فحسب». وبدا في المقام الأول يحاول أن ينأى بنفسه عن المخاطر السياسية في المملكة العربية السعودية محاولًا إنشاء عدد من العقارات في الولايات المتحدة وتكثيف أنشطته التجارية لضمان تحقيق مبلغ مالي آمن يتراوح من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ٣٠٠,٠٠٠ دولار سنويًّا خارج المملكة تحسبًا لحدوث اضطرابات. شغل نفسه باستمرار بمحاولة ابتكار بعض الأفكار الجديدة. وكان منجذبًا إلى الاستثمارات الملموسة شأنه شأن كثير من أفراد عائلته مثل العقارات وتأجير الطائرات، إلا أنه كان مستعدًّا أيضًا للتفكير في بعض المشروعات غير المعتادة(٤).

في مرحلة مبكرة سجل خليل وثائق إنشاء شركة في ولاية ديلاوير أطلق عليها شركة كابيلتان كوربوريشن، حيثما عمل أليكس كابيلو رئيسًا لمجلس إدارتها لفترة من الوقت كما ورد في وثائق الشركة. واتخذت شركة كابيلتان مقرًّا لها مبنى يميل إلى الصفرة مكونًا من طابق واحد في مدينة كارلتون في ولاية تكساس خارج دالاس، وكانت تبعد عن طريق «ليندون بي. جونسون» بقرابة خمسة أميال شمالًا. وفي مدينة غارلاند

---

(٣) في أواسط عام ٢٠٠٧م كان كابيلو يعمل مديرًا لشركة «كابيلو كابيتال كوربوريشن» Cappello Capital Corporation وهي شركة استثمارية دولية.

(٤) استنادًا إلى المقابلات التي أجريت مع شخص عمل مع بن لادن. المعلومات عن المصالح التجارية مستمدة من المقابلات التي أشرنا إليها في المرجع الأول.

المجاورة، على طريق ديفيداند درايف ٣٧٣٧، اشترت الشركة مخزنًا صغيرًا كان مخصصًا لمستأجرين صناعيين، وكانت هناك استثمارات أخرى أكثر غرابة. وعن طريق شركة كابيلو، اشترى خليل حصة في قرض لمطرب موسيقى الريف كيني روجرز لشراء حصان عربي اسمه «نجاد» كان سعره يُقدر بمبلغ يتراوح بين ١٠ و٢٠ مليون دولار. وكان المربي الذي باع الحصان يدير مزرعة خيول في شمال كاليفورنيا ووافق على إقراض روجرز نسبة من سعر الشراء. ولاحقًا، وبسبب حاجة المربي إلى الحصول على المال سريعًا، عرض بيع القرض لمكتب كابيلو بخصم كبير. تأكد كابيلو أن الحصان مؤمن على حياته بمبلغ ملائم، ووافق خليل على الاشتراك في الصفقة، وكانت المخاطرة الوحيدة متمثّلة في الأهلية الائتمانية لكيني روجزر التي تبين أنها جديرة بالمراهنة، حيث حقق بن لادن أرباحًا تزيد عن ٣٠ في المئة من ذلك القرض في أقل من عام[٥].

خلال إحدى زيارات إيزابيل السنوية إلى المملكة العربية السعودية، خطر بباله هو وخليل أنّ المملكة لا يوجد فيها متجر جيد لبيع ألعاب الأطفال المميزة الذي اعتادا عليه هم وأطفالهم في لوس أنجلوس؛ أي متجر رائع مثل متجر «تُويز آر أص». فاتخذا قرارًا بافتتاح أول متجر كبير لألعاب الأطفال في المملكة العربية السعودية، وهي مغامرة جريئة إلى حدّ ما في مملكة ينظر فيها كثير من علماء الدين إلى الدمى على أنها أوثان ومن يقتنيها يتطاول على الله. وبحث خليل إمكانية شراء توكيل متجر «تويز آر أص» ذاته في منطقة الشرق الأوسط، إلا أن السعر المطلوب كان باهظًا. (فالشركات التي تصدر امتيازات باسم علامة تجارية شهيرة يمكن أن تكون شديدة التمسك بأن يمارس صاحب الامتياز قصارى جهده والعمل بنفسه في

---

(٥) المعلومات عن شركة كابيلتان كوربوريشن والمقر الذي يقع في مدينة كارلتون والمخزن الموجود على طريق ديفيداند مستمدة من ملفات الملكية الخاصة بمقاطعة دالاس في ولاية تكساس، تم فحصها والنسخ منها بتاريخ ١٦ فبراير/شباط ٢٠٠٦، وقد زار المؤلف أيضًا تلك الممتلكات. وتُسجل وثائق مقاطعة دالاس في ٣٠ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٣م أن كابيلو كان رئيس شركة كابيلتان. والمعلومات عن قرض الحصان الذي كان يمتلكه كيني روجرز مستمدة من المقابلات التي أُجريت مع شخصين كانا على اطلاع بتلك المعاملة التجارية طلبا عدم الكشف عن هويتهما. بيد أن هذين الشخصين اختلفا قليلًا في روايتهما عن مبالغ القرض لكنهما وصفا المعاملة وهامش الربح بأرقام متقاربة. ولم يستجب وكيل كيني روجرز لطلبات التعليق على الأمر.

الشركة لضمان النجاح.) وكانت عائلة بن لادن تسعى للحصول على امتيازات من سلسلة مطاعم ماكدونالدز لمنطقة الشرق الأوسط حسبما ذكر أحد أفراد العائلة، إلا أنهم عندما علموا أن الملاك مطلوب منهم أن يكونوا في المقر الرئيس لقضاء ساعات طويلة في قلي البرغر والبطاطس؛ جرت الدعابات في العائلة بشأن أي من أبناء بن لادن يمكن إرساله إلى مدرسة في أمريكا لتعليم القلي في قدور الدهون العميقة، إلا أنهم في النهاية آثروا الابتعاد عن مثل تلك المشروعات. وفي نهاية الأمر قرر خليل افتتاح مشروعه الخاص الذي أطلق عليه «تويلاند» في جدة. ولتجهيز المتجر وملئه بالسلع، استعان خليل في لوس أنجلوس بتاجر ألعاب أطفال أمريكي محنّك، يُدعى مارك لاف، وأنشأ شركة جديدة؛ شركة بن كوربوريشن، للتعامل مع صفقات شراء الألعاب وشحنها بين أمريكا وجدة(٦).

في ظلّ تنامي هذه الصفقات تورّط خليل تدريجيًّا في دعاوى قضائية أمريكية. وبدا مستهدَفًا من ضرائب الملكية، وعلى مر السنين تخلف عن دفع الضرائب المستحقة على عدد من ممتلكاته العقارية، ممّا أدّى بمحاميي الحكومة لولاية كاليفورنيا ودالاس كاونتي التابعة لولاية تكساس بإقامة دعاوى قضائية مدنية ضده. وبسبب مشروع تجديد منزله في قرية برينتوود، رُفعت دعاوى قضائية مدنية تشهيرية بين خليل والمقاول الذي تعاقد معه على تجديد المنزل الذي يملكه رجل إيراني الجنسية في لوس أنجلوس، وهو نزاع حمل سخرية خاصّة من سليل عائلة شهيرة تعمل في مجال المقاولات(٧). إلا

---

(٦) المقابلة التي أُجريت مع ثلاثة أشخاص في نفس المصدر السابق. حدد خليل وظيفة مارك لاف كموظف عمل لديه منذ عام ١٩٨٥م وهذا في تصريح مكتوب وُضع في ملفات في قضية: *America in Motion Corporation and Khalil Binladin v. Ron R. Goldie et al.*, Los Angeles County Superior Court, WEC13994,

حددت سجلات الملكية لمقاطعة دالاس هوية شركة بن كوربوريشن بأنها «نتيجة لاندماج» مع شركة كابيلتان كوربوريشن.

(٧) المعلومات عن الدعاوى القضائية الخاصة بالضرائب مستمدة من: *Dallas County v. Kabeltan Corp.*, Dallas County, Texas, 9k-pI36. Los Angeles County real property records document 99-178970S

حيث يصف حكم الحبس نتيجة للضرائب الصادر بحق كابيلتان ويرجع تاريخه إلى عام ١٩٨٦م وتضمن الدين الكامل المستحق والذي تخطى مبلغ ١٧٢,٠٠٠ دولار أمريكي. راجع أيضًا: 98-143wS7, 97Ik3707k, 96-1849398, and 97-IS4966, =

أن مشكلته الكبرى بدأت في أعقاب وفاة سالم عندما انتقل خليل إلى المجال الجديد لتأجير السجون الأمريكية الخاصة، وكانت بداية تلك التكهنات بإنشاء شركة جديدة أنشأها وأطلق عليها أمريكا إن موشن.

كانت شركة أمريكا إن موشن تشترك مع شركة بن كوربوريشن في مبنى واحد على طريق فينتورا بوليفارد ١٥٢٦٠. وهو مبنى مشيد من الزجاج والغرانيت بما يزيد عن عشرين طابقًا في مدينة شيرمان أوكس بولاية كاليفورنيا في وادي سان فرناندو، أعلى تلال هوليوود المغطاة بالنباتات الكثيفة مباشرة. وفي أثناء وجود خليل في لوس أنجلوس، كان يعمل من حين إلى آخر في المكتب الواقع في مدينة شيرمان أوكس، إلا أنه كان يفوض بصفة أساسية الإدارة اليومية إلى المديرين التنفيذيين والموظفين الأمريكيين الذين يعملون لديه. وبحلول أواخر الثمانينيات اختفى أليكس كابيلو من الساحة، وحلّ محله فرانكلين فريزورا، المستثمر العقاري الذي كان زوج أخت زوجة خليل البرازيلية التي تُدعى ريجينا، التي تزوجها فرانكلين ما إن قابلها في ملهى ليلي أيضًا في لوس أنجلوس. أضفى فريزورا على مشروع بن لادن طابع المشروعات الترفيهية. وكان قد نشأ في جنوب كاليفورنيا؛ كان أبوه ممثلًا كوميديًا، وكانت أمه تكتسب قوت يومها من عملها الفني بعد أن مثّلت دور فتاة شابة في فرقة «الإخوة رينغلنغ» وفي سيرك «بارنم وبايلي». إضافة إلى ذلك، درس فريزورا في المدرسة الإعدادية مع أبناء مو أوستين الرئيس السابق لشركة وارنر براذرز ريكوردز للإنتاج السينمائي. عين أفراد بن لادن أقارب زوجاتهم في وظائف في كثير من مشروعاتهم على مدار ما يقرب من نصف قرن واستفاد فريزورا من النهج نفسه؛ فعمل مستشارًا ومديرًا لدى خليل في المشروعات العقارية والمشروعات التجارية الأخرى[٨].

أقبلت شركة أمريكا إن موشن مبدئيًا على غزو مجال تأجير الطائرات

= حيث تصف الإجراءات الضريبية المتخذة من مقاطعة لوس انجلوس وولاية كاليفورنيا القضية المرفوعة ضدّ شركة كابيلتان وبين كوربوريشن. والمعلومات عن الدعاوى القضائية التشهيرية مستمدة من قضية : *Khalil Binladin and Isabel Bin Laden v. American Builders*, op. cit., and cross complaints.

(٨) المقابلات التي أُجريت مع ثلاثة أشخاص في نفس المصدر السابق. قال فريزورا إن خليل بن لادن كان رجل أعمال جديرًا بالاحترام لكنه لم يضف أي تعليق إضافي.

الخاضع للضرائب، إلا أنها لم تحقق نتائج مثمرة. ومن بين عملائها الأوائل ستيفن ماكيم رئيس شركة صغيرة كانت تقع في شمال كاليفورنيا، تُدعى شركة ماغنوم إيركرافت إنترناشونال، وكان من بين المستثمرين فيها كلينت إيستوود الممثل الذي حقّق شهرة واسعة بعد فيلم «ماغنوم فورس» وغيره من الأفلام. كانت شركة ماغنوم إيركرافت ـ التي كان مقرها يقع بالقرب من منزل إيستوود في مدينة كارمل ـ في أوج بحثها عن ترس هبوط قابل للسحب لطائرات الهليكوبتر. ولأسباب ظلت غامضة أقنع ماكيم خليلًا بشراء طائرة نفاثة حربية قديمة إسبانية مزدوجة المحرك طراز عام ١٩٨٥م وإعادة تأجيرها إلى شركة ماغنوم، وفقًا لما جاء في سجلات المحكمة. ولاحقًا ذكر خليفة ماكيم في الشركة، المدعو داريوس كيتون، إن شركة ماغنوم كانت «شركة صغيرة يقع مقرها في مدينة مونتيري ولم يكن لها أي نشاط خارج الولاية. ولم يكن أي من موظفي الشركة يسافرون في رحلات مهمة على الإطلاق. . . وآخر ما كانوا يحتاجون إليه هو شراء طائرة نفاثة بقيمة ٢٢٥,٠٠٠ دولار».

على أي حال، توقفت شركة ماغنوم عن دفع أي مبالغ مقابل التأجير بعد شرائها مباشرةً، ورفعت شركة أمريكا إن موشن ضدها قضية. واعتبر محامو خليل بن لادن كلًّا من ماكيم وكلينت إيستوود مُدعى عليهما. ورفضت المحكمة الدعوى القضائية في نهاية الأمر من دون إصدار حكم ضدّ الممثّل ـ المخرج أو دفع أي مبالغ للتسوية. وآل الأمر بشركة أمريكا إن موشن بامتلاك طائرة نفاثة قديمة مناسبة لهواة الطيران فقط[٩].

علاوة على فريزورا زوج أخت زوجته، اعتمد خليل في حصوله على النصيحة على موسارات علي خان؛ الشخص الغامض نوعًا ما ذو الشارب الذي يظهره كرجال الحقبة الاستعمارية، والذي ذُكر في إحدى وثائق

---

(٩) المعلومات عن تاريخ النزاع على عقد الإيجار مستمدة من قضية: *America in Motion Corp. v. Magnum Aircraft International*, Los Angeles County Superior Court, NWC043648.

وأيضًا تصريح داريوس كيتون في نفس المصدر السابق بتاريخ ٩ مارس/ آذار ١٩٨٩م. والمعلومات عن عدم صدور أي حكم أو الوصول إلى أي تسوية مستمدة من الرسائل الإلكترونية التي استُخدمت للتواصل مع كيفن ماركس محامي الدفاع عن كلينت إيستوود بتاريخ ٧ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٧م.

المحكمة بأنه «محاسب قانوني من باكستان» واستقر لاحقًا في جدة باعتباره موظفًا لدى عائلة بن لادن. عندما افتتح خليل في بداية الأمر متاجر ألعاب الأطفال «تويلاند»، عمل معه علي خان هناك، ولاحقًا انتقل إلى لوس أنجلوس للمساعدة في إدارة شركة أمريكا إن موشن. وكان خليل يدفع له راتبًا يزيد عن خمسة آلاف دولار شهريًّا. وكان علي خان يسعى جاهدًا للبحث عن صفقات ربما تثير اهتمام صاحب العمل. وخلال صيف عام ١٩٨٨م، وفي الفترة نفسها التي كان أسامة بن لادن فيها يشكّل القاعدة سرًّا في بلد علي خان الأم باكستان، مهَّد الطريق لاستثمار غير عادي لمصلحة خليل تمثّل في بعض المنشآت الخاصة بالسجون في ماساتشوستس[١٠].

تمثلت الصفقة في شركة اسمها ري ـ صن ليزينغ كان مقرها يقع في ضواحي فيرجينيا بواشنطن العاصمة. تأسست هذه الشركة عام ١٩٨٦م وكانت متخصصة في المباني الجاهزة المصنوعة مسبقًا المخصصة للمنشآت الحكومية والمدارس والمستشفيات والشركات؛ تراوحت مشروعاتها من إنشاء الشركات الصغيرة لحراس الأمن إلى المخازن الضخمة. ولتتجنب الشركة تجميد قدر كبير من الأموال النقدية فيها، بحثت عن مستثمرين خاصين على استعداد للمساهمة في عقودها الإيجارية. فاشترت شركة أمريكا إن موشن ما وصفته إحدى الوثائق في المحكمة بـ «نصف حصة غير مجزّأة في بعض السجون مؤجّرة لكومنولث ولاية ماساتشوستس» في مقاطعتَي هامبدن وهامشاير[١١].

كان السعر يزيد قليلًا عن ٥٠٠,٠٠٠ دولار، فتمكن خليل من الحصول على المال باقتراض ٧٧٠,٠٠٠ دولار من بنك إندوسويز. وبعد ذلك أعادت شركة ري ـ صن الفرق الذي يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ دولار إلى

(١٠) استنادًا إلى البيان المشترك المقدّم إلى القضية من رون آر غولدي في قضية: *America in Motion and Khalil Binladin v. Ron R. Goldie*, op. cit.

وأيضًا تصريح خان عن القضية في الشهادة الوضعية التي أدلى بها خليل إلى جانب تصريحاته في نفس المصدر السابق.

(١١) البيان الذي قدمه غولدي إلى القضية في نفس المصدر السابق. والمعلومات عن تاريخ شركة ري ـ صن مستقاة من الموقع الإلكتروني الذي تمتلكه الشركة، تم الولوج إليه والاقتباس منه بتاريخ ٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧م. ولم تستجب الشركة لطلب التعليق على الأمر.

خليل في صفقة أشار إليها بن لادن بأنها «خصم»، إلا أن علي خان اعتبرها «دفعة غير قانونية» على الرغم من غموض ما كان يعنيه باستخدام هذا المصطلح. ويبدو أن خليلًا استخدم المبالغ المالية الفائضة لتسديد ديون أخرى اقترضها من بنك إندوسويز. وبدأت التزاماته المادية في لوس أنجلوس تتراكم؛ على سبيل المثال، تعدى إجمالي ديونه المستحقة لبنك إندوسويز ٣ ملايين دولار حسبما ورد في خطاب أرسله علي خان إلى خليل عام ١٩٨٩م. وفي نهاية المطاف تخلف خليل عن سداد بعض ديونه، ومن ثَم سعى إلى بيع بعض ممتلكاته الاستثمارية في لوس أنجلوس من أجل تسديد قروضه[١٢].

في شهر مايو/أيار من عام ١٩٨٩م، أعادت شركة أمريكا إن موشن التفاوض مع شركة ري ـ صن بشأن صفقة تأجير السجون. وكجزء من التحويلات المالية الناتجة من عملية إعادة التمويل هذه، تلقى أحد محامي خليل في بيفرلي هيلز، ويُدعى رون غولدي، في حساب ائتماني مبلغًا من المال قدره ٢٢٧,٥٠٠ دولار كما ذُكر في ملفات القضية. وبعد ذلك وافق غولدي على دفع مبلغ ١٣٠,٠٠٠ دولار من المبلغ السابق إلى موسارات علي خان الذي زعم أنه اقتُرض منه كجزء من اتفاقيات عمل شفهية كان قد عقدها مع خليل. وازدادت الأمور تعقيدًا لأن خليل كان يحاول إدارة صفقات السجون بالفاكس والتلفون من جدة حيثما عاد لقضاء فترة الشتاء والربيع.

تبين من الوثائق التي وُجدت في شركتي بن كوربوريشن وأمريكا إن موشن أن علي خان أرسل عددًا من الخطابات إلى خليل في جدة، موضحًا تاريخ التحويلات المالية المعقدة التي بلغت ذروتها بحصوله على مبلغ

---

(١٢) استنادًا إلى الجزء المقتضب من الشهادة التي أدلى بها خليل بن لادن في نفس المصدر السابق. وأيضًا الخطاب الذي أرسله علي خان إلى خليل بن لادن بتاريخ ٢٨ فبراير/شباط ١٩٨٩م في نفس المصدر السابق. المعلومات عن القرض الذي أخذه من بنك إندوسويز والذي تخطى ثلاثة ملايين دولار أمريكي مستندة إلى الخطاب الذي أرسله علي خان إلى خليل بن لادن بتاريخ ٣١ مايو/أيار ١٩٨٩م. لمزيد من المعلومات عن حقيقة تخلفه عن سداد بعض الديون راجع الجزء المقتضب من الشهادة التي يعترف فيها مارك لاف أنه تسلم إخطار عدم سداد بعض الديون من بنك إندوسويز لكنه وصف ذلك بأنه «مجرد خطأ تقني ارتكبه البنك.»

الـ ١٣٠,٠٠٠ دولار الذي وصفه بأنه «قرض» اقترضته شركة بن كوربوريشن «بضمان شخصي مني». أرسل خليل من ناحيته ردًّا بالفاكس ورد فيه عدد من الأسئلة المشككة؛ فكتب له: «أرجو أن تفيدني بالتفاصيل التالية عن القرض المزعوم: الغرض الذي حصلنا من أجله على القرض... الاستخدام الفعلي له... توقيت الحصول عليه... هوية الدائن... وفي حالة وجود اتفاقية للقرض، أرسل إلي بالفاكس نسخة منها». ولم يتمكن علي خان أن يلبي كل هذه المتطلبات. وفي بداية شهر يونيو/حزيران، أرسل له خليل من جدة: «إن الفاكسات التي أرسلتها لنا... لا تزال غامضة ولا أوافق على معظم ما جاء بها. أرجو أن ترسل إلى التفاصيل الكاملة خاصةً بيانات القرض البالغ ١٣٠,٠٠٠ دولار الذي قلت إنك كنت الضامن له بصفة شخصية»(١٣).

سافر خليل جوًّا إلى لوس أنجلوس وتحدّث مع المحامين والموظفين التنفيذيين القائمين على الأمر وخلص إلى أن «علي خان هو من استولى على مبلغ الـ ١٣٠,٠٠٠ دولار» كما جاء في إقرار مكتوب أودع لاحقًا في المحكمة، وأوقف علي خان عن العمل. وفي الثاني والعشرين من شهر سبتمبر/أيلول عام ١٩٨٩م، انطلق خليل بن لادن بالسيارة إلى قسم شرطة فان نويز في منطقة سان فرناندو فالي واقترب من الضابط الجالس في الاستقبال وطلب إليه أن يحرر محضرًا جنائيًّا. وبذلك خطا خطوة أخرى تجاه مستنقع النظام القضائي الأمريكي. ولم يكن خليل على يقين «مما إذا كانت هذه جريمة جنائية أم مدنية»؛ أي إن هذا الموقف كان يقتضي منه مقاضاة علي خان فحسب لمحاولة استرداد أمواله بدلًا من الذهاب إلى قسم الشرطة. وعلى الرغم من ذلك سلّم جدلًا بأنه ضحية جريمة ارتُكبت في ظلّ القانون الأمريكي. وذكر خليل أن رجل الشرطة «أرسلني إلى الطابق العلوي، وعندما صعدت

(١٣) استنادًا إلى الخطاب الذي أرسله علي خان إلى بن لادن بتاريخ ٢٦ مايو/أيار ١٩٨٩م في نفس المصدر السابق. وأيضًا الخطاب الذي أرسله علي خان إلى بن لادن بتاريخ ٣١ مايو/أيار ١٩٨٩م. والخطاب الذي أرسله بن لادن إلى علي خان بتاريخ ٢٣ مايو/أيار ١٩٨٩م. والخطاب الذي أرسله خليل بن لادن إلى علي خان (اليوم غير واضح) في يونيو/حزيران ١٩٨٩م. وكل الخطابات السابقة مأخوذة من ملف المحكمة في نفس المصدر السابق.

أرسلوني إلى أسفل» وفي النهاية «قال لي أحد الضباط: «حسنًا، املأ هذه الاستمارة»»(١٤).

بعد إجراء التحقيقات وجّه محامي مقاطعة فان نويز تهمة الاختلاس إلى علي خان، وأصدرت الشرطة أمرًا بالقبض عليه. وذكر المدّعون في أحد ملفات المحكمة أن الباكستاني قد يكون «لصًّا دوليًّا... مطلوب القبض عليه بتهمة الاختلاس من حسابات مصرفية في باريس»(١٥).

إضافة إلى ذلك أقام خليل دعوى أخرى في المحكمة المدنية. ووكّل علي خان محامين استدعوا خليل لغرفة تشاور في إحدى ناطحات السحاب في وسط مدينة لوس أنجلوس لمدة خمس أيام مرهقة من الشهادات الخطية المقرونة بقَسَم في شهر يوليو/ تموز عام ١٩٩٠م. واستجوب محامو علي خان بن لادن استجوابًا قاسيًا في ما يتعلق بتاريخ شركة أمريكا إن موشن وقروضه التي لم يسددها إلى بنك إندوسويز وغيره من البنوك الأخرى، وعن قراره بتوجيه تهم جنائية في قسم الشرطة؛ حتى إنهم سألوه عما إذا كان يحاول الثأر من خان الموظف الذي كان يعمل لديه لأنهما كانا يتنافسان على السيدة نفسها التي تعمل في مكتب شيرمان أوكس. (ولكنه نفى ذلك) وذكر أحد المحامين الذين شاركوا في التحقيق لاحقًا كتابة أبعاد الموقف الذي حدث في غرفة التشاور في أثناء الاستجواب، قائلًا:

في مرحلة ما زعم السيد بن لادن أنني أكرر الأسئلة نفسها... وبدا عليه القلق. وبينما كان السيد بن لادن يفكر مليًّا للإجابة عن سؤال وجّهته، نهض من المقعد الذي كان يجلس عليه ومشى في أرجاء الغرفة إلى ركن بالقرب مني أو بالأحرى خلفي، ثم عاد إلى المنطقة التي يجلس فيها السيد

---

(١٤) استنادًا إلى الإقرار الذي أدلى به خليل بن لادن بتاريخ ١٣ يوليو/ تموز ١٩٩٢م في نفس المصدر السابق. والمعلومات عن البلاغ الذي وقع بتاريخ ٢٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٩م مستمدّة من تقرير التحقيق المبدئي الذي قام به قسم شرطة ولاية لوس أنجلوس في نفس المصدر السابق. وأيضًا الجزء المقتضب من الشهادة الوضعية التي أدلى بها خليل بن لادن في نفس المصدر السابق.

(١٥) استنادًا إلى قضية: *The People of the State of California v. Mussarat Ali Khan*, «Felony Complaint for Arrest Warrant».

وأيضًا: «Declaration for Bail Deviation,» filed in *America in Motion Corporation and Khalil Binladin v. Ron R. Goldie et al.*, op. cit.

فينكل (محاميه)... وعلق السيد جريمويد على تسجيل التحقيقات بغرض ضرورة أن يعكس التسجيل خطوات الشاهد جيئة وذهابًا في الغرفة... وعندها حدثت مشادة عنيفة... (وفي قرابة الساعة ١:٤٠م) انفجر السيد بن لادن باكيًا وأخذ يتنهد بأنفاس سريعة واضعًا رأسه بين يديه، بينما زعم السيد فينكل في التسجيل أنني «جعلت» موكله يبكي...[١٦].

يتذكر خليل هذه الحادثة قائلًا: «كانت الدموع تنساب من عيني تأثرًا بالموقف». ولكن لم يبد محامو الخصم «أي احترام لي أو لمحاميّ» بل ذكروا «تعليقات بذيئة» وطرحوا «أسئلة تحمل تلميحات غير مقبولة»:

في نهاية الأمر أزعجني تكرار الأسئلة والمضايقات... ولم يكن المحامون يمارسون ضغطًا... من ناحية «الدفعات غير القانونية» أو سلوكياتي، بل كان الضغط متعلقًا باستمرار وابل الأسئلة المطروحة... التي كانت تقتحم حياتي الشخصية...[١٧].

ما حدث كان كافيًا ليجعل أي امرئ يحن إلى المحاكم الشرعية. ولم يكن خليل قد أدرك حتى هذه اللحظة ما قد تؤول إليه الأمور.

بعد مرور قرابة ستة أسابيع على المحنة التي تعرض لها خليل في أثناء إدلائه بشهادته، حضر ضابطا شرطة من قسم شرطة لوس أنجلوس بصحبة سيدة برازيلية تُدعى إليزابيث بورجس إلى منزل بن لادن في برينتوود. وطلب الضابطان التحدث إلى مارتا سيلفا وأوريا داسيلفا، السيدتين البرازيليتين اللتين كانتا تعملان لدى أسرة خليل بن لادن في الخدمة وتربية الأطفال. عندما خرجت السيدتان طرح عليهما الضابطان أسئلة عن ظروف توظيفهما، وترجمت بورجس لهم من الإنكليزية إلى البرتغالية والعكس. وكما جاء على لسان بورجس لاحقًا، كان الغرض الأساسي من أسئلة الشرطة معرفة هل الخادمتان «عاجزتان عن ترك منزل بن لادن ومُنعتا من الرحيل بتهديدهما وفرض عليهما ضرورة دفع أموال» إلى من تعملان لديه مقابل رحيلهما[١٨].

---

(١٦) نفس المصدر السابق بعنوان: Declaration of Geoffrey Morson

(١٧) نفس المصدر السابق بعنوان: Declaration of Khalil Bin Laden

(١٨) استنادًا إلى إجابات إليزابيث بورجس على الأسئلة في قضية: *Isabel Binladin v. Elizabeth Borges*, Los Angeles County Superior Court, SC003124.

أوضحت بورجس لاحقًا حقيقة زيارتها في وثائق قضائية رسمية؛ إذ تلقت اتصالًا هاتفيًّا في شهر يونيو/حزيران وأبلغها المتصل أن مارتا سيلفيا «أُجبرت على العمل» لدى عائلة خليل بن لادن «لساعات طويلة من دون أخذ إجازات أو قسط من الراحة» وأنها لم تحصل على أجر لهذه الفترة». ووافقت بورجس على الاتصال بالقنصلية البرازيلية في لوس أنجلوس إلا أنها عندما اتصلت بها اكتشفت «أنهم لن يفعلوا شيئًا». (إذ كان خليل قد عُيّن في جدة قنصلًا شرفيًّا للبرازيل، وهو منصب يهدف إلى تعزيز التعاون التجاري بين الدولة التي تنتمي إليها زوجته والمملكة العربية السعودية.) وأبلغت القنصلية بورجس أن عليها الاتصال بشرطة لوس أنجلوس إن كانت تشعر أن هناك مشكلة خطيرة، فأقدمت بالفعل على الاتصال بالشرطة. ووفقًا لما جاء في إقرارها أمام المحكمة، ذكرت أنها فعلت ذلك لأنها كانت تعتقد أن عائلة خليل بن لادن «انتهكت الحقوق التي يكفلها الدستور» للخادمتين اللتين تعملان لديهم «بإجبارهما على العمل لديهم ضدّ رغبتيهما». وزعمت بورجس أن الخادمتين أبلغتاها:

أنه كان مطلوبًا منهما العمل على مدار ١٨ ساعة يوميًّا من دون أخذ أي قسط من الراحة لتناول الإفطار أو الغداء أو العشاء. . . . وأنهما لم تحصلا على أي إجازات وكانتا تعملان في كل أيام الأسبوع. إلى جانب أنهما لم تحصلا على مقابل مادي بصورة مباشرة في مقابل عملهما إما نقدًا أو بالشيكات. بالإضافة إلى أن سلوك إيزابيل بن لادن كان شديد الوقاحة بصفة عامة ولم تكن تعاملهما بأي احترام. . . كما إن تنقلهما وقدرتهما على الخروج من مجمع العائلة في جدة أو لوس أنجلوس كان محدودًا بقيود صارمة. . . وقال أفراد عائلة بن لادن أيضًا إلى السيدة سيلفا إن موظفات سابقات حاولن الهروب وترك وظائفهنّ، إلا أنهن اعتقلن وأجبرن على دفع ثمن ذلك غاليًا ولم يقتصر الثمن على المال. . .[١٩].

مع ذلك، وبعد إجراء المقابلة مع السيدتين البرازيليتين، لم يحرك قسم شرطة لوس أنجلوس ساكنًا. وغادرت الموظفتان منزل بن لادن في اليوم التالي، وحسبما ذكرت عائلة خليل بن لادن، اتفقت بورجس على

---

(١٩) كل الاقتباسات مأخوذة من إجابات إليزابيث بورجس على الأسئلة في نفس المصدر السابق.

ترحيلهما على الفور جوًّا إلى وطنهما البرازيل، ولكنهما فضلا البقاء في لوس أنجلوس.

قالت عائلة خليل بن لادن إنهم شعروا بصدمة شديدة جراء البلاغات المقدمة ضدهم، وسريعًا ما أقاموا دعوى قضائية ضدّ بورجس متهمين إياها بمساعدة الخادمتين على التهرب من التزاماتهما الوظيفية التي تعاقدتا معهم عليها والتلفظ بكلمات «مشوهة للسمعة» في وجود اثنين من ضباط الشرطة. وذكر آل بن لادن في شكواهم أنه بسبب سفر خليل وإيزابيل معهما كثيرًا ولأن السيد بن لادن لديه التزامات عملية مرهقة، كان من الضروري أن تعمل لديها موظفات يسافرن معهم للاعتناء بأبنائهم الخمسة... ووافقت السيدة سيلفا والسيدة داسيلفا على مصاحبة عائلة خليل بن لادن إلى المملكة العربية السعودية للاعتناء بأبناء خليل بن لادن الخمسة وأداء الأعمال المنزلية غير الشاقة في مختلف منازل العائلة وإعداد الطعام في الأماكن المتعددة لقضاء الإجازات بشرط أنهما في حالة رغبتهما في إنهاء عقد عملهما، تعود السيدتان إلى البرازيل على الفور. وبناءً على هذه الشروط حصلت عائلة خليل بن لادن على تأشيرات سعودية باهظة الثمن[٢٠].

جاء في الشكوى أيضًا أنه بموجب قانون الهجرة الأمريكي، كانت عائلة خليل بن لادن مسؤولة عن تتبع مسار خادمتيها «في جميع الأوقات». والآن، وبعد أن اختفت السيدتان، سيعاني آل بن لادن لأنهم «قد لا يتمكنون من الحصول على تأشيرات أمريكية لموظفات أخريات يساعدنهم في الأعمال المنزلية في المستقبل». إضافة إلى أنهم تعرضوا «لمشكلات نفسية خطيرة» من جراء واقعة قدوم ضباط شرطة لمنزلهم، وأنهم وافقوا على السماح للخادمتين بالرحيل إلى بلدهما جوًّا فقط «لتلطيف حدة الموقف المحرج الذي تعرضوا له (وربما قد أثر هذا الوضع عكسيًّا في أطفال خليل بن لادن إذا ما استمر)»[٢١].

ردت بروجس بأن «أي بلاغات إلى قسم شرطة لوس أنجلوس...

(٢٠) استنادًا إلى شكوى بن لادن بتاريخ ٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠م في نفس المصدر السابق.

(٢١) كل الاقتباسات مأخوذة من نفس المصدر السابق.

إنما أدلت بها لحماية الحقوق الدستورية» للسيدتين ومن ثَم إنهما تتمتعان بالحصانة القانونية[٢٢].

عادت بورجس في النهاية إلى البرازيل، ولم يُبت مطلقًا في الدعاوى والدعاوى المضادة المرتبطة بهذه القضية حسبما ورد في ملف المحكمة المتاح في هذا الصدد. وأخيرًا خلصت عائلة خليل بن لادن إلى أنهم نالوا كفايتهم من المتاعب في لوس أنجلوس. ووافق خليل على شراء الشركة الليبيرية التي أُسست للإبقاء على ضيعة ديزرت بير ذات الطراز الإسباني وكانت تقع بالقرب من أورلاندو من ممتلكات سالم؛ دفع خليل أقل من مليون دولار وفقًا لما ذكره شخص كان حاضرًا في الصفقة[٢٣]. وباعت عائلة خليل بن لادن منزلها الكائن في برينتوود. وفي المستقبل ستقضي العائلة شهور الصيف في فلوريدا.

على الرغم من أن أمريكا كانت محيرة ومزعجة أحيانًا، وكانت تقتحم حياة الآخرين وتسبب لهم الإهانات أحيانًا أخرى، فإنها كانت آنذاك جزءًا لا يمكن استئصاله من عائلة خليل التي تجمع بين الجنسيات السعودية والبرازيلية والأمريكية. وعلى الرغم من أن أسرة خليل تنتمي قلبًا وقالبًا إلى عائلة بن لادن، فإن أبناءه اصطبغوا بالكامل بالحياة الأمريكية، وسيثبت لاحقًا مدى صعوبة إحراز توازن بين الجبهتين.

خلال شهور صيف عام ١٩٩٠م، موسم الإدلاء بالشهادات والخادمتين اللتين برزتا على حين غرة والشرطة التي تدق الأبواب في لوس أنجلوس، كانت حكومتا الولايات المتحدة والمملكة العربية المتحالفتان تمران بظروف مشابهة بسبب حالة القلق الناتجة من التعرض لأزمة، في خطة موازية للسياسة الخارجية والنفط والاقتصاد والحرب. وهنا أيضًا ستكون وحدة عائلة بن لادن وثروتها في مأزق، وبالأحرى معرضة للخطر.

---

(٢٢) كل الاقتباسات مأخوذة من إجابة بورجس على الشكوى في نفس المصدر السابق.

(٢٣) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع شخص كان له اطلاع على المعاملة التجارية طلب عدم الكشف عن هويته.

الفصل السابع والعشرون

الحسابات السويسرية

في ليلة اليوم السادس من شهر أغسطس/ آب عام ١٩٩٠م، ترأس وزير الدفاع ديك تشيني وفدًا أمريكيًّا إلى قصر الملك فهد المطل على البحر في جدة، حيث كان فهد يفضل ذلك الميناء المطل على البحر الأحمر عن الرياض، ومن بين أسباب ذلك أن أحد المنجمين الذين كان يثق بهم تنبّأ له بأنه ربما يُطعن في العاصمة. وفي هذه الأمسية بعينها كانت جدة تتمتع بميزة إضافية، وهي إبعاد الملك عن أي مصدر خطر قدر المستطاع؛ حيث إن موقعها يسمح له بالهروب من الجزيرة العربية حال حدوث أي ظروف طارئة. فقبل أربعة أيام كان جيش صدام حسين قد غزا الكويت واحتلها، وانهار جيش تلك الدولة الصغيرة وهربت العائلة المالكة إلى المنفى. وبدت وحدات الجيش العراقي حينئذٍ تعيد تجميع صفوفها استعدادًا لشن هجوم آخر محتمل على حقول النفط الشرقية للمملكة العربية السعودية التي يقع أكبرها أسفل الحدود الكويتية على الجانب الغربي للمملكة بعيدًا عن جدة.

لحق بتشيني إلى قاعة الاستقبال في القصر الملكي، الجنرال نورمان شوارسكوف القائد الأعلى للقيادة المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط، وبول وولفوفيتز نائب وزير الدفاع. وجلس فهد على عرشه في مقدمة القاعة، وبجانبه أخوه عبد الله غير الشقيق، ولي العهد حينئذٍ، وكان رجلًا مستقل الفكر ويفتخر بعلاقاته الوثيقة مع قبائل الصحراء الشمالية للمملكة العربية السعودية. وجلس كثير من الأمراء إلى جانب جنرال سعودي في صف على أحد جوانب القاعة. وجلس إلى جانب الملك الأمير بندر بن سلطان، سفير المملكة في الولايات المتحدة، على أهبة الاستعداد للترجمة

من العربية إلى الإنكليزية والعكس. وما إن بدأت المناقشة حتى جثا شوارسكوف على الأرض لعرض صور الأقمار الصناعية التي توضح إعادة وضع القوات العراقية بالقرب من المملكة العربية السعودية، وأوضح الجنرال أن بعض الوحدات التابعة لصدام توغلت داخل حدود الأراضي التابعة لسيادة المملكة بمسافة كبيرة بلغت خمسة وعشرين كيلومترًا[١].

كانت حكومة فهد قد أغدقت على صدام بالمساعدات خلال الحرب التي دارت رحاها في الثمانينيات بين إيران والعراق حتى بلغت ٢٦ مليار دولار، وفقًا لما ذكره فهد، وبتشجيع وإيعاز من الولايات المتحدة الأمريكية في محاولة لاحتواء المد الثوري الإيراني. وتبين أن كل هذه الأموال ذهبت أدراج الرياح. وبالمثل، فإن المليارات التي أنفقتها العائلة السعودية المالكة على الطائرات البريطانية الحربية ونظم الأسلحة في صفقة اليمامة (التي حولت مئات ملايين الدولارات كل عام إلى حسابات بندر المصرفية في واشنطن في صورة أجور) أثبتت عدم قيمتها؛ لافتقار المملكة العربية السعودية إلى القوة البشرية (إذ كان الجيش السعودي قوامه ٧٠,٠٠٠ جندي فقط، مقارنةً بالقوات العراقية التي بلغ عددها قرابة ٢ مليون جندي) علاوة على افتقارها إلى المهارات الكافية لصد غزو عراقي ناهيك بهزيمته. وكشف غزو صدام للكويت أن آل سعود ما هم إلا حكام لبلد يفتقر إلى الشعب المدرّب والقوة الصناعية والعسكرية المطلوبة لحماية آبار النفط التي تزخر بها المملكة. وقال تشيني إن الولايات المتحدة بوسعها أداء هذه المهمة، إلا أن قواتها ستحتاج إلى الانتشار سريعًا وبأعداد مهولة. وقطع وعدًا بأن القوات الأمريكية ستغادر المملكة العربية السعودية فور مرور الأزمة، أو عندما يصدر فهد أمرًا برحيلهم. ومن جانبه، قال فهد إنه في حالة انتشار القوات الأمريكية في المملكة، فإنه يريد أن يتم ذلك بأعداد كبيرة وبمنتهى الجدية. وبهذا افتضح أمر صفقة الأمن التي طالما ظلت مستترة تحت غطاء العلاقات الأمريكية السعودية، وأُديرت بتحفظ

---

(١) وصفت عدد من الروايات المنشورة اجتماع السادس من أغسطس/ آب وصفًا مشابهًا ولكن بفروق طفيفة. والمعلومات عن الموقف الذي جثا فيه شوارسكوف على ركبتيه مستمدة من:
Freeman quoted in *The House of Saud*, Algeria Productions, 2004.

وأيضًا من: Bronson, *Thicker Than Oil*, pp. 194-195; Clarke, *Against All Enemies*, pp. 57-59.
Lippman, *Inside the Mirage*, pp. 300-301.

وسرية قدر المستطاع حتى لا تحرج آل سعود أمام شعبها الكاره لأي تدخل أجنبي في أراضيه، افتضح أمرها الآن أمام مرأى ومسمع من الجميع. وكانت أمريكا الضامن والراعي لوجود كيان المملكة العربية السعودية، ومن دون هذا الضمان الأمريكي كانت شبه الجزيرة عرضة لأي طامع لديه قدر كاف من الجرأة أو الغباء للاستيلاء عليها، كما كان يحدث قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بقرون، عندما لم تكن شبه الجزيرة العربية مطمعًا إلا أنها كانت تتعرض للغزو بين الحين والآخر.

تحدث فهد مع عبد الله باللغة العربية، وتوقف بندر عن الترجمة، إلا أن تشاز فريمان، السفير الأمريكي في المملكة العربية السعودية الذي يتقن العربية تابع حديثهما بشغف بالغ.

طرح عبد الله سؤالًا على فهد قائلًا: «ألا تظن أنه يجب عرض الأمر للنقاش على علماء الدين وقادة القبائل الذين سيستاؤون من دون شك في وصول مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين المسيحيين واليهود لحماية المملكة».

فرد عليه فهد حسبما يتذكر فريمان: «ليس لدينا وقت لذلك، وإن تأخرنا ستؤول بنا الحال مثل الكويت التي مُحيت من على الخريطة بين عشية وضحاها».

قال عبد الله: «لا، إن الكويت لم تنته إلى الأبد. لا يزال هناك أمل» مكررًا ما قاله.

قال فهد: «نعم، والدليل أن مواطنيها يقيمون الآن في غرف الفنادق في القاهرة وباريس ولندن».

قال عبد الله: «فهمت مقصدك».

أشاح فهد وجهه عن أخيه غير الشقيق موجهًا حديثه إلى تشيني، قائلًا ببساطة: «حسنًا، أنا موافق»[٢].

---

(٢) نفس المصدر السابق: Freeman

وفي نفس المصدر السابق: Lippman

حطت الطائرات النفاثة الحربية الأمريكية وطائرات نقل الجند والمعدات العسكرية في مطار مدينة الظهران محدثة دويًّا صاخبًا خلال أربع وعشرين ساعة، إلا أنه على مدار شهر أغسطس/ آب، اعترف القادة الأمريكيون لاحقًا بأن تلك الحشود كانت خدعة؛ فلو اتجه صدام آنذاك جنوبًا من الكويت بكل قواته، كان يمكن له من دون شك الاستيلاء على بعض حقول النفط السعودية، على الأقل مؤقتًا. ولأسابيع عديدة بدا قدّر المملكة غامضًا.

حاول فهد ـ في ظلّ شعوره بالإحراج ـ استشارة العلماء المسلمين وقادة القبائل حتى وإن كان واضحًا أن قراره بالاعتماد على واشنطن لإنقاذ المملكة غير قابل للإلغاء. وفي الرابع عشر من شهر أغسطس/ آب، أصدر مفتي المملكة الشيخ ابن باز فتوى رسمية تجيز الاستعانة بقوات غير إسلامية للضرورة القصوى وأن ذلك مسموح به في الشريعة الإسلامية. ولم تكن هذه الوثيقة مقنعة تمامًا مثل آراء الشيخ التي أدلى بها قبل ذلك بسنوات عن موقع الأرض في مركز النظام الشمسي. وكما جاء على لسان أسامة بن لادن لاحقًا، حتى السعوديون الذين دعموا قرار فهد كانوا يدركون أن العائلة المالكة تتلاعب بقادة الدين الذين يعملون مقابل أجر يتقاضونه من الحكومة «في مسعى لتعزيز شرعيتها» في وقت حرج كهذا. وكانت الفتوى التي أصدرها ابن باز مستهجنة إلى حدّ بعيد وبصفة خاصةً «لأنها تستهين بذكاء المسلمين»[٣].

مما لا شك فيه أن أسامة كان من بين من استشارتهم تلك الفتوى، ولكن سخريته اللاحقة من فهد وابن باز تناقضت مع أفعاله وأفكاره المعقدة آنذاك. فهو ينتمي إلى عائلة بن لادن ولا يزال مرتبطًا بمصالح مع الحكومة السعودية، ولهذا لم يعرب عن استيائه علنًا في ذلك الصيف، بل انتقل سريعًا مع من تبقى من عائلته لحماية ثروته الشخصية في حالة انهيار نظام حكم آل سعود. وتمامًا مثلما كان الأمريكيون يخشون على مصالحهم النفطية لسنوات من حدوث أزمة كهذه، كان أفراد عائلة بن لادن يخشون الأمرَ نفسه. وكان الموقف بالنسبة إليهم يستدعي اتخاذ إجراء حاسم،

(٣) المصدر: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, pp. 198-199.

وشارك أسامة بكل ما في وسعه في خطة العائلة لتأمين ثرواتها.

سافر عمر وحيدر ابنا بن لادن جوًّا إلى جنيف للتشاور مع يسلم بخصوص كيفية نقل المزيد من أموال العائلة إلى البنوك السويسرية الآمنة. وفي ما سبق، كانت عائلة بن لادن قد فتحت حسابات لها في بنك سويسري لمؤسسة تابعة للعائلة؛ ظلّ الغرض من إنشاء هذه المؤسسة التي أسسها محمد بن لادن غامضًا إلا أن حسابها المصرفي في سويسرا ربما كان سلة لتجميع العملة الصعبة الناجمة عن تحويلات أموال الأعمال الخيرية من مختلف دول العالم أو الأموال الخاصة بالإرث. وبمؤازرة يسلم، قرر الإخوة آنذاك تصفية هذه المؤسسة وفتح حساب رئيس في بنك جديد؛ الشركة المصرفية السويسرية. وفي اليوم السابع عشر من شهر أغسطس/ آب، وقّع عمر وحيدر ويسلم وثائق في مقر البنك في جنيف لفتح حسابات فرعية لكل أبناء محمد بن لادن تقريبًا. وكما ذكر عمر لاحقًا: أنشئت حسابات فرعية بأسماء كل ورثة محمد بن لادن الذين يزيد عددهم عن خمسين وريثًا، وكان من بينها حساب فرعي باسم أسامة، وكانت هذه الحسابات الفرعية تُمول... بنسبة من الإرث الشرعي لكل وريث». وفُتحت تلك الحسابات كما اعترف عمر في ما بعد «كرد فعل على غزو صدام حسين للكويت»[٤].

نيابةً عن أسامة وقّع عمر وحيدر «إقرارًا بفتح حساب مصرفي أو حساب إيداع أوراق مالية» بناء على ما هو متبع في القانون السويسري. وصرّح كلاهما رسميًّا «بصفتيهما صاحبي الحساب» بأن «المالك المستفيد للأصول المفترض إيداعها في البنك» كان «السيد أسامة محمد بن لادن». وكتب أحد الأشخاص بخط يده اسم أسامة في الخانة المناسبة، وفي الصفحة الثانية اختاروا أن تكون العملة الأجنبية المستخدمة في حساب أسامة: «الدولار الأمريكي».

---

(٤) المعلومات عن مؤسسة العائلة والحسابات السابقة في بنك سويسري مستمدة من المقابلات التي أُجريت مع مسؤولين في شركات مصرفية دولية طلبوا عدم الكشف عن هويتهم. سلّم محامو آل بن لادن وثائق الحساب الموجود في البنك السويسري المعروف Swiss Bank Corporation باعتبار أنها سندات قانونية في: *In Re Terrorist Attacks on September II, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 157.

وأيضًا الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن بتاريخ ٢٥ يناير/ كانون الثاني في: *In Re Terrorist Attacks*

وُقعت في اليوم نفسه استمارة ثانية منحت «توكيلًا عامًّا رسميًّا» إلى يسلم على الحساب، وفي هذه الاستمارة كُتب بخط اليد أن المستفيد هو «الشيخ أسامة محمد بن لادن». وكان باستمارة الحساب المصرفي اختيار يتطلب من أسامة ويسلم توقيع كل الوثائق معًا، أو تخويل التوقيع لأحدهما، بحيث يتولى أحدهما «تنفيذ الإجراءات المطلوبة كل بمفرده وبتوقيعه الفردي». ووقع الاختيار على الوضع الثاني؛ بحيث خُولت ليسلم سلطة إدارة الأموال في الحساب بتوقيعه الخاص من دون الحصول على موافقة مكتوبة من أسامة. ودلَّ هذا الوضع على وجود ترابط بينهما وثقة متبادلة استمرت داخل نطاق العائلة، حتى في غمرة التوترات التي كانت تُثار بين الحين والآخر بسبب سفر يسلم إلى جنيف.

في العشرين من شهر أغسطس/ آب، وُضع في حساب أسامة وديعة بلغت ٤٥٠,٠٠٠ دولار، وهو مبلغ متواضع بالنسبة إلى إرثه، ولكن ذلك كان تأمينًا كافيًا من وقوع أي كارثة مفاجئة في المملكة. وعلى الفور بدأ هذا المبلغ يحقق فائدة بمعدل قرابة ٢,٥٠٠ دولار شهريًا، وستتفاوت الفائدة الشهرية باختلاف المعدلات السوقية[٥].

في خطب أسامة اللاحقة، شبه الأدوات المصرفية التي تمنح فائدة على المبالغ المودعة فيها بالربا الفاحش، وشجب هذه الأدوات باعتبارها انتهاكًا صارخًا لأحكام الشريعة الإسلامية. وقال أسامة ذات مرة إن الربا «محرم في كل الأديان» إلا أنك في الولايات المتحدة الأمريكية «تبني اقتصادك واستثماراتك على الربا. ونتيجةً لذلك استولى اليهود بكافة الأشكال والصور على كل الإمكانيات الاقتصادية»[٦]. ومع ذلك، وخلال فصل الصيف أيضًا الذي كان فيه الشعور بالذعر يغمر عائلته، لم يتردّد أسامة في الحصول على الفوائد الربحية، وفي الواقع، كان أسامة يحصل على فوائد ربحية سنوية تزيد عن الرواتب السنوية التي يحصل عليها كثير من الأمريكيين. وكان هذا مثالًا صارخًا على قدرته على التناقض في ما يتعلق بالأمور المالية.

---

(٥) كل الاقتباسات والتواريخ والمعاملات المالية لتلك الرواية مقتبسة من وثائق الرواية الأصلية التي سلمها محامو آل بن لادن في نفس المصدر السابق في: *In Re Terrorist Attacks*

(٦) المصدر: *Messages to the World*, op. cit., p. 167.

هناك روايات مؤكدة تشير إلى أن أسامة تنبأ بغزو صدام حسين للكويت مسبقًا. ويتذكر صديقه منذ أيام الدراسة الثانوية، خالد باطرفي، استماعه إلى حديث أسامة في ديوانية غير رسمية أو مأدبة صغيرة في منزل رجل أعمال ثري في مكة في بداية عام ١٩٩٠، عندما كانت وسائل الإعلام العربية لا تكف عن تعزيزات صدام لقواته الرابضة على الحدود الكويتية ومطالبته بالاستيلاء على الأراضي الكويتية. وحينها بدأ أسامة يحث المسؤولين على أن يشرع السعوديون في تدريب أنفسهم على قتال صدام، مثلما فعل هو وأتباعه في أفغانستان. وروى قصة توضيحية كان له غرض منها كما جاء على لسان باطرفي:

افترض أنك متعلم، مهندسًا كنت أم طبيبًا، وافترض أنك أدخلت (أطفالك) في مدرسة رائعة، إلا أنها تقع في حي يتّسم بقسوة بيئته، وهناك أطفال آخرون شديدو الصلابة ولديهم المهارة في التعامل مع المواقف الصعبة. ثم يأتي جار لك ويقول: «أقرضني بعض المال وإلا سأجعل أطفالي يلاحقون أطفالك». وأنت تعرف أنه لن يسدد المال مطلقًا، وأن هناك حدودًا لما يمكن أن تعطيه من مال. لذا، فإن تدريب أطفالك سيستغرق وقتًا لأنك ستكون في حاجة إلى مواجهة مباشرة معه. وصدام يملك كل هؤلاء الصبية ممن تعودوا على قسوة البيئة. لديه هؤلاء الجنود الفقراء العاطلون عن العمل ولديهم كل دوافع القتال والاعتداء على الغير. إنني أقول إن علينا الانتفاع من تدريباتنا في أفغانستان. لقد انتصب عودنا إلا أننا مضطرون للاستعداد. علينا الذهاب إلى المعسكرات الآن، وعلينا أن نقوي أنفسنا، وإن لم نفعل ذلك فلن يكون الملك فهد مستعدًا لمواجهة أي أخطار محدقة[٧].

كان ذلك شعور أسامة بنفسه من دون ريب عام ١٩٩٠م؛ بصفته قائد حرب عصابات دولي إسلامي عمل في خدمة الملك ويعد شديد الولاء والإخلاص لآل سعود، حتى إنه حاول التفكير نيابةً عنهم. ولم تكن حدود العراق وأفغانستان هي الحدود الوحيدة التي كان أسامة يتخيل أنه يؤدّي هذا الدور فيها.

---

(٧) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع خالد باطرفي بتاريخ ١٩ فبراير/ شباط ٢٠٠٥م.

حتى قبل عودته إلى المملكة العربية السعودية في أواخر عام ١٩٨٩م، قدم المال لدعم الثوار الإسلاميين المقاتلين ضدّ حكومة اليمن الجنوبي الشيوعية خائرة القوى، في ذلك الشق من اليمن الذي كان يسيطر على المنطقة التي نشأت فيها عائلة بن لادن في حضرموت. وكانت المعادلة السياسية والدينية في اليمن بانتهاء الحرب الباردة شديدة التعقيد. أما اليمن الشمالي، فكان يحكمها علي عبد الله صالح، ضابط الجيش الذي ينتمي إلى قبيلة سنحان والذي أمسك بزمام الأمور في انقلاب عسكري. وحظي علي عبد الله صالح ببعض الدعم من المملكة العربية السعودية، بصفة أساسية لأنه لم يكن شيوعيًّا، إلا أن علاقته مع آل سعود لم تكن جيدة. ومع ذلك فإنه اشترك مع المملكة العربية السعودية في الكراهية الفطرية لنظام الحكم في اليمن الجنوبي الذي يدعمه الاتحاد السوفياتي. ومع اهتزاز النظام الشيوعي العالمي خلال عام ١٩٨٩م بعد خروج الثوار الديمقراطيين عليه من الصين وحتى حدود أوروبا، بدت حكومة اليمن الجنوبي عرضة للسقوط. ومن أفغانستان التي تعرف فيها أسامة إلى عدد من المتطوّعين اليمنيين في هذه الحرب، رأى أسامة أن هناك فرصة سانحة لتعزيز إنجازاته باسم الجهاد. استولت حكومة اليمن الجنوبي اليسارية على أراضي عدد من كبريات العائلات سابقًا وحرمتهم من الثروات التي كانوا يتمتعون بها خاصة في محافظة أبين، وخلال الثمانينيات اتجه بعض الشباب في هذه العائلات إلى الإسلام المتطرف الدولي باعتبارها أيديولوجية مقاومة. وأسس أحد قادة أبين، ويُدعى طارق حسن الفضلي، جماعة سماها «الجهاد». وقال الفضلي لاحقًا إن جماعته في اليمن الجنوبي «حصلت بالفعل على دعم خارجي. . . بفضل الله ثم شيخنا الجليل أسامة بن لادن حفظه الله. . . الذي مول كل شيء». وبذلك دعم بن لادن الإسلاميين اليمنيين أيضًا(٨).

(٨) المعلومات عن وجود الإسلاميين في اليمن الجنوبي مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع دومينيك سيمبسون المسؤول السابق في وكالة المخابرات البريطانية والذي عمل في المملكة العربية السعودية واليمن وكانت المقابلة بتاريخ ١٧ مايو/ أيار ٢٠٠٢م. وأيضًا المقال الذي نشرته صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١م وقد تُرجم بعنوان: «Interview with Shaykh Al-Fadli On Aden-Abyan Islamic Army», =

أدى العنف الإسلامي في اليمن الجنوبي إلى تعزيز كل من اهتمامات الحكومة السعودية بإدارة شؤون البلاد والأيديولوجية الفضفاضة التي يتبعها بن لادن وحلفاؤه، كما كان الوضع في الحرب ضدّ الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. وربما شرع أسامة في مشروع الجهاد في اليمن الجنوبي بتشجيع أو حتى بدعم مباشر من الاستخبارات السعودية بالطريقة نفسها التي عمل بها في أفغانستان. وكتب ريتشارد كلارك الذي أدار برامج مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض في عهد كلينتون أن الأمير تركي الفيصل «طلب إلى أسامة، وفقًا لبعض المعلومات التي وردت إلينا، أن ينظم فرقة أصولية مستندة إلى الدين لمقاومة نظام الحكم الشيوعي» في اليمن الجنوبي. وفي ظلّ أحداث عام ١٩٨٩م ربما كان هذا الطلب متسقًا تمامًا مع السياسة الخارجية السعودية، ومع الاستعانة طويلة الأمد بعائلة بن لادن لتنفيذ مشروعات الدفاع السرية في أماكن من بينها اليمن. وقد وصف الأمير تركي هذا الأمر بطريقة مختلفة عن كلارك؛ حينما قال إن أسامة «حضر لزيارتي ومعه اقتراح» بإشعال ثورة في اليمن الجنوبي، واستطرد «وقد نصحته وقتها بأن هذه الفكرة غير مقبولة على الإطلاق»[٩].

أيًّا كانت الحقيقة، فإن معادلة السياسة الطبيعية تغيرت خلال الستة أشهر الأولى من عام ١٩٩٠م بطريقة أدّت إلى تخلي الرياض عن دعم التمرد العنيف في اليمن. وأسفر سقوط جدار برلين عن إعادة توحيد اليمن سلميًّا ونهاية اليمن الجنوبي بشكل رسمي. وفي الثاني والعشرين من شهر مايو/ أيار عام ١٩٩٠م، أصبح علي عبد الله صالح رئيسًا لليمن الموحدة، وحاول كجزء من الصفقة التي أبرمها أن يحتوي الجماعات الإسلامية التي شنت الجهاد سابقًا وتهدئة الأمور معها. ومع ذلك لم ير أسامة والمتطرفون الآخرون أي إيجابيات في هذه الصفقة أو في حكومة قومية ضمت بين طياتها شيوعيين سابقين، واستمروا في الجهاد بالخطب

= وأيضًا: «Yemen's Enduring Challenges...» *Terrorism Monitor, Jamestown* Foundation, Volume II, Issue 7, April 8, 2004, interview with former U.S. Treasury official Jonathan Winer.

(٩) المصدر: *Against All Enemies*, op. cit., p. 59

وأيضًا الجزء المقتبس في: *Meeting Osama Bin Laden*, Brook Lapping Productions, 2004.

والتنظيم. ووفقًا لما ذكره أحمد باديب، رئيس طاقم الرئاسة لدى تركي، اتصل صالح في النهاية بالملك فهد ليشكو إليه الوضع. واستجابت الحكومة السعودية بالضغط على أسامة للتهدئة، وطبقًا لما رُوي ذات مرة، خلال أواخر فصل الربيع أو بداية صيف عام ١٩٩٠م، شنت الحكومة هجومًا على مزرعة لعائلة بن لادن كان أسامة يستخدمها لدعم مشروعه في اليمن. وبعدها قيل إن أسامة أرسل خطاب احتجاج بلهجة غاضبة لولي العهد الأمير عبد الله[١٠].

تزامن هذا الشرخ في تحالف أسامة مع السياسة الخارجية السعودية مع غضبه المتزايد خلال خريف عام ١٩٩٠م من خطة فهد لنشر قوات تحت قيادة الأمريكيين في الحرب التي شُنت لطرد قوات صدّام من الكويت. وبدأ أسامة في اتخاذ مواقف جريئة مع المسؤولين السعوديين الذين كان يقابلهم. وعين حراسًا شخصيين له، وكتب في وثيقة من ستين صفحة موضحًا فكرته المتمثلة في تعيين المجاهدين المدربين في أفغانستان وقيادتهم في حملة لطرد صدام من الكويت وإنقاذ الملك فهد من المؤامرات السرية التي تدبرها قوات الاحتلال الأمريكي. وقال إنه سيكون من الخطورة على المملكة العربية السعودية أن تسمح للقوات المسيحية بالقتال في حروبها. وسعى إلى لقاء فهد، إلا أنه أحيل إلى مسؤولين سعوديين آخرين كان من بينهم أمير عالي المقام في وزارة الدفاع؛ لم تُعرف هوية هذا الرجل على الإطلاق، على الرغم من احتمالية كونه عبد الرحمن بن عبد العزيز شقيق الملك أو خالد بن سلطان الابن البارز لوزير الدفاع[١١]. وقابل أسامة أيضًا أحمد بن عبد العزيز الذي كان من

---

(١٠) المعلومات عما قاله باديب مقتبسة من المقابلة التي أُذيعت على قناة أوربت، وقد أعطى باديب شريط الفيديو الذي صُورت عليه الحلقة إلى المؤلف وقد ترجمتها مؤسسة: The Language Doctors, Inc

المعلومات عن الهجوم على مزرعة بن لادن مقتبسة من: Sharaf Al-Din, *Bin Laden... the Arab Afghans*, pp, 52-53.

(١١) المصدر: Coli, *Ghost Wars*, p. 222

أما عن هوية الأمير فقد زعم أسامة أنه «نائب الوزير» وهو عبد الرحمن الذي كان يشغل ذلك المنصب في وقت الاجتماع، لكن في الوقت الذي أدلى فيه أسامة بالتصريح كان النائب هو خالد ابن سلطان.

بين المقربين من سالم لفترة طويلة ومساعد وزير الداخلية. ولاحقًا وصف أسامة ما حدث قائلًا:

أسديت نصائحي إلى نائب وزير الدفاع مباشرة مبلّغًا إياه بالخطأ الفادح الذي يمكن أن تتراجع المملكة عن إتيانه، وبخطورة الإصرار على فعله ولكن من دون طائل. وبعدها قابلت نائب مدير إحدى الإدارات في وزارة الدولة لشؤون الأمن ووبخني بشدة لإسداء النصيحة إلى نائب وزير الدفاع وشرع في إلقاء خطبة علي عن الأخطاء نفسها التي ذكرتها للوزير، ثم قال بعدها: «هذا الأمر واضح للعيان، ولا نحتاج أحدًا ليخبرنا به»[١٢].

أثارت آراء أسامة بشأن الحرب القادمة في الكويت انزعاج الحكومة السعودية، إلا أنها لم تعر الأمر الاهتمام الكافي، بل يبدو أن خطبه المستمرة واتصاله الدائم بالجهاديين في اليمن من العوامل التي أدّت بوزارة الداخلية في النهاية إلى مصادرة جواز سفره خلال شتاء عام ١٩٩٠م ـ ١٩٩١م. وكما جاء على لسان الأمير تركي متحدثًا عن الحوار الذي دار بينه وبين أسامة عن الجهاد في اليمن: «لقد شعرت أن هذا الشخص الخجول المنطوي على نفسه شديد التحفظ قد تغير بشدة»[١٣].

ظن أسامة ـ وقال مرارًا وتكرارًا ـ أنه كان يعمل لحساب العائلة المالكة السعودية وليس ضدهم. ومع ذلك ترجم إخوة أسامة الأكبر سنًّا غير الأشقاء، خاصة عمر وبكر، عهد العائلة طويل الأمد بالولاء للعائلة المالكة بطريقة مختلفة تمامًا بعد غزو صدام للكويت.

قرابة هذا الوقت تعرف بكر إلى تشاز فريمان السفير الأمريكي في المملكة العربية السعودية؛ إذ كان فريمان بين الحين والآخر يحصل على معلومات مهمة من رجال أعمال بارزين في جدة. وفي خريف عام ١٩٩٠م بادر بكر وعمر بترتيب إجراءات تعاقد مجموعة بن لادن السعودية (التي كان أسامة أحد حاملي الأسهم فيها) مع الجيش الأمريكي لبناء مرافق لدعم تمركز القوات الأمريكية في الحرب المنتظرة مع العراق، وساعدهما في

---

(١٢) نفس المصدر السابق: *Messages to the World*, op. cit., p. 257.

(١٣) من الجزء المقتبس في: *Meeting Osama Bin Laden*, op, cit.

ذلك مثل تلك العلاقات. وبين اليوم الثلاثين من شهر سبتمبر/أيلول والسابع من شهر نوفمبر/تشرين الثاني، شيدت مجموعة بن لادن السعودية مهبطًا لإقلاع طائرات الهليكوبتر وهبوطها في «قاعدة الملك عبد العزيز الجوية» «لتدعيم الجيش الأمريكي الذي استُخدم في «عملية درع الصحراء»» وفقًا لما جاء في «شهادة شكر وتقدير» أصدرها لاحقًا الجنرال ويليام جي. باجونيس في القيادة المركزية لدعم الجيش الأمريكي. وعبر باجونيس عن تقديره لخدمات أحد المديرين التنفيذيين في مجموعة بن لادن بسبب «إسهامه الشخصي» في «أكثر حالات النشر اللوجيستي نجاحًا لإحراز نصر قتالي تاريخي للجيش... إننا فخورون بإنجازاتك ونشعر بالامتنان لتضحياتك. لك منا كل التحية والشكر والتقدير». تولت شركة بن لادن للاتصالات تركيب شبكات للقيادة المركزية الأمريكية ولواء الإشارة الأمريكي الرقم ٣٥، ومنح مديروها التنفيذيون شهادات تقدير وقعها الجنرال نورمان شوارسكوف الذي أكد من جانبه أنهم قدموا «دعمًا بارزًا» لمجهودات الحرب الأمريكية. إضافة إلى ذلك تولت إحدى شركات بن لادن مهمة تنفيذ مشروع تطوير طريق صحراوية يبلغ طولها ألفًا ومئتي كيلومترًا «حتى تتمكن القوات الأمريكية من التنقل بسهولة وأمان من المناطق الشمالية للمملكة العربية السعودية وإليها» كما جاء لاحقًا على لسان عمر بن لادن الذي أشرف شخصيًّا على العمل. ومما لا شك فيه أن أسامة كان على علم بتلك المشروعات، التي استفاد منها بصفته حاملًا للأسهم وأحد المستفيدين بالأرباح؛ لأنه كان موجودًا في المملكة خلال هذه الفترة على الرغم من أنه كان يسافر في ما يبدو من اليمن وإليها[١٤].

بتراكم الفوائد في حسابه المصرفي في سويسرا، ليس لدينا ما يفيد بأنه عانى الإحساس بالذنب بسبب الأرباح التي حصل عليها من عمل شركات عائلته في أثناء الحرب لدى الأمريكيين، حتى عندما ألقى محاضرة في مسجد بن لادن الذي يقع بالقرب من الكيلو ٧ وشجب السياسة

---

(١٤) استنادًا إلى الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن تحت القسم في: *In Re Terrorist Attacks*, op. cit

كل الاقتباسات المأخوذة من جيش الولايات المتحدة مستقاة من الوثائق التي سلمها محامو بن لادن في: *In Re Terrorist Attacks.*

الخارجية الأمريكية. وعلى الرغم من أنه كان يتغزل بالثورة، فإنه عجز عن احتضانها بصورة كاملة؛ إذ كان يبدو ظاهريًّا كالمنشق ولكنه كان ينأى بنفسه عن المخاطر. وكانت آراؤه متفاوتة ومعتقداته قابلة للتغيير ومليئة بالتناقضات.

في الوقت الذي كانت الثورات الديمقراطية تشتعل في جميع أرجاء العالم، أثار وصول القوات الأمريكية إلى المملكة في أواخر عام ١٩٩٠م جدالات قوية وصريحة للغاية بخصوص الحرية والهوية السياسية لم تشهدها المملكة العربية السعودية منذ عهد جمال عبد الناصر. وتمسك الليبراليون المدنيون، خاصة النساء، بذلك الربيع الفكري الذي يبدو أن شمسه ستشرق من الرياض. وفي شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، جذبت أربعٌ وسبعون سيدة أنظار العالم كله ـ وأدهشن كثيرًا من السعوديين ـ بمسيرة قدن فيها السيارات في شوارع الرياض في اختراق صريح للقانون الذي يحظر قيادة النساء السيارات. وفي بداية عام ١٩٩١م وقّع ثلاثة وأربعون رجلًا ـ من بينهم رجال أعمال ليبراليون وصحفيون وأساتذة جامعة ومسؤولون سابقون في الحكومة ـ التماسًا للملك فهد يطالبون فيه بإجراء عشرة إصلاحات سياسية. وكانت قائمة ضعيفة نسبيًّا ولم تصل إلى المطالبة بنظام ديمقراطي، إلا أنها من المنظور السعودي كانت جريئة، وجاء في الالتماس: مطلب تكوين مجالس جديدة لتوسيع نطاق المشاركة السياسية وإصلاح الشرطة الدينية، بالإضافة إلى «توسيع رقعة المشاركة النسائية في الحياة العامة في إطار ما تسمح به الشريعة»[١٥].

أكدت هذه الانتفاضة الليبرالية المتواضعة مخاوف الإسلاميين السعوديين المتأصلة من أن تحالف العائلة المالكة مع أمريكا، وخاصة قرارها في دعوة القوات الأمريكية إلى المملكة، سيوجه ضربة قاصمة إلى الأفكار والتقاليد الأصولية الإسلامية ويشجع آل سعود على المناداة بمجتمع أكثر علمانية. وعكست الخطب والمحاضرات السرية شديدة الانتشار المسجلة على شرائط هذه التحذيرات الهستيرية خلال فصلي الخريف والشتاء. وأصدر أستاذان جامعيان محافظان على وجه الخصوص،

---

(١٥) المصدر: Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia*, p. 168.

هما سفر الحوالي وسلمان العودة، خطبًا حماسية يزعمان فيها أن العدو الحقيقي للمملكة لا يتمثل في العراق بل في الغرب. وجاء صوت مؤثر آخر ممثلًا في عوض القرني مؤلف كتاب «الحداثة في ميزان الإسلام» الذي صدر عام ١٩٨٨م، وفنّد هذا الرجل في كتابه أن العائلة المالكة وحلفاءها العلمانيين كانوا يشجعون على إرساء أشكال بديلة للهوية القومية تضعف مكانة القرآن. واحتدم قلق المحافظين بعد احتجاجات النساء بسبب حظر قيادتهن للسيارات، وأدرجت المنشورات الإسلامية أسماء من قمن بالمسيرة إلى جانب أسماء أزواجهنّ وشجبوا النساء باعتبارهنّ «منحرفات وفاسدات»[١٦].

جمع الإسلاميون أيضًا توقيعات لتقديم التماس إلى الملك فهد يطالبون فيه بإصلاحات سياسية. واشتركوا مع الليبراليين في توسيع رقعة المشاركة السياسية، إلا أنهم حددوا أهدافًا لتوجيه الإصلاحات نحو التمسك أكثر بالشريعة الإسلامية.

ظلّ عبد العزيز القاسم القاضي المحافظ في محاكم الشريعة وقائد حملة التماس الإسلاميين الذي سيُعتقل لاحقًا، يبحث عن أسامة بن لادن إلى أن عثر عليه في جدة في بداية عام ١٩٩١م لإقناعه بإضافة توقيعه دفاعًا عن القضية. ولأنه ابن مهاجر حضرمي لم يتلق تعليمًا إسلاميًّا رسميًّا، لم يكن أسامة رمزًا مهمًّا في مدرسة الانشقاقات الإسلامية السعودية، إلا أن سمعته العسكرية باعتباره قائدًا للمجاهدين في أفغانستان وانتمائه إلى عائلة تجارية شهيرة جعلتهم يدعونه للانضمام إليهم. ويتذكر القاسم قائلًا: «اعتذر أسامة ورفض أن يوقع، وذكر أنه مشغول جدًّا بأمور الجهاد في أفغانستان واليمن. وكان يشجع على الأفكار (الموجودة في مسودة الالتماس) ولكنه لا يريد إثارة أي نزاع مع الحكومة السعودية يفقده الدعم الذي يحصل عليه لأنشطته، ولم يكن يريد شن حرب جديدة أخرى. إضافة إلى أنه لم يكن مقتنعًا بأن هذه الأهداف يمكن تحقيقها بطريقة سلمية»[١٧]. وقد أعرب

(١٦) نفس المصدر السابق ص ١٦٧. وأيضًا: Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, pp. 48-52.

(١٧) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع عبد العزيز القاسم بتاريخ ٨ فبراير/ شباط ٢٠٠٥م.

بعض الإسلاميين في المملكة العربية السعودية في تبريرهم لمقاومتهم الضعيفة للحكم الفاسد للعائلة المالكة، عن رغبتهم في تجنب الفتنة أو إحداث انقسام داخلي يشجبه القرآن داخل المجتمع الإسلامي؛ اعتمد أسامة على المنطق نفسه في شتاء ذلك العام.

ذات ليلة حضر أسامة مأدبة عشاء على سطح أحد المباني في جدة، حيثما تحدث ضيوف كويتيون منفيون عن معاناتهم وطلبوا الدعم وفقًا لما ذكره جمال خاشقجي الذي كان حاضرًا. وعندما حان دور أسامة في الحديث، أعرب عن تخوفه من أن أمريكا لديها خطة سرية لاستغلال وجودها في المملكة العربية السعودية من أجل «إضفاء صبغة العلمانية على المملكة وإجراء تغير جذري في نظامها أو أسلوب حكمها عن طريق تعيين رئيس ووزراء علمانيين» وذلك كما ورد على لسان خاشقجي. ذكر أسامة على وجه التحديد اسم غازي القصيبي السفير السعودي في بريطانيا المتأثر بالغرب، الذي يرتدي البدلة وربطة العنق بصفته مرشحًا للقيادة المفروضة من جهة الأمريكيين. وتنبأ أسامة بأن يجري القصيبي إصلاحات في مناهج المدارس لنشر الأفكار العلمانية «وتشجيع النساء على خلع الحجاب» إلى جانب «نشر الفساد من خلال الفنون وانفتاح المجتمع». وحسبما ذكر خاشقجي اختتم أسامة ملاحظاته بتحذير قائلًا:

احذروا! احذروا! علينا أن نتحد ونساند القيادة السعودية حتى لا تضعف أمام الحملة العلمانية المدبرة التي لا ريب في مجيئها وبالدعم الأمريكي الذي يملك بالفعل أدواته وعملاءه، ويُعد عمودًا خامسًا في المملكة العربية السعودية. وهناك كثير من السعوديين المستعدين بالفعل لخدمة مشروع انسلاخ المجتمع السعودي عن أصوله الدينية(١٨).

من وجهة نظر بعضهم، ظلت آراء أسامة كما كانت من قبل منذ أن كان في الرابعة عشرة من دون تغيير؛ فحيثما عاش المسلمون، عليهم أن يطمحوا في الوجود في مجتمع طاهر قائم على أسس إسلامية. ومع ذلك

---

(١٨) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع جمال خاشقجي بتاريخ ١٧ مارس/ آذار ٢٠٠٦م. كل الاقتباسات مأخوذة من المقابلة التي أُجريت مع خاشقجي ونشرتها صحيفة «الوطن العربي» بتاريخ ٥ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م.

ظلّ يشعر بحالة شديدة من عدم الاستقرار بخصوص كيفية تحقيق هذا الهدف المثالي داخل المملكة العربية السعودية. وكان قلقًا من وجود القوات الأمريكية والمؤامرات العلمانية المفترضة، إلا أن معتقداته بشأن آل سعود وانتمائه إلى عائلته كانتا قيدًا عليه. وفي الأراضي التي سيطر عليها المد الشيوعي مثل سوريا واليمن الجنوبي وأفغانستان، كان يمكن اعتناق فكر الجهاد العنيف لأنه بدا الاختيار الوحيد. إلا أن الموقف في المملكة العربية السعودية بدا أكثر تعقيدًا. واستمر أسامة في تقبل المزاعم الأساسية لآل سعود، من جملة أشياء أخرى، على أنهم الأحق والأجدر برعاية تلك البقعة الطاهرة التي نشأ فيها الإسلام، وهي المزاعم التي كان لها الدور الأكبر في تكوين ثروة عائلة بن لادن.

إن الهزيمة المنكرة السريعة والشاملة التي ألحقتها قوات التحالف تحت قيادة الأمريكيين بالقوات العراقية في الكويت ملأت الملك فهدًا والعائلة المالكة كرامةً وعزةً واطمئنانًا وثقة. وأخذ الملك فهد بثأره على الفور من الحكومات والكيانات العربية التي قدمت الدعم إلى صدام، خاصةً الأردن والسلطة الفلسطينية واليمن. وطُردت عشرات الآلاف من العمال الفلسطينيين واليمنيين من المملكة. وفي الجبهة الداخلية، وسط الشعور العام بالاطمئنان الذي ساد في نهاية الحرب، بدا فهد منقسمًا على نفسه؛ فمن ناحية كان يعتقد أن إجراء إصلاحات سياسية طفيفة ربما تهدئ رعاياه، إلا أنه وإخوته من ناحية أخرى سعوا إلى التأكد من أن حالة القلق التي سادت وقت الحرب لن تؤدي إلى ثورة عقب الحرب. وعقب مرور أسابيع على استسلام العراق، طُرد مقدمو الالتماسات من الجانبين من وظائفهم، واعتُقل بعضهم. ووجهت العائلة المالكة إلى كل من شكك في المملكة العربية السعودية أو انتقدها في أوج الأزمة التي مرت بها رسالة واضحة: إننا عائدون للانتقام.

غادر أسامة بن لادن أراضي المملكة في غرة شهر مايو/أيار عام ١٩٩١م، كما جاء على لسانه، بعد نهاية الحرب بأقل من شهرين في ظروف غامضة نوعًا ما، فهو لم يُجبر على الخروج، حسبما ذكر بكر بن لادن. وناشد أسامة وزارة الداخلية من خلال أحد إخوته غير الأشقاء ـ من المستبعد أن يكون بكرًا ـ لمنحه تأشيرة خروج لمرة واحدة للسفر إلى

باكستان لتصفية استثمارات هناك. وتشير أفضل الأدلة إلى أنه لم يكن لديه خطة محددة على أرض الواقع، وأنه كان يريد الانضمام إلى أتباعه في القاعدة الذين تركهم في أفغانستان، إلا أنه كان مشككًا في عودته إلى الحرب الأهلية الأفغانية. وعندما كان مقيمًا في جدة خلال الحرب، أرسل بن لادن أتباعًا له من أفغانستان إلى السودان لتأجير مزارع ومنازل ضيافة هناك. ولاحقًا اشترى مزرعة شمال الخرطوم مقابل مبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار طبقًا لأحد مساعديه السودانيين وهو المبلغ الذي تبرع به محام مصري. وخلال الفترة نفسها، كما ورد عن خليل الخليل الذي كان يتتبع الإسلاميين لمصلحة الحكومة السعودية، قضى «أسامة فترة من الوقت في محاولة العثور على قبيلة» في اليمن «يمكن أن يتزوج منها فتاة وينال ولاء القبيلة. وعمل على ذلك على مدار قرابة ثمانية عشر شهرًا لصنع أرضية لنفسه، بدايةً في سياق اجتماعي ثم إحضار أتباعه المحاربين إلى جنوب اليمن. . . وكان هناك تصور بأنه يمتلك أسلحة في الإمارات العربية المتحدة إلى جانب استثمارات وشركات. كان اليمن هو الإطار الذي كان يحاول استكشافه في البداية ليكون قاعدة لجيش الجهاد، ثم الإمارات العربية المتحدة باعتبارها قاعدة للأنشطة الإعلامية والاقتصادية»(١٩).

من السهولة بمكان توثيق دوافع أسامة إلى خطته اللوجيستية المحددة. والمضايقات التي لاقاها من المسؤولين السعوديين حول خطته في اليمن والخزي الذي شعر به بسبب رفضهم نصيحته في أثناء الحرب، جعلا رغبته في التحرر من الكبت الخانق الذي تمارسه المملكة تشتعل لإعادة تحقيق الاستقلال والمكانة التي كان يتمتع بها خلال سنواته الأخيرة في أفغانستان،

---

(١٩) المعلومات عن مغادرة أسامة للبلاد في الأول من مايو/أيار مستندة إلى: *Messages to the World*, op. cit. p. 33

والمعلومات عن حقيقة أنه غادر طواعية مقتبسة من الشهادة الخطية التي كتبها بكر بن لادن في: *In Re Terrorist Attacks, January* 25, 2006.

والمعلومات عن تأجير المنازل والمزارع في السودان وعن شراء مزرعة في شمال الخرطوم مقابل مبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار وهو المبلغ الذي تبرع به محام مصري مستقاة من: Testimony of Jamal Al-Fadl, *United States of America v. Usama bin Laden et al.*, United States District Court, Southern District of New York, S 98 Cr. 539, February 6, 2001.

إلى جانب المقابلة التي أُجريت مع خليل أحمد خليل بتاريخ ١٠ فبراير/شباط ٢٠٠٥م.

حتى إن الوضع حاليًّا بات أفضل في نهاية الحرب مع الروس. وكان منهكًا جدًّا ويشعر باختناق فكري من منظوره الخاص بسبب ضيق مساحة الثقافة السياسية السعودية، تمامًا مثلما كان يشعر أفراد عائلته الأكثر علمانية ممن كانوا يفرون بين الحين والآخر إلى لوس أنجلوس أو أورلاندو أو باريس كي يتنفسوا الصعداء نوعًا ما. وصور أسامة لاحقًّا رحلته إلى المنفى خلال ربيع عام ١٩٩١ بالكلمات الآتية:

فرض النظام السعودي على الشعب حياة لا تروق للمؤمن الحر. فأرادوا من الناس فقط أن يأكلوا ويشربوا ويتغنوا بحمد الله، لكن إن أراد الناس تشجيع ما هو صواب وتحريم الخطأ، لا يستطيعون فعل ذلك، بل يطردهم النظام من وظائفهم، وفي حالة إصرار الناس على فعل ذلك يُعتقلون في السجون. ولذا رفضت هذه الحياة الخانعة التي لا تناسب كرامة أي إنسان بغض البصر عن كونه مؤمنًا أم لا، ومن ثَم انتظرت الفرصة التي أتاحها الله لي لمغادرة المملكة العربية السعودية[٢٠].

كيف نظر بكر وإخوته غير الأشقاء إلى رحيله؟ لا توجد أدلة واضحة في هذا السياق، إلا أن الثابت أنه بمغادرة أسامة المملكة لم تحرك عائلته ساكنًا لحرمانه من الحصول على أمواله أو من المشاركة في الاستثمارات العائلية الجديدة. وفي شهر يوليو/تموز عام ١٩٩١م، على سبيل المثال لا الحصر، أسس يفيس برودرلين ـ وهو محام سويسري لديه مكاتب في جنيف ـ شركة في جزر كايمان اسمها شركة كامبريدج إنجينيرينغ «لتنفيذ مشروعات استثمارية وإدارتها» خاصةً «في صناديق التحوط أو المحافظ الوقائية التي تقدمها المؤسسات المالية الضخمة، ومنها البنك دويتشه». وطبقًا لما ورد عن برودرلين، كانت مجموعة بن لادن السعودية تمتلك شركة كامبريدج «ملكية غير مباشرة» إضافة إلى أن بكر بن لادن كان لديه سلطة التوقيع في الشركة. وقال بكر إن مجموعة بن لادن السعودية اختارت جزر كايمان مكانًا لمؤسستها «استنادًا إلى نصيحة محاميها». وكان مديروها السويسريون يتلقون «تعليماتنا من مجموعة بن لادن السعودية فحسب». وفي الفترة التي تلت تأسيس شركة

---

(٢٠) المصدر: *Messages to the World*, pp. 49-50.

كامبريدج إنجينيرينغ، لم يجر برودرلين والمديرون السويسريون الآخرون أي اتصالات بأسامة، إلا أن برودرلين قال إنه كان يعرف أن أسامة كان «جزءًا من مجموعة بن لادن السعودية» ومن ثَم مساهمًا في استثمارات صناديق التحوط[٢١].

وذكر بكر لاحقًا أنه «لم يتدخل مطلقًا» لإقناع أي مسؤول في الحكومة السعودية لمساعدة أسامة في الرحيل من المملكة، إضافة إلى «أنني لم أكن أعرف خلال تلك الفترة أن أسامة متورط في أي أنشطة إرهابية من أي نوع»[٢٢]. وألمح إلى أنه كان سلبيًّا إزاء قرار أسامة وتقبله بصدر رحب. وبالطبع، ربما تعتمد المصداقية الأكبر لتأكيده هذا جزئيًّا على تعريف «الأنشطة الإرهابية». وكانت القاعدة قد تأسست منذ ثلاث سنوات، وكان المتطوعون فيها لا يزالون يشاركون في حرب الأفغان الأهلية؛ بينما كان الآخرون يقاتلون في اليمن أو يتجنبون القبض عليهم من جانب سلطات الأمن المصرية التي هربوا منها. ويبقى اعتبار هل بعض هذا العنف أو كله شكّل إرهابًا من وجهة نظر كل شخص. وليس من المؤكد أيضًا نسبة إدراك بكر لقوة هذه المليشيات وحجمها أو مدى تورط أسامة معها.

واصلت عائلة بن لادن إرسال التحويلات المالية إلى أسامة. وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٩١م، حُول مبلغ من المال قدره ٤٨٢,٠٣٤,٣٧ دولار ـ وهو ما يمثل الوديعة الأساسية إلى جانب الفائدة المتراكمة مخصومًا منها النفقات المصرفية ـ من حساب أسامة الفرعي في الشركة المصرفية السويسرية في جنيف لحساب أخيه غير الشقيق حيدر. وأُجري هذا التحويل في الفترة التي كان فيها أصحاب الحسابات الفرعية الأخرى من بين أبناء محمد بن لادن يمسكون بزمام أمور حساباتهم الخاصة السويسرية، بعد أن انتهت أزمة الحرب. وفي ما يبدو أن أسامة قرر إعادة تنظيم شؤونه المصرفية في العالم الإسلامي. ولا

---

(٢١) كل الاقتباسات الخاصة ببرودرلين مستقاة من الشهادة الخطية التي كتبها يفيس برودرلين فـي: *In Re Terrorist Attacks*, January 24,2006, and «Minutes of a Witness Statement,» The Office of the Swiss Federal Public Prosecutor, Bern, October 9, 2001,

وقد سُلمت تلك الوثائق على أنها مستند قانوني في القضية نفسها.

(٢٢) استنادًا إلى الشهادة الخطية التي كتبها بكر بن لادن في نفس المصدر السابق.

يعرف تحديدًا ما حل بوديعته الدولارية بعد أن وصلت إلى حيدر، إلا أنه لا توجد أي إشارة تدل على أنها حُجبت عن أسامة. ويُعد هذا التحويل آخر تعامل معروف لأسامة مع النظام المصرفي الغربي(٢٣). وبأسلوب ينم عن عناد يفتقد أي ترابط منطقي، خاض أسامة غمار حياة جديدة من النفي التطوّعي. وكانت أحواله أكثر تعقيدًا من أحوال جده عوض الذي أسفر هروبه من الدَّيْن منذ زهاء قرن مضى عن ثروة عائلة بن لادن الهائلة، إلا أن غريزة أسامة لم تتغير عن فطرة جده؛ عندما شعر أنه لا يملك أي خيار سوى البدء من الصفر.

---

(٢٣) المعلومات عن عملية التحويل في ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول مستقاة من وثائق الحساب المصرفي في نفس المصدر السابق في: *In Re Terrorist Attacks*

المعلومات عن وصول المال إلى حساب حيدر استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع فَردَيْن كانا على اطلاع بعملية التحويل وطلبا عدم الكشف عن هويتهما. والمزيد من المعلومات عن آخر مرة استُخدمت فيها البنوك الغربية متوفرة في ما كتبه رئيس وحدة وكالة المخابرات الأمريكية التي كان مخول له تعقب موارد أسامة المالية في أثناء أواخر حقبة التسعينيات من القرن العشرين وهذا الرجل يُدعى مايكل سوير الذي كتب هذا الكلام باعتبار أنه شخص «مجهول» في كتاب: *Through Our Enemies' Eyes*, p. 35.

وقال «لم يأت البحث الذي أعددته بنفسي عن الفترة السابقة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م بأي معلومات تثبت تحديد أو حظر أو مصادرة أي مبلغ من المال يُنسب إلى آل بن لادن مباشرة في النظام المصرفي والمالي الغربي».

الفصل الثامن والعشرون

الرولز رويس تحت المطر

إنفصل إبراهيم وكريستين بن لادن رسميًا في اليوم الثاني والعشرين من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٩١م، بعد قرابة خمس سنوات زواج أسفر عن فتاة تبلغ من العمر عامين، اسمها صبا؛ انتقلت كريستين مع ابنتها إلى شقتها ذات الطابقين في مدينة لوس أنجلوس ووكلت محامين لطلاقها، وفي شهر فبراير/ شباط، قدّم المحامون وثائق إلى المحكمة العليا في لوس أنجلوس مطالبين بإصدار أمر اعتقال مؤقت لإبراهيم، وكتبت كريستين في إقرار لها أنها كانت متخوفة من أن زوجها «ربما يستشيط غضبًا منها» بسبب اتخاذها قرار الانفصال «وربما ينتقم منها باصطحاب ابنتها معه إلى المملكة العربية السعودية».

كانت كريستين حينئذٍ في عامها الحادي والثلاثين، وكانت تصغر زوجها بقرابة خمس سنوات، وأبلغت المحكمة عن «وضعها المالي البائس»، وكان هذا الشعور بالإحباط يتنافى مع الشعور العام في الجانب الغربي من لوس أنجلوس. وجاء على لسانها أن إبراهيم «على مدار سنوات زواجها كان يعطيها مصروفًا شهريًا بلغ قرابة ١٥,٠٠٠ دولار تقريبًا». إلا أنه في شهري يناير/ كانون الثاني وفبراير/ شباط عام ١٩٩٢م بعد انفصالهما، أعطاها ٥,٠٠٠ دولار فحسب وهو مبلغ «ليس كافيًا على الإطلاق». وليس لديها أي دخل سوى ما يمنحه إياها إبراهيم. وأضافت كريستين في إقرارها أنه بسبب بخل زوجها المفاجئ «تغير أسلوب حياتنا وانخفض مستوى معيشتنا عن مستوانا في أثناء الزواج». وذكرت أمام المحكمة ما يأتي:

كنت أقيم أنا وإبراهيم وابنتنا في قصرنا في مجمع بيل إير السكني

على طريق ستون كانيون ٦٣٤. وكانت مساحة هذا المنزل تبلغ ٧,٠٠٠ قدم مربع وكان يمتد على مساحة ثلاثة فدادين ويشتمل على مرآب يتسع لسبع سيارات. وفي الوقت الحالي، تتراوح قيمة هذا المنزل من ٨ إلى ١٠ ملايين دولار. وكان لدينا عمال بدوام كامل للاهتمام بالحدائق، إلى جانب عمال للمساعدة في المنزل وسائقين وطاقم خاص للحراسة، وكان لدينا سيارات كثيرة، اثنتان منهما طراز رولز رويس، وكان إبراهيم يأخذني أنا وابنتي في رحلات ترفيهية باستمرار. وكنا نسافر دائمًا في الدرجة الأولى جوًّا أو على متن إحدى الطائرات النفاثة التي تملكها العائلة. وقضينا ذات مرة شهرًا في أوروبا وذهبنا أيضًا للتزلج على الجليد في سويسرا وذهبنا في رحلات قصيرة إلى هاواي. وقد ساعدني أسلوب الحياة هذا أيضًا في الذهاب في رحلات إلى نيويورك والتسوق والذهاب إلى دور الأوبرا والمسرح. وفي العام الأخير، سمح لي إبراهيم بشراء معطف من الفرو يبلغ سعره ١٦,٠٠٠ دولار في إحدى رحلات التسوق.

أوردت كريستين بيانًا تفصيليًّا بالاستثمارات الضخمة التي قامت بها في التعليم وفي أشكال الرفاهية الشخصية الأخرى، مثل مبلغ الـ ٣,٢٥٠ دولارًا الذي أنفقته مؤخرًا على جراحة تجميلية، إلى جانب المبالغ المالية التي كانت تنفقها على تشذيب أظافرها والعناية بقدميها واستخدام الشمع التجميلي وتلوين الشعر وتغيير التصفيفات. والتحقت أيضًا بدورات خاصة لتعليم التطريز، وحصلت على دورات خاصة في اللغة الإنكليزية وركوب الخيل والتلوين وألوان الماء، إلى جانب النحت واللغة العربية. ولم يكن إنفاق ٣٥,٠٠٠ دولار على ثوب واحد «أمرًا استثنائيًّا» بالنسبة إليها. وكان إبراهيم يشتري لها «الفراء والمجوهرات وذات مرة اشترى لها ساعة يد بلغ سعرها بمفردها ٣٠,٠٠٠ دولار»، إلى جانب خاتم زواج من الماس بمبلغ ٩٠,٠٠٠ دولار. واشترت بيانو ستينواي لتضعه في منزلها في بيل إير، وكانوا «يتناولون طعامهم دائمًا في أفضل المطاعم» مثل «سباجو» و«مورتونز».

لم تقتصر الموضوعات التي تحدثت فيها عليها شخصيًّا فحسب؛ إذ ذكرت أنها أيضًا كانت تنفق ٣,٠٠٠ دولار في الشهر الواحد على ملابسها هي وابنتها صبا. وكلفها أمر شراء هدايا مناسبة لتعطيها صبا لأصدقائها الصغار في بيل إير في حفلات أعياد ميلادهم عدة مئات من الدولارات

شهريًّا. وأضافت أن أفراد عائلة بن لادن كانوا مهتمين للغاية بإقامة حفلات أعياد ميلاد أبنائهم. واستطردت قائلةً إنها في جدة في شهر سبتمبر/ أيلول الماضي، أنفقت ٧,٠٠٠ دولار على حفل لصبا اشتملت فقراته على «قرد وتأجير خمس خيول ومنطاد ومشغل موسيقى خاص ومصور ومتعهد تقديم أطعمة ومشروبات وزينة والهدايا لضيوفنا».

لم ترغب كريستين في أن يُؤخذ انطباع بأنها هي التي ابتدعت أسلوب الحياة هذا بنفسها، وذكرت أن إبراهيم كان يحب ترف من العيش أيضًا. وقالت على سبيل المثال:

سافر معنا جوًّا إلى سويسرا لمجرد الاستمتاع بإجازة نهاية الأسبوع ومشاهدة عرض للسيارات. وكان يمتلك سيارات كثيرة: اثنتين طراز رولز رويس وواحدة هوندا وأخرى لكزس وواحدة مرسيدس ٥٠٠ إس إي إل وسيارة جيب لامبورغيني. وأحيانًا كان إبراهيم يؤجر سيارة مرسيدس مقابل ٣٥٠ دولار في اليوم حتى لا يضطر إلى قيادة سيارته الرولز رويس تحت الأمطار.

إن تعلقه الشديد بسياراته جعلها تشعر ببعض الاستياء. وعندما حملت في صبا، وعد إبراهيم «بأن يشتري لي سيارة رولز رويس خاصة بي، إلا أنه أهداني سيارة جيب شيروكي ليميتد». وكانت تتوقع منه ما هو أفضل من ذلك. وبصفة عامة، كان يشارك في مشروعات التشييد في المملكة العربية السعودية التي كانت تضم مشروعات التجديد في الحرمين الشريفين والمطارات والطرق السريعة والقواعد العسكرية والقصور الملكية ومشروعات التنمية الضخمة الأخرى.

تبلغ ثروة عائلة بن لادن ما يزيد عن ملياري دولار. وتشتمل مؤسستهم على موظفين يبلغ عددهم ١٧,٠٠٠ موظف وتتمتع بممتلكات عقارية مهولة. إضافة إلى ذلك، تملك المؤسسة أسطولًا من الطائرات يتراوح عددها من ٨ إلى ٩ طائرات إلى جانب فريق عمل كامل من الطيارين والمضيفات. ومؤخرًا اشترت العائلة طائرة جي ـ ٤ (G-4) بقرابة ٢٥ مليون دولار وطائرة ليرجت (Learjet) جديدة.

أشارت إفادة كريستين إلى أن نار غضبها ربما تكون قد أُطفئت بعد أن

علمت أن مصير علاقتها مع زوجها إبراهيم الطلاق. وذكرت في ملفات المحكمة أنها تعتبر أن مصروفها الشخصي السابق الذي وصل إلى ١٥,٠٠٠ دولار شهريًّا كان «كافيًا»(١).

وفقًا لما ورد عن جاك كاياجانيان، أحد محامي كريستين، تقابل الزوجان في بيفرلي هيلز خلال منتصف الثمانينيات. وكان إبراهيم بصحبة دودي الفايد الذي لقي حتفه لاحقًا في حادث تصادم سيارة في باريس مع الأميرة ديانا، أميرة ويلز. (وكان الفايد ابن رجل الأعمال المصري الشهير، محمد الفايد، الذي اشترى محلات هارودز في لندن وفندق ريتز في باريس حيثما كانت عائلة بن لادن تقيم بصورة متكررة.) وكانت كريستين هارتونيان ابنة لرجل أعمال مسيحي أرمني كان يقيم في مقاطعة أورانج بكاليفورنيا. واعتمدت كريستين وهي في الخامسة والعشرين من عمرها على أبيها لتوفير الدعم المالي لها، ولم تكن تحصل على ما يكفيها من المال قط في أي وظيفة يمكِّنها من الاحتفاظ بعائد ضريبي. وكانت طويلة القامة نحيفة سمراء البشرة وفاتنة، وحسبما يتذكر مايكل بالابان، وهو أحد محاميها، كانت «امرأة شديدة الجاذبية بصورة تسلب العقل». وكان بار «دينم آند دياموندس» في سانتا مونيكا من الملاهي الليلية المفضلة لديها، إضافة إلى صالون اجتماعي متمدن على طراز القاعات التي تظهر في أفلام رعاة البقر، وتعلو قاعة الرقص فيه كرة متلألئة، ومعلقة على جدرانه رؤوس حيوانات الأيل وغيرها من الحيوانات(٢).

في الوقت الذي عرف فيه بالابان كريستين، وجد أنها تذكر بين الحين

---

(١) كل الاقتباسات من بداية الفصل مصدرها: «Declaration of Christine Binladin,» February 18, 1992, filed in *Christine Bin ladin v. Ibrahim Bin ladin*, BD058156, Los Angeles County Superior Court.

(٢) المعلومات عن صحبة إبراهيم لدودي الفايد مستمدة من المقابلة التي أجريت مع جاك كاياجانيان بتاريخ ٢٥ أغسطس/ آب ٢٠٠٥م. والذي كان وكيلًا عن كريستين بعد رفع دعواها القضائية لطلب الطلاق والتي استؤنفت في عام ٢٠٠٢م. والمزيد من المعلومات عن حقيقة أنها لم تتمكن من الاحتفاظ بعائد ضريبي قط متوفرة في: Christine's «Trial Brief,» *Bin ladin v. Bin ladin*, op. cit

إلى جانب المكالمة الهاتفية التي أُجريت مع مايكل بالابان بتاريخ ١٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٥م. والمعلومات المذكورة عن بار «دينم آند دياموندس» متوفرة في ما نشرته صحيفة «تايم» بتاريخ ١٥ مارس/ آذار ١٩٩٣م عن وصف الديكور الداخلي للمكان.

والآخر أسماء عدد من المشاهير، ممّا يشير إلى أنهم أصدقاء لها. وظن بالابان أنها تتفوه «بكلمات بغرض التظاهر لا أكثر» كما جاء على لسانه. ومع ذلك، في أحد الأيام، كان في اجتماع مع موكلته في مكتبه في لوس أنجلوس. وكان من شركاء بالابان من يمثل بول مكارتني، العضو السابق في فرقة البيتلز الغنائية الشهيرة، لمناقشته في أمر من أمور حقوق النسخ، وتصادف وجود مكارتني في غرفة الانتظار في مكتب المحاماة. وعندما دخلت كريستين إلى الممر ورآها مكارتني قال لها: «كريستين! كيف حالك بحق السماء؟» وكما ورد عن بالابان لاحقًا: «أشياء كهذه لا يمكن نسيانها، لقد كانت كريستين تعرف تمامًا ما تفعله»[٣].

لم يكن إبراهيم بن لادن يدور في الفلك نفسه؛ كان الشقيق الأصغر لكل من سالم وخليل، وتبعهما إلى لوس أنجلوس والتحق بجامعة جنوب كاليفورنيا لمدة عام، إلا أنه لم يشارك أخويه الكبيرين الاهتمام بالعمل، وبدا مكتفيًا بالأرباح التي يحصل عليها. ويتذكر أحد الأمريكيين الذي كان ينضم إليه بين الحين والآخر في الملاهي الليلية في لوس أنجلوس، أمسية قضياها في أحد المطاعم في بيفرلي هيلز عندما جاء كثير من أبناء بن لادن إلى المدينة وتجمعوا لتناول العشاء. وقرابة هذه الفترة كان إبراهيم قد وقع في حب كريستين. ويتذكر الرجل الأمريكي أن آل بن لادن كان لديهم روتين معين يتبعونه: عندما تصل فاتورة المطعم، كانوا يتنازعون على أخذ الشيك ويبدو أن كلًّا منهم عازم أكثر من الآخر على القيام بدور المضيف. وكان إبراهيم الأخ الوحيد الموجود الذي لا يبدو مهتمًّا بأداء هذا الدور، وأوضح قائلًا: «في النهاية سيدفع أبي هذه النقود». ويتذكر هذا الشخص أن إبراهيم في واقعة أخرى قال إنه لا يرى أهمية للعمل في الوظائف التنفيذية في شركة العائلة؛ فمهما عملوا، لن يتمكنوا مطلقًا من تحقيق إنجازات أبيهم المالية. ولديهم ما يكفيهم من المال، فلِمَ يكدحون ويكدون في العمل؟[٤]

(٣) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع بالابان في نفس المصدر السابق. ولم يستجب ممثلو مكارتني لطلبات التعليق على الأمر.

(٤) المعلومات عن تعليقات إبراهيم على العمل مستمدة من المقابلة التي أُجريت مع موظف عمل لدى آل بن لادن طلب عدم الكشف عن هويته.

كان إبراهيم متدينًا، وعلى الرغم من أن كريستين كانت تعتبر نفسها مسيحية من دون أن تنتمي إلى أية طائفة بعينها، فإنها وافقت على اعتناق الإسلام عندما تحدثت مع إبراهيم بشأن الزواج. فلم يكن هناك أي طريقة أخرى ممكنة للحياة بأمان وطمأنينة باعتبارها أحد أفراد عائلة بن لادن سوى أن تصبح مسلمة. ومع اقتراب وقت زواجهما، تناقش الزوجان بشأن كيفية التوفيق بين قواعد تنشئته في المملكة العربية السعودية وبين قواعد تنشئتها في كاليفورنيا الجنوبية في صورة عقد مكتوب قبل الزواج.

وضع روبرت شاهين وهو محام في لوس أنجلوس مسودة مبدئية لاتفاق مقترح تحت عنوان «اتفاق قبلَ الزواج يُخضع الزيجة إلى الشريعة الإسلامية». وكانت وثيقة استثنائية كان الهدف منها ضمان وقوع إبراهيم تحت مظلة القوانين السعودية في ما يتعلق بالقضايا المتعلقة بالوصاية على الأطفال والميراث، في مقابل تعهده لكريستين بالتنازل عن حقه الذي تكفله الشريعة الإسلامية بالزواج من أكثر من سيدة. وأودعت نسخة تمهيدية من الاتفاق في وثائق المحكمة لاحقًا.

استهلت فقرات الاتفاق كالآتي:

حيث إن العروسين يتوقعان التنقل من آن إلى آخر بين أماكن مختلفة في العالم... اتفق الطرفان على الآتي:

١) **الدين الإسلامي**: على كل من العروسين اعتناق المبادئ الإسلامية في حياتهما الزوجية وينبغي أن يُربى أبناؤهما من هذا الزواج وفقًا لتعاليم الدين الإسلامي...

٢) **ضوابط الشريعة الإسلامية**: يجب أن تُرجع كل الوقائع الخاصة بهذا الزواج طبقًا للشريعة الإسلامية إلا في حالة تعديل هذه الوثيقة...

٣) **عدم التعدد**: تنازل الزوج بموجب هذه الوثيقة عن حقه في الزواج من أكثر من زوجة شرعية في أثناء هذا الزواج.

٤) **المهر**: يتعهد الزوج بموجب هذه الوثيقة بدفع مبلغ..... دولار مهرًا إلى العروس باعتبار هذا المبلغ ملكًا لها وحدها... وفي حالة الطلاق يدفع الزوج إلى الزوجة مبلغ...... دولار إضافيًا...

نصت النسخة التمهيدية من الوثيقة على أن تتنازل كريستين عن حقوقها بموجب قوانين كاليفورنيا التي تحكم الملكية المشتركة، وتعهد إبراهيم «بموجب الشريعة الإسلامية» بأن يعيل أي أطفال تنتج من هذه الزيجة. وذُكر في فقرة شرطية جاءت تحت عنوان «أسس المساواة في الطلاق» أنه بموجب الشريعة الإسلامية، يمكن أن يطلق إبراهيم كريستين عمليًّا لدى رغبته بينما قيدت الوثيقة أسس الطلاق عند كريستين. ومن ثَم، فإن «الزوجة بموجب هذه الوثيقة توافق على أن إبراهيم سوف يأخذ خطوات إنهاء الزواج بناءً على طلب الزوجة إن نشأت خلافات غير قابلة للحل بينهما». وفي حالة الطلاق، فإن إبراهيم «سيتولى مسؤولية الوصاية على الأطفال بعد ولادتهم بموجب الشريعة الإسلامية»[٥].

قالت كريستين لاحقًا إنها وإبراهيم «لم يتفقا قط» بشأن كل النقاط الموضحة في مسودة العقد السابق للزواج، إلا أنهما قررا الزواج على أي حال. وقالت لاحقًا: «كان من المفترض أن نوقع هذا العقد بعد الزواج ولم نتفق قط عليه، ولذا لم نوقعه إطلاقًا»[٦].

تم زواجهما في فندق بيفرلي هيلز، وأعلنت المراسم زواجهما بموجب الشريعة الإسلامية. ومكث أفراد عائلة بن لادن الزائرون والضيوف الآخرون حتى صباح اليوم التالي في مبان من طابق واحد تابعة للفندق مزخرفة بالجص الوردي، ويتذكر روبرت فريمان الذي كان من الحضور أن «الضيوف غرقا في الخمر والشامبانيا». وكان هناك أخوة غير أشقاء مثل شفيق وهدى من بين الحضور أيضًا، وكان سالم لا يزال على قيد الحياة - إذ حدث الزواج في شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٨٧م - وظهر في حفل استقبال العشاء بأغانيه المعتادة وأحاديثه الفردية المازحة. وكتب فريمان لاحقًا أن كريستين كانت «عروسًا فاتنة» حيث التف فستانها بإحكام حول جسدها الرائع وكان متسعًا من الأسفل في ثنيات مستديرة. «وسلبت خصلات شعرها الحمراء الطويلة الرائعة المنسدلة ألباب الحضور... ومن المؤكد أن أخصائيي تنسيق الزهور قد

---

(٥) وُضعت نسخة غير موقعة من الاتفاق في قضية: *Bin ladin v. Bin ladin*, op. cit.

(٦) من الجزء المقتضب من شهادة كريستين في نفس المصدر السابق.

عملوا طوال الليل لتجهيز الزهور الرائعة وتوزيعها في أنحاء الفندق. كم كان مشهدًا مذهلًا!»[٧].

بعد شهر العسل، انتقل الزوجان إلى القصر الفخم الذي يطل على طريق ستون كانيون على الجانب الآخر من نادي «ريفييرا كانتري». ووُلدت صبا في شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٨٩م. ووفقًا للخطة المحددة سلفًا، فإنهما كانا يقسمان وقتهما بين مجمع بيل إير وجدة. أدركت كريستين أنه من الصعوبة بمكان الابتعاد عن أمها التي كانت تقيم في كاليفورنيا، ومشاركة عائلة بن لادن الكبيرة المجمع السكني الذي يقطنوه عند الكيلو ٧، كما جاء على لسان إبراهيم لاحقًا. وقال إنه من أجل إرضائها، اشترى قطعة أرض تطل على ساحل البحر الأحمر ووضع أساس ضيعة تطل على البحر كلّفته بعد بنائها زهاء ٣ ملايين دولار.

ومع ذلك لم يمض وقتٌ طويل حتى نشبت مشكلات بينهما في حياتهما الزوجية، وبدأت المشاجرات. وأخيرًا في أواخر عام ١٩٩١م، قررت كريستين الخروج من المنزل الكائن في مجمع بيل إير السكني واصطحبت صبا معها. ووكل إبراهيم محاميه بعد أن أقامت دعوى طلاق. وعندما علم أخوه خليل عام ١٩٩٠م بهذه المشكلات، في الوقت الذي بدأت فيه شركة أمريكا إن موشن تعاني المشكلات، كان إبراهيم على وشك اكتشاف قدرة المحامين الأمريكيين الهائلة على تعكير صفو حياة أي رجل سعيد ما إن تُترك لهم حرية التصرف.

ـ «هل تعلم القيمة المادية للأصول التي تملكها؟»

ـ «لا».

ـ «هل لديك أي فكرة عن قيمة هذه الأصول؟»

ـ «لا».

---

(٧) المزيد من المعلومات عن حقيقة إعلان مراسم الزواج بموجب الشريعة الإسلامية متوفرة في نفس المصدر السابق: «Final Divorce Judgment,» July 6, 1993.

إضافة إلى الوثيقة غير المنشورة في: Freeman, «The Saudi Connection,»

جلس إبراهيم في غرفة مشاورة في لوس أنجلوس في صيف عام ١٩٩٢م يجيب عن أسئلة الإدلاء بالشهادة التي يطرحها عليه محامو كريستين، وبدا الزوجان الآن في طريقهما إلى محاكمة مكتملة الأركان تؤدي إلى الطلاق في لوس أنجلوس. ومن بين الموضوعات التي أثارها المحامون الموكلون من كلا الطرفين، قدْر الدَّخل الذي يحصل عليه إبراهيم، وكيفية تقييم ثروته، والمبلغ الذي قد تحصل عليه كريستين وصبا في صورة نفقة للزوجة المطلقة ورعاية طفل. وظن محامو كريستين أن إبراهيم يراوغهم في ما يتعلق بموضوع النقود، ولكنه قال لهم إن هذا الأمر لا يقلقه ولا يستطيع إدراك تفاصيله.

ـ «هل قمت بأية محاولة لمعرفة القيمة المالية للأصول التي تملكها؟»

ـ «نعم... تحدثت مع إخوتي الذين يديرون الشركة في هذا الشأن، ولا أحد يعرف شيئًا عن هذا».

ـ «مع من تحدثت من إخوتك بهذا الشأن؟»

ـ «تحدثت مع يحيى... ي - ح - ي - ى...»

ـ «وأين يقيم يحيى؟»

ـ «في المملكة العربية السعودية».

ـ «عمّ سألته؟»

ـ «عن قيمة الأصول، ومقدار المبالغ التي نملكها؛ التي يملكها كل منا».

ـ «وماذا قال لك؟»

ـ «من الصعوبة بمكان تحديد ذلك، إنه لا يعرف».

ـ «هل أخبرته أنك تحتاج هذه المعلومات لاستكمال أوراقك في المحكمة في الولايات المتحدة الأمريكية؟»

ـ «لا. قلت ذلك لأخي خليل وهو أخبره بدوره».

ـ «وماذا حدث بعد ذلك؟»

ـ «لا أحد يعرف شيئًا على وجه التحديد. إنهم لا يعرفون حقًّا».

ـ «... السيد بن لادن! ناهيك بما قلته بالفعل، ما المحاولات الأخرى التي قمت بها للتحقق من قيمة صافي ممتلكاتك؟»

ـ «يمكنني رفع سماعة الهاتف، والتحدث مع أخي، وعلى حدّ علمي كما رأيت فأنا لا أعرف شيئًا عن العمل؛ حيث إنني لا أعمل معهم، ولا أعرف عن عملهم شيئًا، ومن ثَم لا أعرف ما يرسلون إلي وأعتبره أمرًا مفروغًا منه. حقيقة لا أعرف...»

ـ «هل تعرف كم يبلغ دخلك السنوي؟»

ـ «إنه ليس مبلغًا ثابتًا على أي حال، ويعتمد هذا الأمر برمته على المشروعات التي تنفذها الشركة، وما آخذه لا يُعتبر راتبًا ومن ثَم لا أعرف بالضبط كم الأموال التي أحصل عليها سنويًّا».

ـ «ماذا تعني بأن الأمر يعتمد على المشروعات التي تنفذونها؟»

ـ «أعني أنه إذا حصلت المؤسسة هذا العام على مشروعات كلّفتها بها الحكومة، كأن يُسند إلينا تشييد كثير من الطرق. وإذا نفّذنا هذه المشروعات على أكمل وجه يرتفع الربح، وإن حدث العكس أو لم نُكلف بهذه المشروعات، لا نحصل على أي أرباح».

ـ «كم كان يبلغ دخلك في عام ١٩٩١م؟»

ـ «لا أعرف».

ـ «وماذا عن دخلك حتى هذا الوقت في عام ١٩٩٢م؟»

ـ «ماذا؟»

ـ «ماذا عن دخلك حتى هذا الوقت في عام ١٩٩٢م؟»

ـ «ليس لدي أدنى فكرة».

واجه مايكل بالابان وغيره من المحامين الذين وكلتهم كريستين صعوبات جمة لتصديق أن إبراهيم لم يكن يعمل على الإطلاق كما زعم، وفي الواقع فإنه لم يعمل يومًا واحدًا على مدار حياته. وبموجب قوانين

الطلاق في كاليفورنيا، جاء زعم إبراهيم خلال جلسات المحكمة أنه لم يحصل على أي راتب خلال فترة زواجهما، وإن كان مصدر دخله الأصول التي كان يمتلكها قبل أن يتعرف على كريستين، فربما يكون من الصعوبة بمكان تحقيق أي تسوية في مصلحتها بنسبة كبيرة.

طرح بالابان على إبراهيم في مرحلة ما خلال الإدلاء بالشهادة السؤال الآتي: «هل تعرف أيًّا من إخوتك ممن لا يعملون في أي وظيفة؟»

أجابه إبراهيم بسؤال بعد وقفة لم يتحدّث فيها:

ـ «ـ لا يعملون البتة؟ أتعني ذلك؟»

ـ «تمامًا».

ـ «نعم».

ـ «من هم؟»

ـ «أنا و . . . »

ـ «حسنًا، عرفني بعددهم في البداية، ثم نعرف أسماءهم بالتفصيل».

ـ «أنا وعبد الله ومحمد وشفيق. . . عبد العزيز. . . وبعض الإخوة الآخرين ممن ليس لدي اتصال بهم. ولذا لا أعلم إن كانوا يعملون أم لا».

سأله بالابان عن شرائه قصر مجمع بيل إير خلال بداية الثمانينيات قبل أن يقابل كريستين؛ إذ كان سعر الشراء يزيد عن مليوني دولار.

ـ «كم دفعت نقدًا مقابل الشراء؟»

ـ «لا أتذكر، ولكن ـ تقريبًا مليون دولار نقدًا. . . لا، أظن أكثر. ربما دفعت مليون وستمئة ألف».

ـ «ستمئة ألف؟»

ـ «نعم، ستمئة ألف دولار».

ـ «حسنًا، مليون وستمئة ألف دولار؟»

ـ «نعم».

ـ «من أين أتيت بالمبلغ النقدي الذي دفعته؟»

ـ «من المملكة العربية السعودية، من أخي يسلم».

ـ «في صورة قرض؟»

ـ «لا، باع لي بعض أسهمي».

ـ «. . . وسُجل المنزل باسم من؟»

ـ «باسم أخي».

ـ «أي من إخوتك؟»

ـ «يسلم».

ـ «لماذا؟»

ـ «لأنهم أبلغوني إن سجلت المنزل باسمي، يكون لزامًا عليّ دفع ضرائب دخل إن كنت أملك شيئًا».

ـ «من أخبرك بذلك؟»

ـ «بعض أصدقائي»(٨).

استمر تحقيق المحامين على هذا المنوال وظل إبراهيم يرد بلهجة ملؤها الاسترخاء والبلادة. وبعد جلسات الإدلاء بالشهادة، وباقتراب موعد جلسة المحكمة، سجل الزوجان المنفصلان في المحكمة إقرارات متضاربة عن انهيار زواجهما، وأفضل الأحوال لابنتهما.

أقرت كريستين كتابة أنها شعرت بأنها مقيدة في أثناء زياراتها للمملكة العربية السعودية بصحبة صبا. بينما كان إبراهيم يختفي «ويتغيب على الشاطئ أو يذهب لزيارة منزل أحد إخوته. . . وعندما يعود. . . يتناول طعامه ويغفو قليلًا أو يأكل ويغادر المنزل سريعًا». وفي أثناء إقامتها في جدة خلال عام ١٩٩١م، أرادت أن تعود أدراجها إلى كاليفورنيا، إلا أن

(٨) جاءت كل الاقتباسات المذكورة في تلك القطعة من الجزء المقتضب من الشهادة التي أدلى بها إبراهيم في القضية المشار إليها في نفس المصدر السابق: *Binladin v. Binladin,*

إبراهيم «لم يسمح لي أو لصبا بالعودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية». وأخذ إبراهيم جواز سفرها وقال لها «إنه مُحتجز في مكتب مؤسسة بن لادن». وكانت في حاجة إلى توقيع إبراهيم للحصول على تأشيرة خروج، إلا أنه رفض وقال لها ـ كما ورد في إقرارها الكتابي ـ «إن أردت العودة إلى بلدك يمكنك الذهاب، ولكن صبا ستظل هنا». وأبلغت المحكمة أنها متخوفة الآن من أنه في حال سُمح لإبراهيم باصطحاب صبا إلى المملكة العربية السعودية بموجب اتفاق الوصاية المتفق عليه بعد الزواج، ربما لا تعود مطلقًا. وفي أثناء إحدى مشاجراتهما، قال لها إبراهيم مرات «كثيرة» إن صبا «ستذهب إلى المملكة العربية السعودية مهما حدث بصرف النظر عن حكم المحكمة». وأخبرها أشخاص آخرون في عائلة بن لادن أنه في حالة اصطحاب إبراهيم لصبا إلى المملكة العربية السعودية، «فلن يعيدها إليَّ مطلقًا»[٩].

رد إبراهيم على ذلك في إقراره الكتابي: «إنني أدرك بوضوح أن الهدف الذي تسعى كريستين إلى تحقيقه هو معاقبتي بمنع ذهاب صبا إلى المملكة العربية السعودية. فهو «لم يحاول مطلقًا منعها من مغادرة» المملكة؛ بل يقول «إنني ساعدتها على الرحيل. . . وذات مرة تشاجرنا وأرادت أن تغادر وقلت لها باستطاعتك فعل أي شيء تريدين، وهي تعرف جيدًا أن بوسعها المغادرة إن أرادت، حيث إن قانون منع الزوجة من السفر إلا بإذن زوجها لا يسري إلا على السعوديات فحسب. والمرة الوحيدة التي أخذت منها جواز السفر كان للحصول على تأشيرة خروج لها. . . ولم تحتج إلى أي توقيع مني حتى تغادر».

شعر إبراهيم أن كريستين كانت تحاول إبعاده عن ابنته الصغيرة عمدًا. وكمثال على ذلك ذكر أنه كان يمزح مع صبا مؤخرًا بينما كانا في السيارة عندما سألها إن كانت سعيدة، وقالت إنها سعيدة إلا أنها سألته: «هل أنت سعيد يا أبي؟» فرد عليها: «نعم». وقالت لها: «لكن أمي قالت إنك رجل تعيس»[١٠].

(٩) نفس المصدر السابق في: «Declaration of Christine Bin ladin,» December 1992.

(١٠) المصدر: «Declaration of Ibrahim Binladin,» December 22, 1992.

وصفت كريستين الاتفاقيات التي أُبرمت بينها وبين زوجها بخصوص تربية صبا في إحدى جلسات الإدلاء بالشهادة التي طلب المحامون الذين وكلهم إبراهيم عقدها:

ـ «إذًا صحيحٌ أنكِ والسيد بن لادن اتفقتما على أن البنت سوف تُربى وفقًا لتعاليم الدين الإسلامي».

ـ «نعم».

ـ «وهل ستتعلم الطفلة اللغة العربية، إن أمكن، وتتعلم التحدث بها وكتابتها وقراءتها؟»

ـ «نعم»[١١].

قال إبراهيم في جلسات المحكمة إنه أراد أن يربي ابنته في بيئة سعودية كسائر فتيات عائلة بن لادن. وكان من الأفضل أن تدرك صبا هويتها الحقيقية وأن تنتمي إلى عائلة ذات صيت ويمكن أن تعتمد عليها فترة طويلة:

من الأفضل لها الآن أن تدرك هذه التفاصيل وتنشأ في هذه الثقافة لأنني أعتقد أن التنشئة بـ «أسلوب حياة» مختلف يجعلك تتقبل هذه التفاصيل، وسوف يكون من الأصعب عليها حينها ألا تكون قد تعرضت لهذا الأسلوب حتى تكون قد نضجت. والسبب الآخر الذي يكمن وراء رغبتي في ذهابها إلى المملكة العربية السعودية هو أن تعرف الجانب الآخر من عائلتها، وتشعر بحبهم تجاهها، وتكون قادرة على التحدث باللغة العربية، وتشعر بالطمأنينة والدفء إذا ما رفعت سماعة الهاتف وطلبت من أي من أفراد عائلتها أي شيء تحتاجه أو المساعدة حال تعرضها لأية مشكلة[١٢].

كان إبراهيم مقتنعًا بأن كريستين تستخدم ابنتهما وسيلةً لأخذ المال

---

(١١) استنادًا إلى الجزء المقتضب من الشهادة التي أدلت بها كريستين في نفس المصدر السابق.

(١٢) نفس المصدر السابق: «Declaration of Ibrahim Bin ladin,»

منه. «وقد بدأت في إثارة هذه المشكلات معي فقط عندما اكتشفت أن المحكمة لن تعطيها ما تريده مني»، أي النفقة التي تبلغ ٢١,٦٤٨ دولارًا شهريًّا إضافة إلى المبلغ الإضافي الخاص برعاية الطفلة الذي يصل إلى ٦,١٨٨ دولارًا. وكان إبراهيم مستعدًّا لدفع ٣,٢٥٠ دولارًا شهريًّا لرعاية الطفلة، ولكن بالنسبة إلى نفقة كريستين، أكد محاموه أنها «عاشت مع إبراهيم فترة تقل عن الخمس سنوات استمتعت فيها بكل ما تحلم به وبسخاء عائلة إبراهيم. ومما لا شك فيه أنها لن تنال حياة كهذه طوال عمرها». وعليها الآن الخروج للعمل والعثور على وظيفة؛ فقد «نالت ما يكفي من الرعاية والدعم»[١٣].

كان من المقرر أن تُعقد جلسة الطلاق في شهر يونيو/حزيران عام ١٩٩٣م. ومع اقتراب موعدها بدأ الطرفان يتفاوضان أخيرًا. وفي اليوم السادس من شهر يوليو/تموز عام ١٩٩٣م، توصّلا إلى «قرار بالطلاق البائن» الذي خط السطر الأخير في قصة نزاعهما، أو هكذا ظننا.

وافق إبراهيم على دفع ٥٠٠٠ دولار شهريًّا مصروفات رعاية الطفلة إلى جانب ٣٣٥,٠٠٠ دولار دفعة واحدة كتسوية نقدية إلى كريستين، من دون أن يُطلب منه دفع نفقة إضافية أو أتعاب محاماة. وستسمح له المحكمة بالاحتفاظ بسيارته الرولز رويس سيلفر شادو طراز ١٩٧٧م، والرولز رويس كورنيش طراز ١٩٨٣م، والهامر طراز ١٩٩٢م، واللكزس طراز ١٩٩١م، والهوندا سيفيك طراز ١٩٨٤م، والجيب لامبورغيني طراز ١٩٨٧م، والمرسيدس بنز ٥٠٠ أس إي أل طراز ١٩٨٦، والمرسيدس الجيب، إلى جانب الاحتفاظ بالملكية المستقلة لعقاراته في لوس أنجلوس وجدة وحساباته المصرفية ونصيبه في شركة محمد بن لادن. ووافق إبراهيم على قضاء ستة أشهر كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية والاشتراك مع كريستين في رعاية صبا في هذه الفترة.

وافقت كريستين على إلحاق ابنتهما بمدرسة إسلامية وضمان تلقيها

---

(١٣) نفس المصدر السابق: «Declaration of Ibrahim Bin ladin,»

وأيضًا في نفس القضية المشار إليها في نفس المصدر السابق: «Respondent's Memorandum of Points and Authorities For Trial,» January 2.1, 1993.

دروسًا في اللغة العربية. وعندما بلغت السابعة من عمرها، تمكن إبراهيم من اصطحابها إلى المملكة العربية السعودية في زيارات تمتد لشهر واحد، ولاحقًا يمكن أن تطول مدة الإقامة.

بدت تلك التسوية معقولة لكلا الطرفين وإن كانت مكلفة، وسيستمر حكم طلاق إبراهيم وكريستين بن لادن إلى ما تبقى من العقد الأخير من القرن العشرين، حتى وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وانهار معها التجانس ثنائي الثقافات الذي كان الطلاق يرتكز عليه.

الفصل التاسع والعشرون

إقامة جدران المنفى

وضع المستعمرون البريطانيون تصميم شبكة الطرق الهندسية لمدينة بورسودان عام ١٩٠٥م. ويقع مرفأ المدينة أسفل حواجز من الحيد البحري المرجاني شمال الساحل الغربي للبحر الأحمر، في المنتصف، على الجانب الآخر من جدة. وفي تصوّر بريطانيا للقرن القادم، ستزدهر المدينة لأنها ستشهد امتداد خط سكك حديدية عندها يربط بين نهر النيل وأوروبا عن طريق قناة السويس، إلا أن المكان كان بانتظار حدوث طفرة قرب انتهاء القرن العشرين. أطاح اللواء عمر البشير ـ آخر زعيم دكتاتوري للسودان في الفترة التي أعقبت الحكم الاستعماري والجندي الذي شارك في الحرب الضارية ضدّ المسيحيين الأفارقة في جنوب البلاد ـ أطاح برئيس الوزراء المنتخب عام ١٩٨٩م. وعندما عزّز البشير سلطاته، تحالف مع ائتلاف إسلامي تحت قيادة حسن الترابي، الباحث السوداني في الجوانب النظرية للدين والسياسة ـ المعتدّ بنفسه ـ الذي تخرج في جامعة السوربون. وعلى نهج القائمين بالانقلابات، وعدا بإنعاش دولتهما بالاستثمار في مشروعات تشييد البنية التحتية التي ستعود بالخير على «الشعب». وفي العام نفسه الذي تولى البشير فيه الحكم، حصلت شركة خارجية يديرها أبناء بن لادن الكبار على عقد لبناء مطار جديد في مدينة بورسودان حيثما تتدفق الصادرات النفطية المتواضعة للبلد إلى الأسواق الخارجية، على الرغم من أهميتها الاقتصادية. وتعهدت حكومة المملكة العربية السعودية ـ التي كانت تسعى إلى إقامة علاقات متميزة مع الدولة التي تقع على الضفة الأخرى

من البحر الأحمر ـ بتكبد معظم التكلفة التي بلغت ٣٥ مليون دولار[١].

عُهد لقسم المنشآت العامة والمطارات في مجموعة بن لادن السعودية بتنفيذ المشروع، وتولى عمر بن لادن الذي تخرج في جامعة ميامي مسؤولية تنفيذ المشروع. وبحلول عام ١٩٩٢م، بدأ العمل فعليًّا في المطار.

لم يكن عمر الشخص الوحيد في عائلة بن لادن الذي تسنت له فرصة زيارة بورسودان. ففي قرابة الوقت نفسه الذي حصل إخوته على عقد بناء المطار، منح أسامة مبلغ ١٨٠,٠٠٠ دولار إلى جمال الفضل، مساعده السوداني، لشراء مزرعة ملح بالقرب من بورسودان[٢]. وكان هذا أحد المشروعات الاستثمارية الكثيرة في الأراضي والشركات التي اتخذ أسامة قرارًا بأن ينفّذها في السودان. وكان يزور البلد من حين إلى آخر بينما كان يحاول سحب نفسه من حرب أفغانستان. وكان بلدًا ثائرًا نشيطًا صديقًا ومفعمًا بالحياة، ولكن أهله يعيشون في فقر مدقع، يمكن أن يشعر فيه أي شيخ سعودي بأهميته البالغة وتُستغل حساباته بالعملة الصعبة لتحقيق مآرب أخرى. وبعد الضغط الذي مورس عليه في وطنه في المملكة العربية السعودية، حضر أسامة إلى السودان ووجده أفضل من باكستان واليمن بصفته قاعدة للنفي التطوّعي. واتسع صدر حكومة السودان الخاضعة للإسلاميين، ومجتمعها الفقير غير المقيّد بأيّ قواعد ضابطة، لجانبيْ طموح أسامة الذي لا يجد من يكبحه: ارتباطه بحرب العصابات الدولية، ورغبته في تحقيق النجاح بأسلوب آل بن لادن الآخرين شبه المستقلين

---

(١) المعلومات المتعلقة بالعقد الذي أُبرم في عام ١٩٨٩م مستمدة من الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن مشفوعة بقسم بتاريخ ٢٥ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م في تقرير: *In Re Terrorist Attacks on September II, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570.

والمعلومات المتعلقة بسعر العقد ودور صندوق التنمية السعودي الدولي مستقاة من جريدة **عكاظ** بتاريخ ٢٥ يونيو/ حزيران عام ١٩٩٢م.

وتُرجمت هذه المادة إلى الإنكليزية ووُضعت بين ملفات القضية نفسها التي رفعها محامو آل ابن لادن.

(٢) المعلومات مستقاة من الشهادة التي أدلى بها جمال الفضل في قضية: *United States of America v. Usama bin Laden et al.*, United States District Court, Southern District of New York, S 98 Cr. 539, February 6, 2001.

الذين يعيشون في الخارج أمثال يسلم في سويسرا وخالد في مصر.

بعد أن غادر المملكة العربية السعودية عام ١٩٩١م، على الرغم من أنه احتفظ بأسهمه في أكبر شركتين للعائلة، يبدو أن أسامة كان ينظر إلى قيادة بكر لعائلة بن لادن بحنق متراكم. وفي ما يتعلق ببعض قضايا السياسة الخارجية المعاصرة آنذاك - مثل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ومعاناة المدنيين المسلمين في البوسنة والشيشان - ظلت آراء أسامة متوافقة مع الإطار المتعقل التقليدي للمؤسسة السعودية الحاكمة التي كلف أخوه الأكبر نفسه عناء إضفاء الصفة الذاتية عليها وتمثيلها. ومع ذلك كانت أساليب أسامة التكتيكية في التعامل مع هذه الصراعات تتزايد استقلاليتها تدريجيًّا. وفي عام ١٩٩٢م كشفت الحرب في البوسنة عن المعادلة الجديدة بين أسامة وبكر؛ إذ نشب العنف في مرحلة مبكرة في هذا العام في سراييفو، وبثت البرامج الإخبارية المنقولة عبر الأقمار الصناعية إلى الشرق الأوسط صورًا شنيعة لمعاناة المدنيين المسلمين. وفي شهر يوليو/تموز، حضر بكر حفل عشاء أنيق لجمع التبرعات في قاعة «ليلتي» في جدة المجهزة لإقامة حفلات الزفاف بالقرب من البحر الأحمر. واشتملت قائمة الضيوف في تلك الليلة على وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل. وذكرت التقارير المنشورة في الصحف السعودية آنذاك أن المتبرعين، بمن فيهم بكر، ساهموا بقرابة ٥ ملايين دولار لمصلحة قضية البوسنة ونُقل المبلغ عن طريق الجمعيات الخيرية الإسلامية الدولية. وتحركت مشاعر أسامة لدى مشاهدته الصور التلفزيونية المفزعة خلال فصل الربيع من العام، إلا أن رد فعله جاء مختلفًا؛ إذ أرسل من السودان فريقًا من الجنود الأفغان للاشتراك في الحرب الدائرة ضدّ كاثوليكيي كرواتيا المهاجمين. وكتب أسامة لاحقًا بإيضاح شديد أن «تبرعات الجمعيات الخيرية لا ترقى للمستوى المطلوب... والبوسنة في حاجة إلى الرجال والأسلحة»[٣].

---

(٣) المعلومات المتعلقة بجمع التبرعات للبوسنة مستقاة من: *Arab News, July* 6, 1992.

وتستند المعلومات المتعلقة بجماعة أسامة التي أُرسلت إلى البوسنة إلى مقابلة أُجريت مع ناصر البحري في صحيفة «القدس العربي» بتاريخ ٢٤ مارس/آذار عام ٢٠٠٥م. وراجع أيضًا: Harmony AFGP 2.002-0032.14-Statement 18, «Tragedy of Bosnia and Deceit of Saudi Arabia,» August 11, 1995.

بدا زهو أسامة بطموحاته العسكرية يتزايد خاصةً إذا ما قورنت بمهام السياسة الخارجية المريحة التي يؤدّيها إخوته في ظلّ سيطرة نظام الحكم السعودي عليهم. ويتذكر أحد موظفي شركات بن لادن الذي ساعد أسامة خلال الفترة التي قضاها مناهضًا للاتحاد السوفياتي في أفغانستان مقابلته في موقع بناء مطار بورسودان حيثما كان الموظف يشرف على معسكرات العمل لشركة بن لادن، وبدا أسامة محبطًا وفقًا لما ورد عن هذا الموظف؛ إذ قال له: «إنني أحارب ها هنا وأنت تبني مطارًا»[٤].

كان من الطبيعي أن يزور أسامة موقع المطار ـ حيث إنه أحد حاملي الأسهم في مجموعة بن لادن السعودية رغم أي شيء وهي المجموعة التي عُهد إليها تنفيذ العقد ـ ولكن لا يُعرف هل شارك في هذا المشروع الذي تكلف عدة ملايين من الدولارات إلى حدّ أبعد من ذلك أو حصل على أرباح منه. وفي الفترة ما بين أواخر عام ١٩٩١م ومنتصف عام ١٩٩٢م، اتخذ أسامة قرارًا بأن ينتقل مع زوجاته الأربعة وأطفاله الذين يتزايد عددهم باستمرار للإقامة الدائمة في عاصمة السودان، الخرطوم، التي تقع جنوب غربي بورسودان بقرابة سبعمئة. وأسس عددًا من الشركات الجديدة في المدينة تحت مسميات مثل شركة بن لادن الدولية والهجرة للتعمير؛ مشيرًا إلى هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة. وهذه جرأة منه في استخدامه هذا الاسم إشارة لنفسه، إلا أنه أظهر شعور أسامة المتزايد بالاستقامة والاضطهاد، وهي صورة ذاتية رسمت ملامحهما جزئيًا تجاربه مع معلميه الأولين؛ مدرس التربية البدنية المنفي الذي لقنه المبادئ الحزبية، إلى جانب عبد الله عزّام الفلسطيني الذي كان يتولى عمليات التنظيم وكان يتنقل من مكان إلى آخر. وبينما كان أسامة في ذلك الحين يعد نفسه من جديد، ربما يكون قد استورد معدات بناء كان قد احتفظ بها في باكستان. واشتملت مشروعاته الأولى في السودان على بناء بعض الطرق، طبقًا لما ذكره الفضل، خاصةً الطريق الذي بلغ طوله ثلاثة

---

(٤) المعلومات مستمدة من مقابلة أُجريت مع موظف عمل لدى بن لادن طلب عدم الكشف عن هويته.

(٥) المعلومات مستقاة من شهادة خالد الفضل التي أدلى بها بتاريخ ٦ فبراير/ شباط عام ٢٠٠٢م في المرجع السابق نفسه.

وثمانين ميلًا جنوب غرب السودان بالقرب من الحدود مع إثيوبيا[٥].

ورد عن مصادر عديدة أيضًا ـ ليس من بينها الفضل ـ أن أسامة ساهم في مشروع بناء مطار بورسودان. وقال ريتشارد كلارك ـ الذي كان يشرف على برامج مكافحة الإرهاب في عهد كلينتون ـ إن من بين مشروعات بن لادن الأولى في السودان بناء «مطار جديد»، وقال كلارك عن هذه المشروعات إنها نُفذت في صورة «مشروع مشترك» بالتعاون مع الترابي؛ القائد الإسلامي. وقد نُقل عن زوجة الترابي قولها إن أسامة «شيّد مطار بورسودان». ومع ذلك أقسم عمر بن لادن في شهادة خطية أن أسامة «على حدّ علمي لم يكن له أي دور في تنفيذ مشروع بناء مطار بورسودان». إضافة إلى ذلك، أنكر عمر أن شركات عائلة بن لادن الكبرى شاركت في مشروعات تشييد مشتركة من أي نوع مع أسامة أو «مع أي شركات أخرى يتولى أسامة إدارتها» في أثناء فترة إقامته في السودان خلال التسعينيات[٦].

انتهى العمل تقريبًا في مطار بورسودان بحلول شهر يونيو/حزيران عام ١٩٩٢م. وفي هذا الشهر ترأس محمد بن عبد الله الصقير، رئيس صندوق التنمية السعودي، وفدًا رسميًّا كان من بينه صحافيون لحضور الاحتفال الرسمي بقص الشريط. واعتلى عمر بن لادن، ذو الوجه المستدير والشارب المحفوف بأناقة، المنصة وكان يرتدي حينها شماغًا مزخرفًا بنقوش مربعة، وذكر أرقامًا عن حجم المطار الجديد والمرافق التابعة له. وقال عمر: «اكتمل هذا المشروع بمشيئة الله عز وجل وفقًا للمعايير والمواصفات الدولية... إننا في غاية السعادة بأننا شاركنا في هذا الاحتفال لافتتاح هذا الصرح الحضاري الكبير ونسأل الله أن يبارك لنا في هذا المشروع وفي كل من شارك فيه»[٧].

ورد في تحقيق نُشر في جريدة «القدس العربي» التي تتخذ لندن مقرًّا

---

(٦) راجع: Clarke, *Against All Enemies*, p. 136.

وراجع أيضًا: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, pp. 122-123.

والمعلومات مستقاة أيضًا من الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن مشفوعة بقسم في المصدر السابق نفسه.

(٧) المعلومات مستمدة من مقال نُشر في جريدة **عكاظ** بتاريخ ٢٥ يونيو/حزيران عام ١٩٩٢م.

لها، بعد قرابة عشر سنوات من هذا المشروع، أن أسامة كان «ضيف شرف» في هذا الاحتفال وأنه جلس في الصف الأول. بينما أنكر عمر بن لادن ذلك وكتب في شهادة خطية بعد أن أقسم: «على حدّ ما أتذكر، لم يكن أسامة من بين الحضور». ولم يذكر عمر في التقارير التي نُشرت في صحف سعودية معاصرة وجود أسامة في الحدث على الإطلاق: «لم أر أسامة ولم أقابله في هذه الرحلة، أو في أي رحلة أخرى قمت بها إلى السودان»(٨).

أما بكر بن لادن، فقد قابل أسامة بالفعل في الخرطوم عام ١٩٩٢م. وسافر إلى هناك «بصحبة أفراد آخرين في العائلة» وفقًا لما ورد عن أحد محامي العائلة «لمطالبة أسامة بالعودة إلى بلده وإجراء مصالحة مع الحكومة السعودية والتخلي عن مسار المعارضة السياسية الذي انتهجه والخروج من البلد اختياريًّا والابتعاد عن العائلة التي يبدو منتميًا إليها». كانت تلك هي المقابلة الأخيرة بينه وبين أسامة كما قال بكر. وواصل أشخاص آخرون في العائلة إلى جانب مبعوثيهم زيارة أسامة محاولين إثناءه عن قراره والعودة إلى الوطن في ما يبدو. وكان هناك «زهاء تسع» محاولات كما ورد عن أسامة، ويبدو أنها استمرت على الأقل حتى عام ١٩٩٤م. على سبيل المثال، يتذكر طارق، الأخ غير الشقيق لأسامة، زيارته إلى الخرطوم في «أواخر عام ١٩٩٢م أو بداية عام ١٩٩٣م». ويذكر أن الهدف من هذه الزيارة كان محاولة «إقناع أسامة بالتوقف عن الانتقادات التي يوجهها إلى الحكومة والعودة إلى المملكة العربية السعودية». ولم تستغرق هذه الزيارة وقتًا طويلً؛، إذ قال أسامة إنه «سعيد في السودان ولا يريد العودة إلى المملكة العربية السعودية وذلك لتركيزه على تأسيس شركاته في السودان». وذكر طارق لاحقًا أمام إحدى المحاكم الأمريكية أنه كان يعتقد أن أسامة كان يساهم في مشروعات لا تخرج عن الإطار القانوني. «ولم ير طارق أو يسمع أي شيء خلال الزيارة يشير إلى أن (أسامة) كان متورطًا في أنشطة

(٨) المعلومات المتعلقة بالإشارة إلى أسامة بأنه كان «ضيف شرف» مستقاة من الجزء الأول من سلسلة التقارير الخاصة بحياة أسامة بن لادن في السودان التي نشرتها صحيفة «القدس العربي» بتاريخ ٢٤ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠١م. والمعلومات مستمدة أيضًا من الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن مشفوعة بقسم في المرجع السابق نفسه.

إرهابية أو أعمال عنف من أي نوع. وكذا لم يعبّر عن عدائه للولايات المتحدة الأمريكية»[٩].

ورد عن أحمد باديب الذي أصبح رئيس طاقم الرئاسة لرئيس الاستخبارات السعودية الأمير تركي أن هذه البعثات إلى الخرطوم بدأت عندما «تبين لنا أن لأسامة يدًا بطريقة أو بأخرى في بعض هذه الأعمال مثل العمليات الإرهابية في مصر وليبيا». واستطرد قائلًا إن «الملك أصدر أمرًا باستدعاء أسامة بن لادن إلى المملكة. وطُلب منه العودة حتى يناقش بعض النقاط التي تحتاج إلى مناقشة، وبعض النقاط التي أضرت بالمصالح العليا للمملكة، إلا أنه رفض العودة. وأُرسلت له عدة رسائل وحدث تواصل مع عائلته، إلا أنه كان يرفض العودة بتاتًا»[١٠].

أصدر الملك فهد أمرًا إلى بكر بأن يذهب لزيارة أسامة وإقناعه بالعودة إلى الوطن للتشاور، كما ورد عن اثنين من الأشخاص الذين ناقشوا هذا الأمر مع بكر، لكنه وجد أسامة عنيدًا ومتعجرفًا. وفي ما رواه أسامة شخصيًّا عن ذلك، أكد أنه لا يلقي باللائمة على أي من أقاربه لتوسلهم إليه حتى يرجع؛ فهو يعتبرهم ضحايا الضغط الذي مارسه عليهم الملك فهد، كما كان يعتقد أن اعتماد عائلته على آل سعود للحصول على عقود المقاولات جعلتهم عرضة لابتزاز الحكومة السعودية. وقال أسامة: «اعتذرت لإخوتي ومندوبيهم بأسلوب لائق لأنني أعرف أنهم أُجبروا على القدوم للتحدث معي. إن هذا النظام يريد أن يختلق

(٩) المعلومات المتعلقة بالمقابلة التي جرت بين بكر وأسامة في عام ١٩٩٢م مستقاة من الشهادة الخطية التي كتبها بكر بن لادن مشفوعة بقسم بتاريخ ٢٥ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م، راجع تقرير: *In Re Terrorist Attacks*, op. cit.

والمعلومات الخاصة بسفر بكر بن لادن إلى الخرطوم «بصحبة أفراد آخرين في العائلة» مستمدة من خطاب أرسله تيموثي جيه فين Timothy J. Finn إلى المؤلف بتاريخ ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٧م، واعتمد المؤلف أيضًا على المرجع الآتي في الحصول عليها: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, p. 55.

واستند أيضًا المؤلف إلى الشهادة الخطية التي أدلى بها طارق بن لادن مشفوعة بقسم بتاريخ ٢٥ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م والواردة في تقرير: *In Re Terrorist Attacks*.

(١٠) المعلومات مستندة إلى مقابلة بين باديب وتلفزيون أوربت قرابة أواخر عام ٢٠٠١م، وقد أعطى باديب شريط الفيديو الذي صُورت عليه الحلقة إلى المؤلف وترجمته إلى الإنكليزية مؤسسة «The Language Doctors, Inc».

المشكلات بيني وبين إخوتي حتى يتخذ بعض الإجراءات ضدهم»[١١].

أمعن بعضهم داخل نطاق عائلة بن لادن وخارجه التفكير في ما إذا كان بكر ندًّا لأسامة. كان يبدو أن بكرًا لا يتمتع بأي حضور خارج حدود الكيان الذي يسيطر عليه، وورد عن شخص على علاقة وثيقة به إنه يبدو كالصبي الهامشي الذي يقع عليه الاختيار غالبًا في آخر الأمر للمشاركة في الألعاب الجماعية. وعندما تفاقمت مشكلة أسامة في أوساط العائلة خلال عام ١٩٩٢م وبداية عام ١٩٩٣م، فكر بعض من كانوا يكنّون قدرًا من الاحترام والتقدير لبكر في الطريقة المختلفة التي ربما كان سالم سيتبعها للتعامل مع هذه الأمور. كان سالم كالعاصفة العنيفة، وكان على اتصال دائم بالآخرين ولافتًا للنظر ومن الصعوبة بمكان إيقافه عن تحقيق هدفه. ولو كان لا يزال على قيد الحياة لتولى هذه البعثات المبكرة إلى الخرطوم، وربما أعاد أسامة إلى المملكة في حجرة الشحن في إحدى الطائرات النفاثة وسط أمتعة سالم الممتلئة بالملابس الأنيقة، لكنّ سالمًا مات ويبدو أن أسامة استغل الفراغ الذي أحدثه موته.

يبدو أن أسامة كان يستمتع بالاهتمام المقترن بتوسل عائلته إليه للعودة. ويتذكر صديقه جمال خاشقجي الذي زاره في السودان مرات عديدة أن أسامة «لم يكن على علاقة بأحد في السودان». وكان محاطًا بحراسه ومعاونيه وموظفيه والمحاربين المتطوّعين في أثناء انتقالاته في الخرطوم، وتنوعت جنسيات مرافقيه والوظائف التي يشغلونها، إلا أنهم جميعًا كانوا يعتمدون على أمواله ورعايته. وكان يتنقل بين مكاتب فخمة في شارع كينغ ليوبارد ومجمع للسكن والعمل في مدينة الرياض الأنيقة. وكان يحضر سباقات الخيول وكان يضع خيوله في إسطبلات في المزارع التابعة له. وكان أكبر مشروعاته هناك قطعة أرض زراعية هائلة المساحة في الجزء الجنوبي الغربي منحته إياها الحكومة السودانية، وكان العمال السودانيون الموسميون الذين يعملون لديه يحصدون الزيوت والبذور من نباتات دوار

---

(١١) هذه المعلومات مستقاة من مقابلات أجريت مع شخصين طلبا عدم الكشف عن هويتهما. واستند المؤلف إلى المرجع الآتي في ما يتعلق باعتذار أسامة لإخوته: *Messages to the; World*, op. cit., p. 55.

الشمس، وكان أسامة يعرض زهوره الضخمة مفتخرًا كأنه بستانيٌّ متمرس. وكان يلقي بمبالغ مالية ضخمة في مشروعات سودانية جديدة ومشكوك في جدواها الاقتصادية. وفي عام ١٩٩٢م وبداية عام ١٩٩٣م، كان لديه مبالغ نقدية مهولة تكفيه لفعل أي شيء يريد ـ إذ أنفق ٤٨٠,٠٠٠ دولار على شراء طائرة مستعملة من الولايات المتحدة الأمريكية وتجديدها، إلى جانب الوفاء بتسديد رواتب عدة مئات من المجاهدين العرب الذين تدفقوا من باكستان، إلى جانب دفع رواتب عدة مئات من العمال السودانيين الذين يعملون في مزرعة دوار الشمس التابعة له. وبدا أن الغرور بدأ يتسرب إلى أسامة خلال هذه الفترة حتى شعر أن باستطاعته الحصول على كل شيء في السودان ـ من أزواج وأطفال وشركات وبساتين ومزارع خيول وأوقات فراغ وعبادة خاشعة وجهاد ـ كل هذا مدعومًا بالتوقير والسمعة والشهرة الملائمة لشيخ مميز. ولم يبد أنه استوعب أن مشروعاته، خاصةً في دعمه للعنف ضدّ الحكومات الصديقة لآل سعود أو المعتمدة عليها، لا تتوافق البتة مع مصالح عائلته في جدة، بل ربما بدا غافلًا عن الانشقاقات التي تحدث حوله. وعندما زاره جمال خاشقجي، تحدث أسامة باستفاضة عن رغبته في تقديم حافز استثماري يمكن أن يجذب الشركات السعودية الشهيرة إلى السودان للارتقاء بهذا البلد المهم الجديد المعتمد على الإسلاميين.

تساءل خاشقجي: «ألا تدرك يا أسامة أن هناك جهات تخشى على مصالحها من التعامل معك؟» لم ينبس أسامة ببنت شفة، ويتذكر خاشقجي أنه ابتسم فحسب «كأنه سعيد بأهميته البالغة»[١٢].

في السادس والعشرين من شهر فبراير/شباط عام ١٩٩٣م، انفجرت سيارة مفخخة في مرآب أحد المتنزهات في مركز التجارة العالمي في نيويورك، أسفرت عن مقتل ستة أفراد وجرح ما يزيد عن ألف شخص. وسريعًا ما حدد المحققّون هوية المشتبه به، وهو رمزي يوسف الباكستاني الذي نشأ وترعرع في الكويت وتعلم في ويلز وتدرب في معسكرات

---

(١٢) المعلومات مستندة إلى مقابلة أُجريت مع جمال خاشقجي بتاريخ ١٧ مارس/ آذار عام ٢٠٠٦م. وعن نشاط أسامة في السودان، استند المؤلف إلى شهادة أدلى بها الفضل ووردت في المصدر السابق نفسه، وهناك شهادات أخرى وردت في: *The Osama Bin Laden I Know*, op. cit., pp. 126-32.

أفغانستان، بأنه قائد المؤامرة. وعلى الرغم من أن أحدًا لم يذكر أن أسامة بن لادن هو الراعي المباشر ليوسف، حينئذٍ أو لاحقًا، على مدار التغطية الإعلامية الواسعة لحركة الجهاد العابرة للحدود التي أعقبت الهجوم الأول على مركز التجارة العالمي، فإن بعض الصحفيين والمعلقين لم يتنبهوا إلى وجود أسامة في السودان، ولكنّهم علقوا على المنح المالية التي قيل إنه يوزعها على المحاربين المتطوّعين متعددي الجنسيات. ومن ناحية العائلة المالكة السعودية، أدّى هذا الاهتمام إلى تحويل أسامة للمرة الأولى من مشكلة داخلية محدودة إلى مشكلة عامة(١٣).

بعد تفجير السيارة في نيويورك بأقل من ثلاثة أشهر، وفي الثالث من شهر مايو/أيار عام ١٩٩٣م في الرياض، أعلن محمد المسعري أستاذ الفيزياء وسعد الفقيه الطبيب تشكيل لجنة للدفاع عن الحقوق الشرعية، وهي مؤسسة تسعى لإجراء إصلاحات في النظام السياسي السعودي. وكان كل من المسعري والفقيه إسلاميين؛ إذ كان لجماعة الإخوان المسلمين تأثير في الفقيه بصفة خاصة حيث إنه ينتمي إلى عائلة سعودية معروفة من الأطباء ممن كانت لهم علاقات مع العائلة المالكة. ومن جانبه، أظهر المسعري براعة غير عادية بصفته المتحدّث الإعلامي ومسؤول الأمور التنظيمية، في الوقت الذي كانت أطباق الأقمار الصناعية وآلات الفاكس غير المرخصة تنتشر في المنازل السعودية. وكان الرجلان مشتركيْن في حملات تقديم الالتماسات السياسية وتوزيع الخطب السرية بعد حرب الخليج. وبعد عاميْن من التنظيم، قال الفقيه لاحقًا إن «كل شيء بدا في

---

(١٣) المعلومات مستقاة من مقال نشرته صحيفة «واشنطن بوست» بتاريخ ٣ أغسطس/ آب عام ١٩٩٣م بعنوان: «Global Network Provides Money, Haven,» by Steve Coll and Steve LeVine.

واستنادًا إلى زيارة ليفين إلى الخرطوم حيثما فشل في إجراء مقابلة مع بن لادن في داره، ورد في المقال الآتي: «يعيش أسامة بن لادن الآن في منفاه ويقطن في حي أنيق في الخرطوم بالسودان. وطبقًا لما ذكره بعض رجال الأعمال السودانيين وبعض المسؤولين والدبلوماسيين، كان أسامة ينفذ مشاريع مختلفة متمثلة في رصف الطرق وبناء المطارات للحكومة السودانية الجديدة التي تتبع النظام الإسلامي الراديكالي في نظام الحكم، إلى جانب تمويل بيت للضيافة وقد أُنفق عليه بسخاء لاستضافة الزائرين من العرب الذين لديهم خبرة سياسية بالصراع الأفغاني. أضف إلى ذلك أن أسامة كان يلقي المحاضرات من حين إلى آخر عن الإسلام الثوري.» وأشارت هذه الرواية إشارة خاصة إلى كراهية الحكومة المصرية لأسامة بن لادن والراديكاليين الذين آواهم في السودان.

مكانه الصحيح: الخطباء المؤثرون وآلاف الأتباع المتحمسين والشعب المتدين. وما نفتقره هو المؤسسة المؤثرة التي تبلور هذه الطاقات وتفرض تحديات جادة أمام النظام الحاكم». وأعد الرجلان العدة لافتتاح مؤسستهما رسميًّا. وعقد المسعري لقاءات مع دبلوماسيين في السفارة الأمريكية وطلب دعمهم. وغطت محطة بي بي سي التلفزيونية والإذاعية وكذلك محطة صوت أمريكا الإذاعية وغيرها من المحطات الإعلامية العالمية الأخرى الانطلاقة الأولى للمؤسسة[١٤].

قاوم الملك فهد إنشاء هذه المؤسسة بحزم وشدة، وربما كان يدرك أنه سمح لهذه التيارات المنشقة بالاندفاع إلى ما هو أبعد من المسموح لهم. وفي الثاني عشر من شهر مايو/أيار، شجبت هيئة كبار العلماء في المملكة، التي تعد أكبر هيئة لعلماء الدين، المصلحين المدّعين معلنة بصورة رسمية وحادة أنهم ينتهكون بهذه الأفعال أصول الشريعة الإسلامية. وألقت الشرطة القبض على المسعري والفقيه وأتباعهما المعروفين. وتبع ذلك هجمة واسعة النطاق على المنشقين الإسلاميين.

كان أسامة حينئذٍ هدفًا للسلطات السعودية، والسبب وراء ذلك ليس واضحًا تمامًا. ولم يُعرف أنه وقع على أي وثائق مهمة من أي نوع تمتّ بصلة إلى الجماعة المنشقة التي يتزعمها الفقيه والتي شكلت خطرًا شديد الوضوح على النظام الحاكم السعودي. وربما يكون أسامة قد ألقى خطبًا مسجلة على شرائط أو خطبًا سرية يشجب فيها آل سعود خلال هذه الفترة، وقد تكون وزارة الداخلية قد كشفت أمرها. وذكر خالد الفواز الذي كان يعمل لدى أسامة لاحقًا كمتحدث رسمي عنه في لندن بعزة وتفاخر «لقد كنا نعمل بشكل سري»[١٥]. ومن الجائز أيضًا أن تكون الحكومة السعودية قد قررت إدراج قضية أسامة في إجراءاتها الصارمة الأوسع نطاقًا التي اتخذتها لمنع الانشقاقات السياسية بسبب ملفه الدولي في السودان وبسبب فشل المجهودات السابقة للحكومة في إعادته إلى طريقها من خلال بكر وقنوات التحاور العائلية الأخرى.

---

(١٤) راجع: Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent;* p. 119.

(١٥) المصدر السابق ص ١٨١.

وفي السادس عشر من شهر يونيو/حزيران عام ١٩٩٣م، في جدة، أخذ بكر على عاتقه مسؤولية إقامة دعوى قضائية داخل عائلة بن لادن لحرمان أسامة من صفته كحامل أسهم في شركة محمد بن لادن إلى جانب مجموعة بن لادن السعودية. وفي شهادة خطية أدلى بها لاحقًا بعد قسم اليمين، ألمح بكر إلى أن العائلة قامت بهذه المبادرة، إلا أنه من المحتمل أن يكون من الأسباب الجوهرية وراء هذه المبادرة الضغط الممارس على أفراد العائلة من الحكومة السعودية. وأوضح بكر أنه قام بهذا «لأن انتقادات أسامة الصريحة المتزايدة للحكومة السعودية كانت تسيء إلى سمعة الشركات وتضر بمصالحها في المملكة وفي كل مكان في الشرق الأوسط، ولأن أسامة رفض الاستجابة إلى مطالب الحكومة السعودية بعودته إلى المملكة»[١٦].

«بسم الله الرحمن الرحيم» هكذا افتُتح نص القرار الرسمي المُتخذ لبيان «تجريد أحد حاملي الأسهم من أسهمه». وتشير الوثيقة إلى أن العائلة تفاوضت مع أسامة قبل الإقدام على هذا الفعل. على سبيل المثال، وكّل أسامة «محاميًا قانونيًا» من جدة يُدعى محمد سالم اليافعي لتمثيله. إضافة إلى أنه أوصى بتحويل كل أسهمه إلى غالب بن لادن، الأخ الأصغر الشقيق لكل من بكر وسالم. وكان غالب هو أخاه الذي زار بيشاور وباكستان خلال شهر رمضان عام ١٩٨٩م، في الوقت الذي كان أسامة يحارب في معركة جلال آباد. وهناك دليلٌ على أن غالبًا حصل على فائدة في المؤسسات المالية الإسلامية في الوقت الذي وافق فيه على قبول أسهم أسامة المسلوبة منه؛ ففي أواخر عام ١٩٩٣م حوّل غالب مليون دولار إلى حساب استثماري جديد في بنك التقوى في جزر الباهاما، وهو بنك خارجي تأسس عام ١٩٨٨م بدعم من جماعة الإخوان المسلمين المصرية. وكان بنك التقوى يموّل جماعة حماس في إسرائيل والجماعات المتطرفة الأخرى المتأثرة بالإخوان في الجزائر وتونس، حسبما ذُكر في تقييم قدّمته وزارة الخزانة الأمريكية. وعلى الرغم من عدم وجود معلومات عن قدر مشاركة بكر بن لادن في استثمارات بنك التقوى، فإن بكرًا كان يتمتع بسلطة التوقيع

(١٦) تستند هذه المعلومات إلى شهادة خطية كتبها بكر بن لادن مشفوعة بقَسم وهي واردة في المصدر السابق نفسه.

على حسابات غالب التي ظلت ناشطة حتى أواخر التسعينيات على الأقل، طبقًا لما جاء في وثائق مصرفية محفوظة في محكمة أمريكية. وحاول غالب لاحقًا سحب استثماراته من بنك التقوى وأقام دعوى قضائية ضدّ البنك. ومن خلال محامي العائلة، ذكر غالب أنه لم يقدّم أي دعم مالي أو مساندة من أي نوع لمساندة الأنشطة الإرهابية[١٧].

أدّت القرارات المتّخذة بشأن حرمان أسامة من صفته كحامل للأسهم في شهر يونيو/حزيران عام ١٩٩٣م إلى شن سلسلة من الإجراءات التي استمرت حتى نهاية العام وأفضت إلى تحويل ملكية أصول أسامة نهائيًّا. وذكر أحد محامي العائلة أن الهدف من ذلك كان يتمثل في «حرمان أسامة من الحصول على أي أموال مصدرها الفوائد التي تخصه في الشركات التي تملكها العائلة». كما إن بكرًا وغيره من حاملي الأسهم في العائلة كانوا «يعارضون بشدة تقديم أي دعم مالي مباشر أو غير مباشر إليه من شركات العائلة». وشعر طارق بن لادن، الذي كان يشغل منصب مدير شركة محمد بن لادن الكبرى للإنشاءات، أن «انتقادات أسامة الصريحة للحكومة السعودية كانت تسيء إلى سمعة مجموعة شركات بن لادن في الشرق الأوسط». إضافة إلى ذلك، دارت مشاورات خلال هذه الفترة بين العائلة ووزارة التجارة السعودية. ويبدو أن التقدم الذي أحرزته هذه المشاورات أدّى إلى إرسال وفود عائلية لزيارة الخرطوم ومناشدة أسامة إعادة النظر في موقفه، وكانت والدته من بين الموفدين إليه. وقابله على الأقل أخ واحد أصغر منه، كما ورد عن جمال خاشقجي الذي كان موجودًا في السودان خلال هذه الزيارة تحديدًا. (وقال خاشقجي إنها كانت محادثة «بين أخ وأخيه» ولم يتدخل فيها.) وكان أعلى زواره مقامًا وأكثرهم هيبةً خلال هذه الفترة عبد الله بن عوض بن لادن، عم أسامة الذي ساهم مع أبيه في صناعة

---

(١٧) المعلومات المتعلقة بتحويل غالب مليون دولار إلى حساب استثماري جديد في بنك التقوى، وكل الاقتباسات الأخرى مستقاة من الوثائق المشار إليها في تقرير: *In Re Terrorist Attacks*, op. cit.

وللمزيد من المعلومات حول زيارة غالب في عام ١٩٨٩م، راجع الفصل الرابع والعشرين. والمعلومات الخاصة بتقييم وزارة الخزانة الأمريكية مستندة إلى خطاب أرسله نائب المستشار العام للوزارة جورج بي ولف George B. Wolfe إلى كلود نيكاتي Claude Nicati بمكتب النائب العام بتاريخ ٤ يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٢م.

أسطورة بن لادن، الذي كان في ذلك الوقت يناهز الثمانين عامًا. ربما كان بكر زعيم عائلة بن لادن في جميع الشؤون العملية والمالية، إلا أن عبد الله، الأكبر سنًّا من الإخوة الكبار في العائلة، كان القائد الروحاني والأخلاقي. وكي يسافر رجل طاعن في السن إلى الخرطوم ذات الظروف القاسية لطلب شيء من أسامة، فإن ذلك يشير إلى جدية الموقف وخطورته، إلا أن أسامة كان مستعدًّا لهذا الموقف العصيب، ووصف ذلك لاحقًا بقوله: «بفضل الله وحده لم يحقق هذا النظام الحاكم أمنيته، ورفضت العودة إلى المملكة»[١٨].

حذره أقاربه من «أن عدم العودة إلى الديار سيؤدي إلى تجميد كل أصولي وحرماني من جنسيتي وجواز سفري وهويتي السعودية، كما إنه ليس من المستبعد أن يشوهوا صورتي في وسائل الإعلام السعودية والأجنبية. إنهم يظنون أن المسلم قد يُساوَم على دينه، ولذا قلت لهم: «افعلوا ما يحلو لكم»»[١٩].

بيعت أسهم أسامة في شركة محمد بن لادن إلى جانب مجموعة بن لادن السعودية في صفقة خُطط لئلا يحصل أسامة منها على أي أرباح، ولكن بطريقة تحمي حقوق ورثته بموجب الشريعة الإسلامية. وتحددت القيمة الإجمالية لأسهم أسامة بـ ٩,٩ ملايين دولار تقريبًا، وهو مبلغ صغير جدًّا إلا أنه يصعب تقييمه باعتباره مؤشرًا للقيمة السوقية لشركات بن لادن بسبب عدم معرفة التقديرات الأساسية المستخدمة لتحديد السعر. ومع ذلك يشير سعر الشراء بالأرقام الكاملة إلى تقييم إجمالي يبلغ قرابة ٥٠٠ مليون دولار لشركتي بن لادن الرئيسيتين. وبعد إجراء مشاورات مع الحكومة السعودية، وُضعت حصيلة بيع أسهم أسامة في وقف خاص وجُمدت في النهاية تحت إشراف المحكمة. ووفقًا لما ذكره عبد العزيز القاسم المحامي السعودي الذي سُجن خلال التسعينيات بسبب نشاطه السياسي الإسلامي،

---

(١٨) المعلومات مستندة إلى الخطاب الذي أرسله تيموثي جيه فين إلى المؤلف والوارد في المصدر السابق نفسه، وعلى شهادة خطية كتبها طارق بن لادن مشفوعة بقسم وواردة في المرجع السابق. وبخصوص المحادثة التي دارت «بين أخ وأخيه»، استند المؤلف إلى مقابلة أُجريت مع خاشقجي ووردت في المصدر السابق نفسه. وبخصوص قول أسامة: «بفضل الله وحده لم يحقق هذا النظام الحاكم أمنيته، ورفضت العودة إلى المملكة»، استند المؤلف إلى: *Messages to the World*, op. cit., p. 55.

(١٩) المعلومات مستندة إلى: *Messages to the World*, ibid.

أصدر قاضٍ سعودي حكمًا يمكن الحكومة السعودية بموجبه «أن تأخذ هذا المال وتستحوذ عليه» إلا أنه يتوجب عليها ألا تسمح بتوزيعه «على الأقارب الآخرين». وبموجب الشريعة الإسلامية، قال القاسم إن المال يجب أن يخضع للحماية لاحتمالية تصالح أسامة مع حكومة المملكة لاحقًا أو للاحتفاظ به لورثته بعد وفاته. إلا أن عددًا من جوانب تجريد أسامة من الأسهم ظلّت غامضة. على سبيل المثال، ليس من المؤكد هل دفع غالب نقدًا مقابل الحصول على أسهم أسامة، وإن حدث ذلك، من أين حصل على المال الذي دفعه؟ هل هناك حساب مصرفي في المملكة العربية السعودية فيه ٩,٩ ملايين دولار كوديعة منذ تاريخ ذلك البيع؟ كيف تتأكد المحاكم السعودية من سيطرتها على حساب مصرفي كهذا إن كان موجودًا في الأساس؟ وإن لم يشتمل البيع على أي مدفوعات نقدية، بل كان في صورة ائتمان من أي نوع، فكيف تمّ التعامل مع ذلك؟ ومن يتتبع مسار العائدات منذ ذلك الحين؟ نادرًا ما قدمت عائلة بن لادن توضيحات بخصوص هذه التفاصيل. وعلى أي حال، فإن أسامة جُرد من كل مستحقاته من الأرباح والقروض كما ورد عن بكر بن لادن، الذي كتب في شهادة خطية لاحقة أن «أسامة لم يحصل على مليم واحد» من أي من شركات بن لادن «منذ شهر يونيو/ حزيران على أقصى تقدير». إضافة إلى ذلك، استطرد قائلًا: «لم أسمح لأي شخص وفي الواقع حرّمت على كل» العاملين باسم أي من شركات بن لادن «أن يُخرج أي مستحقات لأسامة أو يجري أي أنشطة معه أو حتى يقدم أي دعم مباشر أو غير مباشر إليه أو إلى أي من شركاته منذ شهر يونيو/ حزيران عام ١٩٩٣م»[٢٠].

في شهر فبراير/ شباط عام ١٩٩٤م، تبرأت عائلة بن لادن علنًا ـ وللمرة

(٢٠) المعلومات مستندة إلى مقابلة أُجريت مع عبد العزيز القاسم بتاريخ ٨ فبراير/ شباط عام ٢٠٠٥م. وصرح القاسم بأنه في أثناء عمله كمحامٍ رأى «مستندات قانونية مصنفة على أنها سرية للغاية وكانت تصف كل ذلك». واستند المؤلف إلى شهادة خطية كتبها بكر بن لادن مشفوعة بقسم في ما ذكر عن مبلغ الـ ٩,٩ مليون دولار وكل ما جاء على لسان بكر، وكل ذلك وارد في المرجع السابق نفسه. وإذا افترضنا صحة ما تشير إليه مستندات المحكمة، بأن أسامة كان يمتلك حصة في كلتا الشركتين الرئيسيتين للعائلة تبلغ ٢ في المئة، وإذا افترضنا أيضًا أن مبلغ العشرة ملايين دولار الذي يمثل الحصة التي يملكها قد عكس القيمة الكاملة، فإن ذلك يعني أن القيمة السوقية الكاملة لشركات بن لادن في عام ١٩٩٤م بلغت ٥٠٠ مليون دولار على نحو تقريبي.

الأولى ـ من أسامة في بيان صحفي. وأصدر بكر بيانًا مختصرًا نُشر في إحدى الصحف السعودية تحت عنوان «بكر بن لادن: كل العائلة تدين أفعال أسامة بن لادن». وأشار البيان إلى «التقارير الإعلامية» المنشورة عن أسامة، ثم أورد جملتين ذكرهما بكر «لتوضيح موقف عائلته تجاهه». وقال فيهما:

إن كل أفراد العائلة التي يتعدى عددها الخمسين شخصًا، وأنا شخصيًّا من بينهم، يعبرون عن إدانتهم وشجبهم الشديد لكل أفعال أسامة التي لا نقبلها ولا نقرها. وكما ذُكر من قبل، يصر أسامة على الإقامة خارج المملكة العربية السعودية لفترة تزيد عن العامين على الرغم من محاولاتنا المتواصلة لإقناعه بالعودة إلى المسار الصحيح، ومن ثَم فإننا نعتبره مسؤولًا بمفرده عن كل التصريحات التي يدلي بها وعن كل أفعاله وتصرفاته، إن كانت تصدر منه حقًّا[٢١].

كانت صياغة البيان حذرة وركزت على أفعال أسامة وتصرفاته وليس على شخصيته وأشارت إلى لمحة من الشك في مصداقية التقارير الإعلامية المنشورة عنه. وبعد شهرين، في شهر أبريل/نيسان، أعلن بيان موجز مشابه صادر عن وزارة الخارجية أن أسامة بن لادن جُرد رسميًّا من جنسيته السعودية. وورد في البيان المادة (٢٩) من «قانون الجنسية السعودية»؛ وجاء فيه أن أسامة رفض الإذعان للتعليمات وأن أفعاله «تناقضت مع المصالح القومية العليا للمملكة». وحدث في الشهر نفسه أيضًا تجميد الحكومة السعودية لعائدات أسهم أسامة التي أخذت منه. وكما ورد عن المحامين الذين يعملون لدى مجموعة بن لادن السعودية، «لم يحصل (أسامة) مطلقًا على أي من هذه الأموال» على الرغم من أنها لم يُحتفظ بها «في صناديق خارج نطاق سيطرته» حتى عام ١٩٩٤م، أي بعد قرابة تسعة أشهر من بداية دعاوى تجريده من أسهمه في الشركات[٢٢].

---

(٢١) تستند المعلومات إلى مقال نشرته جريدة «الندوة» بتاريخ ٢٠ فبراير/شباط عام ١٩٩٤م، وقد ترجمه إلى الإنكليزية محامو بن لادن وأدرجوه في ملفات تقرير: *In Re Terrorist Attacks*, op. cit.

(٢٢) تستند المعلومات المتعلقة بالبيان الحكومي إلى ما نشرته صحيفة «الرياض اليومية» بتاريخ ٧ أبريل/نيسان عام ١٩٩٤م. واستند المؤلف في قوله إن أسامة «لم يحصل مطلقًا على أي من هذه الأموال» إلى التقرير الآتي: «Defendant Saudi Binladin Group's Response to Plaintiffs' Objections... Dated July 26, *2007,» In Re Terrorist Attacks*, op. cit.

لم يصدر أسامة أي بيانات من جانبه في أي من هذه الأحداث، بل إنه بدايةً من صيف عام ١٩٩٤م، شرع في التصرف كرجل يشعر بأنه لا يملك أي شيء يخشى فقدانه، إذا تعلق الأمر بالعائلة المالكة السعودية.

وبالفعل في بداية عام ١٩٩٤م، أرسل أسامة سرًّا جماعات من المجاهدين ومهربي السلاح والقائمين بالعمليات التنظيمية إلى الصومال وكينيا واليمن والبوسنة ومصر وليبيا وطاجيكستان وغيرها من الأماكن الأخرى، حسبما جاء في الخطابات والشهادات التي كتبها وأدلى بها أتباعه وحلفاؤه. ووصل بعض هؤلاء المحاربين إلى الأماكن المحددة لهم ووجدوا أن الظروف المحلية لم تكن مواتية للحرب، بينما نظم آخرون، مثل المنفيين المصريين الموالين لأيمن الظواهري، مؤامرات عنيفة وطموحة، مثل محاولة اغتيال الرئيس المصري السابق محمد حسني مبارك؛ حدث ذلك عام ١٩٩٥م عندما كان مبارك في زيارة إلى إثيوبيا، إلا أن المحاولة باءت بالفشل.

استمرت القاعدة بصفتها الرسمية على مدار تلك السنوات، وفي الخرطوم كانت لجان القيادة تتعامل مع مسودات دستور يحوي كثيرًا من المواد، وتمثلت مهمتها في غرس بذور الجهاد في الأراضي الإسلامية التي يحتلها المرتدون عن العقيدة أو تخضع لحكمهم. وحتى ذلك الحين، لم تتعدَّ القاعدة كونها مجرد جماعة أكثر ما يميزها التنوع ثم الانضباط. ويرجع جزء من السبب وراء ذلك إلى أن أسامة نفسه كان يشعر بعدم الاستقرار بشأن كيفية تحديد مشاركته وتنظيم هذه المشاركة في الجهاد على المستوى الدولي، وفي ظلّ تجريده من جنسيته وأسهم عائلته كان في حالة مستمرة من التقلب الفكري. وكانت هبتا البصيرة والقدرة على التحليل السياسي محدودتين دائمًا لديه، وها هو قد بدأ فترة من تلمس الطريق والبحث. ومع ذلك تمكن من اتخاذ قرار واضح بلا تردد خلال فصل صيف عام ١٩٩٤م، عندما جاهر بمعارضة العائلة المالكة السعودية.

وكان كبير مساعديه في هذه المهمة خالد الفواز الذي كان حينئذٍ في بداية الثلاثينيات من عمره. وُلد خالد في الكويت ودرس الهندسة في جامعة الملك فهد في المملكة العربية السعودية، وكان يتحدّث الإنكليزية

بطلاقة. انتقل للعيش في نيروبي حيث عمل في مجال السيارات وكان على اتصال بأتباع تنظيم القاعدة الآخرين في المملكة للتخطيط لشن هجمات عنيفة على الأهداف الغربية. وفي بداية عام ١٩٩٤م قُبِضَ على الفواز وبعدها قرر الهرب من كينيا مع عائلته، متوجهًا إلى لندن[٢٣].

توجه أيضًا كل من الفقيه والمسعري؛ الناشطين السعوديين اللذين قُبض عليهما في فصل الربيع الماضي بعد كشف أمر لجنتهما المسماة لجنة «الدفاع عن الحقوق الشرعية»، إلى لندن وتمكنا من الهرب بمساعدة إحدى الجماعات الإسلامية السرية. وبداية، كان أسامة يشك في مصداقية جماعة الفقيه الإصلاحية، وذكر الفواز لاحقًا: «إننا كنا نظن في البداية أن هذه الجماعة ربما تكون خدعة من النظام الحاكم لصرف الانتباه عن حركتنا، لكن بمرور الوقت أدركنا أنهم إخوتنا في الجهاد وأنهم اعتُقلوا»[٢٤]. وبهذا اتحدت كل هذه القوى في منفاها في لندن تحت حماية قوانين حق اللجوء السياسي في بريطانيا التي كانت من بين أكثر القوانين تحررًا في أوروبا. وأعاد الفقيه والمسعري الشروع في تنظيم شؤون الجماعة المعارضة التي مثلت أكثر التحديات السياسية خطورة على حكم آل سعود في الجزيرة العربية منذ عهد جمال عبد الناصر، مع العلم بأنهما كانا يقطنان في منازل متداعية للسقوط شمال لندن. ومع أن الفواز شاركهما المقر، فإن أسامة لم يرغب في الاشتراك رسميًّا معهم؛ إذ إنه كان يريد تنظيمًا خاصًّا به وحده.

ظهرت «هيئة الإرشاد والإصلاح» للمرة الأولى في شهر يوليو/ تموز عام ١٩٩٤م في لندن. وكانت هذه الهيئة الوسيلة الوحيدة التي استخدمها أسامة للتدخل في السياسة السعودية بصفته منفيًا منشقًّا عن الجماعة وباعتباره أيضًا موزعًا للمنشورات. وأُديرت هذه الهيئة من غرفة متواضعة اشتملت بالكاد على آلة فاكس، إلا أنها وصفت نفسها بأنها «مؤسسة

---

(٢٣) تستند المعلومات المتعلقة بتعليم الفواز إلى ما نشرته صحيفة «المجلة» بتاريخ ١٤ مارس/ آذار عام ١٩٩٩م. والمعلومات المتعلقة بعملية الاعتقال والحركات السياسية مستقاة من البيانات الختامية للنائب العام في قضية: *United States. Usama Bin Laden et al.*, op. cit., May 1, 2001.

(٢٤) المعلومات مستقاة من تقرير: *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, op. cit., p. 181.

واسعة النطاق تهدف إلى تطبيق شريعة الله على كل جوانب الحياة». وكان لها أربعة أهداف: محو كل أشكال الحكم غير الإسلامي، وتحقيق العدالة الإسلامية، وإصلاح النظام السياسي السعودي، علاوة على «تطهيره من الفساد والظلم»، وإحياء المنظومة الإسلامية التقليدية التي تكفل للمواطنين الحق في توجيه الانتقادات إلى المسؤولين الحكوميين في ظلّ توجيه علماء الدين[٢٥].

خرجت تلك الهيئة إلى النور في مطلع فترة الطفرة التكنولوجية؛ في المرحلة التي سبقت إطلاق شبكة الويب العالمية مباشرةً. وفي ذلك الحين كان الفاكس أسهل الطرق لإرسال الوثائق النصية عبر الحدود من دون أي مخاطر رقابية من الأنظمة الحكومية. وبحلول خريف عام ١٩٩٤م، كان الفقيه والمسعري والفواز يرسلون وابلًا من الفاكسات من جماعاتهم المتحالفة إلى قوائم كاملة من الأرقام في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية والخليج والنوافذ الإعلامية الدولية.

استقر أسامة في الخرطوم بعد أن تحرر أخيرًا من قيود الولاء على المستويين العائلي والوطني، وخلال أواخر عام ١٩٩٤م وأوائل عام ١٩٩٥م كان يكتب مقالات مطولة بمعدل مرة واحدة أسبوعيًّا. وكان يرسلها إلى الفواز الذي كان يبعث بها إلى الوجهة المطلوبة باستخدام الفاكس. وكانت بعض المقالات تشبه في طولها المقالات الصحفية التي يعبّر فيها الصحفيون عن آرائهم الشخصية، بينما وصل بعضهم الآخر إلى آلاف الكلمات التي تضم بين طياتها اقتباسات دينية. ولم تكن الموضوعات التي يتناولها أسامة متعلقة بالإسلام قدر ما كانت تدور في فلك الإطار السياسي للمملكة العربية السعودية. وعند الحديث عن المملكة التي قدم لها أبوه وعائلته كثيرًا لبنائها وإضفاء الشرعية على نظام حكمها، كانت اللهجة التي يستخدمها أسامة عادة إما عنيفة متطرفة أو مندفعة، أو بالأحرى محقرة من شأن الآخرين أو ساخرة أو غاضبة بكل صراحة. وفي اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر/أيلول عام ١٩٩٤م، كتب مقالًا بعنوان: «المملكة العربية السعودية تكشف النقاب عن حربها على الإسلام وعلمائه». وبعدها بأسبوع

(٢٥) المصدر السابق ص ١٨٢.

كتب مقالًا بعنوان: «لا تحطنّ من قدر دينك». وفي الخامس عشر من شهر أكتوبر/ تشرين الأول، أشار أسامة إلى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع للحكومة السعودية بقوله: «المجلس الأعلى للأذى». وفي اليوم التاسع من شهر مارس/ آذار عام ١٩٩٥م، كتب أسامة مقالًا عنوانه: «المملكة العربية السعودية تواصل حربها على الإسلام وعلمائه». وكتب في الحادي عشر من شهر يوليو/ تموز مقالًا بعنوان: «الأمير سلطان وعمولات الطيران»[٢٦].

شجب أسامة الملك فهد تحديدًا إضافة إلى من تبقى من إخوته الأشقاء، الذين كانوا يعرفون بـ «السديريون السبعة» ذوي الشأن والسيطرة في العائلة المالكة، وهم: نايف وزير الداخلية، وسلطان الذي يتولى وزارة الدفاع، وسلمان أمير الرياض، الذين لم يكتب أسامة عنهم بصورة لائقة أيضًا. وقال عن نايف الذي كان يقابله بشكل منتظم وتعاون معه خلال حرب الأفغان في الثمانينيات، له «تاريخ مشبوه» وإنه «العقل المدبر للمؤامرات التي تحاك للإسلام وهو الأكثر كراهية للموالين للإسلام وللمؤسسات الدينية». وذكر أن هؤلاء الأمراء لا يستحقون القيام بأدوارهم في خدمة البقعة التي وُلد فيها الإسلام:

كيف يمكن أي شخص متعقل ويمكنه تمييز الحقائق أن يعتقد أن تلك الثلة من الأقارب الذين يعيثون في الأرض فسادًا ويشنون الحرب على الله ورسوله، يمكن أن يكون مقصدهم خدمة الإسلام والمسلمين؟[٢٧]

علاوة على ذلك، كتب أسامة لاحقًا أن الأمير سلمان «لديه ماضٍ مشبوه احتال فيه على الإسلام وشن حربًا على المؤمنين». وكلنا نعرف أن الأمير سلطان أحد «المخادعين» الذين استغلوا العقود للحصول على

---

(٢٦) يقر المؤلف بالجميل إلى كل من بروس هوفمان Bruce Hoffman وكيم كراغن Kim Cragin ونادية عويدات Nadia Oweidat وسارة دالي Sara Daly وهيثر كريغ Heather Gregg وآنا كاسوبسكي Anna Kasupski التي كانت عضوًا في فريق العمل الذي أجرى دراسة «تاريخ القاعدة القديم» وذلك لتوفيرهم تلك النصوص من مجموعة «هارموني» Harmony، وقد تُرجم عدد من تلك النصوص في عام ٢٠٠٦م، وهي مستقاة من: «Supreme Council for Damage,» Harmony AFGP 2002-0032.14-Statement 10, October 15, 1994.

(٢٧) المعلومات مستقاة من: Harmony AFGP 2002-003214-Statement 10.

عمولات وشارك في انهيار الاقتصاد السعودي. ويعتلي عرش كل هذا الغدر والطمع وعدم الأهلية على قيادة هذه الأمة الملك فهد الذي وقف حجر عثرة أمام تطبيق تشريعات الله وانحاز إلى الملحدين وأثبت «عداءه للإسلام والمسلمين»[(٢٨)].

من وجهة نظر القراء السعوديين، كان لهذه الهجمات الصريحة على فهد وإخوته الأشقاء نتيجة طبيعية ومباشرة، لم ينبس أسامة ببنت شفة عن عبد الله ولي عهد المملكة العربية السعودية الذي اعتبره كثيرون استثناءً عن السديريين؛ إذ كان يتمتع بسمعة حسنة نظرًا إلى تدينه الملحوظ واستقامته المالية مقارنة بأشقائه. وكان الأرجح أن نظن في عام ١٩٩٥م أن يسفر الضغط الذي يمارسه من يشنون الحملات باسم الإسلام في الخارج وعلماء الدين المعتقلين في الداخل عن انقلاب حقيقي بين آل سعود، لمصلحة عبد الله، مثل الانقلاب الذي حدث منذ ثلاثة عقود وجاء بفيصل إلى سدة الحكم، وبدا أن أسامة يسعى إلى تجسيد تلك الرؤية في مقالاته. وفي أحد المنشورات أدرج أسامة بوضوح شديد السنوات الأخيرة لحكم فيصل باعتبارها استثناءً من انتقاداته لحكم العائلة المالكة. وتنبأ يسلم بن لادن الذي كان مقيمًا آنذاك في سويسرا أن أسامة سيستعيد سلطاته داخل عائلة بن لادن وأن بكرًا سيتلاشى نفوذه ما إن يعتلي عبد الله العرش، كما ورد عن كارمن بن لادن[(٢٩)]. ويبدو أن أسامة كان يتخيل أن الإسلاميين قادرون على إجبار فهد على الرحيل، وأن عبد الله سيرحب به في المملكة بشروط يمكن أن يتقبلها. ولكن من يمكنه التنبؤ بالمستقبل؟ إنه بين يدي الله.

جاءت تجربة أسامة بصفته رجل أعمال في السودان مطابقة لتجربة أخيه خليل غير الشقيق في لوس أنجلوس مع شركة أمريكا إن موشن؛ إذ

---

(٢٨) المعلومات مستمدة من: Harmony AFGP 2002-003214-Statement 13, «Prince Salman and Charity Offerings in Ramadan,» February 12, 1995.

وبخصوص المخادعين، استقى المؤلف معلوماته من المصدر السابق، راجع: Statement 16, «Prince Sultan and Flight Commissions," July II, 1995.

و«عداءه للإسلام والمسلمين» مصدره المرجع السابق في: Statement 18, «Tragedy of Bosnia and Deceit of Saudi Arabia,» August 11, 1995.

(٢٩) المعلومات مستقاة من الشهادة الخطية التي كتبتها كارمن بن لادن بتاريخ ١ فبراير/شباط عام ٢٠٠٦م، وهي واردة في تقرير: *In Re Terrorist Attacks*, op. cit.

لم تؤت خططه الرائعة ثمارها، واستفاد منه معلموه أيما استفادة، واختلس موظفوه عشرات الآلاف من الدولارات، وهي مبالغ لا يستطيع تحمل خسارتها بعد الآن؛ على سبيل المثال، حصل جمال الفضل من أسامة على ١١٠,٠٠٠ دولار في سلسلة من صفقات الأراضي والبضائع المشبوهة. وأعاد أسامة هيكلة حسابه المصرفي الخاص في بنك الشمال في الخرطوم، إلا أن أرصدته نفدت تدريجيًّا. وفي الماضي كانت ثروته الشخصية قادرة على امتصاص الصدمات المالية المتلاحقة، إلا أن كثيرًا من المبالغ التي كان ينفقها على الجهاد كانت تأتي من متبرعين أو جمعيات خيرية أو مصادر شبه حكومية. ولكن الأرباح والقروض التي كان يحصل عليها من شركات العائلة ذهبت أدراج الرياح، وتعقدت أمور جمع التبرعات والمنح الخيرية في الوقت نفسه باعتباره عدوًّا للمملكة السعودية. وفي مرحلة مبكرة من عام ١٩٩٤م أو ١٩٩٥م، ذكر الحسين خيرشتو أحد الموالين لأسامة قائلًا: «كنا نواجه أزمة في تنظيم القاعدة. . . وقال أسامة بن لادن شخصيًّا لنا إنه خسر كل أمواله وأنه سيقلل رواتب أتباعه». واضطر إلى تسريح كثير من العمال ممن كان عددهم يصل إلى ألفي عامل في مزرعة دوار الشمس التي يملكها خلال عام ١٩٩٥م. وكان ذلك انكماشًا غير مسبوق في أنشطته ـ إذ أنفق أسامة في غضون أربع أو خمس سنوات فحسب ميراثه الذي حصل عليه دفعة واحدة، علاوة على أرباحه والتبرعات الخيرية التي كانت تتدفق عليه، وهو مبلغ ربما يصل إلى ١٥ مليون دولار أو يزيد. وكان أسامة في مقالاته دائم الشجب للعائلة المالكة السعودية لفسادها وانتهاكاتها المالية، إلا أنه كان يتصرف في أمواله الخاصة بحرص بالغ كما لو كان أحد مشاهير هوليوود المغرمين بأنفسهم[٣٠].

أبدى بن لادن قلقه وغضبه في فاكس غاضب أرسله في اليوم الثاني عشر من شهر فبراير/شباط عام ١٩٩٥م تحت عنوان «الأمير سلمان وزكاة رمضان». شهَّر فيه بالحكومة المالكة باستخدام كلام منمق طنان، بطريقته المعهودة، شاجبًا إياها بصفة خاصة بسبب القوانين الجديدة التي تقتضي

(٣٠) المعلومات مستقاة من الشهادة التي أدلى بها جمال الفضل في المرجع السابق، وما ذكره الحسين خيرشتو مقتبس في: Bergen and Cruickshank, «How the Idea of Al Qaeda Was Conceived...» 2006.

دفع الزكاة السنوية فقط من خلال الجمعيات الخيرية المصدق عليها رسميًّا والخاضعة لإشراف الأمير سلمان. وكتب أسامة في هذا الصدد: «لقد كان تاريخ النظام السعودي السابق في ما يتعلق بإدارة التبرعات سيئًا للغاية. إذ كان يستغل التبرعات المخصصة للمجاهدين الأفغان كوسيلة للضغط عليهم لتحقيق أهداف السياسات الغربية وبصفة خاصة الأمريكية». واستطرد أسامة موضحًا أن هدف مقاله ليس الانتقاد بقدر ما كان مقصده الحثّ على فعل الخير؛ فهو قلق من قدرته المستمرة على الحصول على التبرعات السعودية التي اعتمد عليها وقتًا طويلًا:

تعلن «هيئة الإرشاد والإصلاح»، عن تحذيرها لكل المحسنين ومانحي الزكاة من خطورة تقديم أي أموال أو تبرعات إلى تلك المؤسسات والهيئات والجمعيات الخبيثة التي تستخدم هذه الأموال لشن حرب على الله ورسوله. وندعوهم إلى منح أموالهم مباشرةً إلى مستحقيها داخل البلاد وخارجها. ويمكنهم منح تلك الأموال أيضًا إلى رجال الدين أو القائمين على الزكاة ممن بإمكانهم ضمان وصول الأموال إلى مَن يستحقها شرعًا من دون تدخل مسبق من السلطات السعودية... وهناك هيئات مضمونة ستتولى نقل الأموال إلى مستحقيها مثل الجمعيات الخيرية في قطر والكويت والأردن واليمن والسودان وغيرها من البلدان. ولضمان تحويل الأموال إلى حسابات هذه الجمعيات، ننبهكم إلى أهمية إجراء التحويل خارج الخليج، بعيدًا عن أعين جواسيس النظام الحاكم[٣١].

تفاقمت مشاكل أسامة في العمل بفعل مشاكله المنزلية؛ إذ أخذت إحدى زوجاته المعروفة باسم أم علي تسافر إلى المملكة العربية السعودية والسودان جيئة وذهابًا، لشعورها المتزايد بالسأم من الخرطوم. وطلبت الطلاق من أسامة لأنها «لا تستطيع مواصلة الحياة في ظلّ هذا التقشف والحرمان» وفقًا لما ذكره لاحقًا ناصر البحري الذي كان يعمل حارسًا خاصًّا لأسامة.

إضافة إلى ذلك، ثار ابن أسامة الأكبر المدعو عبد الله ـ الذي كان في

---

(٣١) المعلومات واردة في: Harmony Statement 13, op. cit., February 12, 1995.

مرحلة المراهقة حينئذٍ ـ ثورة عارمة لحرمانه من المميزات والرفاهية التي يستمتع بها كل أفراد عائلة بن لادن. فقد رأى من طرق معيشة أبناء عمومته في جدة ما دفعه إلى الانزعاج الشديد وأدرك ما يفتقده، حيث السيارات الفارهة ودراجات هارلي البخارية والتزلج على أمواج البحر الأحمر في إجازات نهاية الأسبوع. وطلب من أبيه أن يأذن له بالعودة إلى المملكة والحصول على وظيفة في إحدى شركات العائلة. وقد خطب بالفعل إحدى قريباته «لأن أبي كان يشجع على الزواج مبكرًا» كما جاء على لسانه لاحقًا، وفي عام ١٩٩٥م ضغط على أبيه للعودة إلى المملكة العربية السعودية:

كان في كل مرة يطلب مني التحلي بالصبر والانتظار. وذهبت إلى غرفة نومه ذات مرة بينما كنا في السودان لإيقاظه ليصلي، وقال لي من دون مقدمات: «يمكنك الذهاب إلى المملكة العربية السعودية يا عبد الله إن كنت تريد». وبدأت أصيح فرحًا من دون أن أنطق كلمة واحدة، وابتسم أبي بهدوء ولم يقل شيئًا هو الآخر. وفي اليوم التالي اتصلت بأعمامي في جدة وساعدوني في إنهاء إجراءات سفري على عجالة... كنت أريد أن أتمتع بالاستقلالية وبناء حياتي معتمدًا على نفسي وفقًا لرغباتي. كان لرغبة الولد البكر في الانفصال عن أبيه أثرٌ في نفس أسامة وتسببت بشعوره بالحزن والأسى كما ورد عن البحري، وبعدها «تجنب ذكر اسم عبد الله... لأنه جرحه عندما هجره»[٣٢].

كانت والدة أسامة تزوره خلال هذه الفترة، إلا أن السلطات السعودية لاحقًا فرضت عليها مراقبة صارمة حتى تضمن عدم نقل المال إليه خلسةً. وقيل إن أسامة ظلّ على علاقة ببعض أفراد عائلته من الفرع المتدين، ولاحقًا قال جمال خليفة زوج أخته إنه ظلّ على اتصال به. وفي البداية، كانت صداقتهما قد توطدت سريعًا خلال أوائل الثمانينيات، ووجد خليفة نفسه وقتها في ورطة قضائية بسبب المزاعم التي تفيد بأنه يدعم الجماعات

---

(٣٢) هذه المعلومات تستند إلى ما نشرته صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٣٠ مارس/ آذار عام ٢٠٠٥م. وفي ما يتعلق بـ «بناء حياتي معتمدًا على نفسي وفقًا لرغباتي»، استند المؤلف إلى ما نشرته صحيفة **الشرق الأوسط** بتاريخ ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠١م. واستند في ما نقله عن أن أسامة «تجنب ذكر اسم عبد الله ... لأنه جرحه عندما هجره» إلى ما نشرته صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٣٠ مارس/ آذار عام ٢٠٠٥م.

الإسلامية التي تمارس أعمال عنف في الفلبين بدعم من القاعدة. وربما يكون زوج أخت أخرى له قد شارك في حملات أسامة في السودان. ولكن الإخوة الكبار في جدة الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الأمور في عائلة بن لادن ويتحكمون في توزيع علاقات العائلة مع أفراد العائلة المالكة السعودية، اعتبروا أسامة شخصًا بغيضًا ومحرمًا عليهم. ووضعت محكمة الملك فهد الإخوة الكبار تحت الملاحظة وفقًا لما ورد عن شخص عمل معهم في جدة خلال هذه الفترة، وصرحت الحكومة السعودية أن عائلة بن لادن ستدفع الثمن غاليًا إذا هبت إلى مساعدة أسامة. ولم تعر العائلة بدورها اهتمامًا بشيء سوى احتمالية خسارة ثروتها. ولضمان عدم التشكيك في ولائها، اتخذت العائلة قرارًا خلال هذه الفترة بإعطاء كل أموال الزكاة التي تدفعها مباشرةً إلى الجمعيات الخيرية التي تتبع الملك وفقًا لما ذكره الشخص الذي كان يعمل معهم في جدة[٣٣].

ربما يكون أسامة قد شعر بالتغيير الذي حدث في موقف عائلته، ففي عام ١٩٩٥م لقيت إحدى أخواته غير الشقيقات حتفها بعد صراع مع السرطان، وكانت أولى بنات محمد بن لادن التي تلقى حتفها، وبموتها أصبح عدد أبنائه ممن هم على قيد الحياة اثنين وخمسين. اتصل أسامة بعمر بن لادن من السودان ليقدم تعازيه. وقال عمر لاحقًا: «إن المحادثة لم تستمر لأكثر من دقيقة واحدة لأنني تعمدت إنهاءها سريعًا»[٣٤].

والآن... ها هو أسامة وقد خسر ماله وطلق إحدى زوجاته وهجره ابنه الأكبر وأُقصي عن عائلته؛ كأن جزءًا من حياة «كينغ لير» المأساوية يحوم حول بن لادن ويشرع في اقتحام منفاه، وأبلغ أسامة زائرًا سعوديًّا ذات مرة: «أشعر بإرهاق شديد؛ إنني أفتقد الحياة في المدينة المنورة، والله وحده يعلم قدر اشتياقي وشعوري بالحنين إليها». شعر أسامة بعدم

---

(٣٣) استند المؤلف عما نقله عن خليفة إلى ما نشرته جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ ٤ مايو/ أيار عام ٢٠٠٢م. وفي ما يتعلق بتصريح الحكومة وإعطاء أموال الزكاة إلى الجمعيات الخيرية، استند المؤلف إلى مقابلة أجريت مع موظفٍ عَمِل لدى بن لادن في جدة في ذلك الوقت وطلب عدم الكشف عن هويته.

(٣٤) المعلومات مستقاة من الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن مشفوعة بقسم، وهي واردة في آخر مرجع ذكرناه.

وجود ما يقيد حريته على الإطلاق خلال عام ١٩٩٥م حتى إنه اكتشف إمكانية انتقاله إلى لندن، وهناك فكّر في الانضمام إلى زملائه في الكيان الذي أطلق عليه أصحابه المعارضة السعودية، في منفى يبدو أكثر تمسكًا بالتقاليد ونزوعًا إلى السياسة؛ في منفى سيقلل من دون شك من مساحة مشاركته في أحداث العنف. ولنا أن نتخيل كيف راقت له لندن: حيث المؤتمرات الصحفية المعتادة التي تحضرها وسائل الإعلام الدولية، والفترات الطويلة التي سيقضيها بعد الظهيرة في كتابة الشعر والمقالات السياسية الحادة التي تمثل المملكة العربية السعودية الجديدة، وإمكانية استقبال ولده عبد الله وأفراد العائلة الآخرين، واغتنامه فرصة الحياة وفقًا لمبادئه، ولكن وسط أجواء من الأمان والراحة التي يتوق إليهما كل من بلغ منتصف العمر(٣٥).

ولكن تبين أن كل ذلك ضربٌ من الخيال؛ إذ ضغطت المملكة العربية السعودية بكل ما أوتيت من قوة على بريطانيا لتفعل شيئًا حيال الفقيه والمسعري، وشرعت الحكومة البريطانية بالفعل في ترتيب إجراءات ترحيل الأخير. لذا بدا مستحيلًا من الناحية السياسية إمكانية حصول أسامة على حق اللجوء السياسي في الوقت الذي فكر في الحصول عليه.

ظل أسامة في الخرطوم محاطًا بزوجاته وأطفاله وموظفيه والموالين له، وتمكن من التغلب على آلام شعوره بالوحدة والانعزال بالتركيز في جدول أعماله الذي يتضمن اجتماعات العمل وإعداد الخطط وتدبير المؤامرات. ولكن هناك سمة عامة فرضت نفسها على القصص التي كان أسامة ينشرها بخصوص منفاه؛ ألا وهي السعي الدائم لتعظيم ذاته. فكلما ازدادت الضغوط التي كان يواجهها، ازدادت مقارنته لظروفه بظروف النبي محمد الذي هاجر مضطرًّا بسبب أعدائه السياسيين إلى المدينة المنورة حيثما شن حربًا لوضع

---

(٣٥) فيما ورد عن أسامة أنه قال: «أشعر بإرهاق شديد؛ إنني أفتقد الحياة في المدينة المنورة، والله وحده يعلم قدر اشتياقي وشعوري بالحنين إليها»، استند المؤلف إلى: Hassan Al-Surayhi, *The Osama Bin Laden I Know*, op. cit. p. 126.

وكشف مايكل هاورد Michael Howard ـ وزير الداخلية البريطاني في منتصف التسعينيات من القرن العشرين ـ عن اهتمام أسامة بحق اللجوء السياسي في بريطانيا، وهذا طبقًا لما نشرته صحيفة «تايمز» في لندن بتاريخ ٢٩ سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٥م.

كل شيء في نصابه وعاد إلى دياره في نهاية المطاف. وكتب أسامة في أثناء وجوده بالسودان أن «الهجرة مرتبطة بالجهاد، وسيستمر الجهاد إلى يوم الدين». ولم يكن هذا الأسلوب ليروق في ما يبدو إلى زوجة متبرمة أو ابن مراهق لا تزال مطاعم جدة في مخيلته. ولكن ليس هناك شك في أن أسامة كان يؤمن إيمانًا عميقًا بما خطه بيده بين السطور.

إضافة إلى ذلك، فإن الثروة وعلو شأن أعدائه ـ الملك فهد ومناصريه الأمريكيين ـ قد أكدا له بما لا يدع مجالًا للشك أنه يناضل من أجل قضية عادلة. حتى إنه نظر في ما يبدو إلى بعض المهام التي أخذ أقاربه على عاتقهم تنفيذها باعتبارها شكلًا من أشكال الخداع الذي تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية للتوصل إليه في نهاية الأمر، تلك الدولة التي كان أسامة يصب عليها جام غضبه باستمرار خاصةً بعد الضغط الذي مارسته واشنطن على الحكومة السعودية لطرده من الخرطوم. وفي مستهل الأمر كان أسامة يذكر أن أفراد عائلته لا حول لهم ولا قوة، واعتبرهم عملاءً لآل سعود غُرر بهم. والآن تبدو الفرصة سانحة له لاعتبار منفاه قاعدة لصراع الإرادة والإيمان بينه وبين حكومة أقوى دولة على وجه البسيطة. وكان تكرار هذا الصراع يبرز في نفسه أهمية كفاحه وعلو شأن زعامته. وأشار أسامة إلى ذلك في أواخر عام ١٩٩٦م قائلًا: «أود أن أؤكد كم إن الأمريكيين يساوموننا سرًّا. . . وقد ساومتنا أمريكا وبعض عملائها في المنطقة سرًّا لما يزيد عن عشر مرات، وأبلغكم قولهم «كف عن الحديث وسنعيد لك جواز سفرك وممتلكاتك، سنعيد لك بطاقة هويتك، كل ذلك في مقابل الصمت». إنهم يظنون أن الناس يعيشون في هذا العالم لخدمتهم، لكنهم تناسوا أن وجودنا لا معنى له إن لم نجاهد لننال رضى الله عز وجل علينا»[٣٦].

---

(٣٦) وفي قول أسامة إن: «الهجرة مرتبطة بالجهاد، وسيستمر الجهاد إلى يوم الدين»، استند المؤلف إلى: *Messages to the World*, op. cit., p. 19.

وفي قوله: «. . . رضى الله عز وجل علينا»، استند المؤلف إلى: *Messages to the World*, p. 91.

الفصل الثلاثون

صناديق التحوط

على مدار حياة عملية طويلة، أضحى فيليب غريفن متخصصًا في شؤون العالم العربي، وخاصة في منطقة الخليج العربي، بصفته دبلوماسيًّا أمريكيًّا؛ إذ عمل فترة في الكويت وأبو ظبي وعمل مرتين في مدينة الظهران؛ تلك المدينة المحورية في منطقة إنتاج النفط في المملكة العربية السعودية. وكان رجلًا ودودًا دمث الخلق، وكانت له عينان زرقاوان ويكسو رأسه شعرٌ فضي. أثّرت فيه سنون عمره التي قضاها في الحقل الدبلوماسي وخبراته العميقة في منطقة الجزيرة العربية المتحفّظة حتى أصبح يتمتع بطباع تكاد تخلو من الزلات وأسلوب يتّسم بالحذر المتعمد والعبارات شديدة الوضوح. وفي عام ١٩٨٩م وصل غريفن إلى جدة بصفته قنصلًا عامًّا، وهي أعلى مرتبة لمبعوث تابع لوزارة الخارجية في الحجاز وحلقة الصلة بينها وبين السفارة الأمريكية في الرياض.

تقابل غريفن في جولاته الدبلوماسية الأولى مع هنري سركيسيان، الذي ينتمي إلى عائلة سركيسيان التجارية، التي تنتمي إلى المسيحيين الأرمن الذين هاجروا إلى لبنان ونجحوا في مجال صناعة التكييفات الكهربائية والصناعية، ثم أصبحوا شركاء بارزين لعائلة بن لادن في المملكة العربية السعودية. عرّف سركيسيان غريفن إلى بكر بن لادن، في علاقة أدّت إلى محادثات دورية سرية ضمت كلًّا من بكر وغريفن وتشاز فريمان الذي شغل منصب السفير الأمريكي في المملكة العربية السعودية لاحقًا. واستغل الدبلوماسيان الأمريكيان بكرًا باعتباره أداة للاطلاع على مجريات الأحداث في بلاط الملك فهد ولسبر أغوار آراء الملك الخاصة عن الموضوعات

الجارية. وأدركا أن بكرًا شديد الحذر خلال هذه المحادثات التي تمت غالبًا في شركته في جدة. وكان بكر شديد التحفظ وقليل الثرثرة إضافة إلى أن هدفه كان حماية الملك، على الرغم من أنه كان يذكر بين الحين والآخر القليل من المعلومات المهمة أو وجهات النظر ذات الأبعاد الدقيقة[١].

أوشكت فترة خدمة غريفن على نهايتها خلال صيف عام ١٩٩٢م، وأبلغ الجميع أنه يخطط للتقاعد من الوظائف الدبلوماسية؛ إذ كان حينئذٍ في الستين من عمره. طلب بكر رؤيته عن طريق سركيسيان، ولم يتحدّث في هذا اللقاء عن أسامة على الرغم من أن المشكلة مع أخيه غير الشقيق كانت آنذاك قد بدأت تصل إلى ذروتها. أشار بكر إلى أن عائلة بن لادن لديها علاقات عمل كثيرة داخل الولايات المتحدة الأمريكية على مرِّ السنين، ولكن ليس لديها أي شخص ـ سواء أكان أحد الإخوة أو أي ممثل آخر عنهم ـ للإشراف على استثماراتها المتناثرة في الولايات المتحدة، أو لتنفيذ استثمارات جديدة. وبعد هذه المقابلة توجه بكر بسؤال سركيسيان أيضًا عما إذا كان غريفن مهتمًا بتأسيس فرع لـ مجموعة بن لادن السعودية في واشنطن بحيث تُدعم جزئيًا من خلال الشركة القائمة بين سركيسيان وعائلة بن لادن إلى جانب مجموعة بن لادن السعودية نفسها. ولم يكن التساؤل الذي طرحه بكر على سركيسيان لينقله إلى غريفن متمركزًا حول وثائق الشركة أو هدفها، وذكر سركيسيان أن المناقشات التي أعقبت العرض تطرقت إلى موضوع الحفاظ على العلاقات مع الشركاء القائمين بالفعل مثل شركة جنرال إلكتريك والسعي لتنفيذ أعمال وأنشطة جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنهم سيحتاجون إلى وجود شخص في العاصمة يمكن أن ييسر لهم سبل الوصول إلى دهاليز الحكومة الأمريكية والتعامل معها إذا تطلّب الأمر ذلك.

جاء رد غريفن كما يلي: «حسنًا! إن الأقوال أسهل من الأفعال دائمًا. فلتدعني أفكر في الأمر»[٢].

---

(١) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع تشاز فريمان Chas Freeman بتاريخ ١٥ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٥م، ومقابلات أُجريت مع مسؤولين آخرين طلبوا عدم الكشف عن هويتهم.

(٢) المصدر السابق.

عاد غريفن إلى وطنه، في ضواحي واشنطن، إلا أنه ظلّ على اتصال بهم حتى أنهى إجراءات التقاعد الرسمي من وزارة الخارجية الأمريكية. وبحلول عام ١٩٩٣م صرح المسؤولون في شركة بن لادن بأنهم يريدون تنفيذ خطتهم، واتخذ غريفن قراره بالسفر. وافق أفراد عائلة بن لادن على السماح له بتأسيس الشركة بالقرب من منزله في ولاية ميريلاند حتى لا يتكبد عناء السفر المرهق يوميًّا من وسط المدينة في واشنطن وإليها. وعثر غريفن على مبنى إداري متخصص في توفير خدمات إجمالية إلى الشركات المتناهية في الصغر مثل خدمات الردّ على الهاتف وعقد المؤتمرات. وفي اليوم السادس عشر من شهر يونيو/حزيران من عام ١٩٩٣م، في الأسبوع نفسه الذي انخرط فيه آل بن لادن في دعاواهم القضائية المقامة في جدة - التي لم تخرج بعد عن نطاق العائلة - لتجريد أسامة من أسهمه في شركات العائلة، أنشأ غريفن بصفته «وكيلًا مقيمًا» شركةً في ولاية ميريلاند اعتُبرت فرعًا أمريكيًّا جديدًا لـ مجموعة بن لادن السعودية. وفي مستهل الأمر، أُطلق على الشركة اسم شركة كروموبل كوربوريشن إلا أن اسمها تغير رسميًّا بعد ذلك إلى شركة إس بي جي (الولايات المتحدة الأمريكية)[٣]. انتقل غريفن بعد ذلك إلى شركة تقع في العقار الرقم (٥١) في شارع مونرو في وسط مدينة روكفيل في ولاية ميريلاند، بالقرب من طريق روكفيل بايك المزدحم ذي الست حارات الذي تحيط به من الجانبين المجمعات التجارية، إلى جانب متاجر بيع السلع الإلكترونية الاستهلاكية وسلاسل المطاعم الشهيرة. وربما لم تكن هذه الشركة هي المركز الأنيق المكسو بالرخام الذي تخيله بكر في البداية في واشنطن الرائعة، إلا أنها كانت على الأقل موطئ قدم - في ظلّ إشراف دبلوماسي أمريكي محنك - في بلد قاب قوسين أو أدنى من أن يضحى له دور شديد التعقيد في حياة العائلة.

أوكل بكر إلى أخيه غير الشقيق حسن مهمة إدارة شركة غريفن، وفي ظلّ النظام الإداري الجديد الذي سنّه بكر، عُهد إلى حسن الإشراف على تطوير الأعمال الدولية للمجموعة. وبدا ذلك أمرًا شديد الوضوح، إلا أن

---

(٣) إن المقالات المتعلقة بعمليات تأسيس الشركات أُدرجت ضمن ملفات التقرير الآتي من جانب المحامين العاملين في مجموعة بن لادن السعودية: *In Re Terrorist Attacks on September 11, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570.

مجريات الأحداث الداخلية في شركات بن لادن ظلت شديدة السرية. وذات مرة، عندما شكا أحد المديرين التنفيذيين غير السعوديين إلى هنري سركيسيان من أنه يشعر بحيرة بشأن ما يريده منه القائمون على مجموعة بن لادن السعودية أن يفعله بالضبط، سخر منه سركيسيان قائلًا: «لن تتعلم أبدًا»، وكان يقصد بذلك أن الغموض والإبهام كانا من السمات السائدة في مناخ الشركة. وعلى عكس سالم، تميّزت إدارة بكر بإيجاد مظهر خادع يغطي على مخططات الشركة المهنية، إلا أن بكرًا نفسه كان يتخذ كثيرًا من قراراته المصيرية بعيدًا عن قاعات اجتماع مجلس الإدارة، بل وهو جالس في قاعات مجلسه بعد الظهيرة في جدة، على طريقة أي شيخ عربي أو وهو يتنقل على متن طائراته النفاثة الخاصة من مكان إلى مكان. وظل الإطار العام للشركة التي كان يشرف عليها تتمحور حول الرئيس بكل ما في الكلمة من معنى، وسري تمامًا، ومجزّأً إلى أقسام مستقلة، ومشوشًا أحيانًا مشوش من وجهات نظر من انضموا إلى فريق عملها إما باعتبارهم مديرين تنفيذيين أو شركاء[٤].

خلال منتصف التسعينيات وقّع بكر عددًا من العقود الكبرى من خلال شراكته مع جنرال إلكتريك لإنشاء محطات كهرباء في المملكة العربية السعودية، حتى إنه أقام احتفالًا في المملكة للرئيس التنفيذي الشهير بشركة جنرال إلكتريك المدعو جاك ويلش ـ على الرغم من عدم إجراء أي نشاط له صلة بالولايات المتحدة الأمريكية من خلال الشركة الأمريكية الجديدة أو بالتنسيق معها. إضافة إلى ذلك، في الوقت الذي أسس فيه غريفن الشركة، استُغل أفراد من العائلة في عدد من الشراكات العقارية التجارية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ مثل المشروعات التي نفذتها شركة دانيال كوربوريشن في ولاية ألاباما التي حَوَّلَ يسلم بن لادن المبالغ المطلوبة إليها، والمشروعات الاستثمارية التي اشتراها خليل شقيق يسلم عن طريق شركة أمريكا إن موشن، وسلسلة المشروعات الأخرى التي أشرفت عليها عائلة سركيسيان من مكتب في ولاية نيوجيرسي. واشتملت المشروعات

---

(٤) المعلومات مستقاة من مقابلات أُجريت مع موظفين وشركاء ممن سبق لهم العمل أو ما زالوا يعملون لدى بن لادن لكنهم طلبوا عدم الكشف عن هويتهم.

التنموية الأخيرة على ممتلكات تجارية في منطقة دالاس، وأُطلق على بعض من هذه الشراكات أسماء تشير إلى أماكن أو أحداث مهمة في فترة الحرب الثورية الأمريكية مثل كونكورد أو بانكر هيل. ولم يُعهد أي من هذه المشروعات بصورة مباشرة إلى الشركة الأمريكية الجديدة التي أسسها غريفن. في كل الأحوال، كان غريفن سيشغل منصبًا تابعًا لشركاء العائلة في المجال العقاري، والمدرجون بصفتهم مديرين في شركة إس بي جي (الولايات المتحدة الأمريكية) في سجلات الشركة الرسمية هم كوركن سركيسيان في كندا الذي كان يشارك في الإشراف على بعض المشروعات الاستثمارية للعائلة في أمريكا الشمالية وروبرت ماك برايد من مدينة سبايسوود في تكساس الذي عمل بطريقة مشابهة(٥).

علاوة إلى ذلك، اشتملت شبكة مشروعات بن لادن التجارية والاستشارية في الولايات المتحدة الأمريكية على نقطة إضافية ممثلة في شخص فؤاد ريحاني، رجل الأعمال الذي كان يدير شركة أوروبية وفرت معدات الإضاءة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة. ينتمي ريحاني أساسًا إلى المملكة الأردنية، إضافة إلى أنه كان مسيحيًّا ناشطًا في نطاق الكنائس البروتستانتية في هذا البلد. وفي الوقت الذي افتُتحت فيه شركة إس بي جي (الولايات المتحدة الأمريكية) خارج واشنطن، كان ريحاني قد أصبح مستشارًا ذا شأن يحظى باحترام وتقدير عائلة بن لادن. وفي نهاية الأمر، اشترى منزلًا في شمال كارولينا وتقلد منصب مدير البحث والتطوير في مجموعة بن لادن السعودية، كما كان عضوًا في مجلس إدارة إحدى المؤسسات الاستشارية في واشنطن؛ مجلس سياسة الشرق الأوسط الذي

---

(٥) المعلومات المتعلقة بعقود شركة جنرال إلكتريك المربحة مستقاة من جريدة «العرب نيوز» بتاريخ ١٨ أبريل/ نيسان عام ١٩٩٦م، وجريدة «سعودي غازيت» بتاريخ ١٩ أبريل/ نيسان عام ١٩٩٦م. والمعلومات ذات الصلة بالحفلة التي أُقيمت لجاك ويلش مستقاة من: Jane Mayer, *New Yorker*, November 12, 2001.

بينما تستند المعلومات المتعلقة بمكتب عائلة سركيسيان في ولاية نيو جيرسي والمشروعات التي أُقيمت على منطقة دالاس إلى مقابلة أُجريت مع شخص كان على دراية بعلاقات الشراكة لكنه طلب عدم الكشف عن هويته. والمعلومات ذات الصلة بمديري شركة إس بي جي (في الولايات المتحدة الأمريكية) مصدرها السجلات التي سلمتها مجموعة بن لادن السعودية لإدراجها ضمن ملفات التقرير الآتي: *In Re Terrorist Attacks*, op. cit.

كان يحظى بتبرعات من عائلة بن لادن وشغل منصب رئيس مجلسه السابق تشاز فريمان، السفير السابق للولايات المتحدة الأمريكية في الرياض[٦].

كانت هذه المساهمات والصلات هي الوسيلة التي تمكنت من خلالها عائلة بن لادن من تمييز نفسها عن أسامة وتعميق صلاتها بالنخبة الأمريكية والبريطانية، وبناء قاعدة بديلة لتقييم موقف العائلة تجاه الغرب، بصورة بارعة ولكنها واضحة في الوقت نفسه. ومع تزايد حدة المشكلات التي سبّبها أسامة، كان بكر يضاعف في ما يبدو مجهوداته بحثًا عن أساليب تقديم المنح والاستثمارات المالية التعويضية.

جرى العرف في كل شركات بن لادن سواء أكانت في المملكة العربية السعودية أم في الخارج كأنها كيانات خاصة. ولذا لم تكن العائلة طبقًا للقانون مضطرة إلى أن تكشف النقاب عن شبكة أسهمها العالمية العنكبوتية أمام وكلاء أسواق الأسهم أو المستثمرين أو حتى أمام مديريها التنفيذيين. وكان هناك حالة من العشوائية والغرابة تغلف بعض استثمارات العائلة. فقد يذهب أحد الإخوة في إجازة إلى أوروبا الشرقية ويقابل أحد رجال الأعمال ويستثمر أمواله في وكالة سفر، ثم يتجاهل أمرها حتى تختفي الشركة تمامًا. وكانت هناك شركات تابعة للعائلة تبيع ملابس شبابية في منطقة كوفينت غاردن في لندن وفي مراكز تسوق في القاهرة وبيروت (وبيع فيها «قمصان قطنية بدون أكمام وسراويل قصيرة للجري وسراويل جينز و. . .»)، وكانت تنتج أيضًا البرامج التلفزيونية والإعلانات في معمل تصوير في جدة، إلى جانب نشر كتب للأطفال في لندن وترخيص الملكيات الفكرية في دبي؛ إذ كان يصعب تمييز الخطوط الرفيعة التي تفصل بين هوايات أفراد العائلة والمشروعات الجادة. إذ كانت الشركات الخارجية تؤسَّس ثم تغرق في الركود وتظل في السجلات لسنوات يحصل من خلالها المحامون والمحاسبون على أجورهم مقابل تجديد سجلاتها فقط لا غير. وبحلول بداية

---

(٦) المعلومات المتعلقة بفؤاد ريحاني مستندة إلى مقابلة أُجريت مع زميل له طلب عدم الكشف عن هويته. وقد استند المؤلف إلى الموقع الآتي ذكر لمعرفة كثير عن منصب فريمان كرئيس مجلس سياسة الشرق الأوسط وطبيعة عمله فيه، وذلك بتاريخ ٢٩ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٧م: www.mepc.org.

التسعينيات كان هناك عدد لا يُحصى ولا يُعد من الشركات الصغيرة والفرعية المنتشرة في جميع أنحاء العالم، لدرجة أنه في مرحلة ما ـ قرابة الوقت الذي افتتح فيه غريفن شركة روكفيل ـ ظلّ المديرون التنفيذيون في المقرات الرئيسة محتفظين بشركة أمريكية تتمثل مهمتها في جرد ممتلكات العائلة فحسب، كما ورد عن شخص شارك في تلك الدراسة(٧).

لم تكن واشنطن مركز كبريات الاستثمارات الدولية التي نفذتها العائلة خلال هذه الفترة، بل كانت لندن. ومع تزايد سيطرة بكر على زمام الأمور في العائلة، أجرى الترتيبات اللازمة مع يسلم لتحويل شركة راسل وود آند كومباني ـ المؤسسة الوسيطة في سوق لندن للأوراق المالية التي تعرض النظام الإلكتروني فيها لعطل تام مفاجئ، بل واجهت مشكلات أخرى بعد شرائها مبدئيًّا في عام ١٩٨٧م، من شركة سمسرة كانت تعتمد على عملاء خارجيين إلى شركة أكثر حذرًا لإدارة المحافظ المالية حتى تتمكن من التنسيق بين جميع استثمارات عائلة بن لادن في الأسواق العالمية. ولم يتضح تمامًا كيفية إجراء الترتيبات المالية لهذا التحويل؛ على سبيل المثال، ظلّ اسم شركة راسل وود الرئيسة في جزر كايمان، فالكن المحدودة، وهي كيان مِلْك ليسلم وإخوته وأخواته، إلا أن الشركة لديها قروض مسجلة مع عدد من الشركات الخارجية الأخرى في بنما وجزر فيرجن البريطانية وجزر الأنتيل الهولندية. طرأت تلك التغيرات في الإدارة على مرِّ السنين وفقًا لما جاء في سجلات الشركة المحفوظة مع مراقبين في لندن. وفي مرحلة متأخرة من عام ١٩٩١م، كان مدققو حسابات شركة راسل وود البريطانيون لا يزالون يحاولون فك طلاسم السجلات التي يعود تاريخها إلى فترة انهيار السوق عام ١٩٨٧م. وذكر المدققون أنهم «عاجزون عن الوصول إلى رأي بشأن: (أ) هل البيانات المالية تعكس صورة واضحة ومتوازنة عن شؤون الشركة. . .

---

(٧) بخصوص استثمار الأموال في وكالة سفر والاحتفاظ بشركة أمريكية لجرد ممتلكات العائلة، استند المؤلف إلى مقابلة أُجريت مع شخص مقرب من العاملين في مجموعة بن لادن السعودية لكنه طلب عدم الكشف عن هويته. وعن مجالات العمل المتنوعة، استُند على دليل مجموعة بن لادن السعودية من الموقع الإلكتروني للمجموعة الذي اطلع عليه بيتر بيرغن وحصل منه على ما يريد قبل وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م. ويقر المؤلف بالجميل لبيتر بيرغن لأنه استطاع الحصول على تلك المستندات.

و(ب) هل البيانات المالية أُعدت بصورة دقيقة من جميع جوانبها...» وفي النهاية، طلبت سلطة الأوراق المالية والعقود المستقبلية في بريطانيا من عائلة بن لادن أن تضخ قرابة ٤ ملايين جنيه إسترليني في شركة السمسرة من لتغطية الخسائر الأولية، وفقًا لما ورد في سجلات الجهات الرقابية[٨].

تولى أكبر مُولّى التنزاني الأصل إدارة شركة لندن، وكان يقيم في منزل كبير مصمم على طراز الفن المعماري الذي كان سائدًا في إنكلترا في القرن الخامس عشر في ضاحية ووكنغ بجنوب المدينة، وكان ينتقل يوميًّا من مقر عمله عند ميدان بيركلي الذي يقع في حي مايفير المركزي بالقرب من سفارة المملكة العربية السعودية. وكان بعض الزملاء يرون أن مُولّى شخصية شديدة التحفظ والكتمان، حتى بمعايير شركة كانت تعلي قيمة التعقّل ورجاحة العقل. كان لهذا الرجل تاريخ طويل مع العائلة وبدا أنه يعرف عن شؤونها المالية قدر ما يعرف أي منهم. وكان مُولّى يجيب أحيانًا عن الاستفسارات الروتينية ظاهريًّا المتعلقة بالعمل التي يطرحها زميل من التنفيذيين مباشرةً بقوله: «لا داعي لمعرفة هذا الأمر». ومع ذلك، لم يبد أنه الذي كان يضع الخطوط العريضة للاستراتيجية الاستثمارية للعائلة، مع كونه شخصًا يُعتمد عليه وإداريًّا فعالًا. وما إن استقرت شركة لندن بعد الأزمة التي عصفت بها في أواخر الثمانينيات، حتى انضم جون بيلي، المدير التنفيذي المالي البريطاني المحنك، إلى أكبر مولّى[٩].

---

(٨) المعلومات المتعلقة بقروض الشركات الخارجية مستمدة من: Russell Wood Limited filings, Companies House, London, 1996.

وكانت الشركة مدينة بقروض طائلة إلى شركة سيلتا فاينانس إس. إيه Celta Finance SA (بمبلغ قدره ١١٧,٦٦٩ جنيهًا إسترلينيًا)، ولشركة تروبيفيل بي في Tropiville BV (بمبلغ قدره ٢,٠٤٨٤,٩٨ جنيهًا إسترلينيًا)، ولشركة الاستثمار السعودي (الدولية) (بمبلغ قدره ١,٧٧٢,٣٠٤ جنيهات إسترلينية). وهذه المعلومات مستقاة من: Russell Wood Limited filings, Companies House, London, 1991.

كان ستوي هايوارد Stoy Hayward هو مراجع الحسابات. والمعلومات المتعلقة بالأوراق المالية والعقود المستقبلية تستند إلى: Russell Wood (Holdings) Limited filings, Companies House, 1997.

(٩) المعلومات الخاصة بجون بيلي وأكبر مُولّى تستند إلى: Russell Wood Limited filings, Companies House, London, 1987-1997.

وقول «لا داعي لمعرفة هذا الأمر» يستند إلى مقابلة أُجريت مع زميل سابق لأكبر مولّى طلب عدم الكشف عن هويته.

وبناء على توجيهات بكر، كان الرجلان يأخذان أوامرهما من أخيه شفيق غير الشقيق الذي كان مسؤولًا عن الشؤون المالية الدولية؛ ذلك المنصب الذي كان مخصصًا للتكامل مع دور حسن الذي كان يشرف على تطور الأعمال على المستوى الدولي. وكان شفيق يقضي فترات طويلة في أوروبا حيث كان يفضل الإقامة فقط في الفنادق مثل فندق نوغا هيلتون في جنيف. أكمل شفيق تعليمه في المدرسة الداخلية التي كانت تشرف عليها جماعة الكويكرز التبشيرية في لبنان، وتلقى تعليمه الجامعي في أمريكا، وهو ما أدّى به إلى أن يعيش بأسلوب حياة يصطبغ بالصبغة الغربية وهو في عقده الأربعين، من حيث الاجتماعات مع رجال الأعمال وحياة الليل المرحة؛ أي إنه عاش بأسلوب حياة يناقض تمامًا الأسلوب الذي عاش فيه أخوه أسامة غير الشقيق، خاصةً أن كليهما ولد وحيد لأمه من زواجهما من محمد، ويبدو أنهما وُلدا في شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٥٨م. وكان شفيق شخصية غريبة؛ أحيانًا كان يطيل خصلات شعره، وورد عن أحد زواره أن غرفه التي يقطنها في الفنادق كانت تعمها الفوضى كأنه ما زال في مرحلة المراهقة. ومع ذلك حصل على شهادة البكالوريوس في الأعمال من جامعة سان فرانسيسكو عام ١٩٨١م، وكان أحد الإخوة القلائل في عائلة بن لادن الذين استطاعوا الحفاظ على مكانتهم في مجال التمويل والاستثمارات التقنية، ذلك العالم الذي يسوده الغموض أحيانًا، عالم من المكالمات التي تتضمن أوامر بطرح الأسهم للبيع أو للشراء والخيارات أو الضمانات، وطلبات التغطية وتواريخ التفويض. ذكر لنا أحد شركاء العمل أن بكرًا ترأس لجنة استثمار في الوقت المناسب، وكانت تلك اللجنة مكوّنة من خمس إخوة من عائلة بن لادن وكان شفيق كبير مديري اللجنة[١٠].

---

(١٠) المعلومات الخاصة بغرف الفنادق والمظهر الخارجي مستمدة من الصور الفوتوغرافية التي اطلع عليها المؤلف إلى جانب عدة مقابلات أُجريت مع ثلاثة من معارف شفيق. والمعلومات المتعلقة بأحداث شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٥٨م تستند إلى التقرير: Symphony Advisers Ltd. filings, Companies House, London, 2000.

والمعلومات الخاصة بجامعة جنوب فلوريدا مستقاة من مكالمات هاتفية أُجريت مع غاري ماكدونالد بتاريخ ١٥ و١٦ مارس/ آذار عام ٢٠٠٦م. والمعلومات التي تقول إن شفيق كان من «الذين استطاعوا الحفاظ على مكانتهم . . .» تستند إلى مقابلة أُجريت مع زميل له طلب عدم الكشف عن هويته. والمعلومات الخاصة بلجنة الاستثمار مستقاة من مقابلة مع شريك عمل ثانٍ طلب عدم الكشف عن هويته.

استثمر أفراد عائلة بن لادن على مدار سنوات في هوامش الأرباح الغامضة التي تستثمر فيها الولايات المتحدة الأمريكية؛ مثل المباني التجارية العادية أو العمارات السكنية أو الشركات الربحية الآمنة واسعة الانتشار. وخلال منتصف التسعينيات، شرعت العائلة للمرة الأولى في تنفيذ استثمارات مالية أكثر تنوعًا وتطورًا خاصةً في الشركات التي تتمتع بعلاقات مع النخبة السياسية في كل من واشنطن ولندن.

كانت مجموعة شركة كارلايل غروب تمارس أنشطتها من مقرات فخمة في العقار رقم ١٠٠١ في شارع بنسيلفانيا، الذي يقع بين البيت الأبيض ومبنى البرلمان الأمريكي. وهي شركة للأسهم الخاصة؛ بمعنى أن شركاءها يحصلون على أموال من المستثمرين الأثرياء وذوي الشأن ويسهمون به في صناديق مشتركة ثم يستخدمونه لبيع الحصص وشرائها في شركات خاصة وأصول أخرى. وكان الشركاء يحققون أرباحهم ـ المهولة ـ عن طريق فرض مصروفات إدارية على مستثمريهم وإجراء صفقات مربحة. وكانت القوة المحركة لشركة كارلايل غروب متمثلة في محام شاب جاد في عمله يُدعى ديفيد روبنشتاين، الذي كان قد عمل وهو في سن صغيرة جدًّا مستشارًا للسياسة الداخلية للرئيس جيمي كارتر. وبالتعاون مع ستيفن نوريس، الخبير في مجال دمج المؤسسات، أسس روبنشتاين شركة كارلايل عام ١٩٨٧م، وأطلقوا على هذه الشركة هذا الاسم نسبةً إلى فندق كارلايل الفاخر في نيويورك. وبحلول عام ١٩٩٣م نمت المحفظة الاستثمارية للشركة حتى بلغت قرابة ٢ مليار دولار[١١].

أغرى روبنشتاين وزير الدفاع في إدارة بوش الأب فرانك كارلوتشي ليعمل نائبًا لرئيس الشركة، وأسهمت علاقاته بجهات التعاقد في البنتاغون في انخراط شركة كارلايل في مجال الدفاع. وأكد نجاح كارلوتشي، من وجهة نظر روبنشتاين، إيجابيات جذب ساسة بارزين ليعملوا بصفتهم شركاء في الشركة؛ فمما لا شك فيه أن سمعتهم الجيدة وشهرتهم ستساعد في جذب مستثمرين، إضافة إلى أن علاقاتهم وعلمهم ببواطن الأمور في الوزارة قد مهّد الطريق للحصول على صفقات رابحة. وبعد فوز كلينتون

(١١) المعلومات مستندة إلى: Briody, *The Iron Triangle*, pp. 1-89.

على بوش في انتخابات عام ١٩٩٢م، توجه روبنشتاين ونوريس إلى البيت الأبيض لمقابلة وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر. وفي ظلّ عودة الحزب الديمقراطي مرة أخرى إلى السلطة، كان بيكر مهيأ لصنع ثروة. واتخذ قرارًا بالعمل مستشارًا في شركة أثبتت نجاحها على حين غرة في مجال الطاقة في هيوستن أُطلق عليها شركة إنرون كوربوريشن، ووافق على أن يصبح شريكًا في شركة كارلايل غروب[١٢].

كان بايكر يتمتع بسمعة رائعة بين النخبة من العرب في الشرق الأوسط، خاصةً في منطقة الخليج العربي، ويعزو ذلك إلى حدّ بعيد إلى دوره الذي قام به في حرب الخليج. سافر بايكر بصحبة شركاء آخرين إضافة إلى القائمين على ترويج الاستثمارات في شركة كارلايل إلى الشرق الأوسط لتجميع أموال استثمارية من الأثرياء العرب. وتمثل دوره الأكثر أهمية ـ وأدوار غيره من القائمين على ترويج الاستثمارات من الشخصيات المرموقة مثل الرئيس جورج إتش دبليو بوش ورئيس الوزراء البريطاني السابق جون مايجور ـ في دعوة مليارديرات الجزيرة العربية إلى حفلات العشاء والندوات الخاصة، ووضع سجل شركة كارلايل غروب الرائع نصب أعينهم وإبراز توقعاتها الرائعة. ونجحت الخطة؛ ففي الفترة بين ١٩٩٤م و١٩٩٦م، جمّعت الشركة ١,٣ مليار دولار لصندوق استثماري أُطلق عليه «كارلايل بارتنرز الثاني». وكان من بين المستثمرين في الصندوق جورج سوروس، تاجر العملة فاحش الثراء الذي أودع بمفرده مئة مليون دولار، إلى جانب صناديق تقاعد مثل منظومة تقاعد موظفي العموم في كاليفورنيا الذي أسهم بمبلغ ٨٠ مليون دولار[١٣].

تناهى إلى مسامع عائلة بن لادن مستوى تطور شركة كارلايل غروب عام ١٩٩٥م من خلال فرع لندن. ووافقت العائلة على أن تسهم بمبلغ ٢ مليون دولار على الأقل. وكان جيم بايكر «يعرفهم تمام المعرفة» وكان «السياسي المفضل» لدى العائلة وفقًا لما ورد عن تشارلز شوارتز المحامي

---

(١٢) المصدر السابق من ص ٦٩ إلى ص ٨٠.

(١٣) المعلومات الخاصة بأن الشركة جمعت ١,٣ مليار دولار والمتعلقة بمنظومة تقاعد موظفي العموم في كاليفورنيا تستند إلى المصدر السابق ص ٨٥. والمعلومات المتعلقة بجورج سوروس تستند أيضًا إلى المصدر السابق نفسه ص ٨٤.

الذي يعمل في هيوستن والذي كان وكيلًا لأعمال عائلة بن لادن في تكساس. وعلى الرغم من أن شفيق بن لادن لم يصاحب وزير الخارجية الأسبق على العشاء أو في رحلات الصيد، فإن بكرًا خصه بحضور المؤتمرات التي تعقدها شركة كارلايل غروب ومتابعة استثمارات العائلة. وكانت هذه المهمة التي ستنقله في النهاية إلى العاصمة واشنطن في اليوم الذي سيشن أخوه غير الشقيق هجومه على المدينة(١٤).

كان شفيق يتولى أيضًا الإشراف على استثمارات العائلة في وكالة يونايتد برس إنترناشونال، وهي الوكالة الأمريكية الكبرى المختصة بتقديم الخدمات الإخبارية التي اشتراها اتحاد مكوّن من مستثمرين سعوديين، وكانت عائلة بن لادن وعائلة علي رضا من بينهم، في مزاد تصفية علني عام ١٩٩٢م بمبلغ ٤ ملايين دولار. وقد أدّى انتشار أطباق الأقمار الاصطناعية للبث التلفزيوني على أسطح المنازل السعودية خلال أوائل التسعينيات، وبث المحطات الفضائية الشهيرة باللغة العربية مثل الجزيرة وغيرها من المحطات التي كانت تضمر عداءً أو لامبالاة للنظام السعودي، كل ذلك أدّى بالحكومة السعودية إلى السعي لتأسيس بدائل تمتلكها مثل قناة العربية وتلفزيون الشرق الأوسط (إم بي سي). وتمثل الهدف من شراء وكالة يونايتد برس إنترناشونال في أن خدماتها الإخبارية يمكن أن تعزز من أداء محطة إم بي سي على الرغم من أنه لم يتضح قط لبعض المديرين التنفيذيين في وكالة يونايتد برس إنترناشونال هل قامت عائلات مثل عائلة بن لادن بهذا الاستثمار طوعًا أم بصفتهم شركاء خفيين للحكومة السعودية. وتدريجيًّا أصبح أحمد باديب، رئيس طاقم الرئاسة السابق للأمير تركي

---

(١٤) المعلومات تستند إلى: Briody, Ibid., p. 145

وهذا المرجع يقتبس من أقوال باسل الرحيم، وهو ممول من أصل عراقي، كان يعيش في المنفى، وجاء على لسانه أنه هو الذي أتاح الفرصة لآل بن لادن في ما يتعلق بشركة كارلايل الاستثمارية. وقد تأكد فحوى هذا الكلام بواسطة أحد الأشخاص ممن كانوا يعلمون بأمر عملية الاستثمار بيد أنه طلب عدم الكشف عن هويته. وقد استثمر آل بن لادن في شركة كارلايل بمبلغ مليوني دولار أمريكي في الوقت الذي بيعت فيه في خريف عام ٢٠٠١م، بينما تعطي لنا رواية بريودي رؤيةً تفيد بأن العائلة قد حققت استثمارات أكبر في أثناء حقبة التسعينيات من القرن العشرين وجنت ثمارها. ومسألة «السياسي المفضل» تستند إلى مقابلة أُجريت مع تشارلز شوارتز بتاريخ ٢٠ سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٦م.

رئيس الاستخبارات السعودية، رئيسًا لمجلس إدارتها. وتقاعد باديب وكان آنذاك يدير شركات دولية من باريس ولبنان. وتنازع معه أرنود دي بورشغريف الذي عمل لفترة وجيزة محررًا في وكالة يونايتد برس إنترناشونال بسبب المشكلات المالية التي عادة ما اعترضت سبيل الشركة. ويتذكر أرنود دي بورشغريف أن باديب في مرحلة ما أرسل إليه رسالة تنم عن استيائه قائلًا فيها: «إنني لا أستحسن انتقادك لإجراءات العمل التي أتخذها. وأريدك أن تعرف أنني استطعت جمع ثروة تبلغ ٥٠٠ مليون دولار أو يزيد على مدار سنوات عملي في الحكومة التي تزيد عن واحد وثلاثين عامًا»[١٥].

وفي اجتماعات مجلس الإدارة الربع سنوية، كان شفيق يجلس صامتًا، وبدا من وجهة نظر أرنود دي بورشغريف «رجلًا لم يفعل شيئًا في حياته بكل وضوح... أي إنه شخص مدلل». وبذل أعضاء مجلس الإدارة السعوديون قصارى جهدهم وحاولوا اتخاذ إجراءات مسبقة لتفادي الإفلاس، إلا أنهم باعوا حصصهم في نهاية المطاف لمصلحة حصة إحدى الشركات التي تديرها كنيسة صن ميونغ مون المثيرة للجدل في كوريا الجنوبية[١٦].

في الوقت الذي بدأ أسامة فيه نشر الرسائل الأولى التي كان يرسلها بالفاكس ليهاجم تبعية الملك فهد لأمريكا، واصل عدد من إخوته غير الأشقاء قضاء أوقات طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان خليل بن لادن يقضي في ذلك الحين فصل الصيف مع زوجته إيزابيل وأطفالهما في ضيعة ديزرت بير خارج أورلاندو. وحوّلت عائلتهم تلك الضيعة، على الأقل في بداية الأمر، إلى مكان أكثر هدوءًا مقارنةً بوضعها عندما كانت ذلك المنتجع الفخم الذي كان سالم يقضي فيه الإجازات. إذ كان خليل يجلس بجوار حمام السباحة في الأمسيات ينظر إلى أشجار الصفصاف

---

(١٥) المعلومات عن عملية الشراء السعودية وعن دعم تلفزيون الشرق الأوسط تستند إلى مقابلة أُجريت مع توبين بيك Tobin Beck المحرر السابق في وكالة يونايتد بريس إنترناشونال بتاريخ ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٥م. «إنني لا أستحسن انتقادك...» يستند هذا القول إلى مقابلة أُجريت مع أرنود دي بورشغريف Arnaud de Borchgrave بتاريخ ١٠ مارس/ آذار عام ٢٠٠٥م.

(١٦) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع بورشغريف في المصدر السابق.

والبحيرة ويشرب نارجيلة عربية. وكان يدعو الجيران إلى حفلات شواء، وبين الحين والآخر يطلق الألعاب النارية احتفالًا باستقلال أمريكا. وكان أطفال خليل وإيزابيل الذين تغلب عليهم اللكنة الأمريكية وأولاد أخواته وإخوته القادمين في زيارات من المملكة العربية السعودية، أو من كانوا يدرسون في المرحلة الإعدادية في الولايات المتحدة الأمريكية، يمرون على المجمع بين الحين والآخر. وكذلك كانت رجاء، أخت خليل غير الشقيقة، تزوره قادمة من لوس أنجلوس التي قضت فيها فترات طويلة جدًّا. ومن المعروف أن رجاء كانت تتقن قيادة الطائرات والسيارات بسرعة فائقة، وكانت تلك السرعة تجعل بعض معارف خليل يمزحون معبّرين عن خوفهم من استقلال السيارة التي تقودها رجاء[١٧].

كان عبد الله بن لادن، ثاني أصغر أبناء محمد، هو أكثر أفراد العائلة التصاقًا بأمريكا. وكان بعض أصدقائه يمزحون واصفين إياه بأنه كان طالبًا في مدرسة الحياة، وهناك جانب من الحقيقة في هذه المقولة. التحق عبد الله بالجامعة في سان دييغو ودرس القانون في المملكة العربية السعودية، وحصل على دورات دراسية في مجال المال والأعمال، ثم قدم أوراقه للالتحاق بكلية الحقوق في هارفارد للحصول على درجة الماجستير ثم الدكتوراه في الدراسة الأكاديمية للقانون أو النظريات القانونية، وليس بغرض الالتحاق ببرنامجها الصارم المثبط الذي يخرِّج أعدادًا مهولة من المحامين المؤهلين لاجتياز اختبارات المحاماة الأمريكية. وكان هذا المسار في كلية الحقوق التابعة لجامعة هارفارد يجذب إليه عددًا من الطلاب من كافة أنحاء العالم. وفي نهاية الأمر سيؤول الحال بعبد الله بن لادن للاستمرار في هارفارد لفترة تقارب الثماني سنوات. وقال أساتذته إن كل هذه السنوات لا تُعد أفضل ما يمكن أن يحققه المرء في الكلية إلا أنها لم تكن سيئة بقدر كبير؛ إذ لم يكن يدرس فيها على فترات متواصلة، إضافة إلى أنه افتتح مكتبًا صغيرًا في كامبريدج بولاية ماساتشوستس حيثما ركز اهتمامه على أطروحات دراساته وعلى مشروعات تجارية متنوعة خاصة

---

(١٧) المعلومات مستقاة من مقابلات أُجريت مع اثنين من أفراد العائلة وعدد من الجيران في ضيعة ديزرت بير الذين طلبوا عدم الكشف عن هويتهم.

بالعائلة. (وفي بداية التسعينيات قضت اثنتان من أخواته غير الشقيقات فترة من الوقت في بوسطن، وكان أخوه غير الشقيق محمد الأصغر منه سنًّا يقيم في المدينة، الذي كانت أمه حاملًا فيه عندما قضى محمد بن لادن نحبه عام ١٩٦٧م.) وكان عبد الله يستثمر في مشروعات مشتركة وغيرها على طول ميناء بوسطن. وفي وسط هؤلاء الإخوة والأخوات وكثير من أولادهم، وجد عبد الله نفسه أحيانًا بمنزلة الراعي متعدد الأغراض لعائلة بن لادن في نيو إنغلاند. وعلى مر هذه السنوات كان يمتلك شقه بالقرب من شارع بيكون عاش فيها وحيدًا. وفي منتصف التسعينيات كان قد وصل إلى أواخر العشرينيات من عمره، وكان متوسط الطول نحيفًا، يشبه أباه في أنفه المميز ووجنتيه، وشأنه شأن كثير من إخوته غير الأشقاء، كان يتّسم بالاستقامة التي بلغت حدّ الخجل الشديد، إلا أن شخصيته كان بها مسحة من الوقار المهيب، وكان دمث الخلق ودودًا وذكيًّا. وكان عبد الله يمتلك سيارة رانج روفر، ويفضل تناول الطعام في مطعم إيطالي بالقرب من شقته؛ مطعم باباراتزي[١٨].

في هارفارد كان لعبد الله أصدقاء آخرون من الدول العربية والإسلامية. وبين الحين والآخر كان يدعوهم إلى تناول العشاء؛ حتى إن بعضهم اندهش من قدرته على إعداد كثير من الأصناف بنفسه، وهو ما اعتبروه هواية استثنائية لرجل سعودي خاصةً أنه ثري. ولم يكن لديه أي خدم أو وصيفات خلال هذه الزيارات، وكان يقدم أصناف الخضروات التي تتميز بها منطقة الشرق الأوسط في أطباق بلاستيكية. وكان عبد الله يتّسم بتحفظ شديد وأدب جم بصورة كانت تغري أصدقاءه بمضايقته. وكانت لمى أبو عودة من بين أكثر الأشخاص المضايقين له وقاحةً، وهي امرأة أردنية كانت تعيش حياتها بصورة أكثر حيوية ومرحًا من عبد الله. أحبته لمى وعشقته لأبعد الحدود، لكنها قالت لاحقًا: «كنت أضايقه كثيرًا بسبب

(١٨) اعتمد هذا الوصف على مقابلات أُجريت مع عدد من الزملاء السابقين في الدراسة والمستشار الأكاديمي لعبد الله. والمعلومات المتعلقة بالسيارة الرانج روفر تستند إلى مكالمة هاتفية أُجريت مع ندى عبد الستار أبو سمرة في يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م (روبين شالمان). والمعلومات الخاصة بالشقة التي كان يقطنها بالقرب من شارع بيكون وعن مطعم بابا راتزي تستند إلى مكالمة هاتفية أُجريت مع لمى أبو عودة بتاريخ ١٥ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٦م (روبين شالمان).

تحفظه، وأجعله يضحك حتى تحمر وجنتاه من الخجل ويضحك حتى تحمر وجنتاه من الخجل ثانية. . . وأحاول دفعه إلى الانفعال». وكانت الطبقة الراقية في الأردن تفتخر بتطورها العلماني النسبي، وكانت لمى تجد متعة في التحدث بصخب بالغ عن «مدى التحفظ في الدولة التي تنتمي إليها، إضافة إلى تحفظ السعوديين الاجتماعي. وكنت أقوله له: «وراء كل رجل سعودي مستقيم مدمن ويسكي» لأجعله يضحك فحسب». كانت لمى تعشق التحدث بشكل خاص إلى عبد الله بشأن وسامته وثرائه، إلا أنه لم يواعدها قط في ما يبدو. وفي الواقع، كان عبد الله يتجاهل محاولات الأصدقاء الذين كانوا يسعون لترتيب مقابلات له مع السيدات واصفًا نفسه بأنه ليس مهتمًّا بالمواعدة على الأسلوب الغربي.

وما إن تقول له لمى: «عبد الله، إن كنت شاذًّا أخبرني». حتى يضحك قليلًا ثم يعود إلى تحفظه ثانية[١٩].

بحلول منتصف التسعينيات تنامى إلى علم كثيرين من أصدقاء عبد الله العرب في هارفارد ـ وغيرهم كثير من الزملاء الأمريكيين ـ نشاط أسامة المنشق وخاصةً تحديه الصريح للحكومة السعودية. وكانت لمى في حالتها المزاجية التي تتّسم بروح الدعابة تشرع في مدح أسامة أمام عبد الله والطلاب الآخرين قائلةً: «يوجد في تلك العائلة على الأقل شخص واحد شجاع. . . فجميعكم تريدون الحصول على المال، لكن هناك شخصًا على الأقل استطاع أن يقول «لا!»».

وتتذكر لمى أن رد عبد الله على ذلك كان وجيزًا ولم يقل شيئًا سوى: «اصمتي»[٢٠]!

كان فرانك إي. فوجل هو المشرف الأكاديمي على عبد الله، وهو نفسه الذي كان يوجهه في أبحاثه الدراسية في المملكة العربية السعودية وفي أثناء ذلك زار المحاكم الإسلامية لتحليل أسلوب تعاملها مع العقائد الدينية والمبادئ القانونية. أولى فوجل اهتمامًا أكاديميًّا بالغًا بالنظام

---

(١٩) كل الاقتباسات مستقاة من مقابلة أُجريت مع أبي عودة ـ المرجع السابق.

(٢٠) المصدر السابق.

السعودي، واكتشف أن عبد الله مهتم بالقضايا ذات الصلة ببحثه. وفي شهر مايو/أيار عام ١٩٩٢م، أنهى عبد الله رسالة الماجستير التي ضمت ١٠١ صفحة وأشرف عليها فوجل وجاءت تحت عنوان «الممارسات المصرفية الغربية، وأحكام الشريعة في المملكة العربية السعودية». وتناولت دراسته التعارض بين نظام الفوائد في الممارسات المصرفية للنظام المالي الغربي، وبين تحريم الفوائد في التشريعات الإسلامية كافة، وكيف تطورت هذه المبادئ على مر التاريخ ونشأت من النصوص الدينية. وبذل مجهودًا شاقًا للعثور على حلول في صيغة تسمح بالتقاء النظام المصرفي الحديث مع الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية. وكتب عبد الله في رسالته: «ستتحقق منافع هائلة إذا ما عمل المجتمع ككل بالتوافق مع الشريعة، إلى جانب تأسيس نظام اقتصادي إسلامي يمكن من خلاله حظر الفوائد بطريقة عملية»[٢١].

من خلال إعداده للحصول على درجة الدكتوراه، شرع عبد الله في تقديم المزيد من التفاصيل والتوضيحات المتعلقة بالموضوعات نفسها، وسيصل عدد صفحات رسالة الدكتوراه التي يعدها في النهاية إلى ٣٢٧ صفحة، وقد وردت تحت عنوان غير لافت للنظر هو: «إمكانية تداول الأدوات المالية في الأسواق المالية المعاصرة: تحليل قانوني إسلامي». وفي هذه الرسالة يتناول عبد الله كيفية تداول أدوات بعينها للسوق العالمية - مثل سندات الشراء وعقود المشاركة في الربح - في ظلّ نظام مالي إسلامي. واتسمت أطروحته بالوضوح وكثرة الحواشي السفلية فيها، على الرغم من اشتمالها على بعض النقاط المعقدة، وعندما أكمل عبد الله رسالته في نهاية الأمر، وقع حدثان ميّزا تاريخ عائلة بن لادن الممتد عبر القرون: أولهما أن عبد الله أصبح أول فرد في العائلة يحمل درجة الدكتوراه الأكاديمية (إلى جانب أخته رندا غير الشقيقة، التي كانت أول طبيبة في العائلة)، وثانيهما أنه أول شخص في العائلة يحصل على شهادة من كلية الحقوق التابعة لجامعة هارفارد. وعلى الصعيد الفكري بذل عبد الله محاولات جادة للتوفيق بين العالمين، العربي والغربي، اللذين

(٢١) المعلومات تستند إلى: Bin Laden, «Western Banking Practices...» p. 2.

كانت عائلة بن لادن تعيش وتعمل فيهما. واحترم فوجل «الدقة الأكاديمية» التي وجدها في رسالة الدكتوراه، قائلًا: «إنه كان شديد التركيز في مجال البحث الصعب والنصوص العويصة المبهمة». وفي ما يتعلق بموضوع الرسالة وإسقاطاته على عائلة بن لادن أو عبد الله، كان رأي فوجل عنه كالآتي: «إن عمل باحث سعودي في موضوع ذي صلة بالشريعة الإسلامية لا يكشف النقاب عما إذا كان مهتمًّا بالدين أم لا». وكان فوجل يرى أنه لا يوجد في المملكة أي سبيل آخر للتعامل مع الشؤون الاقتصادية[٢٢].

لم يفوت أساتذة كلية الحقوق فرصة الحصول على تبرعات في ظلّ وجود شاب ينتمي إلى عائلة بن لادن في هارفارد. وقرابة عام ١٩٩٣م ـ وهو العام نفسه الذي شهد افتتاح فيليب غريفن لشركة بن لادن خارج واشنطن ـ دخلت عائلة بن لادن في مناقشات مع عميد كلية الحقوق بهارفارد. وذكر فوجل أنهم «كانوا مهتمين بدراسة الإسلام في أماكن كثيرة». وأضاف أن المناقشات كانت «معتدلة ومتحفظة إلى حدّ بعيد». وأبلغ عبد الله المسؤولين في هارفارد أن بكرًا سيتبرع بمليون دولار للجامعة من حسابه الشخصي لدعم دراسة الأساليب الإسلامية، إلى جانب مليون دولار إضافي لدعم المنح والرواتب التي تُقدم إلى الطلاب الوافدين من الدول العربية ممن يريدون السير على نهج عبد الله والدراسة في كلية الحقوق في جامعة هارفارد. وسافر فوجل بصحبة عميد كلية الحقوق إلى المملكة العربية السعودية، واستقبلهما بكر في المقر الرئيس لـ مجموعة بن لادن السعودية حيث اطلعا على نماذج العمل التي نفذتها المجموعة في الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وأبديا إعجابهما الشديد بما رأوه. وأوضح فوجل للعائلة أن «من أهداف برنامجنا إقامة علاقات بالشرق الأوسط». وبالطبع لم يُذكر اسم أسامة في هذه المناقشات؛ لأنه لم يكن معروفًا على نطاق واسع خارج نطاق العالم العربي[٢٣].

خلال هذه الفترة التحق سلمان، أكبر أبناء سالم بن لادن، بجامعة

(٢٢) المعلومات تستند إلى مقابلات أُجريت مع فرانك فوغل في شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م (روبين شالمان).

(٢٣) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع فوجل ـ المصدر السابق.

تافتس، التي تقع خارج بوسطن. وتولى عبد الله الإشراف عليه هناك، ومن ثَم لاقى سلمان صعوبات بالغة في بعض الأحيان في إدارة شؤونه المالية والتحكم في صداقاته. وشعر أحد أساتذة سلمان، ويُدعى أندرو هيس، أن الطالب كان يعاني نفسيًّا بسبب موت أبيه المفاجئ في تكساس عام ١٩٨٨م. وكان سلمان يشبه أباه في بعض الجوانب، إذ كان يعزف الغيتار و يتحدّث الإنكليزية باللهجة البريطانية بطلاقة. وعلى مدار فترة وجوده في جامعة تافتس مر ببعض الإخفاقات والنجاحات، إلا أنه كان على صلة شخصية بهيس الذي عمل لسنوات طويلة في المملكة العربية السعودية في مجال النفط قبل أن يصبح أستاذًا جامعيًّا. ولاحقًا قدم سلمان أستاذه هيس إلى عمه عبد الله الذي حصل على الدكتوراه من هارفارد[٢٤].

تقابل الرجلان مرات عديدة على العشاء في مطعم آخر مفضل لدى عبد الله في كامبريدج، وكان اسمه «هلمند» نسبةً إلى إقليم في جنوب أفغانستان، وكانت تتولى إدارة المطعم عائلة أفغانية مهاجرة تُدعى عائلة كرزاي.

ذكر هيس لعبد الله على العشاء في مطعم «هلمند» أنه يواجه مشكلة مالية لدعم بعض برامجه الأكاديمية. فأبلغه عبد الله أن عائلة بن لادن مهتمة اهتمامًا بالغًا بدعم الدراسات الإسلامية. وقال له هيس إنه لو كان يمتلك أموالًا كافية، لاستقدم محاضرين ومتحدثين من العالم الإسلامي لتدريس الموضوعات الاقتصادية والسياسية التي تناسب المنهج الذي يُدرس في جامعة تافتس، ورد عليه عبد الله بأنه سيرى ما يمكنه فعله.

ومنح عبد الله إدارة جامعة تافتس شيكًا بقيمة ٣٥٠,٠٠٠ دولار[٢٥].

---

(٢٤) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع أندرو هيس في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥م (روبين شالمان).

(٢٥) المصدر السابق.

الفصل الحادي والثلاثون

مكتب طروادة

في الثالث عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٩٥م، انفجرت سيارة مفخخة تحمل ٢٥٠ رطلًا من المتفجرات في الرياض. وكان ذلك الهجوم أسوأ الأعمال الإرهابية التي حدثت في المملكة منذ أيام حرب اليمن التي دارت رحاها في الستينيات والتي كادت أن تُنسى. وهذه المرة لم يكن السعوديون هم المستهدفين. وقد لقي سبعة أفراد حتفهم من جراء هذا الهجوم، منهم خمسة أمريكيين، وجُرح أربعة وثلاثون آخرون. وتولى تنفيذ هذه العملية جهاديون أفغان سابقون، وسريعًا ما ضُربت أعناقهم، وقال أحدهم في اعتراف مصور تلفزيونيًّا إن خطب أسامة بن لادن ألهمتهم القيام بهذا العمل الإرهابي. ومن وجهة نظر عائلة بن لادن، كان الاحتمالان التاليان أحدهما أسوأ من الآخر؛ أن الاعتراف الذي أدلى به الإرهابي جدير بالتصديق، أو أن المحققين السعوديين ضغطوا عليه لتوريط أسامة علنًا لإضعاف الثقة به. وبمعنى آخر غير مباشر، كانت عائلة بن لادن أيضًا مستهدفة من هذا الهجوم. وكانت المنشأة المستهدفة هي مبنى أمريكي للتدريب تابع للحرس الوطني السعودي. وكانت شركة فينيل كوربوريشن إحدى شركات المقاولات المتواضعة المتخصصة في التدريبات العسكرية، وهي شركة محدودة النطاق قال عنها عضو سابق بمجلس إدارتها إنها على علاقة بوكالة الاستخبارات المركزية. وكان من بين المصابين في هذا العمل الإرهابي كثير من أزواج العاملين كمقاولين في شركة فينيل. وكانت مجموعة كارلايل آنذاك تمتلك الشركة على الرغم من أن هذه الملكية ليست من خلال الصندوق نفسه الذي كانت عائلة بن لادن تستثمر فيه. إلا أن الهدف الأكبر كان واحدًا؛ إذ إن العائلة آنذاك كانت رسميًّا في حرب مع نفسها،

حتى وإن كانت هذه الحرب بدائية وغير معلنة في كثير من جوانبها[١].

لم يفصح بكر بشيء علنًا بخلاف التصريحات الصحفية التي أدلى بها سابقًا، ولكنه حاول سرًّا أن يوضح للأمريكيين والأوروبيين الذين يعرفهم أنه مروَّع بتطرف أسامة الذي يتزايد عنفه. وقرابة الاحتفال بأعياد الكريسماس في عام ١٩٩٥م، أي بعد أسابيع قليلة من تفجيرات الرياض، تكفل بكر بتكاليف سفر عدد من أصدقاء سالم الأمريكيين والبريطانيين القدامى إلى جدة. وكانت ابنة سالم الكبرى التي تُدعى سارة ستتزوج حينئذٍ من شاب ينتمي إلى عائلة تجارية معروفة تعمل في مجال تجارة السيارات الذي يدر عائدات هائلة. وتمكن بكر من لم شمل بعض الطيارين والموسيقيين الذين عرفهم سالم في الأيام الخوالي[٢].

كانت التناقضات المتراكمة آنذاك داخل نطاق العائلة مهولة حتى في المنزل الرئيس للعائلة في جدة. وكان القصر المطل على البحر الأحمر الذي يمتلكه بكر يبعد بمسافة أميال قليلة جنوب أحد المشروعات العقارية العملاقة التي نفذتها العائلة، وهو مشروع «منتجع الصالحية لوتس بيتش». وقد أُطلق هذا الاسم على المشروع التنموي نسبةً إلى صالح بن لادن، أخي بكر غير الشقيق الذي كان كثير الأسفار إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وافتُتح المنتجع باعتباره ناديًا خاصًّا يطل على شاطئ البحر شمالي جدة حيث كان يضم مئتي شاليه وشقة صغيرة جاهزة للسكن. وكان حراس الأمن يدققون النظر في أسماء الأعضاء السعوديين والضيوف الأجانب المسموح لهم بالدخول قبل السماح لأي شخص بالمرور إلى المنتجع. وذات مرة تبين أن سبب تشديد الحراسة الأمنية بهذه الصورة وجود سيدات يرتدين البيكيني يتمددن على الشاطئ مع رجال بملابس السباحة، وسعوديون يجلسون مع أجانب من الجنسين، ومسيحيون لبنانيون يلهون في حمام السباحة مرتدين

---

(١) المعلومات عن السيارة المفخخة مستقاة من: United States Senate Select Committee on Intelligence, staff report, September 12, 1996.

والمعلومات الخاصة بعضو مجلس إدارة شركة فينيل السابق مستقاة من: Briody, *The Iron Triangle*, p. 67.

(٢) المعلومات المتعلقة بكريسماس عام ١٩٩٥م وسفر ضيوف بكر من أمريكا مستندة إلى مقابلة أُجريت مع جيرالد أورباخ بتاريخ ١١ مايو/ أيار عام ٢٠٠٥م.

الصلبان المتدلية حول رقابهم. وبدا الأمر كما لو كانت عائلة بن لادن شيدت مملكة عربية سعودية بديلة في بقعة ثرية في ضواحي جدة الشمالية[٣].

على النقيض من ذلك، وبعيدًا عن النادي المطل على الشاطئ في حفل زواج سارة، تحول بكر إلى شخصية أكثر تمسكًا بالتقاليد؛ حيث أصر على عدم الاختلاط بين الجنسين بالإضافة إلى قصر المشروبات على عصائر الفاكهة، ودعا بكر بعض ضيوفه الأجانب على متن قاربه الكبير المغلف بالفولاذ وأبحر بهم على صفحة البحر الأحمر. وفي الظهيرة أرسى بكر القارب ليتمكن ضيوفه من السباحة بجانبه، وشعر الجميع بسعادة بالغة على مدار أيام الاحتفال. وطُلب من أنيتا بيتزا، عازفة البيانو، وجيرالد أورباخ، الطيار الأمريكي الذي قاد الطائرات لمحمد وسالم وكان آنذاك قد بلغ السبعين من عمره، بأداء بعض الفقرات التي كان سالم يعشقها، وغنى أورباخ أغنية «أعلى جبل أولد سموكي» إحياءً لذكرى الأيام الخوالي[٤].

تزامنت البداية الصامتة للحرب التي شنها أسامة على المملكة العربية السعودية مع نهاية حكم الملك فهد، أو على الأقل نهاية قدرته على حكم البلاد السعودية بنشاط وحيوية. وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٩٥م، أُصيب فهد بسكتة دماغية حادة. وربما كانت تفجيرات الرياض وما أعقبها من أحداث هي السبب الذي أدّى إلى ارتفاع ضغط دمه، أو ربما كان سنه أو الجينات الوراثية أو إصابته بالسمنة التي أهمل في علاجها. كان فهد على مشارف الموت إلا أن أطباءه بذلوا ما في وسعهم لإنقاذه ما داموا يستفيدون من رعايته وسخائه. وفي أثناء ذلك تزايدت وتيرة التنافس على خلافة فهد في دراما تشبه ما حدث في عصر الملكة إليزابيث، ولكن الأبطال في هذه المرة هم أفراد العائلة المالكة السعودية.

كانت هناك مؤامرة تُحاك على أرض الواقع ولكن لا تُعرف أبعادها، أو

---

(٣) المعلومات مستقاة من مقابلات أُجريت مع عدد من الضيوف والأعضاء الذين اعتادوا زيارته منذ تسعينيات القرن العشرين. وجدير بالذكر أن المؤلف ذهب إلى النادي كضيف في الآونة الأخيرة. والمعلومات الخاصة بالشاليهات والاستديوهات التي بلغ عددها مئتي وواحد مستندة إلى الموقع الإلكتروني لمجموعة بن لادن السعودية، وقد تصفح بيتر بيرغن الموقع وطبع منه ما يريد قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م.

(٤) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع أورباخ ـ المصدر السابق.

أن الأمر يبدو كما لو كان افتراضيًّا وليس واقعيًّا، ولكن المؤكد هو أن كل مخططاتها التمهيدية كانت شديدة الوضوح، فما دام فهد على قيد الحياة ولو إكلينيكيًّا، يظل الملك حتى وإن لم يَقْوَ على فعل شيء سوى هز رأسه في صمت وهو جالس على كرسيه المتحرك. ولم يكن لآل سعود أي تجربة سابقة بخلع ملك مريض، وعلى كلّ، يمكن أن يتولى ولي العهد إدارة زمام الأمور بدلًا منه بصفة مؤقتة. ولكن كي يُتخذ مثل هذا القرار، هناك كثير من الإجراءات التي تتعدى الإجراءات الدستورية. فما دام فهد لا يزال جالسًا على العرش، فإن إخوته الأشقاء ـ سلطان الذي يتولى وزارة الدفاع، ونايف وأحمد اللذان يديران وزارة الداخلية، وسلمان أمير الرياض ـ ربما يحتفظون بسلطاتهم الواسعة التي لا تضاهيها سلطة في تلك الوزارات السيادية الخاضعة لسلطانهم، مع عدم وجود رقيب عليهم في العقود التي يبرمونها والإشراف على الآلات الدعائية التي تروج لهم. إضافة إلى ذلك، ربما يواصل ابن الملك فهد المفضل عبد العزيز عادته في تكديس ثروته وثروات من حوله. (وبحلول عام ١٩٩٣م حظيت الشركات التي تسيطر عليها عائلة إبراهيم، وهم أخوال عبد العزيز، بملكية عقارات في الولايات المتحدة الأمريكية تُقدر بما يزيد عن ١,٢ مليار دولار، ومن بينها فنادق ريتز كارلتون في نيويورك وواشنطن وهيوستن وآسبن، إلى جانب مزرعة خيول ومواشي في كولورادو تبلغ مساحتها ٢٣,٠٠٠ فدان، ومجمع مارينا ديل راي في لوس أنجلوس، ومنتجع سيقام بالقرب من ديزني وورلد). وفي حالة وفاة فهد سيعتلي العرش ولي العهد الأمير عبد الله المعروف في أوساط حاشية فهد بأنه حريص وضيق الأفق ومنزوٍ عن الآخرين وعنيد ولا يمكن الاعتماد عليه. وذكر وايش فولر الذي عمل سفيرًا أمريكيًّا في المملكة العربية السعودية بعد أن انكشفت هذه القصة أن إخوة فهد الأشقاء «لم يكونوا متحمسين من أعماقهم لأن يتولى عبد الله سدة الحكم»[٥].

---

(٥) المعلومات الخاصة بالملكية العقارية التي كانت في حوزة عائلة إبراهيم مستقاة من: *Los Angeles Business Journal*, July 26, 1993.

ويقتبس المقال بيانًا صحفيًا أصدرته شركة نيو فيلد للمشروعات الدولية وهي شركة قابضة تمتلكها العائلة. والمعلومات الخاصة بأن «إخوة فهد الأشقاء «لم يكونوا متحمسين من أعماقهم لأن يتولى عبد الله سدة الحكم»» مستقاة من مقابلةٍ أُجريت مع وايش فولر Wyche Fowler بتاريخ ١ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٥م.

كان عبد الله عادة «فظًّا ومندفعًا رغم تمتعه بشعبية جارفة»[٦]، كما ورد عن دبلوماسي بريطاني منذ عدة عقود مضت. فلم يحظ عبد الله بتعليم رسمي رفيع المستوى، إلا أن اتصاله المستمر عبر العقود بالمجندين القبليين في قوات الحرس الوطني جعله يهتم بالاستماع إلى رأي العامة أو على الأقل آراء الجنود المنتمين إلى القبائل الكبرى. وفي الوقت الذي أُصيب فهد فيه بالسكتة الدماغية، أدرك عبد الله في ما يبدو أن المملكة لا يمكن أن تستمر في الانسياق مع التيار متجاهلةً تبذير العائلة المالكة كما فعلت لمدة طويلة، وهو ما لم يدركه ابن فهد وإخوته الأشقاء وإخوة زوجته. انخفضت أسعار النفط بصورة مطردة خلال التسعينيات، ووصلت في النهاية إلى أدنى مستوياتها في تاريخ النفط في المملكة، إذا اتُّخذ التضخم في الاعتبار. وانخفض كذلك متوسط دخل الفرد في المملكة العربية السعودية انخفاضًا شديدًا، مع أنه ارتفع خلال فترة الطفرة النفطية المبدئية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى عدد السكان السعوديين الذي ارتفع بمعدلات خطيرة. ومع ذلك ظلّ السعوديون يستخدمون أدوات بدائية في أماكن عملهم الحديثة، وسيطرت المناهج الدينية على جامعات المملكة. وفي السبعينيات لم يكن عبد الله الذي يعيش في قصوره الفخمة ومزارعه الصحراوية، إصلاحيًّا استثنائيًّا، إلا أنه عزم على الأقل على إيقاف نزيف التبذير الواضح للأمراء ذوي الشأن واستيلائهم على المال العام لمصالحهم الخاصة. وحاول عبد الله بعد أن أُصيب فهد بالسكتة الدماغية أن يفسخ أسوأ العقود أو يلغيها، مثل صفقة اليمامة التي كان يشرف عليها الأمير سلطان، إلا أنه أدرك صعوبة تنفيذ حملته المناهضة للفساد. ووفقًا لما ورد عن فاولر، كانت حاشية فهد تراوغ أحيانًا في تنفيذ الأوامر العليا التي كان فهد يصدرها ـ من جملة أشياء أخرى ـ بخصوص العقود عن طريق تحويلها إلى عبد العزيز؛ ذلك الشاب الذي لا غبار عليه، والذي كان لا يزال آنذاك الابن المفضل للملك. وبعد ذلك، كان على عبد الله أن يواجه أيضًا أفراد عائلته المهتمين باغتنام فرص المشروعات. وكان بعض أبنائه وقتئذٍ يحاولون اقتحام ميدان العمل التجاري، وكان أحد أبنائه زميل دراسة لعبد العزيز.

---

(٦) المعلومات مستندة إلى: Burdett (ed.), *Records of Saudi Arabia, 1966-1971, Volume 2: 1967, Part I.*

وعلى الرغم من أن عبد الله ربما كان يمكنه معرفة ما تحتاج إليه المملكة العربية السعودية، فإنه كان له شركاء في السلطة، إضافة إلى أنه افتقر إلى وجود حلفاء أقوياء له تربطه بهم صلة قرابة، ولم يكن لديه رؤية للتغيير. وسريعًا ما تبين أن الإصلاح السياسي والاقتصادي في المملكة يمكن أن يكون في ظلّ أفضل الظروف مشروعًا ثوريًّا يمكن أي طرف تقييم مدة تقدمه، وذلك لا يتوافق على الإطلاق مع المنهج الذي تمنى أسامة بن لادن وحلفاؤه المنشقون في لندن بوضوح أن يناصره عبد الله.

في الوقت الذي ظهر فيه ميل أسامة نحو العنف في عام ١٩٩٦م، تركز اهتمام عائلته على تقوية صلاتها بأمريكا وحماية نفسها من تكبد الخسائر. على النقيض من ذلك، تدهورت العلاقات بين آل سعود وواشنطن. إضافة إلى أن ظهور الأيديولوجية الإسلامية القوية التي انتشرت في كل الأرجاء وكذلك فكر العنف الجهادي الذي دعمت التبرعات السعودية جزءًا منه، عمل على زيادة الفرقة والانشقاق. وكانت هناك عوامل أكثر بروزًا؛ منها عجز فهد المفاجئ لأنه كان أكثر الملوك المناصرين لأمريكا في التاريخ السعودي. وفي السفارة السعودية في واشنطن فشل بندر بن سلطان ـ السفير الذي عمل في السفارة فترة طويلة ـ في إقامة علاقة ناجحة مع كلينتون، وكانت لهما شخصيتان متشابهتان وبدا أن أحدهما يضايق الآخر. وانساق بندر نحو شؤون دبلوماسية لا صلة له بها، وتحولت سفارته، التي كانت تعج بالبيروقراطيين السعوديين الذين يعملون في وزارتي الأوقاف والتعليم ولا يجيدون الإنكليزية، إلى عقبة أمام المحادثات اليومية التي تُجرى بين الحكومتين. وفي وقت قصير للغاية انتهت العلاقة الحميمة بين واشنطن والرياض بأسرع من المتوقع، بعد أن مرت بكثير من الأزمات والمنحنيات، مع أن تلك العلاقة كانت سيدة الموقف خلال الحرب الباردة وحرب الخليج. ونشأ بدلًا من ذلك ارتباط مشوش يتّسم بالازدراء المتبادل بين الطرفين، علاوة على ندرة المحادثات بين المسؤولين في الدولتين، بينما أبدى موظفو القيادة الوسطى وموظفو مجلس الوزراء غضبهم من زملائهم بسبب إهمال ملف التعاون بين البلدين والفشل في متابعته.

في بداية عام ١٩٩٦م شكلت وكالة الاستخبارات الأمريكية وحدة جديدة لاقتفاء آثار أسامة بعد أن فطنت إلى دعم أسامة للهجمات العنيفة

على الأهداف الأمريكية والعربية. قدم قائد تلك الوحدة مايكل شوير طلبًا إلى الحكومة السعودية في أولى مهامه للاطلاع على المعلومات الأساسية عن أسامة بن لادن؛ سجلاته الطبية وشهادة ميلاده، إن وُجدت، ونسخ من تصريح الإقامة وجواز السفر الذي زعمت الحكومة أنها سحبته منه في ما سبق. ولم يحصل شوير على أي رد، وسريعًا ما خلص إلى أن الحكومة السعودية يجب أن تُعتبر «عدوًّا» للولايات المتحدة الأمريكية في ما يتعلق بموضوع أسامة وميليشياته الإسلامية. وكان هذا هو النص نفسه الذي استخدمته وكالة الاستخبارات الأمريكية لوصف الخدمات الاستخباراتية في كل من كوبا وإيران. وذكر شوير لاحقًا أنهم: «رفضوا أن يفعلوا أي شيء لمساعدتنا أو حتى تقديم أقل قدر من المعلومات». وتسربت شكوك إلى شوير وغيره من ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية في احتمالية أن يكون أسامة قد جنّد مؤيدين أو عملاء له داخل الاستخبارات السعودية أو الحراسات الأمنية السعودية. وورد في تحليل شوير للموقف أن الحراسات الأمنية السعودية نفسها سعت منذ البداية إلى العنف الذي أثاره بن لادن لحماية نفسها من التحقيقات الأمريكية في تواطؤ المملكة العربية السري مع أسامة في الماضي، في الأحداث التي يعود تاريخها إلى حرب الأفغان ضدّ الاتحاد السوفياتي. واختتم شوير تحليله بأن «ابن لادن يعرف كثيرًا بشأن من كان يتعامل معه السعوديون خلال الحرب الأفغانية وآليات تحويل الأموال حينها... لقد كانوا يعملون على حماية العائلة المالكة والجثث المدفونة منذ الحرب الأفغانية». وكان شوير يعتقد، شأنه شأن ريتشارد كلارك مساعد كلينتون في إدارة مكافحة الإرهاب، أن الحكومة السعودية كانت على علم ببعض مغامرات أسامة في اليمن الجنوبي، وليس العمليات الجهادية القذرة التي ذكرها الأمير تركي لاحقًا. وورد في تحليل شوير أيضًا أن هذه الحكايات لا بد من أن تُحجب عن الأمريكيين[٧].

لم يشأ شوير أن يعرف السعوديون شيئًا عن المعلومات الحساسة

(٧) المعلومات الخاصة بطلب وكالة الاستخبارات الأمريكية إلى جانب كل الاقتباسات المأخوذة من شوير تستند إلى مقابلة أُجريت معه بتاريخ ٥ يوليو/ تموز عام ٢٠٠٥م. والمعلومات الخاصة باعتقاد كلارك عن الأنشطة التي كانت تحدث في اليمن مستقاة من: Clarke, *Against All Enemies*, p. 59.

التي توصلت إليها وكالة الاستخبارات الأمريكية خوفًا من تسريبها إلى أسامة. وشعر بعض السعوديين من جانبهم الشعور نفسه تجاه وكالة الاستخبارات الأمريكية. وعندما كانوا يمررون معلومات غاية في الحساسية، كانوا عادة يقرؤونها في الصحف الأمريكية أو يسمعونها على محطة سي إن إن الإخبارية.

كان الأمير نايف، وزير الداخلية، يمثل أكبر عقبة في طريق تبادل الثقة والتعاون بين البلدين بعد السكتة الدماغية التي أصابت فهد. كان نايف يضمر مشاعر شديدة العدائية لوكالة الاستخبارات الأمريكية. فخلال السبعينيات قدمت إليه الوكالة مكتبًا جديدًا كهدية، وبعد فترة اكتشف نايف وجود أداة تنصت مثبتة في المكتب. ولديه ذكريات لا تُنسى بهذا الشأن[٨].

(٨) المعلومات تستند إلى مقابلات أُجريت مع أربعة مسؤولين أمريكيين سابقين كانوا على علم بعملية التنصت وآثارها. وعلى ما يبدو حاول روبرت باير Robert Baer المسؤول السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية ـ في كتابه *Sleeping with the Devil* ـ كشف تلك الحادثة على الملأ لأول مرة، بيد أن المادة التي كان يحتفظ بها نقحها مراقبو المطبوعات في وكالة الاستخبارات الأمريكية، وكان لزامًا عليه أن يُسلم نسخته إليهم لأنه خدم سابقًا في الحكومة. وعمد باير إلى وضع سطور سوداء في كتابه المنشور بغرض إرشاد القراء إلى الأماكن التي اقتطع منها المراقبون من مسودته. وعلى سبيل المثال في صفحة ١٨ من الكتاب، كتب باير «تعجبت كثيرًا من سبب الكراهية الشديدة التي كان يحملها (نايف) تجاه الولايات المتحدة». وقد تبع هذه الجملة خمسة أسطر منقحة. (ولم يكن باير المصدر الذي كشف المعلومة، لذا يمكن أنه كان يحاول برهنة نقطة أخرى).

الفصل الثاني والثلاثون

طقوس العبادة

كان مواطنو المملكة العربية السعودية يشكلون نسبةً صغيرة من عدد السكان المسلمين في جميع أنحاء العالم، بلغت في منتصف التسعينيات أقل من ٢ في المئة. ومع ذلك كان تأثير المملكة في الفكر الإسلامي هائلًا. وتبين أن السبب وراء ذلك الثروة التي كانت المملكة تمتلكها من النفط والعمليات التي كانت تُنفذ بغرض نشر الدعوة؛ من بناء مساجد في الدول المسلمة الفقيرة وإغداق الأموال على أئمة المدرسة الوهابية للإشراف على هذه المساجد، إلى جانب طباعة المنشورات وتوزيع النصوص التعليمية للشباب. . . إلخ. إلا أن عدد المسلمين الذين تأثروا بصورة فردية بالالتزام الديني الجديد الذي كلف السعوديين كثيرًا ظلّ صغيرًا بصورة نسبية، وكانت فريضة الحج التي يؤديها المسلمون سنويًّا هي الأكثر أهمية في الدين الإسلامي. وعندما أسس الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية في بدايات القرن العشرين، كان موسم الحج المزدحم يشهده خمسون ألف حاج وافد إلى المملكة. إلا أن عصر الطائرات النفاثة والطفرة النفطية وزيادة عدد المسلمين من الطبقة الوسطى في آسيا وغيرها من البلدان كانت من العوامل التي أدّت في نهاية التسعينيات إلى وصول عدد الحجاج إلى قرابة ٢ مليون حاج سنويًّا. ويتوافد الحجاج كل عام في الوقت نفسه إلى المملكة، ويذهبون إلى الأماكن نفسها في كل من مكة والمدينة المنورة في الوقت ذاته تقريبًا. ويطؤون الأراضي السعودية بحالة من الروحانية السامية التي تصل في بعض الأحيان إلى حدّ الشوق أو النشوة. وفي أثناء تلك الرحلة الثرية بالمشاعر المعروفة شعائرها مسبقًا،

يكتشف ملايينُ المسلمين المملكة العربية السعودية الحديثة ويشكلون انطباعاتهم عنها؛ في خطوات واثقة تشبه اكتشاف السعوديين لأمريكا في أثناء الإجازات التي يقضونها في ديزني وورلد وغرب لوس أنجلوس. إلا أن الرحلتين لا تصلان مطلقًا إلى حدّ الكمال، وهنا تكمن قوتهما وصدقهما.

تتصاعد مشاعر الاستياء والحنق أحيانًا تجاه المملكة العربية السعودية في نفوس الوافدين من الدول الإسلامية الفقيرة مثل مصر أو الهند والحاصلين على تعليم رفيع المستوى ولديهم وعي بمجريات الأحداث العالمية، لسببين: **أولهما**، ثروة المملكة الطائلة التي حققتها مؤخرًا وأخذت تبذرها تبذيرًا، و**ثانيهما**، معتقداتها الدينية الصارمة. ويا له من تشوش يشعر به المرء عندما يواجه للمرة الأولى في حياته الجانب العصري للمملكة الذي تتجسد فيه المباني المشيدة بالخرسانة المسلحة، ويعكس قدرًا من الإفراط والترف، ويرتبط بصورة أو بأخرى بعقائدها الدينية الصارمة. وربما يتجه الحاج أو المعتمر إلى المملكة العربية السعودية متطلعًا إلى النقاء الداخلي، ويكتشف في النهاية أن هذا النقاء الذي عثر عليه يمكن أن تلوثه التفاهات وأشكال الرفاهية الأخرى.

يتذكر عبد الله حمودي عالم الأنثروبولوجيا المغربي الذي وصل إلى المملكة العربية السعودية لأداء فريضة الحج في أواخر التسعينيات أنه «من خلال النافذة رأى من الوهلة الأولى في المدينة المنورة الشاحنات المتوقفة في صفوفٍ امتدت على مرمى البصر». وتوجه إلى وسط المدينة حيثما رأى بعينيه «التجديدات الرائعة» التي نفذتها عائلة بن لادن في المسجد النبوي برعاية الملك فهد. وهناك أدهشته مصابيح الأضواء الغامرة والحليات النحاسية اللامعة، وقال عنها: «إنها في ضخامتها والمآذن التي تنيرها تشبه الثريات الضخمة التي تنير السماء. بالإضافة إلى أنها بدت للحظة كأنها تسبح في صفحة السماء الزرقاء». ومع ذلك، عندما مشى حمودي في شوارعها المحيطة، وفي الأحياء التي أعيد تجديدها في الحملة السعودية العصرية، لم ير شيئًا من تاريخ المدينة المعماري أو الديني الثري، بل رأى «نوافذ المتاجر والمنتجات الاستهلاكية» فحسب:

سجاد وأغطية رأس وملاءات وعمامات ونعال وأحزمة وساعات

وبوصلات وأجهزة راديو وأطقم شاي وأطقم قهوة وقمصان وأثواب وبطاطين وأحذية وأجهزة تلفاز وفيديو كاسيت وكمبيوتر وحاسبات وعطور وبخور ونباتات عطرية. . . ومصاعد ومكيفات هواء ومطاعم وكافيتريات ومحلات بيع آيس كريم، وكلها على النمط الأمريكي: من حيث الخدمة الذاتية والأطباق والأكواب المصنوعة من الورق المقوى والشّوْك والسكاكين البلاستيكية وقوائم وأسعار الوجبات المعروضة على ألواح مضاءة بالنيون. . . أتلفت «العصرية» كل شيء[1].

شق حمودي طريقه وسط الزحام داخل المسجد ليلمح قبر النبي محمد الذي يوجد في غرفة غير مزخرفة، ليراقب الشرطة الدينية السعودية المنتشرة في كل مكان، ووظيفتها هي العَسَس في المسجد حاملةً العصي لضرب المصلين الذين يقفون وقتًا طويلًا عند القبر أو يبالغون في التعبير عن مشاعرهم هناك، خشية وقوعهم في الشرك بالله. إضافة إلى ذلك، تعسُّ قوات الشرطة الدينية هذه في كل مكان في المدينة، عند المقابر ومواقع الغزوات التاريخية وأضرحة الشيعة لمنع الصلاة في غير أوقاتها هناك أو أي مظاهر للحماسة الدينية الصادرة عن غير أهل السنة أو الذين يدفعهم حنينهم إلى ذلك. وعلى مدار قرون في ظلّ أنظمة الحكم السابقة، خاصةً الحكم العثماني، شهدت المدينة ـ بل دعمت ـ التنوع العالمي للمعتقدات والممارسات في الإسلام، واستنتج حمودي أن العقيدة المسيطرة على المملكة العربية السعودية انتشرت بقوة وبثقة:

لقد جعلوا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تهبط إلى مستوى كتب وصفات الطهي، ووكلوا مهمة تنفيذها إلى الميليشيات. . . وهذا في الواقع أحد أشكال الحكم المطلق الحديث، الذي يعتبر أقرب إلى النظام السوفياتي البائد عن دستور المدينة أو الأعراف البدوية. إذ كانت هناك طبقة من التكنوقراط تتولى تنفيذ صيغة متشددة للغاية ويستخدمون أساليب متقدمة

---

(١) المعلومات مستقاة من: Hammoudi, *A Season in Mecca*.

«من خلال النافذة رأى من الوهلة الأولى . . .» هذه المعلومات مستقاة من ص ٧٤ إلى ص ٧٥. «. . . وأسعار الوجبات المعروضة على ألواح مضاءة بالنيون». مستقاة ص ٨٢ إلى ص ٨٤. «أتلفت العصرية . . .» مستقاة من ص ١١١.

للتواصل والتجسس، وطرقًا لإثارة الرعب وإكراه الناس يوميًّا على فعل ما يريدون تحت تهديد، وقوة دعائية لهم يمكن أن تعيد هيكلة التقاليد والضغوط الاجتماعية لمصلحتهم الخاصة. وقدمت إلينا هذه الصيغة ـ في المدينة وغيرها من المدن ـ نسخة معدلة من المدينة الشريفة؛ نسختها فحسب، ليس أكثر[٢].

ولكن لمن هذه النسخة على وجه الدقة؟ ينتمي الإطار الديني إلى المؤسسة الدينية السعودية شبه المستقلة التي تدعمها العائلة المالكة. وسيطر العلماء الإسلاميون السعوديون على قدر هائل من صياغة الأحكام الدينية ـ وليس كلها ـ المتعلقة بالحج. (على سبيل المثال، في المملكة العربية السعودية إذا اتخذ علماء السنة المتعصبون قراراتهم من دون الرجوع إلى أية جهة، يمكن أن يحرّموا على الشيعة أداء فريضة الحج معهم، إلا أن رغبة العائلة المالكة انسياقًا في تجنب مواجهات لا قبل لأحد بها جعلتها تتوصل إلى قرار وسطي يمكن أن يشهد الشيعة بموجبه موسم الحج في حالة تقبلهم قيود بعينها.) وقد شكّل الملك فهد الإطار المادي لفريضة الحج. جدير بالذكر أن التطلعات المعمارية لكل من الحرمين الشريفين المجددين ـ بأن يكونا أكبر وأفضل وأبهى إضاءة ومحاطين بالأبراج والمتاجر الكبرى ومراقبين بكاميرات الأمن من جميع جوانبهما ـ عكست الروح نفسها التي أضفاها فهد خلال الثمانينيات في أثناء تجديد طائرته البوينغ ٧٤٧. وبدت أفكاره عن التخطيط العمراني وغيره من الأشياء الأخرى وكأنها تعكس «رغبة متعمدة لمحو الماضي» كما ورد على لسان حمودي. وذلك يعد من أحد جوانبه خضوعًا آخر للمؤسسة الدينية التي كانت تنظر إلى كل مدارس الفن والمعمار الإسلامي في الحقبة بين موت النبي وميلاد هذا الفن في أرض الحجاز في العشرينيات على أنها غير شرعية. إضافة إلى أنه سادت حالة عامة من عدم المبالاة في أوساط العائلة المالكة السعودية بخصوص الحفاظ على التاريخ والآثار القديمة. ويمكن القول إن التصميمات التي ظهرت في أثناء تنفيذ مشروعات تطوير مكة والمدينة في أواخر الثمانينيات ومنتصف التسعينيات ـ على النحو الذي يعدّ مشابهًا لديزني وسلسلة فنادق ريتز كارلتون ـ نشأت مع فهد، إلا أنها ظهرت إلى النور إلى حدّ بعيد بفضل

(٢) المصدر السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١١٥.

عائلة بن لادن، خاصةً بكرًا الذي أخذ على عاتقه مسؤولية تنفيذ مشروع فهد في الرياض واهتمّ شخصيًّا بالعمل في المدينة المنورة. وبحلول عام ١٩٩٥م أصبحت مشروعات التجديد الأخرى أكبر مصدر للربح لشركة محمد بن لادن؛ قُدّر حجم الإنفاق الإجمالي الذي قام به فهد في مكة والمدينة خلال هذه الفترة بمبلغ ٢٥ مليار دولار. وربما يكون في هذا القدر من المال مبالغة الهدف منها إبهار العالم الإسلامي، إلا أن أعمال المقاولات ـ التي نفّذتها شركة محمد بن لادن بالأمر المباشر وباعتبارها مصدر الدخل الوحيد ـ بلغت عدة مليارات من الدولارات[٣].

عندما زار الملك فهد مواقع البناء في مكة والمدينة قبل أن يُصاب بالسكتة الدماغية، اصطحبه بكر في عربة غولف بيضاء باعتبارها وسيلة انتقال عكست التصور الذي بدا أنهم يشتركان فيه عن الحياة في المملكة العربية السعودية؛ كأنهما في فلوريدا. وقد درس بكر في جامعة ميامي خلال أوائل السبعينيات المعمار الأساسي في حرم جامعة مكتظ بالغرف الخرسانية البيضاء المبنيّة في منتصف القرن، وفي ولاية تضم مركز إيبكوت سنتر في مدينة ديزني الذي يُعد أكثر المزارات السياحية الرائعة تقدمًا وجذبًا للمستهلكين من جميع أنحاء العالم. وهو مكان شأنه شأن مكة بعد تجديدها، يتحدّث عن نفسه باعتباره عالمًا يتّسم بالتنوع الشديد ومضاءً بالمصابيح ولمبات النيون. وترى النخبة السعودية أن أمريكا، خاصةً ولاية فلوريدا ذات الجو الرطب، هي الدولة التي أكدت الارتباط الواضح بين مستوى التقدّم على المستوى القومي وانتشار مكيفات الهواء، حتى صارت المكيفات من الأساسيات بعد أن جاء بها فهد وعائلة بن لادن إلى مكة والمدينة وأنفقوا عليها مبالغ باهظة.

إنطلقت مشروعات التجديد عام ١٩٨٥م، ونُفذت على مرحلتين متتابعتين ـ أولًا في المدينة ثم في مكة ـ ولكن الاحتياجات في المدينة كانت

---

(٣) «رغبة متعمدة لمحو الماضي» مستقاة من المصدر السابق ص ١٤٤. ولطالما أشارت المقالات الصحفية إلى مبلغ الـ ٢٥ مليار دولار، على سبيل المثال صحيفة **تايم** بتاريخ ٧ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠١م. وأشار آل بن لادن في كتابهم الذي نشروه بأنفسهم بعنوان *«Story of the Great Expansion»* إلى مبلغ تخطى ٥٠ مليار ريال سعودي» ضمن المبالغ التي أنفقت بصورة عامة أو على الأقل ما يعادل ١٢ مليار دولار أمريكي.

أكبر بصفة عامة. وفي مقابل كل المجهودات التي بذلها العلماء التابعون للمذهب الوهابي لإثناء الناس عن تقديس المسجد النبوي والمزارات التاريخية الأخرى، لم يقتنع المسلمون بإضاعة فرصة الذهاب إلى المدينة التي هاجر إليها سيد الخلق أجمعين. وكانت المشاعر الملتهبة في نفوس المسلمين في أثناء أدائهم فريضة الحج تتركز حول مكة، إلا أن معظم الحجاج الذين كانوا ينفقون كل غال ورخيص للسفر إلى المملكة العربية السعودية يشعرون برغبة ملحة لزيارة المدينة المنورة. وكانت المشكلة أن المساحة المخصصة للصلاة في المسجد النبوي تمثل قرابة عُشر مثيلتها في المسجد الحرام في مكة، ومع تزايد عدد الحجاج خلال الثمانينيات، عانى الحجيج الازدحام الشديد في المدينة التي بدت غير قابلة لاستقبال المزيد منهم. ومن ثَم تبني فهد مشروع توسعة من شأنه تحويل المدينة إلى مقصد شأنها شأن مكة. وأُنهي العمل في عملية الإخلاء العمراني الضرورية لتوسعة رقعة المسجد بحلول عام ١٩٨٨م، وفي هذه المرحلة بدأ تجديد الحرم النبوي الشريف بعد أن قضى سالم نحبه وتولى بكر السلطة المطلقة[٤].

أسفرت مجهودات شركة بن لادن في المدينة المنورة عن تجديدات رائعة بل مذهلة مثل عدد من المظلات المتحركة والقباب الضخمة، ويرجع بعض الفضل في هذه الإنجازات إلى ميل العائلة نحو كل ما هو عصري على الرغم من تجاهلها للتنوع المعماري الموروث. وكان لمآذن المسجد النبوي الرائعة المضيئة المحلقة في عنان السماء في قلب الصحراء، ولا يضاهيها ارتفاعًا سوى ظلال التلال الجرداء، كان لها تأثيرات مرئية مذهلة خاصةً في غسق الليل. وكانت تخطف أنظار الجميع حتى المشككين أمثال حمودي. وتلك هي الإنجازات التي كانت عائلة بن لادن تفتخر بها، وبالفعل كانت تلك الإنجازات مفخرة تستحق المباهاة. ولكن الحقيقة، أن أكثر أعمالهم أهمية وشموخًا متوارية عن الأنظار. فعائلة بن لادن لم تمتز في المعمار قدر امتيازها في أعمال البنية التحتية.

---

(٤) تبلغ مساحة المسجد النبوي الشريف عُشر مساحة المسجد الحرام، كما جاء في: Abbas, *Story of the Great Expansion*, p. 371.

ووفقًا لبيان رسمي أصدرته شركة بن لادن، استنبطنا التفاصيل الأخرى الخاصة بالمشروعات والنتائج المترتبة عليها.

على مدار قرون لم يتمتع المسجد النبوي الشريف بنظام تكييف للهواء على الرغم من كونه رمزًا دينيًّا في قلب صحراء العرب. إلا أن عائلة بن لادن دخلوا في شراكة مع شركة يورك إنترناشونال كوربوريشن ـ التي تقع في مدينة يورك بولاية بنسيلفانيا ـ خلال الثمانينيات. وتُعتبر يورك من الشركات الرائدة على مستوى العالم في مجال تصنيع وتركيب ما يُعرف بـ «المبردات الطنية الضخمة»؛ أي النظم الصناعية لتبريد المباني متناهية الضخامة. جدير بالذكر أن مبردات شركة يورك استُخدمت في تبريد مبنى البرلمان الأمريكي والبنتاغون وبرجَي مركز التجارة العالمي في نيويورك إلى جانب الكرملن. وتتمثل آلية عمل نظم التبريد عادة في تقليل درجة حرارة الماء إلى قرابة أربعين درجة، ثم ضخ الماء خلال المباني المستهدف تبريدها؛ كانت تلك هي الطريقة العملية الوحيدة لتوزيع الماء البارد خلال مساحات هائلة كهذه. وفي مستهل الأمر، يُبرد الماء من خلال آلات كبيرة ومعقّدة ميكانيكيًّا، ثم تطرد حرارتها إلى الخارج لدى خروجها من المبنى. وصنعت شركة يورك نظم التبريد هذه في مصنع بلغت مساحته ١,٥ مليون قدم مربع في مدينة غرانتلي بولاية بنسلفانيا. وفي الواقع، واجهت المبردات التي طلبتها شركة بن لادن لتبريد المسجد النبوي الشريف عددًا من التحديات غير المألوفة. فدرجة الحرارة في الصحراء وحجم المشروع الضخم فرضا على شركة يورك ضرورة تصنيع عدد من الآلات الضخمة للغاية التي سيُطلق عليها لاحقًا «التيتان» أو العملاقة. إضافة إلى ذلك، يُحظر دخول غير المسلمين داخل مركز المدينة المنورة، ومن ثَم أُثيرت تساؤلات بشأن كيفية متابعة عمل المبردات بصورة موثوق فيها إن تطلب الأمر بين الحين والآخر متابعة مهندسين أو فنيين غير مسلمين لعملها من الناحية الفنية. وللتعامل مع هذا الأمر، اتخذ المسؤولون في شركة بن لادن قرارًا بتأسيس مبنى رئيس للمبردات خارج المنطقة المخصصة للمسلمين، بحيث يبعد عن المسجد النبوي بما يزيد عن أربعة أميال. وفي هذه البقعة حفروا نفقًا يكفي لقيادة سيارة رياضية بداخله ليربط بين مبنى المبردات والمسجد، وامتدت أسفله أنابيب التبريد المركزي وغيره من العمليات الأخرى. ومع انتهاء العمل في تشييد مبنى المبردات، بحلول عام ١٩٩٣م، تمتع قسم التسويق في مقر شركة يورك الرئيس بمصدر فخر آخر؛ إذ أصبح مشروع التبريد في المدينة

أكبر مشروعات التبريد أو التكييف من نوعه في تاريخ العالم أجمع[٥].

تمتد جذور أنور حسن، الذي كان يعمل مديرًا في شركة يورك وشارك في المشروع، إلى السودان. وفي أثناء رحلاته إلى جدة أو المدينة المنورة، كانت عائلة بن لادن تدعوه إلى حضور حفلات الاستقبال أو إلى الإفطار خلال شهر رمضان. وكانوا يعبرون عن «شعورهم بالفخر الشديد» بإنجازاتهم في المدينتين المقدستين. وكان لِحَسن وجهة النظر نفسها بل ضرورة تحديث كافة شعائر فريضة الحج. وشعر أنه من الخطأ التعامل مع إمكانيات الماضي بشيء من العاطفة. وتذكر قصصًا سمعها وهو ما زال طفلًا من أحد أعمامه الكبار في السودان الذي حكى له كيف كان وضع الحج في العصور السابقة لحكم عبد العزيز ونشأة المملكة العربية السعودية، وذكر له أنه عندما كان يذهب مئة حاج سوداني ذوي ملامح أفريقية إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، لا يعود منهم سوى ستين أو سبعين حاجًّا، ويقضي الباقون نحبهم إثر تعرضهم لهجمات قطّاع الطرق أو إصابتهم بالأمراض أو ما هو أسوأ من ذلك. وحتى عندما أدّى أحد أعمام حسن فريضة الحج خلال الستينيات، «عاد في حالة مزرية بسبب تدني مستوى الصحة العامة حيث كان الناس يذبحون الأضاحي في الشوارع». وبحلول أوائل التسعينيات، تمكن حسن من الصعود على سلم متحرك والوقوف وسط الزحام للنظر إلى قبر النبي، وبينما تلامس رأسه الأرض في أثناء السجود، كان يشعر بنسائم الهواء البارد تتسرب على رقبته من الخلف. ولذا ينظر حسن إلى ما حدث باعتباره «تحولًا رائعًا... ومن ثَم عليكم أن تقدروا ما فعلوه لراحة المسلمين. ويا لها من مجهودات عظيمة وعمل يستحق التقدير»[٦].

أما من يظن غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

عقد سامي عنقاوي شعره الرمادي غير الكثيف إلى الخلف على هيئة ذيل حصان، وارتدى ثوبًا حجازيًّا متموجًا؛ يختلف عن الثوب الأبيض

---

(٥) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع أنور حسن الذي كان يعمل في شركة يورك إنترناشونال كوربوريشن بتاريخ ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٥م إلى جانب بعض البيانات الأخرى التي كتبها حسن وزملاؤه باختصار وسلمها إلى المؤلف.

(٦) كل الاقتباسات مستقاة من مقابلة أُجريت مع حسن ـ المصدر السابق.

السعودي التقليدي، وبدا سامي كأنه سعودي متمرد على التقاليد. وكان صوفيًّا، والصوفية مذهب في الإسلام يعلي من القيم الروحانية الفردية. وُلد في مكة وينتمي إلى عائلة تقليدية من المطوفين الذين يوجهون الحجاج أثناء فريضة الحج. وهي وظيفة قديمة آخذة في التراجع في عصر جولات الفنادق التي تقدمها في حزمة واحدة مع سائر خدماتها في أثناء موسم الحج لإضفاء الصبغة السعودية القومية على شعائر الحج (إذ إنه بحلول التسعينيات تولت وزارة حكومية تنظيم معظم شعائر الحج). درس عنقاوي في جامعة تكساس الهندسة المعمارية والتخطيط العمراني، وأعد أطروحة للحصول على درجة الماجستير في إمكانية تجديد مكة المكرمة في الإطار الذي يؤكد الحفاظ على شكلها التاريخي، وضمّن في رسالته مناطق الصلاة والتعبد، وموضوع الحفاظ على البيئة.

في عام ١٩٧٥م عاد سامي إلى المملكة العربية السعودية لتأسيس مركز أبحاث الحج في جامعة الملك عبد العزيز في جدة. وكان هدفه يتمثّل في «الحفاظ على البيئة الطبيعية التي وهبنا إياها الله عز وجل والبيئة الإسلامية في المدينتين المقدستين»، ووافقت الحكومة السعودية على رعاية هذا المركز. وهذا مبدأ مغلوط إذا ما فُسر من وجهة نظر سعودية؛ لأن عنقاوي إذا كان يدافع عن مبدأ الحفاظ على التاريخ في حدّ ذاته، كان سيقع في مأزق في ظلّ معارضة المؤسسة الدينية للآثار الشكلية المؤقتة، وعلى الرغم من ذلك كان يرى أن هناك حلًّا، ومن ثم، أجرى عنقاوي وفريق عمله بعض الدراسات في جاكارتا وكراتشي والقاهرة وغيرها في محاولة لتوثيق تجارب ورغبات الحجاج المسلمين من جميع الأطياف، وأضاف بحثه هذا إلى خطّته لتطوير مكة والمدينة. ومن وجهة نظره المتأثرة بالتخطيط العمراني الأوروبي البيئي، ينبغي استبعاد السيارات والشاحنات من مركز المدينتين ـ على أن تتوقف السيارات في المنطقة المحيطة بهما، ويتدفق الحجاج سيرًا على الأقدام إلى أماكن الصلاة، التي لا تقتصر على المساجد فحسب، بل عند مواقف السيارات وفي الأسواق التقليدية الخاضعة للتجديد أيضًا[٧].

(٧) المعلومات المتعلقة بحياة عنقاوي مستقاة من مقابلة أُجريت معه بتاريخ ٢٥ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٥م.

لم تكن تلك بالطبع هي الصورة المرجوة لمستقبل مكة والمدينة التي تخيلها الملك فهد أو عائلة بن لادن وهم ينفذون هذه التجديدات المهولة. جدير بالذكر أن عنقاوي لم يكن نزَّاعًا إلى إحداث تطورات جوهرية، بل حاول أن يعمل داخل نطاق المنظومة السعودية، وكان يعيش حياة رغدة بصفته معماريًّا وحصل على ما يكفيه من المال لتصميم منزل تقليدي مذهل وبنائه في الحجاز في أحد أحياء جدة الراقية. ومع ذلك كرس جزءًا كبيرًا من حياته العملية لئلا تخضع مكة والمدينة إلى فوضى المدنية المقيتة نفسها التي لا تنم عن أي مظهر من مظاهر الحياة، والتي انتشرت في كل مدن المملكة العربية السعودية. واقترح عنقاوي شراء قطارات سريعة طراز ويستنغهاوس لتوصيل ذلك العدد الضخم من الحجاج من مكة إلى المدينة والعكس، وأنتج فيلمًا عن مشكلات المرور المتفاقمة في المدينتين المقدستين.

أكد عنقاوي بحكمة وتعقل أنه لم يكن يشك «لثانية» في نوايا الملك فهد الحسنة، إلا أنه كان يعارض الفرضيات الأساسية للمشروعات التي تديرها عائلة بن لادن. وقال في ذلك لاحقًا: «إننا نستبعد الغرباء والأجانب ونصرّ على عدم دخولهم البلاد، إلا أننا نسمح بكل شيء آخر يمكن أن تفكر فيه؛ المراكز التجارية ومطاعم كنتاكي وماكدونالدز واللوحات المضاءة بالنيون. ولكنني أرى هنا شركة واحدة تسيطر على كل شيء؛ بدءًا من التخطيط مرورًا بالإنشاءات وشراء الأراضي، وأنا من ناحيتي لا يوجد شيء بيني وبينهم، ولكنّ هذا الأسلوب خاطئ، لأنه ينطوي على صراع مرير بين المصالح. وكانت طريقة التعامل مع تلك المشروعات مؤخرًا هي استخدام البلدوزرات والديناميت؛ حيث يُهدم مبنى ويُقام آخر بدلًا منه، ويُكسى هذا المبنى بالرخام ويُزين بأشياء تبدو إسلامية. . . وإن أردت أن تيسر إمكانية صلاة أعداد أكبر من الناس، هذا شيء، وإن أردت أن تيسر إيقاف المزيد من السيارات، هذا شيء آخر. وآل الآمر في النهاية إلى بناء ناطحات سحاب ومبان عالية»[٨].

بحلول عام ١٩٨٩م، وقع عنقاوي بسبب آرائه المختلفة ومعارضته

---

(٨) المصدر السابق.

تحت ضغط هائل من المؤسسة السعودية حتى قدم استقالته من مركز أبحاث الحج. وعند هذه المرحلة، كان مشروع تجديد المدينة بالنسبة إليه قضية خاسرة؛ إذ كان المسجد الجديد وبنيته التحتية تحت الإنشاء بالفعل، وكانت شركة يورك إنترناشونال قد أمرت بإحضار مبردات الهواء العملاقة. ولكن الوضع في مكة مختلف، حيث كان عنقاوي يرى أنه لا تزال هناك فرصة لطلب الحفاظ على بعض الأماكن والآثار القديمة التاريخية. ولم تكن خطط التجديد كلها قد نُفذت في مكة آنذاك. شعر سامي وعدد من مثقفي الحجاز في جدة بارتباط معنوي وروحي بالصبغة المعمارية في مكة التي سبقت ظهور آل سعود، وربما نبع هذا الإحساس من تراث عائلاتهم. ومن وجهة نظر بعضهم، شكلت دائرة عنقاوي في جدة ـ التي كانت تضم محامين ومهندسين معماريين وكتّابًا وتنفيذيين ـ جيلًا جديدًا من المفكرين السعوديين ذوي الآفاق المتسعة الذين تأثروا خلال سفرياتهم وتعليمهم بالمحافظة على التراث في أماكن أخرى في العالم العربي وفي أوروبا أيضًا. وأدركوا أنه في المملكة العربية السعودية التي يسيطر عليها الوهابيون، اعتُبر الدفاع عن التراث التاريخي قضية سياسية ودينية خطيرة، إلا أنهم شعروا أيضًا بأنهم محصنون من خلال احترام قضيتهم على مستوى العالم. ومن ثَم تصدوا لفكرة التجديدات الشاملة ولكن على نحو لم يؤد بهم إلى السجن، بل تبين لاحقًا أنه أثار غضب عائلة بن لادن.

كانت التجديدات التي نفذتها العائلة في مكة خلال التسعينيات ذات طبيعة مختلفة عن تجديدات المسجد النبوي الشريف في المدينة. ففي المدينة، كانت هناك ضرورة لتوسعة مبنى واحد وتحديثه، إلا أن الأولويات في مكة لم تقتصر على الكعبة المشرفة فحسب، بل امتدت إلى المشاعر المقدسة التي يزورها الحجاج خلال موسم الحج. على سبيل المثال، يتجمع كل عام الحجاج كافة في خيام في سفح جبل عرفات، الذي يبعد عن مكة بقرابة تسعة أميال؛ في يوم محدد، هو يوم عرفة، يقف الناس جميعًا معًا في مشهد عظيم في الصحراء متضرعين إلى الله. ويعقب هذا التجمع الضخم شعيرة رمي الجمرات حيث تُقذف الحصى على أعمدة رمزية تبعد عدة أميال عن عرفات. إضافة إلى أن كل حاج يشتري خروفًا

ليضحي به. ولنا أن نتخيل الصعوبات اللوجيستية والصحية التي يسفر عنها هذا الجمع الغفير من البشر بأعداد ضخمة تصل إلى ٢ مليون فرد في الصحراء المفتوحة، الذي يتبعه رمي الجمرات إلى جانب ذبح الأضاحي. وبمرور مواسم الحج واحدًا بعد الآخر، أدّت نفرة الحجاج أو انهيار جسر الجمرات أو نشوب حريق أو وقوع أي حادث مؤسف آخر إلى قضاء مئات الحجاج نحبهم. حتى في حالة انعدام مثل هذه الكوارث، كانت حرارة الصيف القائظ على جبل عرفات غير محتملة بالنسبة إلى كثير من الحجاج الطاعنين في السن. ويحضرنا هنا أيضًا موضوع المرور: يتذكر مارك كوديل وهو من الحجاج الأمريكيين متحدثًا عن هذا الأمر أنه «أعقد زحام مروري رأيته في حياتي». وكان الأمر يستغرق ساعات للانتقال بمسافة أميال قليلة حول عرفات، وحتى بعد انتهاء يوم عرفة «كانت هناك أصوات شاحنات الديزل ورائحتها وهي متوقفة ليلًا مصحوبة بصفارات سيارات شرطة المرور السعودية التي كانت تطلقها بين الحين والآخر وهي تقف لتقديم الإرشادات باستخدام مكبرات الصوت، إلى جانب همهمة ما يزيد عن مليوني حاج ليسوا في حالة مزاجية طيبة»[٩].

باستغلال قدرات وإمكانيات عائلة بن لادن، حاول الملك فهد بكل ما أوتي من موارد تخفيف المعاناة الناتجة من التزاحم والتكدس المروري. إلا أن الأسلوب الذي استخدمه كان شبيهًا بأساليب تطوير وسائل النقل والمواصلات الشائعة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ من حيث إنشاء المزيد من الطرق والباحات المخصصة لوقوف السيارات والأنفاق والجسور. وشيدت شركة محمد بن لادن باحات مخصصة لوقوف السيارات عند عرفات وغيره من الأماكن خلال منتصف التسعينيات، حيث بلغ إجمالي مساحاتها ملايين الأقدام المربعة. وعلى صعيد عرفات، رُكِّب نظام مواسير مياه علوي لتوفير الشعور باعتدال درجة الحرارة في يوم عرفة. ويعمل هذا النظام من خلال ضخ رشاشات مياه أعلى رؤوس الحجاج بصورة موزعة جيدًا. إضافة إلى تشييد طرق متعددة الأدوار للتوصيل بين الأماكن المختلفة وبناء ممرات للمشاة، وتركيب ينابيع مياه بالإضافة إلى

(٩) المعلومات مستقاة من: Caudill, «Twilight of the Hejaz» (manuscript), pp. 74-75.

١٤,٢٠٠ دورة مياه عامة. وأنشأت الشركة أيضًا مجمعًا حديثًا للمجازر يسع لذبح ٥٠٠,٠٠٠ نعجة وماعز، ومجزرًا آخر لذبح ١٠,٠٠٠ من الجمال والماشية. وقد عززت هذه المرافق النظام الجديد لتصاريح الذبح الذي أشرفت عليه الحكومة، حيث يستطيع الحجاج بموجبه شراء بطاقة تضمن إجراء ذبح الأضحية بيد مسؤول سعودي وبطريقة صحية. وتم هذا بدعم من نظم أمنية جديدة في مكة وما حولها، صُممت لضمان عدم تكرار انتفاضة ١٩٧٩م في الكعبة المشرفة مرة أخرى؛ رُكبت أعداد لا تُحصى ولا تُعد من كاميرات المراقبة إلى جانب محطات التحكم المركزية ونظم الإنذار ووسائل الاتصالات اللازمة. وقد نُفذت كل تلك العمليات أيضًا من خلال عائلة بن لادن[١٠].

أجرى سامي عنقاوي مشاوراتٍ مع أمير مكة بعد استقالته من مركز أبحاث الحج، وحاول أن يتتبع تاريخ الإرث المعماري للمدينة. وعرف أن مكة شهدت مرحلة زمنية قبل المملكة السعودية كان الحجاج في أثنائها يزورون عدة مئات من المواقع التاريخية والأسطورية، شأنهم شأن زوار مدينة القدس والأماكن المحيطة بها. ومن الأماكن شبه الأسطورية التي طال الجدل بشأنها في التراث المكي، منزل النبي محمد الذي عاش فيه خلال عمله تاجرًا قبل أن ينزل عليه الوحي. وقرابة عام ١٩٩١م، علم عنقاوي من خلال أحد مؤيدي الحفاظ على التراث المكي باكتشاف موقع ربما يكون منزل النبي. وكان ذلك في المرحلة التي بدأت عائلة بن لادن فيها نقل أعمال التجديدات من المدينة إلى مكة. وبدا ذلك الموقع هو المكان الصحيح لمنزل النبي؛ اكتُشف عندما كشف أحد البلدوزرات في مستهل عملية إعادة تطوير مكة عن أحد الجدران القديمة للمنزل.

يتذكر عنقاوي: «أبلغني أحد شيوخ المدينة أن هذا المكان قد يُهدم، ولذا انتقلت إلى الموقع وحاولت استغلال كل علاقاتي والسلطات التي أملكها للتعامل مع الأمر». وعثر على أستاذ في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن لاستشارته بشأن كيفية الشروع الصحيح في العمل في هذا الموقع بحسب قواعد علم الآثار القديمة. وبدأ يحفر ويجرد كل ما

---

(١٠) المعلومات مستقاة من: *Story of the Great Expansion;* op. cit., pp. 51-64.

يعثر عليه بحرص، وأجرى بحثًا تاريخيًّا لاكتشاف الدليل الذي يمكن أن يثبت اكتشافه أو يدحضه[11].

وفي أثناء عمله، أثيرت تساؤلات عن إمكانية التوفيق بين تصور عنقاوي لمدينة مكة وتصور الملك فهد وعائلة بن لادن. وأقر عنقاوي ومؤيدوه بأن التجديدات والتوسعات سهلت على المسلمين فريضة الحج. وورد عن خبير في جدة منحاز إلى فكر عنقاوي أن مكة والمدينة الآن يمكنهما أن «يسعا المزيد من الحجاج على نحو مريح أكثر ممّا سبق. . . إلا أن ذلك تحقق على حساب أشياء أخرى».

وقال أحد مؤيدي عنقاوي: «ولهذا استُعين بعائلة بن لادن. . . كانت الكعبة المشرفة في مكة تتضمن أعمدة عليها نقوش عمرها ألف عام. وكانوا يقولون: «ألن يكون إنشاء عمود رخامي رائعًا هنا؟» فترد عائلة بن لادن بالإيجاب قائلة: «بإمكاننا استبدالها بأعمدة لامعة ورائعة من الرخام». وما يزيد الأمر سوءًا أنهم لا يحافظون على ما يهدمونه في أحد المتاحف، حتى إنهم ينفذون عمليات الهدم من دون إشراف أو رقابة من أي جهة. . . فجميعنا يملك هذه المصابيح النحاسية الرائعة ولا نمتلك أحد معالم إرثنا التاريخي»[12].

مما لا شك فيه أن عائلة بن لادن كانت أكثر تأثيرًا ونفوذًا من التيار المحافظ على التراث القديم. ففي غضون أربعين يومًا من بدء العمل في الموقع المزعوم لمنزل النبي، انتبهت الحكومة السعودية رسميًّا لمشروع عنقاوي؛ أصدر المسؤولون له أمرًا بالتوقف عما يفعله وإخلاء المكان على الفور.

أجرى عنقاوي اتصالات بأفراد من عائلة بن لادن، وكان بكر من بينهم. وتساءل عن إمكانية إيجاد طريقة للعمل حول هذه المنطقة التي يُفترض وجود منزل النبي فيها في أثناء تنفيذ مشروعات التجديد، أو على الأقل الاستمرار في العمل تدريجيًّا بحيث يستطيع إنهاء بعض عمليات

(١١) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع عنقاوي ـ المصدر السابق.

(١٢) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع حِرفي من جدة طلب عدم الكشف عن هويته.

الحفر والتوثيق. إلا أن مطالبه قوبلت بالرفض، وقيل له إما أن يخرج من موقع العمل أو يُسحق بآلات الرصف؛ «إن لدينا أوامر»[١٣].

بدأ عنقاوي في هذه المرحلة يفقد بعض توازنه، وقال: «اصطحبت أبنائي إلى موقع العمل». وتحدى عائلة بن لادن أن يديروا محركات بلدوزراتهم. «وخضعوا لذلك التهديد لمدة أسبوعين. . . وكنت حينها أستشيط غضبًا ولم أتراجع عن قراري»[١٤].

وبالتدريج، اتفق الجانبان على حل وسط جزئيًّا. فالأمر ليس مرتبطًا بالجهاد على أي حال، بل هو صراع مبادئ وأيديولوجيات بين جانبين ثريين ومميزين في نطاق النخبة السعودية؛ صراعٌ حمل فيه قادة الطرفين ذكريات عن الاعتصامات الفوضوية السلبية في حرم جامعاتهم الأمريكية التي تعلموا فيها إبان الاعتراضات على الغزو الأمريكي لفيتنام. وفي النهاية، سُمح لعنقاوي بقضاء فترة من الوقت لجرد موقع الحفر المكتظ بالأسرار، إلا أنه صدر أمر له بعد ذلك بالابتعاد عن الموقع لمدة ثلاثة أشهر، حيث انتقلت عائلة بن لادن وأتموا عمليات التعبيد والتجديد.

في نهاية الأمر أقامت عائلة بن لادن دورات مياه عامة جديدة وفاخرة فوق الحطام الذي ظن عنقاوي أنه منزل النبي محمد. وفي بعض الأحيان بدا أن أي شيء تقوم به عائلة بن لادن يفتقد الجمال والذوق الرفيع.

في عام ١٩٩٦م نشر بكر كتابًا لتخليد إنجازات العائلة في مكة والمدينة خلال السنوات الثماني السابقة. وجاء الكتاب تحت عنوان «قصة التوسعة الكبرى» وكان الهدف منه ترويج إنجازات الشركة في المقاهي والكافيتريات لعملاء عائلة بن لادن والعائلة المالكة، وأهدى بكر نسخة من الكتاب بالطبع إلى الملك فهد. وباستخدام أسلوب إنشائي منمق يتّسم بالمجاملة المفرطة، لخص بكر تاريخ التحالف بين آل بن لادن وآل سعود منذ أيام محمد بن لادن حتى الوقت الحالي:

يا لها من ثقة عزيزة منحها والدك، مؤسس هذه المملكة العظيمة التي

---

(١٣) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع عنقاوي ـ المصدر السابق.

(١٤) المصدر السابق.

بُنيت على مبادئ الحب والنبل والنقاء الدائم، إلى أبينا الذي أنعم عليه بهذا التشريف طوال حياته... قضى أبونا نحبه وسلك الطريق الذي سيسلكه جميع الأحياء، وانتهج إخوتك نهج أبيهم العظيم. كنا صغارًا ونشأنا وترعرعنا بين أيادٍ موقرة وجليلة. ومنحتنا، جلالتك، وسام شرف عظيم نضعه على صدورنا ونصب أعيننا وتشرفنا بتنفيذ مشروعيك العظيمين في المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي الشريف في المدينة... فهل يقبل خادم الحرمين الشريفين هذا الإهداء الذي نقدمه له بمشاعر قلبية خالصة ودعاء عسى يُقبل وولاء وإخلاص عميقين[١٥].

كان أسامة بن لادن آنذاك يستمتع في منفاه بحياة مريحة لم يَحْيَها بكر؛ فلم يعد يشعر بالحاجة إلى مداهنة العائلة المالكة لكسب رضاها، إضافة إلى شعوره بالتحرر من المراقبين الحكوميين وأصبح بوسعه كتابة ما يشاء. وفي اليوم السادس عشر من شهر أبريل/نيسان عام ١٩٩٦م، في قرابة الوقت نفسه الذي نشر فيه بكر كتابه الترويجي، أرسل أسامة فاكسًا شديد اللهجة من لندن، تحت عنوان «النظام السعودي وتكرار مآسي الحج». وكان حينها وقت موسم الحج، ومثلما جرت العادة في مقالاته، استعرض أسامة عناوين الأخبار الأخيرة؛ حريق هائل يؤدي إلى مقتل وإصابة عدد كبير من الحجاج.

صب أسامة جام غضبه على العائلة المالكة السعودية، ولم يشر قط إلى الحقيقة المعلومة لدى الجميع المتمثلة في أن عائلته هي المسؤولة في مكة عن تصميم وتنفيذ التجديدات التي كان من المفترض أن تحسن من مستوى تأمين الحجاج وتجعلهم يؤدون المناسك براحة أكبر. وبدا أن هذا المقال ـ مقارنة بالمقالات الأخرى التي كتبها أسامة ـ يحمل ضمنيًّا مشاعر واضحة من الاستياء والغضب والاستهجان موجهة إلى عائلة بن لادن خاصةً الإخوة الكبار المسؤولين عن تجديدات مكة والمدينة. ونظرًا إلى أن إجباره على الخروج من مجموعة المساهمين في شركة العائلة كان امتثالًا لأوامر فهد، ربما لم يكن غضب أسامة مفاجئًا، وكالعادة دل ذلك على أنه ليس

(١٥) المعلومات مستندة إلى: *Story of the Great Expansion*, op. cit
وكتب الإهداء بكر بن لادن.

باستطاعته التعبير عن مشاعره مباشرةً في ما يتعلق بعائلته. ولم تمس معظم الانتقادات التي وجهها في مقاله إخوته؛ على سبيل المثال، ذكر في المقال أن ميزانية الحكومة السعودية لمشروعات تجديد مكة والمدينة ليست كافية وأن على أفراد العائلة المالكة إنفاق المزيد من الأموال على التجديدات، وهو رأيٌ كان يمكن أن يأخذه إخوة أسامة على محمل الجد إن صدر عن شخص آخر غيره. ومع ذلك عكست جوانب أخرى في انتقاداته طموحات أسامة ليس فقط للإطاحة بالحكومة السعودية بل بتولي زمام الأمور في عائلة بن لادن، ربما بالشراكة مع نظام جديد ومعدل في الرياض:

لقد أصبح تعرض حجاج بيت الله الحرام للكوارث والمآسي التي تسفر عن مئات الوفيات وحالات الإصابة كل عام أمرًا عاديًّا... وإذا بحثنا في الأسباب الكامنة وراء هذه الكوارث، نجد أنها تتضمن: ضيق المنشآت؛ الأمر الذي يؤدي إلى الاحتكاك وسحق الحجاج بعضهم بعضًا في الزحام... وإهمال الإجراءات الأمنية، وتباطؤ ردود الأفعال في حالة وقوع الحوادث، أو إهمال الحجاج من خلال عدم اتباع الاحتياطيات الأمنية الضرورية.

عاد أسامة إلى موضوع المسؤولية عن هذا النوع من الإهمال الذي يمكن تفاديه، وكالعادة ألقى باللائمة على العائلة المالكة. أما مسألة أنه يقصد في الوقت نفسه انتقاد بكر والإخوة الآخرين المسؤولين عن إدارة الشركة فهو أمر مشكوك فيه:

من المفترض أن تقع مسؤولية إعداد المنشآت الضرورية وصيانتها وتزويدها بالمعدات الأساسية الملائمة وبالمستوى الذي يناسب احتياجات الحجاج على كاهل حكام هذا البلد الذين يملكون مصادر مالية مهولة وميزانيات ضخمة. وحتى الآن، لم تعكس المنشآت التي شيدوها والخدمات التي قدموها إنجازات رائعة. بل أثبتت الوقائع والحوادث بالفعل أن هذه المنشآت والخدمات ليست على المستوى المطلوب والملائم[١٦].

---

(١٦) كل الاقتباسات مأخوذة من: «The Saudi Regime and Repeated Tragedies of the Pilgrims,» Harmony AFGP 2002-003214, Statement 19.

آهٍ لو كنت مسؤولًا! منذ متى وأسامة يضمر هذا الشعور وراء ستار مظهره السلبي؟ منذ طفولته؛ عندما كان يتمتم بطموحاته في نطاق العائلة في إجازات الصيف التي كان يقضيها مع أبناء أخواله وخالاته في سوريا؟ أم منذ عودته من أفغانستان؛ عندما تبين أن عودته إلى حياة المدير التنفيذي المبتدئ ـ التابع لإخوته الكبار ـ باعثة على الإحباط الشديد؟ وهل تُعتبر زعامة العائلة شيئًا ممكنًا كان ينظر إليه بين الحين والآخر باعتبارها فكرة مسيطرة على عقله كانت تعكس رأيه الذي أخذه مؤخرًا على نفسه باعتباره مديرًا تنفيذيًّا وقائدًا جهاديًّا؟ أم أنه أمرٌ أعمق وأكثر ثباتًا؟ لا يمكن أن يقرر أحد ذلك بأي قدر من الثقة، لأن أسامة لم يذكر قط هذا الأمر سواء سرًّا أو علانية، وربما لم يكن أسامة يعرف نفسه.

الفصل الثالث والثلاثون

هاتفٌ واحد... عالمٌ واحد

«إن كنت تؤمن بالله فاعلم أن شركة إيريديوم هي كبرى الشركات التي قدر الله ظهورها في مجال الاتصالات»[1].

مدير تنفيذي في شركة إيريديوم للاتصالات بالأقمار الصناعية (١٩٩٦م)

في نهاية القرن كان الهاتف هو الابتكار الوحيد تقريبًا من بين كل التطورات التكنولوجية والثقافية التي نشأت في ظلّ العولمة الذي أثار الإعجاب أو الكبرياء. وبعد أكثر من مئة عام على اختراعه، ما زال الهاتف يتألق بإمكانات نقله والتواصل باستخدامه وسرعته وابتكاره. وهو يتميز بأنه لم يعد مقيدًا بحدود ثابتة، بل يمكن حمله في أي مكان من دون وضع الحدود السياسية في الحسبان. وربما تعكس هذه القدرة على التنقل من مكان إلى آخر ـ بل أثارت بالفعل ـ فجر التجارة العالمية وعولمة كل شيء في الحياة، الأمر الذي أدّى إلى استنباط وسائل سريعة الزوال ولكنها سريعة التواصل في الوقت نفسه.

بحلول عام ١٩٩٠م انتشرت في أمريكا بصفة خاصة وجهات نظر تنافسية ـ وخطط عمل متعارضة ـ تشير إلى الطرق المثلى لاستغلال إمكانية نقل الهاتف من مكان إلى آخر بالصورة العملية والأكثر إدرارًا للربح. فكانت هناك وجهة نظر ترى أن الأبراج الخلوية المتصل أحدها بالآخر والمبنيّة على سطح الأرض ربما تعتبر أكثر الطرق فاعلية. وهنالك أيضًا

---

(١) المعلومات مستندة إلى مقال نشرته صحيفة **إندبندت** في لندن بتاريخ ١٨ مايو/أيار عام ١٩٩٨م.

شركة إيريديوم التي أُطلق عليها هذا الاسم نسبةً إلى معدن نادر عدده الذري ٧٧ في الجدول الدوري، وهو ذاته عدد الأقمار الصناعية في المدار الذي يرتفع عن سطح الأرض قليلًا الذي ظن مؤسسو الشركة أنهم في حاجة إلى إطلاقه في الفضاء لتوفير نظام اتصالات عالمي، بحيث يتمكن عميل شركة إيريديوم من استخدام هاتفه من أي مكان في العالم في أي وقت كان للاتصال بأي رقم هاتف.

في عام ١٩٤٥م نشر كاتب قصص الخيال العلمي آرثر سي. كلارك، الذي سيصبح في ما بعد مسؤولًا عن القسم الإلكتروني في القوات الجوية الملكية في بريطانيا، مقالًا مقتضبًا جاء تحت عنوان *Extra-Terrestrial Relays* «محطات في الفضاء الخارجي»، في مجلة *Wireless World* «العالم اللاسلكي». وتخيل كلارك بين طيات هذا المقال عددًا كبيرًا من الأقمار الاصطناعية التي صنعها الإنسان تبث صورًا تلفزيونية إلى الأرض. وكان مخططه التمهيدي هو الأول من نوعه في مجال الاتصالات العالمية المتكاملة التي حولتها الآلات التي تدور في الفلك إلى واقع ملموس. كما حقق إطلاق القمر الاصطناعي السوفياتي سبوتنك *Sputnik* عام ١٩٥٧م، وسباق الفضاء الذي أعقبه بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، إلى جانب التطور العالمي في مجال البث التلفزيوني، كل ذلك حقق كثيرًا من العناصر التي وردت في تصور كلارك. ومع ذلك ظلّ مجال الأقمار الاصطناعية التجاري الذي طغت الحرب الباردة عليه مقتصرًا إلى حدّ بعيد على القطاعين الحكومي والدفاعي، إضافة إلى أن اقتصاديات السوق المبدئية له كانت تحقق الأرباح من الإرسال التلفزيوني وليس الهاتفي[٢].

من بين الشركات التي كانت تعمل في مجال الهواتف المحمولة، شركة موتورولا التي صنعت عددًا من أجهزة الراديو المحمولة والتي كان يمكنها الاتصال بشبكات الهواتف الأرضية، وجرى تسويق هذه الأجهزة لاستخدامها على متن السفن في البحار أو في الشركات التي تمتلك مواقع

---

(٢) المعلومات مستندة إلى: Whalen, «Communications Satellites: Making the Global Village Possible,» www.hq.nasa.gov.

جرى تصفح الموقع الإلكتروني والطباعة منه بتاريخ ١٧ يوليو/ تموز عام ٢٠٠٦م.

عمل نائية مثل الشركات التي تعمل في مواقع الخطوط النفطية البعيدة التي كانت تعبر صحاري المملكة العربية السعودية الخاوية.

إن حياة الترحال التي عاشها سالم بن لادن وعشقه لاستخدام الأجهزة الإلكترونية قدما إلى عائلته نظام الإرسال التلفوني العالمي قبل أن يتخيل معظم الأمريكيين إمكانية حدوث ذلك بوقت طويل. وكان يستخدم أجهزة الإرسال اللاسلكي التي تنتجها شركة موتورولا وغيرها من الأجهزة وهو يسافر أرضًا أو جوًّا؛ لم يكن يفعل ذلك لأغراض عمله الذي يتطلب منه الانتقال من قارة إلى أخرى أو في رحلاته الترفيهية فحسب، بل أيضًا للمعسكرات والصيد في صحاري المملكة العربية السعودية. كما نصّب نفسه وكيلًا لشركة موتورولا عندما أسس شركة الاتصالات الهاتفية الخاصة به خلال السبعينيات والثمانينيات. إن المساحات الشاسعة في المملكة وبنيتها التحتية الضعيفة إلى جانب الأموال النقدية الوفيرة بها، أدّت كل هذه العوامل إلى احتلال المملكة العربية السعودية صدارة أسواق الهواتف النقالة التي تتمتع بإمكانية العمل في مواقع بعيدة.

قرابة عام ١٩٨٧م فكّر المهندسون الذي يعملون في شركة موتورولا في أثناء إجراء اختباراتهم في صحراء أريزونا ـ في فكرةٍ ستتحول في ما بعد إلى شركة إيريديوم ـ في إطلاق شبكة من الأقمار الاصطناعية التي تدور على ارتفاع أقرب إلى الأرض من ارتفاع معظم الأقمار الاصطناعية الأخرى ويمكن أن تؤدي الدور الذي يؤديه النظام الهاتفي تلقائيًّا عن طريق التحويل الأرضي للخطوط ونظم الإرسال. وبحلول عام ١٩٩١م صممت شركة موتورولا المخططات التمهيدية لخطة عمل سوف تتكلف في النهاية ما يزيد عن ٥ مليارات دولار. وفي نهاية الأمر أسست شركة موتورولا شركة إيريديوم الفرعية باعتبارها شركة منفصلة، إلا أن شركة موتورولا صممت وصنعت أقمارًا اصطناعية سوف تستخدمها بموجب عقد محدد السعر يصل إلى قرابة ٣,٥ مليارات دولار، ومن المؤكد أنه مشروع ضخم تحفه المخاطر والشكوك[٣].

(٣) المعلومات المتعلقة بالأحداث التي وقعت زهاء عام ١٩٨٧م ومبلغ الخمسة مليار دولار أمريكي مستقاة ممّا نشرته صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ١١ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٠م. والمعلومات =

تقرب المديرون التنفيذيون في شركة موتورولا إلى شركات الهواتف الكبرى في أوروبا وآسيا سعيًا لاجتذاب مستثمرين. وكان مؤسسو شركة إيريديوم على قناعة تامة بعبقرية فكرتهم، حتى إنهم عندما عقدوا مؤتمرًا مبدئيًّا في سويسرا طلبوا إلى المشاركين دفع مليون دولار أو يزيد للتعرف إلى خطة العمل؛ ممّا أدّى إلى رفض شركات كثيرة للمشاركة كما ورد عن إف توماس توتل الذي عمل لاحقًا مستشارًا عامًّا في شركة إيريديوم. وفي نهاية الأمر قال توتل إن شركة موتورولا اضطرت إلى التغاضي عن بعض الشروط وتأسيس شراكات مع شركات هواتف ثانوية، ويُعزى ذلك إلى أن الاهتمام بالمشروع لم يكن شديدًا على النقيض ممّا كان مرجوًّا في البداية. وتمثّلت فكرة شركة إيريديوم في تعيين عدد من المستثمرين «الوسطاء» في عدد من دول العالم، على أن يتولى كل منهم مسؤولية إدارة الخدمة العالمية التي يقدمها في منطقة بعينها مثل الشرق الأوسط. وما دام لشركة موتورولا علاقة عمل مع عائلة بن لادن في ما سبق، فإنهم سيكونون من ضمن الوكلاء المختارين لشركة إيريديوم(٤).

أبدى بكر اهتمامه بالأمر وأسس شركة خارجية، أُطلق عليها شركة ترينفورد إنفستمنتس في جنوب أمريكا، ووُصفت لاحقًا في ملفات الدعاوى الرقابية الأمريكية بأنها مؤسسة فرعية لـ مجموعة بن لادن السعودية. وبعد ذلك، اشترت شركة ترينفورد حصة في شركة وسيطة تابعة لشركة إيريديوم تستهدف قطاعًا كبيرًا من العالم العربي وآسيا الوسطى بحيث يكون لها الحق في تعيين مديريْن من المديرين الستة. وفي عام ١٩٩٣م وفرت هذه الشركة التي أطلق عليها شركة إيريديوم ميدل إيست كوربوريشن ٤٠ مليون دولار نقدًا للانضمام إلى الاتحاد الرئيس، وفقًا لما ورد عن مدير تنفيذي آخر عمل في شركة إيريديوم وشهد الأحداث. وفي العام اللاحق، قدمت شركة إيريديوم ميدل إيست كوربوريشن قسطًا آخر بلغت قيمته ٤٠ مليون دولار. وقللت عائلة بن لادن المخاطرة الأولى ببيع بعض أسهمها إلى

= الخاصة بالعقد محدد السعر الذي استخدمته شركة موتورولا وبلغ سعره قرابة ٣,٥ مليارات دولار مستندة إلى تقرير: Securities and Exchange Commission, Iridium LLC, S-4 filing, July 21,1997.

(٤) المعلومات عن مؤتمر سويس مستندة إلى مكالمة هاتفية أُجريت مع إف توماس توتل F. Thomas Tuttle بتاريخ ١٩ يوليو/ تموز عام ٢٠٠٦م.

عملاء سعوديين آخرين، من بينهم أفراد من العائلة المالكة، حسبما ورد عن المدير التنفيذي السابق في شركة إيريديوم. وحصلت شركة إيريديوم على قرابة ٣,٤٦ مليار دولار من جميع شركائها الوسطاء في أنحاء العالم مثل عائلة بن لادن(٥).

وسط حالة غامرة من التفاؤل والمال الوفير، افتتحت الشركة مقرها الرئيس في واشنطن العاصمة، في العقار رقم ١٥٧٥ من الشارع ١. ووكل بكر بن لادن أخاه غير الشقيق حسن بمهمة متابعة هذا المشروع الاستثماري، كجزء من مهامه الدولية التي يتكفل بها. (وكان حسن بالفعل هو الوسيط للمكتب الأمريكي التابع لـ مجموعة بن لادن السعودية في ضواحي ولاية ميريلاند، بالإضافة إلى أنه كان يسافر بصورة منتظمة إلى ولاية تكساس في مهام عمل حيث كان يساعد في عمليات الإشراف على تجديد طائرات القوات الجوية السعودية في أحد المصانع الأمريكية.) افتتحت شركة إيريديوم ميدل إيست شركة صغيرة في حي جورجتاون في واشنطن. وعمل هناك شابان أو ثلاثة شباب من العرب لديهم خلفية عن علم الاقتصاد، وكانوا على اتصال دائم بالمقر الرئيس لشركة إيريديوم حيث كانت تُصنع الأقمار الاصطناعية وتُطلق وتُطور خطط التسويق الاستهلاكية. وانضم حسن إلى مجلس إدارة شركة إيريديوم وكان يسافر إلى الولايات المتحدة جوًّا لحضور اجتماعات المجلس الربع سنوية(٦).

كان حسن رجلًا ودودًا في أواخر الثلاثينيات أو بداية الأربعينيات من عمره، وكان حليقًا وبدا أنه كان يعيش حياته الليلية باستمتاع. وكان يدعو

---

(٥) المعلومات المتعلقة بشركة ترينفورد إنفستمنتس مستقاة من: S-4 filing, op. cit., July 21,1997.

أما عن الإسهامين الماليين اللذين بلغ قدرهما ٤٠ مليون دولار أمريكي فقد وُصفا في تلك الوثيقة وأكدهما توتل ـ راجع المصدر السابق ـ ومدير تنفيذي آخر في شركة إيريديوم لكنه طلب عدم الكشف عن هويته. والمعلومات الخاصة بحصول الشركة على قرابة ٣,٤ مليار دولار أمريكي مستقاة من: S-4 في المصدر السابق. ومن المحتمل أن تكون القيمة النهائية لاستثمارات مالكي الأسهم قد زادت؛ عن طريق الاقتراض من البنك.

(٦) المعلومات الخاصة بشركة إيريديوم ميدل إيست في واشنطن وعن وجود حسن في اجتماعات مجلس الإدارة مستندة إلى مقابلات أُجريت مع أربعة مديرين تنفيذيين سابقين كانوا على علم بالعملية، وقد عمل ثلاثة منهم في شركة إيريديوم وكان توتل من بينهم.

بعض المديرين التنفيذيين في شركة إيريديوم لمشاركته ليالي السمر التي كان يغلب عليها دخان السجائر وزجاجات الويسكي من نوع جوني ووكر. وكان بعض هؤلاء المديرين قد عملوا لفترة طويلة في المملكة العربية السعودية ومن ثَم اعتادوا على التعامل مع الشخصيات المتناقضة من السعوديين؛ الذين يحتسون الخمر في الغرب ويحرمون على أنفسهم احتساءها في بلادهم. ولكن حسن كان مختلفًا، إذ بدا أنه كان يستمتع بحياته بالطريقة نفسها سواءٌ أكان في جدة أم في واشنطن أم في بيروت. وبعد عام ١٩٩٦م يذكر لنا أحد المديرين التنفيذيين السابقين أن موضوع أسامة، الأخ غير الشقيق لحسن، كان يُثار من آن إلى آخر في جلساتهم الودية بعد العمل. وكان حسن يبدو عليه الغضب العارم وينتقده بشدة، حتى إنه قال عنه ذات مرة: «إن علاقتنا انقطعت به تمامًا الآن». ولا يضيف شيئًا البتة عن أسامة غير ذلك، ولكنه لم يكن يتحدّث كثيرًا عن الإسلام أو الظلم الواقع على العالم الإسلامي. ولم يكن من المعتاد أن يدافع أي سعودي صراحة عن آرائه الدينية مع أحد الأجانب، وعلى أي حال، تبين أن اهتمامات حسن تنحصر في السيارات الكلاسيكية وموسيقى الروك آند رول[٧].

كان حسن بن لادن يملك أسهمًا كثيرة في شركة هارد روك كافيه الشرق الأوسط، التي تملك الامتياز الرسمي لفروع شركة هارد روك كافيه في قطاع كبير من العالم العربي واليونان وجزيرة قبرص وتركيا. وبدت مطاعم هارد روك الموسيقية متوافقة مع شخصيته أكثر من هواتف الأقمار الاصطناعية أو العقارات التجارية. وكان حسن قد قضى حقبة كبيرة من شبابه في بيروت، حتى إنه أتقن اللهجة العامية اللبنانية، وبدا يعرف كل الملاهي الليلية في المدينة، وهناك قابل زوجته الأولى ليلى. وكانا يقيمان في الفنادق، وكان لدى حسن عدد من السيارات من مختلف الطرازات؛ فيراري وكاديلاك وكرايسلر نيويوركر قديمة ورولز رويس ومرسيدس بنز. ودخل مجال الاستيراد والتصدير مبكرًا، إلا أن اهتماماته كانت منصبة على

---

(٧) المعلومات الخاصة بجلسات جوني ووكر تستند إلى مقابلة أُجريت مع مدير تنفيذي سابق في شركة إيريديوم. وقد وصف زميلا دراسة سابقان في الولايات المتحدة، وعدد من رفقاء حسن في بيروت وجدة، وعادات حسن الليلية.

كرة القدم والموسيقى والكازينوهات والحياة الليلية. وكان هاويًا لكرة القدم ويشجع فريق «الاتحاد» الذي كان منافسًا للفريق الذي شجعه أسامة في صغره، إضافة إلى أنه كان متيمًا بالمطربة المصرية أم كلثوم، حتى إنه كان يسافر إلى القاهرة جوًّا في إجازات نهاية الأسبوع لحضور حفلاتها فحسب. وعندما اندلعت الحرب الأهلية في لبنان خلال السبعينيات، نقل حسن مقر عمله إلى جدة ولكنه عاد إلى بيروت ما إن بدأت المدينة تزدهر من جديد في منتصف التسعينيات. وكان أهل بيروت خلال هذه الفترة في أشد الاشتياق إلى العودة إلى الحياة الطبيعية المتحررة، لدرجة أن حدثًا مثل افتتاح مطعم هارد روك كافيه بدا مميزًا في تلك المدينة(٨).

إنطلقت الألعاب النارية، بدلًا من القنابل التي كانوا قد اعتادوها، على ساحل بيروت على البحر الأبيض المتوسط في ليلة الافتتاح في شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٩٦م. وكانت فرقة جيبسي كينغز الفرنسية لموسيقى الفلامنكو الشعبية هي نجم الحفل على المسرح الرئيس للمطعم. وخصص حسن مكانًا مميزًا لأفراد عائلة بن لادن؛ حيث سافر منهم قرابة عشرين شخصًا لحضور المناسبة، وكان من بينهم عدد من إخوة حسن غير الأشقاء مثل شفيق وطارق. وكانت هذه الأمسية مشابهة للأمسيات التي قضاها سالم، وهنا تتطرق إلى مخيلتنا صورة سالم وهو يعتلي المسرح ويغني غير عابئ بالتوافق مع العزف الإيقاعي لفرقة جيبسي كينغز.

عُلقت على جدران المطعم الأدوات والممتلكات الخاصة بالفرقة الموسيقية، مثل قميص أحمر مركب به بلورات زجاجية ارتداه مايكل جاكسون ذات مرة، وقميص حريري مطرز لإلفيس بريسلي، وقميص من الكريب الصيني ارتداه جون لينون أحد أعضاء فرقة البيتلز، وغيتار فيندر

---

(٨) المعلومات المتعلقة بحامل الأسهم الرئيس لمطعم هارد روك ميدل إيست تستند إلى التواصل عن طريق البريد الإلكتروني مع المتحدث الرسمي عن مطعم هارد روك بتاريخ ٢٣ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م. والمعلومات الخاصة بإتقانه اللغة العامية اللبنانية وآلات الكرة مستقاة من مقابلة أُجريت مع زميل في بيروت طلب عدم الكشف عن هويته. والمعلومات عن فترة الشباب التي قضاها في بيروت وزوجته السابقة ليلى والأيام التي قُضيت في غرف الفنادق مستندة إلى مكالمة هاتفية أُجريت مع ليلى موسى بتاريخ ٢٤ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م (روبين شالمان). والمعلومات المتعلقة بالسيارات والاتحاد وأم كلثوم مستقاة من مقابلة أُجريت مع زميل في بيروت أشرنا إليه آنفًا، إلى جانب رفيق آخر من بيروت.

ستراتوكاستر طراز ١٩٥٨ عزف عليه أعضاء فرقة كارز، وغيتار آخر من الطراز نفسه عليه توقيع مغني الروك إريك كلابتون، وسطح آلة الكرة والدبابيس التي لعب عليها أعضاء فرقة رولينغ ستونز البريطانية ووقعوا عليها، إلى جانب لوحة مفاتيح إلكترونية لبيانو موقعة من مغني البوب الشهير بيلي جويل. والأكثر عجبًا من كل ذلك ورقة مسطرة كتب عليها المطرب جون لينون بقلم حبر أسود كلمات أغنيته *Imagine* «تخيل»[(٩)].

في ليلة من أواخر عام ١٩٩٦م، كان أحد أبناء محمد بن لادن يعيش في المنفى ساعيًا لتحقيق المدينة الفاضلة من خلال ثورة إسلامية، بينما يحضر عدد من إخوته افتتاح مطعم وبار في عاصمة عربية تعلي شأن أغاني الروك التي تنشد بدورها المدينة الفاضلة. والأكثر غرابة من هذه الأحلام المتشابهة للطرفين الأرضية المشتركة؛ أي العالم الذي تعيش على أرضه تلك الأجيال الصاعدة التي تتلقى فكرة الجهاد لإصلاح العالم تارة والموسيقى الشعبية الغربية التي تداعب عواطف تلك الجماهير تارة أخرى.

اعتمدت خطة العمل لشركة إيريديوم على توقعات تنبئ بحدوث طفرة في عالم الاتصالات اللاسلكية. ومن بين المستثمرين الوسطاء شركات الهواتف التي حصلت بالفعل على قرابة ١٤ مليون عميل يستخدمون الشبكات اللاسلكية ويمكن أن تُسوق إليهم الهواتف الجديدة. وورد في ملفات الرقابة الخاصة بشركة إيريديوم أن «سوق قطاع السياحة» في العالم، الذي يضم العاملين الذين يستخدمون الهواتف اللاسلكية ويغادرون مناطق الخدمات الهاتفية المحلية أربع مرات على الأقل سنويًّا، سينمو إلى قرابة ٤٢ مليون شخص بحلول عام ٢٠٠٢م. ويشير هذا التوقع، إن كان دقيقًا على نحو تقريبي، إلى أن اشتراك زهاء الـ ٥٠٠,٠٠٠ عميل الذين تحتاج إليهم شركة إيريديوم لن تكون مهمة شديدة الصعوبة. ومع ذلك كانت هناك مشكلات بارزة مثل السعر؛ إذ كانت تكلفة جهاز التلفون البدائي تبلغ قرابة

---

(٩) المعلومات المتعلقة بليلة الافتتاح وقائمة الممتلكات الشخصية للزوجة مستندة إلى مقابلة أُجريت مع زميل حضر الافتتاح. وقد حصلت روبين شالمان على التفاصيل التي نشرها المطعم على موقعه الإلكتروني وطبعتها في أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م، وتصفحت روبين أيضًا الموقع في أبريل/ نيسان ٢٠٠٦م.

الثلاثة آلاف دولار للهاتف الواحد، بينما كانت تعرِفة فواتير المكالمات الدولية تبلغ سبعة دولارات للدقيقة الواحدة. وحتى في الفترة السابقة للهواتف المحمولة حيث لم يكن العملاء قد أدركوا بعد الأسعار المتوقعة لخدمات المحمول، بدت هذه الأسعار مرتفعة(١٠).

في بعض الأحيان بدا أن الخيال المطلق الذي يميز خطة شركة إيريديوم يهدئ من روع المشككين. وفي خطوة بدت كما لو كانت الشركة تسعى لتأكيد ريادتها، اتجهت الشركة إلى الصين لإطلاق أقمارها الاصطناعية إلى الفضاء. وبحلول أوائل عام ١٩٩٧م، كانت صواريخ لونغ مارتش روكتس (Long March Rockets) الحاملة للأقمار الاصطناعية التي سُميت بهذا الاسم نسبةً إلى الأحداث التي خيمت على ميلاد الشيوعية الصينية، تشق طريقها في السماء مرة كل عدة أشهر، معلية بذلك من شأن المعدات الرأسمالية التي تمتلكها شركة إيريديوم. ودعا آل غور، نائب الرئيس الأمريكي لاحقًا، المديرين التنفيذيين في شركة إيريديوم إلى حديقة روز غاردن في البيت الأبيض إلى الاحتفال بابتكارهم الجديد. وفي أثناء إقامة الاحتفال أجرى اتصالًا بالحفيد الأكبر لمخترع جهاز التلفون في القرن التاسع عشر، ألكسندر غراهام بل. وقال آل غور في نهاية اتصاله الهاتفي إن نظم الأقمار الاصطناعية مثل تلك التي تستخدمها شركة إيريديوم «استكملت التغطية الهاتفية لسطح الكرة الأرضية التي بدأها ألكسندر غراهام بل منذ ما يزيد عن قرن مضى. . . كان جدك العظيم سيفخر أيما فخر لو كان بيننا الآن»(١١).

أنفقت شركة إيريديوم أموالًا طائلة وبسرعة مهولة وسابقت الزمن لإطلاق الخدمة. وتمثلت أكبر الصعوبات التي واجهتها في الحصول على

---

(١٠) المعلومات الخاصة بحجم السوق وعملاء الشبكة اللاسلكية الذين بلغ عددهم ١٤ مليونًا مستندة إلى: S-4 filing, op. cit., July 21, 1997.

أما عن الهواتف التي بلغ سعرها ٣,٠٠٠ دولار أمريكي وعن الاتصال الهاتفي الذي وصل سعره إلى ٧ دولارات لكل دقيقة، فقد استند إلى ما نشرته صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ١١ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٠م.

(١١) المعلومات مستقاة ممّا نشرته صحيفة **واشنطن بوست** بتاريخ ٢١ أغسطس/ آب عام ١٩٩٩م.

التصريحات الحكومية في الوقت المناسب لبيع الهواتف وتشغيلها داخل نطاق ما يزيد عن ١٥٠ دولة مختلفة. واختارت الشركة واشنطن مقرًّا رئيسًا لها، وساعدها ذلك إلى حدّ ما في تسهيل الحصول على التصاريح من السفارات في العاصمة من خلال الحصول على دعم دبلوماسي من الحكومة الأمريكية. ومع ذلك فإن المسؤولية الأخيرة للحصول على التصاريح تقع على كاهل كل مدير وسيط يعمل لدى شركة إيريديوم. وكان من الضروري أن تضمن شركة إيريديوم ميدل إيست الحصول على تصريحات من أكثر ممّا يزيد عن عشرين حكومة في العالم العربي وآسيا الوسطى، وكان من بينها حكومات كثيرة يستشري فيها الفساد والبيروقراطية المقيتة، بل كان الأمر يصل إلى عدم أداء الأعمال المنوطة بها على الإطلاق. وأصدر المحامون في المقر الرئيس لشركة إيريديوم الأمر النهائي بخصوص توقيت الحصول بالفعل على «تصريح» من دولة بعينها. وتباينت أشكال التصريحات المقبولة تباينًا شديدًا؛ فبعض الحكومات أصدرت بيانًا وزاريًّا، بينما تفاوضت حكومات أخرى على اتفاقية قانونية أكثر تقليدية. ويذكر أحد المديرين التنفيذيين في إيريديوم قائلًا: «حصلت على ترخيص من منغوليا مكتوب على منديل». ووفقًا لما ورد عن توتل المستشار العام للشركة: «أرسلت لنا إحدى الدول الرد الآتي: «فقط أخبرونا بما تفعلون. لستم في حاجة إلى الحصول على موافقة رسمية»»(١٢).

تبين أن إيقاع الحملة التسويقية بطيء خاصةً في الشرق الأوسط. ووقع ضغط كبير على حسن بن لادن وغيره من المديرين التنفيذيين الوسطاء لضمان الحصول على التصريحات في مناطق التشغيل التابعة لهم. وبحلول عام ١٩٩٧م، وقبل الموعد المقرر لتشغيل الخدمة بعام واحد تقريبًا، حصلت شركة إيريديوم على ترخيص مشروط للتشغيل في بلد واحد داخل نطاق شركة إيريديوم ميدل إيست، وفقًا لما جاء في الملفات الرقابية، وكان هذا البلد أفغانستان(١٣).

---

(١٢) «حصلت على ترخيص من منغوليا مكتوب على منديل». يستند هذا القول إلى مقابلة أُجريت مع مدير تنفيذي سابق في شركة إيريديوم طلب عدم الكشف عن هويته، ويستند ما تلاه إلى مقابلة أُجريت مع توتل ـ المصدر السابق.

(١٣) المعلومات مستقاة من: S-4 filing, op. cit., July 21, 1997.

قال ثلاثة من المديرين التنفيذيين السابقين في شركة إيريديوم ممن أسهموا في المجهودات الرامية للحصول على تراخيص، من بينهم توتل، إنهم لا يتذكرون كيفية الحصول على ترخيص أفغانستان أو توقيت الحصول عليه أو شكل الترخيص أو الجهة الرسمية الأفغانية التي منحتهم إياه. وفي عام ١٩٩٧م سيطرت ميليشيا طالبان الإسلامية المتطرفة على حكومة أفغانستان. وفي الوقت نفسه كان هناك حزب منافس يسيطر على سفارة أفغانستان في واشنطن؛ قد يكون التصريح المبدئي قد جرى الحصول عليه من هناك. ووفقًا لما ذكره محامي عن عائلة بن لادن، لم تحصل شركة إيريديوم قط على تصريح أفغاني نهائي أو عميل أفغاني واحد.

في ذلك الحين عُرف عن طالبان رفضها تعليم النساء وتطبيق الشريعة الإسلامية بطريقة لم يألفها الناس. وفي صيف عام ١٩٩٧م تعرضت جماعة طالبان لانتقادات عنيفة بسبب البيانات المتطرفة التي تدعم العنف والتي صدرت عن ضيف لهم أصر زعيم طالبان الملا عمر ذو العين الواحدة على رعايته؛ أسامة بن لادن. وليس هناك أي دليل على أن أسامة أدّى أي دور في التخطيط للحصول على الترخيص المبدئي لأفغانستان. وذكر محامي عائلة بن لادن المدعو تيموثي جيه. فين لاحقًا أن العائلة كانت تظن أن شركة إيريديوم حصلت على الترخيص المبدئي قبل أن تظهر عائلة بن لادن على الساحة. وورد عن فين قوله: «حسن بن لادن، على أي حال، لم يشارك في هذا الأمر على الإطلاق ولا يعرف كيف جرى. إضافة إلى أن حسن في الواقع لم يكن له أي علاقات مهمة في أي وقت مع أفغانستان لأنها تُعتبر سوق غير مناسبة لخدماته باهظة الثمن. ولا داعي لذكر أنه لم يتصل بأسامة أو يتحدّث معه قط بشأن هذا الأمر».

من المحتمل أن أسامة كان على علم باستثمارات عائلته في شركة إيريديوم، وقد يكون قد قدم إليهم النصح اللازم لدعم المشروع الاستثماري الذي تخوضه الشركة، وكان يثقف نفسه بإمكانات هواتف الأقمار الاصطناعية العالمية.

«الأمهات هنّ اللاتي يعانين أيما معاناة!» جاء هذا على لسان والدة أسامة لاحقًا ولكن قولها هذا لا يرجع إلى عدم اتصاله بها من منفاه

السياسي. «فقد اعتاد الاتصال بانتظام» حتى من أفغانستان، «وكان يحدثني عن أحواله وأحوال عائلته؛ في مكالمة خاصة بين أم وابنها»[١٤].

أدّى تعلق أسامة بأمه إلى مضاعفة الصعوبات الهائلة التي واجهها بعد رحيله من السودان في شهر مايو/ أيار عام ١٩٩٦م ـ حيث كان فيها شبكة تلفونات عاملة ولكنها متوسطة الجودة ـ إلى أفغانستان؛ تلك الدولة التي تفتقر إلى شبكات الاتصالات المتطورة. واعتبر أسامة أن منفاه اقتداءً بهجرة النبي محمد في القرن السابع عشر الميلادي، وفي الوقت نفسه، أصبح عميلاً مميزًا لإحدى شركات القرن الحادي والعشرين؛ شركة إيريديوم.

لم يذهب أسامة إلى أفغانستان طواعيةً، بل إن حكومة السودان طلبت من الولايات المتحدة الأمريكية قدرًا قليلًا من الشرعية الدولية، إلا أن الولايات المتحدة صرحت أنها لا تستطيع تحقيق هذا الأمر للسودان ما دام أسامة بن لادن يعيش في الخرطوم ويمارس أعماله هناك علنًا. من ثم أبلغ حسن الترابي أسامة بضرورة الرحيل، ثم أكمل فعله هذا بالتعاون مع آخرين في الحكومة السودانية عبر عدم تسديد الديون المستحقة لأسامة إضافة إلى شراء شركاته بأسعار بخسة. ويتذكر ناصر البحري حارسه الخاص أن أسامة «باع الشركات كافة بسعر زهيد جدًّا لأنه لم يكن يملك أي خيار آخر»[١٥].

بوقوع أسامة تحت وطأة الضغط المادي وتطليق إحدى زوجاته ورحيل ابنه الأكبر الذي عاد آنذاك إلى المملكة العربية السعودية، سافر أسامة بصحبة من تبقى من عائلته إلى مدينة جلال آباد في أفغانستان على متن طائرة نفاثة مستأجرة، وترك وراءه حياة شيخ حضرية ورغدة حيث المكاتب مكيفة الهواء ومزارع الخيول واجتماعات العمل والجهاد. وعلى أراضي أفغانستان الشرقية القاسية والنائية عن وسائل الاتصالات الحديثة، حاول

---

(١٤) المعلومات مستقاة من نسخة المقابلة التي أجراها خالد باطرفي مع والدة أسامة وقد سلمها باطرفي إلى المؤلف.

(١٥) المعلومات تستند إلى مقال مترجم بعنوان: «Bin Laden 'Bodyguard' Details Al Qaeda's Time in Sudan, Move to Afghanistan,» FBIS translation.

وأصله نُشر في صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٢٨ مارس/ آذار عام ٢٠٠٥م.

أسامة أن يستغل الظروف الجديدة التي فُرضت عليه إيجابيًّا بتعليم أبنائه الفوائد التي تعود على المرء لبناء شخصيته من أسلوب الحياة المتقشف مثل الحياة التي عاشها النبي والصحابة. ولكن تبين أن أسامة منذ الأسابيع الأولى من وصوله لأفغانستان لم يستسغ الظروف القاسية هناك، بل شعر بضغط نفسي شديد. ولذا استشاط غضبًا مجددًا من أولئك الذين أجبروه على العودة إلى أفغانستان، وصب جام غضبه على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة.

ومن خلال مقالاته السياسية التي كان يرسلها من الخرطوم، دأب أسامة على توجيه تحريضه إلى الرياض وتهكمه منها. وركز في كتاباته على فشل العائلة المالكة ونهب ثروات البلاد، إلا أنه لم يعلن الحرب رسميًّا على الحكومة السعودية. ويبدو أن ترحيله من السودان أقنعه بحقيقة ثابتة ألا وهي أن آل سعود ما هم إلا ألعوبة في يد واشنطن. وعلى أي حال، أعد أسامة بعد أن وصل إلى أفغانستان بوقت قصير إعلان حرب على الولايات المتحدة الأمريكية ولكنه بدا متخبطًا، ونشر أسامة ذلك الإعلان الذي يعد أول إعلان رسمي وعلني عن حملته العنيفة ضدّ الغرب.

تمثلت الفقرات الأكثر بروزًا في مقاطع الأبيات الشعرية، خاصةً ذلك المقطع الذي يحكي فيه قصة حياته ويعكس الغضب والتحدي المتفاقم في نفسه. واختار أسامة في هذه السطور كلماتٍ وصورًا تنمّ عن شيء من الحماقة أو فقدان السيطرة على النفس. وأشار بوضوح تقريبًا إلى أفراد العائلة الذين تخلوا عنه وأولئك الذين تحداهم باسم الإسلام. ووصف مشاعره المتأججة عن «فقدان» المسجد الأقصى في القدس الذي لم يزره مطلقًا، كما هو معروف، إلا أنه عاصر اهتمام والده بتلك القضية؛ ربما تصل هذه الرسالة بالصورة المثلى إذا ما قُرئت من منظور سياسي بحت، إلا أننا نلاحظ أيضًا إشاراته العفوية إلى أبيه أيضًا، خاصةً وقد أعقب هذا البيت الشعري مباشرةً إشارات إلى الموت وإلى أمه وسلامة عقلها. بصفةٍ عامة، تلمِّح الصورة الذاتية التي رسمها أسامة عن نفسه شِعرًا إلى أنه رجل يصارع متناقضات جديدة على تجاربه الشخصية؛ فكتب أنه على الرغم من أن هذه مشاعر مؤلمة فإنه يؤمن بإمكانية زوالها للأبد بالعنف المبرر:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدَّقوا فيهم ظنوني

فوارس لا يملون المنايا وإن دارت رحى الحرب الزَبُونِ

وإن حمي الوطيس فلا يبالوا وداوَوْا بالجنونِ من الجنونِ

كفرت بكل من عذلوا وعن درب الهدى عدلوا

ومن بِنَديِّهِمْ والنار تزحف يكثر الجدلُ

ومن بالوهم رغم التِيه ظنوا أنهم وصلوا

وأكبرتُ الذين مضوا وعما شقَّ ما سألوا

وعن غاياتهم رغم اعتساف الدرب ما نكلوا

ومن دمهم أُضيئت في دياجي الحَيْرَةِ الشُّعَلُ

أنا ما زال جرح القدس في جَنْبَيَّ يعتملُ

وَوَقْدُ مُصَابِهَا كالنار في الأحشاء يشتعلُ

أنا ما خنتُ عهد اللهِ لمّا خانت الدولُ

ما علَّتي وأنا جَلْدٌ نابلُ والقوس فيها وَتَرٌ عنابلُ

الموت حقٌ والحياةُ باطلُ إن لم أقاتلكم فأمي هابلُ

جُدُرُ المذلة لا تُدَك بغير زخات الرصاصِ

والحر لا يُلْقِي القيادَ لكل كَفَّارٍ وعاصي [عاصٍ]

وبغير نَضْحِ الدم لا يُمْحَى الهوانُ من النواصي(١٦)

ربما يرجع السبب وراء القلق الذي انتاب أسامة إلى عدم شعوره بالأمان فور وصوله مع عائلته بالقرب من جلال آباد في صيف عام ١٩٩٦م. كانت أفغانستان الشرقية حينئذٍ تشهد حالة من التغييرات العنيفة، وكانت معارف أسامة القدامى من الأفغان في حالة من التشويش بسبب

---

(١٦) المعلومات تستند إلى الموقع الإلكتروني الآتي الذي جرى تصفحه في العاشر من يوليو/ تموز عام ٢٠٠٧م: Public Broadcasting System translation. www.pbs.org/newshour/ terrorism/international/fatwa_1996.html.

إمساك طالبان بزمام الأمور. إلا أنه كان محظوظًا خلال تلك الأسابيع الأولى لأنه لم يقع ضحية أخرى لحرب الأفغان الأهلية التي يصعب تحديد وجهتها أو أهدافها، ويرجع ذلك إلى ما يُعرف عنه من ثراء وقدر ضئيل من الحماية السياسية.

وبحلول نهاية العام تحسنت الظروف بصورة مذهلة، وتعرف بن لادن إلى الملا عمر وأقام معه علاقات وثيقة. وعرض عليه عمر استضافته في مدينة قندهار الفقيرة والآمنة في الجنوب. وانتقل أسامة إلى هناك مع عائلته الكبيرة؛ التي كانت تتألف من أحد عشر ابنًا على الأقل حينئذٍ إلى جانب ثلاث زوجات ومجموعة كبيرة من البنات اللاتي لم تستطع أي من الخادمات ـ أو حتى حاولن ـ إحصاءهنّ.

وحتى بعد أن هدأت حياته واستقرت، ظلّ أسامة منشغلًا بالولايات المتحدة الأمريكية. واقتنى مجموعة متنوعة من الكتب التي تتحدث عن أمريكا وقرأها جميعها، وفقًا لما ذكره البحري الذي عمل لديه لاحقًا حارسًا شخصيًا. وتناولت هذه الكتب موضوعات متعلقة بأحاديث هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق عن الاستيلاء على حقول النفط السعودية خلال حرب عام ١٩٧٣م بين العرب وإسرائيل، وكان من بينها كتاب من تأليف قائد عسكري أمريكي عن استخدام قوات الانتشار السريع، وكتاب آخر لم يُعرف مؤلفه تحدث عن خطة للرئيس الأمريكي السابق فرانكلين روزفلت للسيطرة على العالم[١٧]. وأوضحت تعليقات أسامة العلنية خلال هذه الفترة أنه شأنه شأن كثير من السعوديين تبنى الأدلة القديمة المناهضة لفكرة لصهيونية، مثل «بروتوكولات حكماء صهيون» التي هي في مجملها نصوص مزيفة عن المؤامرات اليهودية المزعومة للسيطرة على العالم، التي كانت من المصادر «التاريخية» المفضلة لدى أدولف هتلر. وُضعت هذه الكتب في مكتبة أسامة التي كان فيها قليل من الكتب المتناثرة جنبًا إلى جنب مع المصاحف ونسخ المقالات المرسلة بالفاكس من علماء إسلاميين

---

(١٧) المعلومات تستند إلى المقال المترجم بعنوان: «Former Bin Laden 'Bodyguard' Discusses Al Qaeda Training Methods, 'Libraries,'" FBIS translation.

والذي نشرته صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٢٦ مارس/ آذار ٢٠٠٥م.

متطرفين في المملكة العربية السعودية، وغيرها من التقارير الإعلامية الغربية. كان أسامة يجلس متشابك الساقين على السجاد اليدوي المصنوع من الصوف، ويشارك عائلته في تناول الطعام والخبز والزبادي، وكانت الحياة شبه بدائية حيث كان التيار الكهربائي ينقطع من آن إلى آخر، وكان من الصعوبة بمكان تمييز الفارق بين التاريخ والخيال، حتى وإن كان أسامة مهتمًّا بتحديد هذا الفارق.

يتذكر البحري أن أسامة وزملاءه كانوا يتساءلون بلا مبالاة: «وما هو سر الخوف من أمريكا؟» إن كانوا قد نجحوا في الجهاد ضدّ الروس في أفغانستان والشيشان، وضد الصرب في البوسنة، «فلن تكون أمريكا مختلفة عن هؤلاء». ووردت إليهم تقارير شفهية من المحاربين العائدين من المشاركة في القتال مع القوات الأمريكية في الصومال، إضافة إلى أنهم استمعوا إلى اعترافات من فجروا أهدافًا أمريكية في المملكة العربية السعودية. واستخلصوا أن الولايات المتحدة الأمريكية «أصبحت مستهدفة من الجميع بلا استثناء»[١٨].

كانت المعادلة السياسية العسكرية واسعة النطاق التي أدركوها تكاد تكون مألوفة خاصةً في نظرتها الأصولية لليهودية باعتبارها المنبع الرئيس لكل المؤامرات العالمية: فاليهود والمسيحيون أو «الصهاينة» و«الصليبيون» على حدّ تعبيرهم سعوا إلى تدمير الإسلام والاستيلاء على أراضيه. وذُكرت هذه الحرب في القرآن الكريم الذي أُمر المطيعون لأمر الله أن يصمدوا في سبيله وأن يعجلوا بنصر الإسلام، وحينذاك تقع الواقعة. وكانت الثروات النفطية الهائلة أحد أسباب هذا الصراع؛ لأن الله وَهَبَ المملكة العربية السعودية احتياطيات مهولة من النفط لتعزيز شوكة من يقيمون في عقر دار الإسلام، وبسبب خوف اليهود والصليبيين من حدوث ذلك، تآمروا للاستيلاء على النفط مستفيدين من ضعف قوى حكام العرب الخائرة وزادوهم كفرًا وإلحادًا. وفي ضوء تلك المزاعم،

---

(١٨) المعلومات تستند إلى المقال المترجم بعنوان: «Bodyguard Interviewed on First Meeting With Bin Laden,» FBIS translation.

والذي نشرته صحيفة **القدس العربي** بتاريخ ٢٦ مارس/ آذار ٢٠٠٥م.

كتب أسامة في بيانه الذي نُشر في شهر أغسطس/آب عام ١٩٩٦م، أن المؤامرات الأمريكية في المملكة العربية السعودية شجعت الكافرين على ارتكاب أبشع الجرائم لما يزيد عن ألف عام من الكفاح، بل اعتبر نفسه من بين الضحايا:

وكان آخر هذه الاعتداءات أن أُصيبَ المسلمون بمصيبة من أعظم المصائب التي أُصيبوا بها منذ وفاة النبي ألا وهي احتلال بلاد الحرمين... كما اعتقل بإيعازٍ من أمريكا عددٌ كبيرٌ جدًّا من العلماء والدعاة والشباب في بلاد الحرمين... وقد أصابنا بعض ذلك الظلم بمنعنا من الحديث مع المسلمين، ومطاردتنا في باكستان والسودان وأفغانستان...[(١٩)].

عندما كان أسامة يتواجد في منزله مع عائلته، بعيدًا عن مكاتبه وآلات الفاكس العديدة، لم يكن أسامة مختلفًا كثيرًا عن صورة الأب التقليدي الذي يمر بمرحلة منتصف العمر؛ ذلك الأب المتزمت غريب الأطوار الذي كان في السودان. وكان يوبخ من حوله بشدة إذا أهمل في الصلاة والاعتماد على النفس، إلا أنه كان طيب القلب متسامحًا ومرحًا خاصةً عند الخروج إلى الصحراء. وكان يرفض أن يضع أبناؤه الثلج على الماء بحجة أن ذلك من شأنه أن يدللهم، حتى إنه حرم عليهم بعض الرفاهيات مثل صلصة تابسكو كنوع من مقاطعته الدائمة للبضائع الأمريكية. إلا أنه أعد العدة اللازمة للعب الكرة الطائرة وركوب الخيل ورحلات الصيد والنزهات العائلية. وكان الحراس المسلحون يتنقلون بينه وبين زوجاته على نحو مستمر، ولا شك في أهمية أسامة آنذاك خاصةً أنه يتمتع بحياة رغدة بعيدًا عن المناطق المقفرة والنائية في أفغانستان التي تحكمها طالبان. وحتى في ظلّ تلك الظروف، كان هناك مسحة من الغرابة والرقة والغموض في شخصية أسامة. فقد كان يعاني رعشة واضحة في يده تنم عن قواه الخائرة؛ كانت مصافحته «بمنزلة محاولة الإمساك بسمكة خرجت لتوها من الماء»، وفقًا لما ورد عن الصحافي الإنكليزي بيتر جوفينال. وذكرت إحدى زوجاته السابقات أنه بعد عودته

---

(١٩) المعلومات مستندة إلى: Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, p. 165.

إلى أفغانستان، مرت عليه فترات «لم يكن يفضل فيها الحديث مع أحد» إضافة إلى أنه «اعتاد الجلوس والتفكير لفترة طويلة والنوم في وقت متأخر من الليل»[٢٠].

كان أسامة يفضل أن تحيط به عائلته وأتباعه، شأنه شأن كثير من إخوته غير الأشقاء. وكان يحب التنقل من مكان إلى آخر، وكان يشعر بحاجة ماسة إلى التواصل مع العالم الخارجي. واصل أسامة الاعتماد على مكتبه في لندن حيث ظلّ على اتصال بزميله فواز في أثناء وجوده في قندهار عن طريق التعامل مع مكتب اتصالات دولي صغير فيه آلة فاكس في شمال لندن اسمه «ذا غريبفاين»، تمكن فواز من خلاله من تبادل الرسائل المكتوبة مع رئيسه[٢١]. إلا أن آلات الفاكس بدأت في التراجع نسبيًّا كأحد وسائل التكنولوجيا العتيقة.

أدرك أسامة الأهمية المتزايدة لشبكات التلفاز العالمية العاملة بالأقمار الاصطناعية، واعتبرها إحدى الآليات الحاسمة للتسويق وجمع التبرعات. ومع خسارة ميراثه الشخصي والأرباح التي كان يحصل عليها من شركات العائلة وفقدان أصول شركاته ومدخراته في السودان، كل ذلك كان يعني أنه يحتاج إلى الظهور بمظهر إعلامي قوي لدى عودته إلى أفغانستان، وذلك لجذب المتطوّعين والمتبرعين بصفة أساسية. وكانت هذه استراتيجية أساسية خلال حرب الأفغان المناهضة للاتحاد السوفياتي. ومن خلال شبكات التلفاز العالمية آنذاك، تمكن أسامة من تحديث استراتيجيته وتوسيع نطاقها من خلال مخاطبة الجماهير في جميع أنحاء العالم، حيث لم تكن هذه الوسائل متاحة من قبل. وبصفة عامة كانت طالبان تعتبر الإعلام أداة شيطانية، ولديها تخوفات من الانتشار المضطرد للوسائل التكنولوجية آنذاك. إلا أن الإعلام لم يكن حاسمًا فحسب في تصور أسامة

---

(٢٠) «سمكة خرجت لتوها من الماء» المصدر السابق ص ١٨١. «والنوم في وقت متأخر من الليل» مقال نشرته صحيفة **المجلة** عن المقابلة التي أُجريت مع زوجة بن لادن بتاريخ ١٠ مارس/ آذار عام ٢٠٠٢م.

(٢١) المعلومات مستقاة من شهادة أدلى بها التحري نويل فيني Noel Feeney في قضية: *United States v. Usama Bin Laden et al.;* United States District Court, Southern District of New York, 98CR1023, March 27, 2001.

لعمليات الجهاد التي يقوم بها، بل كان مألوفًا لديه بدرجة جعلته ينتفع به بصورة مذهلة؛ ففي خلال الأيام الطويلة التي قضاها في المنفى، يبدو أن أسامة أصبح مدمنًا على الأخبار العالمية.

أجرى أسامة سلسلة من المقابلات التلفزيونية داخل أفغانستان خلال عامي ١٩٩٧م و١٩٩٨م: من بينها مقابلة مهمة أجراها في مرحلة مبكرة مع شبكة سي أن الإخبارية، وأخرى بعدها بعام مع محطة إيه بي سي، إضافة إلى أنه لم يكن يمانع الإدلاء بأحاديث مع كثير من الصحفيين الذين يتحدثون العربية نظرًا إلى احترامه لمهمتهم. وأدرك في مرحلة مبكرة أهمية قناة الجزيرة، وهي قناة فضائية مستقلة تبث أخبارها باللغة العربية. وفي أواخر عام ١٩٩٨م، وافق أسامة على إجراء مقابلة مؤثرة مع قناة الجزيرة التي سمحت له بالتحدث باستفاضة ومباشرةً إلى الشعب السعودي والعربي مقارنةً بما كان يحدث سابقًا. ونما لديه وعي ذاتي بأهمية الإخراج المرئي: من حيث الكتب التي توضع خلفه والبندقية التي يظهرها بجانبه، والرصاصات الخطاطة التي تنطلق في السماء كالألعاب النارية لدى وصوله لإجراء المقابلة.

في مرحلة مبكرة من عام ١٩٩٨م، تحالف بن لادن مرة أخرى مع حزب الجهاد المصري بقيادة أيمن الظواهري بعد فترة من الانفصال. وأعلنا عن مولد ائتلافهما الجديد؛ ائتلاف «الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين»، في مؤتمر صحفي حضره صحفيون ومصورون. جلس بن لادن والظواهري في المؤتمر خلف طاولة يكسوها علم؛ بدوا كأنهما مديران تنفيذيان مترددان يعملان في شركة أدوية إسلامية صغيرة، يعلنان انطلاق خط إنتاج جديد. وعادت هذه الصورة بنا إلى الأفلام التي أنتجها أسامة خلال الفترة التي قضاها في أفغانستان مؤخرًا.

طرح رحيم الله يوسفزاي الصحافي الباكستاني الذي حضر المؤتمر سؤالًا على أسامة استفسر فيه عن قرار تبرؤ عائلته منه.

وأجابه أسامة بنبرة عناد قائلًا: «إن علاقات الدم قد يشوبها بعض الشوائب ولكنها أبدًا لن تُستأصل من جذورها».

وسأله رحيم الله يوسفزاي: «هل لا تزال ملياردير ًا؟» ويبدو أن أسامة

أعجب باللعب بالكلمات، وأصبح أكثر ثقة في لقاءاته الإعلامية. وقال له: «قلبي ثري وجواد»[٢٢].

كان أسامة يرسل مقالاته عبر آلات الفاكس، وتولى البث التلفزيوني بالأقمار الاصطناعية نشر صوره وأحاديثه، إلا أن أسامة كان في حاجة إلى الهاتف لإجراء مكالمات أكثر خصوصية.

في اليوم الأول من شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٦م، وبينما كان أسامة يؤمِّن ملجأه مع طالبان، استعان بمكتبه في لندن لشراء هاتف من نوع «إنمارسات ميني إم» يعمل بالأقمار الاصطناعية، وهو آلة في حجم الكمبيوتر المحمول. وبلغت تكلفة شرائه بسعر التجزئة آنذاك قرابة خمسة عشر ألف دولار. واشترى مكتبه أيضًا عدة آلاف من الدقائق المدفوعة مسبقًا. وكانت شركة إنمارسات قد بدأت نشاطها باعتبارها اتحادًا حكوميًّا قبل خصخصتها لاحقًا. وتفوقت هواتفها الميني إم على هواتف إيريديوم في الأسواق، إلا أن شركة إنمارسات لا تستهدف المستهلك العادي على النقيض من شركة إيريديوم. استهدفت إنمارسات الشركات ذات مواقع العمل النائية بالهواتف التي تنتجها. وربما لا يكون تنظيم القاعدة شركة تقليدية في مجالها، إلا أن موقعها الجغرافي - حيث يقع مقرها الرئيس في أفغانستان النائية، إلى جانب مكاتبها الإقليمية المنتشرة في أفريقيا والعالم العربي - كان مناسبًا لسوق هواتف الميني إم[٢٣].

تثبت سجلات المكالمات الهاتفية أن أسامة كان ثرثارًا. وتشير المكالمات التي أجراها أسامة ومساعدوه بين أواخر عام ١٩٩٦م وخريف عام ١٩٩٨م، إلى أنه بعد الاتصال بانتظام بالوكلاء الإعلاميين المنتشرين في كل مكان والمساعدين الماليين وزعماء الخلايا الإرهابية، يتذكر على

---

(٢٢) المعلومات مستقاة من: The News (Islamabad), June 16, 1998. English original, FBIS transmission.

(٢٣) المعلومات الخاصة بعملية الشراء التي تمت في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٦م مستندة إلى بنود المحاكمة في قضية: U.S. v. Usama Bin Laden et al., op. cit., March 27. 2001.

المعلومات الخاصة بتاريخ شركة إنمارسات وحالة السوق مستندة إلى مقابلات أُجريت مع مديرين تنفيذيين عملا سابقًا في شركة إيريديوم.

حين غرة أن يتصل بوالدته ليطمئن عليها. وكثيرًا ما كان يتصل بمعارفه في بريطانيا؛ حتى إنه اتصل ٢٦٠ مرة على ٢٧ رقمًا مختلفًا. وأجرى أسامة أو مساعدوه ما يزيد عن ٢٠٠ مكالمة إلى اليمن و١٣١ مكالمة إلى السودان و١٠٦ مكالمات إلى إيران و٦٧ مكالمة إلى أذربيجان و٥٩ مكالمة إلى باكستان و٥٧ مكالمة إلى المملكة العربية السعودية و١٣ مكالمة إلى سفينة مبحرة على صفحة المحيط الهندي و٦ مكالمات إلى الولايات المتحدة الأمريكية[٢٤].

بدأت الحكومة الأمريكية تتنصت على المكالمات منذ بداية عام ١٩٩٧م، واكتشف ضابط في وكالة الاستخبارات الأمريكية في أوروبا في شهر يناير/ كانون الثاني أو فبراير/شباط أن شبكات التنصت التي تديرها وكالة الأمن القومي (وكالة الاستخبارات الأساسية في أمريكا المسؤولة عن التنصت على الاتصالات) حددت مكالمات هاتفية صادرة من هاتف من نوع إنمارسات في أفغانستان. وتبين من التحقيقات أن الهاتف ملك أسامة بن لادن الذي كان حينئذٍ هدفًا محددًا بشكل رسمي لوكالة الاستخبارات الأمريكية. وأعد أحد ضباط إصدار التقارير في مركز تابع لوكالة الاستخبارات الأمريكية خطة لتقفّي أثر أسامة بن لادن من ضواحي فيرجينيا، ورسم مخططات توضح أرقام التلفونات التي كان أسامة يتصل بها، وأي تلك الأرقام عاود الاتصال به في بعض الحالات. ولكن وفقًا لما ذكره مايكل شوير الذي كان يدير وحدة متابعة بن لادن، لم تتمكن وكالة الاستخبارات الأمريكية من إقناع وكالة الأمن القومي بتسليم نسخ من سجلات المكالمات المتنصت عليها بانتظام. وردًّا على ذلك استطاع شوير ـ الذي أُحبط لمقابلة طلبه بالرفض ـ أن ينشر أجهزة تنصت في المنطقة، إلا أن هذا النظام لا يستطيع سوى التنصت على جانب واحد من محادثات بن لادن، هو الجانب الصادر من أفغانستان وفقًا لما ذكره شوير. ومع ذلك ـ وفي ظلّ هذا القصور ـ أسفرت المكالمات الهاتفية التي أجراها بن لادن باستخدام الأقمار الاصطناعية خلال عام ١٩٩٧م

---

(٢٤) المعلومات الخاصة بتسجيلات المكالمات الهاتفية مستقاة ممّا نشرته صحيفة **صنداي تايمز** في لندن بتاريخ ٢٤ مارس/ آذار ٢٠٠٢م وما نشرته أيضًا صحيفة **نيوزويك** بتاريخ ٢٥ فبراير/ شباط ٢٠٠٢م.

وبداية عام ١٩٩٨م، أسفرت عن أول خريطة عالمية تعتمد عليها بصدق وكالة الاستخبارات الأمريكية توضح خريطة تنظيم القاعدة على مستوى العالم(٢٥).

تبين أن بن لادن كان يستخدم كلمات رمزية غامضة خلال بعض محادثاته، إلا أن المحللين لم يتمكنوا من التعرف إلى معانيها. وفي النهاية، لم تكن المعلومات التي جمعتها وكالة الاستخبارات من هاتفه كافية لإنقاذ حياة مئات الأشخاص ممن أُزهقت أرواحهم في الهجوم الإرهابي الأول المهول لأسامة، وفقًا لما هو معروف (فالنصوص الجزئية للمكالمات لم يُصرح بها علنًا مطلقًا).

على مدار سنوات، ومنذ أن كان في السودان، دأب بن لادن على وضع خطة لتفجير السفارات الأمريكية في شرق أفريقيا. وفي اليوم السابع من شهر أغسطس/ آب عام ١٩٩٨م، وبعد جولة أخيرة من المحادثات الهاتفية مع المقر الرئيس في أفغانستان، ضربت خليتان أفريقيتان سرِّيتان تابعتان للقاعدة ضربتهما، إذ حاول الانتحاريون الاصطدام بشاحناتهم بالسفارات الأمريكية في نيروبي بكينيا ودار السلام عاصمة تنزانيا. وحدثت التفجيرات بالفعل بالقرب من مباني السفارات ونتج من العملية مقتل ما يزيد عن ٢٢٥ شخصًا وإصابة عدة آلاف من الأشخاص.

وقد استخدم أسامة هاتفه الذي يعمل بالقمر الاصطناعي لعبور المحيط الهندي وضرب الأهداف الأمريكية بالتحكم عن بعد. وكان هذا ابتكارًا في مجال الإرهاب العالمي تدفعه رغباته وخبراته كأحد أفراد عائلة بن لادن: ومثلما استثمر إخوته غير الأشقاء في مجال البث التلفوني بالقمر الاصطناعي في واشنطن، استخدم أسامة التكنولوجيا نفسها لشن هجمات على سفارات واشنطن في الخارج. ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي سيستخدم فيها التكنولوجيا التي توفر له إمكانية التنقل على مستوى العالم، وهي التكنولوجيا التي أَلِفتها عائلته باعتبارها إحدى وسائل الابتكارات التقنية الفذة.

---

(٢٥) المعلومات مستندة إلى مقابلات أُجريت مع مايكل شوير بتاريخ ٥ يوليو/ تموز ٢٠٠٥م.

في شهر أغسطس/ آب نفسه، أعلن بن لادن عن مسؤوليته عن الحادث، وأنه ارتكبه باسم تنظيم جهادي غير معروف. وأرسل بن لادن ذلك البيان في فاكس عن طريق مكتب «ذا غريبفين» في شمال لندن، وجاء فيه: «إن الأيام القادمة كافية لأن تتعرض أمريكا لمصير أسود بمشيئة الله مثل ذلك المصير الذي لاقاه الاتحاد السوفياتي... وسوف تتوالى الضربات على أمريكا واحدةً تلو الأخرى من كل مكان، وسوف تظهر جماعات إسلامية جديدة واحدة تلو الأخرى...»(٢٦).

أمر الرئيس الأمريكي بل كلينتون بإطلاق صواريخ موجهة على أسامة بعد الهجوم على السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا بعدة أسابيع. ولم يكن هناك أدنى شك في مسؤولية بن لادن عن تلك التفجيرات من خلال سجلات مكالمات هاتف القمر الاصطناعي المراقب الخاص به إلى جانب التصريحات التي أدلى بها أعضاء تنظيم القاعدة المحتجزون. ومع ذلك تبين أن الاستخبارات الأمريكية فشلت في العثور على أثر له، وذهبت الصواريخ التي أطلقت عليه أدراج الرياح. وأدرك أسامة أن هاتف القمر الاصطناعي قد يُستخدم لتقفي أثره باعتباره هدفًا؛ فأغلقه ولم يستخدمه مرة أخرى.

أدت الهجمات الصاروخية الانتقامية إلى إعلاء شأن أسامة على المستوى العالمي على الفور، بل تحول حينئذٍ بلا شك إلى هدف عسكري جدير لأقوى قائد سياسي في العالم. وفي شهر أغسطس/ آب نفسه، عقد مسؤولو إدارة كلينتون والجنرالات الذين تولوا تنفيذ الهجوم الصاروخي مؤتمرات صحفية مصورة في واشنطن، حيث عرضوا اسم بن لادن إلى قطاع عريض من الجماهير الذين لم يسمعوا عنه قط. واحتشد المسلمون في باكستان ابتهاجًا بظهور زعيم مثل أسامة تمكن بمفرده من تحدي الأمريكيين، وطُبع وجهه ذو اللحية الشهيرة على الملصقات وقمصان الشباب.

في غمرة انطلاق شهرة أسامة على المستوى العالمي، كان العد التنازلي قد بدأ لافتتاح شركة إيريديوم فعاليات خدمتها الهاتفية. وقال

---

(٢٦) المعلومات مستقاة من: Scheure (as «Anonymous»), *Through Our Enemies' Eyes*, pp. 22-23.

توتل، المستشار العام في شركة إيريديوم: «خطر ببالنا جميعًا على حين غرة أن معنا في مجلس الإدارة شخصًا من هذه العائلة». أي عائلة بن لادن. وسريعًا ما حاول المديرون التنفيذيون في شركة إيريديوم أن يجروا أبحاثًا على عائلة بن لادن. واستفسروا عن أسامة من حسن بـ «أسلوب لبق ولائق». وطمأنهم حسن بأن علاقته بأسامة انقطعت تمامًا. واتخذ المديرون التنفيذيون في شركة إيريديوم قرارًا بعدم إصدار أي بيانات رسمية؛ لعدم رغبتهم في لفت الأنظار نحوهم في هذه اللحظة الحاسمة، خاصةً وأنهم معرضون لخسارة ٥ مليارات دولار من استثماراتهم. وعندما اتصل الصحافيون، قالت لهم المتحدثة الرسمية باسم الشركة إن أسامة انقطعت صلته بعائلته وشركاتها[٢٧].

وسريعًا ما طفت إلى السطح مشكلات أخرى أمام المديرين التنفيذيين لشركة إيريديوم لتحتل مساحة من تفكيرهم. فعندما عُرضت هواتف الشركة للبيع، ثبت أن شركة إيريديوم لن يُقدر لها تغيير العالم، بل ستُسجل في التاريخ باعتبارها إحدى أغرب الشركات المفلسة.

أخطأت الشركة في تقدير سعر منتجاتها، إضافة إلى أنها كانت شديدة البطء في طرح خدماتها في الأسواق ـ لمرور ما يزيد عن عشر سنوات بين تصور الفكرة وإطلاق الخدمة ـ حتى تجاوزت خدمة الهاتف الخلوي وشبكة الويب العالمية تصور إيريديوم المتواضع. وسعت شركة إيريديوم لإقناع زهاء خمسة وخمسين ألف عميل فحسب بشراء أجهزتها والاشتراك في خدمتها، ولم تحصل في النهاية إلا على قرابة عُشر هذا العدد. وفي النهاية زادت القيمة الإجمالية لخسائر شركة موتورولا عن ٢,٥ مليار دولار[٢٨]. وفي عام ١٩٩٩م أقامت شركة إيريديوم دعوى لإشهار إفلاسها، وخسر مستثمروها الوسطاء ـ ومن بينهم عائلة بن لادن ـ كل أموالهم.

---

(٢٧) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع توتل ـ المصدر السابق. والمعلومات الخاصة بالتصريح الذي ألقاه للصحافة مستندة إلى ما نشرته صحيفة **دايلي نيوز** في نيويورك بتاريخ ٢٧ أغسطس/ آب عام ١٩٩٨م، وصحيفة **إنترسبيس** بتاريخ ٩ سبتمبر/ أيلول عام ١٩٩٨م.

(٢٨) المعلومات الخاصة بالمشتركين الذين بلغ عددهم خمسة وخمسين ألفًا فقط وعن الخسائر التي تجاوزت ٢,٥ مليار دولار أمريكي مستندة إلى ما نشرته صحيفة **نيويورك تايمز** بتاريخ ١١ أبريل/ نيسان ٢٠٠٠م.

لم تتوقف الخسائر عند هذا الحد، بل كانت الأقمار الاصطناعية الخاصة بالشركة معرضة لخطر السقوط من مداراتها والاحتراق في الغلاف الجوي للأرض. ولتفادي ذلك، وقع البنتاغون عقدًا يدفع بموجبه ٣ ملايين دولار شهريًّا لشراء خدمة الهاتف التي تقدمها شركة إيريديوم للمساعدة في الإبقاء على تشغيل الشبكة. وأوضح المتحدث الرسمي باسم البنتاغون أن شبكة هواتف عالمية قدمت بعض المميزات العسكرية الفريدة، حيث ذكر أن «شركة إيريديوم قدمت خدمات إلى بعض المناطق المحرومة من مثل هذه الخدمات». وفيما يتعلق بالقوات المسلحة الأمريكية كان لنطاق الشبكة وأمنها «بعض التداعيات التشغيلية»[٢٩].

كانوا يتعلمون ولكن ليس بالسرعة الكافية. وحينئذٍ أعلن بن لادن عداءه الرسمي للولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن لدى الحكومة الأمريكية معلومات كافية عنه أو عن عائلته، ومع ذلك كان لديها بعض المعلومات الخاطئة التي تداولتها حتى على أعلى المستويات. وتبين أن البحث عن معلومات عن عائلة بن لادن مهمة معقدة ومحبطة، حتى للاستخبارات الأمريكية.

---

(٢٩) المعلومات مستقاة من الوثيقة الرسمية لوزارة الدفاع والتي ذُكرت فيها الأخبار الموجزة بتاريخ ٨ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٠م.

الفصل الرابع والثلاثون

المحامون... السلاح... المال

وصل الضابط دانيال كولمان عميل مكتب التحقيقات الفدرالي لتنفيذ مهمة في وحدة متابعة بن لادن التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية في شهر مارس/ آذار عام ١٩٩٦م. وسعى كل من مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات الأمريكية إلى تعزيز التعاون بينهما، وبفضل خبرة كولمان السابقة في التحقيقات الاستخباراتية، كان هو الاختيار المنطقي. كان رجلًا طويلًا ضخم الجثة وصريحًا في كلامه، عاش معظم حياته في نيويورك أو نيوجيرسي. وكان مقر وحدة متابعة بن لادن يقع حينئذٍ في مبنى في إحدى ضواحي ولاية فيرجينيا الشمالية. وما إن استقر كولمان، كان شغله الشاغل قراءة ما أشارت إليه وكالة الاستخبارات الأمريكية بـ «الملف ٢٠١»، وهو سجل حالة خاص بموضوع ما. وكان الملف ٢٠١ الخاص بابن لادن يضم ستة وثلاثين مجلدًا مع العلم بأن بعضها كان فيه نسخ طبق الأصل وصفحات مكررة. وفوجئ كولمان أنه لم يكن هناك أي إشارة مكتوبة عن اشتراك أسامة بن لادن في حرب الأفغان ضدّ الاتحاد السوفياتي التي دارت رحاها في الثمانينيات؛ ذلك الصراع الذي أدّت فيه وكالة الاستخبارات الأمريكية دورًا بارزًا[١].

جمع ضباط الاستخبارات الأمريكية معلومات عن أسامة من مقر الوكالة في الخرطوم؛ تضمنت تلك الملفات ـ التي جُمعت بصفة أساسية بين عامي ١٩٩٣م و١٩٩٥م ـ معلومات تفصيلية عن حسابات بن لادن

(١) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع دانيال كولمان بتاريخ ٣١ أغسطس/ آب ٢٠٠٥م.

المصرفية في السودان ودبي، وشركاته ومزارعه ومعداته في السودان. وبدءًا من صيف عام ١٩٩٦م أضاف مخبران كانا يعملان لدى بن لادن في ما سبق وتطوعا لمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه الصورة إضافة كبيرة. وقدم جمال الفضل، أحد المارقين من تنظيم القاعدة، معلومات عن نشأة القاعدة وتاريخها؛ كانت هذه هي أول مرة يسمع أي من مسؤولي الحكومة الأمريكية عن هذا الاسم.

لم تكن المبالغ المالية التي وجدتها الاستخبارات الأمريكية في حسابات أسامة المصرفية كبيرة جدًّا، إلا أنهم على الأقل عرفوا أماكن بعضها. وافترضوا أنه كان لديه مبالغ مالية أكبر مخفية في حسابات أخرى، وعلى الأرجح في أوروبا، ولكنهم لم يتمكنوا من تحديدها بعد. وسلم محللو الاستخبارات الأمريكية جدلًا بأن أسامة بن لادن من الشخصيات الثرية للغاية، وأنه حصل على ثروته من الأموال التي ورثها عن عائلته. وحتى عام ١٩٩٦م لم يحاول أي مسؤول في الحكومة الأمريكية أن يحقق بعمق في المسائل الأساسية المتعلقة بثروة أسامة المفترضة: كم تبلغ الأموال النقدية التي حصل عليها بالفعل من إرث والده؟ وكم يبلغ الإيراد الذي حصل عليه من شركات بن لادن؟ وهل قطعت العائلة صلتها به تمامًا؟ وإن كان لا يزال يحصل على المساعدات من المملكة العربية السعودية، فمن أين تأتي المملكة بها؟ وما قدر المدخرات النقدية التي يحتفظ بها؟[٢].

مارس أنتوني ليك، مستشار الأمن القومي للرئيس كلينتون خلال الفترة الرئاسية الأولى، ضغوطًا لإنشاء وحدة متابعة خاصة لابن لادن في وكالة الاستخبارات الأمريكية؛ كان ليك مهتمًّا بالأخطار المتزايدة لتمويل الإرهاب على مستوى العالم. وكانت الوحدة في مستهل الأمر يُشار إليها بالاختصار سي تي سي - تي أف أل (CTC-TFL) التي تعني مركز مكافحة

---

(٢) المعلومات التي تقول إن ملفات السودان كانت تحمل معلومات تفصيلية مستندة إلى مقابلة أُجريت مع مسؤولَين أمريكيين كانا قد اطلعا على الملفات في وقت لاحق. والمعلومات الخاصة بالمارقين في عام ١٩٩٦م وعن سماع مصطلح «القاعدة» لأول مرة تستند إلى المقابلة التي أُجريت مع كولمان ـ المصدر السابق.

الإرهاب والكشف عن وسائل تمويله[٣]. وكان رئيس هذه الوحدة عندما وصل دانيال كولمان هو مايكل شوير، المحلل الجريء العنيف الذي يعمل في وكالة الاستخبارات الأمريكية والذي تولى مهمة تتبع مسار حرب الأفغان السرية خلال الثمانينيات.

أدرك شوير أن البحث في وسائل تمويل الإرهاب لا ينبغي أن يجعلهم يهملون خطوط البحث الأخرى أو العمليات السرية، وتدريجيًّا توصل إلى أن تقفّي أثر الأموال لن يكشف كثيرًا عن نوايا أسامة وخطّته للقيام بأعمال عنف. ومع ذلك اتخذ شوير وكولمان قرابة النصف الثاني من عام ١٩٩٦م قرارًا بإجراء أبحاث عن عدد أفراد عائلة بن لادن في الولايات المتحدة الأمريكية وسر وجودهم فيها والغرض من إقامتهم وعن آرائهم في أسامة. ومن خلال مقابلات رسمية تمكنوا من معرفة أشياء مفيدة عن موارد أسامة المالية ودوافعه. وكان محظورًا على وكالة الاستخبارات الأمريكية قانونًا أن تجمع معلوماتها داخل الولايات المتحدة الأمريكية في ظروف كثيرة، ومن ثَم خُول لمكتب التحقيقات الفدرالي تنفيذ هذه المهمة بصفة أساسية، وبذلك تولى كولمان مهمة تلخيص أهم نتائج المقابلات الشخصية المتعلقة بابن لادن[٤].

ذهب كولمان وعميل آخر من الفرع الميداني لمكتب التحقيقات الفدرالي في واشنطن لزيارة فيليب غريفن، الدبلوماسي السابق في وزارة الخارجية الذي كان يدير مكتب عائلة بن لادن في ضواحي ولاية ميريلاند. وشعر كولمان أن المقابلة لم تكن مثمرة إلى حدّ بعيد، وقال بشأنها: «استمعنا إلى محاضرة عن تديّن عائلة بن لادن». وعاد كولمان إلى مدينة روكفيل مرة أخرى وطلب من غريفن أن يسمح له بترتيب مقابلة شخصية

---

(٣) المعلومات الخاصة باللجنة الوطنية لتقصي الحقائق في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة (لجنة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول) تستند إلى: «Monograph on Terrorist Financing,» Staff Report to the Commission by John Roth, Douglas Greenburg, Serena Wille, August 2004, p. 35.

(٤) المعلومات المتعلقة بالشكوك التي ساورت شوير عن التحقيقات بشأن الثروة مستقاة من: «Monograph on Terrorist Financing,» ibid., p. 36.

وتستند أيضًا إلى مقابلة أُجريت مع مايكل شوير بتاريخ ٥ يوليو/ تموز ٢٠٠٥م ومقابلة أخرى أُجريت مع كولمان ـ المصدر السابق.

مع بكر بن لادن، باعتباره كبير العائلة ومن ثَم فقد يكون لديه معلومات أكثر من غيره عن تاريخ أسامة وموارده المالية. وقال غريفن إن بكرًا نادرًا ما كان يسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إن سافر في الأساس. واقترح أن يركز مكتب التحقيقات الفدرالي بقدر أكبر على مقابلة إخوة آخرين، مثل حسن أو شفيق، اللذين كانا يشغلان مراكز مرموقة في الشركة ويقضيان وقتًا أكبر في الغرب(٥).

عندما تنامى إلى علم بكر اهتمام مكتب التحقيقات الفدرالي بالعائلة، تولى الأمر بصورة مباشرة. وعقد محادثات في جدة لمناقشة رد الفعل الأمثل، وفي النهاية أبلغ بكر غريفن أنه يجب عليه عدم القيام بدور مندوب العائلة في هذه المناقشات مع مكتب التحقيقات الفدرالي. واتصل بكر بجيمس بايكر وزير الخارجية السابق وحصل على إرشادات من مكتب المحاماة الخاص بايكر؛ مكتب بايكر بوتس، وهو اسم ابن جيمس بايكر المحامي المرموق الذي كان يدير فرع المكتب في واشنطن. إضافة إلى ذلك طلب بكر المشورة والإرشادات من مكتب سوليفان آند كروموبل الشهير في شارع وول ستريت الذي كان من بين موكليه شركة مايكروسوفت وبنك غولدمان ساكس الاستثماري.

في اليوم السابع عشر من شهر أبريل/ نيسان عام ١٩٩٧م، وصل دانيال كولمان إلى مقر شركة سوليفان آند كروموبل لمقابلة شفيق وحسن بن لادن. واجتمعوا في غرفة تشاور، وبينما كان كولمان يطرح الأسئلة كان هناك عميل آخر يدون الملحوظات. بعد إجراء مقابلات لمصلحة مكتب التحقيقات الفدرالي على مدار سنوات عديدة، توصل كولمان إلى أن أفضل الطرق في مثل هذه المواقف هو التعامل بطريقة غير رسمية قدر الإمكان؛ من دون وجود كاتب يدوّن أحداث المقابلة، ومن دون الإمساك بورقة أسئلة معدّة مسبقًا. ولإدراكه أن حسن وشفيق بن لادن سيشعران بالقلق والتوتر والرغبة في الدفاع عن أنفسهم، أراد أن يسترخيا. وفضل أن يبدأ معهما «حوارًا وديًّا» يأخذ فيه وقته لمعرفة «الموضوعات التي يريد

---

(٥) تستند هذه المعلومات إلى مقابلة أُجريت مع كولمان ـ المصدر السابق، وقد رفض غريفن التعليق على الأمر.

كلٌّ منهما الإفصاح عنها» ثم يحاول أن ينشئ نوعًا من الثقة المتبادلة بينهما تدريجيًّا[٦].

كان المحامي الكبير الموكَّل من أبناء بن لادن ريتشارد جيه. يوروسكاي خريج كلية الحقوق في جامعة يال الذي كان شريكًا مرموقًا في مكتب سوليفان آند كرومويل وتخصص في إقامة الدعاوى القضائية. وإلى جانب يوروسكاي، حضر عن العائلة أيضًا محاميان من مكتب سوليفان آند كرومويل. واستمرت المقابلة لقرابة الساعتين وتحدثوا فيها عن عشرة موضوعات على الأقل، منها الإطار العام لعائلة بن لادن وتاريخها، وعلاقة أسامة بإخوته غير الأشقاء، وعدد أفراد العائلة الذين كانوا في الولايات المتحدة الأمريكية، وبعض الشؤون الأخرى المتعلقة بالميراث. وكان الجو العام للمقابلة هادئًا وليس تحفزيًّا. وعلى الرغم من أن شفيقًا وحسنًا كانا متجاوبين مع كولمان فإنهما لم يتحدثا كثيرًا. وأبلغا عميلي مكتب التحقيقات الفدرالي في ما يتعلق بموضوع ثروة أسامة أن المصروفات والرواتب والميراث التي كان أسامة يحصل عليها بلغت عدة ملايين من الدولارات ولم يصل المبلغ إلى مئات الملايين. ولكننا لا نعرف مدى دقة الأرقام التي ذكرها الأخَوَان خلال المقابلة المبدئية.

شعر كولمان أن يوروسكاي تصرف في الاجتماع كأن موكليه مجرمان مشتبه فيهما، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك. ولذا حاول كولمان أن يوضح لهم أن هذه الجلسة ليست لتوجيه أي تهم أو للدفاع عن أنفسهم، ولكنه شعر أن مقاطعات يوروسكاي المتواصلة ستمنعه من تهيئة حالة الألفة التي كان يعتبرها شديدة الأهمية في المقابلات مع مثل هذه الشخصيات.

بعد المقابلة التي أُجريت في واشنطن، تلقى عبد الله بن لادن ـ الأخ غير الشقيق لأسامة الذي كان يدرس القانون بجامعة هارفارد ـ مكالمة هاتفية من عميل آخر في مكتب التحقيقات الفدرالي يطلب فيها تحديد موعد لإجراء مقابلة. وكذلك تلقى أبناء بن لادن المنتشرين في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية طلبات لتحديد مواعيد لإجراء مقابلات من

(٦) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع كولمان ـ المصدر السابق.

عملاء في مكاتب ميدانية محلية تابعة لمكتب التحقيقات الفدرالي، ولم تكن هذه الإجراءات تحدث بالتنسيق مع كولمان. وكان عدد من المكاتب الميدانية التابعة لمكتب التحقيقات الفدرالي يتنافس على مقابلة أفراد عائلة بن لادن المقيمين في الولايات المتحدة بعد أن أصبح أسامة محل اهتمام.

أجرى يوروسكاي اتصالًا بكولمان لإطلاعه على آخر الطلبات ورتبا لعقد اجتماع مع عبد الله بن لادن في مكتب سوليفان آند كروموبل في بوسطن. وانضم عميلان إلى كولمان في هذا الاجتماع. وللمرة الثانية كان يوروسكاي موجودًا وكان أسلوبه «رهيبًا» في رأي كولمان. ومع احتدام المناقشة، اتهم يوروسكاي كولمان بتغيير أقوال شفيق وحسن بن لادن خلال المقابلة التي أُجريت في واشنطن. وحاول كولمان السيطرة على انفعالاته لئلا ينقض على الطاولة ويخنق يوروسكاي. وقال عن ذلك: «أمثال هؤلاء يظنون أن بوسعهم التحدث مع الجميع بالطريقة نفسها التي يتحدثون بها في المحكمة... ولكن ليس معي؛ إنه مجرد شخص أحمق متعجرف». وأدرك كولمان أن كل العلاقات بين أبناء بن لادن غير الأشقاء «من دون شك» مقطوعة مع أسامة. «وما كنت أحاول فعله كان محاولة مني لاكتشاف أي فرد في عائلته يعرّفني إليه... وكنت في أمس الحاجة إلى أن يخبرني أحدهم عن شخصيته، لا غير». إلا أنه أدرك أنه لن يتمكن من السيطرة على السلوكيات الشاذة التي كانت تصدر عن المحامين(٧).

ذكر شوير أن محامي عائلة بن لادن أجروا اتصالات بـ «قيادات عليا في» مكتب التحقيقات الفدرالي عقب هذه المقابلات وقالوا لهم: «لا يحق لكم التحدث مع أفراد من عائلة بن لادن على هذا النحو». ومن الأسباب التي ذُكرت ـ وفقًا لما ورد عن شوير ـ أن بعض أفراد العائلة يحملون جوازات سفر دبلوماسية أصدرتها حكومة المملكة العربية السعودية، ويعني ذلك أنه لا يمكن رفع أي دعاوى قضائية أمريكية من أي نوع، كما أنهم يتمتعون بامتيازات واسعة النطاق بموجب الحصانة الدبلوماسية التي توفر لهم حماية متبادلة للدبلوماسيين الذين ينفّذون مهام معتمدة. ولم يُعرف

---

(٧) كل الاقتباسات مستقاة من مقابلة أُجريت مع كولمان، وقد امتنع يوروسكاي عن التعليق على الأمر.

على وجه التحديد عدد أفراد عائلة بن لادن الحاملين لجوازات سفر دبلوماسية، ويتذكر كولمان أن قليلًا منهم فقط يحملونها بينما يحمل الآخرون جوازات سفر عادية. ويتذكر شوير أن الغرض الرئيس للرسالة التي وجهها إليه رئيس مكتب التحقيقات الفدرالي لويس فريه على أي حال كان واضحًا وصريحًا عندما طلب منه إنهاء هذا الهراء. ورد عليه شوير: «حسنًا، أرجو الانتباه، هؤلاء الرجال على صلة أحدهم بالآخر؛ إنها عائلة كبيرة، وتملك المال الوفير، ولدينا شكوك في أن بعضهم يقدم المساعدة إلى أسامة». إلا أن مدير مكتب التحقيقات الفدرالي أجابه: «لا! لا نريد التورط في مثل هذه المشكلات»[٨].

تفاقم شعور شوير بالإحباط، واعتبر أسامة بن لادن عدوًّا خطيرًا ويمثل تهديدًا لمصالح الولايات المتحدة وحلفائها خاصةً مصر، وشعر أن رؤساءه في وكالة الاستخبارات الأمريكية والبيت الأبيض ليسوا مستعدّين للمخاطرة بأي شيء للسيطرة على طموحات بن لادن التي تتزايد عنفًا. أما رؤساؤه فقد اعتبره محلّلًا مهنيًّا مخلصًا وجادًّا في عمله، إلا أنه كان يفتقر إلى الخبرة والنضوج اللازمين لإدارة عمليات ميدانية خطيرة، إضافة إلى أنه شخصية مولعة بالمقاومة إلى الدرجة التي جعلته يخسر كثيرًا في عمله بسبب مشاحناته المتكررة مع رؤسائه في العمل.

اقترح شوير عددًا من الخطط لجمع المعلومات وتنفيذ عمليات سرية تستهدف أموال أسامة وشركاته، إلا أن جميعها قوبلت بالرفض أو تعرضت للفشل. ففي إحدى العمليات سعت وحدة شوير إلى تعيين عميل لها في سويسرا بحيث يمكنه الحصول على أكواد التشفير المطلوبة لاختراق بنوك جنيف وزيوريخ إلكترونيًّا للبحث عن حسابات أسامة المفترض وجودها هناك. واعترض قسم الشؤون الأوروبية في وكالة الاستخبارات الأمريكية وكذلك وزارة الخزانة على هذه المهمة، واستندت وزارة الخزانة إلى أن نجاح مثل تلك العملية قد تقوض الثقة في النظام المصرفي العالمي. إضافة إلى ذلك اقترح شوير الاستيلاء على مبالغ مالية صغيرة نسبيًّا من حسابات

---

(٨) كل الاقتباسات مقتطفة من مقابلة أُجريت مع شوير، وقد امتنع فريه Freeh عن التعليق على الأمر.

أسامة في السودان ودبي، إلا أن وزارة الخزانة اعترضت مرة أخرى: «وقالوا: «إنك محق، فهي أموال يستخدمها بن لادن في الشر، وينبغي ألا يكون معه أي أموال، لكن إذا اكتشف الأوروبيون أننا نمتلك مثل هذه الإمكانيات لن يستسيغوا الأمر وستكون هناك أصداء للعملية في النظام الاقتصادي العالمي»»[٩].

حاول شوير بعد ذلك استهداف بنوك إسلامية وَرَدَ في التقارير أن أسامة كان يتعامل معها. ولكنه اكتشف أن هذه البنوك أحيانًا تحوّل إيداعاتها عبر نيويورك، ومن ثَم أوضحت وزارة الخزانة أنهم لا يستطيعون استهداف هذه البنوك. وفي النهاية يتذكر شوير أن وحدته ـ بعد انتقال بن لادن إلى أفغانستان ـ اقترحت أن تحقق أهدافها بالطريقة التقليدية؛ بأن تحرق هذه البنوك. واقترح الاستعانة بهيئة العمليات السرية لتدمير أحد البنوك السودانية الذي لا تزال أموال أسامة مودعة فيه بالإحراق المتعمد. ولكن الاستخبارات الأمريكية لم تضمن عدم إيداع مواطنين أمريكيين حساباتهم في هذا البنك، ومن ثَم فشلت الخطة. ولم يتمكن اليأس من شوير وأتى باقتراح آخر منفصل لحرق أو تدمير كل المعدات الموجودة في مزرعة أسامة الكبرى التي تقع بالقرب من الحدود الإثيوبية، إلا أن هذا الاقتراح قوبل بالرفض أيضًا. وفي نهاية الأمر وبعد أربعة أعوام تقريبًا من «المجهودات العقيمة والخطيرة أحيانًا والاختباء في مبان في أثناء تنفيذ العمليات السرية» قال شوير إنه لم يتمكن من التوصل إلى شيء. وظلت أموال أسامة، ولم تتمكن الاستخبارات الأمريكية من إعداد إحصائية دقيقة بالأموال التي يمتلكها[١٠].

أثبتت تفجيرات السفارتين الأمريكيتين في أفريقيا أن أسامة ليس مجرد متطرف ثري يكتب المقالات التهديدية والقصائد ويقدّم المنح المالية بين الحين والآخر إلى حلفاء العنف من الجهاديين في مصر ووسط آسيا. وفي ذلك الحين كان أسامة قد أسس تنظيمًا تحت قيادته المباشرة، وأعلن الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، وتمكّن بالفعل من شن هجمات

---

(٩) المصدر السابق.

(١٠) المصدر السابق.

متطورة تكنولوجيًّا عبر المحيطات. وكانت فكرة أسامة عن أمريكا مشوهة وغير متكاملة، وكذلك كانت صورة أسامة لدى أمريكا. وفي ظلّ الأجواء الأكثر إلحاحًا التي أعقبت تفجير السفارتين في أفريقيا ضاعفت الولايات المتحدة من محاولاتها لجمع معلومات عن حياة أسامة وموارده المالية وعلاقته الأوسع نطاقًا بعائلة بن لادن.

كان وايش فاولر ـ السيناتور السابق في الحزب الديمقراطي الذي ينتمي إلى ولاية جورجيا ـ يشغل منصب السفير الأمريكي في المملكة العربية السعودية في صيف عام ١٩٩٨م. عمل فاولر عن قرب مع جون برينان الذي أصبح لاحقًا رئيس مركز الاستخبارات الأمريكية في المملكة العربية السعودية وكان ضابطًا محنّكًا له سوالف شَعر فضية، وكان دبلوماسيًّا إلى أبعد الحدود. وفي الوقت الذي وقعت فيه هجمات أفريقيا، كان بن لادن هو الموضوع الأساسي للبرقيات التي تُرسل من سفارة الرياض وترد إليها على مدار سنوات عديدة. وكان بعضها تقارير روتينية؛ أي تراجم لمقابلات أسامة التي كان يجريها على شاشات المحطات التلفزيونية التي تُبث بالعربية أو مقابلاته الصحفية. وبين الحين والآخر كان فاولر أو برينان يناقشان أمر أسامة مع الأمراء ذوي الشأن الرفيع في العائلة المالكة، إلا أن هذه المحادثات كانت غالبًا عامة وكان السعوديون يركزون فيها على تبرُّئهم التام من رجل جردوه من جنسيته[١١].

بعد قرابة ستة أسابيع من الهجمات على سفارتَي أفريقيا، طلب فاولر وبرينان عقد اجتماع مع بكر بن لادن في المملكة العربية السعودية، ووافق بكر على حضور الاجتماع. ووصل إلى مكان الاجتماع من دون اصطحاب أي محامين، إضافة إلى أنه بدا متحمسًا لطمأنة الحكومة الأمريكية من جديد بأن أسامة لا يتمتع بأي تأييد من عائلته. وقال بكر إن عائلة بن لادن ليست على صلة بأسامة وإن علاقتهم به انقطعت منذ سنوات، وهم يشعرون بالإحراج والأسف الشديديْن من العنف والتطرف الذي ظهر مؤخرًا.

---

(١١) المعلومات تستند إلى مقابلات أُجريت مع وايش فولر الابن بتاريخ ١ يونيو/ حزيران ٢٠٠٥م؛ وجون برينان بتاريخ ١٣ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م.

أضاف بكر أن عائلته ستتعاون معهم، وأحال المسؤولين الأمريكيين إلى أخيه غير الشقيق يحيى الذي كان يشغل حينئذٍ منصب رئيس العمليات في شركات بن لادن الكبرى. وذكر بكر في ما يخص الشؤون المالية أن معظم السجلات المهمة موجودة في شركة العائلة في لندن خاصةً تلك التي تتعلق بالحسابات والاستثمارات الدولية. وذكر أن شفيق بن لادن الذي يشرف على الشركة يمكن أن يقدم له العون بأن يجيب عن أي استفسارات قد تطرحها عليه الحكومة الأمريكية(١٢).

أوضح بكر خلال هذا الاجتماع وفي محادثات لاحقة مع مسؤولين أمريكيين أن أخاه غير الشقيق تعدّى جميع الحدود المنطقية. وقال إن تطرف أسامة كان مفاجأة له من نواح عديدة لأن أسامة كان شابًّا متعلقًا نسبيًّا بالكتب والتأمل، إضافة إلى أنه كان شديد الحياء. ولم يعبّر أيضًا مطلقًا عن أي معتقدات سياسية متشددة حتى وهو ناشط في أفغانستان.

لاحظ المسؤولون الأمريكيون في المملكة العربية السعودية الذين كانوا يزورون عائلة بن لادن بين الحين والآخر أن أبناء بن لادن الأرفع شأنًا حول بكر كانوا متحفظين نسبيًّا في ما يتعلق بالجوانب الثقافية. على سبيل المثال، في حفلات الاستقبال التي كانت تُقام في منازل عائلة بن لادن في جدة، لم تكن الخمور تُقدّم إلى الضيوف الأجانب، على النقيض من بعض العائلات التجارية السعودية الأخرى، وكانوا يقيمون الصلاة في مواعيدها من دون تأخير. ومع ذلك ذكر بكر للمسؤولين الأمريكيين الذين قابلهم أن هناك حدًّا فاصلًا بين الالتزام الديني الذي يميز عائلته والتطرف والعنف الذي يمارسهما أسامة. ولكن سر تعدي أسامة هذا الحدّ ظلّ غامضًا، وهناك بعض التكهنات المتعلقة بهذا الأمر داخل نطاق عائلة بن لادن: فبينما ذكر بعضهم تأثير العنف الذي شهده أسامة في حرب الأفغان، تحدث بعضهم الآخر عن تأثير المتطرفين المصريين الذين وطّدوا مكانتهم لدى أسامة على مدار سنوات، إلا أن تلك التفسيرات تحيط بها ظلال من الشكوك.

لم يتضح قدر التعاون الذي أبدته عائلة بن لادن فعليًّا في التعامل مع

---

(١٢) المصدر السابق.

وكالة الاستخبارات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفدرالي خلال الأشهر التي أعقبت الاجتماع الأول الذي عقد مع فاولر وبرينان في آخر صيف عام ١٩٩٨م. وذكر أحد المسؤولين الأمريكيين رفيعي المستوى ممن اشتركوا في المحادثات أن ممثلي عائلة بن لادن في لندن وجنيف أدلوا بكثير من «الشهادات» أمام مكتب التحقيقات الفدرالي أو وكالة الاستخبارات الأمريكية أو كليهما. وإن صحّ ذلك، فلم تصل أي من هذه المعلومات إلى مكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض ولم يُشرَ إليها في التحقيقات العلنية مثل تلك التي أجرتها لجنة التحقيق في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. ويشير ما ذكره مسؤولون سابقون آخرون إلى أن التعاون على المستوى الخاص الذي قدّمته عائلة بن لادن ربما كان محدودًا للغاية. وذكر هؤلاء المسؤولون أن بكرًا سعى لتقديم يد العون، إلا أنه كان يضع نصب عينيه أيضًا حماية ثروة عائلته واستثماراتها. وبعد تفجيرات السفارتين في أفريقيا، تعززت شكوك بكر ومحاميه الأمريكيين والبريطانيين باحتمالية توجيه الولايات المتحدة الأمريكية اتهامًا لعائلة بن لادن بمساعدة أسامة. وربما شعروا أيضًا بخطر فرض عقوبات اقتصادية عليهم أو الاستيلاء على أصولهم أو مطالبتهم بدفع غرامات أو رفع دعاوى مدنية عليهم من أهالي ضحايا الهجمات التي أعلن أسامة مسؤوليته عنها. وعلى مدار أواخر عام ١٩٩٨م وحتى بداية ١٩٩٩م، واصلت العائلة ومحاموها التعامل بحذر وحيطة مع مسؤولي الحكومة الأمريكية. وكان هدف فاولر الأساسي في السفارة الأمريكية يتمثّل في محاولة التعرف إلى حسابات أسامة المصرفية الحالية واكتشاف هل تصله أي أموال من المملكة العربية السعودية أو غيرها من الأماكن. وفي محاولته هذه شعر فاولر أنه يتلقّى تعاونًا فعالًا وبصفة خاصة من الأمراء ذوي الشأن في الحكومة السعودية[١٣].

(١٣) تطالعنا التحقيقات التي أجرتها لجنة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول -بعدما كُشفت تقارير سرية أمريكية واستُعرضت بشمولية - أن البيت الأبيض ووكلاء المخابرات السرية لم يقدروا على فهم تفاصيل تركة بن لادن حتى عام ١٩٩٩م أو ٢٠٠٠م. لكن من الممكن أن تكون بعض هذه المعلومات قد ظهرت في وقت سابق - حتى وإن كانت موجزة على أقل تقدير - كجزء مثلًا من المقابلات الأولى التي أجراها دان كولمان مع إخوة أسامة غير الأشقاء. ولو كان الأمر كذلك فإن المعلومات لم تصل قط إلى مجلس الأمن القومي.

كانت عائلة بن لادن ومحاموها متخوّفين ـ وفقًا لما ذكره بريانان ـ من أنهم حتى إذا أدلوا بمعلومات وقدّموا مساعدات سرية إلى المحققين الأمريكيين «فإنهم يمكن أن يفضحوا أنفسهم وبسبب العداء الذي يثيره اسم بن لادن، ربما يستفيد مسؤولو الحكومة الأمريكية من تعاونهم لتجميد أصولهم». وقال بريانان إن التفكير في مثل هذه المخاطر جعلهم يتساءلون: «وما الذي يجبرنا على التعرض لمثل ذلك الموقف؟»[١٤].

في وحدة متابعة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية، اشتمّ مايكل شوير رائحة هذا الحذر منهم وأدرك تقبل أمريكا لهذا الحذر باعتباره شكلًا من أشكال تهدئة الأمور. ولاحظ شوير وجود «تردد ونوع من مراعاة الغير في طرح الأسئلة» الذي قد يشعر عائلة بن لادن أو الحكومة السعودية بالقلق. وظنّ شوير أن قدرًا ما من هذا التحفظ يعكس ذكاء بكر في التعامل مع كل من فاولر وبريانان والآخرين في السفارة الأمريكية في الرياض. وقال شوير لاحقًا إن «بكرًا يتمتع بشخصية رائعة للغاية وقد اعتاد زيارة السفير أو القنصل العام في جدة في يوم استقلال أمريكا في الرابع من شهر يوليو/تموز سنويًّا أو في أي مناسبة أمريكية أخرى ويقول له: «ما أعظم هذه الدولة! كم نحب الذهاب إلى أمريكا والاستثمار فيها، لقد قطعنا صلتنا بأسامة ذي التصرفات الشائنة». كان بكر وإخوته رائعين للغاية في العلاقات العامة»[١٥].

قال بريانان لاحقًا ردًّا على انتقادات شوير إنه «لم يكن هناك أي تردد من جانبنا لطرح الأسئلة على السعوديين». وأضاف السفير وايش فاولر قائلًا: «منذ اللحظة التي وافق فيها بكر بن لادن على طلب التعاون من جانب العائلة، قدّموا إلى وزارة الخزانة ومكتب التحقيقات الفدرالي كل دفاترهم وسجلات العائلة، ولم يُفسخ العقد المبرم مع القاعدة العسكرية التابعة للجيش الأمريكي في المملكة العربية السعودية. إضافة إلى ذلك، لم تصلني أي شكوى من مسؤولي حكومتنا تفيد بعدم تعاونهم»[١٦].

---

(١٤) المعلومات تستند إلى مقابلة أُجريت مع بريانان ـ المصدر السابق.

(١٥) المعلومات مستندة إلى مقابلة أُجريت مع شوير ـ المصدر السابق.

(١٦) المعلومات مستقاة من مقابلات أُجريت مع فولر وبريانان ـ المصدر السابق. وقد قال =

قال شوير لاحقًا إن من بين اهتماماته الخاصة آنذاك مواصلة التقارير المتعلقة بحقيقة أن فرع شركة بن لادن في القاهرة التي كان خالد ـ الأخ غير الشقيق لأسامة ـ يشرف على إدارة شؤونها وفرت تأشيرات عمل وتأشيرات سياحية إلى الإسلاميين المصريين الذين كانوا يرغبون في السفر إلى أفغانستان. ونظر المسؤولون الآخرون في وكالة الاستخبارات الأمريكية إلى مخاوف شوير بعين الاعتبار، بيد أنه لا توجد براهين تثبتها. وكانت معظم المخاوف بخصوص عائلة بن لادن قد أشارت إلى جمال خليفة زوج أخت أسامة وزميله في حرب الأفغان الذي حوكم في محكمة أردنية بتهمة دعم النشاط الإرهابي إلا أنه لم يُدَنْ. وخلال منتصف التسعينيات استغل خليفة ـ زوج أخت أسامة غير الشقيقة التي تُدعى شيخة ـ شركة السياحة التابعة لشركة محمد بن لادن عن طريق زوجته لاستخراج تأشيرة سفر إلى أمريكا إضافة إلى مساعدة أفراد آخرين في العائلة في السفر. ومما أثار مخاوفهم أيضًا استمرار اتصال أسامة هاتفيًا بأمه وإخوته غير الأشقاء في جدّة. وقد حاول المسؤولون في وكالة الاستخبارات الأمريكية أيضًا أن يراقبوا أبناء أسامة المنتشرين في أماكن شتى؛ زوجته وأبناءه الذين عادوا إلى المملكة العربية السعودية، وابنه الذي قيل إنه يقيم في كراتشي، وأفراد عائلته الآخرين الذين قيل إنهم كانوا يسافرون ذهابًا وإيابًا بين المملكة وباكستان. وضغطت الاستخبارات الأمريكية على السعوديين بأساليب غير رسمية للحصول على معلومات عن كل هذه الموضوعات إلا أنهم لم يستفيدوا منهم إلا قليلًا[١٧].

كان هناك كثير من مصادر الإحباط المتبادل في العلاقة بين حكومتي

= فولر أيضًا: «سوف يتذكر المرء أن كل أفراد آل بن لادن في الولايات المتحدة سُمح لهم بالعودة إلى المملكة العربية السعودية في الأيام التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، ويرجع ذلك إلى سببين، **الأول** أن كلًا من المباحث الفدرالية والبيت الأبيض أعلنا براءة العائلة من أي أنشطة إرهابية و**الثاني** هو التعاون التام الذي أظهرته عائلة بن لادن في السنوات الثلاث أو الأربع التي سبقت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول».

(١٧) المعلومات الخاصة بالبيان المفصل لوكالة الاستخبارات الأمريكية الذي أعربت فيه عن قلقها تستند إلى مقابلات أُجريت مع أربعة مسؤولين أمريكيين سابقين كانوا على علم بالتحقيقات التي أجرتها وكالة الاستخبارات الأمريكية، وكان من بينهم شوير ـ المصدر السابق. والمعلومات الخاصة باستخدام خليفة شركة السياحة التابعة لقناة أم بي سي تستند إلى الشهادة الخطية التي كتبها -مشفوعة بقَسم ـ موظف يعمل لدى قناة أم بي سي ويُدعى يولاليو ديلا بات Eulalio Dela Pat بتاريخ ١ ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م، وورد ذلك في تقرير: *In Re Terrorist Attacks*

الدولتين حتى إنه كان من الصعوبة بمكان الفصل بين مصادر القلق المختلفة. ولكن من وجهة نظر الاستخبارات الأمريكية المعنية بموضوع أسامة بن لادن وأمواله بصفة خاصة، كان ملف المساعد المالي السابق لأسامة في لندن ذي الساق الواحدة قضية متفاقمة. تولى الغازي مدني الطيب إدارة بعض أموال وشركات القاعدة خلال السنوات التي قضاها أسامة في السودان. وبعد أن نال الإجهاد من الطيب في أثناء وجوده في بريطانيا، اتجه إلى السلطات السعودية، ويبدو أنه كان يمتلك قدرًا وفيرًا من المعلومات المتعلّقة بحسابات أسامة الشخصية، والأكثر أهمية ربما، علاقاته مع الجمعيات الخيرية الدينية والمتبرعين من الأفراد. وطلب عدد كبير من المسؤولين الأمريكيين رفيعي المستوى ـ من وكالة الاستخبارات وغيرها من الوكالات الأمريكية الأخرى ـ من ولي العهد عبد الله والأمير نايف وغيرهما من المسؤولين السعوديين الآخرين أن يسمحوا لهم بعقد اجتماع مع الطيب واستجوابه مباشرةً إلا أن السعوديين رفضوا رفضًا قاطعًا[١٨].

علاوة على ذلك مارس كل من السفير ورئيس مركز الاستخبارات الأمريكية ضغوطًا على الحكومة السعودية لتقليل عدد الرحلات الجوية بين المملكة وأفغانستان على الخطوط الجوية التي تسيطر عليها طالبان، شركة الخطوط الجوية أفغان أريانا التي أنشئت في أواخر التسعينيات في ما يبدو لتهريب الأسلحة والمال والمتطوّعين إلى تنظيم القاعدة جوًّا. واستجابت الحكومة السعودية لهذا الطلب، وإن كانت متأخرة[١٩].

كان من الصعوبة بمكان على المحقّقين الأمريكيين تقييم طبيعة العلاقات بين الجمعيات الخيرية السعودية والشبكات الإسلامية المتطرفة وأفراد عائلة بن لادن. فقرابة عام ١٩٩٦م على سبيل المثال، اهتم شوير وكولمان بجماعة حديثة يُطلق عليها جماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي». أنشأت هذه الجماعة فرعًا لها في أمريكا خارج أحياء مدينة

---

(١٨) المصدر السابق ص ٣٩.

(١٩) المعلومات مستندة إلى مقابلات أُجريت مع ثلاثة مسؤولين أمريكيين سابقين شاركوا في المباحثات.

فولز تشيرش المتواضعة في ولاية فيرجينيا، على بُعد بضعة أميال فقط من مكاتب وحدة متابعة بن لادن السرية التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية. وسُجل اسم عبد الله عوض بن لادن في الوثائق العامة كرئيس لفرع الجماعة في أمريكا. واستغرقت التحقيقات بعض الوقت لتحديد موقع عبد الله على شجرة عائلة بن لادن ما دام هناك كثير من الأشخاص البارزين المعروفين باسم عبد الله في العائلة، مثل عبد الله الذي يدرس في كلية هارفارد وعبد الله الذي يُعد من شيوخ العائلة الموقّرين وهو شقيق محمد بن لادن. وفي النهاية أدرك المحققون الأمريكيون أن عبد الله المقصود الذي يترأس فرع جماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» هو ابن أحد إخوة أو أخوات أسامة بن لادن غير الأشقاء ـ ربما أحد أبناء أخواته غير الشقيقات على وجه التحديد. ممّا يعني أن أسامة أحد أخوال عبد الله[٢٠].

كان لجمعية «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» مقرّ رئيس في الرياض وأعلنت الجماعة عن نفسها باعتبارها أكبر جماعة لشباب المسلمين في العالم، وكرست مجهوداتها لنشر الأفكار والقيم الإسلامية والنصوص الشرعية، وعملت من خلال ما يزيد عن خمسين مكتبًا محليًّا وإقليميًّا في خمس قارات. وافتتح عبد الله بن لادن فرعًا أمريكيًّا في عام ١٩٩٢م، وفي خطاب له في الرياض عام ١٩٩٧م ذكر أن طبيعة عمل الجماعة تتمثل في منح المسلمين الأمريكيين الذين يريدون أداء فريضة الحج مساعدات مالية،

---

(٢٠) المعلومات التي تدور حول حقيقة أن عبد الله بن عوض الممثل لجماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» هو ابن أخي أسامة مستندة إلى الشهادة الخطية التي كتبها عمر بن لادن مشفوعة بقَسم، وهي ترد في تقرير: *In Re Terrorist Attacks on September II, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570, January 25, 2006.

ويمكن أيضًا أن تجد المعلومة نفسها في «الإعلان المكمل لدعم السجن الاحتياطي» وقد ورد فيه شهادة خطية للعميل الخاص المخضرم المدعو ديفيد كين والذي كان يعمل في مكتب الهجرة والجمارك، وهذا الإعلان مضمّنٌ بين ملفات قضية: U.S. v. Soliman S. Biheiri, September 11, 2003.

وينسب كين المعلومات إلى المقابلة التي أجراها مع سليمان البحيري الذي قال إنه أدار الاستثمارات التي جلبها عبد الله. ولكن لا تحدّد أي من تلك الوثائق أي أخ غير شقيق أو أخت غير شقيقة لأسامة على صلة قرابة بعبد الله. وطبقًا لما ذكره كين، تعرّف البحيري إلى أختين غير شقيقتين لابن لادن ـ هما إيمان ونور ـ وقال إنهما كانتا تستثمران في المشاريع نفسها التي كان عبد الله مشاركًا فيها.

وتنظيم معسكرات صيفية لمدة أسبوع واحد للشباب المسلم في تكساس ونيويورك وفلوريدا وكاليفورنيا وأوهايو وواشنطن، إضافة إلى زيارة المدارس والجامعات والسجون. وتمثّل هدفه ـ كما جاء في أحد التقارير الصحافية الذي غطّى خطابه ـ في مقاومة «التشويه المتعمّد للإسلام» الذي تقوم به «مصادر معلوماتية وإعلامية بعينها» تسعى إلى «دفع الناس إلى كراهية الإسلام دفعًا وربط الإرهاب بالإسلام عن طريق استغلال أحداث معينة مثل تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك عام ١٩٩٣م». وكان عبد الله بن لادن فخورًا بصفة خاصة بمشروع «الكلمة الطيبة» في الجماعة الذي يساعد في اكتساب المسلمين الأمريكيين للقيم الإسلامية واستيعابها والثبات على المسار الديني القويم. وقال إنه أعد مجموعات من المواد التعليمية لحديثي العهد في الإسلام؛ المجموعة الفضية والمجموعة الذهبية والمجموعة الماسية. وكانت كل هذه المجموعات التعليمية تتضمّن تراجم للقرآن الكريم وكتاب من تأليف أبي الأعلى المودودي؛ وهو راديكالي إسلامي كان يعيش في بداية القرن العشرين وكان أحد المؤسسين الفكريين لجماعة الإخوان المسلمين[٢١].

لم تكن المواد التعليمية التي وزعتها جماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» تدعم فكرة الجهاد العنيف بوضوح على النمط الذي اتّسمت به مقالات أسامة التي كان ينشرها آنذاك، إلا أنها كانت تضمّ ما يشبه المنشورات السلبية المناهضة للصهيونية التي تنشرها المنظمات المتأثرة بفكر جماعة الإخوان المسلمين. وفي كتاب باللغة العربية جاء تحت عنوان «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» أدرج مؤلفوه الذين ينتمون إلى جماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» أسباب كره المسلمين لليهود باستخدام أسلوب مشابه إلى حدّ بعيد مع المنشورات التي

---

(٢١) المعلومات الخاصة بالمكاتب التي تخطى عددها الخمسين مكتبًا وعن انتشارها في القارات الخمس مستندة إلى الشهادة الخطية التي كتبها كين مشفوعة بقَسَم، المصدر السابق. والمعلومات المتعلقة برواية عبد الله لأنشطته إلى جانب كل الاقتباسات بدءًا من «التشويه المتعمد للإسلام» وحتى «الكلمة الطيبة» تستند إلى المقال الذي نشرته صحيفة **الشرق الأوسط** بتاريخ ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٩٧م، وقد تُرجم إلى: «Saudi Arabia: Paper on Efforts to Promote Islam in U.S.,» FBIS translation

وعلى ما يبدو، فإن الاقتباس ما هو إلا إعادة صياغة من الصحافي لملاحظات عبد الله.

كانت تحثّ على إبادة اليهود في أثناء دكتاتورية الرايخ الثالث في ألمانيا:

اليهود هم أعداء المؤمنين وأعداء الله وملائكته، هم أعداء الإنسانية وسبب كل ما هو غير أخلاقي في هذا العالم؛ فهم مخادعون، يقولون الشيء ويقصدون نقيضه؛ من كان السبب في الكارثة البيولوجية التي أصبحت مثل غسيل المخ؟ يهودي، ومن كان وراء التفكك الذي حدث في الحياة العائلية والقيم؟ يهودي... لقد تسبب اليهود في كل كارثة حلت بالمسلمين[٢٢].

كجزء من تحريات دانيال كولمان ـ الذي يعمل لصالح مكتب التحقيقات الفدرالي ـ عن وجود آل بن لادن في أمريكا، زار عبد الله في مكتبه في ولاية فيرجينيا الشمالية ومعه عميلان من مكتب واشنطن الميداني، وتبيّن له أن الشاب «ودود جدًّا» وبدا «أن الحديث معه شائق». وبعد أن وصل كولمان لمقابلته بوقت قصير قدّم إليه عبد الله جواز سفر دبلوماسيًا سعوديًا. وأكد كولمان لاحقًا بعد أن طلب الاطلاع على سجلات وزارة الخارجية أن السفارة السعودية أصدرت جوازات سفر دبلوماسية لممثلي جماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» على الرغم من أن الجماعة قدّمت نفسها إلى المجتمع الدولي على أنها منظمة غير حكومية. وكان عبد الله مسجّلًا باعتباره ملحقًا بالسفارة السعودية ومعترَفًا به لدى الولايات المتحدة رسميًا بأنه دبلوماسي سعودي. وأدرك كولمان مدى قوة الحصانة التي يتمتع بها عبد الله ومن ثَم تركه وشأنه[٢٣].

بالإضافة إلى اهتمامات عبد الله بن لادن بالإرشاد الديني، اتضح لاحقًا أنه استثمر مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دولار في مجال السيارات التجارية الأمريكية التي تولى إدارتها مواطن مصري يُدعى سليمان بحيري، وهو الذي كان يدير عددًا من الشركات الاستثمارية التي تعمل وفقًا للشريعة الإسلامية. وانضمت اثنتان من أخوات أسامة غير الشقيقات، نور وإيمان، إلى هذه الاستثمارات بعد عبد الله. وكانت هاتان السيدتان من بين أخوات أسامة غير الشقيقات الأكثر التزامًا بالدين ومن ثَم كانتا تستثمران أموالهما

---

(٢٢) المعلومات مستندة إلى الشهادة الخطية التي كتبها كين تحت القَسم.

(٢٣) المعلومات مستقاة من مقابلة أُجريت مع كولمان ـ المصدر السابق.

في البنوك أو شركات الاستثمار الاسلامية التي تنتشر مكاتبها في جميع أنحاء العالم، مثل الملاذات الاستثمارية السرية المصرفية، وفقًا لما ورد في سجلات المحكمة والتقارير الإعلامية(٢٤).

من بين هذه البنوك بنك التقوى الذي قيل عنه في إحدى الشهادات الخطية التي حفظها لاحقًا محقق تابع للحكومة الأمريكية في محكمة أمريكية إنه «عمل لفترة طويلة في تقديم الاستشارات المالية للقاعدة». وجاء بالشهادة أيضًا أن رئيس مجلس إدارة البنك وأحد مساعديه الذين اشتركوا في العمليات التي أجراها بنك التقوى قدّما «خدمات استثمارية غير مباشرة» إلى القاعدة، واشتملت هذه الخدمات على «استثمار المال لابن لادن وتسليم الأموال النقدية حال طلبها». وارتبط بنك التقوى شأنه شأن جماعة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» بروابط تاريخية بجماعة الإخوان المسلمين. وأدارت الهيئات المصرفية والاستثمارية التابعة للبنك شركاتٍ في سويسرا وليشتنشتاين وإيطاليا ودولة الباهاما. وفي عام ١٩٩٩م حصل مكتب التحقيقات الفدرالي ـ وفقًا لما جاء في عدد من التقارير المنشورة ـ على قائمة بأسماء قرابة سبعمئة مستثمر في بنك التقوى. ومن بينهم اثنتان من أخوات أسامة غير الشقيقات؛ هدى وإيمان. وكانت هدى إحدى عضوات حاشية سالم بن لادن الأوروبية المتحرّرة، إلا أنها التزمت دينيًّا بعد أن قضى سالم نحبه. ومن بين المستثمرين الآخرين في بنك التقوى غالب بن لادن، شقيق بكر الذي زار أسامة في بيشاور عام ١٩٨٩م واختير للاستحواذ على أسهم أسامة في شركات العائلة عندما أُجبر على بيعها عام ١٩٩٤م. ولم يكن هناك أي دليل يظهر أن غالبًا أو أخوات أسامة غير الشقيقات كانوا يدعمون الإرهاب. وتضاعفت وديعته الأولية التي أودعت في حساب استثماري في بنك التقوى في دولة الباهاما التي كان قدرها مليون دولار إلى ما يقل قليلًا عن ٢,٥ مليون دولار بحلول عام ١٩٩٧م، وفي هذا الوقت أدّت الخسائر

---

(٢٤) المعلومات مستندة إلى الشهادة الخطية التي كتبها كين مشفوعة بقسم ـ المصدر السابق. بينما تستند المعلومات الخاصة بالملحوظات، التي استُنتجت من التحقيق الذي أجراه عملاء مكتب الهجرة والجمارك مع البحيري في يونيو/ حزيران ٢٠٠٣م ووُضع في ملفات القضية في محكمة الإسكندرية الفدرالية، إلى مجهود الصحافية التي تعمل في جريدة «واشنطن بوست» وتدعى ماري بث شيريدان Mary Beth Sheridan، ونقلتها إلى المؤلف.

التي تعرض لها البنك وطُلب من غالب تغطيتها من حسابه إلى سعيه إلى استرداد أمواله. وعندما عجز البنك عن سداد أمواله، أقام غالب دعوى قضائية في عام ١٩٩٩م «لينسحب البنك من قطاع الأعمال» كما ذكر محامو مجموعة بن لادن السعودية لاحقًا. وصنفت الحكومة الأمريكية لاحقًا بنك التقوى باعتباره كيانًا إرهابيًّا. وكتب أحد محامي العائلة بعد ذلك أن «أي تلميح بأن عائلة بن لادن أو شركاتها كانت منحازة إلى الأنشطة الإرهابية التي قام بها أسامة أو داعمة لها يتنافى تمامًا مع الحقيقة»[٢٥].

دفعت شركة خارجية تديرها مجموعة بن لادن السعودية مبلغ ٣ ملايين دولار في أواخر عام ١٩٩٧م كاستثمارات في شركة غلوبال دايموند ريسورسز، وهي شركة تعدين لها مناجم ماس في جنوب أفريقيا ويقع مقرها الرئيس في كاليفورنيا. قابل المديرون التنفيذيون في شركة غلوبال دايموند ياسين القاضي عن طريق مدير تنفيذي في شركة بن لادن. وياسين القاضي هو رجل أعمال سعودي ثري في جدة عاش في الحقبة التي عاش فيها أبناء محمد بن لادن. وفي عام ١٩٩٨م، وضع القاضي استثمارات في الشركة أيضًا وأصبح أحد أكبر حاملي الأسهم في شركة التعدين. وأشارت وزارة الخزانة الأمريكية إلى القاضي لاحقًا باعتباره خبيرًا في تمويل الأنشطة الإرهابية وهو تصنيف شجبه القاضي واعتبره غير صحيح وغير منصف. ووصفت وزارة الخزانة الأمريكية جمعية «الإغاثة المباركة» الخيرية التي أسهم القاضي في تأسيسها، وكانت لها أنشطة في البوسنة والسودان وباكستان وغيرها من البلدان الأخرى بين الأعوام ١٩٩٢م و١٩٩٧م بأنها ليست إلا «واجهة» لابن لادن استُخدمت لنقل المال من السعوديين

---

(٢٥) «عمل فترة طويلة في تقديم . . .» تستند إلى: «Declaration in Support of Pre-Trial Detention,» affidavit of David Kane, *United States of America v. Soliman* S. *Biheiri*, United States District Court, Eastern District of Virginia, *03-365-A*. August 14, 2003.

«خدمات استثمارية غير مباشرة» المعلومات مستقاة من خطاب أرسله جورج بي وولف -نائب المستشار العام في وزارة الخزانة الأمريكية ـ إلى كلاود نيكاتي -مكتب المدعي العام في سويسرا ـ بتاريخ ٤ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢م. لمزيد من المعلومات عن رواية تاريخ غالب ودعوته القضائية راجع الوثائق التي سُلمت إلى: In Re Terrorist Attacks, op. cit.

وراجع أيضًا في نفس المصدر السابق: «Defendant Saudi Bin Laden Group's Response to Plaintiffs' Objections... Dated July 26, 2007».

الأثرياء، وأنكر القاضي هذه الاتهامات أيضًا. وقال إنه قابل أسامة في مناسبات دينية في المملكة العربية السعودية خلال الثمانينيات، إلا أن هذه المقابلات كانت عابرة وغير مؤثرة، وأنكر بشدة تقديمه لأي دعم إلى القاعدة أو أي إرهابيين آخرين في أي وقت(٢٦).

إذا نظرنا إلى الأمر من منظور أشمل نجد أن العلاقات المالية الخارجية تعد أدلة غير مترابطة، على الرغم من أنها لا تعد إثباتات على أن بعض أفراد عائلة بن لادن ربما حوّلوا بعض الأموال سرًّا إلى أسامة بعدما أُجبر على بيع أسهمه في شركات العائلة. ومن دون شك تطلّبت تلك الأدلة غير المكتملة أو المترابطة إجراء المزيد من البحث الدقيق الذي يفوق ما قامت به الحكومة الأمريكية، وذلك على الأقل من وجهة نظر مايكل شوير رئيس المحلّلين في وكالة الاستخبارات المركزية. وفي نهاية التسعينيات توصل شوير إلى استنتاج أن هناك «أسبابًا كثيرة للاعتقاد بأن أفرادًا من عائلة بن لادن الأوسع نطاقًا كانوا يتولّون مسؤولية حصوله على نصيبه من أرباح العائلة»(٢٧) وفقًا لما كتبه.

اعتُبرت علاقة أسامة بأخواته غير الشقيقات موضوعًا غامضًا ومحبطًا للمسؤولين الأمريكيين. فربما كان السفير الأمريكي ورئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية في الرياض قادرين على مقابلة الإخوة ذوي النفوذ

---

(٢٦) لمزيد من المعلومات عن الشركة الخارجية التي كانت تتحكم فيها مجموعة بن لادن السعودية راجع: Declaration of Johann DeVilliers, Global Diamond chairman, *Mood v. Global Diamond Resources*, United States District Court, Southern District of California, 99cvol565.

أشار دي فيلييه إلى الشركة التي يتحكمون فيها بأنها «مجموعة بن لادن» وأشار إلى القاضي بأنه «أحد المستثمرين الرئيسيين في الشرق الأوسط». ولمزيد من المعلومات عن المكانة المميزة التي يحتلها القاضي راجع الموقع الإلكتروني: <http://www.ustreas.gov>/offices/enforcement/ofac/sdn/sdnlist.txt.

تم الولوج إليه والنسخ منه بتاريخ ١٦ يوليو/ تموز ٢٠٠٧م. وراجع أيضًا الاقتباس الموجود في: *Chicago Tribune*, October 28, 2001.

ولمزيد من المعلومات عن إنكار القاضي لمقابلة أسامة في ثمانينيات القرن العشرين راجع نفس المصدر السابق في كتاب: *Chicago Tribune*

وراجع أيضًا ما نشرته صحيفة **الشرق الأوسط** بتاريخ ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١م وقد تُرجم بعنوان: «Saudi Businessman on US. List... Dismisses Charge,» FBIS translation.

(٢٧) راجع: Scheuer, as «Anonymous,» *Through Our Enemies' Eyes*, p. 34.

مثل بكر أو يحيى، وربما يحصل كلاهما على قدر ضئيل من التعاون منهم. ولكن في ظلّ عدم الاختلاط بالنساء الذي تفرضه التقاليد السعودية والحدود العامة المكبلة للمحققين الأمريكيين في المملكة، كان من ضروب المستحيل سبر أغوار الشؤون المالية لأخوات أسامة غير الشقيقات وكذلك تصرفاتهن واستثماراتهن وسفرهن إلى الخارج. وتشير الملاحظات التي أبداها بعض أفراد العائلة مثل كارمن بن لادن أن أسامة كان على علاقة طيبة في ما يبدو ببعض أخواته غير الشقيقات مقارنة بعلاقته مع كثيرين من إخوته غير الأشقاء. ويتذكر دومينيك سيمبسون الذي كان يعمل ضابطًا في الاستخبارات البريطانية واضطلع بشؤون المملكة العربية السعودية خلال منتصف وأواخر التسعينيات «الأحاديث كثيرة عن عدد من الأفراد في عائلة بن لادن ممن لا يزالون يطالبون بحقهم في الاستمرار في الاتصال به»؛ جاء ذلك في تقارير عزّزت احتمالية «نقل المال إليه بطريقة أو بأخرى». ويتذكر سيمبسون أن القلق الذي أُثير في نطاق وكالات الاستخبارات في ذلك الحين كان يتمحور حول «بعض أخواته، وبصفة أكثر تحديدًا؛ أختين له». ومن جانبه لم يرَ سيمبسون أي دليل مقنع على أن أيًّا من أفراد عائلة بن لادن، بمن فيهم الشقيقات، قدموا «تمويلًا علانية أو سرًّا» لأسامة «بأية طريقة كانت» أو حتى سمحوا بأن «يُستغلوا باعتبارهم أداة في يد الآخرين. . . ولكن ربما كان بعض أفراد عائلة بن لادن على اتصال بين الحين والآخر به لأسباب شخصية بحتة. ومرة أخرى ذُكرت أسماء بعض شقيقاته»[٢٨].

جاء في تحليل سيمبسون أن علاقات أسامة «بأخواته كانت بشكل عام أفضل من علاقاته بإخوته» ويرجع ذلك جزئيًّا إلى مكانة والدة أسامة الضعيفة نسبيًّا داخل العائلة. «فبينما كان بعض إخوة أسامة يستهزئون به ويسخرون منه، تأسفت أخواته لتصرفاتهم وتعاطفن مع أسامة المسكين. . . فالسيدات عادة ينتهزن الفرصة للاعتناء برجل والتعاطف معه، وأظن أن تلك هي الطريقة التي كنّ يتعاملن بها معه إلى حدّ ما. . . كما إنني على ثقة تامة من عدم وصول أي دعم منهنّ إليه». توصّل المحققون الأمريكيون

(٢٨) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع دومينيك سيمبسون بتاريخ ١٧ مايو/أيار ٢٠٠٢م.

الذين تقصوا حقائق أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول - وراجعوا لاحقًا الأدلة المتاحة لدى الاستخبارات الأمريكية - إلى استنتاج أكثر توخّيًا للحذر مفاده أن عائلة بن لادن بعد تفجيرات سفارتي أفريقيا «نأت بنفسها بصفة عامة» عن أسامة. غير أن هؤلاء المحققين لم يقدّموا دليلًا واحدًا أيضًا عن أي دعم مالي قُدم لأسامة ويمكن إدانته[٢٩].

لم تتمكن وكالة الاستخبارات الأمريكية من الإحاطة بكثير من الأمور عن عائلة بن لادن، إلى جانب أن جانبًا مهمًّا ممّا زعمت أنها ملمة به كان فيه كثير من أوجه القصور؛ حتى بعد عام ١٩٩٨م استند تقدير وكالة الاستخبارات المركزية عن أسامة وقدراته إلى افتراضات خاطئة ذات صلة بحجم ثروة عائلة بن لادن وتاريخها فحسب.

في اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٨م نشرت وكالة الاستخبارات المركزية تقريرًا استخباراتيًّا داخل أروقة الحكومة الأمريكية جاء فيه أن أسامة ورث من أبيه ثروة تُقدر بـ ٣٠٠ مليون دولار. إلا أن التقرير ضم بين سطوره إقرارًا بأن هذا الرقم التقديري لا يستند إلى أدلة دقيقة، بل من المحتمل أنه يستند إلى إشاعات انتشرت في نطاق مجتمع الأعمال السعودي. وعلم مكتب التحقيقات الفدرالي في لقائه مع شفيق وحسن ابني بن لادن أنّ دخل أسامة وإرثه لم يبلغا هذا الرقم، مع أن وكالة الاستخبارات المركزية أكدت في تقاريرها أن الـ ٣٠٠ مليون دولار يعتبر «تقديرًا معقولًا» في منتصف التسعينيات بناءً على تقييمها لأنشطة أسامة التجارية في السودان وتقديرها للمبالغ التي ربما يكون قد ورثها من محمد بن لادن. ولكن المحللين أدركوا أن أسامة كان يمكنه تأسيس القاعدة سريعًا إذا تمكن من الاعتماد على ثروة شخصية كبيرة. وأذاعت وكالات استخباراتية أمريكية أخرى تقديرات مماثلة وقدمتها إلى صنّاع القرار في إدارة كلينتون الرئاسية بعد هجمات سفارتَي أفريقيا. وصدر تقرير عن وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع في شهر أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٩٨م ولم تعقبه أي تعليقات، وزعمت فيه الوكالة أن ثروة أسامة كانت تبلغ ١٥٠

---

(٢٩) راجع نفس المصدر السابق. وراجع أيضًا: «Monograph on Terrorist Financing,» op. cit., pp. 17-18.

مليون دولار، منها مبلغ ٣٥ مليون دولار مستثمر في السودان(٣٠).

كان ريتشارد كلارك رئيس برامج مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض في عهد كلينتون دائمًا ما يعرب عن استيائه الدائم من تقارير وكالات الاستخبارات عن المصادر المالية لأسامة. وفي صيف عام ١٩٩٨م أعاد تنظيم الأعمال التي يتولاها مجلس الأمن القومي في ما يتعلق بتنظيم القاعدة، واستدعى مساعدًا شابًّا يُدعى وليم ويشلر، درس سابقًا التمويل غير المشروع إلى جانب قضايا الجرائم المنظمة، إلا أنه لم يتعامل قط مع شؤون القاعدة. واقترح كلارك على ويشلر بأن ينشئ مجموعة عمل جديدة تضمّ ممثلين عن كل الوكالات المعنية وتكرس مجهوداتها لموضوع تمويل تنظيم القاعدة فحسب. وقال كلارك إنّ الخبراء الحكوميين في شؤون الإرهاب أهملوا الأمر وانشغلوا حاليًا بأمور أخرى مثل محاولة العثور على بن لادن في أفغانستان وتحديد أماكن خلايا إرهابية أخرى في أنحاء شتى من العالم.

أطلق كلارك وويشلر على مجموعة العمل الجديدة اسم «المجموعة الفرعية للبحث في الشؤون المالية لأسامة بن لادن»؛ على أن ترفع هذه المجموعة تقاريرها إلى مجموعة مكافحة الإرهاب العليا التي يترأسها كلارك. واستعانوا بريتشارد نيوكومب الذي كان يتولى منصب مدير إدارة تتبع أصول ثروات الجماعات الإرهابية وتجّار المخدرات وتجميدها في وزارة الخزانة. إضافة إلى أنهم استعانوا بأحد المحللين من وحدة متابعة بن لادن التي كان يترأسها شوير، ومحلّل آخر من وحدة أخرى تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية متخصّصة في التمويل العالمي للسوق السوداء كان يُطلق عليها «مجموعة الصفقات غير المشروعة»، إلى جانب مندوب من وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع، وآخرين من مكتب التحقيقات الفدرالي ووزارة الخارجية ووكالة الأمن القومي.

تصفح ويشلر ملفات الاستخبارات المتوفرة خاصةً تلك المتعلقة

---

(٣٠) استنادًا إلى التقرير الذي أعدته وكالة المخابرات الأمريكية بتاريخ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٨م: «Monograph on Terrorist Financing,» op. cit., p. 20

ولمزيد من المعلومات عن تقرير وكالة المخابرات في وزارة الدفاع راجع: Redacted and released, Judicial Watch, Inc

بميراث أسامة وشرع في إعداد أسئلة. ولكونه مساعدًا صغير السن نسبيًّا وحديث التعيين في البيت الأبيض، لم يؤاخذ لطرحه بعض الاستفسارات البديهية، وأحيانًا الساذجة، مثل تساؤله عن مصادر المعلومات التي استندتم إليها بأن أسامة يملك ٣٠٠ مليون دولار، وما المجهودات التي بُذلت للتأكد من صحة هذه المعلومات من خلال الوثائق المعتمَدة من عائلة بن لادن أو الحكومة السعودية أو أي جهة أخرى، ولكنه في نهاية الأمر لم يحصل على إجابات وافية من وكالة الاستخبارات المركزية. وفي ما يبدو لم يكن لدى مكتب التحقيقات الفدرالي كثير من المعلومات الدقيقة أيضًا، إضافة إلى أن ممثليه لم يستطيعوا أو لم يكونوا مستعدين لإعطاء ما لديهم إلى البيت الأبيض.

قال ويشلر لكلارك وفقًا لما يتذكره كلارك: «هذا أمر خطير. يظن مكتب التحقيقات الفدرالي أن علينا التخلي عن هذه المهمة لهم، كما إن كل المعلومات الواردة إليّ منهم منشورة في الصحف. وأعطتنا وكالة الاستخبارات المركزية بيانات خاوية من كل مضمون اكتشفوه بخصوص موضوع البحث وظن مسؤولوها أن هذا يحل المشكلة. فليس لدينا أي تقديرات رسمية على الإطلاق، ولم يتسنّ لنا الحصول على تصوّر متكامل عن مصدر الأموال. . . والانطباع العام الذي تكون لديَّ أن كل هذه الإجراءات لن تفضي إلى شيء لأنهم دأبوا أن يقولوا إن التفجيرات لا تتطلب كثيرًا من الأموال، ثم إن أسامة حصل على كل ما يحتاجه من أموال والده»(٣١).

كان ريتشارد نيوكومب ـ مدير مكتب مراقبة الأصول الأجنبية التابع لوزارة الخزانة الأمريكية والمسؤول الذي فرض عقوبات في ما سبق على الدول التي تقدم الدعم للإرهاب وعلى الجماعات الإجرامية الخطيرة مثل عصابة تجارة الكوكايين في مدينة كالي في كولومبيا ـ كان أول من طرح السؤال الجوهري الآتي في اجتماع للمجموعة الفرعية: «ما الفكرة الجوهرية للحالة التي نبحثها؟» هل تتمثّل هذه الفكرة في أن شخصًا ثريًّا ـ وهو أسامة ـ ينفق من ماله الخاص؟ إن صح ذلك ينبغي لنا البحث عن مصدر الأموال التي في حوزة أسامة ومصادرتها. ومع ذلك فإن القرائن

---

(٣١) راجع: Clarke, *Against All Enemies*, p. 191.

الواردة في التقارير الحكومية لا تعد دليلًا على وجود ثروة قائمة بذاتها، بل إن تلك الأبحاث كانت تشير عادة إلى علاقات أسامة بالجمعيات الخيرية الإسلامية والمتطوّعين وشبكات الدعوة إلى الإسلام، وهي شبكة دولية من الهيئات المعنيّة بجمع التبرعات على أسس دينية وسياسية. إلى جانب أنهم واجهوا واقعًا يفيد بأنهم يعرفون القليل جدًّا عن حقيقة مشروعات أسامة الاستثمارية في السودان. (أما عن موضوع تجريده من بعض ثروته بمغادرته تلك الدولة، فلم تكن الحكومة الأمريكية تعرفه في ذلك الحين.) والأهم من كل ذلك، أدرك المحللون في مجموعة ويشلر أنهم في أمس الحاجة إلى تعاون أرقى من المملكة العربية السعودية.

من المشكلات التي واجهتهم في طلب المساعدة من السعوديين في ما يتعلق بشؤون تمويل الإرهاب تراكم الموضوعات الشائكة والمعلقة بين الحكومتين، ومن ثَم حدث صراع لتحديد الأولويات؛ فهناك موضوعات متعلقة بالدعاوى القضائية المرفوعة بسبب الإرهاب والسياسات الإقليمية والنزاع العربي الفلسطيني والنفط. واتخذت مجموعة ويشلر قرارًا بإيفاد بعثة خاصة إلى المملكة يتركز هدفها الوحيد في محاولة اكتشاف الموارد المالية للقاعدة والجماعات الإرهابية بوجه عام. ووافق نائب الرئيس الأمريكي آل غور على الاتصال بولي العهد الأمير عبد الله ـ نظيره وفقًا للبروتوكول الدبلوماسي ـ لطلب التعاون بين الدولتين في هذا الشأن[٣٢].

وافق عبد الله على الترتيب لعقد اجتماع مع شرطة مكافحة الإرهاب السعودية والمسؤولين المصرفيين. وترأس نيوكومب وفدًا مشكّلًا من وكالات عديدة وتوجهوا إلى الرياض في بداية عام ١٩٩٩م على متن طائرة تجارية. كانت المجموعة الأمريكية تضم إلى جانب نيوكومب وويشلر ممثّلين عن وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات الأمريكية ووزارة الخزانة. وتقابل الوفد الأمريكي مع نظيره السعودي في وزارة الداخلية في قاعة مؤتمرات راقية مكيفة الهواء. واستدعى الجانب السعودي ضباطًا رفيعي المستوى من مباحث الخدمات الأمنية ومتخصصين من مؤسسة النقد العربي السعودي وهو البنك المركزي في المملكة.

---

(٣٢) استنادًا إلى المقابلات التي أُجريت مع مسؤولين سابقين في الولايات المتحدة.

تحدّث المسؤولون الأمريكيون عن قائمة متنوعة من الموضوعات التي اشتمل بعضها على اقتراحات لسن قوانين أو لوائح مصرفية جديدة ربما تعزّز قدرات المملكة العربية السعودية على اكتشاف المعاملات غير المشروعة ومنعها. بينما حملت الموضوعات الأخرى مقترحات بشن حملات دولية لعزل طالبان، عن طريق إلغاء رحلات شركة الخطوط الجوية أفغان أريانا بصفة خاصة. وفي النهاية ورد ذكر الموضوع الحساس المتمركز حول أسامة بن لادن وأمواله وعلاقته بعائلته.

طلب نيوكومب رسميًّا مقابلة أفراد من عائلة بن لادن. وهنا أبدى ممثلو وزارة الداخلية السعودية دهشتهم؛ إذ إنهم يقومون بتلك المهمة على أكمل وجه، وقيام محققين من مكتب التحقيقات الفدرالي بمهمة مثل تلك على الأراضي السعودية يعد انتقاصًا من حقهم. ومع ذلك قال السعوديون إنهم لا يستطيعون إعطاءهم وعدًا بإمكانية السماح بعقد هذا الاجتماع؛ إذ يبدو أن هذا الأمر يفوق نطاق اختصاصاتهم. وأكد المسؤولون السعوديون أن عائلة بن لادن تحظى بالاحترام والتقدير وملتزمة بالقانون، وأنها نبذت أسامة شأنها شأن الحكومة السعودية. فلِمَ يريد الأمريكيون عقد لقاء معهم؟

بالطبع كان السعوديون يعرفون أن مكتب نيوكومب في وزارة الخزانة مسؤول عن تحديد العقوبات الأمريكية وتطبيقها على الحكومات الأجنبية والجماعات المتورطة في العمليات الإرهابية والجرائم الأخرى، وربما يفسّر ذلك بعض تصرفاتهم الوقائية. ويتمثل السيناريو المرعب الذي كانت عائلة بن لادن ومحاموها يخشونه في أن التعاون التطوّعي مع المحققين الأمريكيين ربما يؤدي في نهاية الأمر إلى إقامة دعوى قضائية لوضع اليد على ثروة العائلة.

أخطر السعوديون نيوكومب وزملاءه أنهم سينسقون الأمر مع وايش فاولر، السفير الأمريكي في المملكة لتنفيذ طلبه. وبالفعل قاموا بذلك إلا أن أعضاء الوفد المفوض شعروا أن فاولر ليس راضيًا عن تدخلهم في الموضوع الذي كان يتولاه برمته. ومع ذلك ضغط فاولر على السعوديين وعائلة بن لادن للتعاون مع مبعوثي وزارة الخزانة.

أبلغ نيوكومب وزملاؤه نظراءهم السعوديين أنهم يريدون معلومات

محدّدة عن حجم إرث أسامة وكيفية إدارة ممتلكاته. وقدّم السعوديون في الاجتماع تقريرًا موجزًا عن عملية بيع الأسهم التي فُرضت على أسامة عام ١٩٩٤م في شركات بن لادن والمبلغ المتواضع نسبيًّا المقدر بـ ٩,٩ ملايين دولار الذي يمثل العائدات التي تجمّدت في الحسابات السعودية. واندهش أحد أعضاء الوفد الأمريكي لضآلة المبلغ عن المتوقع طبقًا لتقارير الاستخبارات الأمريكية. وعلى أي حال أكد المسؤولون السعوديون أن الأموال ليست موجودة في النظام المصرفي السعودي ولم يتمكن أسامة من التوصل إليها.

هل كانت هناك وثائق توضح كل هذه الأمور؟ أجاب السعوديون بالنفي، ممّا أدّى بالأمريكيين إلى طرح سؤالهم: إذًا كيف تؤكدون أن كل هذا حدث بشكل مناسب؟ أجاب السعوديون بأن عائلة بن لادن هي التي ضمنت وأكدت لهم ذلك.

أعرب الأمريكيون عن تخوّفهم من استمرار الاتصالات بين أسامة وأمه المقيمة في جدة. فهل يدلّ هذا على استمرار علاقاته بالعائلة؟ أجاب أحد المسؤولين السعوديين بالنفي قائلًا: «لا يمكنكم أبدًا أن تطلبوا من أم عربية ألا تتحدث مع ابنها»[٣٣].

استمع أحد الأمريكيين الموجودين في القاعة إلى هذا الحوار وحدث نفسه قائلًا: حسنًا! إذًا، لم تنقطع صلتهما ببعضهما تمامًا، أليس كذلك؟ كما أننا نؤكد ضرورة أن تتوقف الأم عن التحدث مع ابنها إذا كان هاربًا من اتهامات بالقتل الجماعي.

استمر الارتباك في أروقة البيت الأبيض ووكالة الاستخبارات المركزية بسبب الحقائق الجوهرية التي تكشفت عن ثروة أسامة وإرثه حتى فصل الربيع من عام ٢٠٠٠م. وبحلول شهر مارس/ آذار اتصل مكتب ريتشارد نيوكومب بريتشارد يوروسكاي الذي كان شريكًا في مكتب سوليفان آند

---

(٣٣) جاءت رواية المقابلة التي عُقدت في المملكة العربية السعودية من تصريحات عدد من المسؤولين السابقين في الولايات المتحدة بالإضافة إلى: Clarke, op. cit., pp. 191-95'

وراجع أيضًا الروايات المشابهة في: «Monograph on Terrorist Financing,» op. cit.

كروميل، وطلب منه عقد اجتماع مع أفراد من عائلة بن لادن لمناقشة الشؤون المالية. وسافر عبد الله بن لادن وشفيق بن لادن ويوروسكاي إلى واشنطن جوًّا لمقابلة نيوكومب في وزارة الخزانة.

أوضح نيوكومب أنه وزملاءه كانوا يبذلون مجهودات ضخمة لتقييم التقارير التي تفيد أن إرث أسامة يبلغ ٣٠٠ مليون دولار. وسعت وزارة الخزانة والبيت الأبيض لمعرفة إن كان هذا المبلغ دقيقًا، وإن لم يكن كذلك فما هي المبالغ المالية التي حصل عليها أسامة بالفعل ومتى حصل عليها تحديدًا. إنهم يريدون الإحاطة بكل أبعاد دخله السابق والحالي[٣٤].

أجاب كل من شفيق وعبد الله بن لادن عن أسئلة نيوكومب. وبعد أسبوع أرسل مكتب سوليفان آند كروميل خطابًا رسميًّا إلى وزارة الخزانة من مجموعة بن لادن السعودية لتأكيد كتابةً ما قاله عبد الله وشفيق. وتعدّ هذه الوثيقة ـ التي صيغت بعد عام ونصف العام من تفجيرات سفارتي أفريقيا ـ تقريرًا محدّدًا منقولًا عن عائلة بن لادن بخصوص إرث أسامة ودخله. وعلى مدار حياته بلغ إجمالي ما حصل عليه أسامة زهاء ٢٧ مليون دولار ولكنه لم يحصل عليه دفعة واحدة، وفقًا لما جاء في الخطاب بل حصل على دفعات ورواتب منتظمة بدايةً من أوائل السبعينيات ونهايةً بأوائل التسعينيات، وبلغ متوسط الدخل ما يزيد قليلًا عن مليون دولار سنويًّا[٣٥].

---

(٣٤) استنادًا إلى المقابلات التي أُجريت مع ثلاثة مسؤولين في الولايات المتحدة ومسؤولين سابقين كانوا على إطلاع بالمناقشات.

(٣٥) لمزيد من التفاصيل عما كشفه آل بن لادن لوزارة الخزانة الأمريكية في نهاية المطاف راجع: «Monograph on Terrorist Financing,» op. cit., p. 20

وتعدّ تلك دراسة رائعة ومختلفة لأنها سعت لفضح خرافة تزييف مبلغ ٣٠٠ مليون دولار على العامة، لكنها تتضمن تأكيدًا مشكوكًا فيه وهو الإشارة إلى عمليات البيع الإجبارية للأسهم التي نفّذها أسامة في عام ١٩٩٤م. وكان النص المذكور على النحو الآتي «كان لعملية تجميد الأموال على يد الحكومة السعودية أثرًا في سلب بن لادن ثروة كان يمكن أن تصل إلى ٣٠٠ مليون دولار.» وهذا وصف مبالغ فيه، حتى إنه ينطبق على الوقت الحالي بعد التضخم والنمو الذي أنعش إمبراطورية آل بن لادن. وذلك لأن المُلكية التي كانت تتراوح ما بين ١ إلى ٢ في المئة من شركات بن لادن ـ التي يبدو أن أسامة كان يمتلكها في عام ١٩٩٤م ـ سوف تكون بكل تأكيد أقل من هذا المبلغ.

وحتى بعد الحصول على هذه البيانات التي تم التحقق منها رسميًّا ظلّ المحللون في الحكومة الأمريكية مشكّكين في عدة أمور. على سبيل المثال علم دانيال كولمان الذي يعمل لدى مكتب التحقيقات الفدرالي خلال المقابلات التي أجراها مع أبناء بن لادن غير الأشقاء أنه تم توزيع قرابة ٨ ملايين دولار على كل فرد في العائلة بعد وفاة سالم بن لادن عندما أعاد بكر تنظيم الشؤون المالية للعائلة وشركاتها، وخُيِّر أبناء محمد بن لادن بين الحصول على نصيبهم نقدًا أو إعادة استثماره. ولكن ما الذي اختاره أسامة على وجه التحديد؟ بدت الإجابة عن هذه السؤال غامضة؛ قالت عائلة بن لادن إنه أخذ مبلغًا كبيرًا من المال نقدًا لكن ظلت لديه أسهم كثيرة في شركات العائلة الكبرى. وكانت هناك أيضًا مجموعة من الموضوعات المماثلة التي بدت مربكة، وربما كانت مجرد تفاصيل تافهة، ولكن كان هناك شعورٌ دائم سيطر على بعض المحقّقين الأمريكيين بأنهم لا يستطيعون إدراك الصورة بوضوح تام[٣٦].

وأخيرًا تبيّن كذب أسطورة إرث أسامة بن لادن الذي قيل إنه كان يبلغ ٣٠٠ مليون دولار. فعلى الرغم من أنه كان يمتلك حسابًا مصرفيًّا اشتمل على أموال كثيرة، فإنه لم يكن أبدًا من بين فاحشي الثراء. وفي الفترة التي أعقبت السنوات التي قضاها في المنفى، لم يكن يمول عملياته الإرهابية من إرثه.

استشاط بعض المسؤولين في مكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض غضبًا بسبب عدم اعتراف وكالة الاستخبارات المركزية بأنها نشرت مثل تلك المعلومات المضللة على أعلى المستويات الحكومية العليا في ما يتعلق بموضوع مهم كهذا لمدة طويلة. وبدلًا من الاعتراف بالخطأ، انتهت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية إلى اعتبار الموضوع برمته لغزًا محيرًا. وجاء في أحد التقارير الاستخباراتية الذي نُشر في شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠١م: «إننا لا نملك حاليًّا تقارير مؤكدة بتقدير الثروة الشخصية لابن لادن التي استخدمها ولا يزال يستخدمها لتمويل تنظيمه... ونحن عاجزون عن تقدير قيمة أصوله وصافي ممتلكاته بدقة، علاوةً على أننا

(٣٦) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع كولمان في نفس المصدر السابق.

نجهل مستوى الدعم المالي الذي يحصل عليه من عائلته والمتبرعين الآخرين المتعاطفين مع قضيته»[٣٧].

لم تكن تقارير مكتب التحقيقات الفدرالي أفضل حالًا من تقارير الاستخبارات الأمريكية؛ إن وُجدت في الأساس. وبعد سنوات بحث المحققون المشاركون في اللجنة المزدوجة لتقصّي حقائق أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول في كل الملفات السرية المتعلّقة بموضوع ثروة بن لادن وتمويل الإرهاب الموجودة في وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفدرالي على حدّ سواء، ووجدوا أن تقارير وكالة الاستخبارات المركزية عن أموال بن لادن جيدة سواء من ناحية الصياغة أو الطباعة، وأنّها وُزّعت بعناية على الجهات البيروقراطية الأمنية القومية، على الرغم من أنها صدرت عن مصادر غير موثوق بها ولم تخضع للمراجعة الدقيقة ومن ثَم تبين خطؤها. على النقيض، اشتملت ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي المبدئية على بيانات دقيقة ومحددة، إلا أن تلك الملفات كانت متناثرة بلا نظام في المكاتب الميدانية ولم تخضع لتحليلات متقدّمة. ولم ينتبه مكتب التحقيقات الفدرالي إلى جمع هذه المعلومات وترتيبها كتابةً وتوزيعها بحيث تكون خير عون لصنّاع القرار[٣٨]. إضافة إلى ذلك، لم يصدر مكتب التحقيقات الفدرالي أيّ أوامر على الإطلاق بإجراء عمليات مراقبة لعائلة بن لادن في الولايات المتحدة ولم يشرعوا في إجراء معاينة نظامية لشركاتهم ومواردهم المالية[٣٩]. وطوال فترة التسعينيات، كان باستطاعة أي مواطن أمريكي أو أجنبي التوجّه إلى المحكمة العليا في مقاطعة لوس أنجلوس وطلب ملفات الطلاق الأرشيفية لأفراد من عائلة بن لادن من دون أي مقابل وقراءة تفاصيل كثيرة عن الحصص السنوية والأرباح والقروض وشؤون الشركات؛ أي المعلومات التي دحضت تقارير

---

(٣٧) راجع: «Monograph on Terrorist Financing,» op. cit., p. 18.

(٣٨) استنادًا إلى المقابلات التي أُجريت مع فرديْن عملا على مراجعة الملفات التي حقّق فيها مكتب التحقيقات الفدرالي عن الموارد المالية التي لابن لادن قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول.

(٣٩) استنادًا إلى المقابلة التي أُجريت مع كولمان في نفس المصدر السابق، إضافة إلى المقابلة التي أُجريت مع مسؤول كبير عمل سابقًا في مكتب التحقيقات الفدرالي.

وكالة الاستخبارات المركزية بخصوص إرث أسامة الذي قيل إنه كان يبلغ ٣٠٠ مليون دولار. بدا أن أحدًا لم يهتم بتدقيق النظر في هذه المعلومات المعلنة التي كانت متاحة للجميع، ولم يأت ذكرها في تقارير الاستخبارات التي قُدمت إلى صنّاع القرار في إدارة كلينتون الرئاسية عندما حاولوا إدراك حجم التهديدات التي كان يمثلها بن لادن على حياة الأمريكيين ومصالحهم.

استنتج المحقّقون الأمريكيون لاحقًا أن عدم اكتشاف حقيقة موارد أسامة المالية هو السر الذي «منع الحكومة الأمريكية من تنفيذ عمليات سرية أو فرض عقوبات اقتصادية» لردع بن لادن قبل أن يتمكن من تنفيذ أي هجوم آخر. وكانت تكلفة بعض الهجمات الإرهابية منخفضة بشكل ملحوظ؛ فربما بلغت تكلفة الهجمات على سفارتي أفريقيا ١٠,٠٠٠ دولار، بينما تطلب الأمر مئات الآلاف من الدولارات لتنفيذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الأكثر تعقيدًا. ولكن الضغوط المالية التي فُرضت على بن لادن وهو يخطط لتنفيذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول كانت أكبر ممّا توحي به هذه المبالغ[٤٠].

على سبيل المثال اضطر أسامة إلى تقديم قرابة ٢٠ مليون دولار سنويًّا ليفوز بحظوة عند طالبان حيث كانت هذه المبالغ تُستخدم لتمويل معسكرات التدريب وشراء الأسلحة ودفع الرواتب والمعونات إلى عائلات المتطوّعين. وقد كانت تكلفة العمليات التي نُفذت خارج أفغانستان تتعدى ذلك المبلغ بعشرة ملايين دولار تقريبًا، وفقًا لتقديرات المحققين الأمريكيين التي استُخلصت من أرشيف وثائق تنظيم القاعدة الثري بالمعلومات. واستُغلت بعض هذه الأموال لتنفيذ مشروعات تجارية وإنشائية اشترك فيها أسامة لمجرد إرضاء المُلا عمر؛ مثل القصر الجديد الذي بناه لزعيم طالبان خارج قندهار في عام ١٩٩٩م والمسجد الجديد في المدينة

---

(٤٠) راجع: «Monograph on Terrorist Financing,» op. cit., p. 6
ولمزيد من المعلومات عن الهجمات على سفارَتي أفريقيا التي بلغت تكلفتها ١٠,٠٠٠ دولار وعن تكاليف هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول التي بلغت ٤٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي راجع نفس المصدر السابق ص ٢٧ ـ ٢٨.

ولاحقًا السوق التجارية الجديدة المغطاة في وسط المدينة[٤١]. وكان مصدر هذه الأموال الجمعيات الخيرية المتعاطفة مع قضيته والأفراد الذين تولوا جمع الأموال من أثرياء الخليج. وربما كان بعض هؤلاء المتبرعين يدركون المجال الذي ستُستخدم فيه أموالهم وبعضهم الآخر لا يعرف. وبحلول عام ٢٠٠٠م كان أسامة يدير منظمة إسلامية دولية غير ربحية تشبه كثيرًا من الجمعيات الخيرية العالمية الكبرى في طريقة جمع التبرعات وإنفاقها في أوجه الخير، وخاصة في الاستخدامات الحديثة للإنترنت وما يتميز به من حلول مبتكرة. وتمكن بن لادن من استعادة المكانة التي كان يحظى بها خلال أوائل الثمانينيات عندما وصل لأول مرة إلى أفغانستان مناصرًا لجمعيته الخيرية الإسلامية، وتعلّم كيف يستغل الإعلام والتقويم الإسلامي الهجري وشخصيته الجذابة للحصول على ملايين الدولارات من المتبرعين عامًا بعد عام. ويبدو أن أسامة قد أصبح متمرسًا على كيفية الحصول على الأموال في الوقت الذي يحتاج إليها بالفعل.

(٤١) لمزيد من المعلومات عن تقديرات ميزانية القاعدة في أواخر التسعينيات من القرن العشرين الميلادي راجع نفس المصدر السابق ص ١٨ و ٢٨. ولمزيد من المعلومات عن قصر عمر ومسجده وأعمال التسوق راجع زيارة المؤلف إلى مدينة قندهار في عام ٢٠٠٢. وعلى الرغم من أن الأرقام التي تُحدّد ميزانية القاعدة تعد أقرب القيم إلى الصواب لكنها ليست تخمينات مدروسة جيدًا. وتوصّل الباحثون الذين عملوا على الدراسة الموضوعية والذين راجعوا المخابرات الأمريكية في هذا المجال مراجعة منهجية توصلوا إلى أن «هناك عددًا من المعلومات التي كانت ولا تزال خافية عن حكومة الولايات المتحدة في ما يتعلق بمصادر تمويل بن لادن وكيفية ظهور القاعدة وتحركاتها وكيف إنفاق أموالها».

الفصل الخامس والثلاثون

جزيرة بن لادن

بحلول أواخر التسعينيات جرت العادة أن يُشار داخل الإطار الثقافي لشركات بن لادن باحترام وتوقير إلى أي من أبناء محمد بن لادن بلقب «الشيخ» الشرفي. وكان استخدام هذا اللقب مشابهًا للقب «جنرال» أو «كولونيل» الذي يسبق اسم الشخص في العسكرية الأمريكية. وبينما كان أحد الموظفين يعرض تقريرًا إداريًّا موجزًا لبكر بن لادن، ظلّ هذا الموظف يشير إلى إخوته الأصغر منه غير الأشقاء على النحو الآتي: «اتصل الشيخ شفيق من لندن مستفسرًا عن كذا» أو «سيغادر الشيخ حسن لبنان غدًا». وذكر لنا شخصٌ حضر هذه الواقعة أن بكرًا انتظر لوهلة ثم قال باستياء «ليس هناك في هذه العائلة سوى شيخ واحد فحسب»[١].

ربما كان أسامة يتمنى هذا اللقب لنفسه، إلا أن بكرًا لديه حق في ما قاله، ففي الوقت الذي بدأ اسم بن لادن يدوي على الصعيد العالمي ـ سواء أكان بالسلب أو الإيجاب بحسب من يسمعه ـ كان بكر قد تخلص من كثير من الضغوط والمخاطر التي صاحبت انتقاله غير المتوقع إلى زعامة العائلة بعد موت سالم. وحينها كان بكر لا يزال مجتهدًا في عمله وكعادته دائمًا كان يعوزه الشعور بالثقة والطمأنينة، ولكن الآن وهو في

---

(١) الاقتباس مستند إلى مقابلة أُجريت مع فرد مقرب من آل بن لادن طلب عدم الكشف عن هويته. أما الأوصاف التي سوف تُذكر لاحقًا عن هيئة بكر فقد استندت استنادًا رئيسًا إلى المقابلات التي أُجريت مع هذا الشخص إلى جانب ثلاثة آخرين طلبوا عدم الكشف عن هويتهم وكان لهم تعامل مع بكر في تلك الفترة.

بداية ربيعه الخمسين وبصفته رئيسًا لإمبراطورية شركات متعددة المشاريع كان نجاحه بلا شك مؤكدًا. وظّفت مجموعة بن لادن السعودية وشركة محمد بن لادن ألوفًا مؤلفة من الموظفين، وامتد نطاقهما الجغرافي إلى آفاق جديدة؛ إذ اشتملت عقود المقاولات الدولية التي أبرمتها المؤسستان في نهاية العِقد على إنشاء مطار القاهرة الدولي ومطار كوالالمبور الدولي وفندق غراند حياة في عمّان، وبدأت هاتان الشركتان وبقوة في طرق مجالات عمل جديدة مثل المجال الطبي. وتطوّرت المجموعة الطبية المتحدة التي أسستها مجموعة بن لادن السعودية عام ١٩٩٠م حتى أصبحت شركة عالمية تصل عائداتها السنوية إلى ١٢٠ مليون دولار، وكانت تضم ما يربو عن ألفي موظف، وافتتحت فروعًا لها في لندن وأستراليا وفي الشرق الأوسط. وحقق بكر وإخوته الأقرب إليه ـ خاصة يحيى ـ هذا النمو الهائل على الرغم من سلسلة الأحداث السياسية والتجارية الخطيرة التي وقعت بعد أن قضى سالم نحبه، ومنها استبعاد أسامة وهبوط أسعار النفط وإصابة الملك فهد بسكتة دماغية ومحاولات ولي العهد عبد الله فرض سيطرة أكبر على نظام التعاقد على المشروعات في المملكة. وربما كان أي من هذه التحديات كفيلًا بإعاقتهم والوقوف كحجر عثرة في طريقهم، لكنّ بكرًا تعامل مع مثل هذه الأحداث بالحيلة والدهاء. وبسبب استراتيجية بكر التي تبناها لتحديث العمل وتنويع أنشطته، علا شأنه عن سالم وأبيه بثروة أضخم واستقلال مالي أكبر[٢].

طلق بكر زوجتين ولم يفارقه أبناؤه بعد الطلاق. وعيّن لهم مربّين ومدرسين خصوصيين، وبدت الفجوة بين جيله وجيل أبنائه طبيعية حتى إن أبناءه كانوا مغرمين بأحدث ألعاب البلاي ستايشن التي تقدّمها شركة سوني أكثر من اهتمامهم بقصائد الشعر الإسلامي المملة التي كان أبوهم يفضلها. وأرسل بكر نوّافًا ـ أكبر أبنائه وأكثرهم موهبة وكان يحمل جواز سفر

---

(٢) المعلومات المتعلقة بإنشاء مطار القاهرة ومطار كوالالمبور وفندق غراند حياة بعمان مستندة إلى صفحات الموقع الإلكتروني لمجموعة بن لادن السعودية والتي طبعها بيتر بيرغن في صيف عام ٢٠٠١م وأعطاها للمؤلف. والمعلومات الخاصة بالمجموعة الطبية المتحدة تستند إلى: www.umgco.com.

الذي جرى تصحفه والطباعة منه بتاريخ ٢٠ يوليو/ تموز ٢٠٠٦م.

أمريكيًّا ـ إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال دراسته. وعلى الطريقة العربية كان بكرٌ يُعِدّ الصبيَّ لقيادة الجيل الثاني من العائلة.

عندما كان بكر يوجد في قصره ـ في جدة ـ كان عالمه يدور بصفة أساسية حول المحيط الذي يعيش فيه؛ إذ كان يقيم في قصر يطل على ساحل البحر الأحمر ويمتد على مساحة من الأراضي التي شُيد فوقها المنزل الرئيس الذي كان يقيم به ومبنى الضيافة إلى جانب المباني الأخرى التي أعدت كمكاتب ليشغلها فريقه الإداري التنفيذي، فضلًا عن قاعة مجلسه التي اعتاد استقبال الموظفين التنفيذيين فيها، إضافة إلى زائريه في فترات المساء. ولم يكن بكر يرفض حضور مآدب الطعام وحفلات الاستقبال التي يقيمها آل سعود، حيث كان لحفلات السمر هذه التي كانت تُعقد في قصور العائلة المالكة أهداف عملية أهم من الجوانب الترفيهية. وكان بكر مولعًا بالطائرات، ومن ثَم شيّد أسطوله الخاص من الطائرات النفاثة. وفي أثناء سفرياته كان يفضل الإقامة في الأماكن المميزة القريبة من المطارات التي تتّسم بالرفاهية المطلقة؛ مثل قاعات انتظار كبار الزوار وعلية القوم والسيارات الليموزين وأماكن تقديم خدمات في مستوى رجال الأعمال التي لا تمتّ بأي صلة إلى خدمات الطيران التجاري. وقد كلف بكر مصنّع يخوت ذا أصول سويدية مصرية بتصنيع يخت من الألومنيوم يبلغ طوله ١٩٠ قدمًا بحيث يشتمل سطحه على منصة هبوط لطائرات الهليكوبتر. إلا أن وتيرة العمل في المشروع تقدمت ببطء ممّا اضطر بكرًا إلى أن يستقل أحد اليخوت الصغيرة التي يملكها للتنقل بين جدة ومنتجع شرم الشيخ المصري على ساحل البحر الأحمر لمتابعة العمل. وكان أسلوب الحياة الذي عاشه بكر ـ ما إن يتخطى حدود المملكة العربية السعودية ـ يتّسم بالنشاط، على الرغم من التقيد الذي كان يشوبه، ففكرته عن السهر ليلًا لم تكن تتعدى مشاهدة الطائرات النفاثة في معرض دبي الجوي أو الذهاب إلى باريس لمشاهدة عروض التزلج على الجليد. وكان غاية في الجود والكرم خاصةً تجاه الأعمال الخيرية أو تلك التي تتعلق بنهضة التعليم، وهي القضايا المرتبطة به على المستوى الشخصي أو العائلي، ولكن مبدأ الكرم عنده كان محاطًا بسياج من الحكمة والتعقل، ارتفع كذلك بعد أن أعلن أسامة الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما يدل على طبيعة بكر الحساسة أن الموظفين الذين كانوا يعملون لديه نادرًا ما كانوا يتركونه وهو يشعر بقدر من الإحباط، فقد كان صاحب عمل عادلًا ذا تصرفات مسؤولة بما يفرض احترام الآخرين له إلى جانب استقامته. ونادرًا ما كنت تجد أي شركاء عمل سابقين أو مديرين تنفيذيين شعروا باستغلال أي من أفراد عائلة بن لادن لهم، مع أن هناك قلة قليلة من هذه النماذج. ولم تكن الرواتب التي تدفعها شركات بن لادن لموظفيها مغرية، بل كانت في مستوى مرتبات الشركات الأخرى إذا ما قيست بمعايير دولية، ولكن أي مهندس أو محاسب عمل في شركات بن لادن كان يعيش حياة كريمة مع الوضع في الحسبان الإعانات التي كانت الحكومة السعودية تقدمها لتشييد المساكن أو الإعفاءات الضريبية. وفي ظلّ تحديث آليات العمل، أخذت شركات بن لادن تكتسب خصائص وسمات الشركات متعددة الجنسيات، أو على الأقل الخصائص التي تميز كبريات الشركات في العالم العربي، من حيث تقسيم الموظفين إلى فئات متعددة طبعًا لدرجتهم الوظيفية وإصدار بطاقات ملونة لتمييز كل منهم. علاوة على ذلك، طبقت الشركة نظام الإجازات الدورية والإجازات السنوية إضافة إلى العمل وفقًا لسياسة رسمية تمنح مكافأة نهاية الخدمة للموظفين المغتربين في مجموعة بن لادن السعودية، التي بلغت نصف شهر مقابل كل عام لمن استمر في الخدمة أقل من خمس سنوات، وشهر عن كل عام بعد خمس سنوات من الخدمة[٣].

أما من استمر في الخدمة لفترةٍ طويلة وأقام علاقات شخصية مع العائلة فكان من الطبيعي أن يحصل على مكافآت استثنائية. يُقال مثلًا إن عاملًا باكستاني الجنسية، كان من بين الخدم في منزل بكر في جدة لفترة طويلة، حصل في نهاية الخدمة على ما يساوي عدة ملايين من الدولارات على أقل تقدير. إضافة إلى ذلك، ألحق سائق بكر في لندن، وهو بولندي الجنسية كان يُدلّل باسم «مارتن»، أبناءه بمدارس إنكليزية

(٣) المعلومات المتعلقة بسياسة تقسيم الموظفين إلى فئات متعددة طبقًا لدرجتهم الوظيفية وإصدار بطاقات ملونة لتمييز كل منهم تستند إلى وثائق سياسات شؤون العاملين في مجموعة بن لادن السعودية وقد وُضعت في ملفات في: *Mood v. Global Diamond Resources, et al.*, United States District Court, Southern District of California, 99cvo1565.

راقية مقابل مصروفات باهظة وانصرف عن العمل سائقًا للسيارات الفارهة التي كان يقودها كثيرون من أفراد عائلة بن لادن على مر السنين. وفي منتصف العمر، أصيب بكر بالهوس بحالته الصحية وفي نهاية الأمر عثر مارتن له على مدرب شخصي محترف تدليك بولندي الأصل، وكان يصاحبه في سفرياته ويدربه على ممارسة التمارين الرياضية وتدليك عضلاته. وربما نال نور بايون ـ وكيل السفريات اللبناني الذي كان وصيًّا غير رسمي على بعض أبناء عائلة بن لادن خلال أوائل الستينيات ـ نصيب الأسد من الثروات التي حصل عليها بعض الأفراد في حاشية العائلة. فبعد أن اشتعلت نيران الحرب الأهلية في لبنان، دُعي بايون إلى جدة وحصل على امتياز بيع جواهر بلغارية فاخرة في المملكة العربية السعودية، ومن السهولة بمكان تخيل العائدات التي يمكن أن يدرها امتياز كهذا في المملكة، وبالطبع تحول بايون إلى رجل أعمال فاحش الثراء، ومن ثَم تزوج من شابة كانت تبلغ نصف عمره في ما يبدو وكانت تسافر في الإجازات مع عائلة بن لادن، وهي ترتدي حليًّا تساوي اثنين أو ثلاثة ملايين دولار في صورة جواهر بلغارية[٤].

كانت العلاقة مع آل سعود محور اهتمام بكر إلى جانب موضوع أسامة بن لادن. فقد تنهار كل الثقة والعزة التي اكتسبها على مدار السنوات التي أعقبت وفاة سالم في لحظة دخول أحد الأمراء الغرفة التي يوجد فيها بكر، ففي حدود مجلسه كان بكر شيخًا جليلًا بين الشيوخ الكبار، ولكن الأمر يختلف في البلاط الملكي في الرياض؛ إذ ظلّ بكر من وجهة نظرهم مواطنًا يمنيًّا مجتهدًا، لكنه عرضة لأهواء آل سعود الذين كانوا يركزون كثيرًا على شجرة النسب، فلم يكن مسموحًا له بالزواج من طبقتهم قط أو حتى يمكن أن يُتقبل في الوسط الملكي، فقد كان يقفز من مقعده لفتح الباب لأي من أقارب العائلة المالكة غير ذوي الشأن احترامًا لهم. وبدا أنه كان يركز دائمًا على الحالة المزاجية لأفراد آل سعود شديدي النفوذ، ممن كان لهم تأثير واسع النطاق في مجال عمله، أمثال الأمير عبد الله والأمير

---

(٤) المعلومات تستند إلى المقابلات التي أُجريت مع أفراد مقربين من آل بن لادن طلبوا عدم الكشف عن هويتهم.

سلمان أمير الرياض وعبد العزيز بن فهد ابن الملك القعيد. وكان عبد العزيز قد أمر بتشييد قصر ليقطنه على الشريط الساحلي للبحر الأحمر في جدة، ممّا جعل قصر بكر يبدو صغير الحجم إذا ما قورن به، وكانت عائلة بن لادن تولي ابن الملك عناية فائقة.

كان بكر يتابع الأخبار وكانت له اهتمامات سياسية بالأحداث الجارية. على سبيل المثال كان مهتمًّا بالقضايا البيئية مثل نقاء ونظافة البحر الأحمر أكثر من اهتمام كثير من العرب به. وكان يتحدّث مع الأصدقاء والزملاء عن القضية الفلسطينية، وكانت تُطرح في مجلسه الأحاديث العربية المعتادة عن القوة الخفية لليهود التي تسيطر على الحكومة الأمريكية والإعلام. ولكنّ المتحدثين في مجلسه كانوا ينظرون إلى هذه الموضوعات باعتبارها مسائل عادية وغير مثيرة للجدل على الإطلاق.

كان بكر في أواخر القرن العشرين قد تحوّل إلى رجل ضيق الأفق متمسك بقيم الطبقة الوسطى في الحجاز؛ فكان تجسيدًا إيجابيًّا للاتجاه السائد في المملكة ومعززًا له. وفي هذا الوقت برز تساؤل بشأن الفترة التي سيصمد فيها هذا الاتجاه السائد في عالم تتلاشى منه الشيوعية من ناحية، ولكنه يشهد مولد ظاهرة جديدة يُطلق عليها أسامة من الناحية الأخرى. وفي خضم الأزمات التي كانت المملكة العربية السعودية تمر بها ـ مثل الهوية القومية والسياسة الخارجية والدفاع ـ احتلت شراكتها مع أمريكا مكانة بارزة بعد أن فرضتها الحرب الباردة، ولم تعد محل دراسة في ما بعد إلا نادرًا. وفي الوقت الذي أعلن فيه أسامة عن الحرب على أمريكا، كانت النخبة السعودية تبحث بالفعل وبجدية عن اتجاه جديد يسمح لهم باستمرار الشراكة مع أمريكا (التي ظلت علاقة استراتيجية لا غنى عنها للدفاع عن نفط المملكة ممن يريدون الاستيلاء عليه) إلى جانب تعزيز الكبرياء السعودي وإعطاء الفرصة للعائلة المالكة لإجراء مناورات وممارسة سلطاتها.

في شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٠م، نشر الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير التي تقع بالقرب من الحدود اليمنية قصيدة في جريدة «المدينة» التي تصدر يوميًّا في جدة. وبوصفه نجل الملك السابق كان خالد رسامًا وصائد صقور وكاتبًا عدّه بعضهم أحد حكام آل سعود التقدميين والمؤثرين

في البيئة السياسية. كان خالد يهوى السفر وكان الأمير تشارلز ـ أمير بريطانيا ـ يُعَدُّ من بين أصدقائه المقربين، وبدا أنه يمثل الفرع العصري ذا التطلعات الدولية في فكر العائلة المالكة السعودية. ولم يكن من السهولة بمكان فهم وجهة نظره عن حقوق الإنسان الأمريكية والأوروبية وحملات تطبيق الديمقراطية. وأطلق على قصيدته «حقوق الإنسان» وجاء فيها:

ما لنا إلا حقوق إسلامنا

إن رضوا وإلا عساهم ما رضوا

ما لنا إلا حقوق إسلامنا

وإن حكوا وإن هاجموا وإن هددوا

ما تركنا لو هلكنا ديننا

ما نساوم بالمبادئ لو بغوا

لو نموت كتابنا دستورنا

بيعة برقابنا جد وأبو

نفتدي بيعاتنا بأرواحنا

خابرين القصد لو ما صرحوا

قصدهم نشر الرذيلة بيننا

ليه نقبل كل شيء صدروا؟

ليه نخسر لأجلهم شيماتنا؟

ليه نقبل كل كذب روجوا؟

ليه نترك لأجلهم عاداتنا؟[٥]

وبعد شهرين من إصدار هذه الأبيات الشعرية وقف خالد مع الأمير تشارلز في مقدّمة طابور استقبال الضيوف في مبنى «وايتهول» في لندن، مقر الحكومة البريطانية. وكانت المناسبة الافتتاح الرسمي لمعرض «رسم ورعاية»

---

(٥) المعلومات تستند إلى: Caudill, «Twilight in the Hejaz» (manuscript), pp. 138-39.

الذي شارك فيه خالد بستٍ وعشرين لوحة زيتية، بينما شارك الأمير تشارلز بخمسٍ وثلاثين لوحة مرسومة بألوان المياه. وقد عكست الأعمال الفنية التي أبدعها خالد الدرجات المتباينة لضوء أشعة الشمس بين جبال عسير الجرداء ووادٍ أخضر رطب، بينما رسم تشارلز لوحات لقلعة بالمورال في اسكتلندا، وعرض لوحات تصوّر الطبيعة الساحرة لمنطقة عسير، وقد رسمها خلال الزيارات الخاصة التي كان يقوم بها بين الحين والآخر إلى المملكة[٦].

وصل بكر بن لادن في افتتاح الحفل ووقف في الطابور لتحية المضيفين. وبينما اقترب من الأميرين قدّمه خالد إلى تشارلز:

ـ «دعني أقدم لك السيد بن لادن».

أعرب الأمير تشارلز عن دهشته بقوله: «هذا هو بن لادن الذي نعرفه؟»

ـ «لا، لا، إنه أخوه». وأسرع خالد لتوضيح الأمر.

اقترب أمير ويلز من بكر وصافحه وسأله: «ما نشاط أخيك هذه الأيام؟»[٧].

لم يُسجّل رد بكر على هذا السؤال، وفي ما يبدو لم يشعر بكر بالإساءة لأنه سريعًا ما افتتح مجالًا للحديث والتعارف الودي مع تشارلز، حتى إنه كان ضمن الذين يُرسل إليهم بانتظام في كل كريسماس بطاقة تهنئة ملكية، وكان يتلقّى كل شهر ديسمبر/ كانون الأول تهاني حارة بمناسبة الكريسماس إلى جانب صورة للأميرين الصغيرين هاري وويليام.

قام الأمير تشارلز بدوره على أكمل وجه باعتباره مبعوثًا غير رسمي إلى المملكة العربية السعودية. وقد كان مهتمًّا اهتمامًا شخصيًّا بالعالم الإسلامي، وكان هناك جانب من جوانب تشكيك العالم الإسلامي في

---

(٦) المعلومات تستند إلى تقرير وكالة الصحافة الفرنسية الصادر بتاريخ ١٨ فبراير/ شباط عام ٢٠٠١م وما نشرته صحيفة **ميل أون صنداي** في لندن بتاريخ ١٨ فبراير/ شباط ٢٠٠١م وما نشرته صحيفة **أوبزيرفر** بلندن بتاريخ ١٨ فبراير/ شباط ٢٠٠١م وما نشرته صحيفة **برس أسوسيشن** في لندن بتاريخ ١٧ فبراير/ شباط ٢٠٠١م.

(٧) المصدر السابق. وقد صرح عددٌ من الصحفيين البريطانيين بالأخبار بالأسلوب نفسه وكانوا كلهم من المسافرين إلى أراضي المملكة العربية السعودية مع الأمير تشارلز في ذلك الوقت، وقد أدلى كل منهم بدلوه إلى شخص كان شاهد عيان على الحدث.

موضوعات حماية المستهلك والثقافة الإعلامية الغربية بوجه عام، التي كانتا تروق في ما يبدو لنزعة تشارلز التقليدية. إضافة إلى أنه سعى إلى تعزيز تعددية الأديان في بريطانيا، وكان يتمنى أن يُطلق عليه لقب «مناصر الأديان» عندما يتولى زمام الحكم. وفي عام ١٩٩٣م أعلن تشارلز هذه الميول بوضوح عن طريق عمله مناصرًا رسميًا لـ «مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية». وبعد الإعلان عن هذه الأولوية، ألقى خطابًا سابقًا للأحداث قائمًا على افتراض أن «سوء الفهم بين الإسلام والغرب. . . ربما يزداد». وكان من المتوقع أن يناقش التسوية المتبادلة بين الطرفين واحترام التعاليم الإسلامية التي تدعو إلى السلام. والأكثر تشويقًا من ذلك معرفته الشخصية بمصادر شكاوى المسلمين في حقبة العولمة:

«ربما يظن بعضهم أن الرفاهيات الواردة من المجتمع الغربي للعالم الإسلامي مثل التلفاز والوجبات السريعة والأدوات الإلكترونية المستخدمة في حياتنا اليومية إنما هي من التطبيقات المعاصرة الرائعة. لكن الوضع ليس كذلك؛ لقد وقعنا في فخ الغطرسة الوقحة عندما خلطنا بين «المعاصرة» التي تتمتع بها دول أخرى وأوجه الشبه بيننا وبينها. والحقيقة أن الصورة التي نقدمها عن المادية تسيء إلى المسلمين المتدينين، ولا أعني بقولي هذا المتطرفين من بينهم. . . أصبحت الحضارة الغربية تتزايد استغلالًا على الرغم من مسؤولياتنا البيئية. وهذا الشعور الحاسم بالتفرد والوصاية المقدسة على العالم يعتبر ذا أهمية بالغة ويمكننا إعادة تعلمه من الإسلام»[٨].

في شهر فبراير/شباط عام ٢٠٠١م، نقل كل من تشارلز وخالد فاعليات معرض «رسم ورعاية» إلى «مركز الفيصلية» في الرياض، الذي كان ناطحة سحاب فيها مركز تجاري زجاجي ومبنى إداري وفندق فخم، وكانت مجموعة بن لادن السعودية هي شركة المقاولات التي عُهد إليها تشييده. وفي أثناء الوليمة الفاخرة التي أُعدت في فاعليات المعرض جلس تشارلز بجانب ولي العهد عبد الله بينما جلس بكر بن لادن على طاولة

(٨) المعلومات تستند إلى ما نشرته صحيفة **دايلي تلغراف** بلندن بتاريخ ١١ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٥م إلى جانب: «Islam and the West,» Oxford Center for Islamic Studies, October 27, 1993.

مجاورة. وروجت الصحافة السعودية من منطلق شعورها بالواجب الصحفي الأعمال الفنية المعروضة وكرمت ضيوف المملكة المتميزين من العائلة المالكة البريطانية، ومما لا شك فيه أنه لم تكن هناك أي خطورة قد تنجم عن النقد المستقل للأعمال الفنية في الصحف على نحو ربما يزعج أيًّا من الرّسامين الملكيين.

كان من بين الحضور في هذه الليلة في «مركز الفيصلية» سير مارك مودي ستيوارت الذي كان يعمل رئيس لجنة المديرين في مجموعة شركات شل الهولندية الملكية التي تعد من أباطرة النفط على المستوى الدولي وراعيًا مشاركًا في معرض الرياض بصحبة شركة بي إيه إي سيستيمز البريطانية المتخصصة في مقاولات أنظمة الدفاع. ربما لا تعكس الإسهامات المالية لتلك الشركات في المعرض الصلة «الروحية والقدسية المهمة» بين الإسلام والغرب التي أكدها تشارلز في ما سبق، إلا أن تشارلز ـ على النقيض من صديقه خالد ـ كان أميرًا صوريًّا؛ أي سفيرًا غير رسمي في خدمة حكومة الملكة، حيث تلخصت مهمته المحددة في الاهتمام بشؤون عمال المصانع البريطانية وأصحاب السيارات[٩].

منحت بطاقات التهنئة التي كان الأمير تشارلز يرسلها إلى بكر في الكريسماس مصدرًا آخر من مصادر الطمأنينة مع تزايد طموحات أسامة العنيفة وضوحًا. وسعى بكر وإخوته إلى الحصول على عقود أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بعد تفجيرات سفارتَي أفريقيا. واتصل فيليب غريفن من مكتبه في ولاية ميريلاند بأصدقاء قدامى له في وزارة الخارجية، إلا أن اتصالاته جرت على مستوى أدنى من المستوى الذي اعتاده أفراد عائلة بن لادن. بينما قدمت شركة كارلايل غروب التي كان لعائلة بن لادن استثمارات فيها بالفعل الحل الأمثل؛ إذ توجه جورج إتش دبليو بوش الرئيس السابق لأمريكا إلى المملكة العربية السعودية في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٩٨م بعد تفجيرات أفريقيا بثلاثة أشهر وكرر

---

(٩) المعلومات مستقاة من المقال الذي نُشر بتاريخ ١٧ فبراير/ شباط ٢٠٠١م في «بريس أسوسياشن» ـ المصدر السابق وتستند إلى ما ورد في الموقع الإلكتروني: وقد جرى استعراضه والنسخ منه بتاريخ ٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م.

الزيارة مرة أخرى في عام ٢٠٠٠م لإلقاء حديث في فاعليات شركة كارلايل غروب لجمع تبرعات من المستثمرين السعوديين، وهناك قابل عائلة بن لادن وأرسل إليهم كلمات شكر لطيفة لحسن استضافتهم له[١٠].

قابل الرئيس الأسبق جيمي كارتر عشرة أفراد من عائلة بن لادن خلال حملة جمع التبرعات التي قام بها في المملكة العربية السعودية في أوائل عام ٢٠٠٠م لتمويل «مركز كارتر» الذي كان ينادي بتطبيق مبادئ حقوق الإنسان ومكافحة الأمراض في كل مكان في العالم. وطمأن أفراد عائلة بن لادن الرئيس كارتر أنهم لا علاقة لهم بأسامة، وفي المقابل حثّهم الرئيس السابق على دعم مجهوداته التي يبذلها للقضاء على الفقر والمعاناة في العالم الثالث. وربما تكون عائلة بن لادن قد أدركت أن التصرف الأمثل في نهاية خدمة إدارة كلينتون التي امتدت فترتين رئاسيتين إلى جانب رؤية نائب الرئيس آل غور رئيسًا جديدًا مناسبًا، أدركوا أن مصالحهم تقتضي توسيع رقعة اتصالاتهم السياسية إلى ما وراء الشبكات المتمركزة حول تكساس ذات النزعة الجماهيرية التي قدّمتها إليهم شركة كارلايل غروب. وعلى أي حال سافر بكر إلى نيويورك في شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٠م عشية الانتخابات الرئاسية الأمريكية وتناول فطوره مع كارتر. وكانت هذه الرحلة نادرة بالنسبة إلى بكر، وتُعَدّ واحدة من رحلتين فقط قام بهما بكر إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ أن أنهى الدراسة في جامعة ميامي عام ١٩٧٣م. وتعهّد بكر بالتبرع بمليون دولار لـ «مركز كارتر» على أن تُدفع على مدار سنوات عديدة وبلغت قيمة الدفعة الأولى ٢٠٠,٠٠٠ دولار. وخُصصت هذه الأموال لدعم حملة كارتر لمنع تفشي العمى النهري وتفادي الإصابة به[١١].

---

(١٠) المعلومات مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع ثلاثة أفراد كانوا على علاقة بمعارف في الولاية ومع الرئيس بوش. وتستند أيضًا إلى: Daniel Golden, James Bandler, Marcus Walker, *Wall Street Journal*, September 27, 2001.

(١١) المعلومات الخاصة بالاجتماعات التي عُقدت مع كارتر والتبرعات تستند إلى المراسلات الإلكترونية من ديانا كونجيليو Deanna Congileo التي كانت تعمل في مركز كارتر بتاريخ ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٥م. والمعلومات المتعلقة بأن تلك الرحلة كانت واحدة من اثنتين فقط إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٧٣م تستند إلى الشهادة الخطية التي كتبها بكر بن لادن مشفوعة بقَسَم، وهي ترد في: *In Re Terrorist Attacks on September 11, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 157o, January 25, 2006.

في الولايات المتحدة نفسها بعد عام ١٩٩٨م سعى أبناء بن لادن بصفة أساسية إلى تجنب لفت الأنظار إليهم، إلا أن هذا لم يكن سهلًا على الدوام؛ إذ استمر أطفال وأبناء عائلة بن لادن في الالتحاق بالمدارس والجامعات والكليات في أمريكا، وكان أبناء خليل بن لادن من بينهم. وعلى الرغم من أنه ترك العمل في شركة أمريكا إن موشن ظلّ يزور ديزرت بير التي تقع خارج أورلاندو. وكانت والدة زوجته البرازيلية وأخت زوجته ريجينا فريسورا وبناتها الأربع يقمن هناك أيضًا. وقد عاشت ريجينا في جدة خلال منتصف التسعينيات، إلا أنها طُلقت من زوجها الأمريكي الذي يُدعى فرانكلين فريسورا وعادت إلى أورلاندو. وكانت سيدة مزعجة سيئة الطباع، وفيما يبدو كادت سلوكياتها تلفت انتباه الشرطة إليها في وقت كانت فيه عائلة بن لادن في أمس الحاجة إلى صرف أي تركيز عليها.

وفي اليوم الحادي عشر من شهر يونيو/ حزيران عام ١٩٩٩م وصلت ميشيل سميث إحدى ضابطات الشرطة المحليين في فلوريدا إلى منزل ريجينا فريسورا حيث اكتشفت فيه آثار مشاجرة حادة. وقالت فينيسّا، وهي ابنة ريجينا التي تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، لضابطة الشرطة إن أمها ضربتها بقبضة يدها وألقت بإطار صورة في وجهها ورمتها بلوح التزلج ثلاث مرات وجذبتها من شعرها. وقالت فينيسّا وفقًا لما جاء في تقرير الشرطية سميث: «تعرضت فينيسّا ـ على حدّ ما تذكرته ـ للإساءة البدنية والنفسية من أمها». إضافة إلى ذلك تضامنت أختان أخريان مع فينيسّا وتحدثتا عن «عددٍ من حالات العنف» التي تعرضن لها على مدار السنوات العديدة السابقة[١٢].

دفعت هذه المواجهة مع الشرطة بمجمع بن لادن المنعزل في أورلاندو والخاص بعائلة بن لادن الأوسع نطاقًا، إلى غياهب المحاكم الأسرية الأمريكية التي توهن العزائم بما فيها من صراعات على الوصاية وتقارير الأخصائيين الاجتماعيين وجلسات الاستماع القضائية. وقد ورد في

---

(١٢) المعلومات مستندة إلى تقرير الشرطة عن مايكل سميث في قضية: *Franklin Frisaura v. Regina Frisaura*, Orange County, Florida, DR97-3754.

وقد جرى الاطلاع على التقرير ونسخه بتاريخ ٢٤ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٦م. ورفضت فرانكلين فريسورا التعليق على الأمر.

تقرير حُفظ في ملفات المحكمة في شهر يوليو/ تموز عام ١٩٩٩م وأعده اختصاصي اجتماعي في المقاطعة، اقتباس لإحدى بنات فريسورا تقول فيه إن ريجينا كانت مدمنة على المخدرات مثل الكوكايين، وإنها «كانت تختفي عن المنزل لمدة أيام عندما كن يقمن في المملكة العربية السعودية ووجدها والدهنّ ذات مرة في وكر لتعاطي المخدرات». وتبين أن تلك ما هي إلا بداية سلسلة مزعجة من التقارير الواردة إلى محكمة مقاطعة أورانج كاونتي في فلوريدا عام ١٩٩٩م، التي ورد فيها ذكر السلوكيات السيئة التي كانت تصدر عن أخت زوجة خليل بن لادن تجاه بناتها. وكان خليل يظهر بين الحين والآخر في جلسات الاستماع التي كانت تُعقد في محكمة أورلاندو لتقرير أفضل الظروف المعيشية لبنات ريجينا. فكم كانت الظروف قاسية ومحزنة وطويلة الأمد! فأحيانًا كانت ريجينا تختفي تحت جنح الظلام ليلًا وتترك بناتها بمفردهن، كما ورد في التقارير التي سُجلت في المحكمة. وتبين أن نسبة كبيرة من عنفها تجاه بناتها كان بسبب إدمان الكوكايين الذي استمر حتى ربيع عام ٢٠٠١م وفقًا لما جاء في دراسة محلية أجرتها إدارة الطفل والأسرة[١٣].

أتت المخدرات على حياة عائلات بأكملها في جدة مثلما حدث في أورلاندو، ولم يكن من قبيل المفاجآت إطلاقًا أن تتأثر عائلة كبيرة مثل عائلة بن لادن بهذا الأمر، فعلى الرغم من أن توقيت ومكان هذه الحالة بعينها غريب فإن عائلة بن لادن كانت محظوظة بعدم إعلانها.

شهدت بداية عام ٢٠٠١م تغييرًا جذريًّا وكبيرًا في عائلة بن لادن وهو ظهور جيل ثالث كبير العدد، إذ كان الأبناء الكبار لأبناء وبنات محمد البالغ عددهم أربعة وخمسين ابنًا وبنتًا قد وصلوا إلى العشرينيات من عمرهم وأعقبهم مجموعة من المراهقين. وتزايدت أعدادهم بصورة مهولة حيث زادوا عن المئة حفيد من ظهر محمد بن لادن، إلى جانب أحفاد أخيه عبد الله بن لادن الكثيرين ذوي القرابة البعيدة، إضافةً إلى عشرات الأفراد الذين انضموا إلى العائلة بعلاقات النسب. وكان أبناء محمد بن لادن لا يزالون يحاولون جمع شتاتهم باعتبارهم ينتمون إلى عائلة

(١٣) كل الوثائق والاقتباسات مقتطفة من المصدر السابق.

واحدة خاصةً في فصل الصيف من كل عام. إضافة إلى أن بعضهم كانوا يتجمعون كل عام في منتجع عصري منغلق يطل على ساحل البحر المتوسط في مصر يُطلق عليه «مارينا» وهذا المنتجع مجموعة من الجزر الاصطناعية المقامة على الأراضي المستصلحة بطول ساحل البحر الأبيض المتوسط المظلل بأشجار النخيل. وقد شاركت عائلة بن لادن في إنشاء المنتجع، وزعمت أن لها حقًّا في امتلاك إحدى الجزر وكان أهل المنطقة يطلقون على هذه الجزيرة اسم «جزيرة بن لادن»، وشيدت العائلة فيها مجموعة من المنازل الصيفية الحجرية المتجاورة. وكان هذا المنتجع النسخة المصرية لضيعة «أوك تري فيليدج» التي كانت العائلة تمتلكها في فلوريدا، وتحققت الفكرة التي كان يتخيلها سالم على الأراضي المصرية في مارينا. وتناثرت عائلة بن لادن على ساحل البحر الأبيض المتوسط في جزيرتهم في مارينا بكل الأطياف؛ منهم النساء المحتشمات ومنهم ما هنّ دون ذلك، منهم الرجال الملتحون والمصلون ومنهم من يستمعون إلى الموسيقى بسماعات الأذن ويتراقصون على أنغامها[١٤].

في ذلك الحين كانت نساء العائلة متناقضات المظهر شأنهنّ شأن الرجال، ولكن الفرق بين الرجال والنساء أن النساء كنّ يكمُنّ بعيدًا عن الأنظار. وقد تميزت رندا وبرزت من بين بنات محمد بن لادن كشخصية مذهلة على الأقل من منظور أصدقاء العائلة الأمريكيين والأوروبيين. فبعد أن تزوجت اعتزلت الطب وبدأت تهتم بشؤون عائلتها في جدة. وكان بكر يستغل أسلوب حياتها المتحرر وانسجامها مع الحياة الأمريكية بدعوتها إلى حفلات العشاء عندما كان يستضيف شخصيات أمريكية رفيعة المستوى مثل القنصل العام الأمريكي في جدة. وفي إحدى إجازات الصيف أصرت رندا وزوجها على أن يعمل ابنهما الذي لم يتجاوز مرحلة المراهقة في وظيفة خلال فصل الصيف في محل «بيتزا هت» في جدة ليكون على دراية بالحياة العامة، ولم تكن رندا وحدها هي الفريدة من نوعها في العائلة، فقد كانت

---

(١٤) المعلومات الخاصة بمنتجع «مارينا» وجزيرة بن لادن تستند إلى المقابلات التي أُجريت مع زائرين، ومنهم يحيى العجاتي بتاريخ ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م (روبين شالمان) إلى جانب مقابلة أُجريت مع شخص ثانٍ طلب عدم الكشف عن هويته. وقد زارت روبين شالمان المنتجع والتقطت له بعض من الصور.

صالحة متميزة أيضًا وكانت لا تزال زوجة للمصمم الإيطالي وتعيش على ساحل الريفييرا. وكانت نجية تقضي معظم أوقاتها في لوس أنجلوس حيث حصلت على دروس في الطيران في مطار سانتا مونيكا. ومن المفارقات أن هؤلاء النساء العربيات المتحررات ينتمين إلى عائلة واحدة، وكن يتجمعن في إجازات الصيف بين الحين والآخر على شاطئ واحد جنبًا إلى جنب مع أخواتهن الأكثر تمسكًا بالتقاليد ـ حيث لم يكنّ يرتدين سوى العباءات السوداء ـ ولكن ذلك ليس أغرب من حقيقة مولد أسامة بن لادن وشفيق بن لادن في الشهر نفسه على الرغم من وجودهما حاليًّا في عالمين شديدي الاختلاف أحدهما عن الآخر. وفي الواقع لولا أسامة بن لادن، ما كانت عائلة بن لادن بحلول عام ٢٠٠١م ستحتل تلك المكانة المتميزة عن آلاف العائلات المسلمة الأخرى مختلفة الاتجاهات في عصر الاندماج الثقافي.

ولأنهم حضرميون، انتمى آل بن لادن إلى سلسلة من الأسلاف الرحّالة العالميين واثقي الخطى، وورثوا عن أبيهم محمد نفحة من العبقرية الإبداعية. ولكونهم سعوديين تعلموا أن يتعايشوا مع الحياة المليئة بالمتناقضات. تلك هي صفاتهم التي جعلت شخصياتهم جديرة بالإعجاب، ومما يدعو للأسف أنها نفسها التي اقترنت بأسامة وجعلته جديرًا بالإعجاب.

اعتُبرت «عملية الطائرات» حدثًا إعلاميًّا مهمًّا، وكانت هذه العملية معروفة بهذا الاسم في محيط أسامة بن لادن الضيق الذي اشتمل على بعض مَنْ كان مسموح لهم بمعرفة تفاصيل العملية[١٥].

وفي الحقيقة لا يُعرف على وجه التحديد أسباب اتخاذ القرار بإنجاز هذه العملية، والدليل الوحيد المتكامل المتاح لدينا هو ما تحدث به خالد شيخ محمد في التحقيقات الأمريكية. ولخالد أصول باكستانية، لكنه نشأ وترعرع في الكويت وتعلم في كارولينا الشمالية، واتجه إلى الجبهة الأفغانية خلال القتال ضدّ السوفيات في الثمانينيات. ولم يكن خالد وثيق الصلة بأسامة خلال هذه السنوات، بل كان في الواقع من أعمام رمزي

(١٥) المعلومات مستقاة من تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ص ١٥٤.

يوسف الذي قاد الهجوم الأول على مركز التجارة العالمي. وروى لنا خالد شيخ محمد أنه ويوسف كانا أول من فكّر في استخدام الطائرات المختطفة التي تعمل على خطوط جوية تجارية كأسلحة لشن هجمات عندما كانا في المنفى في الفيليبين خلال أوائل التسعينيات. وكان ابن أخيه وقتئذٍ مقبوضًا عليه في باكستان على يد وكلاء من مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات الأمريكية. وبعد ذلك بفترة تقابل خالد شيخ محمد مع أسامة لمناقشة فكرة سيكون لها صدى هائل.

تبين أن المناقشة المبدئية لهذه الفكرة كانت على غرار مناقشة موضوع فيلم مغامرات مثيرة لعرضه في هوليوود، إذ اقترح خالد شيخ اختطاف عشر طائرات في الأجواء الأمريكية، على أن يقود الطيارون الذين سيقومون بهذه العملية الانتحارية تسع طائرات إلى الأهداف المميزة على الساحلين الشرقي والغربي؛ أي البنتاغون والبيت الأبيض والكونغرس الأمريكي ومبنى التجارة العالمي والمقر الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية والمقر الرئيس لمكتب التحقيقات الفدرالي ومنشآت الطاقة النووية وناطحات السحاب في كاليفورنيا وواشنطن. أما الطائرة العاشرة التي تحمل على متنها خالد شيخ محمد نفسه فستهبط في أحد المطارات الأمريكية، ويقتل كل الرجال الموجودين على متنها ويبلغ وسائل الإعلام بوجوده على متن الطائرة ليلقي أمامها خطابًا يشجب فيه السياسة الخارجية الأمريكية. وكتب المحققون الأمريكيون لاحقًا أن سيناريو هذا العمل اشتمل على «مشاهد دمار مسرحية» بحيث يكون خالد شيخ محمد، وليس أسامة بن لادن، «نجم العرض والإرهابي الذي ستتطلع إليه كل العيون»[١٦].

استمع بن لادن إلى اقتراح محمد ولكنه لم يتحمس له، وقال محمد لاحقًا إن سر عدم إبداء أسامة لحماسته في البداية أنه اعتبر الخطة في مهدها طموحة لدرجة الخيال غير القابل للتحقيق وغير عملية بالصورة الكافية للموافقة عليها. كان هذا من دون شك رد فعل طبيعيًا ومتوافقًا مع شخصية أسامة المشوبة بالحذر والقلق عند التخطيط لعمليات عنيفة، وربما كان أسامة يفضّل أيضًا استخدام منهجية مختلفة لتحديد دور النجم.

(١٦) المصدر السابق.

في أواخر عام ١٩٩٨م أو بدايات عام ١٩٩٩م، استدعى أسامة محمدًا ثانية وتقابلا في مجمع «المطار» خارج مدينة قندهار. وناقشا هذه المرة نسخة مختصرة من الخطة ولكنها ذات ميزانية أكثر انضباطًا وطاقم عمل محدود لتنفيذها من دون عقد أي مؤتمرات صحفية برئاسة خالد شيخ محمد، وذكر أسامة في تلك الأثناء أنه سيوفر الدعم المالي المطلوب[١٧].

في حفل زفاف محمد الذي يُعد ثاني أكبر أبناء أسامة، والذي أقيم في شهر يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠١م، جلس ما يزيد عن خمسمئة رجل ملتح على الأرض متشابكي الساقين في منطقة خارج مدينة قندهار، وكانوا مصطفين كأنهم يؤدون الصلاة. وجلس أمامهم العريس ووالده بالمثل متشابكي الساقين على الفُرش. أما العروس فكانت في الرابعة عشر من عمرها وهي ابنة شرطي مصري سابق يُدعى محمد عاطف، وكان أقرب مستشاري أسامة العسكريين. وبالطبع لم تظهر العروس أمام الحضور ولم يكن في الحفل إلا الرجال. وكان العريس في ما يبدو في زهاء التسعة عشر عامًا، وكان شاربه خفيفًا لم ينمُ كليةً بعد. وكان يرتدي جلبابًا أبيض وغطاء رأس سعوديًّا تقليديًّا أبيض، وكانت ملامحه تكاد تتطابق مع ملامح أبيه الدقيقة وأنفه المميز. وفي أول ظهور إعلامي له مع أسامة، كان يحمل بندقية وتحدث بحماسة شديدة عن التزامه طريق الجهاد، على الرغم من أنه بدا شابًّا صغير السن وضعيف البنية، حتى أن وقع حديثه كان أشبه بالكوميديا المعروضة في أفلام كرتون المغامرات. ومن الملاحظ أنه عندما كان ينظر إلى كاميرات الفيديو المحمولة التي كانت تصور حفل زفافه، كان يبتسم بارتباك ويبدو غير واثق. ولهذا كان أبوه يبتسم بالطريقة نفسها وهو جالس بجانبه، وعلى الرغم من اعتياده الظهور في شرائط الأفلام المسجلة التي كانت ينتجها بنفسه على مدار سنوات، فإنه كان يبدو مرتبكًا لدى تشغيل كاميرات الفيديو[١٨].

---

(١٧) المصدر السابق من ص ١٥٤ إلى ص ١٥٥.

(١٨) المعلومات الخاصة بشريط الفيديو الذي صُور عليه حفل الزفاف مستقاة من: *Meeting Osama Bin Laden*, Brook Lapping Productions, 2004.

بينما تستند المعلومات المتعلقة بالضيوف الذين تراوحت أعدادهم بين ٤٠٠ و٥٠٠ ضيف وبالمشهد إلى: Zaidan in Bergen, *The Osama Bin Laden I Know*, pp. *255-56.*

بعد أن اتخذ عبد الله نجل أسامة قرارًا بأن يهجر أباه ليعيش كأي شاب سعودي عادي في جدة، تولّى محمد ـ ثاني أكبر أبناء أسامة ـ دور النجل الأكبر المخلص لأبيه في المنفى، ولذا كان حفل زواجه مناسبة مهمة على غير العادة. وقد كانت عشيرة أسامة في أفغانستان تضم كثيرًا من الأبناء الآخرين في سن المراهقة أيضًا، حيث أنجب زعيم القاعدة أبناء أكثر من أبناء الكثير من إخوته غير الأشقاء، الأمر الذي أسهم في زيادة عدد من ينتمون إلى الجيل الثالث في العائلة. وبلغ عدد أبنائه قرابة العشرة، فبالإضافة إلى محمد كان الأخ الذي يليه يُسمى سعدًا، والذي أَعدّه أسامة ليصبح قائدًا في المستقبل. أما عن الأبناء الآخرين الأصغر سنًّا ـ خالد وحمزة ولادن ـ فسيظهرون لاحقًا في الأفلام الترويجية المصورة خلال الحرب وكانوا يشبهون الأطفال المجندين في أفريقيا أو سريلانكا.

يبدو أن أسامة استغل فرصة حفل زواج نجله محمد لتصوير فيلم تسجيلي ليستمتع بمشاهدته أقاربه الذين لم يتمكنوا من حضور الحفل، وفي الوقت نفسه اعتبرها فرصة ترويجية جديدة للجماهير العربية المنكبة على مشاهدة التلفزيون. اتصل مساعدوه بمدير مكتب الجزيرة في باكستان الذي يُدعى أحمد زيدان ووجهوا إليه دعوة لزيارة قندهار. وعندما وصل قطعوا له وعدًا بمنحه نسخة من شريط فيديو الحفل حتى يستعد لبثه بالقمر الاصطناعي. وصور الفريق الذي يعمل مع أسامة الحفل بكاميراتهم التي كانوا يخفونها بين طيات ملابسهم بين الحين والآخر حرصًا على عدم مضايقة الضيوف المنتمين إلى طالبان الذين يتضايقون من التصوير.

كان أسامة خلال الاحتفال ودودًا وسعيدًا و يتحدّث مع الجميع، وقبيل ثلاثة أشهر نفّذ انتحاريون ينتمون إلى تنظيم القاعدة في اليمن هجومًا بزورق مليء بالمتفجرات على المدمرة الأمريكية كول التي كانت تحمل صواريخ موجهة. وعندما فجر المنتحران نفسيهما، نجم عن ذلك مقتل سبعة عشر بحارًا وإصابة ما يزيد عن ثلاثين شخصًا.

قال أسامة لزيدان لاحقًا: «سأقول لك شيئًا واحدًا... فعلنا فعلتنا في المدمرة الأمريكية كول وأردنا استفزاز أمريكا لإصدار أي رد فعل، وإذا

صدر عنهم رد الفعل الذي نرجوه، سيقومون بغزو أفغانستان وهذا مرادنا... وحينئذٍ سنشن حربًا ضارية ضدّ الأمريكيين مثلما فعلنا مع السوفيات من قبل»[١٩].

لم يكن أسامة منشغلًا بالحديث عن العمليات التي ينفذها فحسب؛ إذ كانت والدة أسامة قد غادرت جدة متوجهة إلى أفغانستان، ولم تكن هذه السيدة قد أنجبت أسامة فحسب، بل كان لديها على الأقل أخوان غير شقيقين لأسامة من رجل آخر وعاش أسامة معهما في منزلها في الضواحي بعد زواج أمه الثاني. (وحتى ذلك الحين كان مكتب الاستخبارات السعودية الذي أُخْطِر بقرار رحيلها إلى أفغانستان لا يزال يشعر أنه لا يمكنه التدخل في قرار زيارة ابنها حتى بعد الهجوم الرهيب الذي شنته القاعدة على المدمرة البحرية كول.) ويتذكر زيدان أن أسامة شعر باستياء بالغ من أن إدراجه على قوائم المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الفدرالي أجبر والدته على السفر على رحلة تجارية وبمسار غير مباشر؛ إذ قال أسامة حسبما يتذكر زيدان: «كم أشعر بالذنب تجاه أمي... فإن لم يكن هناك حظر مفروض على طالبان كنت سأحضر طائرة خاصة لاصطحابها من هنا إلى المملكة العربية السعودية». وشعر بالذنب حتى إنه أنَّب نفسه قائلًا: «لست بارًّا بوالدتي»[٢٠].

لم يستمر الاحتفال نفسه وقتًا طويلًا، وربما لم يتعدَّ الساعة في تقدير زيدان؛ حيث أعقبه وليمة الزواج وتقديم الحلوى والفاكهة. وقرر أسامة عدم إلقاء خطبة في هذا الحفل تكريمًا لولده، بل آثر إلقاء قصيدة ألّفها بنفسه عن عملية الهجوم على المدمرة الأمريكية كول، ووقف أسامة أمام الجمع الغفير وبدأ يلقي قصيدته:

مدمرة يخشى أولو البأس بأسها

تزيدك رعبًا حين ترسو وتبحرُ

تشق عباب البحر يحدو مسيرها...

(١٩) المصدر السابق ص ٢٥٥.

(٢٠) المصدر السابق ص ٢٥٦.

لم يكن أداؤه بارعًا إذ تلعثم أثناء الإلقاء وصاح الجميع «الله أكبر!» لحثه وتشجيعه. وعاود إلقاء قصيدته وبعد أن انتهى أخذ زيدان جانبًا واعترف له: «لا أظن أن أدائي كان مقبولًا». ومن هذا الموقف استنتج زيدان أن أسامة «كان شديد الاهتمام بالعلاقات العامة وبالصورة التي يظهر بها في التلفاز».

قرر أسامة محاولة إلقاء قصيدته ثانية وخرج مرة أخرى أمام الجمع ودارت الكاميرات وألقى القصيدة من جديد:

تشق عباب البحر يحدو مسيرها

غرورًا وزهوًا واقتدار مزورُ

إلى حتفها تسعى حثيثًا بظلفها وهم كبير كاذب وبه تتدثرُ...

عاد للداخل مرة أخرى ونظر إلى شريط الفيديو الذي صُور له في أثناء إلقاء قصيدته وأخذ يدقق النظر في أدائه وقال في النهاية: «لا، لا، كنت أفضل في المرة الأولى»[٢١].

---

(٢١) المصدر السابق.

القسم الرابع

التركة

من سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م
حتى سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٧م

الفصل السادس والثلاثون

الاسم

في اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠٠١م، تلقى جيسون بلوم ضابط الشرطة السابق الذي انتقل إلى قطاع الأمن الخاص، اتصالًا هاتفيًّا من شركة إير ووركس المتحدة التي كانت تعمل في مجال الوساطة في تأجير الطائرات في ولاية نيو جيرسي؛ إذ كانت الشركة ترتب لتأجير طائرة خاصة لنقل أفراد من عائلة بن لادن خارج الولايات المتحدة الأمريكية طبقًا لما ذكره المتحدث باسم الشركة. وفي ظلّ الأحداث التي وقعت خلال الثمانية وأربعين ساعة الماضية، قررت شركة إير ووركس تعيين حارس أمن لحماية طاقم الطائرة أي الطيار ومساعد الطيار وغيرهما من العاملين على الرحلة الجوية. ومع أنه لم يكن مسموحًا لبلوم بحمل أي سلاح على متن الطائرة، كان عليه أن يعتمد على ذكائه وتدريبه على الفنون العسكرية[١].

سأل بلوم عن الأشياء التي سيصطحبها أفراد عائلة بن لادن معهم على متن الطائرة: هل سيأتون بأي أسلحة أو أموال؟ وتساءل: هل يوجد ما يدينهم ويمنعهم من مغادرة أمريكا وفقًا لتقارير مكتب التحقيقات الفدرالي؟ وطمأنه الشخص المسؤول عن تأجير الطائرات أن مثل هذه الأمور من السهولة بمكان التعامل معها، ووافق بلوم على أن يقوم بهذه

(١) المعلومات مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع جيسون بلوم وريكاردو باسيتّا بتاريخ ١ يوليو/ تموز ٢٠٠٧م (كيتش هاجي) والمقابلة التي أُجريت مع ريكاردو باسيتّا بتاريخ ٢ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧م (كيتش هاجي).

المهمة. ولاحقًا أُخطر بأن يوجد في صالة الوصول الخاصة في مطار لوس أنجلوس الدولي في السابعة صباحًا في اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر/ أيلول.

وفي هذا اليوم ارتدى بلوم البدلة وربطة العنق وتوجه بسيارته إلى المطار حيث قابله كثير من وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي وأجروا تفتيشاتهم الشخصية المعتادة ونظروا في حقيبة يده ثم رافقوه على متن طائرة البوينغ ٧٢٧. وكانت هذه الطائرة ملكًا لشركة ريان إنترناشونال لتأجير الطائرات التي يقع مقرها في وسط الغرب الأمريكي. وفيما سبق كان فريق البايسبول بالتيمور أوريولز، ومؤخرًا فريق كرة السلة شيكاغو بولز، كان كلاهما يسافر على متن هذه الطائرة بعينها للانتقال بين أماكن المباريات المختلفة. وكانت مقصورة الركاب فيها كبيرة حيث تتسع لقرابة ١٨٠ راكبًا إذا ما استؤجرت لرحلة تجارية، ولكن لراحة الفرق الرياضية تم تجهيزها على نحو أكثر ترفًا، إذ كانت تشتمل على زهاء ثلاثين مقعدًا مغطاة بالجلد الأزرق، بالإضافة إلى اشتمالها على بار على شكل نصف دائرة على نحو يسمح للركاب بالوقوف حوله وتبادل الأحاديث.

عندما دخل بلوم إلى الطائرة لم يكن على متنها سوى سيدتين. قدمت إحداهما نفسها بأنها من وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي، بينما كانت الأخرى في منتصف الأربعينيات من عمرها وكانت ترتدي ملابس أنيقة على غرار سيدات الأعمال الأمريكيات، وقدمت نفسها بأنها نجية بنت لادن.

رحل جميع وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي وأُغلقت أبواب الطائرة وجلس بلوم ليتحدّث مع نجية. وقال عنها بلوم إنها كانت «منزعجة بشكل واضح حتى إن فرائصها كانت ترتعد». ذكرت نجية أنها تعرضت للتفتيش الشخصي على يد السيدة التي قدّمت نفسها بأنها من وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي قبل أن تصعد إلى متن الطائرة، وقال لها بلوم إنه تعرض أيضًا للإجراء نفسه، وأخذا يضحكان لهذا السبب[٢].

قالت نجية إنها كانت تعيش في لوس أنجلوس في حي ويستوود منذ

---

(٢) المعلومات مستندة إلى المقابلة التي أُجريت مع بلوم ـ المصدر السابق.

سنوات وأعربت عن إعجابها بمنطقة جنوب كاليفورنيا. وذكرت له أنها كانت تجيد امتطاء الخيل وتلعب البولو وتحصل على دروس لتعلم الطيران وأنها لا تريد العودة إلى المملكة العربية السعودية. وقال بلوم أيضًا إن نجية تحدثت أيضًا عن «العار الذي لَحق باسم العائلة بسبب ضلوع أسامة بن لادن في تفجيرات سبتمبر/ أيلول».

استطردت نجية بأنها ذهبت بعد الهجمات التي وقعت في نيويورك وواشنطن بأيام قليلة إلى مركز تجاري ضخم في غرب لوس أنجلوس لشراء بعض الملابس. ويذكر بلوم أنها قصت له أن الصراف عندما نظر في بطاقة ائتمانها علق بعبارات ازدراء لها، ومن بعدها بدأت تشعر أن حياتها في خطر. وقام وكلاء من مكتب التحقيقات الفدرالي بزيارتها في منزلها في اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر/أيلول وأبلغتهم أنها في غاية الحزن بسبب الهجمات الانتحارية التي وقعت لأن «العنف ليس من شيم الإسلام في شيء»(٣).

قالت نجية لبلوم إنها لم تتحدث مع أسامة على مدار الثلاثين عامًا الماضية، وإنها لا تصدق إن أحد أفراد العائلة فعل هذا.

ولكن بلوم طمأنها باحتمالية أن يظهر شخص آخر ليكون هو المسؤول عن هذه العمليات، وذكر كيف أن كثيرًا من التخمينات المبدئية تمركزت حول المتطرفين الإسلاميين بعد الهجمة الإرهابية التي وقعت في مدينة أوكلاهوما سيتي عام ١٩٩٥م، إلا أنه تبين لاحقًا أن الإرهابيين الذين قاموا بهذه الهجمة تابعون لمخطط إرهابي داخلي.

إلا أن نجية أكدت أن تلك العمليات من تنفيذ أسامة.

---

(٣) المصدر السابق. «العنف ليس من شيم الإسلام في شيء»: يعتمد على وثائق مكتب التحقيقات الفدرالي المنقحة التي أصدرتها منظمة الرقابة القانونية ونشرتها في الصحف كنتيجة لقانون حرية نشر المعلومات للملفات والدعوى القضائية، راجع قضية: *Judicial Watch v. Department of Homeland Security & Federal Bureau of Investigation*, United States District Court, District of Columbia, 04-1643 (RWR)

والوثيقة التي تصف المقابلة التي أُجريت مع نجية وتستشهد بكلامها قد نقحت اسمها، ولكن سياق الكلام يوضح هويتها تمامًا.

كانت نجية تمسك بين يديها مصحفًا، وما إن فارقت الطائرة مدرج الإقلاع وحلقت في الهواء فتحته وشرعت في قراءة القرآن(٤).

في منطقة ما فوق أريزونا تسلل بلوم خلسةً إلى مقصورة الطيار للتحدث معه وكان في أواخر الأربعينيات أو بداية الخمسينيات من عمره. بينما كانت مساعدته سيدة قالت إنها عملت سابقًا في شركة الخطوط الجوية ساوث ويست إيرلاينز. طلب قبطان الطائرة من بلوم أن يعرّف نفسه وسأله عن بعض المعلومات الأخرى الخاصة بالجهة التي يعمل لحسابها وسبب وجوده على متن الطائرة.

أوضح له بلوم أنه عمل شرطيًا لفترة طويلة إلا أنه يعمل حاليًا حارسًا أمنيًّا لحماية طاقم الطائرة.

دفع هذا القول الطيار إلى التساؤل: «ولِم أحتاج إلى حارس أمني؟» وقال إنه يقود هذه الرحلة لاصطحاب بعض طلبة الجامعة من فلوريدا وآخرين من واشنطن ليتجه بهم إلى بوسطن، وبعد ذلك تساءل: «هل لديك قائمة بأسماء الركاب؟»

سكت بلوم ولم ينبس ببنت شفة، وكان لديه بالفعل قائمة بأسماء الركاب، إلا أنها كانت مليئة بأسماء أفراد من عائلة بن لادن، ومن دون شك لم يكن قبطان الطائرة على علم بهذا الأمر. ومع ذلك شعر بلوم أنه من غير اللائق أن يكذب على قائدَي الطائرة خاصة وأن الطائرة قد حلقت بالفعل، ومن ثَم أعطاهما القائمة.

يتذكر بلوم أن «الطيار صُدم» لدى رؤيته القائمة «وأُلقي في قلبه الرعب». وبدا عليه الغضب العارم وهو يعطي القائمة لمساعدته. أخذ الطاقم يسلم القائمة من يد ليد وأخذ أفرادُه يشعلون السجائر، وانضم إليهم بلوم.

اتصل الطيار ومساعدته بشركة تأجير الطائرات التي يعملان لديها وأخذا يشكوان للمسؤول ما حدث. وأبلغ الطاقم بلوم أنهما ليسا مستائين إلا أنهما يشعران بقدر من القلق فحسب من قدرته على السيطرة على

---

(٤) المعلومات تستند إلى المقابلة التي أُجريت مع بلوم ـ المصدر السابق.

الأمور بمفرده ما إن ينضم سائر أفراد عائلة بن لادن إلى الركاب؛ في حالة حدوث أمر خطير.

قال بلوم إنه لا داعي للقلق «فهناك سيدة في منتصف الأربعينيات من عمرها على متن الطائرة».

أدرك حينئذٍ سائر ركاب الرحلة الجوية مَن يرافقهم على متن الطائرة ويتذكر بلوم «أنهم بدءوا يفقدون السيطرة على أعصابهم» وأخذوا يذهبون مرارًا وتكرارًا إلى مقصورة القيادة.

في النهاية استقر مآل الطائرة في أورلاندو حيثما هبطت في وقت متأخر بعد الظهيرة بتوقيت الساحل الشرقي الأمريكي. وحدد طاقم الطائرة المستأجرة طلباتهم المتمثّلة في أنهم بسبب قلقهم على سلامتهم الشخصية وشعورهم بأنهم خُدعوا، فلن يتحركوا بالطائرة قيد أنملة إلى أي مكان آخر بعد هبوطها في أورلاندو ما لم يحصل كل منهم على مبلغ إضافي يُقدر بـ١٠,٠٠٠ دولار.

علم بلوم أن إحدى القنوات التلفزيونية أذاعت خبرًا عن استعداد رحلة طيران ذات صلة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول للإقلاع الآن من أورلاندو، ولم يفصح الخبر الغامض عن طبيعة العلاقة بين هذه الرحلة وأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. ها قد تعقّدت الأمور وبدأ القلق ينتاب بلوم من إمكانية ظهور أحد المختلين عقليًّا وبيده سلاح، وأنه قد يطلق نيرانه عشوائيًّا على مدرج مطار أورلاندو أو يحاول إطلاق النار عليهم والطائرة تحلق في السماء.

عاد بلوم مرة أخرى إلى طائرة البوينغ ٧٢٧ لمعرفة من على متنها وماذا يجرى بالداخل. وكانت الخطة الجوية معلقة حينئذٍ إلى أجل غير مسمى لحين الرد على طلبات طاقم الطائرة. وأخذ ثلاثة من وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي يمشون على المدرج الذي يصل الطائرة بصالة الوصول.

تحدث بلوم في هاتفه المحمول مع أحد المديرين في شركة ريان وناشده بأن فرص تحوّلهم إلى هدف يمكن النيل منه ستزداد كلما طالت مدة بقائهم في المطار.

رأى بلوم رجلًا وسيمًا طويل القامة يبلغ طوله قرابة الست أقدام وأربع بوصات. وكان لهذا الرجل شاربٌ خفيف وكان شديد الشبه بأسامة بن لادن في ما عدا أنه كان يرتدي نظارة شمس أنيقة غالية الثمن وبذلة بيجان يبلغ سعرها خمسة آلاف دولار.

قدم خليل بن لادن نفسه لبلوم واعتذر له وأعرب عن أسفه لاضطرار بلوم إلى أن يكون معهم على متن الطائرة.

خرجت نجية من الطائرة وسألت خليل عن سبب هذا التأخير المبالغ فيه، وأوضح لهما بلوم أن طاقم الرحلة لم يكن يعرف بوجود أفراد من عائلة بن لادن على متن الطائرة. واستطرد قائلًا إنهم يخشون من السفر معهم على متن طائرة واحدة، والشيء الآخر أنهم يطالبون بالحصول على المزيد من الأموال لإتمام الرحلة.

أمره خليل ثائرًا بأن يعطوا لطاقم الطائرة ما يريدون بقوله: «دعنا نرحل من هنا»[٥].

في مساء الثالث عشر من شهر سبتمبر/ أيلول، وهو اليوم نفسه الذي اتصل المسؤولون فيه بجيسون بلوم لأول مرة لإبلاغه بشأن الرحلة التي تحمل على متنها عائلة بن لادن، عقد الأمير بندر بن سلطان ـ السفير السعودي في واشنطن ـ لقاءً مع الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في البيت الأبيض. وأشعلا السيجار معًا في «شرفة ترومان» التي تطل على حديقة «ساوث لون». وفي تلك الأثناء، لم تكن أعداد الموتى قد أُحصيت بعد، إلا أنها ستتعدى الآلاف من دون شك. وكانت الصور التلفزيونية للهجمات وما حدث في أعقابها ـ حيث تنقُّل العاملين في المبنى من دون حول لهم ولا قوة بين جثث الموتى ممن لقوا حتفهم إثر انهيار برجي التجارة العالمي، ونرى المصابين تعلو وجوههم الدموع ويكسوها الثرى، والأوراق المهلهلة والأنقاض، ومسوّدات لوحات الإعلانات المعلق عليها صور المفقودين ـ كل ذلك أخذ يتردّد صداه في جميع أنحاء الولايات المتحدة كأنه مرض تفشى

(٥) كل الاقتباسات مقتطفة من المقابلة التي أُجريت مع بلوم ـ المصدر السابق. وقد وصف باسيتّا الظروف التي جرت فيها ثورة طاقم الطيران ـ المصدر السابق.

ولم يعد ممكنًا السيطرة عليه. وكان من العسير التنبؤ بتداعيات هذه الأحداث في النهاية على مستقبل العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة والسعودية، على الرغم من أن الجانبين كانا سيعيدان تقييم الموقف من دون شك.

شدّد بندر لاحقًا على أنه لم يكدر صفو بوش في هذا المساء بعينه بالخطط التي وضعها في السفارة السعودية لإجلاء عائلة بن لادن إلى جانب العشرات الآخرين من العائلة المالكة السعودية وحاشيتها التي تناثرت في جميع أنحاء الولايات المتحدة. (وكان هناك مجموعة من أفراد العائلة المالكة أتت إلى أمريكا قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول لشراء الخيول الثوروبريد (الهجينة) من مدينة كنتاكي، بينما حضر آخرون لقضاء الإجازة في كاليفورنيا ولاس فيغاس). وذكر بندر أنه اتصل مباشرةً بمكتب التحقيقات الفدرالي ليحصل منه على تصريح برحلات الطيران التي كان ينظمها على متن الطائرات المستأجرة ولضمان حماية المواطنين السعوديين من أي هجمات انتقامية غير قانونية. وقال بندر لاحقًا: «إن هؤلاء الرعايا منتشرون في جميع أنحاء أمريكا ولأن الجميع كان يشعر بغضب عارم، فإننا قلقون من أن يلحق بهم الأذى بسبب شخص لا يمكنه السيطرة على انفعالاته». ولم يذكر بندر من اتصل به هاتفيًّا في مكتب التحقيقات الفدرالي، بيد أنه كانت له علاقات ممتازة مع مدير المكتب لويس فري. وبعد تسوية هذه الأمور مع مكتب التحقيقات الفدرالي، اتصل بندر هاتفيًّا بريتشارد كلارك مدير برامج مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض وقال له كلارك: «ليس لديّ مانع إن لم يمانع مكتب التحقيقات الفدرالي»[٦].

وبعد قرابة ثلاثة أو أربعة أيام من أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، اتصل بندر بمحام في واشنطن يُدعى فريد دوتون وكان هذا الرجل قد عمل مستشارًا قانونيًّا وسياسيًّا للعائلة المالكة السعودية لسنوات طويلة. أوضح بندر أن بعض إخوة أسامة غير الأشقاء تصادف وجودهم في الولايات المتحدة ويريدون توكيل مستشار قانوني. وقال بندر له: «تحدّث

---

(٦) المعلومات المتعلّقة بالمجموعات الأخرى من أفراد العائلة المالكة السعودية تستند إلى وثائق منظمة الرقابة القضائية ـ المصدر السابق. والمعلومات الخاصة بأن بندر لم يناقش مسألة رحلات الطيران مع بوش تستند إلى: Simpson, *The Prince*, pp. 314-16.

معهم لتعرف إن كنت ستستطيع مساعدتهم». وعلى الرغم من أن دوتون كان مترددًا بصفة عامة، فإنه لم يتردّد في مساعدتهم[٧].

كان دوتون يشغل آنذاك منصب نقيب محامي واشنطن، وكان عجوزًا أبيض الشعر في السبعين من عمره في تلك الأثناء، ويسعى دومًا للحفاظ على سمعته الطيبة التي اكتسبها على مدار سنوات عمله، و يتحدّث بدقة وعناية شديدتين. وفي طريقه للقاء عائلة بن لادن، توجه بسيارته إلى فندق «فور سيزونز» الذي يقع في أطراف مدينة جورج تاون واستقل المصعد نحو جناح العائلة المزدوج. وعندما دخل قدم نفسه إلى شفيق بن لادن وعبد الله بن لادن اللذين تخرجا في كلية هارفارد للحقوق. وكان الأخوان يرتديان ملابس رسمية وجلس الثلاثة معًا ليتحدّثا في غرفة المعيشة في الجناح.

عندما تحطمت الطائرة التابعة لشركة الخطوط الجوية أمريكان إيرلاينز الرحلة ٧٧ بعد اصطدامها بالبنتاغون الذي يقع على جانب نهر بوتوماك، كان شفيق بن لادن يشارك في مؤتمر مستثمري شركة كارلايل غروب المنعقد في فندق ريتز كارلتون في واشنطن. وكان عبد الله يطلب مشروب القهوة بالحليب في مقهى ستاربكس في كامبريدج بولاية ماساشوستس عندما أذيعت أخبار الهجمات الإرهابية على شاشات جميع التلفزيونات وانتشرت كانتشار النار في الهشيم. شق عبد الله طريقه بعد ذلك إلى واشنطن وتوجه إلى أخيه غير الشقيق للمساعدة في تبرئة ساحة عائلته ولمعرفة كيفية التصرف حيال هذا الموقف من الناحية القانونية.

طلب الأخوان من دوتون إسداء النصح لهما بشأن «ما ينبغي فعله وكيفية التعامل مع هذا الموقف المعقد والفوضوي بالنسبة إلى باقي أفراد عائلة بن لادن» كما قال دوتون. وقال الأخوان إن صلتهما بأسامة مقطوعة وإنهما لم يرياه منذ زمن بعيد ويظنّان أنه «مثير للمشكلات والمتاعب» كما جاء على لسان دوتون لاحقًا[٨].

---

(٧) المعلومات مستقاة من المقابلات التي أُجريت مع فريد دوتون بتاريخ ٢٤ مايو/ أيار ٢٠٠٥م. وقد قضى دوتون نحبه بعد شهر واحد تقريبًا من هذه المقابلة بتاريخ ٢٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٥م عن عمر يناهز ٨٢ عامًا.

(٨) الاقتباس مقتطف من المقابلة التي أُجريت مع دوتون ـ المرجع السابق.

لم يقترح الأخوان توكيل دوتون نفسه لمتابعة هذه الأمور، بل طلبا إليه أن يرشح لهما أسماء بعض المحامين ممن هم أهل للترافع عن عائلة بن لادن كوكلاء لهم. وطلبا إليه أيضًا تحديد مكتب محاماة يمكن أن يقدم إليهما الاستشارات العامة ومساعدتهما أيضًا في أمور قانونية محددة قد تظهر للعائلة على سطح الأحداث الساخنة في الولايات المتحدة في أعقاب الهجمات الانتحارية. وكانت الدعاوى القضائية المدنية التي أُقيمت نيابة عن الضحايا أحد تلك الاحتمالات بلا شك. ومن المؤكد أن الحكومة الأمريكية كانت ستجدد تحرياتها عن المصادر المالية للعائلة وغيرها من الأمور ذات الصلة. كان دوتون على علم بالتعاون المسبق بين عائلة بن لادن ومكتب سوليفان آند كروميل، إلا أن الأخوين لم يذكرا له هل اتصلا بهذا المكتب أيضًا ـ الذي كان مقره الرئيس في نيويورك بالقرب من مركز التجارة العالمي ـ ولم يذكرا شيئًا عن نتائج استفساراتهما التي ربما يكونان قد طرحاها على المسؤولين في هذا المكتب.

تذكر دوتون أنه «حاول تثبيط همتهما وإثنائهما عن الخطة التي وضعاها» بقوله إنه لا يظن أن التوكيلات القضائية مهمة في هذا التوقيت لعائلة بن لادن. وأضاف أن الوقت لا يزال أمامهم والمشاعر الآن متأججة على الرغم من أنه وافق على إعادة النظر في الموضوع برمته.

على مدار اليوم التالي أو اليومين اللاحقين، اتصل دوتون بمجموعة من معارفه من المحامين ذوي الشأن في واشنطن ليتعرف على رأيهم في هذا الموضوع. وبالطبع لم يكن الموضوع يحتمل الاتصال بمحامين لا يعرفهم جيدًا ليُطلعهم على الأمر. ومن خلال الاتصالات التي أجراها مع هؤلاء المحامين توصل إلى أن «هذا ليس هو الوقت المناسب لتوكيل أحد المحامين مسؤولية الدفاع عن عائلة بن لادن»[٩].

اتصل دوتون بعبد الله وشفيق مرة أخرى وأبلغهما أنه لا يظن أن هناك أي أهمية تُذكر لعقد اجتماعات معهما لاستكشاف الأمور. واقترح بدلًا من ذلك أن ينسحبا من المشهد وأن يتركا الأمور لتأخذ مجراها الطبيعي.

---

(٩) كل الاقتباسات مأخوذة من المصدر السابق.

ونصحهما أيضًا بتجنب التعامل مع أي من المحامين الذين قد يأخذونهم في تيار في غير مصلحتهم ولن يقدموا إليهم يد العون في النهاية؛ إذ إن هؤلاء المحامين سيتولَّوْن الدفاع عنهم لفتًا للأنظار فحسب. وفي الواقع كان دوتون يشعر أن القضية برمتها تفتقر إلى «فرص النجاح»[١٠].

في الأيام التي أعقبت هجمات سبتمبر/أيلول مباشرة، عقد عبد الله وشفيق لقاءً في واشنطن مع السفير الأمريكي السابق في المملكة العربية السعودية تشاز فريمان الذي كان آنذاك على صلة وثيقة ببكر. وبعد انتهاء فترة خدمته الحكومية، تولى فريمان رئاسة مجلس «سياسات الشرق الأوسط» في واشنطن الذي أسهمت فيه عائلة بن لادن ماليًّا على مدار سنوات طويلة، وتفاوض على تنفيذ صفقات عمل في المملكة العربية السعودية وفي غيرها من الدول. وأبلغ الأخوان فريمان أنهما يتلقّيان تهديدات مروعة، وعندما لجآ إلى مكتب التحقيقات الفدرالي تعامل وكلاؤه معهما «باهتمام بالغ وأدب جم في الوقت نفسه»، كما حاول الأخوان مساعدتهم بشتى الطرق بالإجابة عن أسئلة المحققين في المكتب سواء عن تاريخ العائلة ومواقف أسامة وتصرفاته في أثناء هذا التاريخ. ولكن في ظلّ أوضاعهم في أمريكا، كان أبناء بن لادن المقيمون في الولايات المتحدة يشعرون أنهم بالضرورة يتمتعون بحماية المكتب الذي يحمي مصالح المستثمرين[١١].

تحدث عبد الله وشفيق مع فريمان عن مشكلة العلاقات العامة في العائلة. وبعد إعلان أسامة الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، استعانت عائلة بن لادن بصحافي سابق كان يعمل في صحيفة وول ستريت جورنال، ويُدعى تيموثي ميتز، وكان هذا الصحافي قد أنشأ شركة علاقات عامة خاصة به في نيويورك. ولكن ميتز كان مجرد بوابة أو بالأحرى وسيلة للدخول إلى دهاليز الإعلام الأمريكي؛ إذ كان ينقل إليهما الاستفسارات المطروحة من الصحافيين إلى جانب المقالات التي تتناول

---

(١٠) المصدر السابق.

(١١) المعلومات المتعلقة بالاجتماع، وعن قول: «باهتمام بالغ وأدب جم في الوقت نفسه»، كل ذلك يستند إلى المقابلة التي أُجريت مع تشاز فريمان بتاريخ ١٥ يونيو/حزيران عام ٢٠٠٥م.

عائلة بن لادن في الصحافة الأمريكية. ونصح فريمان كلًّا من شفيق وعبد الله بتعيين شخص ما لديه خبرة في مجال إدارة الأزمات تحديدًا. وكان يرى أن مكاتب المحاماة لن توفر المستشارين المثاليين لمثل تلك المواقف. وقال الأخوان إنهما سينظران في الفكرة التي طرحها فريمان، وبدوا شأنهما شأن كثيرين في الأيام التي أعقبت أحداث سبتمبر/ أيلول، في حالة من الصدمة والذهول(١٢).

عندما اصطدمت الطائرة الأولى بمبنى مركز التجارة العالمي، كان يسلم بن لادن يقود سيارته في طريقه إلى مطار جنيف مع أحد أصدقائه. وجاءته مكالمة على هاتفه المحمول من صديق له ـ وكان مصرفيًّا استثماريًّا أمريكيًّا في نيويورك ـ ليبلغه بما حدث. في البداية، ظن يسلم أن الموضوع لا يعدو كونه حادثًا وأن طائرة ضلت طريقها فحدث ما حدث. وقال يسلم لاحقًا إنه أدرك بعد ذلك أنها لم تكن حادثة ولكن لم يخطر بباله حينها إطلاقًا أن أخاه غير الشقيق ربما يكون متورطًا في تلك الأحداث المروعة. واستطرد: «الأمر بدا معقدًا للغاية» وكان يتصور أن إمكانات أسامة لا تصل إلى تمكينه من القيام بهذه الفعلة، وإنه «لم يظن قط» حتى ولو «لوهلة» أن أسامة «بمفرده يمكن أن يكون وراء هذا التخطيط»(١٣).

شق يسلم طريقه إلى أحد الفنادق في جنيف حيثما كانت أمه وشقيقه إبراهيم يقيمان في أثناء زيارتهما. وتابعوا الأخبار وسمعوا اسم أسامة يتردّد في القنوات باعتباره العقل المدبر المشتبه فيه لهذه الهجمات، فتعرضت أمه لحالة من الإعياء الشديد لجسامة الحدث، وعلى إثر ذلك استدعوا لها طبيبًا.

في صباح اليوم التالي، تلقى يسلم اتصالًا من الشرطة الفدرالية السويسرية ليطلبوا منه الحضور لعقد مقابلة معه. كان يسلم مرشحًا في

---

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) أجرى يسلم عددًا من المقابلات المماثلة الذي وصف فيها خبراته ووجهة نظره في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول والفترة التي أعقبتها. راجع على سبيل المثال ما أذاعته قناة *Dateline NBC* بتاريخ ٩ يوليو/ تموز ٢٠٠٤م. وقد اقتُطفت الاقتباسات من مقابلة على هيئة أسئلة وأجوبة أذاعتها قناة *VSB* في جنيف في شهر ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥م، وقد تُرجمت ووُضعت ضمن ملفات تقرير: *Re Terrorist Attacks on September II, 2001*, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570.

وقت سابق للحصول على الجنسية السويسرية، وحينها قابله المحققون السويسريون للتحدث معه بشأن تاريخ العائلة وعلاقته بأسامة. أما في تلك المرة فقد استدعوه ليطرحوا عليه الأسئلة ذاتها ولكن بتفاصيل أكثر. وقال يسلم إن المقابلة استمرت معه ساعات طويلة. وفي اليوم نفسه اتخذ يسلم قرارًا بإصدار بيان مكتوب من جنيف جاء فيه:

«كم صُدمت بسماعي أخبار الهجوم الإجرامي الإرهابي الذي راح ضحيته أناس أبرياء بالأمس... وأود أن أعبر عن مدى أسفي وحزني الشديد لما حدث. فحياة الناس مقدسة وأنا أشجب كل عمليات القتل والهجمات الإرهابية لتنافيها تمامًا مع مبادئ الحرية والقيم الإنسانية. وأجد نفسي عاجزًا عن التعبير عن مشاعري وتعاطفي الشديد تجاه الضحايا من الأبرياء وعائلاتهم والشعب الأمريكي»(١٤).

وكان هذا هو البيان الأول والأكثر تعاطفًا تجاه الضحايا الذي يصدر عن أي فرد في عائلة بن لادن تعليقًا على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. وحمل هذا التصريح بين طياته مسؤولية هذه الهجمات في سياق عام وضمني ـ في عبارة: «فحياة الناس مقدسة وأنا أشجب كل عمليات القتل والهجمات الإرهابية لتنافيها تمامًا مع مبادئ الحرية والقيم الإنسانية» ـ من دون الإشارة إلى أسامة تحديدًا.

سافر يسلم إلى مدينة كان الفرنسية لمقابلة بكر وأخ آخر لهما في العطلة الأسبوعية الأولى بعد وقوع الهجمات. وناقش الإخوة «إمكانية عودة كل أفراد العائلة إلى المملكة العربية السعودية» للم شمل العائلة(١٥).

ويبدو أن رد فعل بكر تجاه الهجمات قد شابه بعض الحذر، فلم يصدر أي تصريح نيابةً عن عائلته ولم يجر أي مقابلات في وسائل الإعلام ولم يبد أي تعقيبات علنية لمدة أسبوع كامل. وفي هذه المرحلة، أصدرت شركة بكر تصريحًا مقتضبًا مكتوبًا نيابة عن عائلة بن لادن، باسم عمه عبد الله الطاعن في السن. وجاء في التصريح «شجب واستنكار شديدان

---

(١٤) المعلومات تستند إلى ما نشرته وكالة الصحافة الفرنسية بتاريخ ١٢ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م.

(١٥) المعلومات تستند إلى ما أذاعته قناة *Dateline NBC* ـ المصدر السابق.

للأحداث المؤسفة التي وقعت وراح ضحيتها مئات الرجال والنساء والأطفال الأبرياء على نحو يتنافى مع العقيدة الإسلامية القويمة».

أما على الجانب الشخصي فقد كان بكر صريحًا وغاية في الوضوح؛ إذ يذكر صبري غنيم ـ مستشار العلاقات العامة الذي كان يعمل لدى العائلة في مصر ـ أن بكرًا قال له ذات مرة: «هذا العمل إجرامي وإن سعت أمريكا إلى الانتقام ممن ارتكب هذا الجرم فهذا حقها لأن انتقامها حينئذ سيكون ثمنًا لأرواح الضحايا الذين لقوا حتفهم في الحادث». ولم يكن ذلك غريبًا على بكر عندما كان يتحدّث عن القاعدة في الجلسات الخاصة، ففي اتصال هاتفي من طيارته النفاثة عقب التفجيرات التي خطط لها تنظيم القاعدة، ذكر بكر لصديق بريطاني أنه يشجب «العرب الدمويين» وإرهابهم الذي يأتي على الأخضر واليابس، ولكنه لم يكن يتفوه بتلك الألفاظ الحادة علنًا(١٦).

مع ذلك أدلى بكر بتصريح عن الحادث ولكن بعد أن أصدرت الحكومة السعودية ما أُطلق عليه لاحقًا «سياستها»، ففي الأيام والأسابيع الأولى التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، شجب الأمراء السعوديون والمتحدثون بأسمائهم أحداث العنف الرهيبة التي رآها الجميع في ذلك اليوم وأعربوا عن تعاطفهم مع الضحايا، وقالوا إن الهجمات تتنافى مع مبادئ الإسلام السمح. ولكن لم تشر التصريحات السعودية بشكل عام إلى أسامة بن لادن أو القاعدة أو الجنسية السعودية التي كان يحملها تسعة عشر شخصًا من خاطفي الطائرات في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. وفي الواقع كان الأمير نايف وزير الداخلية الذي كان على علاقة وثيقة بكل من أسامة وعائلته، كان لا يزال يرفض حتى شهر ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠٠٢م الاعتراف بأن خاطفي الطائرات التي نُفذت بها العمليات سعوديون، بل دأب على ذكر أن أحداث الحادي عشر

---

(١٦) «. . . على نحو يتنافى مع العقيدة الإسلامية القويمة»: مقتطف من صحيفة «غارديان» بلندن بتاريخ ٢١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م. «وإن سعت أمريكا إلى الانتقام ممن ارتكب هذا الجرم»: مقتطف من المقابلة التي أُجريت مع صبري غنيم بتاريخ ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٥م (روبين شالمان). «العرب الدمويين»: كان المؤلف موجودًا في أثناء المحادثة التي قيل فيها ذلك؛ وقد كرر الشخص الذي تلقى المكالمة الهاتفية الكلام نفسه بعد إنهاء المكالمة.

من سبتمبر/أيلول مؤامرة صهيونية لُفقت لتشويه سمعة المسلمين، ومن ثَم صُدم كثير من الأمريكيين لدى سماعهم التعليقات التي ذكرها نايف، وبالطبع كانت آراؤه عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ـ ومعتقداته عن الصهاينة واليهود ـ شائعة بين كثيرين من مواطني المملكة. ولكن لم يسبق للأمريكيين في ما سبق سماع مثل هذه الآراء، ومما لا شك فيه أن ذلك لم يكن الوقت الأمثل لسماع مثل تلك الآراء في لحظة تحوّل تاريخية تشوبها الصدمة والحزن الذي اجتاح أرجاء الولايات المتحدة. شقت تصريحات نايف طريقها في الأوساط السياسية والإعلامية كأنها غاز سام أو نار انتشر في الهشيم.

مما لا شك فيه أنه كان هناك من احتفل من السعوديين بوقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. وزعم سعد الفقيه، المعارض الذي كان يعيش في المنفى، أن الرسائل النصية على الهواتف المحمولة قد انتشرت في جميع أنحاء المملكة بعبارات التهنئة «تهانينا!» أو «أطال الله عمر بن لادن!» وأن الناس قد ذبحوا النعاج والجمال وقدموها في ولائم احتفالية. ولم يكن الفقيه في المملكة حينها، ولكنّ آخرين ممن كانوا هناك صرحوا أن هذا الاحتفال كان جزءًا من رد الفعل الأول لدى عامة الناس. وإن كانت مصداقية الفقيه غير مؤكدة ـ فهو لم يكن في المملكة آنذاك ـ إلا أن الآخرين الذين كانوا هناك أقروا بأن الاحتفالات كانت على الأقل من بين عناصر رد الفعل العام المبدئي. واختلطت هذه الفرحة بخوف من الانتقام من العرب والمسلمين، ناهيك بالشعور بالدهشة بسبب كيفية تنفيذ هذه المؤامرة الجسورة على يد فريق غير محترف من العناصر البشرية المتمركزة في أفغانستان، وقد اعتبر عنصر استبعاد وقوع الهجمات على النحو الذي جرت به دليلًا عمليًّا على التورط الصهيوني فيها. وفي خضم ردود الأفعال هذه، برز شعور بأن تلك الهجمات ما هي إلا رد فعل مباشر للظلم الواقع على العرب من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وقد شجع على هذا الشعور ودعمه كثير من العرب، حتى وإن كان معظمهم ليس له علاقة من قريب أو بعيد بأي من الدولتين. وقد ساند الإعلام العربي والحكومات العربية هذا الاتجاه جزئيًّا في محاولة منها لتحويل مسار الغضب عنها على المستوى المحلي. وقد

تسببت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول في توسيع نطاق تلك الانطباعات على الأقل بصورة مؤقتة.

لخص باسم عالم المحامي الذي كان يقيم في جدة وكان على صلة مصاهرة بعائلة بن لادن، الموقف السعودي بصفة عامة قائلًا: «حتى وإن كنت لا أستطيع أن أسامح أسامة عما فعله فإنني لن أصرخ باكيًا على القلوب المنكسرة للأمهات والبنات والآباء الأمريكيين. . . فربما يمكن اعتبار ما فعله جريمة ولكنها عدالة الله، وتلك هي إرادة الله في مساعدتنا. فأحيانًا ما يقتل أحد المجرمين مجرمًا آخر وتلك هي مشيئة الله في تنفيذ عدالته على وجه الأرض». واستطرد عالم قائلًا إنه حضر بعد الهجمات التي وقعت في نيويورك وواشنطن «كثيرًا من المناسبات والأحداث الاجتماعية» في جدة «ومع أناس من مختلف الطبقات الاجتماعية ومختلف التيارات المعيشية سواء أكانوا ليبراليين أم متدينين، وكان بوسع أي إنسان إدراك الفكرة السائدة بينهم، وهي أن «أسامة شوّه صورتنا. . . ولكنّ الأمريكيين يستحقون ما حل بهم»»(١٧).

كان خليل بن لادن يقضي إجازته في ديزرت بير التي تقع خارج أورلاندو في صباح اليوم الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وقد شاهد هو وغيره من أفراد عائلته الهجمات في الأخبار المصورة تلفزيونيًا. وبعدها تلقّى خليل اتصالًا من وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي، وهو في ضيعته في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر/ أيلول، وقالوا له إن مكتب التحقيقات الفدرالي المحلي تلقى تقارير يبدو أنها من جيرانه في ديزرت بير تفيد بحدوث «أنشطة كثيرة» في ضيعته. أنكر خليل الادعاء وقال إنه لم يحدث أي شيء مبالغ فيه في منزله. وأضاف أن اهتمامه الأول والأخير هو «أمان عائلته»، ومن ثَم سأل الوكيل بشأن دراية مكتب التحقيقات الفدرالي بتعرضهم لتهديدات. ولكنّ وكيل المكتب أبلغ خليلًا بأن يتصل بعمدة مقاطعة أورانج إن وجهت إليه أو إلى عائلته أي تهديدات(١٨).

---

(١٧) الاقتباس مقتطف من المقابلة التي أُجريت مع باسم عالم بتاريخ ٢١ فبراير/ شباط ٢٠٠٥م.

(١٨) المعلومات ورادة في وثائق مكتب التحقيقات الفدرالي التي نشرتها منظمة الرقابة القضائية ـ المصدر السابق.

اتصل خليل بوكيل مكتب التحقيقات الفدرالي بعد ثلاثة أيام وسأله إن كان بإمكانه السفر في رحلة تجارية هو وعائلته إلى واشنطن العاصمة، حتى يصلوا إلى الطائرة الخاصة التي رتبت السفارة السعودية أمر استئجارها ليعودوا أدراجهم إلى المملكة العربية السعودية. انتقل وكلاء تابعون لمكتب التحقيقات الفدرالي إلى ديزرت بير لمناقشة الأمر وفي النهاية سلكت الطائرة المستأجرة طريقها عبر أورلاندو.

في اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر/ أيلول، وبينما كانت الطائرة التي تحمل على متنها كلًّا من نجية وجيسون بلوم تتجه نحو أورلاندو قادمةً من لوس أنجلوس، رافق وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي خليلًا وعائلته ـ المتمثّلة في زوجته إيزابيل وابنهما سلطان ـ إلى مطار أورلاندو الدولي. وتحدث وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي مع الركاب الصاعدين على متن الطائرة وفتشوا حقائبهم.

تجول خليل سيرًا على الأقدام حتى مدرج المطار وقابل في طريقه جيسون بلوم وعلم بشأن تمرد طاقم الطائرة المستأجرة.

وفي أثناء انتظارهم، ذكر خليل أنه وعائلته بدأت تصلهم رسائل تهديد بالقتل في ديزرت بير، وكانت السيارات التي تمر بالضيعة تسير ببطء شديد أمامها ثم تمضي مسرعة[١٩].

نفدت بطارية الهاتف الخلوي عندما كان بلوم يتحدّث مع بوب بيرنشتن المسؤول التنفيذي في شركة ريان للطيران بشأن رحلة الطائرة المستأجرة وهما يحاولان التوصل إلى تسوية طلبات طاقمها المتمثلة في الحصول على المزيد من الأموال. ومزح كل من بلوم وبيرنشتن على الهاتف قائلين إنهما يهوديان يحاولان إخراج عائلة بن لادن من الولايات المتحدة، وقال بلوم إنهما في نهاية المطاف توصلا إلى حل للمشكلة المالية عن طريق تنفيذ طلبات طاقم الطائرة في المقام الأول[٢٠].

صعد الطيار ومساعدته على متن الطائرة، وجلست عائلة بن لادن على

---

(١٩) المعلومات تستند إلى المقابلة التي أُجريت مع بلوم ـ المصدر السابق.

(٢٠) المصدر السابق.

المقاعد المخصصة لها وأقلعت الطائرة متجهة إلى مطار دالاس الدولي في واشنطن. وفي صالة وصول خاصة قابلوا شفيق بن لادن ومديره التنفيذي المالي الذي كان يقيم في لندن ويُدعى أكبر مُوَلّى، وكان هذا الشخص هو من رافق شفيق إلى الولايات المتحدة الأمريكية لحضور اجتماع شركة كارلايل غروب في اليوم الحادي عشر من سبتمبر/أيلول.

انضم عمر عوض بن لادن إلى الطائرة أيضًا لدى توقفها بواشنطن. وكان يقيم في ما يبدو مع عبد الله بن لادن الذي كان يدير المكتب المحلي لجمعية «الندوة العالمية للشباب الإسلامي». (وكان أمر هذا المكتب في ما سبق من الموضوعات المطروحة للنقاش والاستفسارات لدى مكتب التحقيقات الفدرالي، إلا أن هذه التحقيقات قد توقفت جزئيًّا بسبب الحصانة الدبلوماسية.) ومن بين كل الركاب الذين استقلوا هذه الطائرة التي حملت عائلة بن لادن، كان عمر هو الشخص الوحيد المعروفة صلته المحتملة بالخطابة أو التنظيمات الإسلامية. ومع ذلك كان عمر أحد الركاب القلائل على هذه الرحلة الذين لم يجر معهم وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي أي مقابلة، وهو أمر مثير للدهشة بكل تأكيد[٢١].

مع تزايد أعداد آل بن لادن على متن طائرة البوينغ ٧٢٧ مع كل توقف لها في مطار مختلف، تزايد الشعور داخل مقصورة الركاب بلم شمل العائلة، على حدّ وصف بلوم. فلم يكن بعض أفراد العائلة قد رأوا بعضهم منذ فترة طويلة، وصافح أحدهم الآخر بشوق شديد، بينما بكى آخرون وبدا عليهم الحزن الشديد. وذهب بعضهم عند البار يحتسون الشاي أو المشروبات غير الكحولية. وكان الجميع يدخنون السجائر بعصبية وامتلأت مقصورة الركاب بدخان السجائر المتصاعد[٢٢].

عندما حلقت الطائرة في السماء في رحلتها الأخيرة خارج المجال

---

(٢١) ساهمت التعديلات التي أُدخلت على وثائق مكتب التحقيق الفدرالي والتي نشرتها منظمة الرقابة القضائية في تصعيب عملية التأكد من هوية المسافر من واشنطن والذي أُجريت معه المقابلة. وقد كان هناك خمسة مسافرين فقط من واشنطن، وكان شفيق وأكبر مُولّى اللذان أُجريت معهما المقابلة من بين هؤلاء الخمسة، وكان عمر ثالثهما وكان يبلغ من العمر حينئذ ٣١ عامًا، أما الآخران، فكانا من الزملاء منذ أيام الدراسة الجامعية.

(٢٢) المعلومات تستند إلى المقابلات التي أُجريت مع بلوم وباسيتّا ـ المرجع السابق.

الجوي الأمريكي، ساد شعور بين أفراد العائلة بأن اسم بن لادن في طريقه إلى الاختفاء من الولايات المتحدة إلى الأبد أو على الأقل لفترة طويلة جدًّا. تحدث خليل ونجية مع بلوم عن كيفية تغيير اسميهما إن عادا إلى أمريكا في يوم من الأيام.

وفي بوسطن صعد بعض الطلاب الجامعيين من الجيل الثالث في العائلة على متن الطائرة، كان من بينهم نواف الابن الأكبر لبكر وسلمان ابن سالم الذي كان يدرس في جامعة تافتس، وفي نهاية الأمر تجمع قرابة عشرة أبناء من عائلة بن لادن على متن الطائرة في بوسطن، وبدا كثير منهم كأنهم يحملون الجنسية الأمريكية. وذكر أحد هؤلاء الطلاب من العائلة أنه كان في بداية عامه الثاني في الكلية وتمكّن أخيرًا من الحصول على بطاقة هوية مزوّرة حتى يستطيع الخروج والذهاب إلى النوادي والحانات مع أصدقائه، وأخبر بلوم متحسرًا أن ذلك لن يفيد لدى عودته إلى المملكة العربية السعودية[٢٣].

أجرى وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي جولة أخيرة من التحقيقات على الطائرة في مطار لوغان الدولي في بوسطن وتفقدوا الحقائب وتحدثوا مع الركاب، وكان الطيار ومساعدته قد غادرا الطائرة وصعد إليها طاقم جديد. وكان من المفترض أن يترك بلوم الطائرة في بوسطن أيضًا، إلا أن نجية وخليلًا طلبا منه أن يظل معهما إلى باريس ووافق على ذلك. وأخيرًا أقلعت الطائرة وغادرت المجال الجوي الأمريكي. ولأن المسافة القصوى التي تستطيع طائرة البوينغ ٧٢٧ قطعها من دون الحاجة إلى التزود بالوقود محدودة، كان من المقرر أن يتزودوا بالوقود في مقاطعة نوفا سكوشيا ومرة أخرى في آيسلاند في كندا قبل أن يصلوا إلى فرنسا. ولكن حينذاك ستكون أمريكا قد أدارت ظهرها إليهم.

تحدث الشباب من عائلة بن لادن مع بلوم وتبادلوا معه السجائر، وكان بصحبتهم أيضًا حارس أمن ثان لحق بهم في بوسطن ويُدعى ريك باسيتا، وشأنه شأن بلوم، كان ريك باسيتا خبيرًا في الفنون القتالية. وكان

---

(٢٣) المصدر السابق.

على متن الطائرة أيضًا ضابطا أمن خاص آخران انضما إلى الحضور. وألقى طفلان من عائلة بن لادن أسئلة على الرجلين عن العمل في الشرطة، بينما قال الطلاب الجامعيون على متن الطائرة إنهم غضبوا غضبًا عارمًا بسبب مقتل كثيرين من رجال الشرطة ورجال المطافئ في نيويورك وهم يحاولون إنقاذ الآخرين من الموت المحقق. ويتذكر بلوم قائلًا: «كنت أوضح لهم أن هذه هي طبيعة عملنا، وكأننا مصابون بخلل عقلي بدلًا من أن نهرب من الكوارث نسعى وراءها»[٢٤].

وفي بوسطن أيضًا، صعدت على متن الطائرة سناء بنت بن لادن وهي أخت غير شقيقة لأسامة وقضت معظم حياتها في نيو إنغلاند. وكانت سناء تعمل في معارض الأطفال الثقافية في بوسطن، وكانت آنذاك في زهاء الأربعين عامًا، وكانت من بين كثيرات من أمهات عائلة بن لادن الموجودات على الطائرة. لاحظ بلوم أن السيدات الطاعنات في السن يرتدين ملابس أكثر محافظة، مع ارتداء الحجاب أو ما يشبهه. والأكثر إثارة للدهشة أنه مع اقتراب الرحلة من باريس أخذت سيدات العائلة ـ صغيرات أو كبيرات ـ استعداداتهن لارتداء العباءات السوداء، سواءٌ أكن يرتدين في الأساس ملابس غربية أنيقة أم لا. وعلم بلوم أنهم سينتقلون في باريس إلى طائرة أخرى تابعة للحكومة السعودية في المرحلة الأخيرة من رحلة العودة إلى الوطن. وعندما يستقلون تلك الطائرة، سيدخلون أجواء المملكة العربية السعودية سريعًا، ولذا انتظرت بعض النساء فترة طويلة في الطائرة الأولى، حتى بعد عبور المحيط الأطلنطي، لتغيير ملابسهنّ للظهور على الطائرة السعودية على نحو لائق.

ظل أحد أفراد عائلة بن لادن في أمريكا ولم يغادر أراضيها، وهو عبد الله الذي كان يقيم في بوسطن وكان يدرس في كلية هارفارد للحقوق لفترة طويلة. وكان في قرابة الخامسة والثلاثين من عمره وقضى معظم أيام شبابه في الولايات المتحدة الأمريكية ومن ثَم كان يعتقد أن المجتمع الأمريكي يتميز بقدر كبير من المرونة والتسامح. وبعد وقوع الهجمات قال لأبناء وبنات إخوته وأخواته ممن أُجبروا على ترك دراستهم الجامعية في

---

(٢٤) المصدر السابق.

بوسطن: «صدقوني إذا تفهّم أي مجتمع الظروف التي تمرون بها ويستطيع التمييز بين الخير والشر، فإن هذا المجتمع لن يخرج عن حدود أمريكا». ولاحقًا قال لأحد الصحفيين: «على الرغم من أنني أقيم هنا واتُّهم أحد أفراد عائلتي بالهجمات التي وقعت، فإنني لا أزال أشعر بالطمأنينة في معاملتي كإنسان». وفي الأسابيع التي أعقبت رحلة الابتعاد عن أمريكا، أخذ عبد الله يسافر متنقلًا بين بوسطن ونيويورك وواشنطن ولندن بحثًا عن استراتيجية علاقات عامة يمكن عن طريقها إنقاذ ما يمكن إنقاذه ممّا تبقى من أسهمهم في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا[٢٥].

اتصل عبد الله بستيفن غولدشتاين الذي تبين أنه يهودي وكان يعمل خبيرًا استراتيجيًا في مجال الاتصالات في نيويورك، وتقابلا في أحد المقاهي في نيويورك سيتي. ولم يكن لأي أحد في عائلة بن لادن سابقة تعامل مع شركاته، ويتذكر غولدشتاين أن عبد الله قال له إن العائلة تبحث عن طريقة تثبت بها أنها سبق أن شجبت تصرفات أسامة[٢٦].

أضاف عبد الله أيضًا أنه لم يكن يعرف المكان الذي يختبئ فيه أخوه أسامة غير الشقيق. وسأله غولدشتاين عما إذا كانت تصرفات أسامة دائمًا «جنونية»، ورد عليه عبد الله بأنه على الرغم من أن أسامة لم يحب أمريكا قط فإن سبب ما حدث هو شيء ما حدث في منتصف التسعينيات جعله يغضب منها ويكن لها هذه الكمية من الكراهية.

قال عبد الله إنه كان يعتبر ديانة غولدشتاين اليهودي من «الإيجابيات». كما إنه سأله ـ وفقًا لما ذكره غولدشتاين نفسه ـ «هل تعرف أي محامين يهود؟» فغضب غولدشتاين لكنه حاول التزام الهدوء. أثبت هذا السؤال أن احتمالية تفضيل عبد الله للوكلاء اليهود تعدّ إساءة واضحة. وفي أفضل الظروف لا يمكن النظر إلى أسلوب عبد الله في التعامل مع هذا الأمر إلا أنه ساذج، ومحاولة لم يراع فيها شعور الآخرين لإيجاد علاقة تربط بين

---

(٢٥) الاقتباس مقتطف ممّا نشرته الصحيفة الأمريكية **بوستن غلوب** ***Boston Globe*** بتاريخ ٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١م.

(٢٦) المعلومات تستند إلى ما نشرته صحيفة **ذا ريكورد** (في مقاطعة بيرغن في ولاية نيو جيرسي) بتاريخ ٢٧ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م.

عائلة بن لادن والمجتمع الأمريكي القابل للتنوع وكذلك القيم الأمريكية. وربما كان عبد الله يضمر أفكارًا مبيتة في رأسه؛ أن اليهود دومًا متاحين وقت الحاجة إذا ما عُرض عليهم الأجر المناسب، أو أن بإمكانه إخراج قواهم الخفية المزعومة في أمريكا لمساعدة عائلته. وعلى أي حال خيب غولدشتاين ظن عبد الله ولم يوافق على ما طلبه منه[٢٧].

خلال الشهرين اللذين أعقبا هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، أجرى أسامة بن لادن في أفغانستان حديثين مطولين كان فيهما قدر كبير من التأمل مع من يزورونه من أناس يشعرون بالتعاطف مع قضيته، وقد سُجل الحديثان على الرغم من عدم إذاعة أي منهما في حينه.

تشير النسخ الكاملة للحديثين إلى أن أسامة قضى ساعات طوال بعد الهجمات يتابع القنوات التلفزيونية ويشاهد التقارير الإخبارية شأنه شأن أعدائه في أمريكا، ويشاهد التعليقات المتواترة على الحادث. ويبدو أن أسامة شعر بنوع من الإثارة والغضب تحديدًا لدى سماعه الأسلوب الذي تحدث به الرئيس جورج بوش وموقفه تجاه الأزمة. ومن الواضح أن كل ذلك اختلط بحساسيته تجاه الاتهام الموجه إليه والذي أُذيع مرارًا وتكرارًا في المحطات الإخبارية الأمريكية والعربية بأن أسامة ألحق بنفسه الخزي ولوث سمعته؛ حيث إنه تسبب في موت كثير من الأبرياء بصرف النظر عن المكانة التي وصلت إليها القاعدة بسبب اضطهادها سياسيًّا.

في اليوم العشرين من شهر أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠١م، جلس أسامة مع الصحافي سوري الأصل إسباني الجنسية الذي يعمل في قناة الجزيرة تيسير علوني ووافق على إجراء مقابلة معه. وفي الجزء الأول من المقابلة، كان أسامة يتصرف بأسلوبه المعتاد وبدأ يتحدّث بطريقته المعهودة قائلًا: إن أمريكا على الرغم من قوتها الظاهرية فإنها بلا قيمة، وسينهار اقتصادها ونظامها السياسي أمام الجهاد الذي لا يلين مثلما حدث مع الاتحاد السوفياتي. وذكر سريعًا سلسلة من الحسابات المعتمدة على أرقام مستقاة من خسائر بورصة وول ستريت بعد أحداث الحادي عشر من

---

(٢٧) كل الاقتباسات مأخوذة من المصدر السابق.

سبتمبر/ أيلول. وبدا كما لو كان يجلس منذ فترة وجيزة أمام التلفاز أو الكمبيوتر ويدون سريعًا التقديرات الرقمية والغضب يقتله:

فحسب اعترافاتهم هم، إن نسبة الخسارة في سوق وول ستريت بلغت ١٦ في المئة، وقالوا إن هذا رقم قياسي لم يحدث من قبل قط... رأس المال المتداول في هذه السوق يبلغ أربعة تريليون دولار، فإذا ضربنا ستة عشر في المئة في أربعة تريليون دولار حتى نعلم حجم الخسارة التي أصابت أسهمهم تبلغ ٦٤٠ مليار دولار بفضل الله سبحانه وتعالى، وهذا الرقم يساوي ميزانية السودان مثلًا لمدة ٦٤٠ عامًا... الدخل القومي الأمريكي اليومي هو ٢٠ مليار دولار وهم في الأسبوع الأول لم يشتغلوا شيئًا قط نتيجة الصدمة النفسية، هم إلى هذا اليوم لا يذهبون إلى العمل من هول الصدمة. فلو ضربت ٢٠ مليار في أسبوع تصل إلى ١٤٠ مليار، وهي أكثر من ذلك، وتضيفها إلى ٦٤٠ (مليار) ـ نكون وصلنا كم؟ اقتربنا من ٨٠٠ (مليار) تقريبًا...[٢٨].

استطرد أسامة في حديثه متنقلًا بين الحسابات والبلاغة الشعرية، ثم أخذت المقابلة منعطفًا مذهلًا:

تيسير علوني: «وماذا عن قتل المدنيين الأبرياء؟».

أسامة بن لادن: «قتل المدنيين الأبرياء كما تزعم أمريكا ويزعم بعض المثقفين، كلام عجيب جدًّا، يعني من الذي قال إن أبناءنا والمدنيين عندنا غير أبرياء ودمهم مباح؟ ولو بدرجة ما؟ وإذا قتلنا المدنيين عندهم صاحت الدنيا علينا من مشرقها إلى مغربها وألبت أمريكا حلفاءها وعملاءها وصبيان عملائها... ولكن طبيعة البشر يميلون مع القوي من حيث لا يشعرون، فهم إذا تكلموا علينا يعلمون أننا لا نرد عليهم...».

تيسير علوني: إذًا أنتم تقولون هذا من باب المعاملة بالمثل، يقتلون أبرياءنا فنقتل أبرياءهم؟

أسامة بن لادن: ونقتل أبرياءهم ويكون جائزًا شرعًا وجائزًا عقلًا لأن

(٢٨) المعلومات تستند إلى: Lawrence (ed.), *Messages to the World*, pp. 111- 12.

الذين تكلموا في هذا الأمر بعضهم تكلم من منطلق شرعي. . . (قالوا) إنه لا يجوز، وذكروا دليلًا، أن الرسول منع قتل الأطفال والنساء، وهذا صحيح ثابت عن النبي محمد.

تيسير علوني: هذا ما نسأل عنه بالضبط! هذا نتساءل عنه بالضبط!

أسامة بن لادن: ولكن هذا النهي عن قتل الأطفال الأبرياء ليس مطلقًا، وهناك نصوص أخرى تقيده».

حينئذٍ بدأ أسامة يذكر تبريرًا مختلفًا ومتناقضًا في ما يبدو مع حجته؛ إذ دافع عن نفسه بقوله إنه لم يكن في نيته قتل الناس الذين يجب تصنيفهم أبرياءً:

أسامة: إن هؤلاء الشباب الذين فتح الله عليهم لم يتعمدوا قتل الأطفال، وإنما ضربوا أكبر مركز للقوة العسكرية في العالم ـ البنتاغون الذي يضم أكثر من أربعة وستين ألف موظف ـ وهو مكان عسكري ومركز فيه القوة والخبرة العسكرية.

علوني: وماذا عن برجي مركز التجارة العالمي؟

أسامة: برجا مركز التجارة العالمي؛ الذين ضُربوا فيها وقتلوا فيها هم قوة اقتصادية وليسوا مدرسة أطفال وليس سكنًا، الأصل، إن من هم في هذه المراكز رجال، يدعمون أكبر قوة اقتصادية في العالم تعيث في الأرض فسادًا. فهؤلاء لا بد أن يقفوا وقفة لله سبحانه وتعالى ويعيدوا الحسابات، لا بد أن يعيدوا هذه الحسابات».

ومن ثَم عاد أسامة على الفور إلى حجته الأولى؛ حتى وإن كانوا أبرياء فإن هجماته كانت مبررة استنادًا إلى أن الجزاء من جنس العمل: «فنحن نعامل بالمثل؛ الذين يقتلون نساءنا ورعايانا نقتل نساءهم ورعاياهم إلى أن يكفوا عن ذلك». وتلك الإجابات والمراوغات إنما تصدر عن رجلٍ لم يتوقع توجيه أي انتقاد إليه أو مساءلة بخصوص هذا الأمر.

بعد ذلك بقليل، بدأ أسامة في تقييم استخدام بوش غير الحكيم لكلمة «الحرب الصليبية» للإشارة إلى رد فعل أمريكا تجاه أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وقال أسامة: «وقد صرح بوش بلسانه «الحرب

الصليبية»، والغريب في الأمر أنها بالفعل كلمة معبرة عما يجيش في صدورنا... وعندما يقول بوش ذلك، يلتمسون له الأعذار ويقولون إنه لم يقصد الكلمة بمعناها الحرفي، مع أنه قال على الملأ إنها حرب صليبية، فالعالم اليوم منقسم إلى قسمين، وقد أصاب بوش عندما قال: «إما معنا أو مع الإرهاب»، أي إما مع الصليبية أو مع الإسلام، وبهذه الكلمات نصب بوش نفسه ليحمل الصليب الضخم ويسير في مقدمة الصفوف»[٢٩].

في هذا اللقاء اتّسم حديث أسامة بشيء مذهل وواقعي في الوقت نفسه؛ ربما كان هذا الشيء عدم استعانة أسامة بالأبيات الشعرية مستعصية الفهم عليه هو نفسه وعدم تحدثه بمفردات عفا عليها الزمن أو استشهاده بالآيات القرآنية أو الإشارة إلى أي من الخرائط القديمة. وكان أسامة أشبه في ذلك الحديث بالخبير الإعلامي المثقف المطّلع على كل ما هو جديد وبالمحلل السياسي الهاوي الذي يدافع عن العنف الذي يرى أن له ما يبرره بالجدل المباشر، كما لو كان ضيفًا في حلقة أحد المساجد أو في أحد البرامج التلفزيونية الذي يتناول الأحداث الجارية.

استطرد أسامة في حديثه مع علوني متحدثًا بسلاسة باللغة العامية التي يتحدّث بها الوعاظ. وسريعًا ما كان أسامة يتحول ل يتحدّث بلسان من يسرد أحلامه ويستشهد بالآيات القرآنية الصعبة ويعبر عن اقتناعه بأنه وأتباعه يخوضون حربًا مقدرة لن يخمد أوارها حتى تقع الواقعة؛ فهي ليست حربًا لتحقيق أي غاية سياسية بل لتحقيق إرادة الله في الأرض، ومن ثَم أعلن أن أعداء دين الله لن ينعموا بالسلام على وجه البسيطة.

سأله علوني: «ما هو تعليقكم على ما يقوله صموئيل هنتنغتون وأمثاله من حتمية صراع الحضارات؟ ترديدكم الدائم لكلمة الصليبية والصليبيين يشير إلى أن أنكم تؤيدون هذه المقولة بحتمية صراع الحضارات؟»

أسامة: «أقول لا شك في ذلك، فهذا أمر واضح مثبت في الكتاب والسنة... ولكن اليهود وأمريكا جاؤوا بخرافة يروجونها على عامة المسلمين، وتبعهم للأسف حكام المنطقة وكثير من المقربين إليهم ممَن

(٢٩) المصدر السابق من ص ١١٧ إلى ص ١٢٢.

يستخدمون عبارة السلام العالمي ولا يدركون الغرض من استخدامها، هذه الخرافة لا أساس لها بتاتًا».

علوني: «السلام؟»

أسامة: «السلام الذين يدعونه هدفه تخدير الشعوب المسلمة حتى تذبح وتُجتث من أراضيها... من زعم أن هناك سلامًا دائمًا مع اليهود فهو قد كفر بما أنزل على محمد، فالصراع بيننا وبين أعداء الإسلام قائم وإلى قيام الساعة؟»[٣٠].

بعد هذه المقابلة بعدة أسابيع وصل عالم دين سعودي يُسمّى علي الغامدي إلى أفغانستان التي كانت من ضمن الجولة التي شملت بلادًا أخرى، وبالقرب من قندهار سنحت له الفرصة لإجراء مقابلة مع أسامة. ويتضمن نص المقابلة غير الرسمية التي دارت بينهما كثيرًا من التعليقات المضحكة خاصة عندما كان الغامدي يحاول تملّق أسامة بشكل أخرق، بقوله: «لا نريد أن نضيع وقتك الثمين... إن الجميع يثني على ما فعلت... ذلك العمل العظيم الذي أنجزته... كان المئات من الناس مرتابين بشأن ما تفعله ولم ينضو تحت لوائك إلا القليل حتى شاهدوا هذا الحدث العظيم على أرض الواقع، والآن أرى المئات يسعون للانضمام إليك».

أوضح أسامة في هذه المقابلة أن عملية الطائرات فاقت كل توقعاته، وأشار إلى خبرته العملية السابقة في مجال الهندسة المدنية وأعمال الهدم قائلًا: «أجرينا حساباتنا قبل الأحداث وعلمنا أن علينا تدمير من ثلاثة إلى أربعة طوابق. وكنت الأكثر تفاؤلًا من بين مجموعة المجاهدين... ويرجع ذلك لخبرتي في هذا المجال. وأدركت أن النيران المتصاعدة من اشتعال وقود الطائرة ستذيب الهيكل الحديدي للمبنى ومن ثَم ينهار الجزء الذي تضربه الطائرة، والطوابق التي تعلوها فحسب. هذا كان غاية أمانينا في الحقيقة». وقال أسامة إنه سعد واندهش في آن واحد عندما انهار المبنيان تمامًا.

(٣٠) المصدر السابق من ص ١٢٤ إلى ص ١٢٥.

قال الغامدي متملقًا أسامة: «أقسم بالله إن هذا لعمل عظيم»[٣١].

ضاعفت شعبية أسامة المفاجئة بين أطياف الشعب السعودي من تعقيد موقف عائلة بن لادن: فهل ألحقوا العار بالمملكة وشوهوا سمعتها؟ أم أخرجوا إلى النور بطلًا عربيًّا شعبيًّا جديدًا؟ فالأمر لم يتطلب أي خبرة احترافية في مجال العلاقات العامة لتحديد ملامح هذه الورطة بل كان شديد الوضوح، وذلك على الرغم من بحث عائلة بن لادن الدؤوب عن استراتيجية قانونية وأخرى في مجال العلاقات العامة. ولإرضاء الشعب الأمريكي، كانت عائلة بن لادن مضطرة إلى طلب العفو والسماح وشجب أسامة. ولإرضاء العالم العربي من ناحية أخرى ـ ذلك الجانب الذي تتركز فيه اهتمامات العائلة المادية ـ كانت أي كلمة تعبر عن الاستهجان أو الإدانة ستعد جبنًا.

وربما لم يكن واقعيًّا أن يتوقع أحد أن عبد الله سيتمكن ـ من خلال إقامته في بوسطن بشخصيته غير واثقة الخطى ومكانته الضئيلة في العائلة ـ من التعامل مع هذه الأمور بمفرده من دون مساعدة من أحد.

في إحدى ليالي ذلك الخريف، تناول عبد الله عشاءه مع أندرو هيس في مطعم «هيلماند» الذي كانت تديره عائلة كرزاي التي كانت ستستعيد عما قريب زمام الأمور في أفغانستان ليحل محل أسامة هناك. وكان هيس يعمل أستاذًا في جامعة تافتس وقد دعمت عائلة بن لادن برنامجه الأكاديمي خلال التسعينيات. ونظرًا إلى الفترة الطويلة التي قضاها في المملكة العربية السعودية، توصل هيس إلى فكرة مفادها أن «هناك موقفًا بعينه يتخذه العرب دائمًا في حالة التعرض لأي مأساة» وأن ما يفعله عبد الله بن لادن ما هو إلا انعكاس لهذا الموقف، وهو ما كان هيس يعتبره قدرًا حتميًّا لا مفر منه من منظور عبد الله: فماذا بوسع المرء أن يفعل حيال الأقدار؟

قال هيس: «كان عبد الله يظن أن ما حدث مأساة عظيمة حلت بعائلته». وكلف عبد الله نفسه عناء إقناعه بأن عائلة بن لادن كانت «شديدة العدائية» تجاه ما فعله أسامة وأن ليس لديها «أية مصلحة في دعم

---

(٣١) المعلومات تستند إلى: Hamud (ed.), *Osama Bin Laden*, pp. 75-79.

أنشطته... وأنه لا يحصل على أي أموال من الشركة». وأكد عبد الله النقطة الأخيرة أكثر من مرة[٣٢].

في شهر ديسمبر/كانون الأول وافق عبد الله على عقد لقاء مع الصحافية شارلوت إدواردز في صحيفة «ديلي تلغراف» بعد أن سافر إلى لندن. وكان بكر قد أعطاه تصورًا مؤقتًا لمحاولة تحسين صورة العائلة من جانبه عن طريق اللقاءات التي كانت تُجرى بين الحين والآخر مع وسائل الإعلام. ولاحظت إدواردز أن عبد الله شخصية مرهفة الحس وقالت إنه كان «طويل القامة ولا يبدو أنه غريب تمامًا عن أهل البلاد وكان يرتدي معطفًا باهظ الثمن»، وكان يبدو عليه القلق بشأن كثير من الموضوعات الحساسة، وكان يمشي مكتئبًا في شوارع حي مايفير غير واع بزحام من حوله من المارة. ونادرًا ما كان عبد الله يتحدّث عن أسامة أمامها مكتفيًا بالإشارة إليه بلفظ «السيد أ»[٣٣]..

تحدث عبد الله مع إدواردز عن حياته الجديدة في أمريكا وبريطانيا، وقال إنه كان ينفق أموالًا باهظة لتجنب تلك اللحظة السخيفة التي يحملق فيها البائع إلى الحروف البارزة لاسم بن لادن على بطاقته الائتمانية. وقال إنه لم يعد يتنزه في بوسطن أو يقود الطائرات الخاصة. وقال إن الطيران «هواية فريدة من نوعها ومتعة لا تضاهيها متعة، فأنا أشعر بالحرية عندما أكون محلقًا بالطائرة في السماء» وعلى الرغم من حوادث الطيران المؤسفة في العائلة، لم يتمكن أي منهم من التخلي عن تلك الهواية. ومع ذلك كان عبد الله يدرك «أنه سيكون من العار عليه قيادة أي طائرة في سماء أمريكا بعد الآن».

وخلال إحدى المقابلات المتعددة التي عُقدت بين عبد الله وإدواردز، جلس عبد الله مع الصحافية في فندق «فور سيزونز» في مقاطعة نايتس بريدج. ودفع عبد الله مقابل طلب ماء «إيفيان» المعدني بعدما أخرج من

---

(٣٢) المعلومات تستند إلى المقابلة التي أُجريت مع أندرو هيس في ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٥م (روبين شالمان).

(٣٣) المعلومات تستند إلى ما نشرته صحيفة **صنداي تلغراف** بلندن بتاريخ ١٦ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.

محفظته أموالًا طائلة ودفع منها خمسين جنيهًا (وكان عبد الله صائمًا خلال المقابلة التي جرت في شهر رمضان). وبينما كانا يستعدان لمغادرة الفندق لتناول الطعام، طلب عبد الله من النادل أن يحجز له طاولة في مطعم «نوبو» الذي كان أفخم المطاعم في لندن آنذاك.

رد عليه النادل: «لا، أعتذر لذلك، لا يمكن حجز طاولة لك في هذا المطعم إلا إذا كنت شخصية مرموقة».

وللحظة ظنت إدواردز أن عبد الله بن لادن «ابتسم له ابتسامة شاحبة»[٣٤].

(٣٤) كل الاقتباسات مقتطفة من المصدر السابق.

الفصل السابع والثلاثون

العلاقات العامة

ترأس المحامي ريتشارد نيوكومب الذي كان يدير مكتب الرقابة على الأصول الأجنبية في وزارة الخزانة، الوفد المتجه إلى المملكة العربية السعودية في شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠١م لإجراء محادثات مع رجال الأعمال في المملكة حول موضوع تمويل الإرهاب. وكان الهدف من المهمة التي اضطلع بها هذا الوفد هو تغيير توجهات السعوديين الأثرياء في ما يتعلق بالأعمال الخيرية والتعاملات المالية في العالم الإسلامي على الرغم من أن أعضاء الوفد لم يذكروا ذلك صراحةً خلال الاجتماعات. وكان نيوكومب وزملاؤه العاملون في وزارة الخارجية الأمريكية وغيرها من الهيئات الأخرى يأملون في تحقيق هذا الهدف من خلال الإعلان أمام رجال الأعمال السعوديين عن العقوبات التي يمكن أن تُوقع على الشركات والأشخاص ممن يُدانون طبقًا للقانون الأمريكي في حالة منح أموالهم إلى جهات محظورة. وقد وضعت إدارة بوش مكافحة تمويل الإرهاب في صدر أولوياتها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وقد حددت وزارة الخزانة الأمريكية بالفعل عشرات الأفراد والهيئات ورجال الأعمال باعتبارهم داعمين للإرهاب، ممّا كان يعني أن أصولهم في أمريكا عرضة للتجميد. وخطط نيوكومب وزملاؤه لعقد اجتماعات لتبادل وجهات النظر مع غرفة التجارة في جدة ومع رجال أعمال سعوديين في الرياض وجدة. وطلب فريق العمل في وزارة الخزانة أيضًا عقد اجتماع خاص مع عائلة بن لادن، ومما أثار دهشتهم أنهم علموا أن بكر بن لادن سيحضر ذلك الاجتماع[1].

---

(١) تفاصيل رحلة الوفد والمحادثات مع بكر بن لادن مستقاة بصورة رئيسة من مقابلات مع =

جرت فعاليات الاجتماع في المقر الأنيق لمجموعة بن لادن السعودية. وانضم شفيق وعبد الله اللذان تقابلا مع نيوكومب في وزارة الخزانة قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول لتوضيح إرث عائلة بن لادن، انضما إلى بكر وتقابلا معه في مكتبه. وفي هذه المرة، بدلًا من أن يرتدي الأخَوان الملابس الرسمية التي ارتدياها في ملحق وزارة الخزانة في واشنطن، ارتديا الجلباب السعودي التقليدي وغطاء الرأس. ولم يكن أحد في وزارة الخزانة قد قابل بكرًا قبل هذا اليوم، واندهشوا جميعًا في الاجتماع بمكانته المتواضعة نسبيًّا مقارنةً بأسامة على الأقل.

اعتذر بكر للأمريكيين في البداية عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وقال إن أسامة لم يعد من ضمن أفراد عائلة بن لادن وإنه أُقصي منها منذ سنوات. استطرد بكر قائلًا إنه لم تكن لديه أي فكرة عن مكان اختفاء أسامة، بل عرض تعاون عائلته وشركته معهم لتحقيق المصلحة المشتركة.

طرح نيوكومب وزملاؤه رؤيتهم للقوانين الأمريكية لمكافحة تمويل الإرهاب، وحاولوا التحدث بطريقة دبلوماسية لا تنطوي على أي تهديدات. لكنهم لم يناقشوا أي تفاصيل مع بكر بخصوص موضوعات بعينها متعلقة بعائلة بن لادن أو إرثها، وظن مكتب نيوكومب أن الخطاب الذي أرسله مكتب سوليفان آند كروموبل إلى وزارة الخزانة عام ٢٠٠٠م كان كفيلًا بالتعامل مع مثل هذه الموضوعات.

تحدث الإخوة بِودّ ولُطْف، بل اقترح شفيق على أحد أعضاء الوفد أن يأتي إليه مرة أخرى في وقت فراغه لممارسة الصيد معًا في البحر الأحمر. وفي سياق أكثر جدية، ذكر أحد الإخوة أن البطاقة الائتمانية «أميركان إكسبريس» الخاصة به قد حُظر التعامل بها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وسلم جدلًا أن ذلك يرجع إلى اسم عائلته البارز على البطاقة. وقال إنه يريد العودة إلى أمريكا إلا أنه لا يسعه فعل ذلك من دون

= موظفين يعرفون طبيعة عمل وزارة الخزانة في أثناء هذه الفترة. راجع أيضًا: شهادة ريتشارد نيوكومب رئيس مكتب الرقابة على الأصول الأجنبية بوزارة الخزانة الأمريكية أمام اللجنة الفرعية لمكتب الخدمات المالية للمراقبة والتحقيقات في ١٦ من شهر يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٤م.

الحصول على بطاقة «أميركان إكسبريس» سارية. ورد عليه أحد المسؤولين الأمريكيين مازحًا بأن ذلك بمنزلة إعلان رائع عن شركة بطاقات الائتمان.

ناقش مسؤولو وزارة الخزانة لدى عودتهم إلى واشنطن في الأسابيع الأولى من عام ٢٠٠٢م الموضوع الخاص بحظر استخدام بطاقة الائتمان في البيت الأبيض، حيث اجتمع عدد من مجموعات العمل التابعة لجهات متعددة بصفة أسبوعية أو نصف أسبوعية لمناقشة عمليات مكافحة الإرهاب على الصعيد العالمي. وفي ذلك الحين، كانت طالبان قد سقطت وانكشفت العمليات الاستخباراتية التي كانت تُحاك ضدّ القاعدة في عشرات الدول، وبدأت الاستعدادات بالفعل لغزو العراق. في هذه الفترة التي شهدت كل تلك الأحداث، كانت إدارة بوش تركز بشدة على محاولة إيجاد الوثائق الرسمية المتعلقة بتمويل الإرهاب وذلك سعيًا للعثور على دليل لا يقبل الشك. وناقشت مجموعات العمل في دائرة مكافحة الإرهاب كثيرًا من الملفات التفصيلية. وبعد انتهاء هذه المهمة في المملكة العربية السعودية، أثير تساؤل شديد الحساسية: هل كانت إدارة بوش مستعدّة على الأقل مؤقتًا لتصفية الحسابات المصرفية لعائلة بن لادن إضافة إلى بطاقاتهم الائتمانية حتى يستطيع المقيمون منهم في المملكة العربية السعودية وأوروبا السفر بحرية أكبر؟[٢].

وردّ إلى المحققين التابعين للحكومة الأمريكية كمٌّ هائل من المعلومات عن عائلة بن لادن في الأشهر التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، خاصةً في ما يتعلق بتاريخ عملها في أمريكا. وقد أجرى مكتب التحقيقات الفدرالية كثيرًا من تلك البحوث بعد الهجمات التي وقعت في واشنطن ونيويورك. إضافة إلى ذلك، عُيِّن دينيس لورميل ـ الذي كان يعمل وكيلًا لدى مكتب التحقيقات ولديه خلفية عن الجرائم المالية، وجرى تعيينه في اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر/ أيلول ـ لقيادة فريق عمل في المقر الرئيس لمكتب التحقيقات الفدرالية تتركز مهمته في التنقيب عن الجوانب المالية المرتبطة بهجمات الحادي عشر من شهر سبتمبر/

(٢) استنادًا إلى مقابلات مع اثنين من الموظفين الأمريكيين السابقين المشتركين في المناقشات وقد طلبا عدم الكشف عن هويتيهما.

أيلول، وتتبع المسار المالي للقاعدة بصفة عامة. وقد تولت أيضًا المكاتب الميدانية التابعة لمكتب التحقيقات الفدرالي المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية كافة، والبالغ عددها ستة وخمسين مكتبًا، التحقيق في قضية آل بن لادن، وقد تعاون بعضها مع فريق العمل الذي ترأسه لورميل، بينما تحالف بعضهم الآخر معه في بعض الأحيان عندما تقتضي الضرورة فحسب. على سبيل المثال، في عشية يوم الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، حضر وكلاء من مكتب بوسطن الميداني التابع لمكتب التحقيقات الفدرالية في البناية السكنية التي يقطن فيها عبد الله وأخوه محمد غير الشقيق، وبدأ الوكلاء يجرون أعمال التفتيش الخاصة بهم لمدة أسابيع لاحقة في مناطق بوسطن كافة. وتضمن ذلك إجراء مقابلات مع الجيران والذهاب إلى الملاهي الليلية والحانات التي قيل إن إخوة أسامة بن لادن كانوا يترددون عليها بين الحين والآخر، والبحث عن أدلة متعلقة بالشؤون المالية للعائلة. وقد جرت تحقيقات مشابهة في نيويورك وواشنطن ولوس أنجلوس وفلوريدا وتكساس وغيرها من الأماكن الأخرى، ولم يُعلن عن أي منها للمواطنين الأمريكيين. وخلال فصل الخريف، كان وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي قد جمعوا قدرًا هائلًا من الملفات والتقارير من المقابلات الشخصية التي أجروها عن عائلة بن لادن، على الرغم من أن المكتب قد لاقى ـ كالعادة ـ معاناة هائلة في تجميعها وتقديمها بطريقة تفيد صانعي القرار السياسي خارج نطاق مكتب التحقيقات الفدرالية[٣].

قضى وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالية والمحققون الآخرون التابعون لوكالة الأمن القومي الناشئة حديثًا ساعات طويلة مع بعض رجال الأعمال الأمريكيين ممن كانوا شركاءَ أساسيين لعائلة بن لادن، وذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، للتحدث بشأن بعض التفاصيل الدقيقة

(٣) مكتب بوسطن الميداني في ١١ سبتمبر/ أيلول: بوسطن هيرالد ١٨ من شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م. تحقيقات فدرالية أخرى: مقابلات مع اثنين من مسؤولي التحقيقات الفدرالية السابقين ومع عدد من شركاء بن لادن السابقين وموظفين حقق معهم مكتب التحقيقات الفدرالي أو قسم تحقيقات الأمن الداخلي بعد أحداث الحادي عشر من شهر سبتمبر/ أيلول. وقد عانى مكتب التحقيقات الفدرالي للوصول إلى تحليلات ملائمة: أظهرت ملفات مكتب التحقيقات الفدرالية التي حصل عليها برنامج جوديشال ووتش أن كثيرًا من التحليلات المكتوبة عن تاريخ العائلة ونشاطها لم يطرأ عليها أي تطور أو تغيير.

الخاصة بكل صفقات العمل التي أبرمت سابقًا، وكان طرفًا فيها سالم وخليل ويسلم والإخوة الآخرون ممن اعتادوا نمط الحياة الأمريكية. وقد بحث الوكلاء عن أصول هذه الصفقات وكيفية تمويلها، وحصل المحققون أيضًا على سجلات الطيران الخاصة بالعائلة من الطيارين التابعين لهم، وأجروا مع بعضهم مقابلات شخصية مطوّلة عن سفريات العائلة منذ سبعينيات القرن العشرين. على سبيل المثال، وردت إلى مكتب التحقيقات الفدرالي معلومات عن رحلة الطيران التي اتجهت إلى بيشاور في باكستان بقيادة الطيار جيرالد أورباخ وكان على متن الطائرة غالب بن لادن في عام ١٩٨٩م(٤).

وكان الغرض من هذه التحقيقات جمع معلومات استخباراتية فحسب؛ إذ لم تتضمن اجتماع هيئة قضاة للبحث في تهم منسوبة إلى أي شخص. وكان لا بد من تصنيف بعض الأبحاث وحصرها في المنطقة الرمادية الواقعة بين سلطة مكتب التحقيقات الفدرالي وسلطة وكالة الاستخبارات المركزية. وكان تشارلز تيكل، الذي تولى إدارة استثمارات عقارية تجارية في ريتشموند بولاية فيرجينيا وفي غيرها من الأماكن ليسلم بن لادن، كان على اتصال بمركز الاتصالات التابع لوكالة الاستخبارات المركزية بعد وقوع الهجمات من تلقاء نفسه. وقد تطوّع بمعلومات يملكها عندما قال للموظف الذي رد عليه: «أبرمت بعض صفقات العمل مع عائلة بن لادن سابقًا». وبناءً عليه، طُرح عليه بضعة أسئلة واتصل به المسؤولون لاحقًا ليبلغوه بأن كل شيء على ما يُرام ولا داعي للقلق(٥).

على الرغم من كل تلك الإجراءات، لم يظهر أي دليل يثبت تورط عائلة بن لادن في دعم الإرهاب بأي صورة بعد إجراء كل هذه الأبحاث المضنية من مختلف الوكالات الأمريكية. خلاصة الموضوع، كما جاء على لسان دال واتسون الذي كان يترأس مكتب مكافحة الإرهاب التابع لمكتب التحقيقات الفدرالي في خريف عام ٢٠٠١م، بقوله إن عائلة بن لادن «لم تستطع مساعدتنا ولم يمثّلوا أي تهديد لنا في الواقع. وتوصل دينيس لورميل

(٤) استنادًا إلى مقابلات مع شركاء وموظفين سابقين لابن لادن ومع مسؤولين سابقين في مكتب التحقيقات الفدرالي في المرجع السابق. راجع الفصل الرابع والعشرين الحاشية رقم ١٩.

(٥) من خلال محادثة تلفونية مع تشارلز تيكل في ١٦ من شهر فبراير/شباط عام ٢٠٠٦م.

وفريقه الذي كان يعمل لدراسة تمويل الإرهاب إلى نتيجة مشابهة، على الرغم من شعورهم بأن هناك بعض الجوانب الغامضة في نشاط العائلة العملي التي يصعب حسمها[٦]. ولما كان لورميل حديث العهد بهذا النوع من التحقيقات، استغرق وقتًا لحل الألغاز الواردة في تقارير الاستخبارات الأمريكية المضللة التي وقعت في يده، والحصول على ما يفيده من معلومات بين سطورها، وقد أفادت بقدر كبير من البيانات المتعلقة بثروة أسامة الشخصية المزعومة. وشعر لورميل وفريق عمله أنه من المستحيل أن يقبلوا التقرير السطحي الذي قدمه مكتب سوليفان آند كرومويل عن عائلة بن لادن، وبالتحديد عن حجم إرث أسامة والوقت الذي حصل فيه عليه والدفعات التي كان ينالها في صورة مصروفات. وربما كان هذا التقرير صحيحًا ولا ريب فيه، ولم يكن هناك أي سبب بعينه يدفع لتشكيك مكتب التحقيقات الفدرالي في صحته، ولكنّ خطابًا واحدًا من محامي العائلة لا يمكن اعتباره دليلًا قاطعًا في مسألة مهمة كمسألة ثروة أسامة. فأين كانت الوثائق الأصلية؟ وأين الدليل الذي كان يمكن الاعتداد به في ساحة القضاء؟

من الجوانب الأخرى التي كانت تتطلب في ما يبدو تدقيق البحث والتحقيق، الصفقات المصرفية السويسرية والصفقات الخارجية، إلى جانب الاستثمارات التي كان يسلم بن لادن وبعض الشركاء من العائلة ومساعدون آخرون في سويسرا يشرفون عليها. فبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، بدأ المحققون السويسريون والفرنسيون في الاستفسار عن حسابات عائلة بن لادن المصرفية وأدواتهم الاستثمارية في سويسرا وغيرها من الأماكن. وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مارس/ آذار، عام ٢٠٠٢م، داهمت الشرطة السويسرية تسعة مكاتب وشركات ذات صلة بيسلم بن لادن، بما فيها مقر عمله الرئيس في جنيف، وهو شركة إنفستمينتس السعودية. وبناءً عليه، اصطحب رجال الشرطة من المكاتب والشركات كثيرًا من السجلات والصناديق، إلا أنهم عجزوا عن إثبات أي تهم ضده[٧].

(٦) استنادًا إلى مقابلة مع ديل واتسون في ٢٧ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٥م. ومقابلة مع دينيس لورميل في ٢٥ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٥م.

(٧) استنادًا إلى مقابلة مع لورميل المرجع السابق.

ومع توالي التحقيقات على هذا النحو لوقت طويل، شعر خبراء مكافحة الإرهاب التابعون لمكتب التحقيقات الفدرالي في بداية عام ٢٠٠٢م أنه لا داعي لمواصلة الحجز على الحسابات الائتمانية لعائلة بن لادن وإيقاف حساباتهم المصرفية في الولايات المتحدة الأمريكية. وقال أحد المعنيين إن القرار الأخير صدر بشكل جماعي عن الوكالات والهيئات الأمريكية المختلفة التابعة لوكالة الأمن القومي، التي صدقت عليه على أعلى مستوى[٨]. وهذا القرار بعينه تطلب تصديق الرئيس بوش شخصيًّا عليه، على الرغم من غموض الدور الذي قام به بوش على وجه التحديد في التوصل إلى هذا القرار، إن كان له دور في الأساس. وما يبدو جليًّا لنا أن هناك قرارًا بعينه قد اتُّخذ في البيت الأبيض في وقت ما في بداية عام ٢٠٠٢م، ومن المؤكد أن الحكومة الأمريكية لم تكن لتفرض أي عقوبات على عائلة بن لادن، أيًّا كانت طبيعتها، بسبب ما تعرضت له على يد أسامة، إلا في حالة ظهور أدلة جديدة.

وقد لخص أحد المحللين التابعين لمكتب التحقيقات الفدرالي تقديرات المكتب للأدلة المتاحة في رسالة بريد إلكتروني ليس لها أي طابع رسمي أرسل بها في شهر سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠٠٣م؛ إذ قال إن هناك أشخاص كُثر ينتمون إلى عائلة بن لادن وجميعهم «منتشرون» في كل الأنحاء وأن الأغلبية العظمى منهم لا تضمر أي شرور في نفسها»[٩].

أسفرت التحريات التي أجراها مكتب التحقيقات الفدرالي على عائلة بن لادن عن فائدة واحدة على الأقل، من وجهة نظر العائلة؛ أنها جرت بصورة كاملة في نطاق العائلة ولم تخرج عنه مطلقًا. على الجانب الآخر، أبدت العائلة استياءً بالغًا من رفض العامة واستنكارهم لهم، وهو ما بدا واضحًا في موقف الجامعات والشركات الأمريكية التي قاضت العائلة في الماضي. ومما كان له بالغ الأثر في وجدان العائلة في خريف عام ٢٠٠١م أن بعض هذه الجامعات والشركات لم تجد بدًّا من إنهاء تعاملاتها مع عائلة بن لادن أو تعليقها. وعلى الرغم من عدم إعلان

---

(٨) استنادًا إلى مقابلة مع مسؤول أمريكي سابق طلب عدم الكشف عن هويته.

(٩) استنادًا إلى رسالة بريد إلكتروني رفعت عنها السرية وأعلن عنها برنامج جوديشال ووتش.

مساندة العائلة لأسامة، فإن مساندتها له كانت احتمالًا قائمًا في ما بعد، وهذا ما يفسر القرارات التي اتخذتها هذه الجامعات والشركات لقطع علاقاتها بالعائلة.

تلقت جامعة هارفارد مكالمات هاتفية كثيرة من أناس «غلبت عليهم العاطفة» حينما قالوا: «هذه الأموال إنما هي أموال قتلة وعلينا أن نهبها للضحايا الأبرياء». وورد إلينا من بيري بيرمان الذي كان يعمل في برنامج الدراسات الفقهية الإسلامية. ولعلهم قالوا ذلك لمعرفتهم بأن الجامعة قد قبلت تبرعًا قدره ٢ مليون دولار من بكر بن لادن. وأسفرت هذه الضغوط عن اتخاذ الجامعة قرارًا بتعليق المنح التي تحصل عليها من عائلة بن لادن(١٠).

أما جامعة ميامي التي تعلم فيها بكر بن لادن وحصل منها على شهادة تخرجه، فقد تراجعت عن التزامها معه، وكانت قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول قد أجرت اتصالاتها بعائلة بن لادن التماسًا للمساهمات المالية منها ومن ابن العائلة الثري التي تخرج فيها. وأشار بكر إلى أنه كان مستعدًّا لتمويل مشروع بحثي يتعلق بالحفاظ على الشعاب المرجانية في البحر الأحمر، التي كانت مهددة بفعل التلوث والترسبات الطينية والصيد الجائر في المنطقة. وبالفعل حصل أحد أساتذة جامعة ميامي، وهو السيد جون سي ماكمانوس، الذي كان أخصائيًّا في شؤون الشعاب المرجانية، حصل على تأشيرة سعودية، ونوى السفر إلى المملكة لمقابلة بكر وغيره من المسؤولين في الرابع والعشرين من شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م. إلا أن الرحلة أُلغيت وكذلك المشروع، ويتذكر لنا ماكمانوس أن قرار الإلغاء صدر عن الطرفين في قوله: «لم تكن العائلة متحمسة للأمر، وكذلك نحن أيضًا». ومع ذلك ظن بكر أن الجامعة تخلت عنه بسبب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وتأذّى لذلك، بحسب قول أحد الأشخاص الذي تحدّث معه في هذا الخصوص(١١).

---

(١٠) استنادًا إلى مقابلة مع بيري بيرمان في ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م. إيقاف المنح الدراسية: اتصال عبر البريد الإلكتروني من فرانك فوجل في جامعة هارفارد.

(١١) استنادًا إلى محادثة تلفونية مع جون مكمانوس في ١٣ من شهر فبراير/ شباط عام ٢٠٠٦م. مقابلة مع شخص تحدث معه وطلب عدم الكشف عن هويته.

وذكرت شركة كادبوري شويبس البريطانية لصناعة الشوكولاته أنها قطعت علاقتها بأحد فروع شركات بن لادن، وكذلك فعلت الشركات التي كانت تبيع معدات الاتصالات عن طريق شركة بن لادن، ولم يساند العائلة سوى القليل جدًّا من شركائها البارزين. وذكر المتحدث الرسمي لشركة جنرال إليكتريك أن الشركة كانت واثقة من أن مجموعة بن لادن السعودية «لا علاقة لها من قريب أو بعيد بأسامة بن لادن». وقال تشاز فريمان السفير الأمريكي السابق في المملكة العربية السعودية الذي كان قد أقام عدة مشاريع في المملكة إن «ابن لادن» لا يزال «اسمًا مشرفًا لمن يحملونه»، وأشار بحدة إلى أن الشركات الأمريكية التي «كانت تتمتع بعلاقات طويلة الأمد ومربحة» مع العائلة أصبحت «حاليًّا تتنافس لإخفاء علاقتها العامة مع العائلة[١٢].

حتى بعد إعادة تفعيل بطاقات ائتمان أمريكان إكسبريس لتستخدمها العائلة تارة أخرى، لم يسع أفراد العائلة السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وشعروا بالتردد إزاء هذا الأمر. ولم يرغب أي من الإخوة الكبار الأعلى نفوذًا من بكر في السفر إلى هناك بالمثل. وبدت الأجواء المحيطة بالعائلة غير مستقرة بصفة عامة، بل يشوبها شيء من الخطورة والتهديد. إلا أن إحدى أخوات بكر غير الشقيقات، وهي صالحة، كانت تتردد على أمريكا بين الحين والآخر مع زوجها الإيطالي، بيد أنها كثيرًا ما كانت تُحتجز من جانب السلطات في المطارات الأمريكية لساعتين أو أكثر في كل مرة، وكم كان ذلك محبطًا لها، حتى إنها قالت لجيل فريمان ذات مرة: «لا أعلم إن كنا سنطيق التعرض للمزيد من هذه الإجراءات لاحقًا؛ فلن نتحمل ذلك في كل رحلة إلى هناك».

ولهذا السبب، بدت أوروبا الوجهة الأكثر ملاءمة للسفر، خاصة أن آل بن لادن كثيرًا ما كانوا يذهبون إلى هناك بطائراتهم الخاصة، ومن ثَم لم يكن هناك داع لتراودهم هواجس بشأن ركاب مذعورين يمكن أن يكونوا معهم على متن طائرة تجارية. ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يتعرضون

---

(١٢) استنادًا إلى جريدة **وول ستريت** في ١٩ من شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م. أسوشيتد برس في ٧ من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠١م.

للمتاعب بين الحين والآخر؛ إذ داهمت شرطة سكوتلاند يارد ذات مرة طائرة بكر النفاثة الخاصة وأجبرتها على الهبوط في مطار لوتون لتحقق معه قبل أن يغادر إلى الوجهة التي كان يتجه إليها. كما حدث أن رجلًا صفع حسن بن لادن على وجهه في الشارع، أمام فندق إنتركونتيننتال في لندن في شهر أغسطس/ آب من عام ٢٠٠٢م. وفي ألمانيا أو النمسا، أمر رئيس الشرطة المحلية بتطويق أحد الفنادق التي كان بكر يقضي فيه إجازته، وذلك في ما يبدو اعتقادًا منه بأنه سيحفر اسمه في كتب التاريخ لإلقائه القبض على أحد الهاربين المطلوب اعتقالهم على مستوى العالم[١٣].

وكان ياسر بن لادن من إخوة بكر غير الأشقاء الأصغر سنًّا، وكان يقيم في جدة ويمارس رياضة الإسكواش مع مجموعة من الأصدقاء الذين يتحدثون الإنكليزية في المدينة. إضافةً إلى ذلك، كان ياسر عضوًا في نادي هارلي ـ ديفيدسون للدراجات النارية في المدينة، وكان يستقل هو وأصدقاؤه السعوديون دراجاتهم النارية في الصيف طراز هارلي ـ ديفيدسون، ويجوبون الطرق ويحدثون جلبة صاخبة. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، اقتصرت ممارستهم لهوايتهم على أوروبا. وكان قائدو الدراجات النارية من السعوديين يمزحون مع ياسر في النادي من دون مراعاة لمشاعره بقولهم إن جواز سفره سيسبب لهم المتاعب كلما أرادوا الارتحال من دولة إلى أخرى. وكانوا محقين في ذلك، فعندما قدّم ياسر وثائق سفره إلى سلطات الهجرة في بريطانيا في مدخل نفق القنال الإنكليزي (المانش) الذي يربط بين فرنسا وإنكلترا، أصدر الضابط البريطاني أوامره بأن يتنحى ياسر جانبًا، ثم أخذ يتفحص مقعده، وأمر كل أصدقائه بالابتعاد عن المحيط الذي كان يقف فيه بعد أن فتش دراجاتهم النارية. واستغرق الأمر ساعات طوالًا ليتم التأكد من أن أسماءهم غير مدرجة في كل قواعد البيانات التي تضم أسماء الإرهابيين.

---

(١٣) استنادًا إلى مقابلات مع شخصين مقربين من العائلة طلبا عدم الكشف عن هويتيهما. ومن خلال مقابلة مع جيل فريمان في ٢٧ من شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م. شرطة سكوتلانديارد: مقابلة مع شخص يعرف الحادثة وطلب عدم الكشف عن هويته. هجمات لندن: من خلال إكسبرس لندن وصن في ١٦ من شهر أغسطس/ آب عام ٢٠٠٢م. فندق ألماني: من خلال مقابلة مع شخص ثان يعرف الحادثة.

اتخذ أعضاء نادي هارلي ـ ديفيدسون قرارًا باستقلال الدراجات النارية في سوريا ولبنان في الرحلة اللاحقة التي قاموا بها. وعندما وصلوا إلى المنطقة الحدودية التي تربط بين سوريا والسعودية، بدؤوا يثقلون على ياسر بالمزاح تارة وأخرى بنبرة تنم عن الشكوى من المتاعب التي سيضطرون إلى تحملها من جانب المسؤولين على الحدود السورية.

ومن المتاعب التي تعرضوا لها على الحدود تفحص جوازات السفر الخاصة بهم على يد أحد الضباط السوريين الذي وجه إليهم الأسئلة مرارًا وتكرارًا لمعرفة «الشيخ» من بينهم. وما إن تعرف إلى ياسر، تبين أن اهتمامه بمقابلته كان لهدف آخر غير ذلك الذي اعتاده أصدقاؤه، وحينما تحرك ياسر بن لادن على متن دراجته البخارية متقدمًا نحو من يسألون عنه، وقف الضباط السوريون وألقوا عليه التحية؛ فعند هؤلاء الضباط أي فرد يمت بأي صلة إلى أسامة بن لادن بطل يستحق التحية والإجلال[١٤].

«كان اسم عائلة بن لادن يدعو للفخر لمن ينتمي إليها. . . ولكن الآن، دعونا نتساءل: ما عاقبة انتمائك إلى عائلة بن لادن، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وبعودة برنامج ٢٠/ ٢٠ من جديد؟»[١٥].

سافرت باربرا والترز إلى المملكة العربية السعودية في بداية عام ٢٠٠٢م لتعد تقريرًا متميزًا للبرنامج الإخباري المسائي ٢٠/ ٢٠ الذي يُعرض على شبكة تلفزيون إيه بي سي. وفي أثناء الإعداد للرحلة إلى المملكة، كانت باربرا ومنتجو العمل يعملون عن كثب مع بندر بن سلطان، السفير السعودي في واشنطن، إلى جانب عادل الجبير، الذي سيعمل لاحقًا مستشارًا سياسيًّا وإعلاميًّا في قصر ولي العهد عبد الله. وقد ذكرت باربرا والترز لكل من بندر وعادل أنها ترغب في مقابلة أي من أفراد عائلة بن لادن لمساعدتها في التقرير الذي تعده، وأن برنامجها يُعدّ فرصة سانحة للعائلة لإظهار الجانب الإنساني في شخصياتهم أمام جمع غفير من مشاهدي التلفزيون الأمريكي، ولتأكيد انفصالهم التام عن أسامة. وسيكون لذلك بالطبع أثرٌ عميق على التخفيف من توتر العلاقات

---

(١٤) من خلال مقابلة مع شخص من نادي هارلي طلب عدم الكشف عن هويته.

(١٥) استنادًا إلى تفريغ نصي لبرنامج ٢٠/ ٢٠ في ١٥ مارس/ آذار عام ٢٠٠٢م.

بين السعودية وأمريكا بعد أن ازدادت سوءًا بسبب المواقف العدائية المتبادلة بين كل من مواطني الدولتين. وشاركها الرأي المسؤولون السعوديون الذين تحدثت معهم، وأن ذلك سيساعد في الحد من توتر العلاقات. وقد ذكر عادل الجبير تحديدًا أن دعم ولي العهد عبد الله سيفيد في ذلك، وسعى إلى مقابلة بكر بن لادن وشخصين آخرين من العائلة، وقابلهما بالفعل في محاولة منه لإقناعهم بالتعاون مع مذيعة البرنامج. إلا أن عبد الله ـ ولي العهد ـ قالها صراحةً إنه لن يصدر أمرًا رسميًّا لعائلة بن لادن بالظهور على شاشات القنوات الأمريكية، ولكنه ترك لهم حرية الاختيار. ولما عُرض عليهم الأمر، بدا أن بكرًا كان مترددًا للغاية على الرغم من الإلحاح الشديد عليه من جانب الجبير ومسؤولين سعوديين آخرين[١٦].

وها هم أفراد العائلة الآن قد أصبحوا سلعة رائجة لوسائل الإعلام، وقال خالد عبد الرحيم المعينا، الصحفي في جريدة عرب نيوز التي تصدر في جدة، والضيف الدائم في البرامج الإعلامية الخارجية، إن مصدرًا إعلاميًّا (ولم يحدده) اتصل به هاتفيًّا ليعرض عليه مبلغًا ماليًّا قدره خمسون ألف دولار، إن استطاع إقناع أحد أفراد عائلة بن لادن بالظهور أمام الكاميرا. ولأنه كان يعمل في مجال التخطيط الإعلامي الاستراتيجي، اقتنع بأن عائلة بن لادن يمكنها تحسين صورة المملكة العربية السعودية، إن ظهر أحد أفرادها على الشاشات الأمريكية ليعتذر للشعب الأمريكي ويكسر الحاجز بين بني جلدته والأمريكيين، شريطة أن يكون واثقًا من نفسه ويجيد التحدث باللغة الإنكليزية. ومع ذلك شعر خالد وغيره من السعوديين بالاستياء الشديد من عدائية الإعلام الأمريكي ومواقفه المتغطرسة تجاههم[١٧]. وكم سادت المشاعر المتناقضة بين الاعتزاز بالنفس والاستياء والذعر في ما بين السعوديين والأمريكيين على حدّ سواء بعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. وكم دس آل بن لادن رؤوسهم في الرمال، مخافة أن يُلحظ أحدُهم بطرف عينه ويُنال منهم أو من كرامتهم، خاصةً بعد

(١٦) استنادًا إلى مقابلة مع شخص على علم ببواطن الأمور في برنامج ٢٠/ ٢٠ وطلب عدم الكشف عن هويته. ولم تستجب باربرا والترز لطلباتنا للتعليق على ما حدث.

(١٧) استنادًا إلى مقابلة مع خالد المناع في ٢٠ من شهر فبراير/ شباط عام ٢٠٠٥م.

أن قالها بكرٌ بصراحة ووضوح، إنهم لن ينالوا شيئًا ذا قيمة حقيقية من الظهور على شاشات التلفزيون.

وقد أيد كبير محامي بكر في لندن، المدعو مارك بريدجز، الذي كان يعمل أيضًا محاميًا خاصًّا لدى الملكة، الفكرة ونصح بعدم جدوى ظهور عائلة بن لادن إعلاميًّا أو الإدلاء بأي معلومات غير ضرورية[١٨].

ولعل بريدجز عجز عما كان يخبئه القدر في شخص باربرا والترز، فبينما كانت متجهة إلى المملكة العربية السعودية في بداية عام ٢٠٠٢م، ازداد شعورها بالإحباط جراء المقابلات الشخصية الكثيرة التي أجرتها مع أفراد من العائلة المالكة ومن عائلات المتهمين باختطاف الطائرات في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ممن يقيمون في عسير. وإذا بها تخطط لإجراء مقابلة مع الأمير عبد الله ولي العهد الذي كان حينها أكثر الرجال نفوذًا في المملكة، ولكن لم يحالفها الحظ في مبتغاها. ولذلك قالت لأحد مساعديها من السعوديين إن رحلتها ستفقد قيمتها إن لم يظهر أحد أفراد عائلة بن لادن أمام الكاميرا، وستصب جام غضبها على أفراد العائلة كافة. شعر بندر والجبير بنذر أزمة علاقات على وشك الحدوث بين البلدين لهذا السبب، وفكرا معًا في حيلة بارعة تمكنهما من مساعدة والترز. وبالصدفة البحتة، كان بندر مدينًا لعائلة بن لادن بمبلغ كبير من المال نظير أعمال نفذتها العائلة في قصره في جدة، وكانت العائلة في أمس الحاجة إلى المال آنذاك. فاقترح بندر أن يدعو عبد الله بن لادن ـ خريج هارفارد ـ إلى بيته بحجة الاجتماع بمحاسبيه لتسوية آخر الدفعات المالية مقابل الأعمال التي أُجريت في القصر. وحينها ستصل باربرا والترز بغتة لعقد اللقاء، ولن يكون هناك خيار أمام عبد الله سوى الموافقة على إجراء المقابلة[١٩].

وقع عبد الله في الفخ ولم يلحظ الخدعة، وحضرت والترز إلى القصر في أثناء اجتماع العمل مع المحاسبين لإجراء المقابلة. وبينما ارتبك بندر،

---

(١٨) استنادًا إلى مقابلة مع شخص عمل مع بريدجز وطلب عدم الكشف عن هويته.

(١٩) استنادًا إلى مقابلة مع شخص مشارك بالموقف وطلب عدم الكشف عن هويته. ولم تستجب باربرا والترز لطلباتنا بالتعليق.

وافق عبد الله على مضض بأن يرد على بضعة أسئلة ستطرحها عليه. ولم تكشف والترز في برنامجها عن الطريقة التي تمكنت بها من الوصول إلى عبد الله بن لادن، إلا أنها قالت على الهواء في مقدمة البرنامج: «ها نحن نجلس الآن مع عبد الله بن لادن، لكنه شديد العصبية، ولا يمكن أن يلومه أحد».

وبنبرة تعاطف طرحت والترز على عبد الله السؤال الآتي: «صف لي كيف مرت على عائلتكم تلك اللحظات العصيبة الاستثنائية؟».

ـ «لقد مررنا بأوقاتٍ عصيبة، ولكننا كنا نشعر أننا ضحايا شأننا شأن المجني عليهم في الأحداث، ولكن لا يهم ما جرى لنا. . . فمأساتنا تهون، فلم نتعرض لما تعرض له ضحايا الحادث من العائلات الأمريكية في نيويورك. وإن قارنا ما تعرضنا له بمآسيهم، فلن نجد وجهًا للمقارنة، وكم نشعر بالأسى والحزن والتعاطف معهم».

ـ «هل تعلم ما العوامل التي أدّت بأسامة بن لادن لما أصبح عليه الآن؟»

ـ «أتمنى لو أستطيع الإجابة عن هذا السؤال»[٢٠].

(٢٠) التفريغ النصي للبرنامج في المرجع السابق.

الفصل الثامن والثلاثون

العلامات التجارية

كان المحامي جاك كاياجانيان هو وكيل العائلة المسؤول عن أعمالها القضائية في مدينة كوستا ميسا في ولاية كاليفورنيا، في جنوب لوس أنجلوس. وقد كان هذا الرجل اجتماعيًّا يعشق الاختلاط بالآخرين ويقضي بعض أوقات فراغه في حلبة سباق ديل مار للخيول، حيث يمارس هوايته مع الخيول الثوروبريد (الهجينة) ويتابع الخيول التي يُراهن عليها بدقة بالغة. وكان أيضًا عضوًا نشيطًا في الجمعية الأمريكية الأرمينية في مقاطعة أورانج المحافظة، وكان يعتبر نفسه من الأمريكيين شديدي الغيرة على وطنهم. ولذا، عندما اتصل به صديق أرميني هاتفيًّا في صيف عام ٢٠٠٢م ليخبره بأن ابنته، كريستين، تعاني بعض المشكلات مع زوجها السابق بشأن الوصاية على ابنتها، وأن زوجها السابق تصادف أنه أحد أفراد عائلة بن لادن، اعتبر كاياجانيان نفسه مسؤولًا عن القضية وتعامل معها باهتمام شديد[١].

وكان الزوجان، إبراهيم بن لادن وكريستين هارتونيان، منذ أن وقع الطلاق عام ١٩٩٣م، يعيشان حياتهما كلٌّ وشأنه من دون عوائق لافتة لمدة ثمانية أعوام، فتعاونا معًا على تربية ابنتهما الوحيدة صبا، وكانت خلال هذه الفترة تعيش مع أمها وتذهب إلى مدرستها في جنوب كاليفورنيا، ولكنها كانت تقضي الإجازات الصيفية وشهر رمضان مع أبيها إبراهيم في

---

(١) استنادًا إلى مقابلة مع جاك كايجانيان في ٢٥ من شهر أغسطس/ آب عام ٢٠٠٥م.

جدة، أو في مجمع بيل إير السكني على طريق ستون كانيون. إلا أن صعود نجم أسامة بن لادن في أثناء أواخر تسعينيات القرن العشرين أدّى إلى شعور العائلة بالتوتر لأن إبراهيم بدأ يفكر في أنه ربما لا يكون بمأمن في الولايات المتحدة الأمريكية. وقال في هذا الشأن لاحقًا: «بدأت أشعر بعدم الراحة في لوس أنجلوس في صيف عام ٢٠٠١م، نتيجةً للتعليقات التي كانت تُقال عني حتى قبل وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول»[٢].

وعندما انتقل آل بن لادن إلى جدة، اصطحب إبراهيم ابنته صبا معه إلى هناك. وعندما وقعت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، كانا يقضيان إجازاتهما في جنيف. ونقلًا عن كاياجانيان، كانت صبا ترى أن الحياة في جدة مقلقة وغير مريحة وأبلغت بعض أفراد عائلتها أن بعض شباب عائلة بن لادن احتفلوا بهجمات سبتمبر/ أيلول جهارًا. وفي خريف ذلك العام ألحق إبراهيم ابنته في المدرسة الدولية البريطانية في جدة، ولم تعترض كريستين هارتونيان في البداية، وكانت آنذاك تشق طريقها بصعوبة في مجال الفن وتعيش في مجمّع سكني مغلق في غرب لوس أنجلوس. ومع الوقت بدأت كريستين في معارضة إقامة صبا في المملكة العربية السعودية لأجل غير مسمى. وكانت تعاني صعوبات مالية شديدة، إذ لم تكن تملك في حساباتها البنكية سوى مبالغ زهيدة وتعتمد على الاقتراض من أبويها لتعيش حياتها، لذا قررت كريستين السفر إلى جدة لزيارة ابنتها في المجمع الذي تقيم فيه عائلة بن لادن[٣].

بحلول صيف عام ٢٠٠٢م عانت صبا بعض المشكلات الصحية الطفيفة التي لم تكن تمثل خطرًا على حياتها، ولكن الأمر تطلب الاعتناء بها على يد أحد الأطباء المتخصصين. فحولها أطباء المملكة العربية السعودية إلى متخصصين في جنوب كاليفورنيا، ومن ثَم عادت كريستين بابنتها إلى لوس أنجلوس. ولكن إبراهيم سعى لعودة ابنته صبا للإقامة معه ومع زوجته

---

(٢) الإعلان المكمل لابراهيم بن لادن في ٣٠ من شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٢م، أرفق بقضية كريستين بن لادن ضدّ إبراهيم بن لادن في المحكمة العليا بمقاطعة لوس أنجلوس BD058156.

(٣) استنادًا إلى مقابلة مع كايجانيان المرجع السابق. حالة كريستين المالية من إعلان دخلها ونفقاتها مقدمة في ١٨ من شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٢م المرجع السابق.

الجديدة في المملكة العربية السعودية، وقال إن صبا يمكنها تلقّي العلاج الذي تحتاج إليه في المملكة، وإنه من الأفضل أن تعود إلى المدرسة التي ألحقها بها في البداية، وأن تعيش بين عائلتها التي ينتمي إليها أبوها. إلا أن الأبوين اختلفا ولم يصلا إلى أي اتفاق بشأن مكان إقامة صبا، مع أبيها أم مع أمها، مع أن هذا هو ما قضت المحكمة بتحديده بعد الطلاق، وبذلك أدركت كريستين أنها على وشك أن تفقد الوصاية على ابنتها الوحيدة لتنتقل إلى النظام السعودي الذي لن تحصل فيه إلا على القليل من حقوقها الشرعية. وفي مستهل الأمر، كانت كريستين تتحدث بالنيابة عن نفسها في الدعاوى القضائية المقامة في المحكمة، ولكن في شهر أغسطس/ آب من عام ٢٠٠٢م، اتصلت عائلتها بالمحامي جاك كاياجانيان ليتولى إدارة ملف هذه القضية.

استغرق كاياجانيان في قراءة ملفات الطلاق القديمة واتجه إلى المحكمة العليا في لوس أنجلوس التي كانت الملفات الخاصة بحكم المحكمة الأصلي محفوظة بها، فحصل على حكم يقضي بتأجيل انتقال صبا إلى جدة. وفي المقابل، وكّل إبراهيم مكتب محاماة متخصص في قضايا الطلاق في مدينة سانتا مونيكا، وكان من المحامين المخوّل لهم الدفاع في هذه القضية سيدة، وكان لها مساعدان، وكانت هي رئيس لجنة الدفاع في القضية. وقد دأب المحامون الذين وكّلهم إبراهيم على غمر كاياجانيان بالاستدعاءات والوثائق والملفات الجديدة التي كانت تصله كل ساعة على مدار اليوم، حتى قرر كاياجانيان التركيز على الجانب الصحي للفتاة محتجًّا بأن الرعاية الطبية التي تحتاج إليها لا تتوافر إلا في الولايات المتحدة الأمريكية[٤].

رفض إبراهيم السفر إلى أمريكا لحضور جلسة الاستماع، وبسبب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، خشي على «سلامته وأمنه» من «ردود الأفعال العنيفة التي تصدر عن الأمريكيين ضدّ كل من يتحدّث باللهجة العربية في الولايات المتحدة الأمريكية... وكان خوفي حقيقيًّا وله أسبابه إذا نظرت إلى الوصمة السيئة التي لحقت باسم عائلتنا، فأنا

(٤) استنادًا إلى مقابلة مع كايجانيان المرجع السابق.

أعلم أن لقب بن لادن يثير ردود فعل عنيفة للغاية في نفوس الكثيرين». فوافق القاضي روي إل. بول على السماح لإبراهيم بأن يدلي بشهادته عن طريق البث المباشر على شاشة الفيديو من أحد الاستوديوهات في إمارة دبي في الإمارات العربية المتحدة، وبذلك لم يتطلب الأمر منه السفر إلى لوس أنجلوس[٥].

وفي اليوم الرابع من شهر أكتوبر/ تشرين الأول، عام ٢٠٠٢م، وصل كاياجانيان والمحامون الذين وكلهم إبراهيم إلى قاعة محكمة خاصة وآمنة في لوس أنجلوس، معروفة باسم قاعة «البنك». ومن المعروف أن القضايا محل نزاع مشاهير هوليوود تُطرح أحيانًا في هذه القاعة. وبالفعل أدلى إبراهيم بشهادته أمام عدسة الكاميرا[٦].

وأمر القاضي بول بأن تكون شهادة إبراهيم سرية، ويبدو أنه فعل ذلك حتى يحمي صبا من أي اعتداء محتمل من أي من المعارضين. بينما ذُكر في سجلات المحكمة العلنية ما حدث في جلسة الاستماع، وفي نهاية اليوم قُضي الأمر وكسب كاياجانيان القضية الحاسمة. وأصدر القاضي بول حكمًا يقضي بالتحاق صبا بمدرسة في جنوب كاليفورنيا وعلاجها في الولايات المتحدة الأمريكية. وكذلك أمر إبراهيم بن لادن بأن يجهّز سندات مالية بقيمة أربعة ملايين دولار وتقديمها، لضمان أنه سيعيد ابنته إلى والدتها بعد انقضاء إجازات الصيف والمناسبات الدينية. وبذلك كانت إجراءات الوصاية على صبا مع عائلة بن لادن في المملكة العربية السعودية على مدار عشر سنوات تعتمد على الثقة المتبادلة، إلا أن هذا العهد انتهى لدى الطرفين[٧].

تعرض إبراهيم وكريستين لمعاناة من نوع خاص، إلا أن المتاعب التي لاقاها لم تخرج عن نطاقهما ولم يعرف بها أحد، بل بدت تافهة مقارنةً

(٥) استنادًا إلى الإعلان المكمل في ٣٠ من شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٢م المرجع السابق.

(٦) استنادًا إلى مقابلة مع كاياجانيان المرجع السابق.

(٧) ظلت كثير من التفاصيل المتعلقة بالصراع على حضانة صبا الذي اندلع عام ٢٠٠٢م، سرية ولكن ضمان الأربعة ملايين دولار هو جزء من ملف المحكمة العام؛ وكان جزءًا من حكم المحكمة بشأن الحضانة الصادر في ٤ من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٢م.

بمعركة الطلاق التي دارت رحاها بين يسلم وكارمن بن لادن؛ إذ بدأت قضية الطلاق في المحاكم السويسرية خلال بداية التسعينيات، ولكنها سرعان ما انتقلت إلى مناطق شتى حول العالم، شأنها شأن كثير من قضايا عائلة بن لادن. رفعت كارمن دعوى قضائية على يسلم في لوس أنجلوس لإثبات أن منزل إبراهيم الذي يقع في بيل إير يجب أن يُسلم إليها بسبب زواجها من يسلم، لأنه بيع من مالكه إلى يسلم ومن ثَم كُتب باسمه (إلا أن كارمن لم تنجح في مسعاها). وقد زعمت أيضًا أن زوجها باع مجوهراتها التي اشترتها في الأساس من بيفرلي هيلز وأنه لم يكن يحق له ذلك. وأخذت الالتماسات والمرافعات والقسَم بالأيمان على الشهادات تتزايد في محاكم أمريكا وسويسرا، ولكن مرت السنون ولم تصدر أحكام لتسوية تلك النزاعات. وحتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وما صاحبها من صدمات تروع القلوب، لم تستطع أن تحد من إصرار الطرفين على إكمال مسيرتهما القضائية. بيد أن كارمن قررت أن تؤلف كتابًا بعد وقوع الهجمات الإرهابية، وهو ما اعتبره كثير من السعوديين أقوى سلاح يمكن أن يوجَّه إليهم.

ألّفت كارمن كتابًا بعنوان «في المملكة» *Inside the Kingdom* وحقق مبيعات هائلة في جميع أنحاء العالم، واتّسم أسلوبه باحترام عائلة بن لادن بشكل عام، وحتى يسلم نفسه، ولكن كارمن أشارت في الكتاب إلى أنها ترجح أن العائلة كانت تدعم أسامة سرًّا لوقت طويل بعد أن زعمت أنها قاطعته. وأدلت كارمن أيضًا بالرأي نفسه في لقاءات تلفزيونية وصحفية مرارًا وتكرارًا في أوروبا وأمريكا لدى استضافتها لاستعراض الكتاب هناك. وتحدثت كارمن بصراحة شديدة عن حالة النساء في المجتمع السعودي وكيف أنهن يُعاملن كمخلوقات من الدرجة الثانية، وانتقدت أيضًا التقاليد الإسلامية التي كانت العائلة متمسكة بها من حيث تمكين الرجال وإعطائهم اليد العليا في الصراعات القائمة بسبب الوصاية والطلاق. ولأن كارمن قضت سنوات طوالًا في مجمع عائلة بن لادن في جدة كزوجة وأم في أثناء السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، استطاعت أن تصف بدقة في كتابها الحياة التي تعيشها السيدات السعوديات اللاتي يتمتعن بوسائل الرفاهية كافة ولكنهنّ ومع ذلك يشعرن بالكبت دائمًا.

تعمقت الخلافات بين كارمن وزوجها السابق يسلم في جنيف من ناحية، وبينها وبين إخوته الأكبر والأكثر نفوذًا مع بكر في جدة من ناحية أخرى، بسبب النجاح منقطع النظير للكتاب. ومن الواضح أن كارمن لم تكن سيدة لينة العريكة، ولكن بكرًا وإخوته كانوا يلقون دومًا باللائمة على يسلم وأنه السبب المباشر لقرارها بنشر تفاصيل حياة العائلة الشخصية في كتابها. وفيما يبدو، كان المقابل المادي أحد دوافعها لاتخاذ قرار تأليف الكتاب: فلماذا لم يتوصل يسلم معها إلى تسوية ما ترضيها؟ ولم سمح بالمماطلة واستغرق وقتًا طويلًا من دون أن يطلقها؟ وكيف تحمل يسلم أن تبتعد عنه بناته على هذا النحو... فأي والد يمكنه فعل ذلك؟[٨] فقد كان تاريخ عائلة بن لادن يموج بكثير من حالات الطلاق، ولكن هذه حالة استثنائية لم تتكرر من حيث طول المدة المليئة بالملابسات الاجتماعية السيئة وتشويه صورة العائلة على نحو مهين.

كان كل من يسلم وكارمن من أصحاب المشروعات التجارية، وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، لم تقتصر خصومتهما على الدعاوى القضائية بسبب الطلاق فحسب، لكنها امتدت لتشمل المنافسة على الاستحواذ على المميزات التي يكفلها لقب عائلة بن لادن وتحقيق المنفعة منه. فمن خلال الرحلات التي قامت بها للترويج لكتابها، أصبحت كارمن أشهر فرد في عائلة بن لادن في العالم بأسره بعد أسامة، وعزم يسلم على منافستها على ذلك اللقب أيضًا.

كانت كارمن تتمتع بحليف قوي في هذا السباق وهي ابنتها الكبرى وفاء التي شاركتها الأضواء أينما ذهبت بعد عام ٢٠٠٣م. كانت وفاء قد تخرجت في جامعة كولومبيا قرابة أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وكانت تعيش في الدور العلوي لمنزل في ويست فيليدج بنيويورك سيتي، مقابل إيجار بلغ ٦,٠٠٠ دولار شهريًا. وكانت وفاء شابة حسناء في بداية العشرينيات من عمرها آنذاك، وتتمنى أن تصبح مطربة مشهورة. وكي تضمن نجاح ألبومها الأول تقابلت مع باربرا والترز، وكانت تبحث في ما

---

(٨) سلوك بكر والإخوة من حوله: من خلال مقابلة مع شخصيْن مقربيْن من العائلة أحدهم ناقش المسألة مباشرة مع بكر؛ وقد طلبا عدم الكشف عن هويتيهما.

يبدو عن وسيلة تسويقية لترويج موهبتها على نحو يشبه أسلوب المصارعين الذين يستخدمون قوة منافسيهم للتغلب عليهم بشكل عكسي. لذا لم تدخر جهدًا في الاستفادة من سوء سمعة أسامة بن لادن لتحقيق شهرة في حياتها العملية كمطربة. فعرضت على مجلة أمريكية شهرية للرجال، هي مجلة جي كيو، أن تظهر بملابس خليعة وغيرت كنيتها إلى داوفور، وهو اسم خادمة والدتها، لكنها لم تخجل من انتمائها إلى عائلة بن لادن لأن ذلك جذب الإعلام لها من دون عناء. وقالت وفاء: «أشعر أن كل الناس يفرضون الرقابة عليّ ويرفضون تصرفاتي! ولكن أين الحرية والحلم الأمريكي؟ لا أريد شيئًا سوى أن تتقبلوني، فأنا في حاجة إلى من يرعاني فقيمي وأخلاقي لا تختلف عن قيمكم وأخلاقكم». ولم تكن وفاء تتحدث اللغة العربية ولم تكن تحمل جواز سفر سعوديًّا، وربما كان شعورها بالوحدة حقيقيًّا، ولكن يبدو أن شكواها مبالغ فيها، وربما كانت ثائرة ساذجة لا تاريخ لها، لذا حققت في النهاية مبيعات محدودة(٩).

انطلق يسلم إلى سوق العمل وتقدم على زوجته وابنته الشاعرتين بالوحدة والاغتراب في جانب واحد فحسب. ففي شهر فبراير/شباط من عام ٢٠٠١م، تقدم يسلم بطلب إلى الحكومة السويسرية بموجب القانون الساري في سويسرا لتسجيل علامة تجارية باسم «ابن لادن»، عن طريق شركة فالكون سبورتنغ غودز التي يملكها. وكان يسلم يخطط لأن يفتتح خط إنتاج لعائلة بن لادن في مجال الملابس والنظارات وربما المجوهرات والدراجات والحقائب والأمتعة. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وافق المحامي جورج براند السويسري الجنسية، على أن يشرع في تنفيذ خطط يسلم بشأن خط إنتاج الملابس في العالم العربي مبدئيًّا. وعلّق براند قائلًا: «إن هذا الاسم «ابن لادن» واحدٌ من أشهر الأسماء في العالم». وسئل براند إن كان ينوي بيع سراويل الجينز في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يحالفه الحظ في الرد إذ تلعثم بقوله: «لا نستطيع في الوقت الحالي الاتجاه إلى خط إنتاج آخر خارج العالم العربي»(١٠).

---

(٩) استنادًا إلى وكالة أسوشيتد برس في ٢٣ من شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م.

(١٠) استنادًا إلى صحيفة **وول ستريت** جورنال في ١٧ من شهر يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٢م.

ربما كانت سراويل الجينز طراز «ابن لادن» ستروق للشباب العرب في سن المراهقة، ولكن يسلم وشركاءه لم ينتبهوا لرد فعل الناس في سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية. وأعلن المعهد الفدرالي السويسري للملكية الفكرية أنه لن يعتمد علامة «ابن لادن» التجارية لأنها تمثل خرقًا «للأخلاقيات المتعارف عليها»، ورد يسلم على ذلك بأن خططه قد أسيء فهمها، وقال إنه أدرك أن بيع ملابس تحمل العلامة التجارية «ابن لادن» لن يكون «أمرًا حساسًا». وقال لاحقًا: «يجب عدم معاملتي على أنني أنتمي إلى عائلة بن لادن فحسب، فأنا أدعى يسلم بن لادن، ولي هويتي الخاصة». وذكر أنه يعتبر أسامة وقتئذٍ «مجرد اسم يُتداول في الصحف وليس له وجود يُذكر على أرض الواقع»[11].

افتتح يسلم متجرًا فخمًا في أحد الأحياء التقليدية في جنيف القديمة وكان يبيع فيه حقائب يد باهظة الثمن، وإيشاربات من الحرير وعطور وساعات يدوية الصنع، محفور عليها خريطة المملكة العربية السعودية، وكانت تكلفة الساعة الواحدة تبلغ عشرين ألف دولار. واتخذ يسلم هذه المرة من اسمه علامةً تجارية، وكان يستغرق ساعاتٍ طويلة في مزج العطور التي تحمل اسمه، وتخير عطرًا من بين روائح الياسمين والفاكهة وأسماه في النهاية «باشون».

وفي جنيف توجهت الكاتبة البريطانية ماريان ماكدونالد إلى يسلم في زيارة له، وقالت لدى رؤيته إنه «خجول وهادئ» وذكرت أنه كان يرتدي «معطفًا من طراز هيرمس وسروال جينز طراز ديور». وأخذت عنه انطباعًا بأنه شخص حساس؛ إذ تحدث معها بصراحة عن القلق الذي طالما صاحبه منذ الطفولة[12].

عندما سئل يسلم إن كان أسامة قد دمر حياته وأثر فيها بالسلب، قال

---

(١١) استنادًا إلى وكالة أسوشيتد برس في ١٨ من شهر يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٢م. بلومبرغ نيوز في ٢٢ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٢م. **تايم** في ٨ من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٤م.

(١٢) استنادًا إلى زيارة المؤلف في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٦م. ماريان ماكدونالد «أين أنت يا أخي» في إيفيننغ ستاندرد لندن ٢٦ من شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٦م.

لماكدونالد: «لقد حدث ما كان مُقدّرًا له أن يحدث»، واستطرد مشبكًا أصابعه في حسرة: «ليس بيدي شيء أفعله، إن كنتِ ستقولين: «انظر إلى ما حل بك»، لن أفعل شيئًا سوى أنني سأزداد اكتئابًا، ولو كان بوسعي فعل أي شيء أحبه، من صنع عطور وساعات يد وغيرها، فلن أتأخر في فعل أي شيء أستمتع به».

شعر يسلم أن العلامة التجارية التي تحمل اسمه لديها القدرة على التنافس في السوق مع علامتي هيرمس وشانيل الفرنسية والتفوق عليهما. وكم كان هذا الهدف طموحًا، وقال يسلم: «لكنني أقدم جودة أفضل وأرجو أن يعرف الجميع ذلك»(١٣).

---

(١٣) كل الاستشهادات مقتبسة من ماكدونالد المرجع السابق.

الفصل التاسع والثلاثون

أسئلة حائرة

أعربت كارولين ـ أرملة سالم الإنكليزية ـ عن رغبتها في أن تظل مرتبطة بعائلة بن لادن بعد وفاة زوجها. وقد جرت العادة في الجزيرة العربية أن تتزوج الأرامل من إخوة أزواجهنّ، وعندما قاربت سما ابنة كارولين وسالم، على بلوغ الثمانية أعوام، فاتح بكرٌ أخاه غير الشقيق ـ خالد ـ الذي كان مقيمًا في مصر بخصوص الزواج من كارولين. وقال بكر عن كارولين وفقًا لشهادة صبري غنيم، مساعد خالد، إنها «ما زالت شابة. . . وإنها تريد الإقامة في مصر. ولو تزوجت شخصًا أجنبيًّا لا ينتمي إلى العائلة، سنخسر ابنتنا سما، ولذا نريد أن يتزوجها أحد أفراد العائلة وأن يحسن معاملتها. إننا نعرف أنك مقرب إلى قلبها لقربك الشديد من سالم، وستكون أبًا صالحًا لابنة أخيك». ولمَّا كان خالد يملك مزارع خيول ويعشق الخيول الثوروبريد (الهجينة) وكان شغوفًا بالفن والشعر، ويملك شقة في القاهرة المتفتحة، كان هو الزوج الأمثل لكارولين، وهو ما شجعه على الزواج منها[1].

وفي اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، عام ٢٠٠٥م، وصلت كارولين كاري مع زوجها الجديد، خالد، إلى مزرعة الزهراء التي تقع في المنطقة الصحراوية خارج القاهرة، لحضور المسابقة الدولية للخيول العربية الأصيلة التي تُقام كل عام. وكانت ترتدي حينها قرطًا من

---

(١) استنادًا إلى مقابلة مع صبري غنيم في ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥م. تزوجت كارولين مرة أخرى بعد مضي ثمانية أعوام من وفاة سالم: من خلال مقابلة مع شخص مقرب من العائلة طلب عدم الكشف عن هويته.

اللؤلؤ الأبيض، وبلوزة بيضاء، وسروالًا بنيًا فاتحًا، وتربط سترة حول خصرها. كانت كارولين كاري تتمتع بعينين زرقاوين ثاقبتين وفكًا قويًا مميزًا. وكانت خير أم أيضًا لابنتها سما التي كانت في ذلك الحين قد بلغت سن المراهقة وتتمتع بكامل الحيوية والنشاط، وتنامى لديها الشغف بالسياسة، حتى وصفها بعض أفراد العائلة بأنها ورثت من سالم كل صفاته الحميدة. وصلت سما إلى القاهرة أيضًا لحضور المسابقة، وأدخل خالد بن لادن عددًا من خيوله العربية إلى المضمار[٢].

كان من ضمن الحضور في هذه المسابقة ابن خالد المدعو سالم الذي كان قد أنجبه من أم تزوجها في مرحلة مبكرة من حياته، وكان قد درس في مدرسة داخلية في فيرجينيا، وكان يعمل في ذلك الحين في إحدى شركات العائلة. وكان أيضًا يهوى تربية الخيول العربية ويتدرب على الرماية الأولمبية وكان بارعًا فيها. وكان يرتدي سترة سوداء ذات رقبة عالية ماركة برادا، وبنطلون جينز ضيقًا ماركة جيورجيو أرماني، وحذاء أسود برقبة طويلة، ونظارة شمسية عاكسة للضوء. ويستخدم شعار شركة أرماني كشاشة توقف على هاتفه المحمول الفضي ماركة نوكيا.

وفي المسابقة جرى تشغيل أغنية «باربي غيرل» بصوت عال في مكبرات الصوت، وجلس يسلم في المدرج المسقوف لمشاهدة هرولة الخيول واختيالها في مضمار السباق. وكان يدخن التبغ الأخضر في غليون واعتاد ذلك منذ أن كان يقيم في الخليج.

فكر سالم مليًا في السؤال الآتي: هل غيّر أسامة من وجه الحياة في ما بين أفراد عائلة بن لادن؟ وأجاب نفسه بقوله: «ماذا يمكن أن نفعل حياله؟ فهو أخ لنا ويحمل اسمنا، وبوسعنا التعامل مع هذا الأمر... بيد أنه يؤثر فينا جميعًا، وعلى الرغم من ذلك فإننا عائلة كبيرة ويمكننا تخطي هذه الصعاب واستيعابها». ومرت الفكرة على خاطره مرور الكرام ولم يعبأ بها تارة أخرى.

---

(٢) يعرب المؤلف عن شديد امتنانه لروبين شالمان لبحثها الميداني الجريء الذي قادها إلى عرض للخيول حيث أخذت كل الملاحظات وأجرت كل المقابلات التي ظهرت في هذا الجزء. وكثير من الأوصاف اللغوية الواردة هنا تعود إليها.

كان خالد، أبو سالم، يمر في ما بين المتفرجين والمدربين والفرسان المشاركين في المنافسة. وعلى الرغم من بلوغه الخمسين من عمره، كان يتمتع بصحة جيدة، ويرتدي جينزًا أزرق وقميصًا أزرق أيضًا، وحذاء أصفر داكنًا، وربطة عنق مزركشة بالألوان الأصفر والأزرق والأحمر، وكان أصلع الرأس وقصير الشعر.

قال سالم عن أبيه: «يعتبر والدي أن الخيول فن في حدّ ذاتها، فهو يرسم الخيول على اللوحات». وفي المسابقة وافق خالد على التحدث «عن الخيول فحسب» لبضع دقائق. بينما تجمع أفراد عائلة بن لادن حول طاولة أسفل خيمة بالقرب من مضمار السباق، وجلس خالد ـ بعد أن ألقى كلمته ـ مسرورًا ولكن بتحفظ.

كان خالد، شأنه شأن كثير من إخوته، يعشق الطيران في أوقات الفراغ، إلا أنه توقف عن ممارسة هوايته بعد أن نفد منه وقود طائرته ذات مرة أعلى مدينة الأقصر بمصر. وكان يستمتع بالصيد ويتردد على نادي الصيد الذي أُنشئ في أثناء الحقبة الاستعمارية في القاهرة. وكان يملك مزرعة خيول في مصر منذ عام ١٩٨٢وهي تضم حاليًّا زهاء الخمسين حصانًا عربيًّا ممن يعود نسلها إلى الخيول البدوية الأصيلة التي كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية قبل الحقبة الاستعمارية، وكان الغزاة العثمانيون هم من جاؤوا بها إلى مصر في القرون الأولى. ولم تكن هذه الخيول تشترك في السباقات الرياضية، بل كان خالد يربيها للاشتراك في العروض فحسب، وكانت المنافسات تدور حول المظهر العام واستعراض مهارات الخيول. وكان خالد قد انتقى من بين الخيول فحولًا وخيولًا لتربيتها في مزرعته في مصر، المعروفة باسم «رباب ستود». وزرع خالد في أرض تلك المزرعة الصحراوية الصبار والنخيل وأشجار المانغو. وصُممت إسطبلات الخيول على الطراز العربي والبربري القديم. وفي المنزل الرئيس في المزرعة، علق خالد على أحد الجدران صورة لأبيه محمد بن لادن وصورتين أخريين للملك فهد والملك فيصل. وقال خالد إنه ظلّ طيلة ربع قرن هائمًا في عشق الخيول العربية.

وقال خالد: «لقد انتقينا للمسابقة الأفضل من بين خيول الإسطبل

ويمكنكم تحديد الأفضل الآن بأنفسكم». وكان ينزعج من الأسئلة كافة حتى البسيطة منها، وكان يبذل مجهودًا مضنيًا ليكون ودودًا مع الآخرين، وصرح ذات مرة بأن فرسه المفضّل يُسمى «أفراح».

وعلى الرغم من ذلك، كان خالد أقل تحفظًا في ما ذكره في المنشور الذي وزعه على الحضور حينما أعرب عن عشقه الشديد للخيول، إذ قال: «إنني أحاول عزف سيمفونية صداقة هادئة مع الخيول.. فتبدو كأغنية تتألف من عناصر عديدة ليعلو صوتها في النهاية كقطعة فنية تدب فيها الحياة بتناغم وتآلف». وكأن تاريخ الجزيرة العربية يدور في أحشاء هذه الخيول ويسري في عروق دمها، واستطرد قائلًا: «فلنرَ معًا كيف يسير الحصان العربي بعزة وفخر، وكيف يصهل، ويعلو صوته مدويًا في الأرجاء، ويحرك ذيله بانسيابية وكأنه يسبح فوق الأرض ليسابق الريح. وحينها سترى كل ما يتمنى الإنسان أن يراه».

أبلت خيول خالد بلاءً حسنًا في المسابقة واحتكرت المراكز الأول والثاني والثالث، وحينها دنت سيدات بريطانيات في منتصف العمر من الطاولة التي يجلس عليها أسفل المقصورة المغطاة لتهنئته بالفوز، وقالت إحداهن: «تهانينا!» ومالت نحوه لتقبله على وجنتيه وقبلها خالد هو الآخر، ونظر حوله وقال: «إذًا، يمكنني التقبيل مثل الأوروبيين»[٣].

بعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، أصبحت مصر الملجأ والوجهة المثلى لعائلة بن لادن بحثًا عن الراحة والترفيه. فهناك توجد مزرعة خالد وممتلكاته الأخرى في القاهرة وما حولها، إلى جانب عدد من المنازل والعقارات الأخرى في أرجاء المدينة، وكان يملكها إخوة وأخوات بكر غير الأشقاء. وفي شرم الشيخ كانت العائلة تملك «جزيرة بن لادن» والمنتجع الذي كان بكر يمتلكه بمفرده على البحر الأحمر. وبذلك كانت مصر ـ مثلها مثل بيروت ـ هي المكان الذي يوفر للعائلة وسائل الترفيه اللازمة والاستجمام في طقس معتدل بعيدًا عن رطوبة الطقس في جدة والحياة المتزمتة فيها، من دون أن تُفرض عليهم أي تعقيدات

(٣) كل الاستشهادات في هذا الجزء من المرجع السابق. المنشور عن رباب أعدّته روبين شالمان خلال زيارتها لضيعة خالد.

للانتقال من بلد إلى آخر، أو صعوبات ناجمة عن استخدام بطاقات الائتمان في أوروبا أو أمريكا. وامتازت مصر بأنها تعج بأنشطة الحياة، وكانوا يشعرون أنها بلدهم الثاني مهما اختلفت توجهاتهم، فأصبح يلجأ إليها المتدينون من مرتادي المساجد وراغبو الاستمتاع بحياة الترفيه من مرتادي مطاعم هارد روك كافيه، للاسترخاء ونيل قسط من الراحة.

وكانت مصر هي الملاذ الآمن للعائلة لإتمام صفقاتهم وإجراءات العمل، إذ كان فرع شركة بن لادن في مصر يضم قرابة الألف موظف، وحصلت الشركة على كثير من العقود الكبرى لإتمام أعمال إنشاءات في مطار القاهرة وشرم الشيخ بعد عام ٢٠٠٢م. ودعم البنك الدولي هذه العقود جزئيًّا، وصدَّق أيضًا على شرعية استمرار الصفقات مع العائلة بوضوح شديد. ولكن أعمال العنف التي كان أسامة يشجعها كان لها أثرها؛ فشعرت الحكومة المصرية أن انتشار لافتات الإنشاءات التي تحمل اسم «ابن لادن» وتروج له بالقرب من اثنين من أهم مطاراتها الدولية سيربك السياح الأجانب ويثير قلقهم، وهذا ما دفع فرع الشركة في مصر إلى تغيير اسمها إلى شركة «المراسم»(٤).

وبنهاية عام ٢٠٠٥م، بات من الواضح أن قدرة عائلة بن لادن على الاستمرار في العطاء بعدما فعل أسامة فعلته لن تتواصل فقط، بل ستزدهر وتزداد قوة وتأثيرًا؛ إذ ظلت العائلة المالكة السعودية متمسكة بهم كمقاولين لكبرى أعمال الإنشاءات التي تُجرى في مكة والمدينة المنورة. وبعدما لقي الملك فهد حتفه في صيف عام ٢٠٠٥م، عزّز بكر علاقته مع خليفته وولي عهده، الأمير عبد الله. وأسرعت العائلة إلى الرياض في صيف ذلك العام لتقدم فروض الولاء والطاعة إلى الملك الجديد، وأدى صعود الملك عبد الله إلى سدة الحكم إلى منحهم فرصة جديدة، ولم يتخوفوا من بزوغ فجر عهد جديد من الريبة والخوف من المجهول. إلا أن العائلة واجهت صعوبات في التعامل مع الوضع الجديد من دون أي رد فعل سياسي صادر عن حكومة المملكة العربية السعودية. فنظرًا إلى الأهمية

---

(٤) استنادًا إلى مقابلة مع اللواء فتحي فتح الله ومانفريد باير في شركة مطار القاهرة في ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥م.

البالغة للعائلة وعظم حجمها وانتماء أسامة بن لادن إليها في نهاية الأمر رغم كل الإشارات، دعمهم آل سعود كالعادة، وأرسل عبد الله رسالة إلى العالم الإسلامي (ولم يَعِ تبعاتها) بأن العائلة المالكة السعودية لن تعفو عن أسامة ولكنها لن تسعى إلى الانتقام منه أو من عائلته، كما حدث من قبل لعائلات بعض الخارجين عليهم في الدول العربية. وكالعادة، كان آل سعود في حاجة إلى خبرة عائلة بن لادن العملية، وما إن حدث ما حدث في العراق إثر الحرب التي شنتها أمريكا على البلد الشقيق، ارتفعت أسعار النفط وارتفعت عن سبعين دولارًا للبرميل، وارتفعت معها تكاليف الإنشاءات في المملكة وفي إمارة دبي المجاورة. وانتشرت الإعلانات عن الحاجة إلى تشييد البنايات السكنية وناطحات السحاب الإدارية ومتاجر التسوق والطرق السريعة والمساجد والمطارات... واحدًا بعد آخر، وأخذت شركات التعمير كافة ـ حتى عديمة الخبرة وسيئة التنظيم منها ـ في الازدهار والتقدم. وتشابه الوضع مع ما حدث في سبعينيات القرن العشرين عندما تدفقت الأموال النقدية بصورة مبالغ فيها وغير مخطط لها. وكانت عائلة بن لادن تتمتع آنذاك بمركز مرموق يسمح لها بتحقيق أرباح وفيرة.

ومن ثَم نجحت مساعي تحديث شركات العائلة وتدويلها وفقًا لإرشادات بكر ويحيى بن لادن نجاحًا باهرًا. وعلى الرغم من أن مهندسي العائلة ـ بكر ويحيى ـ ربما لم يكونا يتمتعان بسحر سالم وخفة ظله، فإنهما تمكنا بعد مرور سنوات طوال من العمل الشاق من تمكين عائلة بن لادن تمامًا وتأمينها بثروات طائلة والحفاظ عليها من دون أن يمسسها سوء عبر الأجيال المختلفة. ولعلنا نذكر كلمات سالم في أوج تألقه وذروة نجاحه عندما قال للملك فيصل: «كان أبي يمتطي البعير، وها أنا ذا أطير على متن الطائرات النفاثة، وكذلك سيفعل أبنائي، أما أحفادي، فسيعودون إلى امتطاء البعير من جديد». لم ينف بكر ويحيى بن لادن هذا التوقع لكنهما لم يوليا اهتمامًا كبيرًا لاحتمالية حدوثه بفضل القوى الجغرافية السياسية التي تأخذ أسعار النفط إلى أعلى المستويات[٥].

قال يحيى بن لادن في أواخر عام ٢٠٠٥م إنه كان يتوقع ارتفاع عدد

(٥) استنادًا إلى مقابلة مع بنغت يوهانسون في ٣ من شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٦م.

الموظفين في شركات عائلة بن لادن من قرابة خمسة وثلاثين ألف موظف إلى زهاء خمسة وسبعين ألفًا خلال سنوات العقد اللاحق، بسبب استمرار تدفق الثروات الناجمة عن ارتفاع أسعار النفط إلى منطقة الخليج. وكان يحيى يأمل في تنويع أنشطة شركات العائلة ويرجع ذلك إلى أن عقود الإنشاءات التقليدية لا تأتي بربح وفير في النهاية، ولم تمثل إلا ربع عائدات العائلة تقريبًا. وقال مقتبسًا من مثل عربي: «يصنع الآباء الثروة ويحافظ عليها الأبناء ويبددها الأحفاد». ومع ذلك كان مقتنعًا بأن عائلته بوسعها تجنب تلك السقطات، فأبناؤه وأبناء بكر وأبناء إخوته الآخرين حصلوا على تعليم عالٍ متميزٍ في أرقى الجامعات الغربية، واتجه بعضهم إلى مجال المال والأعمال. إضافةً إلى أن إخوة بن لادن غير الأشقاء، مثل محمد، ممن لم يصلوا إلى الخمسين عامًا بعد، كانوا يَمضون قُدُمًا في إثبات قدراتهم كمديرين تنفيذيين، ولكنهم لم يكن لديهم أدنى استعداد ليستغرقوا أسبوعين مثلًا في مجلس في الرياض في انتظار توقيع أحد الأمراء متقلبي المزاج على عقد إنشاءات، مثلما كان يفعل سالم وبكر من بعده بصبر وطول أناة وإذعان طيلة السنوات الماضية. وكان من الضروري تحديث الشركة في البداية، ثم انتظار حدوث شيء مماثل في الجهة السعودية الصانعة للقرارات[٦].

ولكن لم تبد فرص حدوث ذلك مواتية، حيث استمر الحال كما كان عليه منذ الخمسينيات؛ أي كلما تدفقت أموال النفط إلى الخزائن السعودية، ازداد الوضع القائم رسوخًا من دون الحاجة إلى إجراء أي تغيير. ووصف بندر بن سلطان وجهات نظر آل سعود، محدثًا نفسه بصراحة غير معهودة بقوله:

«إن الإجابة التي أردّ بها على أي تهم فساد أسردها في ما ياتي: في الثلاثين عامًا الأخيرة عهدنا إلى تطبيق برنامج تنمية شامل كادت تكلفته تصل إلى ٤٠٠ مليار دولار. فلتنظروا الآن إلى البلد، فأين كان، وأين هو الآن؟ إنني على يقين بأنكم لن تتمكنوا من القيام بكل هذه الإنجازات بما يقل عن... فلنقل، ٣٥٠ مليار دولار. وإن قلتم إن بناء هذا البلد بأكمله

(٦) استنادًا إلى مقابلة مع شخص ناقش هذه المسائل مع يحيى وطلب عدم الكشف عن هويته.

يتطلب إنفاق ٣٥٠ بدلًا من ٤٠٠ مليار دولار سيجعلنا هذا نبدو بمظهر من فرّطوا في إنفاق الخمسين مليار دولار هباءً أو أننا تورطنا في فساد مالي، سأرد عليكم بقولي: «سأجيبكم عن ذلك في وقت لاحق!» فهناك الكثير والكثير من بلدان العالم الثالث التي لا تزال تعاني التخلف رغم امتلاكها النفط، بل إن أمامها ثلاثين عامًا لتلحق بنا. والأهم من ذلك أيها السادة، من أنتم كي توجهوا إليّ هذا الحديث؟ فما أودّ قوله: إليكم عني، ما علاقتكم بالأمر؟»

لم يمر وقت طويل حتى أجرت الحكومة البريطانية بحثًا جنائيًّا على صفقات المعدات الحربية التي كانت تباع للمملكة العربية السعودية خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وذلك في إطار اهتماماتها وقلقها بالأمن القومي. وذكرت إحدى الصحف البريطانية أن مبالغ تُقدّر بمئات الملايين من الدولارات قد دخلت في الحسابات المصرفية لبندر بن سلطان، كجزء من الترتيبات المالية التي طالب بها السعوديون لعقد صفقات السلاح المشار إليها[٧].

ولكن، ما الخطأ في ذلك؟ لم تمتلك عائلة بن لادن الشجاعة الكافية لطرح هذا السؤال علنًا، على النقيض من بندر بن سلطان، وبمرور الوقت بعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، بدأت التداعيات المقترنة بالهجمات تتلاشى وبدا أن مستقبل العائلة سيكون أكثر إشراقًا. بيد أن الأمر لم يخل من التكدير تمامًا؛ إذ أقامت أسر الضحايا دعاوى قضائية ضدّ العائلة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأُدمجت الدعاوى كافة تحت عنوان «عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الإرهابية في عام ٢٠٠١م»، والمتهمون في هذه الدعاوى هم: مجموعة بن لادن السعودية، وإخوة أسامة الأربعة، بكر وعمر وطارق ويسلم. وجاء في إحدى تلك الدعاوى أن مجموعة بن لادن السعودية، «في ظلّ إدارة بكر بن لادن لها، قدمت دعمًا ماليًا كبيرًا إلى تنظيم القاعدة ووفرت ما يحتاج إليه». بينما وكّلت عائلة بن لادن مكتب محاماة أمريكيًّا ناجحًا، هو مكتب «جونز داي» للدفاع عن العائلة، وكان مقر هذا المكتب في واشنطن يقع

(٧) بيت سعود إنتاج مشترك لمارتن سميث وكريس ديورانس لفرونت لاين عام ٢٠٠٥م.

في مبنى أنيق على الجانب الآخر من البرلمان الأمريكي. وقد ذكر بكر بن لادن للحكومة السعودية أن أتعاب المحاماة العاجلة التي دفعتها العائلة في هذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بها تجاوزت العشرة ملايين دولار، ولكن إنفاق هذه الأموال أتى بثماره ولم يذهب هباءً. ففي بداية عام ٢٠٠٥م، أصدر قاضي المحكمة المحلية في نيويورك ريتشارد كاسي، حكمًا بتبرئة أبناء بن لادن المُدّعى عليهم من التهم المنسوبة إليهم لاعتبارات متعلّقة بسلطة الفصل في الدعاوى المقدمة ضدهم. ومع ذلك لم يغلق ملف البحث والتحقيق في نشاط مجموعة بن لادن السعودية في الولايات المتحدة الأمريكية حتى تُبرأ تمامًا ممّا هو منسوب إليها. ولكن حتى تنظر الدعوى في وقائع الحالة الموضوعية لتاريخ الشركة مع أسامة ـ إن كان سيحدث ذلك على أي حال ـ لتطلّب الأمر سنوات عديدة للتوصل إلى أي شيء[٨].

طُرحت ضيعة ديزرت بير للبيع في عام ٢٠٠٤م في مقابل زهاء الأربعة ملايين دولار، أي بعد أن اشتراها سالم لأول مرة وبدأ يحط بطائراته الهليكوبتر على أرضها بعشرين عامًا. وحيث إن الضيعة مسجلة رسميًّا باسم شركة ليبيرية يقع مقرها في فلوريدا، لم يكن أي مشترٍ في استطاعته شراء الأرض أو المنزل الذي يقع عليها مباشرةً، بل كان عليه أن يشتري أسهمًا (لحامله) قابلة للشراء من الشركة الليبيرية، ثم يحاول إثبات الملكية لدى السلطات العقارية في فلوريدا، وفقًا لما ذكره بعض الأشخاص الذين استفسروا عن تسجيل الملكية. وقيل للمشترين المرتقبين إن عليهم دفع أموال بعملات أجنبية لشراء حق تملك الشركة الليبيرية، ولم تكن عائلة بن لادن ترغب في دخول الأراضي الأمريكية لإتمام هذه الصفقة. وخطط المشترون الذين تحملوا كل هذه العقبات والمفاوضات لتقسيم الضيعة إلى أجزاء وبناء وحدات سكنية فوق أراضيها[٩]. ولكن لم تكن هذه النهاية

(٨) ملفات البي إيه إي لديفيد لي ورب إيفانز المنشورة في صحيفة الغارديان في لندن في ٧ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٧م.

(٩) استنادًا إلى ما جاء في تقرير *Re Terrorist Attacks on September 11,2001* محكمة المنطقة الجنوبية في ولاية نيويورك (MDL 1570) 03. فواتير قانونية تخطت قيمتها العشرة ملايين دولار: استنادًا إلى مقابلة مع مسؤول سعودي طلب عدم الكشف عن هويته.

سعيدة بالنسبة إلى ضيعة شهدت أحداثًا تاريخية، بدأت في مستهل القرن العشرين بشهادة تسجيل براءة اختراع جل ـ أو، وانتهت بهجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

وفور تلاشي الضغوط من فوق كاهل العائلة، قرر بكر أن يتمتع بحياة مترفة هنية بعد طول عناء، فتزوج زوجة ثالثة أصغر منه بكثير، إذ لم تكن قد بلغت العشرين عامًا عندما قابلها وتزوجها قرابة عام ٢٠٠٤م. وكان يروّح عن نفسه أكثر من أي وقت مضى؛ فيقضي إجازاته على جزيرة خاصة في المالديف، ويستمتع برحلاته في أحد منتجعات بالي، ويكوِّن صداقات في بيروت مع رجال أعمال سعوديين أثرياء من مالكي اليخوت، ويحضر العروض الجوية في دبي، ويثرثر لساعات طويلة مع زملائه عن أحدث طرازات الطائرات النفاثة. وورث أبناؤه تعلق العائلة بالمركبات السريعة، وفي أواخر عام ٢٠٠٦م حصل عبد العزيز بن بكر على جائزة أفضل سائق دراجات هوائية في الإمارات[١٠]. وفي ذلك الوقت كانت ثقة بكر بن لادن في نفسه تعكس في ما يبدو ثقة المملكة العربية السعودية: ففي ذلك الحين صدر الحكم بإعدام صدام حسين، ذلك الرئيس العراقي الذي سبّب كثيرًا من المعاناة والقلق للمملكة، وتمكن أسامة بن لادن من الاختفاء وتوارى عن الأنظار، ولم تكن الهجمات الإرهابية التي تشنها القاعدة داخل المملكة العربية السعودية من آن إلى آخر تؤثر بشكل ملحوظ، وارتفعت أسعار النفط بشكل مهول، واتسمت السياسات السعودية وخطط توارث العرش بالاستقرار، وكان الأمريكيون سيضطلعون بمسؤولية التعامل مع أي تهديدات قد تفرضها إيران مستقبلًا؛ لذا لم يكن هناك أمور تثير القلق أو الخوف على الوضع في المنطقة.

في عام ٢٠٠٥م أنشأت شركة يورك إنترناشونال التي يقع مقرها في ولاية بنسلفانيا مجمع وحدات تكييف هواء صناعية ـ أو ما يُطلق عليه مبردات مائية ـ في مكة المكرمة، قبلة المسلمين ومصدر ثروة عائلة بن لادن، على قمة جبل القلعة البركاني. وكانت هذه الوحدات تمثل أكبر مشروع تكييف هواء صناعي قامت به شركة يورك منذ أن نفّذت مشروعها

---

(١٠) استنادًا إلى مقابلات مع ثلاثة أشخاص في أورلاندو قدموا طلبات بشأن العقار.

في المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة بالتعاون مع شركة بن لادن. إلا أن المشروع الذي أُقيم في مكة هذه المرة لم يكن لتكييف حرم ديني في الصحراء، بل لتكييف مجمّع سكني مكون من سبعة أبراج وفندق يطل على المسجد الحرام. وذكر أحد التنفيذيين في شركة يورك أنه باكتمال مشروع تكييف هذا المبنى العملاق في مكة، سيتفوق هذا المشروع على المسجد النبوي الشريف بامتلاكه أكبر وأعظم أجهزة تكييف هواء في العالم[١١].

في مرحلة الطفرة النفطية الأخيرة في المملكة، بدا كل رجل أعمال خليجي يعمل في مجال العقارات أو يحقق أرباحًا طائلة من شركاته، بدا شغوفًا بامتلاك مجمّع سكني يطل على المسجد الحرام في مكة. وبحلول عام ٢٠٠٥م أضحى إنشاء العقارات في مكة المكرمة منافسًا لسوق إنشاء العقارات الرائج على الشاطئ الجنوبي الخلاب في ميامي. وقرر أبناء بن لادن في البداية عدم تكبد عناء بيع وحدات سكنية منفصلة في مشروع جبل القلعة، ولذا قرروا بيع برج بأكمله إلى مستثمرين كويتيين. وقال أنور حسن الذي كان يعمل في شركة يورك إنترناشونال إن أبناء بن لادن تملكهم «غضب عارم»، لدى علمهم بالأسعار الخيالية التي بيعت بها الوحدات السكنية في هذا البرج. فقرر التنفيذيون في شركة بن لادن أنهم في المستقبل «سيبيعون كل وحدة سكنية في المبنى بأنفسهم» لزيادة الأرباح[١٢].

وخططت عائلة بن لادن بالتعاون مع عائلة فقيه تنفيذ مشروع أكثر طموحًا ببناء مجمع أبراج في منطقة جبل عمر المطلة على مكة المكرمة. وكان هذا المشروع يتطلب تفجير قمة جبل بركاني لبناء مجمع الأبراج. وكان من المقرّر أن يتضمن مشروع التنمية العقارية هذا إنشاء أربعة أبراج، يبلغ ارتفاع كل منها قرابة ثلاثين طابقًا، على أن تشتمل الأبراج الأربعة على مئة مصعد وما يزيد إجمالًا عن أربعة آلاف وستمئة وحدة سكنية.

---

(١١) عبد العزيز بن بكر: **أخبار الخليج** ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٦م.

(١٢) استنادًا إلى مقابلة مع أنور حسن في ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٥م ومواد مكتوبة قدّمها حسن.

وكان هذا المشروع سيشتمل بالمثل على فندق خمس نجوم، ومركز تجاري، وباحة انتظار تَسَع ألفي سيارة(١٣). وهكذا... بلغ تطور المدن المقدسة في الإسلام ذروته على الجانبين التجاري والإنشائي، وكانت عائلة بن لادن شريكًا أساسيًّا في كل المشروعات الأكثر طموحًا ونجاحًا.

وكانت العائلة أيضًا شريكًا في مدينة الملك عبد الله الاقتصادية التي خُطط لها وأُعلن عنها في أواخر عام ٢٠٠٥م لدى ارتفاع أسعار النفط عن خمسين دولارًا للبرميل. وكان الملك الجديد قد صادر قطعة أرض غير مستغلة بطول البحر الأحمر شمالي جدة، وصرّح بأنه سيقيم عليها مدينة تنافس إمارة دبي. وذكر عبد الله أن تكلفة المشروع ستبلغ زهاء سبعة وعشرين مليار دولار، وكان يخطّط لتشييد ميناء ضخم يضاهي أكبر الموانئ التجارية في العالم؛ من حيث اشتماله على شبكة خطوط سكك حديدية سريعة ومطارات تربط المدينة ببقية أجزاء المملكة، ومنطقة صناعية تشتمل على مصانع للبتروكيماويات وغيرها من المواد، ومنتجع سياحي يطل على البحر الأحمر، بحيث يضم أول ملعب غولف في المملكة مشيّد على أعلى مستوى فيه ثماني عشرة حفرة، وجزيرة للمال والأعمال يُشيد عليها برجان تجاريان يضم كل منهما ستين طابقًا أو أكثر، ومنطقة مؤسسات علمية وبحثية تتضمن جامعات متقدمة، إضافةً إلى عدة أحياء السكنية. وقال أحد التنفيذيين في شركة بن لادن إن المشروع «يمكن أن يمثّل إضافة عظيمة إلى الاقتصاد السعودي أو يدمره تمامًا»، لأن أعمال البناء وحدها سوف «تتعدى حدود إمكانيات شركات بن لادن»(١٤).

كان العنوان الرئيس للإعلان عن المشروع الذي تعهدت مجموعة بن لادن السعودية بترويجه في جريدة واشنطن بوست في أواخر عام ٢٠٠٥م هو «مستقبل بلا حدود» أو كما جاء بالإنكليزية: *For the Roads Ahead*. وجاء في محتواه: «ربما كان الإنشاء والتعمير هما جوهر أنشطتنا، ولكن اهتماماتنا تمتد نحو المجال الإعلامي والبيع بالتجزئة والمشروعات الصناعية وعالم الاتصالات عن بعد. وكل ذلك جزءٌ من رؤيتنا الحديثة

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) وورلد وايد بروجكتس المتحدة ١ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٣م.

لضمان بقاء المملكة العربية السعودية نقطةً محورية عصرية وفعالة في المنطقة في القرن الحادي والعشرين»[١٥].

يبدو أن عائلة بن لادن عزمت أمرها على تحقيق أقصى استفادة من الموجة الثانية من مشروعات مواكبة العصر والتجديد التي اضطلعت بها المملكة العربية السعودية، بل إن الحالة الأمنية غير المستقرة ـ أحيانًا ـ في المملكة وفرت لهم فرصًا للازدهار وتحقيق الأرباح، ففي شهر مايو/ أيار من عام ٢٠٠٣م شنت خلايا تنظيم القاعدة التي توجد في المملكة العربية السعودية سلسلة من الهجمات على وزارة الداخلية ومجمعات الأمريكيين في حقول البترول والقنصلية الأمريكية في جدة ولكنها لم تُكلل بالنجاح. واتُّهم سعد، نجل أسامة بن لادن الذي كان منفيًا في إيران، بأن له يدًا في تنظيم الهجمات. وفي المقابل، شنت قوات الأمن السعودية بمعاونة أجهزة المراقبة التكنولوجية الواردة من الولايات المتحدة الأمريكية، حملات هجومية عنيفة ضدّ أتباع تنظيم القاعدة ومؤيديها. ومن ثَم اعتُقل مئات الإسلاميين وأجريت تحقيقات معهم، وسريعًا ما تلاشت بؤر العنف والإرهاب في المملكة. وفي شهر أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٦م، أعلنت الحكومة السعودية عن تنفيذ مشروع سريع لبناء تسعة سجون جديدة في جميع أنحاء المملكة في اثني عشر شهرًا. وأُبرم عقد البناء مع مجموعة بن لادن السعودية مقابل مبلغ مالي يُقدر بـ ١,٦ مليار دولار[١٦].

---

(١٥) بوابة المملكة العربية السعودية في ٢١ ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م. استنادًا إلى مقابلة مع مسؤول تنفيذي لشركات بن لادن وطلب عدم الكشف عن هويته.

(١٦) **واشنطن بوست** في ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٥م.

الفصل الأربعون

أسامة في المنفى

كان مقر شركة فيم أدفيرتايزينغ للدعاية والإعلان يقع في الطابق الثاني في أحد المراكز التجارية في وسط مدينة جدة، في شارع فلسطين. وكان من بين المحلات التي تقع في هذا المركز التجاري ستاربكس وجافا لونج وفيرتيغو ميوزيك كافيه ومركز تجميل بودي ماستر الذي يشتمل على صالة ألعاب رياضية وأخصائيي تدليك. وفي جناح شركة فيم أدفيرتايزينغ، كان الجو العام يشير إلى أنها إحدى شركات التكنولوجيا الفائقة في منطقة سيليكون فالي في جنوب سان فرانسيسكو، ولعل ما كان يوحي بذلك هو وجود طاولة لاحتساء المشروبات ذات مقاعد مرتفعة، وصورة كبيرة بالأبيض والأسود معلقة على الحائط لعربات الكيبل التاريخية في أحد شوارع سان فرانسيسكو غير الممهدة، إلى جانب رسومات انطباعية أخرى معلقة على جدران غرف أخرى في الجناح، وكانت هذه الرسومات تصور مشاهد من النوادي والمطاعم الأوروبية. وكان الأثاث مصنوعًا من الجلد الأسود المطلي بالكروم وخشب الكرز الوردي، وكان موجودًا على أجهزة الكمبيوتر ملصقات تبين أنها من صنع شركة إنترناشيونال بيزنس ماشينز[١].

كان ذلك المناخ العام للمملكة التي أقامها لنفسه عبد الله بن لادن، نجل أسامة الأكبر الذي أنشأ شركة فيم أدفيرتايزينغ في البداية لإرضاء طموحاته كصاحب مشروعات بعد أن عاد إلى المملكة العربية السعودية عقب انشقاقه عن والده في السودان. وبدءًا من أواخر عام ٢٠٠٥م اندمجت شركة فيم

(١) استنادًا إلى زيارة المؤلف في ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٥م.

أدفيرتايزينغ في مجموعة بن لادن السعودية الأكبر والأكثر تأثيرًا، وكانت شركة فيم تضم قرابة خمسة عشر موظفًا. ومما ميز هذه الشركة عن غيرها من الشركات السعودية أنها لم تعمل بمبدأ عدم الاختلاط بين الجنسين في رحاب مكاتبها. وقد طورت موقعًا عصريًّا على الشبكة العنكبوتية، عنوانه <http:// www.fame-adv.com>، وكان من بين عملائها مجموعات تجارية ضخمة اتخذت من جدة مقارًّا لها، مثل مجموعة الجفالي، إضافةً إلى شركات غربية أمثال فيليبس، رائدة صناعة الإلكترونيات.

وكان صاحب شركة فيم أدفيرتايزينغ، وهو عبد الله بن أسامة بن لادن الذي كان في منتصف العشرينيات من عمره، ويرتدي غالبًا الجينز الأزرق وقبعة البايسبول. وقد أدهش الدبلوماسيين في ربيع عام ٢٠٠٢م عندما ذهب إلى القنصلية الأمريكية المجاورة له وهو يرتدي هذه الملابس للاحتفال باستقلال أمريكا، على نهج الأمريكيين في ذلك اليوم (وقد كانت مراسم الاحتفال تقام قبل موعدها بفترة وجيزة بسبب طقس جدة القائظ في شهر يوليو/ تموز). وكان عبد الله يقضي إجازاته في أوروبا، وعندما يكون في جدة لا يكاد يترك النادي الساحلي الذي تملكه عائلة بن لادن على البحر الأحمر، حيث الحرية المطلقة نسبيًّا.

وحتى يحسن عبد الله من الخدمات التي تقدمها شركته ويعززها، طبع منشوراتٍ لتسويق خدماته في صورة بطاقات صغيرة وملونة بحيث يمكن توزيعها على العملاء المرتقبين. وجاء عنوان البطاقة على النحو الآتي: «إدارة الهوية المؤسسية»، وكُتبت أسفله عبارة: «في شركة فيم أدفيرتايزينغ، نؤمن بأن التطوير الناجح لهوية الشركة إنما هو شيء جوهري في أي مشروع أو شركة. ويعتمد تكوين هذه الهوية المؤسسية على البحث الشامل. . . واستخدام الطرق والأساليب المبتكرة التي لا تخطئ في أي مرة». وجاء شعار الشركة على ظهر البطاقة ليتكوّن من كلمة واحدة، هي: «أقوياء». وتبين أن هناك منشورًا آخر يحمل عنوان «إدارة الحملات الدعائية»، وفيه تفتخر الشركة بأن: «حملاتها الدعائية مبتكرة ومخططة بدقة وتُنفّذ بنجاح». وكان شعار الشركة على ظهر المنشور هو: «متميزون». فإن كان عبد الله واعيًا بالأسلوب الذي يوظف فيه منهجية حوار والده، ما كان ليستمر في محاكاته لفترة طويلة، حيث كانت عروض بالونات الهواء

الساخن الملونة، في مقابل التفجيرات الانتحارية بالسيارات المفخخة، شيئًا أساسيًّا لا تحيد عنه حملات شركة فيم أدفيرتايزينغ الدعائية، وفقًا لما عرضته الصور الفوتوغرافية على موقع الشركة الإلكتروني(٢).

لمّا طال مكوث أسامة بن لادن في منفاه بعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، انتشرت عائلته في كل حدب وصوب، وما أدراك بعائلةٍ كبيرة كانت ثمار خمس زيجات على الأقل على مدار عقدين من الزمان. وأخذت العائلة تتنقل من مكان إلى آخر بلا استقرار، تمامًا مثلما حدث لأبناء محمد بن لادن من جيل أسامة عقب وفاة أبيهم. وحتى عام ٢٠٠٢م، كان أسامة قد أنجب على الأقل ثلاثة وعشرين طفلًا، أقامت أغلبيتهم معه في أفغانستان قبل الإعداد لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، ما عدا عبد الله وبعض إخوته. وقبل وقوع الهجمات مباشرةً، يبدو أن أسامة كان قد اتخذ قرارًا بأنه سيتكبد عناء نفيه وعزلته في المرحلة اللاحقة من دون اصطحاب معظم زوجاته آنذاك. وفي صيف عام ٢٠٠١م، خطط بعض أبناء أسامة الكبار لأن تختبئ إحدى زوجات أبيهم على الأقل وأبناؤها على الحدود بين أفغانستان وباكستان ليعيشوا في كنف إحدى القبائل في المنطقة. بيد أن رجال القبيلة سلموها لاحقًا إلى الحكومة الباكستانية، وبعد مضي عدة أشهر، عادت الزوجة في ما يبدو إلى وطنها في المملكة العربية السعودية مع بعض أبنائها. وكانت اثنتان من زوجات أسامة الأُول قد عادتا بالفعل إلى المملكة في ذلك الحين، وبحلول شهر ديسمبر/ كانون الأول، عام ٢٠٠١م، كانت زوجته اليمنية الصغيرة التي تزوجها مؤخرًا قد عادت إلى بلادها أيضًا(٣).

أما أبناؤه، فقد قسموا أنفسهم إلى مجموعتين، ظلت إحداهما للكفاح مع أبيهم، بينما عادت الأخرى إلى المملكة العربية السعودية للاستمتاع

---

(٢) استنادًا إلى الاقتباسات من مواد خاصة بشركة فيم حصل عليها المؤلف. شركة عبد الله وأسلوب حياته: من خلال مقابلة مع أربع زملاء ومعارف في جدة طلبوا عدم الكشف عن هويتهم. راجع أيضًا: الأخ الأكبر من أبناء بن لادن يتحدّث مقال في جريدة **الشرق الأوسط** في ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠١م.

(٣) استنادًا إلى وكالة أسوشيتد برس في ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٢م. وأيضًا من خلال مقابلة مع زوجة بن لادن في مقال في مجلة المجلة في ١٠ مارس/ آذار عام ٢٠٠٢م. إضافة إلى عدد مجلة القدس العربي الصادر في ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠١م. وقد أكد خبر عودتها عدد من الصحفايين اليمنيين في أثناء زيارة المؤلف للدولة في مارس/ آذار عام ٢٠٠٧م.

ببعض مميزات الانتساب إلى عائلة بن لادن. وكان سعد وحمزة وسيف ومحمد وخالد ولادن من بين أبناء أسامة الذين ظلوا معه أو كرسوا أنفسهم لخدمة قضيته وهم يقيمون في منفى آخر (مجهول) في إيران. ومن بين أبنائه الذين عادوا إلى المملكة العربية السعودية، بمن فيهم عبد الله، علي وعمر، وكان عمر قد قرر عام ٢٠٠٠م مغادرة أفغانستان بعد أن بلغ تسعة عشر عامًا[٤].

اكتشف عمر لدى وصوله إلى جدة أن أقرانه في عائلة بن لادن متقدمون عليه تعليميًّا، «فأسامة لم يعلّم أبناءه» في مدارس تقليدية تعليمًا رسميًّا، وفقًا لما ذكره جمال خليفة، زوج أخت أسامة الذي تعرّف إلى عمر عقب عودته إلى المملكة على حين غرة. وكان أسامة في أفغانستان يصر على تحفيظ أبنائه «القرآن... ولذا شعر عمر بالأسى والحزن الشديدين لما أدرك الفرق بينه وبين أقرانه»[٥]. ومع ذلك لم يستسلم عمر لهذا الشعور، بل أثبت نجاحه في مجال تجارة الخردة في جدة. وعندما استقر هناك تزوج من امرأة سعودية، وتغيّر مظهره وأصبح قوي البنية مفتول العضلات، واعتاد ارتداء الجينز الأزرق ولم يعد يطلق لحيته واكتفى بلحية صغيرة مشذّبة تتفق ومظهره العصري.

سافر عمر إلى مصر، وفي خريف عام ٢٠٠٦م، بينما كان يمتطي الخيل في منطقة الأهرامات وهو في منتصف العشرينيات من عمره، تقابل مع جين فيليكس ـ براون، وهي امرأة عجوز كانت تبلغ آنذاك ٥١ عامًا. وكانت جين تنتمي إلى مقاطعة تشيشاير الإنكليزية، وذكرت إحدى الصحف البريطانية أن مظهرها الرائع يعود إلى إنفاقها ثمانين ألف جنيه إسترليني على الجراحات التجميلية على مدار سنواتٍ. وذكرت جين أن الحب جمع بين قلبيهما وسريعًا ما تزوجا، مع العلم أنه سبق لها الزواج خمس مرات من قبل. اعتنقت جين الإسلام، وكان من الطبيعي أن تكون قصة حبهما أقوى من المشكلات الناجمة عن سوء سمعة والده. وقالت جين فيليكس ـ براون إن

---

(٤) مقال وزير الداخلية السعودي عن أبناء بن لادن في جريدة الشرق الأوسط في ٣ يوليو/ تموز عام ٢٠٠٤م.

(٥) اقتباسًا من بيرغن *The Osama Bin Laden I Know* صفحة ٣٨٤.

«عمرَ كان حذرًا من الجميع، وكان دومًا يراقب من يشعر أنهم يتتبعونه، وكان دائم الخوف من الكاميرات وآلات التصوير من دون مبرر... ولكن كان ينسى كل همومه ومخاوفه عندما نكون معًا». وأضافت أيضًا أن عمرَ «ترك والده لأنه شعر أنه ليس من الصواب أن يقاتل أو أن يكون من بين صفوف جيشه». ومع ذلك، «كان يفتقد والده». وفي ما يتعلق بزواجه، نشر كلمةً في صحيفة سعودية يدافع فيها عن زواجه عندما أخذت العناوين الرئيسة في الصحف والمجلات في بريطانيا تذكر ارتباطه بجين على أنه فضيحة، وأوضح فيها أن زوجته الأولى وافقت على زواجه من امرأة أخرى؛ «فالتعدد ليس أمرًا غريبًا على مجتمعنا العربي والإسلامي». وبيّن أيضًا أن النبي محمدًا تزوج من السيدة خديجة «عندما كان في العشرين من عمره، بينما كانت هي في الأربعين». ويبدو أن هذه الكلمة أسفرت عن بعض التوتر في العلاقة بين زوجتيه، وسريعًا ما نشرت براون خبر طلاقهما، وقالت إنها وعمر خشيا أن يصيبهما أي مكروه، لذا اتخذا قرار الطلاق[٦].

في الرابع عشر من شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠١م، كتب أسامة بن لادن وصيته الأخيرة ووقع عليها. وفي هذه الفترة، كان أسامة قد تعرض في مخبئه في منطقة تورا بورا ـ شرقي أفغانستان ـ لقصف مكثف بالقنابل من طائرات القوات التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت. فكتب وصيته، وافتتحها بحمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله، وتشهد فيها بكلمتي الشهادة، ثم كتب: «أوصانا الله سبحانه وتعالى إذا حضر أحدنا الموت أن يترك وصية للوالدين والأقربين، وعامة المسلمين هم في الزمن المشؤوم بمنزلة الوالدين والأقربين، ما يحز في أنفسهم يحز في نفسي وما يحزنهم يحزنني، والله سبحانه وتعالى على ما أقول شهيد. يشهد الله أن حب الجهاد والموت في سبيل الله ملك عليّ حياتي وتغلغلت آيات السيف في كل خلية من قلبي **﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾** [التوبة: ٣٦] وكم مرة أستيقظ من نومي فأجد نفسي أتلو هذه الآية الكريمة!»

---

(٦) عدد مجلة التايمز الصادر في لندن في ١١ يوليو/ تموز عام ٢٠٠٧م. **إكسبرس لندن** ١٦ يوليو/ تموز عام ٢٠٠٧م. وصن **لندن** ٢٠ سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٧م.

وبذلك عكس الأسلوب الذي كتب به الوصية حزنه الشديد وقلبه الكسير، مثلما عكس تعرضه للهزائم العسكرية والسياسية التي أحاطت بتنظيمه وجماعته على مدار خريف عام ٢٠٠١م. وجاء في الوصية أيضًا:

«لو أن كل مسلم يسأل نفسه لماذا وصلت أمتنا إلى ما هي فيه من هوان وانكسار، لكان جوابه البديهي لأنها تكالبت على متاع الدنيا ونبذت كتاب الله وراء ظهرها، وهو الوحيد الذي فيه شفاؤها وفلاحها في العاجلة والآجلة. لقد أغرانا اليهود والنصارى بمتاع الدنيا وملذاتها الرخيصة وغزونا بقيمهم المادية قبل أن يغزونا بجيوشهم، ونحن كالنساء لا نحرك ساكنًا، لأن حب الموت في سبيل الله فارق القلوب... لقد حزّ في نفسي ونفوس إخوتي المجاهدين أن رأينا أمتنا في مشارق الأرض ومغاربها تتفرج على أمريكا تسوم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان سوء العذاب، والأمة تتفرج على المشهد الدامي كمن يتفرج على فيلم للتسلية. علة العلل في بلاء أمتنا هو خوفها من الموت في سبيل الله، لقد انعكست الآية فرأينا الصليبيين الجبناء واليهود الأذلاء يصمدون في قتالنا، وجنود أمتنا يرفعون الراية البيضاء ويستسلمون لأعدائهم، حتى طلبة الدين (أي طالبان) لم تصمد منهم إلا قلة قليلة، أما الباقون فاستسلموا أو فروا قبل لقاء العدو، واليوم قعدت الأمة عن نصرتنا»(٧).

وكتب أسامة لزوجاته يقول لهنّ: «أيتها الزوجات، جزاكن الله عني خيرًا. فقد كنتن لي بعد الله سبحانه وتعالى خير سند وخير معين من أول يوم كنتن تعرفن أن الطريق مزروع بالأشواك والألغام. تركتن نعيم الأهل واخترتن بجانبي شظف العيش. كنتن زاهدات في الحياة معي فازْدَدْنَ فيها زهدًا بعدي، ولا تفكّرْن في الزواج حسَبَكُنَّ رعاية أبنائنا وتقديم التضحية والدعاء الصالح لهم».

وكتب لأبنائه يقول: « أما أنتم يا أبنائي، فسامحوني لأني لم أعطكم إلا القليل من وقتي منذ استجبت لداعي الجهاد. لقد حملت هم المسلمين وهم قضاياهم. لقد اخترت طريقًا محفوفًا بالأخطار وتكبدت في ذلك

---

(٧) كل الاستشهادات من مقال «المجلة تحصل على وصية بن لادن....» عدد مجلة **المجلة** الصادر في ٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٢م ترجمة إف بي أي إس.

المشاقَ والمنغصات والغدر والخيانة ولولا الخيانة لكان الحال اليوم غير الحال والمآل غير المآل».

وقد ترك لأبنائه وصيةً بينةً بألا يعملوا مع تنظيم القاعدة، وأشار إلى قول الصحابي عمر بن الخطاب، عندما نهى ابنه عبد الله عن تولي الخلافة بقوله: «إن خيرًا فقد أصبنا منه وإن كانت شرًّا فحسب آل الخطاب ما ناله منها عمر»[٨].

كانت كتابات أسامة خلال السنوات التي عاشها في السودان، عندما تبرأت منه عائلته تدريجيًّا، تفوح منها رائحة الشعور بالخوف والإحباط، ولكن لم تعبر أي من كتاباته السابقة التي نُسبت إليه عن مثل هذا اليأس والإحباط الواضحين في الوصية. ويبدو أنه كان يظن أن الجيش الأمريكي سريعًا ما سيقع ضحية لثورة معارضة شعبية يقوم بها المواطنون الأفغان، مثلما حدث للجيش السوفياتي بعد غزو أفغانستان في عام ١٩٧٩م. ولكن، ما إن تغلغلت القوات الأمريكية وحلفاؤها في المدن الأفغانية الرئيسة، حتى سقط مناصروه في طالبان، وقُتل كثيرٌ من أعضاء تنظيمه في القاعدة بينما وقع غيرهم في الأسر. وإن كان أسامة قد تخيل أنه الزعيم المنتصر في طليعة جيش العصابات التي يقاتل فيه، فها هو الآن يواجه المصير المخزي بعد أن ولى دبره، وأصبح عرضة للموت أو السجن لا محالة.

مر فصل الشتاء ولم تتحقق أي من هذه المخاوف، وبحلول شهر يونيو/ حزيران، عام ٢٠٠٢م، كان أسامة في أمان ولم يُصب بسوء، بل تمكن من إقامة شبكة حماية شخصية لتأمين نفسه، وكانت تحيطه بسياج دائم من الحماية ممّا مكنه من العودة إلى الدعوة إلى الجهاد، ولكن بحذر، إلى جانب تصوير شرائط الأفلام المصورة لأحاديثه. وكان نشاطه المبدئي في ربيع هذا العام ما زال ينم عن شعوره بالشفقة الشديدة على نفسه، وقد نشر أحد المواقع الجهادية على الشبكة العنكبوتية قصيدة لحمزة بن أسامة بن لادن يخاطب فيها والده الشيخ، وكانت أبياتها الشعرية لسان حال ما يمرّان به في منفاهما وأسباب عزلتهما، وكتب حمزة:

---

(٨) كل الاقتباسات من المرجع السابق.

«أبتاه أين هو المفر ومتى يكون لنا مقر؟
آه أبي كيف ما أبصرت دائرة الخطر؟
أكثرت ترحالي أبي بين البوادي والحضر
أكثرت من سفري أبي بين وادي ومنحدر
حتى نسيت عشيرتي وبني العموم والبشر
ما بال منزلنا اختفى عني فليس له أثر؟
ما بال أمي لم تعد عجبًا هل طاب لها السفر؟
وأخي الحبيب فديته مر الزمان وما حضر
لم لا نرى في دربنا إلا الحواجز والحفر
أعرف أن أمريكا أتت تعبث بالخرج والخبر
فهاجرت مغتربًا إلى أرض بها النيل انحدر
خرطوم بعد أن فتحت أبوابها أبت لي أن أقر
ثم ارتحلت مشرقًا حيث الرجال أولي الغرر
كابول ترفع رأسها رغم الخصاصة والخطر
كابول يبتسم ثغرها تنصر وتؤوي من حضر
الشيخ يونس خالص قد بدا ليثًا يهاب إذا زأر
وأخو الرجولة والإباء أميرنا الملا عمر
أبي لماذا أرسلوا وابلًا من القذائف كالمطر
لم يرحموا طفلًا ولا شيخًا يحطمه الكبر
أبتاه ماذا قد جرى حتى يلاحقنا الخطر
أفداؤك البيت العتيق جريمة لا تغتفر
اثبت أبي لا تبتغي عرض الحياة من البشر
الخلد موعدنا إذا شاء الإله لنا الظفر
قل لي أبي في ما أرى قولًا مفيدًا ومختصر»

هذا هو استفسار حمزة بن لادن لأبيه، فكان رد الشيخ أسامة عليه:

«ابني يكفي إني شبع بالآهات والحسر

عقد اللسان فمقلتي نبع ووجداني سقر

ماذا أقول ونحن في دنيا التكاسل والبطر

ماذا أقول لعالم أعمى البصيرة والبصر

أمم تباع وتشترى بيع السنابك بالغرر

عفوًا بني فلا أرى بالدرب غير شديد منحدر

عقد مرت سنواته بين التشرد والسفر

عمّ تسائلني؟ عن قوم أصابهم الخدر

ها نحن في مأساتنا ذهب الأمان وبقي الخطر

دنيا الجرائم بني الطفل يذبح فيها كالبقر

صهيون تقتل إخوتي والعرب تعقد مؤتمر

أذناب أمريكا غدوا عميًا فليس لهم نظر

حبر على ورق فلا صدقوا ولا ظهر الأثر

لم يسوقوا قوة تحمي الصغير من الضرر

هذه وربك وصمة كبرى يساق لها الخبر

غدرًا يحزم أمره أيذود عنا من غدر

خانوا الرسول وربنا وخانوا الرعية في سحر

إلى متى نقص الرجال والخوالف في غرر

يجب التحرك كيفما أتى لدفع الضرر

وأقسمت بالله العظيم بأن أقاتل من كفر»(٩).

---

(٩) كل الاستشهادات من كتاب بيرغن المرجع السابق صفحة ٣٧١.

بعد ذلك تبيّن أنه لم ينتظر طويلًا، إذ مرت الشهور واستعاد أسامة شجاعته وثقته في نفسه وهو حر طليق. وحتى وقت كتابة القصيدة السابقة، لم تكن الأحداث التي مرّ بها في حياته هاربًا ومختبئًا خشية الاعتقال معروفة، إلا أن سجل الخطابات والتسجيلات التي نشرها وهو منفي خلال هذه الفترة ـ والتي يزيد عددها عن عشرة خطابات وشريط مسجل والمتاحة لأي جهة تود الحصول عليها ـ يوضح لنا المسار الشعوري لدى أسامة بصفة عامة: بدايةً بمرحلة الاحتفال بفرحة الانتصار عقب وقوع الهجمات على نيويورك وواشنطن مباشرةً، وتبعتها سريعًا مرحلة الشعور باليأس، ثم في النهاية مرحلة التعافي تدريجيًّا من الشعور الغالب وإحياء الشعور بالهدف، ممّا أدّى به إلى الرجوع إلى خيلاء الماضي وطموحاته. ولعل التصريحات التي أدلى بها أسامة تبين لنا أيضًا أنه بحلول عام ٢٠٠٣م، أُتيحت له تكنولوجيا البث التلفزيوني بالأقمار الاصطناعية والإنترنت بصفة منتظمة، وهذا على أقل تقدير.

ويبدو أن التخطيط لغزو العراق من جانب القوات الأمريكية هو السبب الأول، وليس أي حدث آخر، الذي دفع أسامة إلى استعادة نفسه من جديد. ووفقًا لما قاله وكتبه، كانت الحرب من منظوره بمنزلة إكسير حياته الدينية والسياسية الذي أُتيح له وقتما اشتدت حاجته إليه. وكانت مرحلة التخطيط للقتال في البداية، في عام ٢٠٠٣م، هي العين التي تفجّرت منها ينابيع كتاباته الطموحة والمطوّلة وذلك في صورة خطب جاءت على نهج الخطب التي كتبها في فترة ازدهار منشوراته في السودان. فبعد فترة من السكينة والألم المبرح، بدا أن شعاعًا من النور انبثق فجأة أمام ناظري أسامة.

كتب أسامة في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠٣م: «وأبشروا فقد تورطت أمريكا في مستنقعات دجلة والفرات. فقد كان الرئيس الأمريكي جورج بوش يظن أن العراق ونفطه غنيمة باردة، فها هو في مأزق حرج... وها هي أمريكا اليوم قد بدأت تصيح بأعلى صوتها وتتضعضع أمام العالم أجمع»[١٠].

---

(١٠) لورانس Messages To The World صفحة ٢٠٨.

وكان أسامة يرى أن: «استنزاف أمريكا اليوم في العراق اقتصاديًّا وبشريًّا ومعنويًّا فرصة ذهبية نادرة فلا تضيّعوها فتندموا، كما أنّ من أكبر الأسباب الدافعة لأعدائنا للهيمنة على بلادنا؛ سرقة نفطنا، فابذلوا كل ما تستطيعون لإيقاف أكبر سرقة تتم في التاريخ من ثروات الأجيال الحاضرة وأجيال المستقبل بالتواطؤ بين الدخلاء والعملاء، فهم يأخذونه بثمن بخس، مع العلم أن جميع السلع تضاعفت أسعارها عدة مرات، إلا النفط وهو أساس الصناعة، انخفضت أسعاره عدة مرات، فبعد أن كان يباع قبل عقدين بأربعين دولارًا، بيع بتسعة دولارات في العقد الماضي، بينما كان ينبغي أن يكون سعره اليوم على أقل تقدير مئة دولار، فاجتهدوا وحُولُوا بينهم وبينه، وركزوا عملياتكم عليه وخاصة في العراق والخليج، فذلك حتفهم»[١١]. واستجاب كثيرون لدعوته، خاصةً من المملكة العربية السعودية.

لم يُخفِ أسامة ازدراءه لصدام حسين، ولكن ذلك لم يكن مبررًا للاحتلال الأمريكي للعراق، وقال في خطابه: «صحيح أن صدام لصٌ ومرتد، ولكن لا يكون الحل أبدًا بنقل العراق من اللص المحلي إلى اللص الدولي؛ لأن تمكين الكافر ومناصرته لأخذ أرض المسلمين والسيطرة عليهم من نواقض الإسلام العشرة». وعندما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية رفع المكافأة المالية لكل من يقبض عليه حيًّا أو ميتًا، رد أسامة بالإعلان في بيان أنه سيقدم عدة كيلوغرامات من الذهب لمن يقتل رئيس الإدارة المدنية للإشراف على إعادة إعمار العراق، بول بريمر، أو غيره من الأمريكيين[١٢].

ويبدو أن أسامة كان يركز في خطبه بالحديث عن التحولات الجارية في الشرق الأوسط التي أعلن بوش ومجلس وزرائه خططهم لتنفيذها. وكانت صياغتهم في الحديث عن عالم عربي «جديد»، يؤيده دستور علماني وديمقراطي في العراق، تؤكد صحة اعتقاد أسامة بأنه يقاتل في معركة فاصلة. وكتب أسامة في مايو/أيار من عام ٢٠٠٤م أن احتلال العراق «يظهر أن الصراع أيديولوجي وديني، وصراع حضارات... إنهم

---

(١١) تقرير الأف بي أي إس في ٦ من شهر مايو/أيار عام ٢٠٠٤م.

(١٢) المرجع السابق. Messages To The World المرجع السابق صفحة ٢٥٥.

حريصون على تدمير الهوية الإسلامية في العالم الإسلامي أجمع»[١٣].

وسخر أسامة من خصومه من الغرب لأنهم أساؤوا فهمه واعتبروه شخصًا متعصبًا ذا لحية، ينتمي إلى العصر الجاهلي ويعيش منعزلًا في كهف بعيد، بينما يرى هو نفسه زعيم التكنولوجيا العالمية وربان سفينة التغيير. وفي الواقع، أخذ تنظيم القاعدة يهيئ أفراده سريعًا بعد عام ٢٠٠١م على احتمالية الانتقال من أفغانستان بعد أن آوتهم لفترة طويلة، وذلك باستخدام الإنترنت استخدامًا مكثفًا لأغراض التدريب، والتواصل مع غيرهم للتخطيط للتكتيكات الحربية والوعظ والإرشاد. وكان اهتمام أسامة بن لادن الشديد بالتكنولوجيا الرقمية هو العامل الذي شجعهم على ذلك، وقد صارت القاعدة في ذلك الحين تنظيمًا وحركةً واسمًا يحمل شهرة واسعة على مستوى العالم. وعندما أشار مسؤولون أمريكيون إلى أن بعض الشرائط المسجلة التي يبثها أسامة بن لادن بنفسه ربما تحمل شيفرات سرية لإعطاء إشارة شن هجمات إرهابية لخلايا نائمة تابعة لتنظيم القاعدة، رد أسامة بازدراء على هذه المخاوف، وقال: «إن ادعاءات الأمريكيين مثيرة للضحك». «فهم يقولون إن هناك إشارات ورسائل خفية مرسلة للإرهابيين في خطابات أسامة بن لادن، وكأننا رجعنا لزمن الحمام الزاجل، ولا نعيش في عصر التلفونات والإنترنت وصناديق البريد والفاكس والبريد الإلكتروني، بل كأنه لا يوجد مسافرون يستطيعون التنقل من مكان لآخر. فهذا سخف واستخفاف بعقول الناس»[١٤].

ومن بين خطابات أسامة بن لادن المميزة، ذلك الخطاب الذي أورد قائمةً بالمظالم في صورة نقاط وفئات مرقمة ترقيمًا رئيسًا وفرعًا، وقد نُشر هذا الخطاب في فترة الإعداد لغزو العراق. ووصف أسامة فيه معارضته الكاملة للولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها الخارجية وقيمها الوطنية. وأشار الخطاب إلى أن أسامة كان يقرأ المجلات الإخبارية الأمريكية بتمعن خلال الساعات الطوال التي قضاها في منفاه وإلى الأحباط الذي أصابه بسبب التحليلات المعتادة التي كان يقرؤها عن دوافعه. «بعض الكتّاب

---

(١٣) تقرير الأف بي أي إس المرجع السابق.

(١٤) راجع: Messages To The World المرجع السابق صفحة ١٢٦، ١٢٧.

الأمريكيين نشروا مقالاتٍ تحت عنوان «على أي أساس نحن نقاتل؟»... وفي هذا المقام نحن نريد الحقيقة لا أكثر». ثم طرح سؤالَيْن أساسيين: «لماذا نقاتلكم ونعارضكم؟» والسؤال الثاني: «إلى ماذا ندعوكم وماذا نريد منكم؟»(١٥)

وكتب أسامة أنه: «بالنسبة للسؤال الأول: لماذا نقاتلكم ونعارضكم؟ الجواب بسيط جدًا: (١) لأنكم هاجمتمونا ولا زلتم تهاجموننا». ثم أخذ يعدد مسرح الحوادث الذي تلقى فيه هذه الهجمات: في فلسطين والصومال والشيشان وكشمير ولبنان. «تسرقون ثرواتنا ونفطنا بثمن بخس بسبب التأثيرات الدولية والتهديدات العسكرية، هذه السرقة هي بالفعل أكبر سرقة شهدها الجنس البشري في تاريخ العالم».

ولعل السؤال الثاني يتعلق بأهداف أسامة الأساسية من الحرب: «وبالنسبة للسؤال الثاني الذي نريد الإجابة عنه: إلى ماذا ندعوكم، وماذا نريد منكم؟ أول شيء ندعوكم إليه هو الإسلام». ويجب على الأمريكيين أن يعتنقوا «خاتم كل الديانات السابقة» حتى ينقذوا أنفسهم من الفسق والضلال:

«ندعوكم إلى أن تكونوا شعبًا ذا أخلاق ومبادئ وشرف ونقاء برفض الأفعال اللاأخلاقية للفسوق والشذوذ الجنسي والمسكرات والقمار والتعامل بالربا، ندعوكم إلى كل هذا لكي تتحرروا من الخداع ولكي تتحرروا من الكذب المضلل بأنكم أمة عظيمة وكذلك قادتكم الذين يخفون عنكم إلى أي أمة حقيرة وصلتم. إنه من المحزن أن نقول لكم إنكم أسوأ حضارة شهدها تاريخ الجنس البشري. أنتم أمة بدلًا من أن تحكموا بشريعة الله في الدستور والقوانين اخترتم أن تخترعوا قوانينكم الخاصة كما تريدون وترغبون. فصلتم الدين عن السياسة، ناقضتم الطبيعة النقية التي تثبت السلطة المطلقة لله وخالقكم، ودائمًا تفرون من السؤال المربك المطروح عليكم: كيف يمكن لله القادر أن يخلق مخلوقاته ويمنحهم القدرة فوق كل الكائنات الحية على الأرض ويمنحهم كل وسائل الحياة من ناحية، ومن

(١٥) المرجع السابق صفحة ١٦١، ١٦٢.

ناحية ثانية يحرم عليهم ما هم بأمس الحاجة إليه: معرفة القوانين التي تحكم حياتهم؟ أنتم الأمة التي تسمح بالربا الفاحش الذي هو محرم في جميع الديانات، وحتى الآن لا زلتم تبنون اقتصادكم واستثماراتكم على الربا، والنتيجة في جميع الأحوال هي سيطرة اليهود على اقتصادكم، ومن خلاله سيطروا على إعلامكم، والآن يتحكمون في كل مظاهر حياتكم، وجعلوكم خدمًا لهم وينجزون أهدافهم على نفقتكم وهو بدقة ما حذركم منه بنيامين فرنكلين. أنتم أمة تسمح بإنتاج وتجارة واستعمال المسكرات وتسمحون أيضًا بالمخدرات وتمنعون فقط تجارتها، ومع ذلك فأمتكم أكبر مستهلك لها. أنتم أمة تسمح بأعمال الفجور وتعتبرها أعمدة للحرية الشخصية، كما وأنكم مستمرون في الغرق إلى الحضيض من مستوى إلى مستوى أدنى منه حتى أصبح زنا المحارم منتشرًا بينكم في الوقت الذي لا معنى للشرف ولا هدف في قوانينكم. من يستطيع أن ينسى الأعمال اللاأخلاقية التي اقترفها رئيسكم كلينتون في المكتب الأبيض الرسمي؟ فلم تحاسبوه فقط أقررتم بخطئه ومن ثَم مر كل شيء بدون معاقبة، هل هناك أسوأ من هذا الحدث الذي سيجعل اسمكم ينزل في التاريخ وتتذكره الأمم؟ أنتم أمة تسمح بالقمار بجميع أنواعه، فالشركات تجيد ممارسة ذلك، والنتيجة تصبح الاستثمارات نشيطة والمجرمون يصبحون أغنياء. أنتم أمة تستغل النساء كمنتجات للمستهلك أو كأدوات للإعلانات داعين المستهلكين لشرائهن وتستعملون النساء لخدمة المسافرين والزوار والأجانب لتزداد هوامش ربحكم، ثم تتبجحون بأنكم من يؤيد تحرير المرأة»[١٦].

كلما مرت شهور وسنوات على هروب أسامة وانقضى الوقت هباءً بلا نشاط في التنظيم، طالت الفترة التي كان يقضيها أمام التلفزيون الذي يبث القنوات بالأقمار الاصطناعية أو يتمعن في تصفح مواقع الشبكة العنكبوتية التي تعرض أخبار العالم الخارجية، وبدا أكثر قابلية لتكوين معطيات متنوعة لمناهضة الأمريكيين والشعور بالضيم من أفعالهم وامتلاء قلبه بمشاعر سلبية نحوهم، سواء أكان مصدر هذه المعطيات اليسار الأوروبي أم اليمين المسيحي أم الحركة المناهضة للعولمة، وقد كان يولي اهتمامًا

---

(١٦) كل الاستشهادات من المرجع السابق من صفحة ١٦٢ حتى صفحة ١٦٨.

خاصًّا بتأثير لهجة الخطاب أكثر من اهتمامه بترابط الخطاب ذاته، ولربما كانت الأبيات الشعرية التي يستخدمها متكلفة وتشتمل على أساليب وألفاظ مهجورة، بيد أنه كان يذكر بين الحين والآخر جملًا وعباراتٍ لا يمكن إغفالها وتجاهلها. وقد وصف أسامة مجابهته الصامدة لأعدائه دفاعًا عن الإسلام في قوله: «السابح في البحر لا يخشى المطر»[١٧]. وبينما كان أسلوب أسامة يفتقر إلى جزالة التعبير، كان واضحًا، وخير مثال على ذلك قوله: «الحرية والديمقراطية التي تدعون إليها هي لكم أنتم وللجنس الأبيض فقط، أما باقي العالم، فأنتم تفرضون عليهم سياستكم وحكوماتكم الشاذة والهدامة المسماة «أصدقاء أمريكا»»[١٨].

وكثيرًا ما كان أسامة يدمج بين هذه الانتقادات ذات الصبغة العلمانية للولايات المتحدة الأمريكية وبين العقائد المناهضة للسامية والاعتقاد في سيادة عصر السلام والمحبة الذي طال انتظاره وبدا واضحًا في نظرته إلى الأمور. وكان أسامة يسلم جدلًا بين سطور خطاباته وثنايا تسجيلاته بحتمية وجود المؤامرات الصهيونية واليهودية وقسوتها، شأنه شأن كثير من العرب.

صرح أسامة قائلًا: «فأمريكا لم تأخذ أموالي ابتداء، ولا آذتني بشيء وإنما نظرًا لتحريضنا ضدّ اليهود والأمريكيين دفاعًا عن أمة الإسلام جاء هذا الكلام منهم... فالحكومة ستُدخل الشعب الأمريكي والغرب عمومًا سيدخل في حياة خانقة، في جحيم لا يحتمل بسبب أن قيادات الحكومات هناك هم على صلة وثيقة، وتحت النفوذ واللوبي الصهيوني يخدمون مصالح «إسرائيل» التي تقتل أبناءنا وأطفالنا بغير حق من أجل أن يبقوا هم على سدة الحكم». ووصف أسامة اليهود بأوصاف تجردهم من الإنسانية بقوله إنهم «حمقى العصر» وإنهم «يصبحون كالحمير الوحشية الهائجة الفارين من براثن الأسد» عندما يقاتلهم الشباب الفلسطيني الصالح»[١٩].

---

(١٧) من متابعة البي بي سي في ١٩ يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٦م.

(١٨) راجع: Messages To The World.

المرجع السابق صفحة ١٦٩.

(١٩) المرجع السابق صفحة ١١٠. بن لادن يدعو لمبادرة سعودية في القدس العربي في ٢٨ مارس/ آذار عام ٢٠٠٢م.

وكان أسامة بن لادن يرفض فكرة الحدود السياسية بين كثير من الدول المستقلة باعتبارها غير شرعية ومصطنعة أتى بها المستعمرون الكفار، وكان يكنّ مشاعر خاصة تجاه البلد الذي عاش فيه شبابه، ليس كمواطن «سعودي»، تلك الجنسية التي كان يشرُف بها آل سعود البغيضون بالنسبة إليه، ولكن كأحد أبناء الحجاز، أرض مكة والمدينة المشرفتين. وكتب بن لادن في أواخر عام ٢٠٠٤م: «لَكَمْ أنا مشتاق لبلدي، ومنذ متى وقد ابتعدت عنها، فليعينني الله على لوعة الاغتراب، فكله في سبيله.

حِجَاز حُبُّهَا فِي عُمْقِ قَلبِي وَلكِن الوُلَاةَ بِهَا ذِئَابُ»[٢٠].

كان أسامة بن لادن في ذلك الحين ينكر أي تعاطف منه سابق مع عبد الله، ولي العهد، الذي كان قاب قوسين أو أدنى من اعتلاء العرش، على الرغم من أنه أشار إلى أن عبد الله كان إلى حدٍّ ما ضحية ابتزاز الأمريكيين له. وقد كتب في إحدى رسائله أن كثيرين اعتقدوا أنه: «عندما يتولى الأمير عبد الله شؤون البلاد، سوف ينقذها من شرك الوقوع في المعاصي والفساد الإداري والمالي والإعلامي... وأنه سوف ينشلها من التبعية لأمريكا. وعلى الرغم من أن شعبه يتوقع كل خير بمجيئه، فقد حلّ عليهم بالشر والخراب»[٢١].

ومرت أشهر طويلة ظلّ أسامة فيها هاربًا، وبينما أخذت القاعدة تحيي أنشطتها الجهادية بانتظام، بل إنها كانت وراء أعمال عنف وقعت في لندن وغيرها من الأماكن، كان أسامة يعبّر عن فخره واعتزازه علنًا بسبب ما حقّقه من انتصارات منذ عام ٢٠٠١م. ولم يكن أسامة يرى نفسه زعيمًا لجيش إسلامي أو حاكمًا نصّب نفسه في خلافة أحد، بل كان يرى أنه على رأس حركة مقاومة إسلامية وسياسية أكثر اتساعًا وأقل تنظيمًا، لم يؤدّي فيها أي فرد في جماعته الإرهابية سوى أدوار مثيرة للمشاعر والأحاسيس. وها هو أسامة الآن يوجز الأمر بقوله إن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول: «أظهرت ضخامة العداء الذي يُكنُّه لنا الصليبيون عندما نزعت

---

(٢٠) راجع: Messages To The World.

المرجع السابق صفحة ٢٤٨.

(٢١) المرجع السابق صفحة ٢٥٤، ٢٥٥.

الغزوتان جلد الشاة عن الذئب الأمريكي وظهر على حقيقته البشعة»[٢٢].

وقد قطع أسامة على نفسه وعدًا بأنه سيتبع في حربه المستقبلية استراتيجية طويلة الأمد في العراق وأفغانستان وغيرهما من البلدان، وأنه سيتأنى في تطبيقها، وسوف يتخللها بين الحين والآخر «هجمات إرهابية» على الأراضي الغربية، وتابع: «أُقيم ميزان الرعب بالقسط». واستطرد قائلًا: «كما ننصح بأهمية استدراج قوات العدو إلى قتال طويل متلاحم منهك، مستغلين المواقع الدفاعية المموهة في السهول والمزارع والجبال والمدن. وأخوف ما يخافه العدو هو حرب المدن والشوارع، تلك الحرب التي يتوقع العدو فيها خسائر فادحة باهظة في أرواحه، كما نؤكد على أهمية العمليات الاستشهادية ضدّ العدو، تلك العمليات التي أنكت في أمريكا وإسرائيل نكاية لم يشهدوها في تاريخهم من قبل بفضل الله تعالى». وقد اهتم أسامة اهتمامًا بالغًا بالأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل التي أشار إليها ذات مرة بأنها «الأسلحة الرابحة في الحرب»[٢٣].

وفي شهر يناير/ كانون الثاني من عام ٢٠٠٦م، أصدر أسامة بيانًا مسجّلًا على شريط صوتي كان بمنزلة آخر بيان رسمي ينطق به لفترة طويلة، وكانت رؤية بوش على أحد الأقمار الاصطناعية من دوافع تسجيل هذا الشريط.

وبدأ حديثه بقوله: «رسالتي هذه إليكم عن الحرب في العراق وأفغانستان، وكيف السبيل لإنهائها، ولم أكن أنوي أن أحدّثكم بهذا الخصوص؛ لأن هذا الأمر محسوم عندنا، ولا يفل الحديد إلا الحديد، وأحوالنا بفضل الله من حسن إلى أحسن، وأحوالكم على العكس من ذلك. ولكن استنهض همتي للحديث مغالطات رئيسكم بوش المتكررة في تعليقه على نتائج استطلاعات الرأي عندكم، التي أفادت أن الغالبية العظمى منكم يرغبون بسحب القوات من العراق، ولكنه اعترض على هذه الرغبة وقال إن سحب القوات يعطي رسالة خاطئة للخصوم وإنه من

(٢٢) المرجع السابق صفحة ١٩٤.

(٢٣) المرجع السابق صفحة ١٨٣ *Through Our Enemy Eyes* . صفحة ٦٦.

الأفضل أن نقاتلهم على أرضهم خيرًا من أن يقاتلونا على أرضنا». ولعل هذه التلميحات ـ في حديث بوش ـ قد أثارت حفيظة أسامة من دون شك على الرغم من أن الحديث موجّه بوضوح إلى جماهير الشعب الأمريكي السياسي. وقال أسامة مستطردًا:

«وعودًا على ذي بدء، أقول: إن نتيجة الاستطلاع ترضي العقلاء وإن اعتراض بوش عليها مغلوط، والواقع يشهد أن الحرب ضدّ أمريكا وحلفائها لم تبق محصورة في العراق كما يزعم، بل أصبحت العراق نقطة جذب وتجديد للطاقات المؤهلة. ومن جهة أخرى استطاع المجاهدون بفضل الله أن يخترقوا جميع الإجراءات الأمنية التي تتخذها دول التحالف الظالمة، مرة بعد أخرى، والدليل على ذلك ما رأيتم من تفجيرات في عواصم أهم الدول الأوروبية في هذا التحالف العدواني».

وبعد ذلك أعلن أسامة عن إنذار بقوله:

«وأما تأخّر وقوع عمليات مشابهة في أمريكا لم يكن بسبب تعذر اختراق إجراءاتكم الأمنية، فالعمليات تحت الإعداد وسترونها في عقر داركم حال الانتهاء منها بإذن الله».

وبعدها، قال أسامة عن نفسه:

«أقسمت لا أموت إلا حرّا...

وإن وجدت الموت طعمًا مرّا...

أخاف أن أُذل أو أُغرا»[٢٤]

صمت أسامة بعد هذا الخطاب عن الحديث لفترة طويلة، وفي الذكرى السادسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، بثت مؤسسة السحاب الإعلامية التابعة لتنظيم القاعدة شريطًا مصورًا جديدًا لأسامة بن لادن، ظهر فيه مرتديًا عباءة صفراء، وكان يقرأ رسالة سياسية أمام كاميرا ثابتة. وعلى الرغم من أن التصوير لم يكن واضحًا، فإن عينيه بدتا منتفختين إلى حدّ ما، ولم يكن ذلك بالشيء الغريب على رجل في

---

(٢٤) كل الاستشهادات من مراقبة البي بي سي المرجع السابق.

الخمسين من عمره ويعيش حياةً متقشفةً لا شك في أنها تموج بالتوتر والضغوط العصبية. وقد عكست طلته اللافتة للنظر أمام الشاشات خيلاءه الذي لم يتردّد قط في إظهاره كما لو كان في منتصف العمر. وفي هذا الشريط المصور، قصّر أسامة لحيته الطويلة عن آخر فيديو ظهر فيه وحلقها على شكل دائري وصبغ شعر لحيته الأبيض فبدا أسود اللون.

واشتمل خطاب أسامة هذه المرة على انتقادات مناهضة للأمريكيين تارة أخرى ولكن من دون التطرق إلى ديانتهم بصورة مباشرة وكان الأمر مختلفًا عن الخطاب السابق. فقد أثنى فيه على عالم اللغويات الأمريكي والمفكر السياسي اليساري النشط، نعوم تشومسكي، والمحلل السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية، مايكل شوير، الذي كرّس حياته المهنية ذات مرة لقتل أسامة. وقد مدحهما بن لادن لأن كليهما شجب في مؤلّفَيْن من مؤلّفاتهما اللذين نشرهما مؤخرًا الضغوط الإمبريالية التي تمارسها السياسة الخارجية الأمريكية بسبب عالم المال والأعمال. ومن الواضح أن أسامة كان يختبئ على أغلب الظن في باكستان أو بالقرب منها، أو في أي مكان آخر أُتيح فيه بيع الكتب الإنكليزية أو استعارتها. ويبدو أنه كان يقضي وقتًا طويلًا في قراءة الكتب بالإنكليزية ودعم ممارسته للغة التي تعلمها أول مرة على يد معلمين من إيرلندا وبريطانيا في مدرسة الثغر النموذجية. ولقد بدا من الرسالة التي أرسلها في الشريط المصور أنه ـ كعادته ـ كان يشاهد الأخبار باللغة الإنكليزية ويقرأ كثيرًا في الصحف والمجلات. وكان واضحًا أيضًا حنقه الشديد على الإعلام الغربي، حيث قال عنه إنه دائمًا أسوأ «من إعلام النظم السياسية الدكتاتورية التي تسير في ركب رأس النظام»، وبهذا اتفق مع كثير من اليساريين الغربيين في آرائهم.

وعندما كان أسامة يتابع التلفزيون الأمريكي أو البريطاني في ملاذه الذي انعزل فيه عن العالم الخارجي، كان من الواضح أنه لم يكن يستطيع مقاومة شيطان الغرور والإعجاب بنفسه والإطراء عليها. فربما كان بعض وسائل الإعلام يشوه صورته، ولكن بعضها الآخر كان يصوره على أنه أحد أقوى الرموز السياسية وأكثرها نفوذًا في كل ربوع الأرض. وبوقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وما تلاها من أحداث، أصبح أسامة بن لادن يرى نفسه صاحب هذا الحدث المميز والاستثنائي واليد التي تنفذ

مشيئة الله. ولربما كانت أمريكا «القوة الاقتصادية العظمى» و«الدولة الأقوى تأثيرًا في سياسات العالم أجمع»، إلا أن أسامة استطاع تحقيق المستحيل بالاستعانة بتسعة عشر شابًّا، وهم الطيارون والحراس الذين نفّذوا العملية الانتحارية، وبذلك «غيّر اتجاه بوصلة العالم»(٢٥).

هكذا عاش أسامة بن لادن في منفاه الثاني؛ رجلًا على شفا الموت، يتوقع أن يلقاه في أي ثانية، على الرغم من صغر سنه النسبي، قلقًا على ذكراه التي سيتركها إذا عاش لفترة أخرى وجيزة. وكانت خطاباته سياسية وتحمل بين طياتها مدلولات دينية تقليدية، ولكنّ الأبيات الشعرية التي وردت بين ثنايا رسائله بدت وكأنها ترسم ملامح سمعته التي سينالها بعد أن يقضي نحبه أو على الأقل ستؤثر فيها. ومنذ البداية لم يكن أسامة يحمل جواز سفر ساري المعقول، وكان يتحدّث بلهجة سعودية مع أنه حُرم من هويته السعودية التي كانت تحق له، بل كان هو من حرم نفسه منها. وأغلب الظن، كان أسامة يعيش في مكان ما في غرب باكستان على الأقل لفترة، ولم يكن في هذه المنطقة حكومة بالمعنى المتعارَف عليه. وفي ظلّ هذا الوضع الذي لا يخضع لأي سلطة وطنية، قرر بن لادن أن يظهر في تسجيلاته المصورة بالفيديو بملابس وعصا يتكئ عليها تعكس نسيج شخصيته المكوّن من ثلاثة خيوط متداخلة، كما يراها: فالعباءات الرسمية تدل على كونه شيخًا، والبندقية الهجومية تشير إلى كونه مجاهدًا عصريًّا، وأخيرًا يعكس الخنجر التقليدي أصوله الحضرمية.

وقبل قرن مضى كان ضباط الاستعمار البريطاني يلاقون صعوبة في إدراك أسباب شتات الحضرميين في جميع أنحاء العالم، ذلك الشتات الذي بزغ منه فجر عائلة بن لادن وخرج من بين أضلعها ولدها أسامة صعب المراس. ولم يستطع موظفو تعداد السكان في العالم تحديد تعداد المواطنين الحضرميين لمراوغتهم لهم بشبكاتهم المستقلة التي لم تستقر في مكان واحد، بل أذهلتهم بشتاتها في الاتجاهات كافة وعلى كل الرقع السياسية دونما اعتبار للحدود التي أقرّ بها راسمو الخرائط من المستعمرين

(٢٥) كل الاستشهادات من تفريغ نصي لقناة إيه بي سي نيوز الأخبارية: abcnews.go.com/images/Politics/tran-script2.pdf.

وحددوها. وقد حدد أسامة ملامح حياته كهارب سياسي عقب وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول في منطقةٍ تتّسم بملامح هروبه السياسي نفسها؛ منطقة جبلية جرداء نائية لا يقطنها إلا شعوب البشتون (الأفغان) التي تعيش في قبائل والتي لم تتمكن جيوش الاستعمار البريطاني أو خلفاؤهم الباكستانيون والأمريكيون من غزوها أو كسر شوكتها. ويشير تاريخ كل من عاش منزويًا عن الآخرين في منطقة البشتون الباكستانية إلى أن أسامة سيتعرض للخيانة في نهاية المطاف على يد أحد المواطنين الذين نزل في عقر دارهم. بينما يؤكد أسامة مرارًا وتكرارًا في كل مرة يُبث فيها أحد شرائطه المصورة أو السمعية على شاشات الجزيرة أو السي أن أن على الحصانة التي ما زال يتمتع بها وقدرته الدائمة على التخطيط للإرهاب والعنف ونشرهما على نطاق واسع باستفادته من قنوات التكامل العالمي وروح الجماعة، وكأنه (أسامة) قرصان من البربر يتمتع بخبرات تسويقية.

ملحق الصور

محمد بن لادن في موقع بناء في الصحراء في منتصف ستينيات القرن العشرين.

حصن بن لادن الموروث عن الأجداد في اليمن.

مكاتب شركة بن لادن ومواقع العمل التي كان يديرها المهندسون والعمال الذين ينتمون إلى بلدان مختلفة.

أفراد من عائلة بن لادن في أثناء رحلة إلى السويد عام ١٩٧١م، ولم يكن أسامة من بينهم، كما ذكرت عدة مصادر قريبة من العائلة.

سالم بن لادن، أكبر أبناء محمد بن لادن، وهو في مدرسة إعدادية إنكليزية مع صديق الطفولة محمد بيرغن الذي كان معروفًا بلقب الفيل الصغير.

منزل محمد بن لادن في القدس الشرقية والذي اشتراه خلال ستينيات القرن العشرين، ثم استولى عليه ملاك إسرائيليون لاحقًا بعد حرب عام ١٩٦٧م.

صالح بن لادن وشيرلي كتام، في مدرسة كويكر في لبنان خلال السبعينيات.

سالم وطفله الأول، الطفلة سارة، في عام ١٩٧٥.

سالم وهو يتزلج خلال الثمانينيات.
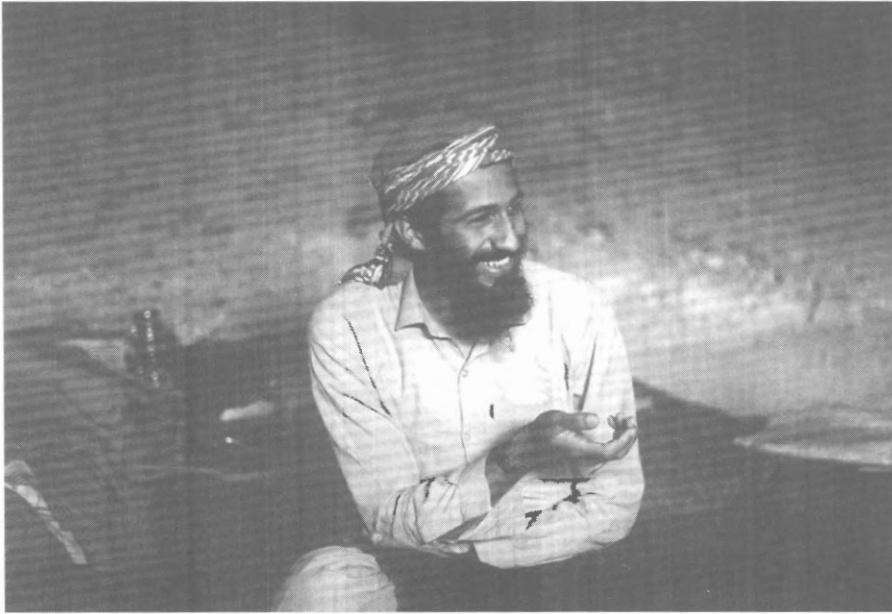
أسامة بن لادن، في صورة غير مؤرخة من أفغانستان، قبل أن تشيب لحيته.

من اليسار: سارة بن لادن، ابنة سالم، وزوجة سالم الثانية التي تُدعى كارولين كاري، وابنه سلمان، وسالم نفسه، وأخت محمد بيرغن، ومحمد بيرغن، وعروس محمد بيرغن، التي تُدعى مارجريتا.

حفل شهر العسل، وإلى أقصى اليمين يوجد جيرالد أورباخ، الطيار الذي عمل لدى العائلة منذ وقت طويل.

يحيى بن لادن وسالم بكر بن لادن وأخ مجهول، في أواخر الثمانينيات.

أبوحفص المصري، ومحمد أسامة بن لادن، وأسامة بن لادن، معًا في أفغانستان في أثناء زواج محمد في ٢٠٠١.

سالم خالد بن لادن، وهو أحد أفراد الجيل الثالث في العائلة، والتُقطت الصورة له في مسابقة للفروسية في مصر عام ٢٠٠٥م.

يسلم بن لادن الذي انتقل ليعيش في جنيف وأصبح بعدها مواطنًا سويسريًا وافتتح متجرًا لبيع المستلزمات المختلفة، وأطلق خطوط إنتاج جديدة للعطور والملابس العصرية باهظة الثمن.

شكـر وتقديـر

أود أن أعبّر عن شكري وامتناني لعدد كبير من الأصدقاء والمعارف والغرباء من أصحاب الأيادي البيضاء ممن ساعدوني في بحثي لإخراج هذا الكتاب إلى النور، وإنني ـ بادئ ذي بدء ـ لمدين لكثير من الأشخاص الذين وافقوا على المشاركة في إجراء المقابلات وإعادتها مرارًا وتكرارًا.

ففي المملكة العربية السعودية، أدين بالشكر والتقدير بصفة خاصة للصحفية فايزة أمبا، وحاتم محمد، وعادل الطُّريفي. وقد استقبلت بحفاوة بالغة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ومن دون مقابل، باعتباري زميلًا لفريق العمل في فترة أوائل عام ٢٠٠٥م، فتحية شكر وتقدير للدكتور يحيى محمود بن جُنيد، وسيد جميل، وعوض البادي، وقد ساعدني الأمير تركي الفيصل بفضله وكرمه في التواصل مع المركز وفريق عمله. ولا يفوتني أيضًا أن أتقدّم بالشكر إلى بول دريش وإنجسينغ هو، اللذين ألهماني بملحوظاتهما حول تاريخ شتات الحضرميين وعلاقتهم بالإمبراطوريات العالمية. وقد ساعدني فهد السماري الذي يعمل في مؤسسة الملك عبد العزيز على الاطّلاع على سجلات الصحف القديمة والتواصل مع أخصائيي البحث، ويا لها من مساعدة نفيسة ساعدتني في إعداد البحث. أما إرين إل. إدي، فقدّمت إلي قدرًا كبيرًا من المساعدة في جدة لا يمكن إغفال أهميتها.

وفي اليمن استضافني عبد القادر علي الهلال، محافظ حضرموت بحفاوةٍ شديدة لم يسبق لها مثيل، وأدين بالتقدير إلى علوي بن سُميط، وعلي مندانيج، وميغان غودفيلو، وتوماس كراجيسكي على دعمهم لبحثي هناك.

إضافةً إلى ما سبق، أتوجه بالشكر والتقدير إلى روبين شالمان وجولي تات، وأربعة من الباحثين الذين عملوا معي لبعض الوقت وشاركوا بمجهود مشرِّف في نجاح الكتاب على مدار الثلاث سنوات التي استغرقها تأليفه. وفي ألمانيا أدين لبترا كريشوك للإصرار على منحي سجلات قيّمة من أرشيف وزارة الخارجية. وفي لندن أعادت جيتا دانشجو إجراء المقابلات مع أجانب وقدّمت أبحاثًا أخرى ذات قيمة. وفي الولايات المتحدة الأمريكية أجرى كيتش هاجي مقابلات شخصية بصبر وأناة وأعد لها جيدًا، وصار نتاجها المصادر التي استندت إليها في تأليف الفصل السادس والثلاثين. وترجم لي محمد المنشاوي بمهارة مصادر قيمة استعنت بها في تأليف الكتاب، في أثناء سفره إلى مصر.

وأتقدم بالشكر أيضًا إلى سولين ميلر، وسامي سوكول، وإيملي إكلاند، وإليكسندرا كول، وإما كول، وسينثيا زييس، وفيكتوريا غرين، على مهاراتهم البحثية والتنظيمية التي كانت خير عون لي.

وممن استفدت كثيرًا من دعمهم اللامحدود وثقافتهم واطلاعهم المميز الذي كان منبع أفكاري: بروس هوفمان، وكيم كراجين، ودانيال بايمان، ومارثا كرينشاو، وروهان غاناراتنا، ونادية عويدات، وسارة دالي، وهيثر كريج، وآنا كاسوبسكي التي كانت عضوًا في فريق عمل مؤسسة «راند كوربوريشن» في دراسة «تاريخ القاعدة القديم» التي شاركت فيها مؤقتًا لأغراض بحثية. وكان عمل آنا كاسوبسكي في الموضوعات المتعلقة بالمسائل المالية ذا قيمة بالغة. وقدّم دان بنيامين وستيفن سيمون في نطاق بحثي آخر مقالاتٍ مفيدة للغاية.

وكما هو مُوضّح في الحواشي السفلية في نهاية كل صفحة في الكتاب، كانت مقالات بيتر بيرغن الصحافية وعلمه الغزير مصدرًا أساسيًّا انتهلت منه كثيرًا في تأليف هذا الكتاب؛ فمقالاته الكثيرة، وكتابه «أسامة بن لادن الذي أعرفه» الذي يحكي فيه تاريخ أسامة، كانا بمنزلة أساسٍ لأي بحث ذي مصداقية دار حول تطور القاعدة وسيرة أسامة، وإنني لأقر بامتناني الشديد لصداقته ومعرفته الثرية أيضًا. ومن المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها أيضًا، وغيري من المؤلفين الآخرين، كتاب «البروج

المشيدة: القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر» الذي ألف نسخته الإنكليزية الأصلية زميلي لورانس رايت الذي كان يعمل معي في مجلة «نيويوركر». وقد ساعدني كل من بيتر ولاري كثيرًا في قراءة مسودة الكتاب وتصحيح ما ورد فيه من أخطاء والتعليق عليه بملحوظاتهم المفيدة.

ولا ينبغي أن أنسى فضل الكاتب مايكل دوبس عليّ؛ إذ غيّر وجه البحث الذي أعددته بين دفتي هذا الكتاب، وذلك بتوجيهي إلى أرشيف وزارة الخارجية الأمريكية المودع بدار الوثائق الوطنية بمدينة كوليدج بارك. وقد أثمرت الأسابيع التي قضيتها هناك عن فوائد جمة بصحبة فريق عمل بارع.

وقد استغرق الصحافي غلين فرانكل وقتًا طويلًا في قراءة مسودة الكتاب المبدئية وتنقيحها، وقدّم إليّ تعليقاتٍ ثمينة عليها. وساعدني أيضًا زملاءٌ كانوا يعملون معي في «واشنطن بوست»، منهم فيل بينيت وديفيد هوفمان ولين دوني وبوب قيصر وأنتوني شديد، ساعدوني في توجيه محاور تركيزي لدى تأليف الكتاب. وللصحافي ديفيد فينكل ـ في الصحيفة نفسها ـ كل الشكر والحب والتقدير مني.

ولا يفوتني أن أشكر زملائي وزميلاتي في «نيويوركر» ممن شُرِّفت بالعمل معهم، وأخصّ بالذكر: ديفيد ريمنيك، وجيف فرانك، ودوروثي ويكيندن، وبام ماكارثي، وجيفري غولدبيرغ، وجان ماير، وأليكسندر دراير، وآني لوري، وفيرجينيا كانون، ورافي خاتشادوريان، وناندي رودريغو، وسكوت ستيتن، وتيم فارينغتون، وأليسون هوفمان، ومايك بيد، وليلا بيوك.

وكان من بين من رحبوا بي وألهبوا فيّ حماسة العمل والتقدم في مؤسسة «نيو أميركا فاونديشن»: جيم فَلوس، وتيد هولستيد، وستيف كليمونس، وآن ماري سلوتر، وبيرنارد شوارتز، وإريك شميد، وشيرلي شوينغر، وراي بوشارا، وسيمون فرانك، وراشيل وايت، ومايا ماكغوينس، ولين نيكولاس، ومايكل دانينبيرغ، وديفيد غراي، وتروي شنيدر.

وقد حالفني الحظ كثيرًا لاشتراك آن غودوف في نشر الكتاب،

وللعاملين أيضًا في دار بانغوين بريس كل الشكر والتقدير، وأخص بالذكر: تراسي لوك، وليزا دارنتون، وليندساي والين، وهول فيسيندن. وكان سيمون ويندر ممن قدموا إليّ مساعداتٍ كبيرة في دار بانغوين في المملكة المتحدة. وللمحرر جون جوسينو مني كل الشكر والتقدير. ولا أنكر فضل ميلاني جاكسون عليّ، فقد كانت وكيلة النشر التي عملت معي لما يربو عن عشرين عامًا، ولا يمكنني أن أتخيّل ألا أكمل حياتي المهنية وهي بصحبتي.

وأخيرًا، من المنح التي وهبها إياي هذا العمل البحثي تلك الفرصة التي سمحت لي بأن أفكر مليًّا في تكوين العائلات المنتشرة في جميع أنحاء العالم، ولكم أفادني دعم عائلة كول (كل من انتهى اسمهم باللقب كول) وتوجيه سوزان لي في هذا الأمر.

المراجع

Books

ABBAS, HAMAD. *Story of the Great Expansion.* Jeddah: Saudi Bin Ladin Group, 1996.

ALFADL, SALEH S., ed. *The National Industries Directory.* Jeddah: Jeddah Chamber of Commerce and Industry, 1988.

ALGOSAIBI, GHAZI A. *Arabian Essays.* London: Kegan Paul, 1982.

ALIREZA, MARIANNE. *At the Drop of a Veil*: The True Story of an American Woman's Years in a Saudi Harem. Costa Mesa: Blind Owl Press, 2002.

AMIRAHMADI, HOOSHANG, AND NADER ENTESSAR, eds. *Reconstruction and Regional Diplomacy in the Persian Gulf.* London: Routledge, 1992.

ASAD, MUHAMMAD. *The Message of the Quran* (six volumes). Bristol: The Book Foundation, 2003.

ASLAN, REZA. *No God but God: The Origins, Evolution and Future of Islam.* New York: Random House, 2005.

BADEEB, SAEED M. *The Saudi-Egyptian Conflict over North Yemen, 1962-1970* Boulder, CO: Westview Press, 1986.

BAER, ROBERT. *Sleeping with the Devil: How Washington Sold Our Soul for Saudi Crude.* New York: Crown Publishers, 2003.

AL-BARRAK, HOMOUD A., ed. *Commercial and Industrial Directory for the States of the Gulf Cooperation Council.* Riyadh: Dar Al-Mathhar for Publishing and Advertising, 1988.

BEATY, JONATHAN, AND S. C. GWYNE. *The Outlaw Bank: A Wild Ride into the Secret Heart of BCCI.* New York: Random House, 1993.

BELING, WILLARD A., ed. *King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia.* Boulder, CO: Westview Press, 1980.

BENJAMIN, DANIEL, AND STEVEN SIMON. *The Age of Sacred Terror.* New York: Random House, 2002.

BENT, THEODORE, AND MRS. THEODORE BENT. *Southern Arabia.* London: Smith, Elder & Co., 1900.

BERGEN, PETER L. *The Osama Bin Laden I Know: An Oral History of AlQaeda's Leader.* New York: The Free Press, 2006.

______. *Holy; War, Inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden.* New York: The Free Press, 2001.

BIDWELL, R. L., AND G. R. SMITH, eds. *Arabian and Islamic Studies.* London: Longman Group Limited, 1983.

BIN LADIN, CARMEN. *Inside the Kingdom: My Lift in Saudi Arabia.* New York: Warner Books, 2004.

BLANDFORD, LINDA. *Super-Wealth: The Secret Lives of the Oil Sheikhs.* New York: William Morrow, 1977.

BRADLEY, JOHN R. *Saudi Arabia Exposed.* New York: Palgrave Macmillan, 2005.

BRINKLEY, JOEL, AND STEPHEN ENGELBERG, eds. *Report of the Congressional Committees Investigating the Iran-Contra Affair, with the Minority View.* New York: Times Books, 1988.

BRIODY, DAN. *The Iron Triangle.* New York: John Wiley & Sons, 2003.

BRONSON, RACHEL. *Thicker Than Oil.. America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia.* New York: Oxford University press, 2006.

BURCKHARDT, J. L. *Travels* in *Arabia.* London: Henry Colburn, 1829. Reprinted by Frank Cass and Co. Ltd., 1968.

BURTON, SIR RICHARD F. *Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah.* Toronto: Dover, 1893, 1964.

CARTER, J. R. L. *Merchant Families of Saudi Arabia.* London: Scorpion Publications,1984.

CAUDILL, MARK R. *Twilight in the Kingdom.* Westport, CT: Praeger Security International, 2006.

CLARKE, RICHARD A. *Against All Enemies.* New York: The Free Press, 2004.

COLL, STEVE. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September, 10, 2001.* New York: Penguin Press, 2004.

DAWISHA, ADEED, ed. *Islam in Foreign Policy.* Cambridge: Cambridge University Press, 1983.

DEGAURY, GERALD. *Arabia Phoenix.* London: Kegan Paul, 1946, 2001.

AL-DIN, NABIL SHARAF. *Bin Laden: The Taliban, the Arab Afghans and the Fundamentalist Internationale.* Cairo: Maktabat Madbuli, 2002.

FANDY, MAMOUN. *Saudi Arabia and the Politics of Dissent.* New York: Palgrave Macmillan, 2001.

FIELD, MICHAEL. *Inside the Arab World.* London: John Murray, 1994.

______. *The Merchants: The Big Business Families of Saudi Arabia and the Gulf States.* Woodstock, NY: Overlook Press, 1985.

______. *A Hundred Million Dollars a Day.* London: Sidgwick and Jackson, 1975.

FINNIE, RICHARD. *Bechtel in Arab Lands.* San Francisco: Bechtel Corporation, 1958.

GAUHAR, ALTAF, ed. *The Challenge of Islam.* London: Islamic Council of Europe,1976.

GERGES, FAWAZ A. *The Far Enemy: Why Jihad Went Global.* Cambridge: Cambridge University Press, 2005.

GLASSE, CYRIL. *The New Encyclopedia of Islam.* New York: AltaMira Press, 2002.

GROS, MARCEL. *Feisal of Arabia.* London: EMGE-Sepix, 1981.

HAFIZ, FAISAL A., AND SAMIR A. MURSHID, eds. *Who's Who in Saudi Arabia* 1983-1984. Jeddah: Tihama, 1984.

HALEEM, M. A. S. ABDEL, *Thel Qu'ran.* Oxford: Oxford University Press, 2004.

HAMMOUDI, ABDELLAH. *A Season in Mecca.* (Pascale Ghazaleh, tr.) New York: Hill and Wang, 2006.

HANSEN, ERIC. *Motoring with Mohammed: Journeys to Yemen and the Red Sea.* New York: Vintage Books, 1992.

HECKMAN, WOLF. *Haifressen keine Deutschen (Sharks Don't Eat Germans).* Munich: F. A. Herbig Verlagsbuchhandlung, 1982.

HOLDEN, DAVID, AND RICHARD JOHNS. *The House of Saud: The Rise and Rule of the Most Powerful Dynasty in the Arab World.* New York: Holt, Rinehart and Winston,1981.

HOURANI, ALBERT. *A History of the Arab Peoples.* London: Faber and Faber, 1992.

HOWARTH, DAVID. *The Desert King: A Lift of Ibn Saud.* Beirut: Librairie du Liban, 1964.

INGRAMS, DOREEN. *A Time in Arabia.* London: John Murray, 1970.

IZZARD, MOLLY. *Freya Stark: A Biography.* London: Hodder & Stoughton, 1993.

______. *The Gulf: Arabia's Western Approaches.* London: John Murray, 1979.

KECHICHIAN, JOSEPH A. *Succession in Saudi Arabia.* New York: Palgrave Macmillan, 2001.

KOSTINER, JOSEPH. *The Making of Saudi Arabia, 1916-1936: From Chieftaincy to Monarchical State.* New York: Oxford University Press, 1993.

LACY, ROBERT. *The Kingdom: Arabia and the House of Saud.* New York: Avon, 1981.

LAWRENCE, BRUCE, ed. *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden.* London: Verso, 2005.

LAWRENCE, T. E. *Seven Pillars of Wisdom.* New York: Anchor Books, 1926, 1991.

LIPPMAN, THOMAS W *Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia.* Boulder, CO: Westview Press, 2004.

LONG, DAVID E. *The Kingdom of Saudi Arabia.* Gainesville, FL: University Press of Florida, 1997.

MACK, JOHN E. *A Prince of Disorder.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.

MACKEY, SANDRA. *The Saudis: Inside the Desert Kingdom.* New York: W. W. Norton, 1987, 2002.

MACKINTOSH-SMITH, TIM. *Yemen: The Unknown Arabia.* New York: Overlook Press, 2000.

MANNAN, MOHAMMED ABDUL, ed. *Jeddah Commercial Directory*. Jeddah: Arab Circle Corporation, 1991, 1993.

NUSEIBEH, SAID, AND OLEG GRABAR. *The Dome of the Rock*. London: Thames and Hudson, date unknown.

PETERS, F. E. *The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

______. Jerusalem. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985.

PHILLIPS, KEVIN. *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush*. New York: Penguin Books, 2004.

PRYCE-JONES, DAVID. *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*. Chicago: Ivan R. Dee, 2002.

RANDAL, JONATHAN. *Osama: The Making of a Terrorist*. New York: Alfred A. Knopf, 2004.

RASHEED, MADAWI. *A History of Saudi Arabia*. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

RISEN, JAMES. *State of War: The Secret History of the CIA and the Bush Administration*. New York: The Free Press, 2006.

RODENGEN, JEFFREY L. *The Legend of York International*. Fort Lauderdale, FL: Write Stuff Syndicate, 1997.

RUTHVEN, MALISE. *Fundamentalism: The Search for Meaning*. Oxford: Oxford University Press, 2004.

SADAT, ANWAR. *Those I Have Known*. London: Jonathan Cape, 1985.

SARHAN, SAMIR M. *Who's Who in Saudi Arabia 1976-1977*.Jeddah: Tihama, 1977.

SCHEUER, MICHAEL (as «Anonymous»). *Through Our Enemies' Eyes: Osama bin Laden, Radical Islam and the Future of America*. Washington, D.C.: Brasseys, 2002.

AL-SHAMMARY, MOHAMMED MUFARAH, ed. *Top 1000 Saudi Companies*. Al Khobar: International Information and Trading Services, 1990.

SHEEAN, VINCENT. *Faisal: The King and His Kingdom*. Tavistock, England: University Press of Arabia, 1975.

SIMPSON, WILLIAM. *The Prince*. New York: Regan Books, 2006.

STARK, FREYA. *The Southern: Gates of Arabia: A Journey in the Hadhramaut*. London: John Murray, 1936.

STEFOFF, REBECCA. *Faisal*. New York: Chelsea House, 1989.

SURTEES, LAWRENCE. *Pa Bell*. Toronto: Random House of Canada, 1992.

SUSKIND, RON. *The One Percent Doctrine: Deep Inside America's Pursuit of Its Enemies Since 9/11*. New York: Simon & Schuster, 2006.

TEITELBAUM, JOSHUA. *Holier Than Thou: Saudi Arabia's Islamic Opposition*. Washington, D.C.:Washington Institute for Near East Policy, 2000.

THEROUX, PETER. *Sandstorms: Days and Nights in Arabia*. New York: W. W. Norton, 1990.

THOMAS, LOWELL. *With Lawrence in Arabia*. London: Prion, 2002.

TOAIMI, SALEH, ed. *Saudi Arabia Trade Directory* 1981 Jeddah: Council of Saudi Chambers of Commerce, 1981.

TROFIMOV, YAROSLAV. *Faith at War: A: Journey on the Frontlines of Islam, from Baghdad to Timbuktu*. New York: Henry Holt and Co., 2005.

UNGER, CRAIG. *House of Bush, House of Saud: The Secret Relationship Between the World's Two Most Powerful Dynasties*. New York: Scribner, 2004.

VAN DER MEULEN, D. *The Wells of Ibn Saud*. New York: Frederick A. Praeger, 1957.

______. *Aden to the Hadhramaut: A Journey in South Arabia*. London: John Murray, 1947.

______. *Hadramaut: Some of Its Mysteries Unveiled*. Leiden, Netherlands: E. J. Brill Ltd., 1932.

Vink, Steven. *Daniel van der Meulen in Arabia Felix*. Amsterdam: Royal Tropical Institute, 2003.

WALLER, MARTIN, ed. *International Interior Design Review*. London: Andrew Martin International, 1998.

WOODWARD, BOB. *Veil: The Secret Wars of the CIA*. New York: Simon & Schuster, 1987.

WRIGHT, LAWRENCE. *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11*. New York: Alfred A. Knopf, 2006.

YAMANI, MAI. *Cradle of Islam: The Hijaz and the Quest for an Arabian Identity*. London: I. B. Tauris, 2004.

YOUNG, ARTHUR N. *Saudi Arabia: The Making of a Financial Giant*. New York: New York University Press, 1983.

AL-ZAYYAT, MONTASSER. *The Road to Al-Qaeda: The Story of Bin Laden's Right-Hand Man*. London: Pluto press, 2004

Documents

BURDETT, A. L. P., ed. *Records of Saudi Arabia, 1966-1971, volumes 1 and 2*. London: Archive Editions, 2004.

COMBATING TERRORISM CENTER, UNITED STATES MILITARY ACADEMY: Selected Al Qaeda-related documents obtained during U.S. military battlefield operations in Afghanistan and elsewhere, translated and archived in the U.S. government's Harmony database, 2005-2006.

INGRAMS, DOREEN, AND LEILA INGRAMS, eds. *Records of Yemen, 1798-1960, volumes 3-9*. London: Archive Editions, 1993.

INGRAMS, W H. *A Report on the Social, Economic and Political Condition of the Hadhramaut*. London: Colonial Office, 1936.

JARMAN, ROBERT L., ed. *The: Jedda Diaries, 1919-1940*, volumes I-IV, collected British government documents from the Jedda legation. London: Archive Editions, 1990.

KORNBLUH, PETER, ed. *The Iran-Contra Affair: The Making of a Scandal, 1983-1988*, National Security Archive document set, George Washington University.

«The 9/11 COMMISSION REPORT: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States,» July 2004. Washington, D.C.: Government Printing Office.

PROCEEDINGS OF THE EARLY HISTORY OF AL QAEDA WORKING GROUP, 2006-2007, Rand Corporation; Bruce Hoffman and Kim Cragin, co-directors; Daniel Byman, Martha Crenshaw, Peter Bergen, Lawrence Wright, Rohan Gunaratna, Nadia Oweidat, Sara Daly, Heather Gregg, Ann Kasupski, researchers and presenters.

RECORDS OF THE DEPARTMENT OF STATE, U.S. National Archives and Records Administration, College Park, Maryland.

RECORDS OF THE FEDERAL FOREIGN OFFICE, Federal Republic of Germany (West Germany), Berlin.

RECORDS OF THE FOREIGN OFFICE (later Foreign and Commonwealth Office), National Archives, Kew, Richmond, United Kingdom.

ROTH, JOHN, AND DOUGLAS GREENBURG, AND SERENA WILLE, «Monograph on Terrorist Financing,» staff report to the commission, National Commission on Terrorist Attacks upon the United States (the 9/11 Commission).

RONALD REAGAN PRESIDENTIAL LIBRARY, National Archives and Records Administration, Simi Valley, California.

Periodicals, Manuscripts

«ALANGARI, ABDULRAHMAN BIN MOHAMMED. «Mantaqat Qasr Alhgokm: The Development of the 20th Century,» Conference on the Kingdom of Saudi Arabia, collected proceedings, January 1999: 237-336.

ALIREZA, MARIANNE. «The Late King Faisal: His Life, Personality and Methods of Government,» Conference on the Kingdom of Saudi Arabia, collected proceedings, January 1999: 201-236.

AMIDHAR, ALI H. «International Succession Laws: Saudi Arabia,» *Society of Trust and Estate Practioners*, issue 6, September 2004.

ARMITAGE, H. ST.J. B. «King Abdul Aziz and the English Connection: Captain William Shakespear and His Successors,» Conference on the Kingdom of Saudi Arabia, collected proceedings, January 1999: 525-560.

BERGEN, PETER, AND PAUL CRUICKSHANK, «How the Idea of Al Qaeda Was Conceived,» Rand Corporation, 2006.

BINLADEN, ABDULLAH M. «Western Banking Practices and Shari'a Law in Saudi Arabia» Cambridge, MA: Harvard University master's dissertation, 1992.

______. «Negotiability of Financial Instruments in Contemporary Financial Markets: An Islamic Legal Analysis,» Cambridge, MA: Harvard University doctoral dissertation, 2000.

BLIGH, ALEXANDER. «The Interplay Between Opposition Activity and Recent Trends in the Arab World,» in *Arabian Peninsula: Zone of Ferment*. Stanford, CA: Hoover Press Publication 287, 1984: 65-79.

CAUDILL, MARK A. *Twilight in the Hejaz: Dispatches from Western Arabia* (draft manuscript).

CORDESMAN, ANTHONY H., AND NAWAF OBAD. «Al Qaeda in Saudi Arabia: Asymmetric Threats and Islamist Extremists.» Center for Strategic and International Studies, working draft: January 6, 2005.

DYAKOV, NIKOLAY N. «Arabia at the Turn of a New Age: Documents from the Historical Archives of St. Petersburg.» Conference on the Kingdom of Saudi Arabia: 100 Years, collected proceedings. January 1999: 99-127.

FREEMAN, ROBERT. *The Saudi Connection* (unpublished manuscript).

GAUSE, F. GREGORY, III. «Be Careful What You Wish For: The Future of U.S.-Saudi Relations,» *World Policy :Journal*, volume 19, issue I, April 1, 2002: 37-50.

______ . «Saudi Arabia over a Barrel,» *Foreign Affairs;* May-June, 2000: 80 ff.

______ . «The Middle East at a Crossroads,» *Washington Quarterly*, volume 20, no. I, Winter 1997: 143 ff.

______ . «Yemeni Unity: past, and Future,» *Middle East Journal*, vol. 42, no. 1, Winter 1988: 33-47.

______ . «The Idea of Yemeni Unity,» *Journal of Arab Affairs*, volume 6, no. 1, Spring 1987: 55-81.

______ «British and American Policies in the Persian Gulf, 1968-1973,» *Review of International Studies*, vol. II, no. 4, October 1985: 74/247.

GUNARATNA, ROHAN. «Al Qaeda: Its Organizational Strengths and Weaknesses with a Special Focus on the Pre-I996 Phase,» Rand Corporation, 2006.

Ho, ENGSENG. «Empire Through Diasporic Eyes: A View from the Other Boat,» *Comparative Studies in Society and History*, vol. 46, no. 2, April, 2004: 210-246.

KATZ, MARK N. «U.S.- Yemen Relations and the War on Terror: A Portrait of Yemeni President Ali Abdullah Salih.» *Terrorism Monitor, Jamestown* Foundation, volume II, issue 7, April 8, 2004: 7-9.

NASH, GEOFFREY P. «King Abdul Aziz ibn Saud and Amin al-Rihani: Some Notes on Al Rihani's Anglo-American Diplomacy,» Conference on the Kingdom of Saudi Arabia: 100 Years, collected proceedings, January 1999: 377-400.

NOVIKOV, EVGENII. «The Soviet Roots of Isalmic Militancy in Yemen.» *Terrorism/ Monitor;* Jamestown Foundation, volume II, issue 7, April 8, 2004: 5-7

PLATE, W. «Geographical and Historical Remarks on the Province of Hadrarnaut.» *Original Papers Read Before the Syro-Egyptian Society of London*, volume 1, part 1, 1845.

AL-SALEH, FADIA SAUD. «Travels to Arabia During the Reign of King Abdul Aziz,» Conference on the Kingdom of Saudi Arabia, collected proceedings, January 1999: 337-376.

ULPH, STEPHEN. «Shifting Sands: Al Qaeda and Tribal Gun-Running Along the Yemeni Frontier.» *Terrorism Monitor, Jamestown* Foundation, volume II, issue 7, April 8, 2004: 9-11.

WATKINS, ERIC. «Landscape of Shifting Alliances,» *Terrorism Monitor;* Jamestown Foundation, volume II, issue 7, April 8, 2004: 3-5.

ZDANOWKI, JERZI. King Abdulaziz in the Reports of the American Missionaries (1901-1921), Conference on the Kingdom of Saudi Arabia: 100 Years, collected pro-January 1999: 129-144.

Court Documents

Ali Khan Musarrat v. America in Motion Corp., Superior Court of California, Los Angeles County, C728912.

America in Motion Corp. v. Magnum Aircraft International, Superior Court of California, Los Angeles County, NWS043648.

America in Motion Corp. v. Ron R. Goldie, Superior Court of California, Los Angeles County, WEC13994.

America in Motion Corp. v. Steven McKim et al., Superior Court of California, Los Angeles County, C724395.

American Builder Association v. Khalil Binladin, Superior Court of California, Los Angeles County, WEC120274.

Ashton v. al Qaeda Islamic Army, United States District Court, Southern District of New York, 02Civ6977.

Bank of Beverly Hilts v. Swiss American Financial, Superior Court of California, Los Angeles County, C685851.

Bank of California v. Alexander Cappello et al., Superior Court of California, Los Angeles County, C751115.

Barrera v. al Qaeda Islamic Army, United States District Court, Southern District of New York, 03Civ7036.

Binladen BSB Landscaping v. M. V. Nedloyd, 82 Civ. 1037 F. 2d 1006, 1012 (2d Cir. 1985).

Board of Managers of Flagship Wharf v. Sayeh, Suffolk Superior Court, Commonwealth of Massachusetts, SUCV1999-02657.

Burnett v. Al Baraka Inv. &- Dev. Corp; United States District Court, Southern District of New York, 02Civ1616.

______, 03Civ5738.

Burnett Cos. Consolidated v. Jim Bath, Harris County Courts, Texas, 98-706743.

Carmen Bin Ladin v. Ibrahim Mohammed Bin Ledin, Superior Court of California, Los Angeles County, BC212648.

Charles White v: Skyways Aircraft Leasing, Harris County Courts, Texas,.90-53147.

Christine Binladin v. Ibrahim Binladin, Superior Court of California, Los Angeles County, BD058156.

Christine Hartunian v. Prestige Homes, Inc., Superior Court of California, Los Angeles County, SC055776.

Dallas County v. Kabeltan Corp; Dallas County Courts, Texas, 92-32136.

Ducharme v. Hunnewell, Supreme Judicial Court of Massachusetts, Norfolk, 411 Mass. 711; 585 N.E. 2d 321, 1992.

Federal Insurance v. Al Qaeda, United States District Court, Southern District of New York, 03Civ6978.

Franklin Frisaura v. Regina Frisaura, Orange County Courts, Florida, DR97-3754.

Frederic L. Nason v. Kabelton Corp; Superior Court of California, Los Angeles County, BC205378.

FSB Partner v. Khalil Binladin, Superior Court of California, Los Angeles County, LC000160.

Houston Independent School District v. Salha Binladen, Harris County Courts, Texas, 85-19835.

Ian Munro et al. v. the Dee Howard Co., Bexar County Courts, Texas, 91-CI-00928.

Ibrahim Bin Ladin et al. v. Paul Andrew Richley, Superior Court of California, Los Angeles County, WEC112956.

In Re: Estate of Salem Binladen, Deceased, Bexar County Courts, Texas, 91-PC-1012.

In Re: Franklin B. Frisaura, 97-9831, Chapter 7 bankruptcy proceeding, United States Federal Court, Central District of Florida.

In Re: Terrorist Attacks on September 11, United States District Court, Southern District of New York, 03 MDL 1570.

Isabel Binladin v. Elizabeth Borges, Superior Court of California, Los Angeles County, SC003124.

James R. Bath v. Charles W (Bill) White, Harris County Courts, Texas, 89-42551.

James R. Bath v. Kim Frumkin, Harris County Courts, Texas, 99-36377-

John L. Laughlin et al. v. William E. King et al., Harris County Courts, Texas, 01-44577.

Judicial Watch v. Department of Homeland Security & Federal Bureau of Investigation, 04-1643 (RWR) Washington, D.C.

Justin Baldwin et al. v. Alexander Cappello et al., Superior Court of California, Los Angeles County, C658270.

Khalil Binladin v. American Builder Association, Superior Court of California, Los Angeles County, C663911.

______, SC002982.

Lansdowne Financial Services Ltd. v. Binladen Telecommunications Company Ltd., State of New York, 95 *A.D.* 2d 711; 463 N.Y.S. 2d 826; 1983.

Larson v. Macro International et al., United States District Court, Eastern District of Virginia (Newport News) 4:96-cv-oolol-JCC.

Mary Ellen Lewis v. James R. Bath, Harris County Courts, Texas, 89-01780A.

Mouldi H. Sayeh v. Atlantic Bank and Trust Company, Suffolk Superior Court, Commonwealth of Massachusetts, 98-2532.

Petronella and Yarborough v. Charles W (Bill) White, Harris County Courts, Texas, 99-724391.

Raida Binladin v. Morris Ziff Superior Court of California, Los Angeles County, C645771.

Resolution Trust Corp. v. Express Park, Inc., Harris County Courts, Texas, 91-63093.

Salvo v. al Qaeda Islamic Army, United States District Court, Southern District of New York, 03Civ5071.

Sandra C. *Bath v. James R. Bath*, Harris County Courts, Texas, 89-07180.

Sparks Sandbach Kimberly v Isabel Bayma, Superior Court of California, Los Angeles County, WEC080333.

Tremsky v. Osama bin Laden, United States District Court, Southern District of New York, 02Civ7300.

United States of America v. Enaam Arnout, United States District Court, Northern District of Illinois, 02-CR-892.

United States of America v. Oliver L. North, United States District Court, District of Columbia, 88-0080-02.

United States of America v. Soliman S. *Biheiri*, United States District Court, Eastern District of Virginia, Alexandria Division, 03-365-A.

United States of America v. Usama bin Laden et al., United States District Court, Southern District of New York, S 98 Cr. 539.

Vigilant Insurance v. Kingdom of Saudi Arabia, United States District Court, Southern District of New York, 03Civ8591.

Films and Television

Abdulaziz, King Abdulaziz Foundation, 1999.

Death of a Principle, Panorama for BBC, 1996.

House of Saud, The, Algeria Productions, 2004.

House of Saud, coproduced by Martin Smith and Chris Durrance for *Frontline, 2005*.

Hunting Bin Laden, produced and directed by Martin Smith for *Frontline, 2001*.

In the Footsteps of Osama Bin Laden, Peter Bergen and Christiane Amanpour for CNN, 2006.

Meeting Osama Bin Laden, Brook Lapping Productions for WGBH Boston, 2004.

Sur Les Traces de Ben Laden, Christophe Brule for M6, 2005.